

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الاعراف

هي مكية الا ثمان ايات وهي قوله واسئلهم عن القرية الى قوله واذ نتقنا الجبل فوقهم قاله ابن عباس وابن الزبير وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقال قتادة اية من الاعراف مدنية وهي واسألهم عن القرية وسائرها مكية وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرؤها في المغرب يفرقها في الركعتين واياتها مائتان وست ايات

بسم الله الرحمن الرحيم

المص قال ابن عباس معناه انا الله افصل وعنه ان هذا ونحوه من فواتح السور قسم اقسم الله به وهي اسم من اسماء الله تعالى وقال السدي هو المصور وقال محمد بن كعب القرظي هو الله الرحمن الصمد وقال الضحاك انا الله الصادق وقيل غير ذلك ولا يخفى عليك ان هذا كله قول بالظن وتفسير بالحدس ولا حجة في شيء من ذلك والحق ما قدمناه في فاتحة سورة البقرة والله اعلم بمراده وهو سر في كتابه العزيز كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ اي هو كتاب وقال الكسائي اي هذا كتاب يعني القرآن اي القدر الذي كان قد نزل منه وقت نزول هذه الآية فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ الحرج الضيق اي ضيق من ابلاغه الى الناس مخافة ان يكذبوك ويؤذوك فان الله

حافظك وناصرك وقيل المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك فانما
عليك البلاغ وقال مجاهد وقتادة الحرج هنا الشك لان الشاك ضيق الصدر اي لا تشك
في انه منزل من عند الله وعلى هذا يكون النهي له صلعم من باب التعريض والمراد امته اي لا يشك
احد منهم في ذلك والضمير في منه راجع الى الكتاب فعلى الاول التقدير من ابلاغه وعلى الثاني
التقدير من انزاله لِتُنذِرَ بِهِ اي لتنذر الناس بالكتاب الذي انزلناه اليك وهو متعلق بانزل
اي انزل اليك لانذارك الناس به او متعلق بالنهي لان انتفاء الشك في كونه منزلا من عند الله
او انتفاء الخوف من قومه يقويه على الانذار ويشجعه لان المتيقن يقدم على بصيرة ويباشر بقوة
نفس وصاحب اليقين جسور متوكل على ربه وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ قال البصريون وذكر به ذكرى
اي المعنى للانذار وللذكرى وقال ابو اسحاق الزجاج وهو ذكرى وتخصيصه بالمؤمنين لانهم الذين ينجع
فيهم ذلك وفيه اشارة الى تخصيص الانذار بالكافرين اتَّبِعُوا كلام مستانف خوطب به كافة
المكلفين مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ يعني الكتاب ومثله السنة لقوله وما آتاكم الرسول فخذوه وما
نهاكم عنه فانتهوا ونحوها من الآيات قاله الزجاج وهو امر للنبي صلعم ولامته وقيل هو امر للامة
بعد امره صلعم بالتبليغ وهو منزل اليهم بواسطة انزاله الى النبي صلعم قال الرازي قوله ما انزل اليكم
يتناول الكتاب والسنة بمعنى انه خطاب للكل وقال الحسن يا ابن آدم امرت باتباع كتاب الله
وسنة محمد صلعم والله ما نزلت آية الا ويجب ان تعلم فيما انزلت وما معناها وقيل هو خطاب
للكفار اي اتبعوا ايها المشركون بما انزل اليكم من ربكم واتركوا ما انتم عليه من الكفر والشرك
ويدل عليه قوله وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ والاول اولى وهو نهي للامة ان يتبعوا اولياء
من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله من الشياطين والكهان وقال الزمخشري لا تتولوا
احدا من شياطين الانس والجن ليحملوكم على الاهواء والبدع فالضمير في دونه يرجع الى رب ويجوز
ان يرجع الى ما في ما انزل اليكم اي لا تتبعوا من دون كتاب الله وسنة رسوله صلعم اولياء
تقلدونهم في دينكم كما كان يفعله اهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه
عليهم وقرء مالك بن دينار ولا تبتغوا من الابتغاء قال الرازي هذه الآية تدل على ان تخصيص
عموم القرآن بالقياس لا يجوز لان عموم القرآن منزل من عند الله تعالى والله تعالى اوجب متابعته فوجب العمل

بعموم القرآن ولما وجب العمل به امتنع العمل بالقياس والا لزم التناقض انتهى والبحث في ذلك
يطول وله موضع غير هذا قليلاً ما مزيد للتوكيد اي تذكرا قليلا او زمانا قليلا تذكرون ثم
شرع الله في انذارهم بما حصل للامم الماضية بسبب اعراضهم عن الحق فقال وكم من قرية كم
هي الخبرية المفيدة للتكثير ولم ترد في القرآن الا هكذا ويجب لها الصدر لكونها على صورة الاستفهام
والقرية موضع اجتماع الناس اي كم من قرية من القرى الكثيرة اهلكناها نفسها باهلاك اهلها
او اهلكنا اهلها والمراد اردنا اهلاكها وقوله فجاءها بأسنا معطوف على اهلكنا بتقدير الارادة
كما مر لان ترتيب مجيء البأس على الاهلاك لا يصح الا بهذا التقدير اذ الاهلاك هو نفس مجيء البأس
وقال الفراء ان الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير والمعنى اهلكناها وجاءها بأسنا والواو لمطلق
الجمع لا ترتيب فيها وقيل ان الاهلاك واقع لبعض اهل القرية فيكون المعنى وكم من قرية اهلكنا
بعض اهلها فجاءها بأسنا فاهلكنا الجميع وقيل المعنى وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا
وقيل اهلكناها بارسال ملائكة العذاب اليها فجاءها بأسنا والبأس العذاب وحكي عن الفراء
انه اذا كان معنى الفعلين واحدا او كالواحد قدمت ايهما شئت فيكون المعنى وكم من قرية جاءها
بأسنا فاهلكناها مثل دنى فقرب وقرب فدنى بياتا اي ليلا لان البيات فيه يقال بات يبيت
بيتا وبياتا اي بائتين او هم قائلون اي قائلين واو في هذا الموضع للتفصيل لا للشك كانه قيل
اتاهم بأسنا تارة ليلا كقوم لوط وتارة وقت القيلولة كقوم شعيب وهل يحتاج الى تقدير واو حال
قبل هذه الجملة ام لا خلاف بين النحويين فقدره بعضهم ورجحه الزجاج وبه قال ابو بكر و
القيلولة هي نوم نصف النهار وقيل هي مجرد الاستراحة في ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم
وخص الوقتين لانهما وقت السكون والدعة فمجيء العذاب فيهما اشد وافظع وازجر واردع عن الاغترار
باسباب الامن والراحة والمعنى جاءها عذابنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم نائمون او نهارا وهم
قائلون وقت الظهيرة اي جاءهم البأس على غير تقدم امارة لهم على وقت نزوله وفيه وعيد وتخويف
للكفار كانه قيل لهم لا تغتروا باسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة
فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين الدعوى الدعاء اي فما كان دعاؤهم
واستغاثتهم بربهم عند نزول العذاب الا اعترافهم بالظلم على انفسهم ومثله آخر دعواهم وقيل

الدعوى هنا بمعنى الادعاء والمعنى ما كان يدعونه لدينهم وينتحلونه الا اعترافهم ببطلانه وفساده قال سيبويه تقول العرب اللهم اشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله دعواهم فيها سبحانك اللهم فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هذا وعيد شديد وبيان لعذابهم الاخروي اثر بيان عذابهم الدنيوي خير انه قد تعرض لبيان مبادي احوال المكلفين جميعا لكونه داخلا في التهويل والسوال المقوم الذين ارسل اليهم الرسل من الامم السالفة للتقريع والتوبيخ واللام للقسم اي لنسألنهم عما اجابوا به رسلهم عند دعوتهم والفاء لترتيب الاحوال الاخروية على الاحوال الدنيوية وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ اي الانبياء الذين بعثهم الله اي يسألهم عما اجاب به اممهم عليهم ومن اطاع منهم ومن عصى وقيل المعنى فلنسألن الذين ارسل اليهم يعني الانبياء ولنسألن المرسلين يعني الملائكة قال ابن عباس يسأل الله الناس عما اجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا عنه ونحوه عن السدي فلا يعارض هذا قوله سبحانه ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لما قدمنا غير مرة ان في الآخرة مواطن ففي موطن يسألون وفي موطن لا يسألون وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بان اثبت تارة ونفى اخرى بالنسبة الى يوم القيامة فانه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ اي على الرسل والمرسل اليهم لما سكتوا ما وقع بينهم عند الدعوة لهم منهم بِعِلْمٍ لا بجهل اي عالمين بما يسرون وما يعلنون وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ عن ابلاغ الرسل والامم الخالية في حال من الاحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم وما عملوا قال ابن عباس يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ اي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه او المعنى الوزن العدل كائن او استقر في هذا اليوم واختلف اهل العلم في كيفية هذا الوزن فقيل المراد به وزن صحائف اعمال العباد بالميزان وزنا حقيقيا وهذا هو الصحيح وهو الذي قامت عليه الادلة وقيل توزن نفس الاعمال وان كانت اعراضا فان الله يقلبها يوم القيامة اجساما كما جاء في الخبر الصحيح ان البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كانهما غمامتان او غيايتان او فرقان من طير صواف وكذلك ثبت في الصحيح انه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك وقيل الميزان الكتاب الذي فيه اعمال الخلق وقيل ان الموزون هو نفس الاشخاص العاملين وقيل الوزن والميزان بمعنى العدل

والقضاء وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام في وزن هذا قاله مجاهد
وقال الزجاج هذا شائع من جهة اللسان والاولى ان يتبع ما جاء في الاسانيد الصحاح من ذكر
الميزان قال القشيري وقد احسن الزجاج فيما قال ولا يحمل الصراط على الدين الحق والجنة
والنار على ما يرد على الارواح دون الاجساد وعلى الشياطين والجن وعلى الاخلاق المذمومة
والملائكة على القوى المحمودة ثم قال وقد اجمعت الامة في الصدر الاول على الاخذ بهذه
الظواهر من غير تاويل واذا اجمعوا على منع التاويل وجب الاخذ بالظاهر وصارت هذه
الظواهر نصوصا انتهى والحق هو القول الاول واما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها
فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع اليه بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات
العقلية وليس في ذلك حجة لاحد فهذا اذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي اقوى
من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ما شاء
وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاؤوا باحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ويتحد قبولهم لها
بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ويوافق ما يذهب اليه هو ومن هو تابع له فتتناقض
عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم يعرف هذا كل منصف ومن انكره فليصف فهمه
وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب فانه ان فعل ذلك اسفر الصبح لعينيه وقد ورد ذكر
الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا
وقوله فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في
جهنم خالدون وقوله ان الله لا يظلم مثقال ذرة وقوله واما من خفت موازينه فامه هاوية والاحاديث
في هذا الباب كثيرة جدا مذكورة في كتب السنة المطهرة وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرهما
فلا يلتفت الى تاويل احد وتحريفه مع قول الله تعالى ورسوله الصادق المصدوق والصباح
يغني عن المصباح ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالحسنات فضلا من الله الفاء للتفصيل والموازين جمع
ميزان وثقل الموازين هكذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الاعمال وقيل ان الموازين جمع
موزون اي فمن رجحت اعماله الموزونة والاولى الاول وظاهر جمع الموازين المضافة الى العامل ان لكل واحد من العاملين موازين
يوزن بكل واحد منها صنف من اعماله وقيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال خرج فلان عن مكة

على الغالب وقيل انما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا
باجتماع ذلك كله فأولئك اشارة الى من والجمع باعتبار معناه كما رجع اليه ضمير موازينه باعتبار
لفظه هم المفلحون اي الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه ومثل الكلام في قوله ومن خفت
بالسيئات جعل لا موازينه والمراد موازين اعماله وهم الكفار بدليل قوله فأولئك الذين خسروا
انفسهم اي غبنوا حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته والباء في بما كانوا سببية بآياتنا يظلمون
اي يكذبون ويجحدون وقد اخرج احمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه
والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلعم يصاح برجل من امتي على رؤوس الخلائق
يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيقول اتنكر من هذا شيئا أظلمك
كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر او حسنة فيهاب الرجل فيقول لا يا رب فيقول
بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله واشهد
ان محمدا عبده ورسوله فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال انك لا تظلم فتوضع
السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وقد صححه ايضا الترمذي
واسناد احمد حسن ولنعم ما قيل شعر مهما تفكرت في ذنوبي + خفت على قلبي احتراقه +
لكنه ينطفي لهيبي + بذكر ما جاء في البطاقة + ولقد مكناكم في الارض اي جعلنا لكم فيها مكانا
واقدرناكم على التصرف فيها وقيل والمراد من التمكين التمليك وجعلنا لكم فيها معايش اي هيأنا
لكم فيها اسباب المعاش والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطعوم والمشروب وما تكون به
الحياة وفي القاموس العيش الحياة وايضا الطعام وما يعاش به والخبز والمتعيش من له بلغة من العيش
وقال الزجاج المعيشة ما يتوصلون به الى العيش وهو يعم جميع وجوه المنافع التي تحصل بها الارزاق من
الزرع والثمار وما يحصل من المكاسب والارباح في انواع التجارات والصنائع وكل ذلك بتمكينه سبحانه
لعباده وانعامه عليهم قليلا ما تشكرون الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا وحقيقة الشكر تصور
النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها ولقد خلقناكم ثم صورناكم هذا ذكر نعمة
اخرى عظيمة من نعم الله تعالى على عبيده والمعنى خلقناكم نطفا ثم صورناكم بعد ذلك بالتخطيط وشق الحواس
وقيل المعنى خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم في ظهره ذكره بلفظ الجمع لانه ابو البشر ثم صوركم راجع اليه

على البغال وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا
باجتماع ذلك كله فأولئك اشارة الى من والجمع باعتبار معناه كما ان رجع اليه ضمير موازينه باعتبار
لفظه هم المفلحون اي الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه ومثل الكلام في قوله ومن خفت
بالسيئات غدا لا موازينه والمراد موازين اعماله وهم الكفار بدليل قوله فأولئك الذين خسروا
انفسهم اي غبنوا حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته والباء في بما كانوا سببية بآياتنا يظلمون
اي يكذبون ويجحدونها اخرج احمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه
والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلعم يصاح برجل من امتي على رؤس الخلائق
يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيقول اتنكر من هذا شيئا اظلمك
كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر او حسنة فيهاب الرجل فيقول لا يا رب فيقول
بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله واشهد
ان محمدا عبده ورسوله فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال انك لا تظلم فتوضع
السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وقد صححه ايضا الترمذي
واسنادا احمد حسن ولنعم ما قيل شعر مهما تفكرت في ذنوبي + خفت على قلبي احتراقه +
لكنه ينطفي لهيبي + بذكر ما جاء في البطاقه + ولقد مكناكم في الارض اي جعلنا لكم فيها مكانا
وأقدرناكم على التصرف فيها وقيل المراد من التمكين التمليك وجعلنا لكم فيها معايش اي هيأنا
لكم فيها اسباب المعاش والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطعوم والمشروب وما تكون به
الحياة وفي القاموس العيش الحياة وايضا الطعام وما يعاش به والخبز والمتعيش من له بلغة من العيش
وقال الزجاج المعيشة ما يتوصلون به الى العيش وهو يعم جميع وجوه المنافع التي تحصل بها الارزاق من
الزرع والثمار وما يحصل من المكاسب والارباح في انواع التجارات والصنائع وكل ذلك من تمكينه سبحانه
لعباده وانعامه عليهم قليلا ما تشكرون الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا وحقيقة الشكر تصور
النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها ولقد خلقناكم ثم صورناكم هذا ذكر نعمة
اخرى عظيمة من نعم الله تعالى على عبيده والمعنى خلقناكم نطفا ثم صورناكم بعد ذلك بالتخطيط وشق الحواس
وقيل المعنى خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم في ظهره ذكره بلفظ الجمع لانه ابو البشر ثم هو وكم راجع اليه

ويدل عليه قوله تعالى ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فان ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير
يفيد ان المخلوق المصور آدم عليه السلام وقال ابن عباس خلقوا في اصلاب الرجال وصوروا
في ارحام النساء وعنه قال خلقوا في ظهر آدم وصوروا في الارحام وعنه ايضاً اما خلقناكم فآدم
واما صورناكم فذريته وقال الاخفش ثم بمعنى الواو وقيل المعنى خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم
حين اخذنا عليكم الميثاق قال النحاس وهذا احسن الاقوال قال ابو السعود وانما نسب الخلق
والتصوير الى المخاطبين مع ان المراد خلق آدم وتصويره اعطاء لمقام الامتنان حقه وتأكيداً
لوجوب الشكر عليهم بالرمز الى ان لهم حظاً من خلقه وتصويره لانهما من الامور السارية الى ذريته
جميعاً وقال القاري نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم لانه ابو البشر وقيل
المعنى ولقد خلقنا الارواح اولاً ثم صورنا الاشباح ثم تراخي بعد اكمال خلقه وفي السمين اختلف
الناس في ثم في هذين الموضعين فمنهم من لم يلتزم فيها ترتيباً وجعلها بمنزلة الواو ومنهم من
قال هي للترتيب في الاخبار لا في الزمان ولا طائل تحت هذا ومنهم من قال هي للترتيب الزماني
وهذا هو موضوعها الاصلي ومنهم من قال الاولى للترتيب الزماني والثانية للترتيب الاخباري انتهى
قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ اي امرناهم بذلك فامتثلوا الامر فَسَجَدُوا اي فعلوا السجود بعد
الامر قبل دخول الجنة وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال الى العصر واول من سجد جبريل
ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون إِلَّا إِبْلِيسَ قيل الاستثناء متصل بتغليب
الملائكة على ابليس لانه كان منفرداً بينهم او كما قيل ان من الملائكة جنساً يقال لهم الجن وقيل غير ذلك
وقد تقدم تحقيقه في البقرة لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ومن
جعل الاستثناء منقطعاً قال معناه لكن ابليس لم يكن من الساجدين لآدم عليه السلام قَالَ
مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ جملة مستانفة كأنه قيل فماذا قال له الله ولا زائدة للتوكيد
بدليل قوله تعالى في سورة ص ما منعك ان تسجد قاله الكسائي والفراء والزجاج وقيل ان منع
بمعنى قال والتقدير من قال لك ان لا تسجد قاله احمد بن يحيى حكاه الواحدي وحكاه ابو بكر عن
الفراء وقيل منع بمعنى دعى اي ما دعاك الى ان لا تسجد قاله القاضي حكاه الرازي وقيل في الكلام
حذف والتقدير ما منعك من الطاعة واحوجك الى ان لا تسجد وقت ان امرتك قاله الطبري

وقد استدل به على أن الأمر للفور والبحث مقرر في علم الأصول والاستفهام في ما منعك
للتقريع والتوبيخ وإلا فهو سبحانه عالم بذلك وقال هنا ما منعك وفي سورة الحجر قال يا إبليس ما لك
أن لا تكون مع الساجدين وقال في سورة ص أن تسجد لما خلقت بيدي واختلاف العبارات
عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر و
مفارقة الجماعة والاستكبار مع تحقير آدم وقد وبخ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند
الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا
في سورة البقرة والإسراء والكهف وطه قال إبليس أنا خير منه إنما قال هذا ولم يقل منعني
كذا لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه
والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود
لمثله ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله خلقتني من نار وخلقته من طين اعتقادا منه أن
عنصر النار أفضل من عنصر الطين لأنها جسم نوراني وقد أخطأ عدو الله فإن عنصر الطين
أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه وطول بقائه وفيه الأناة والصبر والحلم و
الحياء والتثبت والنار خفيفة مضطربة سريعة النفاذ وفيها الطيش والارتفاع والحدة ومع
هذا فهو موجود في الجنة دونها وهي عذاب دونه وهو محتاج إليه ليتحيز فيه وهو مسجد
وطهور والتراب عدة الممالك والنار عدة المهالك والنار مظنة الخيانة والإفناء والطين
مئنة الأمانة والإنماء والطين يطفئ النار ويتلفها والنار لا تتلفه وهذه فضائل غفل عنها
اللعين حتى زل بفاسد من القياس قال النسفي والقياس مردود عند وجود النص وقياس
إبليس عناد للأمر المنصوص خارج عن الصواب انتهى ولولا سبق شقاوته وصدق كلمة الله
عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة فعنصرهم النوري أشرف من عنصره
الناري عن عكرمة قال خلق إبليس من نار العزة وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت قال
رسول الله صلعم خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار وخلق آدم مما وصف لكم وقال ابن
سيرين ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذي قاسه إبليس أنه رأى النار
أفضل من الطين وأقوى ولم يدر أن الفضل ليس بالأصل والجوهر بل بالطاعة وقبول الأمر فالموص

الحبشي خير من الكافر القرشي وقد خص الله آدم بأشياء لم يخص بها غيره وهو انه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وعلمه اسماء كل شيء واورثه الاجتباء والتوبة والهداية الى غير ذلك للعناية التي سبقت له في القدم واورث ابليس كبره اللعنة والطرد للشقاوة التي سبقت له في الازل وقال الحسن في الآية اول من قاس ابليس واسناده صحيح الى الحسن اخرجه ابن جرير وعن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده ان رسول الله صلعم قال اول من قاس امر الدين برأيه ابليس قال الله له اسجد لآدم فقال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال جعفر فمن قاس امر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بابليس لانه اتبعه بالقياس وينبغي ان ينظر في اسناد هذا الحديث فما اظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة قال فاهبط منها جملة استينافية كالتي قبلها والفاء لترتيب الامر بالهبوط على مخالفته للامر اي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما امرهم الى الارض التي هي مقر من يعصي ويطيع فان السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصي امر ربه مثلك وقيل اهبط من الجنة والهبوط النزول والانحدار من فوق الى اسفل على سبيل القهر والهوان والاستخفاف ومن التفاسير الباطلة ما قيل ان معنى اهبط منها اي اخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها الى صورة مظلمة مشوهة وقيل المراد هبوطه من زمرة الملائكة فما يكون لك ان تتكبر فيها اي في الجنة لانه لا ينبغي ان يسكن في الجنة او في السماء متكبر مخالف لامر الله عز وجل ولا يتوهم انه يجوز ان يتكبر في غيرها لان التقدير ما يكون لك ان تتكبر فيها ولا في غيرها وعلى هذا لا مفهوم لها وجملة فاخرج لتاكيد الامر بالهبوط متفرع على علته وجملة انك من الصاغرين تعليل للامر بالخروج اي انك من اهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحي عباده يذمك كل انسان ويلعنك كل لسان لتكبرك وبه علم ان الصغار لازم للاستكبار فكل من تردى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ومن لبس رداء التواضع البسه الله رداء الترفع قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه الله بالصغار والذلة والصغار بالفتح الذل والضيم وكذا الصغر والصاغر الذليل والراضي بالضيم قال انظرني الى يوم يبعثون جملة استينافية اي امهلني الى يوم البعث وكانه طلب ان لا يموت لان يوم البعث لا موت بعده والضمير في يبعثون لآدم وذريته اي يبعثون من قبورهم بالنفخة الثانية عند قيام الساعة قال اي اجابه الله

بقوله إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ اي الممهلين المؤخرين ثم تعاقب بما قضاه الله عليك واثرله بك في دركات النار وقد بيّن الله مدة النظر والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى حين يموت الخلق كلهم قيل الحكمة في انظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي الجملة مستانفة والباء للسببية وبه قال الزمخشري وقيل قسمية وهو الظاهر كقوله فبعزتك لاغوينهم اجمعين اي فباغوائك اياي والاغواء الايقاع في الغي وقيل الباء بمعنى مع والمعنى فمع اغوائك اياي وقيل ما في فبما اغويتني للاستفهام والمعنى فباي شيء اغويتني والاول اولى ومراده بهذا الاغواء الذي جعله سببا لما سيفعله مع العباد وهو ترك السجود منه وان ذلك كان باغواء الله له حتى اختار الضلالة على الهدى وقيل اراد به اللعنة التي لعنه الله بها اي فبما لعنتني فاهلكتني ومنه فسوف يلقون غيا اي هلاكا وقال ابن الاعرابي يقال غوى الرجل يغوي غيا اذا فسد عليه امره اوفسد هو في نفسه ومنه وعصى آدم ربه فغوى اي فسد عيشه في الجنة وغرض اللعين بهذا اخذ ثاره منهم لانه لما طرد ومقت بسببهم على ما تقدم احب ان ينتقم منهم اخذا بالثار لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ اي لاجهدن في اغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسبب تركي السجود لابيهم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ هو الطريق الموصل الى الجنة وقال ابن عباس طريق مكة يعني امنعهم من الهجرة وعن ابن مسعود مثله وقيل هو طريق الاسلام وقيل المراد الحج والاول اولى لانه يعم الجميع والمعنى لاردن بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولاغوينهم ولاضلنهم ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ذكر الجهات الاربع لانها هي التي ياتي منها العدو عدوه ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت وعدى الفعل الى الجهتين الاوليين بمن والى الاخريين بعن لان الغالب فيمن ياتي من قدام وخلف ان يكون متوجها الى ما ياتيه بكلية بدنه والغالب فيمن ياتي من جهة اليمين والشمال ان يكون منحرفا فناسب في الاوليين التعدية بحرف الابتداء وفي الاخريين التعدية بحرف المجاوزة وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن ياتي حقيقة وفيه اشارة الى نوع تباعد منه في هاتين الجهتين لقعود ملك اليمين وملك اليسار فيهما وهو ينفر من الملائكة وقيل المراد من بين ايديهم من دنياهم ومن خلفهم من آخرتهم وعن ايمانهم من جهة حسناتهم

وعن شمائلهم من جهة سيئاتهم واستحسنه النحاس قال ابن عباس اسن لهم المعاصي واخف عليهم الباطل وعنه قال من بين ايديهم من قبل الآخرة فاشككهم فيها ومن خلفهم من قبل الدنيا فارغبهم فيها وعن ايمانهم اشبه عليهم امر دينهم وعن شمائلهم اشهي لهم المعاصي وقال الحكم بن عتيبة من بين ايديهم اي من قبل الدنيا فازينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاثبطهم عنها وعن ايمانهم من قبل الحق فاصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فازينه لهم قال قتادة اتاك ابليس يا ابن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك لم يستطع ان يحول بينك وبين رحمة الله تعالى ونحوه عن ابن عباس ولفظه ولا يستطيع ان يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى قيل ولا يأتي ايضا من تحتهم اما لانه متكبر يحب العلو واما لان الاتيان منها ينفر ويفرح الماتي وهو يحب تاليفه لا تنفيره فلا يأتي الا من الجهات الاربع قال مجاهد يأتيهم من الجهات الاربع من حيث لا يبصرون وقيل من بين ايديهم فيما بقي من اعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم فيما مضى من اعمارهم فلا يتوبون مما سلفوا فيه من معصية وعن ايمانهم من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشكرون وعن شمائلهم من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور تلوه وعن شقيق البلخي ما من صباح الا قعد لي الشيطان على اربع مراصد من بين يدي فيقول لا تخف فان الله غفور رحيم فاقرأ واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ومن خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي اي وقوع اولادي في الفقر فاقرأ وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وعن يميني فيأتيني من قبل الثناء فاقرأ والعاقبة للمتقين وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون قال النسفي ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة وقيل ان ذكر هذه الجهات الاربع انما اريد به التاكيد والمبالغة في القاء الوسوسة في قلب ابن آدم وانه لا يقصر في ذلك والمعنى يأتيهم من جميع الوجوه الممكنة بجميع الاعتبارات وعنده ان افعل ذلك ﴿لَا تَجِدُ﴾ يا رب ﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ موحدين لتاثير وسوستي فيهم واغوائي لهم و هذا قاله على الظن فاصاب لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى فيهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل انه سمع ذلك من الملائكة فقاله وقيل رآه مكتوبا في اللوح المحفوظ والاول اولى وقيل شاكرين مؤمنين وعبر بالشكر عن الطاعة او هو على حقيقته

وانهم لم يشكروا الله بسبب الاغواء قال اخرج منها اي من السماء او من الجنة او من بين الملائكة كما تقدم وقال له ذلك حين طرده عن بابه وابعده عن جنابه مذؤما من ذامه يذأمه اذا ذمه وعابه ومقته وقيل المذموم المنفي والذام العيب يهمز ولا يهمز وحكى ابن الانباري فيه ذيما قال الليث الذام الاحتقار وقيل الذم قاله ابن قتيبة مدحورا اي مطرودا والدحر الطرد والابعاد يقال دحره يدحره دحرا ودحورا منه ويقذفون من كل جانب دحورا وقال ابن عباس صغيرا ممقوتا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال الكلبي ملوما مقصيا من الجنة ومن كل خير والمعاني متقاربة لمن تبعك بفتح اللام على انها لام القسم وتسمى هذه اللام موطئة لانها وطئت الجواب للقسم المحذوف اي مهدته له وتسمى ايضا المؤذنة لانها تؤذن بان الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط وفيه تغليب الحاضر وهو ابليس على الغائب وهو الناس تبعك منهم اي من بني آدم وجواب القسم لأملأن جهنم منكم اجمعين وقيل اللام الاولى للتاكيد والابتداء وهذه لام القسم والاول اولى وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة قال له هذا القول بعد اخراج ابليس من الجنة او من السماء او من بين الملائكة والمعنى اتخذها مسكنا وتخصيص الخطاب بآدم للايذان باصالته في تلقي الوحي وتعاطي المأمور به واختلفوا في خلق حواء فقال ابن اسحق خلقت قبل دخول آدم الجنة وهو ظاهر هذه الآية وقيل بعد دخول الجنة وقيل الخطاب للمعدوم لوجوده في علم الله فكلا من حيث اي من اي نوع من انواع الجنة شئتما اكله ومثله ما تقدم من قوله تعالى وكلا منها رغدا حيث شئتما وقال ابو السعود حيث ظرف مكان اي فكلا من ثمارها في اي مكان شئتما الاكل فيه وقال هنالك بالواو وهنا بالفاء قال الرازي ان الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بينهما ففي البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع ولا تقربا هذه الشجرة تقدم الكلام على هذا في البقرة مستوفى فتكونا اي فتصيرا من الظالمين لانفسكما اي العاصين لله تعالى فوسوس لهما الشيطان الوسوسة الصوت الخفي وحديث النفس يقال وسوست اليه نفسه وسوسة ووسوسة ووسواسا بكسر الواو والوسوسة بالفتح الاسم مثل الزلزلة والزلزال ويقال لهمس الصائد والكلاب واصوات الحلي وسواس والوسواس اسم الشيطان ومعنى

وسوس له وسوس اليه او فعل الوسوسة لاجله قال الحسن كان يوسوس في الارض الى السماء
والى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له وقال ابو مسلم الاصبهاني بل كان ادم وابليس في
الجنة لان هذه الجنة كانت في الارض وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته ذكره والذي يقوله
بعض الناس ان ابليس دخل في جوف الحية وهي دخلت به الى الجنة فهو قصة ركيكة لِيُبْدِيَ اي
ليظهر لهما اللام العاقبة كما في قوله ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل هي لام كي اي فعل ذلك
ليتعقبه الابدا او لكي يقع الابدا ويصح ان تكون للعلة والغرض لجواز ان يكون ظهور سوآتهما
زيادة على وقوعهما في المعصية مَا وُورِيَ اي ما ستر وغطي فوعل من المواراة عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا
سمي الفرج منها سوأة لان ظهوره وانكشافه يسوء صاحبه ويحزنه اراد الشيطان ان يسوءهما
بظهور ما كان مستورا عنهما من عوراتهما فانهما كانا لا يريان عوراتهما ولا يراها احدهما من الاخر
قيل انما بدت لهما لا لغيرهما اذ كان عليهما نور يمنع من رويتها فلما اصابا الخطية نزع عنهما وفي الاية
دليل على ان كشف العورة من المنكرات المحرمات وانه لم يزل مستقبحا في الطباع والعقول وَقَالَ الشيطان
لادم وحوا مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ اي عن الاكل منها إِلَّا كراهة أَنْ تَكُونَا هكذا قال البصريون
وقال الكوفيون المقدر لئلا تكونا والاستثناء مفرغ وهو مفعول من اجله مَلَكَيْنِ من الملائكة
تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ في الجنة او من الذين لا يموتون
قال ابن عباس فان اخطأكما ان تكونا ملكين لم يخطئكما ان تكونا من الخالدين فلا تموتان
فيها ابدا قال النحاس فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع من القران فمنها هذا ومنها
ولا اقول اني ملك ومنها ولا الملائكة المقربون قال ابن فورك لا حجة في هذه الاية لانه
يحتمل ان يراد ملكين في ان لا يكون لهما شهوة في الطعام وقيل لطول اعمارهم لا لانهم افضل منه
حتى يلتحق بهم في الفضل فذلك بمعزل عن الدلالة على افضلية الملائكة عليه فليس في الاية
دليل عليها وقد اختلف الناس في هذه المسئلة اختلافا كثيرا واطالوا الكلام في غير طائل
وليست هذه المسئلة مما كلفنا الله بعلمه فالكلام فيها لا يعنينا وقرئ مَلِكَين ولم يكن قبل
ادم ملك فيصيرا ملكين وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى هل ادلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى قال ابو عبيد هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها قال

النحاس هذه قراءة شاذة وانكر على ابي عبيد هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش قال وهل يجوز ان يتوهم على آدم عليه السلام انه يصل الى اكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالبين وانما معنى وملك لا يبلى المقام في ملك الجنة والخلود فيه ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ اي حلف لهما يقال اقسم اقساما اي حلف وصيغة المفاعلة وان كانت في الاصل تدل على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك وقد قدمنا تحقيق هذا في المائدة والمراد بها هنا المبالغة في صدور الاقسام لهما من ابليس ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في ذلك قيل انهما اقسما له بالقبول كما اقسم لهما على المناصحة قال قتادة حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال اني خلقت قبلكما وانا اعلم منكما فاتبعاني ارشدكما ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ اي منّاهما والتدلية والادلاء ارسال الشيء من اعلى الى اسفل يقال ادلى دلوه ارسلها والمعنى انه اهبطهما بذلك من الرتبة العلية الى الاكل من الشجرة او من السماء الى الارض وقيل معناه اوقعهما في الهلاك وقيل خدعهما وقيل دلاهما من الدالة وهي الجرأة اي جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ اي طعما ﴿الشَّجَرَةَ بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ اي عوراتهما اي ظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره بسبب زوال ما كان ساترا لها وهو تقلص النور الذي كان عليهما قال ابن عباس تهافت عنهما لباسهما حتى ابصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك وقال قتادة كان لباسهما ظفرا كله فقشط عنهما اي غطاء على الجسد من جنس الاظفار فانزع عنهما وبقيت الاظفار في اليدين والرجلين تذكرة وزينة و انتفاعا وقيل كان من ثياب الجنة وهذا اقرب لان اطلاق اللباس يتبادر فيه وقال مجاهد كان لباسهما التقوى وقد تقدم في البقرة وفيه دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى معرفة طعمه لان الذوق يدل على الاكل اليسير ﴿وَطَفِقَا﴾ طفق يفعل كذا بمعنى شرع يفعل كذا وحكى الاخفش طفق يطفق مثل ضرب يضرب اي شرعا وجعلا واقبلا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل من التين وقيل من الموز قرأ الزهري يخصفان من اخصف وقرأ الجمهور يخصفان من خصف والمعنى انهما اخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها من خصف النعل اذا جعله طبقة فوق طبقة عن عكرمة قال كان لباس كل دابة منها ولباس الانسان الظفر فادركت آدم التوبة عند ظفره وقال ابن عباس كان لباس آدم وحوا كالظفر فلما اكلا من الشجرة لم يبق عليهما الا مثل الظفر وطفقا يخصفان من ورق التين فيجعلانه على سوأتهما وعنه قال لما سكن آدم الجنة كساه

سربالا من الظفر فلما اصاب الخطية سلبه السربال فبقي في اطراف اصابعه وعن انس بن مالك
قال كان لباس ادم في الجنة الياقوت فلما عصى قلص فصار الظفر وقال مجاهد يخصفان يرقعان
كهيئة الثوب وفي الاية دليل على ان كشف العورة من ابن ادم قبيح الا ترى انهما بادرا الى ستر
العورة لما تقرر في عقلهما من قبح كشفها وَنَادٰهُمَا رَبُّهُمَا قائلا لهما أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ
التي نهيتكما عن اكلها وهذا عتاب من الله تعالى لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه
والاستفهام للتقرير وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ اي مظهر للعداوة بترك السجود حسدا
وبغيا كما قال في سورة طه فقلنا يا ادم ان هذا عدو لك ولزوجك الاية قال السدي قال
ادم انه حلف لي بك ولم اكن اعلم ان احدا من خلقك يحلف بك الا صادقا قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا
جملة مستانفة مبنية على تقدير سوال كانه قيل فماذا قالا وهذا اعتراف منهما بالذنب وانهما
ظلما انفسهما بما وقع منهما من المخالفة ثم قالا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا اي تستر علينا ذنبنا وَتَرْحَمْنَا
اي تتفضل علينا برحمتك لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ اي الهالكين قال الحسن هي الكلمات التي
تلقى ادم من ربه وعن الضحاك مثله وقد استدل بهذا على صدور الذنب من الانبياء وقد
تقدم الكلام عليه فيما مضى قَالَ اهْبِطُوا استيناف كالتي قبلها والخطاب لادم وحوى وذريتهما
او لهما ولابليس قاله الرازي وقيل لهم وللحية قاله الطبري وبه قال السدي والمعنى اهبطوا من
السماء الى الارض بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اي متعادين يعاديهما ابليس ويعاديانه وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ اي موضع استقرار وهو المكان الذي يعيش فيه الانسان وقال ابن عباس
يعني القبور وَلكم فيها مَتَاعٌ تتمتعون به في الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما
إِلَىٰ حِينٍ الى وقت موتكم وقيل الى انقطاع الدنيا وقال ابن عباس الى يوم القيامة قَالَ فِيهَا
اي في الارض تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ استيناف كالتي قبلها واعيد القال لايذان ببعد اتصال
ما بعده بما قبله واما لاظهار الاعتناء بمضمون ما بعده وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ الى دار الاخرة ومثله
قوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى قيل الخطاب لادم وذريته
وابليس واولاده وقد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع اليه يَا بَنِي آدَمَ هذا
تذكير ببعض النعم لاجل امتثال ما هو المقصود الاتي بقوله لا يفتننكم لخ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا

عبر سبحانه بالانزال عن الخلق اي خلقنا لكم لباساً وقيل رزقناكم لباساً وقيل انزل المطر من السماء
وهو سبب نبات اللباس فكانه انزله عليهم وقيل جميع بركات الارض تنسب الى السماء والى
الانزال كما قال تعالى وانزلنا الحديد يواري سوآتكم التي اظهرها ابليس حتى اضطررتم الى لزق
الاوراق فانتم مستغنون عن ذلك باللباس وقال مجاهد كان ناس من العرب يطوفون
بالبيت عرياناً والسوءة العورة كما سلف والكلام في قدرها وما يجب ستره منها مبين في
كتب الفروع وريشاً وقرئ رياشاً جمع ريش وهو اللباس قال الفراء ريش ورياش كما يقال
لبس ولباس وريش الطائر ما ستره الله به وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان وقيل المراد
بالريش هنا الخصب ورفاهية العيش قال القرطبي والذي عليه اكثر اهل اللغة ان الريش ما
ستر من لباس او معيشة وعن ابي عبيدة وهبت له دابة وريشها اي ما عليها من اللباس
وقيل المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله لباساً وعطفه عليه قاله الزمخشري
وقال مجاهد والضحاك والسدي ريشاً اي المال وعن عروة بن الزبير مثله وقال ابن عباس
المال واللباس والعيش والنعيم والايمان وقال ابن زيد الريش الجمال وقيل الاثاث وما ظهر مما
يلبس او يفرش ولباس التقوى اي الناشئ عنها او الناشئة عنه والاضافة قريبة من كونها بيانية
اي لباس الورع واتقاء معاصي الله وهو الورع نفسه والخشية من الله تعالى وقيل لباس التقوى
الحياء وقيل الاسلام وقيل العمل الصالح وقيل هو لباس الصوف والخشن من الثياب
لما فيه من التواضع لله وقيل هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله وقيل
هو ستر العورة في الصلوة وقال عثمان هو السمت الحسن وقال الكلبي هو العفاف والاول اولى
وهو يصدق على كل ما فيه تقوى الله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الاقوال ومثل هذه
الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب ذلك اي لباس التقوى هو خير اي خير لباس
واجمل زينة لانه يستر من فضائح الآخرة وقيل الايمان والعمل خير من اللباس والريش
قاله ابن عباس وانشد واثق المصري ۝ اذا انت لم تلبس ثياباً من التقى عريت وان وارى
القميص قميص ذلك اي الانزال المدلول عليه بانزلنا من آيات الله الدالة على ان له
خالقاً لعلهم يذكرون نعمته فيشكرونها وفيه التفات عن الخطاب وكان مقتضى المقام لعلكم

ثم كرر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان فقال يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان اي لا يوقعنكم في الفتنة فالنهي وان كان للشيطان فهو في الحقيقة لبني آدم بان لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا بذلك كما اخرج ابويكم اي كما فتن ابويكم بان اخرجهما من الجنة او مثل اخراج ابويكم او مثل فتنة اخراج ابويكم او اخراجا مثل اخراجه ابويكم ينزع عنهما لباسهما قد تقدم تفسيرها واضاف نزعه الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لانه كان بسبب وسوسته فاسند اليه وصيغة المضارع لاستحضار الصورة التي وقعت فيما مضى والنزع الجذب للشيء بقوة عن مقره ومنه تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر ومنه نزع القوس ويستعمل في الاعراض ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب ونزع فلان كذا اسلبه ومنه والنازعات غرقا لانها تقلع ارواح الكفرة بشدة ومنه المنازعة وهي المخاصمة والنزع عن الشيء الكف عنه والنزوع الاشتياق الشديد ومنه نزع الى وطنه واختلفوا في اللباس فقيل الظفر وقيل النور وقيل التقوى وقيل كان من ثياب الجنة وهذا اقرب لان اطلاق اللباس ينصرف اليه ولان النزع لا يكون الا بعد اللبس ليريهما سوآتهما اللام لام كي وقد تقدم تفسيره ايضا والضمير في انه فيه وجهان الظاهر منهما انه للشيطان والثاني ان يكون ضمير الشأن وبه قال الزمخشري ولا حاجة تدعو الى ذلك يراكم هو وقبيله هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما يتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه لان من كان بهذه المثابة كان عظيم الكيد وكان حقيقا بان يحترس منه ابلغ احتراس والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن او انس قبيل وقيل اعوانه من الشياطين وجنوده وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن زيد قبيل نسله والقبيلة الجماعة من اب واحد فليست القبيلة تانيث القبيل لهذه المغايرة وقيل الجماعة ثلاثة فصاعدا من قوم شتى قاله ابو عبيدة والجمع قبل بضمتين والقبيلة لغة فيه وقبائل الراس القطع المتصل بعضها ببعض وبها سميت قبائل العرب من حيث لا ترونهم اي اذا كانوا على صورهم الاصلية اما اذا تصوروا في غيرها فترونهم كما وقع كثيرا ومن لابتداء الغاية اي رؤيته مبتدأة من مكان لا ترونهم فيه قيل خلق الله في عيون الجن ادراكا يرون به الانس

ولم يخلق هذا في عيون الانس وقالت المعتزلة الوجه في هذا ان اجسام الجن ولطافتها وكثافة اجسام الانس وقد استدل جماعة من اهل العلم بهذه الاية على ان روية الشيطان غير ممكنة وليس في الاية ما يدل على ذلك وغاية ما فيها انه يرانا من حيث لا نراه وليس فيها انا لا نراه ابدا فان انتفاء الروية منا له في وقت رويته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا قال مالك بن دينار ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله وما احسن ما قاله في المعنى فاحذروا من عدو يراكم ولا ترونه والحق جواز رويتهم كما هو ظاهر الاحاديث الصحيحة وتكون الاية مخصوصة بها فيكونون مرئيين في بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس ان النبي صلعم قال ان الشيطان يجري من ابن ادم مجرى الدم وجعلت صدور بني ادم مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس فهم يرون بني ادم وبنو ادم لا يرونهم وقال مجاهد قال ابليس جعل لنا اربع نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا شابا انا جعلنا اي صيرنا الشياطين اولياء اي اعوانا وقرناء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار واذا فعلوا اي العرب فاحشة هي ما يبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب قال اكثر المفسرين هو طواف المشركين بالبيت عراة وبه قال ابن عباس والسدي ومحمد بن كعب وقيل هي الشرك قاله عطاء والظاهر انها تصدق على ما هو اعم من الامرين جميعا والمعنى انهم اذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا في القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين الاول قالوا وجدنا عليها اباءنا اي انهم فعلوا ذلك اقتداء بابائهم وتقليدا لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة والثاني والله امرنا بها اي انهم مامورون بذلك من جهة الله سبحانه وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد لان وجود ابائهم على القبيح لا يسوغ لهم فعله بل ذلك محض تقليد باطل لا اصل له والامر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء بل امرهم باتباع الانبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتهما ومما نهاهم عنه فعل الفواحش ولهذا رد الله سبحانه عليهم بان امر نبيه صلعم فقال قل ان الله لا يامر بالفحشاء فكيف تدعون ذلك عليه قال قتادة والله ما اكرم الله عبدا قط على معصيته ولا رضيها له ولا امر

ولكن رضي لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته والحاصل ان الامرين باطلان لان الاول
تقليد للرجال والثاني افتراء على الله في الجملة رد عليهم في المقالة الثانية ولم يتعرض
لرد الاولى لوضوح فسادها لما هو معلوم ان تقليد مثل الآباء ليس بحجة ثم انكر عليهم ما اضافوه
اليه فقال أتقولون على الله ما لا تعلمون وهو من تمام ما امر النبي صلعم بان يقول لهم وفيه
من التقريع والتوبيخ امر عظيم فان القول بالجهل اذا كان قبيحا في كل شيء فكيف اذا كان
في التقول على الله وفي هذه الآية الشريفة لاعظم زاجر وابلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون
اباءهم في المذاهب المخالفة للحق فان ذلك من الاقتداء باهل الكفر لا باهل الحق فانهم
القائلون انا وجدنا اباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون والقائلون وجدنا عليها
اباءنا والله امرنا بها والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد اباه على ذلك المذهب مع اعتقاده
بانه الذي امر الله به وانه الحق لم يبق عليه وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على
اليهودية والنصراني على النصرانية والمبتدع على بدعته فما ابقاهم على هذه الضلالات الا
كونهم وجدوا اباءهم في اليهودية والنصرانية او البدعة واحسنوا الظن بهم بان ما هم عليه
هو الحق الذي امر الله به ولم ينظروا لانفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ولا بحثوا عن دين الله
كما ينبغي وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص فيا من نشأ على مذهب من هذه
المذاهب الاسلامية انا لك النذير المبالغ في التحذير من ان تقول هذه المقالة وتستمر على
الضلالة فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم وفاسد الرأي بصحيح الرواية ولم يبعث الله الى
هذه الامة الا نبيا واحدا امرهم باتباعه ونهاهم عن مخالفته فقال وما آتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا ولو كان محض رأي ائمة المذاهب واتباعهم حجة على العباد لكان
لهذه الامة رسل كثيرون متعددون بعدد اهل الرأي المكلفون للناس بما لم يكلفهم الله
به وان من اعجب الغفلة واعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب
الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم ووجود من يأخذونهما عنه بين ايديهم ووجود
آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم قل امر ربي بالقسط اي العدل وبه قال مجاهد والسدي
وفيه ان الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من ان الله امرهم بالفحشاء وقيل القسط هنا هو لا اله الا الله

قال ابن عباس وقيل في الكلام حذف اي قل امر ربي بالقسط فاطيعوه وَأَقِيمُوا عطف على معنى بالقسط وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ اي توجهوا اليه في صلاتكم الى القبلة في اي مسجد كنتم او اقصدوا عبادته مستقيمين اليها غير عادلين الى غيرها في كل وقت سجود او في كل مكان سجود على ان المراد بالسجود الصلوة وقال مجاهد الى الكعبة حيث صليتم في كنيسة او غيرها وقيل اجعلوا سجودكم لله خالصا وقيل غير ذلك والاول اولى وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ اي اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء او العبادة له لا لغيره وقيل وحدوه ولا تشركوا به كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ قال السمين تقديره تعودون عودا مثل ما بدأكم وقيل تقديره تخرجون خروجا مثل ما بدأكم ذكرهما مكي والاول اليق بلفظ الاية الكريمة وقال الزجاج كما انشأكم في ابتداء الخلق واوجدكم بعد العدم كذلك يعيدكم فالتشبيه في نفس الاحياء والخلق لا في الكيفية والترتيب فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث فيجازي المحسن باحسانه والمسيئ باساءته وقيل كما اخرجكم من بطون امهاتكم تعودون اليه كذلك ليس معكم شيئ فيكون مثل قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وقيل كما بدأكم من تراب تعودون الى التراب وقال مجاهد تعودون اي شقي و سعيد قال ابن عباس ان الله بدأ خلق بني ادم مؤمنا وكافرا كما قال هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا وعن جابر قال يبعثون على ما كانوا عليه المؤمن على ايمانه والمنافق على نفاقه وقال الحسن ومجاهد المعنى كما خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا فاحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون احياء يوم القيامة ويدل له ما روي عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلعم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين اخرجه البخاري ومسلم فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ اي تعودون فريقين سعداء واشقياء وفي القاموس الفرقة بالكسر الطائفة من الناس والجمع فرق والفريق كالامير اكثر منها والجمع افرقاء وافرقة وفروق والفريق الذي هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لانبيائه والفريق الذي حقت عليه الضلالة هم الكفار عن جابر انه ذكر القدرية فقال قاتلهم الله اليس قد قال الله سبحانه فريقا هدى الاية وفيه دليل على ان الهدى والضلالة من الله وعن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلعم

ان الله خلق خلقه في ظلمة فالقى عليهم من نوره فمن اصابه ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل اخرجه الترمذي إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعليل لقوله وفريقا حق عليهم الضلالة اي ذلك بسبب انهم اطاعوا الشياطين في معصية الله وَمع هذا فانهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ولم يعترفوا على انفسهم بالضلالة وهذا اشد في تمردهم وعنادهم والآية حجة على اهل الاعتزال في كون الهداية والاضلال الى الله ذي الجلال وفيه دليل ايضا على ان الكافر الذي يظن انه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء ودلت هذه الآية على ان مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين بل لا بد من الجزم والقطع لانه تعالى ذم الكفار بانهم يحسبون كونهم مهتدين ولولا ان هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك ودلت ايضا على ان كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى اولم يحسب ذلك قاله الكرخي يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ هذا الخطاب لجميع بني آدم وان كان واردا على سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس امروا بالتزين عند الحضور الى المساجد للصلوة والطواف وقد استدل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلوة واليه ذهب جمهور اهل العلم بل سترها واجب في كل حال من الاحوال وان كان الرجل خاليا كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة قال ابن عباس ان النساء كن يطفن عراة الا ان تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول اليوم يبدو بعضه او كله وما بدا منه فلا احله فنزلت هذه الآية وعنه قال كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فامرهم الله بالزينة والزينة اللباس وما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع قال مجاهد ما يواري عوراتكم ولو عباءة وقيل الزينة المشط والطيب فيستحب التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر والاول اولى واخرج ابن عدي وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا زينة الصلوة قالوا وما زينة الصلوة قال البسوا نعالكم فصلوا فيها واخرج العقيلي وابو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله خذوا زينتكم عند كل مسجد قال صلوا في نعالكم والاحاديث في مشروعية الصلوة في النعل كثيرة جدا واما كون ذلك هو تفسير الآية كما روي في هذين الحديثين فلا ادري كيف اسنادهما وقد ورد

النهي عن ان يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء وهو في الصحيحين وغيرهما
من حديث ابي هريرة وَّكُلُوْا وَاشْرَبُوْا ما شئتم وَلَا تُسْرِفُوْا اي بتحريم الحلال او بالتعدي الى
الحرام او بالافراط في الطعام امر الله سبحانه عباده بالاكل والشرب ونهاهم عن الاسراف فلا
زهد في ترك مطعم ولا مشرب وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من اهل النار كما صح في الاحاديث
الصحيحة والمقل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه من طاعة
او سعي على نفسه وعلى من يعول مخالف لما امر الله به وارشد اليه والمسرف في انفاقه
على وجه لا يفعله الا اهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني
وهكذا من حرم حلالا او حلل حراما فانه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين ومن
الاسراف الاكل لا لحاجة وفي وقت شبع قال ابن عباس احل الله الاكل والشرب ما لم يكن سرفا
او مخيلة قال علي بن حسين بن داود قد جمع الله الطب كله في نصف اية يعني هذه الاية
وفيه دليل على ان جميع المطعومات والمشروبات حلال الا ما خصه الشرع بدليل
في التحريم لان الاصل في جميع الاشياء الاباحة الا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل
منفصل اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ في الطعام والشراب واللباس واخرج عبد بن حميد والنسائي
وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده
عن النبي صلعم قال كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف فان الله سبحانه
يحب ان يرى اثر نعمته على عبده وفي الاية وعيد وتهديد لمن اسرف في هذه الاشياء لان
محبة الله عبارة عن رضاه عن العبد وايصال الثواب اليه واذا لم يحبه علم انه ليس براض
عنه فدلت الاية على الوعيد الشديد في الاسراف في الماكول والمشروب والملبوس وما
احق بهذا الوعيد اهل الدول من الفساق والفجار قُلْ انكارا على هؤلاء الجهلة من العرب
الذين يطوفون بالبيت عراة والذين يحرمون على انفسهم في ايام الحج اللحم والدسم مَنْ حَرَّمَ
زِيْنَةَ اللّٰهِ الزينة ما يتزين به الانسان من ملبوس او غيره من الاشياء المباحة كالمعادن التي
لم يرد نهي عن التزين بها والجواهر ونحوها وقيل الملبوس خاصة ولا وجه له بل هو من جملة ما
تشمله الاية فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة اذا لم تكن مما حرمه الله ولا

ولا حرج على من تزين بشيء من الاشياء التي لها مدخل في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي
ومن زعم ان ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا وقد قدمنا في هذا ما يكفي قال
الرازي انه يتناول جميع الزينة فيدخل تحته جميع انواع الملبوس والحلي ولولا ان النص ورد
بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم التي اخرج لعباده اي
اصلها يعني القطن والكتان من الارض والقز من الدود والحلي من الشجر والحرير والصوف
من الحيوان والدروع والجواهر من المعادن قال ابن عباس كانت قريش تطوف بالبيت وهم
عراة يصفرون ويصفقون فانزل الله هذه الاية وامروا بالثياب ان يلبسوها والطيبات
من الرزق اي وهكذا الطيبات المستلذات من المطاعم والمشارب والمآكل ونحوها مما
يأكله الناس فانه لا زهد في ترك الطيب منها ولهذا جاءت الاية هذه معنونة بالاستفهام
المتضمن للانكار على من حرم ذلك على نفسه او حرمه على غيره وما احسن ما قال ابن
جرير الطبري ولقد اخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود
السبيل اليه من حله ومن اكل البقول والعدس واختاره على خبز البر ومن ترك اكل اللحم خوفا
من عارض الشهوة وقد قدمنا نقل مثل هذا عنه مطولا والطيبات المستلذات من الطعام
وقال ابن عباس الودك واللحم والسمن وقيل اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على انفسهم
ايام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله عليهم بقوله هذا وقال قتادة المراد ما كان اهل
الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وقيل ان الاية على العموم فيدخل تحته كل ما
يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما نهي عنه وورد النص بتحريمه وهو الحق كما تقدم
وقيل هو اسم عام لما طاب كسبا ومطعما قل هي للذين آمنوا في الحيوة الدنيا اي انها لهم
بالاصالة والاستحقاق وان شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة خالصة يوم القيامة
اي مختصة بهم والتقدير قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا خالصة للمؤمنين
يوم القيامة فهي لهم اصالة وللكفار تبعا لقوله ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب
النار قال ابن عباس في الاية يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا فاكلوا من
طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها ونكحوا من صالحي نسائها ثم يخلص الله الطيبات في

الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء وقيل خالصة من التكدير والتنغيص والغم لانه قد يقع لهم ذلك في الدنيا والاول اولى كذلك اي مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم لقوم يعلمون اني انا الله وحدي لا شريك لي فاحلوا حلالي وحرموا حرامي قل للمشركين الذين يتجردون من ثيابهم في الطواف والذين يحرمون اكل الطيبات ان الله لم يحرم ما تحرمونه بل احله وانما حرم ربي الفواحش من الافعال والاقوال جمع فاحشة اي كل معصية وقد تقدم تفسيرها ما ظهر منها وما بطن اي ما اعلن منها وما اسر يعني جهرها وسرها وقيل هي خاصة بفواحش الزنا ولا وجه لذلك وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلعم قال لا احد اغير من الله من اجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا احد احب اليه المدح من الله من اجل ذلك مدح نفسه اخرجه البخاري ومسلم والاثم هو يتناول كل معصية يتسبب عنها الاثم وهو عطف عام على خاص لمزيد الاعتناء بها وقيل هو الخمر خاصة وقد انكره جماعة من اهل العلم قال النحاس فاما ان يكون الاثم الخمر فلا يعرف ذلك وحقيقته انه جميع المعاصي قال الفراء الاثم ما دون الحق والاستطالة على الناس انتهى وليس في اطلاق الاثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به فهو احد المعاني التي يصدق عليها قال في الصحاح وقد سمي الخمر اثما وقال الحسن والعطاء الاثم من اسماء الخمر وقال ابن سيدة صاحب المحكم وعندي ان تسمية الخمر بالاثم صحيح لان شربها اثم وانكر ابو بكر بن الانباري تسمية الخمر بالاثم قال لان العرب ما سمته اثما قط في جاهلية ولا اسلام ولكن قد يكون الخمر داخلا تحت الاثم لقوله قل فيهما اثم كبير وقيل الاثم صغائر الذنوب والفواحش كبائرها وقيل الاثم اسم لما لا يجب فيه الحد والفاحشة ما يجب فيه الحد من الذنوب وهذا القول قريب من الاول وقيل الاثم في اصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل الفاحشة الكبيرة والاثم مطلق الذنب كبيرا كان او صغيرا واولى هذه الاقوال اولها والبغي بغير الحق اي الظلم المجاوز للحد والاستطالة على الناس وافرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي واذا طلب ماله بالحق خرج من ان يكون بغيا وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا اي وان تجعلوا لله شريكا لم ينزل عليكم به حجة ولتسوا

به في العبادة والمراد التهكم بالمشركين لان الله لا ينزل برهانا بان يكون غيره شريكا له وان تقولوا على الله ما لا تعلمون بحقيقته وان الله قاله وهذا مثل ما كانوا ينسبون الى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم ياذن بها ولكل امة اجل اي وقت معين محدود من اول العمر الى آخره ينزل فيه عذابهم من الله او يميتهم فيه ويجوز ان تحمل الآية على ما هو اعم من الامرين جميعا فاذا جاء اجلهم اي اذا جاء اجل كل امة من الامم اي آخر المدة كان ما قدره عليهم واقعا في ذلك الاجل فقيل المراد بالاجل وقت نزول العذاب وقيل اجل الحياة والعمر وعلى هذا لكل واحد اجل لا ينفع فيه تقديم ولا تاخير والاجل يطلق على كل من مدة العمر بتمامها وعلى الجزء الاخير منها واجل الشئ مدته ووقته الذي يحل فيه وهو مصدر اجل الشئ اجلا من باب تعب واجل اجولا من باب قعد لغة واجلته تاجيلا جعلت له اجلا والآجال جمع اجل مثل سبب واسباب لا يستاخرون ساعة خص الساعة بالذكر لانها اقل اسماء الاوقات في العرف وقد استدل بالآية الجمهور على ان كل ميت يموت باجله وان كان موته بالقتل او التردي او نحو ذلك والبحث في ذلك طويل جدا ومثل هذه الآية قوله تعالى ما تسبق من امة اجلها وما يستاخرون وكان الحسن يقول ما احمق هؤلاء القوم يقولون اللهم اطل عمره والله يقول فاذا جاء اجلهم الآية عن ابن المسيب قال طعن عمر قال كعب لو دعا الله لاخر في اجله فقيل له اليس قد قال الله فاذا جاء اجلهم الآية فقال كعب وقد قال الله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ولا يستقدمون مستانف معناه الاخبار بانهم لا يسبقون اجلهم المضروب لهم بل لا بد من استيفائهم اياه كما انهم لا يتاخرون عنه اقل زمان وقال الحوفي وغيره انه معطوف على لا يستاخرون وهذا لا يجوز وقال الواحدي المعنى لا يستاخرون عن آجالهم اذا انقضت ولا يستقدمون عليها اذا قاربت الانقضاء قلت هذا بناء منه على انه معطوف على لا يستاخرون وهو ظاهر اقوال المفسرين وبالاول قال التفتازاني والكرخي وقال ابو السعود معطوف على الجواب لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه في نفسه كالتاخر بل للمبالغة في انتفاء التاخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا وقال القاري في كلام القاضي ان هذا بمنزلة المثل اي لا يقصد من مجموع الكلام الا ان الوقت تقرر لا يتغير ولا يتبدل انتهى

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ان هي الشرطية وما زائدة
للتوكيد والقصص قد تقدم معناه والمعنى ان اتاكم رسل كائنون منكم ومن جنسكم يخبرونكم
باحكامي ويبينونها لكم وقيل المراد بالرسل النبي صلعم وذكره بلفظ الجمع للتعظيم والخطاب لاهل
مكة ومن يلحق بهم وقيل اراد جميع الرسل والخطاب عام في كل بني آدم وهو ظاهر الآية فَمَنِ
اتَّقَى الشرك ومعاصي الله وَأَصْلَحَ حال نفسه باتباع الرسل واجابتهم فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ يوم القيامة وقد تقدم تفسيره مرارا وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا التي يقصها عليهم
رسلنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا اي عن اجابتها والعمل بما فيها أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ لا يخرجون منها ابدا بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اي من اعظم ظلما ممن يقول على الله ما لم يقله او يجعل له شريكا من خلقه وهو
منزه عنه أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ اي بالقرآن الذي انزله على عبده ورسوله محمد صلعم أُولَٰئِكَ
الاشارة الى المكذبين المستكبرين يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ اي مما كتب الله لهم من خير
وشر وقيل ينالهم من العذاب بقدر كفرهم وقيل نصيبهم من الشقاوة والسعادة و
قال مجاهد ما سبق من الكتاب وقال محمد بن كعب رزقه واجله وعمله وصححه الطبري قال
الرازي وانما حصل الاختلاف لان لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه قيل الكتاب هنا القرآن
لان عذاب الكفار مذكور فيه وقيل هو اللوح المحفوظ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ
اي الى غاية هي هذه والمراد بالرسل هنا ملك الموت واعوانه او الملائكة الموكلون بادخالهم
النار في المقام قولان ذكرهما الخازن وقيل حتى هنا هي التي للابتداء ولكن لا يخفى ان كونها
لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها والاستفهام في قوله قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ للتقريع والتوبيخ لا لسؤال استعلام اي اين الآلهة التي كنتم تدعونها
من دون الله وتعبدونها ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل ان هذا يكون في الآخرة قَالُوا
ضَلُّوا عَنَّا استينافية بتقدير سؤال وقعت هي جوابا عنه اي ذهبوا عنا وغابوا فلا ندري
اين هم وهو جواب من حيث المعنى لا من حيث اللفظ وذلك ان السؤال انما وقع عن المكان ولو جاء
الجواب على نسق السؤال لقيل هم في المكان الفلاني وانما المعنى ما فعل معبودكم ومن كنتم تدعونه

فاجابوا بانهم ضلوا عنا وغابوا فلم نرهم مع شدة احتياجنا اليهم في هذا الوقت فلم ينفعونا وقت الاحتياج اليهم وشهدوا على انفسهم عند الموت انهم كانوا كافرين اي اقروا على انفسهم بالكفر قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم القائل هو الله عز وجل وفي بمعنى مع اي مع امم وقيل هي على بابها والمعنى ادخلوا في جملتهم وغمارهم وعدادهم وقيل هو قول مالك خازن النار والظاهر ان هذه الحال منتظرة اذ مصيرهم في غمار الامم انما هو بعد تمام الدخول وذلك لان الامم المذكورة قد سبقتهم في الدخول فلا يصيرون في غمارها الا بعد الدخول والمراد بالامم الخالية من الجن والانس هم الكفار من الطائفتين من الامم الماضية و اهل الملل في النار اي التي هي مستقركم ومأواكم كلما دخلت امة من الامم الماضية النار لعنت اختها اي الامة الاخرى التي سبقتها الى النار وجعلت اختها باعتبار الدين او الضلالة او الكون في النار قال السدي يلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الاخرة الاولى حتى اذا اداركوا فيها جميعا التدارك التلاحق والتتابع والاجتماع في النار قالت اخراهم دخولا لاولاهم اي لاجلهم يعني قال اخر كل امة لاولها واللام للتعليل ولا يجوز ان تكون للتبليغ قال الزمخشري لان خطابهم مع الله لا معهم وقد بسط القول قبله في ذلك الزجاج وقيل هي للتبليغ وخطابهم معهم بدليل قوله فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون قال السدي قالت اخراهم الذين كانوا في اخر الزمان لاولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقيل اخراهم اي سفلتهم واتباعهم لاولاهم لرؤسائهم وكبارهم قاله مقاتل وهذا اولى كما يدل عليه ربنا هؤلاء اضلونا عن الهدى فان المضلين هم الرؤساء ويجوز ان يراد انهم اضلوهم لانهم اتبعوهم واقتدوا بدينهم من بعدهم فيصح الوجه الاول لان اخرهم تبعت دين اولهم فآتهم عذابا ضعفا من النار الضعف الزائد على مثله مرة او مرات ومثله قوله تعالى ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا وقيل الضعف هنا الافاعي والحيات وقال ابو عبيدة الضعف مثل الشيء مرة واحدة قال الزهري والذي قاله ابو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاري كلامهم واما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره الى موضوع

كلام العرب والضعف في كلامهم مثال وليس بمقصور على مثلين بل اقل الضعف
محصور وهو المثل واكثره غير محصور وقال الزجاج ضعفا اي مضاعفا يعني تضعيف الشيء
وزيادته الى ما لا ينتهي قال لِكُلٍّ اي لكل طائفة منكم ضِعْفٌ من العذاب اما القادة
فبكفرهم وتضليلهم واما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم قاله الكرخي وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ
بما لكل فريق نوع من العذاب وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ اي قال السابقون للاحقين او
المتبوعون للتابعين مشافهة ومخاطبة لها فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا في الدنيا مِن فَضْلٍ بل
نحن وانتم سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه وقد ضللتم كما ضللنا فهذا رد لقول
الطائفة الاخرى هؤلاء اضلونا قال مجاهد من فضل تخفيف من العذاب فَذُوقُوا
الْعَذَابَ النار كما ذقناه بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ من معاصي الله والكفر به والقائل لهذا القول
القادة للاتباع او الامة الاولى للاخرى او الله سبحانه إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولم يصدقوا
بها ولم يتبعوا رسلنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا اي عن الايمان والتصديق بها لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ يعني انها لا تفتح لارواحهم اذا ماتوا وهي تفتح لارواح المؤمنين ويصعد
بروحهم الى السماء السابعة وقد دل على هذا المعنى وانه المراد من الاية ما جاء في الاحاديث
الصحيحة ان الملائكة اذا انتهوا بروح الكافر الى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم ابواب
السماء وقيل لا تفتح ابواب لادعيتهم اذا دعوا قاله مجاهد والنخعي وقيل لاعمالهم اي لا
تقبل بل ترد عليهم فتضرب بها في وجوههم وقيل المعنى انها لا تفتح لهم ابواب الجنة يدخلونها
لان الجنة في السماء وعلى هذا العطف بجملة ولا يدخلون الجنة الاتية يكون من عطف التفسير و
لا مانع من حمل الاية على معم الارواح والدعاء والاعمال ولا ينافيه ورود ما ورد من انها تفتح
ابواب السماء لواحد من هذه فان ذلك لا يدل على عدم فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم
الاية وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ اي هؤلاء الكفار المكذبون والمستكبرون لا يدخلونها بحال من
الاحوال ولهذا علقه بالمستحيل وقال حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ الولوج الدخول بشدة وخص
الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لكونه يضرب به المثل في كبر الذات وعظم الجرم عند العرب
فجسمه من اعظم الاجسام وخص سم الخياط وهو ثقب الابرة بالذكر لكونه غاية في الضيق فـ

المنافذ وهو لا يلج فيه ابدا فثبت ان الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار ان دخول
الكفار الجنة مايوس منه قطعا والجمل الذكر من الابل والجمع جمال واجمال وجمالات وانما سمي
جملا اذا اربع وقرء ابن عباس الجمل بضم الجيم وفتح الميم مشددة وهو حبل السفينة الذي
يقال له القلس وهو حبال مجموعة قاله ثعلب وقيل الحبل الغليظ من القنب وقيل الحبل
الذي يصعد به في النخل وقرأ ابن مسعود حتى يلج الجمل الاصفر وقرئ سم بالحركات الثلاث
لكن السبعة على الفتح والضم لغة لاهل العالية والكسر لغة لبني تميم وجمعه سمام وكل ثقب
ضيق فهو سم وقيل كل ثقب في البدن او انف واذن فهو سم وجمعه سموم والسم القاتل
سمي بذلك للطفه وتاثيره في مسام البدن حتى يصل الى القلب وهو في الاصل مصدر
ثم اريد به معنى الفاعل لدخوله باطن البدن والسم ثقب لطيف ومنه ثقب الابرة والخياط
ما يخاط به يقال خياط ومخيط قاله الفراء والمراد به الابرة في هذه الآية قال بعض اهل اللغات
لما علق الله دخولهم الجنة بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الابرة كان ذلك نفيا لدخولهم
الجنة على التابيد وذلك ان العرب اذا علقت ما يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا
كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض الفار ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ اي مثل ذلك
الجزاء الفظيع نجزي جنس من اجرم وقد تقدم تحقيقه ﴿لَهُم﴾ اي للذين كذبوا واستكبروا
فهذا بيان لجزاء آخر لهم غير الجزاء السابق ﴿مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ المهاد
الفراش والغواش جمع غاشية اي نيران تحيط بهم من تحتهم وتغشاهم من فوقهم كالاغطية
قال ابن عباس الغواش اللحف وبه قال القرظي والضحاك والسدي ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾
اي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم وذكر الجرم في حرمان الجنة
والظلم في دخول النار تنبيها على ان الظلم اعظم الاجرام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾
اي صدقوا الله ورسوله واقروا بما جاءهم من وحي الله وتنزيله عليه من شرائع دينه
وعملوا بما امرهم به واطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾
اي لا نكلف العباد الا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه ولا نكلفهم ما لا يدخل
تحت وسعهم وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ومثله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها

قال الزجاج الوسع ما يقدر عليه ولا يعجز عنه وقد غلط من قال ان الوسع بذل المجهود
اُولٰٓئِكَ اشارة الى الموصول وخبره اَصْحٰبُ الْجَنَّةِ مبتدا هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ وَنَزَعْنَا مَا فِيْ
صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غِلٍّ هذا من جملة ما ينعم الله به على اهل الجنة ان ينزع ما في قلوبهم
من غل بعضهم على بعض حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضا فان الغل لو بقي في
صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعم الجنة لان المتشاحنين لا يطيب
لاحدهما عيش مع وجود الاخر والمعنى خلقناهم في الجنة على هذه الحالة وليس المراد انهم
دخلوا الجنة بما ذكر ثم نزع منهم فيها بل المراد انهم دخلوها مطهرين منه قاله ابو حيان
والغل الحقد الكامل في الصدر وقيل نزع الغل في الجنة ان لا يحسد بعضهم بعضا في
تفاضل المنازل قال علي بن ابي طالب فينا والله اهل بدر نزلت هذه الاية تَجْرِيْ مِنْ
تَحْتِهِمُ الْاَنْهٰرُ اي من تحت قصورهم قد تقدم تفسيره مرارا وَقَالُوْا عند الاستقرار في
منازلهم اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ هَدٰىنَا لِهٰذَا الجزاء العظيم وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من
صدورهم والهداية هذه لهذا هي الهداية لسببه من الايمان والعمل الصالح في الدنيا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ نطق لهذا الامر جملة موضحة للاولى واللام لتوكيد النفي لَوْلَآ اَنْ هَدٰىنَا
اللّٰهُ جملة مستانفة او حالية اخرج النسائي وابن جرير وابن مردويه عن ابي هريرة قال
قال رسول الله صلعم كل اهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله فتكون حسرة عليهم
وكل اهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لولا ان هدانا الله فهذا شكرهم لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ
رَبِّنَا بِالْحَقِّ اللام لام القسم قالوا هذا لما وصلوا الى ما وصلوا اليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما
صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما اخبروهم به في الدنيا من
ان جزاء الايمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه وَنُوْدُوْٓا اَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ اي وقع
النداء لهؤلاء الذين امنوا وعملوا الصالحات فقيل لهم ذلك والمنادي هو الله وقيل
الملائكة وقيل هذا النداء يكون في الجنة عن ابي سعيد الخدري وابي هريرة ان رسول الله
صلعم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد ان لكم ان تحيوا ولا تموتوا ابدا وان لكم ان تصحوا
فلا تسقموا ابدا وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان لكم ان تنعموا فلا تباسوا ابدا فذلك قوله

عز وجل يعني هذه الآية اخبره مسلم اورثتموها اعطيتموها بدلا من اهل النار وصوحا الى
الجنة وسماها ميراثا لانها لا تستحق بالعمل بل هي محض فضل الله ووعده على الطاعات كالميراث
من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة خالصة فحصلت لكم بلا تعب بما كنتم تعملون
اي اورثتم منازلها بعملكم وقال في الكشاف بسبب اعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة
اقول ان مسكين هذا قاله رسول الله صلعم في اصح حديث سددوا وقاربوا واعلموا انه لن يدخل
احد الجنة بعمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته وتصحيح
سبب لا يستلزم نفي سبب آخر ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل باقداره
على العمل لم يكن عمل اصلا فلو لم يكن التفضل الا بهذا الاقدار لكان القائلون بصحته لا
مبطلة وفي التنزيل ذلك الفضل من الله وفيه فسيدخلهم في رحمة منه وفضل وفي
فتح الباري المنفي في الحديث دخولها بالعمل المجرد عن القبول والمثبت في الآية دخولها بالعمل
المتقبل والقبول انما يحصل من الله تفضلا وفي القرطبي وزيادة فالجنة ومنازلها لا تنال
الا برحمته فاذا دخلوها باعمالهم فقد دخلوها برحمته اذا اعمالهم رحمة منه لهم وتفضل
منه عليهم انتهى ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار بعد استقرار اهل الجنة في الجنة واهل
النار في النار يقول اهل الجنة يا اهل النار وهذه المناداة لم تكن لقصد الاخبار لهم بما
وجدوه بل القصد تبكيتهم وايقاع الحسرة في قلوبهم ان قد وجدنا هو نفس النداء
اي انا قد وصلنا الى ما وعدنا ربنا حقا اي ما وعدنا الله به من النعيم على السنة رسله
فهل وجدتم اي وصلتم الى ما وعد ربكم حقا اي من العذاب الاليم والاستفهام هو
للتقريع والتوبيخ قالوا نعم اي وجدنا ذلك حقا وظاهر الآية يفيد العموم والجمع اذا قابل الجمع
يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من اهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار
الدنيا فاذن مؤذن اي فنادى مناد بينهم اي بين الفريقين قيل المنادي هو من
الملائكة وقيل انه اسرافيل ذكره الواحدي واخرج ابن ابي شيبة وابو الشيخ وابن مردويه
عن ابن عمر ان النبي صلعم لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية ان لعنة الله على الظالمين
اي يقول المؤذن هذا القول ثم فسر الظالمين من هم فقال الذين يصدون عن سبيل الله

الصم المنع اي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا اي يطلبون اعوجاجها
اي ينفرون الناس عنها ويقدحون في استقامتها بقولهم انها غير حق وان الحق ما هم فيه
والعوج بالكسر في المعاني والاعيان ما لم يكن منتصبا وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح والحائط
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ اي جاحدون منكرون لها وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ اي حاجز بين الفريقين
وبين الجنة والنار والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى فضرب بينهم بسور وَعَلَى الْأَعْرَافِ
جمع عرف وهو كل مرتفع من الارض وهي هنا شرفات السور المضروب بينهم ومنه عرف الفرس
وعرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمي بذلك لانه بسبب ارتفاعه صار اعرف
وابين مما انخفض والاعراف في اللغة المكان المرتفع وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله
رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله عن حذيفة قال الاعراف سور بين الجنة والنار
وبه قال مجاهد وقال ابن عباس هو الشيء المشرف وقال سعيد بن جبير الاعراف جبال بين
الجنة والنار فهم على اعرافها اي على ذراها وقيل انها تل بينهما حبس عليه ناس من اهل
الذنوب وعن ابن جريج قال زعموا انه الصراط وقال ابن عباس ايضا سور له عرف كعرف
الديك وقيل الاعراف هو نفس الحجاب عبر عنه تارة بالحجاب وتارة بالاعراف قاله الواحدي
ولم يذكر غيره ولذلك عرف الاعراف لانه عني به الحجاب وقال القرطبي الاعراف جبل احد
يوضع هناك وذكر الزهراوي حديثا فيه ما ذكر رِجَالٌ من افاضل المسلمين او من اخرهم دخولا
في الجنة او من لم يرض عنه احد ابويه وقد اختلف العلماء في اصحاب الاعراف من هم على
ثلاثة عشر قولا ذكر الخازن منها ثمانية وزاد عليه القرطبي خمسة فقيل هم الشهداء ذكره
القشيري وشرحبيل بن سعد وقيل هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل انفسهم وتفرغوا
لمطالعة احوال الناس ذكره مجاهد وقيل هم قوم انبياء ذكره الزجاج وحكاه ابن الانباري
وقيل هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس
والشعبي والضحاك وسعيد بن جبير وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار يعرفون
محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها حكي ذلك عن ابن عباس وقيل هم عدول القيامة
الذين يشهدون على الناس باعمالهم وهم في كل امة واختار هذا القول النحاس وقال هو من

احسن ما قيل فيهم وقيل هم اولاد الزنا روى ذلك القشيري عن ابن عباس وقيل هم اطفال المشركين وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء وقيل هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين عن المؤمنين قبل ادخالهم الجنة والنار ذكره ابو مجلز وضعفه الطبري وقال ان لفظ الرجال في لسان العرب لا يطلق الا على الذكور من بني آدم دون اناثهم ودون سائر الخلق وفي هذه الاقوال ما يدل على ان اصحاب الاعراف دون اهل الجنة في الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وفيها ما يدل على انهم افضل من اهل الجنة واعلى منهم منزلة و ليس في الباب ما يقطع به من نص جلي وبرهان نير وقال حذيفة اصحاب الاعراف قوم كانت لهم اعمال انجاهم الله بها من النار وهم آخر من يدخل الجنة قد عرفوا اهل الجنة واهل النار وقيل هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم وذكر ابن الجوزي انهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون امهاتهم او امهاتهم دون آبائهم ورواه عن ابراهيم واخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابي زرعة بن عمرو قال سئل رسول الله صلعم عن اصحاب الاعراف فقال هم آخر من يفصل بينهم من العباد فاذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال انتم قوم اخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فانتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم قال ابن كثير وهذا مرسل حسن واخرج البيهقي في البعث عن حذيفة اراه قال قال رسول الله صلعم يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر باهل الجنة الى الجنة ويؤمر باهل النار الى النار ثم يقال لاصحاب الاعراف ما تنتظرون قالوا ننتظر امرك فيقال لهم ان حسناتكم تجاوزت بكم النار ان تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم ادخلوا بمغفرتي ورحمتي وعن عبد الرحمن المزني قال سئل رسول الله صلعم عن اصحاب الاعراف فقال هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم اخرجه البيهقي والطبراني وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن ابي حاتم وابو الشيخ وغيرهم وروي بطرق عن جماعة من الصحابة نحوه مرفوعا فان ثبت الرفع فالمصير اليه متعين ولا قول لاحد بعده والله اعلم يعرفون كلا بسيماهم السيما العلامة اي يعرفون كلا من اهل الجنة والنار بعلاماتهم

كبياض الوجوه وسوادها او مواضع الوضوء من المؤمنين او علامة يجعلها الله لكل فريق في ذلك الموقف يعرف رجال الاعراف بها السعداء من الاشقياء قال السدي انما سمي الاعراف لان اصحابه يعرفون الناس اي زيادة على معرفتهم بكونهم في الجنة وكونهم في النار وَنَادَوْا اي نادى رجال الاعراف أَصْحَابَ الْجَنَّةِ حين رأوهم أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اي ناد وهم بقولهم هذا تحية لهم واكراما وتبشيرا واخبروهم بسلامتهم من العذاب والآفات لَمْ يَدْخُلُوهَا اي لم يدخل الجنة اصحاب الاعراف ولا محل له لانه استيناف وَهُمْ يَطْمَعُونَ اي والحال انهم يطمعون في دخولها وقيل معنى يطمعون يعلمون انهم يدخلونها وذلك معروف عند اهل اللغة اي طمع بمعنى علم ذكره النحاس وهذا القول اعني كونهم اهل الاعراف مروي عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود وقال ابو مجلز هم اهل الجنة اي ان اهل الاعراف قالوا لهم سلام عليكم حال كون اهل الجنة لم يدخلوها والحال انهم يطمعون في دخولها قال الحسن ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ اي ابصار اهل الاعراف لا عن قصد لان المكروه لا ينظر اليه الانسان قصدا في العادة تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ اي وجاههم وحيالهم واصل معنى تلقاء جهة اللقاء وهي جهة المقابلة ولم يأت مصدر على تفعال بكسر اوله غير مصدرين احدهما هذا والآخر تبيان وما عداهما بالفتح وزاد بعضهم الزلزال قَالُوا اي اهل الاعراف اذا نظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سألوا الله ان لا يجعلهم منهم وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا من الكفار كانوا عظماء في الدنيا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ اي بعلاماتهم قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ الذي كنتم تجمعون من الاموال والعدد في الدنيا للصد عن سبيل الله والاستفهام للتقريع والتوبيخ وَمَا أغنى عنكم مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ اي استكباركم عن الايمان شيئا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ هذا من كلام اصحاب الاعراف اي قالوا للكفار مشيرين الى المسلمين الذين صاروا الى الجنة هذه المقالة وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بفضلي ورحمتي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ هذا تمام كلام اصحاب الاعراف اي قالوا

للمسلمين ادخلوا الجنة فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام قاله السدي و
الافاضة التوسعة يقال افاض عليه نعمة ويتضمن افيضوا معنى القوا او بمعنى الواو لقوله
حرمهما وهي على بابها من اقتضائها لاحد الشيئين للتخيير او اباحة او غير ذلك مما يليق
بها وعلى هذا تقديره حرم كلا منهما او كليهما كما سيأتي والمعنى طلبوا منهم ان يواسوهم
بشيء من الماء او بشيء مما رزقهم الله من غيره من الاشربة والاطعمة ﴿قَالُوا﴾ اي فاجابوا بقولهم
﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ اي حرم الماء وما رزقنا ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ومنعهما فلا نواسيكم
بشيء مما حرمه عليكم والتحريم مستعمل في لازمه لانقطاع التكليف قيل ان هذا النداء كان
من اهل النار بعد دخول اهل الاعراف الجنة قال ابن عباس ينادي الرجل اخاه فيقول يا
اخي اغثني فاني قد احترقت فافض علي من الماء فيقال اجبه فيقول ان الله حرمهما على
الكافرين وقال ابن زيد يستسقونهم ويستطعمونهم وان الله حرمهما اي طعام الجنة وشرابها
وهو تحريم منع ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ قد تقدم تفسير
اللهو واللعب والغرر قال ابن عباس هم المستهزئون وذلك انهم كانوا اذا دعوا الى الايمان
سخروا ممن دعاهم اليه وهزؤا به استهزاء بالله عز وجل وقيل هو ما زين لهم الشيطان من
تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا
يفعلونها في الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لا يذكرون الله فيه
﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ اي نتركهم في النار وقال مجاهد نؤخرهم جياعا عطاشا والمعنى نفعل بهم
فعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتناء بهم وتركهم في النار تركا كليا والفاء فصيحة وكثر مثل هذه
الاستعارة في القرآن لان تعليم المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن ان يعبر عنها الا بما يماثلها من عالم
الشهادة ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ اي كما تركوا العمل للقاء هذا اليوم قاله ابن عباس ومجاهد
والسدي وقال ابن عباس ايضا نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وسمي جزاء نسيانهم بالنسيان
مجازا لان الله لا ينسى شيئا ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ اي ينكرونها ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ
عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ اي عالمين بتفصيله حال كونه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ المراد بالكتاب الجنس

ان كان الضمير للكفار جميعا وان كان للمعاصرين للنبي صلعم فالمراد به القرآن والتفصيل التبيين اي ما بيناه بالاخبار والوعد والوعيد وكذا بقية الانواع التسعة التي نظمها بعضهم في قوله شعر ؎ حلال حرام محكم متشابه + بشير نذير قصة عظة مثل + وقال السمين المراد بتفصيله ايضاح الحق من الباطل وتنزيله في فصول مختلفة كقوله وقرانا فرقناه وقرئ فضلناه من التفضيل اي على غيره من الكتب السماوية هَلْ يَنْظُرُونَ النظر الانتظار اي ما ينتظرون اهل مكة اِلَّا تَأْوِيْلَهٗ اي ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يؤل الامر اليه وقيل تاويله جزاءه وقيل عاقبة ما فيه والمعنى متقارب يَوْمَ يَأْتِي تَاْوِيْلُهٗ وهو يوم القيامة يَقُوْلُ الَّذِيْنَ نَسُوْهُ اي التاويل وتركوا العمل بالقرآن مِنْ قَبْلُ اي قبل ان ياتي تاويله قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ الذي ارسلهم الله به الينا فَهَلْ لَّنَا مِنْ شُفَعَآءَ استفهام ومعناه التمني ومن زائدة فَيَشْفَعُوْا لَنَآ جواب الاستفهام والمعنى هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب اَوْ هل نُرَدُّ الى الدنيا فَنَعْمَلَ صالحا غَيْرَ الَّذِيْ كُنَّا نَعْمَلُ من المعاصي فنبدل الكفر بالايمان والتوحيد والمعاصي بالطاعة والانابة فيقال لهم في جواب الاستفهامين قَدْ خَسِرُوْٓا اَنْفُسَهُمْ اي صاروا الى الهلاك ولم ينتفعوا بها فكانت بلاء عليهم ومحنة لهم فكانهم خسروها كما يخسر التاجر راس ماله وقيل خسروا النعيم وحظ الانفس وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ اي افتراءهم او الذي كانوا يفترونه من دعوى الشريك والمعنى انه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا او غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكا لله فلم ينفعهم ولا حضر معهم وعلموا انهم كانوا في دعواهم كاذبين اِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالايجاد الذي يوجب على العباد توحيده وعبادته واصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في ابداع الشيء من غير اصل سبق ولا ابتداء تقدم فمعنى الاية انشا خلقهما وقدر احوالهما فِيْ سِتَّةِ اَيَّامٍ اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وهو من طلوع الشمس الى غروبها قيل هذه الايام من ايام الدنيا وقيل من ايام الاخرة قال ابن عباس كل يوم مقداره الف سنة وبه قال الجمهور وهذه الايام الست اولها الاحد واخرها الجمعة وبه قال عبد الله بن سلام وكعب الاحبار والضحاك

ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول
لها كوني فتكون ولكنه اراد ان يعلم عباده الرفق والتاني في الامور وقال سعيد بن جبير
تعليما لخلقه التثبت كما في الحديث التاني من الله والعجلة من الشيطان او خلقها لكون لكل
شيء عنده اجلا وفي اية اخرى ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة ايام وما
مسنا من لغوب وحديث خلق الله الارض يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن
من منافع يوم الثلثاء الخ رواه مسلم والحاكم عن ابن عباس لكن يشكل على هذا التوزيع
انه لم يكن ثم ايام لعدم الشمس والقمر ولايتعين الاحد ولاغيره من الايام الا بوجودها بالفعل
ذكره سليمان الجمل وقال والجواب بقوله اي في قدرها لايدفع هذا الاشكال كما لايخفى ثم
استوى على العرش قد اختلف العلماء في معنى هذا على اربعة عشر قولا واحقها واولاها
بالصواب مذهب السلف الصالح انه استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي
يليق به مع تنزهه عما لايجوز عليه والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار قال
الجوهري استوى على ظهر دابته اي استقر واستوى الى السماء اي صعد واستوى اي
استولى وظهر وبه قال المعتزلة وجماعة من المتكلمين واستوى الرجل اي انتهى شبابه
واستوى اي اتسق واعتدل وحكي عن ابي عبيدة ان معنى استوى هنا علا وارتفع وللشوكاني
رسالة مستقلة في اثبات اجراء الصفات على ظواهرها منها صفة الاستواء ولشيخ الاسلام
احمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني والحافظ الامام محمد بن ابي بكر بن القيم الجوزي الامام
تمام بمسئلة الاستواء هذه واثبات الفوقية والعلو له تعالى على خلقه ولهما في ذلك
رسائل مستقلة ما بين مطولة منها ومختصرة وكتاب العلو للحافظ الذهبي فيه جميع ما ورد
في ذلك من الايات والاحاديث وغيرها وقد اوضحت هذا المقام في كتابي الانتقاد الرجيح
في شرح الاعتقاد الصحيح وعن ام سلمة قالت الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول
والاقرار به ايمان والجحود له كفر اخرجه ابن مردويه وعن مالك بن انس نحوه وزاد والسوال
عنه بدعة قال النسفي وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة
باطل انتهى واقول يا مسكين اما شعرت ان العرش في اللغة هو السرير والاستواء هو الاستقرار

وبه فسره حبر الامة وترجمان القرآن ابن عباس كما في البخاري وليس في ذلك تشبيه اصلا
انما التشبيه في بيان الكيفية بل الانكار عن ذلك تعطيل يخالف مذهب سلف الامة و
ائمتها وهو امرار الصفات كما جاءت واجراؤها على ظواهرها بلا تكييف ولا تاويل ولا
تعطيل ليس كمثله شيء والعرش قال الجوهري هو سرير الملك وقيل هو ما علا فاظل وسمي
مجلس السلطان عرشا اعتبار العلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة
والمجاز ويطلق على معان اخر منها عرش البيت سقفه وعرش البئر طيها بالخشب وعرش
السماك اربعة كواكب صغار ويطلق على الملك والسلطان والعز وقد ثبت في الاحاديث
الصحيحة صفة عرش الرحمن واحاطته بالسموات والارض وما بينهما وما عليهما وهو
المراد هنا قال الراغب وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر الا بالاسم على الحقيقة وليس هو
كما تذهب اليه اوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس
كما قال قوم انه الفلك الاعلى والكرسي فلك الكواكب قيل والمراد به هنا هو الجسم النوراني
المرتفع على كل الاجسام المحيطة بكلها يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ اي يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي
بظلمته ضياءه قرئ يغشي بالتشديد والتخفيف وهما لغتان يقال اغشى يغشي وغشى يغشي
والتغشية في الاصل الباس الشيء الشيء ولم يذكر في هذه الاية يغشي الليل بالنهار اكتفاء باحد
الامرين عن الاخر كقوله سرابيل تقيكم الحر ولدلالة الحال عليه اولان اللفظ يحتملهما بجعل
الليل مفعولا اولا والنهار مفعولا ثانيا او بالعكس وذكر في اية اخرى يكور الليل على النهار
ويكور النهار على الليل ذكره الكرخي في التقدير استوى على العرش مغشيا الليل النهار والاية
الكريمة من باب اعطيت زيدا عمرا لان كلا من الليل والنهار يصلح ان يكون غاشيا ومغشيا
فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوي والنهار هو المفعول من غير عكس يَطْلُبُهُ حَثِيثًا اي
حال كون الليل طالبا للنهار طلبا لا يفتر عنه بحال والحث الحمل على فعل الشيء كالحض عليه
والاستعجال والسرعة يقال ولى حثيثا اي مسرعا والحث والحض اخوان يقال حثثت فلانا
فاحتث فهو حثيث ومحثوث وفعله من باب رد قال الرازي انه سبحانه وصف هذه الحركة
بالسرعة الشديدة وذلك ان تعاقب الليل والنهار انما يحصل بحركة الفلك الاعظم وتلك

الحركة اشد الحركات سرعة فان الانسان اذا كان في اشد عدوه بمقدار رفع رجله
ووضعها يتحرك الفلك الاعظم ثلاثة الاف ميل وهي الف فرسخ وهذا قال يطلبه حثيثا
لسرعته وحركته اي يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء والجملة حال من الليل
لانه هو المحدث عنه اي يغشي النهار طالبا له او من النهار اي مطلوبا او من كل منهما وعليه
الجلال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره اي خلقها حال كونها مسخرات والاخبار عن هذه
بالتسخير وهو التذليل لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع اذ ليس هي قادرات بانفسهن
وانما يتصرفن على ارادة المدبر لهن على ما اراد منهن الا اداة استفتاح وله خبر مقدم و
المبتدأ الخلق والامر اخبار منه سبحانه لعباده بانهما له والخلق المخلوق والامر كلامه وهو
كن في قوله انما امرنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون او المراد بالامر ما يأمر به على
التفصيل والتصرف في مخلوقاته قال سفيان بن عيينة الخلق ما دون العرش والامر فوق
ذلك واستخرج من هذا المعنى ان كلام الله ليس بمخلوق لانه فرق بين الخلق والامر ومن
جعل الامر الذي هو كلامه من جملة ما خلقه فقد كفر وفي الآية دليل على انه لا خالق الا الله
ففيه رد على من يقول ان للشمس والقمر والكواكب تاثيرات في هذا العالم فاخبر انه هو الخالق
المدبر لهذا العالم لا هن وله الامر المطلق وليس لاحد امر غيره فهو الآمر والناهي الذي
يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه تبارك الله رب العالمين
اي كثرت بركته واتسعت ومنه بورك الشيء وبورك فيه كذا قال ابن عرفة وقال الازهري
معناه تعالى وتعاظم وقيل تمجد وارتفع وختم الآية بالثناء عليه لانه هو المستحق للمدح المطلق
وقال ابن عباس معناها جاء بكل بركة وقيل تقدس وقيل باسمه يتبرك في كل شيء وقيل
معناه ثبت ودام وفي الجمل تبارك فعل ماض لا يتصرف اي لم يجيء منه مضارع ولا امر ولا
اسم فاعل وقال الزجاج تبارك من البركة وهي الكثرة في كل خير ادعوا ربكم تضرعا وخفية
امرهم الله سبحانه بالدعاء وقيد ذلك بكون الداعي متضرعا بدعائه مخفيا له اي متضرعين
بالدعاء مخفين له او ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية وقيل الدعاء هنا بمعنى العبادة و
الاول اولى والتضرع من الضراعة وهي الذلة والخشوع والاستكانة والخفية والاسرار به فان

ذلك اقطع لعرق الرياء واحسم لمادة ما يخالف الاخلاص وقال الزجاج تضرعاً يعني تملقاً و
قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً وقال تعالى اذ نادى ربه نداء
خفيا وعن ابي موسى الاشعري قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها الناس اربعوا على انفسكم انكم لا تدعون اصم ولا غائبا انكم تدعون
سميعا بصيرا وهو معكم والذي تدعونه اقرب الى احدكم من عنق راحلته الحديث اخرجه
الشيخان ثم علل ذلك بقوله إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ اي المجاوزين لما أمروا به في الدعاء
بالتشدق ورفع الصوت وفي كل شيء فمن جاوز ما امره الله به في شيء من الاشياء فقد اعتدى
وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم دخولا اوليا ومن الاعتداء في الدعاء ان يسأل
الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا او ادراك ما هو محال في نفسه او يطلب الوصول الى منازل
الانبياء في الآخرة او يرفع صوته بالدعاء صارخا به وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ نهاهم الله سبحانه
عن الفساد في الارض بوجه من الوجوه قليلا كان او كثيرا ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم
وقطع اشجارهم وتغوير انهارهم ومن الفساد في الارض الكفر بالله والوقوع في معاصيه
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا اي بعد ان اصلحها الله بارسال الرسل وانزال الكتب وتقرير الشرائع قاله
الحسن والسدي والضحاك والكلبي وقيل بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا فيه انه يشرع للداعي ان يكون عند دعائه خائفا وجلا طامعا في اجابة الله لدعائه
فانه اذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه قال القرطبي امر الله تعالى
بان يكون العبد وقت الدعاء في حال ترقب وتخوف وامل في الله حتى يكون الخوف والرجاء
للانسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته واذا انفرد احدهما هلك الانسان
فيدعو الانسان خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه والخوف الانزعاج في الباطن من المضار التي
لا يؤمن من وقوعها وقيل توقع مكروه فيما بعد والطمع توقع حصول الامر المحبوب في المستقبل
قال ابن جريج معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل خوفا من الرياء وطمعا في الاجابة قال
بعض اهل العلم ينبغي للعبد ان يغلب الخوف حال حياته فاذا جاء الموت غلب الرجاء قال
صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى اخرجه مسلم والآية الاولى في بيان شرط

صحة الدعاء والثانية في بيان فائدة الدعاء إن رحمة الله قريب من المحسنين هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب في وجه تذكير خبر رحمة الله حيث قال قريب ولم يقل قريبة فقال الزجاج إن الرحمة مأولة بالرحم لكونها بمعنى العفو والغفران ورجح هذا التأويل النحاس وقال النضر بن شميل الرحمة مصدر بمعنى الترحم وحق المصدر التذكير وقال الأخفش أراد بالرحمة هنا المطر وتذكير بعض المؤنث جائز وقال أبو عبيدة ذكر على معنى مكان قريب قال علي بن سليمان الأخفش وهذا خطأ وقال الفراء إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر ويؤنث وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم وروي عن الفراء أنه قال في النسب قريبة فلان وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث يقال دارك منا قريب وفلانة منا قريب قال الله تعالى وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا وروي عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال إن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما وقيل إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقي جاز في خبرها التذكير ذكر معناه الجوهري وأصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة في مجرد الرقة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها الباري يراد بها الإحسان فقط وقيل هي إرادة إيصال الخير والنعمة على عباده فعلى الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال وعلى الثاني من صفات الذات قال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب

فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ وقوله هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته يتضمن ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته ورياح جمع ريح وأصل ريح روح وقرئ نشرا بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب أي ذات نشر وقرئ بضم النون وإسكان الشين وبفتح النون وإسكان الشين ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذي هو خلاف الطي فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة وقال أبو عبيدة معناه متفرقة في وجوهها على معنى ينشرها ههنا وههنا وقيل هي الريح الطيبة الهبوب تهب من كل ناحية وقيل يقال أنشر الله الريح بمعنى

احياها وقال الفراء النشر الريح اللينة التي تنشر السحاب وقال ابن الانباري هي المنتشرة الواسعة
الهبوب وقرئ بشرا بالموحدة واسكان الشين جمع بشير اي الرياح تبشر بالمطر ومثله قوله تعالى
وهو الذي يرسل الرياح مبشرات والمراد بالرحمة المطر اي قدام رحمته والمعنى انه سبحانه يرسل
الرياح ناشرات او مبشرات بين يدي المطر في الريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة وجمعه الرياح
وهي اربعة الصبا وهي الشرقية تثير السحاب والدبور وهي الغربية تفرقه والشمال تجمعه
وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي والجنوب تدره وهي قبلية عن ابن عمر ان الرياح ثمان
اربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم واربع منها رحمة وهي الناشرات
والمبشرات والمرسلات والذاريات قال كعب لو حبس الله الريح عن عباده ثلثة ايام لانتن
اكثر اهل الارض حتى غاية لقوله يرسل اذا اقلت سحابا ثقالا حقيقة اقل جعله قليلا او وجده
قليلا ثم استعمل بمعنى حمله لان الحامل يستقل ما يحمله ومنه المقل بمعنى الحامل واشتقاق الاقلال
من القلة فان من يرفع شيئا يراه قليلا يقال اقل فلان الشيء حمله ورفعه والسحاب اسم جنس جمعي
يذكر ويؤنث تصح مراعاة لفظه ومراعاة معناه وهو الغيم فيه ماء او لا سمي سحابا لانسحابه في الهواء
والمعنى اذا حملت الريح سحابا ثقالا بالماء الذي صارت تحمله سقناه اي السحاب وفيه التفات عن
الغيبة في قوله هو الذي يرسل لبلد ميت اي مجدب ليس فيه نبات لعدم الماء يقال سقته لبلد كذا والى
كذا وقيل لاجل بلد ميت قاله الزمخشري وجعلها لام العلة ولا يظهر بل هي لام التبليغ كقولك
قلت لك قال ابو حيان فرق بين قولك سقت لك مالا وسقت لاجلك فان الاول معناه
اوصلته لك وبلغتكه والثاني لا يلزم منه وصوله اليك والبلد هو الموضع العامر من الارض
وقال الازهري عامرا او غير عامر خال او مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد وزاد غيره
والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن والبلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان فانزلنا به
الماء اي بالبلد الذي سقناه لاجله قاله الزجاج وابن الانباري وهذا هو الظاهر وقيل
انزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله او فانزلنا بالريح المرسلة بين يدي المطر الماء وقيل ان الباء هنا
بمعنى من اي فانزلنا منه الماء وقيل انها سببية اي فانزلنا الماء بسبب السحاب وقيل يعود
على السوق المفهوم من الفعل اي بسبب سوق السحاب وهو ضعيف لعود الضمير على غير مذكور مع امكان

عوده على المذكور فاخرجنا به اي بالماء او بذلك البلد الميت والاول اولى بل لا ينبغي ان يعدل عنه من كل الثمرات اي من جميع انواعها من تبعيضية او ابتدائية كذلك اي مثل اخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم بعد فنائهم ودروس آثارهم والتشبيه في مطلق الاخراج من العدم وهذا رد على منكري البعث ومحصله ان من قدر على اخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على احياء الموتى من قبورهم لعلكم تذكرون فتعلمون لعظيم قدرة الله وبديع صنعته وتؤمنون بانه قادر على بعثكم كما قدر على اخراج الثمرات التي تشاهدونها والخطاب لمنكري البعث والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه اي التربة الطيبة السهلة السمحة يخرج نباتها باذن الله وتيسيره خروجا حسنا تاما وافيا وخص خروج نبات الطيب بقوله باذن ربه على سبيل المدح والتشريف وان كان كل من النباتين يخرج باذنه تعالى قاله ابو حيان في النهر والمغني بمشيته وعبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانه وقع في مقابلة قوله والذي خبث اي والتربة الخبيثة السبخة لا يخرج نباتها الا نكدا اي قليلا لا خير فيه وقيل عسرا بمشقة وكلفة يقال نكد نكدا من باب تعب فهو نكد تعسر وفي كل العيش نكد اشتد وعسر وفي القاموس نكد عيشهم كفرح اشتد وعسر والبئر قل ماؤها ونكد زيد حاجة عمرو كنصر منعه اياها ورجل نكد شوم عسر وقوم انكاد ومناكيد والنكد بالضم قلة العطاء ويفتح وقيل معنى الاية التشبيه شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب والبليد بالبلد الخبيث ذكره النحاس وقيل هذا مثل للقلوب فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب والنائي عنه بالبلد الخبيث قاله الحسن وقيل هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم قاله مجاهد عن ابي موسى الاشعري قال قال رسول صلعم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذي ارسلت به اخرجاه

في الصحيحين ولليس في هذا ما يدل على انه السبب في نزول الآية كذلك اي مثل ذلك التصريف
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ الله ويعترفون بنعمته وينتفعون بسماع القرآن لَقَدْ أَرْسَلْنَا
نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ لما بين الله سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا
اقاصيص الامم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الامة على الصواب وان
لا يقتدوا بمن خالف الحق من الامم السالفة واللام جواب قسم محذوف اي والله لقد ارسلنا
نوح بن لمك بن متوشلخ ومعنى ارسلنا بعثنا وكان نوح نجارا بعثه الله وهو ابن اربعين سنة
وقيل خمسين سنة وقيل مائتين وخمسين سنة وقيل ابن مائة سنة وهو اول الرسل الى اهل
الارض بعد آدم اخرج ابو حاتم وابو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن انس ان النبي صلعم قال
اول نبي ارسل نوح قال يزيد الرقاشي انما سمي نوحا لطول ما ناح على نفسه وكان اسمه عبد
الغفار بن لمك واختلف في سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه في
شان ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسا يا قبيح فاوحى الله تعالى اليه اعبتني
ام عبت الكلب وقوم الرجل اقرباؤه الذين يجتمعون في جد واحد وقد يقيم الرجل بين الاجانب
فيسميهم قومه مجاز المجاورة وفي التنزيل قال يقوم اتبعوا المرسلين وكان مقيما بينهم ولم يكن منهم
وقيل كانوا قومه قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من
الحق وقد تقدم ذكر نوح في آل عمران فاغنى عن الاعادة هنا واما قيل ان ادريس قبل نوح
فقال ابن العربي انه وهم قال المازري فان صح ما ذكره المؤرخون كان محمولا على ان ادريس كان
نبيا غير مرسل فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ اي اعبدوه لانه لم يكن لكم اله
غيره حتى يستحق منكم ان يكون معبودا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ان عبدتم غيره عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
جملة متضمنة لتعليل الامر بالعبادة والمراد عذاب يوم القيامة او عذاب الطوفان وانما
قال اخاف على الشك وان كان على يقين وجزم من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه
لم يعرف وقت نزول العذاب بهم ايعاجلهم ام يتاخر عنهم العذاب الى يوم القيامة قَالَ الْمَلَأُ
مِنْ قَوْمِهِ الملأ اشراف القوم ورؤساؤهم وقيل هم الرجال سموا بذلك لانهم يملئون عند
من المعرف في جودة الراي اولانهم يملئون العيون ابهة والصدور هيبة والجمع املاء مثل سبب واسباب

وقد تقدم بيانه في البقرة إنا لنراك في ضلال مبين الضلال العدول عن طريق الحق والذهاب عنه يقال ضل الرجل الطريق وضل عنه يضل من باب ضرب ضلالا وضلالة زل عنه فلم يهتد اليه فهو ضال هذه لغة نجد وهي الفصحى وبها جاء القرآن في قوله ان ضللت فانما اضل على نفسي وفي لغة لاهل العالية من باب تعب والاصل في الضلال الغيبة ومنه قيل للحيوان الضائع ضالة بالهاء للمذكر والمؤنث والجمع الضوال مثل دابة ودواب اي انا لنراك في دعائك الى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق وخطأ وزوال عنه بين والرؤية قلبية قال يا قوم ليس بي ضلالة كما تزعمون وهي اعم من الضلال فنفيها ابلغ من نفيه ولكني رسول جاءت لكن هنا احسن مجيء لانها بين نقيضين لان الانسان لا يخلو من احد شيئين ضلال وهدى والرسالة لا تجامع الضلال من رب العالمين صفة لرسول ومن لابتداء الغاية المجازية اي ارسلني لسوق الخير اليكم ودفع الشر عنكم نفى عن نفسه الضلالة واثبت لها ما هو اعلى منصب واشرف رفعة وهو انه رسول الله اليهم ابلغكم رسالات ربي جمع الرسالة لاختلاف اوقاتها ولتنوع معانيها او لان المراد بها المرسل به وهو متعدد اي ما ارسله الله به اليهم مما اوحاه اليه وانصح لكم يقال نصحته ونصحت له وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في امحاض النصح قال الاصمعي الناصح الخالص من الغل وكل شيء خلص فقد نصح فمعنى انصح هنا اخلص النية لكم عن شوائب الفساد والاسم النصيحة وقيل النصح تحري قول وفعل فيه صلاح للغير وقيل ارادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك او النهاية في صدق العناية وجملة اعلم من الله ما لا تعلمون مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه وانه يختص بعلم الاشياء التي لا يعلمونها باخبار الله له بذلك ومنها قدرته الباهرة وشدة بطشه على اعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين أوعجبتم الهمزة للاستفهام للانكار كانه قيل استبعدتم وكذبتم او انكرتم وعجبتم ان جاءكم ذكر اي وحي وموعظة من ربكم والمراد به الكتاب الذي انزل على نوح وقيل المعجزة التي جاء بها نوح والاول اولى على لسان رجل منكم اي من جنسكم تعرفونه ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه او لا تعرفون لغته وقيل على بمعنى مع قاله الفراء لينذركم به علة للمجيء ولتتقوا ما يخالفه علة ثانية مرتبة على العلة قبلها ولعلكم ترحمون بسبب ما يفيده الانذار لكم والتقوى منكم من التعرض

لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم وهي جملة ثالثة مرتبة على التي قبلها وهذا الترتيب في غاية
من الحسن لأن المقصود من الارسال الانذار ومن الانذار التقوى ومن التقوى الفوز بالرحمة فكذبوه أي
فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الانذار واستمروا على تكذيبه في دعوى النبوة وما
نزل عليه من الوحي الذي بلغه اليهم فأنجيناه من الطوفان والغرق والذين معه من المؤمنين
به المستقرين معه قيل كانوا اربعين رجلا واربعين امرأة وقيل كانوا تسعة ابناؤه الثلاث
وستة من غيرهم في الفلك أي السفينة روي انه اتخذها في سنتين وركبها في عاشر رجب
ونزل منها في عاشر محرم والفلك واحد وجمع تذكر وتؤنث وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا
أي استمروا على ذلك ولم يرجعوا الى التوبة انهم كانوا قوما عمين عن الحق وفهمه قاله مجاهد
أي لكونهم عمي القلب لا ينجع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير قال ابن عباس عمين كفارا
قال الزجاج عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر قاله الليث
وقيل هما بمعنى وقال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق وعمين جمع عم صفة مشبهة
لكن تصرف فيه بحذف لامه كقاض اذا جمع فاصله عميين قال بعضهم عم فيه دلالة على
ثبوت الصفة واستقرارها كفرح وضيق ولو اريد الحدوث لقيل عام كما يقال فارح وضائق
وقد قرئ عامين حكاها الزمخشري وأرسلنا الى قوم عاد وهو من ولد سام بن نوح قيل هو عاد
بن عوص بن ارم بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح وهي عاد الاولى وعاد الثانية قوم صالح
وهم ثمود وبينهما مائة سنة أخاهم أي واحدا من قبيلتهم او صاحبهم وسماه اخا لكونه
ابن آدم مثلهم قاله الزجاج والعرب تسمي صاحب القوم اخاهم هودا هو ابن عبد الله بن
رباح بن الخلود بن عاد بن عوص المذكور قاله السيوطي في التحبير وقال ابن اسحاق هو هود بن
شالخ المذكور والاول اولى واشتهر في السنة النحاة ان هودا عربي وفيه نظر لان الظاهر من كلام
سيبويه لما عده مع نوح ولوط انه اعجمي وكان بينه وبين نوح ثمانمائة سنة وعاش اربعمائة
واربعا وستين سنة وصرح هنا بتعيين المرسل اليهم دون ما سبق في نوح وما سيأتي في لوط
لان المرسل اليهم اذا كان لهم اسم قد اشتهر وابه ذكروا به والا فلا وقد امتاز عاد وثمود ومدين
باسماء مشهورة قال الربيع بن خثيم كانت عاد ما بين اليمن الى الشام مثل الذر وقيل كانت منازلهم

عاد بالأحقاف باليمن والأحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت وقال وهب كان الرجل
من عاد ستين ذراعا بذراعهم وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل تفرخ
فيها السباع وكذلك مناخرهم وقال قتادة ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعا طولا وعن ابن عباس
كان الرجل منهم ثمانين باعا وكانت البرة فيهم ككلية البقرة والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر ولا تخلو
هذه الأقاويل عن ضعف وبعد قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولم يقل هنا فقال كما قال في
قصة نوح لأن الفاء تدل على التعقيب وكان نوح مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها
وكان هود دون نوح في المبالغة في الدعاء وقيل هذا على تقدير سؤال سائل قال فما قال
لهم هود فقيل قال يا قوم أفلا تتقون قد تقدم تفسيره أي أفلا تخافون ما نزل بكم من
العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء حسن تخويفهم من العذاب والاستفهام للاستبعاد
والإنكار وقال في سورة هود أفلا تعقلون ولعله خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل
منهما في موطن عن حكايته في موطن آخر كما لم يذكر ههنا ما ذكره هناك من قوله إن أنتم إلا مفترون
وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من القصص قال الملأ الذين كفروا من قومه
إنا لنراك في سفاهة هي الخفة والحمق وقد تقدم بيانه في البقرة نسبوه إلى الخفة والطيش و
قلة العقل والجهالة ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا وإنا لنظنك من الكاذبين مؤكدين لظنهم
كذبه فيما ادعاه من الرسالة قال يا قوم ليس بي سفاهة كما تدعون ولكني رسول من
رب العالمين إليكم استدرك على ما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى
من الرشد فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك فكأنه قيل ليس بي شيء مما تنسبوني
إليه ولكني في غاية من الرشد والصدق ولم يصرح بنفي الكذب اكتفاء بما في حيز الاستدراك
ومن لابتداء الغاية وقد تقدم بيان معنى هذا قريبا وكذا سبق تفسير قوله أبلغكم رسالات
ربي وأنا لكم ناصح فيما أمركم به من عبادة الله وترك عبادة ما سواه أمين هو المعروف
بالأمانة والثقة على ما ائتمن عليه وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه في موضع الضرورة
إلى مدحها وفي إجابة الأنبياء من ينسبهم إلى السفاهة والضلال بما أجابوهم به من الكلام الصادر
عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب

حسن وخلق عظيم وتعليم من الله لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون اذيال حلمهم على ما يكون منهم ونحوه قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما واتى هود بالجملة الاسمية ونوح بالفعلية حيث قال وانصح لكم وذلك لان صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة وكان نوح يكرر في دعائهم ليلا ونهارا من غير تراخ فناسب التعبير بالفعل واما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا عبر بالاسمية أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى لسان رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ بأس ربكم ويخوفكم عقابه وقد سبق تفسيره وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ اي جعلهم سكان الارض التي كانوا فيها اذكرهم الله نعمة من نعمه عليهم او جعلهم ملوكا جعل الذكر للوقت والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الارض لقصد المبالغة لان الشيء اذا كان وقته مستحقا للذكر فهو مستحق له بالاولى وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً اي طولا في الخلق وعظم جسم وقوة زيادة على ما كان عليه اباءهم في الابدان وقيل بسطا اي شدة قال ابن عباس وعن ابي هريرة قال كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع خمسمائة من هذه الامة لم يستطيعوا ان يقلوه وان كان احدهم ليدخل قدمه في الارض فتدخل فيها قال السدي والكلبي كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين وقيل سبعين ذراعا وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم اجرام قوم عاد ليس بعد كما تقدم فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ اي نعم عليكم جمع إلي بكسر الهمزة وسكون اللام كحمل واحمال او ألي بضم الهمزة وسكون اللام كقفل واقفال او إلى بكسر الهمزة وفتح اللام كضلع واضلاع وعنب واعناب او ألى بفتحهما كقفا واقفاء ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الارض والبسطة في الخلق وغير ذلك مما انعم به عليهم وكرر التذكير لزيادة التقرير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ان تذكرتم ذلك لان الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ومن شكر فقد افلح قَالُوا في جواب نصحه لهم أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ هذا استنكار منهم لدعائه الى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله وانما كان هذا مستنكرا عندهم لانهم وجدوا اباءهم على خلاف ما دعاهم اليه فلذا قالوا وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا اي نترك الذي كانوا يعبدونه من الاصنام وهذا داخل في جملة

ما استنكروه وهكذا يقول المقلدة لأهل الاتباع والمبتدعة لأهل السنة فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به لشدة تمردهم على الله ونكوصهم عن طريق الحق وبعدهم عن اتباع الصواب قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره أئمة المعاني والبيان وقيل معنى وقع وجب والرجس العذاب وقيل السخط وقيل هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة فقال أتجادلونني في أسماء يعني أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها جعلها أسماء عارية لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطل فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط والاستفهام على سبيل الانكار سميتموها أي سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وآباؤكم ولا حقيقة لذلك ما نزل الله بها من سلطان أي من حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من الدعاوى الباطلة ثم توعدهم بأشد وعيد فقال فانتظروا إني معكم من المنتظرين أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم بلا شك فأنجيناه والذين معه برحمة منا أخبر الله سبحانه أنه نجى هودا ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم يقبل رسالته فالمعية مجاز عن المتابعة أخرج ابن عساكر لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليهم الجلود وتلتذ به الأنفس وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا الدابر الأصل أو الكائن خلف الشيء وهو الآخر إذا قطع الآخر فقد قطع ما قبله فحصل الاستئصال أي الاستيعاب بالقطع وقد تقدم تحقيق معناه والمعنى استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا وعدم الإيمان والمراد بالآيات المعجزات الدالة على صدقه وعن أبي هريرة قال كان عمر هود أربعمائة سنة واثنين وسبعين سنة وعن علي بن أبي طالب قال قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة وعن عثمان بن أبي العاتكة قال قبلة مسجد دمشق قبر هود وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسمعيل

في تلك البقعة ويروى ان كل نبي من الانبياء اذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه
الى مكة يعبدون الله حتى يموتوا بها والله اعلم بصحة ذلك وما كانوا مؤمنين مصدقين
بالله ولا برسوله هود عليه السلام وقد اطال القوم في بيان قصة قومه وهلاكهم وفي اجمال القرآن
يغني عن تفصيل لا يسند والى ثمود اخاهم صالحا ثمود قبيلة سموا باسم ابيهم وهو ثمود
بن عاد بن ارم بن سام بن ارفخشد بن سام بن نوح وصالح هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح
بن عبيد بن حاذر بن ثمود وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى
وما حوله قال ابو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وكان صالح
اخاهم في النسب لا في الدين وكان بينه وبين هود مائة سنة وعاش صالح مائتين وثمانين
سنة كذا في التحبير قال يا قوم اعبدوا الله اي وحدوه ولا تشركوا به شيئا ما لكم من اله
غيره يستحق ان يعبد سواه وقد تقدم تفسيره في قصة نوح قد جاءتكم بينة من
ربكم اي معجزة ظاهرة وبرهان جلي وهي اخراج الناقة من الحجر الصلد عن ابي الطفيل قال
قالت ثمود لصالح ائتنا باية ان كنت من الصادقين قال اخرجوا فخرجوا الى هضبة من الارض
فاذا هي تمخض كما تمخض الحامل ثم انها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها فقال لهم صالح هذه
ناقة الله لكم اية وليس هذا اول خطاب لهم بل بعد ما نصحهم كما قص في سورة هود من
قوله هو انشاكم من الارض واستعمركم فيها الايات هذه الاية مشتملة على بيان البينة المذكورة
وفي اضافة الناقة الى الله تشريف لها وتكريم وكونها اية على صدق صالح انها خرجت
من صخرة في الجبل لا من ذكر ولا انثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج وقيل غير ذلك
فذروها تاكل في ارض الله تفريع على كونها اية من ايات الله فان ذلك يوجب عدم
التعرض لها اي دعوها فهي ناقة الله والارض ارضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه
ولا تمسوها بسوء اي لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها نهي عن المس الذي هو مقدمة
الاصابة بالسوء الشامل لانواع الاذى فياخذكم عذاب اليم اي شديد الالم بسبب عقرها
واذاها ومنعها من الرعي واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد اي استخلفكم في الارض او
جعلكم ملوكا فيها كما تقدم في قصة هود وبواكم في الارض اي جعل لكم فيها مباءة وهي المنزل

الذي تسكنونه أي اسكنكم وانزلكم في أرض الحجر بكسر الحاء تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا أي من سهولة الارض وهي تراب ما تتخذون منه اللبن والآجر ونحو ذلك فتبنون به القصور وانما سميت بذلك لقصور الفقراء عن تحصيلها وحبسهم عن نيلها وَتَنْحِتُونَ أي تشقون والنحت نجر الشيء الصلب وفي القاموس نحته ينحته براه والنحاتة البراية والمنحت ما ينحت به الْجِبَالَ بُيُوتًا تسكنون فيها وقد كانوا الفوا قوتهم وصلابة ابدانهم ينحتون الصخر فيتخذون فيها كهوفا يسكنون فيها لان الابنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء اعمارهم قال الضحاك كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى الف سنة وكذا كان قوم هود وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدل على انهم كانوا متنعمين مترفهين فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ عليكم واشكروه عليها وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ العثي والعثو لغتان قال قتادة معناه لا تسيروا والعثو اشد الفساد وقيل اراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهي عن جميع انواع الفساد وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الاعادة قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ أي الرؤساء المتكبرون من قوم صالح الذين تعظموا عن الايمان به والسين زائدة لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أي للمساكين الذين استضعفهم المستكبرون واللام للتبليغ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ لان في المستضعفين من ليس بمؤمن أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ اليكم قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ اجابوهم بانهم مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم انما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته ام لا مسارعة الى اظهار ما لهم من الايمان وتنبيها على ان كونه مرسلا امر واضح مكشوف لا يحتاج الى السؤال عنه قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عن امر الله والايمان به وبرسوله صالح تمردا وعنادا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ أي جاحدون وهذه الجمل المعنونة بقال مستأنفة لانها جوابات عن سؤالات مقدرة كما سبق بيانه ولم يقولوا انا بما ارسل به كافرون اظهارا لمخالفتهم اياهم ورداً لمقالتهم فَعَقَرُوا النَّاقَةَ العقر الجرح وقيل قطع عضو يؤثر في تلف النفس يقال عقرت الفرس اذا ضربت قوائمه بالسيف وقيل اصل العقر كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر لان العقر سبب النحر في الغالب واسند العقر الى الجميع مع كون العاقر واحدا منهم لانهم راضون بذلك موافقون عليه

وقال عاقر الناقة لا اقتلها حتى ترضوا اجمعين فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون
اترضين فتقول نعم والصبي حتى رضوا اجمعين فعقروها وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان
اسمه فقيل قدار بن سالف وكان رجلا احمر ازرق يزعمون انه ابن زانية وكان عزيزا منيعا
في قومه وقيل غير ذلك وفر ولد الناقة هاربا فانفتحت له الصخرة التي خرجت منها امه
فدخلها وانطبقت عليه وقيل انهم ادركوه وذبحوه وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ اي استكبروا
يقال عتا يعتو عتوا استكبر وتعتى فلان اذا لم يطع والليل العاتي الشديد الظلمة والمراد
بالامر الحكم وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ هذا
استعجال منهم للنقمة وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم قالوا ذلك استهزاء به
وتعجيزا له فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ اي الزلزلة الشديدة العظيمة قاله الزجاج والفراء يقال
رجف الشيء يرجف رجفانا واصله حركة مع صوت ومنه يوم ترجف الراجفة وقيل كانت
صيحة شديدة خلعت قلوبهم قاله مجاهد والسدي فقيل انه اخذتهم الزلزلة من تحتهم و
الصيحة من فوقهم حتى هلكوا وعلى هذا في الاية كفاية وقد وقع التصريح بها في اية اخرى فكان
عذابهم بالرجفة والصيحة فذكر في كل موضع واحدة منهما فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ اي بلدهم ودارهم
جَاثِمِينَ اي لاصقين بالارض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر واصل الجثوم للارنب و
شبهها وقيل الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطيا بالارض
في حال نومه وسكونه بالليل والمراد انهم اصبحوا في دورهم ميتين لا حراك بهم فَتَوَلَّى عَنْهُمْ
صالح عند اليأس من اجابتهم وقيل بعد ان ماتوا وهلكوا وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ يحتمل انه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم
على طريق الحكاية الماضية كما وقع من النبي صلعم من التكلم لاهل قليب بدر بعد موتهم او قالها
لهم عند نزول العذاب بهم وكانه كان مشاهدا لذلك فتحسر على ما فاتهم من الايمان والسلامة
من العذاب وقيل انما خاطبهم بذلك ليكون عبرة لمن ياتي من بعدهم وفيه زجر عن مثل تلك الطريقة
التي كانوا عليها ثم ابان عن نفسه انه لم يأل جهدا في ابلاغهم الرسالة ومحض النصح ولكن ابوا ذلك
فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه عن قتادة ان صالحا قال

لهم حين عقروا الناقة تمتعوا ثلاثة ايام ثم قال لهم اية هلاككم ان تصبح وجوهكم غدا
مصفرة واليوم الثاني محمرة واليوم الثالث مسودة فاصبحت كذلك فلما كان اليوم الثالث
ايقنوا بالهلاك فتكفنوا وتحنطوا ثم اخذتهم الصيحة فاهمدتهم واخرج احمد من حديث ابن عمر
قال قال رسول الله صلعم وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا
باكين فلا تدخلوا عليهم ان يصيبكم مثل ما اصابهم واصل الحديث في الصحيحين من غير وجه
وفي لفظ لاحمد من هذا الحديث قال لما نزل رسول الله صلعم على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت
ثمود قيل وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح اربعة آلاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما
دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا اربعة آلاف مدينة وسموها حاضوراء وقال
قوم توفي صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة واقام في قومه عشرين سنة وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اي وقت ان قال لقومه قال الفراء لوط مشتق من قولهم هذا اليط بقلبي
اي الصق قال الزجاج ومن زعم انه من لطت الحوض اذا ملسته بالطين فقد غلط لان
الاسماء العجمية لا تشتق وقال سيبويه نوح ولوط اسماء اعجمية الا انها خفيفة فلذلك صرفت
ولوط هو ابن هاران بن تارخ فهو ابن اخي ابرهيم وليس من انبياء بني اسرائيل وكانا ببابل بالعراق
فهاجرا الى الشام فنزل ابراهيم ارض فلسطين ونزل لوط بالاردن وهي قرية بالشام وبعثه
الله الى امة يقال لها سدوم بالذال المعجمة وهي بلد بحمص أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ الخصلة
الخسيسة المتمادية في الفحش والقبح وهي ادبار الرجال قاله ابن عباس قال ذلك انكارا عليهم
وتوبيخا لهم مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ اي لم يفعلها احد من قبلكم فان اللواط
لم يكن في امة من الامم قبل هذه الامة والباء للسببية وقال الزمخشري للتعدية ومن مزيدة
للتوكيد العموم في النفي وانه مستغرق لما دخل عليه والجملة مسوق لتاكيد النكير عليهم و
التوبيخ لهم قال عمرو بن دينار ما نزى ذكر على ذكر في الدنيا الا كان من قوم لوط إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ في ادبارهم هذا توبيخ آخر اشنع مما سبق لتاكيده بان وباللام واسمية الجملة شَهْوَةً
اي تشتهونهم شهوة او لاجل الاشتهاء او مشتهين يقال شهي يشهى شهوة وشهى يشهو شهوة قال
ابن عباس انما كان بدأ عمل قوم لوط ان ابليس جاءهم في هيئة صبي اجمل صبي رآه الناس فدعاهم

الى نفسه فنحوه ثم جسر واعلى ذلك قرئ ائنكم بهمزة مكسورة وبهمزتين على الاستفهام المقتضي للتوبيخ والتقريع واختار الاولى ابو عبيد والكسائي وغيرهما والثانية الخليل وسيبويه وفيه انه لا غرض لهم باتيان هذه الفاحشة الا مجرد قضاء الشهوة من غير ان يكون لهم فيه ذلك غرض يوافق العقل فهم في هذا كالبهائم التي ينزو بعضها على بعض لما يتقاضاه من الشهوة من دون النساء اي متجاوزين في عملكم هذا النساء اللاتي هن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة بل انتم قوم مسرفون اي مجاوزون الحلال الى الحرام يعني من فروج النساء الى ادبار الرجال اضرب عن الانكار المتقدم الى الاخبار بما هم عليه من الاسراف الذي تسبب عنه اتيان هذه الفاحشة الفظيعة والمشهور انه اضراب انتقالي من قصة الى قصة وقيل بل للاضراب عن شيء محذوف قال ابو البقاء تقديره ما عدلتم بل انتم الخ وقال الكرماني بل انتم رد لجواب زعموا ان يكون لهم عذر اي لا عذر لكم بل انتم وما كان جواب قومه الواقعين في هذه الفاحشة عما انكره عليهم منها والمستكبرين منهم المتصدين للحل والعقد الا ان قالوا استثناء مفرغ اخرجوهم اي لوطا واتباعه من قريتكم من سدوم بوزن رسول وهي من قرى حمص بالشام ولم يكن لهم جواب الا هذا القول المباين للانصاف والمخالف لما طلبه منهم وانكره عليهم انهم اناس يتطهرون اي يتنزهون من ادبار الرجال والنساء والتطهر تعليل لما امروا به من الاخراج ووصفهم بالتطهر يمكن ان يكون على حقيقته وانهم ارادوا ان هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة فلا يساكنونا في قريتنا ويحتمل انهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء وقيل ان البعد عن المعاصي والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنها فقد تطهر فانجيناه واهله الا امرأته كانت من الغابرين اخبر سبحانه انه انجى لوطا واهله المؤمنين به وقيل المراد باهله المتصلون به بسبب النسب والمراد ابنتاه واستثنى امرأته من الاهل لكونها لم تؤمن به والمعنى انها كانت من الباقين في عذاب الله لانها كانت كافرة يقال غبر الشيء اذا مضى وغبر اذا بقي فهو من الاضداد وحكى ابن فارس في المجمل عن قوم انهم قالوا الماضي غابر

بالمهملة والباقي غابر بالمعجمة وقال الزجاج من الغائبين عن النجاة وقال ابو عبيد المعنى من المعمرين وكانت قد هرمت واتى عليها دهر طويل ثم هلكت واكثر اهل اللغة على ان الغابر الباقي قال سعيد بن ابي عروبة كان قوم لوط اربعة الاف الف ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا قيل امطر بمعنى ارسل المطر وقال ابو عبيد مطر في الرحمة وامطر في العذاب وهذا مردود بقوله تعالى هذا عارض ممطرنا فانهم انما عنوا بذلك الرحمة وهو من امطر رباعيا ومطر وامطر بمعنى واحد والمعنى هنا ان الله امطر عليهم حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت والنار فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ هذا خطاب لكل من يصلح له او لمحمد صلى الله عليه وسلم قاله الاصفهاني في تفسيره وسياتي في هود قصة لوط بابين مما هنا قال مجاهد نزل جبرئيل فادخل جناحه تحت مداين قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل اعلاها اسفلها ثم اتبعوا بالحجارة وَإِلَىٰ مَدْيَنَ اسم قبيلة وقيل اسم بلد والاول اولى وسميت القبيلة باسم ابيهم وهو مدين بن ابراهيم كما يقال بكر وتميم وقيل مدين اسم الماء الذي كانوا عليه وقيل مشترك بينهما أَخَاهُمْ شُعَيْبًا وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن ابراهيم قاله عطاء وابن اسحاق وغيرهما وقال الشرقي بن القطامي انه شعيب بن عيفا بن ثويب بن مدين بن ابراهيم وزعم ابن سمعان انه شعيب بن حرة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم وقال ابن اسحاق هو شعيب بن مكيل بن شجر بن مدين بن ابراهيم فام مكيل بنت لوط وقيل هو شعيب بن شيرون بن مدين وقال قتادة هو شعيب بن صفوان بن عيفا بن ثابت بن مدين عن عكرمة والسدي قالا ما بعث الله نبيا مرتين الا شعيبا مرة الى مدين فاخذتهم الصيحة ومرة الى اصحاب الايكة فاخذهم الله بعذاب يوم الظلة وكان شعيب اعمى وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه اهل كفر وبخس في المكيال والميزان قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قد سبق شرحه في قصة نوح قَدْ جَاءَتْكُم

بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ قد تبين تفسيره ايضا ولم يتبين هذه المعجزة في القرآن العظيم كاكثر
معجزات نبينا صلعم وقيل ان المراد بها نفسه وقيل ان المراد بها قوله فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وقيل غير ذلك وامرهم بايفاء الكيل والميزان لانهم كانوا اهل معاملة
بالكيل والوزن وكانوا لا يوفونها وذكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه
الميزان الذي هو اسم للآلة واختلف في توجيه ذلك فقيل المراد بالكيل المكيال
فيناسب عطف الميزان عليه وقيل المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل والمعنى
اتموهما واعطوا الناس حقوقهم وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ البخس النقص و
هو يكون بالتعييب للسلعة او التزهيد فيها او المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه
وكل ذلك من اكل اموال الناس بالباطل وظاهر الآية انهم كانوا يبخسون في كل الاشياء
وقيل كانوا مكاسين يمكسون كل ما دخل الى اسواقهم وقال ابن عباس لا تبخسوا
اي لا تظلموا الناس وبه قال قتادة وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا اي
بعد ان اصلحها الله ببعثة الرسل واقامة العدل قيل كانت الارض قبل ان يبعث الله
شعيبا رسولا تعمل فيها المعاصي وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء فذلك
فسادها فلما بعث الله شعيبا ودعاهم الى الله صلحت الارض وكل نبي يبعث الى
قومه فهو صلاحهم ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله ذَٰلِكُمْ
اشارة الى العمل بما امرهم به وترك ما نهاهم عنه خَيْرٌ لَّكُمْ المراد بالخيرية هنا الزيادة
مطلقة لانه لا خير في عدم ايفاء الكيل والوزن وفي بخس الناس وفي الفساد في
الارض اصلا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ اي مصدقين بما اقول ومريدين الايمان فبادروا
اليه وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ محسوس تُوعِدُونَ الصراط الطريق قيل كانوا يقعدون
في الطرقات المفضية الى شعيب فيتوعدون من اراد المجيء اليه ويقولون انه كذاب
فلا تذهب اليه كما كانت قريش تفعله مع رسول الله صلعم قاله ابن عباس وقتادة
ومجاهد والسدي وغيرهم وقيل المراد القعود على طرق الدين ومنع من اراد
سلوكها وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ويؤيده وتصدون عن سبيل

الله من آمن به كما سيأتي وقيل المراد بالآية النهي عن قطع الطريق واخذ السلب وكان
ذلك من فعلهم وقيل انهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من اموال الناس
فنهوا عن ذلك والقول الاول اقربها الى الصواب مع انه لا مانع من حمل النهي على
جميع هذه الاقوال المذكورة والمعنى لا تقعدوا بكل طريق موعدين لاهله ولم يذكر
الموعد به لتذهب النفس كل مذهب ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اي صادين عنه
باغين لها عوجا والمراد بالصد عنه صد الناس عن الطريق الذي قصد واعليه ومنعهم
من الوصول الى شعيب فان سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول الى نبي الله هو
سلوك سبيل الله والضمير في ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ يرجع الى الله او الى السبيل او الى كل صراط او الى
شعيب ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ اي تطلبون سبيل الله ان تكون معوجة غير مستقيمة و
قيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد
وقد سبق الكلام على العوج وقال الزجاج كسر العين في المعاني وفتحها في الاجرام
﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمته عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ﴾ اي عددكم او مالكم او قوتكم ﴿قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالنسل
والقوة والغناء ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ قبلكم من الامم الماضية
والقرون الخالية حين عتوا وعصوا رسله فان الله اهلكهم وانزل بهم من العقوبات ما
ذهب بهم ومحى اثرهم واقربهم اليكم قوم لوط فانظروا كيف انزل الله عليهم حجارة من السماء
﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ اليكم من الاحكام التي شرعها الله
لكم ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ منكم ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ به ﴿فَاصْبِرُوا﴾ اي انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ اي اعدلهم هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم وليس هو
من باب الامر بالصبر على الكفر وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين
ومثله قوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون او هو امر للمؤمنين بالصبر على ما يحل
بهم من اذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم وقيل هو امر للكافرين بالصبر لينصر الله
عليهم المؤمنين وقيل للفريقين وهذا هو الظاهر او على سبيل التنزل معهم اي اصبروا فستعلمون
من ينصر ومن يغلب مع علمه بان الغلبة له وحتى بمعنى الى قال السمين

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوْا

اي الاشراف المستكبرون عن الايمان مِنْ قَوْمِهٖ استيناف بياني كانه قيل فماذا قالوا بعد سماعهم هذه المواعظ من شعيب لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا اَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِيْ مِلَّتِنَا لم يكتفوا بترك الايمان والتمرد عن الاجابة الى ما دعاهم اليه بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا واشرا الى توعد نبيهم ومن امن به بالاخراج من قريتهم او عودهم في ملتهم الكفرية اي لابد من احد الامرين اما الاخراج او العود ومقصودهم الاصلي هو العود كما يفصح عنه عدم تعرضه لجواب الاخراج وتوسيط النداء باسمه العلي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشية عن غاية الوقاحة والطغيان اي والله لنخرجنك واتباعك ومرادهم العود بطريق الاختيار وكلمة عاد لها في لسانهم استعمالان احدهما وهو الاصل انه الرجوع الى ما كان عليه من الحال الاول والثاني استعمالها بمعنى صار قال السمين واستشكلوا على كونها بمعناها الاصلي ان شعيبا لم يكن قط على دينهم ولا في ملتهم فكيف يحسن ان يقول او لتعودن اي ترجعن الى حالتكم الاولى والخطاب له ولاتباعه وقد اجيب عن ذلك بثلاثة اوجه احدها ان هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس على العوام والايهام لهم انه كان على دينهم وعلى ملتهم الثاني ان يراد بعوده رجوعه الى حالة قبل بعثته من السكوت لانه قبل ان يبعث اليهم كان يخفي ايمانه وهو ساكت عنهم بري من معبوداتهم غير الله الثالث تغليب الجماعة على الواحد لانهم لما اصحبوه مع قومه في الاخراج حكموا عليه وعليهم بالعود الى الملة تغليبا لهم عليه واما اذا جعلناها بمعنى صار فلا اشكال في ذلك اذ المعنى لتصيرن في ملتنا بعد ان لم تكونوا في ملتنا حال على الاول خبر على الثاني وحلة عاد بفي الظرفية تنبيها على ان الملة صارت لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم انتهى والاولى ما قال الزجاج يجوز ان يكون العود بمعنى الابتداء يقال عاد الي من فلان مكروه اي صار وان لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل ان بعثه الله رسولا ويحتاج الى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود الى ملتهم

والقرية هي مدين وبينها وبين مصر ثمانية مراحل قال اولو كنا كارهين الهمزة للانكار
ووقوع ما طلبوه من الاخراج او العود اي اتعيدوننا في ملتكم حال كراهتنا للعود اليها او
اتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها او في حال كراهتنا للامرين جميعا والمعنى
انه ليس لكم ان تكرهونا على احد الامرين ولا يصلح لكم ذلك فان المكره لا اختيار له ولا
تعد موافقته مكرها موافقة ولا عوده الى ملتكم مكرها عودا وبهذا التقرير يندفع ما
استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام
قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم التي هي الشرك والجملة استيناف اخبار فيه
معنى التعجب قاله الزمخشري كانه قيل ما اكذبنا على الله ان عدنا في الكفر او انه جواب قسم
محذوف والتقدير والله لقد افترينا وجعله ابن عطية اخبارا بعد اذ نجانا الله منها
بالايمان فلا يكون منا عود اليها اصلا وما يكون اي ما يصح لنا ولا يستقيم ولا ينبغي ان
نعود فيها بحال من الاحوال الا ان يشاء الله اي الا في حال او وقت مشية الله عودنا
فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن قال الزجاج اي الا بمشية الله عز وجل قال وهذا قول
اهل السنة والمعنى انه لا يكون منا العود الى الكفر الا ان يشاء الله ذلك فالاستثناء منقطع
وقيل ان الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل كما في قوله وما توفيقي الا بالله وقيل
هو كقولهم لا اكلمك حتى يبيض الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط والغراب لا يبيض والجمل
لا يلج فهو من باب التعليق بالمحال ولم تزل الانبياء والاكابر يخافون العاقبة وانقلاب الامر الا ترى
الى قول الخليل واجنبني وبني ان نعبد الاصنام وكان نبينا صلعم كثيرا ما يقول يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك وقيل المعنى وما يكون لنا ان نعود فيها اي القرية بعد ان
كرهتم مجاورتنا لكم الا ان يشاء الله عودنا اليها وسع ربنا كل شيء علما اي احاط علمه
بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شيء على الله توكلنا اي عليه نعتمد واليه نستند في
ان يثبتنا على الايمان ويحول بيننا وبين الكفر واهله ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نقمته
ربنا افتح الفتاحة الحكومة اي احكم بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين
اعراض عن مكالمتهم لما ظهر له من شدة عنادهم بحيث لا يتصور منهم الايمان واقبال على الله بالدعاء

قال الفراء ان اهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من اهل اللغة هي لغة مراد وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين وقيل لغة حمير وقال الزجاج المعنى ربنا اظهر امرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف لانهم قد دعوا الله سبحانه ان يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه الا بنصر المحقين على المبطلين كما اخبرنا به في غير موضع من كتابه فا كانهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وحلول نقمة الله بهم وقال الملأ الذين كفروا من قومه يحتمل ان يكون هؤلاء هم الذين استكبروا ويحتمل ان يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين ارسل اليهم شعيب لئن اتبعتم شعيبا اي دخلتم في دينه وتركتم دينكم انكم اذا لخاسرون في الدين او الدنيا وخسرانهم هلاكهم او ما يخسرونه بسبب ايفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به وهو جواب القسم الموطأ له باللام قاله الزمخشري فأخذتهم الرجفة اي الزلزلة وقيل الصيحة كما في قوله واخذت الذين ظلموا الصيحة ولعلها كانت في مبادي الرجفة فاسند هلاكهم الى السبب القريب تارة والى البعيد اخرى فأصبحوا في دارهم جاثمين باركين على الركب ميتين قد تقدم تفسيره في قصة صالح قال قتادة بعث الله شعيبا الى اصحاب الايكة والى مدين فاما اصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة واما اهل مدين فاخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعا وروي ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة ايام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها جملة مبينة لما حل بهم من النقمة يقال غنيت بالمكان اذا اقمت به وغني القوم في دارهم اي طال مقامهم فيها والمغنى المنزل والجمع المغاني وهي المنازل التي بها اهلها والمعنى كان لم يقيموا في دارهم اصلا ولم ينزلوها يوما من الدهر فان الله سبحانه استاصلهم بالعذاب وقيل المعنى كان لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غني الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر والاول اولى الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين هذه الجملة مستانفة كالاولى متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين واعادة الموصول والصلة كما هي لزيادة التقرير والايذان بان ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين فتولى عنهم اي فاعرض

عَنهُم شعيب شاخصا من بين اظهرهم لما شاهد نزول العذاب بهم وَقَالَ اي قبل نزول العذاب او بعده على قولين يٰقَوْمِ لَقَدْ اَبْلَغْتُكُمْ رِسٰلٰتِ رَبِّيْ التي ارسلني بها اليكم وَنَصَحْتُ لَكُمْ ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم فَكَيْفَ اٰسٰى اي احزن عَلٰى قَوْمٍ كٰفِرِيْنَ بالله مصرين على كفرهم متمردين عن الاجابة والاسى شدة الحزن اسا على ذلك فهو اسٍ قال شعيب هذه المقالة تحسرا على عدم الايمان ثم سلى نفسه بانه كيف يقع منه الاسى على قوم ليس باهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله او اراد لقد اعذرت لكم في الابلاغ والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا النصح فكيف احزن عليكم يعني انكم لستم مستحقين لان احزن عليكم والاول اولى عن ابن عباس قال في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما قبر اسمعيل وقبر شعيب فقبر اسمعيل في الحجر وقبر شعيب مقابل الحجر الاسود وعن وهب بن منبه ان شعيبا مات بمكة ومن معه من المؤمنين فقبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم واخرج ابن ابي حاتم والحاكم عن ابي اسحاق قال ذكر لي يعقوب بن ابي مسلمة ان رسول الله صلعم كان اذا ذكر شعيبا قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله اخذهم عذاب يوم الظلة وَمَآ اَرْسَلْنَا لما فصل الله سبحانه احوال بعض الانبياء مع اممهم وهم المذكورون سابقا اجمل حال سائر الامم المرسل اليها والمعنى ما ارسلنا في حال من الاحوال فِيْ قَرْيَةٍ من القرى مِّنْ مزيدة لتوكيد النفي نَّبِيٍّ من الانبياء فكذب اهلها اِلَّآ اَخَذْنَآ اَهْلَهَا استثناء مفرغ من اعم الاحوال بِالْبَاْسَآءِ اي البوس وشدة الفقر وَالضَّرَّآءِ اي وبالضر وقال الزجاج الباساء كل ما نالهم من الشدة في اموالهم والضراء كل ما نالهم من الامراض وقيل الباساء الشدة وضيق العيش والضراء سوء الحال وقد تقدم تفسيرهما لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُوْنَ اي لكي يتضرعوا ويتذللوا ويدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الانبياء وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار ليزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثُمَّ اي بعد الاخذ لاهل القرى بَدَّلْنَا هم مَكَانَ السَّيِّئَةِ التي اصبناهم بها من البلاء والامتحان الْحَسَنَةَ الخصلة الحسنة فصاروا في

خير وسعة وامن وصحة وقال ابن عباس اي مكان الشدة الرخاء قال اهل اللغة السيئة كل ما
يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فاخبر الله في هذه الآية بانه يواخذ
اهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج حَتّٰى عَفَوْا يقال عفى
كثر وعفى درس فهو من الاضداد والمراد هنا انهم كثروا في انفسهم واموالهم قاله ابن عباس و
مجاهد وقيل عددهم عددهم وَقَالُوا عند ان صاروا في الرخاء بعد الشدة قَدْ مَسَّ اٰبَآءَنَا
الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ اي ان هذا الذي مسنا من الباساء والضراء ثم من الرخاء والخصب من بعده
هو امر وقع لابائنا قبلنا مثله فمسهم من الباساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما
نلناه ومرادهم ان هذه العادة الجارية في السلف والخلف وان ذلك ليس من الله سبحانه
ابتلاء لهم واختبارا لما عندهم وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم ما لا
يخفى ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم كما قال فَاَخَذْنٰهُمْ بَغْتَةً اي فجاءة عقب
ان قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا امهال ليكون ذلك اعظم لحسرتهم والمراد من ذكر
هذه القصة ان يعتبر من سمعها فينزجر وَّهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ بذلك العذاب النازل بهم ولا
يترقبونه وَلَوْ اَنَّ اَهْلَ الْقُرٰٓى التي ارسلنا اليها رسلنا ويجوز ان تكون اللام للجنس والمراد لو
ان اهل القرى اين كانوا وفي اي بلاد سكنوا اٰمَنُوْا بالرسل المرسلين اليهم وَاتَّقَوْا
ما صمموا عليه من الكفر ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ اي يسرنا لهم
بَرَكٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْاَرْضِ اي خيرهما كما يحصل التيسير للابواب المغلقة بفتح ابوابها قيل
المراد بخير السماء المطر وبخير الارض النبات والثمار والاولى حمل ما في الآية على ما هو اعم من ذلك
من الخيرات والانعام والارزاق والامن والسلامة من الآفات وجميع ما فيهما وكل ذلك
من فضل الله واحسانه واصل البركة ثبوت الخير الالهي في الشيء وسمي المطر
بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة في نبات الارض لانه نشا من بركات
السماء وهي المطر وقال البغوي اصل البركة المواظبة على الشيء اي دفعنا عنهم القحط
والجدب وتابعنا عليهم المطر والنبات وَلٰكِنْ كَذَّبُوْا بالآيات والانبياء ولم يؤمنوا بهم
ولا اتقوا وقد اكتفى بذكر الاول لاستلزامه الثاني فَاَخَذْنٰهُمْ بانواع العذاب بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ

اي بسبب ما كسبوا من الكفر والذنوب الموجبة لمؤاخذتهم ومن جملتها قولهم قد مس آباءنا
أفأمن الاستفهام للتقريع والتوبيخ وهو مثل أفحكم الجاهلية يبغون والفاء للعطف على
أخذناهم بغتة وما بينهما اعتراض والمعنى أبعد ذلك الاخذ أمن أهل القرى ذكره ابو السعود
وبه قال الزمخشري قال الشيخ وهذا رجوع عن مذهبه في مثل ذلك الى مذهب الجماعة
وذلك ان مذهبه في الهمزة الداخلة على حرف العطف تقدير معطوف عليه بين الهمزة
وحرف العطف ومذهب الجماعة ان حرف العطف في نية التقديم وانما تأخر وتقدمت عليه
الهمزة لقوة تصدرها في اول الكلام والزمخشري هنا لم يقدر بينهما معطوفا عليه بل
جعل ما بعد الفاء معطوفا على ما قبلها من الجمل وهو قوله فأخذناهم بغتة ذكره السمين
أهل القرى المذكورة قبله وقيل المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم للنبي صلعم والعموم
اولى أن يأتيهم بأسنا بياتا اي وقت بيات وهو الليل وهم نائمون غافلون عنه أو أمن
أهل القرى انكار بعد انكار للمبالغة في التوبيخ أن يأتيهم بأسنا ضحى اي نهارا والضحى ضحوة
النهار اي صدره وهو في الاصل اسم لضوء الشمس اذا شرقت وارتفعت وفي السمين
الضحى اشتداد الشمس وامتداد النهار يقال ضحى وضحاء اذا ضممته قصرته واذا فتحته مددته
وقال بعضهم الضحى بالضم والقصر لاول ارتفاع الشمس والضحاء بالفتح والمد لقوة ارتفاعها
قبل الزوال والضحى مؤنث انتهى وهم يلعبون اي حال كونهم مشتغلين بما لا يعود عليهم بفائدة
أفأمنوا مكر الله الاستفهام للتقريع والتوبيخ وانكار ما هم عليه من امان ما لا يؤمن من
مكر الله بهم وعقوبته لهم وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما انكره عليهم
وقيل مكر الله استدراجه اياهم بما انعم عليهم من الدنيا والنعمة والصحة والاولى حمل الآية
على ما هو اعم من ذلك ثم بين حال من امن مكر الله فقال فلا يأمن مكر الله المكر الاحتيال
والخديعة والمراد بمكر الله هنا فعل ما يعاقب به الكفرة على كفرهم واضيف الى الله لما كان
عقوبة على ذنبهم فان العرب تسمي العقوبة على اي وجه كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه
العقوبة وهذا نص في قوله ومكروا ومكر الله قاله ابو عطية قلت وهو تأويل حسن وانه
من باب المقابلة ايضا والفاء في قوله فلا يأمن للتنبيه على ان العذاب يعقب أمن مكر الله

إلا القوم الخاسرون أي الذين فرطوا في الخسران ووقعوا في وعيده الشديد حتى صاروا إلى النار قال الشبلي مكره بهم تركه إياهم على ما هم عليه أو لم يهد أي أو لم يبين فالهداية هنا بمعنى التبيين ولهذا عديت باللام للذين يرثون الأرض من بعد أهلاك أهلها أي المشركين قاله السدي وقيل المراد بهم أهل مكة وما حولها أي الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم أي ان الشأن هو هذا والمعنى عاقبناهم بسبب كفرهم فاهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين ونطبع نختم على قلوبهم لانهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للايمان فهم لا يسمعون أخبار الامم المهلكة فضلا عن التدبر والتفكر فيها والاعتبار بها أي صاروا بسبب اصابتنا لهم بذنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من ارسله الله اليهم من المواعظ والاعذار والانذار سماع تدبر تلك مبتدأ مشار بها الى ما بعدها والقرى خبرها أي التي اهلكناها هي قرى قوم نوح وهود وعاد وثمود وصالح ولوط وشعيب المتقدم ذكرها نقص حال سيء قاصين وهذا كقوله تعالى هذا بعلي شيخا في كونه مبتدأ أو خبرا وحالا قاله الزمخشري عليك من انبائها أي اخبارها وهذه تسلية لرسول الله صلعم وللمؤمنين وتحذير للكافرين من قريش وغيرهم ومن للتبعيض لانه انما قص عليه صلعم ما فيه عظة وانزجار دون غيرها ولها انباء غيرها لم يقصها عليه وانما قص عليه انباء اهل هذه القرى لانهم اغتروا بطول الامهال مع كثرة النعم فتوهموا انهم على الحق فذكرها الله لقوم محمد صلعم ليحترزوا عن مثل تلك الاعمال ولقد لام قسم جاءتهم رسلهم بالبينات أي المعجزات الباهرات كما سبق بيانه في قصص الانبياء المذكورين قبل هذا فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل اللام زائدة لتوكيد النفي بما كذبوا به من قبل أي قبل مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل في حال من الاحوال ولا في وقت من الاوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم بل هم مستمرون على الكفر متشبثون بأذيال الطغيان دائما ولم ينجع فيهم مجيء الرسل ولا ظهر له اثر بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله وقيل المعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو احييناهم كقوله ولو ردوا لعادوا قاله مجاهد وقيل سألوا المعجزات فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها

والاولى اولى ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل انهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من ارسال الرسل وانزال الكتب وقال ابي بن كعب كان في علم الله يوم اقروا له بالميثاق حين اخرجهم من ظهر ادم من يكذب به ممن يصدق به وهو معنى قول ابن عباس والسدي امنوا كرها يوم اخذ الميثاق وقال الطبري واولى الاقوال قول ابي بن كعب والربيع بن انس وذلك ان من سبق في علم الله انه لا يؤمن به فلا يؤمن ابدا كذلك اي مثل ذلك الطبع الشديد يطبع على قلوب اهل القرى المنفي عنهم الايمان يطبع على قلوب الكافرين الجائين بعدهم فلا ينجح فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب وما وجدنا لاكثرهم من عهد الضمير يرجع الى اهل القرى المذكورين سابقا اي عهد يحافظون عليه ويتمسكون به بل دابهم نقض العهود في كل حال وقيل الضمير يرجع الى الناس على العموم اي ما وجدنا لاكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد هو الماخوذ عليهم في عالم الذر وقيل الضمير يرجع الى الكفار على العموم من غير تقييد باهل القرى اي لاكثرهم لا عهد ولا وفاء والقليل منهم قد يفي بعهده ويحافظ عليه قال ابن عباس خص الله انما اهلك القرى لانهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به وان وجدنا اكثرهم لفاسقين اسم ان الشان هذا والمعنى خارجين عن الطاعة خروجا شديدا ثم بعثنا اي ارسلنا من بعدهم اي بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقيل ضميرهم راجع الى الامم السالفة اي من بعد اهلاكهم موسى قال ابن عباس انما سمي موسى لانه القي بين ماء وشجر فالماء بالقبطية مو والشجر سا وعاش من العمر مائة وعشرين سنة وبينه وبين يوسف اربعمائة سنة وبين موسى وابراهيم سبعمائة سنة كما ذكره في التحبير بآياتنا اي حججنا وادلتنا على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك مما جاء به موسى وهذا يدل على ان النبي لا بد له من اية ومعجزة يتميز بها عن غيره والا لم يكن قبول قوله اولى من قبول قول غيره الى فرعون هو لقب لكل من يملك ارض مصر بعد العمالقة مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي ارسل اليه موسى الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط وكنيته ابو مرة وقيل ابو العباس وكان قبله

فرعون آخر وهو أخوه واسمه قابوس ولم يذكر في القرآن وعن مجاهد ان فرعون كان فارسيا
من أهل اصطخر وعن ابن لهيعة انه كان من أبناء مصر وعن ابن المنكدر قال عاش فرعون ثلث
مائة سنة وعن علي بن أبي طلحة ان فرعون كان قبطيا ولد زنا طوله سبعة أشبار وعن الحسن
قال كان علجا من همدان وعن ابراهيم بن مقسم قال مكث فرعون اربعمائة سنة لم يصدع له
راس وملائه اي اشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لان من
عداهم كالاتباع لهم فظلموا بها اي فكفروا بها اطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات
التي جاء بها موسى كان كفرا متبالغا لوجود ما يوجب الايمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم
بها او المعنى ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الايمان بها او ظلموا انفسهم بسببها فانظر
كيف كان عاقبة المفسدين اي انظر بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بالمكذبين بالآيات
الكافرين بها وكيف اهلكناهم وجعلهم مفسدين لان تكذيبهم وكفرهم من اقبح انواع
الفساد وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين اخبره بانه مرسل من الله
اليه وجعل ذلك عنوان الكلام معه لان من كان مرسلا من جهة من هو رب العالمين اجمعين
فهو حقيق بالقبول لما جاء به كما يقول من ارسله الملك في حاجة الى رعيته انا رسول الملك
اليكم ثم يحكي ما ارسل به اليهم فان في ذلك من تربية المهابة وادخال الروعة ما لا يقادر قدره
حقيق جدير على ان اي بان لا اقول على الله الا الحق قيل في توجيه هذه القراءة ان على بمعنى الباء
كما سبق ويؤيده قراءة ابي والاعمش فانهما قرآ حقيق بان لا اقول وقيل ان حقيق مضمن معنى حريص و
قيل انه لما كان لازم الحق كان الحق لازما له فقول الحق حقيق عليه وهو حقيق على قول الحق وقيل اغرق
في وصف نفسه في ذلك المقام حين جعل نفسه حقيقة على قول الحق كانه وجب على الحق
ان يكون موسى هو قائله وقرئ علي اي واجب علي ولازم لي ان لا اقول فيما ابلغكم عن الله الا القول الحق وقرئ
حقيق ان لا اقول باسقاط على ومعناها واضح والاستثناء مفرغ ثم قال بعد هذا قد جئتكم ببينة من ربكم اي
بما تتبين به صدقي في اني رسول من رب العالمين والمراد بها معجزته وهي العصا واليد البيضاء وقد طوى هنا ذكر ما جرى
بينهما من المحاورة كما في موضع آخر انه قال فرعون فمن ربكما يا موسى ثم قال بعد جواب موسى وما رب العالمين الآيات
الحاكية لما دار بينهما فارسل معي بني اسرائيل امره ان يدعهم يذهبون معه ويرجعون الى وطنهم

هي الارض المقدسة وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع الى وطنهم
الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها وكان سبب سكناهم بمصر مع ان اباهم كان بالارض
المقدسة ان الاسباط اولاد يعقوب جاؤا مصر الى اخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر
فلما توفي يوسف غلب فرعون على نسل الاسباط واستعبدهم واستعملهم في الاعمال الشاقة
فاحب موسى ان يخلصهم من هذا الامر ويذهب بهم الى ارض الشام التي هي وطن ابائهم
فانقذهم الله بموسى وكان بين اليوم الذي دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذي
دخله موسى اربعمائة عام فلما قال ذلك قَالَ له فرعون إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ من عند
الله كما تزعم فَأْتِ بِهَا حتى نشاهدها وننظر فيها إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في هذه الدعوى
التي جئت بها فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ اي وضعها على الارض فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ اي فانقلبت
ثعبانا يعني حية عظيمة من ذكور الحيات ظاهرا واضحا لا لبس فيه في تلك الحال ووصفها
في اية اخرى بانها جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين انها كانت
في عظم الجثة كالثعبان العظيم وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة وهي الجان قال قتادة ذكر
لنا ان تلك العصا عصا ادم اعطاه اياها ملك حين توجه الى مدين فكانت تضيئ بالليل
ويضرب بها الارض بالنهار فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه فاذا هي حية تكاد تساوره
وعن ابن عباس قال لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ما تجاوز
مرفقيه فاستاذن على فرعون فقال ادخلوه فدخل فقال ان الهي ارسلني اليك فقال للقوم
حوله ما علمت لكم من اله غيري خذوه قال اني قد جئتك باية قال فأت بها فالقى عصاه
فصارت ثعبانا بين لحييه ما بين السقف الى الارض وعطف موسى اسمها ما شاء قال السدي
فلما فتحها واضع لحيها الاسفل في الارض والاعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون
لتاخذه فلما رآها ذعر منها ووثب فاحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح يا موسى
خذها وانا اؤمن بربك وارسل معك بني اسرائيل فاخذها موسى فصارت عصا وَنَزَعَ يَدَهُ
اليمنى اي اخرجها واظهرها من جيبه او من تحت ابطه وفي التنزيل وادخل يدك في
جيبك تخرج بيضاء من غير سوء والنزع عبارة عن اخراج الشيئ عن مكانه فَإِذَا هِيَ

بيضاء للنظرين اي تتلألأ نورا يظهر لكل مبصر قال ابن عباس اخرجها مثل البرق تلتمع
الابصار فخروا على وجوههم وقيل لها شعاع غلب نور الشمس واخذ موسى عصاه ثم
خرج ليس احد من الناس الا نفر منه وكان موسى آدم اللون قال الملأ من قوم فرعون
اي الاشراف لما شاهدوا انقلاب العصا حية ومصير يده بيضاء من غير سوء ان هذا
اي موسى لساحر عليم اي كثير العلم بالسحر يأخذ بعين الناس حتى يخيل لهم ان العصا
صارت حية ويرى الشي بخلاف ما هو عليه ولا ينافي نسبة هذا القول الى الملأ هنا
والى فرعون في سورة الشعراء فكلهم قد قالوه فكان ذلك مصححا للنسبة اليهم تارة و
اليه اخرى يريد ان يخرجكم ايها القبط من ارضكم وهي ارض مصر وهذا من كلام
الملأ فماذا تأمرون هو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا ما تقدم اي باي شي تأمروني
وتشيرون ان نفعل به وقيل هو من كلام الملأ اي قالوا لفرعون فباي شي تأمر وخاطبوه
بما يخاطب به الجماعة تعظيما له كما يخاطب الرؤساء اتباعهم وكون هذا من كلام فرعون
هو الاولى بدليل ما بعده وهو قالوا ارجه اي اخره وفيه ست قراءات في المشهور المتواتر
ثلث مع الهمز وثلث مع عدمه والارجاء في اللغة التاخير وقيل معناه احبسه وهو ضعيف
وقيل هو من رجى يرجو اي اطمعه ودعه يرجو حكاه النحاس عن المبرد واخاه و
ارسل في المدائن حاشرين اي ارسل جماعة حاشرين في المدائن التي فيها السحرة
والمدائن جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان اي اقام به يعني مدائن صعيد
مصر ومعنى حاشرين جامعين يعني رجالا يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد
يأتوك اي هؤلاء الذين ارسلت يعني الشرط بكل ساحر وقرئ سحار اي الماهر في السحر
قيل الساحر من يكون سحره وقتا دون وقت والسحار من يدوم سحره ويعمل في كل وقت
عليم اي كثير العلم بصناعة السحر وجاء السحرة فرعون قد اختلفت كلمة السلف في عددهم
فقال ابن عباس كانوا سبعين رجلا اصبحوا سحرة وامسوا شهداء وقيل كانوا
اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني اسرائيل قاله مقاتل وقال
الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلان مجوسيان من اهل نينوى وقال كعب الاحبار كانوا اثني

عشر الفا وقيل خمسة عشر الفا قاله ابن اسحاق وقيل سبعة عشر الفا وقيل تسعة عشر
الفا وقيل ثلثين الفا وقيل سبعين الفا قاله عكرمة وقيل ثمانين الفا قاله محمد بن المنكدر
وقيل ثلثمائة الف وقيل تسعمائة الف قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ الاجر الجائزة
والعطاء والجعل الزموا فرعون ان يجعل لهم جعلا ان غلبوا موسى بسحرهم وقرئ ائن لنا
على الاستفهام للتقرير اي استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة وعلى
القراءة الاولى كانهم قاطعون بالجعل وانه لابد لهم منه قَالَ نَعَمْ لكم الاجر وَإِنَّكُمْ مع هذا
الاجر المطلوب منكم لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ لدينا قال الكلبي تكونون اول من يدخل علي واخر من يخرج
من عندي وفي الخطيب في الآية تدل على ان كل الخلق كانوا عالمين بان فرعون كان عبدا
ذليلا مهينا عاجزا والا لما احتاج الى الاستعانة بالسحرة وتدل ايضا على ان السحرة ما كانوا
قادرين على قلب الاعيان والا لما احتاجوا الى طلب الاجر والمال من فرعون لانهم لو قدروا
على قلب الاعيان لقلبوا التراب ذهبا ولنقلوا املاك فرعون لانفسهم ولجعلوا انفسهم
ملوك العالم ورؤساءهم والمقصود من هذه الآيات تنبيه الانسان لهذه الدقائق وان لا يغتر
بكلمات اهل الاباطيل والاكاذيب انتهى قَالُوا اي السحرة يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ
نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ يعني انهم خيروا موسى بين ان يبتدئ بالقاء ما يلقيه عليهم
او يبتدؤهم بذلك تادبا معه وثقة من انفسهم بانهم غالبون وان تاخروا قال
الكسائي والفراء اما ان تفعل الالقاء او نفعله نحن قَالَ أَلْقُوا اختار ان يكونوا المتقدمين
عليه بالقاء ما يلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاؤا به قال الفراء في الكلام حذف
والمعنى قال لهم موسى انكم لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا اياته وقيل هو تهديد اي ابتدؤا
بالالقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح والموجب لهذين التاويلين عند من قالهما
انه لا يجوز لموسى ان يامرهم بالسحر وقيل انما امرهم لتظهر معجزته لانهم اذا لم يلقوا قبله لم تظهر
معجزته والاول اولى فَلَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم قال ابن عباس حبالا غلاظا وخشبا طوالا
فاقبلت يخيل اليه من سحرهم انها تسعى سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ اي قلبوها وغيروها عن
صحة ادراكها بما جاؤا به من التمويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون واهل الخفة وهذا

هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء التي هي فعل الله وذلك لأن
السحر قلب الاعين وصرفها عن ادراك الشيء والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا
موسى حية تسعى وَاسْتَرْهَبُوهُمْ اي ادخلوا الرهبة في قلوبهم ادخالا شديدا بما فعلوه من
السحر واستفعل هنا بمعنى افعل اي ارهبوهم وهو قريب من قولهم قروا ستقر وعظم
استعظم وهذا رأي المبرد وقيل السين على بابها اي استدعوا رهبة الناس منهم وهو رأي
الزجاج وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ في اعين الناظرين وان كان لا حقيقة له في الواقع وكانت تلك
الواقعة في اسكندرية قاله الخطيب والخازن وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ امره
سبحانه عند ان جاء السحرة بما جاؤا به من السحر على لسان جبريل ان يلقي عصاه وصريح السياق
يقتضي ان القاء العصا وانقلابها حية وقع مرتين بحضرة فرعون الاولى كانت سببا في
جمع السحرة والثانية بحضرتهم فالاولى ذكرت سابقا بقوله فالقى عصاه والثانية هي المذكورة
هنا ووقع انقلابها حية ايضا مرة اخرى قبل هاتين المرتين ولم يكن هناك حاضر اصلا
غير موسى وقد ذكرت هذه المرة في سورة طه في قوله اذ رأى نارا الى قوله القها يا موسى فالقاها
فاذا هي حية تسعى فَإِذَا هِيَ اي العصا تَلْقَفُ من لقف يلقف وقيل من تلقف يتلقف
يقال لقفت الشيء وتلقفته اذا اخذته او بلعته بسرعة وقال ابو حاتم بلغني في بعض القراآت
تلقم بالميم والتشديد مَا يَأْفِكُونَ اصل الافك قلب الشيء عن وجهه ومنه قيل للكذاب
افاك لانه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح الى الباطل افك يافك افكا من باب ضرب و
افكته صرفته وكل امر صرف عن وجهه فقد افك وسماه افكا لانه لا حقيقة له في الواقع
بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية فيقال بلغ
ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذا هي تبتلع كل شيء ابوابه من السحر
فَوَقَعَ الْحَقُّ اي ظهر وتبين بما جاء به موسى وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من سحرهم اي تبين بطلانه
فَغُلِبُوا اي السحرة هُنَالِكَ اي في الموقف الذي اظهروا فيه سحرهم وهذا هو الظاهر وَانْقَلَبُوا
من ذلك الموقف صَاغِرِينَ اذلاء مقهورين وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ اي خروا كأنما القاهم
ملق على هيئة السجود او لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم القوا انفسهم قال السدي القى موسى عصاه

فاكلت كل حية لهم فلما رأوا ذلك سجدوا وعن قتادة نحوه قال ابن عباس لما رأت السحرة ما رأت عرفت ان ذلك من امر السماء وليس بسحر فخروا سجدا قيل كانت مع السحرة حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها آمنوا به وخروا ساجدين قالوا آمنا وانما قالوا هذه المقالة وصرحوا بانهم آمنوا برب العالمين ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا رب موسى وهارون لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بالهية ان السجود له قال الاوزاعي لما خر السحرة سجدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا اليها وقدموا موسى في الذكر وان كان هارون اسن منه لكبره في الرتبة او لانه وقع فاصلة هنا ولذلك قال في سورة طه رب هارون وموسى لوقوع موسى فاصلة او لكون كل طائفة منهم قالت احدى المقالتين فنسب فعل البعض الى المجموع في سورة وفعل بعض اخر الى المجموع في اخرى قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم والاستفهام للانكار والتوبيخ والقراأت هنا اربع كلها سبعية ذكرها السمين انكر فرعون على السحرة ايمانهم بموسى قبل ان يأذن لهم بذلك وقال ان هذا لمكر مكرتموه اي حيلة احتلتموها انتم وموسى عن مواطاة بينكم سابقة ومعنى في المدينة ان هذه الحيلة والمواطاة كانت بينكم وانتم بمدينة مصر قبل ان تبرزوا انتم وموسى الى هذه الصحراء لتخرجوا منها اي من مدينة مصر اهلها من القبط وتستولوا عليها وتسكنوا فيها انتم وبنوا اسرائيل وهاتان شبهتان القاهما الى اسماع عوام القبط تثبيتا لهم على ماهم عليه وتهييجا لعداوتهم لموسى ثم هددهم بقوله فسوف تعلمون عاقبة صنعكم هذا وسوء مغبته ليريهم ان له قوة ثم لم يكتف بهذا الوعيد والتهديد المجمل بل فصله فقال لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف اي الرجل اليمنى واليد اليسرى او الرجل اليسرى واليد اليمنى قال ابن عباس هو اول من قطع الايدي والارجل من خلاف وقال قتادة اي يدا من ههنا ورجلا من ههنا ثم لم يكتف عدو الله بهذا بل جاوزه الى غيره فقال ثم لاصلبنكم في جذوع النخل على شاطئ نيل مصر اي اجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم وافراطا في تعذيبهم قال ابن عباس اول من صلب فرعون وجيء هنا بثم وفي السورتين ولاصلبنكم بالواو لان الواو صالحة للمهلة فلا تنافي بين الآيات اجمعين تاكيد اتى به دون كل وان كان الاكثر سبقه بكل وجاء بصلة قسمية تاكيدا لما يفعله يقال صلبه يصلبه ويصلبه وهما لغتان في المضارع

قالوا انا الی ربنا منقلبون ای انك وان فعلت بنا هذا الفعل فبعد يوم الجزاء يجازيك
الله بصنيعك ويحسن الينا بما اصابنا في ذاته فتوعده بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم
بعذاب الدنيا ويحتمل ان يكون المعنى انا اليه لمنقلبون بالموت اي لابد لنا من الموت فلا يضرنا
كونه بسبب منك وما تنقم بكسر القاف وقرئ بفتحها قال الاخفش هي لغة يقال نقمت الامر انكرته
اي لست تعيب علينا وتنكر منا قال عطاء اي ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه وقيل
ما تكره منا وما تطعن علينا وتقدح فينا الا ان امنا بايات ربنا لما جاءتنا مع ان هذا هو الشرف
العظيم والخير الكامل واصل المفاخر ومثله لا يكون موضعا للعيب ومكانا للانكار بل هو حقيق
بالثناء الحسن والاستحسان البالغ فلا نعدل عنه اصلا طلبا لمرضاتك والاستثناء مفرغ ثم تركوا
خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا الى خطاب الجناب العلي مفوضين للامر اليه طالبين
منه عز وجل ان يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين ربنا افرغ علينا صبرا الافراغ الصب اي
اصببه كاملا تاما حتى يفيض علينا ويغمرنا ولهذا اتى بلفظ التكثير ويعني صبرا اي صبرا عظيما
يصب صبا ذريعا كما يفرغ الماء افراغا طلبوا ابلغ انواع الصبر استعدادا منهم لما سينزل بهم
من العذاب من عدو الله وتوطينا لانفسهم على التصلب في الحق وثبوت القدم على الايمان ثم قالوا
وتوفنا اليك مسلمين اي ثابتين على الاسلام غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين بالوعيد و
لقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شرا محضا سببا للفوز بالسعادة لانهم
علموا ان هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر وانه من فعل الله سبحانه فوصلوا بالشر
الى الخير ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من اتباع فرعون ما حصل منهم من الاذعان
والاعتراف والايمان واذا كانت المهارة في علم الشر قد تاتي بمثل هذه الفائدة فما بالك بالمهارة
في علم الخير اللهم انفعنا بما علمتنا وثبت اقدامنا على الحق وافرغ علينا سجال الصبر وتوفنا
مسلمين امين قال ابن عباس كانوا في اول النهار سحرة وفي اخر النهار شهداء قيل فعل بهم
فرعون ما توعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى انتما ومن اتبعكما الغالبون وقال
الملأ من قوم فرعون اتذر الاستفهام منهم للانكار عليه اي اتترك موسى وقومه ليفسدوا
في الارض اي فيما في مصر بايقاع الفرقة وتشتيت الشمل ويذرك بياء الغيبة ونصب الراء هذه

قراءة العامة وفيها وجهان اظهرهما انه على العطف على ليفسدوا والثاني انه منصوب على جواب الاستفهام كما ينصب في جوابه بعد الفاء والمعنى كيف يكون الجمع بين تركك موسى وقومه مفسدين وبين تركهم اياك وعبادة الهتك اي لا يمكن وقوع ذلك وقرئ برفع الراء وفيها ثلاثة اوجه اظهرها انه نسق على اتذر اي اتطلق له ذلك والثاني انه استيناف اخبار بذلك الثالث انه حال ولا بد من اضمار مبتدأ اي وهو يذرك وقرئ بالجزم اما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة او على ما قيل في واكن من الصالحين في توجيه الجزم وقرئ بالنون والرفع والمعنى انهم اخبروا عن انفسهم بانهم سيذرونك والهتك اختلف المفسرون في معناها لكون فرعون كان يدعي الربوبية كما في قوله ما علمت لكم من اله غيري وقوله انا ربكم الاعلى فقيل ومعنى الهتك طاعتك وقيل معناه عبادتك ويؤيده قراءة علي وابن عباس والضحاك والاهتك وفي حرف ابي ليفسدوا في الارض وقد تركوك ان يعبدوك وقيل انه كان يعبد بقرة وقيل كان يعبد النجوم وقيل كان له اصنام يعبدها قومه تقربا اليه فنسبت اليه ولهذا قال انا ربكم الاعلى قاله الزجاج وقيل كان يعبد الشمس والكواكب والاقرب ان يقال ان فرعون كان دهريا منكر الوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب فاتخذ اصناما على صورتها وكان يعبدها ويامر بعبادتها وكان يقول في نفسه انه هو المطاع والمخدوم في الارض فلهذا قال انا ربكم الاعلى قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون اربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم ير مكروها قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم او حمى ليلة او وجع ساعة لما ادعى الربوبية قال فرعون مجيبا لهم ومثبتا لقلوبهم على الكفر سنقتل قرئ بالتشديد والتخفيف ابناءهم ونستحيي نساءهم اي نتركهن في الحياة ولم يقل سنقتل موسى لانه يعلم انه لا يقدر عليه قيل كان ترك القتل في بني اسرائيل بعدما ولد موسى فلما جاء موسى بالرسالة وكان من امره ما كان اعاد فيهم القتل وانا فوقهم قاهرون اي مستعلون عليهم بالقهر والغلبة وهم تحت قهرنا وبين ايدينا ما شئنا ان نفعله بهم فعلناه ففعلوا بهم ذلك فشكا بنو اسرائيل قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا اي لما بلغ موسى ما قاله فرعون امر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ثم اخبرهم ان الارض لله يعني ارض مصر وان كانت

الارض كلها لله اوا راد جنس الارض والاول اولى يورثها من يشاء من عباده وهو وعد
من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه وان الله سيورثهم ارضهم وديارهم والعاقبة
المحمودة في الدنيا والاخرة وعاقبة كل شيء اخره وقيل اراد الجنة للمتقين من عباده وهم
موسى ومن معه قالوا اوذينا من قبل ان تاتينا ومن بعد ما جئتنا وذلك بقتل فرعون
ابناءنا عند مولدك لما اخبر بانه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده وبقتل ابنائنا
الآن وقيل المعنى اوذينا من قبل ان تاتينا بالرسالة باستعمالنا في الاعمال الشاقة بغير جعل
كضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك ومن بعد ما جئتنا بما صرنا فيه الآن من الخوف
على انفسنا واولادنا واهلنا وقيل ان الاذى من قبل ومن بعد واحد وهو قبض الجزية
منهم قال موسى مجيبا لهم عسى ربكم ان يهلك عدوكم مستانفة كالتي قبلها وعدهم
باهلاك الله لعدوهم وهو فرعون وقومه ويستخلفكم في الارض هو تصريح بما رمز اليه
سابقا من ان الارض لله وقد حقق الله رجاءه وملكوا مصر في زمان داود وسليمان وفتحوا
بيت المقدس مع يوشع بن نون واهلك فرعون وقومه بالغرق وانجاهم فينظر كيف
تعملون فيها من الاعمال اي من الاصلاح والافساد بعد ان يمن عليكم باهلاك عدوكم
ويستخلفكم في الارض فيجازيكم بما عملتم من خير وشر اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس
قال ان بنا اهل البيت يفتح ويختم ولابد ان تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن يكون من بني
هاشم وفيهم نزلت عسى ربكم ان يهلك عدوكم الاية وينبغي ان ينظر في صحة هذا عن
ابن عباس فالاية نازلة في بني اسرائيل واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى
وفرعون لا في بني هاشم ولقد اخذنا اللام قسم اي والله لقد ابتلينا وهذا شروع في
تفصيل مبادي هلاكهم وتصدير الجملة بالقسم لاظهار الاعتناء بمضمونها آل فرعون اي
قومه بالسنين اي الجدب والقحط وهذا معروف عند اهل اللغة يقولون اصابتهم سنة
اي جدب سنة ويقال اسنتوا كما يقال اجدبوا وفي الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسني
يوسف وهن سبع سنين والسنة من الاسماء الغالبة كالدابة والنجم والمعنى اخذناهم بالجوع
سنة بعد سنة واكثر العرب يعربون السنين اعراب الجمع المذكر السالم ومنهم من يعربه اعراب

المرد وجرى مصر كانت على النون قاله ابو زيد وحكى الفراء عن بني عامر انهم يقولون اقمت عنده سنينا مصروفا قال وبنو تميم لا يصرفونه قال ابن مسعود السنين الجوع وقال مجاهد الجوائح قال ابن عباس لما اخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر واجتمعوا الى فرعون فقالوا ان كنت كما تزعم فأتنا في نيل مصر بماء فقال غدوة يصبحكم الماء فلما خرجوا من عنده قال اي شيء صنعت ان لم اقدر على ان اجري في نيل مصر ماء غدوة كذبوني فلما كان جوف الليل قام فاغتسل ولبس مدرعة صوف ثم خرج حافيا حتى اتى نيل مصر فقال اللهم انك تعلم اني اعلم انك تقدر على ان تملئ نيل مصر ماء فاملأه ماء فما علم الا بخرير الماء يقبل فخرج واقبل النيل يزخ بالماء لما اراد الله بهم من الهلكة ونقص من الثمرات بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات واتلاف الغلات بالآفات قال قتادة اما السنون فلاهل البوادي واما نقص الثمرات فلاهل الامصار والمعنى اخذناهم بها لعلهم يذكرون يتعظون ويرجعون عن غوايتهم ثم بين انهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا الا تمردا وكفرا كما قال تعالى فاذا جاءتهم الحسنة اي الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمار ورخاء الاسعار والسعة والعافية والسلامة من الآفات قالوا لنا هذه اي اعطيناها باستحقاق وهي مختصة بنا ونحن اهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الارزاق وصحة الابدان ولم يروا ذلك من فضل الله فيشكروه على انعامه وان تصبهم خصلة سيئة من الجدب والقحط وكثرة الامراض ونحوها من البلاء قيل ووجه تعريف الحسنة انها كثيرة الوقوع وتعلق الارادة باحداثها ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها وعدم القصد لها الا بالتبع وهذا من محاسن علم المعاني قال مجاهد الحسنة العافية والرخاء والسيئة بلاء وعقوبة يطيروا ويتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به وقد كانت العرب تتطير باشياء من الطيور والحيوانات ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء في قول جميع المفسرين ومثل هذا قوله تعالى وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك الا التصدير بكلمة التنبيه لابراز كمال العناية بمضمونه وانما اداة حصر طائرهم اي سبب خيرهم شرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط عند الله يأتيهم به ليس بسبب موسى ومن معه وكان

هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه وقيل اعبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيئته ولكن أكثرهم لا يعلمون بهذا بل ينسبون الخير والشر الى غير الله جهلا منهم والحق ان الكل من الله وقالوا بعد ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمار مهما اسم شرط ما تأتنا به من عند ربك من آية بيان لمهما وسموها آية استهزاء وعوشى كما يفيده ما بعده هو لتسحرنا بها اي لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم وضمير به عائد الى مهما وضمير بها عائد الى آية وقيل انهما عائدان الى مهما وتذكير الاول باعتبار اللفظ وتانيث الثاني باعتبار المعنى فما نحن لك بمؤمنين اخبروا عن انفسهم انهم لا يؤمنون لشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله فأرسلنا عليهم الطوفان وهو المطر الشديد قال الاخفش واحده طوفانة وقيل هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له وقيل الطوفان الموت رواه عايشة عنه صلعم اخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم وغيرهما قال ابن كثير وهو حديث غريب وبه قال مجاهد وعطاء قال النحاس الطوفان في اللغة ما كان مهلكا من موت او سيل اي ما يطيف بهم فيهلكهم وقال ابن عباس الطوفان امر من امر ربك ثم قرء وطاف عليها طائف من ربك وقال مجاهد هو الماء والطاعون وقال وهب هو الطاعون بلغة اهل اليمن وقال ابو قلابة الطوفان هو الجدري وهم اول من عذبوا به ثم بقي في الارض وقال مقاتل الماء طفا فوق حروثهم وذلك انهم مطروا ثمانية ايام من السبت الى السبت في ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر احد ان يخرج من داره وقيل دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء الى تراقيهم فمن جلس غرق ولم تدخل بيوت بني اسرائيل قطرة قال ابن عباس مطروا دائما بالليل والنهار ثمانية ايام والجراد جمع جرادة الذكر والانثى فيه سواء قال اهل اللغة هو مشتق من الجرد قالوا والاشتقاق في اسماء الاجناس قليل جدا يقال ارض جرداء اي ملساء وثوب جرد اذا ذهب وبره والمراد به هنا هو الحيوان المعروف ارسله الله لاكل زروعهم فاكلها واكل ثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم وامتعتهم وابتلي الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني اسرائيل من ذلك شيء والقمل بضم القاف وفتح الميم المشددة وقرأ الحسن القمل بفتح القاف وسكون الميم قيل هي الدبا قاله مجاهد وقتادة والسدي

والكلبي والدبا الجراد قبل ان تطير وقال عطاء انه القمل المعروف فأكل ما ابقاه الجراد ولحس
الارض وقيل هي السوس الذي يخرج من الحنطة قاله ابن عباس وقيل البراغيث وقيل دواب سود
صغار وقيل ضرب من القردان وقيل الجعلان قال النحاس يجوز ان تكون هذه الاشياء كلها
ارسلت عليهم وقد فسر عطاء الخراساني القمل بالقمل نفسه قال ابن عباس القمل الجراد الذي له
اجنحة وقال ابو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القراد واقام عليهم من السبت الى السبت
والضفادع جمع ضفدع وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء وكانت تقع في طعامهم
وشرابهم حتى اذا تكلم الرجل تقع في فيه واقامت عليهم ثمانية ايام قال ابن عباس كانت الضفادع
برية فلما ارسلها على آل فرعون سمعت واطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي
وفي التنانير وهي تفور ومكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة اربعين سنة يريهم الآيات
الجراد والقمل والضفادع والدم روي انه سال عليهم النيل دما قاله مجاهد وقيل هو
الرعاف قاله زيد بن اسلم وقيل مياههم انقلبت دما فما يستقون من بئر ولا نهر الا وجدوه
دما عبيطا احمر قال ابن عباس يمكث فيهم سبتا الى سبت ثم يرفع عنهم شهرا آيات حال من
الخمسة المذكورة مفصلات اي مبينات يتبع بعضها بعضا لتكون لله الحجة عليهم والمعنى
ارسلنا عليهم هذه الاشياء حال كونها آيات ظاهرات لا يشكل على عاقل انها من آيات الله
او مفرقات بين كل آيتين شهر وكان امتداد كل واحدة اسبوعا فاستكبروا اي ترفعوا
عن الايمان بالله وكانوا قوما مجرمين لا يهتدون الى حق ولا ينزعون عن باطل ولما وقع
عليهم الرجز اي العذاب بهذه الامور التي ارسلها الله عليهم وقيل كان هذا الرجز طاعونا
مات به من القبط في يوم واحد سبعون الفا قاله سعيد بن جبير وعلى هذا هو العذاب
السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت وعن اسامة بن زيد قال قال رسول الله صلعم الطاعون
رجز ارسل على طائفة من بني اسرائيل او على من كان قبلكم فاذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليه
واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه اخرجه الشيخان قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد
عندك اي بما اوصاك واستودعك من العلم او بما اختصك به من النبوة او بما انبأك او بما عهد اليك
ان تدعوه فيجيبك والباء متعلقة بادع على معنى اسعفنا الى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله او ادع

لنا متوسلا اليه بعهده عندك وقيل ان الباء للقسم وجوابه لنؤمنن الآتي اي اقسمنا بعهد الله عندك لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ اي لنصدقن بما جئت به وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ اي لنخلينهم حتى يذهبوا حيث شاؤا وقد كانوا لها بساتين لبني اسرائيل عندهم يمتهنونهم في الاعمال فوعدوه بارسالهم معه فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ بدعوة موسى عليه السلام إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ اي الاجل المضروب لاهلاكهم بالغرق لا رفعا مطلقا إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ اي ينقضون ما عقدوه على انفسهم واذا هي الفجائية اي فاجؤا النكث وبادروه واصل النكث من نكث الصوف ليغزله ثانيا فاستعير لنقض العهد بعد احكامه وابرامه قاله زاده فَانْتَقَمْنَا اي اردنا الانتقام مِنْهُمْ لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة واصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب وقيل هو ضد الانعام كما ان العقاب ضد الثواب فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ اي في البحر قيل هو الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجته واوسطه قال الازهري اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع على البحر الملح والعذب والمراد به نيل مصر وهو عذب بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا تعليل للاغراق وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ اي عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا او عن الآيات التي لم يؤمنوا بها بل كذبوا بها فكانهم في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها والثاني اولى لان الجملتين تعليل للاغراق والمراد بالغفلة عدم التدبر وهذا مواخذ به فسقط ما يقال ان الغفلة لا مواخذة بها وقيل تستعمل الغفلة في ترك الشيء اهمالا واعراضا في القاموس غفل عنه غفولا تركه وسها عنه وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ يعني بني اسرائيل الذين كانوا يذلون ويمتهنون بالخدمة لفرعون وقومه مَشَارِقَ الْأَرْضِ هي مصر والشام وَمَغَارِبَهَا المراد جهات مشرقها وجهات مغربها وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط فملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فيها شرقا وغربا كيف شاؤا وقال الزجاج المراد جميع جهات الارض ونواحيها لان داود وسليمان كانا من بني اسرائيل وقد ملكا الارض وقيل انها ارض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا باخراج الزرع والثمار منها على اتم ما يكون وانفع ما ينفق قال الحسن هي الشام وعن قتادة وزيد بن اسلم نحوه وقال عبد الله

بن شعيب هي فلسطين وقد روي عن النبي صللم في فضل الشام احاديث ليس هذا
موضع ذكرها وتمت اي مضت واستمرت على التمام كلمة ربك هي قوله تعالى ونريد
ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين هذا وعد من الله
سبحانه بالنصر والظفر بالاعداء والاستيلاء على املاكهم فتمامه مجاز عن انجازه والحسنى صفة للكلمة
وهي تانيث الاحسن على بني اسرائيل بما صبروا اي تمام هذه الكلمة عليهم بسبب صبرهم
على ما اصيبوا به من فرعون وقومه وقال مجاهد تمام الكلمة ظهور قوم موسى على فرعون
وتمكين الله لهم في الارض واهلاك عدوهم وما ورثهم منها ودمرنا ما كان يصنع فرعون
وقومه التدمير الاهلاك اي اهلكنا ما كانوا يصنعونه في ارض مصر من العمارات وبناء
القصور وفيه اربعة اوجه من الاعراب ذكرها السمين وما كانوا يعرشون من الجنات و
الثمار والاعناب قاله الحسن ومنه قوله تعالى وهو الذي انشا جنات معروشات وغير
معروشات وقيل يسقفون من ذلك البنيان وقيل المعنى ما كانوا يرفعون من الابنية المشيدة
في السماء يقال عرش يعرش اي بنى يبني قال مجاهد ما كانوا يبنون من البيوت والقصور
وهذا اخر قصة فرعون وقومه وجاوزنا ببني اسرائيل البحر هذا شروع في بيان ما فعله
بنو اسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه ومعنى جاوزنا جزنا بهم وقطعنا يقال
جاز الوادي وجاوزه اذا قطعه وخلفه وراء ظهره وهو كقوله واذ فرقنا بكم البحر قال الكلبي
عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله تعالى فاتوا على
قوم يعكفون على اصنام لهم يقال عكف يعكف ويعكف بالضم والكسر بمعنى اقام على الشيء
ولزمه والمصدر منها عكوف قيل هؤلاء القوم الذين اتاهم بنو اسرائيل هم من لخم وجذام
كانوا نازلين بالرقة يعني ساحل البحر كانت اصنامهم تماثيل بقر من نحاس فلما كان عجل
السامري شبه لهم انه من تلك البقر فذلك كان اول شان العجل لتكون لله عليهم الحجة
فينتقم منهم بعد ذلك وقيل كانوا من الكنعانيين الذين امر موسى بقتالهم قالوا اي
بنو اسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل يا موسى اجعل لنا الها كما لهم الهة اي
صنما نعبده كائنا كالذي لهؤلاء القوم قال البغوي لم يكن ذلك شكا من بني اسرائيل في

توحيد الله وانما المعنى اجعل لنا تمثالا نعظمه ونتقرب بتعظيمه الى الله وظنوا ان ذلك لا يضرهم
بعد وقيل انهم توهموا انه يجوز عبادة غير الله فحملهم جهلهم على ما قالوا قال الكرخي وعلى كل
فالقائل للقول المذكور بعضهم لا كلهم اذ كان من جملة من معه السبعون الذين اختارهم موسى
للميقات ويبعد منهم مثل هذا القول قال اي اجاب عليهم موسى إنكم قوم تجهلون وصفهم
بالجهل لانهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له ادنى علم عن طلب عبادة غير الله ولكن
هؤلاء القوم اعني بني اسرائيل اشد خلق الله عنادا او جهلا وتلونا وقد سلف في سورة البقرة بيان
ما جرى منهم من ذلك واخرج ابن ابي شيبة واحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير
وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي واقد الليثي قال خرجنا مع
رسول الله صلعم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات انواط كما للكفار
ذات انواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبي صلعم الله اكبر
هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة انكم تركبون سنن الذين من قبلكم ثم قال
لهم موسى إن هؤلاء يعني القوم العاكفين على الاصنام متبر التبار الهلاك وكل اناء منكسر فهو متبر
اي ان هؤلاء هالك ما هم فيه مدمر مكسر والذي هم فيه هو عبادة الاصنام اخبرهم بان هذا
الدين الباطل الذي هؤلاء القوم عليه هالك مدمر لا يتم منه شيء وقال ابن عباس متبر خسران
وباطل ما كانوا يعملون اي ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الاعمال مع عبادتهم للاصنام
قال في الكشاف وفي ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها وسم
لعبدة الاصنام بانهم هم المعرضون للتبار وانه لا يعدوهم البتة وانه لهم ضربة لازب ليحذرهم
عاقبة ما طلبوا ويبغض اليهم ما احبوا قال أغير الله أبغيكم الها الاستفهام للانكار والتوبيخ
اي كيف اطلب لكم غير الله الها تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه
والمعنى ان هذا الذي طلبتم لا يكون ابدا وادخال الهمزة على الغير للاشعار بان المنكر هو كون
المبتغى غير الله الها وهو فضلكم على العالمين من اهل عصركم وهم القبط بما انعم به عليكم
من اهلاك عدوكم واستخلافكم في الارض واخراجكم من الذل والهوان الى العز والرفعة فكيف تقابلون هذه
النعم بطلب عبادة غيره وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب اي اذكروا وقت انجائنا لكم من آل فرعون

بعد ان كانوا اماً لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم ويمتهنونكم بأنواع الامتهان هذا على ان هذا الكلام يحكي عن موسى واما اذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد فهو بمعنى اذكروا اذ انجينا اسلافكم حال كونهم يسومونكم سوء العذاب ويجوز ان تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما انجاهم منه يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ مفسرة للجملة التي قبلها او بدل منها وقد سبق بيان ذلك وَفِي ذَٰلِكُمْ اي هذا العذاب الذي كنتم فيه بَلَاءٌ عليكم نقمة او محنة مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وقد تقدم تفسيرها في البقرة والفائدة في ذكرها في هذا الموضع انه تعالى هو الذي انعم عليكم بهذه النعمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا الها كما لهم الهة وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً نكلمه عند انتهائها بان يصومها وهي ذو القعدة لاعطاء التوراة وَأَتْمَمْنَاهَا اي المواعدة المفهومة من واعدنا او ثلاثين ليلة قاله الحوفي الاول اولى بِعَشْرٍ ليال من ذي الحجة للتقرب قاله ابن عباس ومجاهد وفي مصحف ابي وتممناها بالتضعيف وحذف فيه بعشر لدلالة الكلام عليه فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ الميقات هو الوقت الذي قدر ان يعمل فيه عمل من الاعمال ولهذا قيل مواقيت الحج اي وقت وعده بكلامه اياه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً هذا من جملة ما اكرم الله به موسى عليه السلام وشرفه ولقد اجمل ذكر الاربعين في البقرة وذكره هنا على التفصيل وضرب بهذه المدة موعد المناجاة موسى ومكالمته قاله مجاهد وابن عباس قيل وكان التكليم في يوم النحر والفائدة في اربعين ليلة مع العلم بان الثلاثين والعشر اربعون لئلا يتوهم ان المراد اتممنا الثلاثين بعشر منها فبين ان العشر غير الثلاثين وفي نصب اربعين ثلاثة اوجه احدها انه حال قاله الزمخشري اي تم بالغا هذا العدد الثاني على المفعول به الثالث على الظرف قاله ابن عطية وفيه ضعف وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ عند ذهابه الى الجبل للمناجاة اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي اي كن خليفتي فيهم وَأَصْلِحْ امر بني اسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد احوالهم وحملهم على عبادة الله تعالى وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ اي لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونا للظالمين قال ابن عباس ان موسى قال لقومه ان ربي وعدني ثلاثين ليلة ان القاه اخلف هارون فيكم فلما فصل موسى الى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد ابصر جبريل فاخذ من اثر الفرس قبضة من تراب

ثم ذكر قصة السامري وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا اللام للاختصاص اي كان مجيئه مختصا
بالميقات المذكور بمعنى انه جاء في الوقت الموعود وكان يوم الخميس وكان يوم عرفة واعطاه
التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ اي اسمعه كلامه من غير واسطة ولا كيفية و
ازال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه وليس المراد انه انشأ له كلاما سمعه لان كلام الله
قديم ولم نر في التفاسير هنا بيان ما فهمه موسى من ذلك الكلام اخرج البزار وابن ابي حاتم و
ابو نعيم في الحلية والبيهقي في الاسماء والصفات من حديث جابر قال قال رسول الله صلعم
لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه فقال له موسى يا رب
اهذا كلامك الذي كلمتني به قال يا موسى انما كلمتك بقوة عشرة الاف لسان ولي قوة الالسن
كلها واقوى من ذلك فلما رجع موسى الى بني اسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن فقال
لا تستطيعونه الم تر والى اصوات الصواعق التي تقبل في احلى حلاوة سمعتموه فذلك قريب منه
وليس به وفيه دليل على كلام الله مع موسى قال الزمخشري تكليمه ان يخلق الكلام منطوقا
به في بعض الاجرام كما خلقه محفوظا في الالواح انتهى واليه ذهب المعتزلة وهو مذهب فاسد
يرده الكتاب والسنة واين للشجر وذلك الحجر ان يقول انني انا الله الاية وذهب الحنابلة ومن
وافقهم من اهل الحديث ان كلامه تعالى حروف واصوات مقطعة وانه قديم وهو الحق
وقد نطق به السنة المطهرة وقال جمهور المتكلمين ان كلامه صفة مغايرة لهذه الحروف
والاصوات وارادوا به الكلام النفسي ولا توجد له رائحة في السنة المطهرة وكذا ما ذكره الشيخ
في التاويلات ان موسى سمع صوتا دالا على كلام الله وهو ظاهر البطلان لمخالفة نص القرآن وقد
سكت جمع من السلف والخلف عن الخوض في تاويل صفة كلام الله تعالى وقالوا انه متكلم بكلام
قديم يليق بذاته بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوق ليس كمثله شيء فله المثل الاعلى
ولما سمع موسى كلام ربه عز وجل اشتاق الى رؤيته وسألها بقوله قَالَ رَبِّ أَرِنِي اي ارني نفسك
قاله الزجاج وقال ابن عباس اعطني وارني فعل امر مبني على حذف الياء والمعنى مكني من رؤيتك
وهيئني لها فان فعلت بي ذلك أَنظُرْ إِلَيْكَ فتغاير الشرط والجزاء وبالجملة فقد سأله النظر
اليه اشتياقا الى رؤيته لما اسمعه كلامه وسؤال موسى للرؤية يدل على انها جائزة عنده في الجملة

ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها قال لن تراني جملة مستانفة لكونها جوابا لسوال مقدر كانه
قيل فما قال الله والمعنى لن تراني بعين فانية بالسوال بل بعين باقية بالعطاء والنوال
او انه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رويته فيه او انه لا يرى ما دام الرائي حيا في دار الدنيا واما
رويته في الاخرة فقد ثبتت بالاحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة والجدال
في مثل هذا والمراوغة لا تاتي بفائدة ومنهج الحق واضح ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الانسان عليه
وادرك عليه اباءه واهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة
يوقع في التعصب والمتعصب وان كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء واذنه عن سماع الحق صماء
يدفع الحق وهو يظن انه ما دفع غير الباطل ويحسب ان ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلا
بما اوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالاذعان والتسليم وما
اقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الاصول والفروع فانه صار بها باب الحق مرتجا
وطريق الانصاف مستوعرة والامر لله سبحانه والهداية منه ۝ يابى الفتى الا اتباع الهوى
ومنهج الحق له واضح + ولم يقل لن ارى ليكون نفيا للجواز ولو لم يكن مرئيا لاخبر بانه ليس بمرئي
اذ الحالة حالة الحاجة الى البيان وقد تمسك اهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجية بظاهر
هذه الاية وقالوا لن للتابيد والدوام وهذا غلط اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن اهل اللغة
العربية ولم يقل به احد منهم والكتاب والسنة على خلاف ذلك فقد قال تعالى في حق اليهود
ولن يتمنوه ابدا مع انهم يتمنون الموت يوم القيامة كما قال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا
ربك وقولهم يا ليتها كانت القاضية والسنة اكثر من ان تحصى وعبر بلن تراني دون لن تنظر الي مع انه
المطابق لقوله انظر اليك لان الروية هي المقصودة والنظر مقدمتها وقد يحصل دونها واما
المطابقة في الاستدراك بقوله ولكن انظر الى الجبل فواضحة لان المقصود منه تعظيم امر
الروية ومعناه انك لا تثبت لرويتي ولا يثبت لها ما هو اعظم منك جرما وصلابة وقوة وهو
الجبل فانظر اليه فان استقر مكانه وبقي على حاله ولم يتزلزل عند رويتي له فسوف تراني
اي تثبت لرويتي وان ضعف عن ذلك فانت منه اضعف فلا طاقة لك فهذا الكلام بمنزلة ضرب
المثل لموسى عليه السلام بالجبل وقيل هو من باب التعليق بالمحال وعلى تسليم هذا فهو في الروية في الدنيا

لما قدمنا وقد تمسكت بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والاشعرية فالمعتزلة استدلوا بقوله لن تراني كما
تقدم وبأمره بان ينظر الى الجبل والاشعرية قالوا ان تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على انها
جائزة غير ممتنعة ولا يخفاك ان الرؤية الاخروية هي بمعزل عن هذا كله والخلاف بينهم
هو فيها لا في الرؤية في الدنيا فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف
فلما تجلى ربه التجلي معناه ظهر من قولك جلوت العروس اي ابرزتها وجلوت السيف اخلصته
من الصدا وتجلى الشيء انكشف والمعنى فلما ظهر ربه وقيل المتجلي هو امره وقدرته قاله قطرب وغيره
للجبل جعله دكا الدك مصدر بمعنى المفعول اي جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا بهذا قرأه
اهل المدينة واهل البصرة والدك والدق اخوان وهو تفتيت الشيء وسحقه وقيل تسويته بالارض
وقرأ اهل الكوفة دكاء على التانيث والجمع دكاوات كحمراء وحمروات وهي اسم للرابية الناشزة من
الارض او للارض المستوية فالمعنى ان الجبل صار صغيرا كالرابية او ارضا مستوية قال الكسائي
الدك من الجبال العراض واحدها ادك والدكاوات جمع دكاء وهي رواب من طين ليست بالغلاظ
والدكا دك ما التبد من الارض فلم يرتفع وناقة دكاء لا سنام لها قال سهل بن سعد الساعدي
دكا يعني مستويا بالارض وقيل ترابا وقيل ساخ حتى وقع في البحر وقال عطية العوفي صار رملا هائلا
وقال الكلبي يعني كسرا جبالا صغارا قيل واسم الجبل زبير قال الضحاك اظهر الله من نوره مثل منخر الثور
وقال ابن سلام وكعب ما تجلى الا مثل سم الخياط وقال السدي الا قدر الخنصر واخرج احمد والترمذي
والحاكم وصححاه وابن جرير وغيرهم عن انس بن مالك ان النبي صلعم قرأ هذه الآية جعله دكا
قال هكذا واشار باصبعيه ووضع ابهامه على انملة الخنصر وفي لفظ على المفصل الاعلى من الخنصر
فساخ الجبل وخر موسى صعقا وفي لفظ فساخ الجبل في الارض فهو يهوي فيها الى يوم القيامة
وهذا الحديث صحيح على شرط مسلم وقال ابن عباس هذا الجبل هو الطور وما تجلى منه الا قدر
الخنصر جعله ترابا وقال سهل بن سعد اظهر نورا قدر الدرهم من سبعين الف حجاب وعن
انس ان النبي صلعم قال لما تجلى الله للجبل صارت لعظمته ستة اجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة
وثلاثة بمكة بالمدينة احد وورقان ورضوى وبمكة حراء وثبير وثور اخرجه ابو الشيخ وابو نعيم
في الحلية وابن ابي حاتم وغيرهم وفي لفظ سبعة اجبل في اليمن اثنان حصور وصبر وخر موسى

اي سقط والخرور السقوط وقيده الراغب بسقوط يسمع له خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو صَعِقًا اي مغشيا عليه لهول ما رأى ماخوذ من الصاعقة والمعنى انه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند اصابة الصاعقة له يقال صعق الرجل فهو صعق ومصعوق اذا اصابته الصاعقة قال الكلبي صعق موسى يوم الخميس وهو يوم عرفة واعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر قال ابن عباس فلم يزل صعقا ما شاء الله وقال قتادة ميتا والاول اولى لقوله فَلَمَّا أَفَاقَ والميت لا افاقة له انما يقال افاق من غشيته والافاقة رجوع الفهم والعقل الى الانسان بعد جنون او سكر او نحوهما ومنه افاقة المريض وهي رجوع قوته وافاقة الحلب هي رجوع الدر الى الضرع قال الواقدي لما خر موسى صعقا قالت الملائكة ما لابن عمران وسؤال الرؤية فلما افاق وعرف انه سال امرا عظيما لا ينبغي له قَالَ سُبْحَانَكَ اي انزهك تنزيها من ان اسأل شيئا لم تأذن لي به او عن ان ترى في الدنيا او من النقائص كلها تُبْتُ إِلَيْكَ عن العود الى مثل هذا السؤال قال القرطبي واجمعت الامة على ان هذه التوبة ما كانت عن معصية فان الانبياء معصومون وقيل هي توبة من قتله للقبطي ذكره القشيري ولا وجه له في مثل هذا المقام وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلعم فمنعها قال تبت اليك وما بعده والاول اولى وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك وبانك لا ترى في الدنيا مع جوازها قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ جملة مستانفة كالتي قبلها متضمنة لاكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به والاصطفاء الاختيار والاجتباء اي اخترتك على النَّاسِ المعاصرين لك بِرِسَالَاتِي كانه نظر الى ان الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الانواع وقرئ بالافراد وَبِكَلَامِي المراد به هنا التكليم امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من انواع الاكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ امره بان ياخذ ما آتاه اي اعطاه من هذا الشرف الكريم والفضل الجسيم وَكُن امره بان يكون مِّنَ الشَّاكِرِينَ على هذا العطاء العظيم والاكرام الجليل وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مما يحتاج اليه بنو اسرائيل في دينهم ودنياهم وقال السدي من كل شيء امروا به ونهوا عنه وعن مجاهد مثله وقد اختلف السلف في المكتوب في الالواح اختلافا كثيرا ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي

وهذه الالواح هي التوراة قيل كانت من زمردة خضراء وقيل من ياقوتة حمراء وقيل من زبرجد خضراء وقيل من صخرة صماء وقيل من خشب نزلت من السماء وقد اختلف في عدة الألواح وفي مقدار طولها وعرضها والالواح جمع لوح وسمي لوحا لكونه تلوح فيه المعاني واسند الله سبحانه الكتابة الى نفسه تشريفا للمكتوب في الالواح وهي مكتوبة بامره سبحانه وقيل هي كتابة خلقها الله في الالواح وفي الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وفي لفظ غرس الفردوس بيده رواه الدارمي وابن النجار وغيرهما عن عبد الله بن الحارث والمحفوظ انه موقوف وفيه ابو معشر متكلم فيه وقال ابن عمر خلق الله اربعة اشياء بيده العرش والقلم وعدن وآدم وعن ميسرة ان الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلث خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ونحوه عن كعب رواهما الدارمي وعن علي بن ابي طالب قال كتب الله الالواح لموسى وهو يسمع صريف الاقلام في اللوح وعن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الالواح التي انزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعا اخرجه ابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه وعن سعيد بن جبير قال كانوا يقولون كانت الالواح من ياقوتة حمراء وانا اقول انما كانت من زمرد وكتابتها الذهب كتبها الله بيده فسمع اهل السموات صريف الاقلام اقول رحم الله سعيدا ما كان اغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه فمثله لا يقال بالرأي ولا بالحدس والذي يغلب به الظن ان كثيرا من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الامور فلهذا اختلفت واضطربت الاقوال فيها فهذا يقول من خشب وهذا يقول من ياقوت وهذا يقول من زمرد وهذا يقول من زبرجد وهذا يقول من برد وهذا يقول من حجر **مَوْعِظَةً** لمن يتعظ بها من بني اسرائيل وغيرهم وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته **وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ** اي للاحكام المحتاجة الى التفصيل وتبيانا لكل شيء من الامر والنهي والحلال والحرام قيل انزل التوراة وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها الا اربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى **فَخُذْهَا** اي الالواح وقيل الضمير عائد الى الرسالات او الى كل شيء او الى التوراة قيل وهذا الامر على اضمار القول اي قلنا له خذها **بِقُوَّةٍ** اي بجد ونشاط وقال ابن عباس بحزم وقال ربيع بن انس بطاعة وقال السدي باجتهاد وقيل بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة

وأمر قومك يأخذوا بأحسنها أي بأحسن ما فيها من الأجر الكثير من غيره وهو مثل قوله تعالى
اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم وقوله فيتبعون أحسنه ومن الأحسن الصبر على الغير
والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة وبالفريضة دون النافلة وفعل المأمور به وترك
المنهي عنه وقال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويقفوا عند متشابهها
وكان موسى أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به وقيل الحسن يدخل تحته الواجب و
المندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس وقيل حسن بمعنى حسن كلها حسن
سأوريكم دار الفاسقين أي الكفار قاله ابن عباس وهي أرض مصر التي كانت لفرعون و
قومه قاله عطية العوفي وقيل منازل عاد وثمود قاله الكلبي وقيل هي جهنم قاله الحسن وعطاء
وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها قاله السدي وقال قتادة سأدخلكم
الشام فأريكم منازل القرون الماضية وقيل الدار الهلاك والمعنى سأريكم هلاك الفاسقين
وقد تقدم تحقيق معنى الفسق وقال مجاهد سأريكم مصيرهم في الآخرة وقال قتادة منازلهم
في الدنيا ومعنى الإراءة الإدخال بطريق الإرث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما
في قوله وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها قاله أبو السعود وهذه
القراءة ترد القول بأنها جهنم والعجب من السيوطي بعد هذا الكلام المقرر كيف يرد بدعوى
التصحيف والتحريف وقد ذكر في حسن المحاضرة ما نصه اشتهر على ألسنة كثير من الناس أنها
مصر وقد أخرج ابن الصلاح وغيره من الحفاظ أن ذلك غلط نشأ عن تصحيف وإنما الوارد عن
مجاهد وغيره من مفسري السلف في قوله تعالى سأريكم دار الفاسقين قال مصيرهم فصحفت انتهى وجمهور
المفسرين على أن بني إسرائيل بعد خروجهم إلى الشام رجعوا إلى مصر وملكوا أرض القبط وأموالهم
قال القرطبي والكرخي وهو قول الحسن وقيل إنهم لم يعودوا إلى مصر وهو قول ضعيف جداً
سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض قيل معناه سأمنعهم فهم كتابي أي أنزع
عنهم فهم القرآن قاله سفيان بن عيينة وقال السدي عن أن يتفكروا في آياتي وقال ابن جريج
عن التفكر في خلق السموات والأرض والآيات التي فيهما وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها والتصديق
بما فيها وقيل عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقيل سأطبع

على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها واختلف في تفسير الآيات فقيل هي المعجزات التسع التي أعطاها الله لموسى وقيل الكتب المنزلة وقيل خلق العالم ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة والتكبر إظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق العباد ويتكبرون من الكبر لا من التكبر أي يفتعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال بِغَيْرِ الْحَقِّ أي يتكبرون بما ليس بحق أو متلبسين بغير الحق وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا أي سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة والآيات التكوينية والمعجزات أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا معطوف على ما قبلها داخلة في حكمه وكذلك وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا والمعنى أنهم إذا وجدوا سبيلا من سبل الرشد يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب تركوه وتجنبوه وإن رأوا سبيلا من سبل الغي والضلال سلكوه واختاروه لأنفسهم قال أبو عبيدة فرق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال الرُّشد الصلاح والرَّشَد في الدين وقال النحاس سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد كالسخط والسخط وهما لغتان وأصل الرشد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد وهو ضد الخيبة ذَٰلِكَ أي الصرف بتكذيبهم والتكبر وعدم الإيمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد وسلوك سبيل الغي بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ أي بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الدَّارِ الْآخِرَةِ يعني لقاءهم لها أو لقاءهم ما وعدوا به فيها ذكره الزمخشري حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ الحباط البطلان أي بطل ما عملوه في الدنيا مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم كأن لم تكن ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم لما في الحديث الصحيح أسلمت على ما أسلفت من خير هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا أي بما كانوا أو على ما كانوا أو جزاء ما كانوا قدره الواحدي وقال هذا لا بد منه قال السمين وهو واضح لأن نفس ما كانوا يَعْمَلُونَ لا يجزونه إنما يجزون بمقابلته أعمالهم من الكفر بالله والتكذيب بآياته وتنكب سبيل الحق وسلوك سبيل الغي وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ أي من بعد خروجه إلى الطور وذهابه إلى المناجاة من للتبعيض أو للابتداء أو للبيان مِنْ حُلِيِّهِمْ التي استعاروها من قوم فرعون للعيد

ليتزينوا به فبقي عندهم الى ان هلك فرعون وقومه وصار ملكا لهم والحلي جمع حلي كالنحائر
جمع حلي وحلي مثل ثدي وثُدي وثدي واضيفت الحلي اليهم وان كانت لغيرهم لان الاضافة
تجوز لادنى ملابسة عجلا اي اتخذوا عجلا الها وجسدا بدل من عجلا او وصف له يعني اتخذوا من ذلك
الحلي وهو الذهب والفضة عجلا له خوار اي صوت البقر هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة
وجمهور المفسرين والخوار الصياح يقال خار يخور خوارا اذا صاح وكذلك جار يجار ونسب اتخاذ العجل
الى القوم جميعا مع انه اتخذه السامري وحده لكونه واحدا منهم وهم راضون بفعله روي انه
لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فابطأ عليهم في العشر المزيدة قال السامري لبني اسرائيل
وكان مطاعا فيهم ان معكم حليا من حلي آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتتزينوا به في العيد وخرجتم
وهو معكم وقد اغرق الله اهله من القبط فهاتوه فدفعوه اليه فاتخذ منه العجل المذكور وقال قتادة
فجعله جسدا لحما ودما له خوار وقال عكرمة صوت وقيل كان جسدا لا روح فيه وكان يسمع منه
صوت من خفق الريح والاول اولى لانه كان يخور قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدي
كان يخور ويمشي وقرأ علي وابو السماك له جؤار بالجيم والهمزة وهو الصوت الشديد الكريه ألم يروا انه لا يكلمهم
الاستفهام للتقريع والتوبيخ اي الم يعتبروا بان هذا الذي اتخذوه الها لا يقدر على تكليمهم فضلا عن
ان يقدر على جلب نفع لهم او دفع ضر عنهم ولا يهديهم سبيلا اي طريقا واضحا يسلكونها وعلى
كلا التقديرين لا يصلح لان يعبد اتخذوه الها واعيد تاكيدا وكانوا ظالمين لانفسهم في اتخاذه
الها وفي كل شيء ومن جملة ذلك الاتخاذ ولما سقط في ايديهم اي ندموا وتحيروا بعد عود موسى من
الميقات يقال للنادم المتحير قد سقط في يده وقال الاخفش يقال سُقط واسقط ونقله ايضا الفراء
والزجاج لان الفراء قال سقط اي الثلاثي اكثر واجود وهذه اللفظة تستعمل في الندم والتحير
قد اضطربت اقوال اهل اللغة في اصلها قال الواحدي قد بان من اقوال المفسرين واهل
اللغة ان سُقط في يده ندم وانه يستعمل في صفة النادم فاما القول في اصله وماخذه فلم
ار لاحد من ائمة اللغة شيئا ارتضيه فيه الا ما ذكره الزجاج فانه قال انه بمعنى ندموا وقال
ابو عبيدة يقال لمن ندم على امر وعجز عنه سقط في يده وقال الزمخشري معناه لما
اشتد ندمهم ومن قال سقط على البناء للفاعل فالمعنى عنده سقط الندم واصله

ان من شان من اشتد ندمه وحسرته ان يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لان فاه قد وقع فيها وفي الجمل سقط فعل ماض مبني للمجهول واصله سقطت افواههم على ايديهم ففي بمعنى على وذلك من شدة الندم فان العادة ان الانسان اذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على اصابعه فسقوط الافواه على الايدي لازم للندم فاطلق اسم اللازم واريد الملزوم على سبيل الكناية وهذا التركيب لم تعرفه العرب الا بعد نزول القران والسقوط عبارة عن النزول من اعلى الى اسفل وقال الازهري والزجاج والنحاس وغيرهم معنى سقط في ايديهم اي في قلوبهم وانفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وان كان محالا ان يكون في اليد تشبيها لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد لان مباشرة الاشياء في الغالب باليد قال تعالى ذلك بما قدمت يداك وايضا الندم وان حل القلب فاثره يظهر في البدن لان النادم يعض يده ويضرب احدى يديه على الاخرى قال تعالى فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها ومنه ويوم يعض الظالم على يديه اي من الندم وايضا النادم يضع ذقنه في يده ورأوا اي تبينوا وتيقنوا انهم قد ضلوا باتخاذهم العجل وانهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه في عبادتهم العجل قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال والاعتراف بعظم ما قدموا عليه من الذنب والندم على ما صدر منهم والرغب الى الله في اقالة عثرتهم واعترافهم على انفسهم بالخسران ان لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم وسياتي في سورة طه ان شاء الله ما يدل على ان هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى وانما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه والاسف شديد الغضب قاله محمد بن كعب وقيل هو منزلة وراء الغضب اشد منه قاله ابو الدرداء وقال ابن عباس والسدي الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدي والقولان متقاربان لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب فاذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت واذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى احدى هاتين الحالتين حزنا والاخرى غضبا قال

صواسف واسيف واسفان واسوف قال ابن جرير الطبري اخبره الله قبل رجوعه بانهم
قد فتنوا وان السامري قد اضلهم فلذلك رجع وهو غضبان اسفا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي هذا ذم من موسى لقومه اي بئس العمل ما عملتموه من بعد غيبتي عنكم وفراق
اياكم يقال خلفه بخير وخلفه بشر استنكر عليهم ما فعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا امن الآيات
ما يوجب بعضه الانزجار والايمان بالله وحده ولكن هذا شأن بني اسرائيل في تلون حالهم
واضطراب فعالهم ثم قال منكرا عليهم أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ العجلة التقدم بالشيء قبل وقته
يقال عجلت الشيء سبقته واعجلت الرجل حملته على العجلة ولذلك صارت مذمومة
والسرعة غير مذمومة لان معناها عمل الشيء في اول وقته والمعنى اعجلتم عن انتظار امر ربكم
اي ميعاده الذي وعدنيه وهو الاربعون ففعلتم ما فعلتم قاله الحسن وقيل معناه تعجلتم
سخط ربكم وقيل معناه اعجلتم واسبقتم بعبادة العجل قبل ان يأتيكم امر ربكم قاله الكلبي وقيل معنى
اعجلتم تركتم والاول اولى وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ التي فيها التوراة اي طرحها لما اعتراه من شدة
الغضب والاسف حين اشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل قال ابن عباس لما
القى موسى الالواح تكسرت فرفعت الا سدسها رفع الله منها ستة اسباعها وبقي سبع وقال
مجاهد لما القاها موسى ذهب التفصيل يعني اخبار الغيب وبقي الهدى اي ما فيه المواعظ
والاحكام وعن ابن جريج قال كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة وفي زاده المراد
بالقائها انه وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه لا رغبة عنها فلما عاد
اليها اخذها بعينها وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ هارون او بشعر رأسه ولحيته حال كونه يَجُرُّهُ
إِلَيْهِ من شدة غضبه لا هوانا به قال ابن الانباري مد يده الى رأسه لشدة وجده عليه
وفعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري ولا غير ما رآه من عبادة بني اسرائيل للعجل قَالَ
هارون معتذرا منه يا ابْنَ أُمَّ انما قال هذا مع كونه اخاه لابيه وامه لانها كلمة لين ورفق
وعطف ولانها كما قيل كانت مؤمنة وقال الزجاج قيل كان هارون اخا موسى لامه لا لابيه
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي اي اني لم اطق تغيير ما فعلوه لهذين الامرين
استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي مع اني لم آل جهدا في كفهم بالوعظ والانذار فَلَا تُشْمِتْ

بي الاعداء الشماتة اصلها الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان
بفلان اذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الاعداء بما تفعل بي من المكروه وفي المصباح
شمت به يشمت من باب سلم اذا فرح بمصيبة نزلت به والاسم الشماتة واشمت الله به العدو
ومنه قوله صلعم اللهم اني اعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة
الاعداء وهو في الصحيح قيل والمعنى لا تفعل بي ما يكون سببا للشماتة منهم وقال مجاهد ومالك
بن دينار لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي وقال ابن جني والمعنى فلا تشمت بي انت يارب
وما ابعد هذا المعنى عن الصواب وابعد تاويلها عن وجوه الاعراب ولا تجعلني مع القوم
الظالمين الذين عبدوا العجل او لا تعتقد اني منهم قال رب اغفر لي ولاخي طلب المغفرة له
اولا ولاخيه ثانيا ليزيل عن اخيه ما خافه من الشماتة فكانه تذمم مما فعله باخيه واظهر
انه لا وجه له وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ثم طلب المغفرة لاخيه ان كان
قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الانكار عليهم وتغيير ما وقع منهم وادخلنا في
رحمتك التي وسعت كل شيء وانت ارحم الراحمين فيه ترغيب في الدعاء لان من هو
ارحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته ان الذين اتخذوا
العجل الها عبدوه من دون الله سينالهم غضب من ربهم الغضب ما نزل بهم من العقوبة
في الدنيا بقتل انفسهم وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب وذلة في الحيوة الدنيا الذلة
هي التي ضربها الله عليهم بقوله ضربت عليهم الذلة وقيل هي اخراجهم من ديارهم والاولى
ان يقيد الغضب والذلة بالدنيا لقوله في الحيوة الدنيا وان ذلك مختص بالمتخذين للعجل الها
لا لمن بعدهم من ذراريهم ومجرد ما امروا به من قتل انفسهم هو غضب من الله عليهم
وبه يصيرون اذلاء وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم وبه يصيرون اذلاء
واما ما نال ذراريهم من الذل على عهد رسول الله صلعم كما قال ابن عباس وعطية العوفي
فلا يصح تفسير ما في الآية به الا اذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي وهو لم يتعذر ههنا
وقال ابن جريج ان هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل و
هذا الذي قاله وان كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلاف ذلك وكذلك اي مثل ما

فعلنا بهؤلاء نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ اي نفعل بهم عن ابي ايوب قال هو جزاء كل مفترين الى يوم القيامة
ان يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا في كل مبتدع الى يوم القيامة وقال مالك بن انس
ما من مبتدع الا وهو يجد فوق راسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله
انتهى والافتراء الكذب فمن افترى على الله سيناله غضب وذلة في الحياة الدنيا وان لم يكن
بنفس ما عوقب به هؤلاء بل المراد ما يصدق عليه انه من غضب الله سبحانه وان فيه
ذلة باي نوع كان ولا فرية اعظم من قول السامري هذا الهكم واله موسى وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا
ٱلسَّيِّـَٔاتِ اي سيئة كانت حتى الكفر وما دونه ومن جملتها عبادة العجل ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعۡدِهَا
اي من بعد عملها وَءَامَنُوٓا بالله إِنَّ رَبَّكَ ايها التائب او يا محمد مِنۢ بَعۡدِهَا اي من بعد هذه
التوبة او من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وامن بالله لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ
اي كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم وفي الآية دليل على ان السيئات باسرها
صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وان الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته وهذا
من اعظم البشائر للمذنبين التائبين وَلَمَّا سَكَتَ وقرئ اسكت عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ اصل
السكوت السكون والامساك عن الشيء يقال جرى الوادي ثلثا ثم سكت اي امسك وسكن
عن الجري قيل هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك
كذا والق الالواح وجر براس اخيك فترك الاغراء وسكت وقيل هذا الكلام فيه قلب و
الاصل سكت موسى عن الغضب كقولهم ادخلت الاصبع الخاتم والخاتم الاصبع وادخلت
القلنسوة راسي وراسي القلنسوة والاول اولى وبه قال اهل اللغة والتفسير وفيه مبالغة
وبلاغة من حيث انه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه حتى
عبر عن سكونه بالسكوت أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ التي القاها عند الغضب قال الرازي وظاهر هذا
يدل على ان الالواح لم تتكسر ولم يرفع من التورية شيء وَفِي نُسۡخَتِهَا فعلة بمعنى مفعول كالخطبة
والنسخ نقل ما في كتاب الى كتاب آخر ويقال للاصل الذي كان النقل منه نسخة وللمنقول
نسخة ايضا قال القشيري والمعنى اي فيما نسخ من الالواح المتكسرة ونقل الى الالواح الجديدة
وقيل المعنى وفيما نسخ له منها اي من اللوح المحفوظ وقيل المعنى وفيما كتب له فيها فلا يحتاج

الى الاصل ينقل عنه وهذا كما يقال انسخ ما يقول فلان اي اثبته في كتابك هُدًى اي ما يهتدون به من الاحكام وَرَحْمَةٌ اي ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة قال مجاهد ولم يذكر التفصيل ههنا وقال ابن عباس هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لِلَّذِينَ هُمْ راسخين كائنة لهم اولاجلهم واللام في لِرَبِّهِمْ للتقوية للفعل وقد صرح الكسائي بانها زائدة وقال الاخفش هي لام الاجل وقال المبرد التقدير للذين هم رهبتهم لربهم يَرْهَبُونَ اي يخافون منه سبحانه وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم والاختيار افتعال من الخيار يقال اختار الشيء اذا اخذ خيره وخياره والمعنى اختار من قومه فحذف كلمة من وذلك شائع في العربية لدلالة الكلام عليه قيل اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين و سبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل اجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وذهب مع الباقون وروي انه لم يصب الا ستين شيخا فاوحى الله اليه ان يختار من الشبان عشرة فاختارهم فاصبحوا شيوخا فامرهم ان يصوموا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم الى طور سينا ذكره الخطيب وقيل غير ذلك لِمِيقَاتِنَا اي للوقت الذي وقتناه له بعد ان وقع من قومه ما وقع والميقات الكلام الذي تقدم ذكره لان الله امره ان ياتي الى الطور في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل وقال مجاهد المعنى لتمام الموعد وقيل هذا الميقات غير ميقات الكلام السابق في قوله واعدنا موسى فهذا بعد ميقات الكلام ولم يبينوا امره هذا وقال ابن عباس امره الله ان يختار سبعين رجلا فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم فكان فيما دعوا الله ان قالوا اللهم اعطنا مالم تعط احدا من قبلنا ولا تعطه احدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فاخذتهم الرجفة كما قال فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ هي في اللغة الزلزلة الشديدة قيل انهم زلزلوا حتى ماتوا يوما وليلة وقال وهب لم تكن موتا ولكن اخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت ان تبين مفاصلهم ومعظم الروايات انهم ماتوا قال مجاهد ماتوا ثم احياهم الله تعالى وسبب اخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة

على ما تقدم في البقرة وقيل هؤلاء السبعون غير من قالوا أرنا الله جهرة بل أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل وقيل إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل المعنى لو شئت أهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافا منه عليه السلام بالذنب وتلهفا على ما فرط من قومه وإياي معهم وقال ذلك لأنه خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين ولم يصدقوا بأنهم ماتوا أتهلكنا بما فعل السفهاء منا الاستفهام للجحد أي لست ممن يفعل ذلك قاله ثقة منه برحمة الله والمقصود منه الاستعطاف والتضرع قاله ابن الأنباري وقيل معناه الدعاء والطلب أي لا تهلكنا قاله المبرد وقيل قد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ولكنه كقول عيسى عليه السلام إن تعذبهم فإنهم عبادك وقيل المراد بالسفهاء السبعون والمعنى أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم أرنا الله جهرة وقيل المراد بهم السامري وأصحابه إن هي قال الواحدي الكناية في هي تعود إلى الفتنة كما تقول إن هو إلا زيد إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه إنا قد فتنا قومك من بعدك قال أبو العالية بليتك وقال ابن عباس مشيئتك تضل بها أي بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدي بها من تشاء منهم ومثله ليبلوكم أيكم أحسن عملا قال الواحدي وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال أنت ولينا أي المتولي لأمورنا وهذا يفيد الحصر أي لا ناصر ولا حافظ إلا أنت فاغفر لنا ما أذنبناه وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء وأنت خير الغافرين للذنوب واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة بتوفيقنا للأعمال الصالحة أو تفضل علينا بإفاضة النعم من الحياة الطيبة والعافية وسعة الرزق واكتب لنا في الآخرة الجنة بما تجازينا به أو بما تتفضل به علينا من النعيم في الآخرة إنا هدنا إليك تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة في الدنيا وفي الآخرة أي إنا أنبنا إليك ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل والهود التوبة وقد تقدم في البقرة وبه قال جميع المفسرين قيل وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل

نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم وهو لازم لهم واصل الهود الرجوع برفق والمهادنة المصالحة
قال عكرمة فكتب الرحمة يومئذ لهذه الامة وقال ابو وجزة السعدي وكان من اعلم الناس
بالعربية لا والله ما اعلمها في كلام العرب هدنا قيل فكيف قال هِدنا بكسر الهاء يقول ملنا
قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ قيل المراد بالعذاب هنا الرجفة وقيل امره سبحانه لهم
بان يقتلوا انفسهم اي ليس هذا اليك يا موسى بل ما شئت كان وما لم اشأ لم يكن والظاهر
ان العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولا اوليا و
قيل المراد من اشاء من المستحقين للعذاب او من اشاء ان اضله واسلبه التوفيق ليس
لاحد علي اعتراض لان الكل ملكي وعبيدي وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ من المكلفين وغيرهم
قيل هذا من العام الذي اريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين خاصة
في الاخرة قاله الحسن وقتادة وقال جمع من المفسرين لما نزلت هذه الاية تطاول ابليس اليها
قال وانا من ذلك الشيء فنزعها الله من ابليس قاله السدي وابن جريج وعن قتادة نحوه
فقال فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الذنوب او الشرك قاله ابن عباس وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ المفروضة
عليهم وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ اي يصدقون ويذعنون لها فايس ابليس وقالت اليهود
نحن نتقي ونؤتي الزكوة ونؤمن بايات ربنا فنزعها الله من اليهود واثبتها لهذه الامة و
اخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال ان لله
مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على اولادها واخر تسعة وتسعين
الى يوم القيامة وعن ابن عباس قال سأل موسى ربه مسألة فاعطاها محمدا صلعم واعطى محمدا
صلعم كل شيء سأل موسى عليه الصلوة والسلام ربه في هذه الاية ثم بين سبحانه هؤلاء الذين
كتب لهم هذه الرحمة ببيان اوضح مما قبله واصرح فقال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ قال الرازي هم من
بني اسرائيل خاصة وقال الجمهور هم جميع الامة سواء كانوا منهم او ممن غيرهم الرَّسُولَ
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ هو محمد صلعم باجماع المفسرين فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل والامي
اما نسبة الى الامة الامية التي لا تكتب ولا تحسب ولا تقرأ وهم العرب قاله الزجاج او نسبة الى
الام والمعنى انه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب وقيل نسبة الى ام القرى

وهي مكة والاول اولى وكونه اميا من اكبر معجزاته واعظمها قال السيد الشبريني المقري شارح البردة ان كونه اميا معجزة له كما قرره حتى لا يرتاب احد في كلام الله يرد عليه انه لو تم قيل عليه لو خلق افصح الناس ولو خلق غير فصيح حتى يعلموا ان ما يتلوه من الكلام المعجز بلاغته ليس كلامه قال الشهاب في الريحانة قوله هذا ليس بشي لان الامية سابقة في اكثر فصحاء العرب وهم في غناء عن الكتابة واما عدم الفصاحة فلكنة وعيب عظيم منزه عنه عالي مقامه وطاهر فطرته وجوهر جبلته وهذا البحث مما لا نراه في غير كتابنا هذا الَّذِي يَجِدُونَهُ يعنى اليهود والنصارى اي يجدون نعته مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وهما مرجعهم في الدين وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الانجيل فهو من باب الاخبار بما سيكون اخرج ابن سعد والبخاري وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت اخبرني عن صفة رسول الله صلعم قال اجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القران يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا وروي نحو هذا مع اختلاف في بعض الالفاظ وزيادة ونقص في بعض عن جماعة وذكر الحلبي في تاريخه ان لفظ محمد مذكور في التوراة باللغة السريانية بلفظ المنحمنا ومعنى هذا اللفظ في تلك اللغة هو معنى لفظ محمد وهو الذي يحمده الناس كثيرا وذكر ان لفظ احمد مذكور في الانجيل بهذا اللفظ العربي الذي هو احمد يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ اي بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الاشياء التي هي من مكارم الاخلاق وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ اي عما تنكره القلوب ولا تعرفه وهو ما كان من مساوى الاخلاق قال عطاء يامرهم بخلع الانداد وصلة الارحام وينهاهم عن عبادة الاصنام وقطع الارحام وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ اي المستلذات التي تستطيبها الانفس وقيل ما حرم عليهم من الاشياء التي حرمت عليهم بسبب ذنوبهم من شحوم الابل وشحوم الغنم والمعز والبقر وقيل ما كانوا يحرمونه على انفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل

والنواهي وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ اي المستخبثات كالحشرات والخنازير وقال ابن عباس
يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع او تستقذره النفس فان
الاصل في المضار الحرمة الا ما له دليل متصل بالحل وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ الاصر الثقل
اي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة او العهد الذي اخذ عليهم ان يعملوا بما في التورية
من الاحكام وقد تقدم بيانه في البقرة وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ الاغلال مستعارة
للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها ونحو ذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة
وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم اخذ الدية
وترك العمل في السبت وان صلاتهم لا تجوز الا في الكنائس الى غير ذلك فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
اي بمحمد صلعم واتبعوه فيما جاء به من الشرائع وَعَزَّرُوهُ اي عظموه ووقروه قاله الاخفش و
قيل معناه منعوه من عدوه واصل العزر المنع وَنَصَرُوهُ اي قاموا بنصره على من يعاديه
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ اي القرآن الذي انزل عليه مع نبوته وقيل المعنى واتبعوا
القرآن المنزل اليه مع اتباعه بالعمل بسنته مما يامر به وينهى عنه او اتبعوا القرآن مصاحبين
له في اتباعه أُولَئِكَ اشارة الى المتصفين بهذه الاوصاف هُمُ الْمُفْلِحُونَ اي الناجون الفائزون
بالخير والفلاح والهداية لا غيرهم من الامم قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
لما تقدم ذكر اوصاف رسول الله صلعم المكتوبة في التورية والانجيل امره سبحانه ان يقول
هذا القول المقتضي لعموم رسالته الى الناس والجن جميعا لا كما كان غيره من الرسل عليهم
السلام فانهم كانوا يبعثون الى قومهم خاصة قال ابن عباس بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم الى الروم
الى الاسود والاحمر والاحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ملكا وعبيدا وتصرفا وقوله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة
مقرر لمضمونها مبين لها لان من ملك السموات والارض وما فيهما هو الاله على الحقيقة وهكذا
من كان يُحْيِي وَيُمِيتُ هو المستحق لتفرده بالربوبية ونفي الشركاء عنه والجملة سيقت لبيان
اختصاصه بالالهية لانه لا يقدر على الاحياء والاماتة غيره قاله الزمخشري وذكره السمين
فلذا قال فَآمِنُوا الامر بالايمان بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ متفرع على ما قبله وفي العدول عن المضمر الى

الاسم الظاهر وبلاغة النبي الامي هيا وصفان لرسوله وكذلك الذي يؤمن بالله وكلماته وصف له والمراد بالكلمات ما انزله الله عليه وعلى الانبياء من قبله او اياته او عيسى قاله مجاهد والسدي او القران فقط والاية عامة والعموم اولى بجلالة واتبعوه مغرة بجملة فاسوا به والاتباع يعم الاقوال والافعال والاعتقاد والاعمال لعلكم تهتدون علة للامر بالايمان والاتباع ومن قوم موسى امة لما قص الله سبحانه علينا ما وقع من السامري واصحابه وما حصل من بني اسرائيل من التزلزل في الدين قص علينا سبحانه ان من قومه امة مخالفة لاولئك الذين تقدم ذكرهم ووصفهم بانهم يهدون اي يدعون الناس الى الهداية حال كونهم ملتبسين بالحق او يهتدون به ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون اليه وبه يعدلون بين الناس في احكامهم اي بالحق يحكمون وبالعدل ياخذون ويعطون وبه ينصفون واختلفوا في هؤلاء فقيل هم القوم الذين بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس اليه وقال الكلبي والضحاك والربيع هم قوم خلف الصين باقصى الشرق على نهر يسمى نهر الاردن ليس لاحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون في النهار ويزرعون ولا يصل اليهم احد منا وهم على الحق الى اخر القصة وما ابعدها عن الصحة واقربها الى الوضع وقد ابتلي بذكرها جمع من المفسرين الذين ليس لهم معرفة بعلم الحديث وقيل هم الذين اسلموا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقران واخرج الفريابي وابن ابي حاتم عن ابن عباس قال موسى يا رب اجد امة اناجيلهم في قلوبهم قال تلك امة تكون بعدك امة احمد قال يا رب اجد امة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن قال تلك امة تكون بعدك امة احمد قال يا رب اجد امة يعطون صدقات اموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون قال تلك امة بعدك امة احمد قال يا رب اجعلني من امة احمد صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله كهيئة المرضية لموسى ومن قوم موسى امة الاية وقطعناهم الضمير يرجع الى قوم موسى المتقدم ذكرهم لا الى هؤلاء الامة منهم الذين يهدون بالحق والمعنى صيرناهم اثنتي عشرة اسباطا اي قطعا متفرقة وفرقناهم معدودين بعدد العشر ويميز بعضهم من بعض وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي انعم بها على بني اسرائيل اي انه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا اسباطا كل سبط معروف على

انفراده لكل سبط نقيب كما في قوله تعالى وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا والاسباط جمع
سبط وهو ولد الولد صار واثني عشر امة من اثني عشر ولدا واراد بالاسباط القبائل ولهذا
انث العدد والمراد اولاد يعقوب لان يعقوب هو اسرائيل واولاده الاسباط وقد تقدم
تحقيق معنى الاسباط في البقرة وسماهم امما لان كل سبط كان جماعة كثيرة العدد وكانوا
مختلفي الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر واخرج ابن ابي حاتم وابو الشيخ عن علي بن ابي
طالب قال افترقت بنو اسرائيل بعد موسى احدى وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة
وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة ولتفترقن
هذه الامة على ثلث وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة فاما اليهود فان الله يقول ومن
قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون فهذه التي تنجو واما النصارى فان الله يقول منهم
امة مقتصدة فهذه التي تنجو واما نحن فيقول وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون
فهذه التي تنجو من هذه الامة وقد قدمنا ان زيادة كلها في النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة
واوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه اي وقت استسقائهم له لما اصابهم العطش في
التيه ان تفسير لفعل الايحاء اضرب بعصاك الحجر الذي فر بثوبه فضربه فانبجست الانبجاس
الانفجار اي فانفجرت وقيل عرقت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الاسباط لكل سبط عين
يشربون منها قد علم كل اناس اسم جمع واحده انسان وقيل جمع تكسير له والانسان اسم
جنس يقع على الذكر والانثى والواحد والجمع والاناس بالضم مشتق من الانس وقد تحذف
همزته تخفيفا على غير قياس فيصير ناسا مشربهم والمعنى علم كل سبط منهم بالعلم الضروري
الذي خلقه الله في كل المعين المختصة به التي يشرب منها لا يدخل سبط على سبط في
مشربهم وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الاعادة وظللنا عليهم الغمام
اي جعلناه ظللا عليهم في التيه يسير بسيرهم ويقيم باقامتهم ويقيهم حر الشمس وانزلنا
عليهم في التيه المن والسلوى اي الترنجبين والسماني طعاما لهم وقيل السلوى جنس من الطير
وقد تقدم تحقيقه في البقرة كلوا من طيبات ما رزقناكم اي وقلنا لهم كلوا من المستلذات
التي رزقناكم وما ظلمونا بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها

وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ اي كان ظلمهم مختصا بهم مقصورا عليهم لايجاوزهم الى غيرهم وَإِذْ قِيلَ اي اذكر وقت ان قيل لهم هذا القول وهو اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ اي بيت المقدس او اريحاء وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه وفى البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لان كل ساكن في موضع لابد له من الدخول اليه وَكُلُوا مِنْهَا الشيء من المأكولات الموجودة فيها من الثمار والزروع والحبوب والبقول حَيْثُ اي في اي مكان شِئْتُمْ من امكنتها لامانع لكم من الاكل فيه وقال فى البقرة فكلوا بالفاء لان الدخول حالة مقتضية للاكل عقبه فحسن دخول الفاء للتعقيب والسكنى حالة استمرار والاكل حاصل متى شاؤا ولم يقل رغدا هنا كما قال فى البقرة لان الاكل عقب الدخول الذ واكمل ومع السكنى ليس كذلك وَقُولُوا حِطَّةٌ اي حط عنا ذنوبنا وقد تقدم تفسيرها فى البقرة وَادْخُلُوا الْبَابَ اي باب القرية المتقدمة حال كونكم سُجَّدًا امروا بان يجمعوا بين قولهم حطة وبين الدخول ساجدين فلا يقال كيف قدم الامر بالقول هنا على الدخول واخره فى البقرة وقد تقدم معنى السجود الذي امروا به نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ اي ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها وانما قال هنا خطيئاتكم وفى البقرة خطاياكم لان المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة او كثيرة اذا اتوا بالدعاء والتضرع سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ على المغفرة للخطايا بما نتفضل به عليهم من النعم وقال فى البقرة وسنزيد بالواو لان هنا استينافا على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ يعني امروا ان يقولوا حطة فقالوا حطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم ودخلوا يزحفون على استاههم وادبارهم وقد تقدم بيان ذلك فى البقرة لكن الفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة في سورة البقرة من وجوه ثمانية ذكرها الخطيب وقد اشرنا اليها فيما تقدم فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ اي عذابا كائنا منها هو الطاعون ومات به منهم في وقت واحد سبعون الفا وقال فى البقرة انزلنا ولا منافاة بينهما لانهما لايكونان الا من اعلى الى اسفل بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ اي بسبب ظلمهم وقال فى البقرة بما كانوا يفسقون والجمع بينهما انهم لما ظلموا انفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى

واذكر اذ قيل لهم واسألهم عن القرية هذا سؤال تقريع وتوبيخ والمراد من سؤال القرية سؤال اهلها اي اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما امرهم الله به و في ضمن هذا السؤال فائدة جليلة وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان اطلاعه عليه لا يكون الا باخبار له من الله سبحانه فيكون دليلا على صدقه واختلف اهل التفسير اي قرية هي فقيل ايلة قاله علي وقيل مدين وقيل ايليا وقيل قرية بين مصر والمدينة والمغرب قاله ابن عباس وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهري هي طبرية الشام وقال وهب هي ما بين مدين وعيونى وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر اي التي كانت بقرب بحر القلزم يقال كنت بحضرة الدار اي بقربها والمعنى سل يا محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء اليهود الموجودين الذين هم جيرانك عن قصة اهل القرية المذكورة اذ يعدون اي يتجاوزون حدود الله بالصيد وقرئ يعدّون بتشديد الدال من الاعداد للآلة في يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه والسبت هو اليوم المعروف واصله السكون يقال سبت اذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم والجمع اسبت وسبوت واسبات اذ تأتيهم حيتانهم جمع حوت واضيفت اليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الاتيان يوم سبتهم دون ما عداه قال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضا شرعا جمع شارع اي ظاهرة على الماء قريبا من الساحل وقيل رافعة رؤسها وقيل انها كانت تشرع على ابوابهم كالكباش البيض قال في الكشاف يقال شرع علينا فلان اذا دنى واشرف علينا وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا انتهى ويوم لا يسبتون اي لا يفعلون ولا يراعون امر السبت وذلك عند خروج يوم السبت والمعنى لا سبت ولا مراعاة لا تأتيهم الحيتان كما كانت تأتيهم في يوم السبت كذلك اي مثل ذلك البلاء العظيم والاختبار الشديد نبلوهم بما كانوا يفسقون اي بسبب فسقهم واذ قالت امة منهم اي جماعة من صلحاء اهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم الموعظة واقلاعهم عن المعصية لم تعظون قوما الله مهلكهم اي مستأصل لهم بالعقوبة

او معذبهم عذابا شديدا بما انتهكوا من حرمة وفسقوا من المعصية وقيل ان الجماعة
القائلة لم تعظون قوما هم العصاة الفاعلون للمعصية في يوم السبت قالوا ذلك للواعظين
لهم حين وعظوهم والمعنى اذا علمتم ان الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا قالوا اي قال الواعظون
للجماعة القائلين لهم لم تعظون وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الاول او الفاعلون
على الثاني اي فعلنا ذلك معذرة اي لاجل المعذرة او موعظتنا معذرة على قراءة الرفع الى ربكم حتى لا نؤاخذ
بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين اوجبهما علينا ولرجاء ان يتعظوا فيتقوا ويقلعوا
عما هم فيه من المعصية قال جمهور المفسرين ان بني اسرائيل افترقت ثلث فرق فرقة عصت
وصادت وكانت نحو سبعين الفا وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص وفرقة اعتزلت ونهت
ولم تعص فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية لم تعظون قوما يريدون
الفرقة العاصية الله مهلكهم او معذبهم قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة
الله من هلاك العصاة او تعذيبهم من دون استيصال بالهلاك فقالت الناهية موعظتنا
معذرة الى الله ولعلهم يتقون ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية وعاصية لقال
لعلكم تتقون فلما نسوا ما ذكروا به اي لما ترك العصاة من اهل القرية ما ذكرهم به
الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الاعراض انجينا
الذين ينهون عن السوء اي الذين فعلوا النهي ولم يتركوه واخذنا الذين ظلموا وهم العصاة
المعتدون في السبت بعذاب بئيس اي شديد وجيع من بؤس الشيء يبأس بأسا اذا اشتد
وفيه احد عشرة قراءة للسبعة وغيرهم بما كانوا يفسقون اي بسبب فسقهم واعتدائهم
وخروجهم عن طاعتنا قال ابن عباس نجت الفرقة الساكتة وقال يمان بن رباب نجت
الطائفتان واهلك الذين اخذوا الحيتان وبه قال الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية و
هلكت الفرقتان وهذه الآية اشد آية في ترك النهي عن المنكر فلما عتوا عما نهوا عنه
اي تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه وابوا ان يرجعوا عنها تمردا وتكبرا قلنا لهم كونوا
اي امرناهم امرا تكوينيا لا امرا قوليا يعني مسخناهم قردة خاسئين قيل انه سبحانه عذبهم اولا بسبب
المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم الله قردة وقيل ان قوله فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا ما ذكروا به

للتاكيد والتقرير وان المسخ هو العذاب البئيس خاسئين الخاسي الصاغر الذليل والمباعد المطرود يقال خسأته فخسأ اي باعدته فتباعد قال قتادة لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء قيل صار شبان القوم قردة والمشيخة خنازير بقوا ثلثة ايام ينظر الناس اليهم ثم هلكوا جميعا واعلم ان ظاهر النظم القرآني هو انه لم ينج من العذاب الا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله انجينا الذين ينهون عن السوء وانه لم يعذب بالمسخ الا الطائفة العاصية لقوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين فان كان الطوائف منهم ثلثا كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل انها ممسوخة مع الطائفة العاصية لانها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر ويحتمل انها لم تمسخ لانها وان كانت ظالمة لنفسها عاتية عن امر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة وهي صيد الحوت في يوم السبت ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد واما اذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالثانية فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ وانما جعلت طائفة مستقلة لانها قد جرت المقاولة بينها وبين الطائفة الاخرى من الناهين المعتزلين واذ تاذن ربك اي واعلمهم وقت تاذن ربك تاذن تفعل من الايذان وهو الاعلام قال ابو علي الفارسي آذن بالمد اعلم واذن بالتشديد نادى وقال قوم كلاهما بمعنى اعلم كما يقال ايقن وتيقن وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل الى ربك وقال الزمخشري عزم ربك وقيل معناه حتم واوجب والمعنى واسألهم وقت ان وقع الاعلام لهم من ربك وقيل في هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك اجيب بما يجاب به القسم حيث قال ليبعثن اي ليرسلن عليهم وليسلطن كقوله بعثنا عليهم عبادا لنا اولي بأس شديد الى يوم القيامة غاية لقوله من يسومهم يذيقهم سوء العذاب ما يبعثه الله عليهم وقد كانوا اقماهم الله هكذا اذلا مستضعفين معذبين بايدي اهل الملل وهكذا هم في هذه الملة الاسلامية في كل قطر من اقطار الارض في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار يسلمون الجزية لحقن دمائهم ويمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الاعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار وعن ابن عباس قال يسومهم

محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته سوء العذاب بأخذ الجزية والخراج ثم قيل هو بختنصر وسنجاريب وملوك الروم
وهذا نص في أن العذاب إنما يحصل لهم مستمرا إلى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة
والذلة وأخذ الجزية منهم وأما في الآخرة كان عذابهم أشد وأعظم ثم علل ذلك بقوله
إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ لمن أقام على الكفر يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
أي كثير الغفران والرحمة لمن آمن منهم ودخل في دين الإسلام وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا
أي فرقناهم في جوانبها أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة قال ابن عباس هم اليهود بسطهم الله
في الأرض فليس فيها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة وقيل المعنى وجعلنا كل فرقة منهم
في قطر بحيث لا تخلو ناحية من الأرض منهم حتى لا تكون لهم شوكة قاله أبو السعود فلا توجد
بلدة كلها يهود ولا لهم قلعة ولا سلطان بل هم متفرقون في كل الأماكن مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ قيل
هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل قال الطبري وصفهم
بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ويدل له قوله الآتي فخلف من بعدهم خلف و
قيل هم الذين سكنوا وراء الصين ولا يصح كما تقدم بيانه وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ أي دون
هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح والتقدير ومنهم أناس أو قوم
دون ذلك والمراد هؤلاء من لم يؤمن بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ أي امتحناهم جميعا الصالح وغيره بالخير والشر قال ابن عباس الحسنات الرخاء
والعافية والسيئات البلاء والعقوبة أو الخصب والجدب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي رجاء أن
يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ المراد بهم أولاد الذين قطعهم
الله في الأرض قال أبو حاتم الخلف بسكون اللام الأولاد الواحد والجمع سواء والخلف بفتح اللام
البدل ولدا كان أو غيره وقال ابن الأعرابي الخلف بالفتح الصالح وبالسكون الطالح ومنه قيل
للرديء من الكلام خلف بالسكون وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر والمعنى جاء من بعد
هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله وَرِثُوا الْكِتَابَ
أي التوراة من أسلافهم يقرءونها ولا يعملون بها والمراد بإرثه انتقاله إليهم ووقوعه في
أيديهم يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع

الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم والعرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والادنى ماخوذ من الدنو وهو القرب اي يأخذون عرض هذا الشيء الادنى وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشا وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله وتهوينهم للعمل باحكام التوراة وكتمهم لما يكتمونه منها وقيل ان الادنى ماخوذ من الدناءة والسقوط اي انهم يأخذون عرض الشيء الدني الساقط التافه الخسيس الحقير والمعنى متقارب لان الدنيا باسرها حقيرة فانية والراغب فيها احقر منها وعن ابن عباس انه سئل عن هذه الآية فقال اقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ويتبعون رخص القرآن ويقولون سيغفر لنا ولا يعرض لهم شيء من الدنيا الا اخذوه وقال مجاهد هم النصارى يأخذون عرض هذا الادنى ما اشرف لهم شيء من الدنيا حلالا او حراما يشتهونه اخذوه ويتمنون المغفرة وان يجد وامثله يأخذوه كما سيأتي ويقولون سيغفر لنا اي يعللون انفسهم بالمغفرة مع تماديهم في الضلالة وعدم رجوعهم الى الحق ويتمنون على الله الاماني الباطلة الكاذبة والمراد بهذا الكلام التقريع والتوبيخ لهم عن شداد بن اوس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني اخرجه الترمذي وكان اليهود يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه والحال انهم ان يأتهم كما يؤخذ من الكشاف وقال السفاقسي انه مستأنف عرض مثله يأخذوه اي مثل الذي كانوا يأخذونه اخذوه غير مبالين بالعقوبة ولا خائفين من التبعة وقيل الضمير في يأتهم ليهود المدينة اي وان يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرض مثل العرض الذي كان تأخذه اسلافهم فهم اخذوه كما اخذ اسلافهم الم يؤخذ عليهم اي على هؤلاء المرتشين في احكامهم والاستفهام للتقريع والتوبيخ او للتقرير فالمعنى اخذ عليهم الميثاق لان القصد منه اثبات ما بعد النفي ميثاق الكتاب اي التوراة الا يقولوا على الله الا الحق فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون اليها ولا يتوبون منها قاله ابن عباس والحال انهم قد درسوا ما فيه

اي الكتاب وعلموه ولم ياتوه بجهالة فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل وذلك اشد
ذنبا واعظم جرما وقيل معناه محوه بترك العمل به والفهم له من قولهم درست الريح
الآثار اذا محتها والدار الآخرة خير من ذلك العرض الذي اخذوه واثروه عليها وارتشوا
في الاحكام للذين يتقون الله ويخافون عقابه ويجتنبون معاصيه افلا تعقلون فتعلمون
هذا او تفهمونه وفي هذا من التوبيخ والتقريع ما لا يقادر قدره والذين يمسكون بالكتاب
قرأ الجمهور بالتشديد من مسّك وتمسك اي استمسكوا بالكتاب وهو التوراة وقرئ
بالتخفيف من امسك يمسك والمعنى ان طائفة من اهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب
ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكرهم وطائفة يتمسكون
بالكتاب اي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون اليه في امر دينهم فهم المحسنون الذين
لا يضيع اجرهم عند الله وقال عطاء هم امة محمد صلى الله عليه واله وسلم واقاموا الصلوة
اي داموا على اقامتها في مواقيتها قال الحسن هي لاهل الايمان منهم كعبد الله بن سلام
واصحابه وقال مجاهد هي لليهود والنصارى وانما وقع التنصيص على الصلوة مع كونها
داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة لانها راس العبادات واعظمها
وعماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر وكان ذلك وجها لتخصيصها بالذكر وقيل
لانها تقام في اوقات مخصوصة والتمسك بالكتاب مستمر فذكرت لهذا وفيه نظر فان كل
عبادة في الغالب تختص بوقت معين انا لا نضيع اجر المصلحين الجملة خبر الذين وفيه وضع
الظاهر موضع المضمر واذ اي اسألهم اذ والغرض من هذا الزام اليهود والرد عليهم في توهم
ان بني اسرائيل لم يصدر منهم مخالفة في الحق نتقنا النتق اختلفت فيه عبارات اهل
اللغة فقال ابو عبيدة هو قلع الشيء من موضعه والرمي به ومنه نتق ما في الجراب اذا
نفضه فرمى ما فيه وامرأة ناتق ومنتاق اذا كانت كثيرة الولادة وفي الحديث عليكم
بزواج الابكار فانهن انتق ارحاما واطيب افواها وارضى باليسير وقيل النتق الجذب
بشدة ومنه نتقت السقاء اذا جذبته بشدة لتقلع الزبدة من فيه وقال الفراء هو الرفع
وقال ابن قتيبة هو الزعزعة وبه فسر مجاهد وكل هذه معان متقاربة اي رفعنا الجبل

من اصله وهو الطور الذي سمع موسى عليه كلام ربه واعطي الالواح وقيل هو جبل من
جبال فلسطين وقيل هو الجبل عند بيت المقدس وكان ارتفاعه على قدر قامتهم فكان
محاذيا لرؤسهم كالسقيفة فوقهم كأنه لارتفاعه ظلة اي سحابة تظلهم وهي اسم
لكل ما اظل وقال البيضاوي كأنه سقيفة وهي كل ما اظلك وقرئ طلة بالطاء من اطل
عليه اذا اشرف وظنوا قيل الظن هنا بمعنى العلم وقيل هو على بابه انه اي الجبل واقع بهم
اي ساقط عليهم خذوا اي قلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة هي الجد والعزيمة اي اخذا
كائنا بقوة واجتهاد قال ابن عباس اي خذوا ما آتيناكم والا ارسلته عليكم ورفعته
الملائكة فوق رؤسهم فكانوا اذا نظروا الى الجبل قالوا سمعنا واطعنا واذا نظروا الى الكتاب
قالوا سمعنا وعصينا وعنه قال اني لاعلم لم تسجد اليهود الا على حرف قال الله واذ نتقنا
الجبل قال لتاخذن امري او لارمينكم به فسجدوا وهم ينظرون اليه مخافة ان يسقط
عليهم وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة وقال قتادة في الآية انتزعه الله
من اصله ثم جعله فوق رؤسهم فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الايسر وجعل ينظر
بعينه اليمنى الى الجبل خوفا ان يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود الا على شق وجوههم
الايسر واذكروا ما فيه من الاحكام التي شرعها الله لكم ولا تنسوها لعلكم تتقون اي
رجاء ان تتقوا ما نهيتم عنه وتعملوا بما امرتم به وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة
مستوفى فلا نعيده واذ اخذ ربك من بني آدم وكذا من آدم فالاخذ منه لازم للاخذ
منهم لان الاخذ منهم بعد الاخذ منه ففي الآية الاكتفاء باللازم عن الملزوم ومن ظهورهم
بدل اشتمال مما قبله باعادة الجار قاله الكواشي والذي في الكشاف انه بدل بعض من
كل قال الحلبي وهو الظاهر وايثار الاخذ على الاخراج للاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من
الانباء عن اختيار الاصطفاء وهو السبب في اسناده الى الرب بطريق الالتفات مع ما
فيه من التمهيد للاستفهام الآتي واضافته الى الضمير عليه السلام للتشريف ذريتهم
هي تقع على الواحد والجمع واستدل بهذا على ان المراد بالمأخوذين هنا هم ذرية بني آدم
اخرجهم الله من اصلاب ابيهم نسلا بعد نسل على نحو ما يتوالد الابناء من الآباء فلذلك

قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم لما علم انهم كلهم بنوا آدم وقد ذهب الى هذا
جماعة من المفسرين وقالوا معنى واشهدهم على انفسهم دلهم بخلقه على انه خالقهم
فقامت هذه الدلالة مقام الاشهاد فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في
قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين وقيل المعنى ان الله سبحانه
اخرج الارواح قبل خلق الاجساد وانه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه
وقيل المراد ببني آدم هنا آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع والمعنى ان الله سبحانه لما
خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته واخذ عليهم العهد وهؤلاء هم عالم الذر
وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير الى غيره لثبوته مرفوعا الى النبي صلى
الله عليه وآله وسلم وموقوفا على غير واحد من الصحابة ولا ملجئ للمصير الى المجاز واذا جاء نهر
الله بطل نهر معقل وقد ذكر البيضاوي القولين والحق ما ذكرناه وقد اخرج مالك
في الموطأ واحمد في المسند وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابو داود والترمذي وحسنه
والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن حبان في صحيحه وابو الشيخ والحاكم
وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات والضياء في المختارة عن مسلم بن يسار
الجهني ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم يسأل عنها فقال ان الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال
خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت
هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال ان الله
اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة
فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال
اهل النار فيدخله النار ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وذكر الطبري في بعض طرق
هذا الحديث بعمر بن ربيعة بن مسلم وعمر بنحوه واختلف الناس في كيفية الاستخراج على
اقوال لا مستند لها والحق وجوب اعتقاد اخراجها من ظهر آدم كما شاء الله تعالى كما ورد في
الصحيح قال المقبلي في الابحاث ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الاحاديث والروايات

على الواحدة في ذلك وقال بعضهم الظاهر انه استخرجهم احياء لانه سماهم ذرية والذرية هم الاحياء لقوله انا حملنا ذريتهم في الفلك قال ابن عباس ان اول ما اهبط الله آدم الى الارض اهبطه بدهناء ارض الهند فمسح ظهره فاخرج منه كل نسمة هو بارئها الى يوم القيامة ثم اخذ عليهم الميثاق واشهدهم على انفسهم اي اشهد كل واحد منهم الست بربكم اي قائلا هذا فهو على ارادة القول وفي هذه الآية رد على اهل المعاني في قولهم ان الاغراق غير مقبول ما لم يقارن كاد ونحوه هذا مما شهد به الذوق السليم وزكى شهادته الطبع المستقيم قال الشهاب في الريحانة وهذا وان سلمه علماء المعاني والبيان الا انه محتاج الى الايضاح والبيان فانه يعترض عليه بما يعارضه ويكدره ورود ما يناقضه كقوله عز وجل هذا فانه بمعناه اذا اخراج الذرية من الظهور قبل الخلق والظهور واخذ المواثيق والعهود مما يقتضي الترغيب والترهيب وهذا على سبيل التحقيق دون التخييل والتقدير وقد ذكر هذا في حديث الصحيحين المعلوم عند علماء الحديث ولهم فيه طريقان مشهوران وهو مما خفي على كثير من العلماء ولهم فيه كلام محتاج للايضاح فاقول لعلماء التفسير فيه طريقان الاول انه من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وعلى هذا لا يبقى فيه اشكال ولا للبحث عنه مجال الثاني ان له معنى جليلا قام عليه اقوى برهان ودليل فمنهم من ذهب الى انه استعارة وتمثيل نزل فيه وضوح الادلة القائمة على توحيده تعالى وصحة احكام الشريعة المركوزة في الفطرة السليمة منزلة بروزهم في الخارج واخذ العهود منزلة اتباع ما ذكر وتسليمه والعمل بمقتضاه فلا يرد عليه شيء مما ذكر ونحن نقول ان الامر الذي وقع فيه المبالغة لا يخلو اما ان يقع بعد زمان بعيد كالساعة او لا يقع وهو اما محال متعذر الوقوع لنظائر ومشابه اولا الاول مقبول لتنزيل المحقق الوقوع منزلة الواقع وكذا الثاني لامكان ان يراد مجازا وكناية والاخير هو محل الكلام والذي عليه اهل المعاني انه مردود ما لم يقترن به مسوغ مثل كاد ونحوها والآية ليست من هذا القبيل لاسنادها الى الذي ابرز العدم وما فيه من ارحام العدم ولا يقتضي قدرته شيء في القدم فما علينا الا الايمان بذلك وما لم تصل له افهامنا نكله اليه ونسأله ان يهدينا للوقوف عليه وكفى هذا الاجمال في مثل هذه الحال اهـ وما بعد

الحدث الا الضلال انتحى قالوا بلى شهدنا اي على انفسنا بانك ربنا واختلفوا في الاجابة منه
كيف كانت هل كانوا احياء فاجابوا بلسان المقال ام اجابوه بلسان الحال والى الامر الاول
ونكل علم كيفيتها الى الله سبحانه وكان هذا القول على وفق السؤال لانه تعالى سألهم عن
ربيتهم ولم يسألهم عن الوهيتهم فقالوا بلى فلما انتهوا الى زمان التكليف وظهر ما قضى الله في
سابق علمه لكل احد منهم من وافق ومنهم من خالف قاله ابو طاهر القزويني وقيل تجلى
للكفار بالهيبة وللمؤمنين بالرحمة فقال كلهم بلى قيل وكان ذلك قبل دخول الجنة بين
مكة والطائف قاله الكلبي وقيل بعد الهبوط منها وقال علي في الجنة وقيل بسرانديب من
ارض الهند وهو الموضع الذي هبط آدم فيه من الجنة وكل ذلك محتمل ولا يضرنا الجهل
بالمكان بعد صحة الاعتقاد باخذ العهد والله اعلم اخرج احمد والنسائي وابن جرير والحاكم
وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال
ان الله اخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها
فنثرها بين يديه ثم كلمهم فقال الست بربكم الى قوله المبطلون واسناده لا مطعن فيه واخرج
عبد بن حميد والحكيم الترمذي والطبراني وابو الشيخ عن ابي امامة ان رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم قال لما خلق الله الخلق وقضى القضية واخذ ميثاق النبيين وعرشه على
الماء فاخذ اهل اليمين بيمينه واخذ اهل الشمال بيده الاخرى وكلتا يدي الرحمن يمين فقال
يا اصحاب اليمين فاستجابوا له فقالوا لبيك ربنا وسعديك قال الست بربكم قالوا بلى الحديث
والاحاديث في هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية وبعضها مطلق يشتمل على
ذكر اخراج ذرية آدم من ظهره واخذ العهد عليهم كما في حديث انس مرفوعا في الصحيحين وغيرهما واما المروي عن الصحابة
في تفسير هذه باخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذر واخذ العهد عليهم واشهادهم على انفسهم فهي كثيرة جدا وقد
روي عن جماعة من الصحابة تفسير هذه الآية باخراج ذرية آدم من ظهره وفيما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل وقال اهل الكلام والنظر قولهم بلى شهدنا على المجاز لا على
الحقيقة وهو خلاف مذهب جمهور المفسرين من السلف قال ابن الانباري مذهب اصحاب
الحديث وكبراء اهل العلم في هذه الآية ان الله اخرج ذرية آدم من صلبه واصلاب

اولادة وهم صور كالذر واخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وانهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد ان ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولا حتى خوطبوا بقوله يا جبال اوبي معه وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك الشجرة حتى سمعت لامره وانقادت وقولهم شهدنا اقرار له بالربوبية وكلام مستأنف وقيل شهدنا على انفسنا بهذا الاقرار وليس في الآية ما يدل على بطلان ما ورد في الاحاديث وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير اليه والاخذ به جمعا بينهما وحكى الواحدي عن صاحب النظم انه قال ليس بين قوله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله مسح ظهر آدم فاخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله تعالى لانه تعالى اذا اخرجهم من ظهر آدم فقد اخرجهم من ظهور ذريته لان ذرية آدم كذرية بعضهم من بعض قيل انما لم نتذكر هذا العهد لان تلك البنية قد انقضت وتغيرت احوالها بمرور الدهور عليها في اصلاب الآباء وارحام الامهات وتطور الاطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم وهذا كله مما يوجب النسيان وكان علي بن ابي طالب يقول اني لاذكر العهد الذي عهد الي ربي وكذا كان سهل بن عبد الله التستري يقول ثم ابتدأهم بالخطاب على السنة الرسل واصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والتكليف ولم يبلغنا في كون تلك الذوات مصورة دليل والاقرب للعقول عدم الاحتياج الى كونها بصورة الانسان والحكمة في اخذ الميثاق منهم اقامة الحجة على من لم يوف بذلك والظاهر انه لما ردهم الى ظهره قبض ارواحهم واما ان الارواح اين رجعت بعد رد الذرات الى ظهره فهذه مسئلة غامضة لا يتطرق اليها النظر العقلي باكثر من ان يقال رجعت كما كانت عليه قبل حلولها في الذرات وورد ان كتاب العهد والميثاق مودع في باطن الحجر الاسود وذكره الشعراني في رسالته القواعد الكشفية في الصفات الالهية وذكر فيها على هذه الآية اثني عشر سؤالا واجاب عنها والحق عندي ان كل ما لم يرد فيه نص من كتاب او سنة فاطواءه على غره اولى وترك الخوض فيه احرى أَنْ تَقُولُوا اي كراهة ان او لئلا

تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا اي عن كون الله ربنا وحده لا شريك له غافلين
أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا اي فعلنا ذلك كراهة ان تعتذروا بالغفلة او تنسبوا
الشرك الى آبائكم دونكم واو لمنع الخلو دون الجمع فقد يعتذرون بمجموع الامرين من قبل
اي قبل زماننا وكنا ذرية من بعدهم اي اتباعا لهم فاقتدينا بهم في الشرك لا اهتداء لنا
الى الحق ولا نعرف الصواب أفتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا
عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا بين الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لاجلها اخرجهم
من ظهر آدم واشهدهم على انفسهم وانه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم
القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة ففي هذه الآية
قطع لعذر الكفار فلا يمكنهم ان يحتجوا بمثل ذلك وقال اهل النظر المراد منه مجرد نصب
الدلائل واظهارها للعقول والحق هو الاول والمعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع اشهادهم
على انفسهم بالتوحيد والتذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس
وكذلك اي مثل ذلك التفصيل البليغ نفصل الآيات لهم ليتدبروها ولعلهم يرجعون
الى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل وقيل يرجعون الى الميثاق الاول فيذكرونه و
يعملون بموجبه ومقتضاه والمآل واحد واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا وهي علوم
الكتب القديمة والتصرف بالاسم الاعظم فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ما طلب
في الحال وايراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير اهل الكتاب بها لانها كانت مذكورة
عندهم في التوراة وقد اختلف في هذا الذي اوتي الآيات فقيل هو بلعم بن باعوراء
قاله ابن عباس وفي لفظ بلعام بن باعر الذي اوتي الاسم الاعظم كان في بني اسرائيل وبه
قال مجاهد وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة وقيل كان قد اوتي النبوة وكان مجاب
الدعوة بعثه الله الى مدين يدعوهم الى الايمان فاعطوه الاعطية الواسعة فاتبع
دينهم وترك ما بعث به فلما اقبل موسى في بني اسرائيل لقتال الجبارين سأل الجبارون بلعم
بن باعوراء ان يدعو على موسى فقام ليدعو عليه فتحول لسانه بالدعاء على اصحابه
فقيل له في ذلك فقال لا اقدر على اكثر مما تسمعون واندلع لسانه على صدره فقال

وقيل ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة فلم يبق الا المكر والخديعة والحيلة وسأمكر لكم واني
ارى ان تخرجوا اليهم فتنيا تكم فان الله يبغض الزنا فان وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو اسرائيل
في الزنا فارسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون الفا وقيل ان هذا الرجل اسمه
باعم وهو من بني اسرائيل وقيل من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة
البلقاء وقال ابن مسعود هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن ابر والقصة ذكرها
جماعة من المفسرين وفيها ان موسى دعى على بلعام بان ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان
ولا يصح ذلك من غير نظر فيه ولا بحث وقيل المراد به امية بن ابي الصلت الثقفي وكان
قد قرأ الكتب وعلم ان الله مرسل رسولا في ذلك فلما ارسل الله محمدا صلى الله عليه و
آله وسلم حسده وكفر به قاله عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد
بن اسلم وقيل هو ابو عامر بن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية فكفر بمحمد صلى الله
عليه وآله وسلم وكانت الانصار تقول هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق وقيل
نزلت في البسوس رجل من بني اسرائيل قاله ابن عباس وقيل نزلت في منافقي اهل الكتاب
قاله الحسن وابن كيسان وقيل نزلت في قريش اتاهم الله اياته التي انزلها على محمد صلى
الله عليه وآله وسلم فكفروا بها وقيل نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد صلى
الله عليه وآله وسلم فكفروا به وقال قتادة هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى
ولم يقبله قيل والمراد بالآيات اسم الله الاكبر قاله ابن عباس وقال ابن زيد كان لا يسأل
الله شيئا الا اعطاه قال السدي كان يعلم اسم الله الاعظم وقيل انه اوتي كتابا وقيل ان الله
آتاه حجة وادلة فانسلخ منها كما تنسلخ الحية والشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال و
قال ابن عباس نزع منه العلم والانسلاخ التعري من الشيء وليس في الآية ما يدل على ضرورة
تدعو اليه وان زعمه بعضهم وان اصله فانسلخ منه فاتبعه الشيطان عند انسلاخه
عن الآيات اي لحقه فادركه وصار قرينا له او فاتبعه خطواته وصيره تابعا لنفسه
وقيل اتبعه بمعنى استتبعه فكان من الغاوين اي المتمكنين في الغواية وهم الكفار ولو
شئنا رفعناه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها اي بسببها الى منازل العلماء ولكن لم نشأ

ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها وقيل المعنى لو شئنا لأمتناه قبل ان يعصي فرفعناه
الى الجنة بها اي بالعمل بها قاله ابن عباس وقال مجاهد وعطاء لرفعنا عنه الكفر و
عصمناه بالآيات وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ اصل الاخلاد اللزوم يقال اخلد فلان بالمكان اذا اقام
به ولزمه والمعنى هنا انه مال وسكن الى الدنيا ورغب فيها ورضي بها واطمأن واثرها
على الآخرة إِلَى الْأَرْضِ هي هنا عبارة عن الدنيا لان بها المفاوز والقفار والمدن
والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الارض
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ اي ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله وهو حطام
الدنيا وقيل كان هواه مع الكفار وقيل اتبع رضاء زوجته وكانت هي التي حملته على
الانسلاخ من آيات الله وهذه الآية من اشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم
الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ اي وصار لما انسلخ عن الآيات ولم
يعمل بها منحطا الى اسفل رتبة مشابها لاخس الحيوانات في الدناءة مماثلا له في اقبح اوصافه
إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ اي في كلتا حالتي قصد الانسان له وتركه هو لاهث
سواء زجر او ترك طرد او لم يطرد شد عليه او لم يشد وليس بعد هذا في الخسة والدناءة
شيء والمعنى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفا بهذه الصفة اي ان هذا المنسلخ عن
الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع احواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره
الزاجر او لم يقع شيء من ذلك قال القتيبي كل شيء يلهث فانما يلهث من اعياء او عطش
الا الكلب فانه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال
الري وحال العطش فضربه الله مثلا لمن كذب باياته فقال ان وعظته ضل وان تركته
ضل فهو كالكلب ان تركته لهث وان طردته لهث كقوله تعالى وان تدعوهم الى الهدى
لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون واللهث اخراج اللسان لتعب او
عطش او غير ذلك قاله الجوهري قيل معنى الآية انك اذا حملت على الكلب نبح وولى
هاربا وان تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه
عند ذلك ما يعتريه عند العطش من اخراج اللسان يقال لهث الكلب يلهث لهثا اذا ادلع لسانه

ذٰلِكَ اي التمثيل بتلك الحالة الخسيسة مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰتِنَا من اليهود
بعد ان علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وكذبوا بها وقيل عم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها وهو الحق لان الاعتبار
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فَاقْصُصِ الْقَصَصَ الذي هو صفة الرجل المنسلخ على الآيات
عليهم فان مثل المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُوْنَ في ذلك ويعملون فيه افهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على
الصواب وقيل هذا المثل لكفار مكة ولا وجه لتخصيصه بفرد دون فرد والاولى هو العموم
سَآءَ مَثَلًا هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح الى الغاية يقال ساء
الشيء قبح فهو لازم وساءه يسوءه مساءة فهو متعد وهو من افعال الذم كبئس والمخصوص
بالذم الْقَوْمُ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِاٰيٰتِنَا وَاَنْفُسَهُمْ كَانُوْا يَظْلِمُوْنَ اي ما ظلموا بالتكذيب الا
انفسهم لا يتعداها ظلمهم الى غيرها ولا يتجاوزها وقيل المعنى انهم جمعوا بين التكذيب بآيات
الله وظلم انفسهم وهذا افيد مَنْ يَّهْدِ اللّٰهُ اي يرشده الى دينه او يتولى هدايته فَهُوَ
الْمُهْتَدِيْ لما امر به وشرعه لعباده وَمَنْ يُّضْلِلْ اي يتول ضلالته فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ
الكاملون في الخسران من هداه فلا مضل له ومن اضله فلا هادي له ما شاء كان وما لم يشأ
لم يكن اخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن
جابر بن عبد الله قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته يحمد الله و
يثني عليه بما هو اهله ثم يقول من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له
اصدق الحديث كتاب الله واحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر
الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ثم يقول
بعثت انا والساعة كهاتين فلو كان الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر
والمؤمن اذ البيان ثابت في حقهما فدل انه من الله التوفيق والعصمة والمعونة ولو كان
ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن وَلَقَدْ ذَرَاْنَا لِجَهَنَّمَ اي خلقنا للتعذيب بها خلقا
كَثِيْرًا مِّنَ طائفتي الْجِنِّ وَالْاِنْسِ جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل اهلها يعملون وقد علم

ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الاحاديث الصحيحة واخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن النجار عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله لما ذرأ لجهنم من ذرء كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله خلق للجنة اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم وخلق للنار اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم اخرجه مسلم لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا شيئا من امور الآخرة جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم ورشادهم غير فاقهة مطلقا وان كانت تفقه في غير ما فيه النفع والرشاد فهو كالعدم والفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء يقال فقه الرجل فهو فقيه اذا فهم وهكذا معنى وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا طريق الهدى والحق وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الحق فان الذي انتفى من الاعين هو ابصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وان كانت مبصرة في غير ذلك والذي انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة وما جاءت به رسل الله عليهم الصلوة والسلام وان كانوا يسمعون غير ذلك أُولَٰئِكَ المتصفون بهذه الاوصاف كَالْأَنْعَامِ اي البهائم في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر مع وجودها فيهم والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ثم حكم عليهم بانهم شر من الانعام فقال بَلْ هُمْ أَضَلُّ اي حكم عليهم بانهم اضل منها لانها تدرك بطبعها الامور ما ينفعها ويضرها فتنتفع بما تنفع وتجتنب ما يضر وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به بل يقدمون على النار معاندة أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شان من له عقل وبصر وسمع وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ ذكر ذلك في اربع سور من القرآن اولها هذه السورة وثانيها في آخر بني اسرائيل وثالثها في اول طه ورابعها في آخر الحشر وهذه الآية مشتملة على الاخبار من الله سبحانه بما له من الاسماء على الجملة دون التفصيل والحسنى تانيث الاحسن اي التي هي احسن الاسماء لدلالتها على احسن مسمى واشرف مدلول وقيل الحسنى مصدر وصف به كالرجعى والافراد كما افرد وصف ما لا يعقل وقد اخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة

وابو عوانة وابن جرير وابن ابي حاتم والطبراني وابن مندة وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من احصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر وفي لفظ ابن مردويه وابي نعيم من دعى بها استجاب الله دعاءه وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر هو الله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم الى قوله الصبور وهي معروفة هكذا اخرج الترمذي هذه الزيادة عن ابي هريرة مرفوعة وقال هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن ابي هريرة ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الاسماء الا في هذا الحديث قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ ان سرد الاسماء مدرج في هذا الحديث وانهم جمعوها من القرآن ثم قال ليعلم ان الاسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه احمد في مسنده عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ما اصاب احدا قط هم ولا حزن فقال اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن امتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاءك اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك واستأثرت به في علم الغيب عندك الحديث وقد اخرجه ابو حاتم ابن حبان في صحيحه بمثله انتهى واخرجه البيهقي في الاسماء والصفات قال النووي اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه سبحانه وليس معناه انه ليس له اسماء غير هذه التسعة والتسعين وانما المقصود ان من احصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء انتهى قال ابن حزم جاءت في احصائها يعني الاسماء الحسنى احاديث مضطربة لا يصح منها شيء اصلا وقد اخرجها بهذا العدد الذي اخرجه الترمذي ابن مردويه وابو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكراه ولا ادري كيف اسناده عن ابي جعفر محمد بن الصادق قال هي في القرآن ثم سردها سورة فسورة وقد ذكر ابن حجر في التلخيص انه تتبعها من الكتاب العزيز الى ان حررها منه تسعة وتسعين ثم سردها ويؤيد هذا ما اخرجه ابو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم تسعة وتسعون اسماً من احصاها دخل الجنة وهي في القرآن وقد اطال اهل العلم الكلام على الاسماء الحسنى حتى ان ابن العربي في شرح الترمذي حكى عن بعض اهل العلم انه جمع من الكتاب والسنة من اسماء الله الف اسم ومعنى احصاها حفظها قاله البخاري وبه قال اكثر المحققين ويعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل العد اي عدها في الدعاء بها وقيل المعنى من اطاقها واحسن المراعاة لها وقيل احضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها والاول اولى وقد ذكر الرازي في هذا المقام بحثاً في ان الاسم عين المسمى او غيره وهو مما لم يكلف الله به عباده وفي قوله فادعوه بها دليل على ان اسماء الله سبحانه توقيفية لا اصطلاحية والمعنى سموه بها واجروها عليه واستعملوها فيه دعاء ونداء وغير ذلك فلا تسموه بغيرها مما لم يرد اطلاقه عليه تعالى امرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة فانه اذا دعي باحسن اسمائه كان ذلك من اسباب الاجابة وذروا الذين يلحدون الالحاد الميل في الانحراف وترك القصد يقال لحد الرجل في الدين والحد اذا مال ومنه اللحد في القبر لانه في ناحيته قال ابن عباس الالحاد التكذيب وقال عطاء هو المضاهاة وقال اعمش يدخلون فيها ما ليس منها وقال قتادة يشركون والالحاد في اسمائه سبحانه يكون على ثلثة اوجه اما بالتغيير كما فعله المشركون فانهم اخذوا اسم اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان قاله ابن عباس ومجاهد او بالزيادة عليها بأن يخترعوا اسماء من عندهم لم يأذن الله بها قال اهل المعاني هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان اسمائه كلها توقيفية فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل يدعوه باسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم او بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض ولا يسميه باسم لا يعرف معناه ولا باسم فيه من الغرابة والمعنى اتركوهم لا تحاجوهم ولا تتعرضوا لهم وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى ذرني ومن خلقت وحيداً وقوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا وهذا اولى لقوله سيجزون ما كانوا يعملون فانه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير المسلمين ان يفعلوا كفعلهم وقد ذكر

مقاتل وغيره من المفسرين ان هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته
يا رحمن يا رحيم فقال رجل من المشركين اليس يزعم محمد واصحابه انهم يعبدون ربا واحدا
فما بال هذا يدعو ربين اثنين حكى ذلك القرطبي وفيه وعيد وتهديد لمن الحد في اسماء
الله عز وجل وممن خلقنا اي ان من جملة من خلقه الله امة وعصابة وجماعة يهدون
الناس متلبسين بالحق او يهدونهم بما عرفوه من الحق وبه اي بالحق يعدلون بينهم قيل
هم من هذه الامة وهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان قاله ابن عباس
وعن الكلبي هم من امن من اهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة الى الدين وقيل انهم
الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد في الحديث الصحيح عن معاوية قال و
هو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لا تزال من امتي امة
قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم على ذلك اخرجه
البخاري ومسلم وعن ابن جريج قال ذكر لنا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هذه
امتي يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون وعن قتادة قال بلغنا ان نبي الله صلى
الله عليه وآله وسلم كان يقول اذا قرأها هذه لكم وقد اعطي القوم بين ايديكم مثلها
ومن قوم موسى امة الآية وعن الربيع في الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم ان من امتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى نزل اخرجه ابن ابي حاتم
وفي الآية دليل على انه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي اليه قيل وفيه
دلالة على ان اجماع كل عصر حجة والبحث في ذلك مفصل في الاصول ثم لما بين حال
هذه الامة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال والذين كذبوا بآياتنا يريد به جميع
المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم اهل مكة والاول اولى لان صيغة
العموم تتناول الكل الا ما دل الدليل على خروجه منه سنستدرجهم من حيث لا يعلمون
الاستدراج هو الاخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة والدرج كف الشيء يقال ادرجته
ودرجته ومنه ادراج الميت في اكفانه وقيل هو من الدرجة فالاستدراج ان يخطو
درجة بعد درجة الى المقصود ومنه درج الصبي اذا قارب بين خطاه وادرج الكتاب

تطواه شيئاً بعد شيء ودرج القوم مات بعضهم في اثر بعض والمعنى سنسند نيهم قليلاً
قليلاً الى ما يهلكهم وذلك بادرار النعم عليهم وانسائهم شكرها فينهمكو
في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وانه لم يحصل لهم الا بما لهم عند
الله من المنزلة والزلفة قال الازهري سناخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون قال
السدي سناخذهم من حيث لا يعلمون قال عذاب بدر وعن يحيى بن المثنى قال كلما احدثوا
ذنبا جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار وبه قال الضحاك وقال سفيان نسبغ عليهم
النعمة ونمنعهم شكرها وعن ثابت البناني انه سئل عن الاستدراج فقال ذلك مكر
الله بالعباد المضيعين قال الكلبي نزين اعمالهم ثم نهلكهم بها روي ان عمر بن الخطاب
لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني اعوذ بك ان اكون مستدرجا فاني سمعتك تقول
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وَأُمْلِي لَهُمْ الاملاء الامهال والتطويل اي اطيل لهم
المدة وامهلهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي واؤخر عنهم العقوبة إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ
جملة مقررة لما قبلها من الاستدراج والاملاء ومؤكدة له والكيد المكر والمتين
الشديد القوي واصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب لانه اقوى
ما في الحيوان وقد متن بالضم يمتن متانة اي قوي والمعنى ان اخذي ومكري شديد لا يطاق
قال ابن عباس كيد الله العذاب والنقمة قال في الكشاف سماه كيدا لانه شبيه بالكيد
من حيث انه في الظاهر احسان وفي الحقيقة خذلان وفي الآية دليل على مسئلة
القضاء والقدر وان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا الاستفهام للانكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم وفيما جاء به مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ما للاستفهام الانكاري و
الجنة مصدر اي وقع منهم التكذيب ولم يتفكروا اي شيء من جنون كائن بصاحبهم
كما يزعمون فانهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا وقولهم زورا وبهتانا وقيل اي ليس
بصاحبهم شيء مما يدعونه من الجنون فيكون هذا ردا لقولهم يا ايها الذي نزل عليه
الذكر انك لمجنون ويكون الكلام قد تم عند قوله اولم يتفكروا والوقف عليه من الاوقاف

أخذنا عن قتادة قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه واله وسلم قام على الصفا فدعا قريشا فخذا فخذا يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله الى الصباح حتى قال قائل ان صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت حتى اصبح فانزل الله هذه الاية وانما نسبوه الى الجنون وهو بريء منه لانه صلى الله عليه واله وسلم خالفهم في الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الاخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله وانذار بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله من الجنون وقال إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ اي بين الانذار والجملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع ولقصد التعجب من اعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالالهية ﴿شعر﴾ وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد والملكوت من ابنية المبالغة ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه والمعنى ان هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك الى الايمان به بل هم متمادون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم لا يعملون فكرا ولا يمعنون نظرا وَمَا خَلَقَ اللَّهُ اي ولم ينظروا فيما خلق مِنْ شَيْءٍ من الاشياء كائنا ما كان فان في جميع مخلوقاته عبرة للمعتبرين وموعظة للمتفكرين سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والارض او من دقائقها من سائر مخلوقاته وَأَنْ اي اولم ينظروا في ان الشأن والحديث عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فيموتون عن قريب والمعنى انهم اذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به وافتعل هنا بمعنى الفعل المجرد اي قرب وقت اجلهم فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ الضمير للقرآن وقيل لمحمد صلى الله عليه واله وسلم وقيل للاجل المذكور قبله وقيل الضمير يرجع الى ما تقدم من التفكر والنظر في الامور المذكورة اي بأي حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يُؤْمِنُونَ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره والجملة الاستفهامية سيقت للتعجب اي اذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فكيف يؤمنون بغيره وجملة مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

فلا تنادي له مقررة لما قبلها اي هذه الغفلة منهم عن هذه الامور الواضحة الجلية
ليس الا لكونهم ممن اضله الله ومن يضلله فلا يوجد له من يهديه الى الحق وينزعه عن
الضلالة البتة ويذرهم في طغيانهم يعمهون اي يتحيرون وقيل يترددون ولا يهتدون
سبيلا يسألونك استيناف مسوق لبيان بعض احكام ضلالهم وطغيانهم والسائلون هم
اليهود وقيل قريش عن الساعة اي القيامة وهي من الاسماء الغالبة واطلاقها على القيامة
لوقوعها بغتة او لسرعة حسابها او لانها ساعة عند الله مع طولها في نفسها ايان ظرف زمان
مبني على الفتح ومعناه متى واشتقاقه من اي وقيل من اين مرسها اي ارساؤها
واستقرارها وحصولها وكانه شبهها بالسفينة القائمة في البحر ماخوذ من ارساها الله اي
اثبتها وقرئ بفتح الميم من رست اي ثبتت ومنه وقد ور راسيات ومنه رسى الجبل
والمعنى متى يثبتها او يوقعها ويرسيها الله وقال الطيبي الرسو انما يستعمل في الاجسام الثقيلة واطلاقه
على الساعة تشبيه للمعاني بالاجسام وقال ابن عباس منتهاها اي وقوعها قال والساعة
الوقت الذي تموت فيه الخلائق وظاهر الاية ان السؤال عن نفس الساعة وظاهر ايان
مرساها ان السوال عن وقتها فحصل من الجميع ان السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها
في الوقت المعين لذلك ثم امره الله سبحانه بان يجيب عنهم بقوله قل انما علمها اي علم
وقت ارسائها باعتبار وقوعها عند ربي قد استاثر به لا يعلمها غيره ولا يهتدي اليها
سواه ليكون ذلك ادعى الى الطاعة وازجر عن المعصية لا يجليها التجلية اظهار الشئ يقال
جلى لي فلان الخبر اذا اظهره واوضحه اي لا يظهرها ولا يكشف عنها وقال مجاهد لا ياتي بها
وقال السدي لا يرسلها لوقتها الا هو سبحانه بالذات من غير ان يشعر به احد من المخلوقين وفي
استيثاره سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة وتدبير بليغ كسائر الاشياء التي اخفاها الله
واستاثر بعلمها وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها مبينة لاستمرار تلك الحالة الى حين
قيامها ثقلت في السموات والارض اي عظمت على اهلهما وشقت على العالم العلوي والسفلي
قيل معنى ذلك انه لما خفي علمها على اهل السموات والارض كانت ثقيلة لان كل ما خفي
علمه ثقيل على القلوب وقيل المعنى لا تطيقها السموات والارض لعظمها لان السماء تنشق و

نجومها تتناثر والجبال تنسف وقيل عظم وصفها عليهم وقيل ثقلت المسألة عنها وقال
ابن عباس يعني ليس شيء من الخلق الا يصيبه من ضرر يوم القيامة وقيل ثقلت لان فيها
فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على الانفس وقيل كل من اهلها من الملائكة والثقلين اهمه
شان الساعة ويتمنى ان يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه وهذه الجملة مستانفة
مقررة لمضمون ما قبلها ايضا لا تأتيكم الا بغتة اي فجاءة على حين غفلة من
الخلق وقد ورد في هذا الباب احاديث كثيرة صحيحة هي معروفة وهذه الجملة كالتي قبلها
في التقرير يسئلونك كأنك حفي عنها استئناف مسوق لبيان خطائهم في توجيه السؤال الى رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم بناء على زعمهم انه عالم بالمسئول عنه قال ابن فارس الحفي العالم
بالشيء والحفي المستقصي في السؤال يقال احفى في المسألة وفي الطلب فهو محف وحفي على
التكثير مثل مخصب وخصيب والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها او كأنك مستقص
للسؤال عنها ومستكثر منه ومتطلع الى علم مجيئها وعن بمعنى الباء وقيل المعنى كأنك حفي
بهم والاول هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي قال ابن عباس يقول كأن بينك
وبينهم مودة وكأنك صديق لهم قل انما علمها عند الله امره الله سبحانه بأن يكرر
ما اجاب به عليهم سابقا لتقرير الحكم وتأكيده وقيل ليس بتكرير بل احدهما معناه استئثار
الله بهذا او عدم علم خلقه به لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل والثاني معناه السؤال
عن احوال ثقلها وشدائدها وعدم علم الخلق بها ولكن اكثر الناس لا يعلمون ان
علمها عند الله وانه استأثر به حتى لا يسألوا عنه وقيل لا يعلمون السبب الذي لاجله اخفى
علم وقت قيامها عن الخلق قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا قال ابن جرير يعني الهدى
والضلالة وهذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة ايان تكون ومتى
تقع لانه اذا كان لا يقدر على جلب نفع له او دفع ضر عنه الا ما شاء الله سبحانه من النفع
له والدفع عنه فبالاولى ان لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه وفي هذا من اظهار
العبودية والاقرار بالعجز عن الامور التي ليست من شان العبيد والاعتراف بالضعف عن
انتحال ما ليس له صلى الله عليه وآله وسلم ما فيه اعظم زاجر وابلغ واعظ لمن يدعي لنفسه

ما ليس من شأنها ونتحل علم الغيب بالنجامة او الرمل والطرق بالحصى والزجر قال النسفي اي
انا عبد ضعيف لا املك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر كالمماليك الا ما شاء مالكي من
النفع لي والدفع عني والاستثناء منقطع وبه قال ابن عطية وهو ابلغ في اظهار العجز ثم اكد
هذا وقرره بقوله وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ اي لو كنت اعلم جنس
الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته الى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني ولكني عبد
لا ادري ما عند ربي ولا ما قضاه في وقدره لي فكيف ادري غير ذلك واتكلف علمه
وقيل المعنى لو كنت اعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل ان يعرفنيه لفعلته وقيل لو
كنت اعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم اغلب وقيل لو كنت اعلم الغيب لاجبت
عن كل ما اسأل عنه وقيل لو كنت اعلم وقت الموت لاستكثرت من العمل الصالح وقيل
لاعتددت من الخصب للجدب وقيل غير ذلك والاولى حمل الآية على العموم فيندرج
هذه الامور وغيرها تحتها وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ كلام مستأنف اي ليس بي ما تزعمون من
الجنون والاولى انه متصل بما قبله والمعنى لو علمت الغيب ما مسني السوء ولحذرت
عنه كما قدمنا ذلك وقال ابن جريج لا يصيبني الفقر وقال ابن زيد لاجتنبت ما يكون
من الشر قبل ان يكون وقال الكرخي اي ما مسني سوء يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته
والمدافعة بموانعه لا سوء ما فانه مما لا مدفع له إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ اي ما انا الا
مبلغ عن الله احكامه لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اي كتب في الازل انهم يؤمنون فانهم المنتفعون
به فلا ينافي كونه بشيرا ونذيرا للناس كافة واللام في لقوم من باب التنازع فعند البصريين
تتعلق ببشير وعند الكوفيين بنذير وقيل نذيرا بالنار للكافرين وبشيرا بالجنة للمؤمنين
وعلى هذا متعلق النذارة محذوف والذي اخبر به صلى الله عليه وآله وسلم عن
المغيبات وقد جاءت بها احاديث في الصحيح فهو من قبيل المعجزات ومن قال ان رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك على سبيل التواضع والادب فقد ابعد النجعة بل قاله صلى الله
عليه وآله وسلم معتقدا بذلك وان الله هو المستأثر بعلم الغيب والمعجزات مخصصة من
هذا العموم كما قال تعالى الا من ارتضى من رسول هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ خطاب لاهل مكة مِّن نَّفْسٍ

واحدة اي آدم قاله جمهور المفسرين والتانيث باعتبار لفظ النفس وهذا كلام مبتدأ
يتضمن ذكر نعم الله على عباده وعدم مكافاتهم لها بما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية
وانه المتفرد بالالهية وجعل منها اي من هذه النفس وقيل من جنسها كما في قوله تعالى جعل
لكم من انفسكم ازواجا والاول اولى زوجها وهي حوى خلقها من ضلع من اضلاعه ليسكن
علة للجعل اي لاجل ان يانس اليها ويطمئن بها فان الجنس بجنسه اسكن واليه انس وكان هذا
في الجنة كما وردت بذلك الاخبار ثم ابتدأ سبحانه بحالة اخرى كانت بينهما في الدنيا بعد
هبوطها فقال فلما تغشّها اي آدم زوجه والتغشي كناية عن الوقاع اي فلما جامعها
كنى به عن الجماع احسن كناية لان الغشيان اتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها اذا علاها
وتجللها حملت حملا خفيفا اي علقت به بعد الجماع والمشهور ان الحمل بالفتح ما كان في بطن
او على شجرة والحمل بالكسر خلافه وقد حكي في كل منهما الكسر والفتح وهو هنا اما مصدر فينتصب
انتصاب المفعول المطلق او الجنين المحمول فيكون مفعولا به ووصفه بالخفة لانه عند
القاء النطفة اخف منه عند كونه علقة وعند كونه علقة اخف منه عند كونه مضغة
وعند كونه مضغة اخف مما بعده وقيل انه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه الى
انتهائه ولم تجد منه ثقلا كما تجده الحوامل من النساء لقوله فمرّت به اي استمرت بذلك
الحمل تقوم وتقعد وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلا ولا مشقة ولا كلفة وقرئ فمرت به
بالتخفيف اي فجزعت لذلك وقرئ فمارت به من المور وهو المجيء والذهاب
قال سمرة حملا خفيفا لم يستبن فمرت به لما استبان حملها وقال ابن عباس فمرت به اي
شكت احملت ام لا وعن الحسن سئل عن قوله فمرت به قال لو كنت عربيا لعرفتها انما هي
استمرت بالحمل وعن السدي قال حملا خفيفا هي النطفة فمرت به اي استمرت به وبه قال ابن
عباس وعن ميمون بن مهران قال استخفته والوجه الاول اولى لقوله فلما اثقلت فان
معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها دعوا الله جواب لما اي دعا آدم وحواء
ربهما ومالك امرهما لئن آتيتنا ولدا صالحا عن ابي صالح قال اشفقا ان يكون بهيمة
فقالا لئن آتيتنا بشرا سويا وعن مجاهد نحوه وعن الحسن قال غلاما سويا اي مستويا

الله الناس من آدم وكان بدأ خلقهم ان خلق من آدم زوجته ليسكن اليها فحصل منهما
النسل ثم رجع الى اول الكلام وهو ان الله خلقهم فلم يشكر واله ولم يؤد واحقه وذلك
ان احدهم لما تغشى امرأته فحملت حملا خفيفا فحصل بسبب ذلك الاختصار غموض في الآية و
اصل الكلام عام وكانت حواء من جملة ذلك فلا يجب صدق جميع خصوصيات الآيات
عليها وانما يجب وجود اصل القصة وقد يؤخذ هذا الوجه من قوله تعالى في موضع
آخر الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء
وبهذا قال الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رح وهذه الاقوال كلها متقاربة في المعنى
متخالفة في المبنى ولا يخلو كل واحد منها من بعد وضعف وتكلف بوجوه الاول ان الحديث
المرفوع المتقدم يدفعه وليس في واحد من تلك الاقوال قول مرفوع حتى يعتمد عليه بصار
اليه بل هي تفاسير بالآراء المنهي عنها المتوعد عليها الثاني ان فيه انخرام نظم الكلام سياقا
وسياقا الثالث ان الحديث صرح بان صاحبة القصة هي حواء وقوله جعل منها زوجها
انما هو حوى دون غيرها فالقصة ثابتة ولا وجه لانكارها بالرأي المحض الرابع ان
الحديث ليس فيه الا ذكر حوى وكان هذا شركا منهما في التسمية ولم يكن شركا في العبادة
قيل والشرك في التسمية اهون قلت وفيه بعد ظاهر لان الله تعالى ساق آيات التشنيع
عليها وهو شرك وان لم يكن في العبادة وما قيل انها انما قصدت ان الحارث كان
سبب نجاة الولد كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه فهو خطأ لان الاعلام كما يقصدها
المعاني العلمية كذلك قد يلاحظ معها المعاني الاصلية بالتبعية كما صرح به اهل
المعاني وكان اسم ابي بكر الصديق في الجاهلية عبد الكعبة واسم ابي هريرة عبد
الشمس فغيرهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسماهما صديقا وعبد الرحمن وما
قيل انها سمته بعبد الحارث باذن من آدم فهذا يحتاج الى دليل يدل عليه
ويصح وأنى له الدليل ولعلها سمته بغير اذن منه ثم تابت من ذلك والحاصل
ان ما وقع انما وقع من حواء لا من آدم عليه السلام ولم يشرك آدم قط وعلى هذا
فليس في الآية اشكال والذهاب الى ما ذكرناه متعين تبعا للكتاب والحديث وصونا

بجانب النبوة عن الشرك بالله تعالى والذي ذكروه في تاويل هذه الاية الكريمة يرده
كله ظاهر الكتاب والسنة كما تقدم واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل والله اعلم وما
ذكرنا من صحة اطلاق المثنى على المفرد هو شائع في كلام العرب ولكنهم لم يذهبوا اليه
في هذه الاية ولم يخطر ذلك ببالهم مع كونه ظاهر الامر واضحه ومع انهم ذكروه و
ذهبوا اليه في غير هذا الموضع في غير واحد من مواضع في القران والحديث وغيرهما
وهذا عجيب منهم غاية العجب فَتَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ هذا ابتداء كلام مستانف اراد
به اشراك اهل مكة وقيل معطوف على خلقكم وما بينهما اعتراض وقيل راد به
حوى لانه يجوز اطلاق الجمع على الواحد وقيل يعود على ادم وحواء وابليس والاول
اولى وبه قال السمين وليس لها تعلق بقصة ادم وحواء اصلا ولو كانت القصة واحدة
لقال عما يشركان قال ابن الجوزي في كتابه النفيس قد تاتى العرب بكلمة الى جانب كلمة
كانها معها وفي القران يريد ان يخرجكم من ارضكم هذا قول الملأ قال فرعون فماذا تامرون
انتهى فالضمير في يشركون يعود على الكفار والكلام قد تم قبله اَيُشْرِكُوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا
الاستفهام للتقريع والتوبيخ اي كيف يجعل هل مكة لله شريكا لا يخلق شيئا ولا يقدر
على نفع لهم ولا دفع ضر عنهم وَّهُمْ يُخْلَقُوْنَ الضمير راجع الى الشركاء اي وهؤلاء
الذين جعلوهم شركاء من الاصنام والشياطين مخلوقون وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد
من جعلهم شركاء انهم كذلك وَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ لَهُمْ اي لمن جعلهم شركاء نَصْرًا
ان طلبوه منهم وَّلَآ اَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ ان حصل عليهم شيء من جهة غيرهم ومن
عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره اعجز وَاِنْ تَدْعُوْهُمْ اِلَى الْهُدٰى هذا خطاب
للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بامر التوبيخ والتبكيت وبيان
لعجزهم عما هو ادنى من النصر المنفي عنهم وايسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير
تحصيله للطالب اي وان تدعوا هؤلاء الشركاء الى الهدى والرشاد بان تطلبوا منهم
ان يهدوكم ويرشدوكم لَا يَتَّبِعُوْكُمْ ولا يجيبوكم الى ذلك وهو دون ما تطلبونه منهم
من جلب النفع ودفع الضر والنصر على الاعداء قال الاخفش معناه وان تدعوهم اي

الاصنام الى الهدى لا يتبعوكم وقيل المراد من سبق في علم الله انه لا يؤمن وقرئ لا
يتبعوكم مشددا ومخففا وهما لغتان وقال بعض اهل اللغة اتبعه مشددا اذا مضى
خلفه ولم يدركه واتبعه مشددا اذا مضى خلفه فادركه سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ مستانفة مقررة لمضمون ما قبلها اي دعاؤكم لهم عند الشدائد و
عدمه سواء لا فرق بينهما لانهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولا يجيبون وقال
ام انتم صامتون مكان ام صمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة في عدم افادة الدعاء
ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وقال محمد بن يحيى انما جاء بالاسمية لكونها
راس اية يعني لمطابقة ولا انفسهم ينصرون وما قبله إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ اخبرهم سبحانه بان هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله
كما انتم عباد له مع انكم اكمل منهم لانكم احياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون
وهذه الاصنام ليست كذلك ولكنها امثالكم في كونها مملوكة لله مسخرة لامره وهذا تقريع
لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم قال مقاتل انها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدونها
والاول اولى وانما وصفها بانها عباد مع انها جماد تنزيلا لها منزلة العقلاء على وفق
معتقدهم ولذلك قال فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ مقررة لمضمون ما قبلها من انهم ان
دعوهم الى الهدى لا يتبعوهم وانهم لا يستطيعون شيئا اي ادعوا هؤلاء الشركاء فان
كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم وانما ورد هذا اللفظ في معرض الاستهزاء بالمشركين
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر وانها آلهة ثم
بين غاية عجزهم وفضل عابديهم عليهم فقال أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا
الاستفهام للتقريع والتوبيخ اي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الالات
التي هي ثابتة لكم فضلا عن ان يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم فانهم كما
ترون هذه الاصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم ارجل يمشون بها في نفع
انفسهم فضلا عن ان يمشوا في نفعكم وليس لهم ايد يبطشون بها كما يبطش غيرهم

من الاحياء ـ وليس لهم اعين يبصرون بها كما تبصرون وليس لهم اذان يسمعون بها كما
تسمعون بها فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الادوات وبهذه المنزلة
من العجز وام في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة كما ذكره ائمة النحو والاضراب المفاد
ببل انتقال من توبيخ الى توبيخ اخر والبطش هو الاخذ بقوة وعنف ثم لما بيَّن لهم حال هذه
الاصنام وتعاور وجوه العجز والنقص لها من كل باب امره الله بان يقول لهم قُلِ ادْعُوا
شُرَكَاءَكُمُ الذين تزعمون ان لهم قدرة على النفع والضر واستعينوا بهم في عداوتي حتى
يتبين عجزها ثُمَّ كِيدُونِ انتم وهم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد فَلَا تُنظِرُونِ اي فلا تمهلوني
ولا تؤخروا انزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز
لاصنامهم شيء ثم قال قل لهم إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ اي كيف اخاف هذه الاصنام
التي هذه صفتها ولي ولي الجأ اليه واستنصر به وهو الله عز وجل وهذه الجملة تعليل
لعدم المبالات بها وولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر والكتاب
هو القران اي اوحى الي واعزني برسالته وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ اي يحفظهم وينصرهم
ويحول بينهم وبين اعدائهم والصالحون هم الذين لا يعدلون بالله شيئا ولا يعصونه
وفي هذا مدح للصلحاء ـ وان من سنته نصرهم وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ كرر سبحانه هذا المزيد لتاكيد والتقرير ولما في تكرار
التوبيخ والتقريع من الاهانة للمشركين والتنقص بهم واظهار سخف عقولهم وركاكة
احلامهم وقيل الاولى على جهة التقريع والتوبيخ والاخرى على جهة الفرق بين من تجوز
له العبادة وبين هذه الاصنام وبالجملة هو من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم المفهوم
من السوق فهما جليا وَإِن تَدْعُوهُمْ اي المشركين قاله الحسن وقيل اي الاصنام إِلَى الْهُدَىٰ
لَا يَسْمَعُوا دعاءكم لان اذانهم قد صمت عن سماع الحق فضلا عن المساعدة والامداد وهذا
ابلغ من نفي الاتباع وَتَرَاهُمْ الروية بصرية يَنظُرُونَ إِلَيْكَ اي يقابلونك كالناظر
وَهُمْ اي حال كونهم لَا يُبْصِرُونَ جملة مبتدأة لبيان عجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم
عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار اصلا او جملة حالية والمراد الاصنام اي انهم

يشبهون الناظرين ولا اعين لهم يبصرون بها قيل كانوا يجعلون للاصنام اعينا من جواهر مصنوعة فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولا يبصرون وقيل المراد بذلك المشركون اخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بابصارهم وان ابصروا بها غير ما فيه نفعهم خُذِ الْعَفْوَ لما عدد الله سبحانه من احوال المشركين ما عدده وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم امر رسوله صلى الله عليه واله وسلم بان يأخذ العفو من اخلاقهم يقال اخذت حقي عفوا اي سهلا وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه واله وسلم كما ثبت في الصحيح انه كان يقول يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا والمراد بالعفو هنا ضد الجهد وقيل الفضل وما جاء بلا كلفة والعفو التساهل في كل شيء وقيل المراد خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم وكان هذا قبل نزول فريضة الزكوة عن عبد الله بن الزبير قال ما نزلت هذه الآية الا في اخلاق الناس رواه البخاري قال مجاهد خذ العفو من اخلاق الناس واعمالهم من غير تجسيس وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ اي بالمعروف وقرئ بالعرف بضمتين وهما لغتان والعرف والمعروف والعارفة كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن اليها النفوس وكل ما يعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقول لا اله الا الله والعموم اولى وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ اي اذا اقمت الحجة عليهم في امرهم بالمعروف فلم يفعلوا فاعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافههم مكافاة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة قيل وهذه الآية هي من جملة ما نسخ باية السيف قاله عطاء وابن زيد وقيل هي محكمة قاله مجاهد وقتادة وقيل اول هذه الآية واخرها منسوخ واوسطها محكم قال الشعبي لما انزل الله هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم ما هذا يا جبريل قال لا ادري حتى اسأل العالم فذهب ثم رجع فقال ان الله امرك ان تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك اخرجه ابن جرير وابن المنذر وغيرهما وعن قيس بن سعد بن عبادة قال لما نظر رسول الله صلى الله عليه واله وسلم الى حمزة بن عبد المطلب قال والله لامثلن بسبعين منهم فجاءه جبريل

بهذه الآية اخرجه ابن مردويه ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾
النزغ الوسوسة وكذا النغز والنخس والنسغ قال الزجاج النزغ ادنى حركة تكون ومن
الشيطان ادنى وسوسة واصل النزغ الفساد يقال نزغ بيننا اي افسد وقيل النزغ
الاغواء والمعنى متقارب امر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم اذا ادرك شيئا
من وسوسة الشيطان ان يستعيذ بالله ويلتجئ اليه في دفعه عنه وقيل انه لما نزل قوله
خذ العفو قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يا رب بالغضب فنزلت هذه الآية
وفي الآية استعارة تبعية حيث شبه الاغواء على المعاصي بالنزغ واستعير النزغ للاغواء
ثم اشتق منه ينزغنك وجملة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علة لامره بالاستعاذة اي استعذ به
والتجئ اليه فانه يسمع ذلك منك ويعلم به وقيل الخطاب لكل احد والاول اولى والكلام
خرج مخرج التقدير والفرض فلا يقال لو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم معصوما
لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج الى الاستعاذة وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ
اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مقررة لمضمون ما قبلها اي ان شان
الذين يتقون الله حالهم هو التذكر لما امر الله به من الاستعاذة والالتجاء اليه عند
ان يمسهم طائف من الشيطان وان كان يسيرا وقرئ طيف مخففا ومشددا قال النحاس
كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على انه مصدر من طاف يطيف وقال الكسائي
هو مخفف مثل ميت وميت قال النحاس ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب او يرى
في النوم وكذا معنى طائف وقيل معنيان مختلفان فالاول التخيل والثاني الشيطان نفسه
فالاول من طاف الخيال يطوف طيفا ولم يقولوا من هذا طائف قال السهيلي لانه تخيل
لا حقيقة له واما قوله فطاف عليها طائف من ربك فلا يقال فيه طيف لانه اسم
فاعل حقيقة قال الزجاج طفت عليهم اطوف وطاف الخيال يطيف وسميت الوسوسة
والجنون والغضب طيفا لانها لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال وذكر في الآية الاولى النزغ
وهو اخف من الطيف لان حالة الشيطان مع الانبياء عليهم الصلوة والسلام اضعف
من حاله مع غيرهم وقال ابن عباس الطيف الغضب وقرأ سعيد بن جبير تذكروا بتشديد

الذال قال النحاس ولا وجه له في العربية وقال السدي تذكروا اي اذا زلوا تابوا وقال ابن الصفار
عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده وقال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب
فيذكر الله فيكظم وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه فإذا
هم بسبب التذكر مبصرون اي منتهون عن المعصية آخذون بأمر الله عاصون
للشيطان قاله ابن عباس وقيل على بصيرة وقيل انهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر
والتفكر وقيل مبصرون الحق من غيره فيرجعون وإخوانهم يمدونهم قيل المعنى وإخوان
الشياطين وهم الفجار من ضلال الانس على أن الضمير في اخوانهم يعود الى الشيطان
المذكور سابقا والمراد به الجنس فجاز ارجاع ضمير الجمع اليه والمعنى تمدهم الشياطين في
الغي وتكون مددا لهم وهذا التاويل هو قول الجمهور وعليه عامة المفسرين قال
الزمخشري هو اوجه لان اخوانهم في مقابلة الذين اتقوا وقيل المعنى الشياطين الذين
هم اخوان الجاهلين او غير المتقين يمدون الجاهلين او غير المتقين في الغي وهذا تفسير
قتادة وقيل المعنى واخوان الشياطين في الغي وهو الجهل بخلاف الاخوة في الله تعالى يمدونهم
اي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم قال ابن عباس في الآية هم الجن يوحون الى اوليائهم
من الانس وسميت الفجار من الانس اخوان الشياطين لانهم يقبلون منهم ويقتدون بهم
وقيل ان المراد بالاخوان الشياطين وبالضمير الفجار من الانس وقال الزجاج المعنى والذين
تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا انفسهم ينصرون واخوانهم يمدونهم
في الغي لان الكفار اخوان الشياطين وعلى هذا في الكلام تقديم وتاخير قال الكلبي لكل
كافر اخ من الشياطين يطيل له في الاغواء حتى يستمر عليه وقيل يزيدونهم من الضلالة
يقال مد وامد وهما لغتان قال مكي ومد اكثر وقال ابو عبيد وجماعة من اهل اللغة
انه يقال اذا كثر شيء شيئا بنفسه مده واذا كثره بغيره قيل امده نحو يمددكم ربكم وقيل
يقال مددت في الشر وامددت في الخير ثم لا يقصرون الاقصار الانتهاء عن الشيء
قال ابن عباس لا يسأمون والمعنى لا يقصر الشياطين في مد الكفار في الغي ولا يكفون عن الضلالة
ولا يتركونها والكافر لا يتذكر ولا يرعوي وقال ابن عباس لا الانس يمسكون عما يعملون من

السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم وعلى هذا يحمل قوله لا يقصرون على فعل الانس
والشياطين جميعا وإذا لم تأتهم أي أهل مكة بآية مما اقترحوا قالوا لولا هلا
اجتبيتها يقال اجتبى الشيء يجتبي جباه لنفسه أي جمعه أي هلا اجتمعتها افتعالا
لها من عند نفسك وقيل لولا أحدثتها لولا تلقيتها فأنشأتها قاله ابن عباس
وقيل المعنى اختلقتها يقال اجتبيت الكلام انتحلته واختلقته واخترعته إذا جئت
به من عند نفسك كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا تراخى
الوحي هذه المقالة فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله قل لست ممن يأتي بالآيات
من قبل نفسه ويقترح المعجزات كما تزعمون بل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي فما أوحاه
إلي وأنزله علي أبلغته إليكم هذا أي القرآن المنزل علي هو بصائر من ربكم يتبصر بها
من قبلها جمع بصيرة وقيل البصائر الحجج والبراهين قال الزجاج الطرق ولما كان القرآن
سببا للبصائر العقول أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب
والبصيرة الحجة والاستبصار في الشيء قال الأخفش جعله هو البصائر كما تقول للرجل أنت
حجة على نفسك وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أي هو بصائر وهدى يهتدي
به المؤمنون ورحمة لهم وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من
بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من
بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهو
عامة المؤمنين وأصحاب حق اليقين فالقرآن للأولين بصائر وللمستدلين هدى
ولعامة المؤمنين رحمة وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا يحتمل أنه من عند الله
مستأنف ويحتمل أنه من جملة المقول المأمور به أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات
له عند قراءته لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وقال أبو البقاء الضمير
له بمعنى لأجله وفيه بعد قيل هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام ولا يخفاك
أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقصر على سببه فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة
القرآن في كل حالة وعلى كل صفة مما يجب على السامع وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله صلى

الله تعالی نبیه وآله وسلم بالقران دون غیره ولا وجه لذلك وظاهر الامر الوجوب وهو قول الحسن واهل الظاهر وقیل الندب والاستحباب قال ابو هریرة نزلت في رفع الاصوات وهو خلف رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم في الصلوة وفي لفظ عنه انهم كانوا يتكلمون في الصلوة بحوائجهم فامروا بالسكوت واليه ذهب جمهور المفسرين كما في معالم والكشاف وانوار التنزيل وحاشية الكمالين وغيرها وقال ابن عباس يعني في الصلوة المفروضة وعن محمد بن كعب القرظي ومجاهد وعبد الله بن مغفل وابن مسعود نحوه وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف وصححوا ان هذه الاية نزلت في قراءة الصلوة من الامام وعن الحسن قال عند الصلوة المكتوبة وعند الذكر وعن ابن عباس في الصلوة وحين ينزل الوحي وقيل نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء واختاره جماعة وفيه بعد لان الاية مكية والجمعة انما وجبت بالمدينة والاول اولى وقال ابن عباس في الجمعة والعيدين وقال الرازي انه خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القران في معرض الاحتجاج بكونه معجزا على صدق نبوته وعند هذا يسقط احتجاج الخصوم بهذه الاية من كل الوجوه ثم ذكر ما يقوي ان حمل الاية على ما ذكر اولى بوجوه وقال لو حملنا الاية على منع المأموم من القراءة خلف الامام فسد النظم واختل الترتيب فثبت ان حمله على ما ذكرناه اولى وهذه الاية لا دلالة فيها على هذه الحالة انتهى واشار القاضي الى ان احتجاجهم بهذه الاية ضعيف وقال بعض محشيه اي مردود بخبر الصحيحين لا صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب انتهى اقول رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت وفي لفظ لا تجزي صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب رواه الدارقطني وقال اسناده صحيح وصححه ابن القطان ولها شاهد من حديث ابي هريرة بهذا اللفظ مرفوعا اخرجه ابن خزيمة وابن حبان وغيرهما ولاحمد بلفظ لا تقبل صلوة لا يقرأ فيها بام القران وفي الباب عن انس عند مسلم والترمذي وعن ابي قتادة عند ابي داود والنسائي وعن ابن عمر وجابر عند ابن ماجة وعن علي عند البيهقي وعن عائشة وعن ابي هريرة والحديث يدل على تعيين فاتحة الكتاب

في الصلوة وانه لا يجزي غيرها واليه ذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء من التابعين ومن بعدهم وهو مذهب العترة لان النفي المذكور في الحديث يتوجه الى الذات ان امكن انتفاؤها والا توجه الى ما هو اقرب الى الذات وهو الصحة لا الكمال لان الصحة اقرب المجازين والكمال ابعدهما والحمل على اقرب المجازين واجب وتوجه النفي الى الذات ههنا ممكن كما قال الحافظ في الفتح لان المراد بالصلوة معناها الشرعي لا اللغوي لما تقرر من ان الفاظ الشارع محمولة على عرفه لكونه بعث لتعريف الشرعيات لا لتعريف الموضوعات اللغوية واذا كان المنفي الصلوة الشرعية استقام نفي الذات ولو سلم ان المراد هنا الصلوة اللغوية لكان المتعين توجه النفي الى الصحة او الاجزاء لا الى الكمال لانها اقرب المجازين ولان الرواية المتقدمة مصرحة بالاجزاء فيتعين تقديره واذا تقرر هذا فالحديث صالح للاحتجاج به على ان الفاتحة من شروط صحة الصلوة لا من واجباتها فقط لان عدمها يستلزم عدم الصلوة وهذا شان الشرط وذهبت الحنفية وطائفة قليلة الى انها لا تجب بل الواجب آية من القرآن قاله النووي والصواب ما قاله الحافظ ان الحنفية يقولون بوجوب قراءتها لكن بنوا على قاعدتهم انها مع الوجوب ليست شرطا في صحة الصلوة لان وجوبها انما ثبت بالسنة والذي لا يتم الصلوة الا به فرض والفرض عندهم لا يثبت بما يزيد على القرآن وقد قال تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن فالفرض قراءة ما تيسر وتعين الفاتحة انما ثبت بالحديث فيكون واجبا يأثم من يتركه وتجزي الصلوة بدونه وهذا تاويل على رأي فاسد حاصله رد كثير من السنة المطهرة بلا برهان ولا حجة نيرة فكم موطن من المواطن يقول فيه الشارع لا يجزي كذا ولا يقبل كذا ولا يصح كذا ويقول المتمسكون بهذا الرأي يجزي ويقبل ويصح ولمثل هذا حذر السلف من اهل الرأي والكلام في ذلك تعقبا وردا يطول جدا وقد قضى الوطر منه الشوكاني في نيل الاوطار فراجعه ومن حجتهم حديث ابي سعيد بلفظ لا صلوة الا بفاتحة الكتاب او غيرها قال ابن سيد الناس لا ندري بهذا اللفظ من اين جاء وقد صح عن ابي سعيد عند ابي داود انه قال امرنا ان نقرأ فاتحة الكتاب وما تيسر ورواته ثقات وقال ابن سيد الناس اسناده صحيح

ورجاله ثقات وصححه الحافظ ايضاً ومن ادلتهم حديث ابي هريرة عند ابي داود بلفظ لا صلوة الا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب ويجاب بانه من رواية جعفر بن ميمون وليس بثقة كما قال النسائي وقال احمد ليس بقوي في الحديث وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء وايضاً قد روى ابو داود هذا الحديث من طريقه عن ابي هريرة بلفظ امرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان انادي انه لا صلوة الا بقراءة الفاتحة فما زاد ورواه احمد وليست الرواية الاولى باولى من هذه وايضاً اين يقع هذه الرواية على فرض صحتها بجنب الاحاديث المصرحة بفرضية فاتحة الكتاب وعدم اجزاء الصلوة بدونها وقد نسب القول بوجوب الفاتحة في كل ركعة النووي في شرح مسلم والحافظ في الفتح الى الجمهور ورواه ابن سيد الناس في شرح الترمذي عن علي وجابر وعن ابن عون والاوزاعي وابي ثور قال واليه ذهب احمد وداود وبه قال مالك الا في الناسي واستدلوا ايضاً على ذلك بما وقع عند الجماعة واللفظ للبخاري من قوله صلعم للمسيء ثم افعل ذلك في صلاتك كلها بعد ان امره بالقراءة وفي رواية لاحمد وابن حبان والبيهقي في قصة المسيء صلاته انه قال في اخره ثم افعل ذلك في كل ركعة وهذا الدليل اذا ضممته الى قوله في حديث المسيء ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن تثبت على الفاتحة لما تقدم انتهض ذلك للاستدلال به على وجوب الفاتحة في كل ركعة ويكون قرينة لحمل قوله في حديث المسيء ثم كذلك في كل صلاتك فافعل على المجاز وهو الركعة وكذلك حمل لا صلوة الا بفاتحة الكتاب عليه ويؤيد وجوب الفاتحة في كل ركعة حديث ابي سعيد عند ابن ماجة بلفظ لا صلوة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة وغيرها قال الحافظ واسناده ضعيف وحديث ابي سعيد امرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان نقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة رواه اسمعيل بن سعيد الشالنجي صاحب الامام احمد وظاهر هذه الادلة وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من غير فرق بين الامام والماموم وبين سر الامام وجهره ومن جملة المؤيدات لذلك ما اخرجه مالك في الموطأ والترمذي وصححه من جابر موقوفاً قال من صلى ركعة لم يقرأ فيها بام القرآن فلم يصل الا وراء الامام وما اخرجه احمد وابن ماجة عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يقول من صلى صلوة لا يقرأ فيها بام القرآن فهي خداج ومثله عن ابي هريرة عند ابن ماجة
من طريق محمد بن اسحق وفيه مقال مشهور ولكنه يشهد لصحته حديث ابي هريرة عند
الجماعة الا البخاري بلفظ من صلى صلوة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج ولا يقال ان
الخداج معناه النقص وهو لا يستلزم البطلان لان الاصل ان الصلوة الناقصة لا تسمى صلوة
حقيقة واما حديث ابي هريرة مرفوعا واذا قرأ فانصتوا رواه الخمسة الا الترمذي وقال
مسلم هو صحيح فهو عام لا يحتج به على خاص واما حديث عبد الله بن شداد مرفوعا من كان له
امام فقراءة الامام له قراءة رواه الدارقطني فقال في المنتقى وقد روي مسندا من طرق
كلها ضعاف والصحيح انه مرسل انتهى قال الدارقطني وهو الصواب وقال الحافظ هو مشهور
من حديث جابر وله طرق عن جماعة من الصحابة كلها معلولة وقال في الفتح انه ضعيف عند
جميع الحفاظ وقد استوعب طرقه وعلله الدارقطني فهو عام ايضا لان القراءة مصدر مضاف
وهو من صيغ العموم وحديث عبادة في هذا الباب خاص فلا معارضة وقال في شرح المنتقى
هو حديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج به انتهى واما قوله تعالى فاستمعوا له وانصتوا فقد مر
الجواب عنه وهو ايضا عام وحديث عبادة خاص ويؤيد ذلك الاحاديث المتقدمة و
الآتية القاضية بوجوب قراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة من غير فرق بين الامام والموتم
لان البراءة عن عهدتها انما تحصل بناقل صحيح لا بمثل هذه العمومات التي اقترنت بما يجب
تقديمه عليها وعن عبادة قال صلى بنا رسول الله صلعم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما
انصرف قال اني اراكم تقرؤن وراء امامكم قال قلنا يا رسول الله اي والله قال لا تفعلوا
الا بام القرآن فانه لا صلوة لمن لا يقرأ بها رواه ابو داؤد والترمذي وفي لفظ فلا تقرؤا
بشيء من القرآن اذا جهرت به الا بام القرآن رواه ابو داؤد والنسائي والدارقطني وقال
كلهم ثقات وعنه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لا يقرأن احد منكم شيئا من
القرآن اذا جهرت بالقراءة الا بام القرآن رواه الدارقطني وقال رجاله كلهم ثقات و
خرجه ايضا احمد والبخاري في جزء القراءة وصححه وابن حبان والحاكم والبيهقي من طريق
ابن اسحق قال حدثني مكحول عن محمود بن ربيعة عن عبادة وتابعه زيد بن واقد وغيره

عن مكحول ومن شواهده ما رواه احمد من طريق خالد الحذاء عن ابي قلابة عن محمد بن
ابي عائشة عن رجل من اصحاب النبي صلعم قال قال رسول الله صلعم لعلكم تقرؤن
والامام يقرأ قالوا انا لنفعل قال لا الا ان يقرأ احدكم بفاتحة الكتاب قال الحافظ اسناده
حسن ورواه ابن حبان من طريق ايوب بن ابي قلابة عن انس وليست بمحفوظة ومحمد
بن اسحق قد صرح بالتحديث فذهبت مظنة تدليسه وتابعه من تقدم قال الشوكاني
والحديث استدل به من قال بوجوب قراءة الفاتحة خلف الامام وهو الحق وظاهر الحديث
الاذن بقراءة الفاتحة جهرا لانه استثنى من النهي عن الجهر خلفه ولكنه اخرج ابن حبان من
حديث انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتقرؤن في صلاتكم خلف
الامام والامام يقرأ فلا تفعلوا وليقرء احدكم بفاتحة الكتاب في نفسه واخرجه ايضا
الطبراني في الاوسط والبيهقي واخرجه عبد الرزاق عن ابي قلابة مرسلا وعن ابي هريرة
ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف من صلوة جهر فيها بالقراءة فقال هل
قرأ معي احد منكم انفا فقال رجل نعم يا رسول الله فقال اني اقول مالي انازع القران قال
فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يجهر فيه رسول الله صلعم
من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رواه ابو داود
والنسائي والترمذي وقال حديث حسن واخرجه ايضا مالك في الموطا والشافعي واحمد
وابن ماجة وابن حبان وقوله فانتهى الناس عن القراءة مدرج في الخبر كما بينه الخطيب
واتفق عليه البخاري في التاريخ وابو داود ويعقوب بن سفيان والذهلي والخطابي وغيرهم
قال النووي وهذا مما لا خلاف فيه بينهم والاستدلال به على عدم قراءة المؤتم خلف الامام
خارج عن محل النزاع لان الكلام في قراءة المؤتم خلف الامام سرا والمنازعة انما تكون مع
جهر المؤتم لا مع اسراره وايضا لو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان هذا الاستفهام
الذي للانكار عاما لجميع القران او مطلقا في جميعه وحديث عبادة خاص او مقيد وقد
اجاب المهدي في البحر عن حديث عبادة بانه معارض بهذا الحديث وهي من معارضة العام
بالخاص وهو لا يعارضه اما على قول من قال من اهل الاصول انه يبنى العام على الخاص

مطلقا وهو الحق واما على قول من قال ان العام المتأخر عن الخاص ناسخ له وانما يخصص المقارن والمتأخر عنه لا ينسخ فكذلك ايضا لان عبادة روى العام والخاص في حديثه فهو من التخصيص بالمقارن فلا يعارض بالمقام على جميع الاقوال واما الاحتجاج بحديث جابر فلم يصل الا وراء الامام فهو مع كونه غير مرفوع مفهوم لا يعارض بمثله منطوق حديث عبادة واذا تقرر لك هذا فقد عرفت مما سبق وجوب الفاتحة على كل امام ومأموم في كل ركعة وعرفناك ان تلك الادلة صالحة للاحتجاج بها على ان قراءة الفاتحة من شروط صحة الصلوة وادلة اهل الخلاف عمومات وحديث عبادة خاص وبناء الخاص على العام واجب كما تقرر في الاصول وهذا لا محيص عنه والاية الكريمة وما على نحوها من القرآن والحديث لا دلالة فيها على المقصود فمن زعم انها تصح صلوة من الصلوات او ركعة من الركعات بدون فاتحة الكتاب فهو محتاج الى اقامة برهان يخصص تلك الادلة ومن ههنا يتبين لك ايضا ضعف ما ذهب اليه الجمهور من ان من ادرك الامام راكعا دخل معه واعتد تلك الركعة وان لم يدرك شيئا من القراءة وحاصل الكلام انه لا محيد عن تحتم المصير الى القول بالفرضية بل القول بالشرطية وقد اختلف اهل العلم في قراءتها هل تكون عند سكتات الامام او عند قراءته وظاهر الاحاديث انها تقرأ عند قراءة الامام وفعلها حال سكوت الامام ان امكن احوط لانه يجوز عند اهل الخلاف فيكون فاعل ذلك اخذا بالاجماع واما اعتياد قراءتها حال قراءة الامام للفاتحة فقط او حال قراءته للسورة فقط فليس عليه دليل بل الكل جائز وسنة نعم قراءتها حال قراءة الامام للفاتحة مناسب من جهة عدم الاحتياج الى تاخير الاستعاذة عن محلها الذي هو بعد التوجه وتمام الكلام على هذا المرام في كتابنا هداية السائل الى ادلة المسائل وغيره فراجعه قال الشوكاني واختلف في القراءة خلف الامام سرا وجهرا وقد وردت السنة المطهرة بقراءة سورة الفاتحة خلفه مخرجة في الصحيحين وغيرهما فالاية في غير الفاتحة وقد جاء نابها من جاء بالقرآن اذا جاء نصر الله ينطق بفهم معقل لعلكم ترحمون اي تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال امر الله سبحانه واذكر ربك في نفسك

الخطاب للنبي صلعم ويدخل فيه غيره من امته لانه عام لسائر المكلفين قيل المراد بالذكر هنا ما هو اعم من القران وغيره من الاذكار التي يذكر الله بها وقال النحاس لم يختلف في معنى هذا الذكر انه الدعاء وقيل هو خاص بالقران اي اقرأ القران بتامل وتدبر امره ان يذكره في نفسه سرا فان الاخفاء ادخل في الاخلاص واقرب الى حسن التفكر وادعى للقبول تَضَرُّعًا وَخِيفَةً اي متضرعا وخائفا او متضرعين وخائفين او ذوي تضرع وخيفة والخيفة الخوف قاله الجوهري وحكى الفراء انه يقال في جمع خيفة خيف وَدُونَ الْجَهْرِ اي دون المجهور به يعني متضرعا وخائفا او متكلما بكلام هو دون الجهر مِنَ الْقَوْلِ وفوق السر يعني قصدا بينهما بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ اي اوقات الغدوات واوقات الاصائل والغدو جمع غدوة بضم الغين وسكون الدال وهي من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والاصال جمع اصيل قاله الزجاج والاخفش مثل يمين وايمان وقيل الاصال جمع اصل والاصل جمع اصيل فهو على هذا جمع الجمع قاله الفراء قال الجوهري الاصيل الوقت من بعد العصر الى المغرب وجمعه اصل واصال واصائل كانه جمع اصيلة ويجمع ايضا على اصلان مثل بعير وبعران وقال ابو مجلز والايصال وهو مصدر قال قتادة الغدو صلوة الصبح والاصال الصلوة بالعشي وعن ابي صخر قال الاصال ما بين الظهر والعصر وقال ابن زيد بالبكر والعشي وقال مجاهد الغدو اخر الفجر صلوة الصبح والاصال اخر العشي صلوة العصر وخص هذين الوقتين لشرفهما ولان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو اخو الموت فاستحب له ان يستقبل حالة الانتباه من النوم بالذكر ليكون اول اعماله ذكر الله عزوجل واما وقت الاصال وهو اخر النهار فان الانسان يريد ان يستقبل النوم الذي هو اخو الموت فيستحب له ان يشغله بالذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عزوجل وقيل ان اعمال العباد تصعد اول النهار واخره فيصعد عمل الليل عند صلوة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى الغروب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه به وقيل غير ذلك والمراد دوام الذكر لله وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ عن ذكر الله وعما يقربك الى الله إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ المراد بهم الملائكة قال القرطبي بالاجماع قال الزجاج وقال عند ربك والله عزوجل

يقال مكان لا يتحقق قرب من نعمته وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده فالمراد بالعندية القرب من الله بالزلفى والرضا لا المكانية او المراد عند عرش ربك قاله الشهاب والمراد بقوله والله بكل مكان اي علمه وقدرته وهو بائن من خلقه مستو على عرشه كما وصف به نفسه في غير موضع من الكتاب العزيز وقال القرطبي يعني انهم في موضع لا ينفذ فيه الا حكم الله وقيل انهم رسل الله كما يقال عند الخليفة جيش كبير وقيل هذا على جهة التشريف والتكريم لهم وانهم بالمكان المكرم وهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة لا يستكبرون عن عبادته اي لا يتعظمون عنها لانهم عبيده ومعنى ويسبحونه يعظمونه وينزهونه عن كل شين وله يسجدون اي يخصونه بعبادة السجود التي هي اشرف عبادة وقيل المراد بالسجود الخضوع والذلة وفي ذكر الملأ الاعلى تعريض لبني آدم وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن والاحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة وعدد المواضع التي يسجد فيها وكيفية السجود وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه فلا نطول بايراد ذلك ههنا

سورة الانفال

صرح كثير من المفسرين بانها مدنية لم يستثنوا منها شيئا وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعن ابن عباس انه قال نزلت في بدر وفي لفظ تلك سورة بدر قال القرطبي وعنه هي مدنية الا سبع آيات من قوله واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخرها يعني فانها مكية قلت وان كانت في شأن الواقعة التي وقعت بمكة فلا يلزم ان تكون كذلك فالآيات نزلت بالمدينة تذكيرا له بما وقع في مكة فهذا القول ضعيف والاول هو الاصح وجملة آياتها خمس وستون او سبع وسبعون آية وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها في صلوة المغرب كما اخرجه الطبراني بسند صحيح عن ابي ايوب بسم الله الرحمن الرحيم

يسألونك يا محمد عن الانفال جمع نفل محركا وهو الغنيمة اي الغنائم لمن هي وبه قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة واكثر المفسرين على انها نزلت في غنائم بدر واصل النفل الزيادة وسميت الغنيمة به لانها زيادة فيما احل الله لهذه الامة مما كان محرما على

غيرهم أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهدين من أجر الجهاد ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين والابتغاء ونبت معروف والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب والنافلة ولد الولد لأنه زيادة على الولد وهو سؤال استفتاء لأن هذا أول تشريع الغنيمة وفاعل السؤال من حضر بدرا وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وعن بمعنى من وهذا لا ضرورة تدعو إليه وقيل صلة ويؤيده قراءة سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم بدون عن والصحيح أنها على إرادة حرف الجر وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة في غنائم يوم بدر فقال الشبان هي لنا لأنا باشرنا القتال وقال الشيوخ كنا ردءا لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا أي لرجعتم إلينا فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أي حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه حيث شاء وليس لكم حكم في ذلك فقسمها صلى الله عليه وآله وسلم بينهم على السواء رواه الحاكم في المستدرك وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه فهي على هذا منسوخة وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي وقال ابن زيد محكمة مجملة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ أي نفس ما بينكم والذي بينهم هو الوصلة الإسلامية فالبين هنا بمعنى الاتصال كما في قوله لقد تقطع بينكم والبين يطلق على الضدين الاتصال والفراق وذات هذا البين هي حالة أي الأمور التي تحققه بالمودة وترك النزاع وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أمرهم بالتقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما وترك الاختلاف الذي وقع بينهم وقال امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ بالله جوابه كما ذهب إليه أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله السابق إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط والصحيح ما ذهب إليه سيبويه وهو أنه محذوف لدلالة ما قبله عليه وفيه من التهييج والإلهاب والتنشيط للمخاطبين واستحثاثهم

على المسارعة إلى الامتثال ما لا يخفى مع كونهم في تلك الحال على الإيمان فكأنه قال إن كنتم
مستمرين على الإيمان بالله لأن هذه الأمور الثلاثة لا يكمل الإيمان بدونها بل لا يثبت
أصلاً لمن لم يمتثلها فإن من ليس بتقي وليس بمطيع لها ليس بمؤمن قال عطاء طاعة الله
والرسول اتباع الكتاب والسنة أخرجه ابن أبي حاتم إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ جملة مستأنفة
مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخلال
الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة أي إنما الكاملون في
الإيمان المخلصون فيه الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ أي وعيده وَجِلَتْ أي فزعت وخضعت و
خافت ورقت قُلُوبُهُمْ لذكر الله استعظاماً له وتهيباً من جلاله والوجل الخوف والفزع
يقال وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح وقرئ كوعد يعد ويقال بإثبات الواو في المضارع
والمراد أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملين في
الإيمان المخلصين لله فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان قال جماعة من المفسرين
هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر به
من قسمة الغنائم ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل
القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به
سبحانه من كون الأنفال لله والرسول ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه
المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال ولا بوقت دون وقت ولا بواقعة
دون واقعة وعن ابن عباس وجلت فرقت وقال المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء
من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا
يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكوة أموالهم فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف
المؤمنين فقال إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم فأدوا فرائضه وعن
أم الدرداء قالت إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب أما تجد
قشعريرة قلت بلى قالت فادع عند ذلك فإن الدعاء يستجاب عند ذلك وقال ثابت البناني
قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لي قالوا ومن أين لك قال إذا اقشعر جلدي ووجل قلبي

وفاضت عيناي فذلك حين يستجاب لي وعن عائشة قالت ما الوجل في قلب المؤمن الا كضرمة السعفة فاذا وجل احدكم فليدع عند ذلك وعن السدي قال هو الرجل يريد ان يظلم او يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه فان قيل قال هنا وجلت قلوبهم وقال في اية اخرى وتطمئن قلوبهم فكيف الجمع بينهما قلت الاطمئنان بذكره بصفات الجمال والوجل انما هو بذكر وعيده وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ المراد من التلاوة تلاوة الآيات المنزلة او التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته في اياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون زَادَتْهُمْ إِيمَانًا اي تصديقا قاله ابن عباس وعن الربيع بن انس قال خشية المراد بزيادة الايمان هو زيادة انشراح الصدر وطمانينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات وقيل المراد بها زيادة العمل لان الايمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص والآيات المتكاثرة والاحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه والآية صريحة في زيادة الايمان وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها شهادة لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان اخرجه الشيخان وفي هذا دليل على ان الايمان فيه اعلى وادنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقصان قال الواحدي عامة اهل العلم ان كل من كانت الدلائل عنده اكثر واقوى كان ايمانه ازيد قال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الانبياء وارباب المكاشفات ويقين احاد الامة ويؤيد ذلك قول علي رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وكذا من قام عليه دليل واحد ومن قامت عليه ادلة كثيرة لان تظاهر الادلة اقوى للمدلول عليه واثبت لقدمه وعليه يحمل ما نقل عن الشافعي من انه يقبل الزيادة والنقص فلا يرد كيف قال ذلك مع ان حقيقة الايمان عند الاكثر لا تزيد ولا تنقص كالالهية والوحدانية انتهى وقيل المعنى انهم كلما سمعوا اية جديدة اتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في ايمانهم وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ التوكل على الله تفويض الامور اليه

في جميع الامور قال ابن عباس لا يرجون غيره وعلى بمعنى الباء ويتوكلون بمعنى يثقون و
تقديم المعمول للحصر وقال السمين التقديم يفيد الاختصاص اي عليه لا على غيره
والجملة في محل الحال ومستانفة او معطوفة على الصلة الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ المفروضة
بحدودها واركانها في اوقاتها ومن في مما للتبعيض وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ويدخل فيه
النفقة في الزكوة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق في انواع البر والقربات وخص
اقامة الصلوة والصدقة لكونهما اصل الخير واساسه أُولَٰئِكَ اي المتصفون بالاوصاف
المتقدمة هُمُ الْمُؤْمِنُونَ اي الكاملون الايمان البالغون فيه الى اعلى درجاته واقصى غاياته
حَقًّا اي حق ذلك حقا او ايمانا حقا يعني يقينا لا شك في ايمانهم وصدقا لا ريب فيه
قال ابن عباس برئوا من الكفر وحقا اي خالصا وقيل التقدير حقا لهم درجات وهذا
انما يجوز على رأي ضعيف اعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون جملة عليها وقد استدل
بظاهر هذه الآية ابو حنيفة ومن قال بقوله انه يجوز ان يقول انا مؤمن حقا ولا يجوز
الاستثناء واجيب عنه بان الاستثناء ليس على طريق الشك بل للتبرك كقوله وانا ان شاء الله
بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق بهم او المراد حصر الاستثناء الى الخاتمة والنزاع
عند التحقيق لفظي كما تقرر في موطنه وانما حكم سبحانه بكونهم مؤمنين حقا في هذه الآية
اذا اتوا بتلك الاوصاف الخمسة كما يفيده لفظة انما لانها للحصر لَهُمْ دَرَجَاتٌ يعني
فضائل ورحمة قاله سعيد بن جبير وعن مجاهد قال اعمال رفيعة وقال الضحاك اهل
الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو اسفل منه ولا يرى
الاسفل فضل احد عليه ذكره ما اعد لمن كان جامعا بين هذه الاوصاف من الكرامة
فقال لهم منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة عِندَ رَبِّهِمْ وفي كونها عنده
سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم وَمَغْفِرَةٌ لذنوبهم وعن ابن زيد
قال بترك الذنوب وَرِزْقٌ كَرِيمٌ دائم مستمر يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض
جوده وعن ابن زيد قال هو الاعمال الصالحة وعن محمد بن كعب القرظي قال اذا سمعت
الله يقول ورزق كريم فهي الجنة كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ قال الزجاج اي الانفال ثابتة لك

مثل اخراج ربك وبه قال المبرد وقيل المعنى امض لامرك في الغنائم ونفل من شئت وان كرهوا لان بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جعل لكل من اتى باسير شيئا قال بقي اكثر الناس بغير شيء فموضع الكاف نصب قال ابو عبيدة هو قسم اي والذي اخرجك فالكاف بمعنى الواو وما بمعنى الذي وقال الاخفش المعنى اولئك هم المؤمنون حقا كما اخرجك ربك وقال عكرمة المعنى اطيعوا الله ورسوله كما اخرجك ربك وقيل الكاف كاف التشبيه على سبيل المجازاة وقيل بمعنى على اي امض على الذي اخرجك فانه حق وقيل بمعنى اذا اي اذكر يا محمد اذ اخرجك وقيل هذه الانفال كما اخراجك يعني ان حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب ذكره صاحب الكشاف وقال السمين فيه عشرون وجها الثاني انه تقديره اصلحوا ذات بينكم اصلاحا كما اخرجك وقد التفت من خطاب الجماعة الى خطاب الواحد الثالث تقديره واطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما اخرجك الرابع تقديره يتوكلون توكلا حقيقيا كما اخرجك السادس عشر تقديره قسمتك الغنائم حق كما كان اخراجك حقا السابع عشر ان التشبيه وقع بين اخراجين انتهى من بيتك اي المدينة او بيتك الذي بها بالحق اي اخراجا متلبسا بالحق لا شبهة فيه وقال مجاهد كما اخرجك ربك من بيتك بالحق كذلك يجادلونك في خروج القتال وعن السدي قال خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى بدر وقيل المراد اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة والاول اولى وبه قال جمهور المفسرين وقيل هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة كما اخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له فانجز وعدك وظفرك بعدوك واوفى لك ذكره النحاس واختاره وفي الجمل اي اخرجك من المدينة لتاخذ العير التي مع ابي سفيان اي لتغنمها فاصل خروج النبي والمؤمنين لاجل ان يغنموا القافلة فلم تكن في خروجهم كراهة وانما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر لما اخبروا ان العير نجت منهم وان قريشا اتوا الى بدر واشار عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بانهم يمضون الى قتال قريش الذين خرجوا لينجوا المسلمين عن القافلة فكره المسلمون القتال لا عصيانا بل بالطبع حيث خرج

من غير استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد وانما كان اصل خروجهم لاخذ الغنيمة فقوله
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ حال مقدرة لما علمت ان الكراهة لم تقارن الخروج
وقيل اي كما اخرجك في حال كراهة منهم لذلك لانه لما وعدهم الله احدى الطائفتين
اما العير او النفير رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال وكرهوه لقلة
عددهم وسلاحهم وكثرة عددهم وسلاحهم وفي لكارهون مراعاة معنى الفريق
يُجَادِلُونَكَ وجادلتهم لما ندبهم الى احدى الطائفتين وفات العير وامرهم بقتال
النفير ولم يكن معهم كثير اهبة لذلك شق عليهم وقالوا هلا اخبرتنا بالقتال لنأخذ
العدة ونكمل الاهبة والجملة مستأنفة او حال ثانية اي اخرجك في حال مجادلتهم او حال من الضمير في لكارهون اي
لكارهون في حال الجدال والضمير يجوز ان يعود على الكفار وجدالهم ظاهر والظاهر
انه يعود على الفريق المتقدم فِي الْحَقِّ اي في القتال بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لهم انك لا تأمر بشيء
الا باذن الله او بعد ما تبين لهم ان الله وعدهم بالظفر باحدى الطائفتين وان العير
اذا فاتت ظفروا بالنفير كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ اي حال كونهم في شدة فزعهم
من القتال يشبهون حال من يساق بالعنف والصغار ليقتل وَهُمْ يَنظُرُونَ يعني الى
الموت كمن هو مشاهد لاسباب قتله ناظر اليها بعينه لا يشك فيها والجامع بينهما
الكراهة في كل واحد وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ اي واذكروا وقت وعد الله اياكم
وامرهم بذكر الوقت مع ان المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة والطائفتان
هما فرقة ابي سفيان مع العير وفرقة ابي جهل مع النفير أَنَّهَا اي احدى الطائفتين مسخرة
لَكُمْ وانكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل واسر وغنيمة لا
يطيقون لكم دفعا ولا يملكون لانفسهم منكم ضرا ولا نفعا وفي هذه الجملة تذكيرهم
بنعمة من النعم التي انعم الله بها عليهم وَتَوَدُّونَ اي تريدون وتتمنون معطوف على يعدكم
من جملة الحوادث التي امروا بذكر وقتها أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ من الطائفتين وهي طائفة
العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تَكُونُ لَكُمْ دون ذات الشوكة وهي طائفة النفير قال
ابو عبيدة قال الله غير ذات الحد والشوكة السلاح والشوكة النبت الذي له حد ومنه رجل شائك السلاح اي حديد السلاح ثم تقلب

فيقال شاكي السلاح فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك والمعنى تودون ان تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح وهي طائفة العير لانها غنيمة صافية عن كدر القتال اذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها قال الضحاك هي عير ابي سفيان ود اصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان العير كانت لهم وان القتال صرف عنهم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته وهو من جملة ما امروا بذكره وقت علمه ويريد الله غير ما تريدون وهو ان يحق الحق باظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة وقتلكم لصناديدهم وأسر كثير منهم واغتنام ما غنمتم من اموالهم التي اجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم بها والمراد بالكلمات الآيات التي انزلها في محاربة ذات الشوكة ووعدكم منه بالظفر بها وقيل الكلمات عداته التي سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه وقيل اسباب النصر مثل نزول الملائكة واوامره لهم بالامداد ويقطع دابر الكافرين الدابر الآخر وقطعه عبارة عن الاستيصال والمعنى ويستاصلهم جميعا حتى لا يبقى منهم احد ليحق الحق و يبطل الباطل هذه الجملة علة لما يريده الله اي اراد ذلك او يريد ليظهر الحق ويرفعه وهو الاسلام ويبطل الباطل ويضعه وهو الكفر او فعل ذلك ليحق الحق و ليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لان الاولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين و هذه لبيان الحكمة الداعية الى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه و قيل لا يقال فيه تحصيل الحاصل اذ المراد بالحق الايمان وبالباطل الشرك وقيل المراد بالاول تثبيت ما وعد به في هذه الوقعة من النصرة والظفر بالاعداء وبالثاني تقوية الدين و اظهار الشريعة لان الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم ومن قهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا قرنه بقوله ويبطل الباطل ولو كره ان يحق الحق ويبطل الباطل المجرمون اي المشركون من قريش او جميع طوائف الكفار ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتواريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها اذ تستغيثون ربكم اي اذكروا وقت استغاثتكم تذكير لهم بنعمة اخرى والمقام للماضي وانما عبر بالمضارع حكاية للحال الماضية اي اذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر

والاستغاثة طلب الغوث يقال استغاثني فلان فاغثته والاسم الغياث والمعنى ان المسلمين
لما علموا انه لابد من قتال الطائفة ذات الشوكة وهم النفير كما امرهم الله بذلك واراده
منهم ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه وهو معنى قول
الازهري وقيل المستغيث هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده وانما ذكره
بلفظ الجمع تعظيما له وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب ان عدد المشركين
يوم بدر الف وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلا وان النبي صلى الله عليه
وآله وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم انجز لي ما وعدتني
اللهم اتني ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في
الارض فما زال يهتف بربه حتى سقط رداءه عن منكبيه فاتاه ابو بكر فاخذ رداءه
فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه
سينجز لك ما وعدك فانزل الله عز وجل هذه الاية فَاسْتَجَابَ لَكُمْ عطف على تستغيثون
داخل معه في التذكير وهو وان كان مستقبلا فهو بمعنى الماضي ولهذا عطف عليه استجاب
أَنِّي اي باني مُمِدُّكُمْ بوعدي اياكم بالامداد وذلك لانه وقت الاجابة لم يحصل الامداد
بالفعل لان الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ
اسم فاعل واسم مفعول وهما قراءتان صحيحتان والمعنى على الاولى انهم جعلوا بعضهم تابعا
لبعض اي ان الراكب خلف صاحبه قد اردفه وجعل ابو البقاء مفعول مردفين بالكسر
محذوفا اي مردفين امثالهم وعلى الثانية انه جعل بعضهم تابعا لبعض اي اردفهم
الله بهم خلفهم ويجوز ان يكون معنى الارداف المجيء بعد الاوائل اي جعلوا ردفا للاوائل
قاله السمين وقد قيل ان ردف واردف بمعنى واحد وانكره ابو عبيدة قال لقوله
تعالى تتبعها الرادفة ولم يقل المردفة قال ابن عباس مردفين متتابعين وعنه قال
المدد وعنه قال وراء كل ملك ملك وعن الشعبي قال كان الف مردفين وثلثة الاف
منزلين وكانوا اربعة الاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم وقال مجاهد مردفين
ممدين وقال قتادة متتابعين امدهم الله بالف ثم بثلاثة ثم اكملهم خمسة الاف وعن

علي قال نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيها ابو بكر ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانا في الميسرة وعن مجاهد قال ما امد النبي صلى الله عليه وآله وسلم باكثر من هذه الالف التي ذكر الله في الانفال وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف الا بشرى قال في البحر لم يثبت ان الملائكة قاتلت في وقعة الا في بدر واما في غيرها فكانت تنزل لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل كما وقع في حنين وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ اي الامداد المدلول عليه بقوله اني ممدكم إِلَّا بُشْرَى اي بشارة لكم بنصره وهو استثناء مفرغ اي ما جعل امدادكم لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بالنصر وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ اي بالامداد قُلُوبُكُمْ وفي هذا اشعار بان الملائكة لم يقاتلوا بل امد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتثبت قلوبهم يعني بنزول الملائكة قال قتادة وذكر لنا ان عمر قال اما يوم بدر فلا نشك ان الملائكة كانوا معنا واما بعد ذلك فالله اعلم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك اثر فهو الناصر على الحقيقة وليسوا الا سببا من اسباب النصر التي سببها الله لكم وامدكم بها وفيه تنبيه على ان الواجب على المسلم ان لا يتوكل الا على الله في جميع احواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والاعانة إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ في كل افعاله إِذْ يُغَشِّيكُمُ الفاعل هو الله فيه ثلث قراآت سبعية يغشاكم كيلقاكم من غشيه اذا اتاه واصابه ويُغْشِيكم من اغشاه اي انزله بكم واوقعه عليكم ويغشيكم من غشاه تغشية غطاه وقيل الفاعل النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وهو النوم الخفيف والاكثر على الاول وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة انعم الله بها عليهم وهي انهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وامنها حتى ناموا آمنين غير خائفين وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها قيل وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان احدهما انه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد الثاني انه امنهم بزوال الرعب من قلوبهم وقيل ان النوم غشيهم في حال التقاء الصفين وقد مضى في يوم احد نحو من هذا في سورة آل عمران عن علي قال ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا الا نائم الا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يصلي تحت شجرة حتى اصبح قال مجاهد امنة منه اي امنا من الله لكم من عدوكم ان يغلبكم وقال قتادة رحمة منه امنة من العدو وعنه قال النعاس في الراس والنوم في القلب وعنه قال كان النعاس امنة من الله وكان النعاس نعاسين يوم بدر ويوم احد قال ابن مسعود النعاس في القتال امنة من الله وفي الصلاة من الشيطان وقيل ان ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لانه امر خارق للعادة وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً هذا المطر كان بعد النعاس وقيل قبله وحكى الزجاج ان الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين الى ماء بدر فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم فانزل الله المطر ليلة بدر والذي في سيرة ابن اسحق وغيره ان المؤمنين هم الذين سبقوا الى ماء بدر وانه منع قريشا من السبق الى الماء مطر عظيم ولم يصب المسلمين منه الا ما شد لهم دهس الوادي واعانهم على المسير وقال مجاهد المطر انزله الله عليهم قبل النعاس فاطفأ بالمطر الغبار والتبدت به الارض وطابت به انفسهم وثبتت به اقدامهم وعن عروة بن الزبير قال بعث الله السماء وكان الوادي دهسا واصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه ما لبد الارض ولم يمنعهم المسير واصاب قريشا ما لم يقدروا على ان يرتحلوا معه لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ اي ليرفع عنكم الاحداث والجنابة عن ابن عباس ان المشركين غلبوا المسلمين في اول امرهم على الماء فظمأ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين وقد قدمنا ان المشهور في كتب السير المعتمدة ان المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء وهذا المروي عن ابن عباس في اسناده العوفي وهو ضعيف جدا وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ اي وسوسته لكم بما كان قد سبق الى قلوبكم من الخواطر التي منها الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق الى الموت والرجز في الاصل العذاب الشديد واريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجاز المشقتها على اهل الايمان كما قيل كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ بالنصر واليقين فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب والربط في اللغة الشد وكل من صبر على امر فقد ربط نفسه عليه قيل لفظة على صلة كذا في الوسيط وقيل للاستعلاء اي ان القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كانه علا عليها

وارتفع غبارها ذكره الواحدي ويثبت به اي بالماء الذي انزله اسد عند الحاجة اليه وقيل الضمير راجع الى الربط المدلول عليه بالفعل الاقدام اي اقدامكم في مواطن القتال ومعارك الجدال وقال قتادة كان الوادي دهاسا فلما مطروا اشتدت الرملة وسهل المشي عليه لان المعتاد ان المشي في الرمل عسر فاذا نزل عليه الماء وجد سهل المشي ولم يبق فيه غبار يشوش على الماشي فيه اذ يوحي ربك اي اذكر يا محمد وقت ايحاء ربك لانه لا يقف على ذلك سواه وقيل يثبت الاقدام وقت الوحي وليس لهذا التقييد معنى وقيل العامل فيه ليربط ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الايحاء الى الملائكة الذين امد بهم المسلمين اني معكم بالنصر والمعونة عن ابي امامة بن سهل بن حنيف قال قال لي ابي يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وان احدنا ليشير بسيفه الى راس المشرك فيقع راسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف وعن الربيع بن انس قال كان الناس يوم بدر يعرفون قتلاء الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الاعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به فثبتوا الذين آمنوا اي بشروهم بالنصر والظفر او ثبتوهم على القتال بالحضور معهم وتكثير سوادهم او قووا قلوبهم وهذا امر منه سبحانه للملائكة الذين اوحى اليهم بانه معهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما ان الشيطان له قوة في القاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة في القاء الالهام في قلب ابن آدم بالخير ويسمى ما يلقي الشيطان وسوسة وما يلقي الملك لمة والهاما فهذا هو التثبيت سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب اي الخوف فلا يكون لهم ثبات وقد تقدم بيان معنى القاء الرعب في آل عمران وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث القى الرعب في قلوب الكفار قيل هذه الجملة تفسير لقوله اني معكم وكانت الملائكة لا تعرف قتال بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله فاضربوا فوق الاعناق المراد بها انفسها قال عطية وفوق زائدة قاله الاخفش وغيره وقال محمد بن يزيد وهذا عند الجمهور خطأ لان فوق تفيد معنى فلا يجوز زيادتها ولكن المعنى انه ابيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها وقيل المراد الرؤس قاله عكرمة وهذا اليس بجيد لان فوق لا تتصرف وزعم بعضهم انه يتصرف

وانك تقول فوق راسك برفع فوق وهو ظاهر قول الزمخشري وقال ابو عبيدة انها بمعنى
على ثم نبيره فاضربوهم على الاعناق وهو قريب من الاول وقال ابن قتيبة هي بمعنى
دون قال ابن عطية وهذا خطأ بين وغلط فاحش وانما دخل عليه اللبس من قوله
تعالى بعوضة فما فوقها اي فما دونها وليست فوق هنا بمعنى دون وانما المراد فما فوقها
في القلة والصغر وعن الضحاك قال اضربوا الرقاب وقيل المراد بفوق الاعناق اعاليها
لانها المفاصل التي يكون الضرب فيها اسرع الى القطع قاله في الكشاف قيل هذا امر
للملائكة فيكون متصلا بما قبله وقيل للمؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وعلى الاول
قيل هو تفسير لقوله فثبتوا الذين امنوا وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ اي كل مفصل
قال الزجاج واحد البنان بنانة وهي هنا الاصابع وغيرها من الاعضاء والبنان
مشتق من قولهم ابن الرجل بالمكان اذا اقام به لانه يعمل بها ما يكون للاقامة والحياة
وقيل المراد بالبنان هنا اطراف الاصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات
في الحرب فاذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الاعضاء قال ابن فارس
البنان الاصابع وقال عطية كل مفصل بنانة وقال ابن عباس الاطراف وقال ابو الهيثم
البنان المفاصل قيل امرهم الله بضرب اعلى الجسد وهو الراس وفيه هلاك الانسان
وبضرب اضعف الاعضاء وهو البنان وفيه تعطيل حركة الانسان فيدخل في ذلك كل
عضو في الجسد ذٰلِكَ اشارة الى ما وقع عليهم من القتل والاسر ودخل في قلوبهم من
الرعب بِاَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّٰهَ وَرَسُوْلَهٗ اي بسبب مشاقتهم والمشاقة المخالفة واصلها
من المجانبة وكذا الشقاق اصله ان يصير كل واحد من الخصمين في شق كانهم صاروا
في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه انهم شاقوا اولياء الله وهم
المؤمنون اوشاقوا دين الله وقد تقدم تحقيق ذلك وَمَنْ يُّشَاقِقِ اللّٰهَ اي يخالف
ويجانبه وَرَسُوْلَهٗ فَاِنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ له يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق
يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شيئ قليل فيما اعد الله لهم من
العقاب يوم القيامة والشرطية تكملة لما قبلها وتكرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق

البرهاني كائن قبل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بذلك عقاب شديد فاذا لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد قال ابو السعود ذلكم اشارة الى ما تقدم من العقاب والعذاب بالقتل والاسر وفيه اوجه منها العقاب ذلكم او الامر ذلكم الثاني ذلكم العقاب فذوقوه والخطاب هنا للكافرين كما ان الخطاب في قوله ذلكم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم او لكل من يصلح للخطاب في اشار بالذوق الى ان عذاب الدنيا عاجل يسير بالاضافة الى المؤجل وان للكافرين عذاب النار معطوفة على ما قبلها فتكون الاشارة على هذا الى العقاب العاجل الذي اصيبوا به ويكون ذلك اشارة الى العقاب الآجل الذي اعده الله لهم في الآخرة ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على ان الكفر سبب العذاب الآجل والجمع بينهما وفي ان وجوه خمسة ذكرها السمين يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا اي مجتمعين بعضكم الى بعض والزحف الدنو قليلا قليلا واصله الاندفاع على الالية ثم سمي كل ماش في الحرب الى آخر زاحفا والتزاحف التداني والتقارب يقال زحف الى العدو زحفا وازدحف القوم اي مشى بعضهم الى بعض ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف اي حال كونكم زاحفين الى الكفار او حال كون الكفار كالزاحفين اليكم او متزاحفين على حبا ركبهم في بطوء السير وذلك ان الجيش اذا كثر والتحم بعضهم ببعض يترأى ان سيره بطيء وان كان في نفس الامر سريعا فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة وهو الكثرة اي مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون فلا تولوهم الادبار اي ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولي ظهره ودبره نهى الله المؤمنين ان ينهزموا عن الكفار اذا لقوهم وقد دب بعضهم الى بعض للقتال وظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن وعلى كل حال الا حالة التحرف والتحيز وقد روي عن عمر وابن عمر وابن عباس وابي هريرة وابي سعيد الخدري وابي نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن ابي حبيب والضحاك ان تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر وان اهل بدر لم يكن لهم ان يتحازوا ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين اذ لم يكن في

الارض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة الا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاما
بعد ذلك فان بعضهم فئة لبعض وبه قال ابو حنيفة قالوا ويؤيده قوله ومن يولهم
يومئذ دبره فانه اشارة الى يوم بدر وقيل ان هذه الآية منسوخة باية الضعف وذهب
جمهور العلماء الى ان هذه الآية محكمة عامة غير خاصة وان الفرار من الزحف محرم
ويؤيد هذا ان هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر واجيب عن قول الاولين بان
الاشارة في يومئذ الى يوم بدر بان الاشارة الى يوم الزحف كما يفيده السياق ولا منافاة
بين هذه الآية وآية الضعف بل هذه الآية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرما
بشرط ما بينه الله في آية الضعف ولا وجه لما ذكروه من انه لم يكن في الارض يوم بدر مسلمون
غير من حضرها فقد كان في المدينة اذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه
وآله وسلم بالخروج لانه صلى الله عليه وآله وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء
انه سيكون قتال ويؤيد هذا ورود الاحاديث الصحيحة المصرحة بان الفرار من الزحف من
جملة الكبائر كما في حديث اجتنبوا السبع الموبقات وفيه والتولي يوم الزحف ونحوه من الاحاديث
وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه وهو مبين في مواطنه وورد عن جماعة من الصحابة
ان التولي يوم الزحف من الكبائر قال ابن عطية والادبار جمع دبر والعبارة بالدبر في هذه
الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له قلت ويطلق الدبر
على مقابل القبل وعلى الظهر وهو المراد هنا والمقصود ملزوم تولية الظهر وهو الانهزام
وهذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها فاتى بلفظ الدبر دون الظهر
لذلك وبعض اهل علم البيان يسمي هذا النوع كناية وليس بشيء ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ اي يوم
لقيتموهم ﴿دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ اي منعطفا ومائلا اليه والنصب على الحال والاستثناء
من ضمير المؤمنين اي ومن يولهم الا رجلا منهم متحرفا واللام للتعليل اي لاجل قتال اي
لاجل التمكن منه والتحرف الزوال عن جهة الاستواء والمراد به هنا التحرف من جانب الى جانب
في المعركة طلبا لمكائد الحرب وخدعا للعدو وكمن يوهم انه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه
ويتمكن منه ونحو ذلك من مكائد الحرب فان الحرب خدعة ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ اي منضما

وصائراً إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو أي رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً
ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لأنه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز والتحيز والتحوز
الانضمام وتحوزت الحية انطوت وحزت الشيء ضممته والحوزة ما يضم الأشياء فقد باء
أي من ينهزم ويفر من الزحف إلا في هاتين الحالتين فقد رجع بغضب كائن من الله وما
مأواه جهنم أي المكان الذي يأوي إليه هو النار ففراره أوقعه إلى ما هو أشد بلاء مما
فر منه وأعظم عقوبة والمأوى ما يأوي إليه الإنسان وبئس المصير ما صار إليه من
عذاب النار وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف وفي
ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة فلم تقتلوهم أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم
من إمداده لكم بالملائكة وإيقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم
بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر قال الزمخشري الفاء في فلم جواب شرط محذوف
أي وإن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم وقال الرضي وليست جواباً بل لربط الكلام
بعضه ببعض وما رميت إذ رميت اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال فروي
عن مالك أن المراد به ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين فإنه رمى
المشركين بقبضة من حصباء الوادي فأصابت كل واحد منهم وقيل المراد به الرمية
التي رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم
ومات منها وقيل المراد به السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
في حصن خيبر فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه وهذه الأقوال
ضعيفة فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في
قتل ابن أبي الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره
أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم
بدر فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم
ودخلت في عينيه ومنخريه وأنفه قال ثعلب المعنى وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم
إذ رميت بالحصباء فانهزموا ولكن الله رمى أي أعانك وأظفرك والعرب تقول رمى الله لك

اي اعانك واظفرك وصنع لك وقد حكى مثل هذا ابو عبيدة في كتاب المجاز وقال
محمد بن يزيد المبرد المعنى وما رميت بقوتك اذ رميت ولكنك بقوة الله رميت وقيل
المعنى ان الرمية بتلك القبضة من التراب التي رميتها لم ترمها انت على الحقيقة لانك
لو رميتها ما بلغ اثرها الا ما يبلغه رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث اثرت ذلك
الاثر العظيم فاثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لان صورتها وجدت
منه ونفاها عنه لان اثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل فكان الله فاعل
الرمية على الحقيقة وكانها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اصلا
هكذا في الكشاف وفي الآية بيان ان فعل العبد مضاف اليه كسبا والى الله خلقا لا كما
تقوله الجبرية والمعتزلة لانه اثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه واثبته لنفسه فصح هذا
النفي والاثبات قال الكرخي نفي الفعل عنهم وعنه باعتبار الايجاد اذ الموجد حقيقة هو
الله تعالى واثباته لهم وله باعتبار الكسب والصورة قال مجاهد هذا لمحمد صلى الله عليه و
آله وسلم حين حصب الكفار وقال قتادة رماهم يوم بدر بالحصباء وعن حكيم بن حزام
قال لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السما الى الارض كانه صوت حصاة وقعت في
طست ورمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الحصباء وقال شاهت الوجوه
فانهزمنا فذلك قوله تعالى وما رميت اذ رميت الآية وعن جابر نحوه وعن ابن عباس
قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى
بها في وجوه القوم فما بقي احد من القوم الا امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت هذه
الآية وقال ابن المسيب اخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حربته في يده فرمى
بها ابي بن خلف وكسر ضلعا من اضلاعه وفي ذلك انزل الله وما رميت اذ رميت
وعن الزهري نحوه واسناده صحيح اليهما قال ابن كثير وهذا القول عن هذين الامامين
غريب جدا ولعلهما ارادا ان الآية تتناوله بعمومها وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن
جبير ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعى بقوس فرمى بها الحصن فاقبل السهم حتى
قتل ابن ابي الحقيق في فراشه فانزل الله وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ثم يبلي

المؤمنين منه بلاء حسنا البلاء يستعمل في الخير والشر على حد وبلوناهم بالحسنات والسيئات والمراد هنا الخير والنعمة وعليه اجمع المفسرون والمعنى ولينعم على المؤمنين بالغنيمة انعاما جميلا اي للانعام عليكم بنعمه الجليلة فعل ذلك لا لغيره وقيل التقدير لكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين وقال عروة بن الزبير اي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في اظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة هؤلاء ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته إن الله سميع لدعائهم عليم باحوالهم ذلكم اي لبلاء الحسن والقتل والرمي وأن الله موهن كيد الكافرين اي ان الغرض منه بما وقع مما حكته الآيات السابقة ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الاستفتاح طلب النصر وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم فقيل انها خطاب للكفار تهكما بهم لانهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة والمعنى ان تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله ان ينصر احق الطائفتين واعلى الجندين واهدى الفئتين واكرم الحزبين بالنصر والظفر وهو في نفس الامر دعاء عليهم وان ارادوا به الدعاء على محمد وحزبه صلى الله عليه وآله وسلم فتهكم الله بهم وسمى ما حل بهم من الهلاك نصرا ومعنى بقية الآية على هذا القول وإن تنتهوا عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو اي الانتهاء خير لكم وإن تعودوا الى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة نعد بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر وقال قتادة نعد لكم بالقتل والاسر ولن تغني عنكم فئتكم اي جماعتكم شيئا ولو كثرت اي لا تغني عنكم في حال من الاحوال ولو في حال كثرتها ثم قال وأن بالكسر استينافا وبفتحها على تقدير اللام الله مع المؤمنين اي محمد واصحابه قال السدي ومن كان الله معه فهو المنصور ومن كان الله عليه فهو المخذول وقيل ان الآية خطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر وان تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من اخذ الغنائم وفداء الاسرى قبل الاذن لكم بذلك وعن التكاسل في القتال والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم وان تعودوا الى مثل ذلك نعد الى توبيخكم كما في قوله

لولا كتاب من الله سبق الآية ولا يخفى انه يأبى هذا القول معنى ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ويأباه ايضا ان الله مع المؤمنين وتوجيه ذلك لا يمكن الا بتكلف وتعسف وقيل ان الخطاب في ان تستفتحوا للمؤمنين وفيما بعده للكافرين ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد الى طائفتين مختلفتين يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله امر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في امر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس ولا تولوا نهاهم عن التولي عن رسوله فالضمير في عنه عائد الى الرسول لان طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي من طاعة الله ومن يطع الرسول فقد اطاع الله ويحتمل ان يكون راجعا الى الله والى رسوله كما في قوله والله ورسوله احق ان يرضوه وقيل راجع الى الامر الذي دل عليه اطيعوا هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين وبه قال الجمهور وقيل انه خطاب للمنافقين والمعنى يا ايها الذين آمنوا بألسنتهم فقط قال ابن عطية وهذا وان كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا لان الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالايمان وهو التصديق والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء وابعد من هذا من قال الخطاب لبني اسرائيل فانه اجنبي من الآية وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وتصدقون بها ولستم كالصم البكم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم المشركون او المنافقون او اليهود او الجميع من هؤلاء فانهم يسمعون باذانهم من غير فهم ولا عمل وهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ اي فهم كالذي لم يسمع اصلا لانه لم ينتفع بما سمعه وهذه صفة المنافقين او المشركين إن شر الدواب اي ما دب على وجه الارض واطلاق الدابة على الانسان حقيقي لما ذكروه في كتب اللغة من انها تطلق على كل حيوان ولو آدميا وفي المصباح الدابة كل حيوان في الارض مميزا او غير مميز عند الله اي في حكمه الصم البكم الذين لا يسمعون ولا ينطقون وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق الذين لا يعقلون ما فيه النفع لهم فيأتونه وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله لانها تميز بعض تميز وتفرق بين ما ينفعها ويضرها قال ابن عباس هم نفر من قريش من بني عبد الدار وعن ابن

جريج قال نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وقومه ولو علم الله فيهم اي في هؤلاء الصم البكم خيرا اي خيرا لاسمعهم سماعا ينتفعون به ويتعقلون عنده الحجج والبراهين قال الزجاج لاسمعهم جواب كل ما سألوا عنه وقيل لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا احياءهم لانهم طلبوا احياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال عروة بن الزبير لاسمعهم اي لانفذ لهم قولهم الذي قالوا بالسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم ولو اسمعهم فرضا وقد علم ان لا خير فيهم لتولوا عنه ولم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل ولم يستقيموا وهم معرضون عن قبوله عنادا وجحودا لانه قد سبق في علمه انهم لا يؤمنون يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول الامر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة والاستجابة الطاعة قال ابو عبيدة معنى استجيبوا اجيبوا والسين والتاء زائدتان وان كان استجاب يتعدى باللام واجاب بنفسه كما في قوله يا قومنا اجيبوا داعي الله وقد يتعدى استجاب بنفسه اذا دعاكم وحد الضمير هنا كما وحده في قوله ولا تولوا عنه لان استجابة الرسول استجابة لله تعالى وانما يذكر احدهما مع الآخر للتوكيد وقد تقدم وجه ذلك لما يحييكم اي استجيبوا لما يحييكم اذا دعاكم ولا مانع من ان تكون اللام متعلقة بدعا اي اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة لان العلم حياة كما ان الجهل موت ؎ لا تعجبن الجهول حلته + فذاك ميت وثوبه كفن + قال الجمهور من المفسرين المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من اوامر ونواهي ففيه الحياة الابدية والنعمة السرمدية وقيل المراد الجهاد فانه سبب الحياة في الظاهر لان العدو اذا لم يغز غزى قاله ابن اسحق وقال السدي هو الايمان لان الكافر ميت فيحيى بالايمان وقال مجاهد هو الحق وقيل هو الشهادة لان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون وعن قتادة قال هذا هو القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة وقال عروة بن الزبير للحرب التي اعزكم الله بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم وقد ثبت في الصحيح من حديث ابي سعيد بن المعلى قال كنت اصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فلم اجبه ثم اتيته فقلت يا رسول الله اني كنت اصلي فقال الم يقل الله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم الحديث وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على ابي بن كعب وهو يصلي فقال يا ابي فالتفت ابي ولم يجبه الحديث وفيه فقال اني كنت في الصلوة فقال افلم تجد فيما اوحى الله الي استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم قال بلى ولا اعود ان شاء الله تعالى اخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وهذه الاجابة مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس لاحد ان يقطع صلاته لدعاء احد آخر وقيل لو دعاه احد لامر لا يحتمل التأخير فله ان يقطع صلاته والاول اولى ويستدل بهذا الامر بالاستجابة على انه لا بد من الاجابة في كل ما دعا الله ورسوله اليه فيجب على كل مسلم اذا بلغه قول الله او قول رسوله في حكم من الاحكام الشرعية ان يبادر الى العمل به كائنا ما كان ويدع ما خالفه من الآراء واقوال الرجال وفي هذه الآية الشريفة اعظم باعث على العمل بنصوص الادلة وترك التقليد بالمذاهب وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائنا ما كان واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه قيل معناه بادروا الى الاستجابة قبل ان تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم وقيل معناه انه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فاعلمهم الله انه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف امنا ويبدل عدوهم من الامن خوفا واختار ابن جرير ان هذا من باب الاخبار من الله عز وجل بانه املك لقلوب عباده منهم وانه يحول بينهم وبينها اذا شاء حتى لا يدرك الانسان شيئا الا بمشيته عز وجل ولا يخفاك انه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني وقال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله وبه قال سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدي يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع ان يؤمن او يكفر الا باذنه وارادته قيل وهذا النوع هو الذي دلت عليه البراهين العقلية لان احوال القلوب اعتقادات ودواع وارادات وتلك الارادات لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى فثبت بذلك ان المتصرف في القلب كيف شاء هو الله

فالمعنى انه يحول بين المرء وخواطر قلبه او وادراك قلبه بمعنى انه يمنعه من حصول مراده او يمنعه من الادراك والفهم وفي الشهاب اصل الحول كما قال الراغب تغير الشيء وانفصاله عن غيره وباعتبار التغير قيل حال الشيء يحول وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه انه يفصل بينهما وهو غير متصور في حقه فهو مجاز عن غاية القرب من العبد لان من فصل بين شيئين كان اقرب الى كل منهما من الاخر لاتصاله بهما وهو اما استعارة تبعية بمعنى يحول يقرب وتمثيلية وقيل مجاز مرسل وقال البيضاوي هذا تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله نحن اقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على انه مطلع من مكونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها او حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه او تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفران اراد سعادته ويبدله بالامن خوفا وبالذكر نسيانا وما اشبه ذلك من الامور العارضة المفوتة للفرصة انتهى وقال الربيع بن انس علمه يحول وقال مجاهد يحول حتى يتركه لا يعقل وعن الحسن قال في القرب منه وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان قلوب بني ادم بين اصبعين من اصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك اخرجه مسلم وفي الباب احاديث وهذا الحديث من احاديث الصفات يجب امراره على ما جاء من غير تاويل ولا تعطيل ولا تشبيه وكذا هذه الاية وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ اي انكم محشورون اليه وهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا قال الفراء ولو استانفت فكسرت همزة انه لكان صوابا ولعل مراده ان مثل هذا جائز في العربية وَاتَّقُوا خطاب للمؤمنين مطلقا صلحاءهم وغيرهم فِتْنَةً المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء وتسلط الظلمة وغير ذلك اي اتقوا اسباب فتنة لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً بل اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا يختص اصابتها من يباشر الظلم منكم وفي لا وجهان

احدهما انها ناهية والنهي في الصورة للمصيبة وفي المعنى للمخاطبين والثاني انها نافية
والجملة صفة لفتنة وهذا واضح من هذه الجهة الا انه يشكل عليه توكيد المضارع في
غير قسم ولا طلب ولا شرط وفيه خلاف وقد اختلف النحاة في هذه النون المؤكدة في
تصيبن فقال الفراء هو جواب الامر بلفظ النهي ومثله قوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم أي
ان تدخلوا وقال المبرد انه نهي بعد امر والمعنى النهي للظالمين اي لا يقربن الظلم ومثله
ما روي عن سيبويه لا ادينك ههنا اي لا تكن ههنا فان من كان ههنا رأيته وقال الجرجاني نهي في
موضع وصف لفتنة وقيل لا تصيبن جواب قسم محذوف والجملة القسمية صفة لفتنة
اي فتنة والله لا تصيبن ودخول النون ايضا قليل لانه منفي قال الزبير الفتنة البلاء
والامر الذي هو كائن وعن الحسن قال نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير وعن الضحاك
قال نزلت في اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وعن السدي قال نزلت
في اهل بدر خاصة فاصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا وكان من المقتولين طلحة والزبير
وهما من اهل بدر فتصيب الظالم والصالح عامة وعن مجاهد والضحاك وقتادة مثله
روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي قال حدثني مولى لنا انه سمع جدي يقول
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى
يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك
عذب الله العامة والخاصة والذي ذكره ابن الاثير في جامع الاصول عن عدي
بن عميرة الكندي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا عملت الخطيئة في الارض كان
من شهدها فانكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها واخرج ابو داود عن
جرير بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من رجل
يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون ان يغيروا عليه ولم يغيروا الا اصابهم
الله بعقاب قبل ان يموتوا وقال ابن زيد اراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم
بعضا وروى الشيخان عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكون فتن
فالقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي

عن تشرفها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به قال الكرخي واستشكل هذا بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وأجيب بأن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادراً على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة هذا بفعله وهذا برضاه وقد جعل الله بحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة انتهى وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار هكذا قرره القسطلاني على البخاري ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ولا يعذب إلا بجنايته فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة والله أعلم ويمكن أن يقال أن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتكون الإصابة المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم وعن ابن عباس قال أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي وللمهاجرين بتذكير نعمة الله عليهم بالحماية من أعدائهم حيث آواهم في المدينة ونصرهم ببدر وهذه الآية نزلت بعد بدر أي اذكروا وقت قلتكم والأرض هي أرض مكة وأطلقها في الآية لأنها لعظمها كأنها هي الأرض كلها ولأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريباً من ذلك ولهذا عبر عنهم بالناس في قوله ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ والتخطف الأخذ بسرعة والمراد بالناس مشركو قريش وكفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقيل فارس والروم قاله وهب ﴿فَآوَاكُمْ﴾ يقال أوى إليه بالمد والقصر بمعنى الضم إليه والمعنى ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ أي قواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي من جملتها الغنائم أحلها

لكم ولم يحلها لاحد قبلكم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اي ارادة ان تشكروا هذه النعم التي انعم الله بها عليكم قال قتادة كان هذا الحي من العرب اذل الناس ذلا واشقاه عيشا واجوعه بطنا واعراه جلودا وابينه ضلالة من عاش عاش شقيا ومن مات منهم ردى في النار يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم قبيلا من حاضري الارض يومئذ كان اشر منزلا منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس وبالاسلام اعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر واهل الشكر في مزيد من الله عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ الخون اصله كما في الكشاف النقص كما ان الوفاء التمام ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء لانك اذا خنت الرجل في شيء فقد ادخلت عليه النقصان وقيل معناه الغدر واخفاء الشيء ومنه قوله تعالى يعلم خائنة الاعين نهاهم الله عن ان يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم او يخونوا رسوله بترك شيء مما امرهم الله عليه او بترك شيء مما سنه لهم او يخونوا شيئا من الامانات التي اوتمنوا عليها وسميت امانات لانه يؤمن معها من منع الحق مأخوذة من الامن قال ابن عباس لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سننه وارتكاب معصيته وقال المغيرة بن شعبة نزلت هذه الآية في قتل عثمان وقال يزيد بن ابي حبيب هو الاخلال بالسلاح في المغازي ولعل مرادهما ان هذا مما يندرج تحت عمومها وقال جابر بن عبد الله ان ابا سفيان خرج من مكة فاتى جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان ابا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه بمكان كذا فاخرجوا اليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين الى ابي سفيان ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فانزل الله هذه الآية وعن عبد الله بن ابي قتادة قال نزلت هذه الآية في ابي لبابة بن عبد المنذر سألوه يوم قريظة ما هذا الامر فاشار الى حلقه انه الذبح فنزلت وعن الزهري نحوه باطول منه وعن الكلبي والسدي نحوه ولما اشتد الحصار بني قريظة اطاعوا وانقادوا ان ينزلوا على ما يحكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكم فيهم سعد بن معاذ وقال اني احكم

فيهم ان تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذراري والنساء فقال صلى الله عليه وآله وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة ارقعة وفي رواية محمد بن الصالح لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات والقصة بطولها في المواهب اللدنية وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ان ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد او وانتم من اهل العلم لا من اهل الجهل ثم قال وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ لانهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب وصادة عن امور الآخرة فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده وان كانوا من حيثية اخرى زينة الحيوة الدنيا كما في الآية الاخرى عن ابن مسعود قال ما منكم من احد الا وهو يشتمل على فتنة لان الله يقول انما اموالكم واولادكم فتنة فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن وقال ابن زيد فتنة الاختبار اختبرهم وقرأ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فآثروا حقه على اموالكم واولادكم ليحصل لكم ما عنده من الاجر المذكور يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا جعل سبحانه التقوى شرطا في الجعل المذكور مع سبق علمه بانهم يتقون جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا والتقوى اتقاء مخالفة اوامره والوقوع في مناهيه والفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل والمعنى انه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس وقيل الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه قاله ابن عباس وعكرمة وقال الفراء المراد بالفرقان الفتح والنصر قال ابن اسحاق الفرقان الفصل بين الحق والباطل وبمثله قال ابن زيد وقال السدي الفرقان النجاة ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا وبه قال مجاهد ومالك بن انس وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ اي يسترها حتى تكون غير ظاهرة وَيَغْفِرْ لَكُمْ ما اقترفتم من الذنوب وقد قيل ان المراد بالسيئات الصغائر وبالذنوب التي تغفر الكبائر وقيل المعنى انه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا اي واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك ذكر الله رسوله

هذه النعمة العظمى التي انعم بها عليه وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم له بمكة لان
هذه الواقعة كانت بمكة قبل ان يهاجر الى المدينة والسورة مدنية وقال عكرمة هذه
الآية مكية والمكر الاحتيال في ايصال الضرر للغير ليثبتوك اي يثخنوك بالجراحات
كما قال ثعلب وابو حاتم وغيرهما وقيل المعنى ليحبسوك يقال اثبته اذا حبسه وقيل
ليوثقوك لان كل من شد شيئا واوثقه فقد اثبته لانه لا يقدر على الحركة وهذا
اشارة لرأي ابي البختري ومنه فسبل الوثاق وقرأ الشعبي ليبيتوك من البيات او يقتلوك
اي كلهم قتلة رجل واحد كما اشار عليهم ابو جهل او يخرجوك منفيا من مكة التي هي
بلدك وبلد اهلك وهذا اشارة لرأي هشام بن عمرو وكذا في شرح المواهب عن ابن عباس
قال تشاورت قريش بمكة ليلة فقال بعضهم اذا اصبح فاثبتوه بالوثاق يريدون النبي صلى
الله عليه وآله وسلم وقال بعضهم اقتلوه وقال بعضهم بل اخرجوه فاطلع الله نبيه
صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك فبات علي على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم
حتى لحق بالغار فلما اصبحوا ثاروا اليه فلما رأوه عليا رد الله مكرهم فقالوا اين صاحبك
هذا فقال لا ادري فاقتصوا اثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل
فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه
فمكث فيه ثلاث ليال وروى البيهقي وغيره عنه باطول مما هنا وفيها ذكر الشيخ النجدي ابي
ابليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في امر النبي صلى الله عليه
وآله وسلم وان ابا جهل اشار بان ياخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ويعطوا
كل واحد منهم سيفا ثم يضربونه ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه في القبائل فقال
الشيخ النجدي هذا والله هو الرأي فتفرقوا على ذلك ويمكرون بك ويمكر الله بهم المكر التدبير
في الامر في خفية والمعنى انهم يخفون ما يعدونه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من
المكائد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم بان يخرجهم الى بدر ويقلل المسلمين
في اعينهم حتى يحملوا عليهم فيقتلوا وسمي ما يقع منه تعالى مكرا مشاكلة كما في نظائره و
المشاكلة تزيده حسنا على حسن وقيل استعارة تبعية وقيل مجاز مرسل لعلاقة السببية وقيل استعارة تمثيلية والله

خير الجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون
فيكون ذلك اشد ضررا عليهم واعظم بلاء من مكرهم ووضع خير موضع اقوى
وفيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله وإذا تتلى عليهم آياتنا التي تأتيهم بها وتتلوها
عليهم قالوا تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق قد سمعنا ما تتلوه علينا لو نشاء لقلنا مثل هذا
الذي تلوته علينا اي مثل هذا القرآن وهو التوراة والانجيل وقد تنازع هذا العامل
مع قوله لقلنا في قوله مثل هذا كما يستفاد من الخازن قيل انهم قالوا هذا توهما منهم انهم
يقدرون على ذلك لانهم اهل الفصاحة وفرسان البلاغة فلما راموا ان يقولوا مثله
عجزوا عنه ثم قالوا عنادا وتمردا ان هذا الا اساطير الاولين اي ما يسطره الوراقون من
اخبار الاولين وقد تقدم بيانه مستوفى وعن السدي انها نزلت في النضر بن الحارث وكان
يختلف الى ارض فارس والحيرة ويسمع اخبارهم عن رستم واسفنديار واحاديث العجم فلما
جاء مكة ووجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد اوحي اليه قال قد سمعنا الآية واذكر
إذ قالوا اللهم ان كان هذا اي القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الحق
قرئ بالنصب وهو خبر الكون وبالرفع على الخبر وبه قرأ الاعمش وزيد بن علي قال ابن عطية
ويجوز في العربية رفع الحق على خبر هو والجملة خبر لكان قال الاخفش ولا اعلم احدا قرأها
الجائز قلت قد ظهر من قرأ به وهما رجلان جليلان قاله السمين من عندك فامطر قال
ابو عبيدة يقال امطر في العذاب ومطر في الرحمة وقال في الكشاف قد كثر الامطار في معنى
العذاب والامطار استعارة او مجاز عن الانزال اي انزل علينا حجارة فائدة توصيف
الحجارة بقوله من السماء الدلالة على ان المراد بالحجارة السجيل وهو حجارة مسومة اي معلمة
معدة لتعذيب قوم من العصاة او ائتنا بعذاب اليم قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود
والانكار سألوا ان يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء او بغيرها من انواع العذاب الشديد فاجاب الله عليهم بقوله
وما كان الله ليعذبهم وانت يا محمد فيهم موجود فانك ما دمت فيهم بارض مكة فهم في مهلة من العذاب الذي
هو الاستئصال قال السيوطي لان العذاب اذا نزل عم ولم تعذب امة الا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها
اخرج البخاري وابن ابي حاتم والبيهقي عن انس بن مالك قال قال ابو جهل بن هشام اللهم ان كان هذا هو الحق

الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وعن قتادة انها نزلت في ابي جهل وعن ابي سعيد
بن جبير انها نزلت في النضر بن الحارث وعن مجاهد وعطاء نحوه قال عطاء لقد نزل في
النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن
جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة
بن عدي وعقبة بن ابي معيط والنضر بن الحارث وفيه نزل سأل سائل بعذاب واقع
وَمَا كَانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ روي انهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك
فنزلت اي وما كان الله معذبهم في حال كونهم مستغفرين قال ابن عباس كان فيهم
امانان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستغفار فذهب النبي صلى الله عليه وآله
وسلم وبقي الاستغفار واخرج الترمذي وضعفه عن ابي موسى
الاشعري قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم انزل الله علي امانين لامتي وما كان
الله ليعذبهم الآية فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار وقيل معنى الآية لو كانوا ممن
يؤمنون بالله ويستغفرونه لم يعذبهم وقيل ان الاستغفار راجع الى المسلمين الذين هم
بين اظهرهم اي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين فلما خرجوا
من بين اظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده وقيل المعنى وفي اصلابهم من يستغفر الله
وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة وقال مجاهد وعكرمة وهم
يستغفرون اي يسلمون يعني لو اسلموا لما عذبوا قال اهل المعاني دلت هذه الآية على
ان الاستغفار امان وسلامة من العذاب والاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم في مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة في كتب الحديث وَمَا لَهُمْ أَنْ لَّا
يُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ لما بين سبحانه ان المانع من تعذيبهم هو الامران المتقدمان وجود رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهورهم ووقوع الاستغفار ذكر بعد ذلك ان هؤلاء
أعني كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح والمعنى اي شيء لهم يمنع من تعذيبهم
قيل هذا العذاب هو القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وَهُمْ اي والحال انهم
يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم واصحابه من البيت وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُ كما زعموا اي مستحقين ولاية
امره مع شركهم وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من انهم ولاة البيت والحرم وان امرهما مفوض
اليهم ثم قال مبينا من له ذلك إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ اي من كان في عداد المتقين للشرك
والمعاصي وعن مجاهد قال من كانوا حيث كانوا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ اي اكثر الناس لَا يَعْلَمُونَ
ذلك والحكم على الاكثرين بالجهل يفيد ان الاقلين يعلمون ولكنهم يعاندون او اراد
به الكل كما يراد بالقلة العدم وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ اي ما كان شيء مما يعد
صلاة وعبادة إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً اي الا هذين الفعلين والمكاء الصفير من مكا يمكو
مكاء ومكوا ومنه مكت است الدابة اذا نفخت بالريح وقيل المكاء هو الصفير على لحن طائر
ابيض بالحجاز يقال له المكاء والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية اذا صفق
وقيل المكاء الضرب بالايدي والتصدية الصياح وقيل المكاء ادخالهم اصابعهم في افواههم
والتصدية الصفير وقيل التصدية صدهم عن البيت ومعنى الآية ان المشركين كانوا
يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلوة والعبادة فوضعوا ذلك موضع
الصلوة قاصدين به ان يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلوة وعن عكرمة قال كان
المشركون يطوفون بالبيت على الشمال فالمكاء مثل نفخ البوق والتصدية طوافهم على الشمال
وقال السمين التصدية فيها قولان احدهما انها من الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت
في الامكنة الخالية الصلبة يقال منه صدى يصدي تصدية والمراد بها هنا ما يسمع من صوت
التصفيق باحدى اليدين على الاخرى وقيل ماخوذ من التصدد وهو الضجيج والصياح والتصفيق
اي يضجون ويلغطون والثاني انها من الصد وهو المنع اي يمنعون انتهى والمكاء الصفير
وهو الصوت الخالي عن الحروف وفي المعنى الهزء قوام حقهم ان يشتغلوا به في هذا المكان
من الصلاة وشغلوه بهذا اللعب والخراف والهوس واستثنى المكاء والتصدية مع انهما ليسا
من جنس الصلوة تقريعا للمشركين بتركهم ما امروا به في المسجد الحرام فان ما لا يدخل تحت
الشيء قد يستثنى منه لمصلحة وغرض كقصد المدح والذم فعلى هذا يكون التقدير وما
كان موضع صلاتهم اي عوضها الا مكاء وتصدية فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ

هذا التفات الى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة في ادخال الروعة في قلوبهم والمراد به عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة قال الضحاك يعني اهل بدر عذبهم الله بالقتل والاسر إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لما فرغ سبحانه من شرح هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية اتبعها شرح احوالهم في الطاعات المالية والمعنى ان غرض هؤلاء الكفار في انفاق اموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وبارك وسلم وجمع الجيوش لذلك وانفاق اموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم احد ويوم الاحزاب فان الرؤساء كانوا ينفقون اموالهم على الجيش وعن ابن عباس قال نزلت في ابي سفيان بن حرب وعن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه وعن الحكم بن عتيبة قال نزلت في ابي سفيان انفق على مشركي قريش يوم احد اربعين اوقية من ذهب وكانت الاوقية يومئذ اربعين واثنين مثقالا من ذهب ثم اخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الاعجاز فقال فَسَيُنْفِقُونَهَا اي سيقع منهم هذا الانفاق وسيعلمون عاقبة انفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود فحصلت المغايرة ثُمَّ تَكُونُ اي عاقبة ذلك ان يكون انفاقهم عَلَيْهِمْ حَسْرَةً كان ذات الاموال تنقلب حسرة وتصير ندما لفوات ما قصدوه بها ثُمَّ آخر الامر يُغْلَبُونَ في الدنيا كما وعد الله في مثل قوله كتب الله لاغلبن انا ورسلي ومعنى ثم في الموضعين اما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الاسلام من الامتداد واما التراخي في الرتبة لما بين بذل الاموال وعدم حصول المقصود من المباينة ثم قال وَالَّذِينَ كَفَرُوا اي استمروا على الكفر لان من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من اسلم وحسن اسلامه إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ اي يساقون اليها لا الى غيرها ثم بين العلة التي لاجلها فعل بهم ما فعل فقال لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ وهم الكافرون مِنَ الطَّيِّبِ وهم المؤمنون قال ابن عباس يميز اهل السعادة من اهل الشقاوة

وقيل العمل الخبيث من العمل الطيب وقيل الانفاق في طريق الشيطان وسبيل
الرحمن وقيل الخبيث والطيب صفة للمال والتقدير ليميز المال الخبيث
الذي انفقه المشركون في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المال
الطيب الذي انفقه المسلمون في نصرته صلى الله عليه وآله وسلم فيضم
تلك الاموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيها في جهنم ويعذبهم بها كما في
قوله تعالى فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال في الكشاف واللام
على هذا متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وعلى الاول يحشرون انتهى
وعن شمر بن عطية قال يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ثم
تؤخذ الدنيا باسرها فتلقى في جهنم وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ اي يجعل فريق الكفار الخبيث
بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ اي فوق بعض فَيَرْكُمَهُ الركوم عبارة عن الجمع والضم
اي يجمع بعضهم الى بعض ويضم بعضهم الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم
يقال ركم الشيء يركمه اذا جمعه والقى بعضه على بعض وبابه نصر وارتكم
الشيء وتراكم اجتمع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه جَمِيعًا حال من
الهاء في يركمه او تأكيد لها فَيَجْعَلَهُ اي الخبيث فيه مراعاة اللفظ فِي جَهَنَّمَ
أُولَئِكَ اي الفريق الخبيث هُمُ الْخَاسِرُونَ اي الكاملون في الخسران فيه
مراعاة المعنى لان الضمير راجع على الخبيث قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا كابي سفيان
واصحابه واللام للتبليغ إِنْ يَنْتَهُوا الخ امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه
وآله وبارك وسلم ان يقول لهم هذا المعنى سواء قاله بهذه
العبارة او غيرها قال ابن عطية ولو كان كما قال الكسائي انه في مصحف ابن
مسعود تنتهوا بالتاء لما تأدت الرسالة الا بتلك الالفاظ بعينها وقال
في الكشاف هي لام العلة اي قل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا ولو كانت
بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم والمعنى ان ينتهوا عما هم عليه
من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام

يغفر لهم ما قد سلف لهم من العداوة انتهى وقيل معناه ان ينتهوا عن الكفر
قال ابن عطية والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف و
مغفرة ما قد سلف لا يكون الا لمنته عن الكفر وفي هذه الآية دليل على
ان الاسلام يجب ما قبله واخرج احمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال لما
جعل الله الاسلام في قلبي اتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت ابسط
يدك فلا بايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال مالك فقلت اردت ان
اشترط قال تشترط ماذا قلت ان تستغفر لي قال اما علمت ان الاسلام يهدم
ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله وقد ثبت
في الصحيح من حديث ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الاسلام
يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يعجز
عن هدم ما قبله من كفر فكيف يعجز عن هدم ما بعده من ذنب وَإِنْ يَعُودُوا
الى القتال والعداوة او الى الكفر الذي هو عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار وفي
الحمل العود يشعر بسبق التلبس بالشيء الذي حصل العود اليه فالمعنى وان يرتدوا
من الاسلام بعد دخولهم فيه يرجعوا الى الكفر وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وجواب الشرط محذوف تقديره ننتقم منهم بالعقاب والعذاب وقوله فَقَدْ
مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ تعليل للمحذوف ولا يصلح للجوابية كما لا يخفى اي سبقت
واستقرت سنة الله في اهلاك اعدائه ونصر اوليائه وهذه العبارة مشتملة
على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن اهلك من الامم في سالف الدهر بعذاب الله اي
قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الاولين من الامم انه يصيبه بعذاب
فليتوقعوا مثل ذلك عن مجاهد قال فقد مضت سنة الاولين في قريش وغيرها يوم
بدر والامم قبل ذلك وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بما مضى في الامم المتقدمة
من عذاب من قاتل الانبياء وصمم على الكفر وقال السدي ومحمد بن اسحاق المراد
بالآية يوم بدر وترسم سنت هذه بالتاء المجرورة وكذا الثلاثة التي في فاطر وكذا

التي في آخر خافر والاضافة على معنى في وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ اي شرك
قاله ابن عباس وقيل بلاء قاله الحسن وقد فسرها جمهور السلف بالكفر وقال
محمد بن اسحاق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا المعنى حتى
لا يفتن مسلم عن دينه وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى والجملة معطوفة
على قل للذين لما كان الغرض من الاول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء
بالافراد ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا
جميعاً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ اي الطاعة والعبادة كلها لِلَّهِ خالصة دون غيره و
قال قتادة حتى يقال لا اله الا الله عليه قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله و
سلم واليه دعى وقيل يضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده
والمعاني متقاربة فَإِنِ انْتَهَوْا عما ذكر من الشرك وافتتان المؤمنين وايذائهم
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بالتحتية باتفاق السبعة وقرأ بالفوقية يعقوب من العشرة بَصِيرٌ
لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء فيجازيهم به وَإِنْ تَوَلَّوْا عما امروا من الانتهاء
او عن الايمان وجوابه محذوف اي فلا تخشوا باسهم فَاعْلَمُوا ايها المؤمنون أَنَّ اللَّهَ
مَوْلَاكُمْ اي ناصركم عليهم ومتولي اموركم نِعْمَ الْمَوْلَى هو وَنِعْمَ النَّصِيرُ فمن والاه فاز ومن نصره غلب

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا

ما موصولة وكان القياس فصلها في الرسم من ان لكن ثبت وصلها في خط المصحف
الامام وثبت فصلها ايضاً في بعضها على القياس كما ذكره ابن الجزري في قوله ع
وخلف الانفال ونحل وقعا غَنِمْتُمْ لما امر الله سبحانه بالقتال بقوله وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ذكر حكم الغنيمة والغنيمة
قد قدمنا ان اصلها اصابة الغنم من العدو ثم استعملت في كل ما يصاب منهم و
قد يستعمل في كل ما ينال بسعي واما معنى الغنيمة في الشرع فحكى القرطبي الاتفاق على
ان المراد بقوله انما غنمتم مال الكفار اذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر

ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الا سهم ولرسول الله سهم مع سهام الناس وعن ابن بريدة قال الذي لله لنبيه والذي للرسول لازواجه وعن ابى العالية قال كان يجاء بالغنيمة فتوضع فيقسمها رسول الله صلى الله عليه واله وسلم على خمسة اسهم فيعزل سهما منها ويقسم اربعة اسهم بين الناس يعني لمن شهد الوقعة ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة فهو الذي سمى الله لا تجعلوا له نصيبا فان لله الدنيا والآخرة ثم يعمد الى بقية السهم فيقسمه على خمسة اسهم سهم للنبي صلى الله عليه واله وسلم وسهم لذى القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل وعن ابن عباس قال فان لله خمسه مفتاح كلام اي على سبيل التبرك وانما اضافه لنفسه لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه ان سهما منه لله مفردا لان لله ما في السموات وما في الارض وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعي قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد وذكر الله للتعظيم فجعل هذين السهمين في الخيل والسلاح وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم وجعل الاربعة الاسهم الباقية للفرس سهمين ولراكبه سهم وللراجل سهم وعنه رضي الله عنه قال كانت الغنيمة تقسم على خمسة اخماس فاربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على اربعة اخماس فربع لله وللرسول ولذى القربى يعني قرابة رسول الله صلى الله عليه واله وسلم فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي صلى الله عليه واله وسلم ولم يأخذ النبي صلى الله عليه واله وسلم من الخمس شيئا والربع الثاني لليتامى والربع الثالث للمساكين والربع الرابع لابن السبيل وهو الضعيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين وَلِذِى الْقُرْبَىٰ قيل اعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه واله وسلم والمعنى ان سهما من خمس الخمس لذي القربى وقد اختلف العلماء فيهم على اقوال الاول انهم قريش كلها روي ذلك عن بعض السلف واستدل بما روي عن النبي صلى الله عليه واله وسلم انه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا يا بني فلان يا بني فلان

وقال الشافعي واحمد وابو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس وبني نوفل منه شيء وان كانوا اخوة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين اصابعه وهو في الصحيح وقيل هم بنو هاشم خاصة وبه قال مالك والثوري والاوزاعي وغيرهم وهو مروي عن علي بن الحسين ومجاهد واختلفوا في سهمهم هل هو ثابت اليوم ام لا فذهب اكثرهم الى انه ثابت فيعطى فقراءهم واغنياءهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وبه قال مالك والشافعي وقيل انه غير ثابت وسقط سهمه وسهمهم بوفاته وصار الكل مصروفا الى الثلثة الباقية وبه قال ابو حنيفة واصحاب الرأي وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعطونهم ولا يفضلون فقيرا على غني لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعطى العباس مع كثرة غنائه وكذا الخلفاء بعده والحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير انهم يعطون القريب والبعيد والیتامی والمساكين وابن السبيل قد تقدم بيان سهمهم قريبا والمراد باليتيم هنا هو الصغير المسلم الذي لا اب له فيعطى مع الحاجة اليه والمساكين هم اهل الفاقة من المسلمين وابن السبيل هو المسافر البعيد عن ماله المنقطع في سفره فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم اربعة اخماسها الباقية بين الغانمين الحاضرين في الوقعة الحائزين للغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة اسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم واحد لحديث ابن عمر في الصحيح وبه قال اكثر اهل العلم واليه ذهب الثوري والاوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي واحمد واسحاق وقال ابو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم والحديث يرد عليه وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول وعند ابي حنيفة يخير الامام بين قسمه ووقفه على المصالح ومن قتل قتيلا فله سلبه اخرجه الشيخان وغيرهما ويجوز تنفيل بعض الجيش من الغنيمة إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ قال الزجاج عن فرقة ان المعنى فاعلموا ان الله مولاكم ان كنتم آمنتم بالله وقالت فرقة اخرى ان إن متعلقة بقوله واعلموا

انما غنمتم قال ابن عطية وهذا هو الصحيح لان قوله واعلموا يتضمن الامر بالانقياد
والتسليم لامر الله في الغنائم فعلق ان بقوله واعلموا على هذا المعنى اي ان كنتم مؤمنين
بالله فانقادوا واسلموا الامر الله فيما اعلمكم به من حال قسمة الغنيمة وقال في الكشاف انه
متعلق بمحذوف يدل عليه واعلموا بمعنى ان كنتم امنتم بالله فاعلموا ان الخمس من الغنيمة
يجب التقرب به فاقطعوا عنه اطماعكم واقنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد بالعلم
العلم المجرد ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لامر الله لان العلم المجرد يستوي فيه المؤمن
والكافر انتهى وما انزلنا على عبدنا اي ان كنتم امنتم بالله وبما انزلنا على محمد صلى
الله عليه واله وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه واله وسلم
يوم الفرقان يوم بدر لانه فرق بين اهل الحق باظهاره واهل الباطل باخماده
يوم التقى الجمعان اي الفريقان من المسلمين والكافرين عن علي بن ابي طالب قال كانت
ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان
وهو اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه واله وسلم والله على كل شيء قدير
ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الاقل على الفريق الاكثر اذ اي اذكروا ايها المسلمون
اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى قرئ بكسر العين في الموضعين
وقرئ بالضم فيهما وهما لغتان في شط الوادي وشفيره سميت بذلك لانها عدت ما
في الوادي من ماء ونحوه ان يتجاوزها اي منعته وقرئ بالفتح وكلها لغات بمعنى واحد
هذا هو قول جمهور اللغويين وقيل هي جانب الوادي وحافته وقال ابو عمرو هي المكان المرتفع
والدنيا تانيث الادنى من دنى يدنو اي القربى من المدينة والقصوى تانيث الاقصى من
قصى يقصو ويقال القصيا والاصل الواو وهي لغة اهل الحجاز والمعنى وقت نزولكم
بالجانب الادنى من الوادي الى جهة المدينة وعدوكم بالجانب الاقصى منه مما يلي مكة
والباء بمعنى في كقولك زيد بمكة والركب اسفل منكم اي والحال ان الركب في مكان
اسفل من المكان الذي انتم فيه مما يلي البحر واجاز الاخفش والكسائي والفراء رفع اسفل
على معنى اشد سفلا منكم وقيل الواو للعطف والركب اسم جمع راكب او جمع له وهم

العشرة فصاعدا ولا تقول العرب ركب الا للجماعة الراكبي الابل وقد يقال لمن كان
على فرس وغيرها ركب والجمع اركب وركوب كذا قال ابن فارس وحكاه ابن السكيت
عن اكثر اهل اللغة والمراد بالركب هنا ركب ابي سفيان وهي المراد بالعير فانهم كانوا
في موضع اسفل منهم مما يلي ساحل البحر على ثلثة اميال من بدر قيل وفائدة ذكر هذه
الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب
اسفل منهم الدلالة على قوة شان العدو وشوكته وذلك لان العدوة القصوى التي
اناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت ارضا لا باس بها واما العدوة الدنيا فكانت
رخوة تسوخ فيها الاقدام ولا ماء بها وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم
فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه ولو تواعدتم اي انتم والمشركون
من اهل مكة على ان تلتقوا في هذا الموضع للقتال واعلم كل منكم الآخر بالخروج له
لاختلفتم في الميعاد اي لخالف بعضكم بعضا فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء
بالوعد وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالميعاد
معناه التواعد والميعاد المواعدة ووقتها ومكانها كما في القاموس ولكن جمع الله بينكم
في هذا الموطن بغير ميعاد ليقضي الله امرا كان مفعولا اي حقيقا بان يفعل من نصر
اوليائه وخذلان اعدائه واعزاز دينه واذلال الكفر فاخرج المسلمين لاخذ العير وغنيمتها
عند انفسهم واخرج الكافرين للمدافعة عنها ولم يكن في حساب الطائفتين ان يقع
هذا الاتفاق على هذه الصفة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن
بينة اي ليموت من يموت عن بينة ويعيش من يعيش عن بينة رآها وعبرة عاينها
وحجة قامت عليه لئلا تبقى لاحد على الله حجة وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر
والاسلام اي ليصدر اسلام من اسلم عن وضوح بينة ويقين بانه دين الحق وليصدر
كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة وهو معنى قول ابن اسحق وقتادة وان الله لسميع بكفر الكافرين وايمان المؤمنين عليم بهما
لا يخفى عليه خافية اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اريكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر
المعنى اذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم رآهم في منامه قليلا فقص ذلك على اصحابه

فكان ذلك سببا لثباتهم قاله مجاهد ولو رأهم في منامه كثيرا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم
وتنازعوا في الامر هل يلاقونهم ام لا والمضارع بمعنى الماضي لان نزول الاية كان بعد
الاراءة ولكن الله سلم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله
صلى الله عليه وسلم في المنام قال ابن عباس سلم اي اتم يقول سلم لهم امرهم حتى اظهرهم على عدوهم
وقيل عنى بالمنام محل النوم وهي العين اي في موضع منامك وهو عينك روي ذلك
عن الحسن قال الزجاج هذا مذهب حسن ولكن الاول اسوغ في العربية لقوله واذ
يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا ويقللكم في اعينهم فدل بهذا على ان هذه
رؤية الالتقاء وتلك رؤية النوم انه عليم بذات الصدور اي بما يحصل فيها من
الجرأة والجبن والصبر والجزع وقيل بما فيه من الحب لله عز وجل قاله ابن عباس واذ
يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا اي واذكروا وقت اراءتكم اياهم حال كونهم
قليلا حتى قال القائل من المسلمين لاخر اتراهم سبعين قال هم نحو المائة قال ابن مسعود
حتى اخذنا رجلا منهم فسألناه قال كنا الفا ويقللكم في اعينهم اي وقلل المسلمين في اعين
المشركين حتى قال قائلهم انما هم اكلة جزور وكان هذا قبل القتال والتحام الحرب فلما شرعوا
فيه كثر الله المسلمين في اعين المشركين كما قال في ال عمران يرونهم مثليهم رأي العين وحكمة
تقليل المسلمين في اعين المشركين هو انهم اذا رأوهم قليلا اقدموا على القتال غير خائفين ثم يرونهم
كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه ليقضي الله
امرا كان مفعولا في علمه وانما كرره لاختلاف الفعل المعلل به عن عباد بن عبد الله
بن الزبير قال ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن اراد الانتقام منه والانعام على من اراد النعمة
عليه من اهل ولايته وقيل المراد بالامر اعلاء كلمة الاسلام ونصر اهله واذلال كلمة
الشرك وخذلان اهله والمعاني متقاربة والى الله ترجع الامور اي تصير الامور كلها يفعل فيها
ما يريد ويقضي في شأنها ما يشاء يا ايها الذين امنوا اذا لقيتم فئة اللقاء الحرب
والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها وتجمع على فئات وقد تجمع بالواو والنون جبرا
لما نقص منها اي اذا حاربتم جماعة من المشركين فاثبتوا لهم ولا تجبنوا عنهم وهذا الامر في

الرخصة للتقدم في قوله الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فالامر بالثبات هو في حال السعة والرخصة هي في حال الضرورة وقد لا يحصل الثبات الا بالتحرف والتحيز واذكروا الله كثيرا عند جزع قلوبكم فان ذكره يعين على الثبات في الشدائد وقيل المعنى اثبتوا بقلوبكم واذكروا بالسنتكم فان القلب قد يسكن عند اللقاء وتضطرب اللسان فامرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان قيل وينبغي ان يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله اصحاب طالوت ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الاحوال حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر قال قتادة افترض الله ذكره عند اشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف واخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنتان لا تردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا و اخرج الحاكم وصححه عن ابي موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الصوت عند القتال لعلكم تفلحون اي كونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا امرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم اليه ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي فان ذلك يتسبب عنه الفشل وهو الجبن في الحرب واما المنازعة بالحجة لاظهار الحق فجائزة كما قال وجادلهم بالتي هي احسن بل هي مأمور بها بشروط منها قصد اظهار الحق على لسان اي الخصمين كان متى علا ان يفرح لظهوره على لسان خصمه وتذهب ريحكم الريح القوة والنصر كما يقال الريح لفلان اذا كان غالبا في الامر وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ امرها بالريح في هبوبها والحاصل ان الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة والرحمة والنصرة والدولة قال في الخازن الريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا اقبل امره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هي ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور واصبروا ان الله مع الصابرين امرهم بالصبر على شدائد الحرب واخبرهم

بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل امر ينبغي الصبر فيه ويا حبذا هذه المعية
التي لا يغلب من رزقها غالب ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة وَلَا
تَكُونُوا في البطر والاستكبار كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم اي مكة بَطَرًا اي فخرا واشرا
وَرِئَاءَ النَّاسِ فيصيبكم مثل ما اصابهم نهاهم عن ان تكون حالتهم كحالة هؤلاء وهم
قريش فانهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع ابي سفيان ومعهم القيان والمعازف
فلما بلغوا الجحفة بلغهم ان العير قد نجت وسلمت فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من
الوصول الى بدر ليشربوا الخمر وتغني لهم القيان وتسمع العرب بخروجهم فكان ذلك منهم
بطرا واشرا وطلبا للثناء من الناس والتمدح اليهم والفخر عندهم وهو الرياء قيل البطر
في اللغة التقوي بنعم الله على معاصيه اي خرجوا بطرين مرائين او خرجوا للبطر والرياء
قال الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها وجعلها وسيلة الى ما لا يرضاه الله و
الرياء اظهار الجميل مع ابطان القبيح وقيل معناهما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر
والخيلاء والفخر بها والرياء مصدر رائي كقاتل قتالا وظاهر النظم الكريم ان قوله بطرا
متعلق بخرجوا وهو لا يوافق الواقع لان خروجهم كان لغرض مهم وهو المنع عن عيرهم
ولهذا جعله السيوطي متعلقا بمحذوف وقدر لخرجوا علة اخرى حيث قال خرجوا من
ديارهم ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها بطرا فجعله علة لهذا المقدر وهو قوله ولم
يرجعوا والمعنى عليه واضح ولم يسلك هذا المسلك غيره ممن رأيناه من المفسرين عن
قتادة قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ اللهم ان قريشا قد اقبلت بفخرها و
خيلائها لتجادل رسولك وقال جاءت من مكة افلاذها وقد احتج بهذه الآية الشيخ
عبد العزيز الدهلوي على انه لا يجوز طوف البلد للعروس بركوب الخيل وغيرها كما اعتاده
أهل الهند في عقود مناكحاتهم وَيَصُدُّونَ اي ويمنعون الناس حتى الدخول في
سَبِيلِ اللَّهِ يعني وكذا صادين عن دين الله او للصد عنه والصد اضلال الناس و
الحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ويجوز ان يكون المعنى يجمعون بين الخروج على تلك
الصفة والصد ونكتة التعبير بالاسم اولا ثم الفعل ان البطر والرياء كانا دابهم بخلاف

في لا يجوز طوف البلد للعروس ١٢

الصدر فإنه يجهد حضورهم في زمن النبوة قاله الشهاب والله بما يعملون محيط لا يخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم أي اذكر يا محمد تزيين الشيطان لهم أعمالهم بأن شجعهم وقواهم لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر وهم قبيلة كنانة قريبة من قريش وبينهما حروب كثيرة والتزيين التحسين وقد روي أن الشيطان تمثل لهم يوم بدر في جند من الشياطين معه قال ابن عباس أتاهم في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم سيد تلك الناحية وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس أي كنانة وغيرها وإني جار لكم أي مجير ومعين وناصر لكم من كل عدو من بني كنانة ومعنى الجار هنا الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار وقيل المعنى أنه ألقى في روعهم هذه المقالة وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون فلما تراءت التقت الفئتان أي فئة المسلمين والمشركين ورأى الملائكة وكان يده في يد الحرث بن هشام نكص أي رجع على عقبيه هاربا أي رجع القهقرى يمشي إلى ظهره وقيل معنى نكص هنا بطل كيده وذهب ما خيله وقال إني بريء منكم أي من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم وتبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة ثم علل ذلك بقوله إني أرى ما لا ترون من الملائكة ثم علل بعلة أخرى فقال إني أخاف الله قيل خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة وقيل إن دعوى الخوف كذب منه ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك والله شديد العقاب يحتمل أن يكون من تمام كلام إبليس بسط العذر ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه تهديدا لإبليس إذ يقول المنافقون قيل هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وكانوا بالمدينة وهو ابتداء كلام منقطع عما قبله والذين في قلوبهم مرض هم الشاكون من غير نفاق الكائنون بمكة لم يقووا إسلامهم لكونهم حديثي عهد بالإسلام وعن الحسن قال مرضى القلوب هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين وقال الحلبي هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا المسلمين قلة قالوا أو فقالوا المنافقين في قولهم غر هؤلاء المسلمين دينهم حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش

وعن الشعبي نحوه وقيل هم المشركون ولا يبعد ان يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما
حولها وانهم هم والمنافقون من اهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين الى بدر
لما رأوهم في قلة من العَدد وضعف من العُدد فاجاب الله عليهم بقوله ومن يتوكل
على الله يثق به فان الله عزيز لا يغلبه غالب ولا يذل من توكل عليه حكيم له الحكمة
البالغة التي تقصر عندها العقول ولو ترى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل من
يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع والرؤية بصرية والمعنى لو رأيت اذ يتوفى الذين
كفروا الملائكة لان لو يقلب المضارع ماضيا اي ولو ترى الكافرين وقت توفي الملائكة
لهم قيل اراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر وقيل هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف
تقديره لرأيت امرا عظيما يضربون وجوههم اي جهة الامام وادبارهم اي جهة الخلف
يعني استاههم كنى عنها بالادبار وقيل ظهورهم بمقامع من حديد وهذا نص في ان
ملائكة الموت عند قبضها لروح الكافر تضربه بما ذكر وتقول له ما ذكر وان كنا محجوبين
عن رؤية ذلك وسماعه واختلفوا في وقت هذا الضرب فقيل يكون عند الموت تضرب
الملائكة وجوه الكفار وادبارهم بسياط من نار كما يفيده ذكر التوفي وقيل هو يوم القيامة
حين يسيرون بهم الى النار قال ابن جريج يريد ما اقبل من اجسادهم وادبر يعني يضربون
جميع اجسادهم قيل كان المشركون اذا اقبلوا بوجوههم على المسلمين ضربت الملائكة
وجوههم بالسيوف واذا ولوا ادبارهم ضربت الملائكة ادبارهم قيل كان معهم مقامع
من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم ويقول لهم خزنة
جهنم عند القتل وذوقوا عذاب الحريق اي المحرق وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك
بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة والذوق قد يكون محسوسا وقد يوضع موضع
الابتلاء والاختبار واصله من الذوق بالفم ذلك اشارة الى ما تقدم من الضرب والحريق
والعذاب والقتل بما قدمت ايديكم اي واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب
هذا من جملة قول الملائكة عبر بها دون غيرها لان اكثر الافعال تزاول بها وان الله ليس
بظلام للعبيد لانه لا يظلمهم او ذلك العذاب بسبب المعاصي وبسبب ان الله ليس بظالم

لهم فيعذبهم بغير ذنب لانه سبحانه قد ارسل اليهم رسله وانزل عليهم كتبه واوضح لهم السبيل وهذا هو التحدين كما قال سبحانه وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها كدأب لما ذكر سبحانه ما انزله باهل بدر اتبعه بما يدل على ان اهذه سنته في فرق الكافرين واصل الدأب في اللغة ادامة العمل يقال فلان يدأب في كذا اذا داوم عليه واتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دابا لان الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها اي داب هؤلاء في كفرهم مثل دأب آل فرعون والذين من قبلهم والمعنى انه جوزي هؤلاء كما جوزي اولئك فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر من الامم الماضية المكذبة فيما فعلوا وفعل بهم كفروا بآيات الله مفسر لدأب آل فرعون وبيان لفعلهم اي دابهم هذا هو انهم كفروا بها فاخذهم الله بذنوبهم هذا بيان لما فعل بهم اي فتسبب عن كفرهم اخذ الله سبحانه لهم والمراد بذنوبهم معاصيهم المترتبة على كفرهم فالباء للملابسة اي فاخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ان الله قوي على ما يريده شديد العقاب جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ذلك اي العقاب الذي انزله الله بهم بأن الله لم يك مجزوم بسكون النون المحذوفة تخفيفا اي لم يكن مغيرا نعمة انعمها على قوم المراد بالنعمة هو محمد صلى الله عليه وسلم انعم بها على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله الى الانصار قاله السدي والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله اي ان ذلك العقاب بسبب ان عادة الله في عباده عدم تغيير النعمة التي ينعم بها عليهم حتى يبدلها بالنقمة حتى يغيروا ما بانفسهم من الاحوال والاخلاق بكفران نعم الله وغمص احسانه واهمال اوامره ونواهيه وهذا يعم الحال المرضية والقبيحة فكما تغير الحال المرضية الى المسخوطة كذلك تغير الحال المسخوطة الى ما هو اسوء منها هذا حاصل ما في الكشاف وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين فان الله فتح لهم ابواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بارسال الرسل وانزال الكتب فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها وجملة وان الله سميع

عليم معطوفة على ما قبلها داخلة معها في التعليل اي ذلك بسبب ان الله لم يك مغيرا وبسبب ان الله سميع يسمع ما يقولونه وعليم يعلم ما يفعلونه ثم كرر ما تقدم فقال
كدأب آل فرعون والذين من قبلهم لقصد التأكيد مع زيادة انه كالبيان للاخذ بالذنوب بانه كان بالاغراق وقيل ان الاول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم والثاني باعتبار ما فعل بهم وقيل المراد بالاول كفرهم بالله وبالثاني تكذيبهم الانبياء وقيل الاول اخبار عن عذاب لم يمكن الله احدا من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم وادبارهم عند نزع ارواحهم والثاني باخبار عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله وهو الاهلاك والاغراق وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف وفي قوله كذبوا بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق والكلام في فاهلكناهم بذنوبهم كالكلام المتقدم في فاخذهم الله بذنوبهم قيل المعنى اهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك اهلكنا كفار قريش بالسيف واغرقنا آل فرعون اي قومه معه معطوف على اهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من اشد انواع الاهلاك وكل كانوا ظالمين حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ومن كفار قريش بالظلم لانفسهم بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بانواع الظلم وبالتكذيب لانبيائهم وجمع الضمير في كانوا وفي ظالمين مراعاة لمعنى كل لان كل متى قطعت عن الاضافة جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها اخرى وانما اختير هنا مراعاة المعنى لاجل الفواصل ولو روعي اللفظ فقط فقيل وكل كان ظالما لم تتفق الفواصل قاله السمين
ان شر الدواب عند الله الذين كفروا اي شر ما يدب على وجه الارض في حكم الله وقضائه المصرون على الكفر المتمادون في الضلال وجعلهم شر الدواب لا شر الناس ايماء الى انسلاخهم عن الانسانية ودخولهم في جنس غير الناس من انواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم ومع ذلك هم شر من جميع افرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم اضل عن سعيد بن جبير قال نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت وطمل اعال

مرة وهم لا يؤمنون اي هذا شأنهم لا يؤمنون ابدا ولا يرجعون عن الغواية اصلا وهذا حكم مترتب
على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من اهل الطبع لا يلويهم صارف ولا
يثنيهم عاطف اصلا جيء به على وجه الاعتراض لا انه عطف على كفروا داخل معه في حيز
الصلة التي لا حكم فيها بالفعل قاله ابو السعود الذين عاهدت منهم اي اخذت منهم عهدهم ان
لا يعينوا المشركين اي كفار مكة قيل من في منهم صلة اي عاهدتهم وقيل للتبعيض اي الذين
عاهدتهم وهم بعض اولئك الكفرة يعني الاشراف منهم ثم ينقضون عهدهم الذي عاهدتهم
وعطف المستقبل على الماضي للدلالة على استمرار النقض منهم وهؤلاء هم قريظة عاهدهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك في كل مرة من مرات المعاهدة
فنقضوا واعانوهم بالسلاح وقالوا نسينا العهد ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤا الكفار عليه يوم الخندق
وهم اي والحال انهم لا يتقون الله في النقض والغدر ولا يخافون عاقبته ولا يجتنبون اسبابه
ثم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشدة والغلظة عليهم فقال فاما تثقفنهم في الحرب اي
فاما تصادفنهم في ثقاف وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم وتظفر بهم
يقال ثقفت الشيء ثقفا من باب تعب اخذته وثقفت الرجل في الحرب ادركته وثقفته
ظفرت به وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف وبه سمي حي من اليمن والثقاف في
اصل اللغة ما يشد به القناة ونحوها يقال فلان ثقف اي سريع الوجود لما يحاوله فشرد
بهم اي ففرق بقتلهم والتنكيل بهم والعقوبة لهم من خلفهم من المحاربين لك من اهل
الشرك كفار مكة حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة ان ينزل بهم ما نزل بهؤلاء
او يخافك من وراءهم من اهل مكة واليمن والتشريد التفريق مع الاضطراب والازعاج وقال
ابو عبيدة شرد بهم سمع بهم وقال الزجاج افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم يقال
شردت بني فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها ومنه شرد البعير
اذا فارق صاحبه وقرأ ابن مسعود بالذال قال قطرب التشريد بالذال التنكيل وبالمهملة هو التفريق
وقال المهدوي الذال المعجمة لا وجه لها ولا يعرف في اللغة لعلهم اي الذين خلفهم يذكرون
اي يتعظون بما يفعلون بان ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك قاله السدي واما تخافن من قوم خيانة اي غشا

ونقض العهد من القوم المعاهدين بأمارة تلوح لك وهم قريظة والنضير فانبذ اليهم فاطرح اليهم العهد الذي بينك وبينهم والنبذ الطرح وهذا مجاز عن اعلامهم بأن لا عهد لهم بعد اليوم فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه واثبت النبذ تخييلا أو مفعوله محذوف وهو عهدهم قاله الشهاب على سواء أي طريقة مستوية والمعنى انه يخبرهم اخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة وقيل معنى على سواء على وجه يستوي في العلم بالنقض اقصاهم وادناهم او تستوي انت وهم فيه لئلا يتهموك بالغدر قال الكسائي السواء العدل وقد يكون بمعنى الوسط ومنه قوله في سواء الجحيم وقيل معنى على سواء على جهر لا على سر والظاهر ان هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه قال ابن عطية والذي يظهر من الفاظ القرآن ان امر بني قريظة انقضى عند قوله فشرد بهم من خلفهم ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ تعليل لما قبلها يحتمل ان تكون تحذيرا للرسول صلى الله عليه وسلم عن المناجزة قبل ان ينبذ اليهم على سواء ويحتمل ان تكون عائدة الى القوم الذين تخاف منهم الخيانة وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا انفسهم من قريش سَبَقُوا اي فاتوا عذابه وخلصوا ونجوا منه وانهزموا يوم بدر وافلتوا من ان يظفر بهم وعلى القراءة بالفوقية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد زعم جماعة من النحويين ان قراءة يحسبن بالتحتية لحن لا يحل القراءة بها قال النحاس وهذا تحامل شديد إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ تعليل لما قبلها اي انهم بهذا السبق لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم والانتقام منهم وقيل المراد بهذه الآية من افلت من وقعة بدر من المشركين والمعنى انهم وان افلتوا من هذه الوقعة ونجوا فانهم لا يعجزون بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فاعلمه الله انهم لا يعجزونه وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ امر سبحانه باعداد القوة للاعداء الناقضين العهد كما يقتضيه السياق او للكفار مطلقا كما يقتضيه ما بعده والاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة اليه ومن لبيان الجنس والقوة

كل ما يتقوى به في الحرب على العدو ومن ذلك السلاح والقسي وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي قالها ثلاث مرات وقيل هي الحصون والمعاقل والمصير الى التفسير الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متعين وعن ابن عباس القوة الرمي والسيوف والسلاح وقال ابن الزبير امرهم باعداد الخيل وعن عكرمة قال القوة ذكور الخيل والرباط الاناث وعن مجاهد مثله وعن ابن المسيب قال القوة السهم الى الفرس فما دونه وقال عكرمة الحصون وقيل كل ما هو آلة يستعان به في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم الا ان القوة الرمي لا ينفي كون غير الرمي ليس من القوة فهو كقوله الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من افضل المقصود واجله فكذا هنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به لانه من فروض الكفايات ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ قال ابو حاتم الرباط من الخيل الخمس فما فوقها وهي الخيل التي ترتبط بازاء العدو وقال في الكشاف الرباط اسم للخيل التي ترتبط في سبيل الله ويجوز ان تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة ويجوز ان يكون جمع ربيط كفصيل وفصال انتهى والرباط ما تربط به القربة وغيرها والجمع ربط مثل كتاب وكتب ويقال للمصاب ربط الله على قلبه بالصبر كما يقال افرغ الله عليه الصبر اي الهمه والرباط الذي يبنى للفقراء مولد ويجمع في القياس على ربط بضمتين ورباطات والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من اعظم ما يستعان به قال ابن محيريز كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند الشتات والغارات وقيل ربط الفحول اولى من الاناث لانها اقوى على الكر والفر والعدو وقيل لفظ الخيل عام يتناول الفحول والاناث فاي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه من الاجر واستحباب اتخاذ الخيل واعدادها وكثرة ثواب صاحبها احاديث كثيرة لا يتسع

المقام بسطها وقد افرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات ترهبون به عدو الله وعدوكم
الترهيب التخويف والضمير في به راجع الى ما في ما استطعتم والى المصدر المفهوم من
واعدوا وهو الاعداد اي حصلوا لهم هذا حال كونكم مرهبين او واعدوه مرهبا به وجاز
نسبته لكل منهما لان في الجملة ضميريهما والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من اهل
مكة وغيرهم من مشركي العرب وآخرين من دونهم اي من غيرهم قيل هم اليهود وقيل
فارس والروم وقيل المنافقون وفيه بعد وقيل كفار الجن قاله الحسن ورجحه ابن جرير
الطبري وهو ابعد وقيل المراد كل من لا تعرف عداوته قاله السهيلي وقيل هم بنو قريظة
خاصة وقيل غير ذلك والاولى الوقف في تعيينهم لقوله لا تعلمونهم الله يعلمهم اي لا تعرفونهم
باعيانهم ومن عينهم قال اي لا تعلمون بواطنهم وما انطووا عليه من النفاق في العلم
فيه قولان احدهما انه متعد لواحد لانه بمعنى المعرفة ولذلك تعدى لواحد والثاني
انه على بابه فتعدى لاثنين والثاني محذوف اي لا تعلمونهم فازعين او محاربين
وان هذين القولين لا يجوزان جريانهما في قوله الله يعلمهم بل يجب ان يقال انها المتعدية
الى اثنين وان ثانيهما محذوف للفرق بين العلم والمعرفة بوجوه منها ان المعرفة
تستدعي سبق جهل ومنها ان متعلقها الذوات دون النسب وقد اتفق العلماء على
انه لا يجوز ان يطلق الوصف بالمعرفة على الله تعالى وهذا لا يرد لانه ليس في الاية اطلاق
اسم العارف عليه وانما فيها اطلاق اسم العلم وان كان بمعنى العرفان وما تنفقوا من
شيء في سبيل الله اي في الجهاد وان كان يسيرا حقيرا وقيل هو عام في كل وجوه الخيرات
والطاعات فيدخل فيه نفقة الغزو دخولا اوليا يوف اليكم اجره وجزاؤه في الآخرة
فالحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة كما قررناه سابقا ويعجل
لكم عوضه في الدنيا وانتم لا تظلمون في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله
اي من ثوابها بل يصير ذلك اليكم وافيا وافرا كاملا وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من
لدنه اجرا عظيما اني لا اضيع عمل عامل منكم والتعبير عنه بالظلم مع ان الاعمال غير موجبة للثواب
حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره

عنه تعالى من القبائح وابرازا لا ثابته في معرض الامور الواجبة عليه تعالى وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا اي ان مالوا الى المصالحة فاقبل منهم الصلح وملّ الى المصالحة والجنوح الميل يقال جنح الرجل الى الرجل مال اليه ومنه قيل للاضلاع الجوانح لانها مالت الى الحشوة وجنحت الابل اذا مالت اعناقها في السير ويقال جنح الليل اقبل قال النضر بن شميل جنح الرجل الى فلان ولفلان اذا خضع له والجنوح الاتباع ايضا لتضمنه الميل والجناح من ذلك لميلانه الى الطائر والسلم الصلح قرئ بالكسر والفتح وهما قراءتان سبعيتان وقرئ فاجنح بضم النون وبالفتح والاولى لغة قيس والثانية لغة تميم قال ابن جني ولغة قيس هي القياس و السلم يذكر ويؤنث كما يؤنث الحرب اذ هي مأولة بالخصلة او الفعلة وعن مجاهد قال و ان جنحوا يعني قريظة وعن ابن عباس قال السلم الطاعة وقد اختلف اهل العلم هل هذه الآية منسوخة ام محكمة فقيل هي منسوخة بقوله فاقتلوا المشركين قاله ابن عباس وقيل ليست بمنسوخة لان المراد بها قبول الجزية وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم فتكون خاصة باهل الكتاب قاله مجاهد وقيل ان المشركين ان دعوا الى الصلح جاز ان يجابوا اليه وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم وقيد واعدم الجواز بما اذا كان المسلمون في عزة وقوة لا اذا لم يكونوا كذلك فانه جائز كما وقع منه صلى الله عليه وسلم من مهادنة قريش وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك وهذا كله مبني على ان المراد بالصلح هو عقد الجزية اما لو اريد به غيره من العقود التي تفيد هم الامن وهي الهدنة والامان فلا نسخ مطلقا اذ يصح عقدها الحل كافر وكلام اهل العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في مواطنه وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم وفوّض امرك اليه فيما عقدته معهم ليكون ذلك عونا لك في جميع احوالك إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ لما يقولون الْعَلِيمُ بما يفعلون وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ بالصلح وهم مضمرون الغدر والخدع وجواب الشرط محذوف اي فصالحهم ولا تخش منهم فَإِنَّ اي لان حَسْبَكَ اللَّهُ اي كافيك بنصره ومعونته ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر في دفع خدائعهم هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ تعليلية اي لا تخف من خدعهم ومكرهم فان

الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى وهو يوم بدر هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث والمراد بالمؤمنين المهاجرون والانصار فان قلت لما كان الله قد ايده بنصره فاي حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون باسباب باطنة غير معلومة وباسباب ظاهرة معلومة فاما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذي ايدك بنصره لان اسبابه باطنة بغير وسائط معلومة واما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان اسبابه ظاهرة بوسائط معلومة وهم المؤمنون والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو الذي اقامهم لنصره ثم بين كيف كان تاييده بالمؤمنين فقال وألف بين قلوبهم وظاهره العموم وان ايتلاف قلوب المؤمنين هو من اسباب النصر التي ايد الله بها رسوله وقال جمهور المفسرين المراد الاوس والخزرج فقد كان بينهم عصبية شديدة وانفة عظيمة وانطواء على الضغينة من ادنى شيء وحروب عظيمة وفتن من منذ مائة وعشرين سنة لا يكاد يأتلف منهم قلبان فألف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وانقلبت تلك الحالة واجتمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية وابدلت تلك الضغائن بالمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا انصار الرسول صلى الله عليه وسلم واعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهذا مما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه وقيل اراد التأليف بين المهاجرين والانصار والحمل على العموم اولى فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه حتى جاء الاسلام فصاروا يدا واحدة وذهب ما كان بينهم من العصبية والانفة والحمية الجاهلية لو انفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم مقررة لمضمون ما قبلها والمعنى ان ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ الى حد لا يمكن دفعه بحال من الاحوال ولو انفق الطالب له جميع ما في الارض لم يتم له طلبه من التأليف لان امرهم في ذلك قد تفاقم جدا ولكن الله ألف بينهم بعظيم قدرته وبديع صنعه وفيه دليل على ان القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء انه عزيز لا يغالبه مغالب ولا يستعصي عليه امر

من الامور بحكمته في تدبيره ونفوذ امره وطيه وعن ابن مسعود قال ان هذه الآية
نزلت في المتحابين في الله وهذا يدل على ان التاليف المذكور هو بين المؤمنين الذين ايد
الله بهم رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف
تاليف الله تعالى بينهم واخرج ابن عساكر عن ابي هريرة قال مكتوب على العرش لا اله الا
الله انا الله وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي ايدته بعلي وذلك قوله هو الذي
ايدك بنصره وبالمؤمنين والله اعلم يا أيها النبي حسبك الله في كل شيء وعند كل مهم وليس
هذا تكرير لما قبله فان الاول مقيد بارادة الخدع وان يريدوا ان يخدعوك فان
حسبك الله فتلك كفاية خاصة وفي هذه كفاية عامة غير مقيدة اي حسبك الله
في كل حال والواو في قوله ومن اتبعك من المؤمنين يحتمل ان تكون للعطف على الاسم
الجليل والعلم الشريف والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون اي كافيك الله وكافيك
المؤمنون ويحتمل ان تكون بمعنى مع كما تقول حسبك وزيدا درهم والمعنى كافيك وكافي المؤمنين
الله لان عطف الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو واجازه
الكوفيون قال الفراء ليس بكثير في كلامهم ان تقول حسبك واخيك بل المستعمل
ان تقول حسبك وحسب اخيك باعادة الجار فلو كان قوله ومن اتبعك مجرورا لقيل
حسبك الله وحسب من اتبعك وبه قال الشعبي واختار النصب على المفعول معه النحاس وقال
شيخ الاسلام احمد ابن تيمية رضي الله عنه اي وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين
اتبعوك ومن قال ان المعنى ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفر
فان الله وحده هو حسب كل عبد مؤمن والحسب الكافي كما قال تعالى اليس الله بكاف
عبده وقال تعالى وقالوا حسبنا الله ولم يقل ورسوله وقالوا انا الى الله راغبون ولم يقل
هنا والى رسوله انتهى وقيل يجوز ان يكون التقدير ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله
فحذف الخبر قال الزهري نزلت في الانصار وقيل في جميع المهاجرين والانصار وقال سعيد
بن جبير لما اسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم اسلم عمر نزلت هذه الآية وعن ابن عباس
نحوه فعلى هذا الآية مكية كتبت في سورة مدنية وقيل نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال يا أيها النبي

حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَالِ اي حثهم وحضهم والتحريض في اللغة المبالغة في الحث على الشيء بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه كانه في الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك وهو كالتحضيض ماخوذ من الحرض وهو ان ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كانه ينسبه الى الهلاك لو تخلف عن المامور به ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطرهم بان الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة امثالهم من الكفار فقال إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ اي فيهم قوة وشجاعة فالمقاومة مدارها على العدد مع مراعاة المعنى لا على العدد وحده كما هو مقرر في الفروع وفي الاية احتباك حيث اثبت في الشرطية الاولى قيد الصبر وحذفه من الثانية واثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الاولى وهو غاية الفصاحة ثم زاد هذا ايضا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد بل هي جارية في كل عدد فقال وَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَّغْلِبُوْا اَلْفًا مِّنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وفي هذا دلالة على ان الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا وكثيرا لا يغلبهم عشرة امثالهم من الكفار بحال من الاحوال قال الشهاب تكرير المعنى الواحد اي وجوب ثبات الواحد للعشرة في الاول وثبات الواحد للاثنين في الثاني للدلالة على ان حكم القليل والكثير واحد فكفاية عشرين لمائتين تغني عن كفاية مائة لالف وكفاية مائة لمائتين تغني عن كفاية الف لالفين انتهى قيل وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين بل مثل نصفهم بل مثلهم واجيب عن ذلك بان وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الاية لاحتمال ان لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر عند اللقاء وقيل ان هذا الخبر الواقع في الاية هو في معنى الامر كقوله تعالى والوالدات يرضعن اولادهن والمطلقات يتربصن فالمؤمنون كانوا مامورين من جهة الله سبحانه بان يثبت الجماعة منهم لعشرة امثالهم وفي الخطيب حاصل هذه العبارة المطولة ان الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة في العدول الى تلك اجيب بان هذا الماء ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا والغالب ان تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على

المائة فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين بأنهم قوم لا يفقهون أي ان هذا الغلب
بسبب جهلهم بالله وباليوم الآخر وعدم فقههم وانهم يقاتلون على غير بصيرة ولا يقاتلون
احتسابا وامتثالا لامر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون
وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب
ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف
فيهم فقال الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا عن قتال عشرة امثالكم قرئ
بضم الضاد وفتحها فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين منهم وإن يكن منكم
ألف يغلبوا ألفين فاوجب على الواحد ان يثبت لاثنين من الكفار قال سفيان قال ابن
شبرمة وارى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ان كانا رجلين امرهما وان
كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب المائة للمائتين
والالف للالفين انه بشارة للمسلمين بأن عساكر الاسلام سيجاوز عددها العشرات
والمئات الى الالوف ثم اخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره وارادته
لا بقوتهم وجلادتهم ثم بشرهم بانه مع الصابرين فقال والله مع الصابرين بعونه وفيه
الترغيب الى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به وانه من اعظم اسباب النجاح
والفلاح والنصر والظفر لان من كان الله معه لم يستقم لاحد ان يغلبه وقد اختلف
اهل العلم هل هذا التخفيف نسخ ام لا ولا يتعلق بذلك كثير فائدة ما كان اي ما صح وما
استقام لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض هذا حكم آخر من احكام الجهاد
والاسرى جمع اسير مثل قتلى وقتيل وجرحى وجريح ويقال في جمع اسير اسارى ومأخوذ
من الاسر وهو القد لانهم كانوا يشدون به الاسير فسمي كل اخيذ وان لم يشد بالقد اسيرا
وقال ابو عمرو بن العلاء الاسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون والاسارى هم الموثقون
ربطا والاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه تقول العرب اثخن فلان في هذا الامر اي بالغ
فيه فالمعنى ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك
وقيل معنى الاثخان التمكن وقيل هو القوة وقيل الثخانة هي الغلظة والصلابة فاستعمل

هنا في اللازم المعنى الاصلي وهو القوة اللازمة والثخن في الارض اثخانا سادالى العدو واوهم قتلا واثخنته اوهنته بالجراحة واضعفته وعن ابن عباس حتى يثخن حتى يظهر على الارض وعن مجاهد قال الاثخان هو القتل اخبر الله سبحانه ان قتل المشركين يوم بدر كان اولى من اسرهم وفداهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال فاما منا بعد واما فداء كما ياتي في سورة القتال قال الرازي ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد واما فداء يزيل حكم الاية التي نحن في تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الايتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده اخذ الفداء انتهى وقال غيره لا تظهر دعوى النسخ من اصلها اذ النهي الضمني كما هنا مقيد ومغيا بالاثخان اي كثرة القتال اللازمة لها قوة الاسلام وعزته وما في سورة القتال من التخيير محله بعد ظهور شوكة الاسلام بكثرة القتال فلا تعارض بين الايتين اذ ما هنا لك بيان للغاية التي هنا: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا الخطاب لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمراد بعرض الدنيا نفعها ومتاعها بما قبضوا من الفداء وسمي عرضا لانه سريع الزوال كما تزول الاعراض التي هي مقابلة الجواهر قال قتادة اراد اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر الفداء ففادوهم باربعة آلاف درهم وقيل كان الفداء لكل اسير اربعين اوقية والاوقية اربعون درهما فيكون مجموع ذلك الفا وستمائة درهم وعن عكرمة قال عرض الدنيا الخراج وَاللَّهُ يُرِيدُ لكم الدَّارَ الْآخِرَةَ بما يحصل لكم من الثواب في الاثخان بالقتل والمراد بالارادة هنا الرضاء وعبر بها للمشاكلة فلا يرد ان الاية تدل على عدم وقوع مراد الله وهو خلاف مذهب اهل السنة قاله الشهاب وَاللَّهُ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ في افعاله وقد استدل بهذه الاية من يقدح في عصمة الانبياء واشتغل المفسرون برده وجوابه وما قيل فائدة ذلك لَوْلَا كِتَابٌ اي حكم مكتوب ومثبت في اللوح المحفوظ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو على اقوال الاول انه ما سبق في علم الله من انه سيحل لهذه الامة الغنائم والاسرى بعد ان كانت محرمة على سائر الامم والثاني انه مغفرة الله لاهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تاخر كما في الحديث الصحيح ان الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت

لكم القول الثالث هو انه لا يعذبهم ورسول الله فيهم كما قال تعالى وما كان الله ليعذبهم
وانت فيهم القول الرابع انه لا يعذب احدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا القول
الخامس انه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر القول السادس انه لا يعذب
احدا الا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي ولم يتقدم نهي عن ذلك وذهب ابن جرير الطبري الى ان
هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وانه يعمها لمسكم اي لحل بكم فيما اي لاجل ما اخذتم
من الفداء عذاب عظيم وهذا عتاب له صلى الله عليه وسلم على ترك الاولى اذ كان الاولى له ايثار
كثرة القتل فيهم لا الفداء وليس عتابا على فعل محرم تنزيها لمنصب النبوة عن ذلك وقد
اخرج احمد عن انس قال استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الاسارى يوم بدر فقال ان الله قد امكنكم
منهم فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب اعناقهم فاعرض عنه النبي صلى الله
عليه وآله وسلم ثم عاد فقال مثل ذلك فقام ابو بكر الصديق فقال نرى ان تعفو عنهم وان تقبل
منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فانزل الله لولا كتاب من الله سبق الآية وفي الباب
روايات كثيرة بطرق عديدة بالفاظ مختلفة وفي بعضها عند احمد والترمذي وحسنه
عن ابن مسعود فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون
الين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون اشد من الحجارة مثلك يا
ابا بكر مثل ابراهيم عليه السلام قال من تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك
يا ابا بكر مثل عيسى عليه السلام اذ قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز
الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام اذ قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا
ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام اذ قال ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم الحديث روي انهم امسكوا عن الغنائم فنزل فكلوا فالفاء
لترتيب ما بعدها على سبب محذوف اي قد ابحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والمعنى
اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره وقيل ان ما عبارة عن الفداء اي كلوا من الفداء
الذي غنمتم فانه من جملة الغنائم التي احلها الله لكم او كلا ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه
حلالا طيبا اي اكلا حلالا او النصب على الحال عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم احل الله لنا وذلك بأن رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا
أخرجه البخاري ومسلم واتقوا الله فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم
إن الله غفور لما فرط منكم رحيم بكم فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل
الزمان يا أيها النبي خاطب الله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أي قل لمن أي لهؤلاء الذين في
أيديكم من الأسرى أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء إن يعلم الله في قلوبكم خيرا
من حسن إيمان وصلاح نية وخلوص طوية يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء أي
يعوضكم في هذه الدنيا رزقا خيرا منه وأنفع لكم أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة
بالأعمال الصالحة ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم شأنه المغفرة لعباده والرحمة
لهم وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت لما بعث أهل مكة في فداء
أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص وبعثت فيه
بقلادة فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها
أسيرها وقال العباس إني كنت مسلما يا رسول الله قال الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما
تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب و
حليفك عتبة بن عمرو ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه ونزلت قل لمن في أيديكم من الأسرى
الآية الحديث مختصرا والروايات في هذا الباب كثيرة قال العباس فأبدلني الله خيرا
مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم
مكان عشرين أوقية وأعطاني زمزم وأنا أنتظر المغفرة ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم
في قلبه خيرا ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال وإن يريدوا خيانتك بما قالوه لك بألسنتهم
من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة بل
هو مماكرة ومخادعة فليس ذلك بمستبعد منهم فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه فقد
خانوا الله من قبل أي من قبل أن يظفرك بهم فكفروا به وقاتلوا رسوله فأمكن منهم بأن نصرك
عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت والله عليم بما في ضمائرهم حكيم في أفعاله
إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ختم الله سبحانه

هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به وسمى سبحانه المهاجرين
الى المدينة بهذا الاسم لانهم هجروا اوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله واجابة لدعوته
وسبقوا الهجرة بان هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية بدليل قوله فيما يأتي والذين
امنوا من بعد بانهما هاجروا بعد عام الحديبية وقبل الفتح والذين اووا هم الانصار اووا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين واسكنوهم منازلهم وبذلوا لهم اموالهم واثروهم على
انفسهم ولو كان بهم خصاصة ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والاشارة بقوله أولئك
الى الموصول الاول والاخر وخبره الجملة المذكورة بعده بعضهم أولياء بعض في النصرة
والمعونة وقيل في الميراث وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه
أولوا الارحام بعضهم اولى ببعض والذين امنوا ولم يهاجروا من مكة بل اقاموا بها
ما لكم من ولايتهم بفتح الواو وكسرها اي من نصرتهم واعانتهم او من ميراثهم من شيء
ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم فلا ارث بينكم وبينهم حتى يهاجروا الى المدينة
فيكون لهم ما كان للطائفة الاولى الجامعين بين الايمان والهجرة وان استنصروكم في الدين
اي هؤلاء الذين امنوا ولم يهاجروا اذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين فعليكم اي فواجب
عليكم النصر قال الزجاج ويجوز النصر بالنصب على الاغراء اثبت للقسمين الاولين النصرة
والارث ونفى عن هذا القسم الارث واثبت له النصرة لكن يستنصروكم على قوم بينكم
وبينهم ميثاق عهد فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين اولئك
القوم حتى ينقضي مدته وهي عشر سنين والله بما تعملون بصير تحذير عن تعدي حد
الشرع الشريف والذين كفروا بعضهم أولياء بعض اي بعضهم ينصر بعضا ويتولاه
في اموره او يرثه اذا مات وفيه تعريض للمسلمين بانهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم
وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين ولايجاب المباعدة و
المصارمة وان كانوا اقارب الا تفعلوه الضمير يرجع الى ما امروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين
ومناصرتهم على التفصيل المذكور وترك موالاة الكافرين تكن اي تقع فتنة في الأرض
ان لم تفعلوا ذلك وهي قوة الكفار وفساد كبير اي مفسدة كبيرة في الدين والدنيا وهو ضعف

المسلمين ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله

والمؤمنين الذين آووا من هاجر اليهم ونصروهم وهم الانصار فقال وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

حَقًّا اي الكاملون في الايمان لانهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة

الاهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لاجل الدين والعقبى وليس في هذا تكرير لما

قبله فانه وارد في الثناء على هؤلاء والاول وارد في ايجاب الموالاة والنصرة ثم اخبر سبحانه

ان لهم منه مَّغْفِرَةٌ لذنوبهم في الآخرة وَّلهم في الدنيا رِزْقٌ كَرِيمٌ خالص عن الكدر طيب

مستلذ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ اخبر سبحانه بان من هاجر

بعد هجرتهم وجاهد مع المجاهدين والانصار وهي الهجرة الثانية التي وقع فيها الصلح ووضعت

الحرب اوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة وقيل من بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان

وقيل بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والاول اولى لان الهجرة قد انقطعت

بعد فتح مكة لانها صارت دار الاسلام بعد الفتح فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ اي مثلكم في استحقاق

ما استحققتموه من الموالاة والمناصرة وكمال الايمان والمغفرة والرزق الكريم لكن فيه دليل

على ان مرتبة المهاجرين الاولين اشرف واعظم من مرتبة المهاجرين المتاخرين بالهجرة

لان الله تعالى الحق المتاخرين بالسابقين وجعلهم معهم وذلك معرض المدح والشرف

ولولا ان الاولين افضل واشرف لما صح هذا الالحاق قال في الجمل ولم ينبهوا هنا على

حكم التوارث بالهجرة الثانية هل هو ثابت كما في الهجرة الاولى او غير ثابت لانحطاط رتبة اهل

الثانية عن رتبة اهل الاولى الا ما رايته في الخطيب لكم ما لهم وعليكم ما عليهم من المواريث

والغنائم وغيرها وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ بين سبحانه بان ذوي القرابات

بعضهم اولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث من التوارث

بالايمان والهجرة شيئا اولى كل قرابة وقيل المراد بهم هنا العصبات قالوا ومنه قول العرب

وصلتك رحم فانهم لا يريدون قرابة الام ولا يخفى انه ليس في هذا ما يمنع من اطلاقه

على غير العصبات وقد استدل بهذه الآية من اثبت ميراث ذوي الارحام وهم من ليس

بتعصبة ولا ذي سهم على حسب اصطلاح اهل علم المواريث واليه ذهب اصحاب ابي حنيفة والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه وقد قيل ان هذه الاية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله بعضهم اولياء بعض وما بعده بالتوارث واما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الاية اخبارا منه سبحانه وتعالى بان القرابات بعضهم اولى ببعض **فِي كِتَابِ اللَّهِ** اي في حكم الله او في اللوح المحفوظ او في القرآن وهو ان قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وكذا اعطاء اهل الفروض فروضهم وما بقي للعصبات وبهذا اجاب الشافعي اصحاب ابي حنيفة رح ويدخل في هذه الاولوية الميراث دخولا اوليا لوجود سببه اعني القرابة **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** لا يخفى عليه شيء من الاشياء كائنا ما كان ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الايات من التوارث بمقتضى الايمان والهجرة ولو بدون قرابة الذي قد نسخ والتوارث بمقتضى القرابة ولو بدون مشاركة في الهجرة او النصرة والله سبحانه وتعالى اعلم

سورة براءة

هي مائة وثلاثون اية وقيل مائة وسبع وعشرون اية ولها اسماء منها سورة التوبة لان فيها ذكر التوبة على المؤمنين وتسمى الفاضحة لانه ما زال ينزل فيها ومنهم ومنهم حتى كادت ان لا تدع احدا وتسمى البحوث لانها تبحث عن اسرار المنافقين وتسمى المبعثرة والبعثرة البحث وتسمى ايضا باسماء أُخر كلها بصيغة اسم الفاعل الا البحوث فبفتح الباء صيغة مبالغة وهي مدنية قال القرطبي باتفاق وعن ابن عباس قال نزلت بعد فتح مكة وعن ابن الزبير وقتادة نحوه وعن البراء قال آخر سورة نزلت تامة براءة وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من اولها على اقوال الاول عن المبرد وغيره انه كان من شأن العرب اذا كان بينهم وبين قوم عهد فاذا ارادوا نقضه كتبوا اليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب في نقض العهد من ترك التسمية وعن علي قال البسملة امان وبراءة نزلت بالسيف وهذا هو القول

الثاني وروي نحوه عن سفيان بن عيينة وروي عن مالك بن انس وابن عجلان وابن جبير
انها كانت تعدل سورة البقرة او قريبا منها وانه لما سقط اولها سقطت البسملة وهذا
هو القول الثالث والرابع انهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلفت الصحابة فقال
بعضهم براءة والانفال سورة واحدة وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة
لقول من قال هما سورتان وتركت البسملة لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان
معا قاله خارجة وابو عصمة وغيرهما وقول من جعلهما سورة واحدة اظهر لانهما جميعا
نزلتا في القتال ومجموعهما مائتان وخمس آية ويعدان جميعا سابعة السبع الطوال وقال
السيوطي لم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وسلم لم يامر بذلك كما يؤخذ من حديث
رواه الحاكم انتهى لان عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم وعن عثمان
قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها فظننت انها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم
اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم اخرجه الترمذي وحسنه والصحيح انها لم تكتب
لان جبريل ما نزل بها في هذه السورة قاله القشيري وعن حذيفة انكم تسمونها سورة
التوبة وهي سورة العذاب وروى البخاري عن البراء انها اخر سورة نزلت بَرَآءَةٌ
يقال برئت من الشيء ابرأ براءة وانا منه بريء اذا ازلته عن نفسك وقطعت سبب ما
بينك وبينه وقيل معناها هنا التباعد مما تكره مجاورته اي هذه براءة وقال عيسى بن
عمر اسمعوا والتزموا براءة لان فيها معنى الاغراء وقيل ذات براءة اي دالة على التبري والتباعد
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ اي انقطاع الوصلة بينهما وبين المشركين ومن ابتدائية إِلَى الَّذِينَ
عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ عهدا مطلقا او دون اربعة اشهر او فوقها والعهد العقد الموثق
باليمين والخطاب للمسلمين ومن بيان للموصول وقد عاهدوا مشركي مكة وغيرهم
باذن من الله ومن الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى الاخبار للمسلمين بان الله ورسوله قد برئا
من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض فصار النبذ اليهم بعهدهم واجبا
على المعاهدين من المسلمين ومعنى براءة الله سبحانه وقوع الاذن منه سبحانه بالنبذ
من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم وفي ذلك من التفخيم لشأن البراءة

والتهويل لهما والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى قال مجاهد اهل العهد من المشركين
خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك **فسيحوا** ايها المشركون
في الارض اربعة اشهر امر اباحة منه سبحانه بالسياحة بعد الاخبار بتلك البراءة والسياحة
السير يقال ساح فلان في الارض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ومنه سيح الماء في الارض
وسيح الخيل ومعنى الآية ان الله سبحانه بعد ان اذن بالنبذ الى المشركين بعهدهم اباح
للمشركين الضرب في الارض والذهاب الى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الاربعة
الاشهر وليس المراد من الامر بالسياحة تكليفهم بها وقد جدده علي في الموسم وهذا القول كناية
عن عقد الامان لهم اربعة اشهر بعد نقضهم العهد بصورة الثلاث وانما اقتصر على الاربعة
لقوة المسلمين اذ ذاك بخلاف صلح الحديبية فانه كان على عشر سنين لضعف المسلمين اذ ذاك
قال محمد بن اسحاق ومجاهد وغيرهما ان المشركين صنفان صنف كانت مدة عهده اقل من
اربعة اشهر فامهل تمام اربعة اشهر والآخر كانت مدته اكثر من ذلك فقصر على اربعة اشهر
ليرتاد لنفسه وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد الا ان يتوب
ويرجع الى الايمان وابتدأ هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فاما
من لم يكن له عهد فانما اجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما عشرون من ذي
الحجة وشهر محرم وقال الكلبي انما كانت الاربعة الاشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى
الله عليه وسلم عهد دون اربعة اشهر فتمم له الاربعة ومن كان عهده اكثر من ذلك فهو
الذي امر الله ان يتم له عهده بقوله فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم كما سياتي ورجح هذا
ابن جرير وغيره وعن الزهري قال نزلت في شوال فهي اربعة اشهر شوال وذو القعدة
وذو الحجة ومحرم والقول الاول اصوب وعليه الاكثرون وفي الباب اقوال وقيل المقصود من
هذا التاجيل ان يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا انه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام
او القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول في الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد
وقال ابن الانباري التقدير قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة و
الاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعني سيحوا في الارض وانتم آمنون من القتل

والقتال وقد توهم بعضهم ان بعث علي بن ابي طالب بقراءة اول براءة عزل لابي بكر
عن الامارة وذلك جهل من هذا المتوهم والبحث مستوفى في موطنه وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ اي اعلموا ان هذا الامهال ليس لعجز ولكن لمصلحة ليتوب من تاب وفي ذلك
ضرب من التهديد كانه قيل افعلوا في هذه المدة كلما امكنكم من اعداد الآلات والادوات
فانكم لا تفوتون الله ولا تغتروا بعقد الامان لكم وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ اي وهو
مخزيكم ومذلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والاسر وفي الآخرة بالعذاب والنار وفي وضع
الظاهر موضع المضمر اشارة الى ان سبب هذا الاخزاء هو الكفر ويجوز ان يكون للجنس
الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا اوليا واخرج الترمذي وحسنه وابن ابي حاتم و
الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعث ابا بكر وامره ان ينادي بهؤلاء الكلمات ثم اتبعه عليا وامره ان ينادي بهؤلاء الكلمات
فانطلقا وحجا فقام علي في ايام التشريق فنادى ان الله بريء من المشركين ورسوله
فسيحوا في الارض اربعة اشهر ولا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل
الجنة الا مؤمن فكان علي ينادي فاذا عيي قام ابو بكر ينادي بها وفي الباب احاديث
في الصحيحين وغيرهما بالفاظ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام
كما ان الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء ومعنى إِلَى النَّاسِ التعميم في هذا اي انه
ايذان من الله الى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم فهذه الجملة متضمنة للاخبار
بوجوب الاعلام لجميع الناس والجملة الاولى متضمنة للاخبار بالبراءة الى المعاهدين خاصة
يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ظرف لقوله واذان ووصفه بالاكبر لانه يجتمع فيه الناس ولكون معظم
افعال الحج فيه او احترازا عن العمرة فهي الحج الاصغر لان اعمالها اقل من اعمال الحج اذ يزيد
عليها بامور كالرمي والمبيت فكان اكبر بهذا الاعتبار وسمي يوم الحج لان اعمال الحج يتوفيه
معظمها وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية فذهب جمع منهم علي
بن ابي طالب وابن مسعود وابن ابي اوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد الى انه يوم النحر ورجحه
ابن جرير وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاؤس الى انه يوم عرفة والاول اصح لان النبي

صلى الله عليه وسلم امر من بعثه لابلاغ هذا الى المشركين ان يبلغهم يوم النحر واخرج الترمذي وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه عن علي قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر واخرج ابوداود والنسائي والحاكم وصححه عن عبد الله بن قرط قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظم الايام عند الله يوم النحر ثم يوم القر وعن ابي اوفى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوم الاضحى هذا يوم الحج الاكبر اخرجه ابن مردويه وعن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال اي يوم هذا قالوا يوم النحر قال هذا يوم الحج الاكبر اخرجه البخاري وابوداود وابن ماجة وغيرهم ولا يخفاك ان الاحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الاكبر هي ثابتة في الصحيحين وغيرهما من طرق فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بانه يوم عرفة وقيل ايام منى كلها وبه قال مجاهد وسفيان الثوري وهو يوم النحر وقيل اليوم الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قال ابن سيرين والاول اولى وقيل القران قاله مجاهد أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ اي بان الله بريء ورسوله بريء منهم وقرئ ورسوله بالجر على ان الواو للقسم وهي ضعيفة جدا وقرئ شاذا ايضا بالنصب على انه مفعول معه قاله الزمخشري والرفع قراءة الجمهور باتفاق السبعة فَإِن تُبْتُمْ من الكفر وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب وقيل فائدة هذا الالتفات زيادة التهديد فَهُوَ اي المتاب والتوب والتوبة خَيْرٌ لَّكُمْ مما انتم فيه من الكفر الذي هو اخير في زعمكم واحسن او التفضيل ليس على بابه والمعنى هو خير لا شر وفيه ترغيب في التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار وَإِن تَوَلَّيْتُمْ اي اعرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ اي غير فائتين عليه بل هو مدرككم فمجازيكم باعمالكم وفيه وعيد عظيم وتهديد شديد وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ عبر عن الاخبار بالبشارة تهكما بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم مشركوا قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية وقيل هم بنو ضمرة حي من كنانة وعن محمد بن عبادة هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر بن كنانة قال الزمخشري هذا الاستثناء من قوله فسيحوا في الارض اي فقولوا لهم فسيحوا الا الذين

وقيل مستثنى من المشركين في قوله الذين عاهدتم من المشركين ويجوز كونه منقطعاً والتقدير لكن الذين عاهدتم فأتموا اليهم عهدهم وهذا أولى لما يرد على الاول من الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بجمل كثيرة ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة اشهر وكان السبب فيه انه لم يقع منهم نقض وان كان يسيرا وفيه دليل على انه كان من اهل العهد من خاس بعهده ومنهم من ثبت عليه فأن الله سبحانه امر لنبيه صلى الله عليه وسلم بنقض عهد من نقض وبالوفاء لمن لم ينقض الى مدته قرأ الجمهور بالصاد المهملة وقرئ بالمعجمة قال الكرماني وهي مناسبة لذكر العهد فان من نقض العهد فقد نقص من المدة الا ان قراءة العامة اوقع لمقابلتها التمام وَلَمْ يُظَاهِرُوا المظاهرة المعاونة اي لم يعاونوا عليكم أحداً من اعدائكم فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ اي ادوا اليهم عهدهم تاما غير ناقص إِلَى مُدَّتِهِمْ التي عاهدتموهم اليها وان كانت اكثر من اربعة اشهر ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقا وهي اربعة اشهر او خمسون يوما على الخلاف السابق إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ الذين يتقون الله فيما حرم عليهم فيوفون بالعهد قال السدي فلم يعاهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الآيات احدا فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ انسلاخ الشئ تكامله جزء فجزء الى ان ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه واصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فاستعير لانقضاء الاشهر يقال سلخت المرأة درعها نزعته وفي التنزيل وآية لهم الليل نسلخ منه النهار واختلف العلماء في تعيين الاشهر الحرم المذكورة ههنا فقيل هي الاشهر الحرم المعروفة التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد ومعنى الآية على هذا وجوب الامساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الاشهر الحرم وقال السدي هي الاربعة عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من ربيع الآخر قلت مراد السدي ان هذه الاشهر تسمى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال لا انها الاشهر الحرم المعروفة وقد وقع النداء والنبذ الى المشركين بعهدهم

يوم النحر فكان الباقي من الاشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضي بانقضاء
شهر المحرم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون وبه قال جماعة من اهل العلم منهم
الضحاك والباقر وروي عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقيل المراد بها شهور العهد
المشار اليها بقوله فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وسميت حرما لان الله سبحانه حرم على
المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم والى هذا ذهب جماعة من اهل العلم منهم
مجاهد وابن اسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب وقيل هي الاشهر المذكورة في قوله سبحانه
في الارض اربعة اشهر وهي شوال والثلثة بعده وفي قوله الحرم تغليب وفيه آخر مدة
التأجيل لكن هذا عند قوتنا اما عند ضعفنا فتجوز الزيادة الى عشر سنين بحسب الحاجة
فالجملة حالية او مستأنفة وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة ورجحه ابن كثير
وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن اسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن
بن زيد بن اسلم وسيأتي بيان حكم القتال في الاشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه
السورة ان شاء الله تعالى فاقتلوا المشركين حيث اي في اي مكان واي وقت وجدتموهم
من حل وحرم وخذوهم اي اسروهم فان الاخيذ هو الاسير واحصروهم اي احبسوهم
في القلاع والحصون حتى يضطروا ويلجأوا الى القتل او الاسلام ومعنى الحصر منعهم من التصرف
في بلاد المسلمين الا باذن منهم وقيل امنعوهم من دخول مكة خاصة والاول اولى
واقعدوا لهم كل مرصد اي طريق يسلكونه ونصب كل على نزع الخافض اي على كل
طريق والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو ويقعد ويقال رصدت فلانا ارصده
اي رقبته اي اقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها لئلا ينتشروا في البلاد والمعنى
كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من اي وجه توجهوا وقيل بكل طريق مكة حتى لا يدخلوها
وهذه الآية المتضمنة للامر بقتل المشركين عند انسلاخ الاشهر الحرم عامة لكل مشرك
لا يخرج عنها الا من خصته السنة وهو المرأة والصبي والعاجز الذي لا يقاتل وكذلك يخصص
منها اهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم وهذه الآية
نسخت كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على اذاهم وقال الضحاك وعطاء

والسدي هي منسوخة بقوله فاما منا بعد واما فداء وان الاسير لا يقتل صبرا بل يمن عليه او يفادى وقال مجاهد وقتادة بل هي ناسخة لقوله فاما منا بعد واما فداء وانه لا يجوز في الاسارى من المشركين الا القتل وقال ابن زيد الآيتان محكمتان قال القرطبي وهو الصحيح لان المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من اول حرب حاربهم وهو يوم بدر قال الرازي كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده اخذ الفداء انتهى فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ اي تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من اعظم اركان الاسلام وهو اقامة الصلوة وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالابدان من العبادات لكونه راسها واكتفى بالركن الآخر المالي وهو ايتاء الزكوة عن كل ما يتعلق بالاموال من العبادات لانه اعظمها فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ اي اتركوهم وشانهم فلا تاسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ولا تمنعوهم من الدخول الى مكة والتصرف في بلادهم ولا تتعرضوا لهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لهم رَحِيمٌ بهم وَإِنْ أَحَدٌ مرفوع بفعل مفسره مِنَ الْمُشْرِكِينَ الناقضين للعهد الذين امرت بالتعرض لهم في قوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين اسْتَجَارَكَ استامنك من القتل فَأَجِرْهُ يقال استجرت فلانا اي طلبت ان يكون جارا اي محاميا ومحافظا من ان يظلمني ظالم او يتعرض لي متعرض وفي القاموس استجاره طلب ان يجار واجاره انقذه واعاذه وفي المصباح استجاره طلب منه ان يحفظه فاجاره والمعنى امنه حَتَّى يصح ان تكون للغاية وللتعليل يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ منك ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو اليه ويتحقق انه ليس من كلام الخلق والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شيء آخر في الفهم لكونهم من اهل الفصاحة ثُمَّ ان اراد الانصراف ولم يسلم أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ اي الى الدار التي يأمن فيها وهو دار قومه لينظر في امره ويعرف ما له من الثواب ان آمن وما عليه من العقاب ان اصر على الشرك ثم بعد ان تبلغه مأمنه قاتله من غير غدر ولا خيانة فقد خرج من جوارك ورجع الى ما كان عليه من اباحة دمه ووجوب قتله حيث يوجد عن سعيد بن ابي عروبة قال كان الرجل يجيء اذا سمع كتاب الله واقر به واسلم فذاك الذي دعي اليه وان انكر ولم يقر به رد الى مأمنه ثم

نسخ ذلك فقال وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة وعن ابن زيد قال ان لم توافقه
ما يقص عليه ويخبر به فابلغه مأمنه وهذا ليس بمنسوخ قال الحسن هذه الاية محكمة
الى يوم القيامة ذلك اي الامر بالاجارة وابلاغ المأمن بانهم قوم لا يعلمون ما الايمان وما
حقيقة ما تدعوهم اليه بسبب فقدانهم العلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال و
المآل فلا بد لهم من امان بقدر زمان يسمعون فيه القران ويتدبرون كيف يكون للمشركين
الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للانكار ولهذا احسن بعده الا والمراد بالمشركين الناكثون لان البراءة
هي في شأنهم عهد عند الله يامنون به من عذابه وعند رسوله وقيل معنى الاية محال
ان يثبت لهؤلاء عهد وهم اضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا في ذلك ولا يحدثوا به
انفسهم والمعنى ليس من لم يف بعهده ان يفي الله ورسوله له بالعهد ثم استدرك فقال الا
الذين عاهدتم اي لكن الذين عاهدتم ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم وقيل الاستثناء
متصل وفيه احتمالان احدهما انه منصوب على اصل الاستثناء من المشركين والثاني انه
مجرور على البدل منهم عند المسجد الحرام اي عند قربه يوم الحديبية والمراد به جميع الحرم
كما هي عادته في القران الا ما استثنى فما استقاموا لكم اي فما داموا مستقيمين لكم على
العهد الذي بينكم وبينهم ولم ينقضوه وفي ما وجهان احدهما انها مصدرية زمانية
والثاني انها شرطية فاستقيموا لهم على الوفاء به قيل هم بنو بكر وقيل بنو كنانة
وبنو ضمرة وقال ابن عباس هم قريش وعن ابن زيد نحوه وقال السدي هم بنو جزيمة
وقال قتادة هو يوم الحديبية وقال مجاهد هم اهل العهد من خزاعة ان الله يحب
المتقين اشارة الى ان الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من اعمال المتقين فيكون تعليلا
للامر بالاستقامة وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوا باعانة بني بكر على خزاعة
كيف يكون لهم عهد وهو زيادة ترقي في استبعاد بقاء عهد لهم ولهذا اعاد الاستفهام
التعجبي للتاكيد والتقرير والحال انهم ان يظهروا عليكم بالغلبة لكم ويظفروا بكم
لا يرقبوا اي لا يراعوا ولا يحفظوا ولا ينتظروا فيكم الا ولا ذمة قال في الصحاح الال العهد
والقرابة قال الزجاج الال عندي على ما يوجبه اللغة يدور على معنى الحدة ومنه الالة

للحرب ومنه اذن مؤللة اي محددة وقال الفراء المراد به القرابة وقيل ان الال الجوار وهو رفع الصوت عند التحالف وذلك انهم كانوا اذا تحالفوا جاروا بذلك جوارا ويجمع الال في القلة على آلٍ وفي الكثرة على إلالٍ كقدح وقداح والال بالفتح قيل شدة القنوط قال الهروي في الحديث عجب ربكم من الكم وقنوطكم وفي القاموس الال بالكسر العهد والحلف وموضع والجوار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى وكل اسم آخره ال او ايل فمضاف الى الله تعالى والوحي والامان والجزع عند المصيبة ومنه ما روي عجب ربكم من ألّكم فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح اكثر انتهى وقال ابن زيد والسدي وابو عبيدة الال العهد وقيل الذمة والنديم وقال الازهري هو اسم الله بالعبرانية واصله من الأليل وهو البريق يقال أل لونه يؤل الاً اي صفى ولمع والذمة العهد وجمعها ذمم فمن فسر الال بالعهد كان التكرير للتاكيد مع اختلاف اللفظين وقيل الذمة الضمان يقال هو في ذمتي اي في ضماني وبه سمي اهل الذمة لدخولهم في ضمان المسلمين ويقال له ذمة وذمام ومذمة وهي الذم قاله ابن عرفة وقال الراغب الذمام ما يذم الرجل على اضاعته من عهد وكذلك الذمة والمذمة بالفتح والكسر وقيل لي مذمة فلا تهتكها وقال غيره سميت ذمة لان كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال له ذمة وقال ابو عبيدة والازهري الذمة الامان كما في قوله صلى الله عليه وسلم ويسعى بذمتهم ادناهم وروي عنه ايضا ان الذمة ما يتذمم به اي ما يجتنب فيه الذم وقال قتادة الال الحلف وقال ابو مجلز هو الله تعالى وعن مجاهد وعكرمة مثله وقال ابن عباس الال القرابة والذمة العهد ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ اي يقولون بالسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم وقلوبهم تابى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله اهل النفاق وذو الوجهين والكلام مستانف لبيان حالهم عند عدم الظفر فهو مقابل في المعنى لقوله وان يظهروا عليكم الخ يقال ابى يابى اي اشتد امتناعه فكل اباء امتناع من غير عكس ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع ومجيء المضارع منه على يفعل بفتح العين شاذ ومنه قلى يقلى في لغة قاله السمين

ثم حكم عليهم بالفسق فقال وَأَكْثَرُهُمْ فٰسِقُونَ وهو التمرد والتجري والخروج عن الحق لنقضهم العهود وعدم مراعاتهم لها ثم وصفهم بقوله اِشْتَرَوْا بِاٰيٰتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيْلًا اي استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الامر بالوفاء بالعهود ثمنا حقيرا وهو ما آثروه من حطام الدنيا اي تركوا اتباعها للشهوات والهوى وكانت شهوتهم اكلة اطعمها ابو سفيان حملتهم على نقض العهد فَصَدُّوْا عَنْ سَبِيْلِهٖ اي فعدلوا واعرضوا عن سبيل الحق او صرفوا غيرهم عنه وذلك ان اهل الطائف امدوهم بالاموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم اِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ من الشرك ونقضهم العهد و منعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام لَا يَرْقُبُوْنَ فِيْ مُؤْمِنٍ اِلًّا وَّلَا ذِمَّةً قال النحاس ليس هذا تكريرا ولكن الاول لجميع المشركين والثاني لليهود خاصة والدليل على هذا اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا يعني اليهود وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الاطلاق وفي الاول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة وقيل الاول وقع جوابا لقوله و ان يظهروا والثاني وقع خبرا عن تقبيح حالهم وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُوْنَ اي المجاوزون الحلال الى الحرام بنقض العهد والمبالغون في الشر والتمرد الى الغاية القصوى فَاِنْ تَابُوْا عن الشرك وعن نقض العهد الى الوفاء به قال قتادة يقول ان تركوا اللات والعزى و شهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وَاَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتَوُا الزَّكٰوةَ اي التزموا احكام الاسلام المفروضة فَاِخْوَانُكُمْ اي فهم اخوانكم فِي الدِّيْنِ اي في دين الاسلام لهم ما لكم وعليهم ما عليكم وكرره لاختلاف جزاء الشرط اذ جزاء الشرط في الاول تخلية سبيلهم في الدنيا وفي الثاني اخوتهم لنا في الدين وهي ليست عين تخليتهم بل سببها وَنُفَصِّلُ الْاٰيٰتِ اي نبينها ونوضحها لِقَوْمٍ يَّعْلَمُوْنَ بما فيها من الاحكام ويفهمونه وخص اهل العلم لانهم المنتفعون بها والمراد بالآيات ما مر من الآيات المتعلقة باحوال المشركين على اختلاف انواعهم وعن ابن عباس قال حرمت هذه الآية قتال او دماء اهل الصلوة وقال ابن مسعود امرتم بالصلوة والزكوة فمن لم يزك فلا صلوة له وقال ابن زيد افترضت الصلوة والزكوة جميعا لم يفرق بينهما وابى ان يقبل الصلوة

الا بالزكوة وقال يرحم الله ابا بكر ما كان افقهه يريد ما قاله في حق من منع الزكوة والله لا
افرق بين شيئين جمع الله بينهما يعني الصلوة والزكوة وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مقابل قوله
فان تابوا والنكث النقض واصله نقض الخيط بعد ابرامه ثم استعمل في كل نقض ومنه
نقض الايمان والعهود على طريق الاستعارة مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ اي من بعد ان
عاهدوكم والمعنى ان الكفار ان نكثوا العهود التي عاهدوا بها المسلمين ونقضوها و
طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ اي وضموا الى ذلك الطعن في دين الاسلام والقدح فيه واظهروا ما
في ضمائرهم من الشر واخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وان
يظهروا عليكم لا يرقبوا الاية وثبتوا على ما هم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد
الايمان كما قيل وعطف طعنوا على ما قبله مع ان نقض العهد كاف في اباحة القتل
لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم وقيل عطف تفسير فَقَاتِلُوا اي فقد وجب على
المسلمين قتال أَئِمَّةَ الْكُفْرِ بهمزتين وبابدال الثانية ياء صريحة وفيه وضع الظاهر
موضع المضمر وهي جمع امام والمراد صناديد المشركين واهل الرياسة فيهم على العموم
وعن قتادة قال هم ابو سفيان بن حرب وامية بن خلف وعتبة بن ربيعة وابو جهل
بن هشام وسهيل بن عمرو وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا باخراج الرسول من مكة
وعن مالك بن انس مثله وقال ابن عباس رؤس قريش وعن الحسن انهم الديلم
وعن حذيفة قال ما قاتلوا اهل هذه الاية ولم يأت اهلها وعن علي نحوه وقال
مجاهد هم فارس والروم والاولى ان الاية عامة في كل رؤساء الكفر من غير تقييد
بزمن معين او بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومما يفيد
ذلك ما اخرجه ابن ابي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير انه كان في عهد ابي بكر
الصديق الى الناس حين وجههم الى الشام انه قال انكم ستجدون قوما محوقة رؤسهم
فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لان اقتل رجلا منهم احب الي من ان
اقتل سبعين من غيرهم وذلك بان الله يقول فقاتلوا ائمة الكفر إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
قال الزمخشري بهذه الجملة تعليل لما قبلها والايمان جمع يمين اي لا عهود لهم وسمي العهد

يمينا لاشتماله عليه ذلك او المعنى لا ايمان بارّ لهم وان وجدت صورة وجعل اليمين الكافر غير
حسن بنا والاستدلال به على ان يمين الكافر ليست يمينا ضعفه ظاهر لان المراد نفي الوثوق
بقرينة وان نكثوا ايمانهم لا يقال الكلام باعتبار اعتقادهم لان المخاطب هم المؤمنون قال
حذيفة لا عهود لهم وعن عمار مثله وقرئ بكسر الهمزة والمعنى ان هؤلاء الناكثين للايمان
الطاعنين في الدين ليسوا من اهل الايمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم واموالهم فقتلهم
واجب على المسلمين وقيل لا وفاء لهم بالعهود وقيل هو من الامان اي لا يعطون امانا بعد
نكثهم وطعنهم يعني لا تؤمنوهم بل اقتلوهم حيث وجدتموهم لعلهم ينتهون عن كفرهم
ونكثهم وطعنهم في دين الاسلام والمعنى ان قتالهم يكون الى غاية هي الانتهاء عن ذلك
وقد استدل بهذه الآية على ان الذمي اذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال
ابو حنيفة لان الله انما امر بقتلهم بشرطين احدهما نقض العهد والثاني الطعن في الدين
وذهب مالك والشافعي وغيرهما الى انه اذا طعن في الدين قتل لانه ينتقض عهده
بذلك قالوا وكذلك اذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فانه
يقتل الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي
مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحققه والمعنى ان من كان حاله
كحال هؤلاء من نقض العهد فهو حقيق بان لا يترك قتاله وان يوبخ من فرط في ذلك
وهموا باخراج الرسول من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة لكن لم يخرجوه بل خرج باختياره
باذن الله له في الهجرة وتقدم انهم هموا بأحد امور ثلاثة قتله وحبسه واخراجه وانما اقتصر
هنا على الهم بالاخراج لانه هو الذي وقع اثره في الخارج بحسب الظاهر وكانت دار الندوة
مكانا اجتماع القوم للتحدث وكان قد بناها قصي وقد دخلت الان في المسجد في مقام
الحنفي الان وهم بدءوكم بالقتال اول مرة اي يوم بدر قال مجاهد قتال قريش حلفاء
النبي صلى الله عليه وسلم وهمهم باخراج الرسول زعموا ان ذلك عام عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في العام السابع
الحديبية نكثت قريش العهد عهد الحديبية وجعلوا في انفسهم اذا دخلوا مكة ان يخرجوه
منها فذلك همهم باخراجه فلم تتابعهم خزاعة على ذلك فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة

قالت قريش لخزاعة عميتمونا عن اعراجه فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا اتخشونهم الاستفهام للتوبيخ والتقريع اي اتخشون ان ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية ثم بين ما يجب ان يكون الامر عليه فقال فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين اي هو احق بالخشية منكم فانه هو الضار النافع في الحقيقة ومن خشيته ان تقاتلوا من امركم بقتاله فان قضية الايمان توجب ذلك عليكم ثم زاد في تاكيد الامر بالقتال فقال

قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ورتب على هذا الامر فوائد الاولى تعذيب الله للكفار بايدي المؤمنين بالقتل والاسر والثانية اخزاؤهم قيل بالاسر وقيل بما نزل بهم من الذل والهوان والثالثة نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم والرابعة ان الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره والخامسة انه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الامور الجالبة للغيظ وحرج الصدر فان قيل شفاء الصدور واذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكرارا قيل في الجواب ان القلب اخص من الصدر وقيل ان شفاء الصدور اشارة الى الوعد بالفتح ولا ريب ان الانتظار لانجاز الوعد مع الثقة به فيه شفاء للصدور وان اذهاب غيظ القلوب اشارة الى وقوع الفتح وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الامور كلها عن عكرمة قال نزلت هذه الاية في خزاعة وعن مجاهد والسدي وقتادة نحوه وقد ساق القصة ابن اسحاق في سيرته واورد فيها النظم الذي ارسلته خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم واوله ٭ يا رب اني ناشد محمدا حلف ابينا وابيه الاتلدا ٭ واخرج القصة البيهقي في الدلائل ثم قال ويتوب الله على من يشاء وهو ابتداء كلام مستانف يتضمن الاخبار بما سيكون وهو ان بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض اهل مكة يوم الفتح فانهم اسلموا وحسن اسلامهم كابي سفيان وعكرمة وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا ائمة الكفر ثم من الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فان قيل كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة اجيب بان القتال قد يكون سببا لها اذا كانت من جهة الكفار واما

اذا كانت من جهة المسلمين توجيه ان النصر والظفر من جهة الله يكون بسبب خلوص النية والتوبة عن الذنوب وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تُتْرَكُوْا ام هٰهنا هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة والاستفهام للتوبيخ وحرف الاضراب الدلالة على الانتقال من كلام الى آخر والمعنى كيف يقع الحسبان منكم بان تتركوا على ما انتم عليه والتقدير ام حسبتم ان تتركوا من غير ان تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب يعني بدون تكليفكم بالقتال الذي تتم وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جَاهَدُوْا مِنْكُمْ المراد من نفي العلم نفي المعلوم والمعنى كيف تحسبون انكم تتركون ولما تبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص قال الرازي ونقل الواحدي عن الزجاج يعني العلم الذي يجازى عليه لانه انما يجازى على ما عملوا وَلَمْ يَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلَا رَسُوْلِهٖ وَلَا الْمُؤْمِنِيْنَ وَلِيْجَةً داخلة في حكم النفي والوليجة من الولوج وهو الدخول ولج يلج ولوجا اذا دخل فالوليجة الدخيلة قال ابو عبيدة كل شئ ادخلته في شئ ليس منه فهو وليجة ويكون للمفرد وغيره بلفظ واحد وقد يجمع على ولائج وولج كصحائف وصحف قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين وقيل وليجة الرجل من يداخله في باطن اموره والمعنى واحد اي كيف تتخذون دخيلة او بطانة من المشركين تفشون اليهم باسراركم وتعلمونهم اموركم من دون الله وقال قتادة وليجة يعني خيانة وقال الضحاك خديعة وقال الراغب الوليجة كلما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم وَاللّٰهُ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ اي بجميع اعمالكم مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِيْنَ اي ما ينبغي ولا يصح لهم اَنْ يَّعْمُرُوْا وقرئ من اعمر يعمر اي يجعلون لها من يعمرها وقرئ من عمر يعمر مَسٰجِدَ اللّٰهِ قرئ بالجمع والافراد واختار الجمع ابو عبيدة قال النحاس لانها اعم والخاص يدخل تحت العام وقد يحتمل ان يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة لقوله وعمارة المسجد الحرام وهذا جائز فيما كان من اسماء الاجناس كما يقال فلان يركب الخيل وان لم يركبه الا فرسا وعلى هذا يندرج فيه سائر المساجد ويدخل المسجد الحرام دخولا اوليا قال وقد اجمعوا على الجمع في قوله مساجد الله قلت وهي ايضا محتملة للامرين وعن الحسن البصري انما قال تعالى مساجد والمراد المسجد الحرام لانه قبلة للمساجد كلها واما انما معامرة

جميع المساجد اولان كل بقعة من المسجد الحرام يقال لها مسجد قال الفراء العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا ملكا واحدا والمراد بالعمارة اما المعنى الحقيقي او المعنى المجازي وهو ملازمته ودخوله والتعبد والقعود فيه وكلاهما ليس للمشركين اما الاول فلانه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم واما الثاني فلكون الكفار لاعبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام قيل لو اوصى كافر ببناء المسجد لم تقبل وصيته وكذا يمنع من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل عزر وان دخل باذن لم يعزر ولكن لا بد من حاجة فيشترط للجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها شٰهِدِيْنَ باظهار ما هو كفر من نصب الاوثان والعبادة لها وجعلها الهة فان هذا شهادة منهم عَلٰٓى اَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ وان ابوا ذلك بالسنتهم فكيف يجمعون بين امرين متنافيين عمارة المساجد التي هي من شان المؤمنين والشهادة على انفسهم بالكفر التي ليست من شان من يتقرب الى الله بعمارة مساجده وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم لبيك لا شريك لك الا شريك هولك تملكه وما ملك مع قولهم نحن نعبد اللات والعزى وقيل ان اليهودي يقول هو يهودي والنصراني يقول هو نصراني والصابي يقول هو صابي والمشرك يقول هو مشرك وقال ابن عباس شهادتهم سجودهم للاصنام وقال الحسن كلامهم بالكفر وقيل شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من انفسهم وما ابعده عن المقام اُولٰٓئِكَ حَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ التي يفتخرون بها ويظنون انها من اعمال الخير مثل العمارة والحجابة والسقاية وفك العاني لانها مع الكفر لا تاثير لها اي بطلت ولم يبق لها اثر وَفِي النَّارِ هُمْ خٰلِدُوْنَ في هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تاكيد لمضمونها ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال اِنَّمَا يَعْمُرُ مَسٰجِدَ اللّٰهِ الظاهر ان الجمع هنا حقيقة لان المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد اقطار الارض والتعمير يعم البناء والتزيين بالفرش والسراج والعبادة وترك حديث الدنيا يقال عمرت الدار عمرا من باب قتل بنيتها والاسم العمارة بالكسر وعمرت الخراب

عمرا من باب كتب فهو عامر اي معمور وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة ومن جوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ اي فعل ما هو من لوازم الايمان من اقامة الصلوة وايتاء الزكوة وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اقام الصلوة واتى الزكوة فقد امن برسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان قال الله تعالى انما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر اخرجه احمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن المنذر والبيهقي وعبد بن حميد وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان او كبيرا بنى الله له بيتا في الجنة اخرجه الترمذي وعن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة وقد وردت احاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد اليها للطاعات وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فيه حسم لاطماع الكفار في الانتفاع باعمالهم فان الموصوفين بتلك الصفات الاربع اذا كان اهتداؤهم مرجوا فقط فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات وقيل عسى من الله واجبة وقال ابن عباس كل عسى في القران فهي واجبة كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا وهي الشفاعة وقيل هي بمعنى خليق اي فخليق ان يكونوا من المهتدين وقيل ان الرجاء راجع الى العباد قال ابن عباس يقول من وحد الله وامن بما انزل الله واقام الصلوات الخمس ولم يعبد الا الله فهو من المهتدين فمن كان جامعا بين هذه الاوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان خاليا منها او من بعضها واقتصر على ذكر الصلوة والزكوة والخشية تنبيها بما هو اعظم امور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده لان كل ذلك من لوازم الايمان والاستفهام في قوله أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ للانكار وهو استيناف خوطب به المشركون التفاتا عن الغيبة في قوله ما كان للمشركين ان يعمروا والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية

قال في المجمل السقاية هي المحل الذي يتخذ فيه الشراب في الموسم كان يشتري الزبيب فينبذ في ماء زمزم ويسقى للناس وكان يليها العباس جاهلية واسلاما واقرها النبي صلى الله عليه وسلم له فهي لآل العباس ابدا فلا يجوز لاحد نزعها منهم ما بقي منهم احد قاله المناوي في شرح الجامع الصغير والظاهر ان هذا المعنى لا يظهر هنا بل المراد بها المصدر اي سقاء الحجاج واعطاء الماء لهم وقيل في الكلام حذف والتقدير اجعلتم اصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد او اياهما وقرئ سقاة الحاج وعمرة المسجد جمع ساق وعامر وعلى هذا لا يحتاج الى تقدير محذوف كمن اي كايمان او كعمل من امن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله حتى يتفق الموضوع والمحمول لا يستوون عند الله المعنى ان الله انكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الاعمال التي صورتها صورة الخير وان لم ينتفعوا بها وبين ايمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونها على عمل المسلمين فانكر الله عليهم ذلك فصرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم اي لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله ولم سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون اذا لم تبلغ اعمال الكفار الى ان تكون متساوية لاعمال المسلمين فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون وهذا الكلام استيناف مؤكد لما علم من ابطال المساواة بالتوبيخ المستفاد من الاستفهام اي لا يستوي الفريقان ثم حكم عليهم بالظلم فقال والله لا يهدي القوم الظالمين اي انهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه وهو تعليل في المعنى لنفي المساواة وفي هذا اشارة الى الفريق المفضول ثم صرح بالفريق الفاضل فقال الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة اي الجامعون بين الايمان والهجرة والجهاد بالاموال والانفس احق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة باعمالها المحبطة الباطلة وفي قوله عند الله تشريف عظيم للمؤمنين واولئك اي المتصفون بالصفات الثلاثة المذكورة هم الفائزون بسعادة الدارين

المختصون بالفوز المحصلون لاصله بالنسبة لكون الغير اهل السقاية والعمارة والمحصلون لاكمله بالنسبة لكون الغير من لم يجمع الاوصاف المذكورة ثم فسر الفوز بقوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات التنكير في الثلاثة للتعظيم والمعنى انها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين قال ابو حيان لما وصف الله المؤمنين بثلاث صفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث وبدأ بالرحمة في مقابلة الايمان لتوقفها عليه وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الاحسان في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الانفس والاموال ثم ثلث بالجنات في مقابلة الهجرة وترك الاوطان اشارة الى انهم لما اثروا تركها بدلهم دارا عظيمة دائمة وهي الجنات انتهى لهم فيها نعيم مقيم الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه خالدين فيها ابدا ذكر الابد بعد الخلود تاكيدا له ان الله عنده اجر عظيم مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل اي اعطاهم سبحانه هذه الاجور العظيمة لكون الاجر الذي عنده عظيما يهب منه ما يشاء لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم وهذه اعظم البشارات ونهاية المقصودات يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اباءكم واخوانكم اولياء يعني بطانة واصدقاء تفشون اليهم اسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة الخطاب للمؤمنين كافة وهو حكم باق الى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين والمراد النهي لكل فرد من افراد المخاطبين عن موالاة فرد من افراد المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجب لانقسام الاحاد الى الاحاد كما في قوله وما للظالمين من انصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من اللفظ دلالة لا عبارة وقالت طائفة من اهل العلم انها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب خوطبوا ان لا يوالوا الاباء والاخوة فيكونون لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر وقال بعضهم حمل هذه الاية على الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي اخر القران نزولا والاقرب ان يقال ان الله تعالى لما امر بالتبري عن المشركين قالوا كيف يمكن ان يقاطع الرجل اباه واخاه وابنه فذكر الله تعالى ان مقاطعة الرجل اهله واقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي

الكافر وان كان اباه او اخاه او ابنه وقال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في
قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما امر النبي صلى الله عليه وسلم
الناس بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به اهله واولاده يقولون ننشدك بالله ان لا
تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت
في التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وانزل
هذه الآية والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ اي احبوا كما يقال
استجاب بمعنى اجاب وهو في الاصل طلب المحبة اي ان اختاروا الكفر واقاموا عليه عَلَى
الْإِيمَانِ وتركوه وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة ثم حكم على من يتولى من يختار
الكفر على الايمان من الآباء والاخوان بالظلم فقال وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فيه مراعاة لفظ من
فَأُولَئِكَ فيه مراعاة معناها هُمُ الظَّالِمُونَ فدل ذلك على ان تولي من كان كذلك
واختيار المقام معه على الهجرة والجهاد من اعظم الذنوب واشدها ثم امر الله رسوله
صلى الله عليه وسلم قائلا له قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ العشيرة الجماعة المجتمعة التي ترجع الى نسب عقد واحد
او وُدّ كعقد العشرة وعشيرة الرجل اهله وقرابته الادنون وهم الذين يعاشرونه
ويتكثر بهم سواء بلغوا العشرة ام فوقها وهي اسم جمع وقرأ السلمي وابو رجاء عشيراتكم بالجمع
ووجهه ان لكل من المخاطبين عشيرة فحسن الجمع قال الاخفش لا تكاد العرب تجمع عشيرة
على عشيرات وانما يجمعونها على عشائر وهذه القراءة حجة عليه وقرأ الحسن عشائركم
والباقون عشيرتكم والاقتراف الاكتساب واصله اقتطاع الشيء من مكانه وهذا التركيب يدور
على الدنو والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه والتجارة الامتعة التي
يشترونها ليربحوا فيها والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الاوطان
ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك انه قال ان المراد بالتجارة في هذه الآية البنات
والاخوات اذا كسدن في البيت لا يجدون لهن خاطبا واستشهد لذلك بقول الشاعر

كسدن من الفقر في قومهن + وقد زادهن مقامي كسادا ، وهذا البيت في اكثار
فبه اطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهن فليس فيه جواز اطلاق اسم التجارة
عليهن والمراد بالمساكن المنازل التي تعجبهم وتميل اليها انفسهم ويرون الاقامة اليها
احب اليهم من المهاجرة الى الله ورسوله ومن الجهاد في سبيله فقعد والاجل ما ذكر
من الامور الثمانية او الاجل حبها فتربصوا اي فانتظروا حتى يأتي الله بامره فيكم وما
تقتضيه مشيته من عقوبتكم وقيل المراد بامر الله سبحانه القتال وقيل فتح مكة وفيه
بُعد فقد روي ان هذه السورة نزلت بعد الفتح وقيل هو عقوبة عاجلة او اجلة
وفي هذا وعيد شديد وتهديد لهم ويؤكده ابهام الامر وعدم التصريح به لتذهب
انفسهم كل مذهب وتتردد بين انواع العقوبات وانما كان تهديدا لكونهم اثروا
لذات الدنيا على الأخرة وهذا قل من يتخلص منه وهذه الاية تدل على انه اذا وقع التعارض
بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين مهمات الدنيا وجب ترجيح الدين على الدنيا
ليبقى الدين سليما والله لا يهدي القوم الفاسقين اي الخارجين عن طاعته النافرين
عن امتثال اوامره ونواهيه لقد نصركم الله في مواطن كثيرة تذكير للمؤمنين
بنعمة عليهم والمواطن جمع موطن وفي المصباح الوطن مكان الانسان ومقره والجمع اوطان
مثل سبب واسباب والموطن مثل الوطن والجمع مواطن كمسجد ومساجد والموطن ايضا
المشهد من مشاهد الحرب والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر وقريظة و
النضير وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن ارقم
تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه
وبعوثه سبعون وقيل ثمانون ونصركم ايضا يوم حنين هو واد بين مكة والطائف
بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلا كما في الخازن وانصرف على انه اسم مكان ومن العرب من
يمنعه على انه اسم للبقعة قال قتادة قاتل بها نبي الله صلى الله عليه وسلم هوازن وثقيف وعلى
هوازن مالك بن عوف وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو وذلك في شوال سنة ثمان عقيب
رمضان الذي وقع فيه الفتح والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير اذ اعجبتكم كثرتكم

وانما عجب من اعجب من المسلمين بكثرتهم لانهم كانوا اثنى عشر الفا وقيل اثني عشر الفا
وقيل ستة عشر الفا والكفار اربعة الاف قاله السيوطي والذي في شرح المواهب انهم
كانوا اكثر من عشرين الفا وقتل من المسلمين اربعة ومن المشركين اكثر من سبعين انتهى
وبالجملة قال بعضهم لن نغلب اليوم من قلة فوكلوا الى هذه الكلمة فلم تغن اي لم تدفع
الكثرة عنكم شيئا بل انهزمتم وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه طائفة يسيرة
منهم عمه العباس وكان اخذا بلجام البغلة وابو سفيان اخذ بركابه وهو ابن عمه اذ هو
ابن الحارث بن عبد المطلب وقد اسلم هو والعباس يوم الفتح ثم تراجع المسلمون فكان النصر
والظفر وفي سيرة الشامي ان الذين ثبتوا معه في حنين مائة ثلاثة وثلاثون من المهاجرين
وسبعة وستون من الانصار والاغناء اعطاء ما يدفع الحاجة اي لم يعطكم الكثرة شيئا
يدفع حاجتكم ولم تفدكم وضاقت عليكم الارض بما رحبت الرحب بضم الراء السعة
والرحب بفتحها المكان الواسع والباء بمعنى مع وما مصدرية والمعنى ان الارض مع كونها
واسعة الاطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل وقيل ان الباء بمعنى
على اي على رحبها ثم وليتم اي انهزمتم حال كونكم مدبرين اي مولين ادبارا ذكرها غاية لها
الى جهة عدوكم اخرج ابن المنذر عن الحسن قال لما اجتمع اهل مكة واهل المدينة قالوا الان
نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا وما اعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزموا
حتى ما يقوم احد منهم على احد حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي احياء العرب الي الي
فوالله ما يعرج عليه احد حتى اعري موضعه فالتفت الى الانصار وهم ناحية فناداهم يا
انصار الله وانصار رسوله الي عباد الله انا رسول الله فجثوا يبكون وقالوا يا رسول الله
ورب الكعبة اليك والله فنكسوا رؤسهم يبكون وقدموا اسيافهم يضربون بين يدي
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليهم وقيل ناداهم العباس باذنه وكان صيتا يسمع
صوته من نحو ثمانية اميال فقاتلوا ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والاحاديث بطولها
وتفاصيلها فلا نطول بذلك ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين اي انزل
ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعدما ان ولوا مدبرين

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر والمراد بالمؤمنين هم الذين لم ينهزموا وقيل الذين
انهزموا والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا وأنزل جنودا
لم تروها هم الملائكة واختلف في عددهم على أقوال قيل كانوا خمسة آلاف وقيل ثمانية
آلاف وقيل ستة عشر ألفا وقيل غير ذلك وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة واختلفوا
أيضا هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم
بدر وإنهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين وإدخال الرعب في قلوب
المشركين وإن كانوا لا يرونهم وقيل إن الكفار كانت تراهم عن جبير بن مطعم قال رأيت
قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم
فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي لم أشك أنها الملائكة ولم تكن إلا هزيمة
القوم وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود
قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين
رجلا من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر وهم
الذين أنزل عليهم السكينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء يمضي قدما فقال
ناولني كفا من تراب فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا وولى المشركون أدبارهم
وعذب الذين كفروا بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية وقال
السدي قتلهم بالسيف قيل أسر ستة آلاف من نسائهم وصبيانهم ولم تقع غنيمة أعظم
من غنيمتهم فقد كان فيها من الإبل اثنا عشر ألفا ومن الغنم ما لا يحصى عددا ومن الأسرى
ما سمعته وكان فيها غير ذلك وذلك التعذيب المفهوم من عذب جزاء الكافرين
سمي ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بد من عذاب الآخرة
مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيما له ثم يتوب الله من بعد ذلك التعذيب على
من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام والله غفور يغفر لمن أذنب فتاب رحيم بعباده
متفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس أي ذوو نجاسة
لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس والنجس مصدر لا يثنى ولا يجمع يقال رجل نجس وامرأة نجس

ورجلان نجس وامرأتان نجس ورجال نجس ونساء نجس ويقال نجِس ونجُس بكسر الجيم وضمها
ويقال نجْس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك قيل لا يستعمل الا اذا قيل معه
رجس وقيل ذلك اكثري لا كلي والمشركون مبتدأ وخبره المصدر وصفهم بذلك
حتى كأنهم عين النجاسة والقذر لخبث باطنهم مبالغة في وصفهم بها قال ابن عباس
اعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وقال قتادة ومعمر وغيرهما انهم وصفوا بذلك لانهم
لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات فهي ملابسة لهم وقيل اراد بالمشركين
عبدة الاصنام دون غيرهم من اصناف الكفار وقيل بل جميع اصنافهم من اليهود
والنصارى وغيرهم وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات كما ذهب اليه
بعض الظاهرية وروي عن الحسن البصري وهو محكي عن ابن عباس وقال الحسن بن صالح
من مس مشركا فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية وذهب الجمهور من السلف والخلف
ومنهم اهل المذاهب الاربعة الى ان الكافر ليس بنجس الذات لان الله سبحانه احل طعامهم
وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم فاكل في
آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وانزلهم في مسجده وهو الحق وعن جابر بن عبد الله في هذه
الآية قال الا ان يكون عبدا او احدا من اهل الذمة فلا يقربوا المسجد الحرام الفاء للتفريع
فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم وانما نهوا عن الاقتراب للمبالغة في المنع
من دخول الحرم ونهي المشركين ان يقربوا راجع الى نهي المسلمين عن تمكينهم من ذلك قاله
ابو السعود فهو من باب قولهم لا ارينك ههنا والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم روي ذلك
عن عطاء فيمنعون عنده من جميع الحرم ويؤيد هذا قوله تعالى سبحان الذي اسرى بعبده ليلا
من المسجد الحرام اذ اراد به الحرم لانه اسري رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت ام هانئ وذهب غيره
من اهل العلم الى ان المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم وقد اختلف
اهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد فذهب اهل المدينة الى منع
كل مشرك عن كل مسجد وقال الشافعي الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام
فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد قال ابن العربي وهذا جمود منه على الظاهر لان

قوله تعالى انما المشركون نجس تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلى الله عليه وسلم ثمامة بن اثال في مسجده وانزال وفد ثقيف فيه وروي عن ابي حنيفة مثل قول الشافعي وزاد انه يجوز دخول الذمي سائر المساجد من غير حاجة وقيده الشافعي بالحاجة وقال قتادة انه يجوز ذلك للذمي دون المشرك والحاصل ان بلاد الاسلام في حق الكفار ثلثة انواع احدها الحرم فلا يجوز لكافر ان يدخله بحال ذميا كان او مستأمنا لظاهر هذه الاية وبه قال الشافعي واحمد ومالك واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج اليه الامام او يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم والثاني الحجاز وحده ما بين يمامة واليمن ونجد والمدينة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي وقيل كلها حجازي وقال ابن الكلبي حد الحجاز ما بين جبل طي وطريق العراق قال حربي وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول ارض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها اكثر من مقام المسافر وهو ثلثة ايام لاحاديث صحيحة في هذا الباب منها ما روي عن عمر بن الخطاب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا ادع الا مسلما واجلاهم عمر في خلافته واجل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثة وجزيرة العرب من اقصى عدن الى ريف العراق في الطول واما في العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى اطراف الشام والثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر ان يقيم فيها بعهد او امان وذمة لكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم لحاجة بعد عامهم هذا فيه قولان احدهما انه سنة تسع وهي التي حج فيها ابو بكر على الموسم وهو عام نزول السورة الثاني انه سنة عشر قاله قتادة قال ابن العربي وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ وان من العجب ان يقال انه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الاذان ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه انتهى ويجاب عنه بان الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه فان الاشارة بقوله بعد عامهم هذا الى العام المذكور قبل اسم الاشارة وهو عام النداء وهكذا في المثال الذي ذكره المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب لا امر ظاهر لا يخفى ولعله اراد تفسير بعد المضاف الى عامهم ولا شك انه عام عشر

وأما تفسير العام المشار إليه بهذا فلا شك ولا ريب أنه عام تسع وعلى هذا يحمل قول قتادة وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا النهي في قوله بعد عامهم هذا قائلاً إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لا عن مطلق الدخول ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الأوقات الكائنة بعده وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ بالفتح الفقر يقال عال الرجل يعيل إذا افتقر وقرأ علقمة وغيره عائلة وهو مصدر كالقائلة والعافية والعاقبة وقيل معناه خصلة شاقة يقال عالني الأمر يعولني أي شق علي واشتد وحكى ابن جرير الطبري أنه يقال عال يعول إذا افتقر وعيلة الرجل من يعولهم وواحد العيال عيل كجيد والجمع عيائل كجيائد وأعال الرجل كثرت عياله فهو معيل والمرأة معيلة قال الأخفش أي صار ذا عيال وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات قذف في قلوبهم الشيطان الخوف من الفقر بانقطاع تجارتهم عنهم وقالوا من أين نعيش فوعدهم الله أن يغنيهم وقال ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال الضحاك ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله الآية وقال عكرمة أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به وقيل أغناهم بالفيء قال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها ﴿إِنْ شَاءَ﴾ فائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع وليعلموا أن الغنى الموعود به يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إعطائه ومنعه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف الآتية ولما فرغ من الكلام على مشركي العرب بقوله براءة من الله إلى هنا أخذ يتكلم على أهل الكتابين وهو نص في أن أهل الكتاب لا يؤمنون بالله تعالى فاليهود كفروا لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه بصفاته كما له

وفرقوا بين الايمان بالله ورسله وغلوا في عزير فقالوا هو ابن الله والنصارى كفروا لانهم غلوا
في مسيح فقالوا هو ثالث ثلاثة قال مجاهد نزلت هذه الآية حين امر النبي واصحابه بقتال
الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبي نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم
فكانت اول جزية اصابها اهل الاسلام واول ذل اصاب اهل الكتاب بايدي المسلمين ونص
الله تعالى في الآية بانهم لا يؤمنون باليوم الآخر فان قلت انهم قالوا لن تمسنا النار الا اياما
معدودة وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى واثبات الجنة والنار فرع اثبات
اليوم الآخر قلت لما كان اثباتهم اياه بغير صفاته ودعوى كاذبة بانهم اهل الجنة لا غيرهم
يعذبون اياما معينة كان اثباته بهذه الصفة نفيا له فانه ايمان باطل والا لامنوا بالنبي
صلى الله عليه وسلم وقيل انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجسام ويعتقدون ان اهل الجنة
لا ياكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان
زعم انه مؤمن ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ﴾ مما ثبت في كتبهم بان الله حرم الشحوم فاذابوها
وباعوها فاكلوا اثمانها وحرم عليهم اشياء كثيرة فاحلوها قال سعيد بن جبير في الآية
يعني الذين لا يصدقون بتوحيد الله وما حرم الله من الخمر والخنزير وقيل معناه لا يحرمون ما
حرم الله في القران ولا ما حرم رسوله صلى الله عليه وسلم في السنة والاول اولى قيل لا يعملون بما في
التوراة والانجيل بل حرفوهما واتوا باحكام من قبل انفسهم وقلدوا احبارهم ورهبانهم واتخذوهم
اربابا من دون الله ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ اي دين الاسلام الثابت الناسخ لسائر الاديان
وقيل دين اهل الحق وهم المسلمون وقيل دين الله والمعنى واحد وفيه ان دينهم بعد بعثته
صلى الله عليه وسلم قد صار دينا باطلا ثم انه تعالى لما وصفهم بهذه الصفات الاربع بينهم بقوله
﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فكلمة من بيانية كما في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وانما
ابهم اولا ثم بين ثانيا زيادة في تمكن العلم في قلب السامع فيعلم المامور به علمين علما اجماليا
ثم علما تفصيليا فيكون زيادة في تمكن الخبر عنده ولما في ذلك من تشويق النفس الى البيان
بعد الابهام فهذا بيان لاسم المبهم الموصول مع ما في حيزه وهم اليهود والنصارى اهل
التوراة والانجيل بالاتفاق ويدل له قوله تعالى قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة

والانجيل فاذا اتى لفظ اهل الكتاب فالمراد به الفريقان واذا قيل بنوا اسرائيل فالمراد بهم اليهود واذا قيل النصارى فهم الذين انزل اليهم الانجيل والمجوس ليسوا من اهل الكتاب لقوله صلى الله عليه وسلم سنوا بهم سنة اهل الكتاب اخرجه البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف ويدل له ايضا قوله تعالى ان يقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وهذا اصرح في انهم ليسوا منهم قال ابو الوفاء بن عقيل في الآية ان قوله قاتلوا امر بالعقوبة ثم قال لا يؤمنون بالله فبين الذنب الذي يوجب العقوبة ثم قال واليوم الآخر فاكد الذنب الذي في جانب الاعتقاد ثم قال ولا يحرمون وفيه زيادة للذنب في مخالفة الاعمال ثم قال ولا يدينون وفيه اشارة الى تاكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والانفة عن الاستسلام ثم قال من الذين اوتوا الكتاب تاكيد للحجة عليهم لانهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ثم قال حتى يعطوا الجزية فبين الغاية التي تمتد اليها العقوبة انتهى والجزية وزنها فعلة من جزى يجزي اذا كافى عما اسدى اليه وكانهم اعطوها جزاء عما منحوا من الامن وقيل سميت جزية لانها طائفة مما على اهل الذمة ان يجزوه اي يقضوه وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده وهو الخراج المضروب على رقابهم كل عام اذلالا وصغارا قال احمد بن تيمية رح والاول اصح وهذا يرجع الى انها عقوبة او اجرة فحتى غاية للقتال والمراد باعطائها التزامها بالعقد وان لم يجئ وقت دفعها عن يد في موضع النصب على الحال اي يعطوها اذلاء مقهورين عن يد متوالية غير ممتنعة هذا ان اريد به المعطي وان اريد به الآخذ فالمراد عن يد قاهرة مستولية وقيل معناه يعطونها بايديهم غير مستنيبين فيها احدا وقيل المعنى نقدا غير نسيئة وقيل عن انعام منكم عليهم لان اخذها منهم نوع من انواع الانعام عليهم قاله في الكشاف وقيل معناه مذمومين وفي زاده اليد قد تجعل كناية عن الانقياد يقال اعطى فلان بيده اذا اسلم وانقاد لان من ابى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد كانه قيل قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد دون ان يكرهوا عليه فاذا احتيج في اخذها منهم الى الاكراه لا يبقى عقد الذمة انتهى وقد ذهب جماعة من اهل العلم منهم الشافعي واحمد وابو حنيفة واصحابه والثوري والاوزاعي وابو ثور الى انها لا تقبل الجزية الا من اهل الكتاب وقال الاوزاعي ومالك ان الجزية

تؤخذ من جميع اجناس الكفرة كائنا من كان ويدخل في اهل الكتاب على القول الاول المجوس قال ابن المنذر لا اعلم خلافا في ان الجزية تؤخذ منهم قال علي بن ابي طالب انا اعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه الحديث ولكن ضعفه جماعة من الحفاظ كما قاله ابن القيم ويدل لما في البخاري ان عمر توقف في اخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذها من مجوس هجر وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف الانصاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ابا عبيدة بن الجراح الى البحرين ياتي بجزيتها وكان هو صلى الله عليه وسلم صالح اهل البحرين وامر عليهم العلاء بن الحضرمي وذكر ابو عبيدة في كتاب الاموال عن الزهري قال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من اهل البحرين وكانوا مجوسا فالجزية تؤخذ من هذه الطوائف الثلاث اتفاقا فاليهود والنصارى تؤخذ منهم بنص القران والمجوس تؤخذ منهم بنص السنة لقوله صلى الله عليه وسلم سنوا بهم سنة اهل الكتاب اخرجه البخاري ثم اختلف اهل العلم في مقدار الجزية فقال عطاء لا مقدار لها وانما تؤخذ على ما صولحوا عليه وبه قال يحيى بن ادم وابو عبيد وابن جرير الا انه قال اقلها دينار واكثرها لا حد له وقال الشافعي دينار على الغني والفقير من الاحرار البالغين لا ينقص منه شيء وبه قال ابو ثور قال الشافعي وان صولحوا على اكثر من دينار جاز واذا زادوا وطابت بذلك انفسهم قبل منهم وقال مالك انها اربعة دنانير على اهل الذهب واربعون درهما على اهل الورق الغني والفقير سواء ولو كان مجوسيا لا تزيد ولا تنقص وقال ابو حنيفة واصحابه ومحمد بن الحسن واحمد بن حنبل اثنا عشر واربعة وعشرون وثمانية واربعون ولا تجب على صبي ولا مجنون ولا امرأة وهو اتفاق وفي كتابه صلى الله عليه وسلم لمعاذ الى اهل اليمن انه ياخذ من كل حالم دينارا فخص الحالم دون المرأة والصبي وقد روي في ذلك حالمة قال الائمة من المحدثين ان هذه الزيادة غير محفوظة ولان عمر بن الخطاب لما فتح الامصار لم ياخذ الجزية الا من الرجال دون النساء واقره الصحابة واستمر واهليه وقال ابو محمد بن الحزم رح تلزم الجزية الانثى لقوله تعالى حتى يعطوا الجزية ولا شك ان الدين لازم النساء كلزومه للرجال ولم يأت نص بالفرق بينهما في الجزية ثم ساق حديث معاذ بلفظ حالم وحالمة واسنده الى ابن جريج وساق حديثا مرسلا امثاله ولا يخفى ضعف ما ذهب اليه واما العبد فان كان سيده مسلما فلا جزية عليه

بالاتفاق ومن اليهود السامرية وانهم فرق كثيرة وقد فتح الصحابة الامصار واقروهم على تسليم الجزية وكذلك الائمة والخلفاء بعدهم واما الصابية فقال ابن القيم انهم امة كثيرة واكثرهم فلاسفة ولهم مقالات مشهورة ثم ذكر انها تؤخذ منهم الجزية فانهم احسن حالا من المجوس فاخذها من المجوس تنبيه على اخذها من الصابية بالطريق الاولى فان المجوس من اخبث الامم دينا ومذهبا ثم ساق مذاهبهم واما بنو تغلب وهم فرقة انتقلوا فى الجاهلية الى النصرانية فهم من النصارى كانت لها شوكة وقوة وجاء الاسلام وهم كذلك وانفوا من الجزية فضوعفت عليهم الصدقة عوضا عن الجزية فهذه الطوائف التي تؤخذ منها الجزية او ما صولحوا عليه ويهود خيبر وغيرهم داخلون في عموم الآية ولم يأت لهم مخصص وانما لم يأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود المدينة ولا من يهود خيبر لانه اجلى يهود المدينة وقاتل من قاتل منهم قبل نزولها واما اهل خيبر فانه صالحهم قبل نزول فريضة الجزية ولم ينزل فرضها الا في التاسعة من الهجرة واختلف الناس في اخذ الجزية ممن عدا من ذكرناه بعد الاتفاق على اخذها من اهل الكتابين والمجوس فقالت الحنفية تؤخذ ايضا من عبدة الاوثان من العجم ولا تؤخذ من عبدة الاوثان من العرب واستدلوا بالحديث الذي اخرجه احمد والترمذي عن ابن عباس مرفوعا قال اريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي الجزية بها اليهم العجم وذهب مالك وابو يوسف الى انها تقبل الجزية من العربي الوثني مستدلين بحديث بريدة الذي اخرجه مسلم وهو حديث طويل شريف فيه وصايا لامراء السرايا وفيه اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال وفيه فان هم ابوا فسلهم الجزية فان هم اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فدل على ان الجزية تؤخذ من كل كافر هذا ظاهر الحديث ولم يستثن منهم كافرا دون كافر ولا يقال هذا خاص باهل الكتاب فان اللفظ يابى اختصاصه بهم وايضا سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيوشه اكثر ما كانت تقاتل عبدة الاوثان من العرب فيؤخذ من عموم الكفار بالسنة ومن اهل الكتاب بالقرآن وقد اخذها صلى الله عليه وسلم من المجوس عباد النار ولا فرق بينهم وبين عباد الاوثان فان قيل انه لم يأخذها من احد من عباد الاوثان مع كثرة قتالهم قلنا آية الجزية انما نزلت عام تبوك في التاسعة بعد اسلام من كان في جزيرة العرب ولم يبق بها احد من عباد الاوثان

قال الحافظ ابن القيم والمسئلة مبنية على حرف واحد وهو ان الجزية هل وضعت صغارا للذمي او مظهرة لصغار الكفر واذلال اهله والثاني راجح وقد جاز استرقاق العربي الوثني فإنه صح ذلك بلا مرية ويبقى على كفره والمقصود انه لا فرق بين الكفار في اخذ الجزية والاسترقاق واطال في هذا ما اشاره واما تقدير الجزية كما تقدم فيرد على الجميع انه صلى الله عليه وسلم امر معاذا ان يقبض دينارا من كل حالم وجعلهم صنفا واحدا لا ثلاثة اصناف واول من جعلهم ثلاثة عمر بن الخطاب وقد اختلف الجواب عن حديث معاذ ثم اعلم انه لا يتعين في الجزية ذهب ولا فضة بل يجوز اخذها مما تيسر من اموالهم من ثياب وسلاح يعملونه وحديد ونحاس ومواش وحبوب وغير ذلك وهذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه اخرج احمد بسند جيد عن معاذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى اليمن امره ان يأخذ من كل حالم دينارا او عدله معافر رواه اهل السنن وقال الترمذي حسن وكذلك اهل نجران لم يأخذ في جزيتهم ذهبا ولا فضة انما اخذ الحلل والسلاح واذا عرفت هذا فقد تبين ان الجزية غير مقدرة بالشرع تقديرا لا يقبل الزيادة والنقصان ولا معينة في جنس من الاجناس واما وقت قبض الجزية فانما تجب في آخر الحول ولا يطالبون بها قبل ذلك وبه قال احمد والشافعي وقال ابو حنيفة تجب باول الحول ويؤخذ منه كل شهر بقسطه وقال غيرهم وهم الاكثرون انه صلى الله عليه وسلم لما ضرب الجزية على اهل الكتاب والمجوس لم يطالبهم بها حين ضربها ولا الزمهم باداءها في الحال وقت نزول الآية بل صالحهم عليها وكان يبعث رسله وسعاته فيأتون بالجزية والصدقة عند محلها واستمرت على ذلك سيرة خلفاءه من بعده قال الحافظ ابن القيم رح وهذا مقتضى قواعد الشريعة واصولها فان الاموال التي تتكرر بتكرر الاعوام انما تجب في آخر العام لا في اوله واما قوله حتى يعطوا الجزية فليس المراد به الاعطاء الاول بل العطاء المستمر المتكرر وهذا كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وقال اصحاب الشافعي تجب باول السنة دفعة واحدة ولكن يستقر جزء بعد جزء وقال بعضهم انما يدخل وقت وجوبها عند انقضاء السنة وتسقط الجزية بالاسلام ولو اجتمعت عليه جزية سنين فقد قال صلى الله عليه وسلم ليس على مسلم جزية (وهم صاغرون) اي يعطي الذمي الجزية حال كونه صاغرا والصغار الذل واختلف العلماء

في المراد من الصغار فقال عكرمة ان يدفعها وهو قائم والآخذ جالس وقيل ان يأتي بها
بنفسه ماشيا لا راكبا ويطال وقوفه عند اتيانه بها ويجر الى الموضع الذي فيه الآخذ
ثم تجر به ويمتهن وفي الكشاف انه يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلابيبه ويقال له اد الجزية
وان كان يؤديها ويزج في قفاه انتهى وقال ابن عباس يمشون بها متلتلين وعنه قال
يلكزون وقال الكلبي اذا اعطى يصفع قفاه وقيل هو ان يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه
ويقال له ادحق الله يا عدو الله وقال سلمان معناه صاغرين غير محمودين وقيل غير
ذلك مما لم يدل عليه دليل قال الحافظ ابن القيم رح وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو
مقتضى الآية ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن اصحابه قال والصواب في الآية ان الصغار
هو التزامهم بجريان احكام الله تعالى عليهم واعطاء الجزية فان ذلك هو الصغار وبه
قال الشافعي قلت ومن الصغار ما اخذه عمر رضي الله عنه في العهد العمري وهو ما اخرجه عبد الله
بن احمد عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام
وشرط عليهم فيه ان لا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية
ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب ولا يمنعوا كنائسهم ان ينزلها احد من المسلمين
ثلث ليال يطعمونه ولا يؤووا جاسوسا ولا يكتموا غشا للمسلمين ولا يعلموا اولادهم القرآن
ولا يظهروا شركا ولا يمنعوا ذوي قرابتهم الاسلام ان ارادوه وان يوقروا المسلمين وان
يقوموا لهم من مجالسهم اذا ارادوا الجلوس ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم
ولا يتكنوا بكناهم ولا يركبوا سرجا ولا يتقلدوا سيفا ولا يبيعوا الخمور وان يجزوا مقادم
رؤسهم وان يلزموا زيهم حيث ما كانوا وان يشدوا اعلى اوساطهم ولا يظهروا صليبا
ولا شيئا من كتبهم في شيء من طرق المسلمين ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يضربوا
بالناقوس الا ضربا خفيفا ولا يرفعوا اصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة
المسلمين ولا يخرجوا شعانين ولا يرفعوا مع موتاهم اصواتهم ولا يظهروا النيران معهم ولا
يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين فان خالفوا في شيء مما شرطوه فلا ذمة
لهم وقد حل للمسلمين ما يحل من ذوي المعاندة والشقاق قال الحافظ ابن القيم وشهرة هذه

الشروط تغني عن اسنادها فان الائمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها ولم يزل ذكر الشروط العمرية على السنتهم وفي كتبهم وقد انفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها انتهى قلت الدير للنصارى خاصة يبنونه للرهبان خارج البلد يجتمعون فيه للرهبانية وينفردون عن الناس واما القلاية بقاف مكسورة وباء موحدة فيبنيها رهبانهم مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير ان الدير يجتمعون فيه والقلاية لا تكون الا لواحد ينفرد بها بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها شرابه وطعامه وما يحتاج اليه واما الصومعة فهي كالقلاية تكون للراهب وحده والبيع جمع بيعة وهي متعبد النصارى وعن ابن عباس انها مساجد اليهود والكنائس جمع كنيسة وهي لاهل الكتابين ثم اعلم انه لا يحل تكليفهم بما لا يقدرون عليه ولا حبسهم ولا تعذيبهم على اداء الجزية ولا ضربهم لما اخرج ابو عبيد ان هشام بن حكيم مر على قوم يعذبون في الجزية بفلسطين فقال هشام سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا وعن عياض بن غنم مثله رواه الزهري عن عروة بن الزبير وقد اخرج عن جبير بن نفير عن ابيه انه اتي عمر بن الخطاب بمال كثير احسبه قال الجزية فقال اني لاظنكم قد اهلكتم الناس قالوا لا والله ما اخذنا الا عفوا قال بلا سوط ولا نوط قالوا نعم قال الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني وعن علي بن ابي طالب انه استعمل رجلا على عكبرى فقال له لا تبيعن لهم في خراجهم حمارا ولا بقرة ولا كسوة شيئا ولا صيفا وارفق بهم وكان رضي الله عنه ياخذ من صاحب الابر ابرا ومن صاحب الحبال حبالا ونحوه من الامتعة قال ابو عبيد انما كان ياخذ منهم هذه الامتعة بقيمتها من الدراهم التي كانت عليهم من جزية رؤسهم ولا يحملهم على بيعها ارادة الرفق بهم والتخفيف عليهم ولهذا امر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا باخذ معافر عدلا عن الدينار وانما يراد بهذا كله الرفق باهل الذمة لا يباع عليهم من متاعهم شيء ولكن يؤخذ مما سهل عليهم في القيمة والكلام في الجزية معروف في مواطنه والحق من هذه الاقوال ما قد قرره الشوكاني في شرح المنتقى وفي غيره من مؤلفاته وفي الباب كتاب افادة الامة في اهل الذمة للسيد محمد بن

اسمعيل الامير اليمني وهو حافل جدا وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ كلام مبتدأ لبيان
شرك اهل الكتابين وظاهر الاية ان هذه المقالة لجميعهم وقيل هو لفظ خرج على العموم
ومعناه الخصوص لانه لم يقل ذلك الا البعض منهم او من متقدميهم او ممن كانوا
بالمدينة وقال النقاش لم يبق يهودي يقولها بل قد انقرضوا وقيل انه قال ذلك للنبي صلى
الله عليه وسلم جماعة منهم فنزلت الاية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لان قول بعضهم لازم
لجميعهم وقوله عزير بتنوين الصرف وتركه قراءتان سبعيتان فالاولى بناء على انه عربي و
ليس فيه الا علة والثانية بناء على انه اعجمي ففيه العلتان وعلى كل هو مبتدأ وابن الله خبر
فلذلك تثبت الالف في ابن لانها لا تحذف منه الا ان كان صفة وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ قالوا هذا لما رأوا من احيائه للموتى مع كونه من غير اب فكان ذلك سببا لهذه المقالة
والاولى ان يقال انهم قالوا هذه المقالة لكون صفة في الانجيل تارة بابن الله وتارة بابن الانسان كما رأينا
ذلك في مواضع متعددة من الانجيل ولم يفهموا ان ذلك لقصد التشريف والتكريم
ولم يظهر لهم ان ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الاغراض الفاسدة قال الرازي
والاقرب عندي ان يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ
الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال
قبلوا ذلك منهم وفشى هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام ذَٰلِكَ قَوْلُهُم
الاشارة الى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة ووجه قوله بِأَفْوَاهِهِمْ مع العلم
بان القول لا يكون الا بالفم بان هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده
برهان كان مجرد دعوى لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها
الا كونها خارجة من الافواه غير مفيدة لفائدة يعتد بها وقيل لان اثبات الولد له مع
انه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل ليس له تاثير في العقل
وقيل ان ذكر الافواه لقصد التاكيد كما في كتبت بيدي ومشيت برجلي ومنه قوله تعالى
يكتبون الكتاب بايديهم وقوله ولا طائر يطير بجناحيه وقال بعض اهل العلم ان الله سبحانه
لم يذكر قولا مقرونا بذكر الافواه والالسن الا وكان قولا زورا كقوله يقولون بافواههم ما ليس

في قلوبهم وقوله كبرت كلمة تخرج من افواههم وقوله يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم
يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ المضاهاة المشابهة قيل ومنه قول العرب
امرأة ضهيا وهي التي لا تحيض لانها شابهت الرجال قال ابو علي الفارسي هذا خطأ لان
الهمزة في ضاهأ اصلية وفي ضهيا زائدة كحمراء اصله يضاهئون وقيل فيه لغتان ضاهأت
وضاهيت والاولى لغة ثقيف قال الحسن يوافقون وقال مجاهد يواطئون ومعنى
مضاهاتهم لقولهم فيه اقوال لاهل العلم الاول انهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الاوثان في
قولهم اللات والعزى ومناة بنات الله الثاني انهم شابهوا قول من يقول من الكافرين ان
الملائكة بنات الله الثالث انهم شابهوا اسلافهم القايلين بان عزير بن الله والمسيح بن الله
قَاتَلَهُمُ اللَّهُ دعاء عليهم بالهلاك لان من قاتله الله هلك وقيل هو تعجب من شناعة
قولهم وقيل معناه لعنهم الله وحكى النقاش ان اصل قاتل الله الدعاء ثم كثر في استعمالهم
حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء أَنَّى يُؤْفَكُونَ اي كيف يصرفون
عن الحق الى الباطل بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بان الله واحد احد فجعلوا له ولدا
تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ الاحبار
جمع حبر وهو الذي يحسن القول ومنه ثوب محبر وقيل جمع حبر بكسر الحاء قال يونس لم اسمعه
الا بكسر الحاء وقال الفراء الفتح والكسر لغتان وقال ابن السكيت الحبر بالكسر العالم والحبر بالفتح
العالم وقال الاصمعي لا ادري اهو الحبر او الحبر وقال ابو الهيثم هو بالفتح وانكر الكسر وقيل الكسر
افصح لانه يجمع على افعال دون فعول وقال ابو عبيد هو بالفتح وقال الليث الحبر العالم ذميا
كان او مسلما بعد ان يكون من اهل الكتاب والحبر الذي يكتب به وموضعه المحبرة
بالكسر والحبر ايضا الاثر وفي الحديث يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره قال
الفراء اي لونه وهيئته وقال الاصمعي الجمال والبهاء واثر النعمة وتحبير الخط والشعر
وغيرهما تحسينه والحبر بالفتح الحبور وهو السرور وحبره اي سره وبابه نصر وحبرة ايضا
بالفتح ومنه قوله تعالى فهم في روضة يحبرون اي يسرون وينعمون ويكرمون والرهبان
جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهم علماء النصارى كما ان الاحبار علماء اليهود وقيل الرهبان

اصحاب الصوامع من النصارى وقيل الرهبان النساك وقيل القراء ومعنى الآية انهم لما
اطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم اربابا لانهم اطاعوهم
كما تطاع الارباب قال الربيع قلت لابي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل
قال انهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف اقوال الاحبار والرهبان فكانوا يأخذون باقوالهم
وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى قال الرازي في تفسيره قال شيخنا رضي الله عنه قد
شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في
بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا
اليها وبقوا ينظرون الي كالمتعجب يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية
عن سلفنا وردت على خلافها ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق
الاكثرين من اهل الدنيا والقول الثاني في تفسير هذه الربوبية ان الجهال والحشوية اذا
بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم الى الحلول والاتحاد وذلك الشيخ اذا كان
طالبا للدنيا بعيدا عن الدين كان يأمر اتباعه واصحابه بان يسجدوا له وكان يقول لهم انتم عبيدي
فكان يلقي اليهم من حديث الحلول والاتحاد اشياء ولو خلا ببعض الحمقاء من اتباعه فربما ادعى
الالهية فاذا كان مثل ذلك مشاهدا في هذه الامة فكيف يبعد ثبوته في الامم السالفة وحاصل
الكلام ان تلك الربوبية يحتمل ان يكون المراد منها انهم اطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم
الله وان يكون المراد منها انهم قبلوا انواع الكفر فكفروا بالله فصار ذلك جاريا مجرى انهم
اتخذوا اربابا من دون الله ويحتمل انهم اثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد وكل هذه الوجوه الاربعة
مشاهد وواقع في هذه الامة انتهى والمسيح ابن مريم اي اتخذه النصارى ربا معبودا وفيه اشارة
الى ان اليهود لم يتخذوا عزيرا ربا معبودا وانظر لم ثبتت الالف في ابن هنا مع انه صفة بين علمين
لان المسيح لقب وهو من اقسام العلم وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب او القى السمع
وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير ما يقوله الاسلاف على ما في الكتاب العزيز
والسنة المطهرة فان طاعة المتمذهب لمن يقتدي بقوله ويستن بسنته من علماء هذه
الامة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه

وانبياءهم كما اتخذ اليهود والنصارى للاحبار والرهبان اربابا من دون الله للقطع بانهم لم يعبدوهم بل اطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الامة وهو اشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء فيا عباد الله ويا اتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا وعمدتم الى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه للعمل منهم بما دلا عليه وافاداه فعلتم بما جاؤا به من الاراء التي لم تعمد بعماد الحق ولم تعتضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة تنادي بابلغ نداء وتصوت باعلى صوت بمن خالف ذلك وباينه فاعرتموها آذانا صما وقلوبا غلفا وافهاما مريضة وعقولا مهيضة واذهانا كليلة وخواطر عليلة وانشدتم بلسان الحال ع وما انا الا من غزية ان غوت + غويت وان ترشد غزية ارشد + فدعوا ارشدكم الله واياي كتبا كتبها لكم الاموات من اسلافكم واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم واستبدلوا باقوال من تدعونهم بائمتكم وما جاؤكم به من الرأي باقوال امامكم وامامهم وقدوتهم وقدوتكم وهو الامام الاول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ع دعوا كل قول عند قول محمد + فما امن في دينه كمخاطر + اللهم هادي الضال مرشد التائه موضح السبيل اهدنا الى الحق وارشدنا الى الصواب واوضح لنا منهج الهداية وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا اي والحال انهم ما امروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على السنة انبيائهم الا بعبادة الله وحده او وما امر الذين اتخذوهم اربابا من الاحبار والرهبان الا بذلك فكيف يصلحون لما اهلوهم له من اتخاذهم اربابا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ صفة ثانية لقوله الها او استينا ف مقرر للتوحيد سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ اي تنزيها له عن الاشراك في طاعته وعبادته وقد اخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ في سورة براءة اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله فقال اما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا احلوا لهم شيئا استحلوه واذا حرموا عليهم شيئا حرموه واخرج ايضا احمد وابن جرير يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ هذا كلام يتضمن ذكر نوع اخر

من انواع ضلالهم وبعدهم عن الحق وما ارادوه من ابطال الحق بافواههم الباطلة التي هي مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة وهذا تمثيل لحالهم في محاولة ابطال دين الحق ونبوة نبي الصدق بحال من يريد ان ينفخ في نور عظيم قد انارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب اضواءه قيل المراد بالنور شرائعه وبراهينه وسميت الدلائل نوراً لانه يهتدى بها الى الصواب كما يهتدى بالنور الى المحسوسات وقيل المراد به الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهي امور احدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادات وثانيها القران العظيم فهو معجزة له باقية على الابد وثالثها ان دينه الذي امر به هو دين الاسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لامره ونهيه والتبري من كل معبود سواه فهذه امور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدقه فمن اراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ اي دينه القويم باعلاء كلمته قال في الكشاف ان ابى قد اجري مجرى لم يرد اني ولا يريد الا ان يتم نوره وقال علي بن سليمان انما جاز هذا في ابى لانها منع او امتناع فضارعت النفي قال النحاس وهذا احسن وقال الزجاج التقدير ويابى الله كل شيء الا ان يتم وقال الفراء انما دخلت الا لان في الكلام طرفا من الجحد وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفي وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الارادة اي لا يريد شيئا من الاشياء الا اتمام نوره فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء قاله الكرخي ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ اي ابى الله الا ان يتم نوره ويعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث الله به رسوله ولو كره ذلك الكافرون وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والتقدير ولو كره الكافرون تمام نوره لاتمه ولم يبال بكراهتهم وقيل لو لم يكرهوه او كرهوه اي على كل حال مفروض ثم اكد هذا بقوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمدا ﴿بِالْهُدَى﴾ اي بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والاحكام التي شرعها الله لعباده والتوحيد والاسلام والقران ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو دين الاسلام وفائدة ذكره مع دخوله في الهدى قبله بيان شرفه وتعظيمه كقوله والصلوة الوسطى ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ اي ليظهر رسوله او دين الحق بما يشتمل عليه من الحجج والبراهين ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾

اي على سائر الاديان وهو ان لا يعبد الله الا به فلا دين بخلاف الاسلام الا وقد قهرهم
المسلمون وظهروا عليهم في بعض المواضع وان لم يكن كذلك في جميع مواضعهم فقهروا اليهود
واخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم و
الغرب وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك
والهند وكذلك سائر الاديان فثبت ان الذي اخبر الله عنه في هذه الآية قد وقع وحصل
وكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا وقد ذكرنا فتوح الاسلام في كتابنا حجج الكرامة
في آثار القيامة الذي حررناه بعد هذا التفسير وقيل ذلك عند نزول عيسى وخروج مهدي
فلا يبقى اهل دين الا دخلوا في الاسلام ويدل له بعض الاحاديث فمنها حديث ابي هريرة
قال النبي صلى الله عليه وسلم وتهلك في زمانه الملل كلها الا الاسلام وقال الشافعي قد اظهر الله
دين رسوله على الاديان كلها بان ابان لكل من سمعه انه الحق وما خالفه من الاديان باطل
وقيل قهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاميين حتى دانوا بالاسلام طوعا وكرها وقتل اهل الاسلام وسبى
حتى دان بعضهم بالاسلام واعطى بعضهم الجزية وجرى عليهم حكمه فهذا ظهوره على الدين كله و
قيل المراد ظهوره على الدين كله في جزيرة العرب وقد حصل ذلك فانه تعالى ما ابقى فيها احدا
من الكفار وقيل المراد ان يوقفه على جميع شرائع الدين ويطلعه عليها بالكلية حتى لا يخفى
عليه منها شيء وقيل المراد ظهوره على الدين كله بالحجة والبيان وفيه ضعف لان هذا وعد
بانه تعالى سيفعله والتقوية بالحجة والبرهان كان حاصلا من اول الامر ولو كره المشركون
الكلام فيه كالكلام في ولو كره الكافرون كما قدمنا ذلك ووصفهم بالشرك بعد وصفهم
بالكفر للدلالة على انهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله تعالى وهذه الآيات التي امر علي ان يتاذن
بها في موسم الحج يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال
الناس بالباطل لما فرغ سبحانه من ذكر حال اتباع الاحبار والرهبان المتخذين لهم اربابا ذكر
حال المتبوعين وبيان اغوائهم لاداخلهم قال الضحاك يعني علماء اليهود والنصارى وفي قوله
ان كثيرا دليل على ان الاقل منهم لم يأكلوا اموال الناس بالباطل ولم يتلبسوا بذلك بل بقوا
على ما يوجبه دينهم من غير تحريف ولا تبديل ولا ميل الى حطام الدنيا ولعلهم الذين كانوا

قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عن اخذ الاموال بالاكل لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمي الشئ باسم ما هو اعظم مقاصده والباطل كتب كتبوها لم ينزلها الله فاكلوا بها اموال الناس وذلك قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله وقيل المعنى انهم ياخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة في تخفيف الاحكام والمسامحة في الشرائع وقيل انهم كانوا يدعون عند العوام والحشرات انه لا سبيل لاحد الى الفوز بمرضاة الله تعالى الا بخدمتهم وطاعتهم وبذل الاموال في طلب مرضاتهم والعوام كانوا يغترون بتلك الاكاذيب وقيل التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يذكرون في تاويلها وجوها فاسدة ويحملونها على محامل باطلة وكانوا ياخذون الرشوة وقيل كانوا يقررون عند عوامهم ان الدين الحق هو الذي هم عليه فاذا قرروا ذلك قالوا وتقوية الدين الحق واجبة ثم قالوا ولا طريق الى تقويته الا اذا كان اولئك الفقهاء اصحاب الاموال الكثيرة والجمع العظيم فبهذا الطريق يحملون العوام على ان يبذلوا في خدمتهم نفوسهم واموالهم فهذا هو الباطل الذي كانوا به ياكلون اموال الناس قال الرازي وهي باسرها حاضرة في زماننا وهو الطريق لاكثر الجهال والمزورين الى اخذ اموال العوام والحمقى من الخلق انتهى ولقد اقتدى بهؤلاء الاحبار والرهبان من علماء الاسلام ومشائخه من لا ياتي عليه الحصر في كل زمان قال الرازي ولعمري من تامل في احوال اهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كانها ما انزلت الا في شانهم وفي شرح احوالهم فترى الواحد منهم يدعي انه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وانه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين حتى اذا آل الامر الى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله انتهى ولنعم ما قيل شعر عجبت من شيخي ومن زهده + وذكره النار واهوالها + يكره ان يشرب في فضة + ويسرق الفضة ان نالها + ويصدون عن سبيل الله اي عن الطريق اليه وهو دين الاسلام وعن الايمان بمحمد صلعم وعن ما كان حقا في شريعتهم قبل نسخها بسبب اكلهم لاموال الناس بالباطل والذين يكنزون الذهب والفضة قيل هم المتقدم ذكرهم من الاحبار والرهبان وانهم كانوا يصنعون هذا الصنع قاله معاوية بن ابي سفيان وقيل هم من يفعل ذلك من المسلمين قاله ابن عباس وقال السدي

نزلت في مانعي الزكوة من المسلمين وقال ابو ذر نزلت في اهل الكتاب وفي المسلمين جميعاً والاولى حمل الاية على عموم اللفظ فهو اوسع من ذلك واصل الكنز في اللغة الضم والجمع ولا يختص بالذهب والفضة قال ابن جرير الكنز كل شيء مجموع بعضه الى بعض في بطن الارض كان او على ظهرها انتهى ومنه ناقة كناز اي مكتنزة اللحم يقال كنزت المال كنزا من باب ضرب جمعته وادخرته وكنزت التمر في وعائه كنزا ايضا وهذا زمن الكناز قال ابن السكيت لم يسمع الا بالفتح وحكى الازهري الفتح والكسر والكنز المال المدفون معروف تسمية بالمصدر والجمع كنوز واكتنز الشيء اكتنازا اجتمع وامتلأ ومال مكنوز اي مجموع واختلف اهل العلم في المال الذي اديت زكاته هل يسمى كنزا ام لا فقال قوم هو كنز وقال آخرون ليس بكنز ومن القائلين بالاول ابو ذر وقيده بما فضل عن الحاجة وبالثاني عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وابو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم وهو الحق لما سياتي من الادلة المصرحة بان ما اديت زكاته فليس بكنز اخرج احمد في الزهد والبخاري وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال انما كان هذا قبل ان تنزل الزكوة فلما انزلت الزكوة جعلها الله طهرة للاموال ثم قال ما ابالي لو كان عندي مثل احد ذهبا اعلم عدده وازكيه واعمل فيه بطاعة الله وعن ام سلمة مرفوعا نحوه ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الاموال ويتصرفون فيها وما عابهم احد ممن اعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والاقتناء مباح لا يذم صاحبه وعن ابن عباس لما نزلت هذه الاية انطلق عمر وتبعه ثوبان فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله انه قد كبر على اصحابك هذه الاية فقال ان الله لم يفرض الزكوة الا ليطيب بها ما بقي من اموالكم وانما فرض المواريث من اموال تبقى بعدكم الحديث بطوله اخرجه ابو داود والحاكم وصححه والبيهقي وابن ابي شيبة وابو يعلى وغيرهم وعن علي قال اربعة الاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز وعن ابي امامة قال حلية السيوف من الكنوز ما احدثكم الا ما سمعت وعن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز قالا نسختها الاية الاخرى خذ من اموالهم صدقة الاية واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها الا جعل له يوم القيامة صفائح ثم احمي عليها في نار جهنم ثم تكوى بها جنباه

وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ اختلف في وجه افراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين هما الذهب والفضة فقال ابن الانباري انه قصد الى الاعم الاغلب وهو الفضة تامل ومثله قوله تعالى استعينوا بالصبر والصلوة وانها لكبيرة برد الكناية الى الصلوة لانها اعم ومثله قوله تعالى واذا راوا تجارة او لهوا انفضوا اليها اعاد الضمير الى التجارة لانها الاعم وقيل ان الضمير راجع الى الذهب والفضة معطوفة عليه والعرب تؤنث الذهب وتذكره وقيل الضمير راجع الى الكنوز المدلول عليها بقوله يكنزون لانه اعم من النقدين وغيرهما وقيل الى الاموال وقيل الى الزكوة وقيل انه اكتفى بضمير احدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى وهو كثير في كلام العرب وقيل ان افراد الضمير من باب الذهاب الى المعنى دون اللفظ لان كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وانما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الاموال لكونهما اثمان الاشياء وغالب ما يكنز وان كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من باب التهكم بهم كما في قوله ﴿ع﴾ تحية بينهم ضرب وجيع وقيل ان البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتاثيره في القلب سواء كان من الفرح او من الغم وعن ابي ذر قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما راني قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فقلت يا رسول الله فداك ابي وامي من هم قال هم الاكثرون اموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم الحديث مختصرا اخرجه مسلم وفرقه البخاري في موضعين ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ اي ان النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد ولو قال يوم تحمى اي الكنوز لم يعط هذا المعنى فجعل الاحماء للنار مبالغة ويحمى يجوز ان يكون من حميت او احميت ثلاثيا ورباعيا يقال حميت الحديدة واحميتها اي اوقدت عليها لتحمي والتقدير يوم تحمى النار عليها وخص الجباه والجنوب والظهور لان التالم بكيها اشد لما في داخلها من الاعضاء الشريفة وقيل ليكون الكي في الجهات الاربع من قدام وخلف وعن يمين ويسار وقيل لان الجمال في الوجه والقوة في الظهر والجنبين والانسان انما يطلب المال للجمال والقوة وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ اي كنزتموه

تستغيراً بشيءٍ نفعهم، ويقال لهم ذلك على طريق التهكم والتوبيخ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ أي
ذوقوا وباله وسوء عاقبته وقبح مغبته وشؤم فائدته لأن الكنوز لا تذاق وما بمعنى
الذي والآية عامة وفي الباب أحاديث صحيحة توافق معنى هذه الآية لا نطول بذكرها
إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن الله
سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكبيسة فأخبرنا الله
بما هو حكمه فقال إن عدة الشهور أي عدد شهور المعتد بها للسنة عِندَ اللَّهِ أي في حكمه
وقضائه وحكمته لا بابتداع الناس اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا هي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع
الآخر وجمادى الأولى وجمادى الأخرى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة و
ذو الحجة فهذه شهور السنة القمرية التي تدور على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب
التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم
وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً والسنة الشمسية عبارة عن دور
الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم فتنقص السنة
الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فهي شهور العجم كلهم فبسبب هذا النقصان يقع الحج والصوم
تارة في الشتاء وتارة في الصيف وقد ذكرنا تفصيل ذلك في لقطة العجلان وحجج الكرامة فِي كِتَابِ اللَّهِ
أي فيما أثبته في كتابه أي القرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل الكتاب
هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلائق وما يأتون وما يذرون وقيل
المراد بالكتاب الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه
وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
أي منذ خلق الأجرام والأزمنة وفيه بيان أن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به
الكتب وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التي يصطلحون عليها و
يجعلون بعضها ثلاثين وبعضها أكثر وبعضها أقل مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ أي محترمة
قد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال
إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها

اربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب مضر الذي بين
جمادى وشعبان وقال الضحاك انما سمين حرما لئلا يكون فيهن حرب وكانت العرب في
الجاهلية تعظمها وتحرم فيها القتال حتى ان احدهم لو لقي قاتل ابيه او ابنه او اخيه في
هذه الاربعة اشهر لم يزعجه ولما جاء الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما لان الحسنات
والطاعات فيها تتضاعف والسيئات فيها اشد من غيرها فلا تنتهك حرمة هذه
الاشهر الحرم ذلك الدين القيم اي كون هذه الشهور كذلك ومنها اربعة حرم هو
الدين المستقيم والحساب الصحيح والعدد المستوفي وقيل الدين القيم هو الحكم الذي لا يغير
ولا يبدل والقيم هنا بمعنى الدائم الذي لا يزول فلا تظلموا فيهن اي في هذه الاشهر
الحرم انفسكم بايقاع المعاصي فانها فيها اعظم وزرا وبايقاع القتال فيها والهتك لحرمتها
وبه قال اكثر المفسرين وقيل ان الضمير يرجع الى الشهور كلها الحرم وغيرها وان الله نهى
عن الظلم فيها والاول اولى وقد ذهب جماعة من اهل العلم الى ان تحريم القتال في
الاشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ بهذه الآية ولقوله يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله و
لا الشهر الحرام ولقوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين الآية وذهب جماعة
اخرون الى ان تحريم القتال في الاشهر الحرم منسوخ باية السيف ويجاب عنه بان الامر بقتل
المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الاشهر الحرم كما في الآية المذكورة فتكون سائر الآيات
المتضمنة للامر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الاشهر الحرم كما هي مقيدة بتحريم
القتال في الحرم للادلة الواردة في تحريم القتال فيه واما ما استدلوا به من انه صلى الله عليه وسلم حاصر
اهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين وغيرهما فقد اجيب عنه بانه لم يبتد
محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوال والمحرم انما هو ابتداء القتال في الاشهر الحرم لا اتمامه وبهذا
يحصل الجمع وقاتلوا المشركين كافة اي جميعا في كل الشهور لا عموم الاشخاص يستلزم عموم الاحوال والازمنة والبقاع
وهو مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل في قاتلوا او من المفعول وهو المشركين قال
الزجاج مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع ولا تدخله ال ولا يتصرف فيه بغير
الحال كما يقاتلونكم كافة فيه دليل على وجوب قتال المشركين وانه فرض على الاعيان

ن لم يقوبه البعض واعلموا أن الله مع المتقين اي ينصرهم ويثبتهم ومن كان الله معه
فهو الغالب وله العاقبة إنما النسيء قال الجوهري النسيء فعيل بمعنى مفعول من قولك
نسأت الشيء فهو منسوء اذا اخرته ثم تحول منسوء الى نسيء كما تحول مقتول الى قتيل والى ذلك
نحا ابو حاتم وقال النحاس وهو مشتق من نسأه وانسأه اذا اخره حكى ذلك الكسائي وقيل
مصدر على فعيل من انسأ اي اخر كالنذير من انذر والنكير من انكر وهذا ظاهر قول الزمخشري
قال ابن جرير في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال نسيء ينسيء اذا زاد ولا يكون بترك الهمزة
الا من النسيان كما قال تعالى نسوا الله فنسيهم وقرأ الجمهور النسيء بهمزة بعد الياء وغيرهم
بادغام الياء وقرئ النسيء باسكان السين والنسوء بزنة فعول وهو التاخير وفعول في
المصادر قليل والنسيئة كالفعيلة التاخير وكذا النساء بالفتح والمد التاخير والنسيء في الاية
فعيل بمعنى مفعول كما تقدم وكانت العرب تحرم القتال في الاشهر الحرم المذكورة فاذا احتاجوا الى
القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها فاذا قاتلوا في المحرم حرموا بدله شهر صفر وهكذا في
غيره وكان الذي يحملهم على هذا ان كثيرا منهم انما كانوا يعيشون باغارة بعضهم على
البعض ونهب ما يمكنهم نهبه من اموال من يغيرون عليه ويقع بينهم بسبب ذلك القتال
وكانت الاشهر الثلثة المسرودة يضر بهم تواليها وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم فيحلون بعضها
ويحرمون مكانه بقدره من غير الاشهر الحرم فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه وقد وقع
الخلاف في اول من فعل ذلك فقيل هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عبد ويلقب القلمس
وقيل هو عمرو بن لحي وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة زيادة في الكفر اي نوع من انواع
كفرهم ومعصية من معاصيهم المنضمة الى كفرهم بالله ورسله وكتبه واليوم الاخر
وفي الشهاب يعني انهم لما توارثوه على انها شريعة ثم استحلوه كان ذلك جناية كفر يضل به
الذين كفروا قرئ على البناء للمعلوم والمجهول ومعنى الاولى ان الكفار يضلون بما يفعلون
من النسيء ومعنى الثانية ان الذي سن لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة
والاولى من طريق العشرة والثانية سبعية يحلونه اي النسيء عاما ويحرمونه عاما او الشهر
الذي يؤخرونه ويقاتلون فيه اي يحلونه عاما بابداله بشهر اخر من شهور الحل فيحرمونه

حاما اي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته والجملة تفسيرية للضلال او حالية ليواطئوا عدة ما حرم الله اي لكي يواطئوا والمواطأة الموافقة يقال تواطأ القوم على كذا اي توافقوا عليه واجتمعوا والمعنى انهم لم يحلوا اشهرا الا حرموا اشهرا لتبقى الاشهر الحرم اربعة قال قطرب معناه عمدوا الى صفر فزادوه في الاشهر الحرم وقرنوه بالمحرم في التحريم وكذا قال الطبري فيحلوا ما حرم الله من الاشهر الحرم التي ابدلوها بغيرها ولم ينظروا الى اعيانها زين لهم سوء اعمالهم اي زين لهم الشيطان اعمالهم السيئة التي يعملونها ومن جملتها النسيء فظنوه حسنا وقرئ على البناء للفاعل والله لا يهدي القوم الكافرين اي المصرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم الى المطلوب اما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والارشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده يا ايها الذين امنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض لما شرح معائب اولئك الكفار عاد الى ترغيب المؤمنين في قتالهم والاستفهام في ما لكم للانكار والتوبيخ اي اي شيء يمنعكم عن ذلك و لا خلاف ان هذه الاية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك و كانت في رجب سنة تسع من الهجرة بعد رجوعه من الطائف بعد الفتح بسام وتبوك مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة عشرة مراحل وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتانيث و بعضهم يصرفه على ارادة الموضع فقد جاء في البخاري مصروفا وممنوعا منه وقصة هذه الغزوة في سيرة الحلبي مفصلة والنفر هو الانتقال بسرعة من مكان الى مكان لامر يحدث يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير واثاقلتم معناه تباطأتم وعدي بالى لتضمنه معنى الميل و الاخلاد وقيل معناه ملتم الى الاقامة بارضكم والبقاء فيها عن الجهاد وقرئ اثاقلتم على الاستفهام ومعناه التوبيخ مع النفي ارضيتم استفهام توبيخ وتعجيب بالحيوة الدنيا اي بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها ونعيمها بدلا من الاخرة كقوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة اي بدلا منكم فما متاع الحيوة الدنيا في الاخرة اي محسوبا في جنبها او في مقابلتها و في هذه تسمى قياسية الا قليل اي الا متاع حقير لا يعبأ به لان لذات الدنيا خسيسة في نفسها

ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطعة عن قرب لا محالة ومنافع الآخرة شريفة خالية خالصة
عن كل الآفات دائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل
ويجوز أن يراد بالقليل العدم إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي والظاهر أن هذا
التثاقل لم يصدر من الكل إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل وإنما هو من
باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل وهو كثير شائع وفي الآية دليل على وجوب الجهاد
في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن
منكراً لما عاتبهم على ذلك ويؤيد هذا قوله ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يهلككم
بعذاب شديد مؤلم قيل في الدنيا فقط باحتباس المطر وغيره وقيل هو أعم من ذلك لأن العذاب
الأليم لا يكون إلا في الآخرة قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى وما كان المؤمنون
لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ وفي الآية تهديد شديد ووعيد مؤكد
لمن ترك النفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يجعل لرسوله بدلاً منكم ممن لا
يتباطأ عند حاجتهم إليهم يكون خيراً منكم وأطوع واختلف في هؤلاء القوم من هم فقيل أهل اليمن
وقيل أهل فارس قاله سعيد بن جبير ولا وجه للتعيين بدون دليل ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ أي الله بترك
امتثال أمره بالنفير ﴿شَيْئًا﴾ لأنه غني عن العالمين أو لا تضروا رسول الله بترك نصره والنفير معه
شيئاً فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله أبداً نفرتم أو تثاقلتم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن
جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي إن تركتم نصره
فالله متكفل به أعنتموه أو لا فقد نصره في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر
أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقت
إخراجهم إياه حال كونه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق
رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ هو نقب عظيم في الجبل المسمى ثوراً وهو المشهور بغار ثور وهو جبل
قريب من مكة وبينهما مسيرة ساعة ويجمع على غيران والغار أيضاً نبت طيب الرائحة
والغاران البطن والفرج وألف الغار منقلبة عن واو وقصة خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى

المدينة هو وابو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث وسياق حديث الهجرة من افراد البخاري وهو طويل جدا إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ اي وقت قوله لابي بكر لَا تَحْزَنْ اي دع الحزن إِنَّ اللَّهَ بنصره وعونه وتاييده مَعَنَا ومن كان الله معه فلن يغلب ومن لا يغلب فيحق له ان لا يحزن وذلك ان ابا بكر خاف من الطلب ان يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك وكان حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على نفسه وقال اذا انا مت فانا رجل واحد واذا مت انت هلكت الامة والدين اخرج الشيخان عنه رضي الله عنه قال نظرت الى اقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤسنا فقلت يا رسول الله لو ان احدهم نظر الى قدميه ابصرنا تحت قدميه فقال يا ابا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما قال النووي هو داخل في قوله سبحانه ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وسلم حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لابي بكر وهي من اجل مناقبه وقال الشعبي عاتب الله عز وجل اهل الارض جميعا في هذه الاية غير ابي بكر وقال الحسين بن الفضل من قال ان ابا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي بكر انت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار اخرجه الترمذي وقال حديث صحيح حسن غريب وقد استنبط اهل العلم من هذه الاية وجوها كثيرة على فضل ابي بكر الصديق رضي الله عنه يطول ذكرها فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ هي تسكين جاشه وتامينه حتى ذهب روعه وحصل له الامن على ان الضمير في عَلَيْهِ لابي بكر وبه قال ابن عباس واكثر المفسرين وقيل هو للنبي صلى الله عليه وسلم ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من اسباب الخوف له ويؤيد كون الضمير في عليه للنبي صلى الله عليه وسلم الضمير في وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا فانه للنبي صلى الله عليه وسلم لانه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة في الغار يحرسونه ويسكنون روعه ويصرفون ابصار الكفار عنه كما كان في يوم بدر وقيل انه لاحد ورفي رجوع الضمير من عليه الى ابي بكر ومن وايده الى النبي صلى الله عليه وسلم فان ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا اي كلمة الشرك وهي دعوتهم اليه ونداءهم للاصنام او كل ما يدل على الشرك او المراد بها حقيقة الشرك الكفر مطلقا بسائر انواعه اقوال للمفسرين السُّفْلَى المغلوبة الى يوم القيامة وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا

في ضمير الفصل اعني هي تاكيد لفضل كلمته في العلو وانها المختصة به دون غيرها والمراد بها كلمة التوحيد والدعوة الى الاسلام فهي ظاهرة غالبة باقية الى يوم القيامة عالية والله عزيز حكيم اي غالب قاهر لا يفعل الا ما فيه حكمة وصواب ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وضرب له من الامثال ما ذكره عقبه بالامر بالجزم فقال انفروا حال كونكم خفافا وثقالا اي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها و هذان الوصفان يدخل تحتهما اقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيهما فقيل المراد منفردين او مجتمعين وقيل نشاطا وغير نشاط وقيل فقراء واغنياء وقيل شبابا وشيوخا وقيل ركبانا ومشاة رجالا وفرسانا وقيل من سبق الى الحرب كالطلائع ومن تأخر كالجيش وقيل اهل الميسرة واهل العسرة وقيل مقلين من السلاح ومستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل اصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتاهلين وقيل خفافا من الحاشية والاتباع وثقالا منهم مستكثرين وقيل مسرعين في الخروج الى الغزو ساعة سماع النفير وبعد التروي فيه والاستعداد له وقيل غير ذلك ولا مانع من حمل الاية على جميع هذه المعاني لان معنى الاية انفروا خفت عليكم الحركة او ثقلت فالاولى ان هذا عام لكل الاحوال فيهما والامر محمول على الوجوب قال السدي وهذه الاية منسوخة بقوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى وقيل الناسخ لها قوله فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة الاية قاله ابن عباس وقيل الامر محمول على الندب وهي محكمة وليست بمنسوخة ويكون اخراج الاعمى والاعرج بقوله ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج و اخراج الضعيف والمريض بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى من باب التخصيص لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله خفافا وثقالا والظاهر عدم دخولهم تحت العموم و يدل عليه ان هذه الاية نزلت في غزوة تبوك وان النبي صلى الله عليه وسلم خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فذلك دل على ان الجهاد من فروض الكفايات ليس على الاعيان وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله فيه الامر بالجهاد بالانفس والاموال وايجابه على العباد فالفقراء يجاهدون بانفسهم والاغنياء باموالهم وانفسهم والجهاد من اكبر الفرائض واعظمها وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو وبدفعه فان كان

لا يقوم بالعدو الا جميع المسلمين في قطر من الارض او اقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين
ذلكم اي ما تقدم من الامر بالنفير والامر بالجهاد خير لكم عظيم في نفسه وخير من السكون
والدعة إن كنتم تعلمون ذلك وتعرفون الاشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة فاعلموا
ونزل في الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لو كان المدعوا اليه او ما تدعوهم اليه عرضا هو ما
يعرض من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر قريبا
والمعنى غنيمة سهلة قريبة التناول غير بعيدة وسفرا قاصدا اي متوسطا بين القرب
والبعد وكل متوسط بين الافراط والتفريط فهو قاصد لاتبعوك اي لوافقوك في الخروج
وخرجوا معك طمعا في تلك المنافع التي تحصل لهم ولكن بعدت عليهم الشقة قال ابو عبيدة
وغيره ان الشقة السفر الى ارض بعيدة يقال منه شقة شاقة والشقة المسافة التي
تقطع بمشقة قال الجوهري الشقة بالضم من الثياب والشقة ايضا السفر البعيد وربما قالوه
بالكسر فهي مشتقة من المشقة كما في السمين والمراد بها غزوة تبوك فانها كانت سفرة بعيدة
شاقة وكانوا يستعظمون غزو الروم فلا جرم تخلفوا لهذا السبب وسيحلفون اي المتخلفون
عن غزوة تبوك واتى بالسين لانه من قبيل الاخبار بالغيب فان الله انزل هذه الآية قبل
رجوعه من تبوك اي سيحلفون بالله اعتذارا عنه حال كونهم قائلين لو استطعنا اي لو
قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج اليه فيه مما لا بد منه وقيل لو كان لنا استطاعة من
جهة العدة او من جهة الصحة او من جهتهما حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين
فقوله لخرجنا معكم ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعا وقد وقع حسبما اخبر به وهو
من جملة المعجزات الباهرة يهلكون انفسهم لان من حلف كاذبا فقد اهلك نفسه ولذا
قال صلى الله عليه وسلم اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع او يكون حالا اي مهلكين انفسهم موقعين
لها موقع الهلاك بسبب هذه الايمان الكاذبة والله يعلم انهم لكاذبون في حلفهم لانهم
سيحلفون باطلا لانهم كانوا مستطيعين للخروج عفا الله عنك لم اذنت لهم الاستفهام
للانكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث وقع منه الاذن لمن استأذنه في القعود
قبل ان يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي ابداه ومن هو كاذب فيه وفي ذكر العفو

عنه صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى وفي هذا عتاب لطيف
من الله سبحانه وقيل إن هذا عتاب له صلى الله عليه وسلم في إذنه للمنافقين بالخروج معه لا في
إذنه لهم بالقعود عن الخروج قاله الطبري والأول أولى وقد رخص له سبحانه في سورة
النور بقوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ويمكن أن يجمع بين الآيتين
بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات والله أعلم وقيل إن قوله عفا الله
عنك افتتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا وكذا حكاه مكي
والنحاس وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك وعلى التأويل الأول لا
يحسن ولا يخفاك أن التفسير الأول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية
ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم
والمسألة مدونة في الأصول وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاغترار
بظواهر الأمور قال عمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتهاده لم يؤمر فيهما بشيء
إذنه للمنافقين في التخلف وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان
بن عيينة انظر هذا اللطف به بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب وحتى في قوله حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ للغاية كأنه قيل لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت
حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه وكذب من هو كاذب منهم
في دعواه قال ابن عباس لم يكن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة
ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود عن
الجهاد بل كان من عادتهم أنه صلى الله عليه وسلم إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك فقال
لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وهذا
على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا وقيل المعنى لا يستأذنك في التخلف كراهة الجهاد وقيل
إن معنى الاستئذان في الشيء الكراهة وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى لا يستأذنك
المؤمنون في الجهاد بل كان دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن
منك فضلاً أن يستأذنوك في التخلف وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنة للنفاق في

امرهم بل دليلا على نفاقهم والله عليم بالمتقين الذين لم يستأذنوا انما يستأذنك في
القعود عن الجهاد والتخلف عنه من غير عذر وكذا يقال فيما بعده الذين لا يؤمنون بالله
واليوم الآخر وهم المنافقون وكانوا تسعة وثلاثين رجلا وذكر الايمان بالله واليوم
الآخر ثانيا في الموضعين لانهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله وارتابت قلوبهم جاء
بالماضي للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم وهو الشك فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا
فهم في ريبهم يترددون اي في شكهم الذي حل بقلوبهم يتحيرون والتردد التحير والمعنى
فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين بل كانوا مترددين حائرين لا يهتدون الى طريق
الصواب ولا يعرفون الحق والآية محكمة كلها وقال ابن عباس نسختها الآية التي في سورة النور
انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله الى قوله غفور رحيم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم بالاعلى
النظرين في ذلك من غزا غزا في فضيلة ومن قعد قعد في غير حرج ان شاء الله ولو ارادوا
الخروج لاعدوا له عدة اي لو كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من انهم يريدون الجهاد
معك ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاجون اليه لما تركوا اعداد العدة وتحصيلها
قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون فمعنى هذا الكلام انهم لم يريدوا الخروج اصلا
ولا استعدوا للغزو والعدة ما يحتاج اليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح ولكن كره الله
انبعاثهم فثبطهم الاستدراك هنا يحتاج الى تامل فلذلك قال الزمخشري ما حاصله ولكن كره
الله خروجهم فثبطوا عن الخروج فيكون المعنى ما خرجوا ولكن تثبطوا لان كراهة الله انبعاثهم تستلزم
تثبطهم عن الخروج والانبعاث الخروج اي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم وكسلهم لانهم
قالوا ان لم يؤذن لنا في الجلوس افسدنا وحرضنا على المؤمنين وقيل المعنى لو ارادوا الخروج لاعدوا
له عدة ولكن ما ارادوه لكراهة الله له وعلى هذا فهو استدراك على نفس المقدم على حالهم ما في
الاقيسة الاستثنائية وكان في خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسدة عظيمة بدليل انه
تعالى اخبر عنها بقوله الآتي ما زادوكم الا خبالا واما عتاب الله لرسوله بقوله لم اذنت لهم فانه
اذن لهم قبل تمام الفحص واكمال التامل والتدبر في حالهم فلهذا السبب عاتبه وقيل انما عاتبه لاجل
انه اذن لهم قبل ان يوحى اليه في امرهم بالقعود وقيل اقعدوا والقائل لهم هو الشيطان بما يلقيه

اليهم من الوسوسة وقيل قاله بعضهم لبعض وقيل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا عليهم
وقيل هو عبارة عن الخذلان اي اوقع الله في قلوبهم القعود خذلانا لهم وقال السيوطي اي قدر
الله ذلك اي القعود يعني فلا قوة بالفعل لا من الله ولا من النبي صلى الله عليه وسلم مَعَ الْقَاعِدِينَ
اي مع اولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان وفيه من الذم لهم والازدراء عليهم و
التنقص بهم ما لا يخفى لَوْ خَرَجُوا شروع في بيان المفاسد التي تترتب على خروجهم وفيه تسلية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن تخلف المنافقين ومعنى فِيكُمْ في جيشكم او في بمعنى
مع اي معكم مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا هو الفساد والنميمة وايقاع الاختلاف والاراجيف واصله
اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قيل هذا الاستثناء منقطع اي ما زادوكم قوة
ولكن طلبوا الخبال وقيل المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي الا خبالا فيكون متصلا
وقيل هو استثناء من اعم العام اي ما زادوكم شيئا الا خبالا فيكون الاستثناء من قسم الثاني
لان الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ الايضاع سرعة السير يقال
اوضع البعير اذا اسرع السير وقيل هو سير الخبب واوضع يستعمل لازما كما في القاموس ومتعديا
كما في المختار والخلة الفرجة بين الشيئين والمفرد خلل والجمع الخلال كجمل وجمال اي الفرج
التي تكون بين الصفوف والمعنى لسعوا بينكم بالافساد بما يختلقونه من الاكاذيب المشتملة
على الارجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين وهو استعارة تبعية شبه سرعة افسادهم
لذات البين بسرعة سير الركائب المسماة بالايضاع وهو اسراع سير البعير ثم استعير لسرعة
الافساد لفظ الايضاع ثم اشتق منه اوضعوا واصل الاستعارة لاوضعوا ركائبهم
خلالكم ثم حذف النمائم واقيم المضاف اليه مقامها لدلالة سياق الكلام على ان المراد النميمة
ثم حذف الركائب قاله الطيبي كما ذكره زكريا يَبْغُونَكُمُ يقال بغيته كذا طلبته له وابغيته كذا
اعنته على طلبه والمعنى يطلبون لكم الْفِتْنَةَ اي ما يفتنون به في ذات بينكم بما يصنعونه
من التحريش والافساد وقولهم للمؤمنين لقد جمعوا الكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم ولكم ستهزمون
منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل وقيل
الفتنة العيب والشر وقيل الفتنة هنا الشرك وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ اي والحال ان فيكم من يستمع

ما يقولونه من الكذب فينقله اليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم والفساد لاحوالكم قال مجاهد معناه محدثون لهم باحاديثكم غير منافقين وهم عيون للمنافقين ويجوز ان يكون المراد فيكم جواسيس منهم يسمعون لهم الاخبار منكم فاللام على الاول للتقوية وعلى الثاني للتعليل اي لاجلهم وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ بِالظّٰلِمِيْنَ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم فلذلك اقتضت حكمته البالغة ان لا يخرجوا معكم وكره انبعاثكم معهم ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقدم من عتابه على الاذن لهم في التخلف لانه سارع الى الاذن لهم ولم يكن قد علم من احوالهم لو خرجوا انهم يفعلون هذه الافاعيل فعوتب صلى الله عليه وسلم على تسرعه الى الاذن لهم قبل ان يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا الاية وقال في سورة الفتح سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتاخذوها الى قوله قل لن تتبعونا وفي الاية وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ اي لقد طلبوا الافساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها كما وقع من عبد الله بن أُبَيّ وغيره يوم احد حين انصرف باصحابه عنك ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون وَقَلَّبُوْا لَكَ الْاُمُوْرَ اي صرفوها من امر الى امر ودبروا لك الحيل والمكائد ورد الاراء في ابطال امرك وتقليب الامر تصريفه من امر الى امر وترديده لاجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف في وجوه الحيل حول وقلب اذا كان دائرا حول المكائد والحيل يدبر الرأي فيها ويتدبره حَتّٰى جَآءَ الْحَقُّ اي الى غاية هي مجيء الحق وهو النصر لك والتاييد وقيل الحق القران وَظَهَرَ اَمْرُ اللّٰهِ باعزاز دينه واعلاء شريعته وقهر اعدائه وَهُمْ كٰرِهُوْنَ لمجيء الحق وظهور امر الله ولكن كان ذلك على رغم منهم وَمِنْهُمْ اي من المنافقين مَنْ يَّقُوْلُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ائْذَنْ لِّيْ في التخلف عن الجهاد وَلَا تَفْتِنِّيْ اي لا توقعني في الفتنة اي المعصية والاثم اذا لم تأذن لي فتخلفت بغير اذنك وقيل معناه لا توقعني في الهلكة بالخروج عن ابن عباس قال لما اراد النبي صلى الله عليه وسلم ان يخرج الى غزوة تبوك قال لجد بن قيس يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الاصفر فقال يا رسول الله اني امرأ صاحب نساء ومتى ارى نساء بني الاصفر

افتتن فاذن لي ولا تفتني فانزل الله ومنهم من يقول ائذن لي الاية الا في الفتنة سقطوا
اي في نفس الفتنة وهي فتنة التخلف عن الجهاد والاعتذار الباطل والمعنى انهم ظنوا انهم بالخروج
وبترك الاذن لهم يقعون في الفتنة وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة وفي التعبير
بالسقوط ما يشعر بانهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من اعلى الى اسفل وذلك اشد من مجرد الدخول
في الفتنة ثم توعدهم على ذلك فقال وان جهنم لمحيطة بالكافرين اي مشتملة عليهم من جميع
الجوانب لا يجدون عنها مخلصا ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الاحوال وهذا وعيد لهم
على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث
والسير فلا نطول بذكرها ان تصبك حسنة تسؤهم اي حسنة كانت باي سبب اتفق كما
يفيده وقوعها في حيز الشرط وكذلك القول في المصيبة وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة
في القتال كما يفيده السياق دخولا اوليا فمن جملة ما يصدق عليه الحسنة الغنيمة والظفر
ومن جملة ما يصدق عليه المصيبة الخيبة والانهزام وهذا ذكر نوع اخر من خبث ضمائر
المنافقين وسوء افعالهم والاخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فان المساءة
بالحسنة والفرح بالمصيبة من اعظم ما يدل على انهم قد بلغوا في العداوة الى الغاية وان تصبك
مصيبة اي هزيمة او شدة كما تقدم وقابل الله هنا الحسنة بالمصيبة ولم يقابلها بالسيئة
كما قال في سورة ال عمران وان تصبكم سيئة يفرحوا بها لان الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وهي
في حقه مصيبة يثاب عليها لا سيئة يعاتب عليها والتي هناك خطاب للمؤمنين قاله الشهاب
يقولوا اي المنافقون حامدين لرأيهم قد اخذنا امرنا من قبل اي احتطنا لانفسنا واخذنا
بالحزم واعتزلنا عنهم وقعدنا عن الحرب فلم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم
من المصيبة ويتولوا وهم فرحون اي رجعوا الى اهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث
حال كونهم فرحين بالمصيبة التي اصابت المؤمنين وبما صنعوا من اخذ الامر لمقارنة الفرح لهم
معا تولهما قالوا فهذا القول امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بان يجيب عليهم فقال قل لهم بيانا لبطلان
ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ وفي كتابه
المنزل علينا وفائدة هذا الجواب ان الانسان اذا علم ان ما قدره الله كائن وان كل ما ناله من

اوشرا نما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ولم يجد مرارة شماتة الاعداء و
تشفي الحسدة هو مولنا اي ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الاديان
وعلى الله فليتوكل المؤمنون الفاء سببية والاصل وليتوكل قدم الظرف على الفعل لافادة
القصر ثم ادخلت الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل كما في قوله واياي فارهبون والتوكل
على الله تفويض الامور اليه والمعنى ان من حق المؤمنين ان يجعلوا توكلهم في جميع امورهم مختصا
بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره قل هل تربصون بنا اي هل تنتظرون ايها المنافقون ان يقع
بنا الا احدى الخصلتين الحسنيين اما النصرة والغنيمة او الشهادة والمغفرة وكلاهما مما
يحسن لدينا والحسنى تانيث للاحسن ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ وهذا ايضاح وكشف
لقوله الا ما كتب الله لنا ونحن نتربص بكم احدى المسائتين لكم من العواقب اما ان يصيبكم
الله بعذاب من عنده اي قارعة نازلة من السماء كما اصاب من قبلكم من الامم المهلكة فيسحتكم
بعذابه او بعذاب لكم بايدينا اي باظهار الله لنا عليكم بالقتل والاسر والنهب والسبي والفاء
في فتربصوا فصيحة والامر للتهديد كما في قوله ذق انك انت العزيز الكريم اي تربصوا بنا ما
ذكرنا من عاقبتنا انا اي نحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا
ويسوءكم قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم هذا الامر معناه الشرط والجزاء لان الله سبحانه
لا يامرهم بما لا يتقبله منهم والتقدير ان انفقتم طائعين او مكرهين فلن يتقبل منكم وقيل
هو امر في معنى الخبر اي انفقتم طوعا او كرها لن يتقبل منكم فهو كقوله استغفر لهم او لا
تستغفر لهم وفيه الاشعار بتساوي الامرين في عدم القبول اي انفقوا طائعين من غير
امر من الله ورسوله او مكرهين بامرهما وليس المراد بالطوع الرغبة لقوله الآتي الا وهم كارهون
اي لا رغبة لهم وسمي الامر منهما اكراها لانهم منافقون لا يأتمرون بالامر فكانوا بامرهما كالذي
لا يأتمرون به كالمكرهين على الانفاق او الطائعين من غير اكراه من رؤساءكم او مكرهين
منهم وهذه الآية وان كانت خاصة في انفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من انفق ماله
لغير وجه الله بل انفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه قاله الخطيب انكم كنتم قوما
فاسقين تعليل لعدم قبول انفاقهم والفسق هنا التمرد والعتو وهذا دفع لما يقال كيف

حال مع الكفر بالفسق الذي هو دونه وكيف صح ذلك منه مع التصريح بتعليله بالكفر كما يأتي وقد سبق بيان الفسق لغة وشرعا ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ استثنا من اعم الاشياء اي ما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الاشياء الا كفرهم بهما جعل المانع من القبول ثلاثة امور الاول الكفر والثاني وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى اي انهم لا يصلون في حال من الاحوال الا في حال الكسل والتثاقل لانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا فصلاتهم ليست الا رياء للناس وتظاهرا بالاسلام الذي يبطنون خلافه والثالث انهم لَا يُنْفِقُونَ اموالهم إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ولا ينفقونها طوعا لانهم يعدون انفاقها وضعا لها في مضيعة لعدم ايمانهم بما وعد الله ورسوله لا يقال ان الكفر سبب مستقل لعدم القبول فما وجه التعليل بمجموع الامور الثلاثة وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره اثر لان هذا انما يتوجه على قول المعتزلة القائلين بان العلل مؤثرة في الحكم واما اهل السنة فانهم يقولون هذه الاسباب معرفة غير موجبة للثواب ولا للعقاب واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائز قاله الشهاب فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ الاعجاب بالشيء ان تسر به سرور راض به متعجب من حسنه قيل مع نوع من الافتخار به واعتقاد انه ليس لغيره ما يساويه وهذا المعنى انما يناسب في اعجاب الشخص بما ل نفسه يقال اعجب بماله او ولده اي فرح به واغتر به وما هنا في اعجاب المرء بمال غيره والمعنى عليه لا تستحسن ما معهم من الاموال والاولاد ولا تجدها ولا تغتر برضاك بها فهي استدراج وقيل يقال في الاستحسان اعجبني بالالف في الذم والانكار عجبت وزان تعبت وهذا الخطاب وان كان مختصا بالنبي صلى الله عليه وسلم لكن يعم جميع المؤمنين إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بما يحصل معهم من الغم والحزن عند ان يغنمها المسلمون و ياخذوها قسرا من ايديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة اعينهم او بما يلقون في جمعها من المشقة والمتاعب وفيها من المصائب ومنه قول العرب بلوغ الامال في ركوب الاهوال والمؤمن قد علم انه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذابا في الدنيا واما المنافق فانه لا يعتقد كون الآخرة له ولا ان له فيها ثوابا

فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والحزن على المال والولد عذابا عليه في الدنيا فثبت بهذا
الاعتبار ان المال والولد عذاب على المنافق في الدنيا دون المؤمن وكذا في الآخرة يعذبهم
بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي اعطاهم ذلك وترك ما يجب عليهم من الزكوة
فيها والتصدق بما يحق التصدق به وقيل في الكلام تقديم وتاخير والمعنى فلا تعجبك اموالهم
لا اولادهم في الحيوة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لانهم المنافقون فهم ينفقون
كارهين فيعذبون بما ينفقون وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ الزهوق الخروج بصعوبة
والمعنى ان الله يريد ان يزهق انفسهم ويخرج ارواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به
الانبياء وارسلت به الرسل وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة قال الزمخشري والمراد
الاستدراج بالنعم كقوله انما نملي لهم ليزدادوا اثما كانه قيل ويريد ان يديم عليهم نعمه الى
ان يموتوا وهم كافرون مشغولون بالتمتع عن النظر للعاقبة ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر
من قبائح المنافقين فقال وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ اي من جملتكم في دين الاسلام والانقياد
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله سبحانه وَمَا هُم مِّنكُمْ في ذلك الا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم
وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ اي يخافون ان ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي فيظهرون لكم
الاسلام تقية منهم لا عن حقيقة لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً اي مكانا يلجئون اليه ويحفظون نفوسهم فيه
منكم من حصن او رأس جبل او قلعة او جزيرة والملجأ يصلح للمصدر والزمان والمكان والظاهر منها
هنا المكان قال ابن عباس الملجأ الحرز في الجبال وقيل حصنا ومعقلا أَوْ مَغَارَاتٍ جمع مغارة
من غار يغير قال الاخفش ويجوز ان يكون من اغار يغير والمغارات الغيران والسراديب وهي المواضع
التي يستتر فيها ومنه غار الماء وغارت العين والمغارة هي والمكان المنخفض في الارض او في الجبل والغور
من كل شيء قعره والغور المطمئن من الارض وغار الرجل غورا اتى الغور واغار بالالف مثله والغار
والمغار والمغارة كالكهف في الجبل والكهف كالبيت في الجبل وقيل للمغارة السرب في الارض كنفق
اليربوع والغار النقب في الجبل وهذا من ابدع النظم ذكرا اولا الامر الاعم وهو الملجأ من اي نوع
كان ثم ذكر الغيران التي يختفي فيها في اعلى الاماكن وهي الجبال ثم الاماكن التي يختفى فيها في الاماكن السافلة
وهي السروب وهي التي عبر عنها بالمدخل والمعنى لو وجدوا امكنة يغيبون فيها اشخاصهم عن اعينكم

أو مدخلا من الدخول أي سربا يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات قال ابن عباس
المدخل السرب كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم
لولوا إليه أي لالتجؤا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه وقيل المعنى لو كانوا يجدون مهربا لهربوا إليه أو
قوما يأمنون عندهم على أنفسهم لصاروا إليهم ولفارقوكم وهم يجمحون أي ولولا إليه وهم
يسرعون إسراعا إلى ذلك المكان لا يردهم شيء من جمح الفرس براكبه يجمح إذا لم يرده اللجام و
استعصى عليه حتى غلبه فهو جموح وجامح يستوي فيه المذكر والمؤنث وحاصل المعنى لو وجدوا
شيئا من هذه الأشياء المذكورة وهي شر الأمكنة وأضيقها لولوا إليه مسرعين هربا من
المسلمين لشدة بغضهم إياهم وتستراعنهم واستكراها لرؤيتهم ومنهم من يلمزك هذا
ذكر نوع آخر من قبائحهم وروي عن مجاهد أنه قال معنى يلمزك يرزوك ويسألك وأصل
عند أهل اللغة أن اللمز معنى العيب كما قال النحاس والجوهري يقال لمزه يلمزه إذا عابه وأصله الإشارة
بالعين ونحوها ورجل لماز ولمزة أي عياب فهو أخص من الغمز إذ هو الإشارة بالعين ونحوها
سواء كان على وجه الاستنقاص أو لا وأما اللمز فهو خاص بكونه على وجه العيب وقال الأزهري
أصله الدفع يقال لمزته أي دفعته وقال الليث هو الغمز في الوجه ومنه همزة لمزة أي كثير هذين
الفعلين قرئ يلمزك بكسر الميم وضمها وهما لغتان في المضارع ومعنى الآية ومن المنافقين
من يعيبك في الصدقات أي الزكوات والغنائم وتفريقها وقسمتها فإن أعطوا منها أي من
الصدقات بقدر ما يريدون رضوا بما وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعيبوه وذلك لأنه
لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا وليسوا من الدين في شيء وإن لم يعطوا منها ما يريدونه ويطلبونه
إذا هم يسخطون أي فاجأوا السخط وفائدة إذا الفجائية أن الشرط مفاجئ للجزاء وهاجم عليه
ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله أي ما فرضه الله لهم وقسمه وما أعطاهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم من الصدقات وقيل ذكر الله للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره تعالى
والأصل ما آتاهم الرسول وجواب لو محذوف أي لكان خيرا لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل
وقالوا عند أن أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو لهم حسبنا الله أي كفانا الله سيؤتينا
سيعطينا الله من فضله ويعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه ونؤمله إنا إلى الله راغبون

فيهاتان الجملتان كالشرح لقولهم حسبنا الله فلذلك لم يتعاطفا لانهما كالشيء الواحد فشدة الاتصال منعت العطف قاله الكرخي وقد اخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسما اذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال اعدل يا رسول الله فقال ويحك ومن يعدل اذا لم اعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لي فاضرب عنقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعه فان له اصحابا يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحديث حتى قال وفيهم نزلت هذه الآية واخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين سمعت رجلا يقول ان هذه القسمة ما اريد بها الله فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت ذلك له فقال رحمة الله على موسى قد اوذي باكثر من هذا فصبر ونزل يعني هذه الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم وانما من صيغ القصر وتعريف الصدقات للجنس اي جنس هذه الصدقات مقصورة على هذه الاصناف الثمانية المذكورة لا يتجاوزها بل هي لهم لا لغيرهم ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء منها ولم يأخذ لنفسه منها شيئا وقد اختلف العلماء هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الاصناف الثمانية او يجوز صرفها الى البعض دون البعض على حسب ما يراه الامام او صاحب الصدقة فذهب الى الاول حذيفة والشافعي وجماعة من اهل العلم وذهب الى الثاني مالك وابو حنيفة وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وابو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران قال ابن جرير وهو قول عامة اهل العلم احتج الاولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحارث الصدائي عند ابي داؤد والدارقطني قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته فاتى رجل فقال اعطني من الصدقة فقال له ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزاها ثمانية اصناف فان كنت من تلك الاجزاء اعطيتك واجاب الآخرون بان ما في الآية من القصر انما هو لبيان الصرف والمصرف لا لوجوب استيعاب الاصناف وبان في اسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن انعم الافريقي وهو ضعيف ومما يؤيد ما ذهب اليه الآخرون قوله تعالى ان تبدوا الصدقات فنعما هي

وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة
وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال امرت ان آخذ الصدقة من اغنيائكم واردها في فقرائكم وحكى
مالك الاجماع على القول الآخر قال ابن عبد البر يريد اجماع الصحابة فانه لا يعلم له مخالف منهم
وقدم الفقراء لانهم احوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم وقد اختلف اهل
العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على اقوال فقال يعقوب بن السكيت والقتيبي ويونس بن
حبيب ان الفقير احسن حالا من المسكين قالوا لان الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه
والمسكين الذي لا شيء له وذهب الى هذا قوم من اهل الفقه منهم ابو حنيفة وقال الآخرون
بالعكس فجعلوا المسكين احسن حالا من الفقير واحتجوا بقوله تعالى اما السفينة فكانت لمساكين
فاخبر ان لهم سفينة من سفن البحر وربما ساوت جملة من مال ويؤيده تعوذه صلى الله عليه وسلم
من الفقر مع قوله اللهم احيني مسكينا وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين والى هذا
ذهب الاصمعي وغيره من اهل اللغة وحكاه الطحاوي عن الكوفيين وهو احد قولي الشافعي
واكثر اصحابه وقال قوم ان الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو احد قولي الشافعي واليه ذهب
ابن القاسم وسائر اصحاب مالك وبه قال ابو يوسف وقال قوم الفقير المحتاج المتعفف والمسكين
السائل قاله الازهري واختاره ابن شعبان وهو المروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة
وقد قيل غير هذه الاقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها والاولى في بيان ماهية
المسكين ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابي هريرة ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة
والتمرتان قالوا فما المسكين يا رسول الله قال الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه
ولا يسأل الناس شيئا والعاملين عليها اي السعاة والجباة الذين يبعثهم الامام لتحصيل الزكوة فانهم
يستحقون منها قسطا واختلف في القدر الذي يأخذونه منها فقيل الثمن روي ذلك عن مجاهد
والشافعي وقيل على قدر اعمالهم من الاجرة روي ذلك عن ابي حنيفة واصحابه وقيل يعطون من بيت
المال قدر اجرتهم روي ذلك عن مالك ولا وجه لهذا فان الله قد اخبر بان لهم نصيبا من الصدقة فكيف
يمنعون منها ويعطون من غيرها واختلفوا هل يجوز ان يكون العامل هاشميا ام لا فمنعه قوم وأجاز

اخرون قالوا ويعطى من غير الصدقة ولا يختص العامل في الساعي والجابي اذ منه القاسم والكاتب الذي يكتب ما اعطاه ارباب الاموال والحاشر الذي يجمع المستحقين والعريف والحاسب والمؤلفة قلوبهم هم قوم كانوا في صدد الاسلام فقيل هم الكفار الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتالفهم ليسلموا وكانوا لا يدخلون في الاسلام بالقهر والسيف بل بالعطاء وقيل هم اسلموا في الظاهر ولم يحسن اسلامهم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتالفهم بالعطاء وقيل هم من اسلم من اليهود والنصارى وقيل هم قوم من عظماء المشركين لهم اتباع اعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليولفوا اتباعهم على الاسلام وقد اعطى النبي صلى الله عليه وسلم جماعة ممن اسلم ظاهرا كابي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى اعطى كل واحد منهم مائة من الابل يؤلفهم بذلك واعطى اخرين دونهم وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الاسلام ام لا فقال عمر والحسن والشعبي قد انقطع هذا الصنف بعزة الاسلام وظهوره وهذا مشهور من مذهب مالك واصحاب الرأي وقد ادعى بعض الحنفية ان الصحابة اجمعت على ذلك وقد صار اليه الروياني وجماعة وقال جماعة من العلماء منهم الشافعي وهو الموافق لظاهر الاية ان سهمهم باق لان الامام ربما احتاج ان يؤلف على الاسلام وانما قطعهم عمر لما رأى من اعزاز الدين وبه افتى الماوردي في كتابه الاحكام السلطانية قال يونس سالت الزهري عنهم فقال لا اعلم نسخ ذلك فعلى القول الاول يرجع سهمهم لسائر الاصناف ومن المؤلفة قلوبهم كفار يخاف شرهم بحيث لو اعطوا لا نكف شرهم وهذا لا يعطى من زكوة ولا من غيرها باتفاق ومنهم من يذب عن المسلمين ومنهم من يقاتل من يليهم ويجاورهم من مانعي الزكوة ويقبض زكاتهم فتلخص ان المؤلفة اقسام وفي هذه الاقسام اقوال ذكرها في الجمل وفي الرقاب اي مصرفها في فكها بان يشترى رقابا ثم يعتقها وروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وبه قال مالك واحمد بن حنبل واسحاق وابو عبيد وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد انهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة وهو قول الشافعي واكثر الفقهاء واصحاب الرأي ورواية عن مالك وبه قال سعيد بن جبير والضحاك والزهري والليث فيدل عليه ايضا قوله تعالى واتوهم من مال الله الذي اتاكم والاولى حمل ما في الاية على القولين بجميع الصدقة الرقاب على شراء العبد

واعتاقه وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة والغارمين هم الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب وقد أعان النبي صلى الله عليه وسلم من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها وقال السيوطي ولإصلاح ذات البين ولو أغنياء إذا استدانوه لذلك وأصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق على النفس وسمي الدين غرما لكونه شاقا على الإنسان ومنه قيل للعشق غرام ويعبر به عن الهلاك في قوله تعالى إن عذابها كان غراما وغرامة المال فيه مشقة عظيمة وفي سبيل الله هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء وهذا قول أكثر العلماء وقال ابن عمر هم الحجاج والعمار وروي عن أحمد وإسحق أنهما جعلا الحج من سبيل الله وقال أبو حنيفة وصاحباه لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيرا منقطعا به وقيل إن اللفظ عام فلا يجوز قصره على نوع خاص ويدخل فيه جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك والأول أولى لإجماع الجمهور عليه وابن السبيل هو المسافر والسبيل الطريق ونسب إليها المسافر لملازمته إياها والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وإن كان غنيا في بلده وإن وجد من يسلفه وقال مالك إذا وجد من يسلفه فلا يعطى وقال قتادة هو الضعيف وقال فقهاء العراق هو الحاج المنقطع في سفره والأول أولى أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة العامل عليها أو الرجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغني وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عدي بن الخيار قال أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب فريضة من الله مصدر مؤكد لأن قوله إنما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم وللمعنى أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته وقيل إنها حال من الفقراء قاله الكرماني وأبو البقاء أي كائنة

لهم حال كونها فريضة اي مصروفة او هي بمعنى مفروضة او مصدر وقع موقع الحال قال في
الكشاف فان قلت لم عدل عن اللام الى في في الاربعة الاخيرة قلت للايذان بانها ارسخ في
استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره وقيل النكتة في العدول ان الاصناف الاربعة الاول
يصرف المال اليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤا وفي الاربعة الاخيرة لا يصرف المال اليهم بل يصرف
الى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لاجلها استحقوا سهم الزكوة ﴿والله عليم﴾ بمصالح
عباده ﴿حكيم﴾ فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقص ولا خلل قال السيوطي فلا يجوز
صرفها لغير هؤلاء ولا منع صنف منهم اذا وجد فيقسمها الامام عليهم على السواء وله
تفضيل بعض احاد الصنف على بعض وافادت اللام وجوب استغراق افراده انتهى وهو ظاهر
الاية وقال الرازي لا دلالة في الاية على قول الشافعي في انه لا بد من صرفها الى الاصناف وقد
اشار الى ذلك القاضي ورد عليه بعض الشيوخ وقال ظاهر الاية يؤيد قوله وتمام البحث
في الجمل ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن﴾ هذا نوع اخر مما حكاه الله من فضائح
المنافقين وقبائحهم وذلك انهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه الطعن والذم هو اذن
قال الجوهري يقال رجل اذن اذا كان يسمع مقال كل احد يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم
اقماهم الله انهم اذا اذوا النبي صلى الله عليه وسلم وبسطوا فيه السنتهم يبلغه ذلك اعتذروا له وقبل
ذلك منهم لانه يسمع كل ما يقال له فيصدقه وانما اطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه
انه اذن مبالغة لانهم سموه بالجارحة التي هي الة السماع حتى كان جملته اذن سامعة ونظيره
قولهم للربيئة اي الطليعة عين وفي اطلاق الاذن عليه مجاز مرسل من اطلاق اسم الجزء
على الكل للمبالغة في استماعه وايذاؤهم له هو قولهم هو اذن لانهم نسبوه الى انه يصدق كل ما
يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جنايتهم كرما وحلما
وتغاضيا ثم اجاب الله عن قولهم هذا فقال ﴿قل هو اذن خير﴾ بالاضافة وقرئ بالتنوين كانه
قيل نعم هو اذن ولكن نعم الاذن هو لكونه اذن خير لكم وليس باذن في غير ذلك كقولهم
رجل صدق يريدون الجودة والصلاح والمعنى انه يسمع الخير ولا يسمع الشر ﴿يؤمن بالله ويؤمن
للمؤمنين﴾ اي يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الايمان فيقبل قولهم ويسلم ويرضى لهم ولا يقبل قول المنافقين

واللام مزيدة للفرق بين ايمان الامان من الخلود في النار وهو الايمان المقابل للكفر وحقه ان يعدى بالباء وبين ايمان التسليم والتصديق فانه يعدى باللام وان كان حقه ان يعدى بنفسه كالتصديق وهذا موافق لكثير من الآيات كقوله وما انت بمؤمن لنا وقوله ان يؤمنوا لكم وقوله انؤمن لك واما قوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وقوله آمنتم به فمشترك الدلالة بين الايمان بموسى والايمان بالله لان من آمن بموسى حقيقة آمن بالله كعكسه وَرَحْمَةٌ اي وانه رحمة لهم وقرئ رحمة بالخفض واستبعده النحاس عند اهل العربية والمعنى ان النبي صلى الله عليه وسلم اذن خير للمنافقين ورحمة لهم حيث لم يكشف اسرارهم ولم يهتك استارهم ولا فضحهم فكأنه قال هو اذن كما قلتم لكنه اذن خير لكم لا اذن سوء فسلم لهم قولهم فيه الا انه فسره بما هو مدح له وثناء عليه وان كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ اي اظهروا الايمان وان لم يكونوا مؤمنين حقيقة وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لما تقدم من قولهم هو اذن ونحو ذلك مما يصدق عليه انه اذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ اي شديد الالم عن ابن عباس قال كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس اليه ويسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين وهو الذي قال لهم انما محمد اذن من حدثه بشيء صدقه فانزل الله فيه هذه الآية وعن عمير بن سعد قال فيّ انزلت هذه الآية وذلك ان عميرا كان يسمع احاديث اهل المدينة فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته وقالوا هو اذن فانزلت فيه يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ الخطاب للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم فاذا بلغ ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على انهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الايمان الكاذبة ان يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم فقال وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ من ارضاء المؤمنين بالايمان الكاذبة فانهم لو اتقوا الله وتركوا النفاق لكان ذلك اولى لهم وافراد الضمير في يرضوه اما للتعظيم للجناب الالهي بافراده بالذكر او لكونه لا فرق بين ارضاء الله وارضاء رسوله فارضاء الله ارضاء لرسوله او المراد الله احق ان يرضوه ورسوله كذلك كما قال سيبويه ورجحه النحاس او لان الضمير موضوع موضع الاشارة فانه يشار

الى الواحد والمتعدد او الضمير راجع الى المذكور وهو يصدق عليهما وقال الفراء المعنى ورسوله
احق ان يرضوه والله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت وجواب إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ
محذوف اي فليرضوا الله ورسوله فانهما احق بالارضاء ولا يكون ذلك الا بالطاعة والمتابعة
وايفاء الحقوق في باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا أَلَمْ يَعْلَمُوا استفهام توبيخ قال اهل
المعاني الم تعلم خطاب لمن علم شيئا ثم نسيه او انكره فيقال له الم تعلم انه كان كذا وكذا
والمعنى الم يعلموا من شرائع الدين التي علمهم رسولنا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ اي يخالفه ويخاصم رسوله
واصل المحاددة في اللغة وقوع هذا في حد وذلك في حد كالمشاقة يقال حاد فلان فلانا
اي صار في حد غير حده وكان كل واحد من المتخاصمين صار في محل غير محل صاحبه فَأَنَّ لَهُ
اي فحق ان له وقال الاخفش المعنى فوجوب النار له وانكره المبرد وقال هذا خطأ نَارَ جَهَنَّمَ
جزاء خَالِدًا فِيهَا على الدوام ذَٰلِكَ اي ما ذكر من العذاب الْخِزْيُ الْعَظِيمُ اي البالغ الى الغاية
التي لا يبلغ اليها غيره وهو الذل والهوان يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ قيل هو خبر
وليس بامر وقال الزجاج معناه ليحذروا والمعنى على الاول ان المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن
فيهم خوفا من الفضيحة وعلى الثاني الامر لهم بان يحذروا ذلك ومعنى عليهم على المؤمنين في
شان المنافقين على ان الضمير للمؤمنين ولا يبالى بتفكيك الضمائر عند ظهور الامر لعود المعنى
اليه قاله الكرخي والاولى ان يكون الضمير للمنافقين اي في شانهم تُنَبِّئُهُمْ اي المنافقين بِمَا
فِي قُلُوبِهِمْ مما يسرونه فضلا عما يظهرونه وهم وان كانوا عالمين بما في قلوبهم فالمراد من انباء
السورة لهم اطلاعهم على ان المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى
الفاضحة والمبعثرة والمثيرة لانها فضحت المنافقين وبعثرت عن اخبارهم واثارها واسفرت
عن مخازيهم ومثالبهم ثم امر الله رسوله بان يجيب عليهم فقال قُلِ اسْتَهْزِئُوا امر تهديد
اي افعلوا الاستهزاء إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون اما
بانزال سورة او باخبار رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك ونحو ذلك وَلَئِنْ لام قسم اي والله لئن
سَأَلْتَهُمْ عما قالوه من الطعن في الدين وثلب المؤمنين وهم سائرون معك الى تبوك بعد
ان يبلغ اليك ذلك ويطلعك الله عليه لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ في الحديث لنقطع

الطريق ولم نقصد ذلك ولم يكن في شيء من امرك ولا امر المؤمنين ثم امره الله ان يجيب عنهم
فقال قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون الاستفهام للتقريع والتوبيخ واثبت وقوع
ذلك منهم ولم يعبأ بانكارهم لانهم كانوا كاذبين في الانكار بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك
منهم حيث جعل المستهزأ به واليا حرف النفي فان ذلك انما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته
ثم قال لا تعتذروا نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة فان ذلك غير مقبول منهم
وقد نقل الواقدي عن ائمة اللغة ان معنى الاعتذار محو اثر الذنب قطعه من قولهم اعتذر
المنزل اذا درس واعتذرت المياه اذا انقطعت قد كفرتم اي اظهرتم الكفر بما وقع منكم من
الاستهزاء المذكور وفيه ان محمد ابن عمر انه نزل في اصحابنا قرآنا وانما هو قوله وكلامه اطلع
الله نبيه صلى الله عليه وسلم على قولهم بعد ايمانكم اي بعد اظهاركم الايمان مع كونكم تبطنون الكفر
ان نعف عن طائفة منكم وهم من اخلص الايمان وترك النفاق وتاب عنه كمخشن بن حمير
قال الزجاج الطائفة في اللغة الجماعة قال ابن الانباري ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند
العرب نعذب طائفة بانهم اي بسبب انهم كانوا مجرمين مصرين على النفاق لم يتوبوا
منه المنافقون وكانوا ثلثمائة والمنافقات وكن مائة وسبعين بعضهم من بعض اي
متشابهون في الدين كابعاض الشيء الواحد ذكر ههنا جملة احوال المنافقين وان ذكورهم في
ذلك كاناثهم وانهم متناهون في النفاق والبعد عن الايمان وفيه اشارة الى نفي ان يكونوا من
المؤمنين ورد لقولهم ويحلفون بالله انهم لمنكم ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال
المنافقين فقال يأمرون اي يأمر بعضهم بعضا بالمنكر هو كل قبيح عقلا او شرعا وينهون
عن المعروف هو كل حسن عقلا وشرعا قال الزجاج هذا متصل بقوله يحلفون بالله انهم
لمنكم وما هم منكم اي ليسوا من المؤمنين ولكن بعضهم من بعض اي متشابهون في الامر
بالمنكر والنهي عن المعروف ويقبضون ايديهم اي يشحون فيما ينبغي اخراجه من المال في الصدقة
والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح كما ان البسط كناية عن الكرم نسوا الله فنسيهم النسيان
الترك اي تركوا ما امرهم به فتركهم من رحمته وفضله او تركوا ذكر الله وعبادته فترك الله
ذكرهم فمن ذكرهم بالرحمة والاحسان لان النسيان الحقيقي لا يصح اطلاقه على الله سبحانه وانما

اطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان فهو مجاز مرسل ثم حكم عليهم بالفسق فقال إِنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ الفسق الخروج عن طاعة الله الى معاصيه والانسلاخ من كل خير وهذا التركيب يفيد انهم هم الكاملون في الفسق والتمرد والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير او للاهانة والتحقير فان الاظهار كما ياتي للتعظيم ياتي للتحقير كما نص عليه بعضهم وَعَدَ اللّٰهُ الْمُنٰفِقِيْنَ وَالْمُنٰفِقٰتِ وَالْكُفَّارَ يقال وعده في الخير والشر والاختلاف انما هو بالمصدر فمصدر الاول وعد ومصدر الثاني وعيد فاستعمل وعد في الشر كما هنا وفي الخير فيما سياتي في قوله وعد الله المؤمنين ثم بيّن مآل حال اهل النفاق والكفر بان لهم نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِيْنَ اي يصلونها مقيمين فِيْهَا مقدرين الخلود هِيَ اي النار حَسْبُهُمْ اي كافيهم جزاء وعقابا لا يحتاجون الى زيادة على عذابها وَلَعَنَهُمُ اللّٰهُ اي ومع ذلك فقد طردهم عن بابه وابعدهم عن رحمته وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيْمٌ اي نوع آخر من العذاب غير النار دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير او عذاب في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق اذ هم دائما في حذر من ان يطلع المسلمون على نفاقهم كَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة الى الخطاب اي انتم مثل الناس قبلكم او المعنى فعلتم مثل فعل الذين مضوا من قبلكم من الامم وقال الزجاج التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلهم وقيل المعنى فعلتم كافعال الذين من قبلكم في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقبض الايدي ثم وصف حال هؤلاء الكفار الذين من قبلهم وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بانهم كَانُوْا اَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً اي بطشا في الابدان ومنعة من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وَّاَكْثَرَ اَمْوَالًا وَّاَوْلَادًا منكم فَاسْتَمْتَعُوْا اي تمتعوا بِخَلَاقِهِمْ اي نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذ الدنيا وخاضوا في الباطل اخذا مما ياتي واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فانه ما قدر لصاحبه فَاسْتَمْتَعْتُمْ انتم بِخَلَاقِكُمْ اي بنصيبكم الذي قدره الله لكم كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ اي انتفعتم به كما انتفعوا به والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم بمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله من الشهوات الفانية والتشاغل بها عن السعي في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية وقد قيل ما

فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الاولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانيا ثم تكريره في حق الاولين ثالثا واجيب بأنه تعالى ذم الاولين بالاستمتاع بما اوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ الفانية فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة في ذم المخاطبين وتقبيح حالهم وكذلك هذه الطريقة في التشبيه الثاني وهو قوله وخضتم حيث لم يقل وخاضوا وخضتم كخوضهم اكتفاء بالتمهيد الاول فاستغنى عن ذكر التمهيد في التشبيه الثاني قال ابن عباس ما اشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو اسرائيل اشبهنا بهم والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه وَخُضْتُمْ في الباطل وتلبستم به كَالَّذِي خَاضُوا اي كخوضهم او كالذين خاضوا او كالفوج الذي خاضوا او كالخوض الذي خاضوه يقال خضت الماء اخوضه خوضا وخياضا والموضع مخاضة وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا وجمعها المخاض والمخاوض ويقال منه خاض القوم في الحديث والمعنى خضتم في اسباب الدنيا واللهو واللعب وقيل في امر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب و دخلتم في ذلك أُولَٰئِكَ اشارة الى كل من المشبهين والمشبه بهم في مجموع الفريقين حَبِطَتْ بطلت أَعْمَالُهُمْ اي ما عملوه مما هو في صورة طاعة لا هذه الاعمال المذكورة ههنا فانها من المعاصي وعاقبتها غنية عن البيان فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اي انها باطلة على كل حال اما بطلانها في الدنيا فلان ما يترتب على اعمالهم فيها من السعة والصحة وغير ذلك لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقرا ومن العز ذلا ومن القوة ضعفا واما في الآخرة فلانهم يصيرون الى عذاب النار ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الاعمال التي يظنونها طاعة وقربة وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ اي المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة أَلَمْ يَأْتِهِمْ اي المنافقين او الكافرين رجوع الى الغيبة عن الخطاب ففيه التفات وهو استفهام بمعنى التقرير اي قد اتاهم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ اي خبرهم الذي له شأن وهو ما فعلوه من التكذيب وما فعل بهم من الاهلاك فما اشبه حالهم بحالهم فيما سلف على الاجمال في التشبيه بهم ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب اخبارهم لان آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من ارض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون اخبارهم قَوْمِ نُوحٍ

وقد هلكوا بالاغراق واهلكوا بالطوفان وهم اولهم وثانيهم قوم عاد وقد اهلكوا بالريح العقيم وثالثهم قوم ثمود وقد اخذوا بالصيحة واهلكوا بالرجفة وقوم ابراهيم وقد سلط الله عليهم البعوض وقيل اهلكوا بسلب النعمة عنهم وهم رابعهم واصحاب مدين وهم قوم شعيب وقد اخذهم الرجفة واهلكوا بعذاب يوم الظلة وهم خامسهم وسادسهم اصحاب المؤتفكات وهي قرى قوم لوط وقد اهلكهم الله بما امطر عليهم من الحجارة وهي بدل من الذين بدل بعض من كل فقوله وعاد الى اخر المعطوفات كلها على قوم نوح لا على نوح خبر ان الاخير وهو المؤتفكات على حذف مضاف كما قدرنا اذ هي القرى وليست من الذين خلوا حتى تكون من جملة البدل وسميت مؤتفكات لانها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها والائتفاك الانقلاب يقال افكه اذا قلبه وبابه ضرب ويقال افكته فائتفك اي قلبته فانقلب والمادة تدل على التحول والصرف ومنه يؤفك عنه من افك اي يصرف اتتهم استينافي لبيان نبأهم رسلهم اي رسل هذه الطوائف الست وقيل رسل اصحاب المؤتفكات لان رسولهم لوط وقد بعث الى كل قرية من قراهم رسولا بالبينات اي المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا امرنا فاحذروا ان يصيبكم مثل ما اصابهم والفاء في فما كان الله ليظلمهم للعطف على مقدر يدل عليه الكلام اي فكذبوهم فاهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ولم يعجل العقوبة لهم لانه قد بعث اليهم رسله فانذروهم وحذروهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون بسبب ما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لانبيائه وهذا التركيب يدل على ان ظلمهم لانفسهم كان مستمرا وقيل تقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض اي قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف واتفاق الكلمة والعون والنصر بسبب ما جمعهم من امر الدين وضمهم من الايمان بالله قال ابن عباس اخاهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية له فظهر الفرق بين الفريقين ثم بين اوصافهم الحميدة كما بين اوصاف من قبلهم من المنافقين فقال يأمرون بالمعروف اي بما هو معروف في الشرع غير منكر ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره وينهون عن المنكر اي عما هو منكر في الدين غير معروف اي بجنس المعروف وجنس المنكر الشاملين لكل خير وشر

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحاديث ما هو معروف
وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ المفروضة ويتمون اركانها وحدودها فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في
مقابلة ما سبق من قوله نسوا الله وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ الواجبة عليهم وهو في مقابلة قوله ويقبضون
ايديهم قيل خصصهما بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالابدان
والاموال وقد تقدم معنى هذا وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ في جميع ما امرهم بفعله او نهاهم بتركه
وهذا في مقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة أُولَٰئِكَ يعني المؤمنين
والمؤمنات المتصفين بهذه الاوصاف الفاضلة سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ السين للمبالغة والدلالة
على تحقق ذلك وتقرره بمعونة المقام والتوكيد في انجاز الوعد لكونه بشارة امحضت للتاكيد
الوقوع اي ما وعد به من الرحمة والرضوان وما اعد لهم من النعيم المقيم في الجنان إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
لا يغالب ولا يعجزه شيء عن انجاز وعده ووعيده حَكِيمٌ في افعاله واقواله لا يضع شيئا الا في
محله وفيه ترغيب وترهيب وتعليل لقوله سيرحمهم الله فهو لف ونشر مشوش ثم ذكر تفصيل
ما يدخل تحت آثار الرحمة اجمالا باعتبار الرحمة في الدار الآخرة فقال وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
والمؤمنات اي كل مؤمن ومؤمنة جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الاظهار في موضع
الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان للوعد المذكور ومعنى جري الانهار
من تحت الجنات انها تجري تحت اشجارها وغرفها والمراد البساتين التي يتحير في حسنها الناظر
خَالِدِينَ فِيهَا اي مقدرين الخلود فيها وقد تقدم تحقيق الآية في البقرة وَمَسَاكِنَ اي منازل يسكنون
فيها من الدر والياقوت طَيِّبَةً تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ اقامة
يقال عدن بالمكان اذا اقام به ومنه المعدن اي بساتين خلد وقيل هي اعلى الجنة وقيل
اوسطها وقيل قصور من ذهب لا يدخلها الا نبي او صديق او شهيد واخرج ابن ابي حاتم
والطبري بسنده عن عمران وابن مردويه عن الحسن قال سألت عمران بن حصين وابا هريرة
عن تفسير قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن قالا على الخبير سقطت سألنا عنها
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة
حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمرد خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون

فراشا من كل لون على كل فراش امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة في كل مائدة
سبعون لونا من كل طعام في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة في كل
غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله اجمع قلت ووصف الله الجنة هنا باوصاف الاول جري الانهار
من تحتها ليميل الطبع اليها والثاني انهم فيها خالدون لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيير والثالث طيب
مساكنها الخالية عن الكدورات والرابع انها ذات عدن اي اقامة غير منقطعة هذا على ماهو
معنى عدن لغة وقيل هو علم قال الرازي والحاصل ان في عدن قولين احدهما انه اسم علم لموضع
معين في الجنة والآثار والاخبار تقوي ذلك وقال الزمخشري انه علم بدليل قوله جنات عدن
التي وعد الرحمن عباده والثاني انه صفة للجنة بمعنى اقامة فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها
عدن والاحاديث في صفة الجنات واصنافها كثيرة وقد اوضحت المقام في كتابي مثير ساكن
الغرام الى روضات دار السلام فليرجع اليه وَرِضْوَانٌ حقير يسير مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ من ذلك
كله الذي اعطاهم الله اياه اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط كل شرف وسيادة
ولعل عدم نظمه في سلك الموعود به مع عزته في نفسه لانه متحقق في ضمن كل موعود ولانه
مستمر في الدارين وفيه دليل على انه لا شيء من النعم وان جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه
وان ادنى رضوان الله لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية وان كانت على غاية ليس وراءها
غاية اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه سخط ولا يكدره نكد يا من بيده الخير دقه وجله ذَٰلِكَ اي
ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ دون كل فوز مما يعده الناس
فوزا من حطام الدنيا واخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابي سعيد قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الله يقول لاهل الجنة يا اهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في
يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد اعطيتنا ما لم تعطه احدا من
خلقك فيقول الا اعطيكم افضل من ذلك قالوا يا ربنا واي شيء افضل من ذلك قال احل
عليكم رضواني فلا اسخط عليكم بعده ابدا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ الامر
للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهاد امر لامته من بعده وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم بالسيف و
السنان حتى يسلموا وجهاد المنافقين يكون باقامة الحجة عليهم باللسان والبيان حتى يخرجوا عنه

ويؤمنوا بالله وبه قال ابن مسعود قال الحسن ان جهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم
واختاره قتادة قيل في توجيهه ان المنافقين كانوا اكثر من يفعل موجبات الحدود قال ابن العربي
ان هذه دعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق انما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق
دائما لا بما يتلبس به الجوارح ظاهرا واخبار المحدودين تشهد سياقتها انهم لم يكونوا منافقين
وقال الطبري اولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الاية
على وجوب جهاد المنافقين وليس في الاية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد
دلت الدلائل المنفصلة ان الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة
عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود واغلظ اي شدد
عليهم اي الفريقين بالانتهار والمقت والجهاد واصل الغلظ نقيض الرأفة وهو شدة القلب
وخشونة الجانب قيل وهذه الاية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح ومأواهم اي
مسكنهم جهنم قال ابو البقاء ان قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء اشبه بهذا الموضع ففيه
ثلاثة اجوبة احدها ان الواو واو الحال وتلك الحال حال كفرهم والتقدير افعل ذلك في حال
استحقاقهم جهنم والثاني تقديره واعلم ان مأواهم جهنم والثالث ان الكلام قد حمل على المعنى
والمعنى انه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الآخرة فيجعل جهنم مأواهم
قال السمين ولا حاجة الى هذا كله بل هذه جملة استئنافية قال ابو السعود مستأنفة
لبيان مآل امرهم بعد بيان عاجله وبئس المصير مصيرهم اليها ثم ذكر من خصال المنافقين
انهم يحلفون الايمان الكاذبة فقال يحلفون بالله ما قالوا استئناف مسوق لبيان ما صدر عنهم
من الجرائر الموجبة للامر بجهادهم والغلظة عليهم وقد اختلف ائمة التفسير في سبب
نزول هذه الاية فقيل نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت وذلك
انه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم فقالا لئن كان محمد
صادقا على اخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير فقال له عامر بن قيس
اجل والله ان محمدا الصادق مصدق وانك لشر من الحمار واخبر عامر بذلك النبي
صلى الله عليه وسلم وجاء الجلاس فحلف بالله ان عامرا لكاذب وحلف عامر لقد قال وقال اللهم

انزل على نبيك شيئا فنزلت وقيل ان الذي سمع ذلك عاصم بن عدي وقيل حذيفة
وقيل بل سمعه ولد امرأته اي امرأة الجلاس واسمه عمير بن سعد فهم الجلاس بقتله لئلا
يخبر بخبره وقيل ان هذه الآية نزلت في عبد الله بن ابي رأس المنافقين لما قال ما مثلنا
ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فاخبر
النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فجاء عبد الله بن ابي فحلف انه لم يقله وقيل انه قول جميع المنافقين
وان الآية نزلت فيهم وعلى تقدير ان القائل واحد او اثنان فنسبة القول الى جميعهم هي
باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف مع المنافقين لمن قد قال وحلف وفي الباب احاديث
مختلفة في سبب نزول هذه الآية وفيما ذكرناه كفاية ثم رد الله على المنافقين وكذبهم و
بين انهم حلفوا كذبا فقال وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وهي ما تقدم بيانه على اختلاف الاقوال
السابقة وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ اي كفروا بهذه الكلمة بعد اظهارهم الاسلام وان كانوا
كفارا في الباطن والمعنى انهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة اسلامهم وَهَمُّوا بِمَا لَمْ
يَنَالُوا قيل هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك وهم بضعة
عشر رجلا فضرب عمار بن ياسر في قول حذيفة بن اليمان وجوه الرواحل لما غشوه فرجعوا
والقصة مبسوطة في سيرة الحلبي وغيرها وقيل هموا بعقد التاج على راس عبد الله بن ابي وقيل
هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وَمَا نَقَمُوا إِلَّا
أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ اي ما عابوا وانكروا وكرهوا الا ما هو حقيق بالمدح
والثناء وهو اغناء الله لهم من فضله والاستثناء مفرغ من اعم العام فهو من تاكيد المدح بما
يشبه الذم وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة
اتسعت معيشتهم وكثرت اموالهم فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه وسلم النعمة وقيل انهم بطروا
النعمة اشرا فَإِنْ يَتُوبُوا اليه فان تحصل منهم التوبة والرجوع الى الحق يَكُ ذلك الذي فعلوه من
التوبة خَيْرًا لَهُمْ في الدين والدنيا وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن اسلامه وفي ذلك
دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق فمنع قبولها
مالك واتباعه لانه لا يعلم صحة توبته اذ هو في كل حين يظهر التوبة والاسلام وَإِنْ يَتَوَلَّوْا

اي يعرضوا عن التوبة والايمان ويصروا على النفاق والكفر يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا بالقتل والاسر ونهب الاموال عاجلا فلا ينافي ما سبق من ان قتالهم باللسان والحجة لا بالسيف لان ذاك اذا لم يظهر الكفر بل اظهر الايمان وَفِي الْآخِرَةِ بعذاب النار آجلا وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مع سعتها وتباعد اقطارها وكثرة اهلها مِنْ وَلِيٍّ يواليهم وَلَا نَصِيرٍ ينصرهم وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ هي لام قسم اي والله لئن آتَانَا مِن فَضْلِهِ بأن يوسع علينا في الرزق لَنَصَّدَّقَنَّ هي لام الجواب للقسم وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له اي لنخرج من ذلك المال الصدقة وهي اعم من المفروضة وغيرها وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ اي من جملة اهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته والصلاح ضد الفساد والمفسد هو الذي يخل بما يلزمه في حكم الشرع فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ اي لما اعطاهم ما طلبوا من الرزق لم يتصدقوا بشيء منه كما حلفوا به وَتَوَلَّوا اي اعرضوا عن طاعة الله واخراج صدقات ما اعطاهم الله من فضله وَّهُم اي والحال انهم مُّعْرِضُونَ في جميع الاوقات قبل ان يعطيهم الله ما اعطاهم من الرزق وبعده عن ابن عباس قال ذلك ان رجلا كان يقال له ثعلبة من الانصار اتى مجلسا فاشهدهم فقال لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه وتصدقت منه وجعلت منه للقرابة فابتلاه الله فآتاه من فضله فاخلف ما وعده فاغضب الله بما اخلف ما وعده فقص الله شانه في القرآن واخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وغيرهم هذه القصة باطول من هذا جدا وفيه قال يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم له يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فقال ادع الله ان يرزقني مالا فقال اللهم ارزقه مالا فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلوة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل ثم نمت حتى لا يشهد جمعة ولا جنازة الحديث فَأَعْقَبَهُمْ الله سبحانه نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ بسبب البخل الذي وقع منهم والاعراض نفاقا كائنا في قلوبهم متمكنا منها مستمرا فيها إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ اي الله عز وجل وقيل ان الضمير يرجع الى البخل اي فاعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه الى يوم يلقون البخل اي جزاء بخلهم يعني ان الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم

الى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل بِمَآ اَخْلَفُوا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ الباء للسببية اي
بسبب اخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح وكذلك الباء في وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ
اي وبسبب تكذيبهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال اٰية المنافق ثلث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أئتمن خان وعن ابن عمرو بن العاص
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة كانت فيه
خصلة من نفاق حتى يدعها الحديث وفيه اذا خاصم فجر ثم انكر عليهم فقال اَلَمْ يَعْلَمُوْٓا اي
المنافقون اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوٰىهُمْ اي جميع ما يسرونه من النفاق وما يتناجون به فيما
بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى اصحابه وعلى دين الاسلام وَاَنَّ اللّٰهَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ
اي ما غاب عن العيان فلا يخفى عليه شيء من الاشياء المغيبة كائنا ما كان ومن جملة ذلك
ما يصدر عن المنافقين اَلَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ اي يعيبون وقال قتادة يطعنون الْمُطَّوِّعِيْنَ اي
المتطوعين والتطوع التبرع والتنفل بما ليس بواجب مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقٰتِ والمعنى ان المنافقين
كانوا يعيبون المسلمين اذا تطوعوا بشيء من اموالهم واخرجوه للصدقة فكانوا يقولون ما اغنى
الله عن هذا ويقولون ما فعلوا هذا الا رياء ولم يكن لله خالصا اخرج البخاري ومسلم وغيرهما
عن ابن مسعود قال لما نزلت اٰية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء
كثير فقالوا مرائي وجاء ابو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون ان الله لغني عن صدقة هذا
فنزلت هذه الاٰية وفي الباب روايات كثيرة وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ اِلَّا جُهْدَهُمْ بالضم الطاقة وهي
اهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وهي المشقة وقيل هما لغتان ومعناهما واحد وفي القرطبي الجهد شيء
يسير يعيش به المقل وقد تقدم بيان ذلك والمعنى ان المنافقين كانوا يعيبون المؤمنين
الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ اي يستهزؤن بهم لحقارة ما
يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه يقال سخرت
منه سخرا من باب تعب هزئت به والسخري بالكسر اسم منه وبالضم لغة فيه والسخرة وزان
غرفة ما سخرت من خادم او جارية او دابة بلا اجر ولا ثمن والسخري بالضم بمعناه وسخرته في العمل
بالتثقيل استعملته مجانا وسخر الله الابل ذللها وسهلها ومنه سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين سخر

الله منهم اي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن اهانهم واذلهم وعذبهم والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في نظيره وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين **ولهم عذاب اليم** اي ثابت مستمر شديد الالم في الاخرة **استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** اخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء فهذا كلام خرج مخرج الامر ومعناه الخبر وذلك لانهم ليسوا باهل الاستغفار له صلى الله عليه وسلم ولا للمغفرة من الله سبحانه فهو كقوله تعالى قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وان اكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الاستغفار لهم وليس المراد من هذا انه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما في سائر مفاهيم الاعداد بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند ارادة التكثير والمعنى انه لن يغفر الله لهم وان استغفرت لهم استغفارا بالغا في الكثرة غاية المبالغ وقد ذهب بعض الفقهاء الى ان التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ويدل لذلك ما اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم عن عروة ان عبد الله بن ابي قال لولا انكم تنفقون على محمد واصحابه لانفضوا من حوله وهو القائل ليخرجن الاعز منها الاذل فانزل الله استغفر لهم او لا تستغفر لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لازيدن على السبعين فانزل الله سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وعن مجاهد وابن عباس نحوه قال الضحاك لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين لعل الله ان يغفر لهم فانزل الله سواء عليهم الآية يعني فبين له حسم المغفرة ومعلوم انه لم يخف عليه ذلك وانما اراد بما قال اظهار كمال رحمته ورأفته بمن بعث اليهم وفيه لطف بامته وحث على التراحم وشفقة بعضهم على بعض وهذا داب الانبياء كما قال ابراهيم ومن عصاني فانك غفور رحيم وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها وليس بشيء فقال ان السبعة عدد شريف لانها عدد السموات والارضين والبحار والاقاليم والنجوم السيارة والاعضاء وايام الاسبوع فصير كل واحد من السبعة الى عشرة لان الحسنة بعشرة امثالها وقيل خصت السبعون بالذكر لانه صلى الله عليه وسلم كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة فكانه قال ان تستغفر لهم سبعين مرة بازاء تكبيراتك على حمزة وهذا كالذي قبله ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله **ذلك** الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل **بانهم كفروا بالله ورسوله** ولفظ

الكرخي ذلك اليأس من الغفران لهم بسبب الكفر والابخل منا وقصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب
الكفر الصارف عنه انتهى والله لا يهدي القوم الفاسقين اي المتمردين الخارجين عن الطاعة
المتجاوزين لحدودها والمراد هنا الهداية الموصلة الى المطلوب لا الهداية التي بمعنى الدلالة واراءة الطريق ثم
ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال فرح المخلفون هم المتروكون وهم الذين استأذنوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فاذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك او الذين خلفهم الله وثبطهم او
الشيطان او نفاقهم او كسلهم او المؤمنون بمقعدهم اي بقعودهم يقال قعد قعودا ومقعدا اي جلس واقعده غيره ذكر
معناه الجوهري خلاف رسول الله فيه ثلثة اوجه احدها انه منصوب على المصدر اي تخلفوا خلاف رسول
الله والثاني انه مفعول من اجله اي فرحوا لاجل مخالفتهم رسول الله او بقعودهم لمخالفتهم له واليه ذهب الطبري و
الزجاج ويؤيده قراءة خلف بضم الخاء وسكون اللام والثالث ان ينتصب على الظرف اي بعد رسول الله يقال اقام
زيد خلاف القوم اي تخلف بعد ذهابهم وخلاف يكون ظرفا واليه ذهب ابو عبيدة وعيسى بن عمر قال الاخفش
ويونس الخلاف بمعنى الخلف وذلك ان جهة الامام التي يقصدها الانسان تخالفها جهة الخلف و
قال قطرب معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين ساروا الى تبوك وقاموا اي قعدوا
لاجل المخالفة او مخالفين له وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله لكمال شحهم
بالاموال والانفس وعدم وجود باعث الايمان وداعي الاخلاص ووجود الصارف عن ذلك
وهو ما هم فيه من النفاق وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لاموالهم وانفسهم في سبيل الله لوجود
الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم في الخازن وكرهوا الخروج الى الجهاد وذلك ان الانسان
يميل بطبعه الى ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال وقالوا اي قال
المنافقون لاخوانهم لا تنفروا في الحر تثبيطا لهم وكسرا لنشاطهم وتواصيا بينهم بالمخالفة لامر الله
ورسوله وكانت غزوة تبوك في شدة الحر والقحط فامر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله قل نار جهنم
اشد حرا المعنى انكم ايها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير ونار جهنم التي ستدخلونها
خالدين فيها ابدا اشد حرا مما فررتم منه فانكم انما فررتم من حر يسير في زمن قصير ووقعتم
في حر كثير في زمن كبير بل غير متناه ابد الآبدين ودهر الداهرين لو كانوا يفقهون انها كذلك
لما فعلوا ما فعلوا وهذا اعتراض تذييلي من جهته تعالى غير داخل تحت القول المأمور به موكد لمضمونه

فَلْيَضْحَكُوْا قَلِيْلًا وَّلْيَبْكُوْا كَثِيْرًا هذان الامران معناهما الخبر والمعنى فسيضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا بالنسبة للبكاء فى الآخرة وان كان كثيرا في نفسه لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل ويبكون كثيرا وانما جيء بهما على لفظ الامر للدلالة على ان ذلك امر محتوم لايكون غيره والتقدير يضحكون ضحكا قليلا وبكاء كثيرا او زمانا قليلا وزمانا كثيرا وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا اخرجه البخاري جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ من المعاصي والمعنى يجزون جزاء او سبب الامر بقلة الضحك وكثرة البكاء جزاؤهم بعملهم فَاِنْ رَّجَعَكَ اللّٰهُ الرجع متعد كالرد والرجوع لازم واللازم من باب جلس والمتعدي من باب قطع وفي الكرخي معنى الرجع تصيير الشيء الى المكان الذي كان فيه يقال رجعته رجعا كقولك رددته ردا والفاء لتفريع مابعدها على ماقبلها وانما قال اِلٰى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ لان جميع من اقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم اعذار صحيحة وفيهم من المؤمنين من لا عذر له ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا وسياتي بيان ذلك وقيل انما قال الى طائفة لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف وفي البيضاوي ان المتخلفين كانوا اثني عشر رجلا فَاسْتَاْذَنُوْكَ لِلْخُرُوْجِ معك في غزوة اخرى بعد غزوة تبوك هذه فَقُلْ لهم اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك لَّنْ تَخْرُجُوْا مَعِيَ اَبَدًا الى غزوة ولا الى سفر وهذا اخبار في معنى النهي للمبالغة وَّلَنْ تُقَاتِلُوْا مَعِيَ عَدُوًّا اي قل لهم ذلك عقوبة لهم ولما في استصحابهم من المفاسد كما تقدم في قوله ولو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا اِنَّكُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقُعُوْدِ تعليل لما يقتضي لن تخرجوا معي ولن تقاتلوا لانكم رضيتم بالقعود والتخلف اَوَّلَ مَرَّةٍ وهي غزوة تبوك والفاء في فَاقْعُدُوْا مَعَ الْخٰلِفِيْنَ لتفريع مابعدها على ماقبلها والخالفين جمع خالف كانهم خلفوا الخارجين والمراد بهم من تخلف عن الخروج بعد القوم وقيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين من قولهم فلان خالف اهل بيته اذا كان فاسدا فيهم ومن ذلك خلف اللبن اي فسد بطول المكث في السقاء ذكر معناه الاصمعي وقرئ مع المتخلفين قال الفراء معناه المخالفين قيل المراد بهم النساء والصبيان والرجال العاجزون فلذلك جاز جمعه للتغليب قال قتادة الخالفون

النساء وهو مردود لاجل الجمع قال ابن عباس الخالفين هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو بغير عذر وفي الاية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا يعني صلوة الجنازة وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ قال الزجاج معناه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعى له فمنع ههنا منه وقيل معناه لا تقم بمهمات اصلاح قبره ولا تتول دفنه ولما نزلت هذه الاية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ تعليل للنهي عن الصلوة والقيام على قبره وانما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر لان الكافر قد يكون عدلا في دينه بان يؤدي الامانة ولا يضمر لاحد سوءا وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والنفاق والخداع والجبن واضمار السوء للغير والخبث وهي مستقبحة في كل دين عند كل احد وقد اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله بن ابي بن سلول اتى ابنه عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعطيه قميصه ليكفنه فيه فاعطاه ثم سأله ان يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر فاخذ ثوبه فقال يا رسول الله اتصلي عليه وقد نهاك الله ان تصلي على المنافقين فقال ان الله خيرني وقال استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيد على السبعين فقال انه منافق فصلى عليه فانزل الله ولا تصل على احد منهم مات ابدا الاية فترك الصلوة عليهم والحديث له الفاظ في الصحاح والسنن وكان ابن ابي رئيس الخزرج وينسب لابيه وامه فابوه ابي وامه سلول وكان اسمه عبد الله وَلَا تُعْجِبْكَ خطاب لرسوله ان تعجبه أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ هذا تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه وارادة ان يكون المخاطب به على بال ولا ينساه وان يعتقد ان العمل به مهم وقيل ان الاية المتقدمة في قوم وهذه في اخرين وقيل هذه في اليهود والاولى في المنافقين وقيل غير ذلك وقد تقدم في الاية الاولى جميع ما يحتاج اليه في تفسير هذه الاية وذكر في الجمل ما حصل من التفاوت في الالفاظ في هاتين الايتين ولا ياتي بكثير فائدة ثم عاد الله سبحانه الى توبيخ المنافقين فقال وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ يعني طائفة من القران ويجوز ان يراد

بعض السورة وان يراد تمامها وقيل هي هذه السورة أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ الخطاب للمنافقين اي اخلصوا في ايمانكم وجهادكم وانما قدم الامر بالايمان لان الاشتغال بالجهاد لا يفيد الا بعد الايمان اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ اي ذوو الفضل والسعة والقدرة واهل الغنى والثروة من طال عليه طولا كذا قال ابن عباس والحسن وقال الاصم هم الرؤساء والكبراء المنظور اليهم وخصهم بالذكر لان الذم لهم الزم اذ لا عذر لهم في القعود ولان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج الى الاستيذان وَقَالُوا عطف تفسيري ذَرْنَا اي اتركنا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ اي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمناء رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ استيناف لبيان سوء صنيعهم والخوالف جمع خالفة ولذا قيل الخوالف النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت وجوز بعضهم ان يكون جمع خالف وهو من لا خير فيه وهو مردود فان فواعل لا يكون جمعا لفاعل وصفا لعاقل الا ما شذ من نحو فوارس ونواكس وهوالك وقال النحاس يجوز ان تكون من صفة الرجال بمعنى انها جمع خالفة يقال رجل خالفة اي لا خير فيه فعلى هذا يكون جمعا للمذكور باعتبار لفظه وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ هو كقوله ختم الله على قلوبهم وقد مر تفسيره فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شيئا مما فيه نفعهم وضرهم بل هم كالانعام اي لا يفهمون الخير الذي في الجهاد ولا الشر الذي في التخلف لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ المقصود من الاستدراك الاشعار بان تخلف هؤلاء غير ضائر فانه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم واخلص نية كما في قوله فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين وقد تقدم بيان الجهاد بالاموال والانفس ثم ذكر منافع الجهاد فقال وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين من النصر والغنيمة والجنة والكرامة وقيل المراد بها النساء الحسان اي الحور قاله الحسن كقوله تعالى فيهن خيرات حسان ومفرده خيرة بالتشديد ثم خففت مثل هينة وهينة وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قد تقدم معنى الفلاح والمراد هنا الفائزون بالمطلوب وفي تكرير اسم الاشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم امرهم أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ استيناف لبيان كونهم مفلحين جَنَّاتٍ اي بساتين تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قد تقدم بيان جري الانهار من تحتها خَالِدِينَ فِيهَا قد سبق بيان الخلود والفوز الاتي ايضا ذَلِكَ اي ما تقدم من الخيرات والفلاح

ونيل الكرامة العظمى واعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة الفوز العظيم وصف الفوز بكونه
عظيما يدل على انه الفرد الكامل من انواع الفوز وجاء المعذرون من الاعراب قرئ بالتخفيف
من اعذر وكان ابن عباس يقرأها مخففة ويقول والله هكذا انزلت وقال
النحاس الا ان مدارها على الكلبي يقال اعذر اذا بالغ في العذر ومنه من انذر فقد اعذر وقرأ
الجمهور بالتشديد وفيه وجهان احدهما ان يكون اصله المعتذرون وهم الذين لهم عذر
فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم وقد روي هذا عن الفراء والزجاج وابن الانباري
وابي عبيد والاخفش وابي حاتم وقيل هو من عذر وهو الذي يعتذر ولا عذر له يقال عذر
في الامر اذا قصر فيه واعتذر بما ليس بعذر ذكره الجوهري وصاحب الكشاف فالمعذرون على هذا
هم المبطلون لانهم اعتذروا باعذار كاذبة باطلة لا اصل لها والمعنى انه جاء هؤلاء من الاعراب
بما جاؤا به من الاعذار بحق او بباطل على كلا التفسيرين قال الضحاك هم رهط عامر وقيل من
اسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر وهذا شروع في بيان احوال منافقي
الاعراب اثر بيان احوال منافقي اهل المدينة والاعراب سكان البادية وهم اخص من العرب
اذ العربي من تكلم باللغة العربية سواء كان يسكن البادية او الحاضرة وقد اختلف في انهم
كانوا معتذرين بالتصنع او بالصحة ليؤذن لهم اي لاجل ان يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف
عن الغزو وقعد طائفة اخرى لم يعتذروا بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقوا
الاعراب الذين كذبوا الله ورسوله بالتخفيف اي كذبوا في ادعاء ايمانهم وبالتشديد اي لم
يؤمنوا ولا صدقوا ما جاء به الرسول عن ربه ولا امتثلوا امره قال ابو عمرو بن العلاء ذكر لي انهم
نفر من بني غفار جاؤا فاعتذروا منهم خفاف بن ايما وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا
ان غزونا معك اغارت اعراب طي على اهالينا ومواشينا وقيل منافقوا الاعراب قسمان قسم
جاؤا واعتذروا بالاعذار الكاذبة وقسم لم يجئ ولم يعتذر ثم توعدهم سبحانه فقال سيصيب
الذين كفروا منهم اي من الاعراب وهم الذين اعتذروا بالاعذار الباطلة والذين لم يعتذروا
بل كذبوا الله ورسوله واتى بمن التبعيضية لان منهم من اسلم فلم يصبه العذاب عذاب اليم
اي كثير الالم فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل والاسر وعذاب الآخرة بالنار المؤبدة ليس على

وسعها وقوله ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج واسقاط التكليف
عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه مع رغبتهم
اليه لولا حبسهم العذر عنه ومنه حديث انس عند ابي داؤد واحمد واصله في الصحيحين ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتم من مسير ولا انفقتم من نفقة
ولا قطعتم واديا الا وهم معكم فيه قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة فقال
حبسهم العذر واخرجه احمد ومسلم من حديث جابر عن قتادة قال نزلت هذه الاية في عائذ
بن عمرو المزني و قال الضحاك عذرهم وجعل لهم من العذر ما جعل للمجاهدين
قال الرازي ليس في الاية انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد لو خرج
ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم او بتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل
نفسه كلا ووبالا عليهم لكان ذلك طاعة مقبولة ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من
تضمنه قوله ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه العطف على
جملة ما على المحسنين او على الضعفاء اي لا عليهم حرج والمعنى ان من جملة المعذورين
هؤلاء الذين اتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك قيل
هم سبعة من الانصار وقيل بنو مقرن وقيل المعنى اذا ما اتوك قائلا لا اجد وقيل غير ذلك و هذا
اولى وفي ايثار هذا التعبير على ليس عندي لطف في الكلام و تطييب لقلوب السائلين كانه قال
انا الطلب ما تسألونه وافتش عنه فلا اجده فانا معذور وعن انس في الاية قال الماء والزاد
وعن علي بن صالح قال حدثني مشيخة من جهينة قالوا ادركنا الذين سألوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم الحملان فقالوا ما سألناه الا الحملان على النعال وعن ابراهيم بن ادهم عمن حدثه في
الاية قال ما سألوه الدواب ما سألوه الا النعال وعن الحسن بن صالح قال استحملوه النعال تولوا
اي انصرفوا عنك لما قلت لهم لا اجد ما احملكم عليه واعينهم تفيض اي تسيل من الدمع لبيان
حال كونهم باكين ومن للبيان وفي الشهاب ان الفيض انصباب عن امتلاء فوضع موضع الامتلاء
للمبالغة او جعلت اعينهم من فرط البكاء كانها تفيض بانفسها يعني ان الفيض مجاز عن الامتلاء
بعلاقة السببية فان الثاني سبب للاول فالمجاز في المسند والدمع هو ذلك الماء او الفيض على حقيقته

والتجوز في اسناده الى العين للمبالغة كجري النهر ومن للتعليل حزناً ان لا يجدوا قال الفراء اي ليس يجدوا وقيل حزناً على ان لا يجدوا وقيل المعنى حزناً انهم لا يجدوا وقيل لاجل ان لا يجدوا ما ينفقون في الجهاد لا عند انفسهم ولا عندك عن محمد بن كعب قال هم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بني واقف حرمي بن عمرو ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى ابا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد ابو عبلة ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمرو المزني ومن ثم قيل لهم البكاؤن فحمل العباس منهم اثنين وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه وهو الف وحمل يامين بن عمرو النضري اثنين كذا في مختصر سيرة الحلبي وقد اتفق الرواة على البعض هؤلاء السبعة واختلفوا في البعض ولا ياتي التطويل في مثل ذلك بكثير فائدة ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال انما السبيل اي طريق العقوبة والمؤاخذة وهي للاعمال السيئة واتى بانما للمبالغة في التوكيد لا للحصر قال السفاقسي وليس كما يمنع ان تكون للحصر على الذين يستأذنونك في التخلف عن الغزو وهم اي والحال انهم اغنياء يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به رضوا بان يكونوا مع الخوالف وهم النساء والصبيان والجملة مستانفة كانه قيل ما بالهم استاذنوا وهم اغنياء فقيل رضوا اي بالدناءة والضعة والانتظام فيهم واليه مال الزمخشري وقيل انه في محل نصب على الحال وقد مقدرة قاله الكرخي وطبع الله على قلوبهم معطوف على رضوا اي سبب الاستيذان مع الغناء امران احدهما الرضاء بالصفقة الخاسرة وهي ان يكونوا مع الخوالف والثاني الطبع من الله على قلوبهم فهم بسبب هذا الطبع لا يعلمون ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر عن مجاهد قال هي في المنافقين قال السيوطي وقد تقدم مثله انتهى قال في الجمل لكن مع نوع اختلاف في الالفاظ كما لا يخفى

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

اخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بانهم يعتذرون الى المؤمنين اذا رجعوا

عن الغزو وهذا كلام مستأنف وانما قال اليهم اي الى المعتذرين بالباطل ولم يقل الى المدينة لان مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع اليها وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول اليها ويحتمل ان يكون الضمير في اليكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التاويل المشهود في هذا روي ان المعتذرين كانوا بضعة وثمانين رجلا ثم اخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجيب به عليهم فقال قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا فنهاهم اولا عن الاعتذار بالباطل ثم علله بقوله لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ اي لن نصدقكم كانهم ادعوا انهم صادقون في اعتذارهم لان غرض المعتذر ان يصدق فيما يعتذر به فاذا عرف انه لا يصدق ترك الاعتذار وانما خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب عليهم مع ان الاعتذار منهم كان الى جميع المؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم راسهم والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير وجملة قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ تعليلية للتي قبلها اي لا يقع منا تصديق لكم لان الله قد اعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ اي ما ستفعلونه من الاعمال فيما بعد هل تقلعون عما انتم عليه الآن من الشر ام تبقون عليه وقيل سيعلم عملكم السيء واقعا ليس مستمرا على الوقوع والظاهر ان الاستقبال في علم الله بالنظر لظهوره لنا وَرَسُولُهُ معطوف على الاسم الشريف ووسط مفعول الرؤية ايذانا بان رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير وشر هي التي تدور عليها الاثابة او العقوبة وفي جملة ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تخويف شديد لما هي مشتملة عليه من التهديد ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر لاشعار ذلك باحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به واخباره لهم به ومجازاتهم عليه سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ذكر ان هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤا به من الاعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين اليهم من الغزو وغرضهم من هذا التاكيد لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ اي يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضاء عنهم كما يفيده ذكر الرضاء من بعد وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه وهو اعتذارهم الباطل فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ اي دعوهم وما اختاروا لانفسهم والمراد به تركهم والمهاجرة لهم لا الرضاء عنهم والصفح عن ذنبهم كما تفيده جملة إِنَّهُمْ رِجْسٌ الواقعة علة للامر بالاعراض والمعنى انهم في انفسهم رجس لكون جميع اعمالهم نجسة فكانهم

قد صيرت ذواتهم رجسا او انهم ذو رجس اي ذوو اعمال قبيحة ومثله انما المشركون نجس
وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متاهلين لقبول الارشاد الى الخير والتحذير من الشر فليس لهم
الا الترك قال اهل المعاني ان هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت وَمَأْوٰهُمْ
جَهَنَّمُ من تمام التعليل فان من كان من اهل النار لا يجدي فيه الدعاء الى الخير او تعليل مستقل
قاله ابو السعود والمأوى كل مكان يأوي اليه الشيء ليلا او نهارا وقد اوى فلان الى منزله يأوي
جَزَآءً اي يجزون جزاء او مفعول من اجله بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ الباء للسببية يَحْلِفُوْنَ لَكُمْ
حذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق والمحلوف عليه بمثل ما تقدم لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ
بين سبحانه ان مقصدهم بهذا الحلف هو رضاء المؤمنين عنهم ثم ذكر ما يفيد انه لا يجوز
الرضاء عن هؤلاء المعتذرين بالباطل فقال فَاِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ كما هو مطلوبهم مساعدة
لهم وقبلتم عذرهم فلا ينفعهم رضاكم فَاِنَّ اللّٰهَ لَا يَرْضٰى عَنِ الْقَوْمِ الْفٰسِقِيْنَ تعليل المحذوف
المتقدم واذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضاء عن هؤلاء الفسقة العصاة فينبغي
لكم ايها المؤمنون ان لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم ان لا ترضوا عنهم على ان رضاكم
عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم والمقصود من اخبار الله سبحانه بعدم رضائه عنهم
هو نهي المؤمنين عن ذلك لان الرضاء عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن ونكتة العدول
لهذا الظاهر التسجيل عليهم حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط
وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك اَلْاَعْرَابُ اي جنسهم لا كل واحد لما سيأتي
اَشَدُّ كُفْرًا وَّنِفَاقًا لما ذكر سبحانه احوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من
الاعراب وبين ان كفرهم ونفاقهم اشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم لانهم اقسى قلوبا
واغلظ طباعا واجفى قولا وابعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله واوحش فعلا ولان
نشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف
بعض افراده كما في قوله تعالى وكان الانسان كفورا اذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبرا
والاعراب هم من سكن البوادي بخلاف العرب فانه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا
البوادي او القرى هكذا قال اهل اللغة ولهذا قال سيبويه ان الاعراب صيغة جمع وليس

لا مصدر وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه وقال الضحاك الدوائر الهلكات والله سميع
لما يقولونه عليم بما يضمرونه ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر هذا النوع الثاني
من انواع الاعراب كما تقدم اي منهم من يصدق بهما عن عبد الرحمن بن معقل قال كنا عشرة ولد
مقرن فنزلت هذه الآية فينا وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله ولا على
الذين اذا ما اتوك لتحملهم الآية وقال الكلبي هو اسلم وغفار وجهينة ومزينة وفي الباب احاديث
يطول ذكرها ويتخذ ما ينفق قربات اي سبب قربات عند الله وهي جمع قربة بالضم وهي ما يتقرب
به الى الله سبحانه تقول منه قربت لله قربانا والجمع قرب وقربات والمعنى انه يجعل ما ينفقه في سبيل الله
سببا لحصول القربات عند الله وصلوات الرسول اي سببا لدعوات الرسول لهم لانه صلى الله عليه وسلم
كان يدعو للمتصدقين ومنه قوله صل عليهم ان صلوتك سكن لهم ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم
صل على آل ابي اوفى وقال ابن عباس استغفار النبي صلى الله عليه وسلم وقيل انها منسوقة على ما ينفق
اي ويتخذ بالاعمال الصالحة صلوات الرسول قربة وجوزه ابن عطية ولم يذكر ابو البقاء غيره
وظاهر كلام الزمخشري انها نسق على قربات كما تقدم ثم انه سبحانه بين بان ما ينفقه هذا
النوع من الاعراب تقربا الى الله مقبول واقع على الوجه الذي ارادوه فقال الا انها قربة لهم
اخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الجملة وحرفي التنبيه والتحقيق وفي هذا من
التطييب لخواطرهم والطمأنينة لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعي على من
يتخذ ما ينفق مغرما والتوبيخ له بابلغ وجه والضمير في انها راجع الى ما في ما ينفق وتانيثه باعتبار
الخبر وقيل راجع الى صلوات الرسول والاول اولى ثم فسر سبحانه القربة بقوله سيدخلهم
الله في رحمته السين لتحقيق الوعد وهذه النعمة هي اقصى مرادهم ان الله غفور لاهل
طاعته رحيم بعباده والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار لما ذكر سبحانه
اصناف الاعراب ذكر المهاجرين والانصار وبين ان منهم السابقين الى الهجرة وان منهم
التابعين لهم وقرأ عمر بن الخطاب الانصار بالرفع وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم
بالجر قال الاخفش الخفض في الانصار الوجه لان السابقين منهم يدخلون في قوله والسابقون
وفي هذه الآية تفضيل السابقين الاولين من المهاجرين والانصار وهم الذين صلوا القبلتين

في قول سعيد بن المسيب وطائفة او الذين شهدوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي واهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار ولا مانع من حمل الآية على هذه الاصناف كلها قال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابو منصور البغدادي اصحابنا مجمعون على ان افضلهم الخلفاء الاربعة ثم الستة الباقون ثم البدريون ثم اصحاب احد ثم اهل بيعة الرضوان بالحديبية وقال ابن زيد هم من بقي من اهل الاسلام الى ان تقوم الساعة والذين اتبعوهم اي تبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة وليس المراد بهم التابعين اصطلاحا وهم كل من ادرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم بل هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون من في قوله من المهاجرين على هذا للتبعيض وقيل انها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الامة الى يوم القيامة قال جماعة من الصحابة لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لامتي كلهم وليس بعد الرضاء سخط عن حميد بن زياد قال قلت لمحمد بن كعب القرظي اخبرني عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما اريد الفتن قال ان الله قد غفر لجميع اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم قلت له وفي اي موضع اوجب الله لهم الجنة في كتابه قال الا تقرؤن قوله تعالى والسابقون الاولون الآية اوجب لجميع اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم قلت وما اشترط عليهم قال اشترط عليهم ان يتبعوهم باحسان يقول يقتدون بهم في اعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك قال ابو صخر فوالله لكاني لم اقرأها قبل ذلك ولا عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب وقوله باحسان قيد للتابعين اي والذين اتبعوهم متلبسين باحسان في الافعال والاقوال اقتداء منهم بالسابقين الاولين رضي الله عنهم اي قبل طاعتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ورضوا عنه بما اعطاهم من فضله وفي مع رضائه عنهم فقد اعد لهم جنات تجري تحتها الانهار في الدار الآخرة وفي قراءة بزيادة من قاله السيوطي وفي الجمل انها سبعية لابن كثير ومعلوم ان قراءته الصلة فليتنبه القارئ اذا قرأ بزيادة من لصلة الميم في المواضع الثلاثة وهي اتبعوهم وعنهم واعد لهم لئلا يقع في التلفيق

جمع العرب لئلا يلزم كون الجمع اخص من مفرده قال النيسابوري قال اهل اللغة رجل عربي اذا
كان نسبه الى العرب ثابتا وجمعه عرب كالمجوسي والمجوس واليهودي واليهود فالاعرابي اذا قيل
له يا عربي فرح واذا قيل للعربي يا اعرابي غضب وذلك ان من استوطن القرى العربية فهو
عربي ومن نزل البادية فهو اعرابي ولهذا لا يجوز ان يقال للمهاجرين والانصار اعراب وانما هم
عرب فان قيل لم سمي العرب عربا لان اولاد اسمعيل عليه السلام نشأوا بالعرب وهي من
تهامة فنسبوا الى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم وقيل لان السنتهم
معربة عما في ضمائرهم ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى وفي المصباح واما الاعراب
بالفتح فاهل البدو من العرب الواحد اعرابي بالفتح ايضا وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ
وزاد الازهري سواء كان من العرب او من مواليهم فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن
بظعنهم فهم اعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي
الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء وَأَجْدَرُ معناه اخلق يقال فلان جدير بكذا اي خليق به
وانت جدير ان تفعل كذا واصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء يقال هو جدير واجدر
وحقيق واحق وقمن وخليق واولى بكذا كله بمعنى واحد قال الليث جدر يجدر جدارة فهو جدير
ويؤنث ويثنى ويجمع وقد نبه الراغب على اصل اشتقاق هذه المادة وانها من الجدار اي الحائط
فقال والجدير المنتهى لانتهاء الامر اليه انتهاء الشيء الى الجدار والذي يظهر ان اشتقاقه من الجدر
وهو اصل الشجرة فكانه ثابت كثبوت الجدر في قولك جدير بكذا أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ من الشرائع والاحكام والفرائض وما امر به من الجهاد لبعدهم عن مواطن
الانبياء وديار التنزيل ومشاهدة المعجزات ومعاينة ما ينزل عليه في تضاعيف الكتاب و
السنة ووصف العرب بانهم جاهلون لا ينافي صحة الاحتجاج بالفاظهم واشعارهم على كتاب
الله وسنة نبيه صلوات الله عليه ووصفهم بالجهل انما هو في احكام القران لا في الفاظه ونحن لا نحتج بلغتهم
في بيان الاحكام بل في بيان معاني الالفاظ لان القران والسنة جاءا بلغتهم قاله الكرخي وَاللَّهُ عَلِيمٌ باحوال مخلوقه
على العموم وهؤلاء منهم حَكِيمٌ فيما يجازيهم به من خير وشر عن الكلبي ان هذه الاية نزلت في
اسد وغطفان واخرج احمد وابو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الايمان عن ابن

عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سكن البادية جفى ومن اتبع الصيد غفل ومن اتى السلطان افتتن قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث الثوري واخرج ابو داؤد والبيهقي من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدا جفى ومن اتبع الصيد غفل ومن اتى ابواب السلطان افتتن وما ازداد احد من سلطانه قربا الا ازداد من الله بعدا

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما هذا تنويع الجنس الى نوعين الاول هؤلاء والثاني ومن الاعراب من يؤمن بالله والمغرم الغرام والخسران وهو ثاني مفعولي يتخذ لانه بمعنى الجعل والمعنى انه اعتقد ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسرانا واصل الغرم والغرامة ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده ولكنه ينفقه للرياء والتقية وقيل اصل الغرم اللزوم كانه اعتقد انه يلزمه لامر خارج لا تنبعث له النفس قال الضحاك يعني بالمغرم انه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها وعن ابن زيد قال هؤلاء المنافقون من الاعراب الذين انما ينفقون رياء اتقاء ان يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرما وهم بنو اسد وغطفان ويتربص اي ينتظر بكم الدوائر جمع دائرة وهي الحالة المنقلبة عن النعمة الى البلية واصلها ما يحيط بالشئ ودوائر الزمان نوبه وتصاريفه ودوله وكانها لا تستعمل الا في المكروه وفي الدائرة مذهبان اظهرهما انها صفة على فاعلة كقائمة وقال الفارسي يجوز ان تكون مصدرا كالعاقبة والمعنى ينتظر بكم تقلب الزمان وصروفها التي تاتي مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعني يموت الرسول ويظهر المشركون ثم دعا سبحانه عليهم بقوله عليهم دائرة السوء وجعل ما دعا به عليهم مماثلا لما ارادوه بالمسلمين والسوء بالفتح عند الجمهور مصدر واضيف اليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق وهو مصدر في الحقيقة قال ابو البقاء وهو الضرر وقال مكي من فتح السين فمعناه الفساد والرداءة ومن ضمها فمعناه البلاء والضرر وظاهر هذا انهما اسمان لما ذكر ويحتمل ان يكونا مصدرين ثم اطلقا على ما ذكر وقال غيره المضموم العذاب والضرر والمفتوح الذم وقرأ ابن كثير وغيره بضم السين وهو المكروه قال الاخفش عليهم دائرة الهزيمة والشر وقال الفراء دائرة العذاب والبلاء قال والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة وبالضم اسم

وقد تقدم تفسير جري الانهار من تحت الجنات وتفسير الخلود خالدين فيها
ابدا ذلك الفوز العظيم اختلفوا في اول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على ان خديجة اول
الخلق اسلاما على اقوال يطول ذكرها وقال اسحاق بن ابراهيم اول من اسلم من الرجال ابوبكر
ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن ابي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة فهؤلاء
الاربعة سباق الخلق الى الاسلام واسلم على يد ابي بكر عثمان والزبير وابن عوف وسعد بن
ابي وقاص وطلحة ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول في الاسلام فهؤلاء السابقون الاولون
من المهاجرين واما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة
وهي العقبة الاولى وكانوا خمسة نفر سعد وعوف ورافع وقطبة وجابر ثم اصحاب
العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلا ثم اصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا
فهؤلاء سابقوا الانصار وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة وممن حولكم من
الاعراب منافقون هذا عود الى شرح احوال المنافقين من اهل المدينة ومن يقرب
منها من الاعراب قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة
ومزينة واشجع وغفار واسلم ذكره جمع من المفسرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي
والنسفي والخازن والسيوطي وغيرهم وفيه اشكال لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل
فان صح هذا النقل فتحمل الاية على القليل منهم لان لفظة من للتبعيض ويحمل الدعاء لهم
على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بينهما واطلق الطبري القول ولم يعين احدا من
القبائل المذكورة بل قال من القوم الذين حول مدينتكم ايها المؤمنون من الاعراب منافقون
ومن اهل المدينة قوم واناس مردوا على النفاق قال البغوي اي من الاوس والخزرج قيل
المعنى وممن حولكم من الاعراب ومن اهل المدينة منافقون مردوا واصل مرد وتمرد اللين و
الملاسة والتجرد فكانهم تجردوا للنفاق ومنه غصن امرد لا ورق عليه وفرس امرد لا شعر
فيه وغلام امرد لا شعر بوجهه وارض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد فالمعنى انهم اقاموا
على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه ولم يتوبوا منه قال ابن زيد معناه لجوا فيه وابوا غيره
وقيل تمردوا عليه يقال تمرد فلان اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته

اي تمرنوا وثبت عليها واعتادها ولم يتوبوا وجملة لا تعلمهم مبينة للجملة الاولى وهي مردوا
على النفاق اي ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفي امرهم على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فكيف بسائر المؤمنين والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم باعيانهم لا من حيث الجملة
فان للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم ولا ينافي هذا قوله تعالى ولتعرفنهم في لحن القول
لان اية النفي نزلت قبل اية الاثبات وهذه الجملة صفة لمنافقون او مستانفة والعلم هنا
اما على بابه فيتعدى لاثنين اي لا تعلمهم منافقين او عرفاني فيتعدى لواحد قاله ابو البقاء
واما قوله نحن نعلمهم فلا يجوز ان يكون الا على بابه وهي مقررة لما قبلها لما فيها من
الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر ولا يظهر لغير الله
سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر ثم توعدهم سبحانه فقال
سنعذبهم مرتين قيل المراد بهما عذاب الدنيا بالقتل والسبي وعذاب الاخرة وقيل
الفضيحة بانكشاف نفاقهم والعذاب في الاخرة وقيل المصائب في اموالهم واولادهم و
عذاب القبر قال مجاهد مرتين يعني بالجوع والقتل وعن ابي مالك قال بالجوع وعذاب
القبر وعن قتادة قال عذاب في القبر وعذاب في النار وقد روي عن جماعة من السلف
نحو هذا في تعيين العذابين وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على انه المراد
بعينه والظاهر ان هذا العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب وانهم
يعذبون مرة بعد مرة ثم يردون بعد ذلك الى عذاب الاخرة وهو المراد بقوله ثم
يردون الى عذاب عظيم ومن قال ان العذاب في المرة الثانية هو عذاب الاخرة قال
معنى قوله ثم يردون انهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار الى الدرك
الاسفل منها او انهم يعذبون في النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار ثم يردون
بعد ذلك الى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار وفي مسند احمد عن ابن مسعود خطبنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان منكم منافقين فمن سميته فليقم ثم
قال قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون
في دينهم فقال وممن حولكم من اهل المدينة قوم واخرون اعترفوا بذنوبهم المعنى ان

ان هولاء الجماعة تخلفوا عن الغزو بغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا
بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا ان يتوب الله
عليهم خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا المراد بالعمل الصالح ما تقدم من اسلامهم وقيامهم
بشرائع الاسلام وخروجهم الى الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيئ هو تخلفهم عن هذه
الغزوة وقد اتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا وهو الاعتراف به والتوبة عنه واصل
الاعتراف الاقرار بالشيء ومجرد الاقرار لا يكون توبة الا اذا اقترن به الندم على الماضي والعزم
على تركه في الحال والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا ومعنى الخلطة انهم خلطوا
كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ذكره غالب المفسرين وانكره
الرازي وقال الواو لمطلق الجمع وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة وانه بقي كل واحد منهما
كما كان من غير ان يتأثر احدهما بالآخر ويجوز ان يكون الواو بمعنى الباء كقولك بعت
الشاة شاة ودرهما اي بدرهم وقال الواحدي الواو احسن من الباء لانه اريد به معنى
الجمع لا حقيقة الخلط الا ترى ان العمل الصالح لا يختلط بالسيء كما لا يختلط الماء باللبن لكن قد
يجمع بينهما وقال التفتازاني وتحقيقه ان الواو للجمع والباء للالصاق والجمع والالصاق
من قبيل واحد فسلك به طريق الاستعارة وقال الزمخشري كل واحد مخلوط ومخلوط به
وفيه ما ليس في الباء وفي قوله عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ دليل على انه قد وقع منهم مع
الاعتراف ما يفيد التوبة او ان مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف
الترجي هو عسى في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لان الاطماع من الله سبحانه ايجاب
لكونه اكرم الاكرمين وفي المواهب واتفق المفسرون على ذلك قال القسطلاني وعبر بعسى
للاشعار بان ما يفعله تعالى ليس الا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على
خوف وحذر إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر الذنوب ويتفضل على عباده وهذا يفيد
انجاز الوعد عن ابن عباس قال كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم اوثق سبعة منهم انفسهم بسواري
المسجد وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم اذا رجع عليهم فلما رآهم قال من هؤلاء الموثقون انفسهم

في الوثاق ابو لبابة واصحاب له فقالوا اعتقنا يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم قال وانا اقسم بالله لا اطلقهم ولا اعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق انفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فنزلت عسى الله ان يتوب عليهم وقيل الآية تعم جميع المسلمين والحمل على العموم اولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وروى الطبراني عن ابي عثمان قال ما في القرآن آية ارجى عندي لهذه الامة من هذه الآية خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً اختلف اهل العلم في هذه الصدقة المامور بها فقيل هي صدقة الفرض وقيل هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها لانهم بعد التوبة عليهم عرضوا اموالهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية كما تقدم ومن للتبعيض على التفسيرين والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة والصدقة ماخوذة من الصدق اذ هي دليل على صدق مخرجها في ايمانه تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا الضمير المرفوع في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم اي تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تاخذه من الصدقة منهم وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة والضمير في تزكيهم للنبي صلى الله عليه وسلم والاول اولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين ومعنى التطهير اذهاب ما يتعلق بهم من اثر الذنوب ومعنى التزكية المبالغة في التطهير قال الزجاج الاجود ان يكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم اي فانك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستيناف ويجوز الجزم على جواب الامر والمعنى ان تاخذ من اموالهم صدقة تطهرهم قال السيوطي فاخذ ثلث اموالهم وتصدق بها على سبيل الكفارة لذنوبهم فان كل من اتى ذنبا يسن له التصدق وَصَلِّ عَلَيْهِمْ اي ادع لهم بعد اخذك لتلك الصدقة من اموالهم قال النحاس وحكى اهل اللغة جميعا فيما علمنا ان الصلوة في كلام العرب الدعاء ثم علل سبحانه امره لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصلوة على من ياخذ منه الصدقة فقال إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ السكن ما تسكن اليه النفس وتطمئن به وهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض والمعنى يسكنون اليها قال ابن عباس استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا اصابوها ان صلوتك رحمة لهم واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله

بن ابي اوفى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اتي بصدقة قال اللهم صل على آل فلان فاتاه ابي بصدقته فقال اللهم صل على آل ابي اوفى ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعتذارهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ولما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا قال ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ اي غير التائبين او التائبون قبل ان يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم والاستفهام للتقرير او للتحضيض والتاكيد ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين وعدم مبالاته بمعصية العاصين وهو اما خطاب للتائبين او لجماعة المؤمنين والمعنى ان ذلك ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم انما الله هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ قيل لا فرق بين عن ومن قال ابن عطية وكثيرا ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه نحو لا صدقة الا عن غنى ومن غنى وفعل ذلك فلان من اشره وبطره وعن اشره وبطره وقيل بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع ابلغ لان فيه تبشير القبول للتوبة مع تسهيل سبيلها وقيل لفظة عن تشعر ببعد ما تقول جلس عن يمين الامير اي مع نوع من البعد والظاهر ان عن هنا للمجاوزة واذا قلت منه فمعناه ابتداء الغاية ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ اي يتقبلها منهم وفي اسناد الاخذ اليه سبحانه بعد امره لرسوله صلى الله عليه وسلم باخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها وفي ذكر لفظ الاخذ ترغيب في بذل الصدقة واعطائها الفقراء عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق احدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا اخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون اعظم من الجبل كما يربي احدكم فلوه او فصيله اخرجه الشيخان وفي الباب احاديث يطول ذكرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ اي ان هذا شانه سبحانه وفي صيغة المبالغة في التواب مع توسيط ضمير الفصل والتاكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء للناس وفيه قولان للمفسرين ﴿اعْمَلُوا﴾ ما شئتم من الاعمال الصالحة والسيئة ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ خيرا كان او شرا التعليل لما قبله ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه تخويف وتهديد للمذنبين اي ان عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين فسارعوا الى اعمال الخير واخلصوا اعمالكم لله عز وجل وفيه ايضا ترغيب وتنشيط للطيعين

قال من علم ان عمله لايخفى سواء كان خيرا او شرا رغب الى اعمال الخير وتجنب اعمال الشر
وما احسن قول زهير ~ ومهما يكن عند امرئ من خليقة + وان خالها تخفى على الناس تعلم
فظاهره ترغيب وترهيب والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر من الاعمال والاستقبال
بالنظر للمجازاة والا فالعلم حاصل بالفعل اي فسيجازي يكم على عملكم والمجازاة من الله معلومة
ومن رسوله والمؤمنين بمعنى الثناء عليهم والدعاء لهم قال مجاهد هذا وعيد من الله عز وجل
وقال ابو السعود زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح واخرج احمد وابو يعلى وابن حبان
والحاكم والبيهقي وغيرهم عن ابي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو ان احدكم يعمل
في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لاخرج الله عمله للناس كائنا ما كان ثم جاء سبحانه بوعيد
شديد فقال وَسَتُرَدُّونَ اي بالبعث بعد الموت إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
اليه سبحانه الذي يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه وفي تقديم الغيب
على الشهادة إشعار بسعة علمه عز وجل وانه لايخفى عليه شيء ويستوي عنده كل معلوم
ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم اليه فقال فَيُنَبِّئُكُمْ اي يخبركم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في
الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء باساءته ويتفضل على من يشاء من عباده وَ
آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ذكر سبحانه ثلثة اقسام في المتخلفين الاول المنافقون الذين مردوا
على النفاق الثاني التائبون المعترفون بذنوبهم الثالث الذين بقي امرهم موقوفا في تلك
الحال وهم المرجون لامر الله من ارجيته وارجأته اذا اخرته وهما لغتان والقراءتان اي يأخرو
ودونه سبعيتان والمعنى انهم مؤخرون في تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها
بل هم على ما تبين من امر الله سبحانه في شأنهم والفرق بين الثاني والثالث ان الثاني
اعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم باعذار فقبلها منه فعجلت توبته وان الثالث لم يعتذر لانه فتش
فلم يجد عذرا صادقا فاخر رسول الله صلى الله عليه وسلم امره حتى نزل الله قبول توبته فاخره الله قدر
خمسين يوما إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ان بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ان تابوا
توبة صحيحة واخلصوا اخلاصا والتقدير واخرون مرجون لامر الله حال كونهم اما معذبين
واما متوبا عليهم واما هنا للشك بالنسبة الى المخاطب واما للابهام بالنسبة الى الله تعالى

بمعنى انه تعالى ابهم على المخاطبين اعني هذا الترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم والا فالله تعالى عالم بعين ما هو فاعله بهم وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ باحوالهم حَكِيْمٌ فيما يفعله بهم من خير او شر وعن عكرمة قال وآخرون مرجون لامر الله هم الثلاثة الذين خلفوا وعن مجاهد قال هم هلال بن امية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الاوس والخزرج تخلفوا كسلا وميلا الى الدعة لا نفاقا ولم يعتذروا الى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف امرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَّكُفْرًا وَّتَفْرِيْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ لما ذكر سبحانه اصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم وهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وسياتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار وفي اعرابه وجوه ذكرها في الجمل وقد اخبر الله سبحانه ان الباعث لهم على بناء هذا المسجد امور اربعة الاول الضرار لغيرهم وهو المضارة الثاني الكفر بالله والمباهاة لاهل الاسلام لانهم ارادوا ببنائه تقوية اهل النفاق الثالث التفريق بين المؤمنين لانهم ارادوا ان لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة ما لا يخفى الرابع قوله وَاِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهٗ قال الزجاج الارصاد الانتظار وقال ابن قتيبة الارصاد الانتظار مع العداوة وقال الاكثرون هو الاعداد والمعنى متقارب يقال رصدت لكذا اذا اعددته مرتقبا له به قال ابو زيد يقال رصدته وارصدته في الخير وارصدت له في الشر وقال ابن الاعرابي لا يقال ارصدت ومعناه ارتقبت والمراد بمن حارب الله ورسوله المنافقون وهم اثنا عشر رجلا منهم ابو عامر الراهب اي اعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين مِنْ قَبْلُ اي من قبل ان ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار والمعنى لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله من قبل بناء مسجد الضرار وَلَيَحْلِفُنَّ جواب قسم مقدر اي والله اِنْ اَرَدْنَآ اِلَّا الْحُسْنٰى اي ما اردنا ببنائه الا الخصلة او الارادة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على اهل الضعف والعجز عن الصلوة في مسجد قباء او مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المطر والحر فرد الله عليهم بقوله وَاللّٰهُ يَشْهَدُ اي يعلم اِنَّهُمْ لَكٰذِبُوْنَ فيما حلفوا عليه وقالوه عن ابن عباس قال هم اناس من الانصار ابتنوا مسجدا فقال لهم ابو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة ابنوا مسجدكم واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فاخرج محمدا واصحابه

فلما فرغوا من مسجدهم اتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب ان تصلي فيه
وتدعو بالبركة فانزل الله لا تقم فيه ابدا وعنه قال لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج
رجال من الانصار فبنوا مسجد النفاق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا مجمع ما اردت الى ما ارى
قال ما اردت الا الحسنى وهو كاذب فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم واراد ان يعذره فانزل الله والذين
اتخذوا مسجدا ضرارا الآية ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلوة في مسجد الضرار فقال لا تقم
فيه ابدا اي في وقت من الاوقات فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة هدموه واحرقوه
وجعلوا امكانه كناسة تلقى فيه الجيف والنهي عن القيام فيه يستلزم النهي عن الصلوة فيه وقد
يعبر عن الصلوة بالقيام يقال فلان يقوم الليل اي يصلي ومنه الحديث الصحيح من قام رمضان
ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام بقوله لمسجد
أسس على التقوى اللام في لمسجد لام القسم وقيل لام الابتداء وفي ذلك تاكيد لمضمون الجملة وتاسيس
البناء تثبيته ورفعه ومعنى تاسيسه على التقوى تاسيسه على الخصال التي تتقى بها العقوبة واختلف العلماء في
هذا المسجد فقالت طائفة هو مسجد قباء كما روي عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي و
غيرهم وذهب آخرون الى انه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم والثاني ارجح لما اخرج ابن ابي شيبة واحمد
ومسلم والترمذي والنسائي وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن خزيمة وابن
حبان وابو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابي سعيد الخدري قال اختلف رجلان
رجل من بني خدرة وفي لفظ تماديت انا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي اسس على
التقوى فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمري هو مسجد قباء فاتيا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال هو هذا المسجد لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في ذلك خير
كثير يعني مسجد قباء واخرج احمد وغيره عن ابي بن كعب قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد
الذي اسس على التقوى قال هو مسجدي هذا وعن زيد بن ثابت مرفوعا مثله عند الطبراني
وغيره وفي الباب احاديث كثيرة ولا يخفاك ان النبي صلى الله عليه وسلم قد عين هذا المسجد الذي اسس
على التقوى وجزم بانه مسجده صلى الله عليه وسلم كما تقدم من الاحاديث الصحيحة فلا يقاوم ذلك
قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا من غيرهم ولا يصلح لايراده في مقابلة ما قد صح عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال الكرخي والتحقيق ان رواية نزولها في مسجد قباء لا تعارض تنصيصه صلى الله عليه وسلم على انه مسجد المدينة فانها لا تدل على اختصاص اهل قباء بذلك كما لا يخفى ولا فائدة في ايراد ما ورد في فضل الصلوة في مسجد قباء فان ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي اسس على التقوى على ان ما ورد في فضائل مسجده صلى الله عليه وسلم اكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة ومن اول يوم متعلق باسس اي اسس على التقوى من اول يوم من ايام تاسيسه قال بعض النحاة ان من ههنا بمعنى منذ اي منذ اول يوم ابتدئ بنائه ووضع اساسه احق ان تقوم فيه مصليا واهل التفضيل على غير بابه او المفاضلة باعتبار زعمهم او بالنظر له في ذاته فان المحظور قصدهم ونيتهم والمعنى لو كان القيام في غيره جائزا لكان هذا اولى بقيامك فيه للصلوة ولذكر الله لكونه اسس على التقوى من اول يوم ولكون فيه رجال يحبون ان يتطهروا وهذه الجملة مستانفة لبيان احقية قيامه صلى الله عليه وسلم فيه اي كما ان هذا المسجد اولى من جهة المحل فهو اولى من جهة الحال فيه ومعنى محبتهم للتطهر انهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه يعني من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول اكثر المفسرين وقيل معناه يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار والاول اولى قال الرازي المراد بها الطهارة من الذنوب والمعاصي وعينه بوجوه ثلاثة وقيل يحبون ان يتطهروا بالحمى المطهرة للذنوب فحموا جميعا وهذا ضعيف جدا والله يحب المطهرين معنى محبة الله لهم الرضا عنهم والاحسان اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه واخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن ابي حاتم والدارقطني والحاكم عن ابي ايوب وجابر بن عبد الله وانس بن مالك ان هذه الاية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ان الله قد اثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم هذا قالوا نتوضأ للصلوة ونغتسل من الجنابة قال فهل مع ذلك غيره قالوا لا غير ان احدنا اذا خرج الى الغائط احب ان يستنجي بالماء قال هو ذلك فعليكموه وفي حديث رواه البزار قالوا نتبع الحجارة بالماء فقال هو ذاك فعليكموه وفي الباب روايات بالفاظ وقد روي عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الاية نحو هذا ولا يخفاك ان بعض هذه الاحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء واهله وبعضها ضعيف وبعضها لا تصريح فيه بان المسجد الذي اسس على التقوى هو مسجد قباء

وعلى كل حال لا يقاوم تلك الاحاديث المصرحة بان المسجد الذي اسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحتها وصراحتها ثم بين سبحانه ان بين الفريقين بونا بعيدا فقال أَفَمَنْ أَسَّسَ

بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ الهمزة للانكار التقريري والجملة مستانفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين على اهل مسجد الضرار والفاء عاطفة على مقدر اي ابعد ما علم حالهم فمن اسس والبنيان مصدر كالعمران واريد به المبني والمعنى ان من اسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ممن اسس دينه على ضد ذلك وهو الباطل والنفاق قيل انه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيها مضمرا في النفس واسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي او مجاز فتاسيس البنيان بمعنى احكام امور دينية او تمثيل لحال من اخلص لله وعمل الاعمال الصالحة بحال من بنى شيئا محكما ثم اسسا يستوطنه ويتحصن فيه او البنيان استعارة اصلية والتاسيس ترشيح والشفا الشفير وشفا كل شيء حرفه وطرفه ومنه يقال اشفى على كذا اذا دنى منه وقرب ان يقع فيه والجرف بضم الراء وسكونها قراءتان سبعيتان وعلى كل فالجيم مضمومة وهو ما يجرف بالسيول وهي الجوانب التي تنحفر بالماء وقيل المكان الذي اكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب وقيل البئر التي لم تطو وقيل هو الهوة والاجتراف اقتلاع الشيء من اصله والهار الساقط يقال هار البناء اذا سقط واصله هاير كما قالوا شاك السلاح وشائك كذا قال الزجاج يقال هار يهور ويهار وهار هاير وتهور البناء وتهير فهو مقلوب بتقديم لامه على عينه وقيل حذفت عينه اعتباطا اي لغير موجب وقال ابو حاتم ان اصله هاو واي ساقط متداع منهال قال في شمس العلوم الجرف ما جرف السيل اصله واشرف اعلاه فان انصدع اعلاه فهو الهار انتهى وقيل لا قلب فيه ولا حذف فان اصله هور او هير قال السمين وهذا اعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الاصل لولا انه غير مشهور عند اهل التصريف انتهى جعل الله سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ثم قال فَانْهَارَ الجرف او الشفا او بنيان الباني على شفا جرف هار بِهِ اي بالبنيان او المعنى انه طاح الباطل بالبناء والباني فِي نَارِ جَهَنَّمَ قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار ورئي الدخان حين حفروا اساسه

وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار والباء في به للتعدية او للمصاحبة
اي فانهار مصاحبا له وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترشيحا للمجاز وسبحان الله ما ابلغ هذا
الكلام واقوى تراكيبه واوقع معناه وافصح مبناه عن جابر بن عبد الله قال لقد رايت الدخان
يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجه الحاكم ومسدد و
ابن جرير وغيرهم وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ اي لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم
ثم ذكر سبحانه ان بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم واستمرار ترددهم وشكهم فقال لَا يَزَالُ
بُنْيَانُهُمُ مصدر بمعنى اسم المفعول الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ اي شكا ونفاقا اي سبب ريبة
كانه نفس الريبة اما حال بنائه فظاهر واما حال هدمه فلانه رسخ به ما كان في قلوبهم
من الشر وتضاعفت آثاره واحكامه وقيل معنى الريبة الحسرة والندامة لانهم ندموا
على بنيانه وقال المبرد اي حرارة وغيظا وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين
شاكين في دينهم ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليه وسلم له نفاقا وتصميما على الكفر و
مقتا للاسلام لما اصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ثم ذكر سبحانه ما يدل على
استمرار هذه الريبة ودوامها وهو قوله إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قطعا وتتفرق اجزاء اما بالموت
او بالسيف وقيل في القبور او في النار والمقصود ان هذه الريبة دائمة لهم ما داموا احياء
ويجوز ان يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة وقيل معناه الا ان يتوبوا توبة يتقطع
بها قلوبهم ندما واسفا على تفريطهم وقرئ تقطع بالتخفيف والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
اي الا ان تقطع يا محمد قلوبهم وتتمكن منهم كل التمكن وقرئ ولو تقطعت قلوبهم وقرئ شاذا
الى ان تقطع على الغاية اي لا يزالون كذلك الى ان يموتوا والمستثنى منه محذوف والتقدير في
كل وقت الا وقت تقطيع قلوبهم او في كل حال الا حال تقطيعها وَاللَّهُ عَلِيمٌ بعزائمهم حَكِيمٌ
في جزاء جرائمهم إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ لما
شرح الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك وذكر اقسامهم
وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه وقد بالغ
في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبوله انفسهم واموالهم التي بذلوها في سبيله

واثابته اياهم بمقابلتها بالجنة بالشراء فذكر الشراء تمثيل على طريقة الاستعارة التبعية
كما في قوله اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد انفس
المؤمنين واموالهم وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ولم يجعل الامر على العكس
بان يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بانفسهم واموالهم ليدل على ان المقصود في العقد
هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة اليها ايذانا بكمال العناية بهم وباموالهم ثم
انه لم يقل بالجنة بل قال بان لهم الجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم
كانه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم واصل الشراء بين العباد هو اخراج الشيء عن الملك
بشيء آخر مثله او دونه او انفع منه فهؤلاء المجاهدون باعوا انفسهم من الله بالجنة التي
اعدها الله للمؤمنين اي بان يكونوا من جملة اهل الجنة وممن يسكنها فقد جادوا بالنفس
وهي انفس الاعلاق والجود بها غاية الجود وجاد الله عليهم بالجنة وهي اعظم ما يطلبه
العباد ويتوسلون اليه بالاعمال والمراد بالانفس هنا انفس المجاهدين وبالاموال ما ينفقونه
في الجهاد او في جميع وجوه البر والطاعات ويدخل فيها الجهاد دخولا اوليا قال اهل
المعاني لا يجوز ان يشتري الله شيئا في الحقيقة لان المشتري انما يشتري ما لا يملكه و
الاشياء كلها ملك لله عز وجل ولهذا قال الحسن انفسنا هو خلقها واموالنا هو رزقنا اياها
لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء الى الطاعة والجهاد وجعل ذلك استبدالا وشراء و
دخلت الباء هنا على المتروك على بابها وسماها ابو البقاء باء المقابلة كقولهم باء
العوض وباء التمنية وقرء عمر بن الخطاب بالجنة عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه
الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد كبر الناس في المسجد فاقبل رجل من الانصار ثانيا
طرفي ردائه على عاتقه فقال يا رسول الله انزلت هذه الآية قال نعم فقال الانصاري بيع ربيح
لا نقيل ولا نستقيل وقد اخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم اشترط
في بيعة العقبة على من بايعه من الانصار ان يشهدوا ان لا اله الا الله وانه رسول الله
ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة والسمع والطاعة ولا ينازعوا في الامر اهله ويمنعوه مما يمنعون
منه انفسهم واهليهم قالوا نعم قال قائل الانصار نعم لك هذا يا رسول الله فما لنا قال الجنة

واخرجه ابن سعد ايضا من وجه آخر وليس في قصة العقبة ما يدل على انها سبب نزول
الآية يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ استئناف لبيان البيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور
لا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله انفسهم واموالهم
كانه قيل كيف يبيعونها بالجنة فقيل يقاتلون وقيل فيه معنى الامر اي قاتلوا في سبيله
ثم بين هذه المقاتلة بقوله فَيَقْتُلُونَ اعداء الله وَيُقْتَلُونَ في طاعته والمراد انهم
يقدمون على قتل الكفار في الحرب ويبذلون انفسهم في ذلك فان فعلوا فقد
استحقوا الجنة وان لم يقع القتل عليهم بعد الابلاء في الجهاد والتعرض للموت بالاقدام
على الكفار وفي قراءة بتقديم المبني للمفعول اي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي يعني لا يشترط
اجتماع الامرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم وان لم يوجد واحد من الوصفين
كما اذا وجدت المضاربة من غير قتل بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السواد وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف اي وعدهم وعدا وحق ذلك الوعد
حقا اي تحقق وثبت اخبار من الله سبحانه بان فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد
ثبت الوعد بها من الله فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ اي كما وقع في القرآن وفيه وجهان
احدهما انه متعلق باشترى وعلى هذا ففيه دليل على ان الامر بالجهاد موجود في جميع الشرائع
ومكتوب على جميع اهل الملل وكل امة وعدت عليه بالجنة والثاني انه متعلق بمحذوف
والمعنى وعدا مذكورا كائنا في التوراة وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الامة مذكورا
في كتب الله المنزلة وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ في هذا من تاكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد
والتنشيط لهم على بذل الانفس والاموال ما لا يخفى فانه اولا اخبر بانه قد اشترى منهم انفسهم
واموالهم بان لهم الجنة وجاء بهذه العبارة الفخيمة وهي كون الجنة قد صارت ملكا لهم
ثم اخبر ثانيا بانه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة ثم اخبر ثالثا بانه بعد هذا الوعد الصادق
لا بد من حصول الموعود به فانه لا احد اوفى بعهده من الله سبحانه وهو صادق الوعد
لا يخلف الميعاد فان اخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره
منهم فكيف بجانب الخالق فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في

كونه اوفى بالعهد من كل واف ثم زادهم سرورا وحبورا فقال فاستبشروا ببيعكم
البشارة هي اظهار السرور وظهوره يكون في بشرة الوجه ولذا يقال اسارير الوجه اي التي يظهر
فيها السرور والسين ليست للطلب بل للمطاوعة وقد تقدم ايضاح هذا والفاء لترتيب
الاستبشار او الامر على ما قبله والمعنى اظهروا السرور وافرحوا غاية الفرح بهذا البيع
الذي بايعتم به الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه احد من الناس الا من فعل
مثل فعلكم وفيه التفات عن الغيبة لتشريفهم على تشريف وزيادة لسرورهم
على سرور وفيه زيادة تقرير بيعهم والاشارة بقوله ذلك الى الجنة او الى نفس المبيع
الذي ربحوا فيه الجنة هو الفوز العظيم وصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظيم ليدل
على انه فوز لا فوز مثله قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال
الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه ان الله اعطاك الدنيا فاشتر
الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم وقال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة
فلا تبيعوها الا بها التائبون اي هم التائبون يعني المؤمنين والتائب الراجع اي هم
الراجعون الى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة وقال الزجاج عندي ان قوله التائبون
رفع بالابتداء وخبره مضمر اي التائبون ومن بعدهم الى آخر الآية لهم الجنة ايضا
وان لم يجاهدوا قال وهذا احسن اذ لو كانت هذه اوصافا للمؤمنين المذكورين لكان
الوعد خاصا بالمجاهدين وقد ذهب الى هذا طائفة من المفسرين وقيل ان الخبر قوله الآمرون
وقيل ان التائبون بدل من الضمير المستتر في يقاتلون وذهب آخرون الى ان هذه
الاوصاف راجعة الى المؤمنين في الآية الاولى وانها على جهة الشرط اي لا يستحق الجنة
بتلك المبايعة الا من كان من المؤمنين على هذه الاوصاف وبه قال ابن عطية وقيل
غير ذلك وجوز صاحب الكشاف ان يكون التائبون مبتدأ وخبره العابدون وما بعده
اخبار كذلك اي التائبون عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وفيه من
البعد ما لا يخفى ثم قيل المراد به التوبة عن الشرك والبراءة من النفاق وقيل من كل معصية
وقيل من جميع المعاصي لان اللفظ عام يتناول الكل وحاصل ما ذكر اوصاف تسعة السبعة

الاولى تتعلق بمعاملة الخالق والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق والتاسع يعم القبيلتين قاله الحفناوي واتى بترتيب هذه الصفات في الذكر على احسن نظم وهو ظاهر بالتامل فانه قدم التوبة اولا ثم ثنى بالعبادة الى آخرها العابدون اي القائمون بما امروا به من عبادة الله مع الاخلاص الحامدون الذين يحمدون الله سبحانه على كل حال في السراء والضراء ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا واخرى السائحون السياحة في اللغة اصلها الذهاب على وجه الارض كما يسيح الماء وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه فالسياحة لها اثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين اخلاقها وفي القاموس السياحة بالكسر الذهاب في الارض للعبادة ومنه المسيح بن مريم وذكرت في اشتقاقه خمسين قولا في شرحي لمختصر البخاري والسائح الصائم الملازم للسياحة قيل هم الصائمون واليه ذهب جمهور المفسرين وبه قال ابن مسعود ومنه قوله تعالى عابدات سائحات وانما قيل للصائم سائح لانه يترك اللذات كلها كما يترك السائح في الارض قاله سفيان بن عيينة وقال الازهري سمي الصائم سائحا لان الذي يسيح في الارض متعبد لا زاد معه فكان ممسكا عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عنه قال الزجاج ومذهب الحسن ان السائحين هنا هم الذين يصومون الفرض وقيل انهم الذين يديمون الصيام وقال عطاء السائحون هم الغزاة والمجاهدون وقال عبد الرحمن بن زيد هم المهاجرون وقال عكرمة هم الذين يسافرون لطلب الحديث وقيل هم الجائرون بافكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر وقيل هم طلبة العلم مطلقا لانهم ينتقلون من بلد الى بلد في طلبه ويسيحون في الارض يطلبون من مظانه ويدخل فيهم طالب الحديث دخولا اوليا الراكعون الساجدون معناه المصلون المحافظون على الصلوات وعبر عنها بهما لانهما معظم اركانها وبهما يمتاز المصلي من غيره بخلاف غيرهما كالقيام والقعود لانهما حالتا المصلي وغيره الآمرون بالمعروف اي القائمون بامر الناس بما هو معروف في الشريعة والناهون عن المنكر اي القائمون بالانكار على من فعل منكرا اي شيئا ينكره الشرع قال الحسن اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من اهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه لم يات بعاطف بين هذه الاوصاف لمناسبتها لبعضها الا في هذين الوصفين

للمضادة بينهما اذ الاول طلب فعل والثاني طلب ترك او كف وقيل انما عطف بالواو اشارة
الى ان مدخولها هو الوصف الثامن وذلك لانها عندهم تسمى واو الثمانية وتدخل على ما يكون
ثامنا وكذا والحافظون لحدود الله اي القائمون بحفظ شرائعه التي انزلها الله في كتبه وعلى
لسان رسله وقيل بطاعة الله وقال الحسن بفرائض الله وهم اهل الوفاء ببيعة الله وقيل
باوامره ونواهيه او بمعالم الشرع وقيل ان العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها كقوله غافر
الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقيل ان الواو زائدة وقيل هي واو الثمانية المعروفة
عند النحاة كما في قوله تعالى ثيبات وابكارا وقوله وفتحت ابوابها وقوله سبعة وثامنهم
كلبهم وقد انكر واو الثمانية ابو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه وبشر المؤمنين
الموصوفين بالصفات السابقة بالجنة عن ابن عباس قال من مات على هذه التسع فهو في
سبيل الله ومن مات وفيه تسع فهو شهيد وفيه اظهار في مقام الاضمار للتنبيه على علة
الحكم اي سبب استحقاقهم الجنة هو ايمانهم وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان
ما كان اي لا يصح ولا ينبغي ولا يجوز للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين لما بين سبحانه
في اول السورة وما بعده ان البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما
يزيد ذلك تاكيدا وصرح بان ذلك متحتم ولو كانوا اولي قربى فان القرابة في مثل هذا
الحكم لا تاثير لها وقد ذكر اهل التفسير ان ما كان في القران ياتي على وجهين الاول على
النفي نحو ما كان لنفس ان تموت الا باذن الله والآخر على النهي نحو ما كان لكم ان تؤذوا رسول
الله من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار
والمعنى ان هذا التبيين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا وعدم الاعتداد بالقرابة
لانهم ماتوا على الشرك وقد قال سبحانه ان الله لا يغفر ان يشرك به فطلب المغفرة لهم في
حكم المخالفة لوعد الله ووعيده عن علي قال اخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بموت ابي طالب فبكى
فقال اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه ففعلت وجعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم يستغفر له اياما ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه ما كان للنبي الآية وقد روي في سبب نزول
الآية استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لابي طالب من طرق كثيرة واصله في الصحيحين وما فيه مقال

على مالم يكن فيهما على فرض انه صحيح فكيف وهو ضعيف غالبه وقيل ان اريد بطلب المغفرة للكافر هدايته للاسلام قبل الموت جاز الاستغفار له وان اريد به ان يغفر ذنبه مع بقائه على الكفر لم يجز فمفهوم هذه الآية فيه تفصيل وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار وتحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا ولا ينافي هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال يوم احد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون لانه يمكن ان يكون ذلك قبل ان يبلغه تحريم الاستغفار لهم وعلى فرض انه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول فانه قبل يوم احد بمدة طويلة فصدور هذا الاستغفار منه لقومه انما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الانبياء كما في صحيح مسلم عن عبد الله قال كأني انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الانبياء ضربه قومه ويمسح الدم عن وجهه ويقول رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ بقوله واغفر لابي لتوفقه للايمان وتهديه اليه وجه تعلق هذه الآية بما قبلها انه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الاحياء منهم والاموات بين ان هذا الحكم غير مختص بدين محمد صلى الله عليه وسلم بل هو مشروع ايضا في دين ابراهيم فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع اكمل واقوى إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ذكر سبحانه السبب في استغفار ابراهيم لابيه انه كان لاجل وعد تقدم من ابراهيم لابيه بالاستغفار له والاستثناء مفرغ من اعم العلل اي لم يكن استغفاره لابيه ناشيا عن شيء ولاجل شيء الا عن موعدة مبنية على عدم تبين امره وعدها اياه اي لاجلها فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ مصر على العداوة والكفر ومستمر عليه وانه غير مستحق للاستغفار بموته على الكفر تَبَرَّأَ مِنْهُ وترك الاستغفار له وهذا يدل على انه انما وعده قبل ان يتبين له انه من اهل النار ومن اعداء الله فلا حاجة الى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين انه كيف خفي ذلك على ابراهيم فانه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن اصر على الكفر ومات عليه وهو لم يعلم ذلك الا باخبار الله سبحانه له بانه عدو لله فان ثبوت هذه العداوة يدل على الموت على الكفر وكذلك لم يعلم نبينا صلى الله عليه وسلم بتحريم ذلك الا بعد ان اخبره الله بهذه الآية وهذا حكم انما يثبت بالسمع لا بالعقل وقيل المراد من استغفار ابراهيم لابيه دعاؤه الى الاسلام

وهو ضعيف جدًّا وقيل المراد به هنا النهي عن الصلوة على جنائز الكفار فهو كقوله تعالى
ولا تصل على احد منهم مات ابدًا ولا حاجة الى تفسير الاستغفار بالصلوة ولا ملجئ الى ذلك ثم
ختم الله سبحانه هذه الاية بالثناء العظيم على ابراهيم فقال إِنَّ إِبْرَاهِيمَ استيناف
مسوق لبيان الحامل له على الاستغفار قبل التبين فليس لغيره ان يقتدي به فيه
اذ ليس لغيره ما له من الرافة والرقة فلا بد من ان يكون غيره اكثر اجتنابًا وتبريًا الاواه
هو كثير التاوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة وبه قال كعب الاحبار وهو كناية عن فرط ترحمه
ورقة قلبه والتاوّه ان يقول الرجل عند الشكاية والتوجع اه وقد اوّه الرجل تاويها
وتاوّه تاوهًا اذا قال اوه اي اتوجع وحكى قطرب يقال آه يؤه كقام يقوم اوهًا وانكر
النحويون هذا القول عليه وقالوا لا يقال من اوه فعل ثلاثي وقد اختلف اهل العلم في معنى
الاواه فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير انه الذي يكثر الدعاء وقال الحسن وقتادة انه الرحيم
بعباد الله وروي عن ابن عباس انه المؤمن التواب بلغة الحبش وقال الكلبي انه الذي يذكر
الله في الارض القفر وروي مثله عن ابن المسيب وقيل الذي يكثر الذكر من غير تقييد وروي
ذلك عن عقبة بن عامر وقيل هو الذي يكثر التلاوة وقيل انه الفقيه قاله مجاهد والنخعي
وقيل المتضرع الخاضع روي ذلك عن عبد الله بن شداد وقيل الموقن قاله مجاهد وقيل
هو الذي اذا ذكر خطاياه استغفرها روي ذلك عن ابي ايوب وقيل هو الشفيق قاله عبد
العزيز بن يحيى وقيل هو المسبح قاله سعيد بن جبير وقال ابو عبيدة هو المتاوه شفقا وفرقا
المتضرع ايقانا ولزوما للطاعة قال الزجاج انتظم في قول ابي عبيدة جميع ما قيل في الاواه
وقيل انه المعلم للخير وقيل انه الراجع عن كل ما يكرهه الله الخائف من النار قاله عطاء
والمطابق لمعنى الاواه لغة ان يقال انه الذي يكثر التاوه من ذنوبه فيقول مثلا آه من
ذنوبي آه مما اعاقب به بسببها ونحو ذلك وبه قال الفراء وهو مروي عن ابي ذر وكان ابراهيم
عليه السلام يكثر ان يقول اوه من النار قبل ان لا ينفع اوه واصله من التاوه وهو ان
يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء والفعل منه اوه قال في الصحاح وقد اوه الرجل تاويها
وتاوه تاوها والاسم منه الاهة بالمد قال المثقب العبدي اذا ما قمت ارحلها بليل تاوه آهة الرجل الحزين

وعن ابن شداد بن الهاد قال قال رجل يا رسول الله ما الاواه قال الخاشع المتضرع في الدعاء اخرجه ابن جرير وابو الشيخ وابن ابي حاتم وفيه شهر بن حوشب فيه الخلاف وهذا ان ثبت وجب المصير اليه وتقديمه على ما ذكره اهل اللغة في معنى الاواه حَلِيْمٌ الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الاذى ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم مع ابيه حين قال له لئن لم تنته لارجمنك فاجابه بقوله سلام عليك ساستغفر لك ربي وقيل الذي لا يعاقب احدا قط الا لله قال ابن عباس كان من حلمه اذا اذاه الرجل من قومه قال له هداك الله وقيل الحليم السيد وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ اِذْ هَدٰهُمْ لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار فانزل الله هذه الآية اي ان الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلالا بعد ان هداهم الى الاسلام والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد ان تبين لهم انه محرم واما قبل ان يتبين لهم ذلك فلا اثم عليهم ولا يؤاخذون به وهذا مثل قوله في آل عمران بعد اذ هديتنا وفيه وجهان اي بعد ان هداهم او بعد وقت هداهم فيه يعني اذ بمعنى ان او انها ظرف بمعنى وقت حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَّا يَتَّقُوْنَ اي ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع وقال الضحاك ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في المنسوخ اي ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يتبين الناسخ قال ابن عباس نزلت حين اخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال لم يكن لكم ان تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب اذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون اي ينهاهم قبل ذلك وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة ما فعلوا او تركوا اِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ومن سائر الاشياء التي خلقها ومنه مستحق الاضلال والهداية ثم بين لهم اِنَّ اللّٰهَ سبحانه لَهٗ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ لا يشاركه في ذلك مشارك ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما يشاء من التصرفات التي من جملتها انه يُحْيٖ وَيُمِيْتُ من قضت مشيئته باحيائه وباماتته وَمَا لَكُمْ اي لعباده مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ يواليهم وَّلَا نَصِيْرٍ ينصرهم

فلا نستغفر والمشركين ولو كانوا اولي قربى فان القرابة لا تنفع شيئا ولا تؤثر اثرا بل التصرف
في جميع الاشياء لله وحده لَقَدْ تَابَ اللّٰهُ اي ادام توبته عَلَى النَّبِيِّ فيما وقع منه صلى الله عليه وسلم من الاذن
في التخلف او فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين وليس من لازم التوبة ان يسبق الذنب ممن وقعت
منه او له لان كل العباد محتاج الى التوبة والاستغفار وقد يكون التوبة منه على النبي من باب
انه ترك ما هو الاولى والاليق كما في قوله عفا الله عنك لم اذنت لهم ويجوز ان يكون ذكر النبي صلى
الله عليه وسلم لاجل التعريض للمذنبين بان يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها قال اهل
المعاني هو مفتاح كلام للتبرك وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم الى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم
الرسول الى اسم الله في قوله فان لله خمسه وللرسول فهو تشريف له وكذلك تاب الله سبحانه
عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فيما قد اقترفوه من الذنوب ومن هذا القبيل ما صح عنه صلى الله
عليه وسلم من قوله ان الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم والانسان لا
يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره اما من باب الصغائر واما من باب ترك الافضل ثم وصف
سبحانه المهاجرين والانصار بانهم الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ اي النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتخلفوا عنه فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ هي غزوة تبوك فانهم كانوا فيها في عسرة شديدة وقد ذكر بعض العلماء
ان النبي صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك في سبعين الفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار
وغيرهم من سائر القبائل فالمراد بالساعة اوقات جميع تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها
او الساعة الفلكية بل مطلق الوقت والعسرة صعوبة الامر والشدة والضيق وقد وقع الاتفاق
بين الرواة ان ساعة العسرة هي غزوة تبوك وتسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار يسمى
جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة في الزاد والظهر والماء واخرج ابن حبان والحاكم وصححه
والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس انه قال لعمر بن الخطاب حدثنا من شان ساعة العسرة
فقال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا فاصابنا فيه
عطش حتى ظننا ان رقابنا ستنقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي
على كبده فقال ابو بكر الصديق يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا فرفع يديه
فلم يرجعهما حتى قالت السماء فاظلت ثم سكبت فملؤا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ في كاد ضمير الشأن بيان لتناهي الشدة وبلوغها النهاية ومعنى يزيغ يتلف بالجهد والمشقة والشدة وقيل معناه يميل عن الحق ويترك المناصرة والممانعة وقيل معناه يهم بالتخلف عن الغزو لما هو فيه من الشدة العظيمة وفي قراءة ابن مسعود من بعد ما زاغت وهم المتخلفون على هذه القراءة وفي تكرير التوبة عليهم بقوله ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ تاكيد ظاهر واعتناء بشانها هذا ان كان الضمير راجعا الى من تقدم ذكر التوبة عنهم وان كان الضمير الى الفريق الثاني فلا تكرار وذكر التوبة اولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك واردفه بذكر التوبة مرة اخرى تعظيما لشانهم وليعلموا انه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم اتبعه بقوله إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ تاكيد لذلك اي رفيق بعباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا في المعنى قال الخطابي قد تكون الرحمة مع الكراهة ولا تكاد الرافة تكون معها وقيل الرافة عبارة عن السعي في ازالة الضرر والرحمة عبارة عن السعي في ايصال النفع وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا اي اخروا ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة اولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم قال ابن جرير معنى خلفوا تركوا يقال خلفت فلانا فارقته وقرئ خلفوا بالتخفيف اي اقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الى الغزو وقرئ خالفوا وقيل معنى خلفوا فسدوا مأخوذ من خلوف الفم وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع او ابن ربيعة العامري وهلال بن امية الواقفي وكلهم من الانصار لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم توبتهم حتى نزل القرآن بان الله قد تاب عليهم حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ كناية عن شدة التحير وعدم الاطمينان يعني انهم اخروا عن قبول التوبة الى هذه الغاية وهي وقت ان ضاقت عليهم الارض برحبها لاعراض الناس عنهم وعدم مباالتهم من كل احد لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى الناس ان يكلموهم والرحب الواسع يقال منزل رحب ورحيب وراحب والضمير مصدرية والمفتوح مكان وفي هذه الآية دليل على جواز الهجران لاهل المعاصي تاديبا لهم لينزجروا عن المعاصي وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ اي انها ضاقت صدورهم بانا لهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة وشدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وتركهم

كلامهم فلا يسعها سرور ولا انس وعبر بالظن في قوله وظنوا عن العلم اي علموا وايقنوا ان لا ملجأ اي لا يجاؤن اليه قط من الله اي من عذابه او من سخطه الا اليه سبحانه بالتوبة والاستغفار
ثم تاب اي رجع عليهم بالقبول والرحمة وانزل في القران التوبة عليهم ليستقيموا ووفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان ان فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا فيها الى الله ويندموا على ما وقع منهم ويحصلوا التوبة وينشئوها فحصل التغاير وصح التعليل ان الله هو التواب اي الكثير القبول لتوبة التائبين الرحيم اي الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده قال بوبكر الوراق التوبة النصوح ان تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلثة وفيه دليل على ان قبول التوبة محض الرحمة والكرم والرافة والاحسان من الله تعالى وانه لا يجب عليه شيء يا ايها الذين امنوا اتقوا الله في مخالفة امر الرسول صلى الله عليه وسلم وكونوا مع الصدقين هذا الامر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلثة يفيد الاشارة الى ان هؤلاء الثلثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله وظاهر الاية الامر للعباد على العموم قال نافع قيل للثلثة كونوا مع محمد واصحابه وقال سعيد بن جبير كونوا مع ابي بكر وعمر وزاد الضحاك واصحابهما وعن ابن عباس مع علي بن ابي طالب وعن جعفر قال مع الثلثة الذين خلفوا وقال ابن جرير مع المهاجرين وقيل مع الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك وقيل مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة وهذه الاية تدل على فضيلة الصدق روي ان ابا بكر احتج بهذه الاية على الانصار في يوم السقيفة حين قال الانصار منا امير ومنكم امير فقال ان الله يقول في كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله اولئك هم الصادقون فمن هؤلاء قال الانصار انحن هم فقال ان الله يقول اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فامركم ان تكونوا معنا ولم يامرنا ان نكون معكم قيل والاية تدل على ان الاجماع حجة لانه امر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم وقيل مع بمعنى من اي كونوا منهم والله اعلم
ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله زيادة تاكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريم التخلف عنه اي ما صح وما استقام لهم

ولمن حولهم كمزينة وجهينة واشجع واسلم وغفار ان يتخلفوا عنه صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك
وقيل هو عام في كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم اولى وانما خصهم الله سبحانه لانهم
قد استنفروا فلم ينفروا بخلاف غيرهم من العرب فانهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم
احق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن زيد هذا حين كان الاسلام قليلا لم
يكن لاحد ان يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كثر الاسلام وفشا قال الله وما كان المؤمنون
لينفروا كافة ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه اي وما كان لهم ذلك فيشحون بها ويصونونها
ولا يشحون بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصونونها كما شحوا بانفسهم وصانوها يقال رغبت
عن كذا اي ترفعت عنه واعرضت والمعنى ولا يجعلوا انفسهم راغبة معرضة عما القى فيه نفسه
الكريمة بل واجب عليهم ان يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه اهل الشقاويبذلوا
انفسهم دون نفسه بان يصحبوه على الباساء والضراء علما بانها اعز نفس عند الله واكرمها
عليه فاذا تعرضت مع عزتها وكرامتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الانفس ان تتهافت
فيما تعرضت له ولا يكترث بها اصحابها ولا يقيموا لها وزنا وتكون اخف شيء عليهم واهونه
وفي هذا الاخبار معنى الامر لهم مع مايفيده ايراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع
الشديد والتهييج لهم والازراء عليهم والاشارة بقوله ذلك الى مايفيده السياق من وجوب
المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اي ذلك الوجوب بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة
اي بسبب انهم مثابون على انواع المتاعب واصناف الشدائد والظمأ العطش والنصب التعب
والمخمصة المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن ولا في هذا الموضع زائدة للتاكيد
ومعنى في سبيل الله في طاعة الله ولا يطأون موطئا يغيظ بفتح الياء باتفاق السبعة
وان كان يجوز لغة ضمها اذ يقال غاظه واغاظه بمعنى واحد اي يغضب الكفار اي
لا يدوسون مكانا من امكنة الكفار باقدامهم او بحوافر خيولهم او باخفاف رواحلهم فيحصل
بسبب ذلك الغيظ والغم والحزن للكفار والموطئ اسم مكان ويجوز ان يكون مصدرا وفيه
ان المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم
ولا ينالون اي لا يصيبون من عدو نيلا اي قتلا واسرا او هزيمة او غنيمة واصله من نلت الشيء

اناله اي اصبت قال الكسائي هو من قولهم امر منيل منه وليس هو من التناول انما التناول من نلته بالعطية قال غيره نلت انول من العطية ونلته اناله ادركته إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ اي بكل واحد من الامور الخمسة عَمَلٌ صَالِحٌ حسنة مقبولة يجازيهم بها وثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم حكم الوعد الكريم الثواب الجميل ونيل الزلفى قال الاوزاعي وجماعة من الائمة هذه الآية للمسلمين الى ان تقوم الساعة وقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم والاول اولى وفي الآية دليل على ان من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله وكان سعيه مشكورا إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ جملة في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا اوليا والعدول من الاضمار الى الاظهار لاجل مدحهم وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً اي ولا يقع منهم الانفاق في الحرب او في سبيل الله وان كان شيئا حقيرا صغيرا يسيرا كالتمرة فما دونها او اكثر منها حتى علاقة سوط وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا مقبلين او مدبرين فيه وهو في الاصل كل منفرج بين جبال واكام يكون منفذا للسيل والعرب تقول واد واودية على غير قياس قال النحاس ولا يعرف فيما علمت فاعل وافعلة والمراد هنا مطلق الارض قال الحفناوي إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ به أَحْسَنَ جزاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الاعمال وقال الرازي الاحسن من صفة افعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله يجزيهم على الاحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والاول اولى وقيل يجزيهم على كل واحد جزاء احسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا لاجرهم وفي الآية دليل على فضل الجهاد وانه من احسن اعمال العباد وقد ذهب جماعة الى ان هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهي قوله وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فانها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض واختلف المفسرون في معنى هذه الآية فذهب جماعة الى انه من بقية احكام الجهاد لانه سبحانه لما بالغ في الامر بالجهاد والانتداب الى الغزو كان المسلمون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية فاخبرهم الله سبحانه بانه ما كان لهم ذلك اي ما صح ولا استقام ان ينفروا جميعا فَلَوْلَا

تحضيضية فالمعنى على الطلب اي فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة الطائفة في اللغة الجماعة ليس بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرق ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة قالوا ويكون الضمير في قوله ليتفقهوا في الدين عائد الى الفرقة الباقية والمعنى ان طائفة من هذه الفرقة تخرج الى الغزو ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعلمون الغزاة او يذهبون في طلبه الى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه في الدين ولينذروا قومهم عطف جملة ففيه اشارة الى انه ينبغي ان يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو دأب ابناء الزمان اذا رجعوا اليهم وقت رجوعهم اليهم من الغزو وذهب آخرون الى ان هذه الآية ليست من بقية احكام الجهاد وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه في الدين جعله الله سبحانه متصلا بما دل على ايجاب الخروج الى الجهاد فيكون السفر نوعين الاول سفر الجهاد والثاني السفر لطلب العلم ولا شك ان وجوب الخروج لطلب العلم انما يكون اذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر والفقه هو العلم بالاحكام الشرعية وبما يتوصل به الى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان واصول وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين وانذار من لم يتفقه فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين وهما تعلم العلم وتعليمه فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني لعلهم يحذرون الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك او فيما يجب تركه فيفعل يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار في هذا الفعل لغتان اكثرهما وليه يليه بالكسر فيهما والثانية من باب وعد وهي قليلة الاستعمال وجلست مما يليه اي يقاربه وكان الآية جاءت على اللغة الثانية واصله يليون اي الاقرب فالاقرب منهم امر سبحانه المؤمنين بان يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار في الدار والبلاد والنسب مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها قاله ابن عباس وقال ابن عمر هم الروم لانهم كانوا سكان الشام والشام اقرب الى المدينة من العراق وقيل هم الديلم وقال ابن زيد هم العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم ثم امر وابقتال اهل الكتاب في جهادهم حتى يؤمنوا او يعطوا الجزية عن يد

وهكذا المفروض على اهل كل ناحية ان يقاتلوا من وليهم وان يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة كما قال وَلْيَجِدُوا اي ليجد كوافيكم غِلْظَةً اي شدة وقوة وشجاعة والغلظة بالكسر ضد الرقة وهي لغة اسد والفتح لغة اهل الحجاز والضم لغة تميم حكى ابو عمرو واللغات الثلث في الغلظ واصلها في الاجرام فاستعيرت هنا للشدة والتجلد والصبر وقال الحسن صبرا على جهادهم ثم الجهاد واجب لكل الكفار وان كان الابتداء يبتدأ بالمجاهدين منهم وهو واقدم ثم الاقرب فالاقرب ونقل عن بعض العلماء انه قال نزلت هذه الاية قبل الامر بقتال المشركين كافة فصارت ناسخة لهذه الاية ولا وجه للنسخ فانه تعالى امرهم بقتالهم كافة وارشدهم الطريق الاصوب الاصلح وهو ان يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الابعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لان قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم اولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم الى قتال اهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم والشام فكان فتحه في زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب اولا تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الابعد وفي الاية استعمال المسبب في السبب فان وجدان الكفار لغلظة المسلمين سببه اغلاظ المسلمين عليهم قاله الخفاجي ثم اخبرهم الله بما يقوي عزائمهم ويثبت اقدامهم فقال وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالنصرة لهم وتاييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شيء وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين اي والحال اذا ما انزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من كتابه العزيز فَمِنْهُمْ اي فمن المنافقين مَنْ يَقُولُ لاخوانه منهم أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السورة النازلة إِيمَانًا يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين ويحتمل ان يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الاسلام وتزهيدهم فيه وقد تقدم بيان معنى السورة فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه ان المؤمنين زادتهم ايمانا الى ايمانهم لتصديقهم بها والزيادة ضم شيء الى اخر من جنسه مما هو في صفته وقد تقدم الكلام على زيادة الايمان وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ اي والحال انهم يفرحون مع هذه الزيادة بنزول الوحي شيئا بعد شيء وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وهم المنافقون والمراد بالمرض هنا الشك والنفاق فَزَادَتْهُمْ
السورة المنزلة رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ اي خبثا مضموما الى خبثهم الذي هم عليه من الكفر
وفساد الاعتقاد واظهار غير ما يضمرونه ولذا عدي بالى وقيل ان الى بمعنى مع وسمي الكفر رجسا
لانه اقبح الاشياء واصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ اي وثبتوا او
استمروا عليه الى ان ماتوا كفارا منافقين وقيل المعنى زادتهم اثما الى اثمهم أَوَلَا يَرَوْنَ قرئ
بالتحتية وبالفوقية خطابا للمؤمنين وقرأ الاعمش الم يروا وقرأ طلحة اولا ترى خطابا للرسول
صلى الله عليه وسلم والهمزة على القراءة بالياء للانكار والتوبيخ وعلى الخطاب للتعجيب والروية قلبية او
بصرية أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ يختبرون قاله ابن جرير وغيره او يبتليهم الله بالقحط والشدة والجوع
والسنة قاله مجاهد وقال ابن عطية بالامراض والاوجاع وقال قتادة بالغزو والجهاد
مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن بالعدو فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ عن ابي سعيد قال كانت لهم
في كل عام كذبة او كذبتان قال حذيفة فيضل بها فئام من الناس كثير وقيل انهم يفتضحون
باظهار نفاقهم وقيل ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل ينقضون عهدهم في السنة
مرة او مرتين ويرون ما وعد الله من النصر ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ بسبب ذلك من النفاق ونقض العهد
ولا يرجعون الى الله مع ان الابتلاء يقتضي الرجوع والتذكر وثم للعطف على يرون وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ
اي لا يرون ولا ينظرون ولا يتعظون وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم
في النفاق واهمالهم للنظر والاعتبار ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة
بعد ذكره لما كانوا يقولونه فقال وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فيها عيب المنافقين وذكرهم وتوبيخهم
قرأها النبي صلى الله عليه وسلم نَظَرَ بَعْضُهُمْ اي بعض المنافقين إِلَى بَعْضٍ آخر وتغامز بالعيون انكارا لها
او سخرية او غيظا لما فيها من عيوبهم وحكى ابن جرير عن بعض اهل العلم انه قال نظر في هذه
الآية موضوع موضع قال اي قال بعضهم لبعض هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المؤمنين لننصرف عن
المقام الذي ينزل فيه الوحي فانه لا صبر لنا على استماعه او لنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية
والضحك وقيل المعنى واذا انزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من
يحضر مجلس النبي صلى الله عليه وسلم للبعض الآخر منهم هل يراكم من احد ثُمَّ انْصَرَفُوا الى منازلهم عن ذلك

المجلس او عما يقتضي الهداية والايمان الى ما يقتضي الكفر والنفاق والتراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية احد من المؤمنين ثم دعى الله سبحانه عليهم فقال صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ عن الخير وما فيه ارشادهم والهداية وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها وقيل المعنى انه خذلهم عن قبول الهداية قال الزجاج اضلهم الله مجازاة على فعلهم وقيل هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم قاتله الله وقيل اخبار عنهم ثم ذكر سبحانه السبب الذي لاجله انصرفوا عن مواطن الهداية او السبب الذي لاجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله صرف الله قلوبهم فقال بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وانصافهم عن ابن عباس لا تقولوا انصرفنا من الصلوة فان قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلوة وعن ابن عمر نحوه واقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر وليس في اطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على انه لا يطلق الا على نحو ذلك والا لزم ان كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الامور المتعددة اذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع عن اهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما هون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة فقال موبخا لَقَدْ جَاءَكُمْ يا معشر العرب والخطاب لهم عند جمهور المفسرين وقال الزجاج هي خطاب لجميع العالم اي لقد جاءكم رَسُولٌ ارسله الله اليكم له شان عظيم مِّنْ أَنفُسِكُمْ اي من جنسكم في كونه عربيا قرشيا مثلكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسماعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملك عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ما مصدرية والعنت التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه او بعذاب الآخرة بالنار او بمجموعهما والمعنى شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم حَرِيصٌ شحيح عَلَيْكُم بان تدخلوا النار او حريص على ايمانكم وهدايتكم والاول اولى وبه قال الفراء بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ قد تقدم بيان معناهما اي هذا الرسول بالمؤمنين الطائعين منكم ايها العرب او الناس رؤف رحيم فسماه الله رؤفا رحيما ولم يجمع لاحد من انبيائه بين اسمين من اسمائه الا للنبي صلى الله عليه وسلم قاله الحسين بن الفضل قرئ رؤف بالمد وبالقصر وهما

قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة ايتما وقعت في القرآن والرؤف اخص من الرحيم وانما قدم عليه رعاية للفواصل وعن ابن عباس في هذه الآية ليس من العرب قبيلة الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضرها وربيعها ويمانيها وعلى هذا يكون المقصود ترغيب العرب في نصرة والايمان به فانه قد شرفهم بشرفه وعزهم بعزه وفخرهم بفخره فانه من عشائرهم وعن جعفر بن محمد عن ابيه قال من انفسكم بفتح الفاء من النفاسة اي من اشرفكم قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح وهذا فيه انقطاع ولكنه وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي عن علي بن ابي طالب وزاد من لدن آدم الى ان ولدني ابي وامي وقال علي ما معنى من انفسكم يا رسول الله قال نسبا وصهرا وحسبا ليس في ولا في اباثي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ من انفسكم يعني من اعظمكم قدرا وبه قرأ الزهري وفي الباب احاديث بمعناه ويؤيده ما في صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل واصطفى من ولد اسمعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم واخرج احمد والترمذي وحسنه وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة وحين خلق الانفس جعلني من خير انفسهم ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم فانا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه اخرجه البخاري وفي الباب احاديث وعن ابي بن كعب قال آخر آية انزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ آخر ما انزل من القرآن لقد جاءكم رسول من انفسكم الى آخر الآية ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ومرشدا له الى ما يقوله عند ان يعصى فان تولوا اي اعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه فقل يا محمد حسبي اي كافي الله

بالرسالة من خصال الكمال عند قريش ما هو اشهر من الشمس واظهر من النهار حتى كانوا يسمونه الامين يقصر عنه من كان غنيا او غير يتيم وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يصطفيه الله
أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ اي خوفهم قيل ان هي المفسرة لان في الايحاء معنى القول وقيل مصدرية
والانذار اخبار مع تخويف كما ان البشارة اخبار مع سرور وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ
عِندَ رَبِّهِمْ من اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع وصلوة الاولى وحب الحصيد وفائدة
هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شئ اضيف الى الصدق فهو
ممدوح ومثله مقعد صدق ومدخل صدق واختلفت عبارات المفسرين واهل اللغة في
معنى قدم صدق فقيل منزل صدق وقال الزجاج درجة عالية وقال ابن الاعرابي القدم المتقدم
في الشرف وقال ابو عبيدة والكسائي كل سابق من خير او شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان
قدم في الاسلام وله عندي قدم صدق وقدم خير وقدم شر وقال ثعلب القدم كل ما
قدمت من خير وقال ابن الانباري القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تاخير ولا ابطاء
قال قتادة سلف صدق وقال الربيع والضحاك ثواب صدق وقال الحسن هو محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم
ونحوه عن زيد بن اسلم وهو قول قتادة وقال الحكيم الترمذي قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود
قال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقيل عمل صالح سلفوه يقدمون
عليه قاله الحسن وقال الليث وابو الهيثم القدم السابقة اي سبق لهم عند الله خير وقال مقاتل
اعمالا قدموها واختاره ابن جرير قال ابن عباس ما سبق لهم من السعادة في الذكر الاول يعني
اللوح المحفوظ وقال ايضا اجرا حسنا بما قدموا من اعمالهم وعن ابن مسعود قال القدم
هو العمل الذي قدموه قال الله سبحانه سنكتب ما قدموا وآثارهم والآثار ممشاهم قال مشى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اسطوانتين من مسجده ثم قال هذا اثر مكتوب وقيل غير ما تقدم مما
لا حاجة الى التطويل بايراده والروايات من التابعين وغيرهم في هذا كثيرة وقد قدمنا الكثير
والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني ان السعي والسبق لا يحصل الا بالقدم فسمي باسم السبب
السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ قرئ لساحر
على انهم ارادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الاشارة وقرئ لسحر على انهم ارادوا القرآن وقد تقدم

معنى السحر فى البقرة والجملة مستانفة كانه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب وقال القفال فيه اضمار والتقدير فلما انذرهم قال الكفرون ذلك ثم ان الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الايحاء الى رجل منهم فقال إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ من ايام الدنيا اي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولا قمر ولو شاء لخلقهن في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التأني والتمهل في الامور وتخصيص الستة بالذكر مع ان التثبت يتاتى باقل منها او بازيد عليها قد استاثر الله بعلمه والمعنى ان من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون ارساله لرسوله الى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به وهذه طريقة السلف المفوضين وقد تقدم تفسير هذه الاية فى الاعراف بما فيه كفاية فلا نعيده هنا وقد تقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود قال الكرخي ان الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف انتهى فهذه الصفة يجب الايمان بها وامرارها على ظاهرها من غير تاويل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وطريقة الخلف المؤولين محجوجة بنصوص الكتاب والسنة واقوال سلف الامة وائمتها وظاهر الاية يدل على انه تعالى انما استوى على العرش بعد خلق السموات والارض لان كلمة ثم للتراخي وذلك يدل على انه تعالى كان قبل العرش غنيا عنه فلما خلقه امتنع ان تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء الى الحاجة فوجب ان يبقى بعد خلق العرش غنيا عنه ولكن لما قال هو سبحانه وتعالى باستوائه عليه وجب الايمان به على ما يليق بجلاله ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شانه مع ما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام فقال يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وترك العاطف لان جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها واصل التدبير النظر في ادبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول والشكل المحمود قال مجاهد يقضيه ويقدره وحده على الوجه الاتم الاكمل وقيل يبعث الامر وقيل ينزل الامر وقيل يأمر به ويمضيه والمعنى متقارب واشتقاقه من الدبر والامر الشان وهو احوال ملكوت السموات

والارض والعرش وسائر الخلق من الجزئيات الحادثة شيئا فشيئا على الطوارئ لا كما تحصى كم من
شفيع يشفع عنده يوم القيامة الا من بعد اذنه له في الشفاعة لانه عالم بمصالح عباده
في تدبيرهم فلا يجوز لاحد ان يسأله ما ليس له به علم قال الزجاج ان الكفار الذين خوطبوا
بهذه الاية كانوا يقولون ان الاصنام شفعاؤنا عند الله فرد الله عليهم بانه ليس لاحد
ان يشفع اليه في شيء الا بعد اذنه لانه اعلم بموضع الحكمة والصواب وله التصرف المطلق
في العالم وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة وفي هذا بيان لاستبداده بالامور في كل شيء
سبحانه وتعالى ذلكم اي فاعل هذه الاشياء العظيمة من الخلق والتدبير الله ربكم اي
هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه وفي هذه الجملة زيادة تاكيد لقوله ان ربكم الله الذي
خلق السموات والارض فاعبدوه امرهم بعبادته بعد ان بين لهم انه الحقيق بها دون غيره لبديع
صنعه وعظيم اقتداره فكيف تعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر
والاستفهام في قوله افلا تذكرون للانكار والتوبيخ والتقريع لان من له ادنى تذكر واقل
اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه ثم بين لهم ما يكون آخر امرهم بعد الحياة الدنيا فقال اليه
مرجعكم جميعا وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى والمراد بالمرجع الرجوع اليه سبحانه
اما بالموت او بالبعث او بكل واحد منهما وانتصاب وعد الله على المصدر او هو منصوب
بفعل مقدر ثم اكد ذلك الوعد بقوله حقا فهو تاكيد للتاكيد فيكون في الكلام من الوكادة
ما هو الغاية في ذلك وقرئ وعد الله حق على الاستيناف ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله انه
بالكسر استينافا او بالفتح على تقدير اللام يبدؤا الخلق اي ان هذا شانه يبتدي خلقه من التراب
ثم يعيده اليه والخلق بمعنى المخلوق والمضارع بمعنى الماضي وعبر به استحضارا للصورة الغريبة
ومعنى الاعادة الجزاء يوم القيامة قال مجاهد ينشيه ثم يميته ثم يحييه للبعث وقيل ينشيه من
الماء ثم يعيده من حال الى حال اي وعدكم الله انه يبدؤ الخلق ثم يعيده او التقدير لانه يبدؤ الخلق
قال احمد بن يحيي التقدير حقا ابداؤه الخلق وفي الاية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة
وقوعه ورد على منكري البعث ثم ذكر غاية ما يترتب على الاعادة فقال ليجزي الذين امنوا وعملوا
الصالحات بالقسط اي بالعدل الذي لا جور فيه اي يجزيهم متلبسا بالقسط او متلبسين به

اي بسبب قسطهم والمراد به هنا الايمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون والذين
كفروا يحتمل وجهين احدهما ان يكون مرفوعا بالابتداء وجملة لهم شراب من حميم وعذاب
اليم خبره والثاني ان يكون منصوبا عطفا على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم
وقيل الجملة في محل نصب على الحال اي حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب الموام ولكن
يشكل على ذلك ان هذا الشراب وهذا العذاب الاليم هما من الجزاء والحميم الماء الحار الذي قد انتهى
حره وكل مسخن عند العرب فهو حميم وتغيير الاسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه
على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعذاب وقع بالعرض وانه تعالى يتولى
اثابة المؤمنين بلطفه وكرمه بما يليق ولذلك لم يعينه واما عقاب الكفرة فكانه داء ساقه اليهم سوء
اعتقادهم وسوء افعالهم بما كانوا يكفرون اي بسبب كفرهم هو الذي جعل الشمس
ضياء والقمر نورا ذكرهنا بعض نعمه على المكلفين وهو مما يستدل به على وجوده ووحدته
وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر
قبل هذا ابداعه للسموات والارض واستواءه على العرش وغير ذلك والضياء قيل جمع ضوء
كالسياط والسوط والحياض والحوض والاولى ان يكون ضياء مصدرا لا جمعا ولا بد من تقدير
مضاف اي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور الا ان يحمل على المبالغة كانها جعلا نفس الضياء
والنور وقيل الضياء اقوى من النور وقيل هو ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض ومن هنا
قال الحكماء ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس وضياء مفعول ثان ان جعل الجعل بمعنى التصيير
وحال ان جعل بمعنى الخلق قال السدي لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله
فمحونا اية الليل الاية قال ابن عباس وجوههما الى السموات واقفيتهما الى الارض وعن ابن عمرو مثله
وقدره اي قدر مسير القمر في منازل او قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين
وذلك ان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية
لا الشمسية ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية
وعشرون وهي معروفة لكل برج منزلان وثلث منزل ينزل القمر في كل ليلة منها منزلا الى
انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه فيبدو صغيرا في اول منازله ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو

كاملا واذا كان في اخرمنازله دقّ واستقوس ثم يستتر ليلتين لايبصر ولا يرى اذا كان الشهر كاملا وليلة اذا كان الشهر ناقصا والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال اورده عليه بعض الاعلام وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس و القمر كما قيل في قوله تعالى واذا رأوا تجارة اولهوا انفضوا اليها وقوله والله ورسوله احق ان يرضوه وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والاولى رجوع الضمير الى القمر وحده كما في قوله تعالى والقمر قدرناه منازل ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال لِتَعْلَمُوا بذلك التقدير عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابَ اي وقت دخولها وانقضائها وحساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها فان في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيا ما لا يحصى وفي العلم بحساب الاشهر والايام والليالي من ذلك ما لا يخفى ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم والسنة تحصل من اثني عشر شهرا والشهر يحصل من ثلثين يوما ان كان كاملا واليوم يحصل من ساعات معلومة هي اربع وعشرون ساعة لليل والنهار وقد يكون لكل واحد منهما اثنا عشر ساعة في ايام الاستواء ويزيد احدهما على الاخر في ايام الزيادة وايام النقصان و الاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ذكرناه في لقطة العجلان وحجج الكرامة مَا خَلَقَ اللّٰهُ ذٰلِكَ بين سبحانه انه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الاحوال اِلَّا بِالْحَقِّ و الصواب دون الباطل والعبث والاشارة بقوله ذلك الى المذكور قبله من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال يُفَصِّلُ الْاٰيٰتِ لِقَوْمٍ يَّعْلَمُوْنَ معنى التفصيل تبيينها والمراد بالايات التكوينية او التنزيلية او مجموعهما ويدخل هذه الايات التكوينية المذكورة هنا دخولا اوليا في ذلك قرئ يفصل بالياء والنون وهما سبعيتان وعلى الثانية فيه التفات ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض من تلك المخلوقات فقال اِنَّ فِي اخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ اي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للاخر بحسب طلوع الشمس وغروبها وفي تفاوتهما في انفسهما بازدياد كل منهما وانتقاص الاخر باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة او في

اختلافهما وتفاوتهما بحسب الامكنة اما في الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالي ايامها الصيفية اطول ولياليها الصيفية اقصر من البلاد البعيدة منه ولياليها واما في انفسهما فان كروية الارض تقتضي ان يكون بعض الاوقات في بعض الاماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ فِي السَّمٰوٰتِ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك وَالْاَرْضِ من حيوان وجبال وبحار وانهار واشجار وغيرها لَاٰيٰتٍ عظيمات على قدرته تعالى لِّقَوْمٍ يَّتَّقُوْنَ الله سبحانه ويجتنبون معاصيه خصهم بهذه الآيات لانهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظر العاقبة امرهم وما يصلحهم في معادهم قال القفال من تدبر في هذه الاحوال علم ان الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما اهملهم بل جعلها لهم دار عمل اذا كان كذلك فلا بد من امر ونهي عن خليفة العبدي قال لو ان الله تبارك وتعالى لم يعبد الا عن رؤية ما عبده احد ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل اذا جاء فملأ كل شيء وغطى كل شيء وفي مجيء سلطان النهار اذا جاء فمحى سلطان الليل وفي السحاب المسخر بين السماء والارض وفي النجوم وفي الشتاء والصيف فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم حتى ايقنت قلوبهم بربهم وقد تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها اِنَّ الَّذِيْنَ لَا يَرْجُوْنَ لِقَآءَنَا شرع الله سبحانه في شرح احوال من لا يؤمن بالمعاد ومن يؤمن به وقدم الطائفة التي لم تؤمن لان الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي اهماله مما هو مشاهد لكل حي طول حياته فيتسبب عن اهمال النظر والتفكر الصادق عدم الايمان بالمعاد ومعنى الرجاء هنا الخوف وقيل الطمع فالمعنى على الاول لا يخافون عقاباً وعلى الثاني لا يطمعون في ثواب اذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته فان كان المراد حقيقته كان المعنى لا يخافون رؤيتنا ولا يطمعون في رؤيتنا وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه وَرَضُوْا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا عوضاً عن الآخرة فعملوا لها وَاطْمَاَنُّوْا بِهَا اي وقد سكنت نفوسهم اليها وفرحوا بها وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنْ اٰيٰتِنَا غٰفِلُوْنَ العطف اما هو لتغاير الصفات اي غفلوا عن آياتنا الكونية والشرعية لا يعتبرون بها ولا

يتفكرون فيها قيل المراد بالآيات ادلة التوحيد وقيل محمد وقيل القرآن أُولَٰئِكَ اي المتصفون
بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضاء والاطمينان والغفلة مَأْوَاهُمُ النَّارُ اي مثواهم ومكان
اقامتهم بِمَا كَانُوا اي بسبب ما كانوا يَكْسِبُونَ من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين
لا يؤمنون بالمعاد واما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اي فعلوا الايمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكره
من الآيات وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ التي يقتضيها الايمان وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ اي يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل
الصالح فيصلون بذلك الى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ مستانفة او خبر ثان لانّ او في محل النصب على الحال والمعنى من تحت
بساتينهم او من بين ايديهم لانهم على سرر مرفوعة فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ خبر اخر او حال
اخر منه او من الانهار او متعلق بتجري دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ اي دعاؤهم ونداؤهم
وطلبهم لما يشتهونه في الجنة هذا اللفظ وهو من باب الاسناد اللفظي وقيل هذا من باب
الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط بل يقولونه او ما يؤدي معناه من جميع
صفات التنزيه والتقديس قيل الدعاء العبادة كقوله واعتزلكم وما تدعون من دون
الله وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين والمعنى ان اهل الجنة يدعون
في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية وقيل قولهم وكلامهم
قال القفال اصله من الدعاء لان الخصم يدعو خصمه الى من يحكم بينهما وقيل معناه طريقتهم
وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن ان يجعل الدعوى كناية عن الملازمة
وان لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا دعاء وقيل معناه تمنيهم كقوله ولهم ما يدعون
وكان تمنيهم في الجنة ليس الا تسبيح الله وتقديسه واخرج ابن مردويه عن ابي بن كعب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قالوا سبحانك اللهم اتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم وقد
روي نحو هذا عن جماعة من التابعين فهذه الكلمة علامة بين اهل الجنة والخدم في احضار
الطعام فاذا ارادوه قالوا سبحانك اللهم فياتونهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له

على الموائد في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا
الله على ما اعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك قال الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يبتدئون
بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث
والمعنى نسبحك يا الله تسبيحا ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ اي تحية بعضهم للبعض فيكون المصدر مضافا
الى الفاعل او تحية الله او الملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر الى المفعول والتحية التكرمة
بالحالة الجليلة اصلها احياك الله حياة طيبة والسلام السلامة من كل مكروه وقد
مضى تفسير هذا في سورة النساء ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ اي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح
في كل مجلس ﴿أَنِ﴾ يقولوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا ان معناه انقطاع الحمد فان اقوال
اهل الجنة واحوالها لا آخر لها قال النحاس مذهب الخليل أن أن هذه مخففة من الثقيلة
والمعنى انه الحمد لله وقال المبرد يجوز ان تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع اقيس ولم يحك
ابو عبيد الا التخفيف قال ابو الهذيل الحمد اول الكلام وآخر الكلام ثم تلى هذه الآية ولما
ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد ذكر ان هذا العذاب من حقه ان يتأخر
عن هذه الحياة الدنيا فقال ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ اي اجابة دعائهم بالشر مما لهم فيه
مضرة ومكروه في نفس او مال والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته وقال القفال لما وصفهم
بالغفلة اكد ذلك بان من غاية غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب
فبين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون ويخرج من اصلابهم
من يؤمن قيل ومعناه لو عجل الله للناس العقوبة ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ اي كما يستعجلون بالثواب
والخير اي استعجالا مثل استعجالهم قال مكي وهذا مذهب سيبويه او تعجيلا مثل استعجالهم
وهذا تقدير ابي البقاء وهو الظاهر وقال الزمخشري اصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف
جدا وقيل منصوب على اسقاط كاف التشبيه اي كاستعجالهم والاستعجال طلب العجلة ﴿لَقُضِيَ
إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ اي لاهلكهم وقيل معناه لاميتوا قال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر
قد يدعون على انفسهم واهلهم واولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة و
اعطاء المسئول يقول لو اجابهم الله اذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ

من اهلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي في الخير ولا يستجيب له في الشر وقال مجاهد في الآية هو قول الانسان لولده واهله عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال سعيد بن جبير هو قول الرجل للرجل اللهم العنه اللهم اخزه وهو يحب ان يستجاب له وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وقيل الآية خاصة بالكفار الذين انكروا البعث وما يترتب عليه وقيل نزلت في النضر بن الحارث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق فامطر علينا حجارة من السماء الآية وقرئ لقضى على البناء للفاعل وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ولو يعجل الله وصورة القياس هكذا لو يعجل الله الشر للناس لاهلكهم لكنه لم يهلكهم بل امهلهم فلم يعجل لهم الشر ويدل على هذا القول قوله فنذر الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يتوقعونه فالفاء للعطف على مقدر يدل عليه الكلام فكانه قيل لكن لا يعجل لهم الشر ولا يقضي اليهم اجلهم فيذرهم اي فيتركهم ويمهلهم في طغيانهم اي الذي هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على اعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة والطغيان التطاول وهو العلو والارتفاع يعمهون يعني يتركهم يتحيرون في تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا ثم بين سبحانه انهم كاذبون في استعجال الشر ولو اصابهم ما طلبوه لاظهروا العجز والجزع فقال وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ اي هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به كالمرض والفقر دَعَانَا لِجَنْبِهِ اللام للوقت او بمعنى على اي دعانا مضطجعا أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا كانه قال دعانا في جميع الاحوال المذكورة وغيرها وخص المذكورة بالذكر لانها الغالب على الانسان ولا يخلو عنها عادة وما عداها نادر كالركوع والسجود ويجوز ان يراد انه يدعو الله حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود وقاعدا غير قادر على القيام وقائما غير قادر على المشي والاول اولى قال الزجاج ان تعديد احوال الدعاء ابلغ من تعديد احوال المضرة لانه اذا كان داعيا على الدوام ثم نسي في وقت الرخاء كان اعجب وعن ابي الدرداء قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك واقول انا اكثر من شكره على السراء ليدفع عني الضراء فانه وعد الشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة

النعمة اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم فانا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون
ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان ومكان فلما كشفنا عنه ضره مر كان
لم يدعنا الى ضر مسه اي مضى على طريقته التي كان عليها قبل ان يمسه الضر ونسي
حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر واهمل جانب الله او مضى عن موقف الدعاء والتضرع
لا يرجع اليه كانه لا عهد له به كانه لم يدعنا عند ان مسه الضر الى كشف ذلك الضر الذي
مسه وقيل معنى مر استمر على كفره مشبها بمن لم يدعنا ولم يشكر ولم يتعظ وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه
للداعي لا تختص باهل الكفر بل تتفق لكثير من المسلمين تلين السنتهم بالدعاء وقلوبهم
بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن التضرع
والدعاء وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي انعم الله بها عليهم من اجابة دعائهم
ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما اصابهم من المكروه وهذا مما يدل على ان الآية تعم
المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الانسان اللهم اوزعنا شكر نعمك واذكرنا
الاحوال التي مننت علينا فيها باجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه
ولا نقدر على غيره وما اغنانا عنه واحوجنا اليه ولئن شكرتم لازيدنكم كذلك اي
مثل ذلك التزيين العجيب اي كما زين له الدعاء عند الضر والاعراض عند الرخاء زين
للمسرفين ما كانوا يعملون اي عملهم والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير
لاجل الغرض الخسيس والتزيين هو اما من جهة الله تعالى على طريق التخلية وعدم اللطف
بهم او من طريق الشيطان بالوسوسة او من طريق النفس الامارة بالسوء والمعنى انه زين
لهم الاعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات ثم ذكر سبحانه ما يجري
مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال ولقد اهلكنا القرون يعني الامم الماضية
من قبلكم اي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اهلكناهم من قبل
زمانكم وقيل الخطاب لاهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر لما ظلموا اي
اهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتجاري على الرسل والتطاول في المعاصي من غير
تاخير لاهلاكهم كما اخرنا اهلاككم وقيل الظلم هنا الشرك اي لما اشركوا وجاءتهم رسلهم

الذين ارسلنا اليهم بالبينات اي بالآيات الواضحات الدالة على صدق الرسل وما كانوا ليؤمنوا الجملة اعتراضية واللام لتاكيد النفي اي وما صح لهذه الامم وما استقام ان يؤمنوا برسلهم لعدم استعدادهم لذلك وسلب الالطاف عنهم كذلك نجزي القوم المجرمين اي مثل ذلك الجزاء وهو الاستيصال الكلي لكل مجرم وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار ولكفار مكة على الخصوص ثم خاطب سبحانه الذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثم جعلناكم خلائف اي استخلفناكم في الارض بعد تلك القرون التي تسمعون اخبارها وتنظرون آثارها والخلائف جمع خليفة وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الانعام لننظر كيف تعملون اللام لام كي اي لكي ننظر اي عمل تعملونه من اعمال الخير والشر او على اي حالة تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف وقيل النظر هنا بمعنى العلم اي لنختبر اعمالكم كقوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا ذكره الواحدي والرازي وقيل لنعامل معاملة من ينظر ففي استعارة تمثيلية والاول اولى عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء اخرجه مسلم ثم حكى الله سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآياته فقال واذا تتلى عليهم فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة اعراضا عنهم آياتنا التي في الكتاب العزيز اي واذا تلى لتالي عليهم آياتنا الدالة على اثبات التوحيد وابطال الشرك حال كونها بينات اي واضحات الدلالة على المطلوب قال الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يخافون البعث وهم المنكرون للمعاد وقال قتادة هم مشركوا مكة وقد تقدم تفسيره قريبا اي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ائت بقرآن غير هذا او بدله طلبوا منه صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد الشديد لمن عبدها احد امرين اما الاتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله واما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته او كلها ووضع اخرى مكانها لما يطابق ارادتهم ويلائم غرضهم قال الرازي اقدامهم على هذا الالتماس اما على سبيل السخرية والاستهزاء او على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كاذب في قوله

ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله تعالى فامره الله ان يقول في جوابهم قُلْ مَا
يَكُونُ لِيْ اي ما ينبغي ولا يحل لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِيْ فنفى عن نفسه احد القسمين
وهو التبديل لانه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزا بخلاف القسم الاخر وهو الاتيان بقرآن
آخر فان ذلك ليس بوسعه ولا يقدر عليه وقيل انه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه اسهل القسمين
ليكون دليلا على نفي اصعبهما بالطريق الاولى وهذا منه صلى الله عليه وسلم من باب مجازاة السفهاء
اذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد ان امره الله سبحانه بذلك وهو اعلم بمصالح
عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة قال الزجاج سألوه
اسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور وقيل سألوه ان يسقط ما فيه من عيب آلهتهم
وتسفيه احلامهم وقيل سألوه ان يحول الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ثم
امره ان يؤكد ما اجاب به عليهم من انه ما صح له ولا استقام ان يبدله من تلقاء نفسه
بقوله إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوْحٰى إِلَيَّ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف
ولا تصحيف فقصر حاله صلى الله عليه وسلم على اتباع ما يوحى اليه وربما كان مقصد الكفار بهذا
السؤال التعريض للنبي صلى الله عليه وسلم بان القرآن كلامه وانه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل
له ثم امره الله سبحانه ان يقول لهم تكميلا للجواب عليهم إِنِّيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيْمٍ فان هذه الجملة كالتعليل لما تقدمه من الجواب قبلها واليوم العظيم هو يوم القيامة
اي اني اخاف ان عصيت ربي بفعل ما تطلبون على تقدير امكانه عذاب يوم
القيامة ثم اكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وانه صلى الله عليه وسلم انما يبلغ اليهم منه ما
امره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال قُلْ لَّوْ شَاءَ اللّٰهُ اي ان هذا القرآن المتلو
عليكم هو بمشية الله وارادته ولو شاء الله ان لا اتلوه عليكم ولا ابلغكم اياه مَا تَلَوْتُهٗ عَلَيْكُمْ
فالامر كله منوط بمشية الله ليس لي في ذلك شيء وَلَآ أَدْرٰىكُمْ بِهٖ اي ولو شاء الله ما ادراكم
بالقرآن اي ما اعلمكم به على لساني يقال دريت الشيء وادراني الله به من ادراه يدريه اعلمه يعلمه
وقرأ ابن كثير ولادراكم به بغير الف والمعنى لاعلمكم به على لسان غيري من غير ان اتلوه
عليكم ويحتمل ان يكون من درأته اذا دفعته وادرأته اذا جعلته داريا والمعنى لا اجعلكم

بتلاوته خصا ندرا وتني بالجدال وتكذ بونني وقرأ ابن عباس والحسن ولا ادرا تكوبه
قال ابو حاتم اصله ولا ادريتكم به فابدل من الياء الفا قال النحاس وهذا غلط والرواية
عن الحسن ولا ادرأتكم به بالهمزة فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ تعليل لكون ذلك
بمشية الله ولم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم الا التبليغ اي اقمت فيما بينكم زمانا طويلا من قبل
القرآن وهو اربعون سنة تعرفونني بالصدق والامانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب أَفَلَا
تَعْقِلُونَ الهمزة للتقريع والتوبيخ اي افلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي
لما عرفتم من العادة المستمرة في المدة الطويلة بالصدق والامانة وعدم قرائتي للكتب
المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند اهلها من العلم ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي
عليه ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته
وانتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بانهم البالغون فيها الى مبلغ لا يتعلق
به غيركم اخرج ابن ابي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال بعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم لاربعين سنة فمكث بمكة ثلث عشر يوحى اليه ثم امر بالهجرة فهاجر عشر سنين
ومات وهو ابن ثلث وستين سنة وعن السدي نحوه قال النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث
روايات احدها انه توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة
ثلاث وستون سنة وهي اصحها واشهرها رواه مسلم من حديث انس وعايشة وابن
عباس واتفق العلماء عليها وتاولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود
وترك الكسر ورواية الخمس متاولة ايضا بانها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعني صوت
الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني نور الملائكة او نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه
وشافهه بالوحي من الله عز وجل فَمَنْ أَظْلَمُ استفهام فيه معنى الجحد اي لا احد اظلم مِمَّنِ
افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا زيادة كذبا مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا للبيان ان هذا مع كونه افتراء
على الله هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذبا في الاسناد فقط كما اذا اسند ذنب زيد
الى عمرو وذكر معنى هذا ابو السعود في تفسيره قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وسلم على المشركين لما
طلبوا منه ان ياتي بقرآن غير هذا القرآن او يبدله فبين لهم انه لو فعل ذلك لكان من الافتراء

على الله ولا أظلم ممن ذلك وقيل المفتري على الله الكذب هم المشركون أو كذب بآيته وهم أهل
الكتاب إنه أي إن الشأن لا يفلح المجرمون تعليل لما قبله أي لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون
بخير قال عكرمة قال النضر إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فأنزل الله هذه الآية
ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها
فقال ويعبدون من دون الله أي متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته
بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وضم عبادة الغير إليها للتقرب والشفاعة ما لا يضرهم
ولا ينفعهم أي ما ليس من شأنه الضر ولا النفع ومن حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه
معاقبا لمن عصاه ونفي الضر والنفع هنا عن الأصنام باعتبار الذات وإثباتهما لها في الحج
في قوله يدعو لمن ضره أقرب من نفعه باعتبار السبب فلا منافاة بينهما ويقولون
هؤلاء شفعاؤنا عند الله أي زعموا أنهم يشفعون لهم في الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم
قاله ابن جريج وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد
منه نفع ولا ضر في الحال وقيل أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم قاله الحسن
أي لإنكارهم البعث وما يترتب عليه ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم فقال
قل لهم تبكيتا أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض والمعنى أتخبرون الله أن له
شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد وأتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه والله سبحانه لا
يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي أرضه
وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى
سبحانه وتعالى عما يشركون بالياء والتاء سبعيتان نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم وهو يحتمل
أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم
ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم جوابا عليهم وما كان الناس قد
تقدم تفسيره في البقرة والمعنى أن الناس جميعا ما كانوا إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه مؤمنة
به من لدن آدم إلى نوح وقيل من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لحي لأن التوحيد والإسلام ملة قديمة
اجتمعت عليه الناس قاطبة فطرة وتشريعا وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة

فاختلفوا الى فصار البعض كافرا وبقي البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا وقال
الزجاج هم العرب كانوا على الشرك وقال كل مولود يولد على الفطرة فاختلفوا عند البلوغ
والاول اظهر وليس المراد ان كل طائفة احدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للاخرى بل المراد
كفر البعض وبقي البعض على التوحيد كما قدمنا وقال ابن مسعود كانوا على هدى وروي انه
قرأ هكذا وعن مجاهد قال آدم وحده فاختلفوا حين قتل احد ابني آدم اخاه وعن السدي
قال اهل دين واحد على دين آدم فكفروا وقيل ليس في الآية ما يدل على اي دين كانوا من
ايمان او كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل كانوا على الكفر وهو منقول عن جماعة من
المفسرين والاول اولى ولولا كلمة سبقت من ربك وهي انه سبحانه لا يقضي بينهم فيما
اختلفوا فيه الا يوم القيامة لقضي بينهم في الدنيا بنزول العذاب وتعجيل العقوبة
للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم فيما فيه يختلفون لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة
التي لا تتخلف وقيل المعنى لقضي بينهم باقامة الساعة عليهم وقيل لفرغ من هلاكهم و
قيل الكلمة ان الله امهل هذه الامة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا قاله الكلبي وقيل
الكلمة انه لا يأخذ احدا الا بحجة وهي ارسال الرسل كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث
رسولا وقيل الكلمة قوله سبقت رحمتي غضبي وعبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال الماضية
ويقولون ذكر سبحانه ههنا نوعا رابعا من مخازيهم وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه
قيل والقائلون هم اهل مكة كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم من الآيات
الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها الا القرآن فكفى به دليلا بينا ومصدقا قاطعا لولا
اي هلا انزل عليه آية من الآيات التي نقترحها عليه ونطلبها منه كاحياء الاموات
وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك من ربه كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد ثم امره
الله سبحانه ان يجيب عنهم فقال فقل انما الغيب لله اي ان نزول الآية غيب والله هو
المحيط بعلمه المستأثر به لا علم لي ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته وانما علي التبليغ فانتظروا نزول
ما اقترحتموه من الآيات اني معكم من المنتظرين لنزولها وقيل المعنى انتظروا قضاء
الله بيني وبينكم باظهار الحق على الباطل وقال الربيع خوفهم عذابه وعقوبته ان لم يؤمنوا

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا لما بين سبحانه
في الآية المتقدمة انهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا اكد ذلك بما ذكره هنا من انه
سبحانه اذا اذاقهم رحمة منه من بعد ان مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة
المكر منهم في آيات الله والمراد باذاقتهم رحمته سبحانه انه وسع عليهم في الارزاق وادر
عليهم النعم بالمطر والخصب وصلاح الثمار بعد ان مسهم الضر بالجدب وضيق المعايش
فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها بل اضافوها الى اصنامهم التي لا تنفع ولا تضر
وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو معنى المكر فيها واذا الاولى شرطية
وجوابها اذا لهم مكر وهي فجائية ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه ويستفاد منه السرعة
لان المعنى انهم فاجؤا المكر اي اوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة وقال مجاهد في الآية
استهزاء وتكذيب وهذا تفسير مراد والا فاصل المكر اخفاء الحيل والمكائد وقال مقاتل
لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ثم امر الله سبحانه رسوله ان
يجيب عنهم فقال قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا اي اعجل عقوبة واشد اخذا واقدر على الجزاء
من سرعة مكرهم وقد دل افعل التفضيل على ان مكرهم كان سريعا ولكن مكر الله اسرع منه فـ
تسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب
العزيز إِنَّ رُسُلَنَا اي الملائكة يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ قرئ بالتاء والياء والاولى سبعية
والثانية عشرية اي لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم
الخبير وفي هذا وعيد لهم شديد وتحقيق للانتقام منهم وهذه الجملة تعليل للتي قبلها
فان مكرهم اذا كان ظاهرا لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى
الآية المتقدمة وهي واذا مس الانسان الضر وفي هذه الآية زيادة وهي انهم لا يقتصرون على
مجرد الاعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما وهو كلام مستانف ومعنى
تسييرهم في البر انهم يمشون على اقدامهم التي خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون على ما خلقه الله لركوبهم
من الدواب ومعنى تسييرهم في البحر انه الهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر وييسر لهم ذلك ودفع عنهم

اسباب الهلاك وقد قرأ ابن عامر وهو الذي ينشركم في البحر بالنون من النشر كما في قوله تعالى
فانتشروا في الارض اي ينشرهم سبحانه في البحر فينجي من يشاء ويغرق من يشاء حتى غاية للسير في البحر و
الغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها اذا كنتم في الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث
وقد تقدم تحقيقه وجرين اي السفن بهم اي بالراكبين عليها والفائدة في صرف الكلام
عن الخطاب الى الغيبة المبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم
مزيد الانكار والتقبيح قاله الزمخشري وقيل ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله
عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من اقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى
الغائب وقيل هذا الالتفات فيه امتنان واظهار نعمة للمخاطبين والمسيرون في البحر
مؤمنون وكفار والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر ولعل الطالح
يتذكر هذه النعمة ولما كان في آخر الآية ما يقتضي انهم اذا نجوا بغوا في الارض عدل عن خطابهم
بذلك الى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق قاله السمين
وقيل ان الالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب وقال
الرازي الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما
ان عكس ذلك في قوله اياك نعبد دليل الرضاء والتقريب بريح طيبة اي ساكنة لينة
الهبوب الى جهة المقصد والباء للسببية او للحال وفرحوا بها اي بريح السفينة فالقيود المعتبرة
في الشرط ثلاثة اولها الكون في الفلك والثاني جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة
وثالثها فرحهم والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة الاول جاءتها اي جاءت الفلك وعارضته
وقابلته او جاءت الريح الطيبة اي تلقتها ريح عاصف العصوف شدة هبوب الريح
وهي الهواء بين السماء والارض والجمع ارواح ورياح وقيل ارياح على لفظ الواحد وغلطه
ابو حاتم وهي مؤنثة على الاكثر وقد تذكر على معنى الهواء نقله ابو زيد وقال ابن الانباري
الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر اسمائها الا الاعصار فانه مذكر وراح اليوم يروح روحا
من باب قال وفي لغة من باب خاف اذا اشتدت ريحه فهو رائح والثاني وجاءهم اي ركبان
السفينة الموج من كل مكان اي من جميع جوانب الفلك والموج ما ارتفع من غوارب الماء

وعلى فوق البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه والثالث ﴿ظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي
غلب على ظنونهم الهلاك وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد فجعل هذه الإحاطة
مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا وهو استعارة تبعية وقيل الظن هنا اليقين
أي أيقنوا أنه الهلاك وقيل بل المراد المقاربة من الهلاك والدنو منه والإشراف عليه
وقوله ﴿دعوا الله﴾ بدل من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو
الباعث عليه فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه ويمكن أن يكون جملة مستأنفة
كأنه قيل ماذا صنعوا فقيل دعوا الله ﴿مخلصين له الدين﴾ أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء
من الشوائب كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء و
ليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا
ينجيهم إلا الله سبحانه وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد
وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا
لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها فيا عجباً لما حدث في الإسلام من طوائف
يعتقدون في الأموات فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا
الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع فانظر هداك الله
ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها وإلى أين رمى بهم الشيطان
وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه
من عباد الأصنام فإنا لله وإنا إليه راجعون واللام في ﴿لئن أنجيتنا﴾ هي الموطئة للقسم
المحذوف أي دعوا قائلين ذلك ويجوز أن يجري دعوا الله مجرى قالوا لأن الدعاء بمعنى القول
إذ هو نوع من أنواعه وهو مذهب كوفي ﴿من هذه﴾ أي مما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك
في البحر من الريح العاصفة والأمواج الشديدة ﴿لنكونن﴾ في كل حال ﴿من الشاكرين﴾ أي ممن
يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها
عنا وتنجينا منها وهذا جواب القسم وقيل إن هذه الجملة مفعول دعوا ﴿فلما أنجاهم﴾
الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم بل فعلوا

فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين وجعلوا البغي في الارض بغير الحق مكان الشكر اذا هم يبغون اي فاجئوا البغي والفساد وسارعوا اليه والبغي هو الفساد من قولهم بغى الجرح اذا ترامى في الفساد وقيل هو الشرك وزيادة في الارض للدلالة على ان فسادهم هذا شامل لاقطار الارض والبغي وان كان ينافي ان يكون بحق بل لا يكون الا بالباطل لكن زيادة بغير الحق اشارة الى انهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمردا وعنادا لانهم قد يفعلون ذلك شبهة يعتقدونها مع كونها باطلة وقيل البغي مجاوزة الحد وهو محمود ان كان من العدل الى الاحسان ومن الفرض الى التطوع ومذموم ان كان من الحق الى الباطل او الى الشبهة وقال الزمخشري البغي قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع اشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة وهذا فائدة تقييده بغير الحق يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لما ذكر سبحانه ان هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الارض بغير الحق ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته وقرئ بنصب متاع اي بغيكم وبال على انفسكم تتمتعون متاع الحيوة الدنيا وقيل ظرف زمان اي زمن متاع الحياة الدنيا وقيل مفعول له اي لاجل متاع الحياة الدنيا وقيل اي كمتاع او متمتعين وقد نوقش غالب هذه الاقوال في توجيه النصب وعلى الرفع معناه بغيكم متاع الحياة الدنيا والتقدير انما بغيكم على امثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها فيكون المراد بانفسكم على هذا الوجه ابناء جنسهم وعبر عنهم بالانفس استعارة لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة وقيل هو متاع وقيل بغيكم مبتدأ وخبره متاع الحيوة الدنيا وعلى انفسكم مفعول البغي وقيل ذلك متاع الحيوة الدنيا وقد نوقش ايضا بعض هذه الوجوه في توجيه الرفع بما يطول به البحث في غير طائل والحاصل انه اذا جعل خبر المبتدأ على انفسكم فالمعنى انما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي باعتبار ما يؤول اليه الامر من الانتقام منه مجازاة على بغيه وان جعل الخبر متاعا فالمراد ان بغي هذا الجنس الانساني على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر امتعة الحياة الدنيا فانها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى

واخرج ابو الشيخ وابن مردويه وابو نعيم والخطيب في تاريخه عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث هن رواجع على اهلها المكر والنكث والبغي ثم تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بغيكم على انفسكم ولا يحيق المكر السيئ الا باهله ومن نكث فانما ينكث على نفسه وعن مكحول ثلاث من كن فيه كن عليه المكر والبغي والنكث اقول انا وينبغي ان يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على انها تعود على فاعلها الخدع فان الله يقول يخادعون الله والذين امنوا وما يخدعون الا انفسهم واخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي منهما ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ تقديم الخبر للدلالة على الثبات والقصر والمعنى انكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون الى الله فيجازي المسيئ باساءته والمحسن باحسانه فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في الدنيا من خير وشر والمراد بذلك المجازاة كما يقول لمن اساء سأخبرك بما صنعت وفيه اشد وعيد وافظع تهديد ثم لما ذكر سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقضيها وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود به بعد ان تملأ الاعين برونقها وتجلب النفوس ببهجتها وتحمل اهلها على ان يسفكوا دماء بعضهم بعضا ويهتكوا حرمهم حبا لها وعشقا لجمالها الظاهري وتكالبا على التمتع بها وتهافتا على نيل ما تشتهي الانفس منها بضرب من التشبيه المركب العجيب البديع المثال المنتظم في سلك الامثال فقال إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ اي ان مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه مثل ما على الارض من انواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه بعد ان كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت اغصانه المتمايلة وزهت اوراقه المتصافحة وتلألأت انوار نوره وحاكت الزهر انواع زهره وانما ليست للحصر لانه تعالى ضرب للحياة الدنيا امثالا غير هذا وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله كماء بل ما يفهم من الكلام فَاخْتَلَطَ بِهِ اي بسببه نَبَاتُ الْأَرْضِ بان اشتبك بعضه ببعض لكثرته حتى بلغ الى حد الكمال ويحتمل ان يراد ان النبات كان في اول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فاذا نزل الماء عليه اهتز وربى حتى اختلط بعضه

الانواع بعضها ببعض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ اي كائنا من الحبوب والثمار والكلاء والتبن
والعشب حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا قال في الصحاح الزخرف الذهب ثم يشبه به
كل مموه مزور انتهى وفي القاموس الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء ومن القول حسنه
ومن الارض الوان نباتها والمعنى ان الارض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه
للون الذهب وبعضه للون الفضة وبعضه للون الياقوت وبعضه للون الزمرد حتى غاية الجذ ويلي وانال نمو
ويزهو حتى اخذت حسنها ونضارتها وبهجتها واظهرت الوان زهرها من ابيض واخضر
احمر واصفر وغير ذلك وَازَّيَّنَتْ اي تزينت به وقرئ ازينت على وزن افعلت اي ازينت
بالزينة التي عليها شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة الوانا كثيرة ففي الكلام استعارة
مكنية وَظَنَّ أَهْلُهَا اي اهل تلك الارض الاخذة زخرفها أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا اي غلب على
ظنونهم او تيقنوا انهم قادرون على حصادها والانتفاع بها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها
متمكنون على جدادها وقطافها والضمير في عليها للارض والمراد النبات الذي هو عليها
أَتَاهَا اي جاءها امرنا باهلاكها واستيصالها وضربها ببعض العاهات لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
او للتنويع اي تارة ياتي قضاءنا وعذابنا ليلا وتارة ياتي نهارا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا اي
جعلنا زرعها شبيها بالمحصود في قطعه من اصوله قال ابو عبيدة الحصيد المستاصل وقيل
المقطوع بالمناجل كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ اي كان لم يكن زرعها موجودا فيها بالامس مخضرا
طريا من غني بالمكان بالكسر يغنى بالفتح اذا اقام قال البيضاوي اي لم تلبث اي لم تقم ولم
تمكث وقيل لم تكن ولم توجد وفي القاموس ما يقتضي ان غني ياتي بمعنى كان ووجد كقوله
غَنِيَتْ دارنا بتهامة اي كانت بها والمراد بالامس الوقت القريب والزمن الماضي لا خصوص
اليوم الذي قبل يومك قاله الكرخي والمغاني في اللغة المنازل وقال قتادة كان لم ينعم وقرأ
لم يغن بالتحتية بارجاع الضمير الى الزخرف وقرأ من عداه تغن بالفوقية بارجاع الضمير الى
الارض كَذَٰلِكَ اي مثل ذلك التفصيل البديع نُفَصِّلُ الْآيَاتِ القرانية التي من جملتها هذه الآية
المنبهة على احوال الدنيا ويجوز ان يراد الآيات التكوينية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فيما اشتملت عليه
عن ابي مجلز قال كان مكتوبا في سورة يونس الى جنب هذه الآية ولو ان لابن ادم واديين

من مال لتمنى ثالثا ولا يشبع نفس ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب تحقيقه قال النسفي في الآية وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه ان الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كما ان صفو الماء في اعلى الاناء ؏ الم تر ان العمر كاس سلافة + فاوله صفو واخره كدر + وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلاوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلف ثمار الاثم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فتزائله الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفرا فتغيب جثته في الرمس كان لم تغن بالامس الى ان يعود ربيع البعث وموصل العرض والبحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولابد من ترك ما زاد كما لابد من اخذ الزاد واخذ المال لا يخلو من زلة كما ان خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه واهلاكه فما دون النصاب كضحضاح ما يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لا يمكن الا بقنطرة وهي الزكوة وعمارتها بذل الصلاة فمتى اختلت القنطرة غرقته امواج القناطير المقنطرة وكذا المال يساعد الاوغاد دون الامجاد كما ان الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد وكذلك المال لا يجتمع الا بكد البخيل كما ان الماء لا يجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف انتهى وَاللّٰهُ يَدْعُوْٓا اِلٰى دَارِ السَّلٰمِ لما نفر عباده عن الميل الى الدنيا بما ضرب لهم من المثل السابق رغبهم في الدار الاخرة باخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل الى دار السلام قال الحسن وقتادة السلام هو الله تعالى وداره الجنة وقال الزجاج المعنى والله يدعو الى دار السلامة ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة وقيل اراد دار السلام الذي هو التحية لان اهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما في قوله تحيتهم فيها سلام وقيل السلام اسم لاحد الجنان السبع احدها دار السلام والثانية دار الجلال والثالثة جنة عدن والرابعة جنة المأوى والخامسة جنة الخلد والسادسة جنة الفردوس والسابعة جنة النعيم وقيل المراد دار السلام

الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة وقد اتفقوا على ان دار السلام هي الجنة وانما
اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته قال ابو العالية يهديهم للمخرج
من الشبهات والفتن والضلالات ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الاسلام جعل سبحانه الدعوة الى
دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء ان يهديه تكميلا للحجة واظهارا للاستغناء
عن خلقه اخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابي جعفر محمد بن علي
قال حدثني جابر قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال اني رأيت في المنام كأن
جبريل عند راسي وميكائيل عند رجلي يقول احدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال اسمع
سمعت اذنك واعقل عقل قلبك انما مثلك ومثل امتك مثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا
ثم جعل فيها مادبة ثم بعث رسولا يدعو الناس الى طعامه فمنهم من اجاب الرسول ومنهم
من تركه فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وانت يا محمد رسول فمن اجابك دخل
الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة اكل منها وقد روي معنى هذا
من طرق ثم قسم سبحانه اهل الدعوة الى قسمين وبين حال كل طائفة فقال ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بالقيام
بما اوجبه الله عليهم من الايمان والاعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي وقيل الذين شهدوا
ان لا اله الا الله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ اي المثوبة الحسنى وان كان معه ذنوب فعصاة المؤمنين داخلون
في هذا قال ابن الانباري الحسنى في اللغة تانيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على
الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ولذلك ترك موصوفها وقيل المراد بالحسنى الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾
قيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله و
قيل الزيادة النظر الى وجهه الكريم وبه قال جماعة من الصحابة منهم ابو بكر الصديق وحذيفة
وابو موسى الاشعري وعبادة بن الصامت وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل
والسدي وقيل الزيادة هي مضاعفة الحسنة الى عشر امثالها الى سبعمائة ضعف وقيل الزيادة
غرفة من لؤلؤة واحدة لها اربعة ابواب قاله علي بن ابي طالب وقيل الزيادة مغفرة من الله
ورضوان قاله مجاهد وقيل هي ما يعطيهم سبحانه في الدنيا من فضله لا يحاسبهم عليه يوم
القيامة قاله ابن زيد وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره واخرج احمد ومسلم والترمذي

وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وغيرهم عن صهيب
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى هذه الآية قال اذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار نادى
منادٍ يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه فيقولون وما هو الم يثقل موازيننا
ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وتزحزحنا عن النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه
فوالله ما اعطاهم الله شيئا احب اليهم من النظر اليه ولا اقر لاعينهم وفي لفظ من حديث ابي
موسى مرفوعا الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الرحمن اخرجه الدارقطني وابن جرير وغيرهما
وروي مثله عن جماعة من الصحابة مرفوعا بطرق وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات
في تفسير الزيادة غالبها انها النظر الى وجه الله سبحانه وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلم يبق لقائل مقال ولا التفات الى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون
من السنة المطهرة ما ينتفعون به فانهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان
ولا يرهق الرهق الغشيان وقيل اصله المقاربة وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلام مراهق اذا
لحق بالرجال وقيل يعلو والمعاني متقاربة والمعنى لا يغشى وجوههم قتر هو غبار معه سواد وقيل
سواد الوجه وواحده قترة وقيل هو الدخان ومنه غبار القدر وقيل التقليل ومنه لم يقتروا واو
منه على المقتر قدره وقيل الكآبة ولا ذلة هي ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان
يعني لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان وقال مجاهد في الآية خزي وعن صهيب عنه
صلى الله عليه وسلم قال هذا بعد نظرهم اليه عز وجل اخرجه ابو الشيخ والجملة مستانفة او في محل نصب على
الحال قاله ابو البقاء وهذا ليس بجائز لان المضارع متى وقع حالا منفيا بلا امتنع دخول واو الحال
عليه كالمثبت او في محل الرفع نسقا على الحسنى والتقدير ان لا يرهق اي وعدم رهقهم اولئك
اي المتصفون بالصفات السابقة اصحاب الجنة هم فيها خالدون اي المتنعمون بانواع نعيمها
لا يخرجون منها ابدا والذين كسبوا السيئات فيه سبعة اوجه ذكرها السمين لا نطول بذكرها
جزاء سيئة بمثلها اي يجازي سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها كما يزاد في
الحسنة وهذا اولى مما عداه والمراد بالسيئة اما الشرك او المعاصي التي ليست بشرك وهي ما
يتلبس به العصاة من المعاصي قال ابن كيسان الباء زائدة والمعنى جزاء سيئة مثلها وقيل جزاء

سيئة كانت بمثلها وقيل النقدير فلهم جزاء سيئة وفيه التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا منه سبحانه وتكرما واما السيئات فانه يجازى فاعلها عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وترهقهم اي تغشاهم ذلة اي هوان وخزي وقال ابن عباس ذلة وشدة ما لهم من الله من عاصم اي لا يعصمهم احد كائنا من كان من سخط الله وعذابه او ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين والاول اولى كانما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما القطع بفتح الطاء جمع قطعة وباسكانها جزء وهما قراءتان سبعيتان قال ابن السكيت القطع طائفة من الليل وقيل ظلمة آخر الليل وقال الاخفش سواد الليل والجملة حالية او مستانفة اي اغشيت والبست وجوههم قطعا وسوادا من الليل في حال ظلمته اولئك اي الموصوفون بهذه الصفات الذميمة اصحاب النار هم فيها خالدون اطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين ويوم نحشرهم جميعا الحشر الجمع من كل جانب وناحية الى موضع واحد وقال مجاهد الحشر الموت اي اذكر يوم نحشرهم لموقف الحساب والجملة مستانفة لبيان بعض احوالهم القبيحة والمعنى ان الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم يوم القيامة ثم نقول في حالة الحشر ووقت الجمع للذين اشركوا تقريعا لهم على رؤس الاشهاد وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة وحضور معبوداتهم مكانكم اي الزموا مكانكم واثبتوا فيه او قفوا في موضعكم ولا تنفكوا منه ولا تبرحوا عنه حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم انتم وشركاؤكم هذا الضمير تاكيد للضمير الذي في مكانكم لسده مسد الزموا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين والمراد بالشركاء هنا الملائكة وقيل الشياطين وقيل الاصنام وان الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت وقيل المسيح وعزير والظاهر انه كل معبود للمشركين كائنا ما كان فزيلنا اي فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا يقال زيلته فتزيل اي فرقته فتفرق والمزايلة المفارقة والتزايل التباين قال السيوطي ميزنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم ايها المجرمون انتهى وفيه مسامحة قال القرطبي هذا التفسير بعيد من سابقه ولاحقه اذ هما في الكلام على المشركين ومعبوداتهم فالاولى القول الآخر الذي جرى عليه غيره كالبيضاوي والخازن ونص الخطيب بينهم

اي بين المشركين وشركائهم وذلك حين يتبرأ كل معبود ممن عبده وهذا انسب بقوله
وقال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه وانما اضاف الشركاء اليهم
مع انهم جعلوهم شركاء لله سبحانه لكونهم جعلوا لهم نصيبا من اموالهم فهم شركاؤهم في
اموالهم من هذه الحيثية وقيل لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب والاضافة لادنى ملابسة
ما كنتم ايانا تعبدون في الحقيقة ونفس الامر وانما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم
الذين اغووكم لانها الآمرة لكم بالاشراك على حد قوله قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم الآية
وهذا الجحد من الشركاء وان كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم فمعناه انكار عبادتهم
اياهم عن امرهم لهم بالعبادة وتقديم المفعول للفاصلة فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم
ان كنا امرناكم بعبادتنا او رضينا ذلك منكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين القائل لهذا
الكلام هم المعبودون قالوا لمن عبدهم من المشركين والمراد بالغفلة هنا عدم الرضا بما
فعله المشركون من العبادة لهم او عدم علمهم بها او كل من الامرين وفي هذا دليل على ان
هؤلاء المعبودين غير الشياطين لانهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم قال ابو السعود
هذا من كلام الاصنام كما علمت انتهى قلت ويمكن ان يكونوا من الشياطين ويحمل هذا الجحد منهم
على انهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا اكرهوهم عليها هنالك اي في ذلك المكان الدهش او في
ذلك الموقف الدحض او في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان تبلو اي تختبر وتذوق
كل نفس مؤمنة كانت او كافرة سعيدة او شقية جزاء ما اسلفت من العمل وتعاينه بكنهه
متتبعة لآثاره من نفع او ضر وخير او شر فمعنى تبلو تذوق وتختبر وقيل تعلم وقيل تتبع فهو من
التلو وهذا على القراءة بالفوقية باسناد الفعل الى كل نفس واما على القراءة بالنون فالمعنى
ان الله يبتلي كل نفس ويختبرها وانه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد احوالها ويجوز
ان يراد نصيب بالبلاء اي العذاب كل نفس عاصية بسبب ما اسلفت من الشر والبلية والبلاء
والبلوى واحد والجمع البلايا ومعنى الكل الاختبار اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يوردوهم النار
ثم تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك تبلو الآية وعن ابن زيد قال تعاين كل نفس ما عملت

نفس من انتالوة اي تقرأ كل نفس صحيفة عملها من خير او شر وردوا اي الذين اشركوا الى
الله اي الى جزائه وما احل ضرهم عقابه والرد عبارة عن صرف الشيء الى الموضع الذي جاء منه
مولاهم ربهم ومالكهم الحق صفة له اي الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة
وقرئ بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله اهل الحمد وضل عنهم اي ضاع وبطل وذهب في الموقف
ما كانوا يفترون عليه من ان الالهة التي لهم حقيقة بالعبادة تشفع لهم الى الله وتقربهم اليه
والحاصل ان هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام الى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان
ما كانوا يعبدونه ويجعلونه الها ولكن حين لا ينفعهم ذلك وعن السدي قال نسخها قوله الله
مولى الذين امنوا وان الكافرين لا مولى لهم ثم لما بين الله سبحانه فضائح المشركين اتبعها بايراد
الحجج الدامغة من احوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى
وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب الى المسئولين ليكون ابلغ في الزام الحجة و
اوقع في النفوس فقال قل يا محمد للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من
الشرك وهذه اسئلة ثمانية جواب الخمسة الاولى منها منهم وجواب الاثنين بعدها منه صلى
الله عليه وسلم بتعليم الله اياه لعدم قدرتهم عليه وجواب الاخير لم يذكر لشهرته والعلوية من يرزقكم
من السماء بالمطر والارض بالنبات والمعادن فان الارزاق تحصل باسباب سماوية ومواد
ارضية او من كل واحدة منهما ومن لابتداء الغاية فان اعترفوا حصل المطلوب وان لم يعترفوا
بان الله هو الذي خلقهما فقل ام من يملك السمع والابصار ام هي المنقطعة وفي هذا
انتقال من سوال الى سوال على القاعدة المقررة في القران انه اضراب انتقال لا اضراب ابطال
اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما او من يحفظهما من الافات مع كثرتها وسرعة انفعالهما
من ادنى شيء وحقيقة الملك معروفة ويلزمها الاستطاعة لان المالك للشيء يستطيع التصرف
فيه والحفظ له والحماية وذلك يعبر به عن كل منهما وخصهما بالذكر لما فيهما من الصنعة
العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ويحصلون بهما من الفوائد ما
لا يدخل تحت حصر الحاصرين ثم انتقل الى حجة ثالثة فقال ومن يخرج الحي من الميت اي
الانسان من النطفة والطير من البيضة والنبات من الحبة او المؤمن من الكافر والاول اقرب الى

الحقيقة ويخرج الميت من الحي اي النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن او البيضة من الطائر الحي والمراد بهذا الاستفهام عمن يحيي ويميت وهذه حجة رابعة ثم انتقل الى حجة خامسة فقال و من يدبر الامر بين الخلائق اي يقدره ويقضيه وهذا من عطف العام على الخاص لانه قد عم ما تقدم وغيره فسيقولون الله اي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات الخمس ان الفاعل لهذه الامور هو الله سبحانه ان انصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم والمعنى الله يفعل ذلك فقل امره ان يقول لهم ذلك وعظا وتذكيرا بعد ان يجيبوا بهذا الجواب افلا تتقون الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر اي تعلمون ذلك افلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الافعال وتعبدون هذه الاموات و الاصنام التي لا تقدر على شيء من هذه الامور بل ولا تعلم به وفي البيضاوي افلا تتقون عقابه باشراككم اياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك فذلكم الذي يفعل هذه الافعال الله وهو ربكم المتصف بانه الحق لا ما جعلتموهم شركاء له من الموتى والاصنام والاستفهام في قوله فماذا بعد الحق الا الضلال للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام و المعنى اي شيء بعد الحق الا الضلال فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم وكان غيره باطلا لان واجب الوجود يجب ان يكون واحدا في ذاته وصفاته فانى تصرفون اي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال اذ لا واسطة بينهما فمن تخطى احدهما وقع في الاخر والاستفهام للانكار والاستبعاد والتعجب كذلك اي كما ثبت ان الحق ليس بعده الا الضلال او كما حق انهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة ربك اي حق حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا خرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا في كفرهم عنادا ومكابرة قال الزمخشري اي مثل ذلك الحق حقت وقال الزجاج اي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي انهم لا يؤمنون اي علم انهم بدل كل من كل والمعنى لانهم لا يؤمنون فيكون تعليلا لحقيتها عليهم قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده اورد سبحانه في هذا حجة سادسة على المشركين وامر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم وهم وان كانوا لا يعترفون بالمعاد لكنه لما كان امرا ظاهرا بينا وقد اقام الادلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من انصفه لم يكابر كان

كالمسلم عنده هو الذي لا جحد له ولا انكار فيه والمعنى هل من هذه الاصنام والاموات التي تزعمون
انها الهة من يقدر على ان ينشئ الخلق من العدم على غير مثال سبق ثم يعيده بعد الموت في
القيامة كهيئته اول مرة للجزاء وهذا السؤال استفهام انكار وانما لم يعطف على ما قبله ايذانا
باستقلاله في اثبات المطلوب وعبارة ابي السعود هذا احتجاج اخر على حقية التوحيد و
بطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل عن استحقاق الالوهية ببيان اختصاص خواصها
من بدء الخلق واعادته به تعالى انتهى والحاصل انه لا يقال ان الكفار ينكرون الاعادة والبعث فكيف يحتج عليهم
بها لان الزام الخصم كما يصح بما يعترف به يصح ايضا بما تبينت وثبتت حقيته لقوة برهانه فلذا جعل
الاعادة كالبدء في الالزام بها لظهور برهانها وان لم يعترفوا بها ولذلك امر الرسول ان
ينوب عنهم في الجواب كما قال سبحانه قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ اي هو الذي يفعل
ذلك لا غيره وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن امر الله سبحانه له نيابة عن
المشركين في الجواب كما تقدم اما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم
الى ما يقولون واما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح الى غاية لا يحتاج معها الى اقرار الخصم
ومعرفة ما لديه واما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب فرارا منهم
عن ان تلزمهم الحجة او ان يسجل عليهم بالمكابرة ان حادوا عن الحق فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ اي
فكيف تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره والمراد التعجب من احوالهم ثم امره الله بان
ان يورد عليهم حجة سابعة فقال قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ الاستفهام ههنا كالاول في الاية
السابقة مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا في القرآن
كقوله الذي خلقني فهو يهدين وقوله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقوله الذي خلق
فسوى والذي قدر فهدى وفعل الهداية يجيء متعديا باللام والى وهما بمعنى واحد روى ذلك
عن الزجاج وقيل كما يعدى بالى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على ان المنتهى غاية
الهداية والمعنى متقارب وقد يحذف الحرف تخفيفا وقد جمع بين المتعديين هنا فجري
فعدى الاول والثالث بالى والثاني باللام والتعدية بهذين الحرفين من باب التفنن في البلاغة
ولذلك قال الزمخشري هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد

الباطل ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك او معاندين امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم
ان يجيب بقوله قل هم الله الذي له الاحاطة الكاملة يهدي للحق من يشاء دون غيره
ممن زعمتموهم شركاء ودليل ذلك ما تقدم من الادلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا وهداية
الله سبحانه لعباده الى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وارساله للرسل وانزاله
للكتب وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والافهام والاسماع والابصار والاستفهام
في قوله افمن للتقرير والزام الحجة والفاء لترتيبه على ما سبق وهو برهان تام لم يذكر جوابه
الآية والمعنى افمن يهدي الناس الى الحق وهو الله سبحانه احق ان يتبع ويقتدى به ام من لا يهدي
اي ام الاحق بان يتبع ويقتدى به من لا يهتدي بنفسه الا ان يهدى اي الاستثناء مفرغ من
اعم الاحوال اي لا يهتدي في حال من الاحوال الا في حال هداية الغير اياه وكان مقتضى المقابلة
ان يقال ام من لا يهدي وانما خولف اشارة الى انه اذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره وقال النحاس
الاستثناء منقطع كما تقول فلان لا يسمع غيره الا ان يسمع اي لكنه يحتاج ان يسمع فمعنى الا
ان يهدى اي لكنه يحتاج ان يهدى فما لكم كيف تحكمون هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين
اي اي شيء يثبت لكم في هذه الحالة فهذه جملة مستقلة وكيف تحكمون اي باتخاذ هؤلاء
شركاء لله وهي جملة اخرى مستقلة وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ثم بين سبحانه ما
عليه في امر دينهم وعلى اي شيء بنوه وباي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل وهو الشرك فقال
وما يتبع اكثرهم الا ظنا هذا كلام مبتدأ غير داخل في الاوامر السابقة والمعنى ما يتبع
هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له اندادا الا مجرد الظن والتخمين والحدس ولم يكن ذلك
عن بصيرة والتفات الى فرد من افراد العلم فضلا عن ان يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة
الهادية الى الحق المبنية على العلم اليقينية الصادقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على مقتضاها
وبطلان ما يخالفها بل ظن من ظن من سلفهم ان هذه المعبودات تقربهم الى الله وانها تشفع لهم
ولم يكن ظنه هذا لمستند قط بل بمجرد خيال مختل وحدس باطل فقلدوا فيه آباءهم ولعل تنكير
الظن هنا للتحقير اي الا ظنا ضعيفا واهيا لا يستند الى ما تستند اليه سائر الظنون وقيل المراد
بالآية انه ما يتبع اكثرهم في الايمان بالله والاقرار به الا ظنا والاول اولى وقيل المراد بالاكثر الكل الا من

جميعهم يتبعون الظن في دعواهم ان الاصنام تشفع لهم قال الكرخي وفيه دليل على ان تحصيل
العلم في الاصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز وقيل المراد بالاكثر الرؤساء ثم اخبر
الله سبحانه إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا لان امر الدين انما ينبني عن العلم به يتضح الحق من
الباطل والظن لا يقوم مقام العلم ولا يدرك به الحق ولا يغني عن الحق في شيء من الاشياء و
الجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ومن بمعنى عن والحق بمعنى العلم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا يَفْعَلُونَ من الافعال القبيحة الصادرة لا عن برهان فيندرج تحتها ما حكى عنهم من
الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا اوليا وَمَا كَانَ هَٰذَا
الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ قيل ان بمعنى اللام اي ليفترى وقيل بمعنى لا اي لا يفترى لما فرغ سبحانه
من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت امر النبوة اي وما صح وما استقام ان يكون هذا
القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة مفترى من الخلق مِنْ دُونِ اللَّهِ وانما هو من
عند الله عز وجل وكيف يصح ان يكون مفترى على سبيل الافتعال والاختلاق وقد عجز عن
الاتيان بسورة منه القوم الذين هم افصح العرب لسانا وادقهم اذهانا قال الفراء ومعنى الآية
وما ينبغي لهذا القرآن ان يفترى كقوله وما كان لنبي ان يغل وما كان المؤمنون لينفروا كافة
ليس وصف القرآن وصف شيء يمكن ان يفترى به على الله لان المفتري هو الذي يأتي به
البشر وان ... عن الافتراء والكذب وَلَٰكِنْ كان هذا القرآن ووقعت لكن هنا احسن موقع
اذ هي بين نقيضين ... الكذب والصدق المضمن للتصديق وفيه اوجه احدها العطف
على خبر كان الثاني انه خبر لكان مضمرة تقديره واليه ذهب الكسائي والفراء وابن سعدان
والزجاج وهذا كالذي قبله في المعنى الثالث ... يره وما كان هذا القرآن ان يفترى ولكن
انزل للتصديق والرابع تقديره ولكن يصدق الذي قال السمين تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
اي امامه من الكتب الالهية المنزلة على الانبياء قبله اي انها قد بشرت به قبل نزوله فجاء
مصدقا لها ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة لان اقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة
مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك و
قيل المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم لانهم شاهدوه قبل ان

يسمعوا منه القرآن وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ التفصيل التبيين يبين ما في كتب الله المتقدمة والالف واللام في الكتاب للجنس وقيل اراد ما بيّن في القران من الاحكام فيكون المراد بالكتاب القران وقيل اللوح المحفوظ لَا رَيْبَ فِيهِ الضمير عائد الى القران وهو داخل في حكم الاستدراك وهو خبر ثالث او حال من الكتاب اي منتفيا عنه الريب ومستانفا ومعترض بين تصديق وبين مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ اي كائن منه خبر رابع او حال ثانية او متعلق بتصديق او بتفصيل او التقدير انزل للتصديق من رب العالمين أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة وام هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة اي بل يقولون افتراه واختلقه وقال ابو عبيدة ام بمعنى الواو اي ويقولون وقيل الميم زائدة اي ايقولون والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار والاستبعاد اي هذا القول منهم في غاية البعد والشناعة وقيل التقدير ايقرون به ام يقولون ثم امره الله سبحانه ان يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال قُلْ تبكيتا لهم واظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة فَأْتُوا اي ان كان الامر كما تزعمون من ان محمدا افتراه فأتوا انتم على جهة الافتراء بِسُورَةٍ مِثْلِهِ في البلاغة وجودة الصناعة فانتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الالسن وحسن النظم وبلاغة الكلام والمراد هذه السورة لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه هكذا قال الرازي وهي مكية تتناول جميع السور فانهم لا يقدرون ان يأتوا باقصر سورة وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التي تجعلونها شركاء لله مِنْ دُونِ اللَّهِ اي من سوى الله من خلقه إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في دعواكم ان هذا القران مفترى فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو ايضا مستلزم لقدرتكم عليه سبحان الله العظيم ما اقوى هذه الحجة واوضحها واظهرها للعقول فانه لما نسبوا الافتراء الى واحد منهم في البشرية والعربية قال لهم هذا الذي نسبتموه الي وانا واحد منكم ليس عليكم الا ان تأتوا انتم بجمعكم بسورة مماثلة لسورة من سوره واستعينوا بمن شئتم من اهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم او من غيرهم من بني ادم ومن الجن او من الاصنام فان فعلتم هذا بعد ان لم تبا والتي فانتم صادقون فيما نسبتموه الي والصقتموه بي فلم يأتوا عند سماع

هذا الكلام المنصف والتنزيل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا باذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ومراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن اربعة أولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ثانيها انه تحداهم بعشر سور قال تعالى قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى فليأتوا بحديث مثله فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن واتى به عقب هذا التحدي البالغ فقال بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ فاضرب عن الكلام الاول وانتقل الى بيان انهم سارعوا الى تكذيب القرآن قبل ان يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعى الى الحق وتمسك بذيول الانصاف بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه ولا جاء على طبق دعواه قبل ان يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا والحاصل ان من كذب بالحجة والبرهان الواضح قبل ان يحيط بعلمه فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب الا مجرد كونه جاهلا [illegible] به غير عالم به فكان بهذا التكذيب منا ديا على نفسه بالجهل باعلى صوت ومسجلا بقصور [illegible] عن تعقل الحجج بابلغ تسجيل وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء ف ما يبلغ الاعداء [illegible] اهل + ما يبلغ الجاهل من نفسه + وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ اي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأ[تهم] تأويله اي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم ولا وصلت اذهانهم [الى معانيه] الرائقة المنبئة عن علو شانه والمعنى ان التكذيب وقع منهم قبل الاحاطة بعلمه وقبل ان يعرفوا ما يؤول اليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من اخبار الرسل المتقدمين والامم السابقين ومن حكايات ما سيحدث من الامور المستقبلة التي اخبر عنها قبل كونها وقبل ان يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم فانهم لو تدبروه كل التدبر لفهموه كما ينبغي وعرفوا ما اشتمل عليه من الامور الدالة ابلغ دلالة على انه كلام الله وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول اليه لمن تدبره من المعاني

الرشيقة واللطائف الانيقة وكلمة التوقع اظهر في المعنى الاول فالمعنى ان القران معجز من جهة النظم ومن جهة المعنى من حيث الاخبار بالغيب كذلك اي مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الامم عند ان جاء تهم الرسل بحجج الله وبراهينه فانهم كذبوا به قبل ان يحيطوا بعلمه وقبل ان ياتيهم تاويله فانظر كيف كان عاقبة الظالمين من الامم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم كما حكى ذلك القران عنهم واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل فرد من الناس وفي الجملة في قوة فاهلكناهم ومنهم اي ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقران من يؤمن به في نفسه ويعلم انه صدق وحق ولكنه كذب مكابرة وعنادا وقيل المراد ومنهم من يؤمن في المستقبل وان كذب به في الحال ومنهم من لا يؤمن به ولا يصدقه في نفسه بل كذبه جهلا كما مر تحقيقه او لا يؤمن به في المستقبل بل يبقى على جحوده واصراره وقيل الضمير في الموضعين للنبي صلى الله عليه وسلم اولهذا الطائفتين وهم الذين يؤمنون به في انفسهم ويكذبون به في الظاهر والذين يكذبون به جهلا او الذين يؤمنون في المستقبل والذين لا يؤمنون به وقد قيل ان هذا التقسيم خاص باهل مكة وقيل عام في جميع الكفار وربك اعلم بالمفسدين فيجازيهم باعمالهم والمراد بهم المصرون المعاندون فان كذبوك فقل امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يقول لهم ان اصروا على تكذيبه واستمروا عليه لي جزاء عملي ولكم عملكم اي جزاؤه فقد ابلغت اليكم ما امرت بابلاغه وليس علي غير ذلك ثم اكد بقوله انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون اي لا تؤاخذون بعملي ولا اؤاخذ بعملكم وفيه توكيد لما افادته لام الاختصاص من عدم تعدي اجر العمل الى غير عامله وقد قيل ان هذا منسوخ باية السيف لما فيه من ايهام الاعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبي وعن ابن زيد قال امره الله بهذا ثم نسخه فامره بجهادهم قال الرازي وهو بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول الاية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات افعاله من الثواب والعقاب واية القتال ما رفعت شيئا من مدلولات هذه الاية بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلا ومنهم من يستمعون اليك

بين الله سبحانه في هذه الآية ان في اولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي انهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول اثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه وجمع الضمير في يستمعون حملا على معنى من وافرده في ومنهم من ينظر حملا على لفظه قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين لان الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر والتقدير ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر ولهذا قال أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الهمزة للانكار يعني ان هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم ذلك مع حصول المانع وهو الصمم فكيف اذا انضم الى ذلك وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ فان من كان اصم غير عاقل لا يفهم شيئا ولا يسمع ما يقال له والفاء عاطفة وفيه تنبيه على ان حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم في تدبره وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الالف والتقليد تعذر افهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق والكلام في وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ كالكلام فيما تقدم لان العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لان الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الاحوال فهما يقوم مقام النظر وكذلك الاصم العاقل قد يتحدس تحدسا يفيده بعض فائدة بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الادراك وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسد عليه باب الهدى والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الطبيب اذا رأى مريضا لا يقبل العلاج اصلا اعرض عنه واستراح من الاشتغال به والهمزة للانكار إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان ان ذلك لم يكن لاجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة بل لاجل ما صار في طباعهم من التعصب والمكابرة للحق والمجادلة بالباطل والاصرار على الكفر فهم الذين ظلموا انفسهم بذلك ولم يظلمهم

شيئا من الاشياء بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به اكمل ادراك وركب فيهم من الحواس
ما يصلون به الى ما يريدون ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية
فعلى نفسها براقش تجني قيل والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمر زيادة اليقين والتقرير وتقديم
المفعول على الفعل لافادة القصر والمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة ويوم يحشرهم هؤلاء
المشركين المنكرين للبعث لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم
اي احياؤهم من القبور كأن اي كأنهم لم يلبثوا اي مشبهين بمن لم يلبث الا ساعة من النهار
اي شيئا قليلا والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا وقيل في القبور استقلوا المدة الطويلة اما لانهم
ضيعوا اعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم او استقصروها للدهش والحيرة او لطول وقوفهم
في المحشر او لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا قولهم لبثنا يوما
او بعض يوم او لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جدا والمقصود من هذا
التشبيه كما قاله ابو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة اليه تعالى ولو بعد دهر طويل
واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم له بقولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون
ونحو ذلك او بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فان اللبث اليسير يلزمه عدم
التبدل والتغير والمراد بالساعة الزمن القليل فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان
ساعاته اعرف حالا من ساعات الليل يتعارفون بينهم اي يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم
يتفارقوا الا قليلا بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع اي في ابتدائه وينقطع
في اثنائه وقيل عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين ايديهم من الامور المدهشة
للعقول المذهلة للافهام واما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه وهذا احد
وجهين في المقام ذكره البيضاوي وابو البقاء وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث
من القبور وجرى على هذا ابو السعود والخازن والقرطبي وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ و
التقريع يقول بعضهم لبعض انت اضللتني واغويتني لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ولا يسأل حميم
حميما وقوله فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فيجمع بان المراد بالتعارف هو تعارف
التوبيخ وعليه يحمل قوله ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول وقوله

تعالى كلما دخلت امة الآية وقوله ربنا انا اطعنا سادتنا الآية قال القرطبي وهو الصحيح وقد جمع
بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف
ما لا يكون في الآخر قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران
وتعجيب منه ولذا اتى بحرف التحقيق والمراد باللقاء يوم القيامة عند الحساب والجزاء اي من باع
آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على الباقي والجملة مستانفة او في محل
نصب باضمار قول اي قائلين قد خسر وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ نفى عنهم ان يكونوا من جنس المهتدين
لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم ويصلحهم وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ اصله
ان نرك وما مزيدة لتاكيد معنى الشرط ولاجله زيدت نون التاكيد خلافا لسيبويه والمعنى ان
حصلت منا الاراءة لك بعض الذي وعدناهم من اظهار دينك في حياتك بقتلهم واسرهم
وجواب الشرط محذوف والتقدير فتراه او فذلك هو المراد اَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ المعنى او لا نرينك ذلك
في حياتك بل نتوفينك قبل ذلك فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة ونريك عذابهم
فيها والتقدير او نتوفينك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة وقيل انه جواب للشرط وما
عطف عليه اذ معناه صالح لذلك والى هذا ذهب الحوفي وابن عطية وقيل انه جواب لقوله
او نتوفينك وجواب الاول محذوف لدلالته على ما هو المراد من اراءة النبي صلى الله عليه وسلم تعذيبهم
في الآخرة وقيل العدول في الموضعين الى صيغة المستقبل لاستحضار الصورة والاصل اريناك
او توفيناك وفيه نظر فان اراءته صلى الله عليه وسلم لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن
قد وقعت كالوفاة وحاصل معنى هذه الآية ان لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا وقد
اراه الله سبحانه قتلهم واسرهم وذلهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم مما اصابهم به في
يوم بدر وما بعده من المواطن فلله الحمد ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ من تكذيبهم وكفرهم فيعذبهم
اشد العذاب وجاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه في الدارين
للدلالة على ان المراد بهذه الافعال ما يترتب عليها من الجزاء او ما يحصل من انطاق الجوارح
بالشهادة عليهم يوم القيامة فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابوري وفي
السمين ثم هنا ليست للترتيب الزماني بل هي لترتيب الاخبار لا لترتيب القصص في نفسها كقولك زيد

والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها الا الله سبحانه وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله الا الله سبحانه فان هذا مقام رب العالمين الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم واحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الانبياء او ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرزاق المعطي المانع وحسبك بما في هذه الآية موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يامره الله بان يقول لعباده لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا فكيف يملكه لغيره وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه فضلا عن ان يملكه لغيره فيا عجبا القوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا اله الا الله ومدلول قل هو الله احد واعجب من هذا اطلاع اهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى بل الى ما هو اشد منها فان اولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرزاق المحيي المميت الضار النافع وانما يجعلون اصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم اليه وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي الجلال وكفاك من شر سماعه والله ناصر دينه ومظهر شريعته من اوضار الشرك وادناس الكفر ولقد توسل الشيطان اخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا انا لله وانا اليه راجعون ثم بين سبحانه ان لكل طائفة حدا محدودا لا يتجاوزنه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال لكل امة ممن قضي بينهم وبين رسولهم او بين بعضهم البعض اجل اي وقت خاص ومدة مضروبة يحل لهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله والاجل يطلق على مدة العمر وعلى آخر جزء منه والمراد هنا الثاني كما يؤخذ من التفاسير فاذا جاء اجلهم اي اجل كل امة قال ابو السعود ان جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان اريد به ما امتد من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هنالك يتحقق مجيئه بتمامه فلا يستاخرون عن ذلك

الاجل المعين ساعة اي شيئا قليلا من الزمان ولا يستقدمون منه ومثله قوله تعالى ما
سبق من امة اجلها وما يستاخرون والسين زائدة فيهما والكلام على هذه الاية المذكورة
هنا قد تقدم في تفسير الاية التي في اول الاعراف فلا نعيده قل أرأيتم إن أتاكم عذابه
هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الاول اي اخبروني
عن عذاب الله ان اتاكم اي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله العاقل اذا
العذاب كله مر المذاق موجب لنفار الطبع منه فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل
التلطف بهم والتنبيه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل او جاءت على سبيل التعجب و
التهويل للعذاب اي اي شيء شديد تستعجلون منه اي ما اشده ما اهول ما تستعجلون
من العذاب قال ابو حيان بياتا اي وقت بيات والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه
ينامون ويغفلون عن التحرز والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم
وكذلك قوله أو نهارا اي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب والاستفهام في قوله ماذا
يستعجل منه المجرمون للانكار المتضمن للنهي كما في قوله اتى امر الله فلا تستعجلوه ووجه الانكار
عليهم في استعجالهم ان العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتاباه الطبائع فما المقتضي لاستعجالهم و
ضمير منه راجع الى العذاب وقيل الى الله والمعنى تندموا على الاستعجال وتعرفوا الخطأ منكم
فيه وقيل المعنى ان اتاكم عذابه امنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان والاول اولى
ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال وهو الاجرام لان من حق المجرم ان
يخاف من العذاب على اجرامه وان يهلك فزعا من مجيئه وان ابطأ فكيف يستعجله قال الحفناوي
ودخول الهمزة الاستفهامية في أثم إذا ما وقع آمنتم به للانكار ايمانهم حيث لا ينفع الايمان و
ذلك بعد نزول العذاب وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتقطيع ما فعلوه في غير وقته
مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع وهذه الجملة داخلة تحت القول المامور به
وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد وجيء باذا مع زيادة ما للتاكيد دلالة على تحقق
وقوع الايمان منهم في غير وقته ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم والمعنى ابعد ما وقع عذاب الله
عليكم وحل بكم سخطه وانتقامه امنتم حين لا ينفعكم هذا الايمان شيئا ولا يدفع عنكم ضرا وقيل ان هذه الجملة

ليست داخلة تحت القول المامور به وانها من قول الملائكة استهزاء بهم وازراء عليهم والاول
اولى وقيل ثم هنا بفتح الثاء بمعنى هنالك والاول اولى آلآن بهمزتين الاولى همزة الاستفهام والثانية
همزة ال المعرفة واذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية احد امرين تسهيلها من غير الف بينها
وبين الاولى وابدالها مدا بقدر ثلاث الفات وقد وقع في القرآن الكريم من هذا القبيل
ستة مواضع اثنان في الانعام وهما الذكرين مرتين وثلاثة في هذه السورة لفظ الآن هنا
وفيما سياتي ولفظ الله اذن لكم وواحد في النمل آلله خير فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق
الهمزتين بل يجب احد الامرين اللذين قد عرفتهما قيل هو استيناف بتقدير القول غير داخل
تحت القول الذي امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم اي قيل لهم
عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن امنتم به والحال انكم قد كنتم به اي العذاب
تستعجلون يعني تكذبون لان استعجالهم كان على جهة التكذيب والانكار قاله الزمخشري
فجملة من باب الكناية ويكون المقصود بامره صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم هذا القول التوبيخ
والازراء عليهم ثم قيل للذين ظلموا انفسهم بالكفر وعدم الايمان ان هذا الذي تطلبونه
ضر محض عار عن النفع من كل وجه والعاقل لا يطلب ذلك وهو استيناف اخبار عما يقال
لهم يوم القيامة على سبيل الاهانة ذوقوا عذاب الخلد اي العذاب الدائم الذي لا ينقطع
والقائل لهم هذه المقالة قيل هم خزنة جهنم ولا يبعد ان يكون القائل لذلك هو الانبياء
على الخصوص او المؤمنون على العموم هل تجزون الا بما كنتم تكسبون في الحياة الدنيا من
الكفر والمعاصي والاعمال والاستفهام للتقرير والاستثناء مفرغ وكانه يقال لهم هذا القول عند
استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة لهم ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة
والجوابات عن اقوالهم الباطلة انهم استفهموا تارة اخرى عن تحقق العذاب فقال ويستنبئونك
اي يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والانكار احق هو اي ما تعدنا به من العذاب
في العاجل والآجل وهذا السؤال منهم جهل محض وظلمات بعضها فوق بعض فقد تقدم
ذكره عنهم مع الجواب عليه فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا ما يقال
له وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقيقة القرآن قل امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم

ان يقول لهم في جواب استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء اي قل لهم يا محمد غير ملتفت الى ما هو مقصودهم من الاستهزاء اي اي نعم وربي انه اي ان ما اعدكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة وفي هذا الجواب تاكيد من وجوه الاول القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم الثاني دخول ان المؤكدة الثالث اللام في لحق الرابع اسمية الجملة وذلك يدل على انهم قد بلغوا في الانكار والتمرد الى الغاية التي ليس وراءها غاية ثم توعدهم باشد توعد ورهبهم باعظم ترهيب فقال وما انتم بمعجزين اي فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئا بل هو مدرككم ولا بد وهذه الجملة معطوفة على جملة جواب القسم او مستانفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه ثم زاد في التاكيد فقال ولو ان لكل نفس ظلمت نفسها ماهو الكثير فيها ان لكل نفس من الانفس المتصفة بانها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الايمان به ما في الارض من كل شيء من الاشياء التي تشتمل عليها من الاموال النفيسة والذخائر الفائقة لافتدت به اي جعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة لا ينفعها الفداء ولا يقبل منها ومثله قوله تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به ويجوز ان يكون الافتداء متعديا وان يكون قاصرا فاذا كان مطاوعا للمتعدي كان قاصرا تقول فديته فافتدى وان لم يكن مطاوعا يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد والفعل يحتمل الوجهين فان جعلناه متعديا فالمفعول محذوف تقديره لافتدت به نفسها وهو من المجاز كقوله تعالى يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها واسروا الندامة الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم وقيل راجع الى الانفس المدلول عليها بكل نفس وان كان المراد خصوص الرؤساء منهم ومعنى اسروا اخفوا اي لم يظهروا الندامة على ترك الايمان بل اخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولهم وذهب بتجلدهم ويمكن انه بقي فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا فاسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون وقيل اسرها الرؤساء فيما بينهم دون اتباعهم خوفا من توبيخهم لكونهم هم الذين اضلوهم وحالوا بينهم وبين الاسلام وقيل معنى اسروا اظهروا لان اسر من الاضداد ومعنى الاول هو المشهور في اللغة

وهو في الآية يحتمل الوجهين وقيل وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم لأن الندامة لا يمكن اظهارها
وذكر المبرد في ذلك وجهين الأول انها بدت في وجوههم اسرة الندامة وهي الانكسار واحدها
سرار وجمعها اسارير والثاني ما تقدم وقيل معنى اسروا الندامة اخلصوها لأن اخفاءها اخلاصها
قيل انه ماض على بابه قد وقع وقيل بل هو بمعنى المستقبل لما ظرف بمعنى حين اي حين رأوا
العذاب اي وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ومعاينته واما بعد الدخول فيه
فهم الذين قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وقضي بينهم بالقسط اي العدل مستأنفة وهو
الظاهر او معطوفة على رأوا اي قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين او بين الرؤساء و
الاتباع او بين الظالمين من الكفار والمظلومين بالعدل وقيل معنى القضاء بينهم انزال
العقوبة عليهم وهم لا يظلمون اي لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم فانه
بسبب ما كسبوا وجملة ألا إن لله ما في السموات والأرض مسوقة لتقرير كمال قدرته لأن من
ملك ما في السموات والارض يتصرف به كيف يشاء وغلب غير العقلاء لأنهم الأكثر المخلوقات
قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الارض لو كان لهم ذلك بين ان الاشياء كلها لله و
ليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به وقيل لما اقسم على حقية ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم اراد
ان يصحب في ذلك بدليل البرهان البين بان ما في العالم على اختلاف انواعه ملكه يتصرف
به كيف يشاء وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه انتباه الغافلين وايقاظ الذاهلين ثم اكد ما سبق
بقوله ألا إن وعد الله حق اي كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب
اندراجا اوليا وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين
وتقرير ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضار المحافظة عليه ولكن أكثرهم
اي اكثر الناس يعني الكفار لا يعلمون ما فيه صلاحهم فيعملون به وما فيه فسادهم فيجتنبونه
لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم هو يحيي ويميت اي يهب الحياة ويسلبها وإليه
ترجعون في الدار الآخرة فيجازي كلا بما يستحقه ويتفضل على من يشاء من عباده يا أيها الناس
قيل المراد قريش وقيل هو على العموم وهو الاولى واختاره الطبري وفيه التفات ورجوع الى استمالتهم
عقب تحذيرهم من غوائل الضلال وشروع في بيان ادلة الرسالة بعد بيان ادلة التوحيد قد

جاءتكم موعظة يعني القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه والوعظ في الاصل
هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب والترهيب والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما
يضره وقيل الوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب من
ربكم من لابتداء الغاية وهو مجاز او للتبعيض اي موعظة كائنة من مواعظ ربكم وشفاء لما في
الصدور من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة
واشتماله على تزييف العقائد الباطلة عن ابي سعيد الخدري قال جاء رجل الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال اني اشتكي صدري فقال اقرأ القرآن يقول الله شفاء لما في الصدور واخرجه
ابن المنذر وابن مردويه واخرج البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع ان رجلا
شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه قال عليك بقراءة القرآن والعسل فالقرآن شفاء
لما في الصدور والعسل شفاء من كل داء مصدر والشفاء في الاصل مصدر جعل وصفا مبالغة
او هو اسم لما يشفي به اي يتداوى فهو كالدواء لما يداوى به وانما خص الصدر بالذكر لانه
موضع القلب وغلافه وهو اعز موضع في بدن الانسان لمكان القلب فيه وداء الجهل اضر
للقلب من داء المرض للبدن والقرآن مزيل لامراض القلب كلها وهدى ورحمة للمؤمنين
بالقرآن باخباهم من الضلال نزل بالعطف تغاير الصفات منزلة تغاير الذات والهدى الارشاد لمن اتبع
وتفكر فيه وتدبر معانيه الى الطريق الموصلة الى الجنة والرحمة هي ما يوجد في الكتاب العزيز
من الامور التي يرحم بها عباده فيطلبها من اراد ذلك حتى ينالها فالقرآن العظيم مشتمل
على هذه الامور جامع لهذه الاشياء كلها قال الكرخي والحاصل ان الموعظة اشارة الى
تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة
والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى اشارة الى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة
والرحمة اشارة الى كونها بالغة في الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهي النبوة
فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تاخير ما
تقدم ذكره انتهى ثم امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم
فقال قل بفضل الله وبرحمته المراد بالفضل من الله سبحانه هو تفضله على عباده في الآجل

والعاجل بما لا يحيط به الحصر والرحمة رحمة لهم وروي عن ابن عباس انه قال فضل الله القرآن ورحمته الاسلام وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة ان فضل الله الايمان ورحمته القرآن وعن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من اهله رواه ابو الشيخ وابن مردويه وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة والاولى حمل الفضل والرحمة على العموم ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولا اوليا وتكرير الباء في برحمته للدلالة على ان كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقل في الفرح واصل الكلام قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني عليه في قوله فبذلك فليفرحوا وقيل ان فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح وهو اللذة في القلب بسبب ادراك المطلوب وتقديم الظرف على الفعل لافادة الحصر والتكرير للتاكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا وفي هاتين الفائين اوجه ذكرها في الجمل وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وجوزه في قوله فرحين بما آتاهم الله من فضله وكما في هذه الآية وقيل التقدير جاءتكم موعظة بفضل الله ورحمته فبذلك اي فبمجيئهما فليفرحوا هو خير اي ان هذا خير لهم مما يجمعون من حطام الدنيا وملذاتها الفانية قرئ بالياء والتاء وهما سبعيتان ثم اشار سبحانه بقوله قل ارأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا الى طريق اخرى غير ما تقدم في اثبات النبوة وتقرير ذلك ما حاصله انكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض فان كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم وان كان لاعتقادكم انه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك الا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام الا من جهة الرسل الذين ارسلهم الله الى عباده والمعنى اخبروني الذي انزل الله اليكم من رزق من زرع وضرع وغيرهما فجعلتم بعضه حراما كالبحيرة والسائبة وبعضه حلالا كالميتة وذلك كما كانوا يفعلونه في الانعام والحرث حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في سورة الانعام من الكتاب العزيز وقيل ما استفهامية واليه ذهب الحوفي والزمخشري والظاهر انها موصولة كما تقدم لان فيه ابقاء ارأيت على بابها ومعنى انزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو وقال الزجاج

انزل بمعنى خلق كما قال وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وانزلنا الحديد فيه باس شديد
قل آالله اذن لكم في هذا التحليل والتحريم والهمزة للانكار ام على الله تفترون ام منقطعة بمعنى
بل كما في الكشاف والظاهر انها متصلة كما قال السفاقسي اي الله اذن لكم ام تكذبون عليه
في نسبة الاذن اليه قال الكرخي وكفى به زاجرا لمن افتى بغير اتقان كبعض فقهاء هذا الزمان
انتهى واظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء قلت وفي هذه الآية
الشريفة ما يصك مسامع المتصدين للافتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز
وعدمه مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي ومبلغهم
من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الامة قد قلدوه في دينهم وجعلوه شارعا مستقلا
ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه او بلغه ولم يفهمه حق
فهمه او فهمه واخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه
عن العباد مع كون من قلدوه متعبدا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه باحكامها
كما هم محكوم عليهم بها وقد اجتهد رأيه وادّى ما عليه وفاز باجرين مع الاصابة واجر
مع الخطأ انما الشأن في جعلهم لرأيه الذي اخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلا معمولا به وقد
اخطأوا في هذا خطأ بينا وغلطوا غلطا فاحشا فان الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه
وحده ولا قائل من اهل الاسلام المعتد باقوالهم انه يجوز لغيره ان يعمل به تقليدا له واقتداء به
وما جاء به المقلدة في تقوم هذا الباطل فهو من الجهل العاطل اللهم كما رزقتنا من العلم ما
نميز به بين الحق والباطل فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير
قال النسفي الآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه
وان لا يقول احد في شيء جائز او غير جائز الا بعد ايقان واتقان والا فهو مفتر على الله انتهى قال
وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيمة اي اي شيء ظنهم في هذا اليوم وما يصنع
بهم فيه اي لا ينبغي هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة
لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم بل
مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله وذكر الكذب بعد الافتراء مع ان الافتراء

لا يكون الا بالزيادة التاكيد إِنَّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ يتفضل عليهم بانواع النعيم
في الدنيا والاخرة ومنه بعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام وابقاء الكتاب و
السنة الى اخر الدهر والزمان وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ الله على نعمه الواصلة اليهم منه سبحانه
في كل وقت من الاوقات وطرفة من الطرفات ولا يصرفون مشاعرهم الى ما خلقت له
وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما نافية والشان الامر بمعنى القصد وجمعه
شؤن قال الاخفش تقول العرب ما شأنت شانه اي ما عملت عمله وما قصدت قصده فهو
مصدر بمعنى المفعول وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ قال الفراء والزجاج الضمير يعود على الشان والجار
والمجرور صفة لمصدر محذوف اي تلاوة كائنة منه اذ التلاوة للقران من اعظم شؤنه صلى الله
عليه وسلم والمعنى انه يتلو من اجل الشان الذي حدث القران فيعلم كيف حكمه او يتلو القران الذي
ينزل في ذلك الشان وقال ابن جرير الطبري الضمير في منه عائد الى الكتاب اي ما يكون من
كتاب الله من قران واعاده تفخيما له كقوله اني انا الله وقيل ما تتلو من الله من قران نازل عليك
فمن الثانية زائدة والاولى اما تعليلية او ابتدائية بحسب الوجهين المتقدمين والخطاب في
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ لرسول الله وللامة وقيل الخطاب لكفار قريش إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا استثناء
مفرغ من اعم الاحوال للمخاطبين بالافعال الثلثة اي في حال كوننا شهودا عليكم رقباء مطلعين
عليه حافظين له يقال شهدت على الشئ اطلعت عليه فانا شاهد وشهيد والجمع اشهاد وشهود
والضمير في إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ عائد على العمل يقال فاض فلان في الحديث والعمل اذا اندفع فيه
وقال الضحاك الضمير في فيه عائد على القران والمعنى اذ تشيعون في القران الكذب والافاضة
الدخول في العمل على جهة الانتصاب اليه والانبساط فيه قال ابن الانباري اذ تدفعون فيه
وتنبسطون في ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنتشرون فيه وقيل تخوضون فيه
وقيل تاخذون اي تشرعون فيه والمعاني متقاربة وَمَا يَعْزُبُ اي يغيب ويخفى وقيل يبعد وقال
ابن كيسان يذهب وهذه المعاني متقاربة قرئ بضم الزاء وبكسرها سبعيتان وهما لغتان فصيحتان
عَنْ رَبِّكَ اي عن علمه ومن في مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ زائدة للتاكيد اي وزن ذرة اي نملة حمراء وهي
خفيفة الوزن جدا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ اي في دائرة الوجود والامكان وانما عبر عنهما

مع انه سبحانه لا يغيب عنه شيء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما لان الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات وقدم الارض على السماء لانها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب ولا اصغر من ذلك اي من مثقال ذرة كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس ولا اكبر منها الا وهو في كتاب مبين فكيف يغيب عنه وهو الكتاب الذي عند الله يعني اللوح المحفوظ قاله السدي وقد اورد على توجيه النصب والرفع في اصغر واكبر على العطف على لفظ مثقال ومحله او على لفظ ذرة اشكال وهو انه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شيء في الارض ولا في السماء الا في كتاب ويلزم منه ان يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال وقد اجيب عن هذا الاشكال بان الاشياء المخلوقة قسمان قسم اوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والارض وقسم آخر اوجده بواسطة القسم الاول من حوادث عالم الكون والفساد ولا شك ان هذا القسم الثاني متباعد في السلسلة العلية عن مرتبة الاول فالمراد من الآية انه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء في الارض ولا في السماء الا وهو في كتاب مبين اثبت فيه صورة تلك المعلومات والغرض الرد على من يزعم انه غير عالم بالجزئيات و اجيب ايضا بان الاستثناء منقطع اي لكن هو في كتاب مبين وذكر ابو علي الجرجاني ان الا بمعنى الواو اي وهو ايضا في كتاب مبين والعرب قد تضع الا موضع الواو ومنه قوله تعالى اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم يعني ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا اي والذين ظلموا وقد رد بعد الواو التي جاءت الا بمعناها كما في قوله وقولوا حطة اي هي حطة قال الكرخي وهذا الوجه فيه تعسف ومثله قوله ولا تقولوا ثلاثة وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وجوز الكواشي كونه متصلا مستثنى من يعزب على ان معناه يبين ويصل والمعنى لا يصدر عن الله شيء بعد خلقه الا وهو في كتاب وقال الحلبي قد حاول الرازي جعله متصلا بعبارة طويلة محصلها انه جعله استثناء مفرغا وهو حال من اصغر واكبر وهو في قوة المتصل ولا يقال فيه متصل ولا منقطع ثم لما بين سبحانه احاطته بجميع الاشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال الا ان اولياء الله لا خوف عليهم الولي في اللغة ضد العدو وفيه المحب ومحبة العباد لله

طاعتهم له ومحبته لهم الكرامة اياهم كما في شرح الكشاف وعلى الاول يكون فعيل بمعنى فاعل وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما قاله الشهاب في تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب فولي كل شيء هو الذي يكون قريبا منه والمراد بالاولياء خلص المؤمنين كانهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته والمراد بنفي الخوف عنهم انهم لا يخافون ابدا كما يخاف غيرهم لانهم قد قاموا بما اوجب الله عليهم وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها فهم على ثقة من انفسهم وحسن ظن بربهم وكذلك وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ على فوت مطلب من المطالب لانهم يعلمون ان ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة وقد فسر سبحانه هؤلاء الاولياء بقوله الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ اي يؤمنون بما يجب الايمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه وعن سعيد بن جبير قال هم الذين اذا رأوا ذكر الله وعن ابن عباس قال اذا رأوا يذكر الله لرؤيتهم وقال قوم هم المتحابون في الله وقال ابو حنيفة والشافعي اذا لم تكن العلماء اولياء الله فليس لله ولي قال النووي وذلك في العالم العامل بعلمه وقد اكثر اهل العلم من المتكلمين والصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه واطالوا المقالات في ذلك بما لا حاجة اليه وهذه الآية تغني عنها فانه اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل والحاصل ان ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل وبالاعمال الصالحة على وفق ما وردت به السنة المطهرة لان الايمان مبني على العقيدة والعمل ومقام التقوى هو ان يتقي العبد كل ما نهى الله عنه قال ابو السعود والجملة في جواب سؤال كانه قيل من اولئك وما سبب تلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى انتهى وعن عمرو بن الجموح انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله فاذا احب لله وابغض لله فقد استحق الولاية من الله وان اوليائي من عبادي واحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم اخرجه احمد وغيره وآخرج احمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم خيار عباد الله الذين اذا رأوا ذكر الله وشرار عباد الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة الباغون البراء العنت وعن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه ورغبكم في الآخرة عمله اخرجه الحكيم الترمذي

وعن ابن عمر مرفوعا ان لله عبادا ليسوا بالانبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء
يوم القيمة بقربهم ومجلسهم منه فجثى اعرابي على ركبتيه فقال يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا
قال قوم من افناء الناس من نزاع القبائل تصافوا في الله وتحابوا في الله يضع الله لهم يوم القيمة
منابر من نور فيجلسهم يخاف الناس ولا يخافون هم اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
اخرجه الحاكم وصححه واخرج ابوداؤد وابن جرير وابن ابي حاتم والبيهقي في الشعب عن عمر
بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه قال ابن كثير واسناده جيد وروي بطرق
عن جماعة من الصحابة وقد ورد في فضل المتحابين في الله احاديث ليس فيها انهم المرادون
بالاية لَهُمُ الْبُشْرٰى فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْاٰخِرَةِ تفسير لمعنى كونهم اولياء الله اي لهم البشرى من
الله ما داموا في الحياة بما يوحيه الى انبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده جزاؤهم
الجنة ورضوانه عنهم كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القران الكريم وكذلك ما يحصل
لهم من الرؤيا الصالحة وما يتفضل الله به عليهم من اجابة دعائهم وما يشاهدونه من التبشير لهم عند
حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة قال الزهري وقتادة
واما البشرى في الاخرة فتلقي الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب والبشرى مصدر
اريد به المبشر به والمراد حال كونهم في الدنيا وحال كونهم في الاخرة واخرج احمد والترمذي وحسنه
وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن رجل من اهل مصر قال سألت ابا الدرداء عن معنى قوله لهم البشرى فقال
ما سألني عنها احد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما سألني عنها احد غيرك منذ انزلت
علي هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم او ترى له فهي بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الاخرة الجنة وفي اسناده
هذا الرجل المجهول وعن عبادة بن الصامت مرفوعا مثله عند احمد والدارمي والترمذي وابن ماجة
واخرج احمد والبيهقي عن ابن عمرو مرفوعا قال الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة واربعين
جزءا من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث وفي الباب احاديث وقد وردت احاديث صحيحة
بان الرؤيا الصالحة من المبشرات وانها جزء من اجزاء النبوة ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الاية
وقد روي عن ابن عباس ان المراد بالبشرى في الاية هي قوله وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا
وعنه انها قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقيل البشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي

في الآخرة الجنة وعن ابي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده
الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن اخرجه مسلم قال اهل العلم وهي دليل للبشرى المؤخرة
في الآخرة وهذه البشرى المعجلة دليل على رضاء الله عنه وقيل غير ذلك واللفظ اوسع من ذلك
لا تبديل لكلمات الله اي لا تغيير لاقواله ولا خلف لمواعيده على العموم فيدخل فيها ما وعد به عباده
الصالحين دخولا اوليا ذلك اي المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين هو
الفوز العظيم الذي لا يقادر قدره ولا يماثله غيره والجملتان اعتراض في آخر الكلام عند
من يجوزه وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه او الاولى اعتراضية والثانية تذييلية
ولا يحزنك قولهم نهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح
في دينه والمقصود تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الاذية الناشئة عن مقالاتهم
الموحشة وتبشير له بانه تعالى ينصره ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسوله صلى الله عليه وسلم معللا لما ذكره
من النهي فقال ان العزة لله جميعا اي الغلبة والقدرة والقهر له في مملكته وسلطانه ليست لاحد من
عباده واذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لاقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون
من الغلبة شيئا ولا ينافي هذا ما في سورة المنافقين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين لان كل عزة بالله
فهي كلها لله حقيقة لكن قد يظهرها على يد رسوله وعلى يدي المؤمنين تكريما وتعظيما لهم ومنه قوله
كتب الله لاغلبن انا ورسلي انا لننصر رسلنا هو السميع لما يقولون العليم بما يدبرون ويعزمون
عليه وهو مكافئهم بذلك الا ان لله من في السموات ومن في الارض ومن جملتهم هؤلاء
المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم واذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء فكيف يستطيعون
ان يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا ياذن الله به والا كلمة تنبيه معناه انه لا ملك لاحد فيهما
الا لله عز وجل فهو يملك ما فيهما وقال في الآية الاولى ما وفي هذه من ومجموعهما دل على ان الله يملك
جميع كل شيء فيهما من العقلاء وغيرهم وغلب العقلاء على غيرهم لكونهم اشرف وفي الآية نعي على عبدة
البشر والملائكة والجمادات لانهم عبدوا المملوك وتركوا المالك وذلك خلاف ما يوجبه العقل ولهذا اعقبه
بقوله وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ما نافية وشركاء مفعول يتبع وعلى هذا
يكون مفعول يدعون محذوفا والاصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في

الحقيقة انما هي اسماء لا مسميات لها فحذف احدهما لدلالة المذكور عليه ويجوز ان يكون
المذكور مفعول يدعون وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه يعني انهم وان سموا معبوداتهم
شركاء لله فليست شركاء له على الحقيقة لان ذلك محال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل ما استفهامية اي
اي شيء يتبع الذين يدعون وعلى هذا شركاء منصوب بيدعون والكلام خارج مخرج التوبيخ
لهم والازراء عليهم وقيل موصولة والمعنى ان الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات
ومن في الارض ثم زاد سبحانه في تاكيد الرد عليهم والدفع لاقوالهم فقال إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
اي ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنا ويظنون انهم آلهة تشفع لهم وان الظن لا يغني من الحق شيئا
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ اصل معنى الخرص الحزر بتقدير الزاي على الرأي اي التخمين والتقدير ويستعمل
بمعنى الكذب لغلبته في مثله والاسم الخرص بالكسر اي يقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا
وقد تقدمت هذه الاية في الانعام ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده
ببعض نعمه فقال هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا الجعل ان كان بمعنى
الابداع والخلق فمبصرا حال وان كان بمعنى التصيير فهو المفعول الثاني اي جعل لعباده الزمان منقسما
الى قسمين احدهما مظلم وهو الليل لاجل ان يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون انفسهم
عن الكد والكسب والآخر مبصرا لاجل ان يسعوا فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ويحصلون
ما يحتاجون اليه في وقت مضيء منير لا يخفى عليهم كبير ولا حقير وجعله سبحانه للنهار مبصرا
مجاز والمعنى انه مبصر صاحبه كقولهم نهاره صائم وقال قطرب تقول العرب اظلم الليل وابصر النهار بمعنى
صار ذا ظلمة وذا ضياء وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما اثبته او مقابله في الآخر
فحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه وهذا افصح الكلام إِنَّ فِي
ذَلِكَ الجعل المذكور لَآيَاتٍ عجيبة كثيرة لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة
على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه هنا منها ومن غيرها مما لم يذكره فعند السماع منهم
لذلك يتفكرون ويعتبرون ويعلمون ان الذي خلق هذه الاشياء كلها هو الله المتفرد بالوحدانية
في الوجود فيكون ذلك من اعظم اسباب الايمان قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا هذا نوع آخر من اباطيل
المشركين او اهل الكتاب التي كانوا يتكلمون بها وهو زعمهم بان الله سبحانه اتخذ وتبنى ولدا

فرد ذلك عليهم بقوله سُبْحَانَهُ فتنزه جل وعلا عما نسبوه اليه من هذا الباطل البين وكلمتهم الحمقاء وبين انه هُوَ الْغَنِيُّ عن ذلك فان الولد انما يطلب لاجل الحاجة والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها واذا انتفت الحاجة انتفى الولد وايضا انما يحتاج الى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه والازلي القديم لا يفتقر الى ذلك وقد تقدم تفسير الاية في البقرة ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ واذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح ان يكون شيء مما فيهما ولد الله للمنافاة بين الملك والبنوة والابوة ثم زيف دعواهم الباطلة وبين انها بلا دليل فقال اِنْ اي مَا عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ حجة وبرهان بِهٰذَا القول الذي تقولونه ومن زائدة للتاكيد ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء اَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ استفهام توبيخ ويستفاد من هذا ان كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء بل من الجهل المحض ثم امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم قولا يدل على ان ما قالوه كذب وان من كذب على الله لا يفلح فقال قُلْ اِنَّ الَّذِيْنَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُوْنَ اي كل مفتر هذا شانه ويدخل فيه قائل هذا القول دخولا اوليا وذكر الكذب مع الافتراء للتاكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز والمعنى ان هؤلاء الذين يكذبون على الله لا يفوزون بمطلب من المطالب ولا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة ثم بين سبحانه ان هذا الافتراء وان فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو مَتَاعٌ قليل فِي الدُّنْيَا ثم يتعقبه الموت والرجوع الى الله فيعذب المفتري عذابا مؤبدا والجملة مستانفة لبيان ان ما يحصل للمفتري بافترائه وما يترك فيه بحسب الظاهر من نيل المطالب والحظوظ الدنيوية بمعزل ان يكون من جنس الفلاح وليس بفائدة يعتد بها بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه الموت والعذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل باسباب من جملتها الكذب على الله وليس بنافع في الاخرة وقال الاخفش ان التقدير لهم متاع في الدنيا وقال الكسائي ذلك متاع او هو متاع ثُمَّ اِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ بعد الموت ثُمَّ نُذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيْدَ بِمَا اي بسبب ما كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ اي يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله ولما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع في ذكر قصص الانبياء وما جرى لهم مع اممهم لما في ذلك من التسلية

لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاسوة بمن سلف من الانبياء ولما كان قوم نوح اول الامم هلاكا واعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وانه اهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ اي على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به باقوالهم الباطلة نَبَأَ نُوحٍ اي خبره والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشان والمراد بعض ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وامثالهم إِذْ اي وقت ان قَالَ لِقَوْمِهِ اللام لام التبليغ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ اي عظم وثقل عَلَيْكُم مَّقَامِي من باب الاسناد المجازي كقولهم ثقل علي ظله والمقام بفتح الميم الموضع الذي يقام فيه وبالضم مكان الاقامة او الاقامة نفسها وقد اتفق القراء هنا على الفتح وقرأ ابو رجاء وابو مجلز وابن الجوزي بالضم قال ابن عطية ولم يقرأ هنا بالضم وكانه لم يطلع على قراءة هؤلاء وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان اي لاجله ومنه ولمن خاف مقام ربه اي خاف ربه ويجوز ان يراد بالمقام المكث اي شق عليكم مكثي بين اظهركم لانه مكث فيهم الف سنة الا خمسين عاما ويجوز ان يراد بالمقام القيام لان الواعظ يقوم حال وعظه والمعنى ان كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم وكبر عليكم تَذْكِيرِي لكم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ التكوينية والتنزيلية فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ اي دمت على تخصيص التوكل به تعالى وهذه الجملة جواب الشرط والمعنى اني لا اقابل ذلك منكم الا بالتوكل على الله فان ذلك دابي الذي انا عليه قديما وحديثا ويجوز ان يريد احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ويجوز ان يكون جواب الشرط فاجمعوا كما ياتي قاله الاكثرون والجملة اعتراض كقولك ان كنت انكرت علي شيئا فالله حسبي تقي قبل فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ عطف على الجواب وجزم السفاقسي بان جوابه محذوف اي فافعلوا ما شئتم والمعنى اعزموا عليه من اجمع الامر اذا نواه وعزم عليه قاله الفراء وروي عنه اجمع الشيء اعده وقال مؤرج السدوسي اجمع الامر افصح من اجمع عليه وقال ابو الهيثم اجمع امره جعله جميعا بعد ما كان متفرقا وتفرقه انه يقول مرة افعل كذا ومرة افعل كذا فلما عزم على امر واحد فقد جمعه اي جعله جميعا فهذا هو الاصل في الاجماع ثم صار بمعنى العزم والتصميم يقال اجمع في المعاني وجمع في الاعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الاخر وفي التنزيل فجمع كيده قال ابن الانباري المراد من الامر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من امركم شيئا الا احضرتموه وَشُرَكَآءَكُمْ اي ادعوهم لنصرتكم قاله الكسائي والفراء ثم قال

الزجاج والفارسي والمعنى مع شركائكم ولم يذكر الزمخشري غير هذا وقيل اجمعوا شركاءكم وفي مصحف
ابي وادعوا شركاءكم قال النحاس وغيره وقراءة الرفع بعيدة وقال المهدوي يجوز رفع الشركاء بالابتداء
والخبر محذوف اي وشركاؤكم ليجمعوا امرهم ونسبة ذلك الى الشركاء مع كون الاصنام لا تعقل لقصد
التوبيخ والتقريع لمن عبدها ثم لا يكن امركم عليكم غمة اي خفيا والغمة التغطية من قولهم غم
الهلال اذا استتر اي ليكن امركم ظاهرا منكشفا قاله الزجاج وقال الهيثم معناه لا يكن امركم مبهما
وقيل ان الغمة ضيق الامر كذا روي عن ابي عبيدة والمعنى لا يكن امركم عليكم متصاحبين والحالة
لي ضيقا شديدا بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم وقدرتم عليه وعلى الوجهين الاولين
يكون المراد بالامر الثاني هو الامر الاول وعلى الثالث يكون المراد غيره وانما نسب عدم الستر الذي هو
عدم الغمة الى الامر مبالغة ثم اقضوا الي ذلك الامر الذي تريدون بي واصل اقضوا من القضاء وهو
الاحكام والمعنى احكموا ذلك الامر قال الاخفش والكسائي هو مثل وقضينا اليه ذلك الامر اي
انهيناه اليه وابلغناه اياه وقيل معناه ثم امضوا الي قال النحاس هذا قول صحيح في اللغة ومنه قضى
الميت مضى وعن بعض القراء ثم افضوا بالفاء اي توجهوا ولا تنظرون اي لا تمهلوني ولا تؤخروني في
بل عجلوا امركم ونفذوا واصنعوا ما بدا لكم وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر
ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه ثم بين لهم ان كل ما اتى به اليهم من الاعذار والانذار و
تبليغ الشرع عن الله ليس هو لطمع دنيوي ولا لغرض خسيس فقال فان توليتم اي ان اعرضتم عن العمل
بنصحي لكم وتذكيري اياكم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فما سألتكم في مقابلة ذلك عليه
من اجر تؤدونه الي حتى تتهموني فيما جئت به والفاء جزائية ان اجري اي ما ثوابي في النصح والتذكير
الا على الله سبحانه فهو يثيبني امنتم او توليتم وامرت ان اكون من المسلمين المنقادين لحكم
الله الذين يجعلون اعمالهم خالصة لله سبحانه لا ياخذون عليها اجرا ولا يطمعون في عاجل او من
المستسلمين لكل ما يصعب من البلاء فكذبوه اي استمروا على تكذيبه واصروا على ذلك وليس المراد
احداث تكذيبه بعد ان لم يكن فنجيناه اي نوحا عليه السلام ومن معه ممن قد اجابه وصار على
دينه وكانوا ثمانين اربعين رجلا واربعين امرأة في الفلك اي السفينة والمفرد على وزن قفل
والجمع على وزن اسد والمراد هنا المفرد وجعلناهم اي الذين نجاهم معه في الفلك حملا على معنى من

خلائف جمع خليفة والمعنى انه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الارض التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها واغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به تاخيره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله تعالى ولما جاء امرنا نجينا شعيبا الآية لاظهار كمال العناية بشان المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين من اهلاكهم فكذلك نفعل بمن كذبك فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين وتهويل عليهم ثم بعثنا من بعده اي من بعد نوح عليه السلام رسلا الى قومهم لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب فجاؤهم بالبينات اي بالمعجزات الباهرات والدلالات الواضحات وبما ارسلهم الله به من الشرائع التي شرعها لقوم كل نبي فما كانوا ليؤمنوا اي فما احدثوا الايمان بل استمروا على الكفر واصروا عليه والمعنى انه ما صح ولا استقام لقوم من اولئك الاقوام الذين ارسل الله اليهم رسله ان يؤمنوا في وقت من الاوقات بما كذبوا به من قبل اي من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل اليهم والمعنى ان كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند ان ارسل الله اليهم الرسول المبعوث اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم لانهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولا وهذا مبني على ان الضمير في كانوا وكذبوا راجع الى القوم المذكورين في قوله الى قومهم وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح اي فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل اي في عالم الذر كذلك اي مثل ذلك الطبع العظيم المحكم نطبع بنون العظمة وقرئ بالياء على ان الضمير لله على قلوب المعتدين اي المتجاوزين للحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشانهم لانهماكهم في الغي والضلال وقد تقدم تفسير هذا في غير موضع ثم بعثنا من بعدهم اي بعد الرسل المتقدم ذكرهم وخصهما موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شان ما جرى بينهما وبين فرعون الى فرعون وملائه المراد بالملأ الاشراف وهكذا قرره بعض المفسرين وقرر بعضهم ان المراد بالملأ هنا مطلق القوم من استعمال الخاص في العام وهو ظاهر صنيع السيوطي في الجلالين

بِآيَاتِنَا اي مصحوبين بالمعجزات وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز فَاسْتَكْبَرُوا عن قبولها ولم يتواضعوا لها ولم يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة وقيل عن الايمان بموسى وهارون والاول اولى وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ اي كانوا ذوي اجرام عظام وآثام كبيرة فبسبب ذلك اجترؤا على ردها لان الذنوب تحول بين صاحبها وبين ادراك الحق وابصار الصواب قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها فَلَمَّا جَاءَهُمُ اي فرعون وملأه الْحَقُّ اي المعجزات التسع مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ اي لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة منهم قَالَ مُوسَى اي جملا ثلاثا الاولى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ قيل في الكلام حذف والتقدير اتقولون للحق سحر فلا تقولوا ذلك ثم استانف انكارا آخر من جهة نفسه فقال أَسِحْرٌ هَذَا وهي الثانية والمجيء الى هذا انهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله اسحر هذا بل هم قوم قاطعون بانه سحر لانهم قالوا ان هذا الاسحر مبين فكيف يكون قوله اسحر هذا من قولهم وقال الاخفش هو من قولهم وفيه نظر لما قدمنا وقيل معناه اتقولون اتعيبون الحق وتطعنون فيه وكان عليكم ان تذعنوا له ثم قال اسحر هذا منكرا لما قالوه والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الاولى المستانفة والمعنى اتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين وهو ابعد شيء من السحر ثم انكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال أسحر هذا فجاء موسى عليه السلام بانكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل والثالثة وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ اي والحال كذا فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله وقد ايده بالمعجزات والبراهين الواضحة وحاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح ابدا قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مستانفة قال مجاهد لتلوينا وتصرفنا وقال السدي لتصدنا عن آلهتنا وفي هذا ما يدل على انهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن ابراز الحجة ولم يجدوا لما يجيبون به عما اورده عليهم بل لجأوا الى ما يلجأ اليه اهل الجهل والبلادة وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر وضموا الى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا انها ستذهب عنهم ان آمنوا وكم بقي على الباطل

وهو يعلم انه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ومنهم من حبسه عن الخروج الى السنة من البدعة والى الرواية الصحيحة من الرأي البحت قال ابو السعود استينا وبياني مسوق لبيان انه عليه السلام القمهم الحجر فانقطعوا واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذي هو داب كل عاجز محجوج وديدن كل عاند لدود انتهى واللفت والفتل اخوان وكلاهما من باب ضرب يقال لفته لفتا اذا صرفه عن الشيء ولواه عنه وفي السمين اللفت اللي والصرف يقال لفته عن رايه اذا صرفه ولواه عنه الى ذات اليمين او الشمال وقال الازهري لفت الشيء وفتله لواه وهذا من المقلوب قلت ولا يدعى فيه قلب حتى يرجح احد اللفظين في الاستعمال على الاخر ايه تريد ان تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه اباءنا وهو عبادة الاصنام وتكون لكما اي لموسى وهارون الكبرياء مصدر على وزن فعلياء ومعناها العظمة والملك والسلطان في الارض اي مصر وفيه خمسة اوجه جوزها ابو البقاء احدها ان يكون متعلقا بنفس الكبرياء الثاني ان يتعلق بنفس تكون الثالث ان يتعلق بالاستقرار في لكما لوقوعه خبرا الرابع ان يكون حالا من الكبرياء الخامس ان يكون حالا من الضمير في لكما لتحمله اياه قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه اكبر ما يطلب من امور الدنيا وقيل سمي بذلك لان الملك يتكبر والحاصل انهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بامرين التمسك بالتقليد للاباء والحرص على الرياسة الدنيوية لانهم اذا اجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد امر امته اليه ولم يبق للملك رياسة تامة لان التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ثم قالوا وما نحن لكما بمؤمنين تصريحا منهم بالتكذيب وقطعا للطمع في ايمانهم وقد افرد الخطاب لموسى في قولهم اجئتنا لتلفتنا ثم جمعه بينه وبين هارون في الخطابين الاخيرين ووجه ذلك انهم اسندوا المجيء والصرف عن طريق ابائهم الى موسى لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم وجمعوا بينهما في الضميرين الاخيرين لان الكبرياء شاملة لهما في زعمهم ولكون ترك الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهارون وقد مرت القصة في الاعراف وقال فرعون لما راى اليد البيضاء والعصا ائتوني بكل ساحر عليم لانه اعتقد انهما من السحر فامر قومه بان ياتوا بكل ساحر اراد ان يعارض معجزة موسى بانواع من التلبيس ليظهر ان ما اتى به موسى سحر وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف وقرئ السحار على صيغة المبالغة اي كثير السحر كثير العلم

بعملهم وانواعه فلما جاء السحرة في الكلام حذف اي فاتوا بهم اليه فلما جاء السحرة قال لهم
موسى بعد ان قالوا له اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين القوا ما انتم ملقون اي اطرحوا
على الارض ما معكم من حبالكم وعصيكم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين ان ما اتوا به فاسد
زاهق فلما القوا اي ما القوا من ذلك الحبال والعصي قال لهم موسى ما جئتم به ما موصولة مبتدأ او السحر خبره والمعنى انه
سحر لا انه اية من ايات الله كما سماه فرعون وقومه او هو من جنس السحر بزعمهم ان حاله بين لا يعبأ به كانه قال ما
جئتم به مما لا ينبغي ان يجاء به وقرئ السحر على الاستفهام فما استفهامية اي شيء جئتم به أهو السحر الذي تعرف
حاله كل احد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما اتيتم به سحر ودلالتهما
على المعنى الثاني في القرأة المشهورة اظهر واجاز الفراء وغيره نصب السحر بجئتم وما شرطية
والجزاء ان الله سيبطله على تقدير الفاء اي سيمحقه بالكلية ويهلكه فيصير باطلا بما يظهره على
يدي من الايات والمعجزة فلا يبقى له اثر والسين للتاكيد ان الله لا يصلح عمل المفسدين اي عمل اهل هذا الجنس
فيشمل كل من يصدق عليه انه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا اوليا والجملة تعليل لما قبلها او عملهم فيكون
من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم ويحق الله الحق
اي يبينه ويوضحه بكلماته التي انزلها في كتبه على انبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين او بوعده الصادق
لموسى انه يظهره او بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة او بامره واحكامه والاول
اولى ولو كره المجرمون من ال فرعون او المجرمون على العموم ويدخل تحتهم ال فرعون دخولا اوليا
والاجرام الاثام فما امن لموسى الا ذرية اسم يقع على القليل من القوم وقيل المراد به التصغير وقلة
العدد من قومه اي من قوم موسى وهم طائفة من ذراري بني اسرائيل وقيل المراد طائفة من ذراري
فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون قيل ومنهم مؤمن ال فرعون وامرأته وماشطة ابنته
وامرأة خازنه وقيل هم قوم اباؤهم من القبط وامهاتهم من بني اسرائيل روي هذا عن الفراء
كما يقال لاولاد فارس الذين نقلوا الى اليمن الابناء لان امهاتهم من غير جنس الاباء على اي مع خوف
من فرعون وملائهم الضمير لفرعون وجمع لانه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له وقيل ان قوم
فرعون سموا فرعون مثل ثمود فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار وقيل انه عائد على مضاف محذوف
اي على خوف من ال فرعون روي هذا عن الفراء ومنعه الخليل وسيبويه وروي عن الاخفش انه

الضمير يعود على الذرية وقوله النحاس ان يفتنهم اي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان
ينزله بهم وهو بدل اشتمال او مفعول للمصدر او مفعول له بعد حذف اللام والضمير عائد لفرعون
وافرد ولم يقل ان يفتنوهم اي فرعون والملأ لدلالته على ان الخوف من الملأ كان بسبب فرعون
وتجبره من حيث استعانتهم به وان فرعون لعال في الارض اي عات متكبر متغلب على ارض
مصر اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق وانه لمن المسرفين المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله
من القتل والصلب وتنويع العقوبات ولانه كان عبدا فادعى الربوبية وقال موسى تطمينا لقلوبهم
وازالة للخوف عنهم نسياهم قومه من حيث ايمانهم به والانهم من قوم فرعون او المراد به
بنو اسرائيل ومطلق من آمن به ولو من القبط ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين
قيل ان هذا من باب التكرير للشرط فشرط في التوكل على الله الايمان به والاسلام اي الاستسلام
لقضائه وقدره وبه قال الكرخي وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان
هو وجوب التوكل والمشروط بالاسلام حصوله ووجوده فانه لا يوجد مع التخليط والمعنى ان يسلموا انفسهم
لله اي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط قال الكازروني
المعنى ان كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل وان كنتم مسلمين توكلتم عليه فقالوا اي قوم موسى مجيبين له
على الله توكلنا اي اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا الله مخلصين فقالوا ربنا لا تجعلنا فتنة اي موضع
فتنة للقوم الظالمين والمعنى لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا قاله مجاهد او لا
تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم
قاله مجاهد ايضا وعلى المعنى الاول تكون الفتنة بمعنى المفتنون ولما قدموا التضرع الى الله سبحانه في
صون دينهم عن الفساد اتبعوه بسؤال عصمة انفسهم فقالوا ونجنا برحمتك من القوم الكافرين
اي من ايديهم وفي هذا دليل على انه كان لهم اهتمام بامر الدين فوق اهتمامهم بسلامة انفسهم
واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا قيل هي الاسكندرية وقيل هي مصر
المعروفة لا الاسكندرية ان هي المفسرة لان في الايحاء معنى القول اي اتخذا لقومكما يقال تبوأت زيدا
مكانا وبوأت لزيد مكانا والمبوأ المنزل الملزوم ومنه بوأه الله منزلا اي الزمه اياه واسكنه فيه
ومنه حديث من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار والتبوء النزول والرجوع واللام زائدة

اي بوئا قومكما وقيل غير زائدة واجعلوا بيوتكم قبلة اي متوجهة الى جهة القبلة قال قتادة ذلك حين منعهم فرعون الصلوة فامروا ان يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وان يوجهوها نحو القبلة وعن مجاهد قال كانوا لا يصلون الا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فامروا ان يصلوا في بيوتهم وعن ابن عباس نحوه وعلى هذا فالمراد بالبيوت هنا المساجد واليه ذهب جماعة من السلف وقيل التي يسكنون فيها امروا بأن يجعلوها مقابلة بعضها بعضا والمراد بالقبلة على القول الاول هي جهة بيت المقدس وهو قبلة اليهود الى اليوم وقيل جهة الكعبة وانها كانت قبلة موسى ومن معه قال ابو سنان ان آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها وقيل انهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرا لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلوة ومما يؤيد هذا قوله وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ اي التي امركم الله باقامتها فانه يفيد ان القبلة هي قبلة الصلوة اما في المساجد او في البيوت لا جعل البيوت متقابلة وقيل امر الله موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل بأن يصونهم عن شر الاعداء ذكره الخطيب وانما جعل الخطاب في اول الكلام مع موسى وهارون ثم جعله لهما ولقومهما في قوله واجعلوا واقيموا ثم افرد موسى بالخطاب بعد ذلك فقال وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ اي بالنصر والجنة لان اختيار المكان مفوض الى الانبياء ثم جعل عاما في استقبال القبلة واقامة الصلوة لان ذلك واجب على الجميع لا يختص بالانبياء ثم جعل خاصا بموسى لانه الاصل في الرسالة وهارون تابع له فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها وقيل ان الخطاب في وبشر المؤمنين لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض والاول اولى ولما بالغ موسى عليه السلام في اظهار المعجزات واقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تاثير فيمن ارسل اليهم دعى عليهم بعد ان بين سبب اصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد قال موسى مبينا للسبب وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا قد تقدم ان الملأ هم الاشراف والزينة اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك والمال ما زاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم كرر النداء للتاكيد فقال رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ قال الخليل وسيبويه انها لام العاقبة والصيرورة والمعنى انه لما كان عاقبة امرهم الضلال صار كانه سبحانه

اعطاهم ما اعطاهم من النعم ليضلوا وقيل انها لام كي قاله الفراء اي اعطيتهم لكي يضلوا و
قال قوم ان المعنى اعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا كما قال سبحانه يبين الله لكم ان تضلوا قال
النحاس ظاهر هذا الجواب حسن الا ان العرب لا تحذف لا الا مع ان فموه صاحب هذا التاويل
بالاستدلال بقوله تعالى المتقدم وقيل اللام للدعاء عليهم والمعنى ابتلهم بالهلاك عن سبيلك
قاله ابن الانباري واستدل بقوله سبحانه بعد هذا اطمس واشدد واليه ذهب الحسن البصري
وقيل انها لام العلة والمعنى انك اتيتهم ما اتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الاتيان لهذه العلة
وقد اطال صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته والقول الاول هو الاولى وقرئ
ليضلوا بضم الياء اي يوقعوا الاضلال على غيرهم وقرا الباقون بالفتح اي يضلون في انفسهم
ربنا اطمس على اموالهم اي امسخها وازل صورها قال الزجاج طمس الشيء اذهابه عن صورته وازالة
اثر الشيء بالمحو قال مجاهد اهلكها وقال اكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئاتها والمعنى الدعاء
عليهم بان يمحق الله اموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس وقد روي عن قتادة ان اموالهم
وحروثهم وزروعهم وجواهرهم ودراهمهم ودنانيرهم تحولت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا
وانصافا واثلاثا قيل ان عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فاخرج منها
البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة قال السدي مسخ الله اموالهم حجارة والنخل والثمار
والدقيق والاطعمة وقال القرظي صارت صورهم حجارة وفيه ضعف لان موسى دعا على اموالهم
ولم يدع على انفسهم بالمسخ وهذا الطمس هو احد الآيات التسع التي اوتيها موسى عليه السلام
واشدد على قلوبهم اي اربط عليها واجعلها قاسية مطبوعة حتى لا تقبل الحق ولا تنشرح للايات
ولا تلين قال الواحدي وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما تجاسر
موسى على هذا السؤال فلا يؤمنوا اي اتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا قاله المبرد والزجاج وقال
الفراء والكسائي وابو عبيدة هو دعاء بلفظ النهي والتقدير اللهم فلا يؤمنوا وقال الاخفش انه جواب
الامر اي اطمس واشدد فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم اي فلا يحصل منهم الايمان الا مع
المعاينة لما يعذبهم الله به وعند ذلك لا ينفع ايمانهم قال ابن عباس العذاب هو الغرق وقد
استشكل بعض اهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء وقال ان الرسل انما تطلب هداية

قومهم وايمانهم واجيب بانه لايجوز لنبي ان يدعو على قومه الا باذن الله سبحانه وانما ياذن الله بذلك لعلمه بانه ليس فيهم من يؤمن ولهذا لما اعلم الله نوحا عليه السلام بانه لن يؤمن من قومه الا من قد امن قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا قال الله تعالى قد اجيبت دعوتكما جعل الدعوة ههنا مضافة الى موسى وهارون وفيما تقدم اضافها الى موسى وحده فقيل ان هارون كان يؤمن على دعاء موسى فسمي ههنا داعيا وان كان الداعي موسى وحده ففي اول الكلام اضاف الدعاء الى موسى لكونه الداعي وههنا اضافه اليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعي ويجوز ان يكونا جميعا داعيين ولكن اضاف الدعاء الى موسى في اول الكلام لاصالته في الرسالة قال النحاس سمعت علي بن سليمان يقول الدليل على ان الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب وقرئ دعواتكما ودعواكما قال ابن عباس فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان ويزعمون ان فرعون مكث بعد هذه الدعوة اربعين سنة لحكمة يعلمها هو وعن ابن جريج ومجاهد نحوه فاستقيما اي امضيا لامري وداوما على الاستقامة قاله ابن عباس والاستقامة الثبات على ما هما عليه من الدعاء الى الله قال الفراء وغيره امرا بالاستقامة على امرهما والثبات عليه على دعاء فرعون وقومه الى الايمان الى ان ياتيهما تاويل الاجابة اربعين سنة ثم اهلكوا وقيل معنى الاستقامة ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضاء والتسليم لما يقضي الله به سبحانه ولا تتبعان قرئ بتشديد النون للتاكيد وتخفيفها على النفي لا على النهي او انه نفي في معنى النهي اي لا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون حكمة تاخير المطلوب نهاهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في اجراء الامور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتاجيلا وقيل انه خبر محض مستانف لا تعلق له بما قبله والمعنى انهما اخبرا بانهما لا يتبعان واما تشديد التاء وتخفيفها فلغتان من اتبع يتبع وتبع يتبع وهما بمعنى واحد يقال تبعه اي مشى خلفه واتبعه كذلك فلا انه حاذاه في المشي واتبعه لحقه قال الرازي وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى وهارون كما ان قوله لئن اشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه وجاوزنا ببني اسرائيل البحر هو من جاوز المكان اذا خلفه وتخطاه والباء للتعدية اي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط لان الله سبحانه جعل البحر يبسا فمروا فيه حتى خرجوا منه الى البر والمراد بحر القلزم

وهو عبر السويس وكانوا ستمائة الف قاله الخطيب في الخازن قال اهل التفسير اجتمع يعقوب
وبنوه على يوسف وهم اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر في الوقت المعلوم وهم
ستمائة الف وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه واذ فرقنا بكم البحر وقرأ الحسن
وجوزنا وهما لغتان وهو دليل على خلق الافعال فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ يقال تبع واتبع
بمعنى واحد اذا لحقه وقال الاصمعي يقال اتبعه بقطع الالف اذا لحقه وادركه واتبعه بوصل
الالف اذا اتبع اثره ادركه اولم يدركه وكذا قال ابو زيد وقال ابو عمرو اتبعه بالوصل اقتدى به
وفي المختار تبعه من باب طرب اذا مشى خلفه او مر به فمضى معه وكذا اتبعه وهو افتعل واتبعه
على افعل اذا كان قد سبقه فلحقه وقال الاخفش تبعه واتبعه بمعنى مثل ردفه وادرفه بَغْيًا
ظلما وَعَدْوًا اعتداء اي لاجلهما او باغين معتدين وقرأ الحسن عدوا بضم العين والدال وتشديد
الواو وقيل ان البغي الاستعلاء في القول بغير حق والعدو في الفعل قال عكرمة العدو والعتو والعلو
في كتاب الله التجبر حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ اي ناله ووصله والجملة غاية لاتباعه وذلك ان
موسى خرج ببني اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده
ففرق الله البحر لموسى وبني اسرائيل فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر وتبعهم فرعون والبحر
باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا
ان يخرجوا من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ اي صدقت ولم ينفعه هذا الايمان لانه وقع منه بعد
ادراك الغرق له كما تقدم في النساء ولم يقل اللعين آمنت بالله او برب العالمين بل قال ما تقدم
لانه بقي فيه عرق من دعوى الالهية وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اي المستسلمين لامر الله المنقادين له
الذين يوحدونه وينفون ما سواه فان قيل انه آمن ثلث مرات كما في هذه الآية فما السبب في
عدم القبول قيل انه آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عنده غير مقبول ويدل عليه
قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وان الايمان انما يتم بالاقرار بالتوحيد والنبوة
وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه وقيل غير ذلك ذكره الخطيب اخرج احمد والترمذي وحسنه
وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلعم

اغرق الله فرعون فقال آمنت الآية قال جبريل يا محمد لو رأيتني وانا اخذ من حال البحر فادسه
في فيه مخافة ان تدركه الرحمة والمعنى دس جبريل في فيه بامر الله فلا اعتراض عليه وقد
روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه وقال صحيح حسن غريب وصححه ايضا الحاكم عن ابن عباس
من طرق اخرى واسناده على شرط البخاري وليس في رواتها متهم وان كان فيهم من هو سيء الحفظ
فقد تابعه عليه غيره وقد اطال الخازن في جواب ما اعترض به الرازي واشكله في هذا الحديث
بما يطول ذكره واخرج الطبراني في الاوسط عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال لي جبريل
ما كان على الارض بغض الي من فرعون فلما آمن جعلت احشو فاه حمأة وانا اغطه خشية
ان تدركه الرحمة واخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه وابو الشيخ عن ابي امامة نحوه ايضا
وفي اسناد حديث ابي هريرة رجل مجهول وباقي رجاله ثقات والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن
الرواية من المفسرين ولا يكاد يميز بين اصح الصحيح من الحديث واكذب الكذب منه كيف يتجارى على الكلام
في احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والحكم ببطلان ما صح منها ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت
والقصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له ادنى ممارسة لفن الحديث فيا مسكين ما لك ولهذا
الشأن الذي لست فيه في شيء الا تستر نفسك وتربع على ضلعك وتعرف بانك بهذا العلم من اجهل
الجاهلين وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه وحاصلك الذي ليس لك غيره وهو علم اللغة وما
توابعه من العلوم الآلية ولقد صار صاحب الكشاف عفا الله عنه بسبب ما يتعرض له في تفسيره
من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين فتارة
يروي في كتابه الموضوعات وهو لا يدري انه منها وتارة يتعرض لرد ما صح ويجزم بانه من الكذب
على رسول الله صلى الله عليه وسلم والبهت عليه وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة
من الصحابة باسانيد كلها ائمة ثقات حجج اثبات وادنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في
علم لا يعلمه ولا يدريه به اقل دراية وان كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع
عليها طائفة من الناس ويصطلحون على امور فيما بينهم فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم
كتاب الله وقائله رسول الله صلى الله عليه وسلم وراويه عنه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم
وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام لجميع اهل الاسلام والثابت لي

فقيل له آلآن وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة فقيل هي من قول الله سبحانه وقيل من قول جبريل وقيل من قول ميكائيل وقيل من قول فرعون قال ذلك في نفسه لنفسه والمعنى انكار الايمان منه عند ان الجمه الغرق والمقصود التقريع والتوبيخ له قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل والايمان والتوبة عند اليأس لا يقبل وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ تاكيد لهذا المقصود والجملة حالية اي وقد ايست من نفسك ولم يبق لك اختيار والايمان في هذه الحالة لا يفيد يعني الآن تتوب وقد ضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ في الارض بضلالك عن الحق واضلالك لغيرك فَالْيَوْمَ نُنَجِّيْكَ اي نخرجك من البحر ونلقيك على الشط وذلك ان بني اسرائيل لم يصدقوا ان فرعون غرق وقالوا هو اعظم شانا من ذلك فالقاه الله على نجوة من الارض اي مكان مرتفع حتى شاهدوه احمر قصيرا كانه ثور ثم اعاده الى البحر ثانيا فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا ابدا قاله الخازن وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق وقرئ بالحاء المهملة من التنحية اي نطرحك على ناحية من الارض وقد اختلف المفسرون في معنى بِبَدَنِكَ فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه لا كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لطمعه والباء للمصاحبة وقيل معناه بدرعك والدرع تسمى بدنا وفي الابدان الدروع قاله ابو عبيدة ورجح الاخفش الاول وقرأ ابو حنيفة رح بابدانك وهو مثل قولهم هو باجرامه اي ببدنك كله وافيا باجزائه وقيل عريانا لا شيء عليه وقيل الباء سببية لان بدنه سبب في تنجيته لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ اٰيَةً هذا تعليل لتنجيته ببدنه وفي ذلك دليل على انه لم يظهر جسده دون قومه الا لهذه العلة لا سوى والمراد بالآية العلامة اي لتكون علامة يعرفون بها هلاكك وانك لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتا بالغرق وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله يعتبر بها الناس او يعتبر بها من سياتي من الامم اذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه فان هذا الذي بلغ الى ما بلغ اليه من دعوى الالهية واستمر على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة وقرئ لمن خلفك على صيغة الماضي اي لمن ياتي بعدك من القرون او من خلفك

في الرياسة او في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه وهذا آخر مقول جبريل عليه السلام
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة لَغَافِلُونَ
عما توجبه تلك الآيات وهذه الجملة تذييلية جيء بها عقب الحكاية تقرير الكلام المحكي وَلَقَدْ
بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التي انعمها عليهم
ومعنى بوأنا اسكنا يقال بوأت زيدا منزلا اسكنته فيه والمبوأ اسم مكان او مصدر واضافته
الى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب فانهم كانوا اذا مدحوا شيئا اضافوه الى الصدق
والمراد به هنا المنزل المحمود الصالح المختار المرضي قيل هو ارض مصر قاله الضحاك وقيل جميع ما كان تحت
ايدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره وقيل الاردن وفلسطين وقيل الشام
قاله قتادة وقيل بيت المقدس لانها بلاد الخصب والخير والبركة وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
اي المستلذات من الرزق فَمَا اخْتَلَفُوا في امر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة
واحدة غير مختلفة وقد روي في الحديث ان اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة
وان النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين
فرقة وهو في السنن والمسانيد والكلام فيه يطول وقد ذكرنا ذلك في كتابنا حجج الكرامة حَتَّى
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ اي لم يقع منهم هذا الاختلاف في الدين الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة
وعلمهم باحكامها وما اشتملت عليه من الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل العلم هو القرآن المنزل على
نبينا صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيه وفي صفته وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر قال ابن زيد
يعني كتاب الله الذي انزله وامره الذي امرهم به وانما سمي القرآن علما لانه سبب العلم فيكون المراد بالمختلفين
على القول الاول هم اليهود بعد ان انزلت عليهم التوراة وعلموا بها وعلى القول الثاني هم اليهود
المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من
امر الدين بانجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته و
المحق بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل فَإِن كُنتَ يا محمد فِي شَكٍّ هو في اصل اللغة ضم الشيء
بعضه الى بعض ومنه شك الجوهر في العقد والشاك كانه يضم الى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردد
ويتحير والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره كما ورد في القرآن في غير موضع وعن ابن عباس قال

ام يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وعن قتادة
قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا اشك ولا اسأل وهو مرسل مما اسيء في شك ناش مما
انزلنا اليك بان تشك فيه ومن للابتداء او انها بمعنى في من اول الامر قال القاضي عياض في
الشفا احذر ثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من اثبات شك النبي صلى الله
عليه وسلم فيما اوحي اليه فمثل هذا لا يجوز عليه انتهى وقال ثعلب والمبرد اي قل يا محمد للكافر فان
كنت في شك فاسئل الذين يقرؤن الكتب من قبلك يعني مسلمي اهل الكتاب كعبد الله بن
سلام وامثاله وقد كان عبدة الاوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بانهم اعلم منهم فامر
الله سبحانه نبيه ان يرشد الشاكين فيما انزله الله اليه من القرآن اي يسألوا اهل الكتاب الذين
قد اسلموا فانهم سيخبرونهم بانه كتاب الله حقا وان هذا رسوله وان التوراة شاهدة بذلك
ناطقة به فان ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة
الاحبار وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر قال الزجاج ان الله خاطب الرسول وهو شامل
للخلق وهذا وجه حسن ايضا لكن فيه بعد لان الرسول متى كان داخلا في هذا الخطاب كان الايراد
موجودا والاعتراض واردا وقيل ان في قوله فان للنفي اي ما انت في شك حتى تسأل وهذا ابعد
وقال القتيبي المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتصديقه
بل كان في شك وقيل المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لا غيره والمعنى لو كنت ممن يلحقه الشك
فيما اخبرناك به فسألت اهل الكتاب لازالوا عنك الشك وقيل الشك هو ضيق الصدر اي ان ضاق
صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل يخبرونك بصبر من قبلك من الانبياء على اذى قومهم وقيل
معنى الآية الفرض والتقدير كأنه قال له فان وقع لك الشك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه
تقديرا فاسأل فانهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ويعترفون بذلك لانهم يجدونه مكتوبا
عندهم وقد زال فيمن اسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم لقد اي قسم لقد جاءك الحق
من ربك وفي هذا بيان ما يقلع الشك من اصله ويذهب به بجملته وهو شهادة الله سبحانه
بان هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل
ولا تشوبه شبهة ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فقال فلا تكونن من الممترين فيما

أنزل الله عليك بل تستمر على ما أنت عليه من اليقين وانتفاء الشك فيمكن ان يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فان الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو ابلغ واوقع من النهي لهم انفسهم لانه اذا كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف بمن يمكن منه ذلك إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ قد تقدم مثله في هذه السورة والمعنى انه حق عليهم قضاء الله وقدره بانهم يصرون على الكفر ويموتون عليه لا يقع منهم الايمان بحال من الاحوال وان وقع منهم ما صورته صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم قال مجاهد حق عليهم سخط الله بما عصوه وقيل لعنة الله وقيل الكلمة هي قوله خلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ من الآيات التكوينية والتنزيلية فان ذلك لا ينفعهم لان الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فيقع منهم ما صورته صورة الايمان وليس بايمان ولا يترتب عليه شيء من احكامه فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا كما قال الاخفش والكسائي وغيرهما ويدل على ذلك ما في مصحف أبي وابن مسعود فهلا قرية وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ مع النفي فوبخ الله اهل القرى المهلكة قبل يونس على عدم ايمانهم قبل نزول العذاب بهم والمعنى فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي اهلكناها آمنت ايماناً معتداً به نافعاً وذلك بان يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ولم تؤخره كما اخره فرعون فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا في حال اليأس إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ استثناء منقطع من القرى لان المراد اهلها والمعنى لكن قوم يونس وقد قال بان هذا الاستثناء منقطع جماعة من الائمة منهم الكسائي والاخفش والفراء وقيل متصل والجملة في معنى النفي كانه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس قال ابن جرير خص قوم يونس من بين الامم بان تيب عليهم من بعد معاينة العذاب وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين وقال الزجاج انه لم يقع العذاب وانما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان وهذا اولى من قول ابن جرير لَمَّا آمَنُوا ايماناً معتداً به قبل معاينة

فيه ويختلفون ولكنه لم يشاء ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التي اراده‍ا الله سبحانه قال الاخفش جاء بقوله جميعا بعد كلهم للتاكيد كقوله لا تتخذوا الهين اثنين وقيل اتى به مع ان كلا منهما يفيد الاحاطة والشمول للدلالة على ان وجود الايمان منهم بصفة الاجتماع الذي لا يدل عليه كلهم ذكره الكرخي ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على ايمان جميع الناس اخبره الله بان ذلك لا يكون لان مشيته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك فقال أفانت تكره الناس استفهام تاديب للنبي صلى الله عليه وسلم اي اتكرههم بما لم يشاءه الله منهم حتى يكونوا مؤمنين فان ذلك ليس في وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذي لو كان لم يكن صلاحا محققا بل يكون الى الفساد اقرب ولله الحكمة البالغة وايلاء الاسم حرف الاستفهام للاعلام بان الاكراه ممكن مقدر عليه وانما الشان في المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه هو القادر على ان يخلق في قلوبهم ما يضطرون عنده الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله وما كان اي ما صح وما استقام لنفس من الانفس ان تؤمن الا باذن الله اي بتسهيله وتيسيره ومشيته لذلك فلا يقع غير ما يشاءه كائنا ما كان ويجعل الرجس بكسر الراء وضمها لغتان اي العذاب او السخط او الكفر او الخذلان الذي هو سبب العذاب هذا معطوف على محذوف كانه قيل فيأذن لبعضهم في الايمان ويجعل الخ والمضارع في المعطوف والمعطوف عليه بمعنى الماضي والمراد بقوله على الذين لا يعقلون هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الادلة قل انظروا بضم اللام وكسرها سبعيتان ماذا في السموات والارض لما بين سبحانه ان الايمان لا يحصل الا بمشية الله امر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والارضية والمراد بالنظر التفكر والاعتبار اي قل يا محمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فيهما من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته ثم ذكر سبحانه ان التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته فقال وما تغني اي ما تنفع على ان ما نافية وهذا هو الظاهر ويجوز ان تكون استفهامية اي اي شيء تغني الآيات هي التي عبر عنها بقوله ماذا في السموات والارض ففي الكلام اظهار في مقام الاضمار والجملة اما حالية او اعتراضية بنوع ايضاح والنذر جمع نذير وهو

الرسل او جمع انذار وهو المصدر عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ في علم الله سبحانه والمعنى ان من كان هكذا لايجدي فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ اي فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبه الامثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء كقوم نوح وعاد وثمود قاله قتادة فانهم بارتكاب موجباتها كمنتظريها فقد كان الانبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بايام مشتملة على انواع العذاب وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه والعرب تسمي العذاب اياما والنعم ايام كقوله تعالى وذكرهم بايام الله ثم قال قُلْ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك فَانتَظِرُوا اي تربصوا الوعد بكم إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ لوعد ربي وفي هذا تهديد شديد ووعيد بالغ بانه سينزل بهؤلاء ما نزل باولئك من الاهلاك ثُمَّ نُنَجِّي بالتشديد باتفاق العشرة رُسُلَنَا المرسلين اليهم معطوف على حكاية الاحوال الماضية ونجينا الَّذِينَ آمَنُوا التعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لامرها كَذَٰلِكَ صفة لمصدر محذوف اي انجاء مثل ذلك الانجاء وقوله حَقًّا عَلَيْنَا اعتراض اي حق ذلك علينا حقا اي وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم وفي حقا اوجه اربع ذكرها في الجمل نُنجِ بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان الْمُؤْمِنِينَ من عذابنا للكفار والمراد بالمؤمنين الجنس فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم اويكون خاصا بالمؤمنين وهم اتباع الرسل لان الرسل داخلون في ذلك بالاولى وقال السيوطي النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه حين تعذيب المشركين قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ امر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس او للكفار منهم او لاهل مكة على الخصوص بقوله إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي الذي انا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته وانه الدين الحق الذي لا دين غيره فاعلموا اني بريئ من اديانكم التي انتم عليها فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ في حال من الاحوال وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ اي اخصه بالعبادة لا اعبد غيره من معبوداتكم من الاصنام وغيرها وخص صفة التوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم اي اعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ولكونه يدل على الخلق اولا وعلى الاعادة ثانيا ولكونه اشد الاحوال مهابة في القلوب

ولكونه قد تقدم ذكر الاهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الامم السابقة فكانه قال اعبد الله الذي وعدني باهلاككم ولما ذكرانه لا يعبد الا الله بين انه مامور بالايمان فقال وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اي بان اكون من جنس من امن بالله واخلص له الدين وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ المعنى ان الله سبحانه امره بالاستقامة في الدين والثبات فيه وعدم التزلزل عنه بحال من الاحوال وخص الوجه لانه اشرف الاعضاء او امره باستقبال القبلة في الصلوة وعدم التحول عنها حَنِيفًا اي مائلا عن كل دين من الاديان الى دين الاسلام او مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين اخر ولما امره بما امره به اكد الامر المتقدم بالنهي عن ضده فقال وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عطف على اقم داخل تحت الامر وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ على حال من الاحوال مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ بشيء من النفع والضر ان دعوته ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا ولا يقدر على ضر ضائع لا يفعله عاقل على تقدير انه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره فكيف اذا كان موجودا فان العدول عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر اقبح واقبح فَإِنْ فَعَلْتَ اي فان دعوت ولكنه كنى عن القول بالفعل فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ هذا جزاء الشرطية فانك في عداد الظالمين لانفسهم والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم وجملة وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ مقررة لمضمون ما قبلها والمعنى ان الله سبحانه هو الضار النافع فان انزل بعبده ضرا لم يستطع احد ان يكشفه كائنا من كان بل هو المختص بكشفه كما اختص بانزاله وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ اي خير كان لم يستطع احد ان يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائنا من كان وهو من القلب واصله ان يرد بك الخير ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالاخر جاز ان يكون كل واحد منهما مكان الاخر قال النيسابوري وفي تخصيص الارادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على ان الخير يصدر عنه سبحانه بالذات والشر بالعرض قلت وفي هذا نظر فان المس هو امر وراء الارادة فهو مستلزم لها وقيل ان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول والمعنى متقارب فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ اي لا دافع لرزقه ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريدهم من الخير لا استحقاق لهم عليه ولم يستثن لان مراد الله تعالى لا يمكن رده وارادة الله قديمة لا تتغير بخلاف مس الضر فانه صفة فعل يُصِيبُ بِهِ اي بفضله او بكل واحد من الخير والضر مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وجملة

وهو الغفور الرحيم تذييلية عن عامر بن قيس قال ثلث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق اولهن ان يمسسك الله الاية والثانية ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له والثالثة وما من دابة في الارض الا على الله رزقها اخرجه البيهقي في الشعب واخرج ابو الشيخ عن الحسن نحوه ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره فقال قل يا ايها الناس لاجل ان تنقطع معذرتهم فهذه نهاية الامر قد جاءكم الحق من ربكم اي القران او الاسلام او محمد صلى الله عليه وسلم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه اي منفعة اهتدائه مختصة به ومن ضل فانما يضل عليها اي ضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه وليس لله حاجة في شيء من ذلك ولا غرض يعود اليه ومن في الموضعين يجوز ان تكون شرطية والفاء واجبة الدخول وان تكون موصولة والفاء جائزة وما انا عليكم بوكيل اي بحفيظ يحفظ اموركم وتوكل اليه انما انا بشير ونذير ثم امره الله سبحانه ان يتبع ما اوحاه من الاوامر والنواهي التي شرعها الله له ولامته فقال واتبع ما يوحى اليك ثم امره بالصبر على اذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من تلون اخلاق المشركين وتجرفهم فقال واصبر وجعل ذلك الصبر ممتدا الى غاية هي قوله حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين اي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الاخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وسلم هو وامته المتبعون له المؤمنون به العاملون بما يأمرهم به المنتهون عما ينهاهم عنه يتقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه ولا يوقف على ادنى مزاياه وقال مجاهد هذا منسوخ بامرهم بجهادهم والغلظة عليهم وبه قال ابن عباس قال السيوطي وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال واهل الكتاب بالجزية انتهى واشار بهذا الى قول مجاهد قاله الكرخي

سورة هود عليه السلام وهي مائة وثلث وعشرون اية

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومجاهد وابن زيد وقال ابن عباس وقتادة الا اية وهي قوله واقم الصلوة طرفي النهار واولا فلعلك تارك الاية واولئك يؤمنون به الاية وهذا قول مقاتل وعن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا هود يوم الجمعة اخرجه

الدارمي وابوداود والبيهقي وغيرهم وعن ابي بكر الصديق قال قلت يا رسول لقد اسرع
اليك الشيب فقال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت اخرجه
الطبراني والترمذي وحسنه وعن انس مرفوعا وهل اتاك حديث الغاشية رواه البزار
وقد روي بطرق عن جمع من الصحابة قال بعض العلماء سبب شيبه من هذه السور ما فيها
من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله اعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الر ان كان مسرودا على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له وان كان اسما للسورة
فهو في محل الرفع وما بعده خبره كتاب اي هذا كتاب ويدل على ذلك قوله في اية اخرى ذلك الكتاب
والاشارة اما الى بعض القران او الى مجموعه ومعنى أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ صارت محكمة متقنة
لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم المرصف وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التورية والانجيل
وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب وهو المحكم الذي لم ينسخ وقيل معناه
احكمت اياته بالامر والنهي والآيات المراد بها حقيقتها وهي الجمل من السور المنفصل بعضها عن بعض
اي نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه وقيل معنى احكامها ان لا فساد فيها
اخذا من قولهم احكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ثُمَّ فُصِّلَتْ بالوعد
والوعيد والثواب والعقاب وقيل احكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام وقيل
احكمت جملته ثم فصلت اياته وقيل جمعت في اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحي وقيل ايدت بالحجج
القاطعة الدالة على كونها من عند الله والتراخي المستفاد من ثم اما زماني ان فسر التفصيل بالتنجيم
على حسب المصالح واما رتبي ان يفسر بغيره مما تقدم واليه ذهب الزمخشري وقال هي محكمة احسن
الاحكام ثم مفصلة احسن التفصيل كما يقال فلان كريم الاصل ثم كريم الفعل مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
فيه طباق حسن اي لف ونشر مرتب لان المعنى احكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الامور
قيل صفة ثانية لكتاب او خبر ثان واليه نحا الزمخشري وقيل غير ذلك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
قال الكسائي والفراء التقدير احكمت بان وقال الزجاج احكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا وقيل تعليل
للفعلين قبله اي لاجل ان تتركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله فاخذ الترك من لا النافية والاثبات

من الاستثناء وقيل تقديره بهما ان لا تعبدوا وقيل ان مفسرة اي قال لا تعبدوا او امر كان
لا تعبدوا وهذا اظهر الاقوال لانه لا يحوج الى اضمار ولما ذكر شئون الكتاب ذكر ان من جاء به مرسل
من عند الله لتبليغ احكامه فقال اِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ اي ينذرهم ويخوفهم من
عذابه لمن عصاه ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن اطاعه والضمير في منه راجع الى الله سبحانه
اي كائن من جهة الله وهذا على ظاهره ليس بجيد لان الصفة لا تتقدم على الموصوف فكيف تجعل صفة
لنذير وكانه يريد انه صفة في الاصل لو تاخر ولكن لما تقدم صار حالا صرح به ابو البقاء فصار
كائنا من جهته وقيل يعود على الكتاب اي نذير لكم من مخالفته وبشير منه لمن آمن وعمل
صالحا وقدم الانذار لان التخويف اهم اذ يحصل به الانزجار وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله
ويحذركم الله نفسه وَاَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا اِلَيْهِ قدم الارشاد الى الاستغفار على التوبة
لكونه وسيلة اليها وقيل ان التوبة من متممات الاستغفار وقيل معنى استغفروا وتوبوا ومعنى توبوا
اخلصوا التوبة واستقيموا عليها وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها وقيل
استغفروا من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة قال الفراء ثم ههنا بمعنى الواو اي وتوبوا اليه لان
الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار فذكرهما للتاكيد وقيل انما قدم ذكر الاستغفار لان
المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب اليها وما كان آخرا في الحصول كان اولا في الطلب وقيل
استغفروا في الصغائر وتوبوا اليه في الكبائر ثم رتب على ما تقدم امرين الاول يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا
اصل الامتاع الاطالة ومنه امتع الله بك فمعنى الآية يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية
موسعة للرزق ورغد العيش وقيل هو الرضاء بالميسور والصبر على المقدور اِلٰى اَجَلٍ مُسَمًّى الى وقت
مقدر عند الله وهو الموت وقيل القيامة وقيل دخول الجنة والاول اولى والامر الثاني قوله وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ في الطاعة والعمل فَضْلَهُ اي جزاء فضله اما في الدنيا او في الآخرة او فيهما جميعا والضمير
راجع الى كل ذي فضل وقيل راجع الى الله سبحانه على معنى ان الله يعطي كل من فضلت حسناته فضله الذي
يتفضل به على عباده عن ابن مسعود قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له
عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها
في الدنيا اخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده

احسانا ره وقال ابو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة ثم
توعدهم على مخالفة الامر فقال وَإِنْ تَوَلَّوْا اي تعرضوا عن الاخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة ووصفه بالكبر لما فيه من الاهوال
وقيل اليوم الكبير يوم بدر وقيل صفة لعذاب فهو منصوب وانما خفض على الجوار ثم بين سبحانه
عذاب اليوم الكبير بقوله إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ اي رجوعكم اليه بالموت ثم البعث ثم الجزاء لا الى غيره
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ومن ذلك عذابكم على عدم الامتثال وهذه الجملة مقررة لما قبلها
ثم اخبر الله سبحانه بان هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ولا لانت له قلوبهم بل هم مصرون على
العناد مصممون على الكفر فقال مصدرا لهذا الاخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجيب من حالهم وانه امر ينبغي ان يتنبه له العقلاء ويفهموه
أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يقال ثنى صدره عن الشيء اذا ازور وانحرف عنه فيكون في الكلام كناية عن الاعراض لان من اعرض عن
الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وقيل معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة
النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الاشياء المستورة
فيكون في الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان داب المنافقين والوجه الثاني
اولى ويؤيده قوله لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ اي من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين او من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ثم كرر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
اي يستخفون في وقت استغشاء الثياب وهو التغطي بها وقد كانوا يقولون اذا اغلقنا ابوابنا و
استغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن يعلم بنا وقيل معناه يأوون
الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم وقيل انه حقيقة وذلك ان بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال البخاري
عن ابن عباس يغطون رؤسهم وروي عنه ايضا قال يعني به الشك في الله وعمل السيئات وكذا
روي عن مجاهد والحسن وغيرهما اي انهم كانوا يثنون صدورهم اذا قالوا شيئا او عملوه فيظنون انهم
يستخفون من الله بذلك فاعلمهم سبحانه انه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل
يعلم سرهم وعلانيتهم وعن عبد الله بن شداد قال كان المنافقون اذا مر احدهم بالنبي صلى الله عليه وسلم
ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت وعن الحسن قال في ظلمة الليل في اجواف بيوتهم وعن قتادة قال

كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله وجملة يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ مستانفة
لبيان بانه لا فائدة لهم في الاستخفاء لان الله سبحانه يعلم ما يسرونه في انفسهم او في ذات بينهم
وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سيان إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
تعليل لما قبله وتقرير له وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور وقيل هي القلوب
والمعنى انه عليم بجميع الضمائر او عليم بالقلوب واحوالها في الاسرار والاظهار فلا يخفى عليه شئ من ذلك
ثم اكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الاحسان فقال

وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ

هي كل حيوان يدب على وجه الارض وتطلق على كل ذي اربع من الحيوان على سبيل العرف
والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الادمي وغيره من جميع الحيوان وفي المصباح دب الصغير
يدب من باب ضرب اذا مشى ودب الجيش دبيبا ايضا سار ومن زائدة للتاكيد اي ما من
حيوان وغيره فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا اي الرزق الذي يحتاج اليه من الغذاء اللائق
بالحيوان على اختلاف انواعه تفضلا منه واحسانا وانما جئ به على طريق الوجوب كما تشعر به
كلمة على اعتبارا بسبق الوعد به منه وقيل ان على على بابها وانه عليه من باب الفضل لا
الوجوب لانه لا يجب عليه شئ والحاصل ان المراد بالوجوب وجوب اختيار لا وجوب الزام فهو
موكول الى مشيته ان شاء رزقها وان شاء لم يرزقها وقيل ان على بمعنى من اي من الله رزقها اي ما
يقوم به رمقها وتعيش به قال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا
ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له
من الرزق فكيف يغفل عن احواله واقواله وافعاله وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا اي محل استقرارها في الارض
او محل قرارها في الاصلاب وَمُسْتَوْدَعَهَا موضعها في الارحام وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها
وقال الفراء مستقرها حيث تأوي اليه ليلا او نهارا ومستودعها موضعها الذي تموت فيه وقد
مر تمام الاقوال في سورة الانعام ووجه تقديم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر واما
على القول الاول فلعل وجه ذلك ان المستقر انسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة والمعنى
وما من دابة الا يرزقها الله حيث كانت من اماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة وذلك

حيث تكون في رحم وغيره وفي البيضاوي اماكنها في الحيات وفي الممات او الاصلاب والارحام او مساكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة انتهى المواد كالمني والعلقة والمقار كالصلب والرحم وعن ابن مسعود قال مستقرها في الارحام ومستودعها حيث تموت ويؤيد هذا التفسير ما اخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا كان اجل احدكم بارض اتيحت له اليها حاجة حتى اذا بلغ اقصى اثره منها فيقبض فتقول الارض يوم القيامة هذا ما استودعتني ثم ختم الآية بقوله كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ اي كل مما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها في اللوح المحفوظ اي مثبت فيه قبل خلقها ثم اكد دلائل قدرته بالتعرض لذكر خلق السموات والارض وكيف كان الحال قبل خلقها فقال وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ والكلام على التوزيع فكان خلق السموات في يومين والارضين في يومين وما عليها من انواع الحيوان والنبات والاقوات والجمادات في يومين والمراد بالايام هنا الاوقات اي في ستة اوقات كما في قوله ومن يولهم يومئذ دبره وقيل مقدار ستة ايام وقيل المراد هنا الايام المعروفة وهي المقابلة لليالي اولها الاحد وآخرها الجمعة ولا يستقيم ذلك لانه لم تكن ح ارض ولا سماء وليس اليوم الا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الارض في الحمل وهذا مشكل جدا اذ لا يتعين الاحد ولا غيره من الايام الا عند وجودها بالفعل وفي تلك الحال لم يكن زمان قط فضلا عن تفصيله اياما فضلا عن تخصيص كل يوم باسم والجواب عن هذا الاشكال بان المراد مقدار ستة ايام لا يدفع هذا الاشكال انما يدفع الاشكال الآخر وهو انه لم يكن ثم زمان انتهى وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ اي فوقه قبل خلقهما وفيه بيان تقدم خلق العرش والماء على السموات والارضين والمعنى لم يكن بينهما حائل لا انه كان موضوعا على متن الماء قاله البيضاوي زاد الجمل بل هو في مكانه الذي هو فيه الآن وهو ما فوق السموات السبع والماء في المكان الذي هو فيه الآن وهو ما تحت الارضين السبع انتهى عن ابن عباس انه سئل على اي شيء كان الماء قال على متن الريح وعن ابي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله اين كان ربنا قبل ان يخلق خلقه قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء اخرجه الترمذي قال احمد يريد بالعماء انه ليس معه شيء قال البيهقي العماء ان كان ممدودا فمعناه سحاب رقيق والمعنى فوق سحاب مدبرا له وعاليا عليه

وان كان مقصورا ضعناه لا شيء ثابت لانه مما خفي عن الخلق لكونه غير شيء ونحوه قال جمع من اهل العلم قال الازهري فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته وقد وردت احاديث كثيرة في صفة العرش وفي كيفية خلق السموات والارض ليس هذا موضع ذكرها لِيَبْلُوَكُمْ اي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء اَيُّكُمْ اَحْسَنُ عَمَلًا فيما امر به ونهى عنه من غيره ويدخل في العمل الاعتقاد لانه من اعمال القلب وقيل المراد بالاحسن عملا الاتم عقلا وقيل الازهد في الدنيا وقيل الاكثر شكرا وقيل الاتقى لله وجاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لانه طريق اليه فهو ملابس له وَلَئِنْ قُلْتَ اللام موطئة للقسم فقد اجتمع في الكلام شرط وقسم والقاعدة ان يحذف جواب المتاخر ويذكر جواب المتقدم فقوله ليقولن جواب القسم وجواب الشرط محذوف وكذا في قوله ولئن اخرنا وقوله ولئن اذقنا وقوله ولئن اذقناه فالمواضع اربعة ولما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث اتبع ذلك بذكره والمعنى لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء اِنَّكُمْ مَبْعُوثُوْنَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ فيجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته قيل انكم بمعنى لعلكم على ان الرجاء باعتبار حال المخاطبين اي توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره لَيَقُوْلَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا من الناس اِنْ هٰذَآ الذي تقوله يا محمد اِلَّا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ اي كالسحر في باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه فالكلام من باب التشبيه البليغ ويجوز ان يكون الاشارة بهذا الى القران لانه المشتمل على الاخبار بالبعث وقرئ ساحر يعني النبي صلى الله عليه وسلم وَلَئِنْ اَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ اي الذي يستعجلونه استهزاء وهو ما تقدم ذكره في قوله عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده وقيل عذاب يوم بدر اِلٰٓى اُمَّةٍ مَّعْدُوْدَةٍ اي الى طائفة من الايام قليلة لان ما يحصره العد قليل والامة اشتقاقها من الام وهو القصد واراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب وقيل هي في الاصل الجماعة من الناس وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلوة العصر اي في ذلك الحين فالمراد على هذا الى حين تنقضي امة معدودة من الناس لَيَقُوْلُنَّ مَا يَحْبِسُهٗ اي اي شيء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب والسخرية فاجابهم الله بقوله اَلَا اداة استفتاح داخلة على ليس في المعنى يَوْمَ يَاْتِيْهِمْ اي العذاب لَيْسَ مَصْرُوْفًا اي محبوسا عَنْهُمْ

بل واقع بهم لا محالة وفي الجمل قال الشيخ وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم اظفر بتقديم خبر
ليس عليها ولا بتقديم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية وَحَاقَ اي احاط بِهِمْ مَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ اي العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ووضع هذا مكان يستعجلون لان
استعجالهم كان استهزاء منهم وعبر بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه فكانه قد حاق بهم
وَلَئِنْ اللام هي الموطئة للقسم أَذَقْنَا الْإِنسَانَ اي الجنس فيشمل المؤمن والكافر ويدل على ذلك
الاستثناء الآتي وقيل المراد به جنس الكفار ويؤيده ان اليأس والكفران والفرح والفخر هي اوصاف
اهل الكفر لا اهل الاسلام في الغالب وقيل المراد بالانسان الوليد بن المغيرة وقيل عبد الله بن
امية المخزومي مِنَّا رَحْمَةً اي نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن وسعة العيش
والرخاء ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ اي سلبناه اياها واخذناها قهرا عليه إِنَّهُ لَيَئُوسٌ اي آيس من الرحمة
شديد القنوط من عودها وامثالها لقلة صبره وعدم ثقته بالله كَفُورٌ عظيم الكفران وهو
الجحود لها قاله ابن الاعرابي وفي ايراد صيغتي المبالغة ما يدل على ان الانسان كثير اليأس وكثير الجحد
عند ان يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ولا يشكر ما قد سلف له منها وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ
نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ في التعبير بالذوق ما يدل على انه يكون منه ذلك عند سلب ادنى نعمة
ينعم الله بها عليه لان الاذاقة والذوق اقل ما يوجد به الطعم والنعماء انعام يظهر اثره على صاحبه
والضراء ظهور اثر الاضرار على من اصيب به والمعنى انه ان اذاق الله سبحانه العبد نعماء من الصحة
والسلامة والغنا بعد ان كان في ضر من فقر او مرض او خوف لم يقابل ذلك بما يليق به من
الشكر لله سبحانه لَيَقُولَنَّ اي بل يقول ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي اي المصائب التي ساءته من الضر
والفقر والخوف والمرض عنه وزال اثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ اي
الفرح بطرا واشرا الكثير الفخر على الناس بتعديد المناقب والتطاول عليهم بما يتفضل الله عليه به
من النعم والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس
مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالاذاقة فان كليهما لادنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة كما تقدم إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا فان عادتهم الصبر عند نزول المحن والشكر عند حصول المنن قال الاخفش هو
استثناء منقطع يعني ولكن الذين صبروا فانهم ليسوا كذلك وقيل متصل اذ المراد بالانسان

الجنس لا واحد بعينه قاله الفراء وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والنقمة اولئك اشارة الى
الموصولين باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات لهم مغفرة لذنوبهم وان جمت وأجر
يوجرون به على اعمالهم الحسنة كبير متناه في الكبر وهو الجنة ووصف الاجر به لما احتوى عليه
من النعيم السرمدي ورفع التكاليف والامن من عذاب الله والنظر الى وجهه الكريم واختياره على العظيم
لعله لرعاية الفواصل ثم سلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال فلعلك لعظم ما تراه منهم من
الكفر والتكذيب واقتراح الآيات التي يقترحونها عليك على حسب هواهم وتعنتهم تارك بعض ما
يوحى اليك مما انزله الله عليك وامرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه او يستثقلون العمل
به كسب آلهتهم وامرهم بالايمان بالله وحده وقيل هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام اي هل
انت تارك وقيل هو في معنى النفي مع الاستبعاد اي لا يكون منك ذلك بل تبلغهم جميع ما انزل
الله عليك احبوا ذلك ام كرهوا شاؤا ام ابوا وضائق به صدرك الضمير راجع الى ما او الى بعض
وعبر بضائق دون ضيق لان اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها
معنى اللزوم ان يقولوا اي كراهة او مخافة او لاجل ان او بان لا وقال ابو البقاء لان يقولوا لولا اي هلا
انزل عليه كنز اي مال مكنوز مخزون ينتفع به ويستغني به او جاء معه ملك يصدقه ويبين
لنا صحة رسالته ثم بين سبحانه ان حاله صلى الله عليه وسلم مقصور على النذارة فقال انما انت نذير
ليس عليك الا الانذار بما اوحي اليك وليس عليك حصول مطلوبهم وايجاد مقترحاتهم
والله على كل شيء وكيل يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب ان يفعل ومن جملة مقدوراته
انزال ما طلبوه ان اقتضت ذلك حكمته ومشيئته ام يقولون افتراه ام هي المنقطعة بمعنى
بل والهمزة اضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحي وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة
وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو اشد من ذلك وهو افتراؤهم عليه بانه افتراه والاستفهام للتقريع
والتوبيخ والضمير المستتر للنبي صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى ثم امره الله سبحانه ان يجيب عليهم بما يقطعهم
ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال قل فأتوا بعشر سور مثله اي مماثلة له في البلاغة وحسن
النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعنى ووصف السور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل امثاله لان المراد
مماثلة كل واحدة من السور او لقصد الايماء الى ان وجه الشبه ومداره المماثلة في شيء واحد وهو

البالغة في البلاغة الى حد الاعجاز وهذا انما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية والافراد
شرط وقيل لفظة مثل وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثنى والمجموع والمؤنث كقوله تعالى
أنؤمن لبشرين مثلنا وتجيء المطابقة قال تعالى وحور عين كأمثال اللؤلؤ وقال تعالى ثم لا يكونوا أمثالكم
والهاء في مثله تعود لما يوحى ثم وصف السور بصفة أخرى فقال مفتريات جمع مفتراة كمصطفيات
في مصطفاة فانقلبت الالف ياء كالتثنية قاله السمين اي مختلقات حيث قالوا له افتريت هذا
القرآن من عند نفسك وليس هو من عند الله فتحداهم وارخى لهم العنان وفاوضهم على مثل
دعواهم وقال مفتريات في مقابلة قولهم افتراه ولما تحداهم بهذا الكلام امره بان يقول لهم وادعوا
للاستظهار على المعارضة بالعشر السور من استطعتم دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا
النوع الانساني من دون الله اي ممن تعبدونه وتجعلونه شريكا لله سبحانه اي ادعوا من استطعتم
متجاوزين الله سبحانه ان كنتم صادقين فيما تزعمون من افترائي له فالم تكتب بغير نون كما في
خط المصحف وهذا في خصوص هذا الموضع يستجيبوا لكم اي فان لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم
به من الاتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير في لكم لرسول
الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للنبي صلى الله عليه وسلم وحده وجمع تعظيما وتفخيما فاعلموا امر لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للرسول وحده على التاويل الذي سلف قريبا ومعنى امرهم بالعلم امرهم
بالثبات عليه لانهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الاتيان بعشر سور مثله او المراد بالامر
بالعلم الامر بالازدياد منه الى حد لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة وهو علم اليقين والاول اولى انما
انزل متلبسا بعلم الله المختص به الذي لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الافهام لما
اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر وليس مفترى على الله وانما اداة حصر ويجوز في ما
ان تكون موصولة اسمية او حرفية تقديرية فاعلموا ان تنزيله او ان الذي انزله متلبس بعلم الله
وان لا اله الا هو اي واعلموا ان الله هو المنفرد بالالوهية لا شريك له ولا يقدر غيره على ما يقدر
عليه ثم ختم الآية بقوله فهل انتم مسلمون اي ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون اذا
تحقق عندكم اعجازه عن مجاهد قال الخطاب لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اي هل انتم مزدادون من الطاعة
لانه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الاتيان بمثل سور من هذا الكتاب طمانينة فوق ما كنتم عليه

وبصيرة نافذة ان كنتم مسلمين من قبل هذا فان النبوة عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة
به مطلوب منكم وقيل المعنى فان لم يستجيبوا لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الاتيان بعشر
سور من سائر الكفار ومن تعبدونهم وتزعمون انهم يضرون وينفعون فاعلموا ان هذا القرآن
الذي انزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز
الذي يتقاصرون قوة المخلوقين وانه انزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقول ولا تبلغه الافهام واعلموا
انه المنفرد بالالوهية لا شريك له فهل انتم بعد هذا مسلمون اي داخلون في الاسلام ومتبعون لاحكامه
مقتدون بشرائعه بعد قيام الحجة القاطعة وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى
الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر وهذا الوجه اقوى من الوجه الاول من جهة واضعف منه
من جهة فاما جهة قوته فلانتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تاويل واما
ضعفه فلما في ترتيب الامر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء والاحتياج
الى تكلف وهو ان يقال ان عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والالهة مع حرصهم على
نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم في عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر يفيد حصول العلم لهؤلاء
الكفار بان هذا القرآن من عند الله وان الله سبحانه هو الاله وحده لا شريك له وذلك يوجب دخولهم
في الاسلام واعلم انه قد اختلف التحدي للكفار بمعارضة القرآن فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله
لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله وبعشر سور كما في هذه
الآية وذلك لان العشرة اول عقد من العقود وبسورة منه كما تقدم في البقرة ويونس وذلك
لان السورة اقل طائفة منه ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب
غيرها ولا يريد سواها فقال مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا واختلف اهل التفسير في
هذه الآية فقال الضحاك نزلت في الكفار واهل الشرك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها
اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وقال انس نزلت في اليهود والنصارى وعن الحسن مثله
وقيل نزلت في المنافقين وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على
العموم اولى والمعنى ان من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافى بذلك وليس المراد مجرد الارادة والمراد
بزينتها ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن والسعة في الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول

وكثرة الاولاد والرياسة ونحو ذلك وادخال كاف في الاية يفيد انهم مستمرون على ارادة الدنيا باعمالهم
لا يكادون يريدون الاخرة ولهذا قيل انهم مع اعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الاخرة
لانهم جردوا قصدهم الى الدنيا ولم يعملوا للاخرة وظاهر قوله نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ان من
اراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي لا محالة ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك فليس كل
متمن ينال من الدنيا امنيته وان عمل لها واداها فلا بد من تقييد ذلك بمشية الله سبحانه على ابن
عباس قال يعني من عمل صالحا الناس للدنيا صوما او صلوة او تهجدا بالليل لا يعمله الا لذلك قال
القرطبي ذهب اكثر العلماء الى ان هذه الاية مطلقة وكذلك الاية التي في الشورى من كان يريد حرث
الدنيا نؤته منها كذلك ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وقيدتها وفسرتها التي في سبحان من كان يريد
العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ اي وهؤلاء المريدون باعمالهم
الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب اعمالهم لها وذلك في الغالب وليس
بمطرد بل ان قضت به مشيته سبحانه ورجحته حكمته البالغة وقال القاضي معنى الاية من
كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم وافية كاملة من غير بخس
في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات والمنافع فخص الجزاء بمثل ما
ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا وانما عبر عن عدم نقص اعمالهم بنفي
البخس الذي هو نقص الحق مع انه ليس لهم شائبة حق فيما اوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التي
هي اعطاء الحقوق مع ان اعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك بناء الامر على ظاهر الحال
ومبالغة في نفي النقص اي ان كان ذلك نقصا لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم
اصلا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ الاشارة الى المريدين المذكورين ولا بد من تقييد
هذا بانهم لم يريدوا الاخرة بشيء من الاعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الاخرة او تكون
الاية خاصة بالكفار كما تقدم وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا اي ظهر في الدار الاخرة حبوط ما صنعوه
من الاعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الاخروي لولا انهم افسدوها بفساد
مقاصدهم وعدم الخلوص وارادة ما عند الله في دار الجزاء بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها
ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اي انه كان عملهم في نفسه باطلا

غير معتد به لانه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح عن مجاهد قال هو اهل الرياء وهذا مشكل لان قوله اولئك الذين الاية لا يليق بحال المؤمن الا اذا قلنا ان تلك الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل له ما روي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما لغير الله او اراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار اخرجه الترمذي وفي الباب احاديث بمعناه والرياء هو الشرك الاصغر كما ورد في الحديث ثم بين سبحانه ان بين من كان طالبا للدنيا فقط ومن كان طالبا للاخرة تفاوتا عظيما وتباينا بعيدا فقال أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ برهان يدل على الحق مِنْ رَبِّهِ في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والايمان بالله كغيره ممن يريد الحيوة الدنيا وزينتها وقيل المراد به النبي صلى الله عليه وسلم اي افمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقران ومعه شاهد كجبريل وقد بشرت به الكتب السابقة كمن كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها والضمير في وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ راجع الى البينة باعتبار تاويلها بالبرهان اي يؤيده ويشدده ويقويه والضمير في مِنْهُ راجع الى القران لانه تقدم ذكره في قوله ام يقولون افتراه او راجع الى الله تعالى والمعنى ويتلو البرهان الذي هو البينة شاهد يشهد بصحته من القران او من الله سبحانه والشاهد هو الاعجاز الكائن في القران او المعجزات التي ظهرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك من الشواهد التابعة للقران وقال الفراء قال بعضهم ويتلوه شاهد منه الانجيل وان كان قبله فهو يتلو القران في التصديق والهاء في منه لله عز وجل وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه هم مؤمنو اهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه وعن علي بن ابي طالب قال ما من رجل من قريش الا نزل فيه طائفة من القران فقال له رجل ما نزل فيك قال اما تقرأ سورة هود افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بينة من ربه وانا شاهد منه اخرجه ابو نعيم وابن ابي حاتم وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و يتلوه شاهد منه علي اخرجه ابن عساكر وعنه وددت اني انا هو ولكنه لسان محمد وعن ابن عباس ان الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير وعلقمة وابراهيم ومجاهد والضحاك واكثر المفسرين وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي صلى الله و وجه ذلك ان اللسان لما كان يعرب عما في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لانه اية الفضل والبيان وبه يتلى القران وقال مجاهد

الشاهد هو ما يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم ويسدده والاول اولى ومن قبله كتاب موسى اي ويتلو الشاهد شاهد آخر وهو كتاب موسى فهو وان كان متقدما في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة وانما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا في الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق فكان اعرق في الوصفية من كتاب موسى ومعنى شهادة كتاب موسى وهو التوراة انه بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم واخبر بانه رسول من الله قال الزجاج والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى لان النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وقرئ كتاب موسى بالنصب اي يتلو كتاب موسى جبريل اماما ورحمة الامام هو الذي يؤتم به في امور الدين ويقتدى في الاحكام والشرائع والرحمة النعمة العظيمة التي انعم الله بها على من انزله عليهم وعلى من بعدهم الى يوم القيامة باعتبار ما اشتمل عليه من الاحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن اولئك اي المتصفون بتلك الصفة الفاضلة وهو الكون على البينة من الله يؤمنون به اي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم او بالقرآن ومن يكفر به اي بالنبي او بالقرآن من الاحزاب وهم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل مكة وغيرهم او المتحزبون من اهل الاديان كلها قال قتادة الكفار احزاب كلهم على الكفر فالنار موعده اي هو من اهل النار لامحالة وفي جعل النار موعدا اشعار بان فيها ما لا يحيط به الوصف من افانين العذاب عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي احد من هذه الامة لا يهودي ولا نصراني ثم مات ولم يؤمن بالذي ارسلت به الا كان من اصحاب النار اخرجه البغوي بسنده قال سعيد بن جبير ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث فقلت اين هذا في كتاب الله حتى اتيت على هذه الآية فلا تك في مرية منه اي في شك من كون القرآن نازلا من عند الله وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وسلم لانه معصوم عن الشك في القرآن او في شك من الموعد والمرية بالكسر والضم والاولى لغة الحجاز وبها قرأ جماهير الناس والثانية لغة اسد وتميم وبها قرأ السلمي وغيره انه الحق من ربك ولا مدخل للشك فيه بحال من الاحوال ولكن اكثر الناس لا يؤمنون بذلك مع وجوب الايمان به وظهور الدلائل الموجبة له ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا او قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون انه الحق اصلا ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اي لا احد اظلم منهم لانفسهم لانهم افتروا عليه سبحانه كذبا

بقولهم لاصنامهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقولهم الملائكة بنات الله واضافوا كلامه سبحانه
الى غيره واللفظ وان كان لا يقتضي الا نفي وجود من هو اظلم منهم كما يفيده الاستفهام الانكاري
فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم فالمعنى على هذا لا احد مثلهم في الظلم فضلا عن ان
يوجد من هو اظلم منهم وذكر لهم ههنا من اوصافهم اربعة عشر وصفا اولها افتراء الكذب
واخرها كونهم في الاخرة اخسر من غيرهم اُولٰئِكَ اي الموصوفون بالظلم المتبالغ يُعْرَضُونَ
عَلٰى رَبِّهِمْ يوم القيامة فيحاسبهم على اعمالهم والمراد بعرضهم عرض اعمالهم عرضا تظهر به
فضيحتهم وَيَقُوْلُ الْاَشْهَادُ جمع شهيد ورجحه ابو علي بكثرة ورود شهيد في القران كقوله
ويكون الرسول عليكم شهيدا فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا
وقيل هو جمع شاهد كاصحاب وصاحب قال مجاهد هم الملائكة الحفظة وقيل المرسلون قاله ابن
عباس وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما امرهم الله بابلاغه وقيل جميع الخلائق
قاله قتادة والمعنى انه يقول هؤلاء الاشهاد عند العرض هٰٓؤُلَآءِ المعروضون او المعروضة
اعمالهم الَّذِيْنَ كَذَبُوْا عَلٰى رَبِّهِمْ في الدنيا بما نسبوه اليه ولم يصرحوا بما كذبوا به كانه كان امرا معلوما
عند اهل ذلك الموقف اَلَا لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰلِمِيْنَ الذين ظلموا انفسهم بالافتراء هذا من تمام
كلام الاشهاد اي يقولون الا لعنة الله الخ ويجوز ان يكون من كلام الله سبحانه قاله بعد ما قال الاشهاد
وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يدني المؤمن حتى يضع
كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له اتعرف ذنب كذا اتعرف ذنب كذا فيقول
رب اعرف حتى اذا قرره بذنوبه وراى في نفسه انه قد هلك قال فاني سترتها عليك في الدنيا
وانا اغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته واما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد الى قوله الظالمين
والفائدة في قول الاشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار والتقريع لهم على رؤس الاشهاد
ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بانهم الَّذِيْنَ يَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اي يمنعون من
قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه وقال السدي عن محمد صدت قريش عنه الناس
وَيَبْغُوْنَهَا عِوَجًا اي يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها او يبغون اهلها ان يكونوا
معوجين بالخروج عنها الى الكفر يقال بغيتك شرا اي طلبته لك وقال ابو مالك يعني يرجون

ملة غير الاسلام دينا وهم اي والحال انهم بالآخرة هم كافرون اي غير مصدقين فكيف
يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به
حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة الى عظيم كفرهم أولئك الموصوفون بتلك الصفات
لم يكونوا معجزين في الأرض اي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا ان اراد عقوبتهم وقيل معناه
سابقين وقيل فائتين وقيل مفلتين انفسهم من اخذه لو اراد ذلك في الارض مع سعتها
وان هربوا فيها كل مهرب وما كان لهم من دون الله من أولياء يدفعون عنهم ما يريد الله
سبحانه من عقوبتهم وانزال بأسه بهم ومن زائدة يضاعف لهم العذاب في الآخرة مستأنفة
لبيان ان تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا بسبب صدهم عن
سبيل الله وانكارهم البعث بعد الموت ومعنى مضاعفته وقد نص الله على ان من جاء بالسيئة
لا يجزى الا مثلها مضاعفة عذاب الكفر بالتعذيب على ما فعلوا من المعاصي والتعامي عن آيات
الله ونحو ذلك من تضاعف كفرهم وبغيهم وصدهم عن سبيل الله قاله الشهاب وقال السيوطي
باضلالهم غيرهم وهذا غير خارج عن الآية المذكورة ما كانوا يستطيعون السمع اي لفرط
في اعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع للحق وهذا تعليل المضاعفة
العذاب وما كانوا يبصرون اي ولا يقدرون على الابصار لفرط تعاميهم عن الصواب ويجوز
ان يراد بقوله وما كان لهم من اولياء انهم جعلوا آلهتهم اولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك
فما كان هؤلاء الاولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا
ويدفعون عنهم ضرا والمعنى انه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر وقال
الفراء لا يستطيعون السمع لان الله اضلهم في اللوح المحفوظ وقال الزجاج لبغضهم النبي صلى الله
عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون ان يسمعوا منه ولا يفهموا عنه قال النحاس هذا معروف
في كلام العرب يقال فلان لا يستطيع ان ينظر الى فلان اذا كان ثقيلا عليه أولئك المتصفون
بتلك الصفات الذين خسروا أنفسهم بعبادة غير الله والمعنى اشتروا عبادة الآلهة بعبادة
الله فكان خسرانهم في تجارتهم اعظم خسران وضل اي ذهب وضاع عنهم ما
كانوا يفترون من الآلهة التي يدعون انها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم الا الخسران

لاجرم قال الخليل وسيبويه لاجرم بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة وبه قال الفراء وروى
عن الخليل والفراء انها بمنزلة قولك لابد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا وقال
الزجاج ان جرم بمعنى كسب وفاعله مضمر وان منصوبة بجرم قال الازهري وهذا احسن ما نقل في
هذه اللغة وقال الكسائي معنى لاجرم لاصد ولامنع وقالت جماعة من النحويين ان معنى لاجرم لاقطع
قالوا والجرم القطع وقد جرم النخل واجترمه اي قطعه ووردت هذه اللفظة في القرآن في خمسة
مواضع متلوة بان واسمها ولم يجئ بعدها فعل واختلف فيها فقيل لا نافية وقيل زائدة قاله
في الاتقان والاول مذهب سيبويه واليه ذهب الخليل والمعنى حق وثبت وفيه لغات بكسر الجيم
وبضمها ولاجر بحذف الميم ولا ان ذا جرم ولا ذو جرم ولا ذا جرم وغير ذلك أنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ
هُمُ الْأَخْسَرُونَ في هذه الآية بيان انهم قد بلغوا في الخسران الى حد يتقاصر عنه غيرهم
ولا يبلغ اليه وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا
وزينتها وبين من كان على بينة من ربه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اي صدقوا بكل ما يجب عليهم التصديق
به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اراد بها
جميع اعمال الجوارح وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ اي انابوا اليه وسكنوا وقيل خشعوا وقيل خضعوا وقيل
خافوا قاله ابن عباس وقيل اطمأنوا قاله مجاهد وهذا اشارة الى اعمال القلوب قيل واصل
الاخبات الاستواء في الخبت وهو الارض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان
قال الفراء الى بهم ولربهم واحد وقيل لفظ الاخبات يتعدى باللام والى فاذا قلت اخبت فلان
الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت له فمعناه خشع وخضع أُولَٰئِكَ الموصوفون بتلك
الصفات الصالحة أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا انقطاع لنعيمها ولا زوال لاهلها
مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق
الكافرين بالاعمى والاصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع على ان كل فريق شبه
بشيئين او شبه بمن جمع بين الشيئين فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم والمؤمن شبه
بمن جمع بين السمع والبصر وعلى هذا يكون الواو في والاصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا اي حالا وصفة أَفَلَا تَذَكَّرُونَ في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت

الظاهر لا يخفى على من له تذكر وعنده تفكر وتامل والهمزة للانكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين ولما اورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم انواع الدلائل التي هي اوضح من الشمس اكد ذلك بذكر القصص على طريقة الافتنان في الكلام ونقله من اسلوب الى اسلوب لتكون الموعظة اظهر والحجة ابين والقبول اتم فقال وَلَقَدْ الواو للابتداء واللام هي الموطئة للقسم أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ اي ارسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وقيل ان ذلك انى لكم واقتصر على النذارة دون البشارة لان دعوته كانت لمجرد الانذار ولكونهم لم يعملوا بما بشرهم به وفي هذه السورة ذكر انواع من القصص الاولى قصة نوح الثانية قصة هود الثالثة قصة صالح الرابعة قصة ابراهيم الخامسة قصة لوط السادسة قصة شعيب السابعة قصة موسى وهي اخر القصص أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ان مصدرية او مفسرة متعلقة بارسلنا او بنذير او بمبين ولا ناهية إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ تعليلية والمعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لاني اخاف عليكم وفيها تحقيق معنى الانذار واليوم هو يوم القيامة او يوم الطوفان ووصفه بالاليم من باب الاسناد المجازي مبالغة ثم ذكر ما اجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ الملأ الاشراف كما تقدم غير مرة ووصفهم بالكفر ذما لهم وفيه دليل على ان بعض اشراف قومه لم يكونوا كفرة مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا هذه الجهة الاولى من جهات طعنهم في نبوته اي نحن وانت مشتركون في البشرية فلم تكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا والجهة الثانية وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا اي ولم يتبعك احد من الاشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الاراذل لك والاراذل جمع ارذل بضم الذال وارذل جمع رذل بسكونها مثل اكالب واكلب وكلب فهو جمع الجمع وقيل الاراذل جمع ارذل كالاساود جمع اسود وهم السفلة كالحاكة والاساكفة والارذل الادون من كل شيء فقال النحاس الاراذل الفقراء والذين لا حسب لهم والحسب الصناعات قال الزجاج نسبوهم الى الحياكة ولم يعلموا ان الصناعات لا اثر لها في الديانة لان الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والمال والمناصب العلية بل الفقراء الخاملين وهم اتباع الرسل ولا تضرهم خسة صناعتهم اذا حسنت سيرتهم في الدين وهذه عادة الله في الانبياء والاولياء

ان اول من يتبعهم ضعفاء الناس لذيهم فلا يتكبرون عن الاتباع بمال ولا جاه وقال ثعلب
عن ابن الاعرابي السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه قيل له فمن سفلة السفلة قال الذي يصلح
دنيا غيره بفساد دينه والظاهر من كلام اهل اللغة ان السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية
والرؤية في الموضعين ان كانت القلبية فبشرا في الاول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني
وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال بَادِيَ الرَّأْيِ اي في ظاهر الرأي من غير تعمق
يقال بدا يبدو اذا ظهر قال الازهري معناه فيما يبدو لنا من الرأي وقيل اول الرأي قرئ
بالهمز وتركه وهما سبعيتان ونصبه على الظرف اي وقت حدوث اول رأيهم والوجه الثالث
من جهات قدحهم في نبوته وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بالمال والشرف والجاه والرأي
خاطبوه في الوجهين الاولين منفردا وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه تراضوا بها عن الثلاثة
المطاعن وانتقلوا الى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له الا مجرد العصبية والحسد و
استبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية فقالوا بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ فيما تدعونه ويجوز ان
يكون هذا خطابا للاراذل وحدهم والاول اولى لان الكلام مع نوح لا معهم الا بطريق التبعية
له ثم ذكر سبحانه ما اجاب به نوح عليه السلام عليهم اجمالا فقال قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ اي اخبروني
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ برهان مِّن رَّبِّي في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما
جعلتموه قادحا ليس بقادح في الحقيقة فان المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في
صفة النبوة واتباع الاراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم في البشرية والعقل
والفهم فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم ويجوز ان يريد بالبينة المعجزة وفي هذا الخطاب غاية التلطف
بهم وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ وهي النبوة وقيل الرحمة المعجزة والبينة النبوة قيل ويجوز ان يكون
الرحمة هي البينة نفسها والاولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة وقيل الرحمة هي على الحق
وقيل هي الهداية الى معرفة البرهان وقيل الايمان والافراد في فَعُمِّيَتْ على ارادة كل واحدة
منهما او على ارادة البينة لانها هي التي تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر ومعنى عميت خفيت
يقال عميت عن كذا وعمي علي كذا اذا لم افهمه قيل وهو من باب القلب لان البينة او الرحمة
لا تعمى وانما يعمى عنها فهو كقولهم ادخلت القلنسوة راسي وقيل ان عمى الدليل بمعنى خفائه

مجاز اً يقال حجة عمياء كما يقال مبصرة للواضحة وهو استعارة تبعية شبه خفاء الدليل
بالعمى في ان كلا يمنع الوصول الى المقاصد وقرئ فعميت على البناء للمفعول اي فعماها الله عليكم
وخفيت والبست عليكم فلم تهتدوا كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد وحقيقته
ان الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لان الاعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره والاستفهام
في أَنُلْزِمُكُمُوهَا للانكار اي لا يمكنني ان اضطركم الى المعرفة بها اي بالرحمة والمراد الزام الجبر بالقتل
ونحوه لا الزام الايجاب اذ هو حاصل ولذا فسره السيوطي بقوله انجبركم على قبولها وَأَنْتُمْ اي والحال
انكم لَهَا كَارِهُونَ اي منكرون ونافرون لها والمعنى اخبروني ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة
على صحة النبوة الا انها خافية عليكم ايمكننا ان نضطركم الى العلم بها والحال انكم لها كارهون
غير متدبرين فيها فان ذلك لا يقدر عليه الا الله عز وجل وعن قتادة قال اما والله لو
استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فيه التصريح منه عليه السلام بانه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى
يكون بذلك محلا للتهمة ويكون لقول الكافرين مجال بانه ادعى ما ادعى طلبا للدنيا والضمير
في عليه راجع الى ما قاله لهم فيما قبل هذا وقوله وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا كالجواب عما يفهم من
قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا من التلميح منهم الى ابعاد الاراذل عنه وقيل انهم
سالوه طردهم تصريحا لا تلميحا وهذا كما قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة الانعام ولا
تطرد الذين يدعون ربهم الاية ثم علل ذلك بقوله إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ اي لا اطردهم فانهم
ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على ايمانهم لانهم طلبوا بايمانهم ما عنده سبحانه
وكانه قال هذا على وجه الاعظام لهم ويحتمل انه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم
بسبب طرده لهم ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها
عن اجابته فقال وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ كلما ينبغي ان يعلم ومن ذلك استرذالهم
للذين اتبعوه وسوالهم له ان يطردهم ثم اكد عدم جواز طردهم بقوله وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي
مِنَ اللَّهِ اي من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إِنْ طَرَدْتُهُمْ فان طردهم بسبب سبقهم الى
الايمان والاجابة الى الدعوة التي ارسل الله رسوله لاجلها ظلم عظيم لا يقع من الانبياء المؤيدين

بالعصمة ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم
من سائر الناس أفلا تذكرون معطوف على مقدر كأنه قيل أتستمرون على ما أنتم عليه من
الجهل بما ذكر فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم
عليه من الخطأ وما هم عليه من الصواب وقيل تقديره أتأمروني بطردهم فلا تذكرون
وقيل الأصل فألا تذكرون وقيل أما فلا بمعنى هلا التحضيضية كما ذكره الكرخي وقيل أفهلا
وهذا الأوجه لصحتها كما قاله علي القاري بل هي تحريف إذ فيها الجمع بين الهمزة وهلا وليس فيه
تنبيه على الحذف ولا على التقديم والتأخير ولا أقول لكم عندي خزائن الله أعطيكم منها بين
لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة كذلك لا يدعي أن عنده خزائن
الله حتى تستدلوا بعدمها على كذبه كما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل والمراد بخزائن
الله خزائن رزقه وقال ابن الأنباري الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو
عن الخلق والأول أولى لقوله ولا أعلم الغيب أي ولا أدعي أني أعلم بغيب الله بل أقول لكم إلا
إني نذير مبين إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم وهذا رد لقولهم وما نراك اتبعك إلا الذين هم
أراذلنا بادي الرأي أي في ظاهر حالهم وأول فكرهم وفي الباطن لم يتبعوك فقال لهم إني إنما أعول
على الظاهر لأني لا أعلم الغيب فأحكم به ولا أقول لكم إني ملك حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا
فإن البشرية ليست من موانع النبوة من مباديها وقد استدل بهذا من قال إن الملائكة أفضل
من الأنبياء والأدلة في هذه المسئلة مختلفة وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة فليست هي
مما كلفنا الله بعلمه ولا أقول للذين أي في شأن الذين تزدري أعينكم أي تحتقر وتستصغر
والازدراء مأخوذ من أزرى عليه إذا عابه وزرى عليه إذا احتقره والمعنى إني لا أقول لهؤلاء
المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم لن يؤتيهم الله خيرا أي توفيقا وهداية
وإيمانا وأجرا بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في
الآخرة ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئا الله أعلم بما في أنفسهم
من الإيمان به والإخلاص له فمجازيهم على ذلك ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء إني إذا لمن الظالمين
لهم إن فعلت ما تريدونه بهم أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم توجا ونوه بغير

ما تقدم من كلامهم وكلامه قالوا عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة
وانقطاعا عن المباراة بقولهم يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا اي خاصمتنا بانواع
الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام ولم يبق لنا في هذا الباب مجال فقد ضاقت
علينا المسالك وانسدت ابواب الحيل فأتنا بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا منه وتخافه
علينا إن كنت من الصادقين فيما تقوله لنا فاجاب بان ذلك ليس اليه وانما هو بمشية
الله وارادته وقال إنما يأتيكم به الله إن شاء فان قضت مشيته وحكمته بتعجيله عجله لكم
وان قضت مشيته وحكمته بتاخيره اخره وما انتم بمعجزين بفائتين عما اراده الله بكم
بهرب او مدافعة ولا ينفعكم نصحي الذي ابذله لكم واستكثر منه قياما مني بحق النصيحة
لله بابلاغ رسالته ولكم بايضاح الحق وبيان بطلان ما انتم عليه إن اردت ان انصح
لكم وجواب هذا الشرط محذوف والتقدير لا ينفعكم نصحي كما يدل عليه ما قبله إن كان
الله يريد ان يغويكم اي اغواءكم فلا ينفعكم النصح مني وكان جواب هذا الشرط محذوفا
كالاول وتقديره ما ذكرنا وهذا التقدير انما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على
الشرط واما على مذهب من يجيزه فجزاء الشرط الاول ولا ينفعكم نصحي وجزاء الشرط الثاني
الجملة الشرطية الاولى وجزاؤها قال ابن جرير معنى يغويكم يهلككم بعذابه وظاهر لغة العرب
ان الاغواء الاضلال فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي ان كان الله يريد ان يضلكم عن سبيل الرشاد
ويخذلكم عن طريق الحق وحكي عن طي اصبح فلان غاويا اي مريضا وليس هذا المعنى هو المراد
في الآية وقد ورد الاغواء بمعنى الاهلاك ومنه فسوف يلقون غيا وهو غير ما في الآية هذه
هو ربكم فاليه الاغواء واليه الهداية واليه ترجعون فيجازيكم باعمالكم ان خيرا فخير وان شرا
فشر أم يقولون افتراه انكر سبحانه عليهم قولهم ان ما اوحي الى نوح مفترى ثم امره ان يجيب
بكلام منصف فقال قل إن افتريته فعلي إجرامي بكسر الهمزة مصدر اجرم اي فعل ما يوجب
الاثم وجرم واجرم بمعنى قاله النحاس اي اكتسب الذنب وافتعله والمعنى فعلي اثمي وجزاء كسبي
ومن قرأ بفتح الهمزة قال هو جمع جرم وذكره النحاس ايضا قال قتادة اجرامي اي عملي والاجرام
اكتساب السيئة واقترافها يقال جرم جرما اذنب والاسم منه الجرم بالضم والجريمة مثله

واجرم هو الفاشي في الاستعمال ويجوز جرم ثلاثيا والمعنى ان كنت افتريته فعلي عقاب جرمي
وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذفت هذه البقية لدلالة
الكلام عليها ولا يدل ذلك على انه كان شاكا لانه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول
وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ اي من اجرامكم بسبب ما تنسبون الي من الافتراء قيل وفي الكلام
حذف والتقدير لكن ما افتريته فالاجرام وعقابه ليس الا عليكم وانا بريء منه وقد اختلف
المفسرون في هذه الآية فقيل انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه وقيل هي حكاية عن المحاورة
الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة قاله مقاتل فعلى هذا تكون الآية معترضة
في قصة نوح والاول اولى لان الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ
أَنَّهُ في محل رفع على انه نائب الفاعل الذي لم يسم ويجوز ان يكون في محل نصب بتقدير الباء
اي بانه لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ وفي الكلام تأييس له من ايمانهم وانهم مستمرون
على كفرهم مصممون عليه لا يؤمن احد منهم الا من قد سبق ايمانه او المراد الا من استعد للايمان
وتوقع منه ولايراد ظاهره والا كان المعنى الا من آمن فانه يؤمن وقيل ان الاستثناء منقطع وهو
على طريقة قوله الا ما قد سلف قال قتادة وذلك حين دعا عليهم نوح قال لا تذر على الارض
من الكافرين ديارا وعن الحسن قال ان نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع
عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ البؤس الحزن اي فلا تحزن
عليهم قاله ابن عباس والبائس المستكين فنهاه الله سبحانه عن ان يحزن حزن مستكين لان
الابتئاس حزن في استكانة يقال ابتئس فلان اذا بلغه ما يكره والمبتئس الكاره الحزين ثم ان الله سبحانه
لما اخبره انهم لا يؤمنون البتة عرفه الله هلاكهم والهمه الامر الذي يكون به خلاصه وخلاص من
آمن معه فقال وَاصْنَعِ الْفُلْكَ الظاهر انه امر ايجاب لانه لا سبيل الى صون روح نفسه وارواح غيره
من الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس من الهلاك واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب اي
اعمل السفينة متلبسا بِأَعْيُنِنَا اي بمرأى منا وبابصارنا وهو مجاز عن كلاءة الله له بالحفظ
وعبر بالاعين عن ذلك لانها آلة الرؤية وهي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب وقيل
بعلمنا وجمع الاعين للتعظيم لا للتكثير وقيل معناها باعين ملائكتنا الذين جعلناهم

عيننا على حفظك وقيل بامرنا والحق ان العين صفة من صفاته لا ندري كيفيتها فنمرها على ظاهرها من دون تاويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تحديد ومعنى ووحينا بما اوحينا اليك من كيفية صنعتها وقال ابن عباس بعين الله ووحيه ولم يعلم كيف يصنع الفلك فاوحى الله اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر ولا تخاطبني في الذين ظلموا قيل هم امرأته وابنه اي لا تطلب امهالهم وترك اهلاكهم اي لا تراجعني ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم فقد حان وقت الانتقام منهم انهم مغرقون تعليل لما قبله اي فانهم محكوم منا عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل الى دفعه ولا تاخيره وقيل المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فانهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتاخر اغراقهم عنه ويصنع الفلك اواخذ وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين وقيل ثلاثين سنة فكان طولها ثلثمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا والذراع الى المنكب وكانت من خشب الساج لها ثلاث بطون واطباق سفلى ووسطى وعليا فكان بابها في عرضها وغير ذلك وقيل غير ذلك وكلما مر عليه ملأ اي جماعة من قومه سخروا منه كل ظرفية وما مصدرية ظرفية اي كل وقت مرور قوم استهزؤا به لعمله السفينة والجملة في محل نصب على الحال قال الاخفش والكسائي يقال سخرت به ومنه وفي وجه سخريتهم منه قولان احدهما انهم كانوا يرونه يعمل السفينة فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجارا وكان يصنعها في برية في ابعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة والثاني انهم لما شاهدوه يعمل السفينة وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وقالوا يا نوح ما تصنع بها قال امشي بها على الماء فتعجبوا من قوله وسخروا به ثم اجاب عليهم بقوله ان تسخروا منا وهذا الكلام مستانف على تقدير سؤال كانه قيل فماذا قال لهم فقيل قال والمعنى ان تسخروا منا بسبب عملنا السفينة اليوم فانا نسخر منكم غدا عند الغرق ومعنى السخرية هنا الاستجهال اي ان تستجهلونا فانا نستجهلكم وهذا على سبيل المشاكلة اذ السخرية لا تليق بمقام الانبياء وقيل انه مجازاتهم من جنس صنيعهم فلا يقبح كما تسخرون اي تستجهلون واستجهاله لهم باعتبار اظهاره لهم

ومشافهتهم الا فهم عنده جهال قبل هذا او بعده والتشبيه لمجرد التحقق والوقوع او التجدد والتكرر والمعنى انا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك او متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك وقيل معناه نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق وفيه نظر فان حالهم اذ ذاك لا تناسبه السخرية اذ هو في شغل شاغل عنها ثم هددهم بقوله فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ موصولة في محل نصب او استفهامية في محل رفع اي ايّنا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ اي يهينه وهو عذاب الغرق في الدنيا قاله ابن عباس والمراد بعذاب الخزي العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار وَيَحِلُّ التلاوة بكسر الحاء ويجوز لغة ضمها كما في المصباح اي ينزل عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ في الآخرة وهو عذاب النار الدائم والخلود فيها وقيل معنى يحل يحل الموجل حالا ماخوذ من حلول الدين الموجل واخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابو الشيخ والحاكم عن عايشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نوح مكث في قومه الف سنة الا خمسين عاما يدعوهم حتى كان اخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري قال سوف تعلمون فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت ام الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب الماء بها فلو رحم الله منهم احدا لرحم ام الصبي وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم وقد روي في صفة السفينة وقدرها احاديث وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله واصنع الفلك باعيننا وما بينهما اعتراض والمراد بالامر العذاب او وقته وهو واحد الامور لا الاوامر ويصح ان يراد الثاني على معنى جاء امرنا بركوب السفينة وَفَارَ التَّنُّورُ اي غلى واختلف في تفسير التنور على اقوال الاول انها وجه الارض والعرب تسمي وجه الارض تنورا واشرف موضع فيها روي ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة الثاني انه تنور الخبز الذي يخبزون فيه ابتدئ منه النبع على خلاف العادة وبه قال مجاهد وعطية والحسن

وهو قول اكثر المفسرين قيل وهذا اولى لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على
الحقيقة اولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه الثالث انه موضع اجتماع الماء
في السفينة روي هذا عن الحسن الرابع انه طلوع الفجر من قولهم تنور الفجر روي ذلك عن علي
بن ابي طالب الخامس انه مسجد الكوفة روي ذلك عن علي ايضا ومجاهد وقال مجاهد كان ناحية
التنور بالكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان الشعبي يحلف بالله انه ما فار الا من
ناحية الكوفة السادس انه اعالي الارض والمواضع المرتفعة قاله قتادة السابع انه العين التي
بالجزيرة المسماة عين الوردة وهي بالشام روي ذلك عن عكرمة وبه قال مقاتل الثامن انه
موضع بالهند قال ابن عباس كان تنور ادم بالهند وكانت حواء تخبز فيه وصار الى نوح قال النحاس
وهذه الاقوال ليست بمتناقضة لان الله سبحانه قد اخبر بان الماء قد جاء من السماء والارض
قال ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فهذه الاقوال تجتمع في ان ذلك كان
علامة هكذا قال وفيه نظر فان القول الرابع ينافي هذا الجمع ولا يستقيم عليه التفسير بنبع
الماء الا اذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره اخرا وقد ذكر اهل اللغة ان الفور الغليان يقال
فار الماء يفور فورا نبع وجرى وفارت القدر فورا من باب قال وفورانا غلت وعلى هذا لا تجوز
في الاية الا من حيث نسبة الفوران الى التنور وهو اسم اعجمي عربته العرب وعلى هذا فلا اشتقاق
له وقيل فارسي لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء في القران بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون
وقيل جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وانه مما اتفق عليه لغة العرب والعجم كالصابون ووزنه تفعول
ويعزى هذا لثعلب وقيل فعول ويعزى لابي علي الفارسي وقيل معنى فار التنور التمثيل لحضور
العذاب كقولهم حمي الوطيس اذا اشتد الحرب وعلى هذا فهو كناية عن اشتداد الامر وقيل كان
من حجر لحواء فصار الى نوح وقد روي في تفسير التنور غير هذا ذكر ابن جرير وغيره ان الطوفان كان
في ثالث عشر من ابيب في نهدة القيظ وكان الفوران علامة لنوح على مجيئه وركوب السفينة
قلنا يا نوح احمل فيها اي في السفينة من كل زوجين مما في الارض من الحيوانات اثنين ذكرا
وانثى وقرئ من كل بتنوين اي من كل شيء زوجين والزوجان للاثنين اللذين لا يستغني
احدهما عن الاخر ويطلق على كل واحد منهما زوج كما تقول للرجل زوج وللمرأة زوج وهو المراد

هنا اي من كل فردين متزاوجين اثنين بان تحمل من الطير ذكرا وانثى ومن الغنم ذكرا وانثى وهكذا وتترك الباقي والمراد من الحيوانات التي تنفع والتي تلد او تبيض ليخرج الحشرات والتي تتوالد من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض فلم يحمل منه شيئا ويطلق الزوج على الاثنين اذا استعمل متقابلا للفرد ويطلق الزوج على الضرب والصنف ومنه قوله تعالى وانبتت من كل زوج بهيج قال الرازي واما ما يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري او هوائي فكيف يفر من الغرق وايضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه انتهى واحمل اهلك والمراد امرأته المؤمنة وبنوه ونساؤهم الا من سبق عليه القول اي من تقدم الحكم عليه بانه من المغرقين في علمه او في قوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون على الاختلاف الشائع فيهم فمن جعلهم جميع الكفار من اهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احمل فيها واهلك ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته الكافرة واعلة ام كنعان جعل الاستثناء من اهلك ويكون متصلا ان اريد بالاهل ما هو اعم من المسلم والكافر منهم ومنقطعا ان اريد بالاهل المسلمون منهم فقط واحمل من آمن من قومك في السفينة وافرد الاهل منهم لمزيد العناية بهم او للاستثناء منهم على القول الآخر ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به فقال وما آمن معه الا قليل قيل هم ثمانية انسانا ثلاثة من بنيه وهم سام وحام ويافث وزوجاتهم ونوح وامرأته وبه قال قتادة وابن جرير ومحمد بن كعب القرظي فقيل كانوا ثمانين رجلا احدهم جرهم قاله ابن عباس ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين وهي موجودة بناحية الموصل وقيل كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه وستة نفر آمنوا بنوح وازواجهم جميعا وقيل سبعة نوح وبنوه وثلاث كنائن له قاله الاعمش وقيل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة قاله مقاتل وقيل غير ذلك قال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال عز وجل وما آمن معه الا قليل ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا سنة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اركبوا فيها القائل نوح وقيل الله سبحانه

والاول اولى لقوله ان ربي لغفور رحيم والركوب العلو على ظهر الشيء المتحرك حقيقة نحو ركب
الدابة او مجازا نحو ركبه الدين وفي الكلام حذف اي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد ان
ركب يتعدى بنفسه وقيل ان الفائدة في زيادة في انه امرهم بان يكونوا في جوف السفينة
لا على ظهرها وقيل بل انها زيدت لرعاية جانب المحلية والمكانية في السفينة كما في قوله فاذا
ركبوا في الفلك وقوله حتى اذا ركبا في السفينة قيل ولعل نوحا قال هذه المقالة بعد ادخال
ما امر بحمله في الفلك من الازواج كانه قيل فحمل الازواج وادخلها في الفلك وقال للمؤمنين
اركبوا فيها ويمكن ان يقال انه امر بالركوب كل من امر بحمله من الازواج والاهل والمؤمنين ولا
يمتنع ان يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات او يكون هذا على طريقة التغليب وقد روي
في صفة القصة وما حمله نوح في السفينة وكيف كان الغرق وكم بقيت السفينة على ظهر الماء
روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه بِسْمِ اللَّهِ متعلق باركبوا وحال من
فاعله اي اركبوا مسمين الله او قائلين بسم الله مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا بضم الميم فيهما من اجريت
وارسيت على انهما اسما زمان وهما في موضع نصب على الظرفية اي وقت اجرائها و
ارسائها او مكانهما على ان المجرى والمرسى للوقت او المكان او المصدر والمضاف محذوف
كقولهم اتيتك خفوق النجم وقرئ الاول بفتح الميم والثاني بضمها وهاتان القراءتان سبعيتان و
قرئ بفتحهما فيهما من جرى ورسى وهذه شاذة وقرئ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا بلفظ اسم الفاعل
مجروري المحل على انهما وصفان لله ويجوز ان يكونا في موضع رفع باضمار مبتدأ اي هو مجريها
ومرسيها والرسو الثبات والاستقرار قال مجاهد في الآية اي حين تركبون وتجرون وترسون و
عن الضحاك قال كان اذا اراد ان ترسي قال بسم الله فرست واذا اراد ان تجري قال بسم الله فجرت
إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ للذنوب رَحِيمٌ بعباده ومن رحمته انجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء
هذا الجنس الحيواني وعدم استيصاله بالغرق اخرج ابو يعلى والطبراني وابن السني وغيرهم عن
الحسين بن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم امان لامتي من الغرق اذا ركبوا الفلك ان يقولوا بسم الله
الملك الرحمن بسم الله مجريها الآية وما قدروا الله حق قدره الآية وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ اي فركبوا
مسمين والسفينة تجري والجملة مستانفة او حالية ولذلك فسره الزمخشري بقوله اي تجري وهم فيها

في موج جمع موجة وهي ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح واضطرابه في خلاله
كالجبال شبهها بالجبال المرتفعة على الارض اي كل موجة منه كالجبل في تراكمها وارتفاعها
وعظمها قال اهل السير ارتفع الماء على اعلى جبل واطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى
اغرق كل شيء وعم العباد وشمل كل البلاد ونادى نوح ابنه هو كنعان وقيل يام وكان كافرا
واستبعد كون نوح ينادي من كان كافرا مع قوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا واجيب
بانه كان منافقا فظن نوح انه مؤمن وقيل حملته شفقة الابوة على ذلك وكان من صلبه على
المعتمد وقال ابن عباس هو ابنه غير انه خالفه في النية والعمل وقيل انه كان ابن امرأته ولم
يكن ابنه ويؤيده ما روي ان عليا قرأ ونادى نوح ابنها وقيل انه كان لغير رشده وولد
على فراش نوح ورد بان قوله هذا وقوله ان ابني من اهلي يدفع ذلك مع ما فيه من عدم صيانة
منصب النبوة فان جناب الانبياء ارفع من ان يشار اليه باصبع الطعن وكان في معزل اي
في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح اركبوا فيها وقيل في
معزل من دين الله وقيل من السفينة قيل وكان هذا النداء قبل ان يستيقن الناس الغرق
بل كان في اول فور التنور قبل سير السفينة يا بني اصله بثلاث ياآت ياء التصغير ولام الكلمة
وياء المتكلم اركب معنا في السفينة اي اسلم واركب قال ملا علي الجيلاني الظاهر ان معنى الاية
اسلم لتستحق الركوب معنا ولا تكن مع الكافرين في البعد عنا فتهلك معهم نهاه عن الكون معهم
خارج السفينة ويمكن ان يراد بالكون معهم الكون على دينهم في الكفر ثم حكى الله سبحانه ما اجاب به
ابن نوح على ابيه فقال قال سآوي اي سالتجي واصير الى جبل يعصمني اي يمنعني بارتفاعه وعلوه
من وصول الماء الي قال اي فاجاب عنه نوح بقوله لا عاصم اي لا مانع اليوم من امر الله فانه
يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم
من الغرق في ذلك اليوم اندراجا اوليا وعبر عن الماء او عن الغرق بامر الله سبحانه تفخيما
لشانه وتهويلا لامره الا من رحم وقرئ على البناء للمفعول والاستثناء منقطع قاله الزجاج اي
لكن من رحمه فهو يعصمه واستظهره السفاقسي ومتصل على ان يكون عاصم بمعنى معصوم اي
لا معصوم اليوم من امر الله الا من رحمه الله مثل ماء دافق وعيشة راضية واختار هذا الوجه ابن جرير

والزمخشري وتبعه القاضي وقيل العاصم بمعنى ذي العصمة كلابن وتامر والتقدير لا عاصم قط
الا مكان من رحم الله وهو السفينة ونوح فلا يرد ما يقال ان معنى من رحم من رحمه الله ومن رحمه الله
فهو معصوم فكيف يصح استثناءه عن العاصم لان في كل وجه من هذه الوجوه دفعا للاشكال
وذكر صاحب الانصاف ان الاحتمالات الممكنة هنا اربعة لا عاصم الا راحم لا معصوم الا
مرحوم لا عاصم الا مرحوم لا معصوم الا راحم فالاولان استثناء من الجنس والاخران استثناء
من غير الجنس فيكون منقطعا اي لكن المرحوم يعصم على الاول ولكن الراحم يعصم من اراد على
الثاني وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ اي حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق وقيل بين
ابن نوح وبين الجبل والاول اولى لان تفرع فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ عليه يدل على الاول لا على الثاني
لان الجبل ليس بعاصم قال عكرمة لا ناجي الا اهل السفينة والمعنى فصار او فكان كنعان من المغرقين
في علم الله بالفعل والمهلكين بالماء وَقِيلَ اي بعد ما تناهى الطوفان واغرق الله قوم نوح والقيل
في هذين الموضعين عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي بزوال الماء وبهلاكهم كما قيل في قوله تعالى ان
يقول له كن فيكون يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ يقال بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد يحمد
لغتان حكاهما الكسائي والفراء والبلع الشرب وتغوير الماء ومنه البالوعة وهي الموضع الذي
يشرب الماء والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعام اذا ازدرده واستعير البلع الذي
هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج
وقال عكرمة ابلعي هو بالحبشية ازدرديه وعن ابن منبه نحوه وعن جعفر بن محمد عن ابيه
قال معناه اشربي بلغة الهند وعن ابن عباس مثله اقول وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في
لغة العرب ظاهر مكشوف فما لنا وللحبشة والهند والمعنى انشفي وتشربي وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي
الاقلاع الامساك يقال اقلع المطر اذا انقطع واقلع عن الشيء اذا تركه وهو قريب من الاول والمعنى
امر السماء بامساك الماء عن الارسال قيل ميز الله بين المائين فما كان من ماء الارض امرها
فبلعته وصار ماء السماء بحارا وخوطبت الارض اولا بالبلع لان الماء نبع منها اولا قبل ان تمطر السماء
وَغِيضَ الْمَاءُ اي نقص ونضب يقال غاض الماء وغضته انا وهو لازم ومتعد فمن اللازم
قوله تعالى وما تغيض الارحام اي تنقص وقيل بل هو هنا متعد ايضا وسيأتي من المتعدي هذا

الآية لانه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف الجر الا المتعدي بنفسه وقضي الامر اي احكم
وفرغ منه يعني اهلاك الله قوم نوح على تمام واحكام وانجز ما كان وعد قاله القرطبي واستوت
على الجودي اي استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي في العاشر من محرم وهو
جبل بقرب الموصل وقيل ان الجودي اسم لكل جبل وقيل هو بالشام وقيل بآمل وفي الحديث
لقد بقي منها شيئ ادركه اوائل هذه الامة ويقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه بعد
ان طافت الارض كلها ستة اشهر وقيل بعدا للقوم الظالمين القائل هو الله سبحانه ليناسب
صدر الآية وقيل هو نوح واصحابه والمعنى وقيل هلاكا لهم وهو من الكلمات التي تختص بدعاء السوء
ووصفهم بالظلم للاشعار بانه علة الهلاك وللايماء الى قوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا
قال عبد الرحمن بن خلدون اتفقوا على ان الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب
بعمران الارض اجمع بما كان من خراب المعمور وهلاك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا
فصار اهل الارض كلهم من نسله وصار ابا ثانيا للخليقة انتهى وقال ابن الاثير في الكامل
واما المجوس فلا يعرفون الطوفان وكان بعضهم يقربه ويزعم انه كان في اقليم بابل وما قرب منه
وان مساكن ولد جيومرت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك اليهم وكذلك جميع الامم المشرقية من
الهند والفرس والصين لا يعترفون بالطوفان وبعض الفرس يعترف به ويقول لم يكن عاما
ولم يتعد عقبة حلوان والصحيح ان جميع اهل الارض من ولد نوح عليه السلام لقوله تعالى
وجعلنا ذريته هم الباقين فجميع الناس من ولد سام وحام ويافث اولاد نوح انتهى وقال المقريزي
في الخطط ان جميع اهل الشرائع اتباع الانبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد اجمعوا على
ان نوحا هو الاب الثاني للبشر وان العقب من ادم عليه السلام انحصر فيه ومنه ذرأ الله جميع
اولاد ادم فليس احد من بني ادم الا وهو من اولاد نوح وخالفت القبط والمجوس واهل الهند
والصين ذلك فانكروا الطوفان وزعم بعضهم ان الطوفان انما حدث في اقليم بابل وما وراءه
من البلاد الغربية فقط وان اولاد كيومرت الذي هو عندهم الانسان الاول كانوا بالبلاد
الشرقية من بابل فلم يصل الطوفان اليهم ولا الى الهند والصين والحق ما عليه اهل الشرائع
وان نوحا عليه السلام لما انجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم وهم ثمانون رجلا سوى اولاده

فما توا بعد ذلك ولم يعقبوا وصار العقب من نوح في اولاده الثلاثة ويؤيد هذا قول الله تعالى
عن نوح وجعلنا ذريته هم الباقين انتهى وقد اطبق علماء البلاغة على ان هذه الآية الشريفة
بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقاربه
قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الاقدام في علم البيان الراسخين في اللغة المطلعين
على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب واشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق
علوم العربية واسرارها وقد تعرض لبيان ما اشتملت عليه من ذلك جماعة فاطالوا واطابوا
رحمنا الله واياهم برحمته الواسعة منهم ابو حيان محمد بن يوسف الامام الاندلسي في تفسيره
المسمى بالنهر الماد من البحر المحيط ذكر فيه احدا وعشرين نوعا من البديع وكذا السيد محمد بن اسمعيل
بن صلاح الامير في رسالته المسماة بالنهر المورود في تفسير آية هود وهو المناسبة والمطابقة
والمجاز والاستعارة والاشارة والتمثيل والارداف والتعليل وصحة التقسيم والاحتراس و
الايضاح والمساواة وحسن النسق والايجاز والتسهيم والتهذيب وحسن البيان والتمكين
والتجنيس والمقابلة والذم والوصف وبسط في بيان هذه الانواع اتم بسط وقال هذا كله نظرا في
الآية من جانب البلاغة واما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم المعاني
لطيف سديد وتادية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يتشبث الطرف
على المرتاد بل الفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق الفاظها واما النظر فيها من جانب
الفصاحة اللفظية فالفاظها على ما ترى عربية اصلية مستعملة جارية على قانون اللغة سليمة
عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات كل منها كالماء في السلاسة
وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة انتهى قلت النظر في هذه الآية من اربع جهات الاول من جهة علم البيان
وهو النظر فيما فيها من المجاز وغيره كما تقدمت الاشارة اليه والثاني من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة
كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتاخير فيما بين جملها والثالث والرابع من جهة الفصاحة المعنوية
واللفظية كما تقدم وقد ذكر طرفا من هذه الجهات الاربع النسفي في المدارك ثم قال ومن ثم اطبق
المعاندون على ان طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية ولله در شان التنزيل لا يتامل العالم
آية من آياته الا ادرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك اكثر

من المسطور انتهى وقال ابو السعود ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها
وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفسيرها المهرة المتقنون ولعمري ان ذلك فوق
ما يصفه الواصفون فحري بنا ان نوجز الكلام في هذا الباب ونفوض الامر الى تامل اولى
الالباب والله عنده علم الكتاب في الجمل قال بعضهم هذه الآية ابلغ اية في القرآن وقد احتوت
من انواع البديع على احد وعشرين نوعا فيها تسعة عشرة كلمة انتهى ولولا مخافة الاطناب
لاسمعناك من عندنا ما ترقص لسماعه الالباب وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ اي دعاه والظاهر ان هذا
النداء كان قبل سيرها لانه سوال في نجاة ابنه ولا معنى للسوال الا عند امكان النجاة والمراد
انه اراد دعاءه بدليل الفاء في قوله فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وعطف الشيء على نفسه
غير سائغ فلا بد من التقدير المذكور قاله الزمخشري وقيل عطف تفسيرا وتفصيل اذ القول
المذكور هو عين النداء فهو مرتبط في المعنى بقوله ونادى نوح ابنه والمعنى انه من الاهل الذين حكمت
بتنجيتهم بقولك واهلك فان قيل كيف طلب نوح عليه السلام انجاز ما وعده الله بقوله
واهلك وهو المستثنى منه وترك ما يفيده الاستثناء وهو الا من سبق عليه القول فيجاب بانه
لم يعلم اذ ذاك انه ممن سبق عليه القول فانه كان يظنه من المؤمنين وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
الصدق الذي لا خلف فيه وهذا منه وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ اي اتقن المتقنين لما يكون به
الحكم فلا يتطرق الى حكمك نقض وقيل اراد به اعلمهم واعدلهم اي انت اكثر علما وعدلا من
ذوي الحكم وقيل ان الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع ثم اجاب الله سبحانه عن نوح ببيان
ان ابنه غير داخل في عموم الاهل وانه خارج بقيد الاستثناء قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ يعني هذا الابن
الذي سألتني نجاته لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الذين امنوا بك وتابعوك ومن اهل دينك وان كان من
اهلك باعتبار القرابة قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين انه ابن نوح من
صلبه وهو الصحيح وعن ابن عباس قال ما بغت امرأة نبي قط وان الله نص عليه بقوله ونادى
نوح ابنه ونوح ايضا نص عليه بقوله يا بني ولا يجوز صرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير
ضرورة وقيل المعنى انه ليس من الذين وعدتك ان انجيهم معك وانما خالف هذا الظاهر من
خالف لانه استبعد ان يكون ولد نبي كافرا وهذا خطأ ممن قاله لان الله يخرج الكافر من المؤمن

والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه قد اخرج قابيل من صلب
آدم وهو نبي وكان كافرا واخرج ابراهيم وهو نبي من صلب آزر وكان كافرا فكذلك اخرج كنعان
من صلب نوح وهو كافر فهو للتصرف في خلقه كيف شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ثم صرح
بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الاهل المبينة له بان المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب
وحده فقال إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر وقرئ على لفظ الفعل ومعنى الاولى
المبالغة في ذمه كانه جعل نفس العمل واصله ذو عمل غير صالح كذا قال ابو اسحق الزجاجي وابو علي
الفارسي وابن الانباري والواحدي ومعنى الثانية ظاهر اي انه عمل عملا غير صالح وهو كفره
وعدم متابعته لابيه قاله ابو علي وقال ابن عباس يقول مسألتك اياي يا نوح عمل غير صالح
لا ارضاه لك وقال ابن عباس بين الله لنوح انه ليس ابنه ثم نهاه عن مثل هذا السؤال فقال فَلَا
تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من اهله فرع على ذلك النهي عن السؤال وهو
وان كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه ان حصول مطلوبه منه صواب فهو
يدخل تحته سؤاله هذا دخولا اوليا وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الانسان مطابقته للشرع
وسمي دعاءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال باعتبار استجازة في شان ولده إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ
تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ اي احذرك وانهاك ان تكون جاهلا فتسأل مثل ما يسألون كقوله
يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا وسمي سؤاله جهلا لان حب الولد شغله عن تذكر استثناء
من سبق عليه القول منهم بالاهلاك قاله الكرخي وقيل المعنى ارفعك ان تكون منهم قال ابن
العربي وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها الى المقام
العلماء العاملين ثم لما علم نوح بان سؤاله لم يطابق الواقع وان دعاءه ناش عن وهم كان يتوهم
بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة وقال رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ اي التجئ اليك
واعتذر من أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ اي اطلب منك بعد ذلك ما لا علم لي بصحته
وجوازه وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ذنب ما دعوت به على غير علم مني وجهلي واقدامي عليه وَتَرْحَمْنِي
برحمتك التي وسعت كل شئ فتقبل توبتي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ في اعمالي فلا اربح فيها وليس في
الآية ما يقتضي صدور ذنب معصية من نوح سوى تاويله واقدامه على سوال لم يؤذن

له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية وقال الخطيب أخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم في
الأكل من الشجرة فلم يصدر منه إلا هذه الزلة قِيلَ يَا نُوحُ القائل هو الله أو الملائكة اهْبِطْ أي
انزل من السفينة إلى الأرض أو من الجبل إلى المنخفض منها فقد بلعت الأرض ماءها وجفت
بِسَلَامٍ مِنَّا أي بسلامة وأمن وقيل بتحية وعظمة وذلك أن الغرق لما كان عاما في جميع الأرض
فعند ما خرج من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف
في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال
الله ذلك زال عنه الخوف لأن السلامة لا تكون إلا مع الأمن وسعة الرزق ثم أراد فه الله تعالى
بالبركة بقوله وَبَرَكَاتٍ أي خيرات نامية ونعم ثابتة باقية دائمة مشتق من بروك الجمل وهو
ثبوته ومنه البركة لثبوت الماء فيها عَلَيْكَ وفي هذا الخطاب دليل على قبول توبته ومغفرة
زلته وَعَلَىٰ أُمَمٍ ناشية وهم المتشعبون مِمَّن مَّعَكَ أي من ذرية من كان معك في السفينة
وهي الأمم إلى آخر الدهر قيل الذين كانوا معه في السفينة لم يعقب أحد منهم إلا أولاد نوح الثلاثة
فانحصر النوع الإنساني بعد نوح في ذريته ولذلك يقال إنه آدم الصغير وقد كان بينه وبين آدم
ألف سنة وثمانية أجداد فالمراد من هذه الآية تقسيم ذرية أولاد نوح إلى فريق مؤمن وفريق كافر
لا تقسيم من كان معه في السفينة إذ كانوا كلهم مؤمنين وقيل أراد من في السفينة فإنهم أمم
مختلفة وأنواع من الحيوانات متباينة ومن تبعيضية أي على أمم من ذرية من معك وإليه
نحا السيوطي في تفسيره وقال أبو السعود من بيانية وإنما سموا أمما لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة
أو لأن جميع الأمم إنما تشعبت منهم فح يكون المراد بالأمم المشار إليهم في قوله وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ بعض
الأمم المتشعبة منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة ويبقى أمر الأمم المؤمنة الناشية
منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه انتهى قيل أراد الله سبحانه بهذا الأمم الذين كانوا معه
من صار مؤمنا من ذريتهم وأراد بقوله وأمم سنمتعهم من صار كافرا من ذريتهم
إلى يوم القيامة والتقدير ومنهم أمم أو يكون أمم والمعنى سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم
منها ما يعيشون به ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا في الآخرة أو في الدنيا عَذَابٌ أَلِيمٌ وعن الضحاك قال وعلى أمم ممن
معك يعني ممن لم يولد أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة وأمم سنمتعهم

يعني متاع الحياة الدنيا لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة قال محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك
السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة ودخل في ذلك العذاب الاليم كل كافر وكافرة
الى يوم القيامة وعن ابن زيد هبطوا والله راض عنهم ثم اخرج منهم نسلا منهم من رحم الله ومنهم من
عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب وبالعذاب ما نزل بهم والى هنا
انتهت قصة نوح عليه السلام تلك اى قصة نوح وهو مبتدأ من انباء الغيب خبره اي من
جنسها والانباء جمع نبأ وهو الخبر اي اخبار الغيب التي مر تبيانه في هذه السورة نوحيها اي القصة
اليك خبر ثان والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ما كنت يا محمد تعلمها انت تفصيلا خبر ثالث
والا كانت مشهورة عند كل القرون لكن اجمالا ولا يعلمها قومك يعني العرب بل هي مجهولة
عندكم وفي ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وهم مع كثرتهم لما لم يسمعوه فكيف بواحد
منهم من قبل هذا اي الوحي او القرآن او من قبل هذا الوقت فاصبر على ما تلاقيه من كفار
زمانك كما صبر نوح على اذى قومه والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ان العاقبة المحمودة فى
الدنيا والآخرة للمتقين لله المؤمنين بما جاءت به رسله وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الامر ولا اعتبار بمباديه والى عاد اخاهم هودا
اي واحدا منهم فى النسب لا في الدين وهود عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة اوثان وقد تقدم
مثل هذا في الاعراف وقيل هم عادان الاولى والاخرى فهؤلاء هم عاد الاولى من ذرية سام بن
نوح وعاد الاخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون في قوله ارم ذات العماد واصل عاد اسم
رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش اربعمائة سنة
واربعا وستين سنة قال يا قوم اعبدوا الله وحده ولا تشركوا معه شيئا فى العبادة ما لكم من
اله غيره في معنى العلة لما قبله قرئ غيره بالجر على اللفظ وبالرفع على محل من اله وبالنصب على
الاستثناء ان انتم اي ما انتم باتخاذ اله غير الله وجعله شفيعا الا مفترون اي كاذبون على
الله عز وجل ثم خاطبهم فقال يا قوم لا اسألكم عليه اجرا اي لا اطلب منكم اجرا على الذي
ابلغكم وانصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وانه لا اله لكم سواه فالضمير راجع الى مضمون
هذا الكلام وخاطب بهذا كل نبي قومه ازاحة لما عسى ان يتوهموه وامحاضا للنصيحة فانها ما دامت

مشوبة بالمطامع فهي بمعزل عن التأثير وقد تقدم معنى هذا في قصة نوح وقال هنا اجرا وهنا
مالا تفننا ولذكر الخزائن بعده هناك ولفظ المال بها اليق إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي اي ما
اجري الذي اطلبه الا ممن خلقني فهو الذي يثيبني على ذلك أَفَلَا تَعْقِلُونَ ان اجر الناصحين
انما هو من رب العالمين ثم ارشدهم الى الاستغفار والتوبة فقال وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوا إِلَيْهِ اي اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم بفعل الطاعة ثم توسلوا اليه بالتوبة وقد
تقدم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح ثم رغبهم في الايمان بالخير العاجل فقال يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا اي كثير الدر وهو السيلان والنزول والتتابع والسماء المطر يقال درت السماء
تدر فهي مدرار ولم يؤنثه لان المراد بالسماء المؤنثة السحاب والمطر كما تقدم فذكر على المعنى او ان
مفعالا للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث وان الهاء حذفت من مفعال على طريق النسب قاله مكي
وكان قوم هود اهل بساتين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن عن
الضحاك قال امسك الله القطر عن عاد ثلاث سنين فاجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فقال
لهم هود استغفروا الآية فابوا الا تماديا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ اي شدة مضافة الى شدتكم او خصبا
الى خصبكم او عزا الى عزكم قال الزجاج قوة في النعم وقال عكرمة القوة الى القوة ولد الولد وقيل كانت
قد عقمت نساؤهم ثلاثين سنة فلم تلد وقيل قوة في الدين الى قوة الابدان وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ اي
لا تعرضوا عما ادعوكم اليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه والاجرام الآثام كما تقدم ثم اجابه قومه
بما يدل على فرط جهالتهم وعظيم غباوتهم فَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ اي بحجة واضحة نعمل
عليها ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عنادا وبعدا عن الحق
والباء للتعدية او للمصاحبة وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا التي نعبدها من دون الله عَن قَوْلِكَ اي
لاجله او تركا صادرا عنه فعن على الاول للتعليل كما اشار اليه ابن عطية ولكن المختار الثاني ولم
يذكر الزمخشري غيره وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ اي بمصدقين في شيء مما جئت به إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ
يقال عراه الامر واعتراه اذا الم به اي ما نقول الا انه اصابك بَعْضُ آلِهَتِنَا التي تعيبها وتسفه رأينا
في عبادتها بِسُوءٍ بجنون حتى نشأ عنه ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها والاستثناء
مفرغ كما قال الزمخشري ثم اجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه

والهم لا يقدرون على شيء مما يريده به الكفار بل الله سبحانه هو الضار النافع قال إني أشهد الله على نفسي واشهدوا وانتم ايضا عليها أني بريء مما تشركون به من دونه اي من اشراككم من دون الله من غير ان ينزل به سلطانا فكيدوني جميعا انتم والهتكم ان كانت كما تزعمون من انها تقدر على الاضرار بي وانها اعترتني بسوء ثم لا تنظرون اي لا تمهلوني بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم واحتالوا في هلاكي وفي هذا من اظهار عدم المبالاة بهم وباصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسامعهم ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء وهذا من معجزاته الباهرة إني توكلت على الله ربي وربكم فهو يعصمني من كيدكم وان بلغتم في تطلب وجوه الاضرار بي كل مبلغ فمن توكل على الله كفاه ثم لما بين طهر توكله على الله وثقته بحفظه وكلايته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض اليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم وانه مالك للجميع فقال ما من دابة تدب على الارض إلا هو آخذ بناصيتها اي ان ناصية كل دابة من دواب الارض بيده وفي قبضته وتحت قهره وانتم من جملة الدابة فلا تؤثروا في شيئا وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل وكانوا اذا اسروا الاسير وارادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره قال الفراء معنى اخذ بناصيتها مالكها والقادر عليها وقال القتيبي قاهرها لان من اخذت بناصيته فقد قهرته والناصية قصاص الشعر من مقدم الراس ويسمى الشعر النابت ايضا ناصية باسم محله ثم علل ما تقدم بقوله إن ربي على صراط مستقيم اي هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطهم علي وقيل ان دين ربي هو الصراط وقيل ان ربي يحملكم على صراط وقيل ان ربي يدل على صراط والاول اولى فإن تولوا اي تستمروا على الاعراض عن الاجابة والتصميم على ما انتم عليه من الكفر فلا ابالي ولا علي مواخذة في شانكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم وليس علي الا ذلك وقد لزمتكم الحجة ويستخلف ربي قوما غيركم جملة مستانفة لتقرير الوعيد بالهلاك اي يستخلف في دياركم واموالكم قوما آخرين ولا تضرونه شيئا بتوليكم ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير إن ربي على كل شيء حفيظ اي رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شيء قيل وعلى بمعنى اللام فيكون المعنى لكل شيء حفيظ فهو يحفظني من ان تنالوني بسوء ولما جاء أمرنا اي عذابنا الدنيوي الذي هو اهلاكهم بالريح نجينا هودا والذين آمنوا معه من قومه من هذا العذاب

وكانوا اربعة آلاف برحمة عظيمة كائنة منا لانه لا ينجو احد من العذاب اذا نزل الا برحمة الله وقيل
هي الايمان ونجيناهم من عذاب غليظ اي شديد في الآخرة وقيل هو السموم التي كانت تدخل
انوفهم في الدنيا والى هنا تمت القصة وتلك عاد اشارة الى القبيلة قال الكسائي ان من
العرب من لا يصرف عاد ويجعله اسما للقبيلة وقيل اشارة الى آثارهم كقبورهم ومساكنهم جحدوا
بآيات ربهم اي كفروا بها وكذبوها وانكروا المعجزات وعصوا اي رؤسائهم وسفلتهم رسله
اي هودا وحده لانه لم يكن في عصره رسول سواه وانما جمع هنا للتعظيم او لان من كذب رسولا
فقد كذب جميع الرسل وقيل انهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل او كانوا بحيث لو بعث
الله اليهم رسلا متعددين لكذبوهم واتبعوا امر كل جبار عنيد الجبار المتكبر والعنيد الطاغي
الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ويتجاوز في الظلم قال ابو عبيدة العنيد والعنود والعاند والمعاند هو
المعارض بالخلاف منه ومنه قيل للعرق الذي ينفجر بالدم عاند وعن قتادة قال عنيد مشرك
وقال السدي العنيد المشاق واتبعوا اي جميعهم او السفلة والرؤساء في هذه الدنيا لعنة اي
الحقوها على لسان الانبياء واللعنة هي الابعاد من الرحمة والطرد من الخير والمعنى انها لازمة
لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا واتبعوها يوم القيامة فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا قال
السدي لم يبعث نبي بعد عاد الا لعنت على لسانه وقال قتادة تتابعت عليهم لعنتان من الله
لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة الا ان عادا كفروا ربهم قال الفراء اي بنعمة ربهم يقال كفرته
وكفرت به مثل شكرته وشكرت له الا بعدا لعاد قوم هود اي لا زالوا مبعدين من رحمة الله
والبعد الهلاك والتباعد عن الخير يقال بعد يبعد بعدا اذا تأخر وتباعد وبعد يبعد بعدا اذا هلك
والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق و
قد تقدم ان العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك والى ثمود اخاهم صالحا وهم سكان الحجر
فقوم هود عاد الاولى وقوم صالح عاد الثانية كما قال المحلي في سورة النجم وقرأ الحسن ثمود بالتنوين
في جميع المواضع واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع فالصرف باعتبار التأويل بالحي والمنع
بالقبيلة وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان وبين صالح وهود مائة سنة وعاش صالح مائتي سنة
وثمانين سنة ومكانهم بين الشام والمدينة وتقدم في الاعراف بسط قصتهم ثم قصة الناقة باكثر مما هنا

والكلام فيه وفي قوله قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره كما تقدم في قصة هود هو انشاكم
من الارض اي ابتدأ خلقكم لان كل بني ادم من صلب ادم مخلوق منها فمن لابتداء الغاية وقيل
هي بمعنى في واستعمركم فيها اي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم اعمر فلان فلانا دارة فهي له
عمرى فيكون استفعل بمعنى افعل مثل استجاب بمعنى اجاب والسين والتاء زائدتان وقال الضحاك معناه
اطال عمركم وكانت اعمارهم ثلثمائة الى الف سنة وقيل معناه امركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس
الاشجار وقال ابن زيد استخلفكم فيها فاستغفروه اي سلوا المغفرة لكم من عبادة الاصنام ثم توبوا
اليه اي ارجعوا الى عبادته ان ربي قريب مجيب اي قريب الاجابة لمن دعاه وقد تقدم القول فيه
في البقرة عند قوله تعالى فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان قالوا يا صالح قد كنت فينا
مرجوا اي كنا نرجو ان تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك لما نرى فيك من
مخائل الرشد والسداد لانه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم قبل هذا الذي
اظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك الى التوحيد وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون
رجوعه الى دينهم فلما دعاهم الى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك والاستفهام في قوله اتنهانا
ان نعبد ما يعبد اباؤنا للانكار انكروا عليه هذا النهي والمعنى ما كان يعبد اباؤنا فهو حكاية
حال ماضية لاستحضار الصورة واننا لفي شك مما تدعونا اليه من عبادة الله مريب من ارابه
فانا اريبه اذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمانينة او من اراب الرجل
اذا كان ذا ريبة والاسناد مجازي للمبالغة كجد جده والظاهر ان الاول مجاز ايضا والمعنى اننا
مرتابون في عبادة الله وحده وترك عبادة الاوثان قال يا قوم ارايتم قال ابن عطية هي
من رؤية القلب والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لارايتم قال الشيخ والذي تقرر
ان ارايت ضمن معنى اخبرني وعلى تقدير ان لا يضمن فجملة الشرط والجواب لا تسد مسد مفعولي علمت
ان كنت على بينة من ربي اي حجة ظاهرة وبرهان صحيح واتاني منه اي من جهته رحمة اي
نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين
لانهم في شك من ذلك كما وصفوا عن انفسهم وعبارة الشهاب انه من باب ارخاء العنان فمن
ينصرني من الله استفهام معناه النفي اي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله والنصرة مستعملة في

لازم معناها وهو المنع ولذا عدي بمن ان عصيته في تبليغ الرسالة ومراقبتكم وفارقت عما يجب
علي من البلاغ فما تزيدونني بتثبيطكم اياي غير تخسير بان تجعلوني خاسرا بابطال عملي وما
منحني الله والتعرض لعقوبة الله لي قال الفراء اي تضليل وابعاد من الخير وقيل المعنى فما تزيدونني
باحتجاجكم بدين ابائكم غير بصيرة بخسارتكم وقال مجاهد وعطاء الخراساني ما تزدادون انتم
الا خسارا ويا قوم هذه ناقة الله لكم اية اي معجزة ظاهرة وقد مر تفسير هذه الاية في الاعراف
وانما قال هذه ناقة الله لانه اخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم وقيل من صخرة صماء والاضافة
للتشريف كبيت الله وعبد الله فذروها اي فدعوها تاكل في ارض الله مما فيها من المراعي التي تاكلها
الحيوانات وليس عليكم كلفة في مؤنتها وهذا من تتمة الزامهم قال الكرخي اي ترع نباتها وتشرب
ماءها فهو من قبيل الاكتفاء نحو تقيكم الحر وجعل تاكل من عموم المجاز يحتاج الى قرينة صارفة
ولا تمسوها بسوء قال الفراء بعقر والظاهر ان النهي عما هو اعم من ذلك فياخذكم ان قتلتموها
عذاب قريب في الدنيا جواب النهي اي قريب من عقرها وذلك ثلثة ايام فعقروها اي فلم
يمتثلوا الامر من صالح ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها وعقرها قدار وهو من
اشقى الاشقياء فقال لهم صالح تمتعوا في داركم اي بالعيش في منازلكم وبلادكم ومساكنكم فان
العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لان الحي يكون متمتعا بالحواس ثلثة ايام ثم
تهلكون قيل عقروها يوم الاربعاء فاقاموا الخميس والجمعة والسبت واتاهم العذاب يوم الاحد
ذلك اي التمتع ثلثة ايام وعد غير مكذوب فيه فحذف الجار اتساعا او من باب المجاز كان الوعد
اذا وفي به صدق ولم يكذب ويجوز ان يكون مصدرا اي وعد غير كذب فلما جاء امرنا بعذابنا
او امرنا بوقوع العذاب نجينا صالحا والذين امنوا معه برحمة عظيمة منا قد تقدم تفسير
هذا في قصة هود والباء للسببية او لمصاحبة وهي بالنسبة الى صالح النبوة وبالنسبة الى المؤمنين
الايمان ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة وسمي خزيا لان فيه خزيا للكفار
والخزي الذل والمهانة وقيل من عذاب يوم القيامة والاول اولى ويومئذ بكسر الميم اعرابا
وفتحها بناء للاضافة الى مبني قال السيوطي وهو الاكثر اي في الاستعمال والا فهما قراءتان سبعيتان
على السواء ان ربك هو القوي العزيز القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم

والقصة تمت عند قوله يومئذ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ اي في اليوم الرابع من عقر الناقة صيح بهم فماتوا وذكر الفعل لان الصيحة والصياح واحد مع كون التانيث غير حقيقي والصيحة فعلة تدل على المرة من الصياح وهو الصوت الشديد يقال صاح يصيح صياحا اي صوت بقوة قيل صيحة جبريل وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا وتقدم في الاعراف فاخذتهم الرجفة قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ميتين صرعى هلكى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير اذا جثمت والجثوم كالركوب من البعير والفاعل جاثم وجثام مبالغة يقال جثم الطائر والارنب يجثم كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا اي كانهم لم يقيموا في بلادهم اوديارهم ولم يعيشوا فيها ولم يعمروا ولم ينعموا والتقدير مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط يقال غنيت بالمكان اذا اتيته واقمت فيه أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ بالصرف وتركه قراءتان سبعيتان على معنى الحي والقبيلة وقد تقدم تفسير هذه القصة في الاعراف بما يحتاج الى مراجعته ليضم ما في احدى القصتين من الفوائد الى الاخرى وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافا الى الضمير لفظا كرسلنا او تقديرا كرسلهم ورسلكم واما اذا اضيف الى مظهر فليس فيه الا ضمها وهذا شروع في قصة ابراهيم لكنها مذكورة هنا توطية لقصة لوط لا استقلالا ولذا لم يذكرها على اسلوب ما قبلها وما بعدها فلم يقل وارسلنا ابراهيم الى كذا وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمسا وسبعين سنة وبينه وبين نوح الفا سنة وستمائة سنة واربعون سنة وابنه اسحاق عاش مائة وثمانين سنة ويعقوب بن اسحاق عاش مائة وخمسا واربعين سنة ولوط عليه السلام هو ابن اخي ابراهيم عليه السلام وكانت قرى قوم لوط بنواحي الشام وابراهيم ببلاد فلسطين فلما انزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بابراهيم ونزلوا عنده وكان كل من نزل عنده يحسن قراه وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة الآتية فظنهم اضيافا وهم جبريل وميكائيل واسرافيل قاله عطاء وقيل كانوا تسعة قاله الضحاك وقيل احد عشر قاله السدي وقيل اثنى عشر قاله مقاتل وقيل كان جبريل ومعه سبعة املاك قاله محمد بن كعب القرظي والاول اولى لان اقل الجمع ثلاثة بِالْبُشْرَى التي بشروه بها هي بشارته بالولد وقيل باهلاك قوم لوط والاول اولى

قَالُوا سَلَامًا اي سلمنا عليك سلاما وهذه تحيتهم التي وقعت منهم وهي لفظ سلاما قَالَ لهم ابراهيم سَلَامٌ اي امركم سلام او عليكم سلام وهذه التحية الواقعة منه جوابا وهي لفظ سلام وحياهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية ومن المعلوم ان الاولى ابلغ من الثانية فكانت تحية احسن من تحيتهم كما قال تعالى فحيوا باحسن منها فَمَا لَبِثَ اي ابراهيم أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ قال اكثر النحاة انْ هنا بمعنى حتى وقيل التقدير فما لبث عن ان جاء اي ما ابطأ ابراهيم عن مجيئه بعجل وما نافية قاله سيبويه وقال الفراء مصدرية اي فما لبث مجيئه اي ما ابطأ وقيل ان ما موصولة والتقدير فالذي لبث ابراهيم هو مجيئه والحنيذ المشوي مطلقا وقيل المشوي بحر الحجارة من غير ان تمسه النار وهذا من فعل اهل البادية يقال حنذ الشاة يحنذها جعلها فوق حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ وقيل هو سمين وقيل هو السميط وقيل النضيج وهو فعيل بمعنى مفعول و انما جاءهم بعجل لان البقر كانت اكثر امواله فَلَمَّا رَأَى الرؤية بصرية اي بصر أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ اي لا يمد ونها الى العجل المشوي كما يمد يده من يريد الاكل نَكِرَهُمْ يقال نكرته وانكرته واستنكرته اذا وجدته على غير ما تعهد ويقال انكرت لما تراه بعينك ونكرت لما تراه بقلبك قيل وانما استنكر منهم ذلك لان عادتهم ان الضيف اذا نزل بهم ولم ياكل من طعامهم ظنوا انه قد جاء بشر ولم يأت بخير قاله قتادة وفي الذاريات قوم منكرون اي غرباء لا اعرفهم فقال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس وقيل انما انكر امرهم لانهم دخلوا عليه من غير استيذان وقال ابو العالية انكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الارض وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ اي احس في نفسه خِيفَةً اي خوفا وفزعا وقيل معنى اوجس اضمر في نفسه والاول الصق بالمعنى اللغوي والوجس هو رعب القلب والايجاس الادراك وقيل الاضمار وفي السمين الايجاس حديث النفس واصله من الدخول كان الخوف داخله والوجيس ما يعتري النفس اوان الفزع ووجس في نفسه كذا اي خطر بها يجس وجسا ووجوسا ووجيسا وكانه ظن انهم قد نزلوا به لامر ينكره او لتعذيب قومه قَالُوا لَا تَخَفْ قالوا له ذلك مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف بل اوجس ذلك في نفسه فلعلهم استدلوا على خوفه بامارات كظهور اثره على وجهه او قالوه له بعد ما قال عقب ما اوجس في نفسه من الخيفة قولا يدل على الخوف كما في قوله في سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما هنالك ثم عللوا نهيه عن الخوف

بني لهم انا ارسلنا الى قوم لوط خاصة ولوط اول من آمن بابراهيم وابو هاران اخو ابراهيم ويمكن
ان يكون ابراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه كما قال فما خطبكم ايها المرسلون
قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين وامرأته اي سارة زوجة ابراهيم وهي ابنة هارون بن ناحور وهي
ابنة عم ابراهيم قائمة قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت
واقفة قائمة تخدم الملائكة وهو جالس والجملة مستانفة او حالية فضحكت الضحك هنا هو الضحك
المعروف الذي يكون للتعجب او السرور كما قاله الجمهور واصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس
ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد
ايضا وعليه اكثر المفسرين وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض والعرب تقول ضحكت الارنب اذا حاضت وقد
انكر بعض اللغويين ان يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت قال الراغب وقول من قال حاضت ليس
تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين وانما ذكر ذلك تنصيصا لحالها جعل ذلك
امارة لما بشرت به فحيضها في الوقت ليعلم ان حملها ليس بمنكر لان المرأة ما دامت تحيض فانها تحمل
قال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت
وقال ابن الانباري قد انكر الفراء وابو عبيدة ان يكون ضحكت بمعنى حاضت وقال في المحكم ضحكت المرأة
حاضت والاول اولى ولا مصير الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة وظاهر النص انها ضحكت قال
قتادة ضحكت تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ومما اتاهم من العذاب وقال السدي ضحكت تعجبا من
عدم اكلهم وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف ابراهيم من ثلثة وهو فيما بين خدمه وحشمه
وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم حين قالوا لا تخف وقيل ضحكت سرورا
من البشارة وقال وهب ضحكت تعجبا من ان يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها وقيل غير ذلك
مما ليس في ذكره كثير فائدة والله اعلم مما ضحكت وقال ابن عباس حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة
وعن مجاهد قال وكان ابراهيم ابن مائة سنة فبشرناها باسحق ظاهره ان التبشير كان بعد
الضحك وقال الفراء فيه تقديم وتاخير والمعنى فبشرناها فضحكت سرورا بالولد وولد اسحق بعد
البشارة بسنة وكانت ولادته بعد اسماعيل باربعة عشر سنة ومن وراء اي وهبنا لها من
وراء اسحق يعقوب وقرئ بجر يعقوب ومنعه الفراء وقرئ بالرفع على الابتداء وخبره الظرف الذي

قبله وبالنصب وهما سبعيتان وقد وقع التبشير هنا لها ووقع لابراهيم في قوله تعالى وبشرناه
بغلام حليم وبشروه بغلام عليم لان كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما قال ابن عباس
هو ولد الولد اي فبشرت بانها تعيش حتى ترى ولد الولد وقدراته قالت يويلتى مستانفة كانه قيل
فماذا قالت وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تقع كثيرا على افواه النساء اذا طرء عليهن
ما يعجبن منه واصل الويل الخزي توشاع في كل امر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة و
الاستفهام في قولها ءالد وانا عجوز للتعجب اي كيف الد وانا شيخة قد طعنت في السن يقال عجزت تعجز
مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا اي طعنت في السن ويقال عجوز وعجوزة واما عجزت بكسر الجيم فمعناه عظمت
عجيزتها وهذا بعلي اي زوجي ابراهيم شيخا لا يحبل من مثله النساء والبعل هو المستعلي
على غيره والزوج مستعل على المرأة قائم بامرها فسمي بعلا لذلك قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين
سنة وهي بنت تسع وتسعين وقيل بنت تسعين وهذه المبشرة هي سارة امرأة ابراهيم
وقد كان ولد لابراهيم من هاجر امته اسماعيل فتمنت سارة ان يكون لها ابن وايست منه
لكبر سنها فبشرها الله به على لسان ملائكته وكانت بين الولادة والبشارة سنة ان هذا
لشيء عجيب اي ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونهما في هذه السن العالية
التي لا يولد لمن كان في مثلها شيء يقضى منه العجب ولم تنكر قدرة الله قالوا اتعجبين من امر الله مستانفة
جواب سوال مقدر والاستفهام فيها للانكار اي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره وهو لا يستحيل
عليه شيء وقيل المعنى لا تعجبي من ذلك وانما انكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة
لانها من بيت النبوة ولا يخفى على مثلها ان هذا من مقدوراته سبحانه ولهذا قالوا رحمت الله وبركته
عليكم اهل البيت اي الرحمة التي وسعت كل شيء والبركات هي النمو والزيادة وقيل الرحمة النبوة
والبركات الاسباط من بني اسرائيل لما فيهم من الانبياء وانتصاب اهل البيت على المدح او الاختصاص
وبين النصبين فرق ذكره السمين وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى الجمع لقصد التعميم وقيل خطاب
لها وله وهذا على معنى الدعاء من الملائكة بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من
اهل بيته عن ابن عباس انه كان ينهى عن ان يزاد في جواب التحية على قولهم عليكم السلام ورحمة
الله وبركاته ويتلو هذه الاية وعن ابن عمر نحوه انه حميد اي يفعل موجبات الحمد من عباده على

نسبيل الكثرة مجيد كثير الاحسان الى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات وقيل المجيد المنيع الذي لا يرام وقال الخطابي المجيد الواسع الكريم واصل المجد في كلام العرب السعة وقيل هو ذو الشرف والكرم والجملة تعليل لقوله رحمة الله وبركاته الخ فلما ذهب عن ابراهيم الروع اي الخيفة التي اوجسها في نفسه يقال ارتاع من كذا اذا خاف قال مجاهد الروع الفرق وهو الخوف وقيل الفزع وجاءته البشرى اي بالولد او بقولهم لا تخف يجادلنا في قوم لوط قال الاخفش والكسائي ان يجادلنا في موضع جادلنا فيكون هو جواب لما لما تقرر من ان جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل قال النحاس جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط وقيل ان الجواب محذوف ويجادلنا في محل نصب على الحال قاله الفراء وتقديره فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترى على خطابنا حال كونه يجادلنا اي يجادل رسلنا وقيل ان المعنى اخذ او جعل يجادلنا ومجادلته لهم قيل انه سمع قوله انا مهلكو اهل هذه القرية قال ارايتم ان كان فيهم خمسون من المسلمين اتهلكونهم قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا قال فعشرة فخمسة قالوا لا قال فواحد قالوا لا قال ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الآية وعن ابن عباس قال لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا لابراهيم ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب فهذا معنى مجادلته في قوم لوط اي في شانهم وامرهم وقيل معناه يكلمنا ويسألنا لان العبد لا يقدر ان يخاصم ربه وان كان نبيا وهذا قال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا ثم اثنى على ابراهيم او اثنى الله عليه فقال ان ابراهيم لحليم اي ليس بعجول في الامور ولا يوقعها على غير ما ينبغي اواه اي كثير التاوه او الرحيم منيب اي راجع الى الله وقد تقدم في براءة الكلام على الاواه والمنيب هو المقبل الى طاعة الله وقال قتادة المنيب المخلص وفي الآية ما يشير الى ان المراد بالمجادلة فيما تقدم مجادلة الرسل لا مجادلة الرب كما قاله الجمهور والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط رحمته فطلب تاخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي يا ابراهيم اعرض عن هذا هذا قول الملائكة له اي اعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال في امر قد فرغ منه وجف به القلم وحق به القضاء انه قد جاء امر ربك الضمير للشان والمعنى مجيء عذابه الذي قدره عليهم وسبق به قضاؤه في ازله وانهم آتيهم عذاب غير مردود اي لا يرده دعاء ولا جدال بل هو

واقع بهم لامحالة ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ اي لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط اربعة فراسخ جاؤا الى لوط فلما راهم لوط وكانوا في صورة غلمان حسان مرد ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ اي ساءه مجيئهم اليه يقال ساءه يسوءه اوساءظنه بقومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قال الازهري الذرع يوضع موضع الطاقة واصله ان البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوه اي يبسطها فاذا حمل عليه اكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الامر وقيل هو من ذرعه القيء اذا غلبه وضاق عن حبسه والمعنى انه ضاق صدره لما راى الملائكة في تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ولم يجد مخلصا قال ابن عباس ساءظنا بقومه وضاق ذرعا باضيافه وقيل ضاق بهم قلبا وصدرا ولا يعرف اصله ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ اي شديد كانه قد عصب به الشر والبلاء اي شد به ماخوذ من العصابة التي يشد بها الراس يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير اي يوم مكروه يجتمع فيه الشر ومنه عصبة وعصابة اي مجتمعو الكلمة ورجل معصوب اي مجتمع الخلق ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ اي جاؤا لوطا يسرعون اليه قاله قتادة وقال الكسائي والفراء وغيرهما من اهل اللغة لا يكون الاهراع الا اسراعا مع رعدة يقال اهرع الرجل اهراعا اي اسرع في رعدة من برد او غضب او حمى وقيل يهرولون قاله مجاهد وقيل هو مشي بين الهرولة والعدو قاله الحسن وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز والمعنى ان قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة اسرعوا اليه كانما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من اضيافه ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ اي ومن قبل مجيء الرسل ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ اي يأتون الرجال في ادبارهم وكانت ذلك عادتهم فلا حياء عندهم منها فلما جاؤا الى لوط وقصدوا الاضيافه لذلك العمل قام اليهم لوط مدافعا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ خاطبهم بهذا الخطاب وهم من وراء الباب خارجه ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ اي تزوجهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة باضيافي وقد كان له ثلاث بنات وقيل ابنتان وكانوا يطلبون منه ان يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم لا لعدم كفاءتهم وكان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما بنتيه والمراد بالجمع ما فوق

الواحد وقيل اراد بقوله هؤلاء بناتي النساء جملة لان نبي القوم اب لهم قاله ابن عباس وهو
قول مجاهد وسعيد بن جبير قال الكرخي وهذا القول اولى لان اقدام الانسان على
عرض بناته على الاوباش والفجار مستبعد لا يليق باهل المروة فكيف بالانبياء وايضا فبناته
لا تكفي الجمع العظيم اما بنات امته ففيهن كفاية للكل انتهى لكن فيه مخالفة لظاهر النظم وقيل
كان في ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة قال قتادة المراد بناته لصلبه وفي اضيافه بيانه
وقال الحسين بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقالت طائفة انما كان هذا القول
منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة وعن حذيفة بن اليمان قال عرض عليهم بناته
تزويجا واراد ان يقي اضيافه بتزويج بناته **هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** اي احل وانزه والتطهر التنزه
عما لا يحل وليس في صيغة اطهر دلالة على الفضل بل هي مثل الله اكبر **فَاتَّقُوا اللَّهَ**
بترك ما تريدون من الفاحشة بهم **وَلَا تُخْزُونِ** اي لا تذلوني ولا تفضحوني وتجلبوا علي
العار يقال خزى الرجل خزاية اي استحيى او ذل او هان وخزي خزيا اذا افتضح **فِي ضَيْفِي**
الضيف في الاصل مصدر يطلق على الطارق ليلا الى المضيف ولذلك يقع على الواحد و
الاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث وقد يثنى فيقال ضيفان ويجمع فيقال اضياف والاول اكثر
والمعنى في شان ضيفي وحقهم فان خزي الضيف خزي المضيف وذلك من عراقة الكرم واصالة
المروة ثم وبخهم فقال **أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** يرشدكم الى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم
منه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قاله ابو مالك وقال ابن عباس يعني واحدا يقول
لا اله الا الله والاستفهام للتوبيخ **قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ** اي ما لنا فيهن
من شهوة ولا حاجة لان من احتاج الى شيء فكانه حصل له فيه نوع حق ومعنى ما نسبوه
اليه من العلم انه قد علم منهم المكالبة على اتيان الذكور وشدة الشهوة اليهم فهم من
هذه الحيثية كانهم لا حاجة لهم الى النساء ويمكن ان يريدوا به انه لا حق لنا في نكاحهن
لانه لا ينكحهن ولا يتزوج بهن الا رجل مؤمن ونحن لا نؤمن ابدا وقيل انهم كانوا قد خطبوا
بناته من قبل فردهم وكان من سنتهم ان من خطب فرد فلا تحل له المخطوبة ابدا **وَإِنَّكَ**
لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ من اتيان الذكور والرجال قاله السدي وما مصدرية او موصولة والعلم

بمعنى العرفان ولذلك تعدى لواحد اي لتعرف ما ارادتنا او الذي نريد ويجوز ان تكون استفهامية وهي متعلقة للعلم قبلها ثم لما علم تصميمهم على الفاحشة وانهم لا يتركون ما قد طلبوه قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً جواب لو محذوف اي لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ولبطشت بكم وهذا منه عليه السلام على طريق التمني اي لو وجدت ناصرا ومعينا فسمي ما يتقوى به قوة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ مراده بالركن الشديد العشيرة وما يمتنع به عنهم هو ومن معه وانما قال ذلك لانه لم يكن من قومه نسبا بل كان غريبا فيهم لانه كان اولا بالعراق مع ابراهيم فلما هاجر الى الشام ارسله الله الى اهل سدوم وهي قرية عند حمص قال ابو هريرة ما بعث الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته وقيل اراد بالقوة الولد وبالركن من ينصره من غير ولده وقيل اراد بالقوة قوته في نفسه قال السدي لي جند شديد لقاتلتكم وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يغفر الله للوطان كان ياوي الى ركن شديد وهو مروي في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة وقال النووي المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه اشد الاركان واقواها وامنعها انتهى وهو يخالف ظاهر الآية والحديث المتقدم ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ اخبروه اولا انهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ وهذه الجملة موضحة لما قبلها لانهم اذا كانوا مرسلين من عند الله اليه لم يصل عدوه اليه بسوء ولم يقدروا عليه ثم امروه ان يخرج عنهم فقالوا له فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ قرئ بالوصل وبالقطع من اسرى وسرى وهما لغتان سبعيتان فصيحتان قال تعالى والليل اذا يسر وقال سبحان الذي اسرى وهل هما بمعنى واحد او بينهما فرق خلاف مشهور فقيل هما بمعنى واحد وهو قول ابي عبيدة وقيل ان اسرى للمسير من اول الليل وسرى للمسير من آخره وهو قول الليث واما سار فيختص بالنهار وليس مقلوبا من سرى والباء للتعدية او للمصاحبة والاهل هم بنتاه فلم يخرج من القرية الا هو وبنتاه فقط وفي القرطبي خرج لوط وطوى الله له الارض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم بِقِطْعٍ اي مصاحبين بقطع مِنَ اللَّيْلِ القطع الطائفة منه قال ابن الاعرابي بساعة منه وقال الاخفش بجنح من الليل وقال الضحاك ببقية الليل وقال قتادة بعد مضي

اوله وقيل انه السحر الاول وقيل بنصف منه لانه قطعة منه مساوية لباقيه وقيل بظلمة
منه وقيل بعد هدء من الليل وقال ابن عباس بطوف الليل وبسواده وقيل ان الباء بمعنى في
وقد تقدم الكلام على القطع في يونس باشبع من هذا وقيل ان السرى لايكون الا في الليل فما وجه
زيادة بقطع من الليل قيل لو لم يقله لجاز ان يكون في اوله قبل اجتماع الظلمة وليس ذلك
بمراد ولا يلتفت منكم احد اي بقلبه الى ما خلف اولا ينظر الى ما وراءه اولا يشتغل بما خلفه
من مال او غيره قيل وجه النهي عن الالتفات ان لا يروا عذاب قومهم وهول ما نزل بهم فيرحموهم
ويرقوا لهم اولئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات فانه لابد للملتفت
من فترة في سيره الا امرأتك بالنصب سبعية والاستثناء من قوله فاسر باهلك اي اسر باهلك
جميعا الا امرأتك فلا تسر بها لكونها كافرة وانكر قراءة الرفع جماعة منهم ابو عبيدة قال النحاس
الرفع على البدل له معنى صحيح اي لا يلتفت منكم احد الا امرأتك فانها تلتفت وتهلك وقيل ان
الرفع على البدل من احد ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف فكانه قال ولا يتخلف
منكم احد الا امرأتك فانها تتخلف والملجئ الى هذا التاويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين انه
اي الشان انه مصيبها ما اصابهم من العذاب وهو رميهم بالحجارة والجملة تعليل للاستثناء
ان موعدهم الصبح هذه الجملة تعليل لما تقدم من الامر بالاسراء والنهي عن الالتفات والمعنى
ان موعد عذابهم اي وقت هلاكهم الصبح المسفر عن تلك الليلة روي انه قال لهم متى موعد
هلاكهم فقالوا هذه المقالة فقال اريد اسرع من ذلك فقالوا اليس الصبح بقريب الهمزة للانكار
التقريري على حد الم نشرح لك صدرك والجملة تاكيد للتعليل ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون
النفوس فيه اسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا الى اعمالهم فلما جاء امرنا اي الوقت المضروب لوقوع
العذاب فيه او المراد بالامر نفس العذاب والاول اولى جعلنا عاليها اي عالي قرى قوم لوط سافلها
والمعنى انه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها وذلك
لان جبريل ادخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الارض حتى ادناها من السماء ثم قلبها عليهم
قال مجاهد لما اصبحوا غدا جبريل على قريتهم وقطعها من اركانها ثم ادخل جناحه ثم حملها
على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء حتى سمع اهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم

ثم قلبها فكان اول ما سقط منها سرادقها فلم يصب قوما ما اصابهم ثم ان الله طمس على اعينهم ثم قلبت قريتهم وهي خمس مدائن اكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقال كان فيها اربعة الاف الف وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا اي على المدن حين رفعها جبريل او على شذاذها وعلى من كان خارجا عنها من مسافريها او من بعد قلبها قيل انه يقال امطرنا في العذاب ومطرنا في الرحمة وقيل هما لغتان يقال مطرت السماء وامطرت حكى ذلك الهروي حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ هو الطين المتحجر بطبخ او غيره وقيل هو الشديد بالصلب من الحجارة وقيل هو الكثير وقيل ان السجيل لفظة غير عربية اصله سج وجيل وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا قال سعيد معناه سنگ گل فارسي معرب لان العرب اذا تكلمت بالشيء من الفارسي صار لغة للعرب ولا يضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق فكل هذه الفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في الفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة هو الحجر الطين دليله قوله تعالى في موضع اخر حجارة من طين وقال مجاهد اولها حجر واخرها طين وقال الحسن اصل الحجارة طين فشدت وقال الضحاك يعني الاجر وقيل هو من لغة العرب وذكر الهروي ان السجيل اسم السماء الدنيا قال ابن عطية وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود وقيل هو بحر معلق في الهوى بين السماء والارض وقيل هي جبال في السماء الدنيا وقال الزجاج هو من التسجيل لهم اي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين ومنه قوله تعالى وما ادراك ما سجين كتاب مرقوم وقيل هو من اسجلته اذا اعطيته فكانه عذاب اعطوه والاول اولى مَنْضُودٍ اي نضد بعضه فوق بعض ومنه وطلح منضود اي متراكب والمراد وصف الحجارة بالكثرة وقيل بعضه في اثر بعض يقال نضدت المتاع اذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد اي متتابع او مجموع معه العذاب نعت لسجيل مُسَوَّمَةً معلمة اي التي لها علامة حال من حجارة وسوغ مجيئها من النكرة تخصيص النكرة بالوصف والتسويم العلامة قيل كان عليها امثال الخواتيم قاله الحسن والسدي وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمي به وقال الفراء زعموا انها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها قال ابن جريج عليها سيماء لا تشاكل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع عِنْدَ رَبِّكَ اي في خزائنه او في حكمه والخطاب للنبي صلعم وَمَا هِيَ اي الحجارة الموصوفة

وقيل العقوبة المفهومة من السياق والاول اولى لانه اقرب مذكور ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهم قوم لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فانهم بظلمهم حقيق بان تمطر عليهم وفيه وعيد لكل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير للقرى اي هي قريبة من ظالمي مكة ممن كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم فانها بين الشام والمدينة يمرون بها في اسفارهم وتذكير البعيد على تاويل الحجارة بالحجر او اجراءله على موصوف مذكر اي بشيء بعيد او مكان بعيد او لكونه مصدرا كالزفير والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث وعن مجاهد قال يرهب بها قريشا ان يصيبهم ما اصابهم وعن السدي قال من ظلمة العرب ان لم يؤمنوا فيعذبوا بها وعن قتادة قال من ظالمي هذه الامة وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة وليس في ذكرها فائدة ولاسيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله اسناد صحيح وغالب ذلك ماخوذ عن اهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف وقد امرنا بان لا نصدقهم ولا نكذبهم فاعرف هذا فهو الوجه لحذفنا كثيرا من هذه الروايات الكائنة في قصص الانبياء وقومهم ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ هو اسم ابن ابراهيم الخليل ثم صار اسما للقبيلة من اولاده وهو المراد هنا وقيل هو في الاصل اسم مدينة بناها مدين المذكور والتقدير الى اهل مدين قال المقريزي في الخطط ان مدين امة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم وامهم قطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم امم ومدين على بحر القلزم تحاذي تبوك على نحو ست مراحل وهي اكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت قال الفراء مدين اسم بلد وقطر والجمهور على ان مدين اعجمي وقيل عربي فان كان عربيا فانه يحتمل ان يكون فعيلا من مدن بالمكان اقام به وهو بناء نادر وقيل فعل او مفعل من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال سواء كان اسم الارض او اسم القبيلة عجميا او عربيا انتهى وبه قال النحاس وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف بابسط مما هنا وهم قوم شعيب ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب لان شعيبا ابن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وقد تقدم تفسير قوله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ في اول السورة وهذه الجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قال لهم شعيب عليه السلام لما ارسله الله تعالى اليهم وقد كان شعيب عليه السلام يسمى

خطيب الانبياء لحسن مراجعته لقومه وهذه عادة الانبياء عليهم السلام يبدؤن بالاهم
فالاهم ولما كان الدعوة الى توحيد الله وعبادته اهم الاشياء دعاهم اليه ثم نهاهم عن ان ينقصوا
المكيال والميزان لانهم كانوا مع كفرهم اهل تطفيف كان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن و
كانوا اذا جاءهم البائع بالطعام اخذوا بكيل زائد وكذلك اذا وصل اليهم الموزون اخذوا بوزن
زائد واذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص فقال ولا تنقصوا المكيال والميزان اي لا عند الاخذ
ولا عند الدفع والنقص فيهما على وجهين كما قدمنا الاشارة اليه والمراد بالمكيال المكيل به وبالميزان
الموزون به وهذا ابلغ في الامر بوفائهما اني اراكم بخير اي بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن البخس فلا
تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده وهذه النعمة حقها ان تتفضلوا على الناس شكرا
عليها لا ان تنقصوا حقوقهم فهو في الجملة علة للنهي ثم ذكر بعد هذه العلة علة اخرى فقال
واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط فهذه العلة فيها الانذار لهم بعذاب الآخرة كما ان العلة
الاولى فيها الانذار لهم بتغيير النعمة في الدنيا ووصف اليوم بالاحاطة والمراد العذاب لان العذاب واقع في
اليوم فهو مجاز في الاسناد كقولهم نهاره صائم ومعنى احاطة عذاب اليوم بهم انه لا يشذ منهم احد عنه
ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا واليوم هو يوم القيامة وقيل هو يوم الانتقام منهم في الدنيا
بالصيحة قال ابن عباس الخير رخص السعر والعذاب غلاء السعر ثم اكد النهي عن نقص الكيل والوزن
بقوله ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط اي ايفاء بالتمام والقسط العدل وهو عدم
الزيادة والنقص وان كانت الزيادة على الايفاء فضلا وخيرا ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل والنهي عن النقص وان كان
يستلزم الايفاء ففي تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن وشدة اهتمام فلذا كرر
ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل والمعنى اتموهما ولا تطففوا فيهما وقيل القسط تقويم لسان
الميزان وتعديل المكيال ثم زاد ذلك تأكيدا ثالثا فقال ولا تبخسوا الناس اشياءهم وقد تقدم
تفسير هذا في الاعراف وفيه النهي عن البخس على العموم والاشياء اعم مما يكال ويوزن فيدخل
البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولا اوليا فظهر بهذا البيان فائدة هذا التكرير وقيل البخس
الكسر خاصة ثم قال ولا تعثوا في الارض بتطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم وقد مر ايضا
تفسيره في البقرة والعثي في الارض يشمل كل ما يقع فيها من الاضرار بالناس فيدخل فيه كل ما في

السياق من نقص المكيال والميزان وعثى مصدر قياسي وعثو سماعي وقيدة بالحال وهو قوله
مُفۡسِدِيۡنَ ليخرج ما كان صورته من العثي في الارض والمراد به الاصلاح كما وقع من الخضر في
سفينة بَقِيَّتُ اللّٰهِ اي ما يبقيه لكم من الحلال بعد ايفاء الحقوق بالقسط خَيۡرٌ لَّكُمۡ اي اكثر خيرا
وبركة مما تبقونه لانفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الارض ذكر معناه ابن جرير وغيره من
المفسرين وقال مجاهد بقية الله طاعته وقال الربيع وصيته وقال الفراء مراقبته وقال قتادة
حظكم من ربكم وقال ابن عباس رزق الله وقيل ثوابه في الاخرة وبقيت يرسم بالتاء المجرورة واذا
وقف عليه اضطرارا يصح الوقف بالمجرورة والمربوطة وليس في القرآن غيرها وانما قيد ذلك بقوله
اِنۡ كُنۡتُمۡ مُّؤۡمِنِيۡنَ لان ذلك انما ينتفع به المؤمن لا الكافر او المراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب عليه
السلام وفي البيضاوي بشرط ان تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط
بالايمان وَمَاۤ اَنَا عَلَيۡكُمۡ بِحَفِيۡظٍ احفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما واحفظ عليكم
اعمالكم واحاسبكم بها واجازيكم عليها وانما انا ناصح مبلغ وقد اعذرت حين انذرت اولست بحافظ
عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم قَالُوۡا يٰشُعَيۡبُ اَصَلٰوتُكَ تَاۡمُرُكَ مستانفة كانه قيل
ماذا قالوا لشعيب عليه السلام والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به لان الصلوة عندهم
ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان
كثير الصدقة اذا فعل ما لا يناسب الصواب صدقتك امرتك بهذا وقيل المراد بالصلوة هنا
القراءة قاله الاعمش وقيل المراد بها الدين وقيل المراد بها اتباعه لمصلي الذي يتلو السابق قال
الاحنف ان شعيبا كان اكثر الانبياء صلوة فلذلك قالوا هذه المقالة وانما ذكر الصلوة لانها من
اعظم شعائر الدين اَنۡ نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ اٰبَآؤُنَاۤ اي عبادة الاوثان وفيه ان الترك فعلهم لا فعل
شعيب وهو المامور والانسان يؤمر بفعل نفسه فالمضاف محذوف وهو التكليف وهذا فعله
اي هل هي تامرك بتكليفك ايانا ترك عبادة الاصنام وهذا منهم جواب لشعيب عن امره لهم
لعبادة الله وحده وقوله اَوۡ اَنۡ نَّفۡعَلَ فِيۡۤ اَمۡوَالِنَا مَا نَشٰٓؤُا جواب له عن امرهم بايفاء الكيل والوزن
ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثي في الارض معطوف على ما يعبد فالترك مسلط عليه
واو بمعنى الواو والمعنى اهل تامرك بتكليفك لنا ترك ان نفعل في اموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء

والزيادة والنقص وهذا لف ونشر مرتب وقرئ نفعل بالنون وما نشاء بالفوقية اي تفعل فيها اما تشاء انت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا وعن ابن زيد في الآية قال نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا انما هي اموالنا نفعل فيها ما نشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا احرقناها وان شئنا طرحناها وعن محمد بن كعب وزيد بن اسلم وابن المسيب نحوه ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا انك لانت الحليم الرشيد عند نفسك وفي اعتقادك ومعناه ان هذا الذي نهيتنا عنه وامرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد وقيل انهم قالوا ذلك لا على طريق الاستهزاء بل هو عندهم كذلك وانكروا عليه الامر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم وقد تقدم تفسير الحلم والرشد وقال ابن عباس يقولون انك لست بحليم ولا رشيد اي اراد والسفيه الغاوي لان العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل السخرية قال قتادة استهزاء به وقيل هو على بابه من الصحة والمعنى انك فينا حليم رشيد فلا يجمل بك شق عصى قومك ومخالفتهم في دينهم قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي مستانفة كالجمل التي قبلها والمعنى اخبروني ان كنت على بيان وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيما امرتكم به ونهيتكم عنه ورزقني منه اي من فضله وخزائن ملكه ومن عنده وباعانته بلا كد مني ولا تعب في تحصيله رزقا حسنا اي كثيرا واسعا حلالا طيبا لا اشوبه بالحرام من البخس والتطفيف وقد كان عليه السلام كثير المال والنعمة وقيل اراد بالرزق النبوة وقيل الحكمة وقيل العلم وقيل التوفيق وقيل المعرفة وقيل الهداية وجواب الشرط محذوف دل عليه سياق الكلام تقديره اتترك امركم ونهيكم او تقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء او هل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه وهذا الجواب شديد المطابقة بقولهم انك لانت الحليم الرشيد اي كيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف امر ربه وله عليه نعم كثيرة وما أريد بنهيي لكم عن التطفيف والبخس ان أخالفكم الى ما أنهاكم نهيتكم عنه فافعله دونكم يقال خالفه الى كذا اذا قصده وهو مول عنه وخالفته عن كذا في عكس ذلك قال الزجاج معناه لست نهاكم عن شيء وادخل فيه انما اختار لكم ما اختار لنفسي قال ابن الانباري بين ان الذي يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو

سائر شعيب لنفسه ولا يستوي الا عنيه وكان هذا التفضل نصيحة لهم وقال قتادة لم اكن لانهاكم عن امر
وأركبه إن أريد أي ما أريد بالامر والنهي إلا الإصلاح لكم ودفع الفساد في دينكم ومعاملاتكم
ما استطعت ما بلغت اليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي وما توفيقي إلا بالله اي ما صرت موفقا
هاديا نبيا مرشدا الا بتأييد الله سبحانه واقداري عليه ومنحي اياه عليه توكلت في جميع اموري
التي منها امركم ونهيكم وإليه أنيب اي اليه ارجع في كل ما نابني من الامور وافوض جميع اموري
الى ما يختاره لي من قضائه وقدره وقيل معناه اليه ارجع في الآخرة وقيل ان الانابة الدعاء ومعناه
وله ادعو وعن علي قال قلت يا رسول الله اوصني قال قل الله ربي ثم استقم قلت ربي الله
وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب قال ليهنك العلم يا ابا الحسن لقد شربت العلم شربا ونهلته
نهلا اخرجه ابو نعيم في الحلية وفي اسناده محمد بن يوسف الكديمي ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي
قال الزجاج معناه لا يكسبنكم والشقاق العداوة وقال قتادة لا يحملنكم فراقي وعن السدي لا يحملنكم
عداوتي وعن مجاهد نحوه أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من الريح
أو قوم صالح من الحجارة وغيرها وما قوم لوط منكم ببعيد يحتمل ان يريد ليس مكانهم ببعيد من
مكانكم او ليس زمانهم ببعيد من زمانكم او ليسوا منكم ببعيد في السبب الموجب لعقوبتهم وهو مطلق
الكفر وافرد لفظ بعيد لمثل ما سبق وقيل بشيء بعيد كذا قدره الزمخشري وتبعه الشيخ وقال الزمخشري
يجوز ان يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر
التي هي كالصهيل والنهيق ونحوهما وقال قتادة انما كانوا حديثي عهد قريب بهلاكهم بعد نوح وثمود
ثم بعد ترهيبهم بالعذاب امرهم بالاستغفار والتوبة فقال واستغفروا ربكم من عبادة الاوثان
ثم توبوا إليه من البخس والنقصان في المكيال والميزان وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة
عليه في اول السورة إن ربي رحيم بالمؤمنين ودود للتائبين وتقدم تفسير الرحيم والمراد هنا
انه عظيم الرحمة والودود المحب صيغة مبالغة من ود الشيء يود ودا وودادا ووَدادة اي
احبه وآثره قال في الصحاح وددت الرجل اوده ودا اذا احببته والوَد والوِد والوُد المحبة والمشهور
وددت بكسر العين وسمع بفتحها والودود بمعنى فاعل اي يود عباده اي يرحمهم وقيل بمعنى مفعول
بمعنى ان عباده يحبونه ويوادون اولياءه فهو بمنزلة المواد مجازا والاول اولى والمعنى هنا انه يفعل

بعبادة فعل من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشر عنه وفي
هذا تعليل لما قبله من الامر بالاستغفار والتوبة وجملة قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول
مستأنفة كالجمل السابقة والمعنى انك تاتينا بما لا عهد لنا به من الاخبار بالامور الغيبية كالبعث
والنشور ولا نفهم ذلك كما نفهم الامور الحاضرة المشاهدة فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة
لا مجازا وقيل قالوا ذلك اعراضا عن سماعه واحتقارا لكلامه مع كونه
مفهوما لديهم معلوما عندهم فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازا يقال فقه يفقه اذا فهم
فقها وفقها وحكى الكسائي فقها وفقها ويقال فقه فقها اذا صار فقيها وانا لنراك فينا ضعيفا اي
لا قوة لك تقدر بها على ان تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا وسهينا لا عزك وهذا قريب
من الاول وقيل المراد انه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى وقيل انه كان مصابا ببصره قال
النحاس وحكى اهل اللغة ان حمير تقول للاعمى ضعيف اي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال
له ضرير اي قد ضر بذهاب بصره وقال الزجاج الاعمى يسمى ضعيفا عن سعيد بن جبير قال كان
اعمى وانما عمي من بكائه من حب الله عز وجل وعن شداد بن اوس قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي اخرجه ابن عساكر والواحدي قال السدي معناه انما انت
واحد وقال علي كان مكفوفا فنسبوه الى الضعف وقيل الضعيف العاجز عن الكسب والتصرف وقال
الحسن ومقاتل يعني ذليلا والاول اولى ويدل لصحته قوله ولولا رهطك رهط الرجل جماعته
وعشيرته الذين يستند اليهم ويتقوى بهم ومنه الراهطة لحجر اليربوع لانه يتوثق به ويخبأ فيه ولده
والرهط والراهط يقع على الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة قاله الزمخشري ولا يقع الرهط والعصبة
والنفر الا على الرجال ويجمع على ارهط وارهط على اراهط وانما جعلوا رهطه مانعا من ايقاع الضرر
به مع كونهم في قلة والكفار الوف مؤلفة لانهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم لا خوفا
منهم وقال علي فوالله الذي لا اله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا الا العشيرة لرجمناك اي
لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة اسوء القتلات واشرها وقيل معناه لشتمناك واغلظنا لك
القول والاول اظهر ثم اكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم وما انت علينا بعزيز اي كريم
مكرم معظم حتى نكف عنك لاجل عزتك ومنعتك عندنا بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا

لما اخفتهم ولنا في الدين لا لقوة شوكتهم قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله مستأنفة وإنما
قال من الله ولم يقل مني لأن نفي العزة عنه وإثباتها لله تعالى التوجيه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي
استهانة به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليهم
من الله فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه
بصورة الاستفهام وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى
والضمير في واتخذتموه راجع إلى الله سبحانه والمعنى واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم
بنبيه الذي أرسله إليكم وراءكم ظهريا أي منبوذا وراء الظهر لا تبالون به وقيل المعنى
واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم كالشيء الملقى
الذي لا يلتفت إليه يقال جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه وظهريا منسوب إلى الظهر والكسر
من تغييرات النسب والقياس فتح الظاء كما قالوا في أمس إمسي بكسر الهمزة وإلى الدهر دهري
بضم الدال قال مجاهد نبذتم أمره وقال قتادة لا تخافونه وقال الضحاك تهاونتم به وقيل
إن الضمير يعود إلى العصيان أي واتخذتم العصيان عونا على عداوتي فالظهري على هذا بمعنى
المعين المقوي إن ربي بما تعملون محيط لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم فيجازيكم بها
يوم القيامة ويا قوم اعملوا على مكانتكم لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين
آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم
يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ تمكن إني عامل على حسب ما يمكنني ويقدرني الله لي ثم بالغ في التهديد
والوعيد بقوله سوف تعلمون أينا الجاني على نفسه المخطئ في فعله وتعلمون عاقبة ما أنتم
عليه من عبادة غير الله والإضرار بعباده وقد تقدم مثله في الأنعام قال الزمخشري وصل
سوف تارة بالفاء وتارة بالاستئناف كما هو عادة البلغاء من العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف
لأنه أكمل في باب الفصاحة والتهويل انتهى يعني حذف الفاء هنا لأنه جواب سائل هو المسمى في علم البيان
بالاستئناف البياني كأن قائلا قال فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل من يأتيه عذاب
يخزيه أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذل والفضيحة
والعار ومن هو كاذب في زعمكم ومن هو المعذب وفيه تعريض بكذبهم في قولهم لولا رهطك

لرجمناك و ما انت علينا بعزيز وقيل التقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال امره و
ارتقبوا اني معكم رقيب اي انتظروا اني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا ولما جاء امرنا بعذابهم او هلاكهم نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة منا لهم بسبب ايمانهم او بمجرد رحمتهم
للايمان واخذت الذين ظلموا غيرهم بما اخذوا من اموالهم بغير وجه وظلموا انفسهم بالتصميم
على الكفر الصيحة هي التي صاح بها جبريل حتى خرجت ارواحهم من اجسادهم وفي الاعراف فاخذتهم
الرجفة وكذا في العنكبوت وقد قدمنا ان الرجفة الزلزلة وانها تكون تابعة للصيحة لتموج الهواء
المفضي اليها وهذا في اهل قريته واما اصحاب الايكة فاهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء
احرقتهم فاصبحوا في ديارهم جاثمين ميتين باركين على الركب وقد تقدم تفسيره وتفسير
كان لم يغنوا فيها قريبا وكذا تفسير الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود قال المهدوي من ضم العين
من بعدت فهي لغة تستعمل في الخير والشر وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشر خاصة
وهي هنا بمعنى اللعنة وقيل بكسر العين بمعنى الهلاك وبضمها ضد القرب والمصدر البعد بفتح
العين والمعنى هلاكا لهم كما هلكت ثمود والتشبيه من حيث ان هلاك كل بالصيحة قال ابن الانباري
من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب قيل لم يعذب امتان قط بعذاب
واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم
الصيحة من فوقهم ولقد ارسلنا موسى هذه سابعة قصص ذكرت في هذه السورة فتقدم قصة
نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط ومدين على هذا الترتيب وهذه قصة موسى باياتنا اي بالتوراة
حال كونه متلبسا بها وسلطان مبين اي المعجزات الباهرات وقيل المراد بالايات هي التسع المذكورة
في غير هذا الموضع منها ثمانية في الاعراف والتاسعة في يونس وليس من الايات المرادة هنا التوراة
لانها انزلت بعد اغراق فرعون وقومه والسلطان العصا وهي وان كانت من التسع لكنها لما
كانت اعظم الايات وابهرها للعقول واشدها خرقا للعادة افردت بالذكر وقيل المراد بالايات
ما يفيد الظن والسلطان ما يفيد القطع مما جاء به موسى وقيل هما جميعا عبارة عن شيء واحد
اي ارسلناه بما يجمع وصف كونه اية وكونه سلطانا بينا وقيل ان السلطان المبين ما اورده موسى
على فرعون في المحاورة بينهما الى فرعون وملائه اي ارسلناه بذلك الى هؤلاء وقد تقدم

ان الملأ اشراف القوم وانما خصهم بالذكر دون سائر القوم لانهم اتباع لهم في الاصدار والايراد
يشعر هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله فاتبعوا امر فرعون اي امره لهم بالكفر لان حال فرعون
في الكفر امر واضح اذا كفر قومه من الاشراف وغيرهم انما هو مستند الى كفره ويجوز ان يراد بامر
فرعون شانه وطريقه فيعم الكفر وغيره وما امر فرعون برشيد اي ليس فيه رشد قط بل هو غي
وضلال والرشيد بمعنى المرشد والاسناد مجازي او بمعنى ذي رشد وفيه تعريض بان الرشد في
امر موسى يقدم قومه تعليل للنفي قبله من قدمه بمعنى تقدمه اي يصير متقدما لهم يوم
القيامة سابقا لهم الى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا فاوردهم النار اي انه لا يزال
متقدما لهم وهم يتبعونه حتى ادخلهم البحر في الدنيا ويوردهم النار في الآخرة والورود الدخول
قاله ابن عباس ولاجل الورد لاستينافه وهو ماض لفظا مستقبل معنى لانه عطف على ما هو نص
في الاستقبال والهمزة في اورد للتعدية لانه قبلها يتعدى لواحد قال تعالى ولما ورد ماء مدين وقيل
بل هو ماض على حقيقته وهذا قد وقع وانفصل وذلك انه اوردهم في الدنيا النار قال تعالى النار
يعرضون عليها وقيل اوردهم موجباتها واسبابها وفيه بعد لاجل العطف بالفاء قال قتادة
يمضي فرعون بين ايدي قومه حتى يهجم بهم على النار وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه ونزل النار
لهم منزلة الماء فسمي اتيانها ورودا فالنار استعارة مكنية تهكمية للضد وهو الماء واثبات
الورود لها تخييل ثم ذم الورد الذي وردهم اليه فقال وبئس الورد المورود اي المدخل المدخول
فيه الذي وردوه لان الوارد الى الماء الذي يقال له الورد انما يرده ليطفئ حر العطش ويذهب
ظماه والنار على ضد ذلك والورد يكون مصدرا بمعنى الورود فلا بد من حذف مضاف تقديره وبئس
مكان الورد المورود وهو النار وانما احتيج الى هذا التقدير لان تصادق فاعل نعم وبئس ومخصوصهما
شرط فلا يقال نعم الرجل الفرس ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه فقال واتبعوا اي اتبع
قوم فرعون مطلقا والملأ خاصة اوهم وفرعون في هذه الدنيا لعنة عظيمة اي طردا وابعادا
من الامم بعدهم واتبعوا لعنة يوم القيامة يلعنهم اهل المحشر جميعا ثم انه جعل اللعنة رفدا
لهم على طريقة التهكم فقال بئس الرفد المرفود اي العون المعان والعطاء المعطى قال الكسائي
وابو عبيدة رفدته ارفده رفدا اعنته واعطيته واسم العطية الرفد اي بئس العطاء والاعانة

ما اعطوهم اياه واعانوهم به والمخصوص بالذم محذوف اي رفدهم وهو اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة كانها لعنة بعد لعنة تمد الاخرى الاولى وتؤيدها وسميت اللعنة عونا لانها اذا تبعتهم في الدنيا ابعدتهم عن رحمة الله واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا اي عونا لهذا المعنى على التهكم والا فاللعنة اذلال لهم وانزال بهم الى الحضيض الاسفل وسميت معانا لانها ارفدت في الآخرة بلعنة اخرى لتكونا هاديتين الى طريق الجحيم وذكر الماوردي حكاية عن الاصمعي ان الرفد بالفتح القدح وبالكسر ما فيه من الشراب فكانه ذم ما يستقونه في النار وهذا انسب بالمقام وقيل ان الرفد الزيادة اي بئس ما يرفدون به بعد الغرق وهو الزيادة قاله الكلبي واصل الرفد العون والعطاء والصلة والارفاد ايضا الاعطاء والاعانة ذٰلِكَ اي ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من القصص السبعة مِنْ اَنْبَاۗءِ الْقُرٰى اي من اخبار الامم السالفة والقرون الماضية وما فعلوه بانبيائهم نَقُصُّهٗ عَلَيْكَ اي هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا وقد تقدم تحقيق معنى القصص مِنْهَا اي من القرى التي اهلكنا اهلها قَاۗىِٕمٌ وَّحَصِيْدٌ القائم ما كان قائما على عروشه والحصيد ما لا اثر له وقيل القائم العامر والحصيد الخراب وقيل القائم القرى الخاوية على عروشها والحصيد المستأصل بمعنى محصود شبه ما بقي من اثار القرى بالزرع القائم على ساقه وشبه المقطوع والمعفو منها بالحصيد قال ابن عباس يعني قرى عامرة وقرى خامدة وقال قتادة قائم يرى مكانه وحصيد لا يرى له اثر وقال ابن جريج قائم خاو على عروشه وحصيد ملصق بالارض والمعنى بعضها باق وبعضها عاف والجملة مستانفة استئنافا بيانيا لانه لما ذكر انباء القرى اتجه لسائل ان يقول ما حال هذه القرى اباقية اثارها ام لا وَمَا ظَلَمْنٰهُمْ بما فعلنا بهم من العذاب والاهلاك او باهلاكهم بغير ذنب وَلٰكِنْ ظَلَمُوْٓا اَنْفُسَهُمْ بالكفر والمعاصي فَمَآ اَغْنَتْ عَنْهُمْ اٰلِهَتُهُمُ اي فما دفعت عنهم اصنامهم وما نفعت قاله ابو عاصم الَّتِيْ يَدْعُوْنَ يعبدونها مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اي غيره مِنْ شَيْءٍ اي شيئا من العذاب وبأس الله ومن زائدة لَّمَّا جَاۗءَ اي حين جاء اَمْرُ رَبِّكَ اي عذابه وَمَا زَادُوْهُمْ غَيْرَ تَتْبِيْبٍ اي هلاك وخسران قال ابن عمر اي هلكة وقال ابن زيد اي تخسير وقيل تدمير والتتبيب اسم من تبّبه بالتشديد وتبت يداه تتب بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتبا له اي هلاكا واستتب الامر تهيأ ويستعمل لازما ومتعديا يقال تبّبه غيره

وتتب هو بنفسه والمعنى ما زادتهم اصنامهم التي يعبدونها الا هلاكا وخسرانا وقد كانوا يعتقدون
انها تعينهم على تحصيل المنافع ودفع المضار وكذلك اي مثل ذلك الاخذ اخذ ربك اياها
قرئ على انه فعل وعلى انه مصدر اذا اخذ القرى وهي ظالمة اي اهلها وهم ظالمون بالذنوب
فلا يغني عنهم من اخذه شيء ان اخذه عقوبته للكافرين اليم شديد اي موجع غليظ على
الماخوذ وهو مبالغة في التهديد والتحذير اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي موسى الاشعري
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك
اخذ ربك الاية ولا تظنن ان الاية حكمها مختص بظالمي الامم الماضية بل هو عام في كل ظالم و
يعضده الحديث ان في ذلك اي اخذ الله سبحانه لاهل القرى او في القصص السبعة التي قصها
الله على رسوله لاية لعبرة وموعظة لان القصص المذكورة فيها عذاب الدنيا وعذاب الاخرة
وقد حصل الاول فيعلم العاقل ان القادر على انزال الاول قادر على انزال الثاني لمن خاف
عذاب الاخرة لانهم الذين يعتبرون بالعبر ويتعظون بالمواعظ قال ابن زيد يقول انا سوف
نفي لهم بما وعدناهم في الاخرة كما وفينا للانبياء انا لننصرهم ذلك اي يوم القيامة المدلول
عليه بذكر الاخرة يوم مجموع له صفة ليوم جرت على غير من هي له فلذلك رفعت الظاهر
وهو الناس من الاولين والاخرين للمحاسبة والمجازاة وذلك اي يوم القيامة يوم مشهود
يشهده اهل المحشر او مشهود فيه الخلائق او يشهده اهل السماء والارض فاتسع في الظرف
باجرائه مجرى المفعول وما نؤخره اي ذلك اليوم الا لاجل اللام للتعليل اي لانتهاء اجل اي وقت
معدود معلوم بالعدد لا يعلمه الا الله وهو مدة الدنيا وقد عين سبحانه وقوع الجزاء بعده
وعبارة ابي السعود الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة يوم يأت اي
يوم القيامة وقيل الضمير لله تعالى كقوله الا ان ياتيهم الله او ياتي ربك لا تكلم اي لا تتكلم فيه
نفس بما ينفع وينجي من جواب الا باذنه اي بما اذن لها من الكلام وقيل لا تكلم بحجة ولا شفاعة
الا باذنه سبحانه لها في التكلم بذلك كقوله لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقوله تعالى من ذا
الذي يشفع عنده الا باذنه وقد جمع بين هذا وبين قوله يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها
وقوله اخبارا عن مجادلة الكفار ربنا ما كنا مشركين وقوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون

باختلاف احوالهم باختلاف مواقف القيامة وقد تكرر مثل هذا الجمع في مواضع وقد
اشتملت هذه الآية على ثلثة انواع من البديع الجمع في قوله لاتكلم نفس والتفريق في قوله فمنهم
شقي وسعيد والتقسيم في قوله فاما الذين شقوا فَمِنْهُمْ اي من الانفس او من اهل الموقف وان
لم يذكروا قال الزمخشري لان ذلك معلوم ولان قوله لاتكلم نفس يدل عليه وكذا قال ابن عطية
شَقِيٌّ هو من كتبت عليه الشقاوة وَسَعِيدٌ اي من كتبت له السعادة وتقديم الشقي على السعيد
لان المقام مقام تحذير اخرج الترمذي وحسنه وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم
وابو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول
الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه او على شيء لم يفرغ منه قال بل على شيء قد فرغ منه وجرت به
الاقلام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له وقد استدل بهذه الآية على ان اهل الموقف قسمان لا ثالث لهما
وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته و
سيئاته او لا حسنات له ولا سيئات كالمجانين والاطفال فهم تحت مشيته يحكم فيهم بما يشاء
وتخصيص القسمين لا ينفي القسم الثالث فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا اي الذين سبقت لهم الشقاوة في
علمه تعالى وهم الذين يموتون على الكفر وان تقدم منهم ايمان فَفِي النَّارِ اي فمستقرون فيها
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ قال الزجاج الزفير من شدة الانين وهو المرتفع جدا قال وزعم اهل
اللغة من البصريين والكوفيين ان الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار والشهيق بمنزلة آخره وقيل
الزفير للحمار والشهيق للبغل وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقيل الزفير
اخراج النفس والشهيق ردها وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق وقيل الزفير ترديد النفس
في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الاضلاع والشهيق النفس الطويل الممتد او رد النفس الى
الصدر والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر
فيه روحه وقال الليث الزفير ان يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه والشهيق
ان يخرج ذلك النفس وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء والجملة اما مستانفة او حالية خَالِدِينَ
لابثين فِيهَا اي في النار مَا دَامَتِ السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ ما مصدرية اي مدة دوامهما في الدنيا
وهذه المدة غير ما يزيد الله مما لا نهاية له ودام هنا تامة لانها بمعنى بقيت وقد اختلف العلماء

في بيان معنى هذا التوقيت لانه قد علم بالادلة القطعية تابيد عذاب الكفار في النار وعلم
انقطاعه عنهم وثبت ايضا ان السموات والارض تذهب عند انقضاء ايام الدنيا فقال طائفة
ان هذا الاخبار جار على ما كانت العرب تعتاده اذا ارادت المبالغة في دوام الشيء قالوا هو دائم
ما دامت السموات والارض ومنه قولهم لا اتيك ما جن الليل وما اختلف الليل والنهار وما
ناح الحمام ونحو ذلك فيكون المعنى انهم خالدون فيها ابدا لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له وقيل
ان المراد سموات الاخرة وارضها فقد ورد ما يدل على ان للاخرة سموات وارضا غير هذه الموجودة
في الدنيا وهي دائمة بدوام دار الاخرة وايضا لابد لهم من موضع يقلهم واخر يظلهم وهما ارض وسماء
قال ابن عباس لكل جنة ارض وسماء وروي نحوه عن السدي والحسن الا ما شاء ربك قد
اختلف اهل العلم في معنى هذا الاستثناء على اقوال الاول انه من قوله ففي النار كانه قال الا ما شاء
ربك من تاخير قوم عن ذلك روي هذا عن ابي سعيد الخدري الثاني ان الاستثناء انما هو
للعصاة من الموحدين وانهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون قوله سبحانه فاما الذين
شقوا عاما في الكفرة والعصاة ويكون الاستثناء من خالدين ويكون ما بمعنى من وبهذا قال
قتادة والضحاك وابو سنان وغيرهم قال البيضاوي هو استثناء من الخلود في النار لان بعضهم
وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل
يكفيه زواله عن البعض وهم المرادون بالاستثناء الثاني فانهم مفارقون عن الجنة ايام عذابهم
فان التابيد من مبدء معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان
شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم انتهى فقد ثبت بالاحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم
الضروري بانه يخرج من النار اهل التوحيد فكان ذلك مخصصا لكل عموم الثالث ان الاستثناء
من الزفير والشهيق اي لهم فيها ذلك الا ما شاء ربك من انواع العذاب غير الزفير والشهيق قاله
ابن الانباري الرابع ان معنى الاستثناء انهم خالدون فيها ما دامت السموات والارض لا يموتون
فيها الا ما شاء ربك فانه يامر النار فتاكلهم حتى يفنوا ثم يجدد الله خلقهم روي ذلك عن ابن مسعود
الخامس ان الا بمعنى سوى ولكن والاستثناء منقطع والمعنى ما دامت السموات والارض سوى ما
يتجاوز ذلك من الخلود كانه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب اطول منه ثم زاد عليه الدوام

الذي لا آخر له حكاه الزجاج وقيل سوى ما اعد لهم من عذاب غير عذاب النار كالزمهرير ونحوه السادس ما روي عن الفراء وابن الانباري وابن قتيبة من ان هذا الا يناقي عدم المشية كقولك والله لاضربنك الا ان ارى غير ذلك ونوقش هذا بان معنى الآية الحكم بخلودهم الا المدة التي شاء الله فالمشية قد حصلت جزما وقد حكى هذا القول الزجاج ايضا السابع ان للمعنى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبورهم وللحساب حكاه الزجاج ايضا الثامن ان المعنى خالدين فيها الا ما شاء ربك من زيادة النعيم لاهل النعيم وزيادة العذاب لاهل الجحيم حكاه الزجاج ايضا واختاره الحكيم الترمذي التاسع ان الا بمعنى الواو قاله الفراء والمعنى وما شاء ربك من الزيادة قال مكي وهذا القول بعيد عند البصريين ان يكون الا بمعنى الواو والعاشر ان الا بمعنى الكاف والتقدير كما شاء ربك ومنه قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء الا ما قد سلف اي كما قد سلف الحادي عشر ان هذا الاستثناء انما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب اليه الشارع في كل كلام فهو على حد قوله لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله امنين قاله ابن عطية وروى نحو هذا عن ابي عبيد ولا يحتاج الى ان يوصف بمتصل ولا منقطع وهذه الاقوال هي جملة ما وقفنا عليه من اقوال اهل العلم وقد نوقش بعضها بمناقشات ودفعت بدفوعات وقد اوضح الشوكاني ذلك في رسالة مستقلة جمعها في جواب سؤال ورد من بعض الاعلام قال السيوطي وما تقدم من التاويل هو الذي ظهر وهو خال من التكلف والله اعلم بمراده انتهى قال في الجمل اي التفسير للاستثناء وحاصله ان الا في المعنى بمعنى حرف العطف والاستثناء منقطع فكانه قيل خالدين فيها ما دامت السموات والارض وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها وقوله هو الذي ظهر اي ظهر له اختياره من ثلثة عشر وجها للمفسرين في هذا المقام وهو وجه حسن لان فيه التابيد بما يعلمه المخاطبون بالمشاهدة ويعترفون به وهو دوام الدنيا واما التابيد بدوام سموات الآخرة وارضها كما قيل ففيه انه غير معلوم للمخاطبين خصوصا من ينكر البعث وقد استوفى السمين الوجوه المذكورة ولنقتصر على نقل بعضها لكونه اقرب من غيره انتهى ثم ذكر الوجه الثاني والخامس والحادي عشر كما مر وقال ابن حجر الهيتمي المكي في الزواجر عن اقتراف الكبائر دلت الآيات والاحاديث على ان عذاب الكفار في جهنم دائم مؤبد وما ورد مما يخالف ذلك يجب

تاويله فمن ذلك قوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك
فعال لما يريد فظاهره ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض الا ما شاء الله من هذه
المدة فلا يكونون فيه خالدين فيها وقد اوله العلماء بنحو عشرين وجها يرجع بعضها الى حكمة
التقييد بمدة دوام السموات والارض وبعضها الى حكمة الاستثناء ومعناه فمن الاول ان المراد
سموات الجنة وارضها اذ السماء كل ما علاك والارض كل ما استقررت عليه وكون الجنة والنار
لهما سماء وارض بهذا الاعتبار امر قطعي لا يخفى على احد فاندفع التنظير في هذا القول بانه لا يجوز
حمل ما في الاية عليه لانه غير معروف للمخاطبين او سموات الدنيا وارضها واجرى ذلك على عادة
العرب في الاخبار عن دوام الشيء وتابيده بذلك ونحوه كقولهم لا اتيك ما سال سيل وما جن ليل
وما طما البحر وما قام جبل لانه تعالى يخاطب العرب على عرفهم في كلامهم وهذه الالفاظ في عرفهم
تفيد الابد والدوام وعن ابن عباس ان جميع الاشياء المخلوقة اصلها من نور العرش وان السموات
والارض في الاخرة تردان الى النور الذي خلقتا منه وهما دائمتان ابدا من نور العرش ثم هذا الجواب انما
يحتاج اليه بناء على ان مفهوم التقييد بدوام السموات والارض انهم لا يبقون في النار الا بقدر
مدة دوامهما من حين ايجادهما الى اعدامهما ومنع بعضهم ذلك بان المفهوم من الاية انهما
متى كانتا دائمتين كان كونهما في النار باقيا وقضية ذلك انه كلما حصل الشرط وهو دوامهما
حصل المشروط وهو بقاؤهم في النار ولا يقتضي انه اذا عدم الشرط يعدم المشروط فاذا قلنا
ما دامتا بقي عقابهم ثم قلنا لكنهما دائمتان لزم دوام عقابهم او لكنهما ما بقيتا لم يلزم
عدم دوام عقابهم لا يقال اذا دام عقابهم بقيتا او عدمتا فلا فائدة للتقييد بدوامهما لانا نقول
بل فيه اعظم الفوائد وهو دلالته على بقاء ذلك العذاب دهرا دائما طويلا لا يحيط العقل بقدر
طوله وامتداده فاما انه هل لذلك العذاب اخر ام لا فذلك يحصل من ادلة اخرى وهي الايات
المصرحة بتابيد خلودهم المستلزم انه لا اخر له ومن الثاني انه استثناء من فيها لانهم يخرجون
من النار الى الزمهرير والى شرب الحميم ثم يعودون فيها فهم خالدون فيها ابدا الا في تلك الاوقات
فانها وان كانت اوقات عذاب ايضا الا انهم ليسوا فيها حقيقة او ان ما لمن يعقل كانكحوا
ما طاب لكم من النساء ح فيكون استثناء لعصاة المؤمنين من ضمير خالدين متصلا بناء على

شمول شقوا لهم او منقطعا بناء على عدم شموله لهم وهو الاظهر او انه منقطع والا بمعنى
سوى اي ما دامتا سوى ما شاء ربك زيادة على ذلك وبقيت اجوبة كثيرة اعرضت عنها لبعدها
ولا ينافي ذلك ما رواه احمد عن عبد الله بن عمرو ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها
احد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقابا لان في سنده من قالوا فيه انه غير ثقة وصاحب اكاذيب
كثيرة عظيمة نعم نقل غير واحد هذه المقالة عن ابن مسعود وابي هريرة قال شيخ الاسلام ابن تيمية
وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وابي هريرة وانس واليه ذهب الحسن البصري
وحماد بن سلمة وبه قال علي بن طلحة الوالبي وجماعة من المفسرين انتهى ويرد ما نقله عن الحسن قول
غيره قال العلماء قال ثابت سألت الحسن عن هذا فانكره والظاهر ان هؤلاء الذين ذكرهم لم
يصح عنهم من ذلك شيء وعلى التنزل فمعنى كلامهم كما قاله العلماء ليس فيها احد من عصاة المؤمنين
اما مواضع الكفار فهي ممتلئة بهم لا يخرجون عنها ابدا كما ذكره الله في آيات كثيرة وفي تفسير
الرازي قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واستدلوا بهذه الآية وبلابثين فيها
احقابا وبان معصية الظالم متناهية فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم انتهى والجواب عن
الآية وقوله تعالى احقابا لا يقتضي ان له نهاية لما مر ان العرب يعبرون به وبنحوه عن الدوام ولا
ظلم في ذلك لان الكافر كان عازما على الكفر ما دام حيا فعوقب دائما فهو لم يعاقب بالدائم
الا على دائم فلم يكن عذابه الا جزاء وفاقا واعلم ان التقييد والاستثناء في اهل الجنة ليس المراد
بهما ظاهرهما باتفاق الكل لقوله تعالى غير مجذوذ فيأول بنظير ما مر ويكون المراد بما اذا جعلناها
بمعنى من اهل الاعراف عصاة المؤمنين الذين لم يدخلوها بعد قال ابن زيد اخبرنا الله تعالى بالذي
يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ اي مقطوع ولم يخبرنا بالذي يشاء لاهل النار انتهى كلام
ابن حجر وفي الذي تحامل به على ابن تيمية نظر فقد اوضح البحث الحافظ ابن القيم رح في حادي الارواح
الى بلاد الافراح مستوفيا بماله وعليه فمن شاء فليرجع اليه اخرج ابو الشيخ عن قتادة انه تلا هذه
الآية فقال حدثنا انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال اهل حروراء
ان من دخلها بقي فيها وعن جابر قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال ان شاء الله ان يخرج
اناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل اخرجه ابن مردويه وعن خالد بن معدان

في الآية قال انها في التوحيد من اهل القبلة وعن جابر بن عبد الله او ابي سعيد الخدري
قال هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تاتي عليه وعن
ابن عباس في قوله الا ما شاء ربك قال فقد شاء ربك ان يخلد هؤلاء في النار وان يخلد هؤلاء
في الجنة وعنه قال استثنى الله من النار ان تاكلهم وعن السدي في الآية قال فجاء بعد ذلك من
مشية الله ما نسخها فانزل بالمدينة ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم
طريقا الى آخر الآية فذهب الرجاء لاهل النار ان يخرجوا منها واوجب لهم خلود الابد وقوله اما
الذين سعدوا الآية فجاء بعد ذلك من مشية الله ما نسخها فانزل بالمدينة والذين آمنوا وعملوا
الصالحات سندخلهم جنات الى قوله ظلا ظليلا فاوجب لهم خلود الابد وعن ابي نضرة قال
ينتهي القرآن كله الى هذه الآية يعني إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وفي المناوي الكبير على الجامع الصغير
ما نصه تنبيه ما ذكرته آنفا من ان عذاب الكفار في جهنم دائم ابدا اما دلت عليه الآيات والاخبار
واطبق عليه جمهور الامة سلفا وخلفا ووراء ذلك اقوال يجب تاويلها فمنها ما ذهب اليه الشيخ
محي الدين بن عربي انهم يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون
بها لموافقتها لطبيعتهم فالثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز وقال فلا تحسبن
الله مخلف وعده رسله ولم يقل وعيده بل قال ويتجاوز عن سيئاتهم مع انه توعد على ذلك واثنى
على اسمعيل بانه كان صادق الوعد وقال في موضع آخر ان اهل النار اذا دخلوها لا يزالون خائفين
مترقبين ان يخرجوا منها فاذا اغلقت عليهم ابوابها اطمانوا لانها خلقت على وفق طباعهم قال الحافظ
ابن القيم وهذا في طرف اي جهة والمعتزلة القائلون بانه يجب على الله تعذيب من توعده بالعذاب
في طرف آخر فاولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها ابدا والقولان مخالفان لما علم بالاضطرار
ان الرسول جاء به واخبر به عن الله ومنها قول جمع النار تفنى فانه تعالى جعل لها امدا تنتهي اليه
ثم يزول عذابها لهذه الآية وقوله تعالى لابثين فيها احقابا قال هؤلاء وليس في القرآن دلالة على
بقاء النار وعدم فنائها انما الذي فيه ان الكفار خالدين فيها وانهم غير خارجين منها وانه
لا يفتر عنهم عذابها وانهم لا يموتون وان عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم وهذا لا نزاع فيه
من الصحابة والتابعين انما النزاع في امر آخر وهو ان النار ابدية او مما كتب عليه الفناء واما كون

الكفار لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة فلم يختلف فيه احد من اهل السنة وقد نقل شيخ الاسلام
ابن تيمية رح القول بفنائها عن جمع من الصحابة والتابعين وقد نصر هذا القول ابن القيم تلميذ
ابن تيمية وهو مذهب متروك وقول مهجور لا يصار اليه ولا يعول عليه وقد اول ذلك كله الجمهور
واجابوا عن الآيات المذكورة بنحو عشرين وجها وعما نقل عن اولئك الصحب بان معناه ليس فيها
احد من عصاة المؤمنين اما مواضع الكفار فهي مملوءة منهم لا يخرجون عنها ابدا كما ذكره الله
في آيات كثيرة انتهى كلامه قلت وبالله التوفيق اخرج ابن المنذر عن عمر قال لو لبث اهل النار
في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه وروى عبد بن حميد باسناد رجاله
ثقات عن عمر نحوه واخرج ابن راهويه عن ابي هريرة قال سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها احد و
قرأ فاما الذين شقوا واخرج ابن المنذر وابو الشيخ عن ابراهيم قال ما في القرآن آية ارجى لاهل النار من
هذه الآية خالدين فيها الخ قال وقال ابن مسعود ليأتين عليها زمان تخفق ابوابها وروى احمد عن ابن عمرو
بن العاص ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد وحكاه البغوي وغيره
عن ابي هريرة وغيره واخرج ابن جرير عن الشعبي قال جهنم اسرع الدارين عمرانا واسرعهما خرابا
وعن قتادة قال الله اعلم بتثنيته على ما وقعت وقد روي عن جماعة من السلف مثل ما ذكره ابن
مسعود وعمر وابو هريرة كابن عباس وابن عمرو وجابر وابي سعيد من الصحابة وعن ابي مجلز و
عبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهما من التابعين وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير
عن ابي امامة صدي بن عجلان الباهلي واسناده ضعيف وقد ثبت بذلك صحة ما نقله شيخ
الاسلام ابن تيمية عن هؤلاء وانتصره الحافظ ابن القيم ووضح وهن ما قاله ابن حجر والمناوي
عليهما وان كان لا شك في ان الراجح هو الاول ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما
كان له في تركه سعة وفي السكوت عنه غنى فقال ولا يخدعنك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء
خروج اهل الكبائر من النار فان الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم وما ظنك
بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن ابن عمرو ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه
ابوابها ليس فيها احد ثم قال واقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن ابي طالب
رضي الله تعالى عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى قال الشوكاني واقول لله المطعن على من قال

بخروج اهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صح عنه في
دواوين الاسلام التي هي دفاتر السنة المطهرة وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من
الصحابة يبلغون عدد التواتر فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما انت عنه في
مسافة بعيدة واي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الادلة الصحيحة الكثيرة
كما ذهب الى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف واما ما ظننته من ان الاستثناء الثاني
ينادي على تلك بيهوو يسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة واي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين
على العصاة من هذه الامة فالاستثناء الاول يحمل على معنى الا ما شاء ربك من خروج العصاة
من هذه الامة من النار والاستثناء الثاني يحمل على معنى الا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة
كما يخلد غيرهم وذلك لتاخر خلودهم اليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار وقد قال بهذا من اهل
العلم من قدمنا ذكره وبه قال ابن عباس حبر الامة واما الطعن على صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحافظ
سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه فالى اين يا محمود اتدري ما صنعت
وفي اي واد وقعت وعلى اي جنب سقطت ومن انت حتى تصعد الى هذا المكان وتتناول
نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء اما كان لك في مكسريك طلبتك من اهل النحو واللغة
ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدري فيالله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية
والبعد عن معرفتها الى بعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا اوقفها حيث اوقفها
الله سبحانه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ اي في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الايمان وان تقدم
منهم كفر او غيره من المعاصي قرأ الكسائي وغيره سُعدوا بضم السين وقرأ الباقون بفتحها قال
سيبويه لا يقال سُعد فلان كما لا يقال شقي فلان لكونه مما لا يتعدى قال النحاس ورايت علي بن
سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية وهذا لحن لا يجوز قال السمين قرأ
الاخوان وحفص بضم السين والباقون بفتحها فالاولى من قولهم سعده الله اي اسعده حكى
الفراء عن هذيل انها تقول كذلك قال الازهري سعد فهو سعيد كسلم فهو سليم وسُعد
فهو مسعود وقال ابو عمرو بن العلاء يقال سعد الرجل كما يقال حسن وقيل سعده لغة مهجورة
وقد ضعف جماعة قراءة الاخوين وفي المصباح سعد فلان يسعد من باب تعب في دين او دنيا

سعد وبالمصدر يمني والفاعل سعيد والجمع سعداء ويعدى بالحركة في لغة فيقال سعد الله
يسعده بفتحتان فهو مسعود وقرئ في السبعة بهذه اللغة في هذه الاية بالبناء للمفعول والاكثر
ان يتعدى بالهمزة فيقال اسعده الله وسعد بالضم خلاف شقي فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا
مَا دَامَتِ السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ معنى الاية كما مر في قوله واما الذين شقوا إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ من
الزيادة التي لا منتهى لها فالمعنى خالدين فيها ابدا وقد عرف من الاقوال المتقدمة ما يصلح
لحمل هذا الاستثناء عليه ولا يستقيم الا على التاويل المذكور في الوجه الخامس والسابع
وما بعده عَطَاءً اسم مصدر والمصدر في الحقيقة الاعطاء او يكون مصدرا على حذف
الزوائد كقوله انبتكم من الارض نباتا وهو منصوب بمقدر يقال عطوت بمعنى ناولت غَيْرَ
مَجْذُوذٍ من جذه يجذه اذا قطعه وكسره والجذاذ بكسر الجيم ما تكسر منه والضم افصح والجذاذات
القراضات والمعنى يعطيهم الله عطاء غير مقطوع يعني انه ممتد الى غير نهاية ولما فرغ الله
سبحانه من اقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والاشقياء سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بشرح احوال الكفرة من قومه في ضمن النهي عن الامتراء فقال فَلَا تَكُ حذف النون لكثرة
الاستعمال ولان النون اذا وقعت طرف الكلام لم يبق عند التلفظ بها الا مجرد الغنة فلاجرم
اسقطوها قاله الكرخي فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلَاءِ اي ما يعبدونه غير نافع لهم ولا ضار ولا تاثير
له في شيء والمرية الشك والاشارة بهؤلاء الى كفار عصره صلى الله عليه وسلم من قريش وقيل المعنى
لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء من الاصنام وقيل لا تك في شك من سوء عاقبتهم
ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني وهذا النهي له صلى الله عليه وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله
شيء من الشك فانه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك ابدا ثم بين له سبحانه بقوله مَا يَعْبُدُونَ
إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ ان معبودات هؤلاء كمعبودات اباءهم وان عبادتهم كعبادة اباءهم
مِنْ قَبْلُ وفي هذا الاستيناف تعليل للنهي عن الشك والمعنى انهم سواء في الشرك بالله
وعبادة غيره فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهو كمن قبلهم من طوائف
الشرك وفي الخازن يعني انه ليس لهم في عبادة هذه الاصنام مستند الا تقليد اباءهم انتهى
وجاء بالمضارع في كما يعبد لاستحضار الصورة ثم بين له انه مجازيهم باعمالهم فقال وَإِنَّا

لموفوهم نصيبهم من العذاب غير منقوص لا ينقص من ذلك شيء والتوفية لا تستلزم النقص فقد يجوز ان يوفى وهو ناقص كما يجوز ان يوفى وهو كامل قال القاضي كالزمخشري فانك تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازا انتهى وانت خبير بانه اذا لم تكن قرينة المجاز قائمة كما في هذا المقام لا تكون الحال الا للتاكيد لان التوفية تقتضي الاكمال فقد استفيد معناها من عاملها وهو شان المؤكدة وفائدته دفع توهم التجوز قال بعضهم وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا في حد نفسه مبني على الذهول عن كون العامل هو التوفية تامل قاله الكرخي وقيل المراد نصيبهم من الرزق وقيل ما هو اعم من الخير والشر ولقد آتينا موسى الكتاب اي التوراة فاختلف فيه اي في شانه وتفاصيل احكامه فامن به قوم وكفر به آخرون وعمل باحكامه قوم وترك العمل ببعضها آخرون فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن وقيل في سببية اي هو سبب اختلافهم وقيل بمعنى على ولولا كلمة اي الا نظار الى يوم القيامة اي الحكم الازلي بتاخير عذابهم سبقت من ربك لما علم في ذلك من الصلاح لقضي بينهم اي بين قومك او بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فاثيب المحق وعذب المبطل وعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم والكلمة هي ان رحمته سبحانه سبقت غضبه فامهلهم ولم يعاجلهم لذلك وقيل ان الكلمة هي انهم لا يعذبون بعذاب الاستيصال وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وسلم ثم وصفهم بانهم في شك من الكتاب فقال وانهم لفي شك منه اي من القرآن ان حمل على قوم محمد صلى الله عليه وسلم او من التوراة ان حمل على قوم موسى مريب موقع في الريبة من اراب اذا حصل الريب لغيره او صار هو في نفسه ذا ريب ثم جمع الاولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم او هو والثواب فقال وان كلا اي كل الخلائق لما ليوفينهم ربك اعمالهم اي جزاءها وفي ان وكلا ولما اقوال مختالفة هل ان مخففة ام مثقلة والتنوين في كلا مع النصب عوض عن المضاف اليه ام نصبه بان ولما خفيفة ام ثقيلة وهي بمعنى الا ام لا واحسن هذه الاقوال انها بمعنى الا الاستثنائية وقد روي ذلك عن الخليل وسيبويه ورجحه الزجاج وقرأ ابي ان كل الا ليوفينهم وقرئ بالتنوين بمعنى جميعا وبسط الكلام في ذلك في حمل قال السمين هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديما وحديثا

وعسر على أكثرهم تلخيصها قراءة وتخريجا وقد سهل الله تعالى ذلك فذكرت اقاويلهم وما هو الراجح منها فاقول قرأ بعضهم ان ولما مخففتين وبعضهم خفف ان وثقل لما وبعضهم شددهما وبعضهم شدد ان وخفف لما فهذه اربع قراءات في هذين الحرفين وكلها متواترة سبعية قال والرابعة وهي تشديد ان وتخفيف لما فواضحة جدا وقرئ شاذا وان كل بتخفيف ان ورفع كل ولما بالتشديد وهي قراءة الحسن البصري وعليها فلما بمعنى الا انتهى ملخصا وقرئ ايضا شاذا قراءات أخر فليراجع في السمين وغيره اِنَّهٗ بِمَا يَعْمَلُوْنَ ايها المختلفون خَبِيْرٌ لا يخفى عليه منه شيء والجملة تعليل لما قبلها وفيه وعد للمحسنين المصدقين ووعيد للمكذبين الكافرين ثم امر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لانواع الطاعة له سبحانه فقال فَاسْتَقِمْ كَمَآ اُمِرْتَ اي كما امرك الله فيدخل في ذلك جميع ما امره به وجميع ما نهاه عنه لانه قد امره بتجنب ما نهاه عنه كما امره بفعل ما تعبده بفعله وامته اسوته في ذلك قال قتادة أمره ان يستقيم على امره ولا يطغى في نعمته وقال سفيان استقم على القرآن وعن الحسن قال لما نزلت هذه الآية قال شمروا شمروا فما رئي ضاحكا قال ابو السعود وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم شيبتني سورة هود وَلْيستقم مَنْ تَابَ مَعَكَ اي امن ورجع عن الكفر الى الاسلام وشاركك في الايمان وما اعظم موقع هذه الآية واشد امرها فان الاستقامة كما امر الله لا تقوم بها الا الانفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم شيبتني هود كما تقدم وعن سفيان الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا اسأل عنه احدا بعدك قال قل امنت بالله ثم استقم اخرجه مسلم اقول هي تشمل العقائد والاعمال والاخلاق فانها في العقائد اجتناب التشبيه والتاويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع والمحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال والآراء وفي الاخلاق التباعد عن طرفي الافراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان وَلَا تَطْغَوْا الطغيان مجاوزة الحد لما امر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين ان الغلو في العبادة والافراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده وللمقدار الذي

بدعة ممنوع منه منهي عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال
الذي اذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه اما انا فاصوم
وافطر واقوم وانام وانكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
وللامة تغليبا لحالهم على حاله او النهي عن الطغيان خاص بالامة قال ابن عباس لا تطغوا
لا تظلموا وقال العلاء بن عبد الله لم يرد اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم انما عنى الذين يجيئون من بعدهم
وعن ابن زيد الطغيان خلاف امره وارتكاب معصيته انه بما تعملون بصير يجازيكم على
حسب ما تستحقون والجملة تعليل لما قبلها قيل ما نزلت اية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي اشد
من هذه الاية ولا تركنوا الى الذين ظلموا قرئ بفتح الكاف وضمها وهي لغة تميم وقيس والاول لغة
اهل الحجاز قال ابو عمرو ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما
كان من باب علم يعلم قال الازهري وليست بالفصيحة وركن يركن بفتحتين وليست بالاصل بل
من تداخل اللغتين وقال الراغب والصحيح انه يقال بالفتح فيهما وبالكسر في الماضي والفتح في المضارع وبالفتح
في الماضي والضم في المضارع وقرئ على البناء للمفعول من اركنه وقال في الصحاح ركن اليه يركن
بالضم وحكى ابو زيد ركن اليه بالكسر يركن ركونا فيهما اي مال اليه وسكن قال الله تعالى ولا تركنوا
الى الذين ظلموا واما بالفتح فيهما فانما هو على الجمع بين اللغتين انتهى وقال في شمس العلوم الركون
السكون وقال في القاموس ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركونا مال وسكن انتهى فهؤلاء الائمة من
رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث
قال فان الركون هو الميل اليسير وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد
الا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ومن المفسرين من ذكر في تفسير
الركون قيودا لم يذكرها ائمة اللغة قال القرطبي في تفسيره الركون حقيقة الاستناد والاعتماد و
السكون الى الشيء والرضاء به ومن ائمة التابعين من فسر الركون بما هو اخص من معناه اللغوي
فروي عن قتادة وعكرمة ان معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم وقال عبد الرحمن بن زيد الركون
هنا الادهان وذلك ان لا ينكر عليهم كفرهم وقال ابو العالية معناه لا ترضوا اعمالهم وقال
ابن عباس الركون الى الشرك ولا تركنوا لا تميلوا ولا تذهبوا وعن عكرمة لا تصطنعوهم

وقد اختلف ايضا الائمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين او عامة فقيل خاصة وان معنى الآية النهي عن الركون الى المشركين وانهم المرادون بالذين ظلموا وقد روي ذلك عن ابن عباس وقيل انها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم وهذا هو الظاهر من الآية ولو فرضنا ان سبب النزول هو المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فان قلت وقد وردت الادلة الصحيحة البالغة حد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا يخفى على من له ادنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الائمة والسلاطين والامراء حتى ورد في بعض الفاظ الصحيح اطيعوا السلطان وان كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة وورد وجوب طاعتهم ما اقاموا الصلوة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله وظاهر ذلك انهم وان بلغوا في الظلم الى اعلى مراتبه وفعلوا اعظم انواعه مما لم يخرجوا به الى الكفر البواح فان طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما امروا به من معصية الله ومن جملة ما يأمرون به تولي الاعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله ومن جملة ما يأمرون به الجهاد واخذ الحقوق الواجبة من الرعايا واقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم واقامة الحدود على من وجبت عليه وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت امرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله ولا بد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لا بد منه ولا محيص عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الادلة الواردة به بل قد ورد به الكتاب العزيز واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم بل ورد انهم يعطون الذي لهم من الطاعة وان منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الاحاديث الصحيحة اعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم بل ورد الامر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال وان اخذ مالك وضرب ظهرك فان اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون وان اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال اليهم في الظاهر لامر يقتضي ذلك شرعا كالطاعة او للتقية ومخافة الضرر منهم او لجلب مصلحة عامة او خاصة او دفع مفسدة عامة او خاصة اذا لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بافعالهم قلت اما الطاعة على عمومها بجميع اقسامها

حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بادلتها
التي قدمنا الاشارة اليها ولا شك في هذا ولا ريب فكل من امروه ابتداء ان يدخل في شيء من الاعمال
التي امرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها اذا وثق من نفسه بالقيام بما
وكل اليه فذلك واجب عليه فضلا عن ان يقال جائز له واما ما ورد من النهي عن الدخول في الامارة
فذلك مقيد بعدم وقوع الامر ممن تجب طاعته من الائمة والسلاطين والامراء جمعا بين الادلة او مع
ضعف المامور عن القيام بما امر به كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الاحاديث
الصحيحة واما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة او خاصة او دفع مفسدة عامة او خاصة
مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب
تلك المصلحة او دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالادلة الدالة
على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد والاعمال بالنيات وانما لكل امرء ما نوى ولا تخفى على الله خافية
وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه ان يزن اقواله وافعاله وما ياتي وما يذر بميزان الشرع
فان زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني ومن قدر على الفرار منهم قبل ان يؤمر من جهتهم بامر يجب
عليه طاعته فهو الاولى له والاليق به يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اجعلنا من عبادك
الصالحين الامرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقونا على ذلك ويسره
لنا واعنا عليه قال القرطبي في تفسيره وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار انتهى
وقال النيسابوري في تفسيره قال المحققون الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة او تحسين الطريقة
وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الابواب فاما مداخلتهم لدفع شيء من الضرر
واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخلة في الركون قال واقول هذا من طريق المعاش والرخصة
ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية اليس الله بكاف عبده انتهى فتمسكم النار بسبب
الركون اليهم وفيه اشارة الى ان الظلمة اهل النار او كاهل النار ومصاحبة النار توجب لا محالة مس
النار قيل هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم والجملة حالية او مستانفة قال ابو السعود واذا كان
حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين
في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم

ومعاشرتهم ويبتهج بالتزي بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما اوتوا من القطوف
الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن ان تميل اليه القلوب
ضعف الطالب والمطلوب والآية ابلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله
عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الميل الى احد طرفي الافراط
والتفريط ظلم على نفسه او على غيره انتهى وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ان ركنتم اليهم والمعنى انها
تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ونفي الاولياء ليس بطريق نفي ان يكون لكل
واحد منهم اولياء حتى يصدق ان يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن
لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي ان يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام
ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق في علمه انه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم
عنه فلم تنتهوا عناداً وتمرداً والجملة حالية او مستأنفة معترضة واتى بثم ههنا تنبيهاً على
تراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعدما اوعدهم بالعذاب واوجبه عليهم و
يجوز ان يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين ان الله تعالى معذبهم وان غيره
لا ينقذهم انتج انهم لا ينصرون اصلا وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص
من انواعها اقامة الصلوة لكونها راس الايمان والمراد صلوة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر قاله
الحسن وقيل الظهر موضع العصر وقيل الطرفان الصبح والمغرب قاله ابن عباس وقيل هما الظهر والعصر
وقال مجاهد صلوة الفجر والظهر والعصر ورجح ابن جرير انهما الصبح والمغرب قال والدليل عليه اجماع الجميع
على ان احد الطرفين الصبح فدل على ان الطرف الآخر المغرب قال الرازي كثرت المذاهب في تفسير طرفي
النهار والاشهر انهما الفجر والعصر لان احد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الاول
هو صلوة الفجر والطرف الثاني لا يجوز ان يكون صلوة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فوجب
حمل الطرف الثاني على صلوة العصر وَزُلَفًا اي في زلف مِّنَ اللَّيْلِ والزلف الساعات القريبة بعضها
من بعض ومنه سميت المزدلفة لانها منزل بعد عرفة بقرب مكة وقرئ زلفا بضم اللام جمع زليف
ويجوز ان يكون واحده زلفة وقرئ باسكان اللام وقرأ مجاهد زلفى على وزن فعلى وقرأ الباقون زلفا
بفتح اللام كغرفة وغرف قال ابن الاعرابي الزلف الساعات واحدتها زلفة وقال قوم الزلفة اول ساعة من الليل

بعد مغيب الشمس وفي القاموس الزلفة الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات والزلف ساعات الليل
الآخذة من النهار وساعات النهار الآخذة من الليل قال الاخفش معنى زلفا من الليل صلوة الليل
قال ابن عباس صلوة العتمة وقال الحسن هما زلفتان صلوة المغرب وصلوة العشاء وعن مجاهد و
الحسن نحوه وقال ايضا ساعة بعد ساعة يعني صلوة العشاء الآخر إِنَّ الْحَسَنَاتِ التي الواجبة والمندوبة
وغيرها على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلوات عن ابن مسعود قال هي الصلوات الخمس وزاد ابن
عباس والباقيات الصالحات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ على العموم وقيل المراد بها الصغائر ومعنى يذهبن
يكفرنها حتى كانها لم تكن اخرج البخاري ومسلم واهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود ان رجلا اصاب
من امرأة قبلة فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كانه يسأل عن كفارتها فانزلت عليه واقم الصلوة
طرفي النهار الآية فقال الرجل يا رسول الله الي هذه قال هي لمن عمل بها من امتي واخرج احمد ومسلم
وابو داؤد وغيرهم عن ابي أمامة ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اقم في حد الله
مرة او مرتين فاعرض عنه ثم اقيمت الصلوة فلما فرغ قال اين الرجل قال انا ذا قال اتممت الوضوء وصليت
معنا آنفا قال نعم قال فانك من خطيئتك كيوم ولدتك امك فلا تعد وانزل الله ح على رسوله واقم
الصلوة طرفي النهار وفي الباب احاديث كثيرة بالفاظ مختلفة وورد احاديث صحيحة ايضا
ان الصلوات الخمس كفارات لما بينهن وقال مجاهد الحسنات قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله
والله اكبر والاول اولى وبه قال ابن المسيب والقرطبي والضحاك وجمهور المفسرين اي الصلوات الخمس وله
تدل الاحاديث ذَٰلِكَ اشارة الى قوله فاستقم وما بعده وقيل الى القرآن ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ اي موعظة
للمتعظين عن الحسن قال هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية و
البلاء وعن ابن جريج قال لما نزع الذي قبل المرأة تذكره فذلك قوله ذلك ذكرى للذاكرين واصبر
على ما امرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون الى الذين ظلموا وقيل ان المراد الصبر
على ما امر به دون ما نهي عنه لانه لا مشقة في اجتنابه وفيه نظر فان المشقة في اجتناب المنهي عنه
كائنة وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الامر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ اي يوفيهم اجورهم ولا يضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص قيل
المحسنون للمصلون فَلَوْلَا كَانَ هذا عود الى احوال الامم الخالية لبيان ان سبب حلول عذاب الاستيصال

بهم انه ماكان فيهم من ينهى عن الفساد ويامر بالرشاد فقال فلولا اي فهلا وكان تامة من القرون
الماضية المهلكة بالعذاب الكائنة مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ من الراي والعقل والدين والبقية في الاصل
اسم لما يستبقيه الرجل مما يخرجه وهو لا يستبقي الا اجوده وافضله فصار لفظ البقية مثلا في الجودة
يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير والمراد بها حينئذ جيد الشيء وخياره من قولهم فلان بقية
الناس وبقية الكرام وانها صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت التاء فيها وقيل
معناه اولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان على خصلة محمودة ومنه
قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا وقيل انها مصدر بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى
اي فهلا كان منهم ذوو ابقاء على انفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه وقرئ بتخفيف الياء و
هي اسم فاعل من بقي والتقدير اولو طائفة بقية اي باقية وقرئ بضم الباء وسكون القاف اخرج
ابن مردويه عن ابي بن كعب قال اقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم اولو بقية واحلام يَنْهَوْنَ قومهم
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل وقوة
الدين وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى والاستثناء في قوله إِلَّا قَلِيلًا منقطع اي لكن قليلا
مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ اي من الامم الماضية وهم اتباع الانبياء نهوا عن الفساد في الارض وسائرهم
تركوا النهي وقيل هو متصل لان في حرف التحضيض معنى النفي فكانه قال ما كان في القرون اولو بقية
ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم الا انه يؤدي الى النصب في غير الموجب وان كان
غير النصب اولى قال الزمخشري ان جعلته متصلا كان المعنى فاسدا لان الكلام يؤل الى ان الناجين
لا يحضوا على النهي ومن في ممن بيانية لا تبعيضية لان النجاة للناهين وحدهم وقيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله
فيما مر الا قوم يونس وقيل هم اتباع الانبياء اهل الحق من الامم على العموم وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
انفسهم بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهي عنه مَا أُتْرِفُوا فِيهِ اي نعموا من الشهوات فاهتموا
بتحصيل اسبابها واعرضوا عما وراء ذلك والمترف الذي ابطرته النعمة يقال صبي مترف منعم
البدن وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك
وترف كفرح تنعم واترفته النعمة اطغته واترف فلان اصر على المكر والمترف كمكرم المتروك
يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه اي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين

من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق واثروا ذلك على الاشتغال باعمال الآخرة و
استغرقوا عمارهم في الشهوات النفسانية وقيل المراد بالذين ظلموا تاركوا النهي ورد بانه يستلزم
خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهو اشد ظلما ممن لم يباشر وكان ذنبه ترك النهي وقرئ
واتبع على البناء للمفعول ومعناه اتبعوا جزاء ما اترفوا فيه قال مجاهد واتبع الذين ظلموا اي في طلب ملكهم
وتجبرهم وتركهم للحق وقال ابن عباس اترفوا ابطروا وجملة وكانوا مجرمين متضمنة لبيان سبب اهلاكهم
اي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما اترفوا فيه مجرمين كافرين والاجرام الآثام والمعنى انهم اهل اجرام
بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الامور التي يحق الاشتغال بها ويجوز ان تكون
معطوفة على واتبع الذين اي اتبعوا شهواتهم وكانوا بسبب ذلك الاتباع مجرمين وما كان
ربك ليهلك القرى اي ما صح ولا استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي اهلكها
حسب ما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتاكيد النفي بظلم
اي متلبسا به قيل هو حال من الفاعل اي ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بان اهلاك المصلحين
ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى
والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة اهل السنة قال الزجاج يجوز
ان يكون المعنى وما كان ربك ليهلك احدا وهو يظلمه وان كان على نهاية الصلاح لان تصرفه
في ملكه دليله قوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيئا وقوله ان الله ليس بظلام للعبيد واهلها
مصلحون حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالا من فاعله اعني
بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلما بحال كون اهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقا
عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية اي لا يهلك القرى بسبب اشراك اهلها اي بمجرد
الشرك وحده حتى ينضم اليه الفساد في الارض ومتابعة الهوى كما اهلك قوم شعيب بنقص المكيال
والميزان وبخس الناس اشياءهم واهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء وهم مصلحون
يتعاطون الحق فيما بينهم لا يظلمون الناس شيئا وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى
ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغني الحميد
وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانت تدري ان مقام النهي عن المنكرات التي اقبحها

الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل في الفساد في الارض دخولا اوليا ولذلك ينهى كل من
الرسل الذين قصت انباؤهم اممهم اولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها
فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من اصناف المعاصي وحمل
الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين
الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من انواع الفساد وقيل المعنى وما
كان يهلكهم بذنوبهم وهم مخلصون في الايمان فالظلم المعاصي على هذا اخرج الطبراني و
ابو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسير
هذه الآية فقال واهلها ينصف بعضهم بعضا وروي موقوفا على جرير قيل والمراد بالهلاك
عذاب الاستيصال في الدنيا واما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ
أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ اي اهل دين واحد اما اهل ضلالة او اهل هدى وقيل معناه جعلهم مجتمعين على
الحق غير مختلفين فيه او مجتمعين على دين الاسلام دون سائر الاديان ولكنه لم يشأ ذلك
فلم يكن ولهذا قال ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في ذات بينهم على اديان شتى ما بين يهودي و
نصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا في اديانهم اختلافا كثيرا لا ينضبط
وقيل مختلفين في الحق او دين الاسلام وقيل مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير
وعن ابن عباس في الآية قال اهل الحق واهل الباطل عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة او اثنتين وسبعين والنصارى كذلك وستفترق
امتي على ثلاث وسبعين فرقة اخرجه ابو داؤد والترمذي بنحوه عن معاوية قال قام فينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين
فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في
الجنة وهي الجماعة اخرجه ابو داؤد وقال الخطابي فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة
عن الملة والدين اذ جعلهم من امته وقال غيره المراد بها اهل البدع والاهواء الذين تفرقوا
واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم والمراد بالواحدة
هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول في قوله وفعله ولم يقلدوا احدا في خلافه ﴿إِلَّا

مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ اي الا اهل رحمته فانهم لا يختلفون وعن عطاء بن ابي رباح قال لا يزالون مختلفين اي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية وهم الذين رحم ربك وقال الحسن الناس مختلفون على اديان شتى الا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف وعن مجاهد قال من اختلف اهل الباطل ومن رحم اهل الحق فمن الله عليهم بالتوفيق والهداية الى الدين الحق فانهم لم يختلفوا اوالا من رحم ربك من المختلفين في الحق او دين الاسلام بهدايته الى الصواب الذي هو حكم الله وهو الحق الذي لا حق غيره او الا من رحم ربك بالقناعة و الاولى تفسير لجعل الناس امة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في الا من رحم واضحا غير محتاج الى تكلف وَلِذَٰلِكَ اي ولما ذكر من الاختلاف او ولرحمته وصح تذكير الاشارة الى الرحمة لكون تانيثها غير حقيقي والضمير في خَلَقَهُمْ ان كان راجعا الى الناس فالاشارة الى الاختلاف واللام للعاقبة او اليه والى الرحمة وان كان الى مَنْ فالى الرحمة وقيل الاشارة بذلك الى مجموع الاختلاف والرحمة ولا مانع من الاشارة بها الى شيئين كما في قوله عوان بين ذلك وقوله وابتغ بين ذلك سبيلا وقوله فبذلك فليفرحوا قال مجاهد خلقهم للرحمة وعن عكرمة نحوه وقال ابن عباس خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف وفريقا لا يرحم فيختلف فذلك قوله فمنهم شقي وسعيد وقال الحسن وعطاء خلقهم للاختلاف وقال اشهب سالت مالك بن انس عن هذه الاية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير وقال الفراء خلق اهل الرحمة للرحمة واهل الاختلاف للاختلاف وحاصل الاية ان الله خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين وحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة ومصيرهم الى الجنة وهم اهل الاتفاق ويدل لصحة هذا قوله وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ اي ثبتت كما قدره في ازله واذا تمت وحقت ووجبت امتنعت من التغيير والتبديل وقيل الكلمة هي قوله للملائكة لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ اي الجن والتاء للمبالغة وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ اي ممن يستحقها من الطائفتين وَكُلًّا اي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه نَّقُصُّ عَلَيْكَ اي نخبرك به مما تحتاج اليه وقوله مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ بيان لكلا وقوله مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ بدل منه والاظهران يكون المضاف اليه

المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص اي كل اقتصاص اي كل اسلوب من اساليبه نقص عليك من انباء الرسل وقوله ما نثبت مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمانينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة واحتمال اذية الكفار بالوقوف على تفاصيل احوال الامم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من مكابرة المشاق لان تكاثر الادلة اثبت للقلب وارسخ في النفس واقوى للعلم وجاءك في هذه اي السورة قاله ابن عباس وابو موسى الاشعري وسعيد بن جبير والحسن وعليه الاكثر او في هذه الدنيا قاله قتادة وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر وقيل في هذه الآية او في هذه الانباء الحق اي البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد وقيل النبوة وعلى الاول يكون تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها وقيل لانها جمعت من هلاك الامم وشرح حالهم ما لم يجمع غيرها وقيل خصها بالذكر تشريفا لها والتعريف في الحق اما للجنس او للعهد واما عرفه ونكر تاليه تفخيما له لكونه يطلق على الله بخلاف تاليه وموعظة يتعظ بها الواقف عليها اذا تذكر احوال الامم الماضية وذكرى للمؤمنين اي يتذكر بها من تفكر فيها منهم وخص المؤمنين لكونهم المتاهلين للاتعاظ والتذكر وقل للذين لا يؤمنون بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون اعملوا حال كونكم قارين وثابتين على مكانتكم على تمكنكم وحالكم وجهتكم من الكفر وقد تقدم تحقيقه وقال قتادة على منازلكم انا عاملون على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الايمان بالحق والاتعاظ والتذكر وفي هذا تشديد للوعيد وتهديد لهم وانتظروا عاقبة امرنا وقال ابن جريج انتظروا مواعيد الشيطان اياكم على ما يزين لكم انا منتظرون عاقبة امركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى ولله غيب السموات والارض اي علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما وخص الغيب مع كونه يعلم بما هو مشهود كما يعلم بما هو مغيب لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره وقيل ان غيب السموات والارض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الارض والاول اولى وبه قال ابو علي الفارسي وغيره واليه اي الى الغيب المذكور لا الى غيره يرجع بالبناء للفاعل يعود وللمفعول يرد الامر كله اي امر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة يوم القيامة فيجازي كلا بعمله

فينتقم ممن عصى ويثيب من اطاع وقال ابن جريج فيقضي بينهم بحكم العدل فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فانه كافيك كلما اتكره ومعطيك كل ما تحب والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله سبحانه قيل هذا الخطاب له ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وفي تاخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لا ينفع دونها وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ بل عالم بجميع ذلك ومجازٍ عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر وقرأ اهل المدينة والشام وحفص بالفوقية على الخطاب وهي سبعية والباقون بالتحتية وهو الجمهور واخرج عبد الله بن احمد وابن الدريس وابن جرير وابو الشيخ عن كعب الاحبار قال فاتحة التوراة فاتحة الانعام وخاتمة التوراة خاتمة هود ولله غيب السموات والارض الى آخر الآية ÷ ÷ ÷

سورة يوسف عليه السلام

قيل هي مائة واحدى عشرة آية وهي مكية كلها وقيل نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة وقال ابن عباس وقتادة الا اربع آيات قال القرطبي قال العلماء ذكر الله اقاصيص الانبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بالفاظ متباينة على درجات البلاغة وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة ما لم يتكرر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ اي تلك الآيات التي انزلت اليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر امرها في اعجاز العرب وتبكيتهم والمبين من ابان بمعنى بان اي الظاهر امره في كونه من عند الله وفي اعجازه والمبين بمعنى الواضح بحيث لا يلتبس على قاريه وسامعه او المبين لما فيه من الاحكام او المبين فيه قصص الاولين وشرح احوال المتقدمين او الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم او قد ابين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف قال قتادة مبين بينه الله ببركته ورشده فهذا من بان اي ظهر وقال الزجاج مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من ابان بمعنى اظهر قال مجاهد بين الله حلاله وحرامه وعن معاذ قال بين الله الحروف التي سقطت عن السن الاعاجم وهي ستة احرف إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ اي الكتاب

المبين حال كونه قرانا فعلى تقدير ان الكتاب السورة يكون تسميتها قرانا باعتبار ان القران
اسم جنس يقع على الكل و على البعض و على تقدير ان المراد به كل القران فتكون تسميته قرانا
واضحة وعربيا صفة لقرانا اي على لغة العرب وفيه من غير لسان العرب مثل سجيل و
مشكوة واليم واستبرق ونحو ذلك قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وهذا هو الصحيح وانكرها
ابو عبيدة محتجا بهذه الاية والجمع انها لما تكلمت به العرب نسبت اليهم وصارت لهم لغة
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ اي لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه لانه نازل بلغتكم اخرج الحاكم عن
جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى قرانا عربيا ثم قال الهم اسماعيل هذا اللسان العربي الهاما
وعن مجاهد قال نزل القران بلسان قريش وهو كلامهم نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
هو تتبع الشيء ومنه قوله تعالى وقالت لاخته قصيه اي تتبعي اثره وهو مصدر وسميت الحكاية قصة
لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا والتقدير نقص عليك قصصا احسن
القصص فيكون بمعنى الاقتصاص او هو بمعنى المفعول اي المقصوص والظاهر انه احسن ما يقتص
في بابه قال ابن عباس قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه الاية وعن ابن مسعود
مثله وقال قتادة نقص عليك من الكتب الماضية والقرون الخالية وامور الله السابقة في الامم
احسن البيان واختلف في وجه كون هذه السورة او القران هو احسن القصص فقيل لان ما في
هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها وقيل لما فيها من حسن
المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على اذاهم وعفوه عنهم وقيل لان فيها ذكر
الانبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والانعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار
والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن وقيل لان فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما
وقيل ان احسن هنا بمعنى اعجب وقيل لان كل من ذكر فيها كان مآله السعادة قال خالد بن معدان
سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما اهل الجنة في الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا
استراح اليها بِمَا أَوْحَيْنَا اي بايحائنا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ اي من قبل ايحائنا
اليك لَمِنَ الْغَافِلِينَ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك اِذْ اي اذكر وقت ان قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ قرأ الجمهور يوسف بضم السين وقرئ بكسرها مع الهمز مكان الواو وحكى ابن زيد فتح

السين وهو اسم عبراني غير منصرف للعلمية والعجمة وقيل هو عربي والاول اولى بدليل عدم صرفه
وابوه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وعاش يوسف من العمر مائة وعشرين سنة ذكره السيوطي
في التحبير يا ابت بكسر تاء التانيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة واصله يا ابي وحرف
التعويض مختص بلفظين يا ابت ويا امت ولا يجوز في غيرهما من الاسماء وممن نص على كونها للتانيث
سيبويه والخليل ويدل عليه كتبهم اياها هاء وقياس من وقف بالتاء ان يكتبها تاء كبنت واخت
وجاز الحاقها بالمذكر كما جاز حمامة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة اني رايت من الرؤيا النومية
لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه لا تقصص رؤياك على اخوتك قال ابن عباس رؤيا الانبياء
حق وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر فرأى ان احد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها
الشمس والقمر فسجدوا له وكان يوسف اذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل
سبع سنين احد عشر كوكبا وهي جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح
والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين قاله البيضاوي وهذه نجوم غير مرصودة خصت بالرؤيا
لغيبتهم عنه قاله الشهاب وفي رد في حديث اسماؤها هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور وفيه الضعفاء والمتروكون
وقال ابن الجوزي هو موضوع قال ابن عباس احد عشر كوكبا اخوته والشمس امه والقمر ابوه وعن قتادة
والسدي وابن زيد نحوه والشمس والقمر اخرهما عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما
كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة وقيل ان الواو بمعنى مع رايتهم لي ساجدين مستانفة
لبيان الحالة التي راهم عليها واجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف
العقلاء وهو كونها ساجدة كذا قال الخليل وسيبويه والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل اذا
نزلوه منزلته وقيل كررت للتاكيد لما طال الفصل بالمفاعيل والاول اولى واليه نحا الزمخشري
لانه متى دار الكلام بين الحمل على التاكيد او التاسيس فحمله على الثاني اولى والمراد حقيقة السجود
لانه كان التحية فيما بينهم السجود وقيل المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت امره والاول
اولى ولم تظهر رؤية يوسف الا بعد اربعين سنة وهو قول اكثر المفسرين وقال الحسن البصري
كان بينهما ثمانون سنة حين اجتمع عليه ابواه واخوته وخروا له ساجدين قال يا بني لا تقصص
رؤياك على اخوتك الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى والفه للتانيث

ولذلك لم يصرف نهى يعقوب ابنه يوسف عن ان يقص رؤياه على اخوته لانه قد علم تاويلها وخاف ان يقصها عليهم فيفهمون تاويلها ويحصل منهم الحسد له ولهذا قال فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا وهذا جواب النهي اي فيفعلوا لاجلك كيدا مثبتا راسخا لاتقدر على الخلوص منه او كيدا خفيا عن فهمك وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام اكد من ان يقال فيكيدوك كيدا وقيل انما جيئ باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدي باللام فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعا الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين ان يقدر احدهما اصلا والاخر حالا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ مستانفة كان يوسف قال كيف يقع ذلك منهم فنبه بان الشيطان يحملهم على ذلك لانه عدو للانسان مظهر للعداوة مجاهر بها وقد وردت احاديث صحيحة في بيان الرؤيا الصالحة وانها من الله والسوء وانها من الشيطان وفي ان رؤيا المؤمن جزء من اربعين جزء من النبوة وليس لها تعلق بهذه الاية بل هي تعم وَكَذَٰلِكَ اي ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي رايته في المنام من سجود الكواكب والشمس والقمر الدالة على شرف وعز وكمال نفس يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ويحقق فيك تاويل تلك الرؤيا فيجعلك نبيا ويصطفيك على سائر العباد ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الاجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك قال النحاس الاجتباء اصله من جبيت الشيئ اذا حصلته لنفسك ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته ومعنى الاجتباء الاصطفاء واجتباء الله العبد تخصيصه اياه بفيض الهي تحصل منه انواع المكرمات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالانبياء وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء و الصالحين وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه ومنها وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ اي تاويل الرؤيا قال مجاهد عبارة الرؤيا وقال ابن زيد تاويل العلم والحلم وكان يوسف من اعبر الناس وسمى الرؤيا احاديث لانها احاديث الملك ان كانت صادقة واحاديث الشيطان ان كانت كاذبة قال القرطبي واجمعوا ان ذلك في تاويل الرؤيا وقد كان يوسف اعلم الناس بتاويلها وقيل المراد تاويل احاديث الامم السالفة والكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل المراد به احواج اخوته اليه وقيل انجاؤه من كل مكروه وقيل انجاؤه من القتل خاصة والاحاديث جمع تكسير فقيل لواحدها ملفوظ به وهو حديث ولكنه شذ جمعه على احاديث وله نظائر في الشذوذ كاباطيل واقاطيع

واحاديث في باطل وفظيع وعريض وزعم ابو زيد ان لها واحدا مقدرا وهو احدوثه ونحوه
وليس باسم جمع لان هذه الصيغة مختصة بالتكسير واذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لم يصرح له
بمفرد من لفظه نحو عباديد وشماطيط وابابيل ففي احاديث اولى قاله السمين ويتم نعمته
عليك فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي اراك الله او يجمع لك بين خيري
الدنيا والآخرة وعلى آل يعقوب وهو قرابته من اخوته واولاده ومن بعدهم وذلك ان
الله سبحانه اعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ولا يبعد ان يكون اشارة الى ما حصل
لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم انبياء وبه قال اكثر المفسرين
كما اتمها على ابويك اي اتماما مثل اتمامها عليهما وهي نعمة النبوة عليهما مع كون ابراهيم اتخذه
الله خليلا ومع كون اسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح قاله عكرمة وصار لهما الذرية الطيبة وهم
يعقوب ويوسف وسائر الاسباط من قبل اي من قبل هذا الوقت الذي انت فيه او من قبلك
ابراهيم واسحق عطف بيان لابويك او بدل منه او على اضمار اعني وعبر عنهما بالابوين مع كون
احدهما جدا وهو ابراهيم لان الجد اب ان ربك عليم بمصالح خلقه حكيم في افعاله والجملة
مستانفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلا له اي فعل ذلك لانه عليم حكيم اشارة الى قوله تعالى
الله اعلم حيث يجعل رسالته وانه لا يضع النبوة الا في نفس قدسية وكان هذا الكلام من يعقوب
مع ولده يوسف تعبير الرؤياه على طريق الاجمال او علم ذلك من طريق الوحي او عرفه بطريق
الفراسة وما تقتضيه المخائل اليوسفية لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين اي
لقد كان في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه للسائلين من الناس
عنها وغيرهم ففيه اكتفاء وقرأ اهل مكة اية على التوحيد قال النحاس واية ههنا قراءة حسنة
وقيل المعنى لقد كان في يوسف واخوته ايات دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للسائلين له من
اليهود فانه روي انه قال جماعة منهم وهو بمكة اخبرنا عن رجل من الانبياء كان بالشام
اخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي ولم يكن بمكة احد من اهل الكتاب ولا من يعرف خبر
الانبياء وانما وجهوا اليه من اهل المدينة من يسأله عن هذا فانزل الله سورة يوسف جملة
واحدة كما في التوراة وقيل معنى ايات للسائلين عجب لهم وقيل بصيرة وقيل عبرة للمعتبرين

فان هذه القصة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه امرهم ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل اليه امره من الملك ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه امره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات قال القرطبي واسماؤهم يعني اخوة يوسف وهم احد عشر روبين وهو اكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبلون ويشجر وامهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب وولد له من سريتين نفتلي وبلهه اربعة وهم دان ونفتونا وجاد واوشير ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب اختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا وقال السهيلي ان ام يوسف اسمها وفقا وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو اكبر من يوسف وعن قتادة في الآية يقول من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وانباكم به وعن الضحاك نحوه وعن ابن اسحاق قال انما قص الله على محمد صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغي اخوته عليه وحسدهم اياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم اياه حين اكرمه الله بنبوته ليأتسي به اذ ذاك وقت ان قالوا ليوسف واخوه هو بنيامين بكسر الباء وصحح بعضهم فتحها ففيه الوجهان وهو اصغر من يوسف وخصوه بكونه اخاه مع انهم جميعا اخوته لانه اخوه لابويه كما تقدم واللام لام القسم اي والله ليوسف ووحد الخبر فقال احب الى ابينا منا مع تعدد المبتدأ لان افعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه اذا لم يعرف وهو مبني من حب المبني للمفعول وهو شاذ قياسا فصيح استعمالا لوروده في افصح الفصيح واذا بنيت افعل التفضيل من مادة الحب والبغض تعدى الى الفاعل المعنوي بالى والى المفعول المعنوي باللام وبفي وعلى هذا جاءت الآية الكريمة وانما قالوا هذا لانه بلغهم خبر الرؤيا فاجمع رأيهم على كيده ونحن عصبة الواو للحال والعصبة الجماعة قيل وهي ما بين الواحد الى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل هي العشرة فما زاد وقيل من العشرة الى خمسة عشر وقيل ستة وقيل تسعة وقيل من العشرة الى الاربعين قاله قتادة والمادة تدل على الاحاطة من العصابة لاحاطتها بالراس وقيل الاصل فيه ان كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط

وقد كانوا عشرة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ اي لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وايثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب اليه ولا يصح ان يكون مرادهم انه في دينه في ضلال اذ لو ارادوا ذلك لكفروا به قال ابن زيد اي لفي خطأ من رأيه ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ اي في ارض واليه ذهب الحوفي وابن عطية وقال الزمخشري اي ارضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها واخلائها من الناس ولابهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة وقيل انها مفعول ثان والمعنى انزلوه ارضا والطرح الرمي ويعبر به عن الاقتحام في المخاوف يعني قالوا افعلوا به احد الامرين اما القتل او الطرح في ارض والمشير بالقتل بعضهم والمشير بالطرح البعض الآخر وكان المتكلم بذلك واحدا منهم فوافقه الباقون فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول اليهم وجواب الامر ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ اي يصفو ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملا لان الرجل اذا اقبل على الشيء اقبل بوجهه ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ﴾ اي بعد يوسف والمراد بعد الفراغ من قتله او طرحه وقيل من بعد الذنب الذي اقترفتموه في يوسف ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ في اموردينكم وطاعة ابيكم او صالحين في امور دنياكم بذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتاثيره عليكم هو واخوه او صالحين مع ابيكم بعذر تمهدونه او المراد بالصالحين التائبون من الذنب في المستقبل ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ اي من الاخوة قيل هو يهوذا وقيل روبيل وقيل شمعون والاول اولى قيل وجه الاظهار في ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ استجلاب شفقتهم عليه فلم يرهذا القائل القتل ولا طرحه في ارض خالية قفراء بل قال ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ اي في بئر يشرب منها الماء فانه اقرب لخلاصه تحصل ذلك انه اختار خصلة ثالثة هي ارفق بيوسف من تينك الخصلتين قرأ جماعة غيابة بالافراد وغيرهم بالجمع وانكر ابو عبيد الجمع لان الموضع الذي القوه فيه واحد قال النحاس وهذا تضييق في اللغة والجمع يجوز والغيابة كل شيء غيب عنك شيئا وقيل للقبر غيابة والمراد بها هنا غور البير الذي لا يقع عليه البصر او طاقة فيه قال الهروي الغيابة سد او طاق في البير قريب الماء يغيب ما فيه عن العيون وقال الكلبي الغيابة تكون في قعر الجب لان اسفله واسع وراسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه وقال الزمخشري هي غوره وما غاب منه عن عين الناظر واظلم من

اسفله والمعاني متقاربة والجب البئر التي لم تطو ويقال لها قبل الطي ركية فاذا طويت قيل لها بئر وسميت جبا لانها قطعت في الارض قطعا او لكونه محفورا في جبوب الارض اي ما غلظ منها وجمع الجب جبب وجباب واجباب وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في ان يلقوه في مكان اسفل من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين قيل وهذه البئر ببيت المقدس قاله قتادة وقيل ببعض نواحي ايليا وقيل بالاردن قاله وهب وقيل بالشام وعن ابن زيد قال بحذاء طبرية بينه وبينها اميال وقال مقاتل هو على ثلثة فراسخ من منزل يعقوب وجواب الامر يلتقطه بعض السيارة قرئ بالتحتية وبالفوقية ووجهه ان بعض السيارة سيارة وهي الجمع الذي يسير في الطريق جمع سيار اي المبالغ في السير والالتقاط هو اخذ شئ مشرف على الضياع من الطريق او من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة كانهم ارادوا ان بعض السيارة اذا التقطه حمله الى مكان بعيد بحيث يخفى عن ابيه ومن يعرفه ولا يحتاجون الى الحركة بانفسهم الى المكان البعيد فربما ان والدهم لا ياذن لهم بذلك وكان هذا الجب معروفا يرد عليه كثير من المسافرين ان كنتم فاعلين اي عاملين بما اشرت به عليكم في امره كانه لم يجزم بالامر بل وكله الى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره وفي هذا دليل على ان اخوة يوسف ما كانوا انبياء فان الانبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلما وبغيا وقيل كانوا انبياء وكان ذلك منهم زلة قدم اوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم ورد بان الانبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب وقلة الرافة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالامانة وترك العهد قيل عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وقيل انهم لم يكونوا في ذلك الوقت انبياء بل صاروا انبياء من بعد وكان كل ذلك قبل ان نبأهم الله ولما جمع رايهم على ان يلقوه في غيابات الجب جاؤا الى ابيهم وخاطبوه بلفظ الابوة استعطافا له وتحريكا للحنو الذي جبلت عليه طبائع الاباء للابناء وتوسلا بذلك الى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام المنكر لامر ينبغي ان يكون الواقع على خلافه قالوا يا ابانا مالك لا تامنا على يوسف اي اي شئ لك لا تجعلنا امناء عليه وكانهم قد كانوا سألوه قبل ذلك

ان يخرج معهم يوسف فابى قرئ تأمنا بالاظهار وبالادغام من غير اشمام وانفق الجمهور على الاخفاء والاشمام وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ في حفظه وحيطته عاطفون عليه قائمون بمصلحته حتى نرده اليك أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا اي في غد الى الصحراء التي ارادوا الخروج اليها وغدا ظرف والاصل عند سيبويه غدوة وقال النضر بن شميل ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له غدوة وكذا يقال له بكرة والغد اليوم الذي بعد يومك الذي انت فيه يَرْتَعْ هذا جواب الامر قرئ بالنون واسكان العين وبها وكسر العين اسناداً للكل والاولى مأخوذة من قول العرب رتع الانسان او البعير اذا اكل كيف شاء والمعنى يتسع في الخصب وكل مخصب راتع والرتع التمتع في اكل الفواكه ونحوها والثانية مأخوذة من رعي الغنم وقرئ بالتحتية فيهما ورفع يلعب على الاستيناف والضمير ليوسف وقال القتيبي معنى نرتع نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضا من قولهم رعاك الله اي حفظك وَيَلْعَبْ من اللعب قيل لابي عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء وقيل المراد به اللعب المباح وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه وكان اللعب بالاستباق والانتضال تمرينا لقتال الاعداء كما في قولهم انا ذهبنا نستبق لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق وسماه لعبا لشبهه به ولذلك لم ينكر عليهم يعقوب لما قالوا ونلعب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك قال ابن عباس نرتع ونلعب نسعى وننشط ونلهو والحال إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ من ان يناله مكروه قال اي فاجابهم يعقوب بقوله إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ اي ذهابكم به واللام لام الابتداء للتاكيد ولتخصيص المضارع بالحال اخبرهم بانه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وحنوه عليه والحزن هنا الم القلب بفراق المحبوب ومع ذلك أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ قال هذا يعقوب تخوفا عليه منهم فكنى عن ذلك بالذئب وقيل انه خاف ان ياكله الذئب حقيقة لان ذلك المكان كان كثير الذياب ولو خاف منهم عليه ان يقتلوه لارسل معهم من يحفظه قال ثعلب الذئب مأخوذ من تذأبت الريح اذا هاجت من كل وجه قال والذئب مهموز لانه يجيء من كل وجه وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ لاشتغالكم بالرتع واللعب او لكونكم غير مهتمين بحفظه اخرج ابو الشيخ وابن مردويه والسلفي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تلقنوا الناس فيكذبون فان بني يعقوب لم يعلموا ان الذئب ياكل الناس فلما لقنهم ابوهم كذبوا فقالوا

أكله الذئب قالوا جواباً عن عذره الثاني وهو قوله أخاف أن يأكله الذئب وأما عذره الأول
وهو قوله إني ليحزنني فلم يجيبوا عنه إما لكون الحزن زمنه قصيراً لانقضائه برجوعهم وإما لأنه
ليس غرضهم إزالة الحزن عنه بل إيقاعه فيه والثاني هو المتعين لئن أكله الذئب اللام هي
الموطئة للقسم والمعنى والله لئن أكله الذئب والحال أن نحن عصبة جماعة كثيرة عشرة رجال
إنا إذاً أي في ذلك الوقت وهو أكل الذئب له لخاسرون لهالكون ضعفاً وعجزاً أو مستحقون
للهلاك لعدم الاعتداد بنا وانتفاء القدرة على أيسر شيء وأقله أو مستحقون لأن يدعى
علينا بالخسار والدمار وقيل معناه لجاهلون حقه وهذه الجملة جواب القسم المقدر في
الجملة التي قبلها فلما ذهبوا به من عند يعقوب وأجمعوا أمرهم أي عزموا لأن أصل معنى
الإجماع العزم المصمم أن يجعلوه في غيابت الجب قد تقدم تفسيرهما قريباً وجواب لما محذوف
لظهوره ودلالة المقام عليه أي فعلوا به ما فعلوا من الأذى وقيل جوابه قالوا يا أبانا
إنا ذهبنا نستبق وقيل الجواب المقدر جعلوه فيها وقيل الجواب أوحينا والواو مقحمة ومثله
قوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أي ناديناه قال ابن عباس كان يوسف في الجب ثلاثة أيام وأوحينا
إليه أي إلى يوسف تبشيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على إنزال الضرر به عشرة
رجال من إخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرأفة فإن الطبع البشري
دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء
يراد منه فكيف بصغير لا ذنب له بل كيف بصغير هو أخوهم وله أب مثل يعقوب فلقد أبعد
من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين وفي هذا
دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى
ويحيى بن زكريا وقيل معنى الوحي هنا الإلهام كقوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وأوحينا إلى أم موسى
والأول أولى وقد قيل إنه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبلغ الرجال وهو بعيد جداً فإن من كان قد
بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب لتنبئنهم أي لتخبرن إخوتك بأمرهم هذا الذي
فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر والحال أن
هم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب ولبعد

عندهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد ان صار اليه ملك مصر وقال مجاهد وهم لا يشعرون بذلك الوحي وقال قتادة فهو ذلك الوحي عليه ما صنع به وعن ابن عباس قال وهو لم يحلموا بوحي الله اليه وجاءوا اباهم عشاء يبكون وهو آخر النهار وقيل في الليل ليكونوا في الظلمة اجرء على الاعتذار بالكذب اي جاؤا باكين او متباكين لانهم لم يبكوا حقيقة بل فعلوا فعل من يبكي ترويجا لكذبهم وتنفيقا لمكرهم وغدرهم فلما وصلوا الى ابيهم قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق اي نتسابق في العدو او في الرمي وقيل ننتضل بالسهام ويؤيده قراءة ابن مسعود ننتضل قال الزجاج وهو نوع من المسابقة وقال الازهري النضال في السهام والرهان في الخيل والمسابقة تجمعهما قال القشيري نستبق اي في الرمي او على الفرس او على الاقدام والغرض من المسابقة التدرب بذلك في القتال وقال السدي يعني نشتد ونعدو وقال مقاتل نتصيد اي نستبق الى الصيد وتركنا يوسف عند متاعنا اي ثيابنا ليحرسها فاكله الذئب الفاء للتعقيب اي اكله عقب ذلك وقد اعتذروا اليه بما خافه سابقا عليه ورب كلمة تقول لصاحبها دعني وما انت بمؤمن لنا اي بمصدق لنا في هذا العذر الذي ابدينا والكلمة التي قلناها وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتهامهم كما لا يخفى على صاحب الذوق ولو كنا عندك او في الواقع صادقين لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له قال الزجاج والمعنى ولو كنا عندك من اهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القصة لشدة محبتك ليوسف وكذا ذكره ابن جرير وغيره وجاؤا على قميصه بدم كذب وصف الدم بانه كذب مبالغة كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى فكأنه نفسه صار كذبا وقيل المعنى بدم ذي كذب او بدم مكذوب فيه قال ابن عباس ومجاهد كان دم سخلة وقرأ الحسن وعايشة بدم كدب بالدال المهملة اي بدم طري يقال للدم الطري كدب وقال الشعبي انه المتغير والكدب ايضا البياض الذي يخرج في اظفار الاحداث فيجوز ان يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ثم ذكر الله سبحانه ما اجاب به يعقوب عليه السلام

فقال قال بل سولت اي زينت وسهلت وامرت لكم انفسكم امرا قال النيسابوري التسويل تقرير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه وهو تفعيل من السول وهو الامنية قال الازهري واصله مهموز غير ان العرب استثقلوا فيه الهمزة وفي الشهاب من السول بفتحتين وهو استرخاء العصب ونحوه فكان المسول بذله فيما حرص عليه فصبر جميل قال الزجاج اي فشاني او الذي اعتقده صبر جميل وقال قطرب اي فصبري صبر جميل وقيل فصابر جميل اولى بي قيل الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه لاحد غير الله وعنه صلى الله عليه وسلم قال لا شكوى فيه من بث لم يصبر اخرجه ابن جرير وهو مرسل وقال مجاهد ليس فيه جزع وقرئ فصبرا جميلا وكذا في مصحف انس قال المبرد بالرفع اولى من النصب لان المعنى رب عندي صبر جميل وانما النصب على المصدر اي فلاصبرن صبرا جميلا والله المستعان اي المطلوب منه العون والجملة انشائية دعائية لا اخبار منه على اي على اظهار حال او على احتمال ما تصفون اي تذكرون من امر يوسف عليه السلام وقال قتادة على ما تكذبون وجاءت سيارة فارسلوا ذكر على المعنى مكان ارسلت واردهم هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره وقد تقدم تفسير السيارة اي جماعة مسافرون سموا سيارة لسيرهم في الارض والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام او من مدين الى مصر فاخطؤا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب وكان في قفرة بعيدة من العمران ترده المارة والرعاة وكان ماؤه ملحا والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن ذعر الخزاعي من العرب العاربة فادلى دلوه يقال ادلى دلوه اذا ارسلها ليملأها ودلاها اذا اخرجها قاله الاصمعي والدلو مؤنث وقد يذكر والدلو الذي يستقى بها فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج الدلو من البئر ابصره الوارد قال يا بشرى ومعنى مناداته للبشرى انه اراد حضورها في ذلك الوقت فكانه قال هذا وقت مجيئك واوان حضورك وقيل انه نادى رجلا اسمه بشرى وهذا على ما فيه من البعد لا يتم الا على قراءة من قرأ يا بشرى وقد قرئ يا بشراه وعليه اهل المدينة واهل مصر واهل البصرة واهل الشام قرؤا باضافة البشرى الى الضمير فالاول اولى قال النحاس والمعنى من نداء البشرى التبشير لمن حضر وهو اوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجبا اي يا عجب هذا من ايامك

بامصر قال وهذا مذهب سيبويه مثل اغلام وكان يوسف احسن ما يكون من الغلمان قد
اعطي شطر الحسن وقيل ورثه من جدته سارة وكانت قد اعطيت سدس الحسن فكان
حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين
والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا ابتسم ظهر النور من ضواحكه واذا تكلم ظهر من ثناياه
ولا يستطيع احد وصفه قال الضحاك فاستبشروا بانهم اصابوا غلاما لا يعلمون علمه ولا منزلته
من ربه وقال قتادة تباشروا به حين استخرجوه من البير وهي ببيت المقدس معلوم مكانها واسروه
اي اسر الوارد واصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم وقيل انهم لم يخفوه ولكن اخفوا
وجدانهم له في الجب وزعموا انه دفعه اليهم اهل الماء ليبيعوه لهم بمصر وقيل ضمير الفاعل
في اسروه لاخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك انه كان ياتيه اخوه يهوذا كل يوم بطعام
فاتاه يوم خروجه من البير فاخبر اخوته فاتوا الرفقة وقالوا هذا غلام ابق منا فاشتروه منهم
وسكت يوسف مخافة ان ياخذوه فيقتلوه وعن ابن عباس يعني اخوة يوسف اسروا شانه
وكتموا ان يكون اخاهم وكتم يوسف شانه مخافة ان يقتله اخوته واختار البيع فباعه
اخوته بثمن بخس وقال مجاهد اسره التجار بعضهم من بعض والاول اولى بضاعة اي اخفوه
حال كونه بضاعة اي متاعا للتجارة والبضاعة ما يبضع من المال اي يقطع منه لانها قطعة
من المال الذي يتجر به قيل قاله لهم الوارد واصحابه انه بضاعة استبضعناها من الشام
مخافة ان يشاركوهم فيه والله عليم بما يعملون اي بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من
الاسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه فان هذا البلاء الذي فعلوه به كان سببا لوصوله الى
مصر وتنقله في اطوار حتى صار ملكها فرحم الله به العباد والبلاد خصوصا في سني القحط الذي
وقع بها كما سياتي وفيه وعيد شديد لمن كان فعله سببا لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار
فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن
يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في وصفه بذلك وشروه يقال شراه بمعنى
اشتراه وشراه بمعنى باعه والمراد هنا الثاني اي باعه الوارد واصحابه او اشتراه السيارة من اخوته
بثمن بخس ناقص او زيف وقيل ظلم وقيل حرام لان ثمن الحر حرام والحرام يسمى بخسا لانه ممحوق البركة

اي منقوصها فلم يحل لهم بيعه ولا اكل ثمنه قاله ابن عباس وقيل قليل دَرَاهِمَ بدل من ثمن اي لا دنانير مَعْدُودَةٍ قيل باعوه بعشرين درهما وقيل باربعين درهما وفيه اشارة الى انها قليلة تعد ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون ما دون اوقية وهي اربعون درهما اخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال انما اشتري يوسف بعشرين درهما وكان اهله حين ارسل اليهم بمصر ثلثمائة وتسعين انسانا رجالهم انبياء ونساؤهم صديقات والله ما خرجوا مع موسى حتى كانوا ستمائة الف وسبعين الفا وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة الى التطويل بذكره وَكَانُوا الضمير يرجع الى ما قبله على حسب اختلاف الاقوال فيه اي في يوسف مِنَ الزَّاهِدِينَ اصل الزهد قلة الرغبة يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها قال سيبويه والكسائي قال اهل اللغة زهد فيه اي رغب عنه وزهد عنه اي رغب فيه والمعنى انهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس لان غرضهم ابعاده عنهم لا تحصيل ثمنه وقيل ذلك لانهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به ولما دخلوا مصر وعرضوه للبيع ترافع الناس في ثمنه وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر وكان وزير الملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة وقيل ان الملك هو فرعون موسى وقال ابن عباس كان اسم المشتري قطفير وعن محمد بن اسحاق اطفير بن روحب وكان اسم امرأته راعيل بنت عابيل واسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر قيل اشتراه بعشرين دينارا وقيل تزايدوا في ثمنه فبلغ اضعاف وزنه مسكا وعنبرا وحريرا وورقا وذهبا ولآلي وجواهر وكان وزنه اربعمائة رطل روي انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلث وثلثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة فلما اشتراه العزيز قال لِامْرَأَتِهِ عن شعيب الجبائي ان اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاي وكسر اللام والمد كما في القاموس او بضم الزاء وفتح اللام كما قال الشهاب أَكْرِمِي مَثْوَاهُ اي منزله الذي يثوي فيه بالطعام والطيب واللباس الحسن يعني احسني تعهده حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا وساكنة في كنفنا ويقال للرجل كيف ابو مثواك وام مثواك لمن ينزل به من رجل وامرأة يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده وهل براعي حق نزولك وقال ابن عباس وقتادة اكرمي منزلته

وعن ابن مسعود قال افرس الناس ثلثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته اكرمي مثواه الاية والمرأة التي اتت موسى فقال لابيها يا ابت استاجره وابو بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف عمر عسى ان ينفعنا يكفينا بعض المهمات مما نحتاج فيه الى مثله او ان اردنا بيعه بعناه بربح او نتخذه ولدا اي نتبناه فنجعله ولدنا قيل كان العزيز حصورا لا يولد له وقيل كان لا يلد النساء او كان عقيما كما جرى عليه القاضي والاصفهاني تبعا للكشاف وقد كان تفرس فيه انه ينوب عنه فيما اليه من امر المملكة وكذلك اشارة الى ما تقدم من انجائه من اخوته واخراجه من الجب وعطف قلب العزيز عليه اي مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف يقال مكنه فيه اي اثبته فيه ومكن له فيه اي جعل له فيه مكانا ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الاخر يعني نعطيه مكانة ورتبة عالية في الارض اي في ارض مصر حتى صار متمكنا من الامر والنهي وبلغ ما بلغ من السلطنة ولنعلمه هو علة لمعلل محذوف كانه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه او كان ذلك الانجاء لهذه العلة او معطوف على مقدر وهو ان يقال مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه من تاويل الاحاديث اي عبارة الرؤيا وتفسيرها قاله مجاهد والتاويل قيل فهم اسرار الكتب الالهية وسنن من قبله من الانبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع والله غالب على امره اي على امر نفسه لا يمتنع منه شيء ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا دافع لامره ولا راد لقضائه ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيده ذلك اضافة اسم الجنس الى الضمير ما يتعلق بيوسف من الامور التي ارادها الله سبحانه في شانه وقيل المعنى انه كان من امر يعقوب ان لا يقص رؤياه على اخوته فغلب امر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا يعيد بعيد جدا ولكن اكثر الناس لا يعلمون اي لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الاسرار العظيمة والحكم النافعة وقيل المراد بالاكثر الجميع لانه لا يعلم الغيب الا الله وقيل ان الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما في قوله فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول وقيل المعنى لا يعلمون ان الله غالب على امره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر وقيل ما هو صانع بيوسف وما يريد منه ولما بلغ اشده قال سيبويه الاشد جمع واحده شدة نحو نعمة وانعم وقال الكسائي واحده شد بزنة فعل

وقال ابو عبيد انه جمع لا واحد له من لفظه عند العرب وخالفه الناس في ذلك وهو من
الشد وهو الربط على الشيء والعقد عليه والاشد هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان
قيل هو ثلاث وثلاثون سنة قاله ابن عباس وقيل ثماني عشرة سنة قاله سعيد بن جبير
وقيل خمس وعشرون سنة قاله عكرمة وقيل اربعون سنة قاله الحسن وقيل ثلاثون سنة قاله السدي وقيل بلوغ الحلم
وبه قال ربيعة والشعبي وقيل عشرون سنة قاله الضحاك وقيل غير ذلك مما قد قدمنا في
النساء والانعام قال الراغب وفيه تنبيه على ان الانسان اذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي
هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شان موسى في سورة القصص لان موسى كان قد
بلغ اربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل اعباء الرسالة واسرار النبوة واما
يوسف فلم يكن اذ ذاك بلغ هذا السن **آتَيْنَاهُ حُكْمًا** هو ما كان يقع منه من الاحكام في سلطان
ملك مصر **وَعِلْمًا** هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه وقيل العقل والفهم والنبوة والفقه قاله مجاهد
وقيل الحكم هو النبوة والعلم هو العلم بالدين وقيل علم الرؤيا ومن قال انه اوتي النبوة صبيا
قال المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاهما الله هو الزيادة فيهما **وَكَذَلِكَ** اي مثل ذلك الجزاء
العجيب **نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** فكل من احسن في عمله احسن الله جزاءه وجعل عاقبة الخير من جملة
ما يجزيه به وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولا اوليا قال الطبري هذا
وان كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله كما فعل هذا بيوسف ثم
اعطيته ما اعطيته كذلك انجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وامكن لك في
الارض والاولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري
قيل معنى المحسنين المؤمنين وقيل الصابرين على النوائب قاله الضحاك وقيل المهتدين وزاد ثم
اي حين بلغ مبلغ الرجال قاله ابن زيد وهذا رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد
ما امر امرأته باكرام مثواه وقوله وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جيء به انموذجا للقصة
ليعلم السامع من اول الامر ان ما لقيه يوسف من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة
وعاقبة حميدة وانه محسن في جميع احواله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته
ولا يخفى ان مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز

والمراودة الارادة والطلب برفق ولين وقيل هي ماخوذة من الرود اي الرفق والتاني يقال ارود في
اي امهلني وقيل ماخوذة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شيء كان المعنى انها فعلت في مراودتها
له فعل المخادع ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلاء وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال راود فلان
جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وهي عبارة عن
التمحل في مواقعته اياها وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة
الطبيب ونظايرها مما يكون من احد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه وهذا باب لطيف المسلك
مبني على اعتبار دقيق تحقيقه ان سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين
تدان اي كما تجزي تجزى فان فعل البادي وان لم يكن جزاء اطلق عليه اسمه لكونه سببا للجزاء وهذه
قاعدة مطردة مستمرة فكان يوسف عليه السلام لما كان ما اعطيه من كمال الخلق والزيادة
في الحسن والجمال سببا لمراودة امرأة العزيز له مراودا والمراد بالمفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة
على بابها بمعنى انها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك وانما قال الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ولم يقل
امرأة العزيز وزليخا قصدا الى زيادة التقرير فان كونه في بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ما حملك
على ما انت عليه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم
ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكها ينادي بكونه
في اعلى معارج العفة والنزاهة والعدول عن اسمها للمحافظة على الستر او للاستهجان بن كرة قال
قتادة هي امرأة العزيز وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ اي اطبقتها قيل في هذه الصيغة ما يدل على التكثير
لتعدد المحال وهي الابواب فيقال غلق الابواب ولا يقال غلق الباب بل يقال اغلق الباب وقد
يقال اغلق الابواب قيل وكانت الابواب سبعة كما في البيضاوي وغيره وانما اغلقتها لشدة
خوفها وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قرأ ابو عمرو وعاصم والاعمش والكسائي بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء
وبها قرأ ابن عباس وابن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة كليف وليت قال ابن مسعود لا تنطعوا
في القراءة فانما هو مثل قول احدكم هلم وتعال وقرأ ابو اسحاق النحوي بكسر التاء وقرأ ابن كثير
وغيره بضم التاء مع فتح الهاء وقرأ ابو جعفر ونافع بكسر الهاء وفتح التاء بوزن قيل وغيض وهذه
القراآت سبعية وقرأ علي وابن عباس بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء وقرأ ابن عامر واهل

الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء وهذه كلها لغات في هذه الكلمة وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم
وتعال اي اقبل الا في قراءة كسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة فانها بمعنى تهيأت لك وانكرها
ابو عمرو وقال باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي الى اليمن هل تعرف
احدا يقول هكذا وانكرها ايضا الكسائي وقال النحاس هي جيدة عند البصريين لانه يقال هاء الرجل
وهيئ هيأة ورجح الزجاج القراءة الاولى وتكون اللام في لك على القراءات الاولى التي هي فيها
بمعنى اسم الفعل للبيان اي لك اقول هذا كما في هلم لك قال النحويون هيت جاء بالحركات الثلاث
فالفتح للخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيها بحيث واذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت
قائم مقام المصدر كاف له اي لك اقول هذا وان لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر
الفعل فيكون اسم فعل اما خبر اي تهيأت واما امر اي اقبل وقال في الصحاح يقال هوت به و
هيت به اذا صاح به ودعاه وقد روي عن ابن عباس والحسن انها كلمة سريانية معناها
انها تدعوه الى نفسها وقال الكسائي هي لغة لاهل حوران وقعت الى اهل الحجاز معناها تعال
قال ابو عبيدة فسألت شيخا عالما من حوران فذكر انها لغتهم وعن ابن عباس معناه هلم لك بالقبطية
وقال الحسن اي عليك بالسريانية وقيل هي بالعبرانية ومن قال انها بغير لغة العرب يقول ان
العرب وافقت اصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب
الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب
الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وعن مجاهد انها
لغة عربية تدعوه بها الى نفسها قَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ اي اعوذ بالله معاذا مما دعوتني اليه يقال عاذ
يعوذ عياذا ومعاذا وعوذا مصدر بمعنى الفعل إِنَّهُ اي الذي اشتراني رَبِّي تعليل للامتناع
الكائن منه ببعض الاسباب التي هي اقرب الى فهم امرأة العزيز وقيل الضمير للشأن اي الشأن
انه ربي يعني العزيز اي سيدي الذي رباني أَحْسَنَ مَثْوَايَ حيث امرك بقوله اكرمي مثواه فكيف
اخونه في اهله واجيبك الى ما تريدين من ذلك وقال الزجاج ان الضمير لله سبحانه اي ان الله
ربي تولاني بلطفه فلا اركب ما حرمه قال مجاهد والسدي وابن اسحق يبعد جدا ان يطلق نبي كريم
على مخلوق انه ربه ولو بمعنى السيد لانه ليس مملوكا في الحقيقة والاول فيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بالطف وجه

إنه لا يفلح الظالمون تعليل آخر للامتناع منه عن اجابتها والفلاح الظفر والمعنى انه لا يظفر الظالمون
بمطالبهم ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف
اي انه لا يسعد الزناة ولقد لام قسم همت به وهم بها المعنى انه هم بمخالطتها كما همت ومال كل واحد منهما
الى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد الى ذلك
اختيارا كما يفيده ما تقدم من استعاذته بالله وان ذلك نوع من الظلم بل قصد من غير رضا
ولا عزم ولا تصميم والقصد على هذا الوجه لا مواخذة فيه فلا خلاف في ان يوسف لم يات
بفاحشة وانما الخلاف في وقوع الهم ولما كان الانبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد
اليها ايضا تكلم اهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف فمن ذلك ما قاله ابو حاتم قال
كنت اقرأ على ابي عبيدة غريب القرآن فلما اتيت على قوله ولقد همت به وهم بها قال هذا
على التقديم والتاخير كانه قال ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها وقال احمد بن يحيى
ثعلب اي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة وهم يوسف ولم يوقع ما هم به فبين الهمين فرق
فهذا انما هو حديث نفس من غير عزم ويقال هممت بالشيء اذا اردته وحدثتك نفسك به قال
الزمخشري هم بالامر اذا قصد وعزم عليه قال الشاعر هممت ولم افعل وكدت وليتني
تركت على عثمان تبكي حلائله + وقيل هم بها اي هم بضربها وقيل هم بها بمعنى تمنى ان يتزوجها
وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف الى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي
ويدل على هذا قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب وقوله وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة
بالسوء ومجرد الهم لا ينافي العصمة فانها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية وذلك المطلوب
قال الشهاب المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال او ميل الطبع كالصائم يرى الماء البارد فتحمله
نفسه على الميل اليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه وفي البيضاوي المراد بهمه عليه السلام
ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح
والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام الهم وقيل انه هم بالفاحشة
واتى ببعض مقدماتها وقد افرط الزمخشري في التشنيع عليه والصحيح نزاهته عن الهم المحرم ايضا
وقد اطنب الرازي في هذا المقام وذكر كلاما مبسوطا حاصله ان الذين لهم تعلق بهذه الواقعة

هم يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين وابليس وكلهم قالوا ببرائته عن
الذنب فلم يبق لمسلم توقف في هذا الباب فتقرر ان يوسف كان بريا من العمل الباطل والهم المحرم
وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فان الدلائل قد دلت
على عصمة الانبياء عليهم السلام ولا يلتفت الى ما نقله بعض المفسرين عن الائمة المتقدمين
انتهى وتبعه الخازن وغيره في ذلك والاولى ما ذكرناه اولا وجواب لو في لَوْلَآ اَنْ رَّاٰى بُرْهَانَ
رَبِّهٖ محذوف اي لفعل ما هم به واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو فقيل ان زليخا
قامت عند ان همت به وهم بها الى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين
قال استحي من الهي هذا ان يراني على هذه الصورة فقال يوسف انا اولى ان استحي من الله تعالى
روي معنى هذا عن علي بن ابيطالب في رواية عن علي بن الحسين وقيل انه رأى في سقف
البيت مكتوبا ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وقيل رأى كفا مكتوبا عليها وان عليكم لحافظين
كراما كاتبين وقيل ان البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما اخذه على عباده وقيل نودي
يا يوسف انت مكتوب في الانبياء وتعمل عمل السفهاء وقيل رأى صورة يعقوب على الجدار
عاضا على انملته يتوعده وبه قال قتادة واكثر المفسرين والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد
وعكرمة والضحاك وقيل رأى جبريل في صورة يعقوب قاله ابن عباس وقيل مثل له يعقوب
فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل ان كل ذلك الاخرافات واباطيل
تمجها الاذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها او سمعها وصدقها والحاصل
انه رأى شيئا حال بينه وبين ما هم به والله اعلم بما هو وقد اطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه
بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت اقوالهم في ذلك اختلافا كثيرا كَذٰلِكَ اشارة
الى الاراءة المدلول عليها بقوله رأى برهان ربه او الى التثبيت المفهوم من ذلك اي مثل تلك
الاراءة اريناه او مثل ذلك التثبيت ثبتناه لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْٓءَ اي كل ما يسوءه وَالْفَحْشَآءَ
هو كل امر مفرط القبح وقيل السوء الخيانة للعزيز في اهله والفحشاء الزنا وقيل السوء الشهوة والفحشاء
المباشرة وقيل السوء الثناء القبيح والاولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولا اوليا
وفيه اية بينة وحجة قاطعة على انه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا

لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتامل قال ابو السعود إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ تعليل لما قبله قرئ بكسر اللام وفتحها وهي سبعية والمعنى على الاولى ان يوسف كان ممن اخلص طاعته لله وعلى الثانية انه كان ممن استخلصه الله للرسالة وقد كان عليه السلام مخلصا مستخلصا وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من اول امره بقضية الجملة الاسمية لا ان ذلك حدث له بعد ان لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية وَاسْتَبَقَا الْبَابَ اي تسابقا اليه وهذا كلام متصل بقوله ولقد همت به وهم بها الآية وما بينهما اعتراض جيء به بين المعطوفين تقرير النزاهة عليه السلام ووجه تسابقهما ان يوسف يريد الفرار والخروج من الباب وامرأة العزيز تريد ان تسبقه اليه لتمنعه عن الفتح والخروج ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم لان تسابقهما كان الى الباب البراني الذي يخلص منه الى خارج الدار قال السيوطي بادر اليه يوسف للفرار وهي للتشبث به فامسكت ثوبه وَقَدَّتْ اي جذبت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ اي من وراءه فانشق الى اسفله والقد القطع واكثر ما يستعمل فيما كان طولا والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا قال الشهاب في الريحانة القد والقط متقاربان معنى وهما نوعان من القطع وفيه لطيفة اتفاقية لان القد قطع الشيء من نصفه او قطعه نصفين والقط قطع الطرف كما في الشمع والقلم فكانه لكونه قليلا من القطع نقص منه العين انتهى واسناد القد اليها خاصة مع ان لقوة يوسف ايضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب او لخوف الافتضاح وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ اي وجدا العزيز هنالك وعنى بالسيد الزوج لان القبط يسمون الزوج سيدا وانما لم يقل سيدهما لان ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيدا له قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا من الزنا ونحوه والجملة مستانفة كانه قيل فما كان منهما عند ان الفيا سيدها لدى الباب قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة وللستر على نفسها فنسبت ما كان منها الى يوسف اي اي جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ثم اجابت عن استفهامها بقولها إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ اي ما جزاؤه الا ان يسجن ويحتمل ان تكون ما نافية اي ليس جزاؤه الا السجن وانما بدأت بذكر السجن لان المحب لا يشتهي

ايلام المحبوب وانما ارادت ان يسجن عندها يوما او يومين ولم ترد السجن الطويل قال الخازن وهذه لطيفة فافهمها وقال ابن الخطيب واما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين كما قال فرعون لاجعلنك من المسجونين ذكره الكرخي أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قيل هو الضرب بالسياط والظاهر انه ما يصدق عليه العذاب الاليم من ضرب وغيره وفي الابهام العذاب زيادة تهويل قيل اخرت ذكر العذاب لان المحب لا يسعى في ايلام المحبوب وايضا لم تقل ان يوسف يجب ان يقابل باحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالشر فلما سمع يوسف مقالتها اراد ان يبرهن عن نفسه قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي يعني طلبت مني الفحشاء فابيت وفررت والجملة مستانفة كالجملة الاولى وقد تقدم معنى بيان المراودة اي هي التي طلبت مني ذلك ولم ارد بها سوء ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه وهو ادب حسن حيث اتى بلفظ الغيبة دون الحضور ولم يكن يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال ما قال وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا اي من قرابتها وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتامل قيل لما التبس الامر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب قيل كان ابن عم لها واقفا مع العزيز في الباب وقيل ابن خال لها وقيل انه طفل في المهد تكلم قال السهيلي وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر من تكلم في المهد وذكر من جملتهم شاهد يوسف وقيل انه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في اموره وكان من قرابة المرأة قال ابن عباس ظبي انطقه الله كان في الدار وعنه قال كان رجل ذا لحية من خاصة الملك وعن الحسن قال هو رجل له فهم وعلم وعن مجاهد قال انه ليس بانسي ولا جني هو خلق من خلق الله قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى من اهلها وانما كان الشاهد من اهل المرأة وقرابتها ليكون اقوى في نفي التهمة عن يوسف مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدقه إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ اي من قدام فقال الشاهد هذه المقالة مستدلا على بيان صدق الصادق منهما وكذب الكاذب بان قميص يوسف ان كان مقطوعا من قبل اي من جهة القبل فَصَدَقَتْ اي فقد صدقت بانه اراد بها سوء وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ في قوله

انها اوادته عن نفسه وقرئ من قبل بضم اللام وكذا من دبر قال الزجاج جعلا هما غايتان
وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ اي من وراءه فَكَذَبَتْ في دعواها عليه وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ في دعواه عليها ولا يخفى ان هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما
وتاليهما لا عقلا ولا عادة وليستا من الشهادة في شيء وانما ذكرتا توسيعا للدائرة وارخاء
للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى ان يحتمله الحال في الجملة فليس ههنا الا مجرد امارة غير
مطردة اذ من الجائز ان تجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر وان تجذبه وهو
مدبر عنها فينقد القميص من قبل فَلَمَّا رَأَى العزيز قَمِيصَهُ اي قميص يوسف قُدَّ مِنْ دُبُرٍ
كانه لم يكن رأى ذلك بعد او لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال وعرف خيانة امرأته
وبراءة يوسف عليه السلام قَالَ إِنَّهُ اي الامر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما او ان قولك
ما جزاء من اراد باهلك سوءًا مِنْ جنس كَيْدِكُنَّ ومكركن وحيلكن يا معشر النساء إِنَّ كَيْدَكُنَّ
عَظِيمٌ خاطب الجنس لان الحيل والمكايد لا تختص بها وانما وصف الكيد بالعظيم لان كيدهن
اعظم من كيد جميع البشر في اتمام مرادهن لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب فانه الطف واعلق
بالقلب واشد تاثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني اخاف من النساء ما لا اخاف من الشيطان
فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان
يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال وقيل هذا من قول الشاهد والاول اولى قال
الحفناوي هذا فيما يتعلق بامر الجماع والشهوة لا عظيم على الاطلاق اذ الرجال اعظم منهن في الحيل
والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَذَا الامر الذي جرى واكتمه ولا تحدث به حتى لا يفشو ويشيع بين الناس وقيل معناه لا تكترث
به ولا تهتم فقد بان عذرك ثم اقبل عليها بالخطاب فقال وَاسْتَغْفِرِي يا زليخا لِذَنْبِكِ الذي
وقع منك قال الكرخي كان العزيز قليل الغيرة بل قال في البحر ان تربة مصر تقتضي هذا ولهذا لا ينشأ
فيها الاسد ولو دخل فيها لا يبقى إِنَّكِ كُنْتِ بسبب ذلك مِنَ الْخَاطِئِينَ اي من جنسهم بر مي يوسف
بالخطيئة والجملة تعليل لما قبلها من الامر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر
على المؤنث كما في قوله وكانت من القانتين ومعنى من الخاطئين من المتعمدين يقال خطأ

اذا اذنب متعمدا وقيل التقدير من القوم الخاطئين وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز
بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما وَقَالَ نِسْوَةٌ قرئ نسوة بضم النون قاله ابو البقاء وبكسرها
والمراد جماعة من النساء ويجوز التذكير في الفعل المسند اليهن كما يجوز التانيث ولا واحد له من
لفظه بل من معناه وهو امرأة والنساء جمع كثرة ايضا ولا واحد له من لفظه قيل وكن خمسا وهن
امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه
فِي الْمَدِينَةِ هي مصر وقيل مدينة الشمس امْرَأَتُ الْعَزِيزِ يعني زليخا تُرَاوِدُ فَتَاهَا الفتى في كلام
العرب الشاب الحديث السن والفتاة الشابة والمراد به هنا غلامها يقال فتاي وفتاتي اي
غلامي وجاريتي وجيء بالمضارع تنبيها على ان المراودة صارت سجية لها وديدنا دون الماضي
فلم يقلن راودت عَنْ نَفْسِهِ وهو يمتنع منها قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا اي غلبها حبه وقيل دخل حبه في
شغافها قال ابو عبيدة شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه وقيل هو وسط القلب وعلى
هذا يكون المعنى دخل حبه الى شغافها فغلب عليه وقرئ شعفها بالعين المهملة قال ابن الاعرابي
معناه اجرى حبه عليها قال الجوهري شغفه الحب احرق قلبه وقال ابو زيد امرضه وقال
النحاس معناه عند اكثر اهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لان شعاف الجبال اعاليها
وقد شغف بذلك شغفا باسكان الغين المعجمة اذا ولع به وقرأ الحسن قد شغفها بضم الغين
وحكى بكسرها قال النحاس ولا يعرف ذلك في كلام العرب الا شغفا بفتح الغين ويقال ان الشغاف
الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهي الجلدة البيضاء فكانه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد
وقيل المعنى ان حبه دخل الجلدة حتى اصاب القلب وقيل ان حبه قد احاط بقلبها كاحاطة
الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى صارت لا تعقل شيئا سواه وقال السمين خرق
شغاف قلبها اي حجاب القلب وهو جلدة رقيقة وقيل سويداء القلب وقيل داء يصل الى القلب
من اجل الحب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ليست محيطة به والمعنى خرق حجابه
واصابه فاحرقه بحرارة الحب يقال شغف الهوى قلبه شغفا وشغفه المال زين له فاحبه
فهو مشغوف به وعن ابن عباس شغفها غلبها وقال قتلها حب يوسف وقال قد علقها قال
ازاد في سبحة المرجان ولا استبعاد في اظهار العشق من جانب المرأة اما ترى في القران الكريم لو

امرأة العزيز بيوسف عليه السلام والاهاند يذكرون العشق في تغزلاتهم من جانب المرأة بالنسبة
الى الرجل خلاف العرب وسببه ان المرأة في دينهم لا تنكح الا زوجا واحدا فحظ عيشتها منوط
بحياة الزوج واذا مات تحرق نفسها معه والعشق بين الرجل والمرأة وضع الهي فتارة يكون من
الطرفين وتارة يكون من احدهما واذا لوحظ الوضع الالهي فالمرأة معشوقة عاشقة والرجل عاشق
معشوق واهل الهند وافقوا العرب في التغزل بالنساء بخلاف الفرس والترك فان تغزلهم
بالامارد فقط ولا ذكر من المرأة في اغزالهم ولعمري المحبة الهولطالمونة حيث يضعون الشيء في غير
موضعه كما قال سبحانه وتعالى في قوم لوط فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة
من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد والعرب في التغزل بالامارد
متقلدون لهم والاصل فيهم التغزل بالنساء ومعناه التحدث بهن واما الاهاند فلا يعرفون
التغزل بالامارد قطعا انتهى هذا وقد عقد رح الفصل الرابع من كتابه المذكور في بيان اقسام
المعشوقات والعشاق واورد لكل قسم منهما اشعارا عجيبة وابياتا غريبة باعتبار الجهات
المتنوعة والحيثيات المتلونة ان رأها السالي تذوب طبيعته الجامدة او العاذل تشعل ناره
الخامدة إِنَّا لَنَرَاهَا جملة مقررة لمضمون ما قبلها اي نعلمها في فعلها هذا وهو المراودة لفتاها
فِي ضَلَالٍ عن طريق الرشد والصواب مُبِينٍ واضح لا يلتبس على من نظر فيه حيث تركت ما يجب
على امثالها من العفاف والستر فَلَمَّا سَمِعَتْ امرأة العزيز بِمَكْرِهِنَّ اي بغيبتهن اياها سميت
الغيبة مكرا لاشتراكهما في الاخفاء وقيل اردن ان يتوسلن بذلك الى رؤية يوسف فلهذا
سمي قولهن مكرا وقيل لانها اسرت عليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكرا عن سفيان قال اي بعملهن
وكل مكر في القران فهو العمل أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ اي دعوهن اليها لتقيم عذرها عندهن ولينظرن
الى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه قيل دعت اربعين امرأة من اشراف مدينتها فيهن
هؤلاء اللاتي عيرنها وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً اي هيأت لهن مجالس يتكئن عليها من نمارق و
مسانيد واعتدت من الاعتداد وهو كلما جعلته عدة لشيء وقرئ متكا مخففا غير مهموز و
المتك هو الاترج بلغة القبط قاله مجاهد وعن عكرمة قال هو كل شيء يقطع بالسكين وعن
الضحاك مثله وقيل ان ذلك هو لغة ازدشنوة وقيل حكي ذلك عن الاخفش قال الفراء انه

ماء الورد وقرأ الجمهور متكأ بالهمز والتشديد واصح ما قيل فيه انه المجلس وقيل هو الطعام وبه
قال ابن جبير والحسن وقتادة وسمي متكأ على الاستعارة قاله الخازن اي للاتكاء عنده على عادة
المتكبرين في اكل الفواكه فهو مجاز مرسل وعلاقته المجاورة وقيل المتكأ كل ما اتكي عليه عند
طعام او شراب او حديث وحكى القتيبي انه يقال اتكانا عند فلان اي اكلنا ويؤيد هذا قوله
وآتت كل واحدة منهن سكيناً فان ذلك انما يكون لشيء ياكلنه بعد ان يقطعنه والسكين
تذكر وتؤنث قاله الكسائي والفراء قال الجوهري والغالب عليه التذكير والمراد من اعطائها لكل
واحدة سكينا ان يقطعن ما يحتاج الى التقطيع من الاطعمة قيل وكان من عادتهن ان ياكلن
اللحم والفواكه بالسكين وكانت تلك السكاكين خناجر ويمكن انها ارادت بذلك ما سيقع منهن
من تقطيع ايديهن وقالت ليوسف اخرج عليهن اي في تلك الحالة التي هن عليها من الاتكاء
والاكل وتقطيع ما يحتاج الى التقطيع من الطعام فلما رأينه أكبرنه اي اعظمنه قاله مجاهد
واحترمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة جماله وقيل امذين ومنه قول الشاعر
اذا ما رأين الفحل من فوق قلة + صهلن واكبرن للمني المقطرا + وقال الازهري اكبرن بمعنى حضن
والهاء للسكت يقال اكبرت المرأة اي دخلت في الكبر بالحيض ووقع منهن ذلك دهشا وفزعا
لما شاهدنه من جماله الفائق وحسنه الرائق وانكر ذلك ابو عبيدة وغيره وقالوا ليس ذلك في كلام
العرب قال الزجاج يقال اكبرنه ولا يقال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض وجرى على تمثين وقال
ابن عباس حضن من الفرح واجاب الازهري فقال يجوز ان يكون هاء الوقف لا هاء الكناية وقد
زيف هذا بان هاء الوقف تسقط في الوصل قال ابن الانباري ان الهاء كناية عن مصدر الفعل
اي اكبرن اكبارا بمعنى حضن حيضا وقال الرازي وعندي انه يحتمل وجها آخر هو انهن انما
اكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وشاهدن فيه مهابة ملكية وهي عدم الالتفات
الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم اكبرنه واعظمنه و
حمل الآية على هذا اولى انتهى قلت الاولى هو الاول وقطعن ايديهن اي جرحنها حتى سال الدم
وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد بل المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة
كما قال النحاس يقال قطع يد صاحبه اذا خدشها وقيل المراد بالايدي هنا انا ملهن وقيل كما

والمعنى انه لما خرج يوسف عليهن اعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت ايديهن
فوقع القطع عليها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الاحلام وتضطرب له
الابدان وتزول العقول قال مجاهد فما احسسن الا بالدم وقال قتادة ابن ايديهن حتى القينها
والاصح انه كان قطعا من غير ابانة وعن منبه عن ابيه قال مات من النسوة اللاتي قطعن ايديهن
تسع عشرة امرأة كمدا وَقُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ قرئ باثبات الالف وحذفها باسكان الشين حاش لله وقرئ
حاش الاله وحاشا لله قلت اثبات الالف وحذفها قراءتان سبعيتان وهذا بالنظر للنطق ولما
رسم المصحف فلا تكتب فيه الف بعد الشين وان نطق بها قال الزجاج اصل الكلمة من الحاشية
بمعنى الناحية يقال كنت في حاشية فلان اي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا اي تباعد منه
وقال ابو علي هو من المحاشاة وقيل ان حاش حرف وحاشا فعل وكلام اهل النحو في هذه الكلمة معروف
ومعناها هنا التنزيه كما تقول اسى القوم حاشا زيد فمعنى حاشا لله براءة لله وتنزيه له اي عن صفة
العجز عن خلق هذا وامثاله قال مجاهد حاشا لله معاذ الله مَا هٰذَا بَشَرًا اعمال ما عمل ليس هي لغة اهل
الحجاز وبها نزل القرآن كهذه الآية وكقوله سبحانه ما هن امهاتهم واما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس وقال
الكوفيون اصله ما هذا ببشر ولما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد اعملوها عمل ليس وبه قال
البصريون والبحث مقرر في كتب النحو بشواهده وحججه وقرأ الحسن ما هذا بشرا على ان الباء حرف جر
والشين مكسورة اي ما هذا بعبد يشترى وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله ان
هذا الا ملك كريم وانما نفين عنه البشرية لانه قد برز في صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم
يعهد على احد من البشر ولا ابصر المبصرون ما يقاربه في جميع النسمة البشرية ثم لما نفين عنه البشرية
لهذه العلة اثبتن له الملكية وان كن لا يعرفن الملائكة وقلن إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ على الله لانه قد تقرر
في الطباع وركز في النفوس انهم على شكل فوق شكل البشر في الذوات والصفات وان لا شيء احسن من الملك
وانهم فائقون في كل شيء كما تقرر فيها ان الشياطين على العكس من ذلك ولا اقبح منهم والمقصود من هذا
اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف واعلم انه لا يلزم من قول النسوة هذا ان الملائكة صورهم احسن
من صور بني آدم فانهن لم يقلنه لدليل بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك
ممنوع فان الله سبحانه يقول لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم وظاهر هذا انه لم يكن شيء مثله من

انواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة
تعصباته لما رسخ في عقله من اقوال المعتزلة على ان هذه المسئلة اعني مسئلة المفاضلة بين الملائكة
والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر فما اغنى عباد الله عنها واحوجهم الى غيرها من
مسائل التكاليف قال قتادة قلن ملك من الملائكة من حسنه وغرابة جماله واخرج احمد وغيره
عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اعطي يوسف وامه شطر الحسن وقد وردت روايات عن جماعة
من السلف في وصف حسن يوسف والمبالغة في ذلك ففي بعضها انه اعطي نصف الحسن وفي
بعضها ثلثه وفي بعضها ثلثيه قالت فذلكن الذي لمتنني فيه الاشارة الى يوسف والخطاب
للنسوة اي عيرتنني فيه قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف اظهار العذر نفسها ومعنى فيه
في حبه وقيل الاشارة الى الحب فالضمير له والمعنى فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب والاول اولى ورجحه ابن جرير وجوز ان يكون
اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الذي صورتن في انفسكن ثم لمتنني فيه قال الزمخشري
قالت فذلكن ولم تقل هذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق ان يحب ويفتتن به فلام البعد هنا لتعظيم رتبته اولبعد رتبته
وحالته عن رتبة البشر وصل اللوم الوصف بالقبيح ثم لما اظهرت عذرها نفسها عند النسوة بما شاهدنه مما وقعن فيه عند ظهوره
لهن ضاق صدرها عن كتم ماتجده في قلبها من حبه فاقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة
له فقالت ولقد اللام لام قسم راودته عن نفسه فاستعصم اي استعف وامتنع واستعصى مما
أريدة طالبا العصمة نفسه عن ذلك وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن
قد اصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم توعدته ان لم يفعل ما تريده منه كاشفة لجلباب الحياء هاتكة
لستر العفاف فقالت ولئن لام قسم لم يفعل ما آمره اي ما قد امرته فيما تقدم ذكره عند ان
اغلقت الابواب وقالت هيت لك ليسجنن اي ليعتقل في السجن وليكونا من الصاغرين من صغر
بكسر الغين يصغر صغرا وصغارا والصغير من صغر بالضم صغرا اي من الاذلاء لما يناله من الاهانة
ويسلب عنه من النعمة والعزة في زعمها فلما سمع يوسف مقالتها هذه عرف انها عزمة منها مع ما
قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجيا لربه سبحانه يا رب السجن اي دخوله الذي
اوعدتني به هذه وقرأ عثمان السجن بفتح السين وهو مصدر سجنه سجنا احب الي اي اثر عندي لانه
مشقة قليلة نافدة اثرها راحات جليلة ابدية مما يدعونني اليه من مواتاتها التي تؤدي الى

الشقا والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخيري الدنيا والآخرة وهذا الكلام منه عليه السلام
مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست
على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران اهونهما واقربهما الى الايثار
السجن وان كان في احدهما مشقة وفي الآخر لذة قال بعضهم لو لم يقل هذا لم يبتل به فالاولى
للعبد ان يسال الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسال الصبر والتعبير عن
الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان
الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه في مطاوعتها
وخوفنه من مخالفتها وقيل انهن جميعا دعونه الى انفسهن او لانه كان بحضرتهن والاول اولى ثم
جرى على هذا في نسبة الكيد اليهن جميعا فقال وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ في تحبيب ذلك
الي وتحسينه لدي بان تثبتني على ما انا عليه من العصمة والعفة اما الكيد من امرأة العزيز فما
قد قصه الله سبحانه في هذه السورة واما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة
والتخويف من المخالفة وقيل انها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يا يوسف اقض لي حاجتي
فانا خير لك من امرأة العزيز وقيل انه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيما
لها او عدولا عن التصريح الى التعريض والكيد الاحتيال وجزم أَصْبُ إِلَيْهِنَّ على انه جواب الشرط اي
امل اليهن واتبعهن واطاوعهن من صبا يصبو اذا مال واشتاق ومنه قول الشاعر ~ الى هند
صبا قلبي + وهند حبها يصبي + والصبوة الميل الى الهوى ومنه ريح الصبا لان النفس تستطيبها وتميل
اليها لطيب نسيمها وروحها وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ اي ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه او ممن
يعمل عمل الجهال او ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه ان من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة
قال ابو السعود وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء الى الطاف الله جريا على سنن الانبياء والصالحين في
قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن انفسهم
مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن باظهار ان لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث
ادركني والا هلكت لا انه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه الى
هواهن فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لما قال وان لا تصرف عني كيدهن كان ذلك منه تعرض للدعاء وكانه

قال اللهم اصرف عني كيدهن فالاستجابة من الله تعالى هي بهذا الاعتبار لانه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام وفي اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ حسب دعائه والمعنى انه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية لانه اذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما منه منه ووجه اسناد الكيد قد تقدم إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها من صرف الكيد اي انه هو السميع لدعوات الداعين له العليم باحوال الملتجين اليه وفيه انه لا يقدر احد على الانصراف عن المعصية الا بعصمة الله ولطفه به وهو معنى قوله لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثُمَّ بَدَا لَهُمْ اي ظهر للعزيز واصحابه الذين يدبرون الامر معه ويشيرون عليه في الرأي واما فاعل بدا فقال سيبويه هو ليسجننه اي ظهر لهم ان يسجنوه قال المبرد وهذا غلط لان الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه بدا وهو المصدر فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل الفاعل المحذوف هو رأي اي وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ قيل هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الايدي وقيل هي البركات التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف اليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف وانفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال ابن عباس الآيات قد القميص واثرها في جسده واثر السكين وقالت امرأة العزيز ان انت لم تسجنه ليصدقنه الناس وعن ابن زيد قال من الآيات كلام الصبي وقال قتادة الآيات حزهن ايديهن وقد القميص واقول ان كان المراد بالآيات الآيات الدالة على برائته فلا يصح عد قطع ايدي النسوة منها لانه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ما البسه الله سبحانه من الجمال الذي ينقطع عند مشاهدته عرى الصبر ويضعف عند رؤيته قوى التجلد وان كان المراد بالآيات الدالة على انه قد اعطي من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ويذهب بادراك الناظرين فنعم يصح عد قطع الايدي من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا لَيَسْجُنُنَّهُ اللام جواب قسم محذوف على تقدير قائلين والله ليسجننه وقرئ بالفوقية على الخطاب اما للعزيز ومن معه او له وحده على طريق التعظيم وفي الخطط للمقريزي قال القضاعي سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة اجمع

اهل المعرفة من اهل مصر على صحة هذا المكان وفيه اثر نبيين احدهما يوسف سجن به المدة التي
ذكر ان مبلغها سبع سنين والآخر موسى وقد بني على اثره مسجد يعرف بمسجد موسى انتهى ثم طال
في بيان حال ذلك السجن وموضعه وما يصنع هناك قيل وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف
انهم ارادوا اسنر القالة وكتم ماشاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه وقيل ان العزيز قصد
بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم انها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بحمل نفسها
عليه على اي صفة كانت حتى حين اي الى مدة غير معلومة كما قاله اكثر المفسرين وقيل الى انقطاع ما
شاع في المدينة وقال سعيد بن جبير الى سبع سنين وقيل الى خمس وقيل الى سنة اشهر وقد تقدم
في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى الى قال السدي جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه
بالمرأة وعن ابن عباس قال عوقب يوسف ثلاث مرات اما اول مرة فبالحبس لما كان من همه بها
والثانية لقوله اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين عوقب بطول الحبس والثالثة حيث
قال ايتها العير انكم لسارقون فاستقبل في وجهه ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل ودخل
معه السجن فتيان النقد ير فسجنوه ودخل معه وصع للصاحبة وفتيان تثنية فتى وذلك يدل
على انهما عبدان له ويحتمل ان يكون الفتى اسما للخادم وان لم يكن مملوكا قال ابن عباس احدهما خازن
الملك على طعامه والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما اهل مصر مالا في مقابلة
ذلك ثم ان الساقي رجع من ذلك وقال للملك لا تاكل الطعام فانه مسموم وقال الخباز لا تشرب
فان الشراب مسموم فقال الملك للساقي اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل فابى فجرب
الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف وقيل قبله وقيل
بعده قال ابن جرير انهما سألا يوسف عن علمه فقال اني اعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله
سبحانه قال احدهما اني اراني اعصر خمرا اي رايتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والمعنى
اني اراني اعصر عنبا فسماه باسم ما يؤل اليه لكونه المقصود من العصر وقراءة ابن مسعود
اني اعصر عنبا لا تدل على الترادف لارادتهما التفسير لا التلاوة وقال الاصمعي اخبرني المعتمر
بن سليمان انه لقي اعرابيا ومعه عنب فقال له ما معك قال خمر وقيل معناه اعصر عنب خمر
فهو على حذف مضاف وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة غسان وعمان وهذا الذي رأيه

هذه الرؤيا هو الساقي وكان بين دخوله السجن وبين الرؤيا خمس سنين وهذه الجملة مستانفة
بتقدير سؤال وكذلك الجملة التي بعدها وهي وَقَالَ الْآخَرُ اي الخباز إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي
خُبْزًا ثم وصف الخبز هذا بقوله تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ثم قالا ليوسف جميعا بعد ان قصا
رؤياهما عليه نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ اي بتاويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين او بتاويل المذكور
لك من كلامنا وقيل ان كل واحد منهما قال له عقب قص رؤياه عليه فيكون الضمير راجعا
الى مارأه كل واحد منهما وقيل ان الضمير في بتاويله موضوع موضع اسم الاشارة بطريق الاستعارة
فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد والتقدير بتاويل ذلك إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ اي من الذين
يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء ان معناه من العالمين الذين احسنوا العلم وقال ابن اسحاق
من المحسنين الينا ان فسرت ذلك او من المحسنين الى اهل السجن فقد روي انه كان كذلك.
قال قتادة كان يعزي حزينهم ويداوي مرضاهم ورأوا منه عبادة واجتهادا فاحبوه وعن
الضحاك قال كان احسانه اذا مرض انسان في السجن قام عليه واذا ضاق عليه المكان اوسع
له واذا احتاج جمع له وعن ابن عباس قال دعا يوسف لاهل السجن فقال اللهم لا تعم عليهم الاخبار وهون عليهم الايام قَالَ لَا
يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ من جهة الله او الملك والجملة صفة لطعام إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ
قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا مستانفة جواب سؤال مقدر ومعنى ذلك انه يعلم شيئا من الغيب بالهام الله تعالى
وانه لا ياتيهما الى السجن طعام في اليقظة الا اخبرهما بماهيته قبل ان ياتيهما وقيل اراد به في النوم
والاول هو الاظهر وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه بل جعل عليه السلام مقدمة
قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلو مرتبته في العلم وانه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن
وتخمين فهو كقول عيسى عليه السلام وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم وانما قال
يوسف لهما بهذا ليحصل الانقياد له منهما فيما يدعوهما اليه بعد ذلك من الايمان بالله والخروج
من الكفر والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا ياتيكما في حال من الاحوال
الا حال ما نبأتكما اي بينت لكما ماهيته وكيفيته وسماه تاويلا بطريق المشاكلة
لان الكلام في تاويل الرؤيا او المعنى الا نبأتكما بما يؤول اليه الكلام من مطابقة ما اخبر كما به للواقع ذٰلِكُمَا اسم
التاويل والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بما اوحاه الي والهمني اياه لا من قبيل

الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ثم بين لهما ان ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن اهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الانبياء من آبائه فقال إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الاصل وعدم الالتفات اليه بالكلية لانه قد كان تلبس به ثم تركه كما يدل عليه قوله ما كان لنا ان نشرك بالله ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه فقال وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ اي هم مختصون بذلك دون غيرهم لافراطهم في الكفر بالله وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وسماهم آباء جميعا لان الاجداد آباء وقدم الجد الاعلى ثم الجد الاقرب ثم الاب لكون ابراهيم هو اصل هذه الملة التي كان عليها اولاده ثم تلقاها عنه اسحاق ثم يعقوب وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الايمان وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية مَا كَانَ اي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع لَنَا معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ اي شيء كان من ملك او جني او انسي فضلا ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر قال الواحدي لفظة من زائدة موكدة كقولك ما جاءني من احد ذَلِكَ اي الايمان والتوحيد وعدم الاشراك والعلم الذي رزقنا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ اي ناش من تفضلاته عَلَيْنَا ولطفه بنا بما جعل لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه وَمن فضل الله عَلَى النَّاسِ كافة ببعثة الانبياء اليهم وهدايتهم الى ربهم وتبيين طرائق الحق لهم وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ وهم الكفار لَا يَشْكُرُونَ الله سبحانه على نعمه التي انعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحدونه ويعملون بما شرعه لهم او لا يستدلون بما نصبه لهم من الدلائل وانزل الآيات فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها او لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من ادلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية قال قتادة ان المومن ليشكر ما به من نعمة الله ويشكر ما بالناس من نعمة ذكر لنا ان ابا الدرداء كان يقول يا رب شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ويا رب حامل فقه غير فقيه ثم دعاهم الى الاسلام صريحا فقال يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه وقيل المراد يا صاحبي في السجن لان السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه وان ذلك من باب يا سارق

الليلة وعلى الاول يكون من باب الاضافة الى الشبيه بالمفعول به والمعنى يا ساكني السجن كقوله اصحاب الجنة واصحاب النار قال قتادة لما عرف يوسف ان احدهما مقتول دعاهما الى حظهما من ربهما والى نصيبهما من آخرتهما فقال ءَارْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ الاستفهام للانكار مع التوبيخ والتقريع ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد اي هل الارباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم خَيْرٌ لكما يا صاحبي السجن اَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ اي المعبود بحق المنفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك الْقَهَّارُ الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند وقيل استفهام تقرير اي طلب الاقرار بجواب الاستفهام اي اقروا واعلموا ان الله هو الخير والاول اولى اورد يوسف عليهما هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام لانهما كانا ممن يعبد الاصنام وقد قيل انه كان بين ايديهما اصنام يعبدونها عند ان خاطبهما بهذا الخطاب ولهذا قال لهما مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِهٖٓ اِلَّآ اَسْمَآءً فارغة لا مسميات لها وان كنتم تزعمون ان لها مسميات وهي الآلهة التي تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الاسماء كانها لا مسميات لها وقيل المعنى ما تعبدون من دون الله الا مسميات اسماء وقيل خطاب لاهل السجن جميعا لا لخصوص الصاحبين وهذا هو الاظهر وكذلك ما بعده من الضمائر لانه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم سَمَّيْتُمُوْهَآ اَنْتُمْ وَاٰبَآؤُكُمْ من تلقاء كم بمحض جهلكم وضلالتكم وليس لها من الالهية شيء الا مجرد الاسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر والتقدير سميتموها آلهة من عند انفسكم مَآ اَنْزَلَ اللّٰهُ بِهَا اي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة مِنْ سُلْطٰنٍ من حجة تدل على صحتها اِنِ اي ما الْحُكْمُ في امر العبادة المتفرعة على تلك التسمية اِلَّا لِلّٰهِ عز سلطانه لانه المستحق لها بالذات اذ هو الذي خلقكم وخلق هذه الاصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان اَمَرَ اَلَّا اي بان لا تَعْبُدُوْٓا اِلَّآ اِيَّاهُ حسب ما تقتضيه به قضية العقل ايضا والجملة مستانفة او حالية والاول هو الظاهر والمعنى انه امركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون انه معبود ثم بين لهم ان عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال ذٰلِكَ اي تخصيصه تعالى بالعبادة الدِّيْنُ الْقَيِّمُ اي المستقيم الثابت العدل الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ان ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق او لا

يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد ان
جهل اذا امكن له العلم بطريقه ثم بعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيا نه لهما مقداره الرفيع ومرتبته
عليه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغائر الماسبق فصله عنه بتكرير الخطاب
فقال يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا اي الساقي وانما ابهمه لكونه مفهوما ولكراهة التصريح للخباز
بانه الذي سيصلب فَيَسْقِي رَبَّهُ اي مالكه خَمْرًا وهي عهدته التي كان قائما بها في خدمة الملك
فكانه قال اما انت ايها الساقي فستعود بعد ثلاثة من الايام الى ما كنت عليه ويدعوك الملك و
يطلقك من الحبس وَأَمَّا الْآخَرُ وهو الخباز فيخرج بعد ثلث فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
تعبير لما رأه من انه حمل فوق راسه خبزا فتاكل الطير منه قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ
وهو ما رأياه وقصاه عليه يقال استفتاه اذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما اشكل عليه
وهما قد سألاه تعبير ما اشكل عليهما من الرؤيا والمراد بالامر ما يؤول اليه امرهما ولذلك وحده
قاله البيضاوي وقال الزمخشري المراد بالامر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من اجله عن ابن مسعود
قال ما رأى صاحبا يوسف شيئا انما تحالما ليجربا علمه فلما اوّل رؤياهما قالا انما كنا نلعب ولم نر شيئا
فقال قضي الامر الاية يعني وقعت العبارة فصار الامر على ما عبر يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا
رؤيا حقيقة وعن ابي مجلز قال كان احد الذين قصا على يوسف الرؤيا كاذبا وكان هذا
التعبير بالوحي كما ينبئ عنه قوله قضي الامر وقيل هو بالاجتهاد وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا
اي قال يوسف والظان هو ايضا يوسف والمراد بالظن العلم لانه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي
وهلاك الخباز هكذا قال جمهور المفسرين وقيل الظاهر على معناه لان عابر الرؤيا انما يظن ظنا و
الاول اولى وانسب بحال الانبياء ولاسيما وقد اخبر عن نفسه عليه السلام بانه قد اطلعه الله
على شيء من علم الغيب كما تقدم اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ هي مقول المقول امره بان يذكره عند سيده
ويقول له ان في السجن غلاما محبوسا ظلما منذ خمس سنين ويصفه بما شاهده منه من جودة
التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب فخرج فَأَنْسَاهُ اي الساقي الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ وكانت هذه
المقالة منه صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان فيكون ضمير المفعول في انساه
عائدا الى يوسف هكذا قال اكثر المفسرين ويكون المراد بربه في قوله ذكر ربه هو الله سبحانه اي

انسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال فقال للذي ظن انه ناج منهما يذكره عند سيده
ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما اوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد ان رأى من الآيات
ما يدل على برائته وذلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في دفع
الضرر وان كانت جائزة الا انه لما كان مقام يوسف اعلى المقامات في رتبة اعلى المراتب وهي
منصب النبوة والرسالة لا جرم صار مواخذا بهذا القدر فان حسنات الابرار سيئات المقربين
وذهب جماعة من المفسرين الى ان الذي انساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين
وهو الشرابي والمعنى انسى الشرابي الشيطان ذكر سيده اي ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ما اوصاه به يوسف
من ذكره عند سيده ويكون المعنى فانساه الشيطان ذكر اخباره بما امره به يوسف مع خلوصه
من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقي الملك وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل
له على الانبياء واجيب بان النسيان وقع من يوسف ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز و
الانبياء غير معصومين عن النسيان الا فيما يخبرون به عن الله سبحانه وقد صح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال انما انا بشر مثلكم انسى كما تنسون فاذا نسيت فذكروني ورجح ايضا بان النسيان
ليس بذنب فلو كان الذي انساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه
في السجن بضع سنين واجيب بان النسيان بمعنى الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير
الله سبحانه ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف ما بعده من قوله فلبث في السجن بضع سنين ويؤيد
رجوعه الى الذي نجى من الغلامين قوله فيما سياتي الذي نجا منهما وادكر بعد امة فلبث يوسف
في السجن بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين او بسبب ذلك الانساء اخرج ابن
ابي الدنيا وابن جرير والطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يقل يوسف الكلمة
التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله وعن عكرمة مرفوعا
نحوه وهو مرسل بضع سنين البضع ما بين الثلاث الى التسع كما حكاه الهروي عن العرب وبه قال
قتادة وحكي عن ابي عبيدة ان البضع ما دون نصف العقد يعني ما بين واحد الى اربعة وقيل ما بين
ثلاث الى سبع قاله مجاهد وقيل هو ما دون العشرة وحكى الزجاج انه ما بين الثلاث الى الخمس وقد
اختلف السلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن فقيل سبع سنين قاله ابن جريج

وقتادة ووهب بن منبه وقيل ثنتي عشرة سنة قاله ابن عباس وقيل اربع عشرة سنة قاله
الضحاك وقيل خمس سنين وعن انس قال اوحي الى يوسف من استنقذك من القتل حين هم
اخوتك ان يقتلوك قال انت يا رب قال فمن استنقذك من الجب اذ القوك فيه قال انت يا رب
قال فمن استنقذك من المرأة اذ همت بك قال انت يا رب قال فما لك نسيتني وذكرت آدميا قال
جزعا وكلمة تكلم بها لساني قال فوعزتي لاخلدنك في السجن بضع سنين فلبث فيه سبع سنين
اخرجه ابن ابي شيبة وعبد الله بن احمد وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ فالبضع مدة العقوبة
لا مدة الحبس كله ولما دنى فرج يوسف قال الملك اي الملك الاكبر وهو الريان بن الوليد الذي
كان العزيز وزيراله اني ارى اي رايت في منامي سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ياكلهن
سبع عجاف اي مهازيل في غاية الضعف والتعبير في الموضعين بالمضارع لاستحضار الصورة
والسمان جمع سمين وسمينة يقال رجال سمان كما يقال نساء كرام والعجاف جمع عجفاء سماعي وقياس
جمعه عجف لان فعلى وافعل لا تجمع على فعال ولكنه عدل عن القياس حملا على السمان لانه نقيضه
وسبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا اخر يابسات وهي التي قد بلغت
حد الحصاد وانما حذف اسم العدد لان التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات وكان
قد رأى ان السبع السنبلات اليابسات قد ادركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ولم يبق
من خضرتهن شيء ولعل عدم التعرض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات
وذلك انه لما شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى غلبه وقهره اراد ان
يعرف ذلك فقال يا ايها الملأ افتوني في رؤياي الخطاب للاشراف من قومه وقيل هم السحرة
والكهنة والمعبرون للرؤيا والمعنى اخبروني بحكم هذه الرؤيا ان كنتم للرؤيا تعبرون اي تعلمون
عبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية الى المعاني النفسانية التي هي مثالها واصل العبارة
مشتقة من عبور النهر وهو المجاوزة فمعنى عبرت النهر بلغت شاطئه فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول
اليه امرها قال الزجاج اللام في للرؤيا للبيان وقيل هو لتقوية العامل وتاخير الفعل العامل
فيه لرعاية الفواصل قالوا هذه اضغاث احلام مستانفة وهي جمع ضغث وهو كل مختلط من
اخلاط من بقل او حشيش او غيرها فاستعير للرؤيا الكاذبة وانما جمعوا للمبالغة في وصف الحلم

بالبطلان ولتضمنه اشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر
اليابسات فتامل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل والمعنى هي اخاليط احلام
والاحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووساوس
الشيطان والاضافة بمعنى من اي هي اضغاث من احلام اخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة
تؤل اليها ويعتني بامرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم
فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة ويجوز ان يكون رأى
مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا قال ابن عباس اضغاث احلام يقول مشتبهة
وعنه قال الكاذبة وعن الضحاك مثله وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ المختلطة بِعَالِمِينَ يريدون
بالاحلام المنامات الباطلة خاصة اي ليس لها تاويل عندنا وانما التاويل للمنامات الصادقة
كانه مقدمة ثانية للعذر بجهلهم بتاويله نفوا عن انفسهم علم ما لا تاويل له لا مطلقا ولعلهم
بالتاويل وقيل انهم نفوا عن انفسهم علم التاويل مطلقا ولم يدعوا انه لا تعبير لهذه الرؤيا
وقيل انهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم
حقيقة وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا اي من الغلامين وهو الساقي الذي قال له يوسف اذكرني
عند ربك وَادَّكَرَ بالدال المهملة على قراءة الجمهور وهي الفصيحة وقرئ بالمعجمة اي تذكر الساقي
يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا بَعْدَ أُمَّةٍ لمدة طويلة وحين بعيد ومنه الى امة
معدودة الى وقت قال ابن درستويه والامة لا تكون على الحين الا على حذف مضاف واقامة
المضاف اليه مقامه كانه قال والله اعلم وادكر بعد حين امة او بعد زمن امة وسمي الحين من الزمان
امة لانه جماعة ايام والامة الجماعة الكثيرة من الناس قال الاخفش هو في اللفظ واحد وفي المعنى
جمع وكل جنس من الحيوان امة وقرئ بعد أَمَهٍ اي بعد نسيان وامة بكسر الهمزة اي بعد نعمة
وهي نعمة النجاة وعن الحسن بعد امة من الناس وقال ابن عباس بعد سبع سنين وقيل تسع
سنة وقيل سنتين أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ اي اخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتاويله وهو يوسف
او احلكم عليه او اخبركم بمن عنده تاويله فَأَرْسِلُونِ خاطب الملك بلفظ الجمع للتعظيم او خاطبه
ومن كان معه من الملأ طلب منهم ان يرسلوه الى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره

بتا ويلها فيعود بذلك الى الملك او الى السجن فاتى السجن وجملة مجيء الرسول ليوسف في السجن اربع مرات كما في التيسير يوسف اي يا يوسف ايها الصديق انما سماه صديقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل لانه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن افتنا في اخبرنا وبين لنا في سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات وترك ذكر رؤيا اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بان ذلك رؤيا وان المطلوب منه تعبيرها وما في علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه اولا نبئنا بتاويله وفي قوله افتنا مع انه المستفتي وحده اشعار بان الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بامور العامة وانه في ذلك معبر وسفير كما اذن بذلك حيث قال لعلي ارجع الى الناس اي الى الملك ومن عنده من الملأ بتاويل هذه الرؤيا او الى اهل البلد اذ قيل ان السجن لم يكن فيه لعلهم يعلمون ما تاتي به من تاويل هذه الرؤيا او يعلمون فضلك ومنزلتك ومعرفتك الرؤيا وانما لم يبت الكلام فيهما لانه لم يكن جازما بالرجوع فربما اخترمته المنية دونه ولا بعلمهم قال تزرعون مستانفة كغيرها مما يرد هذا المورد سبع سنين دابا اي متوالية متتابعة قرئ بفتح الهمزة وسكونها وهما لغتان في مصدر داب في العمل اذا جد فيه وتعب قال الفراء حرك لان فيه حرفا من حروف الحلق وكذلك كل حرف فتح اوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة واصل معنى الداب التعب ويكنى به عن العادة المستمرة لانها تنشأ عن مداومة العمل اللازم له التعب وانتصابه بفعل مقدر اي تدأبون دابا كما قاله سيبويه او على انه مصدر واقع موقع الحال فيكون فيه الاوجه المعروفة اما المبالغة واما وقوعه موقع الصفة واما على حذف مضاف اي دائبين او ذوي داب او جعلهم نفس الداب مبالغة فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين فيها خصب والعجاف واليابسات بسبع سنين فيها جدب واول ابتلاع العجاف السمان باكلها ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة واستدل بالسبع الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله فما حصدتم في كل سنة من السنين المخصبة فذروه اي ذلك المحصود في سنبله وقصبه ليكون القصب علفا للدواب ولا تفصلوه عنها لئلا ياكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها وهذه نصيحة منه لهم خارجة عن التعبير وما شرطية او موصولة وسنبل

فعل بضم الفاء والعين الواحدة سنبلة يقال سنبل الزرع اي اخرج سنبله إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ
في هذه السنين المخصبة فانه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها واقتصر على استثناء
المأكول دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في اموالهم لانه قد علم من قوله تزرعون
ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ السبع السنين المخصبة سَبْعٌ شِدَادٌ اي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة
يصعب امرها على الناس وهي تاويل السبع العجاف والسبع اليابسات يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ
من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها في السنين المخصبات واسناد الاكل الى السنين مجازي
تطبيقا بين المعبر والمعبر به كما في نهاره صائم وفيه تلويح بانه تاويل لاكل العجاف السمان واللام في
لهن ترشيح لذلك فكان ما ادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هيئ وقدم لهن كالذي
يقدم للنازل والا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن والمعنى يأكل الناس فيهن او يأكل اهلهن
ما قدمتم اي ما ادخرتم لهن إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ اي مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لان
في استبقاء البذر تحصين الاقوات وقال ابو عبيدة معناه تحرزون وقيل تدخرون وقيل
تحرزون والمعنى واحد والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع اخرج
عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو
كنت مكانه ما اخبرتهم حتى اشترط عليهم ان يخرجوني ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه
والله يغفر له حين اتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه اراد ان يكون له العذر
ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ السنين المجدبات عَامٌ سنة وهذه بشارة منه لهم زائدة على تعبير الرؤيا
ولعله علم ذلك بالوحي او بان انتهاء الجدب بالخصب على العادة الالهية حيث يوسع على عباده بعد
تضييقه عليهم فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ من الاغاثة او الغوث وهو الفرج وزوال الهم والكرب والغيث
المطر وقد غاث الغيث الارض اي اصابها وغاث الله البلاد يغيثها غوثا امطرها فمعنى يغاث
الناس يمطرون وَفِيهِ يَعْصِرُونَ الاشياء التي تعصر كالعنب والسمسم والزيتون وقيل اراد حلب
الالبان وقيل معناه ينجون ماخوذ من العصرة وهي المنجاة قال ابو عبيدة والعصر بالتحريك الملجأ
والمنجا واعتصرت بفلان التجأت به وقرئ بتاء الخطاب يعصرون بضم الياء وفتح الصاد ومعناه

يمطرون ومنه قوله تعالى وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجا قال ابن عباس يصيبهم فيه غيث يعصرون فيه العنب والزبيب ومن كل الثمرات ويحتلبون وعنه قال اخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كان الله قد علمه اياه وفيه يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا والمراد كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار وقال الملك في الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فاخبره بما اخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا وقال الملك لمن بحضرته ائتوني به اي بيوسف رغب في رؤيته ومعرفة حاله بعد ان علم بفضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه فلما جاءه اي الى يوسف الرسول واستدعاه الى حضرة الملك وامره بالخروج من السجن قال يوسف للرسول قاصدا اظهار براءته ارجع الى ربك اي سيدك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن امره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ولم يسارع الى اجابة الملك ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه وانه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا قال ابن عباس اراد يوسف العذر قبل ان يخرج من السجن ولقد اعطي عليه السلام من الحلم والصبر والاناءة ما تضيق الاذهان عن تصوره ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لاجبت الداعي يعني الرسول الذي جاء يدعوه الى الملك قال ابن عطية هذا الفعل من يوسف اناءة وصبرا وطلبا لبراءة ساحته وذلك انه خشي ان يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن امر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وانما قال فاسأله ما بال النسوة وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز او خوفا منه من كيدها وعظم شرها وذكر السؤال عن تقطيع الايدي ولم يذكر مراودتهن له تنزها منه عن نسبة ذلك اليهن ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز الا بعد ان رمته بدائها وانسلت وقد اكتفى هنا بالاشارة الاجمالية بقوله ان ربي بكيدهن عليم فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيا عن التصريح وقيل المراد بالرب هنا الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له والاول اولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه مستأنفة كأنه قيل فماذا قال الملك بعد ان ابلغه الرسول ما قال يوسف والخطب

الشان العظيم الذي يحق له ان يخاطب فيه صاحبه خاصة وانما يخطب في الامور العظام قال الازهري
تقول هذا خطب جليل وخطب يسير والمعنى ما شانكن وكانت النسوة اربعين كما تقدم وقد تقدم
معنى المراودة وانما نسب اليهن المراودة لان كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ومن جملة
من شمله خطاب الملك امرأة العزيز واراد بنسبة ذلك اليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان
من امرأة العزيز تحاشيا عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز فاجبن
عليه بقولهن قُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ اي معاذ الله تنزيها له عن ان يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف
مثل هذا مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْٓءٍ اي من امر سيئ ينسب اليه من خيانة في شيئ من الاشياء وغير
ذلك ولما علمت زليخا ان هذه المناظرات والتفحصات انما هي بسببها فعند ذلك كشفت الغطاء
وصرحت بما هو الواقع وقَالَتِ امْرَاَتُ الْعَزِيْزِ متنزهة لجانبه مقرة على نفسها بالمراودة له اَلْئٰنَ
حَصْحَصَ الْحَقُّ اي تبين وظهر بعد خفائه واصله حص فقيل حصحص كما قيل كبكبوا في كبوا قال الزجاج
واصل الحص استيصال الشيئ يقال حص شعره اذا استاصله والمعنى انه انقطع الحق عن الباطل
بظهوره وبيانه وقيل هو مشتق من الحصة والمعنى بانت حصة الباطل قال الخليل معناه ظهر الحق
بعد خفائه وقال ابن عباس تبين وعن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله
ثم لما علمت ان يوسف راعى جانبها حيث قال ما بال النسوة ولم يذكرها مع ان الفتن كلها انما
نشأت من جهتها كافاته على ذلك باعترافها بان الذنب منها واوضحت ذلك بقولها اَنَا رَاوَدْتُّهٗ
عَنْ نَّفْسِهٖ ولم تقع المراودة في اصلا وَاِنَّهٗ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ فيما قاله من تنزيه نفسه ونسبة المراودة
اليها واردت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام فاخبر الرسول يوسف بجواب النسوة المذكورة فقال
ذٰلِكَ اي الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتانيه ذهب اكثر المفسرين الى ان هذا الكلام من كلام
يوسف قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة الصارفة
لكل منهما الى ما يليق به وهذه هي المرة الثانية من مرات مجيئ الرسول ليوسف في السجن والمعنى
فعلت ذلك لِيَعْلَمَ العزيز اَنِّيْ لَمْ اَخُنْهُ في اهله بِالْغَيْبِ والمعنى بظهر الغيب اي وهو غائب عني
او انا غائب عنه قال الزمخشري اي مكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الابواب السبعة
المغلقة قيل انه قال ذلك وهو في السجن بعد ان اخبره الرسول بما قالته النسوة وما قالته

امرأة العزيز وقيل انه قال ذلك وقد صار عند الملك والاول اولى وذهب الاقلون من المفسرين
الى ان هذا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والاقرار على نفسي بالمراودة
ليعلم يوسف اني لم اخنه فانسب اليه ما لم يكن منه وهو غائب عني اوانا غائبة عنه وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ اي لا يثبته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدده او لا يهديهم في كيدهم
يوقعه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم واذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة
العزيز حيث وقع منه الكيد له والخيانة لزوجها وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه
بعد ان علم براءته ونزاهته ولعل المراد منه اني لو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة وحيث
خلصني منها ظهر اني كنت بريئا مما نسبوني اليه ثم تواضع لله تعالى وتبارك فقال

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي

وهذا ان كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية لها مع انه قد علم
هو وغيره من الناس انه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس واقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل
ونزهته النسوة اللاتي قطعن ايديهن وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على
الحقيقة لانها قد اقرت بالذنب واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف وقد قيل ان هذا
من قول العزيز وهو بعيد جدا ومعناه وما ابرئ نفسي من سوء الظن بيوسف والمساعدة
على حبسه بعد ان علمت براءته إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ اي ان هذا الجنس من الانفس البشرية
شانه الامر بالسوء لميله الى الشهوات وتاثيرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّي اي الا من رحم من النفوس فعصمها عن ان تكون امارة بالسوء او الا وقت رحمة ربي
وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن ان تكون امارة
بالسوء إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ تعليل لما قبلها اي ان من شانه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم والمعنى
اجعله خالصا لي دون غيري وقد كان قبل ذلك خالصا للعزيز والاستخلاص طلب خلوص
الشيء من شوائب الشركة قال ذلك لما كان يوسف نفيسا وعادة الملوك انه يجعلوا الاشياء النفيسة

خالصة لهم دون غيرهم قال ابن عباس فأتاه الرسول فقال الق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا وقم الى الملك فدعى له اهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلثين سنة فلما اتاه رأى غلاما حدثا فقال ايعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة واقعده قدامه وقال لا تخف والبسه طوقا من ذهب وثياب حرير واعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر ان يوسف خليفة الملك وعنه قال قال الملك ليوسف اني احب ان تخالطني في كل شئ الا في اهلي وانا انف ان تاكل معي فغضب يوسف فقال انا احق ان انف انا ابن ابراهيم خليل الله وانا ابن اسحق ذبيح الله وانا ابن يعقوب نبي الله فلما كلمه في الكلام حذف وتقديره فاتوه به فلما كلمه اي الملك يوسف ويحتمل ان يكون المعنى فلما كلم يوسف الملك قيل والاول اولى لان مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء الا هم دون من يدخل عليهم وقيل الثاني اولى لقول الملك قال انك اليوم لدينا مكين امين فان هذا يفيد انه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حببه الى الملك وقربه من قلبه فقال له هذه المقالة ومعنى مكين ذو مكانة وامانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك يامنه الملك على ما يطلع عليه من امره او على ما يكله اليه من ذلك وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفنا امانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت اليك ومكين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب في امر الدين والدنيا واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو ان التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين قيل انه لما وصل الى الملك اجلسه على سريره وقال له اني احب ان اسمع تاويل رؤياي منك فعبرها له باكمل بيان واتم عبارة فلما سمع الملك منه ذلك قال له انك اليوم لدينا مكين امين فلما سمع يوسف منه ذلك قال اجعلني على خزائن الارض اي ولني امر الارض التي امرها اليك وهي ارض مصر او اجعلني على حفظ خزائن الارض وهي الامكنة التي تخزن فيها الاموال والطعام جمع خزينة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشئ طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ورفع الظلم ويتوسل به الى دعاء اهل مصر الى الايمان بالله وترك عبادة الاوثان وفيه دليل على انه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل في امر من امور السلطان ان يرفع منار الحق ويهدم ما امكنه من الباطل ان يطلب ذلك لنفسه ويجوز له ان يصف نفسه بالاوصاف التي لها ترغيبا فيما يرومه وتنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بالقاء مقاليد

عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن طلب الولاية والمنع من توليه من طلبها وحرص عليها وكان يوسف طلبه ابتغاء لوجه الله لا لحب الملك والدنيا وبهذا الجمع بينهما «إِنِّي حَفِيظٌ» وهو الذي يحفظ الشيء اي اني حفيظ لما جعلته اليّ من حفظ الاموال لا اخرجها في غير مخارجها ولا اصرفها في غير مصارفها «عَلِيمٌ» بوجوه جمعها وتفريقها ودخلها ومخرجها ومصالحها عن شيبة بن نعامة الضبي قال يقول اجعلني على جميع الطعام اني حفيظ لما استودعتني عليم بسنين المجاعة وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بالالسنة وقيل حفيظ للحساب عليم اعلم لغة من يأتيني «وَكَذَلِكَ» اي مثل ذلك التمكين العجيب «مَكَّنَّا لِيُوسُفَ» اي جعلنا له مكانا «فِي الْأَرْضِ» اي ارض مصر روي انها كانت اربعين فرسخا في اربعين والتمكين عبارة عن كمال قدرته ونفوذ امره ونهيه حتى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع وصار الناس يعملون على امره ونهيه «يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» اي ينزل منها حيث اراد بعد الضيق والحبس وتحرزه عبارة وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم وكانه يتصرف في الارض التي امرها الى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله وفي القصة ان الملك توجه وختمه وولاه مكان العزيز وعزله ومات بعد فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين واقام العدل بمصر ودانت له الرقاب قال السيوطي وعن ابن زيد ان يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرا وكان زوجها عنينا وقد استدل بهذه الآية على انه يجوز تولي الاعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق وقد قدمنا الكلام مستوفى على هذا في قوله سبحانه ولا تركنوا الى الذين ظلموا وقال مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى اسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله وكذلك مكنا الخ «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ» من العباد فنرحمه في الدنيا بالاحسان اليه والانعام عليه وفي الآخرة بادخاله الجنة وانجائه من النار «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» في اعمالهم الحسنة التي هي مطلوبنا منهم اي لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ» اي اجرهم في الآخرة واضيف الاجر الى الآخرة للملابسة واللام القسم واجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها ولا ينقضي مدتها «خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالله «وَكَانُوا يَتَّقُونَ» الوقوع فيما حرمه عليهم والمراد بهم

المحسنون الذين تقدم ذكرهم وفيه تنبيه على ان الاحسان المعتد به هو الايمان والتقوى في الكلام اظهار في مقام الاضمار للتوصل الى وصفهم بالايمان والتقوى بعد وصفهم بالاحسان
وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ اي جاءوا الى مصر من ارض كنعان ليمتاروا لما اصابهم القحط وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من ارض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا اهل بادية وشياه فَدَخَلُوا عَلَيْهِ اي على يوسف وهو في مجلس ولايته فَعَرَفَهُمْ لقوة فهمه وعدم مباينة احوالهم السابقة لحالهم يومئذ لانه فارقهم رجالا قيل باول نظرة نظر اليهم عرفهم وقيل لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه قاله الحسن والاول اولى وهو ظاهر النظم القراني وبه قال ابن عباس ومجاهد وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ لم يعرفوه لانهم فارقوه صبيا يباع بالدراهم في ايدي السيارة بعد ان اخرجوه من الجب ودخلوا عليه الان وهو رجل عليه ابهة الملك ورونق الرياسة وعنده الخدم والحشم وقيل انهم انكروه لكونه في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه وقيل كانوا بعيد العهد منه فلم يعرفوه قيل كان بين ان قذفوه بالجب وبين دخولهم عليه مدة اربعين سنة فلذلك انكروه وقيل غير ذلك وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه ولما كان انكارهم له مستمرا في حالتي المحضر والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ المراد به هنا انه اعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافر يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهاز السفر قال الازهري القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة وقيل بالعكس وفي الاية تضمين ضمن جهز معنى اكرم اي ولما اكرمهم بجهازهم اي بتحصيله لهم قيل حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام واكرمهم في النزول واحسن ضيافتهم وجميع ما فعله يوسف معهم في هذه القصة كان بالوحي كما قاله بعض المفسرين قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ يعني اخاه بنيامين الذي تقدم ذكره وهو اخو يوسف لابيه وامه ولم يقل باخيكم بالاضافة مبالغة في عدم تعرفه بهم ولذلك فرقوا بين مررت بغلامك وبغلام لك فان الاول يقتضي عرفانك بالغلام وان بينك وبين مخاطبك نوع عهد والثاني لا يقتضي ذلك قاله الكرخي واتى باللام لانه كان اخاهم لابيهم لا لامهم وهذا احسن من الاول ولعله عليه السلام

انما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فاعطاهم ذلك و شرطهم ان يأتوا به لانما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من انتم فاني انكركم فقالوا له نحن قوم من اهل الشام رعاة اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو اب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الانبياء اسمه يعقوب قال كم انتم قالوا كنا اثني عشر فذهب اخ لنا الى البرية فهلك وكان احبنا الى ابينا فقال كم انتم ههنا قالوا عشرة قال فاين الحادي عشر قالوا هو عند ابيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم انكم لستم عيونا وان ما تقولون حق قالوا انا ببلاد لا يعرفنا فيها احد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينا وائتوني باخيكم من ابيكم وهو يحمل رسالة من ابيكم حتى اصدقكم فاقترعوا فاصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الامر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان في الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند ابيهم ارسال اخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال ثم قال لهم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ اي اتمه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على ان ذلك عادته المستمرة وغرضه ترغيبهم في العود اليه مرة اخرى ثم اخبرهم بما يزيدهم وثوقا به وتصديقا لقوله فقال ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ اي والحال انا خير من نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الانزال قال الزجاج قال يوسف ذلك حين انزلهم واحسن ضيافتهم وقال ابن عباس انا خير من يضيف بمصر قال الرازي وهذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون الخ وايضا يبعد من يوسف مع كونه صديقا ان يقول لهم ذلك مع انه يعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لا يليق بالصديق ثم توعدهم اذا لم يأتوه به فقال ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي﴾ اذا عدتم مرة اخرى ﴿بِهِ﴾ اي باخيكم الذي من ابيكم ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ اي فلا بعد شيئا فيما بعد فضلا عن ايفائه واما في الحال فقد اوفاهم كيلهم وهذا نهاية التخويف لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكن الا من عنده فاذا منعهم من العود فقد ضيق عليهم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ اي

لا تدخلوا بلادي فضلا ان احسن اليكم وقيل معناه لا انزلكم عندي كما انزلتكم هذه المرة ولم يُرد انهم لا يقربون بلاده والمعنى لا تدنوا مني ولا تقربون مجزوم واما علي ان لا ناهية او على انها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كانه قال فان لم تاتوني به تحرموا ولا تقربوا فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم قالوا سنراود عنه اباه اي سنطلبه منه ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه وقيل معنى المراودة هنا المخادعة منهم لابيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه وانا لفاعلون هذه المراودة غير مقصرين فيها وقيل معناه وانا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ولا نتعاظمه وقال يوسف لفتيته اي لغلمانه واتباعه قرأ به اهل المدينة وابو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر واختار هذه القراءة ابو حاتم والنحاس وغيرهما وقرأ سائر الكوفيين لفتيانه واختار هذه القراءة ابو عبيد وبه قرأ ابن مسعود قال النحاس لفتيانه مخالف للسواد الاعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع وايضا فان فتية اشبه من فتيان لان فتية عند العرب لاقل العدد وامر القليل بان يجعلوا البضاعة في الرحال اشبه والجملة مستأنفة جواب سؤال كانه قيل فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك فاجيب بانه قال لفتيته قال الزجاج الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك وقال الثعلبي هما لغتان جيدتان مثل الصبية والصبيان قال الكرخي وكلاهما جمع فتى كاخوة واخوان جمع اخ الاول للقلة والثاني للكثرة قال البيضاوي وهم الكيالون اجعلوا بضاعتهم المراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام وكانت نعالا وادما وقال ابن عباس اوراقا في رحالهم وكل لكل رحل واحدا من غلمانه يدس فيه البضاعة التي اشتروا بها الطعام والذي في هذا الرحل والرحال جمع رحل وهي الاوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره والمراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الاثاث قال الواحدي الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى والمراد هنا الاوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام قال ابن الانباري يقال للوعاء رحل وللبيت رحل فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم وقيل ليستعينوا بها على الرجوع اليه لشراء الطعام وقيل ليرجعوا اليه مرة اخرى لعلمه انهم لا يقبلون الطعام الا بثمن قاله الفراء وجرى عليه الجلال وقيل انه خاف ان لا يكون عند ابيه شيء آخر من المال لان

الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه منة ولا عيب
وقيل اراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم وقيل اراد ان يكون ذلك عونا لابيه ولاخوته
على شدة الزمان وقيل غير ذلك وقيل انه استقبح ان ياخذ من ابيه واخوته ثمن الطعام
ثم علل يوسف ما امر به من جعل البضاعة في الرحال وهي معرفتهم لها فقال لعلهم يعرفونها
اي بضاعتهم اذا انقلبوا الى اهلهم لانهم لا يعلمون برد البضاعة اليهم الا عند
تفريغ الاوعية التي جعلوا فيها الطعام وهم لا يفرغونها الا عند الوصول الى اهلهم ثم علل معرفتهم
البضاعة المردودة اليهم المجعولة في رحالهم بقوله لعلهم يرجعون الينا فانهم اذا عرفوا ذلك
وعلموا انهم اخذوا الطعام بلا ثمن وان ما دفعوه عوضا عنه قد رجع اليهم وتفضل به
من وصلوا اليه عليهم نشطوا الى العود ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة
الى الطعام وعدم وجوده لديهم فان ذلك من اعظم ما يدعوهم الى الرجوع وبهذا يظهر ان
يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصود وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل
ردها بغير ذلك فلما رجعوا الى ابيهم اي رجع تسعة منهم قالوا يا ابانا انا قدمنا على خير رجل
انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة فقال لهم يعقوب اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤا عليه مني السلام
وقولوا ان ابانا يدعو لك بما اوليتنا فقالوا منع منا الكيل ارادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف
لهم فان لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي اي منع الكيل في المستقبل بعد هذه المرة وفيه دليل
على ان الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ولعلهم قالوا بهذه المقالة قبل
ان يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد فلما فتحوا متاعهم الاية
ثم ذكروا لابيهم ما امرهم به يوسف فقالوا فارسل معنا اخانا بنيامين نكتل بسبب ارساله معنا ما
نريده من الطعام وهو مجزوم في جواب الامر واصله نكتيل بوزن نفتعل ووزنه الان نفتل وبحسب
الاصل نفتعل قرأ سائر الكوفيين بالتحتية واختار ابو عبيد قراءة النون قال ليكونوا كلهم داخلين
فيمن يكتال وزعم انه اذا كان بالياء كان للاخ وحده اي يكتال اخونا بنيامين واعترضه النحاس
بما حاصله ان اسناد الكيل الى الاخ لا ينافي كونه للجميع والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعا والقراءتان
سبعيتان قال الزجاج اي ان ارسلته اكتلنا والا منعنا الكيل وانا له اي لبنيامين لحافظون من

ان يصيبه سوء او مكروه قال يعقوب لما قالوا له هذه المقالة هل آمنكم عليه إلا كما
أمنتكم على أخيه من قبل مستأنفة كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة والمعنى انه لا يأمنهم
على بنيامين الا كما امنهم على اخيه يوسف وقد قالوا له في يوسف وإنا له لحافظون كما قالوا هنا
ثم خانوه في يوسف فهو ان امنهم في بنيامين خاف ان يخونوه كما خانوه في يوسف فالله خير
حافظا منصوب على الحالية وقرئ حفظا على التمييز ولعل هنا اضمارا والتقدير فتوكل يعقوب
على الله ودفعه اليهم وقال فالله خير حافظا والمعنى ان حفظ الله اياه خير من حفظكم له وانما
ارسله معهم لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم
وبين يوسف او ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك وهو ارحم الراحمين فارجو ان
ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين قيل لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وارجعه
اليه ولما قال في يوسف واخاف ان يأكله الذئب وقع له من الامتحان ما وقع قال كعب لما قال ذلك
قال الله تعالى وعزتي وجلالي لاردن عليك كليهما ولما فتحوا بحضرة ابيهم متاعهم اي اوعية
الطعام او ما هو اعم من ذلك مما يطلق عليه اسم المتاع سواء كان الذي فيه طعاما او غير طعام
وجدوا بضاعتهم التي حملوها الى مصر ليمتاروا بها وهي ثمن الطعام وقد تقدم بيانها ردت
اليهم وجملة قالوا يا أبانا مستأنفة كما تقدم ما نبغي ما للاستفهام الانكاري والمعنى اي شيء
نطلب من هذا الملك بعد ان صنع معنا ما صنع من الاحسان برد البضاعة والاكرام عند القدوم
اليه وتوفير ما اردناه من الميرة وارادوا بهذا الكلام تطييب قلب ابيهم وقال قتادة ما نبغي
وراء هذا وقيل ان ما نافية اي ما نبغي في القول وما نزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا
واكرامه لنا وقرئ بالفوقية خطابا ليعقوب اي اي شيء تطلب وراء هذا الاحسان او اي شيء تطلب
من الدليل على صدقنا ثم برهنوا على ما نفوه من التزييد في وصف الملك بقولهم هذه بضاعتنا
ردت الينا فان من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم مستحق لما وصفوه به
وهي جملة مفسرة لما دل عليه الاستفهام من الانكار لطلب شيء مع كونها قد ردت اليهم والتقدير
فنحن نستعين بها على الرجوع ونمير أهلنا نجلب اليهم الميرة وهي الطعام يقال مار اهله يميرهم
اذا حمل اليهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم والمائر الذي يأتي بالطعام وقرأ السلمي بضم النون

ونحفظ اخانا بنيامين مما نخافه عليه ونزداد بسبب ارساله معنا كيل حمل بعير زائد على ما
جئنا به هذه المرة لانه كان يكال لكل رجل وقر بعير قال مجاهد حمل حمار وهي لغة قال ابو عبيدة يعني
ان الحمار يقال له في بعض اللغات بعير ذلك اي زيادة كيل بعير لاخينا كيل يسير يسهل على
الملك ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرا لا يتعاظمه ولا يضائقنا فيه وقيل ان المعنى ذلك
المكيل لاجلنا قليل نريد ان ينضاف اليه حمل بعير لاخينا واختار الزجاج الاول وقيل ان هذا من
كلام يعقوب جوابا على ما قاله اولاده ونزداد كيل بعير يعني ان حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لاجله
بالولد وهو ضعيف لان جواب يعقوب هو قال لن أرسله معكم حتى تؤتون اعطوني موثقا
ما اثق به واركن اليه من جهة الله سبحانه وهو الحلف به والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو
المؤكد باشهاد الله عليه واللام في لتأتنني به جواب القسم اي تحلفوا بالله لتردن بنيامين
اي لتأتي به والاستثناء بقوله الا ان يحاط بكم مفرغ من اعم الاحوال لان لتأتنني به وان كان
كلاما مثبتا فهو في معنى النفي فكانه قال لا تمتنعون من اتياني به على كل الاحوال الا الاحاطة بكم او من
اعم العلل اي لعلة من العلل الا لعلة الاحاطة بكم والاحاطة ماخوذة من احاطة العدو
ومن احاط به العدو فقد غلب وهلك تقول العرب احيط بفلان اذا هلك او قارب هلاكه
فاخذ يعقوب عليهم العهد بان ياتوه ببنيامين الا ان يغلبوا عليه او يهلكوا دونه جميعا فيكون
ذلك عذرا لهم عنده فلما آتوه موثقهم اي اعطوه ما طلبه منهم من اليمين والعهد قال الله
على ما نقول وكيل اي قال يعقوب الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم واعطائكم لي ما
طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في
الحلف به او موكول اليه القيام بما شهد عليه منا وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد
وادخلوا من ابواب متفرقة لما تجهز اولاد يعقوب للمسير الى مصر خاف عليهم ابوهم ان تصيبهم
العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم اولاد رجل واحد فنهاهم ان يدخلوا
مجتمعين من باب واحد لان في ذلك مظنة لاصابة العين لهم والعين حق فامرهم ان يدخلوا
من ابواب متفرقة وكان للمدينة مصر يومئذ اربعة ابواب قال السدي اراد الطرق لا الابواب
ولم يامرهم بالتفرق في الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين في الكرة الاولى ولم يكتف سبحانه بقوله لا تدخلوا

من باب واحد من قوله وادخلوا من ابواب متفرقة لانهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه ان تصيبهم العين امرهم ان يدخلوا من ابواب متفرقة قال النخعي احب يعقوب ان يلقى اخاه في خلوة قيل وكان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف الا ان الله لم ياذن له في اظهاره ذلك فلما بعث ابناءه اليه قال لهم ذلك القول والاول اولى اعني انه خاف عليهم العين وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين وقد انكر بعض المعتزلة كابي هاشم والبلخي ان للعين تاثيرا وقالا لا يمتنع ان صاحب العين اذا شاهد الشيء واعجب به كانت المصلحة له في تكليفه ان يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف به معلقا به وليس هذا بمستنكر من هذين واتباعهما فقد صار دفع ادلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دابهم وديدنهم واي مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك وقد وردت الاحاديث الصحيحة بان العين حق واصيب بها جماعة في عصر النبوة ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره فانه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الاقوال الباطلة والمذاهب الزائفة وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالادلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الامة سلفا وخلفا وبما هو مشاهد في الوجود فكم من شخص من هذا النوع الانساني وغيره من انواع الحيوان هلك بهذا السبب وقد اختلف العلماء في من عرف بالاصابة بالعين فقال قوم يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس او غيره من لزوم بيته وقيل ينفى وابعد من قال انه يقتل الا اذا كان يتعمد ذلك ويتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فانه اذا قتل كان له حكم القاتل ثم قال يعقوب لاولاده وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ اي لا ادفع عنكم ضررا ولا اجلب اليكم نفعا بتدبيري هذا بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة قال الزجاج وابن الانباري لو سبق في علم الله ان العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم وقال آخرون ما كان يغني عنهم يعقوب شيئا قط حيث اصابهم ما اصابهم مع تفرقهم من

اضافة السرقة اليهم قال يا بنىّ ولم يرد عليه السلام القاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة وقال تعالى خذوا حذركم بل اراد بيان ان ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة وانما التاثير وترتب المنفعة عليه من العزيز المقتدر وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله وهرب منه اليه ثم صرح يعقوب بانه لا حكم الا لله سبحانه فقال إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ وحده لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك عَلَيْهِ لا على غيره تَوَكَّلْتُ اي اعتمدت ووثقت في كل ايراد واصدار وَعَلَيْهِ لا على غيره فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ على العموم ويدخل فيه اولاده دخولا اوليا وَلَمَّا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ اي من الابواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد وجواب لما مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ ذلك الدخول ورأي يعقوب واتباعهم له مِنَ اللَّهِ اي من جهته مِنْ شَيْءٍ من الاشياء مما قدره الله عليهم اي الذي اراد وقوعه فقد نسبوا للسرقة واخذ منهم بنيامين وتضاعفت المصيبة على يعقوب لان الحذر لا يدفع القدر والاستثناء بقوله إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا منقطع والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم اظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد ان للتدبير الذي دبره لهم تاثيرا في دفع ما قضاه الله عليهم وقيل انه خطر ببال يعقوب ان الملك اذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة وسيما الشجاعة اوقع بهم حسدا وحقدا وخوفا منهم فامرهم بالتفرق لهذه العلة وقد اختار هذا النحاس وقال لا معنى للعين هنا وفيه ان هذا لو كان السبب لامرهم بالتفرق لم يخص النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد لان هذا الحسد او الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد وقيل ان الفاعل في قضاها ضمير يعود الى الدخول لا الى يعقوب والمعنى ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئا ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته وَإِنَّهُ اي وان يعقوب لَذُو عِلْمٍ جليل لِمَا عَلَّمْنَاهُ اي لتعليمنا اياه بالوحي ونصب الادلة حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التاثير حتى يتبين الخلل في رايه عند تخلف الاثر او علم ان ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة وقيل غير ذلك وهذا اولى وفي تاكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته

سبحانه من الدلالة على جلالة شان يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته لا يخفى
ولكن أكثر الناس لا يعلمون بذلك كما ينبغي وقيل لا يعلمون ان الحذر مندوب اليه وان كان لا
يغني من القدر شيئا والسياق يدفعه وقيل المراد بأكثر الناس المشركون ولما دخلوا على يوسف
اي في محل حكمه آوى أي ضم اليه أخاه بنيامين قيل انه امر بانزال كل اثنين في منزل فبقي اخوه
منفردا فضمه اليه وقال اني أنا أخوك يوسف قال له ذلك سرا من دون ان يطلع عليه اخوته
فلا تبتئس اي فلا تحزن والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس والضر والشدة بما كانوا يعملون
اخوتك من الاعمال الماضية التي عملوها وقيل انه لم يخبره بانه يوسف بل قال له اني انا اخوك مكان
اخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفا حسدا وبغيا وقيل انه اخبره بما سيدبره
معهم من جعل السقاية في رحله فقال لا ابالي فدس الصاع في رحله وهو المراد بالسقاية في قوله
فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية واصلها المشربة التي كان الملك يشرب بها جعلت صاعا
يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب وقيل كانت من فضة وقيل من ذهب وقيل
من زبرجد وقيل مرصعة بالجوهر وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل وعبر بالفاء
هنا اشارة الى طلب سرعة سيرهم وذهابهم لبلادهم لان الغرض منه قد حصل وقد عرفت
حالهم بخلاف المرة الاولى كان المطلوب طول مدة اقامتهم ليتعرف الملك حالهم والمعنى انه جعل
السقاية التي هي الصواع في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من
مصر ثم بعد ذلك أذن اي نادى مؤذن مناد واعلم معلم والاذان في اللغة الاعلام وكان ذلك
النداء مع رفع الصوت مرارا كثيرة بدليل التفعيل بعد انفصالهم من مجلس يوسف حتى انطلقوا
وخرجوا من العمارة ثم ارسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم كما يشير له التعبير بثم التي للتراخي
بل قيل انهم وصلوا الى بلبيس وردوا من عندها أيتها العير قال الزجاج معناه يا اصحاب العير
اي الابل فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة كما قاله السمين وفي المصباح العير بالكسر اسم للابل التي
تحمل الميرة في الاصل ثم غلب على كل قافلة انتهى وكلما امتير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير
قاله الهيثم وقيل قافلة الحمير وقال ابو عبيدة العير الابل المرحلة المركوبة ثم كثر ذلك في الاستعمال
حتى قيل لكل قافلة عير لانه يعير اي يذهب ويجيء إنكم لسارقون نسبة السرق اليهم على حقيقته لان

المنادي غير عالم بما دبره يوسف وقيل ان المعنى ان حالكم حال السارقين من كون الصواع صار لديكم من غير رضى من الملك وليس في القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بامر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك احد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين اخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم وقيل غير ذلك وهذا اولى قالوا اي اخوة يوسف و اقبلوا عليهم اي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من اصحاب الملك اي التفتوا اليهم وخاطبوهم بقولهم ماذا تفقدون اي ما الذي فقدتموه والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه يقال فقدت الشيء اذا عدمته بضياع او نحوه فكانهم قالوا ماذا ضاع عليكم وما استفهامية وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة قالوا في جوابهم نفقد صواع الملك وقرئ بالغين المعجمة وقرئ صوع وصياع وصاع وقال الزجاج الصواع الصاع بعينه وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية قال ابن عباس كل شيء شربت منه فهو صواع وقيل الصواع الذي يكال به وجمعه اصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان وفيه قراءات كثيرة وهي ثمانية كلها لغات في هذا الحرف والمراد هنا آلة الكيل سماها تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذ هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به في ذلك الوقت ولمن جاء به حمل بعير من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بانه تناع وجود الشرط وغرمهم على ما لا يخفى من اخذ من وجد في رحله وهذا قول المؤذن وانا به زعيم اي بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للاوعية زعيم كفيل قاله ابن عباس اي بلسان اهل اليمن وعن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله ولعل القائل بفقد صواع الملك هو المنادي وانما نسب القول الى الجماعة لكونه واحدا منهم ثم رجع الكلام الى نسبة القول الى المنادي وحده لانه القائل بالحقيقة وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة في شرعهم في ذلك الزمان قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض التاء بدل من واو القسم عند الجمهور وقيل من الباء وقيل اصل بنفسها واياما كان ففيه التعجب ولا تدخل الا على هذا الاسم الشريف دون سائر اسمائه سبحانه وقد دخلت نادرا على الرب وعلى الرحمن والكلام على هذا مستوفى في علم الاعراب

وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف واصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بفعل الفساد في الارض الذي من اعظم انواعه السرقة لانهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرة الاولى وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بانهم ليسوا ممن يتجارى على هذا النوع العظيم من انواع الفساد ولو لم يكن من ذلك الا رد بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم والمراد بالارض هنا ارض مصر ثم اكدوا هذه الجملة التي اقسموا بالله عليها بقولهم وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ لزيادة التبري مما قذفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة الرذيلة الشنعاء قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ هذه جملة مستانفة كما تقدم غير مرة في نظائرها والقائلون هم اصحاب يوسف او المنادي منهم وحده كما مر والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف اي فما جزاء سرقة الصواع عندكم او الضمير للسارق إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ فيما تدعونه لانفسكم من البراءة عن السرقة وذلك بان يوجد الصواع معكم فاجاب اخوة يوسف قَالُوا جَزَاؤُهُ اي جزاء سرقة الصواع او جزاء سارق الصواع والتقدير جزاء السرقة للصواع اخذ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ واسترقاقه وتكون جملة فَهُوَ جَزَاؤُهُ لتاكيد الجملة الاولى وتقريرها وقال الزجاج هو زيادة في البيان اي جزاءه اخذ السارق فهو جزاؤه لا غير قال المفسرون وكان حكم السارق في آل يعقوب ان يسترق سنة ثم يخلى سبيله فلذلك استفتوهم في جزائه كَذَلِكَ اي مثل ذلك الجزاء الكامل نَجْزِي الظَّالِمِينَ لغيرهم من الناس بسرقة امتعتهم وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها اذا كانت من كلام اخوة يوسف ويجوز ان تكون من كلام اصحاب يوسف اي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق ثم لما ذكروا جزاء السارق ارادوا ان يفتشوا امتعتهم حتى يتبين الامر فاقبل يوسف على ذلك فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ يعني بتفتيش اوعية اخوته العشرة وقيل ان المنادي واصحابه هم الذين تولوا تفتيشهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين قَبْلَ تفتيش وِعَاءِ أَخِيهِ بنيامين دفعا للتهمة ورفعا لما دبره من الحيلة ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا اي السقاية او الصواع لانه يذكر ويؤنث مِن وِعَاءِ أَخِيهِ فنكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء ولاموا بنيامين فاخذوه وردوه الى يوسف كَذَلِكَ اي مثل ذلك الكيد العجيب كِدْنَا لِيُوسُفَ دبرنا قاله القتيبي او اردنا قاله ابن الانباري لِيُوسُفَ يعني علمناه اياه واوحينا اليه واللام زائدة

وانيه عند السين وفي ابي السعود ما يقتضي ان اللام للتعليل اي صنعنا له ودبرنا لاجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه والكيد مبدأه السعي في الحيلة والخديعة ونهايته القاء المخدوع من حيث لا يشعر في امر مكروه لا سبيل الى دفعه وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية وقال ابن الاعرابي الكيد التدبير بالباطل وبالحق وقيل الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف في الابتداء فعلنا بهم وقيل غير ذلك والاول اولى وفي الآية دليل على جواز التوصل الى الاغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة اذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا ما كان ليوسف لِيَأْخُذَ أَخَاهُ بنيامين فِي دِينِ الْمَلِكِ اي ملك مصر وفي شريعته التي كان عليها بل كان دينه وقضاؤه ان يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته وحاصله ان يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على اخيه مع كونه مخالفا لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره واراده حتى وجد السبيل اليه وهو اجراه على ألسن اخوته من قولهم ان جزاء السارق الاسترقاق فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره وهذه الجملة تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف او تفسير له يعني ان ذلك الامر كان الهاما من امر الله ليوسف واخوته حتى جرى الامر على وفق المراد وهو معنى قوله إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ اي الا حال مشيئته واذنه بذلك وارادته له والاستثناء منقطع اذ الاخذ بدين الملك لا يشمل المراد به فالمعنى ولكن اخذه بشريعة يعقوب نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك والآية تدل على ان العلم اشرف المقامات واعلى الدرجات لان الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على اخوته بالعلم قرئ درجات بالاضافة والتنوين وهما سبعيتان وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ممن رفعه الله بالعلم من المخلوقين عَلِيمٌ ارفع رتبة منه واعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شاوه وقيل معنى ذلك ان فوق كل اهل العلم عليم الى ان ينتهي العلم الى الله وهو سبحانه فوق كل عالم عن سعيد بن جبير قال كنا عند ابن عباس فحدث بحديث فقال رجل عنده وفوق كل ذي علم عليم فقال ابن عباس بئس ما قلت الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم وعن محمد بن كعب قال سأل رجل عن علي مسئلة فقال فيها فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا فقال علي اصبت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم وعن عكرمة قال علم الله فوق علم كل عالم

قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه ولا يطمع نفسه بالغلبة
لانه لا يخلو عالم عن عالم فوقه وفي الآية دليل على ان اخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف اعلم
منهم قالوا إن يسرق اي بنيامين الصواع فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف وكان
غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا واخوه كانا على هذه الطريقة
لانهما من ام اخرى غير امنا وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها الى يوسف ماهي
فقيل انه كان ليوسف عمة هي اكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة اسحق لكونها اسن اولاده
وكانوا يتوارثونها فيأخذها الاكبر سنا من ذكر او انثى وكانت قد حضنت يوسف واحبته حبا
شديدا فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمي يوسف الي فاشفقت من فراقه واحتالت في بقائه لديها
فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ثم قالت قد سرقت منطقة اسحق فانظروا من سرقها
فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فاخذته عندها كما هو شرع الانبياء في ذلك الوقت من آل
ابراهيم ذكره محمد بن اسحق وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة وقيل ان يوسف اخذ صنما كان
لجده ابي امه فكسره والقاه على الطريق تغييرا للمنكر فعيره بذلك اخوته وقد روي معناه عن ابن
عباس مرفوعا وعن سعيد بن جبير وقتادة مثله غير مرفوع وقد روي نحوه عن جماعة من
التابعين وحكي عن الزجاج انه كان صنما من ذهب وقيل من فضة وقال عطية سرق في صباه
ميلين من ذهب وعن ابن عباس سرق مكحلة لخالته وقيل كان في المنزل دجاجة فاعطاها
لسائل قاله سفيان بن عيينة وقيل كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء قال ابن الانباري وليس
هذه الافعال كلها مما يوجب السرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وحكى الواحدي عن الزجاج
انه قال الله اعلم اسرق اخ له ام لا وحكى القرطبي في تفسيره عنه انه قال كذبوا عليه فيما نسبوه اليه
قلت وهذا اولى فما هذه الكذبة باول كذباتهم وقد قدمنا ما يدفع قول من قال انهم قد كانوا انبياء
عند صدور هذه الامور منهم قال الزجاج وغيره الضمير في فأسرها يعود الى الكلمة التي بعدها
او الجملة كانه قيل فاسر الجملة المذكورة يوسف في نفسه وهذا هو الاولى والحجة اي الاحتجاج عليهم
في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم اي هذه المقالة التي اسرها في نفسه بان يذكر لهم صحتها او بطلانها
ثم فسر الكلمة بقوله قال أنتم شر مكانا وقد رد ابو علي الفارسي هذا فقال ان هذا النوع من الاضمار على

شريطة التفسير غير مستعمل وعلى هذا يكون في الكلام رجوع الضمير على متاخر لفظا ورتبة وفيه ايضا اطلاق الكلمة على الكلام والاول سائغ في مقام التفسير كما هنا والثاني سائغ في اللغة قاله الخفاجي وقيل الضمير عائد الى الاجابة اي اسر يوسف اجابتهم في ذلك الوقت وهذه الجملة مفسرة على القول الاول مستانفة على القولين الاخيرين كانه قيل فماذا قال يوسف قال انتم شر مكانا هذه المقالة والمعنى انتم شر موضعا ومنزلا ممن تسبتموه الى السرقة ورميتموه بها وهو بريء فانكم قد فعلتم من القاء يوسف في الجب والكذب على ابيكم وغير ذلك من افاعيلكم ولم يكن من يوسف سرقة حقيقة وفي الكلام تقديم وتاخير تقديره قال في نفسه انتم شر مكانا واسرها اي هذه الكلمة واليه نحا ابو البقاء ولم يرتضه الحلبي ثم رجعه الى الحزازة التي حصلت من قولهم فقد سرق اخ له من قبل قال شهاب الدين ومثل هذا ينبغي ان لا يقال فان القران ينزه عنه ذكره الكرخي ثم قال وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ من الباطل بنسبة السرقة الى يوسف وانه لا حقيقة لذلك ثم ارادوا ان يستعطفوه ليطلق لهم اخاه بنيامين ويكون معهم ويرجعون به الى ابيهم لما تقدم من اخذ الميثاق عليهم بان يردوه اليه قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ اي لبنيامين هذا أَبًا متصفا بكونه شَيْخًا كَبِيرًا في السن لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول اليه وقيل كبيرا في القدر لانه نبي من اولاد الانبياء وفيه بعد ظاهر والاول اولى فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ يبقى لديك فان له منزلة في قلب ابيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق احدنا كما يتضرر بفراق بنيامين ثم عللوا ذلك بقولهم إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الى الناس كافة والينا خاصة فاتم احسانك الينا باجابتنا الى هذا الطلب فاجاب عليهم يوسف وقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ اي نعوذ بالله معاذا فهو مصدر والمستعيذ بالله هو المستعصم به أَنْ اي من ان نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ وهو بنيامين لانه الذي وجد الصواع في رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التي افتيتمونا بقولكم جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ولم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان اخاه ليس بسارق وفيه جواز التوصل الى الاغراض بالحيل التي لا تخالف شريعة ولا هدمت اصلا ولعل الله امر يوسف بذلك تشديد المحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح واخذ البدل كما امر صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر قال ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب جزم صاحب الكشاف بان هذه الواقعة كانت بوحي كما مر إِنَّا إِذًا اي اذا اخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لَظَالِمُونَ في دينكم وما تقتضيه فتواكم

فلما استيأسوا منه اي يئسوا من يوسف واجابته اياهم واسعافهم منه الى مطلبهم الذي
طلبوه والسين والتاء للمبالغة قاله الزمخشري والبيضاوي قال ابن اسحق اي ايسوا منه وراوا شدة
في امره قال ابو عبيدة استيأسوا اي استيقنوا ان الاخ لا يرد عليهم وقيل ايسوا من اخيهم ان يرد
اليهم والاول اولى خلصوا نجيا اي انفردوا عن الناس واعتزلوا مجلسه وانحازوا على حدة حال
كونهم متناجين متحدثين فيما بينهم ليس فيهم غيرهم في التشاور في امرهم في هذه القضية وهو
مصدر يقع على الواحد والجمع كقوله وقربناه نجيا قال الزجاج معناه انفردوا وليس معهم اخوهم
متناجين فيما يعملون به في ذهابهم الى ابيهم من غير اخيهم وقال قتادة وحدهم قال كبيرهم
قيل هو روبيل لانه الاسن وهو الذي كان نهاهم عن قتله وكان اكبر القوم في الميلاد قاله
قتادة وقيل كبيرهم في العقل والعلم لا في السن وقيل يهوذا لانه الاوفر عقلا وقيل شمعون لانه
رئيسهم الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا اي عهدا من الله في حفظ ابنه ورده اليه
ومعنى كونه من الله انه باذنه ذكره النحاس وغيره ومن قبل ما فرطتم في يوسف اي وتعلموا
ان تفريطكم في امر يوسف كائن من قبل تفريطكم في بنيامين او من قبل اخذكم العهد في شأنه
على ان ما مصدرية ويجوز ان تكون زائدة والاول اولى والمعنى قصرتم في شانه ولم تحفظوا عهد
ابيكم فيه فلن ابرح الارض يقال برح براحا وبروحا اي زال فاذا دخله النفي صار مثبتا اي لن ابرح
من ارض مصر بل الزمها ولا افارقها ولا ازال مقيما فيها على ان ابرح هنا تامة حتى يأذن لي ابي
في مفارقتها والخروج منها بالعود اليه وانما قال ذلك لانه يستحيي من ابيه ان ياتي اليه بغير ولده
الذي اخذ عليهم الميثاق بارجاعه اليه الا ان يحاط بهم كما تقدم او يحكم الله لي بمفارقتها والخروج
منها وقيل المعنى او يحكم الله لي بخلاص اخي من الاسر حتى يعود الى ابي واعود معه وقيل المعنى
او يحكم الله لي بالنصر على من اخذ اخي فاحاربه واخذ اخي منه او اعجز فانصرف بعد ذلك
قال مجاهد اقاتل بسيفي حتى اقتل وعن ابي صالح نحوه وهو خير الحاكمين لان احكامه لا تجري
الا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب ومراده بهذا الكلام الالتجاء الى الله في اقامة عذره الى والده
يعقوب ثم قال كبيرهم مخاطبا لهم ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق على البناء للفاعل
وذلك لانهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه وقرئ على البناء للمفعول قال الزجاج ان

سرق يحتمل معنيين احدهما علم منه السرق والاخر اتهم بالسرق امرهم بهذه المقالة مبالغة
في ازالة التهمة عن انفسهم عند ابيهم لانهم كانوا متهمين عنده بسبب قصة يوسف وما شهدنا
الا بما علمنا من استخراج الصواع من وعائه وقيل المعنى ما شهدنا عند يوسف بان السارق يسترق
الا بما علمنا من شريعتك وشريعة ابائك وما كنا للغيب حافظين حتى يتضح لنا هل الامر على
ما شاهدناه او على خلافه فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم
بذلك وقيل المعنى ما كنا وقت اخذنا له منك ليخرج معنا الى مصر للغيب حافظين بانه سيقع منه
السرق الذي افتضحنا به وقيل الغيب هو الليل ومرادهم انه سرق وهم نيام وقيل مرادهم انه فعل
ذلك وهو غائب عنهم فخفي عليهم فعله قال عكرمة ما كنا نعلم ان ابنك يسرق وعن قتادة نحوه
وقال ابن عباس ما كنا الليلة ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين واسأل القرية التي كنا فيها اي
قولوا لابيكم اسأل القرية اي مصر قاله قتادة وابن عباس والمراد اهلها وقيل هي قرية من قرى مصر
نزلوا فيها وامتاروا منها وجرى فيها حديث السرقة والتفتيش وقيل المعنى واسأل القرية نفسها
وان كانت جمادا فانك نبي الله والله سبحانه سينطقها فتجيبك ومما يؤيد هذا انه قال سيبويه
لا يجوز كلم هندا وانت تريد غلام هند والاول اولى لان مثل هذا النوع من المجاز مشهور في
كلام العرب والعير التي اقبلنا فيها اي اصحابها وكانوا قوما معروفين من جيران يعقوب من
كنعان حمل العير هنا على الدواب نفسها وهذا هو المعنى الحقيقي لها فاحتاج الى تقدير المضاف
وفيما سبق على المعنى المجازي وهو نفس اصحابها فاستغنى عن تقدير المضاف وانا لصادقون
فيما قلنا جاؤا بهذه الجملة مؤكدة هذا التاكيد لان ما قد تقدم منهم مع ابيهم يعقوب يوجب
كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع وهذا اخر الكلام الذي علمهم اخوهم الكبير فلما قالوا هذا
ليعقوب قال بل سولت زينت او خيلت لكم انفسكم امرا لا اصل له الامر هنا قولهم ان ابنك
سرق وما سرق في الحقيقة وقيل المراد بالامر اخراجهم بنيامين والمضي به الى مصر طلبا
للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة وقيل هذا الامر فتياهم بان السارق يؤخذ بسرقته والاضراب
هنا هو باعتبار ما ادعوه من البراءة لانفسهم لا باعتبار اصل الكلام فانه صحيح والجملة مستانفة
مبنية على سؤال مقدر كغيرها فصبر جميل اي فامري صبر او فصبر جميل اجمل بي او اولى لي

والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض امره الى الله ويسترجع وقد ورد
ان الصبر عند اول الصدمة عَسَى اللّٰهُ اَنْ يَّاْتِيَنِيْ بِهِمْ جَمِيْعًا اي بيوسف واخيه بنيامين والاخ
الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم وانما قال هكذا على سبيل حسن الظن بالله عز وجل
لانه قد كان عنده ان يوسف لم يمت وانه باق على الحياة وان غاب عنه خبره واذا اشتد
البلاء وعظم كان اسرع الى الفرج قال تعالى سيجعل الله بعد عسر يسرا اِنَّهٗ هُوَ الْعَلِيْمُ بحالي الْحَكِيْمُ
فيما يقضي به وَتَوَلّٰى اي اعرض عَنْهُمْ وقطع الكلام معهم حين بلغوه خبر بنيامين ولما ساء حزنه
واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهاج غمه قَالَ يٰاَسَفٰى عَلٰى يُوْسُفَ قال الزجاج الاصل يا اسفي فابدل
من الياء الف لخفة الفتحة والاسف شدة الجزع وقيل شدة الحزن عن ابن عباس اي يا حزنا
وعن قتادة مثله وعن مجاهد يا جزعا قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغه
بسبب فراقه ليوسف وانضمام فراقه لاخيه بنيامين وبلوغ ما بلغه من كونه اسيرا عند ملك
مصر فتضاعفت احزانه وهاج عليه الوجد القديم بما اثاره من الخبر الاخير وقد روي عن
سعيد بن جبير ان يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب
ولو كان عنده ذلك لما قال يا اسفا على يوسف يعني ان الاسترجاع خاص بهذه الامة ومعنى
المناداة للاسف طلب حضوره كانه قال تعالى يا اسفي واقبل علي وفيه شكوى الى الله لا منه
وَابْيَضَّتْ عَيْنٰهُ مِنَ الْحُزْنِ اي انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء قيل انه زال ادراك
حاسة البصر بالمرة قال مقاتل لم يبصر شيئا ست سنين والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا
على الانبياء بعد التبليغ وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا قال بعض اهل اللغة الحزن بالضم
والسكون البكاء وبفتحتين ضد الفرح وقال اكثر اهل اللغة هما لغتان بمعنى والبكاء بالمد رفع
الصوت وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا وهو احد قولين والذي جرى
عليه المصباح والقاموس انه لا فرق بينهما في ان كلا يستعمل في كليهما وقد قيل في توجيه ما
وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي الى ذهاب بصره كلا او بعضا انه انما
وقع منه ذلك لانه علم ان يوسف حي فخاف على دينه مع كونه بارض مصر واهلها حينئذ كفار
وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرم وانما المحرم ما يفضي منه الى الوله وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين موت ولده ابراهيم تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما
يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون ويؤيد هذا قوله فهو كظيم اي مكظوم فان معناه
انه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ومنه كظم الغيظ وهو اخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه
طريق حزنه من كظم السقاء اذا سده على ما فيه والكظم بالفتح مخرج النفس يقال اخذ باكظامه
وقيل الكظيم بمعنى الكاظم اي المشتمل على حزنه الممسك له ومنه والكاظمين الغيظ وقال الزجاج
معنى كظيم محزون وعن ابن عباس قال كظيم حزين وعن قتادة قال كظم على الحزن وحزنه
في جوفه فلم يقل الا خيرا وعن عطاء الخراساني قال مكروب وعن عكرمة مثله وعن الضحاك
الكظيم الكميد وعن مجاهد نحوه قال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر ابيه الى يوم التقيا
ثمانون سنة ولم تجف فيها عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ اكرم على الله منه والله
اعلم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف اي لا تفتؤ فحذف حرف النفي لعدم اللبس قال الفراء
ان لا مضمرة قال النحاس والذي قال صحيح وعن خليل وسيبويه مثل قول الفراء قال الكسائي
فتات وفتيت افعل كذا اي ما زلت عن ابن عباس تفتؤ اي لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر
من حبه حتى تكون حرضا اي دنفا من المرض قاله ابن عباس وقال قتادة هرما والحرض مصدر
يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة حرض بكسر الراء كدنف ودنف
واصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن او العشق او الهرم حكى ذلك عن ابي عبيدة
وغيره وقيل الحرض ما دون الموت وقيل الحارض البالي الداثر وقال الفراء الحارض الفاسد الجسم
والعقل وكذا الحرض وقال مورج هو الذائب من الهم ويقال رجل محرض قال النحاس وحكى اهل
اللغة احرضه الهم اذا اسقمه ورجل حارض اي احمق وقال الاخفش الحارض الذاهب وقال ابن
الانباري هو الهالك وفي المصباح حرض حرضا من باب تعب اشرف على الهلاك والاولى تفسير
الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة لقوله او تكون من الهالكين اي من
الميتين قاله مجاهد وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن والاسف شفقة عليه وان
كانوا هم سبب احزانه ومنشأ همومه وغمومه قال انما اشكو بثي وحزني بضم الحاء وسكون
الزاي وقرئ بفتحهما الى الله هذه الجملة مستأنفة كأنه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا

ما يرد على الانسان من الاشياء التي تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال اهل اللغة وهو ماخوذ من بثثته اي فرقته فسميت المصيبة بثا مجازا قال ابن قتيبة البث اشد الحزن وقد ذكر المفسرون ان الانسان اذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا وهما وان لم يقدر على كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثا فالبث على هذا اعظم الحزن واصعبه وقيل البث الهم وقيل الحاجة وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى واما على تفسير البث بالحزن العظيم فكانه قال انما اشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل الى الله لا الى غيره من الناس ولا اليكم وعن مسلم بن يسار يرفعه قال من بث لم يصبر ثم قرأ هذه الاية اخرجه ابن جرير وعبد الرزاق قال ابن عباس بثي همي وَأَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ اي من لطفه واحسانه وثوابه على المصيبة مَا لَا تَعْلَمُونَ انتم وانه ياتي بالفرج من حيث لا احتسب وقيل اراد علمه بان يوسف حي لكنه لم يعرف اين هو وقيل اراد علمه بان رؤياه صادقة واني لاسجد له قاله ابن عباس وقيل اعلم من اجابة المضطرين الى الله يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا التحسس بمهملات طلب الشيء بالحواس ماخوذ من الحس او من الاحساس اي اذهبوا فتعرفوا مِنْ خَبَرِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ بالحاسة كالبصر والسمع وتطلبوه وقرئ بالجيم وهو ايضا التطلب وقيل بالحاء في الخير وبالجيم في الشر ومنه الجاسوس ومن هنا بمعنى عن لانه لا يقال تحسست من فلان بل عن فلان او هي للتبعيض اي تحسسوا خبرا من اخبارهما ولم يقل واخويه لانه كان يعلم ان الثالث مقيم بمصر فليس حاله مجهولا عنده بخلافهما وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ اي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ورحمته قال الاصمعي الروح ما يجده الانسان من نسيم الهوا فيسكن اليه والتركيب يدل على الحركة والهزة فكلما يهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح وحكى الواحدي عنه ايضا الروح الاستراحة من غم القلب وقال ابو عمرو الروح الفرج وعن ابن زيد قال من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي انتم فيه وقال ابن عباس الروح الرحمة يعني انه استعير الروح للرحمة وقيل انه مصدر بمعنى الرحمة إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفي الطافه والمؤمن يصابر عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيرا ويحمد الله عند الرخاء والكافر بضد ذلك فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ اي على يوسف والتقدير فذهبوا كما امرهم ابوهم الى مصر ليتحسسوا من يوسف واخيه

فلما دخلوا علیه یوسف قالوا یا ایها العزیز ای الملک الممتنع القادر وکان العزیز لقب ملک مصر
یومئذ مسنا واهلنا الضر ای الجوع والحاجة قال قتادة الضر فی المعیشة وعدلوا الی الشکوی لان
المتحسس یتوصل الی مطلوبه بجمیع الطرق والاعتراف بالعجز وضیق الید وشدة الحاجة مما یرق القلب
فقالوا نختبره بهذه الامور فان رق قلبه لنا ذکرنا المقصود والا سکتنا وفیه دلیل علی انه یجوز
الشکوی عند الضرورة اذا خاف من اصابته علی نفسه کما یجوز للعلیل ان یشکو الی الطبیب ما
یجده من العلة وعبارة ابی السعود وانما لم یبدؤا بما امروا به استجلابا للرافة والشفقة لیبعثوا بما
قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو انتهی وهذه المرة التی دخلوا فیها مصر هی المرة الثالثة کما یفیده
ما تقدم من سیاق الکتاب العزیز وجئنا ببضاعة مزجاة البضاعة هی القطعة من المال یقصد
بها شراء شیء یقال ابضعت الشیء واستبضعته اذا جعلته بضاعة وفی المثل کمستبضع التمر الی
هجر والازجاء السوق بدفع وقال الواحدی فی اللغة السوق والدفع قلیلا قلیلا ومنه قوله تعالی
الم تر ان الله یزجی سحابا والمعنی انها بضاعة تدفع ولا یقبلها التجار قال ثعلب البضاعة المزجاة الناقصة
غیر التامة قال ابو عبید انما قیل للدراهم الردیة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غیر مقبولة قال
ابن عباس دراهم مزجاة ای کاسدة وعنه ایضا مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشیء
وعنه ایضا الورق الزیوف التی لا تنفق حتی یوضع منها وفی القاموس زجاه ساقه ودفعه ومزجاة
قلیلة او لم یتم صلاحها وفی المصباح زجیته بالتثقیل دفعته برفق واختلف فی هذه البضاعة ما
هی فقیل کانت قدیدا وحیسا وقیل صوف وسمن وقیل الحبة الخضراء والصنوبر وقیل دراهم ردیة
زیوف وقیل النعال والادم ثم طلبوا منه بعد ان اخبروه بالبضاعة التی معهم ان یوفی لهم الکیل

فاوف لنا الکیل وتصدق علینا

ای یجعله تاما لا نقص فیه وان یتصدق علیهم فقالوا فاوف لنا الکیل وتصدق علینا
اما بزیادة یزیدها لهم علی ما یقابل بضاعتهم او بالاغماض عن رداءة البضاعة التی جاؤا بها وان
یجعلها کالبضاعة الجیدة فی ایفاء الکیل لهم بها وبهذا قال اکثر المفسرین وقد قیل کیف یطلبون
التصدق علیهم وهم انبیاء والصدقة محرمة علیهم واجیب باختصاص ذلک بنبینا محمد صلی الله علیه وسلم
وقال ابن جریج معنی قولهم ارد علینا اخانا وبه قال الضحاک وقال ابن الانباری وکان الذی یسألونه
من المسامحة یشبه الصدقة لا نفس الصدقة ان الله یجزی المتصدقین بما یجعله لهم من الثواب

الاخروي او التوسيع عليهم في الدنيا قال الضحاك ولم يقولوا ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا انه مؤمن

ولما قالوا ذلك لم يتمالك يوسف ان عرفهم نفسه حيث قال هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ

الاستفهام للتوبيخ والتقريع وقد كانوا عالمين بذلك ولكنه اراد ما ذكرناه ويستفاد منه تعظيم

الواقعة لكونه في قوة ما اعظم الامر الذي ارتكبتم من يوسف واخيه وما اقبح ما اقدمتم عليه

كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت والذي فعلوه بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه

علينا في هذه السورة واما ما فعلوا باخيه فقال جماعة من المفسرين هو ما ادخلوه عليه من

الغم بفراق اخيه يوسف وما كان يناله منهم من الاحتقار والاهانة ولم يستفهم عما فعلوا

بابيهم يعقوب مع انه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الاذى قال الواحدي

ولم يذكر اباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيما له ورفعا من قدره وعلما

بان ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده تعالى إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ نفى عنهم

العلم واثبت لهم صفة الجهل لانهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم وقيل انه اثبت لهم صفة الجهل

لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الامر عليهم فكانه قال انما اقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت

عدم علمكم بما فيه من الاثم وقصور معارفكم عن عاقبته وما يترتب عليه او اراد انهم عند ذلك

في اوان الصبا وزمان الصغر اعتذارا لهم ودفعا لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بانهم

كانوا في ذلك الوقت كبارا وهذه الآية تصديق لقوله تعالى واوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا

وهم لا يشعرون قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قرئ بالاستفهام التقريري وبدونه وكان ذلك

منهم على طريق التعجب والاستغراب وقيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله ما فعلتم بيوسف واخيه

انهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا انه لا يخاطبهم بمثل هذا الا هو وقيل انه لما قال لهم هذه المقالة

وضع التاج عن راسه فعرفوه وقيل انه تبسم فعرفوا ثناياه قَالَ أَنَا يُوسُفُ اجابهم بالاعتراف بما

سألوه عنه قال ابن الانباري اظهر الاسم فقال انا يوسف ولم يقل انا هو تعظيما لما وقع له من ظلم

اخوته كانه قال انا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله فاكتفى باظهار الاسم عن هذه المعاني وقال

وَهَٰذَا أَخِي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه لان قصده وهذا اخي المظلوم كظلمي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

بالخلاص عما ابتلينا به وقيل من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة وقيل بالجمع بيننا بعد التفرق وقيل

بالسلامة في ديننا ودنيانا ولا مانع من ارادة جميع ذلك إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ قرئ بالجزم على ان من شرطية وقرئ باثبات الياء في يتقي وقيل من موصولة لا شرطية وهو بعيد والمعنى من يفعل التقوي او يفعل ما يتقيه من الذنوب ويصبر على المصائب وقيل يتقي الزنا ويصبر على العزوبة وقيل يتقي المعصية ويصبر على السجن وقيل يتقي الله باداء فرائضه ويصبر عما حرم الله وقيل يتقي الفحشاء ويصبر على الطاعة والعموم اولى ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ على العموم فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولا اوليا وجاء بالظاهر وكان للمقام مقام المضمر اي اجرهم للدلالة على ان الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اختارك وفضلك اللَّهُ عَلَيْنَا بما خصك به من صفات الكمال او بالعلم والعقل او بالملك قاله الضحاك او بالصبر قاله ابو صالح او بالحلم والصفح او بالحسن وقيل بالنبوة وقيل بسائر الفضائل التي اعطاها الله له دون اخوته واللفظ اوسع من ذلك ويدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره قيل ولا يلزم من ذلك ان لا يكونوا انبياء فان درج الانبياء متفاوتة قال الله تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ويستعار أثر للتفضيل والايثار للتفضيل وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ اي وان الشان لذلك قال ابو عبيدة خطأ واخطأ واحد وقال الازهري المخطي من اراد الصواب فصار الى غيره ومنه قولهم المجتهد يخطي ويصيب والخاطي من تعمد ما لا ينبغي قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلابا للعفو واستجذابا للصفح وقيل لم لفظ خاطئين على مخطئين موافقة لرؤس الاي قَالَ لَا تَثْرِيبَ التثريب التعيير والتوبيخ اي لا لوم عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ قال الاصمعي ثربت عليه قبحت عليه فعله وقال الزجاج المعنى لا افساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الاخوة ولكم عندي الصفح والعفو واصل التثريب الافساد وهي لغة اهل الحجاز وقال ابن الانباري معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب قال ثعلب ثرب فلان على فلان اذا عدد عليه ذنوبه واصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه ازالة التثريب كما ان التجليد والتقريع ازالة الجلد والقرع اي لا تثريب مستقر او ثابت عليكم وقد جوز الاخفش الوقف على عليكم فيكون اليوم متعلقا بالفعل الذي بعده وقد ذكر مثل هذا ابن الانباري عن عكرمة قال لا تثريب لا تعيير واخرج ابو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم

مكة التفت الى الناس فقال ما ذا تقولون وما ذا تظنون فقالوا ابن عم كريم فقال لا تثريب عليكم اليوم
يغفر الله لكم ثم دعا لهم بقوله يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ على تقدير الوقف على اليوم وهو بمنزلة التحليل واخبرهم
بان الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم وَهُوَ اَرْحَمُ الرّٰحِمِيْنَ يرحم عباده رحمة
لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم قال عطاء الخراساني طلب الحوائج
الى الشباب أسهل منها عند الشيوخ الم تر الى قول يوسف لا تثريب عليكم اليوم وقال سوف
استغفر لكم ربي اقول وفي هذا الكلام نظر فانهم طلبوا من يوسف ان يعفو عنهم لقولهم لقد
اثرك الله علينا فقال لا تثريب عليكم اليوم لان مقصودهم صدور العفو منه عنهم وطلبوا
من ابيهم يعقوب ان يستغفر الله لهم وهو لا يكون الا بطلب ذلك منه الى الله عز وجل وبين
المقامين فرق فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلا عليهم بسؤال الله لهم ولا سيما اذا صح ما تقدم من
انه اخر ذلك الى وقت الاجابة فانه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول واخرج الحكيم
الترمذي وابو الشيخ عن وهب بن منبه قال لما كان من امر اخوة يوسف ما كان كتب يعقوب
الى يوسف وهو لا يعلم انه يوسف بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الى عزيز آل
فرعون سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فانا اهل بيت مولع بنا
اسباب البلاء كان جدي ابراهيم خليل الله القي في النار في طاعة ربه فجعلها الله عليه بردا وسلاما
وامر الله جدي ان يذبح له ابي ففداه الله بما فداه وكان لي ابن وكان احب الناس الي ففقدته
فاذهب حزني عليه نور بصري وكان له اخ من امه كنت اذا ذكرته ضممته الى صدري فاذهب
عني بعض وجدي وهو المحبوس عندك في السرقة واني اخبرك لم اسرق ولم الد سارقا فلما قرأ
يوسف الكتاب بكى وصاح وقال اذْهَبُوْا بِقَمِيْصِيْ البا للتعدية او اذهبوا معكم قميصي وهذا
نعت له او بيان او بدل قيل هو القميص الذي البسه الله ابراهيم لما القي في النار وكساه ابراهيم
اسحق وكساه اسحق يعقوب وكان يعقوب ادرج هذا القميص في قصب وعلقه في عنق يوسف
لما كان يخاف عليه من العين فاخبر جبريل يوسف ان يرسل به الى يعقوب ليعود عليه بصره
لان فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم الا شفي ولا مبتلى الا عوفي قال ابن عباس ولو علم اخوته اذ القوه
في الجب لاخذوه فلما اراد الله ان يرد يوسف على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيره اربعون سنة

امر البشير ان يبشره من ثمان مراحل فوجد يعقوب ريحه وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا الا ابراها باذن الله فالقوه على وجه ابي يأت بصيرا المعنى يصير بصيرا على ان يات هي التي من اخوات كان قال الفراء يرجع بصيرا وقال السدي يعود بصيرا ويشهد له فارتد بصيرا قيل كان ذلك بوحي الله وقيل بعث اليه قميصه ليزول بكاؤه وينشرح صدره قال يهوذا انا احمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء قيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسير ثمانين فرسخا وقيل معناه يات الي الى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ويؤيد قوله وأتوني باهلكم اجمعين اي جميع من شمله لفظ الاهل من النساء والذراري قيل كانوا نحو سبعين وقيل ثلاثة وتسعين ولما فصلت العير اي خرجت منطلقة من عريش مصر او من مصر الى الشام يقال فصل فصولا وفصلته فصلا لازم ومتعد ويقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل عنه وخرج منه وجاوز حيطانه قال ابوهم يعقوب لمن عنده في ارض كنعان من اهله اني لاجد ريح يوسف اي ادركها بحاسة الشم اي اشمها اي ريح الجنة من قميص يوسف فالاضافة لادنى ملابسة قيل انها هاجت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فحملت ريح القميص الى يعقوب مع طول المسافة فاخبرهم بما وجد قال ابن عباس وجد ريحه من مسيرة ثمانية ايام وقيل من مسيرة عشرة ايام وقيل من مسيرة ثمانين فرسخا ثم قال لولا ان تفندون اي لولا ان تنسبوني الى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم يقال فند الرجل اذا خرف وتغير عقله قاله مجاهد وقال ابو عبيدة لولا ان تسفهون فجعل الفند السفه وقال الزجاج وابن عباس لولا ان تجهلون فجعل الفند الجهل وقال ابو عمرو الشيباني التفنيد التقبيح وقيل هو الكذب قاله ابن عباس وقال ابن الاعرابي لولا ان تضعفوا رأيي وروي مثله عن ابي عبيدة وقال الاخفش التفنيد اللوم وضعف الرأي وكل هذه المعاني راجع الى التعجيز وتضعيف الرأي يقال فنده تفنيدا اذا عجزه وافند اذا تكلم بالخطأ والفند الخطأ من الكلام وعن الربيع قال لولا ان تحمقون اخبرهم يعقوب بان الصبا قد حملت اليه ريح حبيبه وانه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك شعر قان الصبا ريح اذا ما تنفست على نفس مهموم تجلت همومها * اذا قلت هذا حين اسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر * ولقد تهب لي الصبا من ارضها * فيلذ مس هبوبها ويطيب * قيل ان ريح الصبا

استأذنت ربها في ان تاتي يعقوب بريح يوسف قبل ان ياتيه البشير قال اهل المعاني ان الله اوصل اليه ريح يوسف عند انقضاء مدة المحنة من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو في مدة المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل قَالُوا اي قال الحاضرون عنده من اهله تَاللّٰهِ اِنَّكَ يا يعقوب لَفِيْ ضَلٰلِكَ ذهابك اَلْقَدِيْمِ عن طريق الصواب الذي كنت عليه قدما من افراط حبك ليوسف ورجائه لقائه على بعد العهد لا تنساه ولا تفتر عنه ولسان حال يعقوب يقول لهم لا يعرف الشوق الا من يكابده ۔ ولا الصبابة الا من يعانيها ۔ لا تعذل المشتاق في اشواقه ۔ حتى تكون حشاك في احشائه ۔ وقيل الضلال الجنون قاله سعيد بن جبير وقيل انك في محبتك القديمة قاله مجاهد وقال ابن عباس في خطائك القديم قالوا له ذلك لانه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير وكان عندهم ان يوسف قد مات وهلك فَلَمَّآ اَنْ جَآءَ الْبَشِيْرُ بين يدي العير قال ابن عباس البشير البريد وعن الضحاك مثله قال المفسرون البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لاخيه انا جئته بالقميص ملطخا بالدم فاعطني اليوم قميصك لاخبره انك حي فافرحه كما احزنته وبه قال سفيان اَلْقٰهُ عَلٰى وَجْهِهٖ اي القى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب او القاه يعقوب على وجه نفسه فَارْتَدَّ الارتداد انقلاب الشيء الى حال قد كان عليها والمعنى عاد بَصِيْرًا ورجع الى حالته الاولى من صحة بصره وقوته وسروره عن الحسن قال لما ان جاء البشير الى يعقوب فالقى عليه القميص قال على اي دين خلفت يوسف قال على الاسلام قال الآن تمت النعمة قال يعقوب لمن كان عنده من اهله الذين قال لهم اني لاجد ريح يوسف اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ هذا القول فقلتم ما قلتم ويكون قوله اِنِّيْٓ اَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول ويجوز ان تكون الجملة مقول القول ويريد بذلك اخبارهم بما قاله لهم سابقا انما اشكو بثي وحزني الى الله والمعنى اعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا قَالُوْا يٰٓاَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَآ اِنَّا كُنَّا خٰطِئِيْنَ طلبوا منه ان يستغفر لهم واعترفوا بالذنب وفي الكلام حذف والتقدير لما رجعوا من مصر ووصلوا الى ابيهم قالوا هذا القول اعتذارا عما حصل منهم في حقهم بما طلبوه منه و قَالَ سَوْفَ اَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيْ قال الزجاج اراد يعقوب ان يستغفر لهم في وقت السحر لانه اخلق باجابة الدعاء لا انه بخل عليهم بالاستغفار قاله ابن مسعود وقال

ابن عباس اخرهم الى السحر وكان يصلي بالسحر لان دعاء السحر مستجاب واخرج ابن جرير وابو الشيخ عنه
ايضا قال قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة هو قول اخي يعقوب لبنيه سوف استغفر لكم ربي يقول حتى تاتي
ليلة الجمعة قيل اخره الى ليلة الجمعة لانها اشرف الاوقات وقيل اخره الى ان يستحل لهم من يوسف
ولم يعلم انه قد عفا عنهم اوليعرف حالهم في صدق التوبة وجملة إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ تعليل
لما قبلها فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ لعل في الكلام محذوفا مقدرا وهو فرحل يعقوب واولاده واهله
الى مصر فلما دخلوا على يوسف وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا
ثلثة وسبعين قيل وكان دخولهم يوم عاشوراء وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى ستمائة الف و
خمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية الف الف ومائتي الف قاله القرطبي
فقد بورك فيهم كثيرا حتى بلغوا هذا العدد في مدة موسى مع ان بينه وبين يوسف اربعمائة سنة كما
في التحبير قال ابو هريرة دخل يعقوب مصر في ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة وعاش
في ملكه ثلثين سنة ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة قال ابو هريرة وبلغني انه كان عمر
ابراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ اي ضمهما وانزلهما عنده قال
المفسرون المراد بالابوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف لان امه قد كانت ماتت في ولادتها
لاخيه بنيامين وقيل احيى الله له امه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له وبه قال قتادة وسفيان بن عيينة
قال الخازن وهذا هو المعتمد قال الحفناوي وهذا قول ضعيف فان الراجح ان ليا ماتت قبل ان يتزوج
راحيل وعلى هذا فلعله كانت لهما اخت ثالثة تزوجها يعقوب بعدهما وادركت هذه القصة انتهى
وقيل كانت امه باقية وهو الاولى بظاهر النظم القرآني وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ اي للاقامة بها إِنْ شَاءَ
اللَّهُ آمِنِينَ على انفسكم واهليكم مما تكرهونه من القحط واصناف المكاره وقد كانوا فيما مضى يخافون
ملوك مصر ولا يدخلونها الا بجوار منهم قيل والتقييد بالمشية عائد الى الدخول مع الامن ولا مانع من عوده
الى الجميع لان دخولهم لا يكون الا بمشية الله سبحانه كما انهم لا يكونون آمنين الا بمشيته وقيل ان التقييد
بالمشية راجع الى قوله سوف استغفر لكم ربي وهو بعيد جدا وظاهر النظم القرآني ان يوسف قال لهم
هذه المقالة اعني ادخلوا مصر قبل دخولهم وقد قيل في توجيه ذلك انه تلقاهم الى خارج مصر
فوقف منتظرا لهم في مكان او خيمة فدخلوا عليه فآوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ودخلوا عليه

دخولا آخر في المكان الذي له بمصر فهذا الدخول غير الاول ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقريزي في الخطط منها ان الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء وقال ابن عباس سميت مصر بالارض كلها في عشرة مواضع من القران وقد جاء في فضل مصر احاديث اوردها المقريزي في تاريخه ومن اراد ان ينظر الى الفردوس او ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى ارض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن شاء ان يطلع على مواقع مصر وما جريا فعليه ان ينظر في الخطط وفي حسن المحاضرة للسيوطي ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ اي اجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هي عادة الملوك قال ابن عباس العرش السرير والرفع النقل الى العلو ﴿وَخَرُّوا﴾ اي الابوان والاخوة ﴿لَهُ﴾ اي ليوسف ﴿سُجَّدًا﴾ وكان ذلك جائزا في شريعتهم منزلا منزل التحية وقيل لم يكن ذلك سجودا بل هو مجرد ايماء وانحناء وكانت تلك تحيتهم وهو يخالف معنى خروا له سجدا فان الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون الا بوضع الوجه على الارض وقيل الضمير في له راجع الى الله سبحانه اي وخروا لله سجدا وهو بعيد جدا وقيل ان الضمير ليوسف واللام للتعليل اي وخروا لاجله وفيه ايضا بعد قال عدي بن حاتم في الاية كانت السجدة تحية من كان قبلكم فاعطاكم الله السلام مكانها وعن قتادة نحوه وعن ابن زيد قال ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم وليس سجود عبادة وكان ذلك بامر الله لتحقيق رؤياه وفيه نبوة ايضا واختلف في استنبائهم ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي تقدم ذكرها ﴿مِن قَبْلُ﴾ اي من قبل هذا الوقت في حال الصغر ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ اي صدقا بوقوع تاويلها في اليقظة على ما دلت عليه قيل وكان بين الرؤيا والتاويل اربعون سنة او ثمانون او ست وثلاثون او ثنتان وعشرون وقيل خمس وثلاثون وقيل سبعون حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزي والله اعلم بما كان بينهما ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ الاصل ان يتعدى فعل الاحسان بالى وقد يتعدى بالباء كما في قوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ويقال لي والي بمعنى واحد وقيل انه ضمن احسن معنى لطف اي لطف بي محسنا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي﴾ تعليل لما قبله ﴿مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر اخراجه من الجب لان في ذكره نوع تثريب وتخجيل للاخوة وقد قال لا تثريب عليكم اليوم وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه وقد قيل ان وجه عدم ذكر اخراجه من الجب ان المنة كانت في اخراجه من السجن اكبر من المنة في اخراجه من الجب لان دخوله الجب كان بحسد اخوته

ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من اعظم نعمه سبحانه عليه وفيه بعد وضعف
وقيل لان اخراجه من السجن كان سببا لوصوله الى الملك او لان مصيبة السجن عنده كانت اعظم لطول
مدتها ولمصاحبة الاوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيها
جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ اي البادية وهي ارض كنعان بالشام
وكانوا اهل مواشي وبرية فسكنوا البادية وقيل ان الله لم يبعث نبيا من البادية وان كان المكان
الذي كان فيه يعقوب يقال البدا ولانه تحول اليه وسكنه وفيه نظر والبدو هو البسيط من الارض
يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة مِن بَعْدِ أَن
نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي اي بعد ان افسد بيننا وحمل بعضنا على بعض يقال نزغه اذا
نخسه واصله من نخس الدابة ليقوى مشيها واحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكرما
منه وتادبا إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ قال الازهري هو من اسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده يقال لطف
فلان بفلان يلطف اذا رفق به وقال عمرو بن ابي عمرو اللطيف الذي يوصل اليك اربك بلطف
قال الخطابي اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون وقيل اللطيف العالم بدقائق
الامور قال قتادة لطف ليوسف صنع له حين اخرجه من السجن وجاء باهله من البدو ونزع من
قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على اخوته لِّمَا يَشَاءُ اي لاجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب إِنَّهُ
هُوَ الْعَلِيمُ بالامور الْحَكِيمُ في افعاله ولما اتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه من المحن العظيمة
وبما خوله من الملك وعلمه من العلم تاقت نفسه الى الخير الاخروي الدائم الذي لا ينقطع فقال
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ من للتبعيض اي بعض الملك لانه لم يؤت كل الملك انما اوتي ملكا
خاصا وهو ملك مصر في زمن خاص وقيل زائدة وقيل لبيان الجنس والملك عبارة عن الاتساع
في الشيء المقدور لمن له السياسة والتدبير ولم يملك جميع اقطار الارض الا اربعة اثنان مسلمان اسكندر
وسليمان واثنان كافران بختنصر وشداد بن عاد قلت وسيملك خامس وهو عيسى بن مريم حين
ينزل من السماء الى الارض كما وردت به الاحاديث الصحيحة وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ اي بعضها
لانه لم يؤت جميع علم التاويل سواء اريد به مطلق العلم والفهم او مجرد تاويل الرؤيا وقيل من للجنس كما
في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وقيل زائدة كما تقدم فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

اي يا فاطرهما وهو منتصب باضمار اعني او على انه صفة لربي او بدل او بيان في الفاطر الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع أَنْتَ وَلِيِّي اي ناصري ومتولي اموري فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تتولاني فيهما تَوَفَّنِي مُسْلِمًا اي على الاسلام لا يفارقني حتى اموت قيل انه دعا بذلك مع علمه بان كل نبي لا يموت الا مسلما اظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليما للغير وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى قال الخطيب والكرخي قال ابن عباس ما سأل نبي الوفاة غير يوسف اشتاق الى لقاء الله واحب ان يلحق به وبآبائه فدعى الله ان يتوفاه ثم قال وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من النبيين من آبائي وغيرهم فاظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك قال الضحاك يعني ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وقال عكرمة يعني اهل الجنة قيل انه لما دعى بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل ولم يات عليه اسبوع بعد هذا الدعاء قيل كان عمره عند ان القي في الجب سبع عشرة سنة وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة الى قدوم ابيه يعقوب ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سياتي وتوفاه الله وليس في اللفظ ما يدل على انه طلب الوفات في الحال وهذا ذهب الجمهور الى انه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال وانما دعى ربه ان يتوفاه على دين الاسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور اجله وقد عاش بعد ذلك سنين كثيرة وولد له من امرأة العزيز ثلاثة اولاد افرائيم وميشا ورحمة امرأة ايوب ولما مات دفنوه في اعلى النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر لتعم البركة جانبيه فسبحان من لا انقضاء لملكه فبقي اربعمائة سنة الى ان اخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الارض المقدسة فهو الآن هنالك ذَٰلِكَ المذكور من امر يوسف اي قصته وما جرى له مع اخوته وما صار اليه من الملك بعد الرق مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ اخباره نُوحِيهِ إِلَيْكَ خبر ثان قال الزجاج ويجوز ان يكون ذلك بمعنى الذي اي الذي من انباء الغيب نوحيه اليك والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بان هذا الذي قصه عليه من امر يوسف واخوته من الاخبار التي كانت غائبة عنه فاوحاه الله اليه واعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك وفيه تعريض ساطع بكفار قريش لانهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وسلم بما جاء به جحودا وعنادا وحسدا مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ودليل قاطع على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم لانه كان اميا بحتا لم يقرأ الكتب

ولم يلق العلماء ولم يسافر الى غير بلدة الذي نشأ فيه ومع ذلك اتى بهذه القصة الطويلة على
احسن تركيب وافصح عبارة فعلم ان اتيانه بها بوحي من الله سبحانه وتعالى وما كنت لديهم اي
لدي اخوة يوسف وهو تعليل لكل من الخبرين اذ اجمعوا امرهم اجماع الامر العزم عليه اي اذ
عزموا جميعا على القائه في الجب وهم اي بنو يعقوب في تلك الحالة يمكرون بيوسف في هذا
الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل او يمكرون بيعقوب حين جاؤه بقميص ملطخا بالدم
و قالوا اكله الذئب و اذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لديهم عند ان فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك
مشاهدة ولم يكن بين قوم لهم علم باحوال الامم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه فانتفى علمه بذلك
بطريق الرواية عن الغير فلم يبق بعلمه بذلك طريق الا مجرد الوحي من الله سبحانه فهذا يستلزم
الايمان بما جاء به فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكرا لهذا وما اكثر
الناس ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي
هو دين ابائهم يقال حرص يحرص مثل ضرب يضرب وفي لغة ضعيفة مثل حمد يحمد والحرص
طلب الشئ باجتهاد والاسم الحرص بالكسر وحرص حرصا من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة
وقال الزجاج معناه ما اكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على ان تهديهم لانك لا تهدي من احببت
ولكن الله يهدي من يشاء قال ابن الانباري ان قريشا واليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة
يوسف واخوته فشرحها شرحا شافيا واتى بها على وفق ما عندهم في التوراة وهو يأمل ان يكون
ذلك سببا لاسلامهم فخالفوا ظنه ولم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فعزاه الله بقوله
وما اكثر الناس الآية وما تسألهم عليه اي على القرآن وما تتلوه عليهم منه او على الايمان و
حرصك على وقوعه منهم او على ما تحدثهم به من هذا الحديث من اجر من مال يعطونك اياه و
يجعلونه لك كما يفعله احبارهم ان هو اي القرآن او الحديث الذي حدثتهم به الا ذكر
للعالمين كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم وهذا كالتعليل لما قبله لان الوعظ العام ينافي اخذ
الاجر من البعض وكاين من اية قال الخليل وسيبويه ان كاين اصلها اي دخل عليها كاف التشبيه
لكنه صار بعد التركيب بمعنى كم الخبرية التكثيرية والاكثر
ادخال من في مميزه وهو تمييز عن الكاف لا عن اي كما في مثلك رجلا والمعنى كم من اية تدلهم على

على توحيد الله كائنة فِي السَّمٰوٰتِ من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت وَالْاَرْضِ من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه وانه الخالق لذلك والرازق له المحيي المميت قال الضحاك كم من اية في السماء يعني شمسها وقمرها ونجومها وسحابها وفي الارض ما فيها من الخلق والانهار والجبال والمدائن والقصور ولكن اكثر الناس يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا اي على هذه الايات غير متاملين لها ولا مستفكرين فيها ولا ملتفتين الى ما تدل عليه من وجود خالقها وانه المتفرد بالالوهية مع كونهم مشاهدين لها وفي مصحف عبد الله يمشون عليها و المراد ما يرون فيها من اثار الامم الهالكة وغير ذلك من الاثار والعبر وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُوْنَ وان نظروا اليها باعيانهم فقد اعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهي التفكر والاعتبار والاستدلال وَمَا يُؤْمِنُ اي ما يصدق اَكْثَرُهُمْ اي اكثر الناس بِاللّٰهِ من كونه الخالق الرازق المحيي المميت اِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية فانهم مقرون بالله سبحانه و بانه الخالق لهم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سالتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم الى الله كما قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ومثل هؤلاء الذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله المعتقدون في الاموات بانهم يقدرون على ما لا يقدر عليه الا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور ولا ينافي هذا ما قيل من ان الاية نزلت في قوم مخصوصين فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم قال ابن عباس في الاية سلهم من خلقهم ومن خلق السموات والارض فسيقولون الله فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره و قال عطاء كانوا يعلمون ان الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم وكانوا مع ذلك يشركون و قال الضحاك كانوا يشركون في تلبيتهم يقولون لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وقال الحسن ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله اَفَاَمِنُوْٓا اَنْ تَاْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّٰهِ الاستفهام للانكار والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم وقيل هي الساعة وقيل الصواعق والقوارع وقيل وقيعة تغشاهم قاله قتادة وقيل نقمة تشملهم ولا مانع من الحمل على العموم اَوْ تَاْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً اي فجاءة قال المبرد

جاء عن العرب حال بعد نكرة وهو قولهم وقع امر بغتة يقال بغتهم الامر بغتا وبغتة اذا فاجأهم وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ باتيانها قيل تهيج الصيحة بالناس وهم في اسواقهم غير مستعدين لها قُلْ يا محمد للمشركين هٰذِهٖ الدعوة التي ادعو اليها او الطريقة التي انا عليها سَبِيْلِيْ طريقي وسنتي وفسر ذلك بقوله اَدْعُوْٓا اِلَى اللّٰهِ عَلٰى بَصِيْرَةٍ اي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل اَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِيْ اي ويدعو اليها من اتبعني واهتدى بهديي قال الفراء والمعنى ومن اتبعني يدعو الى الله كما ادعو وفي هذا دليل على ان كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حق عليه ان يقتدي به في الدعاء الى الله اي الدعاء الى الايمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده قال ابن الانباري ويجوز ان يتم الكلام عند قوله ادعو الى الله ثم ابتدأ فقال على بصيرة انا ومن اتبعني قال قتادة على بصيرة اي على هدى وَسُبْحٰنَ اللّٰهِ اي انزهه وانزه الله عما لا يليق بجلاله من جميع النقائص والشركاء والاضداد والانداد وَمَآ اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ بالله الذين يتخذون من دونه اندادا وَمَآ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ هذا رد على من قال لولا انزل عليه ملك اي لم نبعث من الانبياء الى من قبلهم اِلَّا رِجَالًا لا ملائكة اي ليسوا من اهل السماء كما قلتم قاله ابن عباس فكيف ينكرون ارسالنا اياك وتدل الاية على ان الله سبحانه لم يبعث نبيا من النساء ولا من الجن وهذا يرد على من قال ان في النساء اربع نبيات حواء وآسية وام موسى ومريم وقد كان بعثة الانبياء من الرجال دون النساء امرا معروفا عند العرب حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبية ✿ اضحت نبيتنا انثى نطيف بها ✦ واصبحت انبياء الله ذكرانا ✦ فلعنة الله والاقوام كلهم على سجاح ومن باللوم اغرانا ✦ نُّوْحِيْٓ اِلَيْهِمْ كما نوحي اليك وقرئ بالياء مبنيا للمفعول مِّنْ اَهْلِ الْقُرٰى اي المدائن والامصار دون اهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ولكون اهل الامصار اتم عقلا واكمل حلما واحسن علما واجل فضلا قال قتادة ما نعلم ان الله ارسل رسولا قط الا من اهل القرى لانهم كانوا اعلم واحلم من اهل العمود وقال الحسن لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء اَفَلَمْ يَسِيْرُوْا فِي الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ اي افلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فينظرون الى مصارع الامم الماضية فيعتبروا بهم وما حل بهم من عذاب الله حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب قال الحسن اي كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والامم التي عذبهم

ولدار الساعة الآخرة او الحالة الآخرة او الحياة الآخرة على حذف الموصوف وقال الفراء ان الدار
هي الآخرة واضيف الشيء الى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلوة الاولى ومسجد الجامع و
الكلام في ذلك مبين في كتب الاعراب والمراد بهذه الدار الجنة وقرئ للدار الآخرة خير من دار الدنيا
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ على الخطاب وقرئ بالتحتية اي يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا
حَتَّى غاية لمحذوف دل عليه الكلام وتقديره وما ارسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا ولم نعاجل اممهم
الذين لم يؤمنوا بما جاؤا به بالعقوبة حتى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ عن النصر بعقوبة قومهم او حتى اذا استيأسوا
من ايمان قومهم لانهماكهم في الكفر وقدره القرطبي الا رجالا ثم لم نعاقب اممهم حتى اذا وقدره ابن
الجوزي الا رجالا فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى اذا وقدره الزمخشري
الا رجالا فتراخى نصرهم حتى واحسنها ما قدمته وقال الواحدي حتى هنا من حروف الابتداء
يستانف بعدها وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قرأ جماعة من الصحابة وتابعيهم والكسائي والفراء بالتخفيف
اي ظن القوم ان الرسل قد كذبوهم فيما اخبروا به من العذاب ولم يصدقوا وقيل المعنى ظن القوم
ان الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من النصر وقيل المعنى وظن الرسل انها قد كذبتهم انفسهم حين حدثتهم
بانهم ينصرون عليهم او كذبهم رجاؤهم النصر وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد والمعنى عليها واضح اي
ظن الرسل بان قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ويجوز في هذا ان يكون فاعل ظن
القوم المرسل اليهم على معنى انهم ظنوا ان الرسل قد كذبوا فيما جاؤا به من الوعد والوعيد وقرأ مجاهد
وحميد قد كذبوا بالتخفيف معروفا على معنى وظن قوم الرسل ان الرسل قد كذبوا وقد قيل ان الظن في هذه
الآية بمعنى التوهم والحسبان والذي ينبغي ان الظن في مثل هذه الصورة بمعنى اليقين ويفسر بمعناه
الاصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة وقد اطال الخازن في بيان معنى الظن هنا
وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا اي فجاء الرسل نصر الله فجأة او جاء قوم الرسل الذين كذبوهم
نصر الله لرسله بايقاع العذاب على المكذبين واخرج البخاري وغيره من طريق عروة انه سأل عائشة
عن قول الله سبحانه حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا قال قلت اكذبوا ام كذّبوا يعني هل هذه
الكلمة مخففة ام مشددة فقالت بل كذبوا تعني بالتشديد قلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم
فما هو بالظن قالت اجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها كذبوا مخففة قالت معاذ الله لم تكن

الرسل لنظن ذلك برضا فقالت فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال
عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان
اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك وقال ابن عباس كذبوا بالتخفيفة يقول اخلفوا وكانوا
بشرا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال عروة عن عايشة انها خالفت ذلك وابته
وقالت والله ما وعد الله رسوله من شيء الا علم انه سيكون قبل ان يموت ولكنه لم يزل البلاء بالرسل
حتى ظنوا ان من معهم من المؤمنين قد كذبوهم وكانت تقرأها مثقلة وعن ابن عباس كان يقرأ
كذبوا مخففة وقال يئس الرسل من قومهم ان يستجيبوا لهم وظن قومهم ان الرسل قد كذبوهم جاءهم
به جاءهم نصرنا اي الرسل وبها قرأ ابن مسعود قال استيأس الرسل من ايمان قومهم ان يؤمنوا بهم
وظن قومهم حين ابطاء النصر قد كذبوا وقال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة يوسف
انهم قد كذبوا بالتخفيفة والسلف في هذا الكلام يرجع الى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة فنجي من
نشاء من عبادنا عند نزول العذاب بالكافرين والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم وهلك
المكذبون ولا يرد بأسنا اي عذابنا عند نزوله عن القوم المجرمين المشركين قال ابن عباس وذلك
ان الله بعث الرسل يدعون قومهم فاخبروهم ان من اطاع الله نجا ومن اعرض عذب وغوى
وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدى هؤلاء المجرمين لقد كان في قصصهم
اي قصص الرسل ومن بعثوا اليهم من الامم او في قصص يوسف واخوته وابيه قاله مجاهد عبرة
هي الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة وقيل هي نوع من الاعتبار وهي العبور من الطرف المعلوم
الى الطرف المجهول لاولي الالباب هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه
مصالح دينهم وانما كان هذه القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة
بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف واخوته وابوه مع كونه لم يطلع
على اخبارهم ولا اتصل باحبارهم وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم انه قال في اول السورة نحن
نقص عليك احسن القصص ثم قال ههنا لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب وذلك تنبيه
على ان حسن هذه القصة انما هو لاجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة ما كان بهذا
المقصوص الذي يدل عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك المتقدم ذكره في قوله انا انزلناه قرآنا عربيا

حديثا يفترى قال قتادة الفرية الكذب ولكن تصديق الذي بين يديه من الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور وقيل هو تصديق ذلك كله ويشهد عليه ان جميعه حق من عند الله وتفصيل كل شيء من الشرائع المجملة المحتاجة الى تفصيلها لان الله سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء من الاحكام والحدود والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك وقيل تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع اخوته وابيه وقيل وليس المراد به ما يقتضيه من العموم بل المراد به الاصول والقوانين و ما يؤل اليها قال قتادة فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته وقيل ما من شيء من امر ديني الا وله مستند في القرآن بواسطة او بغير واسطة وهدى في الدنيا يهتدي به كل من اراد هدايته ورحمة في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه بشرط الايمان الصحيح ولهذا قال لقوم يؤمنون اي يصدقون به وبما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه و قدره واما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه

سورة الرعد وهي ثلث وقيل اربع او خمس وست واربعون اية

وقد وقع الخلاف هل هي مكية او مدنية وممن ذهب الى الاول سعيد بن جبير والحسن و عكرمة وعطاء وجابر وابن زيد والى الثاني ابن الزبير والكلبي ومقاتل والقول الثالث انها مدنية الا آيتين فانهما نزلتا بمكة وهما قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال وقيل قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة وقيل هو الذي يريكم البرق الى قوله له دعوة الحق وعن جابر بن زيد كان يستحب اذا حضر الميت ان يقرأ عنده سورة الرعد فان ذلك يخفف عن الميت وانه اهون لقبضه وايسر لشانه بسم الله الرحمن الرحيم المر قد تقدم الكلام في الحروف الواقعة في اوائل السور بما يغني عن الاعادة قال ابن عباس المعنى انا الله ارى وقال مجاهد فواتح يفتتح بها كلامه والحق ان الله تعالى اعلم بمراده او هو اسم للسورة والتقدير هذه السورة اسمها هذا تلك اي آيات هذه السورة وقيل اشارة الى ما قص عليه من انباء الرسل وقيل القرآن وعليه جرى الزمخشري وجمهور المفسرين آيات الكتاب والمراد بالكتاب السورة اي تلك آيات السورة الكاملة العجيبة الشان والاضافة بمعنى من وقال مجاهد الكتاب التوراة والانجيل والذي انزل اليك من ربك

المراد به القرآن كله قاله قتادة وغيره اي هو الحق البالغ في اتصافه بهذه الصفة لاشك فيه
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يعني مشركي مكة لَا يُؤْمِنُونَ بهذا الحق الذي انزل الله اليك قال الزجاج لما ذكر
انهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال اَللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ العمد الاساطين والدعائم جمع عماد اي على غير قياس والقياس ان يجمع على عمد بضم العين
والميم وقيل ان عمدا جمع عماد في المعنى اي انه اسم جمع لا جمع صناعي وهو صادق بان لا عماد اصلا
وهذا هو اصح القولين اي قائمات بغير عمد تعتمد عليها وقيل لها عمد ولكن لا نراها وهذا قول مجاهد
وعكرمة قال الزجاج العمد قدرته التي يمسك بها السموات وهي غير مرئية لنا وقري عُمُد على انه جمع عمود يعمد به
اي يسند اليه وجملة تَرَوْنَهَا مستانفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك وقيل هي صفة لعمد
وهو اقرب مذكور ورجحه الزمخشري وقيل في الكلام تقديم وتاخير والتقدير رفع السموات ترونها
بغير عمد ولا ملجئ الى مثل هذا التكلف قال ابن عباس وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها وقال
يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني الاعماد قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة
وبه قال الحسن وقتادة وجمهور المفسرين وعن ابن عباس قال السماء على اربعة املاك كل زاوية
موكل بها ملك قال السمين في هذا الكلام وجهان احدهما انتفاء العمد والروية جميعا اي لا عمد فلا
روية يعني لا عمد لها فلا ترى واليه ذهب الجمهور والثاني ان لها عمدا ولكن غير مرئية ثُمَّ هنا
لمجرد العطف لا للترتيب لان الاستواء عليه غير مرتب على رفع السموات اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ استواء
يليق به هذا مذهب السلف وقال المعتزلة استولى عليه بالحفظ والتدبير او استوى امره او اقبل على
خلق العرش وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى والحق ان الاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف
كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ اي ذللهما لما يراد منهما من منافع
الخلق ومصالح العباد فالحركة المستمرة على حد من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها
كُلٌّ من الشمس والقمر يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى اي الى وقت معلوم معين وهو فناء الدنيا وزوالها وقيام
الساعة التي تتكور عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر وقيل المراد بالاجل المسمى
درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان اليها لا يجاوزانها وهي سنة للشمس وشهر للقمر لا يختلف جري واحد
منهما قيل وهذا هو الحق في تفسير الاية يُدَبِّرُ الْأَمْرَ اي العالم العلوي والسفلي يعني يقضيه ويمضيه

وحده قاله مجاهد والمعنى يصرفه على ما يريد وهو امر ملكوته وربوبيته يدبره على اكمل الاحوال واتم الافعال لا يشغله شان عن شان وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة ولا وجه للتخصيص بشيء دون شيء فان اللفظ اوسع من ذلك قال الكرخي وحمل التدبير على العموم اولى من حمله على نوع من احوال العالم كما جرى عليه جمع من المفسرين وهذا التدبير والانفاذ والامضاء هو من فوق العرش وهو ظاهر نظم القران الكريم **يُفَصِّلُ** اي يبين **الْآيَاتِ** الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريها لاجل مسمى والمراد بهذا تنبيه العباد على ان من قدر على هذه الاشياء فهو قادر على البعث والاعادة ولهذا قال **لَعَلَّكُمْ** عند مشاهدة هذه الآيات **بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** لا تشكون فيه ولا تمترون في صدقه ولما ذكر الدلائل السماوية اتبعها بذكر الدلائل الارضية فقال **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ** على وجه الماء قال الفراء بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان وقال الاصم المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه زاد الكرخي فقوله مد الارض يشعر بانه تعالى جعل الارض حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاه انتهى قيل وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافي كريتها في نفسها لتباعد اطرافها وبه قال اهل الهيئة والله اخبر انه مد الارض وانه دحاها وبسطها وانه جعلها فراشا وكل ذلك يدل على كونها مسطحة كالاكف وهو اصدق قيلا وابين دليلا من اصحاب الهيئة وفي الجامع الصغير حديث رواه البيهقي عن ابن عباس بلفظه اول بقعة وضعت من الارض موضع البيت ثم مدت منها الارض وان اول جبل وضعه الله على وجه الارض ابو قبيس ثم مدت منه الجبال وعن ابن عمر قال الدنيا مسيرة خمسمائة عام اربعمائة عام خراب ومائة عمران في ايدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة وقد روي عن جماعة من السلف في ذلك تقديرات لم يات عليها دليل يصح وعن علي بن ابي طالب قال لما خلق الله الارض قمصت وقالت اي رب تجعل علي بني آدم يعملون على الخطايا ويجعلون علي الخبث فارسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون فكان اقرارها كاللحم ترجرج **وَجَعَلَ فِيهَا** جبالا **رَوَاسِيَ** اي ثوابت تمسكها عن الاضطراب واحدها راسية لان الارض ترسو بها اي تثبت والرسو الثبوت **وَأَنْهَارًا** اي مياها جارية في الارض فيها منافع الخلق او المراد جعل فيها مجاري الماء **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** اي من كل الثمار زوجين

أي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر إذ الزوج يطلق على الاثنين
وعلى الواحد المزاوج للآخر والمراد هنا بالزوج الواحد وهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم
أنه أريد بالزوج هنا الاثنان الشفعان وقد تقدم تحقيق هذا مستوفى وهذا بيان لأقل مراتب
التعدد وإلا فالتعدد قد يكون بأكثر من ذلك أي جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين
إما في اللونية كالبياض والسواد ونحوهما أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما أو في القدر كالصغر
والكبر أو في الكيفية كالحر والبرد ولكن اثنينية ذلك اعتبارية قال الفراء يعني بالزوجين هنا الذكر
والأنثى من كل صنف ومثله عن مجاهد والأول أولى يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلما
بعدما كان أبيض منيرا شبه إزالة نور الهواء بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي
تسترها ويلبس الليل ضوء النهار أي يستر النهار بالليل والتركيب وإن احتمل العكس أيضا بالحمل على
تقدير المفعول الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون
هو الغاشي وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار
ظهوره في الأرض فإن الليل إنما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا وقد سبق تفسير هذا في
الأعراف إِنَّ فِي ذَٰلِكَ المذكور من مد الأرض وإثباتها بالجبال وما جعل الله فيها من الثمرات
المتزاوجة وتعاقب النور والظلمة لَآيَاتٍ بينة لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أي الناظرين المتفكرين المعتبرين
فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء
قال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر
العقل وذلك للإنسان دون الحيوان ولا يقال إلا فيما يمكن أن يكون له صورة في القلب ولهذا
روي تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله إذ الله منزه عن أن يوصف بصورة وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ
مُتَجَاوِرَاتٌ أي بقاع مختلفة وهذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات قيل
وفي الكلام حذف أي قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله سرابيل تقيكم الحر أي والبرد
وقيل المتجاورات المدن وما كان عامرا وغير المتجاورات الصحاري وما كان غير معمور وقيل معنى
متجاورات متدانيات ترابها واحد وماؤها واحد وفيها زرع وجنات ثم تتفاوت في الثمار فيكون
البعض حلوا والبعض حامضا والبعض طيبا والبعض غير طيب والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع

اخرج عن ابن عباس قال يريد الارض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها باذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا يخرج منها نباتها وهما ارض واحدة وماؤها شيء واحد ملح او عذب ففضلت احداهما على الاخرى قال قتادة قرى متجاورات قريب بعضها من بعض وقال ابن عباس الارض تنبت حلوا والارض تنبت حامضا وهي متجاورات تسقى بماء واحد وقيل صغار متلا فمنها طيب وسبخ وقليل الريع وكثيره وهو من دلائل قدرته تعالى سبحانه وفي الارض او بينها جنات اي بساتين وعلى النصب تقديره جعل فيها جنات والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل واعناب وغير ذلك سمي جنة لانه يستر باشجاره الارض واليه الاشارة بقوله من اعناب جمع عنب وزرع ونخيل ذكر سبحانه الزرع بين الاعناب والنخيل لانه يكون في الخارج كثيرا كذلك ومثله في قوله سبحانه جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا والنخل والنخيل بمعنى والواحد نخلة لكن النخل يذكر ويؤنث والنخيل مؤنث لا غير صنوان وغير صنوان قرئ بالرفع عطفا على جنات وبالجر عطفا على اعناب وبضم الصاد وكسرها وهما لغتان والاولى لغة قيس وتميم والثانية لغة العامة وقرئ بفتحها وهو اسم جمع لا تكسير لانه ليس من ابنية فعلان بالفتح ونظير صنوان بالفتح سعدان قال ابو عبيدة جمع صنو وهو ان يكون الاصل واحدا ثم يتفرع فيصير نخيلا ثم يحمل وهذا قول جميع اهل اللغة والتفسير فهي بمعنى النخلات تفسير للصنوان الذي هو الجمع فالصنو المفرد واحد هذه النخلات قال ابن الاعرابي الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم عم الرجل صنو ابيه فمعنى الاية على هذا ان اشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون قال في الكشاف جمع صنو وهي النخلة لها راسان واصلهما واحد وقيل الصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق قال النحاس وهو كذلك في اللغة يقال للنخلة اذا كانت فيها نخلة اخرى او اكثر صنوان والصنو المثل ولا فرق بين التثنية والجمع الا بكسر النون في المثنى وبما يقتضيه الاعراب في الجمع وعن البراء بن عازب قال الصنوان ما كان اصله واحدا وهو متفرق وغير الصنوان التي تنبت وحدها وفي لفظ الصنوان النخلة في النخلة ملتصقة وغير الصنوان النخل المتفرق وعن ابن عباس هي مجتمع النخل في اصل واحد وغيرها المتفرق وفي السمين والصنو الفرع يجمعه وفرعا اخر اصل واحد والمثل وفي المختار اذا اخرج نخلتان او ثلاث من اصل واحد فكل واحدة منهن صنو و

الاثنان صنوان بكسر النون والجمع صنوان برفعها يُسقى بالتحتية اي يسقى ذلك كله يعني اشجار
الجنة وزرع وعها بِمَاءٍ وَاحِدٍ والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل في حده هو جوهر سيال
به قوام الارواح وقرئ تسقى بالفوقية بارجاع الضمير الى جنات وقال ابو عمرو التانيث احسن لقوله
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ اي في الطعم ما بين الحلو والحامض وغير ذلك من الطعام ولو
يقل بعضه قرئ بالنون على تقدير ونحن نفضل وقرئ بالياء ومتى قرئ الاول بالتاء جاز في
الثاني الياء والنون ومتى قرئ الاول بالياء تعين في الثاني النون لا غير فالقراءات ثلثة لا اربعة
كما توهم وكلها سبعية وانت خبير بان القراء يتبعون فيما اختاروه من القراءات الاثر لا الرأي فانه لا
مدخل له فيها قاله الكرخي اخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم في الاية قال الدقل والفارسي والحلو والحامض قال مجاهد هذا كمثل بني ادم
صالحهم وخبيثهم وابوهم واحد وعن ابن عباس قال هذا حامض وهذا حلو وهذا دقل وهذا
فارسي والاكل بضمتين واسكان الثاني للتخفيف الماكول والمراد به ما يوكل منها وهو الثمر والحب فالثمر من
النخيل والاعناب والحب من الزرع كانه قال ونفضل الحب والثمر بعضها على بعض طعما وشكلا وصورة
وقدرا وحلاوة وحموضة وغضاضة وغير ذلك من الطعوم وفضلها ايضا في غير ذلك كاللون
والنفع والضر وانما اقتصر على الاكل لانه اعظم المنافع إِنَّ فِي ذَٰلِكَ المذكور لَآيَاتٍ دلالات على بديع
صنعه وعظيم قدرته فان القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على انواع النبات مع كونها
تسقى بماء واحد تتفاضل في الثمرات في الاكل فيكون طعم بعضها حلوا والاخر حامضا وهذا في غاية
الجودة وهذا ليس بجيد وهذا فائق في حسنه وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر
نظر العقلاء ان السبب المقتضي لاختلافها ليس الا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شانه
لان تاثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء الا للسببين اما اختلاف
المكان الذي هو المنبت او اختلاف الماء الذي تسقى به فاذا كان المكان متجاورا وقطع الارض متلاصقة
والماء الذي تسقى به واحدا لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل الا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ اي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات
والاعتبار في العبر الموجودات اي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها خص هذا بالعقل والاول بالتفكر لان

الاستدلال باختلاف النهار اسهل ولان التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب
فناسب تقديم التفكر على التعقل قال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بني ادم فالناس خلقوا
من ادم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم
فتلهو ولا تسمع وقال ايضا والله ما جالس القران احد الا قام من عنده بزيادة او نقصان قال
الله تعالى وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وَإِنْ
تَعْجَبْ يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فَعَجَبٌ اي فاعجب منه قَوْلُهُمْ
اي تكذيبهم بالبعث والله تعالى لا يجوز عليه التعجب لانه تغير النفس بشيء تخفى اسبابه وذلك
في حق الله تعالى محال قاله القرطبي وقيل العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وانما ذكر
ذلك ليتعجب منه رسوله واتباعه قال الزجاج اي هذا موضع عجب ايضا انهم انكروا البعث وقد بين
لهم من خلق السموات والارض ما يدل على ان البعث اسهل في القدرة وقد تقرر في النفوس ان
الاعادة اهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وقيل الاية في منكري الصانع مع الادلة الواضحة بان
المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب والاولى اولى لقوله أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ والتعجب
كلامهم او تكلمهم بذلك او لا يرون انه خلقهم من نطفة فالخلق منها اشد من الخلق من تراب و
عظام والعامل في اذا نبعث او نعاد والاستفهام منهم للانكار المفيد لكمال الاستبعاد وفي هذا
الاستفهام المكرر اختلف القراء اختلافا منتشرا وهو في احد عشر موضعا في تسع سور من القران
ولا بد من تعيينها فاولها هنا والثاني والثالث في الاسراء بلفظ واحد ائذا كنا عظاما ورفاتا
ائنا لمبعوثون خلقا جديدا والرابع في المؤمنون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون والخامس
في النمل ائذا كنا ترابا واباؤنا ائنا لمخرجون السادس في العنكبوت ائنكم لتاتون الفاحشة ما سبقكم بها
من احد من العالمين ائنكم لتاتون الرجال السابع في الم السجدة ائذا ضللنا في الارض ائنا لفي خلق
جديد والثامن والتاسع في الصافات ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون وائنا لمدينون
والعاشر في الواقعة مثل الصافات والحادي عشر في النازعات ائنا لمردودون في الحافرة ائذا كنا
عظاما نخرة فهذه هي المواضع المختلف فيها ثم الوجه في قراءة من استفهم في الاول والثاني المبالغة
في الانكار فاتى به في الجملة الاولى واعاد في الثانية تاكيدا له والوجه في قراءة من اتى به مرة واحدة

حصول المقصود لان كل جملة مرتبطة بالاخرى فاذا انكر في احداهما حصل الانكار في الاخرى وكرره
السمين وتقديم الظرف في قوله لفي خلق لتاكيد الانكار بالبعث وكذلك تكرير الهمزة في قوله
ائنا والمعنى اي نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا ان القادر على انشاء الخلق وما
تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بامور ثلثة
الاول أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ اي اولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون
في الكفر الكاملون فيه وفيه دليل على كفر منكري البعث والثاني وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ
الاغلال جمع غل بالضم وهو طوق من حديد يجعل في العنق او تشد به اليد الى العنق اي يغلون
بها يوم القيامة كما يقاد الاسير ذليلا بالغل وقيل الاغلال اعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم
الاطواق للاعناق والثالث وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا ينفكون عنها بحال
من الاحوال وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ نزل في استعجالهم العذاب استهزاء والسيئة العقوبة المهلكة والحسنة العافية
والسلامة قالوا هذه المقالة لفرط انكارهم وشدة تصميمهم وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ جمع
مثلة كسمرة وهي العقوبة الفاضحة سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه وهو الذنب
من المماثلة في ان كلا منهما ام مذموم قال ابن الانباري المثلة العقوبة التي تبقي في المعاقب شينا
بتغيير بعض خلقه من قولهم مثل فلان بفلان اذا شان خلقه بقطع انفه وسمل عينيه وبقر بطنه
وقرئ بفتح الميم واسكان الثاء تخفيفا لثقل الضمة قيل وهي لغة الحجاز وفي لغة تميم بضم الميم والثاء
جميعا واحدتها على لغتهم مثلة مثل غرفة وغرفات وقرئ بفتحهما وقيل المثلة نقمة تنزل
بالانسان فيجعل مثالا يرتدع غيره به قال قتادة المثلات العقوبات يعني وقائع الله في الامم فيمن
خلا قبلكم وقال ابن عباس المثلات ما اصاب القرون الماضية من العذاب والمعنى ان هؤلاء
يستعجلونك بانزال العقوبة بهم وقد مضت من قبلهم عقوبات امثالهم من المكذبين فما لهم
لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حل بهم وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء
كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الاية وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ اي لذو تجاوز عظيم
والمراد بها الامهال وتاخير العذاب لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ اي مع ظلمهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي

ان تابوا عن ذلك ورجعوا الى الله سبحانه اي حال كونهم ظالمين وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء
كبير لان من المعلوم ان الانسان حال اشتغاله بالظلم لايكون تائبا فيجوز العفو قبل التوبة ولهذا
قيل انها في عصاة الموحدين خاصة وقيل المراد بالمغفرة هنا تاخير العقاب الى الآخرة كما تقدم
ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة وكما يفيده قوله تعالى وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ
فيعاقب من يشاء من العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا على ما تقتضيه مشيئته في
الدار الآخرة فتاخير ما استعجلوه ليس للاهمال عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل احد وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا من اهل مكة لَوْلَا هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ اي على محمد صلى الله عليه وسلم آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ غير ما
قد جاء به من الآيات كالعصا واليد والناقة وهؤلاء القائلون هم المستعجلون للعذاب وانما
عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم بكفرهم بآيات الله التي تخر لها الجبال حيث لم يرفعوا لها راسا ولم
يعدوها من جنس الآيات وهذا مكابرة من الكفار وعناد والا فقد انزل الله على رسوله من الآيات
ما يغني البعض منه قال الزجاج طلبوا غير الآيات التي اتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى
فقال الله تعالى إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ تنذرهم بالنار وليس اليك من الآيات من شيء وفيه ازالة لرغبته
صلى الله عليه وسلم في حصول مقترحهم فانه كان شديد الرغبة في ايجاب مقترحاتهم لشدة التفاته
الى ايمانهم قاله الخطيب وجاء في انما انت بصيغة الحصر لبيان انه صلى الله عليه وسلم مرسل لانذار العباد
وبيان ما يحذرون عاقبته وليس عليه غير ذلك وقد فعل ما هو عليه وانذر وبلغ انذاره ولم يدع
شيئا مما يحصل به ذلك الا اتى به واوضحه وكرره فجزاه الله عن امته خيرا وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ اي نبي يدعو
الى ما فيه هدايتهم ورشادهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وان لم يقع الهداية لهم بالفعل
ولم يقبلوها وآيات الرسل مختلفة هذا ياتي باية او آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها
ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت الى مكان عظيم فليس المراد من
الآيات الا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية وذلك لايختص بفرد منها ولا بافراد
معينة قال الرازي فهذا هو الوجه الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما
انتهى وقيل ان المعنى ولكل قوم هاد هو الله سبحانه عز وجل فانه القادر على ذلك وليس على انبيائه الا

مجرد الانذار قال ابن عباس هادي داع وقال مجاهد المنذر محمد صلى الله عليه وسلم ولكل قوم هاد نبي يدعوهم الى الله وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس نحوه وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنذر وهو الهادي اخرجه ابن مردويه وعن عكرمة وابي الضحى نحوه وقيل الهادي هو العمل الصالح وقيل الهادي هو القائد الى الخير لا الى الشر وهو يعم الرسل واتباعهم الى آخر الدهر وعن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال انا المنذر واومى بيده الى منكب علي فقال انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي اخرجه ابن جرير وابو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار قال ابن كثير في تفسيره وهذا الحديث فيه نكارة شديدة وجملة الله يعلم ما تحمل كل انثى مستانفة مسوقة لبيان احاطته سبحانه بالعلم وعلمه بالغيب الذي هذه الامور منه وقيل الاسم الشريف خبر اي لكل قوم هاد هو الله وجملة يعلم ما تحمل كل انثى تفسير لهاد على الوجه الاخير وهذا بعيد جدا والعلم هنا متعد لواحد بمعنى العرفان وما موصولة اي يعلم الذي تحمله كل انثى في بطنها من علقة او مضغة او ذكر او انثى او صبيح او قبيح او سعيد او شقي او طويل او قصير او تام او ناقص او استفهامية اي يعلم اي شئ في بطنها وعلى اي حال هو او مصدرية اي يعلم حملها وما تغيض الارحام وما تزداد وما في الموضعين محتملة للاوجه المتقدمة وغاض وازداد سمع تعديهما ولزومهما ولك ان تدعي حذف العائد على القول بتعديهما وان تجعلها مصدرية على القول بمصدريتها والغيض النقص وعليه اكثر المفسرين اي يعلم الذي تغيضه الارحام اي تنقصه ويعلم ما تزداده لا يخفى عليه شئ من ذلك ولا من اوقاته واحواله وقيل المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص اصبع او زيادتها وقيل ان المراد نقص مدة الحمل عن تسعة اشهر وزيادتها وقيل اذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصا في ولدها قاله ابن عباس واذا لم تحض يزداد الولد وينمو فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقال سعيد بن جبير الغيض ما تنقصه الارحام من الدم والزيادة ما تزداد منه وقيل النقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل واذا حاضت في وقت حملها ورأت خمسة ايام دما وضعت لتسعة اشهر وخمسة ايام وقال الضحاك ما تغيض السقط وما تزداد ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما وذلك ان من النساء من تحمل عشرة اشهر ومنهن من تحمل تسعة اشهر

ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله وكل ذلك يعلمه الله وقال مجاهد الغيض خروج الدم والزيادة استمساكه ومدة الحمل اكثرها عند قوم سنتان وبه قالت عائشة وابو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقيل اكثرها اربع سنين واليه ذهب الشافعي وقيل خمس سنين وبه قال مالك واقلها ستة اشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش ﴿وكل شيء﴾ من الاشياء التي من جملتها الاشياء المذكورة ﴿عنده﴾ سبحانه ﴿بمقدار﴾ هو القدر الذي قدره الله وهو معنى قوله سبحانه انا كل شيء خلقناه بقدر اي كل الاشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه لا يخرج عن ذلك شيء وهذا امذهب السلف وقيل هذه عندية علم اي يعلم كيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين ويحتمل ان يكون المراد بالعندية انه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية ويدخل في هذه الآية افعال العباد واحوالهم وخواطرهم وهي من ادل الدلائل على بطلان قول المعتزلة ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ اي عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر وكل معدوم وموجود وقال الضحاك عالم السر والعلانية ولا مانع من حمل الكلام على ما هو اعم من ذلك ﴿الكبير المتعال﴾ اي العظيم الذي كل شيء دونه المتعالي عما يقوله المشركون او المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره او المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه وصيانته عن خلقه وهو الاولى ثم لما ذكر سبحانه انه يعلم تلك المغيبات لا يغادر شيئا منها بين انه عالم بما يسرونه في انفسهم وما يجهرون به لغيرهم وان ذلك لا يتفاوت عنده فقال ﴿سواء منكم من اسر القول ومن جهر به﴾ فهو يعلم ما اسره الانسان كعلمه بما جهر به من خير او شر اي سواء ما اضمرت به القلوب او نطقت به الالسن وسر من اسر وجهر من جهر ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ اي مستتر في الظلمة الكائنة في الليل المتواري عن الاعين يقال خفي الشيء واستخفى اي استتر وتوارى ﴿وسارب بالنهار﴾ قال الكسائي سرب يسرب سربا وسروبا اذا ذهب وقال القتيبي اي متصرف في حوائجه بسرعة من قولهم سرب الماء قال الاصمعي خل سربه اي طريقته والسرب بالكسر النفس يقال هو واسع السرب اي رخي البال والسرب بفتحتين بيت في الارض لا منفذ له وهو الوكر وقال الزجاج معنى الآية الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعا سواء وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب فالمستخفي المستتر والسارب البارز

الظاهر ولنعم ما قال بعضهم شعر يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الاليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان
منه في الزمان الاول وقيل مستخف راكب رأسه في المعاصي سارب ظاهر بالنهار بالمعاصي قال هو صاحب
ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار ارى الناس انه بريء من الاثم له الضمير راجع الى من في قوله
من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف اي لكل من هؤلاء معقبات هي المتناوبات التي يخلف
كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة تعتقبه في قول عامة المفسرين
قال الزجاج المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض قيل هم خمسة بالليل وخمسة بالنهار وفي
الخطيب انهم عشرون لكل انسان عشرة بالليل وعشرة بالنهار وهو الذي في شرح الجوهرة وانما قال
معقبات مع كون الملائكة ذكورا لان الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ثم جمع معقبة على معقبات
ذكر معناه الفراء كما قيل ابناوات سعد ورجالات بكر وقيل انث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة
قال الجوهري والتعقيب العود بعد البدء قال الله تعالى ولى مدبرا ولم يعقب وقرئ معاقيب جمع معقب
وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار و
يجتمعون في صلوة الفجر وصلوة العصر الحديث بطوله اخرجه الشيخان وقال ابن عباس هذه للنبي
صلى الله عليه وسلم خاصة قلت العموم اولى ويدخل فيه سبب النزول دخولا اوليا من بين يديه ومن خلفه
اي من بين يدي من له المعقبات والمراد ان الحفظة من الملائكة يتعاقبون من جميع جوانبه وقيل
المراد بالمعقبات الاعمال ومعنى من بين يديه ومن خلفه ما تقدم منها وما تأخر يحفظونه من امر الله
اي بامر الله وقيل يحفظونه من بأس الله اذا اذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب وقيل يحفظون
عليه الحسنات والسيئات وقيل من شر طوارق الليل والنهار قال الفراء في هذا قولان احدهما
انه على التقديم والتاخير اي له معقبات من امر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه والثاني
ان كون الحفظة يحفظونه هو مما امر الله به قال الزجاج المعنى حفظهم اياه من امر الله اي مما امرهم
لا انهم يقدرون ان يدفعوا امر الله قال ابن الانباري وفي هذا قول آخر وهو ان من بمعنى الباء اي يحفظونه
بامر الله واعانته واستظهره السفاقسي وقيل ان من بمعنى عن اي يحفظونه عن امر الله بمعنى من عند الله
لا من عند انفسهم كقوله اطعمهم من جوع اي عن جوع وقيل يحفظونه عن ملائكة العذاب وقيل يحفظونه

من الجن والانس فهي على بابها واختار ابن جرير ان المعقبات المواكب بين يدي امرائه على معنى ان ذلك لا يدفع عنه القضاء وقال ابن عباس ذلك الحفظ من امر الله بامر الله وباذن الله لانه لا قدرة للملائكة ولا لاحد من الخلق ان يحفظ احدا من امر الله ومما قضاه الله عليه الا بامره واذنه وعن قتادة مثله وعنه ايضا قال في السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه يقول يحفظونه من امري فاني اذا اردت بقوم سوءا فلا مرد له وقال ايضا للملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من امامهم وعن خلفهم وعن شمالهم يحفظونهم من القتل الم تسمع ان الله يقول اذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له اي اذا اراد سوءا لم تغن الحرس عنه شيئا وعن عكرمة قال هؤلاء الامراء وعن ابن عباس قال هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدر الله خلوا عنه وعن علي قال ليس من عبد الا ومعه ملائكة يحفظونه من ان يقع عليه حائط او يتردى في بئر او يأكله سبع او يغرق او يحرق فاذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالانسان احاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من طاعة الله والحالة الجميلة بالحالة القبيحة والمعنى انه لا يسلب قوما نعمة انعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بانفسهم من الخير والاعمال الصالحة او يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها قيل وليس المراد انه لا ينزل باحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سائل فقال انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ اي هلاكا وعذابا ﴿فَلَا مَرَدَّ﴾ اي فلا رد ﴿لَهُ﴾ وقيل المعنى اذا اراد بقوم سوءا اعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ يلي امرهم ويلتجئون اليه فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقوبات او من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله والمعنى انه لا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه ولما خوف سبحانه عباده بانزال ما لا مرد له اتبعه بامور ترجى من بعض الوجوه وتخاف من بعضها وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة وقد مر في اول البقرة تفسير هذه الالفاظ واسبابها فقال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ هو لمعان يظهر من خلال السحاب وعن علي بن ابي طالب قال البرق مخاريق من نار بايدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ اي لتخافوا خوفا ولتطمعوا طمعا وقيل النصب على

العلة بتقدير ارادة الخوف والطمع او على الحالية من البرق او بتقدير ذوي خوف وقيل غير ذلك
مما لا حاجة اليه قيل والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق وبالطمع هو الحاصل بالمطر وقال الزجاج الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر
والطمع للحاضر لانه اذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب قال قتادة خوفا للمسافر يخاف اذاه ومشقته
وطمعا للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته وعن الحسن خوفا لاهل البحر وطمعا لاهل البر
وعن الضحاك قال الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع الغيث ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ التعريف للجنس
والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة والسحاب الغيم المنسحب في الهواء والمراد ان الله سبحانه يجعل السحاب
التي ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء ﴿ويسبح الرعد﴾ نفسه متلبسا ﴿بحمده﴾ وليس هذا بمستبعد ولا مانع
من ان ينطقه الله بذلك وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم واما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا
استبعاد بذلك ويكون ذكره على الانفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به والمسموع
لنا منه هو نفس صوته اذا سبح التسبيح المذكور وقيل هو صوت الآلة التي يضرب بها السحاب اي الصوت
الذي يتولد عند الضرب وقيل المراد ويسبح سامعو الرعد اي يقولون سبحان الله وبحمده والاول اولى
اخرج احمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
ان الله ينشئ السحاب فينطق احسن النطق ويضحك احسن الضحك وقيل والمراد بنطقها الرعد وبضحكها
البرق وقد ثبت عند احمد والترمذي والنسائي في اليوم والليلة والحاكم في مستدركه من حديث
ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا
تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك واخرج العقيلي وضعفه وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شيء احسن من ضحكه ولا شيء احسن من
نطقه ومنطقه الرعد وضحكه البرق واخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ان خزيمة بن ثابت
وليس بالانصاري سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منشأ السحاب فقال ان ملكا موكلا يلم القاصية ويلحم
الدانية بيده مخراق فاذا رفع برقت واذا زجر رعدت واذا ضرب صعقت وعن ابن عباس قال
اقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا اخبرنا ما هذا الرعد قال ملك من ملائكة الله سبحانه موكل
بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث امره الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع
قال صوته قالوا صدقت اخرجه الترمذي وصححه واخرج البخاري في الادب المفرد وابن ابي الدنيا في المطر وابن جرير عن

ابن عباس انه كان اذا سمع صوت الرعد قال سبحان الذي سبحت له وقال ان الرعد ملك ينعق
بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه وقد روي نحو هذا عنه من طرق وعن ابي هريرة ان الرعد صوت
الملك وعن ابن عمر نحوه وعن ابن عباس قال الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه فاذا اشتد
زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه وعن ابي عمران الجوني قال ان
بحورا من نار دون العرش تكون منها الصواعق وعن السدي قال الصواعق نار ﴿ويسبح
الملائكة من خيفته﴾ سبحانه اي هيبته وجلاله وقيل من خيفة الرعد وقد ذكر جماعة من
المفسرين ان هؤلاء الملائكة هم اعوان الرعد وان الله سبحانه جعل له اعوانا ﴿ويرسل الصواعق
فيصيب بها من يشاء﴾ من خلقه فيهلكه وسياق هذه الامور هنا للغرض الذي سيقت له
الايات التي قبلها وهو الدلالة على كمال قدرته والصواعق جمع صاعقة وهي العذاب النازل
من البرق وقيل هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار او عذاب او موت وهي في
ذاتها شيء واحد ينشأ منها قال الكرخي وامر الصاعقة عجيب جدا لانها نار تتولد في السحاب واذا
نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر واحرقت الحيتان قال محمد بن علي الباقر الصاعقة تصيب
المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر ﴿وهم﴾ اي الكفار المخاطبون في قوله وهو الذي يريكم البرق
﴿يجادلون في الله﴾ فينكرون البعث تارة ويستعجلون بالعذاب اخرى ويكذبون الرسل و
يعصون الله وقيل الضمير راجع الى من واعاد عليها الضمير جمعا باعتبار معناها ثم المجادلة المفاوضة
على سبيل المنازعة والمغالبة واصله من جدلت الحبل اذا احكمت فتله والجملة مستانفة ﴿وهو
شديد المحال﴾ اي المماحلة والمكائدة لاعدائه من محل بفلان اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل
اذا تكلف استعمال الحيلة ولعل اصله المحل بمعنى القحط والجملة حالية من الجلالة الكريمة ويضعف
استينافها قال ابن الاعرابي المحال المكر والمكر من الله التدبير بالحق وقال النحاس المكر من الله ايصال
المكروه الى من يستحقه من حيث لا يشعر وقال الازهري المحال فعال من المحل بمعنى القوة والشدة
والميم اصلية وماحلت فلانا محالا اينا اشد وقال ابو عبيدة المحال العقوبة والمكروه وقال الزجاج يقال
ماحلته محالا اذا قاويته حتى يتبين ايكما اشد والمحل في الكلام الشدة قال ابن قتيبة اي شديد
الكيد واصله مفعل من الحول او الحيلة جعل الميم كميم المكان واصله من الكون ثم يقال تمكنت فاعلى

غير قياس ويعضده انه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال قال الازهري غلط ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي اصلية واذا رايت الحرف على مثال فعال اوله ميم مكسورة فهي اصلية مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف وفي القاموس المحال ككتاب الكيد وروم الامر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعاداة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والاهلاك ومحل به مثلثة الحاء محلا ومحالا كاده بسعاية الى السلطان وماحله مماحلة ومحالا حتى يتبين ايهما اشد انتهى وللصحابة والتابعين في تفسير المحال ثمانية اقوال الاول العداوة الثاني الحول الثالث الاخذ وبه قال ابن عباس الرابع الحقد الخامس القوة السادس الغضب السابع الهلاك الثامن الحيلة **له دعوة الحق** الاضافة للملابسة اي الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق والمعنى انها دعوة مجابة واقعة في موقعها لا كدعوة من دونه وقيل الحق هو الله سبحانه والمعنى ان لله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب وقيل المراد بدعوة الحق ههنا كلمة التوحيد والاخلاص والمعنى لله من خلقه ان يوحدوه ويخلصوا له وقيل معنى كونها له تعالى انه شرعها وامر بها وجعلها افتتاح الاسلام بحيث لا يقبل بدونها وقيل دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فانه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى ضل من تدعون الا اياه وقيل الدعوة العبادة فان عبادة الله هي الحق والصدق **والذين يدعون** بالياء متواترة وبالتاء شاذة لا من السبعة ولا من العشرة وقفينها فيقرأ كباسط بالتنوين **من دونه** اي غير الله عز وجل وهم الاصنام **لا يستجيبون** اي لا يجيبون **لهم بشيء** مما يطلبونه منهم كائنا ما كان **الا كباسط كفيه الى الماء** اي استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فانه لا يجيبه لانه جماد لا يشعر بحاجته اليه ولا يقدر ان يجيب دعاءه ولا يدري انه طلب منه **ليبلغ فاه** بارتفاعه من البير اليه ولهذا قال **وما هو** اي الماء **ببالغه** اي ببالغ فيه وقيل وما الفم ببالغ الماء اذ كل واحد منهما لا يبلغ الاخر على هذه الحال فقيل وما باسط كفيه الى الماء ببالغ الماء ذكره السمين والاول اولى اعلم الله سبحانه ان دعاءهم الاصنام كدعاء العطشان الى الماء يدعوه الى بلوغ فمه وما الماء بالغه وقيل انه كباسط كفيه الى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء وقال الفراء ان المراد بالماء ههنا ماء البير لانها معدن الماء وانه شبهه من مد يديه الى البير بغير رشاء ضرب الله سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الاصنام عن علي قال كان الرجل

العطشان يمد يده الى البير ليرتفع الماء اليه وماهو ببالغه وعن ابن عباس قال هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر الى خياله في الماء من بعيد وهو يريد ان يتناوله ولا يقدر عليه وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ اي عبادتهم الاصنام او حقيقة الدعاء والاول هو الظاهر والثاني قول ابن عباس إِلَّا فِي ضَلَالٍ اي يضل عنهم ذلك الدعاء اذا احتاجوا اليه لان اصواتهم محجوبة عن الله تعالى فلا يجدون منه شيئا ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ان كان المراد بالسجود معناه الحقيقي وهو وضع الجبهة على الارض للتعظيم مع الخضوع والتذلل فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن واما في الكفار فلا يصح تاويل السجود بهذا في حقهم فلا بد ان يحمل السجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يتناول السجود بالفعل وغيره وجاء بمن تغليبا للعقلاء على غيرهم ولكون سجود غيرهم تبعا لسجودهم ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص فان سجود الكفار لاصنامهم معلوم ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الامور التي يقرون على انفسهم بانها من الله كالخلق والحياة والموت وغير ذلك او يفسر السجود بالانقياد لان الكفار وان لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لامره وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحيوة والموت والفقر والغنى ويدل على ارادة هذا المعنى قوله طَوْعًا وَكَرْهًا فان الكفار ينقادون كرها كما ينقاد المؤمنون طوعا وهما منتصبان على المصدرية اي انقياد طوع وانقياد كره او على الحال اي طائعين وراضين وكارهين غير راضين وقال الفراء الآية خاصة بالمؤمنين فانهم يسجدون طوعا وبعض الكفار يسجدون اكراها بالسيف وخوفا كالمنافقين فالآية محمولة على هؤلاء وقيل الآية في المؤمنين فمنهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود ومنهم من يثقل عليه لان التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة ايمانا بالله واخلاصا له والمراد بالسجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فيهما من ملك وانس وجن فانهم يقرون له بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والاول اولى وَظِلَالُهُمْ جمع ظل والمراد به ظل من له ظل منهم كالانسان لا الجن والملك اذ لا ظل لهما والمعنى سجوده حقيقة تبعا لصاحبه حيث صار لازما لا ينفك عنه قال الزجاج جاء في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله وقال ابن الانباري ولا يبعد ان يخلق الله تعالى للظلال عقولا وافهاما تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال افهاما حتى اشتغلت

بتسبيحه فظل المؤمن يسجد لله طوعا وظل الكافر يسجد لله كرها وقيل المراد بالسجود ميلان الظلال من جانب الى جانب اخر وطولها تارة وقصرها اخرى بسبب ارتفاع الشمس و نزولها والاول اولى بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ اي البكر والعشايا وخصهما بالذكر لانه يزداد ظهور الظلال فيهما وهما ظرف للسجود المقدر اي ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين وقيل لانهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والغدوة والغداة اول النهار وقيل الى نصف النهار والآصال جمع اصيل وهو العشية والاصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلوة العصر الى غروب الشمس وقد تقدم تفسير الغدو والاصال في الاعراف ايضا وفي معنى هذه الاية قوله سبحانه اولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون قيل وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقاري والمستمع ان يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اي خالقهما ومتولي امورهما امر الله سبحانه رسوله ان يسأل الكفار من ربهما سوال تقرير لانهم كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه في قوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم وقوله ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يجيب فقال قُلِ اللَّهُ فكانه حكى جوابهم وما يعتقدونه لانهم ربما تلعثموا في الجواب حذرا مما يلزمهم ثم امره بان يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ الاستفهام للانكار اي اذا كان رب السموات والارض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله فما بالكم اتخذتم لانفسكم بعد اقراركم هذا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ عاجزين لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ينفعون به غيرهم ويدفعونه عن انفسهم فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لانفسهم ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلا وامر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم فقال قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى في دينه وهو الكافر وَالْبَصِيرُ فيه وهو الموحد فان الاول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه والثاني عالم بذلك قال ابن عباس يعني المؤمن والكافر أَمْ هَلْ ام هذه هي المنقطعة فتقدر ببل والهمزة عند الجمهور وببل وحدها عند بعضهم وقد يتقوى هذه الاية من يرى تقديرها ببل فقط بوقوع هل بعدها واجيب بان هل هنا بمعنى قد واليه ذهب جماعة وقيل استفهامية للتقريع والتوبيخ وهو الظاهر تَسْتَوِي قرئ بالتاء والياء والوجهان واضحان الظُّلُمَاتُ اي الكفر وَالنُّورُ اي الايمان اي كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الاعمى والبصير

وما بين الظلمات والنور ووحد النور وجمع الظلمات لان طريق الحق واحدة لا تختلف وطرائق الباطل
كثيرة غير منحصرة ام هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة اي بل جعلوا لله شركاء والاستفهام لانكار الوقوع
قال ابن الانباري معناه اجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه اي مثل خلق الله يعني سموات وارضا وشمسا
وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا فتشابه الخلق عليهم اي فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا
كله في حيز النفي كما علمت اي ليس الامر كذلك حتى يشتبه الامر عليهم بل اذا فكروا بعقولهم وجدوا الله
هو المتفرد بالخلق وسائر الشركاء لا يخلقون شيئا والمعنى انهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بانهم خلقوا
كخلقه فتشابه بهذا السبب الخلق عليهم حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم بل انما جعلوا له شركاء الاصنام
ونحوها بمحض سفه وجهل وهي بمعزل ان تكون كذلك لانه لم يصدر عنها فعل ولا خلق ولا اثر
البتة ثم امره الله سبحانه وتعالى بان يوضح لهم الحق ويرشدهم الى الصواب فقال قل الله خالق كل شيء كائنا
ما كان ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه فلا شريك له في العبادة قال الزجاج والمعنى
انه خالق كل شيء مما يصح ان يكون مخلوقا الا ترى انه تعالى شيء وهو غير مخلوق وهو الواحد اي المتفرد
بالربوبية مقول القول او مستانفة القهار لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب ثم ضرب
سبحانه مثلا آخر للحق وذويه وللباطل ومنتحليه فقال انزل من السماء ماء مطرا يعني من جهتها و
التنكير للتكثير او للنوعية فسالت اودية جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين او نحوهما يسيل الماء فيه
بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لان المطر ياتي على تناوب بين البقاع واذا نزل
لا يعم جميع الارض ولا يسيل في كل الاودية بل ينزل في ارض دون ارض ويسيل في واد دون واد
قال ابو علي الفارسي لا نعلم فاعلا جمع على افعلة الا هذا وكانه حمل على فعيل مثل جريب واجربة
كما ان فعيلا حمل على فاعل فجمع على افعال مثل يتيم وايتام وشريف واشراف كاصحاب وانصار في صاحب
وناصر قال وفي قوله اودية توسع اي سال ماؤها قال ومعنى بقدرها بقدر مياهها لان الاودية
ما سالت بقدر انفسها قال الواحدي والقدر مبلغ الشيء والمعنى بقدرها من الماء فان صغر الوادي
قل الماء وان اتسع كثر قال ابن عباس الصغير قدر صغره والكبير قدر كبره ونحوه قال ابن جريج و
قال في الكشاف بقدرها الذي يعرف الله انه نافع للممطور عليهم غير ضار وقيل بمقدار ملئها اي
ما يملؤها كل واحد بحسبه صغرا او كبرا والباء للملابسة قال ابن الانباري شبه نزول القرآن الجامع

للهدى والبيان بنزول المطر اذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر وشبه الاودية بالقلوب اذ الاودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والايمان في قلوب المؤمنين فاحتمل السيل احتمل بمعنى حمل فافتعل بمعنى المجرد وانما نكر الاودية وعرف السيل لان المطر ينزل على المناوبة والسيل قد فهم من الفعل قبله وهو فسالت زبدا رابيا الزبد هو الابيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له الغثاء والرغوة وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها وقيل الزبد وضر الغليان و الوضر بفتحتين وسخ الدسم ونحوه وهو مجاز عما يعلو الماء من الغثاء والرابي العالي المرتفع فوق الماء قال الزجاج هو الطافي فوق الماء وقال غيره هو الزائد بسبب انتفاخه من ربى يربو اذا زاد والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فانه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح فكذلك يذهب الكفر ويضمحل وعن ابي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلاء والعشب الكثير وكان منها اجادب امسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به اخرجه البخاري ومسلم وقد تم هنا المثل الاول ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ من لابتداء الغاية اي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء او للتبعيض بمعنى وبعضه زبد مثله والضمير للناس اضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره هذا على قراءة التحتية واختارها ابو عبيد وقرئ بالفوقية على الخطاب في المعنى ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الاجسام المنطرقة الذائبة وقدت النار وتقدت من باب وعد وقودا والوقود بالفتح الحطب واوقدتها ايقادا ومنه على الاستعارة كلما اوقدوا نارا للحرب والوقد بفتحتين النار نفسها والموقد موضع الوقود ابْتِغَاءَ اي لطلب اتخاذ حِلْيَةٍ يتزينون بها ويتجملون كالذهب والفضة اَوْ لطلب مَتَاعٍ آخر يتمتعون به من الاواني والالات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص زَبَدٌ مِّثْلُهُ المراد بالزبد هنا الخبث فانه يعلو فوق ما اذيب من تلك الاجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في مثله يعود الى زبدا رابيا وزبد مبتدأ وخبره مما توقدون ووجه المماثلة ان كلا منهما ناشئ من الاكدار كذلك

الضرب البديع يضرب ای يبين الله المثل الحق ای الايمان والمثل الباطل ای الكفر فالحق هو الماء والجوهر الصافی الثابت والباطل هو الزبد الطافی الذی لا ينتفع به ثم شرع فی تتميم المثل فقال فاما الزبد بقسميه فيذهب جفاء باطلا مرميا به يقال جفا الوادی غثاء جفأ اذا رمی به ای يرميه الماء الی الساحل ويرميه الكير فلا ينتفع به والجفاء بمنزلة الغثاء وكذا قال ابو عمرو بن العلاء وحكی ابو عبيدة انه سمع روبة يقرأ جفالا قال ابو عبيدة اجفلت القدر اذا قذفت بزبدها واجفأت الريح السحاب اذا قطعته قال ابو حاتم لا يقرأ بقراءة روبة لانه كان يأكل الفار والمعنی يذهب باطلا ضائعا ای ان الباطل وان علا فی وقت فانه يضمحل ويذهب وقيل الجفاء المتفرق قاله ابن الانباری يقال جفأت الريح السحاب ای قطعته وفرقته ووجه المماثلة بين الزبدين فی الزبد الذی يحمله السيل والزبد الذی يعلو الاجسام المتطرقة ان تراب الارض لما خالط الماء وحمله معه صار زبدا رابيا فوقه وكذلك ما يوقد عليه فی النار حتی يذوب من الاجسام المتطرقة فان اصله من المعادن التی تنبت فی الارض فيخالطها التراب فاذا اذيبت صار ذلك التراب الذی خالطها خبثا مرتفعا فوقها واما ما ينفع الناس منها وهو الماء الصافی والجوهر الجيد من هذه الاجسام المذابة والذائب الخالص من الخبث فيمكث فی الارض ای يثبت فيها ويبقی ولا يذهب اما الماء فانه يسلك فی عروق الارض فينتفع الناس به واما ما اذيب من تلك الاجسام فانه يصاغ حلية وامتعة وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول ان الباطل وان ظهر علی الحق فی بعض الاحوال وعلاه فان الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق واهله كالزبد الذی يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الاجسام فانه وان علی عليها فان الكير يقذفه ويدفعه فهذا مثل الباطل واما الماء الذی ينفع الناس وينبت المراعی فيمكث فی الارض وكذلك الصفو من هذه الاجسام فانه يبقی خالصا لا شوب فيه وهو مثل الحق قال الزجاج فمثل المومن واعتقاده ونفع الايمان كمثل هذا الماء المنتفع به فی نبات الارض وحياة كل شیء وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لانها كلها تبقی منتفعا بها ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذی يذهب جفاء وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذی لا ينتفع به وقد حكينا عن ابن الانباری فيما تقدم انه شبه نزول القران الی آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلا ضربه الله للقران كذلك الضرب العجيب يضرب

الله الامثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم في الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشان هذا
التمثيل وتاكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الاول
او بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده فقال
فيمن ضرب له مثل الحق لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ خبر مقدم اي اجابوا دعوته اذ دعاهم الى توحيده
وتصديق انبيائه والعمل بشرائعه الْحُسْنَىٰ مبتدأ مؤخر اي المثوبة الحسنى وهي الجنة وبه قال جمهور
المفسرين وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع والاول
اولى وهو قول ابن عباس وقال الزمخشري للذين متعلق بيضرب والحسنى نعت لمصدر محذوف
اي الاستجابة الحسنى والاول احسن واولى ثم قال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُ اي لدعوته الى ما دعاهم اليه وهم الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه والموصول
مبتدأ خبره بتلاثة اخبار الاول الجملة الشرطية وهي لَوْ أَنَّ لَهُمْ اي يتمنون ان لهم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
من اصناف الاموال التي يملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء وَمِثْلَهُ مَعَهُ
اي مثل ما في الارض جميعا كائنا معه ومنضما اليه لَافْتَدَوْا بِهِ اي بمجموع ما ذكر وهو ما في الارض
ومثله والمعنى ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ثم بين سبحانه ما اعد لهم فقال
أُولَٰئِكَ يعني الذين لم يستجيبوا وهو خبر ثان للموصول لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ من اضافة الصفة للموصوف
اي الحساب السيء وهو ان يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء قال الزجاج لان كفرهم احبط
اعمالهم وقال غيره هو المناقشة فيه وفي الحديث من نوقش الحساب عذب وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ اي
مرجعهم اليها وَبِئْسَ الْمِهَادُ اي المستقر الذي يستقرون فيه او الفراش الذي يفرش لهم في جهنم
والمخصوص بالذم محذوف وهو خبر ثالث للموصول المتقدم أَفَمَن يَعْلَمُ الهمزة للانكار على من يتوهم
المماثلة بين من يعلم وبين من هو اعمى لا يعلم ذلك ولا يؤمن به أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ
اي ما انزله الله سبحانه الى رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو القران كَمَنْ هُوَ
أَعْمَىٰ فان الحال بينهما متباعد جدا كالتباعد الذي بين الماء والزبد وبين الخبث والخالص من تلك
الاجسام قيل نزلت في حمزة وابي جهل ومع هذا فالاولى حمل الاية على العموم وان كان السبب خاصا
والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه وعن قتادة قال هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب

الله وعقلوه ووعوه وهؤلاء كمن هو اعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ
اي انما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين او يتعظ اهل العقول الصحيحة ثم وصفهم
بالاوصاف المادحة فقال الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ اي بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين
ربهم او فيما بينهم وبين العباد وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ الذي وثقوه على انفسهم واكدوه بالايمان
ونحوها وهذا تعميم بعد التخصيص لانه يدخل تحت الميثاق كل ما اوجبه العبد على نفسه كالنذور
ونحوها ويجوز ان يكون الامر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على ان يراد بالعهد جميع عهود
الله وهي اوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده على السنة الرسل في الكتب الالهية ويدخل في
ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه ويراد بالميثاق ما اخذه الله على عباده حين اخرجهم من
صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه واذ اخذ ربك من بني آدم الآية بان يؤمنوا اذا وجدوا
في الخارج ولا يكفروا قال قتادة ان الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن
وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ظاهره شمول كل ما امر الله بصلته ونهى عن قطعه من
حقوق الله وحقوق عباده ومنه الايمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرق بين احد منهم ويدخل تحت
ذلك صلة الارحام دخولا اوليا ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصل قرابة المؤمنين
الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم
والشفقة عليهم وافشاء السلام وعيادة المرضى ومنه مراعاة حق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء
في السفر الى غير ذلك وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم واللفظ اوسع من ذلك اخرج الخطيب
وابن عساكر عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم
القيامة ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين يصلون الى سوء الحساب وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها
احاديث كثيرة وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل والخشية خوف يشوبه
تعظيم واجلال واكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وهو الاستقصاء
فيه والمناقشة للعبد فمن نوقش الحساب عذب ومن حق هذه الخيفة ان يحاسبوا انفسهم قبل
ان يحاسبوا وَالَّذِينَ صَبَرُوا قيل مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ الماضي
للتنبيه على انه ينبغي تحققه والمراد بالصبر الصبر على الاتيان بما امر الله به واجتناب ما نهى عنه وقيل على

الرزايا والمصائب وقيل عن الشهوات والمعاصي والاولى حمله على العموم كان يصبه ليقال ما أكمل صبره
واشد قوته على تحمل النوازل او لاجل ان لا يعاب على الجزع او لاجل ان لا تشمت به الاعداء ابتغاء وجه
ربهم اي ثوابه ورضاه مبتغاه ان يكون خالصا له لا شائبة فيه لغيره والصبر حبس النفس على ما
يقتضيه العقل والشرع واقاموا الصلوة اي صلوها في اوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في اذكارها
واركانها مع الخشوع والاخلاص والمراد بها الصلوات المفروضة وقيل اعم من ذلك وانفقوا في
الطاعة مما رزقناهم اي بعضه سرا وعلانية المراد بالسر صدقة النفل والعلانية صدقة الفرض
وقيل السر لمن لم يعرف بالمال او لا يتهم بترك الزكوة والعلانية لمن كان يعرف بالمال او يتهم بترك
الزكوة والحمل على العموم اولى ويدرؤن بالحسنة السيئة اي يدفعون سيئة من اساء اليهم بالاحسان
اليه كما في قوله تعالى ادفع بالتي هي احسن او يدفعون بالعمل الصالح السيء فيمحوه او يدفعون الشر
بالخير او المنكر بالمعروف او الظلم بالعفو او الذنب بالتوبة او الحرمان بالاعطاء او القطع بالوصل او
الصرب بالانابة ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور اولئك الموصوفون بالصفات المتقدمة
لهم عقبى الدار العقبى مصدر كالعاقبة والاضافة على معنى في اي العقبى المحمودة فيها قال الخطيب العقبى
الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير او شر والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة وقيل المراد
دار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين والنار للعصاة جنات عدن يدخلونها اي لهم جنات عدن
والعدن اصله الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنان واسم المكان معدن مثال مجلس لان اهله يقيمون
عليه الصيف والشتاء او لان الجوهر الذي خلقه الله فيه عدن به قال القشيري وجنات عدن وسط
الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ولكن في صحيح البخاري وغيره اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس
فانه اوسط الجنة واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة وعن ابن مسعود قال جنات
عدن بطنان الجنة اي وسطها وعن الحسن ان عمر قال لكعب ما عدن قال هو قصر في الجنة لا يدخله
الا نبي او صديق او شهيد او حكم عدل واخرج ابن مردويه عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان ومن صلح اي امن في الدنيا قاله مجاهد من
آبائهم هو لفظ يصلح ويشمل الآباء والامهات من ابيات الجنس وازواجهم اللاتي متن في عصمتهم وذرياتهم اي
واخلافهم كلا الفرق الثلاث وان لم تعمل باعمالهم تكرمة لهم قال ابن عباس في وجهه الواحد كمال الرأي

وليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات وللك ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات للتهنية وقيل بل هو في أول دخولهم قاله السيوطي قال في الجمل والتقييد هذا لم نره لغيره من المفسرين بل في كلام غيره ما يدل على عدمه مِّن كُلِّ بَابٍ أي من جميع أبواب القصور والمنازل التي يسكنونها أو من كل باب من أبواب الجنة أو من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه سَلَامٌ عَلَيْكُم أي قائلين سلام عليكم فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه أي سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة وقيل دعاء لهم من الملائكة أي سلمكم الله تعالى بِمَا صَبَرْتُمْ أي بسبب صبركم في الدنيا على الآفات وهو متعلق بالسلامة أي إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة بسبب صبركم وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ أي نعم ما أعقبكم الله من الدنيا الجنة أخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فيقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم قال الله إن هؤلاء عبادي كانوا يعبدوني ولا يشركون بي شيئا وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وفي القرطبي عن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الصبر فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فتقول إلى أين فيقولون إلى الجنة قالوا قبل الحساب قالوا نعم فيقولون من أنتم فيقولون نحن أهل الصبر قالوا وما كان صبركم قالوا صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا قال علي بن الحسين فتقول لهم الملائكة سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار أي نعم عاقبة الدار

التي كنتم فيها وعملتم فيها ما اعقبكم هذا الذي انتم فيه فالعقبى على هذا اسم والدار هي الدنيا وقال
ابو عمران الجوني اي الجنة عن النار وعنه الجنة عن الدنيا وبالجملة فقد جاء سبحانه بهذه
الجملة المتضمنة لمدح ما اعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق ثم اتبع احوال
السعداء باحوال الاشقياء فقال وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهٖ اي من بعد ما
اوثقوه به من الاعتراف والقبول بقولهم بلى وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّٰهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ من الايمان
والرحم وغير ذلك وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع
ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الاوصاف المتقدمة لدخولها في النقض والقطع
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالكفر وارتكاب المعاصي والاضرار بالانفس والاموال أُولٰئِكَ الموصوفون
بهذه الصفات الذميمة لَهُمْ بسبب ذلك اللَّعْنَةُ اي الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه وَلَهُمْ
سُوءُ الدَّارِ اي سوء عاقبة دار الدنيا وهي النار او عذاب النار اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ اي يوسعه
لِمَنْ يَشَاءُ اي لمن كان كافرا استدراجا وَيَقْدِرُ اي ويقتره على من كان مؤمنا ابتلاء وامتحانا
وتكفير الذنوب ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على الاهانة ومعنى يقدر يضيق ومنه ومن
قدر عليه رزقه اي ضيق وقيل معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية وقرأ السبعة يقدر بكسر الدال وهو افصح
واستعمل بالضم ايضا على ما في المصباح ومعنى الآية انه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره وَفَرِحُوا
اي مشركوا مكة بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فرح بطر لا فرح سرور والفرح لذة تحصل في القلب عند حصول المشتهى وجهلوا
ما عند الله والجملة مستأنفة لبيان قبح افعالهم مع ما وسعه عليهم وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا
والركون اليها حرام قيل وفي هذه الآية تقديم وتاخير والتقدير ويفسدون في الارض وفرحوا بالحيوة
الدنيا والاول اولى لانه ماض وما قبله مستقبل وقيل العطف على ينقضون ولا يصح لانه يستلزم تخلل
الفاصل بين ابعاض الصلة وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ اي بالنسبة اليها وفي جنبها ففي هنا
للمقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق وليست ظرفا للحيوة ولا للدنيا لانهما لا يكونان
في الآخرة إِلَّا مَتَاعٌ اي ما هي الا شيء يستمتع به وقيل المتاع واحد الامتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما
وقيل المعنى شيء قليل ذاهب من متع النهار اذا ارتفع فلا بد من زوال وقيل زاد كزاد الراكب يتزود به
منها الى الآخرة وقال عبد الرحمن بن سابط كزاد الراعي يزوده اهله الكف من التمر او الشيء من الدقيق

او الشيء يشرب عليه اللبن وعن ابن عباس قال كان الرجل يخرج في الزمان الاول في ابله
او غنمه فيقول لاهله متعوني فيمتعونه فلقة الخبز او التمر فهذا مثل ضربه الله للدنيا واخرج الترمذي
وصححه عن ابن مسعود قال نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد اثر في جنبه فقلنا يا رسول
الله لو اتخذنا لك فقال مالي وللدنيا ما انا في الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها واخرج
مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن المستورد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في
الآخرة الا كمثل ما يجعل احدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع واشار بالسبابة ﴿ويقول الذين
كفروا﴾ اي المشركون من اهل مكة ﴿لولا﴾ هلا ﴿انزل عليه﴾ اي على محمد ﴿آية﴾ اي معجزة مثل معجزة موسى وعيسى عليهما
السلام ﴿من ربه﴾ كالعصا واليد والناقة وقد تقدم تفسير هذا قريبا وذكر في مواضع ﴿قل ان
الله يضل من يشاء﴾ امره الله سبحانه ان يجيب عليهم بهذا وهو ان الضلال بمشية الله سبحانه من
شاء ان يضله ضل كما ضل هؤلاء القائلون لولا انزل عليه آية من ربه ولا ينفعه نزول الآيات
وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وان انزلت كل آية فان ذلك في اقصى مراتب المكابرة والعناد وشدة الشكيمة
والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ﴿ويهدي اليه﴾ اي الى الحق او الى الاسلام او الى جنابه عز وجل
﴿من اناب﴾ اي رجع الى الله بالتوبة والاقلاع عما كان عليه واصل الانابة الدخول في نوبة الخير كذا قال
النيسابوري والمعنى انهم هم الذين هداهم الله وانابوا اليه او هم ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر
الله﴾ اي تسكن عن القلق والاضطراب وتستانس بذكره سبحانه بالسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح
والتحميد والتكبير والتوحيد او بسماع ذلك من غيرهم عبر بالمضارع لان الطمانينة تتجدد بعد الايمان
حينا بعد حين قاله الشهاب قال الكرخي المضارع قد يلاحظ فيه زمان معين من حال او استقبال
فيدل اذ ذاك على الاستمرار ومنه الآية انتهى قال في الجمل وهذا يتضح في مواضع كثيرة وقد سمى الله سبحانه
القرآن ذكرا قال وهذا ذكر مبارك انزلناه وقال انا نحن نزلنا الذكر قال الزجاج اي اذا ذكر الله وحده
آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون
بالآخرة وقيل الذكر هنا الطاعة وقيل بوعد الله وقيل بالحلف بالله فاذا حلف خصمه بالله سكن قلبه
قاله السدي وقيل بذكر رحمته وقيل بذكر دلائله الدالة على توحيده وقال قتادة هشت اليه واستأنست
به وقال مجاهد محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه ولا مانع من حمل الآية على جميعها ﴿الا بذكر الله﴾ وحده دون غيره

من الامور التي تميل اليها النفوس من الدنيويات تطمئن القلوب والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وان كان يفيد طمانينة في الجملة لكن ليست كهذه الطمانينة وكذلك النظر في المعجزات من الامور التي لا يطيقها البشر فليس افادتها الطمانينة كافادة ذكر الله فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر واما قوله تعالى في الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمينان والمعنى انهم اذا ذكروا العقوبات وجلوا واذا ذكروا المثوبات سكنوا اخرج ابو الشيخ عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه حين نزلت هذه الآية هل تدرون ما معنى ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال من احب الله ورسوله واحب اصحابي واخرج ابن مردويه عن علي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال ذاك من احب الله ورسوله واحب اهل بيته صادقا غير كاذب واحب المؤمنين شاهدا وغائبا الا بذكر الله يتحابون الذين آمنوا وعملوا الصالحات مبتدأ خبره جملة طوبى لهم وجاز الابتداء بطوبى اما لانها علم لشيء بعينه واما لانها نكرة في معنى الدعاء كسلام عليك وويل له قال ابو عبيدة والزجاج واهل اللغة طوبى فعلى من الطيب فهو بائي واصله طيبى قال ابن الانباري وتاويلها الحال المستطابة وقيل طوبى شجرة في الجنة وقيل هي الجنة وقيل هي البستان بلغة الهند وقيل هي اسم الجنة بالحبشية وقيل معناه حسنى لهم وقيل خير لهم وقيل كرامة لهم وقيل غبطة لهم قال النحاس وهذه الاقوال متقاربة واللام في لهم للبيان مثل سقيالك ورعيالك قال الازهري تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول اكثر النحويين وقيل هو مصدر من طاب كبشرى ورجعى وزلفى فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى ومعناه اصبت خيرا وطيبا وقيل هي شجرة في جنة عدن تظل الجنان كلها وقال ابن عباس طوبى لهم فرح لهم وقرة اعين وقال عكرمة نعم لهم وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الاقوال والارجح تفسير الآية بما روي مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم كما اخرجه احمد وابن جرير وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن عتبة بن عبد قال جاء اعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله في الجنة فاكهة قال نعم فيها شجرة تدعى طوبى الحديث واخرج احمد وابو يعلى وابن جرير وابن ابي حاتم وابن حبان والخطيب في تاريخه عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن آمن بي ورآني ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني فقال رجل وما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها وفي الباب احاديث

وآثار عن السلف وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وفي بعض الالفاظ انها شجرة
الخلد وفي بعضها شجرة غرسها الله بيده وحسن مآب من آب اذا رجع اي ولهم حسن مرجع وهو الدار
الآخرة وهي الجنة قال السدي حسن منقلب وعن الضحاك مثله كذلك اي مثل ذلك الارسال
العظيم الشان المشتمل على المعجزة الباهرة ارسلناك يا محمد ارسالا له شان وقيل شبه الانعام على
من ارسل اليه محمد صلى الله عليه وسلم بالانعام على من ارسل اليه الانبياء قبله وقيل كما هدى ابه من اناب كذلك
ارسلناك وقال ابن عطية الذي يظهرلي ان المعنى كما اجرينا العادة بان الله يضل ويهدي لا
بالآيات المقترحة فكذلك ايضا فعلنا في هذه الامة ارسلناك اليها بوحي لا بالآيات المقترحة و
قال ابو البقاء كذلك الامر كذلك وقال الحوفي اي كفعلنا الهداية والاضلال والاشارة بذلك الى ما
وصف به نفسه من ان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وكل ذلك فيه تكلف وبعد والاول الظاهر او لى
في امة اي قرن وجماعة كثيرة قد خلت مضت من قبلها اي قبل الامة امم قرون او في جماعة من
الناس قد مضت من قبلها جماعات لتتلو لتقرأ عليهم الذي اوحينا اليك اي القرآن والحال
انهم يكفرون او استيناف وهم عائد على امة من حيث المعنى ولو عاد على لفظها القيل وهي تكفر و
قيل على امة وعلى امم وقيل على الذين قالوا لولا انزل بالرحمن اي بالكثير الرحمة لعباده ومن رحمته لهم
ارسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم كما قال سبحانه وما ارسلناك الا رحمة للعالمين عن قتادة قال ذكر لنا ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب في الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم فقالت قريش اما
الرحمن فلا نعرفه وكان اهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم فقال اصحابه دعنا نقاتلهم فقال لا ولكن
اكتبوا كما يريدون وعن ابن جريج في هذه الآية نحوه وقيل حيث قالوا لما امروا بالسجود له وما الرحمن كما ذكر
في سورة الفرقان بقوله لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهذه الآية متقدمة على ما هنا في النزول وان واذا قيل
تأخرت عنها في المصحف والتلاوة وقال ابن العربي انما عبروا بذلك اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف
ثم عجبوا من امره بذلك منكرين عليهم بقولهم انسجد لما تأمرنا وقيل غير ذلك قل هو ربي مستانفة بتقدير
سؤال كانهم قالوا وما الرحمن فقال سبحانه قل يا محمد هو ربي اي خالقي الذي انكرتم معرفته لا اله الا هو اي
لا يستحق العبادة له والايمان به سواه عليه توكلت في جميع اموري واليه لا الى غيره متاب اي توبتي قاله

مجاهد وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع الى الله والتوبة من الكفر والدخول في الاسلام ولو ان قرآنا سيرت به اي بانزاله وقراءته الجبال عن محل استقرارها وانتقلت عن اماكنها واذهبت عن وجه الارض قيل هذا متصل بقوله لولا انزل عليه اية من ربه وان جماعة من الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يسير لهم جبال مكة حتى تتفسح فانها ارض ضيقة فامره الله سبحانه بان يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شان القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به واصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الالهية من عدم انزال الايات التي يؤمن عندها جميع العباد او قطعت به الارض اي صدعت وشققت حتى صارت قطعا متفرقة من خشية الله عند قراءته وجعلت انهارا وعيونا او كلم به الموتى اي صاروا احياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الاحياء وقد اختلف في جواب لو فقيل لكان هذا القرآن وقيل لكفروا بالرحمن اي لو فعل لهم هذا وقيل لما آمنوا كما سبق في قوله وما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله وقيل التقدير وهم يكفرون بالرحمن لو ان قرآنا الخ وكثيرا ما تحذف العرب جواب لو اذا دل عليه سياق الكلام وتذكير كلم خاصة دون الفعلين قبله لان الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي والتغليب له فكان حذف التاء احسن والجبال والارض ليستا كذلك قاله الكرخي قال ابن عباس قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان كان كما تقول فارنا اشياخنا الاول من الموتى نكلمهم وافسح لنا هذه الجبال فنزلت هذه الاية وعن عطية العوفي قال قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها او قطعت لنا الارض كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح او احييت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه فانزل الله هذه الاية بل لله الامر جميعا اي لو ان قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشان الآن فلو شاء ان يؤمنوا لآمنوا واذا لم يشأ ان يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الايات فالاضراب متوجه الى ما يؤدي اليه كون الامر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الامر على ما تقتضيه حكمته ومشيته ويدل على ان هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله افلم ييأس الذين آمنوا قال الكلبي بمعنى الم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح وقيل هي لغة هوازن وبهذا قال جماعة من السلف قال ابو عبيدة افلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج وهو مجاز لان اليائس من الشيء عالم بانه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما اياهما وقرأ جماعة من الصحابة والتابعين افلم يتبين بطريق التفسير ومعنى الاية على هذا افلم يعلموا ان اي انه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا

من غيران يشاهدوا الآيات و لكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشية باهتدائهم وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره والمعنى انه تعالى لم يهد جميع الناس لعدم مشيته لذلك وقيل ان الإياس على معناه الحقيقي اي افلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء الكفار لعلمهم ان الله تعالى لو اراد هدايتهم لهداهم لان المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعا في ايمانهم قال ابن عباس لا يصنع من ذلك الا ما يشاء ولم يكن ليفعل وقال ييأس يعلم وعن ابن زيد نحوه وعن ابي العالية قد يئس الذين آمنوا ان يهدوا ولو شاء لهدى الناس جميعا وفيه دلالة على ان الله لم يشأ هداية جميع الخلائق

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ هذا وعيد للكفار على العموم ولكفار مكة على الخصوص اي لا يزال تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل والاعمال الخبيثة داهية تفجأهم وتهلكهم وتستاصلهم يقال قرعه الامر اذا اصابه والجمع قوارع والاصل في القرع الضرب والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية والمعنى ان الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم نازلة وداهية مهلكة من قتل واسر او جدب او حرب او نحو ذلك من العذاب وقد قيل ان القارعة النكبة وقيل الطلائع والسرايا قاله ابن عباس ولا يخفى ان القارعة تطلق على ما هو اعم من ذلك أَوْ تَحُلُّ القارعة قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم وقيل ان الضمير في تحل للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى او تحل انت يا محمد مكانا قريبا من دارهم محاصرا لهم آخذا بمخالفتهم كما وقع منه صلى الله عليه وسلم لاهل الطائف والاول بين واظهر حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ وهو موتهم او قيام الساعة عليهم فانه اذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة وقيل المراد بوعد الله هنا الاذن منه بقتال الكفار والنصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقال ابن عباس فتح مكة وكان في الثامنة وحج في العاشرة ولم يحج غيرها والاول اولى إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ التنكير للتكثير اي برسل كثيرة مِّن قَبْلِكَ كما استهزئ بك وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الاملاء الامهال مدة طويلة من الزمان في دعة وامن وقد مر تحقيقه في آل عمران ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ في الدنيا بالعذاب الذي انزلته بهم من القحط والقتل والاسر وفي الآخرة بالنار فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ الاستفهام للتقريع والتهديد اي فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤا بالرسل فامليت لهم ثم اخذتهم

هل كان ظلما لهم او كان عدلا اي هو واقع موقعه فكذلك فعل بمن استهزءَ بك ثم استفهم سبحانه استفهاما اٰخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والازراء عليهم فقال
اَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلٰى كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ القائم الحفيظ والمتولي للامور واراد سبحانه نفسه فانه المتولي لامور خلقه المدبر لاحوالهم بالاٰجال والارزاق واحصاء الاعمال على كل نفس من الانفس كائنة ما كانت والجواب محذوف اي افمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر
قال الفراء كانه في المعنى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله والمراد من الاٰية انكار المماثلة بينهما وقيل المراد بالقائم الملائكة الموكلون ببني اٰدم والاول اولى
وبه قال ابن عباس وقال عطاء الله قائم بالقسط والعدل على كل نفس وَجَعَلُوْا لِلّٰهِ شُرَكَآءَ استيناف وهو الظاهر جيئ به للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم وقيل الواو للحال واقيم الظاهر مقام المضمر
تقرير اللالهية وتصريحا بها وقيل عطف على استهزئ اي ولقد استهزؤا وجعلوا وقال ابو البقاء معطوف على كسبت اي وجعلهم لله شركاء والاول اولى قُلْ سَمُّوْهُمْ اي عينوا حقيقتهم من اي
جنس ومن اي نوع هي وما اسماؤهم وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ لانه انما يقال هكذا في الشيئ المستحقر الذي لا يستحق ان يلتفت اليه فيقال سمه ان شئت يعني انه احقر من ان يسمى وقيل ان المعنى صفوهم
وبينوا اوصافهم بما يستحقون ويستاهلون به ثم انظروا هل هي اهل لان تعبد وقيل المعنى سموهم بالاٰلهة كما تزعمون فيكون ذلك تهديدا لهم اَمْ تُنَبِّئُوْنَهٗ اي بل اتنبئون الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْاَرْضِ
من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والارض وانما خص الارض بنفي الشريك عنها وان لم يكن له شريك في غير الارض ايضا لانهم ادعوا له شركاء فيها اَمْ اي بل تسمونهم شركاء
بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ من غير ان يكون له حقيقة كتسمية الزنجي كافورا وقيل المعنى قل لهم اتنبئون الله بباطن لا يعلمه ام بظاهر يعلمه فان قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤا بدعوى باطلة وان قالوا
بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم فاذا سموا اللات والعزى ونحوهما فقل لهم ان الله لا يعلم لنفسه شريكا وقيل المعنى ام بزائل من القول باطل قاله مجاهد وقيل بكذب من القول وقيل بظن باطل لا حقيقة له في الباطن
وقيل المعنى بحجة من القول ظاهرة على زعمهم قال الطيبي في هذه الاٰية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان اولها افمن هو قائم احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما

ثانيها وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على انهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه احد في اسمه ثالثها قل سموهم اي عينوا اسماءهم فقولوا فلان وفلان فهو انكار لوجودها على وجه برهاني كما تقول ان كان الذي تدعيه موجودا فسمه لان المراد بالاسم العلم رابعها ام تنبئونه بما لا يعلم احتجاج من باب نفي الشيء اعني العلم بنفي لازمه وهو المعلوم وهو كناية خامسها ام بظاهر من القول احتجاج من باب الاستدراج والهمزة للتقرير لبعثهم على التفكر المعنى اتقولون بافواهكم من غير روية وانتم الباء تمغكروا فيه لتقفوا على بطلانه سادسها التدريج في كل من الاضرابات على لطف وجه وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الاساليب البديعة مع اختصارها كان الاحتجاج المذكور منا ديا على نفسه بالاعجاز وانه ليس من كلام البشر انتهى بل اضراب عن محاجتهم بالكلية فكانه قيل دع ذا فانه لا فائدة فيه لانه زين للذين كفروا قرأ ابن عباس زين على البناء للفاعل على ان الذي زين لهم ذلك هو مكرهم وقرأ غيره على البناء للمفعول والمزين هو الله سبحانه او الشيطان بالقاء الوسوسة ويجوز ان يسمى المكر كفرا لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كان كفرا واما معناه الحقيقي فهو الكيد او التمويه بالاباطيل اي كيدهم للاسلام بشركهم وصدوا عن السبيل اي صدهم الله او صدهم الشيطان او صدوا غيرهم عن الايمان قراءتان سبعيتان وقد يستعمل صد لازما بمعنى اعرض ومن يضلل الله اي يجعله ضالا ويقتضي مشيئته اضلاله فما له من هاد يهديه الى الخير وقرأ الجمهور هاد من دون اثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة وقرئ باثباتها على اللغة القليلة وهما سبعيتان ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال لهم عذاب في الحيوة الدنيا بما يصابون به من القتل والاسر وانواع المحن ولعذاب الآخرة اشق عليهم من عذاب الحيوة الدنيا واشد واغلظ لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع وما لهم من الله من واق يقيهم عذابه ولا عاصم يعصمهم منه ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الاولى والاخرى ذكر ما اعده للمؤمنين فقال مثل الجنة اي صفتها العجيبة الشان التي هي في الغرابة كالمثل قال ابن قتيبة المثل الشبه في اصل اللغة ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته يقال مثلت لك كذا وكذا اي صورته ووصفته فاراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها وجريان الانهار من تحتها كالتفسير للمثل قال سيبويه وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقال الفراء المثل مقحم للتاكيد والمعنى الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار والعرب تفعل ذلك كثيرا وقال الخليل

وغيرہ ان مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري وقال الزجاج انه تمثيل للغائب بالشاهد ومعناه مثل الجنة
جنة تجري من تحتها الانهار وقال عكرمة نعت الجنة ليس للجنة مثل وقيل ان فائدة الخبر ترجع الى قوله
أُكُلُهَا اي مايؤكل فيها دَآئِمٌ اي لاينقطع ابدا ولايفنى ومثله قوله تعالى لامقطوعة ولاممنوعة قال ابراهيم
التيمي لذاتها دائمة في افواههم وقيل دائم بحسب نوعه فكل شئ اكل يجيئ غيره لابحسب شخصه
اذ عين الماكول لاترجع وَظِلُّهَا كذلك دائم لاينقلص ولاينسخه الشمس لانه ليس في الجنة شمس ولاقمر
ولاظلمة بل ظل ممدود لاينقطع ولايزول وفي الآية رد على جهم واصحابه فانهم يقولون ان نعيم
الجنة يفنى وينقطع وفيها دليل على ان حركات اهل الجنة لاتنتهي الى سكون دائم كمايقوله ابو الهذيل
واستدل عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد ويرده قوله تعالى اعدت للمتقين
الى غير ذلك من الآيات، والاخبار الصحيحة تِلْكَ الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة وهو مبتدأ
خبره عُقْبَى اي عاقبة الَّذِيْنَ اتَّقَوْا المعاصي اي مآلهم ومنتهى امرهم وَّعُقْبَى الْكَافِرِيْنَ النَّارُ ليس لهم
عاقبة ولامنتهى الاذلك وَالَّذِيْنَ اٰتَيْنٰهُمُ الْكِتٰبَ اي التورٰىة والانجيل يَفْرَحُوْنَ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْكَ
يامحمد وهم من اسلم من اهل الكتابين لكون ذلك موافقا لما في كتبهم مصدقا له وعلى هذا يكون المراد بقوله
وَمِنَ الْاَحْزَابِ مَنْ يُّنْكِرُ بَعْضَهٗ من لم يسلم من اليهود والنصارى وعلى الثاني يكون المراد به
المشركين من اهل مكة ومن يماثلهم او يكون المراد به بعض اهل الكتابين اي من احزابهما فانهم
انكروه لما اشتمل عليه من كونه ناسخا لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم الى ماهو موافق
لما في الكتابين وانكار من انكر منهم الى ماخالفهما وقيل المراد بالكتاب القرآن و المراد بمن يفرح
به المسلمون والمراد بالاحزاب المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين واليهود والنصارى
والمراد بالبعض الذي انكروه من خالف مايعتقدونه على اختلاف اعتقادهم واعترض على هذا
بان فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره واجيب عنه بان المراد زيادة الفرح
والاستبشار بمايتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت وقال كثير من المفسرين ان
عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من اهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة
ذكره في التورٰىة فانزل الله قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ففرحوا بذلك قال قتادة الذين يفرحون
اولئك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فرحوا بكتاب الله وصدقوا به وبرسله والاحزاب اليهود والنصارى

والمجوس وقال ابن زيد هؤلاء من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل الكتاب يفرحون بذلك ومنهم
من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والانكار للبعض
صرح بما عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وامره ان يقول لهم ذلك فقال قل انما امرت ان اعبد الله و
ولا اشرك به بوجه من الوجوه اي قل لهم يا محمد ذلك الزاما للحجة وردا للانكار انما امرت فيما انزل الي بعبادة
الله وتوحيده وهذا امر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم انكاره جميع الملل المقتدية بالرسل
اليه ادعو اي الى الله لا الى غيره ادعو او الى ما امرت به وهو عبادة الله وحده والاول اولى لقوله واليه مآب
فان الضمير لله سبحانه اي اليه وحده لا الى غيره مرجعي يوم القيامة للجزاء قال قتادة اليه مصير كل
عبد ثم ذكر بعض فضائل القرآن واوعد على الاعراض عن اتباعه مع التعريض لرد ما انكروه من
اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال وكذلك الانزال البديع انزلناه اي القرآن مشتملا على اصول
الشرائع وفروعها وقيل المعنى وكما انزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ولسانهم كذلك انزلنا عليك
القرآن بلسان العرب حكما عربيا يريد بالحكم ما فيه من الاحكام والنقض والابرام او انزلناه حكمة
عربية مترجمة بلسان العرب ولغتها ليسهل عليهم فهمها وحفظها وتحكم بها بين الناس فيما يقع لهم
من الحوادث الفرعية وان خالفت ما في الكتب القديمة اذ لا يجب عليك توافق الشرائع ولئن اللام
هي الموطئة للقسم اتبعت اهواءهم التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه
الى قبلتهم وعدم مخالفة شيء مما يعتقدونه بعدما جاءك من العلم الذي علمك الله اياه ما لك
ساد مسد جواب القسم والشرط من الله اي من جنابه من ولي يلي امرك وينصرك ولا واق
يقيك من عذابه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض لامته لان من هو ارفع منزلة واعظم قدرا
واعلى رتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى ولقد ارسلنا رسلا من قبلك و
جعلنا لهم ازواجا وذرية اي ان الرسل الذين ارسلناهم من جنس البشر لهم ازواج من النساء
ولهم ذرية توالدوا منهم ومن ازواجهم ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون
لهم ذرية وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجه بالنساء اي ان هذا شأن رسل الله
المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه فانه قد كان لسليمان ثلاثمائة امرأة و
سبعمائة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لابيه داود مائة امرأة وكانوا ينكحون ويأكلون

فكيف يجعل هذا داخلاً في تبوتك وعن الحسن عن سمرة قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتل اخرجه ابن ماجة والطبراني وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه وعن سعد بن هشام قال دخلت على عائشة وقلت اني اريد ان اتبتل قالت لا تفعل اما سمعت الله يقول ولقد ارسلنا رسلا الاية اخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ماهو معروف وقد كان لرسول الله صلعم سبعة اولاد اربع اناث وثلاثة ذكور وكانوا في الترتيب في الولادة هكذا القاسم فزينب فرقية ففاطمة فام كلثوم فعبد الله ويلقب بالطيب والطاهر فابراهيم وكلهم من خديجة الا ابراهيم فمن مارية القبطية وماتوا جميعا في حياته الا فاطمة فعاشت بعده ستة اشهر وما كان اي لم يكن لرسول من الرسل ان ياتي باية من الايات الا باذن الله سبحانه فان شاء اظهرها وان شاء لم يظهرها وليس ذلك الى الرسول لان الرسل مربوبون ومقهورون ومغلوبون محكوم عليهم متصرف فيهم بتدبير امرهم لكل اجل كتاب اي لكل امر مما قضاه الله ولكل وقت من الاوقات التي قضى الله بوقوع امر فيها كتاب لله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم وقال الفراء فيه تقديم وتاخير والمعنى لكل كتاب اجل اي لكل امر كتبه الله اجل مؤجل ووقت معلوم كقوله سبحانه لكل نبأ مستقر وليس الامر على ارادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب مايشاءه الله ويختاره وفيه رد لاستعجالهم الاجال والاعمار واتيان المعجزات والعذاب فقد كان يخوفهم بذلك فاستعجلوه عنادا فرد الله عليهم ذلك والمراد بالاجل هنا ازمنة الموجودات فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص والمراد بالكتاب صحف الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ او اللوح نفسه يمحو الله مايشاء ويثبت اي يمحو من ذلك الكتاب ويثبت مايشاء منه يقال محوت الكتاب محوا اذا اذهبت اثره قرئ مخففا ومشددا وعن مجاهد قال قالت قريش حين انزل هذه الاية ماترى يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ الامر فانزلت هذه الاية تخويفا لهم ووعيدا لهم اي انا ان شئنا احدثنا له من امرنا ماشئنا ويحدث الله في كل رمضان فيمحو مايشاء ويثبت من ارزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم وقال ابن عباس ينزل الله في كل شهر رمضان الى سماء الدنيا فيدبر امر السنة الى السنة فيمحو مايشاء ويثبت الا الشقاوة والسعادة والحياة والموت وعنه قال هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو والذي يثبت الرجل يعمل

بمعصية الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله وقال ايضا هما كتابان يمحو الله ما يشاء من
احدهما ويثبت وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة
او سعادة او رزق او عمر او خير او شر ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا لا يسال عما يفعل
وهم يسالون والى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وابو وائل وقتادة
والضحاك وابن جريج وغيرهم وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة وقيل يمحو ما يشاء من
ديوان الحفظة وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب وقيل يمحو ما يشاء من الرزق وقيل
من الاجل وقيل من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه وقيل يمحو ما يشاء من ذنوب عباده
ويترك ما يشاء وقيل يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة وقيل
يمحو الآباء ويثبت الابناء وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة
وقيل يمحو ما يشاء من الارواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده الى
صاحبه وقيل يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة وقيل غير ذلك مما
لا حاجة الى ذكره والاول اولى كما يفيده ما في قوله ما يشاء من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله لكل
اجل كتاب ومع قوله وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ اي جملة الكتاب قاله ابن عباس والمعنى اصله وهو اللوح
المحفوظ والام اصل الشيء والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشيء اماله ومنه ام الراس للدماغ
وام القرى لمكة فالمراد من الآية انه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما
فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما يقتضيه مشيته وهذا لا ينافي ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم
من قوله جف القلم بما هو كائن وذلك لان المحو والاثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه وقيل ان
ام الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق قال ابن عباس ان لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة
من درة بيضاء له دفتان من ياقوت والدفتان لوحان لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو الله
ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وعن ابي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل
في ثلاث ساعات تبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الاولى منها ينظر في الذكر الذي
لا ينظر فيه احد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت الحديث اخرجه الطبراني وابن ابي حاتم وغيرهما
واخرج الطبراني باسناد قال السيوطي ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يمحو الله

ما يشاء ويثبت الا الشقاوة والسعادة والحياة والممات وعن ابن عباس قال لا ينفع الحذر من القدر
ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر وقال قيس بن عباد العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه
ما يشاء وعن عمر بن الخطاب انه قال وهو يطوف بالبيت اللهم ان كنت كتبت علي شقوة او ذنبا
فانت تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب واجعله سعادة ومغفرة وعن ابن مسعود نحوه وقيل
ام الكتاب الذكر قاله ابن عباس وقد استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية وقالوا
انه جائز على الله وهو ظاهر الفساد لان علمه سبحانه صفة قديمة ازلية لا يتطرق اليه التغيير و
التبديل والمحو والاثبات من معلوماته الازلية وليس من البداء في شيء وقد علم ما هو خالق وما خلقه
وما هم يعملون وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ما زائدة واصله وان نرك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ به من العذاب في
حياتك كما وعدناهم بذلك بقولنا لهم عذاب في الحياة الدنيا وبقولنا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم
بما صنعوا قارعة والمراد اريناك بعض ما نعدهم قبل موتك وجواب الشرط محذوف اي فذلك شافيك
من اعدائك ودليل على صدقك أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ اي او توفيناك قبل اراءتك لذلك وجوابه ايضا
محذوف اي فلا تقصير منك ولا لوم عليك وقوله فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ تعليل لهذا المحذوف والبلاغ
اسم اقيم مقام التبليغ اي ليس عليك الا تبليغ احكام الرسالة ولا يلزمك حصول الاجابة منهم لما بلغته
اليهم وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ اي محاسبتهم اذا صاروا الينا يوم القيامة باعمالهم ومجازاتهم عليها وليس
ذلك عليك وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم واخبار له انه قد فعل ما امره الله به
وليس عليه غيره وان من لم يجب دعوته ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترى
عليه من ذلك أَوَلَمْ يَرَوْا يعني اهل مكة والاستفهام للانكار اي انكروا نزول ما وعدناهم او شكوا
ولم ينظروا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ اي ارض الكفر كمكة نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بالفتوح على المسلمين منها
شيئا فشيئا بما ينقص من اطراف المشركين ويزيد في اطراف المؤمنين قال الزجاج اعلم الله ان
بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر قال الضحاك يقول اولم يروا انا فتحنا على المسلمين ارضا
بعد ارض حوالي اراضيهم ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون وهذا قول قتادة وجماعة من المفسرين
وقيل ان معنى الآية ننقصها بموت العلماء والصلحاء قال القشيري وعلى هذا فالاطراف الاشراف
وقد قال ابن الاعرابي الطرف الرجل الكريم قال القرطبي وهذا القول بعيد لان مقصود الآية انا

اريناهم النقصان في امرهم ليعلموا ان تاخير العقاب عنهم ليس عن عجز الا ان يحمل على موت احبار
اليهود والنصارى قال الواحدي التفسير الاول اولى لان هذا القول وان صح فلا يليق بهذا الموضع
وبه قال الرازي وقيل المراد خراب الارض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها قاله ابن عباس
وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبي وعطاء وجماعة من المفسرين اي نخربها ونهلك اهلها افلا
تخافون ان يفعل بكم ذلك وقيل المراد بالآية هلاك من هلك من الامم وقيل المراد جور ولاتها
حتى تنقص وقال قتادة موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار اهلها وعن مجاهد نحوه وقال
ابن عباس نقصان اهلها وبركتها وعنه انما تنقص الانفس والثمرات واما الارض فلا تنقص
﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاء في خلقه فيرفع هذا ويضع هذا ويحيي هذا ويميت هذا ويغني هذا ويفقر هذا
وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الشريف والعلم الجليل من الدلالة على
الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى على ذي بصيرة ﴿لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِ﴾ اي لا راد لقضائه والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقبه بالرد
والابطال قال الفراء معناه لا راد لحكمه قال والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه ولا يستدرك احد
عليه ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يتعقب غريمه بالطلب يعني انه حكم للاسلام بالاقبال
وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره ومحل لا مع النفي النصب على الحال اي يحكم نافذا
خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب احد حكمه سبحانه بنقص ولا تغيير قال ابن زيد
ليس احد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب اهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
اي الانتقام فيحاسبهم بعد زمن قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاخراج من ديارهم في
الدنيا فلا تستبطئ عقابهم فانه آت لا محالة وكل آت قريب وقد تقدم الكلام في معناه قبل هذا
والمعنى فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته على السرعة ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ اي قد مكر
الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن ارسله الله اليهم من الرسل فكادوهم وكفروا بهم والمكر ايصال
المكروه الى الانسان الممكور به من حيث لا يشعر مثل مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود
بعيسى وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث اخبره ان هذا ديدن الكفار من قديم
الزمان مع رسل الله سبحانه ثم اخبره بان مكرهم هذا كالعدم ولا تاثير له وان المكر كله لله لا اعتداد

بمكر غيره فقال فَلِلّٰهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يعني عند الله جزاء مكرهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وامان له من مكرهم وقال الواحدي يعني جميع مكر الماكرين له ومنه اي هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه وارادته فاثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ من خير وشر فيجازيها على ذلك ومن علم ما تكسب كل نفس واعد لها جزاءها كان المكر كله له لانه ياتيهم من حيث لا يشعرون وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ جميعهم وقرئ الكافر على التوحيد اي جنس الكافر وقيل المراد بالكافر ابو جهل لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ اي العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا او في دار الآخرة او فيهما وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا اي المشركون او جميع الكفار خطابا وشفاها لَسْتَ يا محمد مُرْسَلًا الى الناس من عند الله فامره الله سبحانه بان يجيب عليهم فقال قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فهو يعلم صحة رسالتي وصدق دعواي ويعلم كذبكم وكذا يعلم ذلك مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ اي علم جنس الكتاب السماوي كالتوراة والانجيل فان اهلهما العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اخبر بذلك من اسلم منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الاحبار وتميم الداري ونحوهم وقد كان المشركون من العرب يسألون اهل الكتاب ويرجعون اليهم فارشدهم الله سبحانه في هذه الآية الى ان اهل الكتاب يعلمون ذلك وقيل المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون فانهم يشهدون ايضا على نبوته او المراد من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه قاله مجاهد وبه قال الحسن ومثله عن ابن عمر بسند ضعيف واختار هذا الزجاج وقال لان الاشبه ان الله لا يستشهد على خلقه بغيره عن جندب قال جاء عبد الله بن سلام حتى اخذ بعضادتي باب المسجد ثم قال انشدكم بالله اتعلمون اني الذي انزلت فيه ومن عنده علم الكتاب قالوا اللهم نعم وعن ابن عباس هم اهل الكتاب من اليهود والنصارى يشهدون بالحق ويعرفونه منهم ابن سلام والجارود وعن سعيد بن جبير ما نزل في ابن سلام شيء من القرآن كيف وهذه السورة مكية وعبد الله اسلم بالمدينة وعنه قال هو جبريل

سورة ابراهيم عليه السلام

هي مكية قاله ابن عباس وابن الزبير والحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة الا آيتين منها وقيل

الا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قوله الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الى قوله فان مصيركم الى النار وعن ابن عباس قال هي مكية سوى آيتين منها نزلتا في قتلى بدر من المشركين وهي اثنتان وخمسون آية بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر قد تقدم الكلام في امثال هذا وبيان قول من قال انه متشابه وبيان قول من قال انه غير متشابه كِتَابٌ خبر مبتدا محذوف اي هذا القرآن أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يا محمد لِتُخْرِجَ النَّاسَ بدعائك اياهم الى اتباع ما تضمنه الكتاب من التوحيد وغيره واللام في لتخرج للغرض والغاية والتعريف في الناس للجنس والمعنى انه صلى الله عليه وسلم يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه مِنَ الظُّلُمَاتِ اي من ظلمات الكفر والجهل والضلالة الى ما صاروا اليه من النُّورِ اي نور الايمان والعلم والهداية قال الرازي فيه دليل على ان طرق الكفر والبدعة كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه عبر عنها بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الحق بالنور وهو لفظ مفرد جعل الكفر بمنزلة الظلمات والايمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة وقيل ان الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة وقيل من الشك الى اليقين ولا مانع من ارادة جميع هذه الامور واسند الفعل الى النبي صلى الله عليه وسلم لانه الداعي والهادي والمنذر بِإِذْنِ رَبِّهِمْ اي بامره وعلمه وتيسيره وتسهيله قال الزجاج اي بما اذن لك من تعليمهم ودعائهم الى الايمان الى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله الى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرا اي لتخرج الناس من الظلمات الى صراط العزيز الحميد وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها الله لعباده وامرهم بالمصير اليها والدخول فيها ويجوز ان يكون مستانفا كانه قيل ما هذا النور الذي اخرجهم اليه فقيل صراط العزيز الحميد لانه نور في نفسه طريق للخلود في الجنة المؤبد واضافة الصراط الى الله تعالى لانه المظهر له وافهم تخصيص الوصفين انه لا يذل سالكه ولا يخيب قاصده والعزيز هو القادر الغالب الغني عن جميع الحاجات والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ قرأ الجمهور بالجر على انه عطف بيان لكونه من الاعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به لان العلم لا يوصف به وقيل يجوز ان يوصف به من حيث المعنى وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف اي هو الله المتصف بملك ما فيهما خلقا وملكا وعبيدا وكان يعقوب اذا وقف على الحميد رفع واذا وصل خفض قال ابن الانباري من خفض وقف على وما في الارض ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ

مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أي معد لهم في الآخرة وقد تقدم بيان معنى الويل واصله النصب كسائر المصادر ثم رفع للدلالة على الثبات قال الزجاج هي كلمة تقال للعذاب والهلكة فدعى سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله صلى الله عليه وسلم بما انزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر الى نور الايمان وعيد لمن كفر بالكتاب فلم يخرج به منتهيا اليه بالويل وهو نقيض الوال اي النجاة والويل واد في جهنم ومن بيانية وقيل الويل بمعنى التأوه فمن للتعدية اي يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه قائلين يا ويلاه ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يؤثرونها لمحبتهم لها عَلَى الْآخِرَةِ الدائمة والنعيم الابدي وَيَصُدُّونَ اي يصرفون الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ اي عن دينه الذي شرعه لعباده وَيَبْغُونَهَا اي السبيل عِوَجًا اي يطلبون لها زيغا وميلا وعدلا وانحرافا عن الحق لموافقة اهوائهم وقضاء حاجاتهم واغراضهم وقيل الهاء راجعة الى الدنيا اي يطلبون على سبيل الميل عن الحق والميل الى الحرام والعوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الاعيان وقد سبق تحقيقه واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال أُولَئِكَ يعني من هذه صفته فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ عن طريق الحق اي بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية او ذي بعد او فيه بعد لان الضال قد يضل ويبعد عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا والبعد وان كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازا لقصد المبالغة كجد جده وداهية دهياء ثم لما من على المكلفين بانزال الكتاب وارسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة ان ذلك المرسل بلسان قومه فقال وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا متلبسا بِلِسَانِ قَوْمِهِ متكلما بلغتهم لانه اذا كان كذلك فهم عنه المرسل اليهم ما يقوله لهم وما يدعوهم اليه وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فانهم لا يدرون ما يقول ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرا طويلا ومع ذلك فلا بد ان يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله لِيُبَيِّنَ لَهُمْ اي ليوضح لهم ما امرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لان المراد بها اللغة عن ابن عباس ان الله فضل محمدا على اهل السماء وعلى الانبياء قيل ما فضله على اهل السماء قال ان الله قال لاهل السماء ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فكتب له براءة من النار قيل فما فضله على الانبياء قال ان الله يقول وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه

وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم وما ارسلناك الا كافة للناس فارسله الى الانس والجن وقال عثمان بن عفان نزل القران بلسان قريش وعن مجاهد مثله وقد قيل في هذه الاية اشكال لان النبي صلى الله عليه وسلم ارسل الى الناس جميعا بل الى الجن والانس ولغاتهم متباينة والسنتهم مختلفة واجيب بانه صلى الله عليه وسلم وان كان مرسلا الى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب وكانوا اخص به واقرب اليه كان ارساله بلسانهم اولى من ارساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهماله كفهمهم اياه ولو نزل القران بجميع لغات من ارسل اليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل قوم بلسانه لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع لان كل امة قد تدعي من المعاني في لسانها مالا يعرفه غيرها وربما كان ذلك ايضا مفضيا الى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون قال في الجمل والاولى ان يحمل القوم على من ارسل اليهم الرسول اياكان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم وبالنسبة اليه كل من ارسل اليه من سائر القبائل واصناف الخلق وهو صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم وان لم يثبت انه تكلم باللغة التركية لانه لم يتفق انه خاطب احدا من اهلها ولو خاطبه لكلمه بها تأمل انتهى فيضل الله من يشاء اضلاله فيه التفات عن التكلم الى الغيبة ويهدي من يشاء هدايته والجملة مستانفة قال الفراء اذا ذكر فعل وبعده فعل اخر فان لم يكن النسق مشاكلا للاول فالرفع على الاستيناف هو الوجه يعني لا يجوز نصبه عطفا على ما قبله لان المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى والرسل ارسلت للبيان لا للاضلال وقال الزجاج لو قرئ بنصبه على ان اللام لام العاقبة جاز والمعنى وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي الفوها وفهموها ومع ذلك فان المضل والهادي هو الله عز وجل والبيان لا يوجب حصول الهداية الا اذا جعله الله سبحانه واسطة وسببا وتقديم الاضلال على الهداية لانه متقدم عليها اذ هو ابقاء على الاصل والهداية انشاء مالم يكن وهو العزيز الذي لا يغالبه مغالب في ملكه الحكيم الذي يجري افعاله على مقتضى الحكمة في صنعه ثم لما بين ان المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم هو اخراج الناس من الظلمات الى النور اراد ان يبين ان الغرض من ارسال الانبياء لم يكن الا ذلك وخص موسى بالذكر لان امته اكثر الامم المتقدمة على هذه الامة المحمدية فقال ولقد ارسلنا موسى متلبسا بآياتنا التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص من الثمرات قاله مجاهد وعطاء

وعبد بن حميد ان اخرج قومك من الظلمات الى النور المعنى اخرج لان الارسال فيه معنى القول وبان اخرج بني اسرائيل بعد هلاك فرعون من الكفر او الجهل الذي قالوا بسببه اجعل لنا الها كما لهم الهة الى الايمان او العلم وذكرهم بايام الله اي بوقائعه قال ابن السكيت العرب تقول الايام في معنى الوقائع يقال فلان عالم بايام العرب اي بوقائعها وقال الزجاج بنعم الله عليهم وبنقم ايام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد واخرج النسائي والبيهقي وغيرهما عن ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذكرهم بنعم الله وآلائه وبه قال ابن عباس وقال الربيع بوقائعه في القرون الاولى ويترجح تفسير ايام الله ببلائه ونعمه وفي تفسير ابن جرير بايام الله اي بانواع عقوباته الفائضة ونعمه الباطنة التي افاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن احاط علمه بذلك عظم خوفه وفي القاموس وايام الله نعمه ويوم ايوم شديد وآخر يوم في الشهر وفي المختار وربما عبروا عن الشدة باليوم ان في ذلك التذكير بآيات الله او في نفس ايام الله لآيات اي لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة لكل صبار كثير الصبر على المحن والمنح شكور كثير الشكر للنعم التي انعم الله بها عليه لانه اذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وافيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر وقيل المراد بذلك كل مؤمن وعبر عنه بالوصفين لانهما ملاك الايمان وعنوان المؤمن وقدم الصبار على الشكور لكون الشكر عاقبة الصبر قال قتادة في الآية نعم العبد عبد اذا ابتلي صبر واذا اعطي شكر وانما خص الصبار والشكور وان كان فيها عبرة للكافة لانهم المنتفعون بها دون غيرهم واذ قال موسى اي اذكر وقت قول موسى لقومه المطيعة اذكر يا محمد لقومك ما ذكر لعلهم يعتبرون اذكروا نعمة الله اي انعامه عليكم اذ انجاكم اي وقت انجائه لكم من آل فرعون يسومونكم اي يبغونكم يقال سامه ظلما اي اولاه ظلما واصل السوم الذهاب في طلب الشيء سوء العذاب مصدر ساء يسوء والمراد جنس العذاب السيء وهو استعبادهم واستعمالهم في الاعمال الشاقة ويذبحون ابناءكم المولودين لقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون وعطف يذبحون على يسومونكم سوء العذاب وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كانه جنس آخر لما فيه من الشدة ومع طرح الواو كما في الآية الاخرى يكون التذبيح تفسيرا للسوء العذاب ويستحيون نساءكم اي يتركونهن في الحياة لاهانتهن واذلالهن ولذلك عد من

جملة البلاء وزاد الكرخي كانوا يستخدمونهن بالاستعباد ويفردونهن عن الازواج وذلك من عظم المضار وَفِي ذَٰلِكُمْ المذكور من افعالهم بَلَاءٌ اي ابتلاء لكم بالنعم وبالعذاب فالله تعالى يختبر عباده تارة بالنعم وتارة بالشدائد كما قال وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة مستوفى وَإِذْ تَأَذَّنَ بمعنى اذن قاله الفراء قال في الكشاف ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في افعل كانه قيل واذ اذن رَبُّكُمْ ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تاذن ربكم فقال لَئِن شَكَرْتُمْ واجرى تاذن مجرى قال لانه ضرب من القول انتهى هذا من قول موسى لقومه اي واذكروا حين تاذن ربكم وقيل هو من قول الله سبحانه اي اذكر يا محمد اذ تاذن ربكم وقرئ واذ قال ربكم والمعنى واحد كما تقدم واللام في لَئِن شَكَرْتُمْ هي الموطئة للقسم والخطاب لبني اسرائيل وقوله لَأَزِيدَنَّكُمْ ساد مسد جوابي الشرط والقسم وكذا في وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ لمن كفر نعمتي فلابد ان يصيبكم منه ما يصيب وهو ساد مسد الجوابين ايضا والمعنى لئن شكرتم انعامي عليكم بما ذكر وما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح لازيدنكم نعمة الى نعمة تفضلا مني وقيل من طاعتي قاله الحسن وقيل من الثواب والاول اظهر فالشكر سبب المزيد قال الربيع اخبرهم موسى عن ربه انهم ان شكروا النعمة زادهم من فضله واوسع لهم من الرزق واظهرهم على العالم وقال سفيان الثوري في الآية لا تذهب نفسكم الى الدنيا فانها اهون عند الله من ذلك ولكن يقول لئن شكرتم لازيدنكم من طاعتي ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه لاعذبنكم وحل عليه ان عذابي لشديد وانما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد لان عادة اكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا اي وجميع الخلق من الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها وجواب الشرط محذوف اي فانما ضررتم بالكفر الا انفسكم حيث حرمتموها من مزيد الانعام وعرضتموها للعذاب الشديد فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه لَغَنِيٌّ عن شكركم لا يحتاج اليه ولا يلحقه بذلك نقص حَمِيدٌ اي مستوجب للحمد لذاته لكثرة انعامه وان لم تشكروه او يحمده غيركم من الملائكة وتنطق بنعمه ذرات الكائنات ولعله عليه السلام انما قال هذا عندما عاين منهم دلائل العناد ومخائل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن انه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب اخرج البخاري في تاريخه والضياء في المختارة عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهم خمسة لم يحرم خمسة وفيها من الهم الشكر لم يحرم الزيادة

وعن ابي هريرة مرفوعا من اعطي الشكر لم يمنع الزيادة اخرجه الحكيم الترمذي في النوادر ولا وجه
لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر
فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه ومن شكر الله على ما اقدره عليه من طاعته زاده
من طاعته ومن شكره على ما انعم عليه من الصحة زاده الله صحة الى غير ذلك أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ استفهام
تقرير يحتمل ان يكون هذا خطابا من موسى لقومه فيكون داخلا تحت التذكير بايام الله ويحتمل ان
يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطابا لقوم موسى وتذكيرا لهم بالقرون الاولى واخبارهم ومجيء
رسل الله اليهم ويحتمل انه ابتداء خطاب من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم تحذيرا لهم عن مخالفته و
النبأ الخبر والجمع الانباء قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والمقصود منه امر القرون الماضية والامم الخالية
لحصول العبرة باحوال من تقدم وهلاكهم وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ اي من بعد هؤلاء الامم الماضية
الثلاثة لَا يَعْلَمُهُمْ اي لا يحصي عددهم ومقاديرهم ولا يحيط بهم علما إِلَّا اللَّهُ سبحانه والجملة معترضة
وعدم العلم من غير الله اما ان يكون راجعا الى صفاتهم واحوالهم واخلاقهم ومدد اعمارهم اي
هذه الامور لا يعلمها الا الله ولا يعلمها غيره او يكون راجعا الى ذواتهم اي انه لا يعلم ذوات اولئك
الذين من بعدهم الا الله سبحانه ولم يبلغنا خبرهم اصلا وعن ابن مسعود انه كان يقرأ والذين من
بعدهم لا يعلمهم الا الله ويقول كذب النسابون وعن عمرو بن ميمون مثله وعن ابي مجلز قال قال
رجل لعلي بن ابي طالب انا انسب الناس قال انك لا تنسب الناس فقال بلى فقال له علي ارأيت قوله
عادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا قال انا انسب ذلك الكثير قال ارأيت قوله والذين
من بعدهم لا يعلمهم الا الله فسكت وعن عروة بن الزبير قال ما وجدنا احدا يعرف ما وراء معد بن
عدنان وعن ابن عباس قال ما بين عدنان واسمعيل ثلاثون ابا لا يعرفون جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
اي المعجزات الظاهرة والدلالات الباهرة والشرائع الواضحة مستانف وهذا في المعنى تفسير لنبأ الذين
من قبلهم فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ اي جعلوا ايدي انفسهم فِي أَفْوَاهِهِمْ ليعضوها غيظا مما جاءت به الرسل
كما في قوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ لان الرسل جاءتهم بتسفيه احلامهم وشتم اصنامهم
وقيل ان المعنى انهم اشاروا باصابعهم الى افواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات اي اسكتوا واتركوا
هذا الذي جئتم به تكذيبا لهم ورد القولهم وقيل المعنى انهم اشاروا الى السنتهم وما يصدر عنها من قولهم

انا كفرنا بما ارسلتم به اي لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بالسنتنا هذه وقيل وضعوا ايديهم على
افواههم استهزاء وتعجبا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه وقيل المعنى ردوا على
الرسل قولهم وكذبوهم بافواههم فالضمير الاول للرسل والثاني للكفار وقيل جعلوا ايديهم في افواه
الرسل رداً لقولهم فالضمير الاول على هذا للكفار والثاني للرسل وقيل معناه اومؤا الى الرسل ان
اسكتوا وقيل اخذوا ايدي الرسل ووضعوها على افواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم
والمراد بهما على هذا هاتان الجارحتان المعلومتان وقيل ان الايدي هنا النعم يعني المراد بهما غير
الجارحتين وفيه بعد اي ردوا نعم الرسل بافواههم اي بالنطق والتكذيب والمراد بالنعم هنا ما
جاؤهم به من الشرائع وقال ابو عبيدة ونعم ما قال هو ضرب مثل اي لم يؤمنوا ولم يجيبوا والعرب
تقول للرجل اذا امسك عن الجواب وسكت قد رد يده في فيه وهكذا قال الاخفش واعترض
على ذلك القتيبي فقال لم يسمع احد من العرب يقول رد يده في فيه اذا ترك ما امر به وانما
المعنى عضوا على الايدي حنقا وغيظا وهذا هو القول الذي قدمناه على جميع هذه الاقوال وبه
قال ابن مسعود وهو اقرب التفاسير للآية ان لم يصح عن العرب ما ذكره الاخفش وابو عبيدة
فان صح ما ذكراه فتفسير الآية به اقرب وقالوا اي الكفار للرسل انا كفرنا بما ارسلتم به من
البينات على زعمكم وانا لفي شك عظيم مما تدعوننا اليه من الايمان بالله وحده وترك ما سواه
مريب اي موجب للريب يقال اربته اذا فعلت امرا اوجب ريبة وشكا والريب قلق النفس وعدم
سكونها وان لا تطمئن الى شيء وقد قيل كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا امرهم على الشك واجيب بانهم ارادوا
انا كافرون برسالتكم وان نزلنا عن هذا المقام فلا اقل من انا شاك في صحة نبوتكم ومع كمال الشك
لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم وقيل كانوا فرقتين احداهما جزمت بالكفر والاخرى شكت وقيل ان كفرهم
بالمعجزات وشكهم في التوحيد فلا تخالف قالت رسلهم جملة مستانفة كانه قيل فماذا قالت لهم
الرسل فاجيب بانهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء افي الله شك والاستفهام
للتقريع والتوبيخ والانكار اي افي وحدانيته سبحانه شك وهي في غاية الوضوح والجلاء ثم ان الرسل
ذكروا بعد انكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الانكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده
سبحانه ووحدانيته فقالوا فاطر السموات والارض اي خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما

وما فيهما بعد العدم يدعوكم الى الايمان به وتوحيده او الى الايمان بارسالة ايانا لا انا ندعوكم اليه من تلقاء انفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه ليغفر لكم من ذنوبكم اي لاجل غفران ذنوبكم اذا امنتم وصدقتم او اللام للتعدية كقولك دعوتك لزيد قال ابو عبيدة من صلة زائدة في الايجاب ووجه ذلك قوله في موضع آخر ان الله يغفر الذنوب جميعا واجازه الاخفش وقال سيبويه هي للتبعيض ويجوز ان يذكر البعض ويراد منه الجميع وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لامة محمد صلى الله عليه وسلم غفران جميعها لغيرهم وبهذه الآية احتج من جوز زيادة من في الاثبات وجمهور البصريين لا يجوزون زيادتها الا في النفي اذا جرت نكرة ومن ثم جعلها بعضهم للبدل وقال ليست بزائدة ولا تبعيضية اي ليكون المغفرة بدلا من عقوبة الذنوب ويحتمل ان يضمن يغفر معنى يخلص اي يخلصكم من ذنوبكم ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب وهو اولى من دعوى زيادتها ويؤخركم بلا عذاب الى اجل الى وقت مسمى عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا قالوا ان اي ما انتم الا بشر مثلنا في الهيئة والصورة تاكلون وتشربون كما ناكل ونشرب فلا فضل لكم علينا ولستم ملائكة تريدون ان تصدونا وصفوهم بالبشر اولا ثم بارادة الصد ثانيا عما كان يعبد اباؤنا اي اباؤهم ثانيا اي تريدون ان تصرفونا عن معبودات ابائنا من الاصنام ونحوها فأتونا ان كنتم صادقين بانكم مرسلون من عند الله بسلطان مبين اي بحجة ظاهرة واضحة تدل على صحة ما تدعونه من المزية او النبوة وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ولكن هذا نوع من تعنتاتهم ولون من تلوناتهم قالت لهم رسلهم مسلمين مشاركتهم في الجنس ان نحن الا بشر مثلكم اي في الصورة والهيئة كما قلتم لا ننكر ذلك ولكن الله يمن ويتفضل على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة وقيل بالتوفيق والهداية جعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى وفيه دليل على ان النبوة امر وهبي لا كسبي كما يزعمه جهلة المتفلسفة والحكماء وما كان اي ما صح لنا ولا استقام ان نأتيكم بسلطان اي بحجة من الحجج وقيل المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت وقيل اعم من ذلك فان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن الا باذن الله اي بمشيته وارادته وليس ذلك في قدرتنا وقيل بامره لنا بالاتيان اي باذنه لنا به والاول اولى وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في دفع شرور اعدائهم عنهم وفي الصبر على معاداتهم وهذا امر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه وكان الرسل قصدوا بهذا الامر للمؤمنين الامر لهم

انفسهم فضلا وليا ولهذا قالوا وما لنا اي واي مانع وعذر لنا في ان لا نتوكل على الله سبحانه في دفع شرور كم عنا فيه التفات عن الغيبة الى التكلم والاستفهام للانكار وقد هدىنا سبلنا بضم الباء وسكونها اي والحال انه قد فعل بنا ما يوجب التوكل عليه ويستدعيه من هدايتنا الى الطريق الموصل الى رحمته وهو ما شرعه لعباده واوجب عليهم سلوكه وعرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد وحيث كانت اذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة والله لنصبرن على ما اذيتمونا من وقوع التكذيب لنا منكم والعناد والاقتراحات الباطلة وغير ذلك مما لا خير فيه وما مصدرية او موصولة اسمية وعلى الله وحده دون من عداه فليتوكل المتوكلون قيل المراد بالتوكل الاول استحداثه وانشاءه وبهذا السعي في بقائه وثبوته فالتوكلان مختلفان وقيل معنى الاول ان الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم ان يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا فان شاء سبحانه اظهرها وان شاء لم يظهرها ومعنى الثاني ابداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم وقال الذين كفروا هم طائفة من المتمردين عن اجابة الرسل لرسلهم واللام في لنخرجنكم هي الموطئة للقسم اي والله لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا لم يقنعوا برد ما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم اليه حتى اجترؤا عليهم بهذا وخيروهم بين الخروج من ارضهم او العود في ملتهم الكفرية وقد قيل ان او بمعنى حتى او بمعنى الا ان كما قاله بعض المفسرين ورد بانه لا حاجة الى ذلك بل او على بابها للتخيير بين احد الامرين قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة اي لتصيرن داخلين في ديننا اي في الشرك لعصمة الانبياء عن ان يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها وقيل ان الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على اتباعهم وقد تقدم تفسير الآية في سورة الاعراف فاوحى اليهم اي الى الرسل بعد هذه المخاطبات والمحاورات ربهم لنهلكن الظالمين الكافرين ولنسكننكم الارض اي ارض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوكم من الاخراج او العود من بعدهم اي بعد هلاكهم ومثل هذه الآية قوله سبحانه واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقال واورثكم ارضهم وديارهم عن ابن عباس قال كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم الى ان يعودوا في ملتهم فابى الله لرسله وللمؤمنين ان يعودوا في ملة الكفر وامرهم ان يتوكلوا على الله وامرهم

ان يستفتحوا على الجبابرة ووعدهم ان يسكنهم الارض من بعدهم فانجز [illegible] واستفتحوا أ
امرهم الله ان يستفتحوا وعن قتادة قال وعدهم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة فبين الله من يسكنها
من عباده فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان وان لله مقاما هو قائمه وان اهل الايمان خافوا ذلك
المقام ودأبوا الليل والنهار ذٰلِكَ اي ما تقدم من اهلاك الظالمين واسكان للمؤمنين في مساكنهم
لِمَنْ خَافَ مَقَامِي اي موقفي وذلك يوم الحساب فانه موقف الله سبحانه والمقام بفتح الميم
الاقامة وبالضم فعل الاقامة وقيل ان المقام هنا مصدر بمعنى القيام اي من خاف قيامي عليه و
مراقبتي له كقوله تعالى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال الاخفش مقامي بمعنى عذابي وَخَافَ
وَعِيدِ اي خشي وعيدي بالعذاب وقيل بالقرآن وزواجره وقيل هو نفس العذاب الموعود
للكفار والوعيد اسم من الوعد وهذه الآية تدل على ان الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان
العطف يقتضي التغاير قاله الكرخي وَاسْتَفْتَحُوا اي استنصروا بالله على اعدائهم او سألوا الله القضاء
بينهم من الفتاحة وهي الحكومة بين الخصمين ومن الاول قوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ومن
الثاني قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا اي احكم والضمير في استفتحوا للرسل وقيل للكفار وقيل للفريقين
وقيل لقريش لانهم في سنى الجدب استمطروا فلم يمطروا وهو على هذا مستأنف والاول اولى وقرئ
استفتحوا بكسر التاء الثانية على لفظ الامر امر للرسل بطلب النصرة فنصروا وسعدوا ونجوا وَخَابَ
اي خسر وقيل هلك كُلُّ جَبَّارٍ هو المتكبر الذي لا يرى لاحد عليه حقا هكذا [illegible] الناس عن [illegible]
اللغة وقيل من تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الانسان وقيل
الذي لا يرى فوقه احدا وقيل المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه والمعاني متقاربة عَنِيدٍ هو المعاند
للحق والمجانب له قاله مجاهد وهو ماخوذ من العند وهو الناحية اي اخذ في ناحية معرضا قال
الزجاج العنيد الذي يعدل عن القصد وبمثله قال الهروي وقال ابو عبيدة هو الذي [illegible]
وقال ابن كيسان هو الشامخ بانفه وقيل المراد به العاصي وقيل الذي ابى ان يقول لا اله الا الله
قتادة وقيل العنيد الناكب عن الحق قاله ابراهيم النخعي وقال مقاتل المتكبر وقال ابن [illegible]
عن الحق وقيل هو المعجب بما عنده وقيل هو الذي يعاند ويخالف ومعنى الآية انه خسر وهلك من
كان متصفا بهذه الصفة مِنْ وَرَائِهِ اي من بعده جَهَنَّمُ والمراد بعد هلاكه على ان وراء هنا بمعنى بعد

وسئله قوله تعالى ومن ورائه عذاب غليظ اي من بعده كذا قال الفراء وقيل من ورائه اي امامه
قال ابو عبيدة هو من اسماء الاضداد لان احدهما ينقلب الى الآخر ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك
ياخذ كل سفينة غصبا اي امامهم به قال قطرب وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك
اي سوف يأتيك وانا من وراء فلان اي في طلبه وقال النحاس من وراء اي من امامه وليس من
الاضداد وقال ثعلب ولكنه من توارى اي استتر عنك سواء كان خلفك او قدامك فصارت جهنم
من ورائه لانها لا ترى وحكى مثله ابن الانباري ويُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ اي يلقى فيها ويسقى والصديد
ما يسيل من جلود اهل النار ولحومهم واشتقاقه من الصد لانه يصد الناظرين عن روبته وهو
مختلط بقيح يسيل من جلد الكافر ولحمه وقال عكرمة هو القيح والدم وقال محمد بن كعب القرظي هو ما
يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر والصديد صفة لماء او بدل منه وقيل عطف بيان له يَتَجَرَّعُهُ
التجرع التحسي اي يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته وقيل يكلف تجرعه و
يقهر عليه ولم يذكر الزمخشري غيره وقيل انه دال على المهلة اي يتناوله شيئا فشيئا وقيل انه بمعنى
جرعه المجرد وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا اذا كان سهلا والمعنى لا يقارب
ان يسيغه ويبتلعه فكيف يكون الاساغة بل يغص به بعد اللتيا والتي فيشربه جرعة بعد جرعة فيطول
عذابه بالحرارة والعطش تارة ويشربه على هذه الحالة اخرى فان السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة
وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله في جوفه وعبر عنه بالاساغة لما انها
المعهودة في الاشربة وقيل انه يسيغه بعد شدة وابطاء كقوله وما كادوا يفعلون اي يفعلون بعد
ابطاء كما يدل عليه قوله تعالى في آية اخرى يصهر به ما في بطونهم قيل كاد صلة وقال الزمخشري للمبالغة و
قيل معناه لا يجيزه اخرج احمد والترمذي واستغربه والنسائي وابن ابي الدنيا وابو يعلى وابن مردويه
والبيهقي وابو نعيم في الحلية وصححه عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال يقرب اليه فيكرهه
فاذا ادني منه شوى وجهه ووقعت فروة راسه فاذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله
وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم وقال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت
مرتفقا وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ اي اسبابه مِن كُلِّ مَكَانٍ اي من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه
ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله او من كل موضع من مواضع بدنه وقال الاخفش المراد بالموت

هذا الى الآية التي تصيب الكافر في النار سماها موتا لشدتها قال ابن عباس يعني انواع العذاب وليس منها
نوع الا الموت يأتيه منه لو كان يموت ولكنه لا يموت لان الله يقول لا يقضى عليهم فيموتوا وقال ميمون
بن مهران المخنقة من كل عظم وعرق وعصب وعن محمد بن كعب نحوه وعن ابراهيم التيمي قال من موضع كل
شعرة في جسده وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ اي والحال انه لم يمت حقيقة فيستريح وقيل تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج
من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فيحيى ومثله قوله لا يموت فيها ولا يحيى وقيل المعنى وما هو
بميت لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه والاولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما
ذكرنا من قوله سبحانه لا يموت فيها ولا يحيى وقوله لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها
وَمِنْ وَرَائِهِ اي من امامه او من بعده او من بين يديه قاله البيضاوي وقيل الضمير عائد على كل جبار
كما في السمين عَذَابٌ غَلِيظٌ اي شديد يستقبل في كل وقت عذابا اشد مما هو عليه قيل هو الخلود في
النار قاله ابراهيم التيمي وقيل حبس الانفاس قاله فضيل بن عياض مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ كلام مستأنف
منقطع عما قبله قال سيبويه تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين وقال الزجاج والفراء التقدير مثل اعمال
الذين وروي عنه انه قال بالغاء مثل والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة وقيل هو مبتدأ وخبره اعمالهم
وقيل مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أَعْمَالُهُمْ الصالحة كالصدقة وصلة
الارحام وفك الاسير واقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك وعبادتهم الاصنام في عدم الانتفاع بها
او الاعمال التي اشركوا فيها غير الله كَرَمَادٍ اي باطلة غير مقبولة والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء وهو ما
يسقط من الحطب والفحم بعد احتراقه بالنار وجمعه في الكثرة على رمد وفي القلة على ارمدة اشْتَدَّتْ بِهِ
الرِّيحُ حملته بشدة وسرعة فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئا فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ العصف شدة الريح
وصف به زمانها مبالغة كما يقال يوم حار ويوم بارد والبرد والحر فيهما لا منهما والاسناد فيه تجوز
ووجه الشبه ان الريح العاصفة تطير الرماد وتفرق اجزاءه بحيث لا يبقى له اثر فكذلك كفرهم ابطل
اعمالهم واحبطها بحيث لا يبقى لها اثر وقد بين محصله بقوله لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا من تلك الاعمال
الباطلة عَلَى شَيْءٍ منها ولا يرون له اثرا في الآخرة يجازون به ويثابون عليه بل جميع ما عملوه في الدنيا
باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها وهو فذلكة التمثيل وعن ابن عباس لا يقدرون
على شيء من اعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد اذا ارسل في يوم عاصف ذَلِكَ اي ما دل عليه التمثيل

من هذا البطلان لاعمالهم وذهاب اثرها هو الضلال الهلاك البعيد عن طريق الحق المخالف لمنهج
الثواب اوعن فعل الثواب ولما كان هذا خسرانا لا يمكن تداركه ولا يرجى عوده سماه بعيد الم تر
ان الله خلق السموات والارض الرؤية هنا هي القلبية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضا لامته
اوالخطاب لكل من يصلح له بالحق اي بالوجه الصحيح الذي يحق ان يخلقها عليه ليستدل بها على كمال
قدرته لا باطلا ولا عبثا والباء للسببية او المصاحبة ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغنائه عن
كل احد من خلقه فقال ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بخلق جديد سواكم فيعدم الموجودين
ويوجد المعدومين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه لان القادر لا يصعب عليه شيء
وانه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور والمقام يحتمل ان يكون هذا الخلق الجديد
من نوع الانسان ويحتمل ان يكون من نوع آخر وما ذلك اي الاذهاب والاتيان باعدام الموجود
وايجاد المعدوم على الله بعزيز اي بممتنع ومتعذر لانه سبحانه قادر على كل شيء وفيه ان الله تعالى
هو الحقيق بان يرجى ثوابه ويخاف عقابه فلذلك اتبعه بذكر احوال الآخرة فقال وبرزوا لله جميعا
اي الخلائق من قبورهم يوم القيامة والبروز الظهور والبراز بالفتح المكان الواسع لظهوره ومنه امرأة
برزة اي تظهر للرجال فمعنى برزوا ظهروا وبرز حصل في البراز اي الفضاء وذلك بان يظهر بذاته كلها
وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني وانما قال وبرزوا مع
كونه سبحانه عالما بهم لا يخفى عليه شيء من احوالهم برزوا او لم يبرزوا لانهم كانوا يستترون عن العيون عند
فعلهم للمعاصي ويظنون ان ذلك يخفى على الله تعالى فالكلام خارج على ما يعتقدونه فقال الضعفاء
للذين استكبروا اي قال الاتباع الضعفاء في الرأي للرؤساء الاقوياء المتكبرين بما هم فيه من الرياسة
انا كنا لكم تبعا في الدنيا في الدين والاعتقاد فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم والتبع جمع تابع مثل
خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد او مصدر وصف به للمبالغة او على تقدير ذوي
تبع قال الزجاج جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع فقال الضعفاء للذين استكبروا من اكابرهم و
قادتهم عن عبادة الله انا كنا لكم تبعا فهل انتم في هذا اليوم والاستفهام للتوبيخ مغنون اي دافعون
عنا يقال اغنى عنه اذا دفع عنه الاذى واغناه اذا اوصل اليه النفع من عذاب الله من شيء اي بعض
الشيء الذي هو عذاب الله فمن الاولى للبيان والثانية للتبعيض قاله الزمخشري وقيل هما للتبعيض معا

قاله في الكشاف ايضا وقيل الاولى تتعلق بمحذوف والثانية مزيدة قَالُوا اي قال المستكبرون مجيبين
عن قول المستضعفين لَوْ هَدَانَا اللّٰهُ الى الايمان في الدنيا لَهَدَيْنَاكُمْ اليه ولكن لما اضلنا وضللنا دعوناكم
الى الضلالة واضللناكم واخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا والجملة مستانفة كانه قيل كيف اجابوا وقيل المعنى
لو هدانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها وقيل لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا
أَمْ صَبَرْنَا اي مستو علينا الجزع والصبر والجزع ابلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه
عنه والهمزة وام لتاكيد التسوية كما في قوله تعالى سواء عليهم أانذرتهم ام لم تنذرهم مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ
اي منجاة ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار يقال حاص فلان عن كذا اي فر
وزاغ يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا والمعنى ما لنا وجه نتباعد به عن النار ويجوز ان يكون هذا
من كلام الفريقين وان كان الظاهر انه من كلام المستكبرين وفي مجيء كل جملة مستقلة من غير عاطف
دلالة على ان كلا من المعاني مستقل بنفسه كاف في الاخبار وقال زيد بن اسلم جزعوا مائة سنة و
صبروا مائة سنة واخرج الطبراني وابن ابي حاتم وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه الى النبي صلى الله
عليه وسلم قال يقول اهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا هلموا
فلنجزع فبكوا خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا سواء علينا اجزعنا ام صبرنا ما لنا من محيص والظاهر ان
هذه المواجهة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء
للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها
ان الله قد حكم بين العباد وَقَالَ الشَّيْطَانُ للفريقين لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ اي دخل اهل الجنة الجنة واهل
النار النار على ما سياتي بيانه في سورة مريم إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ فصدق في وعده وهو وعده
سبحانه بالبعث والحساب ومجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته قال الفراء وعد الحق هو من اضافة
الشيء الى نفسه كقولهم مسجد الجامع وقال البصريون وعدكم وعد اليوم الحق وَوَعَدتُّكُمْ وعدا باطلا بانه لا بعث
ولا حساب ولا جنة ولا نار فَأَخْلَفْتُكُمْ ما وعدتكم به من ذلك وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ اي
تسلط عليكم باظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ اي مجرد دعائي لكم الى الغواية
والضلال بلا حجة ولا برهان ودعوته اليهم ليست من جنس السلطان حتى يستثنى منه بل الاستثناء منقطع
اي لكن دعوتكم وقيل المراد بالسلطان هنا القهر اي ما كان لي عليكم من قهر يضطركم الى اجابتي وقيل هذا

الاستثناء هو من باب تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون
لي عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من سلطان وليس منه قطعا فاستجبتم لي اي فسارعتم الى اجابتي
فلا تلوموني بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل واخلافي هذا الموعد فان من صرح بالعداوة
لا يلام بامثال ذلك ولوموا انفسكم باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة فان من
قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ولمارنه قطع ولا سيما ودعوتي
هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وهو الحق ودعوته لكم الى دار
السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس الا على مخذول وقريب من هذا من يقتدي
بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله ولما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويؤثرها على ما فيهما فانه قد
استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان وترك الحجة والبرهان خلف ظهره
كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المقلدين لهم المتنكبين عن طريق الحق بسوء اختيارهم اللهم
غفرا ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي يقال صرخ فلان اذا استغاث يصرخ صراخا وصرخا واستصرخ
بمعنى صرخ والمصرخ المغيث والمستصرخ المستغيث يقال استصرخني فاصرخته والصريخ صوت
المستصرخ والصريخ ايضا الصارخ وهو المغيث والمستغيث وهو من اسماء الاضداد كما في الصحاح
قال ابن الاعرابي الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث ومعنى الآية ما انا بمغيثكم ومنقذكم مما
انتم فيه من العذاب وما انتم بمغيثي ولا منقذي مما انا فيه وفيه ارشاد لهم الى ان الشيطان في تلك
الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج الى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه فكيف يطمعون في
اغاثة من هو محتاج الى من يغيثه قال ابن عباس المعنى ما انا بنافعكم وما انتم بنافعي وقال الشعبي
في هذه الآية خطيبان يقومان يوم القيامة ابليس وعيسى فاما ابليس فيقوم في حزبه فيقول القول
المذكور في الآية واما عيسى فيقول ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم
شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد وقال قتادة
المعنى ما انا بمعينكم اني كفرت بما اشركتمون من قبل قد ذهب جمهور المفسرين الى ان ما مصدرية
اي باشراككم لي مع الله في الطاعة لانهم كانوا يطيعونه في اعمال الشر كما يطاع الله في اعمال الخير
فالاشراك استعارة بتشبيه الطاعة به وتنزيلها منزلته او لانهم لما اشركوا الاصنام ونحوها باتباعه

لهم في ذلك فكانهم اشركوه وقيل موصولة على معنى اني كفرت بالذي اشركتمونيه وهو الله عز وجل ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند ان امره بالسجود لآدم ولما كشف لهم القناع بانه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئا ولا ينصرهم بنوع من انواع النصر صرح لهم بانه كافر باشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكا ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فاوضح لهم اولا ان مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه وانه اخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها ثم اوضح لهم ثانيا بانهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره ثم اوضح ثالثا بانه لم يكن منه الا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن ايسر شيء مما يتمسك به العقلاء ثم نعى عليهم رابعا ما وقعوا فيه ودفع لومهم له وامرهم بان يلوموا انفسهم لانهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له ادنى عقل ثم اوضح لهم خامسا بانه لا نصر عنده ولا اغاثة ولا يستطيع لهم نفعا ولا يدفع عنهم ضرا بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة ثم صرح لهم سادسا بانه قد كفر بما اعتقدوه فيه واثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب واذا كان جملة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تتمة كلامه كما ذهب اليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به فاثبت لهم الظلم ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الاليم لا على قول من قال انه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه لما اخبر سبحانه بحال اهل النار اخبر بحال اهل الجنة فقال ﴿وَأُدْخِلَ﴾ قراءة الجمهور على البناء للمفعول وقرئ بالبناء على الفاعل اي وانا ادخل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثم ذكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم فقال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ثم ذكر ان ذلك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ اي بتوفيقه ولطفه وهدايته هذا على القراءة الاولى وفيه تعظيم لذلك الاجر واما على الثانية فيكون باذن ربهم متعلقا بقوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ اي تحية الملائكة في الجنة ﴿سَلَامٌ﴾ باذن ربهم وقد تقدم تفسير هذا في سورة يونس ولما ذكر سبحانه مثل اعمال الكفار وانها كرماد اشتدت به الريح ثم ذكر نعيم للمؤمنين وما جازاهم الله به من ادخالهم الجنة خالدين فيها وتحية الملائكة

ثم ذكر تعالى ههنا مثلا للكلمة الطيبة وهي كلمة الاسلام اي لا اله الا الله او ما هو اعم من ذلك
من كلمات الخير وذكر مثلا للكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك او ما هو اعم من ذلك من كلمات الشر
فقال مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم او لمن يصلح للخطاب ألم تر بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامي
اياك كيف ضرب الله مثلا اي اختار مثلا وضعه في موضعه اللائق به والمثل قول سائر يشبه
فيه حال الثاني بالاول كلمة طيبة وهي قول لا اله الا الله عند الجمهور او كل كلمة حسنة كالتسبيحة
والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة قاله الزمخشري كشجرة طيبة اي طيبة الثمر نعت لكلمة او
بدل قاله الزمخشري او خبر مبتدأ محذوف اي هي قاله ابن عطية ثم وصف الشجرة بقوله اصلها ثابت اي
راسخ امن من الانقلاع بسبب تمكنها من الارض بعروقها وفرعها في السماء اي في اعلاها ذاهب
الى جهة السماء مرتفع في الهواء ثم وصفها سبحانه بانها تؤتي اكلها اي ثمرها كل حين اي كل وقت
والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره كما سيأتي باذن ربها
اي بارادته ومشيته وامره قيل وهي النخلة كذلك كلمة الايمان ثابتة في قلب المؤمن وعمله
يصعد الى السماء وتناله بركته وثوابه كل وقت اخرج احمد وابن مردويه قال السيوطي بسند جيد
عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال هي التي لا تنقص ورقها النخلة واخرج البخاري وغيره من حديث ابن
عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لاصحابه اي شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن قال فوقع الناس
في شجر البوادي ووقع في قلبي انها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة وفي لفظ
للبخاري اخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتي اكلها كل حين فذكر نحوه وفي لفظ لابن
جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال قال رسول صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما الشجرة الطيبة
ثم قال هي النخلة وروي نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين وقيل غيرها والمراد تؤتي اكلها كل ساعة
من الساعات من ليل او نهار في جميع الاوقات من غير فرق بين شتاء وصيف قاله ابن عباس وقيل
المراد في اوقات مختلفة من غير تعيين وقيل كل غدوة وعشية وقيل الحين هنا سنة كاملة لان النخلة
تثمر في كل سنة مرة وقيل كل شهر وقيل كل ستة اشهر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن
يعني من وقت طلعها الى حين صرامها وقال علي بن ابي طالب ثمانية اشهر وقيل اربعة اشهر من حين
ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران قال النحاس وهذه الاقوال متقاربة غير متناقضة

لان الحين عند جميع اهل اللغة الا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به اكثر كقوله هل اتى على الانسان حين من الدهر وقد تقدم بيان اقوال العلماء في الحين في سورة البقرة وقال الزجاج الحين الوقت طال ام قصر عن ابن عباس قال يكون خضرا ثم يكون اصفر وعنه قال كل حين جداد النخل وقد روي عن جماعة من السلف في هذا اقوال كثيرة ووجه الحكمة في تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق ان الشجرة لا تسمى شجرة الا بثلاثة اشياء عرق راسخ واصل ثابت وفرع نابت وكذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة اشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان والاركان وقيل غير ذلك وعن ابن عباس الكلمة الطيبة شهادة ان لا اله الا الله والشجرة الطيبة المؤمن واصلها الثابت قول لا اله الا الله ثابت في القلب وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون احوال المبدء والمعاد وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته وفي ضرب الامثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني وتقريب لها من الحس ومواعظ لمن تذكر واتعظ ومثل كلمة خبيثة قد تقدم تفسيرها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل وضرب الله مثلا كلمة خبيثة للايذان بان ذلك غير مقصود بالضرب والبيان كشجرة اي كمثل شجرة خبيثة قيل هي شجرة الحنظل وقيل هي شجرة الثوم وقيل الكماة وقيل الطحلبة وقيل هي كشوث بالضم وآخره مثلثة وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الارض اجتثت اي استوصلت واقتلعت وقطعت من اصلها قال المؤرج اخذت جثتها وهي نفسها وذاتها والجثة شخص الانسان قاعدا او نائما يقال جثه قلعه واجتثه اقتلعه كانها اجتثت وكانها غير ثابتة بالكلية وكانها ملقاة على وجه الارض ومعنى من فوق الارض انه ليس لها اصل راسخ وعروق متمكنة من الارض ما لها اي لهذه الشجرة من قرار اي من استقرار وقيل من ثبات لانها ليس لها اصل ثابت يغوص في الارض بل عروقها في وجهها ولا فرع لها صاعد الى السماء بل ورقها يمتد على الارض كشجرة البطيخ وثمرها ردي كما ان الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه اصلا ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز لان الشجر ما له ساق والنجم ما لا ساق له وهي من النجم فتسميتها شجرة للمشاكلة قال ابن عباس الكلمة الخبيثة الشرك والشجرة الخبيثة الكافر يعني الشرك ليس له اصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا

وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم يُثَبِّتُ اللهُ راجع للمثل الاول الَّذِيْنَ
اٰمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ اي بالحجة الواضحة عندهم وهي الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها وقد ثبت في
الصحيح انها كلمة الشهادة يقولها المؤمن اذا قعد في قبره قال النبي صلى الله عليه وسلم فذلك قوله تعالى يثبت
الله الآية وقيل معنى تثبيت الله لهم هو ان يدوموا عليه في الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ويستمروا حتى اذا فتنوا في دينهم
لم يزلوا كالذين فتنهم اصحاب الاخدود وغير ذلك وَفِي الْاٰخِرَةِ اي في القبر بتلقين الجواب
وتمكين الصواب قاله الجمهور وقيل يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل المراد بالحيوة الدنيا
وقت المسايلة في القبر وفي الآخرة وقت المسايلة يوم القيامة والمراد انهم اذا سئلوا عن معتقدهم
ودينهم اوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ولا تردد ولا جهل كما يقول من لم يوفق لا ادري
فيقال له لا دريت ولا تليت واخرج البخاري ومسلم واهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل في القبر يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله
يثبت الله الذين اٰمنوا الآية وعن البراء قال اذا جاء الملكان الى الرجل في القبر فقالا من ربك فقال ربي
الله وقالا وما دينك قال ديني الاسلام وقالا من نبيك قال نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فذلك التثبيت في
الحيوة الدنيا وعن ابن عباس نحوه وعن ابي سعيد قال في الآخرة القبر واخرج ابن مردويه عن عائشة
قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا في القبر واخرج البزار عنها ايضا قالت قلت يا رسول الله تبتلى هذه الامة
في قبورها فكيف بي وانا امرأة ضعيفة قال يثبت الله الذين اٰمنوا الآية وعن عثمان بن عفان
قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ عن دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم و
اسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل اخرجه ابو داود وقد وردت احاديث كثيرة في سوال
الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضع بسطها وهي معروفة
نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير
وَيُضِلُّ اللهُ الظّٰلِمِيْنَ راجع للمثل الثاني اي يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون
على التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب كما اضلهم عن اتباع الحق في الدنيا قيل والمراد بالظالمين
هنا الكفرة وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الاعراض عن البينات الواضحة فانه لا يثبت في مواقف
الفتن ولا يهتدي الى الحق وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَآءُ من التثبيت للمؤمنين والخذلان للظالمين لا راد

لحكمه ولا اعتراض عليه قال الفراء اي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والاظهار في محل الاضمار
في الموضعين لتربية المهابة ألم تر هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل من يصلح له تعجيبا مما صنع
الكفرة من الاباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له ادنى ادراك إلى الذين بدلوا نعمة الله عليهم كفرا اي جعلوا
بدل شكرها الكفر بها وذلك بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم وانعم عليهم به وقيل انهم بدلوا
نفس النعمة كفرا فالتبديل على الاول تغيير في الوصف والنعمة باقية لكنها موصوفة بالكفران وعلى الثاني
تغيير في الذات والنعمة زائلة مبدلة بالكفر فانهم لما كفروها سلبت عنهم فصاروا تاركين لها محصلين
للكفر بدلها ولفظ ابن عباس هم كفار اهل مكة اخرجه البخاري والنسائي وبه قال جمهور المفسرين
اخرجه النسائي
قيل نزلت في الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر قال علي هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر
وقد روي عنه في تفسير هذه الاية عن طرق نحو هذا وعن عمر بن الخطاب قال هم الافجران من
قريش بنو المغيرة وبنو امية فاما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر واما بنو امية فمتعوا الى حين وعن
علي نحوه ايضا وعن ابن عباس قال هم جبلة بن الايهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم اخرجه
ابن ابي حاتم وفيه نظر فان جبلة واصحابه لم يسلموا الا في خلافة عمر بن الخطاب وقيل انها عامة
في جميع المشركين وأحلوا اي انزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار وهي جهنم قيل
هم قادة قريش احلوهم يوم بدر دار الهلاك وهو القتل الذي اصيبوا به والاول اولى لقوله جهنم
فانه عطف بيان لدار البوار يقال بار الشيء يبور بورا بالضم هلك وبار الشيء بوارا كسد على الاستعارة
لانه اذا ترك صار غير منتفع به فاشبه الهالك من هذا الوجه يصلونها مستأنف لبيان كيفية
حلولهم فيها اي داخلين فيها مقاسين لحرها وبئس القرار اي قرارهم فيها او بئس المقر جهنم فالمخصوص
بالذم محذوف وجعلوا لله اندادا اي امثالا واشباها اي شركاء في الربوبية او في التسمية وهي الاصنام
قال قتادة يعني اشركوا بالله وليس له تعالى شريك ولا ند ولا شبيه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ليضلوا
بفتح الياء اي انفسهم عن سبيله اي عن سبيل الله اللام للعاقبة بطريق الاستعارة التبعية اي التعقب
جعلهم لله اندادا اضلالهم لان العاقل لا يريد ضلال نفسه وحسن استعمال لام العاقبة هنا لانها تشبه
الغرض والغاية من جهة حصولها في اخر المراتب والمشابهة احد الامور المصححة للمجاز وقرئ بضم الياء اي ليوقعوا
قومهم في الضلال عن سبيل الله فهذا هو الغرض من جعلهم لله اندادا والقراءتان سبعيتان ثم هددهم سبحانه

فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم قُلْ تَمَتَّعُوا في الدنيا بما انتم فيه من الشهوات وما زينته لكم انفسكم من كفران النعم واضلال الناس اياه اقلائل وفي التهديد بصيغة الامر ايذان بان المهدد عليه كالمطلوب لافضائه الى المهدد به فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ اي مردكم ومرجعكم في الاخرة إِلَى النَّارِ ولما كان هذا حالهم وقد صار والفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لايقلعون عنه ولايقبلون فيه نصح الناصحين جعل الامر بمباشرته مكان النهي عن قربانه ايضاحا لما تكون عليه عاقبتهم وانهم لامحالة صائرون الى النار فلا بدلهم من تعاطي الاسباب المقتضية لذلك فجملة فان مصيركم الى النار تعليل للامر بالتمتع وفيه من التهديد مالا يقادر قدره والمعنى فان دمتم على ذلك فان مصيركم الى النار والاول اولى والنظم القراني عليه ادل كما يقال لمن سعى في مخالفة السلطان اصنع ماشئت من المخالفة فان مصيرك الى السيف قُلْ لِعِبَادِيَ بثبوت الياء مفتوحة ويجذفها لفظا لا خطا والقرائن سبعيتان ويجريان في خمس مواضع من القرآن هذا وقوله في سورة الانبياء ان الارض يرثها عبادي الصالحون وقوله في العنكبوت يا عبادي الذين آمنوا وقوله في سبا وقليل من عبادي الشكور وفي سورة الزمر قل يا عبادي الذين اسرفوا الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ لما امره بان يقول للمبدلين نعمة الله كفرا الجاعلين له اندادا ما قاله لهم امره سبحانه ان يقول للطائفة المقابلة لهم وهي طائفة المؤمنين هذا القول والمعنى قل لهم اقيموا الصلوة الواجبة واقامتها اتمام اركانها وانفقوا اي اخرجوا الزكوة المفروضة وقيل اراد به جميع الانفاق في جميع وجوه الخير والبر والحمل على العموم اولى ويدخل فيه الزكوة دخولا اوليا سِرًّا وَعَلَانِيَةً قال الفراء اي مسرين ومعلنين اوانفاق سر وعلانية او وقت سر وعلانية فالانتصاب على الحال او المصدر او الظرف قال الجمهور السر ماخفي والعلانية ما ظهر وقيل السر التطوع والعلانية الفرض وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله ان تبدوا الصدقات فنعما هي مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ قال ابو عبيدة البيع ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر قال الواحدي هذا قول جميع اهل اللغة وقال ابو علي الفارسي جمع خلة مثل قلة وقلال وبرمة وبرام وعلبة وعلاب والمعنى ان يوم القيامة لابيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك وليس هناك مخالة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب فامرهم سبحانه بالانفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله سبحانه ماداموا في الحيوة الدنيا قادرين على انفاق اموالهم من قبل

ان ياتي يوم القيامة فانهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم اذ ذاك فالجملة لتاكيد مضمون الامر بالانفاق
مما رزقهم الله ويمكن ان يكون فيها ايضا تاكيد لمضمون الامر باقامة الصلوة وذلك لان تركها
كثيرا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الاخلاء قيل هذه الاية الدالة على نفي الخلة
محمولة على نفيها بسبب ميل الطبيعة وشهوة النفس والاية الدالة على حصول الخلة وثبوتها كقوله
سبحانه في الزخرف الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين محمولة على الخلة الحاصلة بسبب
محبة الله الا تراه اثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة احوالا مختلفة
ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت
تلك المخالة لله تعالى في محبته وقد تقدم تفسير البيع والخلال اَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ
اي ابدعهما واخترعهما على غير مثال سبق وخلق ما فيهما من الاجرام العلوية والسفلية وانما
بدأ بذكر خلقهما لانهما اعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار
ذكر لهذا الموصول سبع صلات تشتمل على عشرة ادلة على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته وَاَنْزَلَ
مِنَ السَّمَآءِ مَآءً المراد بالسماء هنا جهة العلو فانه يدخل في ذلك الفلك عند من قال ان ابتداء المطر
منه ويدخل فيه السحاب عند من قال ان ابتداء المطر منها ويدخل فيه الاسباب التي تثير السحاب
كالرياح قيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الريح ومن الريح الى الارض وتنكير
الماء هنا للنوعية اي نوعا من انواع الماء وهو ماء المطر فَاَخْرَجَ بِهٖ اي بذلك الماء مِنَ الثَّمَرٰتِ
المتنوعة رِزْقًا لَّكُمْ اي لبني ادم يعيشون به ومن للبيان كقولك انفقت من الدراهم وقيل للتبعيض
لان الثمرات منها ما هو رزق لبني ادم ومنها ما هو ليس برزق لهم وهو ما لا ياكلونه ولا ينتفعون
به والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع ايضا كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا اثمر
واتوا حقه يوم حصاده وقيل المراد به ما يشمل المطعوم والملبوس وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ اي السفن الجارية
على الماء فجرت على ارادتكم لاجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد
الى بلد اخر فاستعملتموها في مصالحكم ولذا قال لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ كما تريدون وعلى ما تطلبون بالركوب والحمل
ونحو ذلك بِاَمْرِهٖ اي بامر الله ومشيته واذنه وقد تقدم تفسير هذا في البقرة وَسَخَّرَ لَكُمُ الْاَنْهٰرَ
بلا فائدة قاله مجاهد اي ذللها لكم بالركوب عليها والاجراء لها الى حيث تريدون وهو من اعظم

نعم الله على عباده وسخر لكم الشمس والقمر لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما دائبين الدؤب
مرور الشيء في العمل على عادة جارية والدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب في
السير داوم عليه ودأب في عمله جد وتعب وبابه قطع وخضع فهو دائب بالالف لاغير والدائبان
الليل والنهار والدأب بسكون الهمزة العادة والشأن وقد يحرك ومعنى دائبين يجريان دائما
في اصلاح ما يصلحانه من النبات والحيوان وازالة الظلمة لان الشمس سلطان النهار وبها تعرف
فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل
وانعامه على عباده وقيل دائبين في السير امتثالا لامر الله قال ابن عباس دؤبهما في طاعة
الله والمعنى تجريان الى يوم القيامة ولا تفتران ولا ينقطع سيرهما في فلكهما وهو السماء الرابعة
للشمس وسماء الدنيا للقمر الى اخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها وسخر لكم الليل والنهار
يتعاقبان فالنهار لسعيكم في امور معاشكم وما تحتاجون اليه من امور دنياكم والليل لتسكنوا
فيه كما قال سبحانه ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولم يقتصر
على النعم المتقدمة بل وآتاكم من كل نوع وصنف ما سألتموه قال الاخفش اي اعطاكم
من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر وقيل المعنى من كل ما سألتم ومن كل ما
لم تسألوه قاله ابن الانباري لان نعمه علينا اكثر من ان تحصى وقيل من زائدة وبه قال الاخفش
اي آتاكم كل ما سألتموه وقيل للتبعيض اي بعض ما سألتموه وهو رأي سيبويه قال عكرمة اي
من كل شيء رغبتم اليه فيه وعن مجاهد مثله وعن الحسن من كل الذي سألتموه وقرئ
من كلٍ بتنوين وعلى هذا لما نافية حرفية اي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له او
مصدرية او موصولة اسمية وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها اي وان تتعرضوا لتعداد النعم
التي انعم الله تعالى بها عليكم اجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا احصاءها بوجه من الوجوه و
لا تقوموا بحصرها على حال من الاحوال وفي السمين النعمة هنا بمعنى المنعم به واصل الاحصاء ان
الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظه بها ومن المعلوم انه لو
رام فرد من افراد العباد ان يحصي ما انعم الله به عليه في خلق عضو من اعضائه او حاسة من
حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا امكنه اصلا فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه

فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة اليه في كل وقت على تنوعها واختلاف اجناسها اللهم
نشكرك على كل نعمة انعمت بها علينا مما لا يعلمه الا انت ومما علمناه شكرا لا يحيط به حصر ولا يحصره
عد وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان قال سليمان التيمي ان الله انعم على العباد
على قدرة وكلفهم الشكر على قدرهم وعن بكر بن عبد الله المزني قال يا ابن آدم ان اردت ان تعلم
قدر ما انعم الله عليك فغمض عينيك وعن ابي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال من لم يعرف نعمة الله
عليه الا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه وعن ابي ايوب القرشي قال قال داؤد
عليه السلام رب اخبرني ما ادنى نعمتك علي فاوحى اليه يا داؤد تنفس فتنفس فقال هذا ادنى
نعمتي عليك إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ لنفسه باغفاله لشكر نعم الله عليه وقيل الظلوم الشاكر لغير من
انعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه وظاهره شمول كل انسان وقال الزجاج ان الانسان اسم جنس
يقصد به الكافر خاصة كما قال ان الانسان لفي خسر وقيل يريد ابا جهل والاول اولى كَفَّارٌ اي شديد
كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها كما ينبغي ويجب عليه عن عمر بن الخطاب
قال اللهم اغفر لي ظلمي وكفري فقال قائل يا امير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر قال ان الانسان
لظلوم كفار وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ اي واذكر
وقت قوله ولعل المراد بسياق ما قاله ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم
وهي اسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة وقيل ان ذكر قصة ابراهيم ههنا لمثال الكلمة
الطيبة وقيل لقصد الدعاء الى التوحيد وانكار عبادة الاصنام وهذه القصة كانت بعد ما وقع
له من الالقاء في النار وفي تلك لم يسأل ولم يدع بل اكتفى بعلم الله بحاله وفي هذه قد دعا وتضرع
ومقام الدعاء اجل واعلى من مقام تركه اكتفاء بعلم الله كما قاله العارفون فيكون ابراهيم قد
ترقى وانتقل من طور الى طور من اطوار الكمال رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ اي مكة آمِنًا اي ذا امن
الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقدم طلب الامن على سائر المطالب المذكورة بعده لانه اذا انتفى
الامن لم يفرغ الانسان لشيء آخر من امور الدنيا والدين وقد تقدم تفسير مثل هذه الاية في
البقرة عند قوله تعالى رب اجعل هذا بلدا امنا والفرق بين ما هنا وهنالك ان المطلوب هنا
مجرد الامن للبلد والمطلوب هنالك البلدية والامن وفي الجمل فسر الشارح البلد هنا بمكة وفي

سورة البقرة بالمكان فيقتضي ان هذا الدعاء وقع مرتين مرة قبل بنائها ومرة بعده ولذلك
كتب الكرخي هنا ما نصه نكر البلد هنا وعرفه في ابراهيم لان الدعوة هنا كانت قبل جعل
المكان بلدا فطلب من الله ان يجعل ويصير بلدا امنا وثم كانت بعد جعله بلدا انتهى وقال
الزمخشري سأل في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي يامن اهلها ولا يخافون وفي الثاني ان
يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الامن كانه قال هو بلد مخوف فاجعله امنا
انتهى ذلك والمعاني متقاربة والمراد من الدعاء جعل مكة امنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله
ولم يقدر احد على تخريبها وان اغار جماعة من الجبابرة عليها واخافوا اهلها وقيل هو عام مخصوص
بقصة ذي السويقتين من الحبشة على ما في الصحيحين فلا تعارض بين النصين او المراد جعل اهل
هذا البلد امنين بهذا الوجه عليه اكثر المفسرين وغيرهم وهذا الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها
الى الآن قال السيوطي وقد اجاب الله دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه احد
ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه واجنبني وبني ان نعبد الاصنام يقال جنبته كذا واجنبته اي باعدت
عنه ثلاثيا ورباعيا وهي لغة نجد وجنبه اياه مشددا وهي لغة الحجاز وهو المنع واصله من الجانب
كانه سأله ان يبعده عن جانب الشرك بالطاف منه واسباب خفية والمعنى باعدني وباعد بني عن عبادة الاصنام
قيل اراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية وقيل اراد من كان موجودا حال دعوته من بنيه وبني بنيه
وقيل اراد جميع ذريته ما تناسلوا قيل ويؤيد ذلك ما قيل من انه لم يعبد احد من اولاد ابراهيم
صنما والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه اهل الجاهلية من الاحجار ونحوها فيعبدونه والتأييد
هذا يستقيم على القولين الاولين واما القول الثالث فلا يستقيم فقريش من اولاد اسماعيل وقد
عبدوا الاصنام بلا شك وقال الواحدي المعنى وبني الذين اذنت لي في الدعاء لهم وقد كان من بنيه
من عبد الصنم فيكون هذا الدعاء من العام المخصوص وتميل هذا المختص بالمؤمنين من اولاده بدليل
قوله في اخر الاية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فليس منه وعن مجاهد
قال فاستجاب الله لابراهيم دعوته في ولده فلم يعبد احد من ولده صنما بعد دعوته واستجاب الله له
وجعل هذا البلد امنا ورزق اهله من الثمرات وجعله اماما وجعل من ذريته من يقيم الصلوة
وتقبل دعاءه فاراه مناسكه وتاب عليه قيل هو دعاء لنفسه في مقام الخوف او قصد به الجمع

بينه وبين بنيه ليستجاب لهم ببركته والمراد طلب الثبات والدوام على ذلك رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ اسند الاضلال الى الاصنام مع كونها جمادات لا تعقل لانها سبب لضلالهم فكانها
اضلتهم وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه واعادة النداء لتاكيد النداء وكثرة الابتهال والتضرع
وهذا التركيب مجاز كقولهم فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال فَمَن
تَبِعَنِي اي من تبع ديني من الناس فصار مسلما موحدا فَإِنَّهُ مِنِّي اي من اهل ديني جعل اهل ملته
كنفسه مبالغة وَمَنْ عَصَانِي فلم يتابعني ولم يدخل في ملتي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قادر على ان تغفر له
قيل قال هذا قبل ان يعلم ان الله لا يغفر ان يشرك به كما وقع منه الاستغفار لابيه وهو مشرك قاله
ابن الانباري وقيل المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك قاله مقاتل وقيل ان هذه المغفرة مقيدة
بالتوبة من الشرك قاله السدي وقيل تغفر له بان تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه
الى الصواب والاول اولى ثم قال رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي قال الفراء من للتبعيض اي بعض ذريتي
وقال ابن الانباري انها زائدة اي اسكنت ذريتي والاول اولى لانه انما اسكن اسماعيل وهو بعض
ولده وامه هاجر بِوَادٍ هو المنخفض بين الجبلين غَيْرِ ذِي زَرْعٍ اي لا زرع فيه قط وهو وادي مكة
او لا يصلح للانبات لانه ارض حجرية لا تنبت شيئا نفيا ان يكون اسكانهم لاجل الزراعة عِندَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ اي الذي كان قبل الطوفان واما وقت دعائه فلم يكن وانما كان تلا من الرمل واما البيت فقد
رفع الى السماء من حين الطوفان ولو جعل التجوز باعتبار ما يؤول لكان صحيحا ايضا يعني انه سيعمره او
بيتك الذي جرى في سابق علمك انه سيحدث في هذا المكان والمحرم الذي يحرم فيه ما يستباح
في غيره ولان الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه او لانه حرم على
الطوفان اي منع منه كما سمي عتيقا لانه اعتق منه وقيل انه محرم على الجبابرة وقيل محرم من ان
تنتهك حرمته او يستخف به وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الاعادة اخرج الواقدي
وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن ابيه قال كانت سارة تحت ابراهيم فمكثت تحته دهرا لا ترزق
منه ولدا فلما رأت ذلك وهبت له هاجر امة لها قبطية فولدت له اسماعيل فغارت من ذلك
سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر فحلفت ان يقطع منها ثلاثة اطراف فقال لها
ابراهيم هل لك ان تبري يمينك قالت كيف اصنع قال اثقبي اذنيها واخفضيها والخفض هو الختان

ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في اذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا فقالت سارة انى انما زدتها جمالا فلم تقاره على كونه معها ووجد بها ابراهيم وجدا شديدا فنقلها الى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها ثم قال رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ اللام لام كي اي ما اسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتفق ومرتزق الا لاقامة الصلوٰة فيه متوجهين اليه متبركين به وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ولعل تكرير النداء وتوسيطه لاظهار العناية الكاملة بهذه العبادة وللاشعار بانها المقصودة بالذات من اسكانهم ثم والمقصود من الدعاء توفيقهم لها وقيل اللام لام الامر والمراد الدعاء لهم باقامة الصلوٰة كانه طلب منهم الاقامة وسال من الله ان يوفقهم لها اثبت ان الاقامة عنده للعبادة وقد نفي كونها للكسب فجاء الحصر فَاجْعَلْ اَفْئِدَةً الافئدة جمع فؤاد وهو القلب عبر به عن جميع البدن لانه اشرف عضو فيه وقيل هو جمع وفد والاصل اوفدة فكانه قال واجعل وفودا مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ اِلَيْهِمْ من للتبعيض وقيل زائدة ولا يلزم منه ان يحج اليهود والنصارى لدخولهم تحت لفظ الناس لان المطلوب توجيه قلوب الناس اليهم للسكون معهم والجلب اليهم لا توجيهها الى الحج ولو كان هذا مرادا لقال تهوي اليه وقيل من للابتداء كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي ومعنى تهوي اليهم تنزع اليهم لزيادة بيتك لا لذواتهم واعيانهم وفي هذا بيان ان حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم يقال هوى نحوه اذا مال وهوت الناقة تهوي هويا فهي هاوية اذا عدت عدوا شديدا كانها تهوي في بئر ويحتمل ان يكون المعنى تجيء اليهم او تسرع اليهم وقيل تحن وتطير وتشتاق اليهم واصله ان يتعدى باللام وانما تعدي بالى لانه ضمن معنى تميل قال السدي امل قلوبهم الى هذا الموضع وقيل تريدهم قاله الفراء وقيل تنحط اليهم وتنحدر وتنزل وهذا قول اهل اللغة والمعاني متقاربة قال ابن عباس لو قال افئدة الناس لازدحمت عليه فارس والترك والروم والهند وحج اليهود والنصارى والناس كلهم ولكنه قال افئدة من الناس فخص به المؤمنين اخرجه البيهقي قال السيوطي بسند حسن وفيه دعاء للمؤمنين بان يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن ياتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم في هذا الدعاء من امر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته وَارْزُقْهُمْ اي ذريتي

الذين اسكنتهم هنالك اوايا هم ومن يساكنهم من الناس من انواع الثمرات التي تنبت فيه او تجلب اليه كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصيل تلك الثمار او المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة لقوله تعالى تجبى اليه ثمرات كل شيء وهذا اولى لعلهم يشكرون نعمتك التي انعمت بها عليهم قال محمد بن مسلم ان ابراهيم لما دعى للحرم نقل الله الطائف من فلسطين وعن الزهري قال ان الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم واما اجابة قوله فاجعل افئدة الخ فقد حصلت بحرهم وقد استمر قصد الحجاج والعمار لهذا البيت كل عام الى آخر الزمان ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن اي ما نكتمه وما نظهره لان الظاهر والمضمر بالنسبة اليه سبحانه سيان لا تفاوت فيهما قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره وقدم الاخفاء على الاعلان للدلالة على انهما مستويان في علم الله سبحانه وظاهر النظم القراني عموم كل ما يظهره وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك وقيل المراد ما يخفيه ابراهيم من وجده باسمعيل وامه حيث اسكنهما بواد غير ذي زرع وما يعلنه من ذلك وقيل ما يخفيه ابراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء و المجيء بضمير الجماعة يشعر بان ابراهيم لم يرد نفسه فقط بل اراد جميع العباد فكان المعنى ان الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقا لما قاله ابراهيم من انه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه فقال سبحانه ما يخفى عليه شيء من الاشياء الموجودة كائنا ما كان وانما ذكر السموات والارض لانهما المشاهدتان للعباد والا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية قيل ويحتمل ان يكون هذا من قول ابراهيم تحقيقا لقوله الاول وتعميما بعد التخصيص فان قيل بالاول فهو اعتراض بين كلامي ابراهيم وان قيل بالثاني ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة اليه فقال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اي كبر سني وسن امرأتي اسمعيل واسحق قيل ولد له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثني عشرة سنة وقيل على هنا بمعنى مع اي مع كبري ويأسي عن الولد ان عن سعيد بن جبير قال بشر ابراهيم بعد

سبع عشرة ومائة سنة وهبة الولد في هذا السن من اعظم المنن لانه سن الياس فلهذا شكر الله على هذه المنة وهذا قاله ابراهيم في وقت آخر لاعقيب ما تقدم من الدعاء لان الظاهر انه دعا بذلك الدعاء المتقدم اول ما قدم بهاجر وابنها وهي ترضعه ووضعها عند البيت واسحاق لم يولد في ذلك الوقت قال الكرخي وزمان الدعاء والحمد مختلف فان الدعاء في طفولية اسماعيل ولم يكن اسحاق حينئذ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ اي لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه اذا اجابه واعتد به وعمل بمقتضاه وهو من اضافة الصفة المتضمنة للمبالغة الى المفعول والمعنى انك لكثير اجابة الدعاء لمن يدعوك وكان ابراهيم قد دعا به فسأله الولد بقوله رب هب لي من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ ثم سأل الله سبحانه بان يجعله مقيم الصلوة محافظا عليها غير مهمل لشئ منها فقال رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلٰوةِ اي ممن يقيمها باركانها ويحافظ عليها في اوقاتها ثم قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي اي اجعلني واجعل بعض ذريتي مقيمين للصلوة وانما خص البعض من ذريته لانه علم ان منهم من لا يقيمها كما ينبغي ثم سأل الله سبحانه ان يتقبل دعاءه على العموم فقال رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولا اوليا قيل والمراد بالدعاء هنا العبادة فيكون المعنى وتقبل عبادتي التي اعبدك بها ثم طلب من الله سبحانه ان يغفر له ما وقع منه مما يستحق ان يغفره الله وان لم يكن كبيرا لما هو معلوم من عصمة الانبياء عن الكبائر فقال التجاء الى الله وقطعا للطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه واعترافا بالعبودية لله والاتكال على رحمته رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ قيل انه دعى لهما بالمغفرة قبل ان يعلم انهما عدوان لله سبحانه وقيل بشرط الاسلام وقيل كانت امه مسلمة والاول اولى وقيل اراد بوالديه ادم وحوى وفيه بعد وقرئ شاذا ولولدي يعني اسماعيل واسحاق وانكره الجحدري بان في مصحف ابي في مفسرة لقراءة العامة وَلِلْمُؤْمِنِينَ ظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته ام لم يكن منهم وقيل اراد المؤمنين من ذريته فقط والاول اولى والله تعالى لا يرد دعاء خليله ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة اللهم اغفر لي مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا واني من ذرية خليلك ابراهيم فاغفر لي ولمن اخلفه من المؤمنين يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ اي يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقة في

في قيام الرجل للدلالة على انه في غاية الاستقامة وقيل ان المعنى يوم يقوم الناس للحساب وقيل يبدو ويظهر فيه الحساب والاول اولى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان اي لا تظنن الله غافلا ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو تعريض لامته فكأنه قال ولا تحسب امتك يا محمد ويجوز ان يكون خطابا لكل من يصلح له من المكلفين وان كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من غير تعريض لامته فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله ولا تكونن من المشركين ونحوه وقيل المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم او يكون المراد بالنهي عن الحسبان الايذان بانه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية قال ميمون بن مهران في الآية هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم وعن سفيان بن عيينة نحوه والغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم واعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضاء بافعالهم بل سنة الله سبحانه في امهال العصاة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ اي يؤخر جزاءهم عذابهم ولا يؤاخذهم بظلمهم وهذه الجملة استيناف وقع تعليلا للنهي السابق ﴿لِيَوْمٍ﴾ اي لاجل يوم فاللام للعلة وقيل بمعنى الى التي للغاية ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ اي ابصارهم فلا تقر في اماكنها قال الفراء المعنى ترفع فيه ابصار اهل الموقف ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم شخوص البصر حدة النظر وعدم استقراره في مكانه يقال شخص شخص وبصره واشخصها صاحبها وشخص بصره اي لم يطرف جفنه ويقال شخص من بلد الى بلد بعد والشخص سواد الانسان المرئي من بعيد والمراد ان الابصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة قال قتادة شخصت فيه والله ابصارهم فلا ترتد اليهم وقيل ال للعهد وقيل لو حمل على العموم كان ابلغ في التهويل واسلم من التكرير ﴿مُهْطِعِينَ﴾ اي مسرعين قاله قتادة وزاد في الجمل الى الداعي وهو اسرافيل وقيل هو جبريل والنافخ اسرافيل قال الشهاب وهو الاصح كما دلت عليه الآثار وقيل المهطع الذي يديم النظر قاله مجاهد قال ابو عبيدة قد يكون الوجهان جميعا يعني الاسراع مع ادامة النظر وقيل المهطع الذي لا يرفع راسه وقال ثعلب المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع وقيل هو الساكت قال النحاس والمعروف في اللغة

اهطع اذا اسرع وبه قال ابو عبيدة قال ابن عباس يعني بالاهطاع النظر من غير ان يطرف مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ اقناع الراس رفعه واقنع صوته اذا رفعه قال ابن عباس الاقناع رفع الراس والمعنى انهم يومئذ رافعون رؤسهم الى السماء ينظرون اليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم الى بعض وقيل ان اقناع الراس نكسه وقيل يقال اقنع راسه اذا طأطأ ذلة وخضوعا والاية محتملة للوجهين قال المبرد والقول الاول اعرف في اللغة لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ اي لا ترجع اليهم ابصارهم من شدة الخوف واصل الطرف تحريك الاجفان وسميت العين طرفا لانه يكون لها وقال ابن عباس يعني شاخصة ابصارهم قد شغلهم ما بين ايديهم وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ الهوى في اللغة المجوف الخالي الذي لم تشغله الاجرام والمعنى ان قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش وجعلها نفس الهوى مبالغة منه وقيل للاحمق والجبان قلبه هوى اي لا رأي فيه ولا قوة وقيل معنى الاية انها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر لا تخرج من افواههم ولا تعود الى اماكنها وقيل هواء بمعنى مترددة تهوي في اجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه وقيل المعنى ان افئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير قال ابن عباس ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة قال قتادة ليس فيها شيء خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم وعن مرة قال متخرقة لا تعي شيئا وقيل المعنى وافئدتهم ذات هواء ومما يقارب معنى هذه الاية قوله تعالى واصبح فؤاد ام موسى فارغا اي خاليا من كل شيء الا من هم موسى عليه السلام والحاصل ان القلوب يومئذ زائلة عن اماكنها والابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته وَأَنْذِرِ النَّاسَ هذا رجوع الى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم امره الله سبحانه بان ينذرهم والمراد الناس على العموم وقيل المراد كفار مكة وقيل الكفار على العموم والاول اولى لان الانذار كما يكون للكافر يكون ايضا للمسلم ومنه قوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ اي يوم القيامة قاله مجاهد اي خوفهم يوم اتيان العذاب وانما اقتصر على ذكر اتيان العذاب فيه مع كونه يوم اتيان الثواب ايضا لان المقام مقام تهديد وقيل المراد به يوم موتهم فانه اول اوقات اتيان العذاب وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل فَيَقُولُ

الذين ظلموا المراد بهم هنا هم الناس اي فيقولون والعدول الى الاظهار مكان الاضمار للاشعار بان الظلم هو العلة فيما نزل بهم هذا اذا كان المراد بالناس هم الكفار وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين فالمعنى فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ربنا اخرنا اي امهلنا الى اجل قريب اي امد من الزمان معلوم غير بعيد نجب دعوتك لعبادك على ألسن انبيائك الى توحيدك ونتبع الرسل المرسلين منك الينا فنعمل بما بلغوه الينا من شرائعك ونتدارك ما فاتنا من الاهمال وانما جمع الرسل لان دعوتهم الى التوحيد متفقة فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم وهذا منهم سؤال للرجوع الى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ثم حكى الله سبحانه ما يجاب به عنهم عندان يقولوا هذه المقالة فقال اولم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال اي فيقال لهم هذا القول توبيخا وتقريعا من قبل الله او الملائكة والاستفهام تقريري قال ابن عباس من زوال عما انتم فيه الى ما تقولون وقال السدي بعث بعد الموت اي الم تكونوا اقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا وقيل انه لا قسم منهم حقيقة وانما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات واخلادهم الى الحياة الدنيا وقيل قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت فجواب القسم ما لكم من زوال وانما جاء بلفظ الخطاب في ما لكم لمراعاة اقسمتم ولولا ذلك لقال ما لنا من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم اي استقررتم يقال سكن الدار وسكن فيها وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا انفسهم بالكفر بالله والعصيان له وقال الحسن عملتم بمثل اعمالهم وتبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوا من الذنوب قال بعض الكوفيين اي تبين لكم فعلنا التعجيب بهم وقيل فاعله مضمر لدلالة الكلام عليه اي حالهم وخبرهم وهلاكهم وضربنا لكم الامثال في كتب الله وعلى ألسن رسله ايضاحا لكم وتقريرا وتكميلا للحجة عليكم وقد مكروا اي فعلنا بهم ما فعلنا والحال انهم قد مكروا في رد الحق واثبات الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه وسعهم وقيل المراد كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين هموا بقتله ونفيه كما ذكر في سورة الانفال والاول اولى وعند الله مكرهم اي عمله او جزاؤه او مكتوب مكرهم فهو مجازيهم عند الله مكرهم الذي يمكرهم به على ان

يكون المكر مضافا الى المفعول وقيل المراد ما وقع من النمرود حيث حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا وربط قوائمه باربعة نسور وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه بالطول من هذا وروي نحو هذه القصة لبخت نصر وللنمرود من طرق ذكرها في الدر المنثور واستبعدها بعض اهل العلم وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل ان يقدم على مثل هذا الامر العظيم الذي ذكروه وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه القصة بتاويل الآية البتة ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وقرئ كاد موضع كان وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته اي وان الشان كان مكرهم معدا لذلك قال الزجاج وان كان مكرهم يبلغ في الكيد الى ازالة الجبال فان الله ينصر دينه وعلى قراءة الجمهور المعنى ومحال ان تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهور المشبهة بها في القرار والبقاء واللام لام الجحود والفعل منصوب بان مضمرة وجوبا بعدها وقال ابن عباس مكرهم شركهم وفي قراءة بفتح لام لتزول واللام الداخلة عليه هي لام الابتداء والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل المراد بالمكر كفرهم ويناسبه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ المعنى مخلف رسله وعده قال القتيبي هو من المقدم الذي يوضحه التاخير والمؤخر الذي يوضحه التقديم وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده وقال الزمخشري قدم الوعد ليعلم انه لا يخلف الوعد اصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده احدا وليس من شانه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله انا لننصر رسلنا وكتب الله لاغلبن انا ورسلي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالبه احد ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من اعدائه لاوليائه والجملة تعليل للنهي وقد مر تفسيره في اوائل عمران قال قتادة عزيز والله في امره يملي وكيده متين ثم اذا انتقم انتقم بقدرة ﴿يَوْمَ﴾ اي اذكر وارتقب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ المشاهدة ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم بالدنانير وقد يكون في الصفات كما بدلت الحلقة خاتما والآية تحتمل الامرين وبالثاني قال الاكثر ﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ اي وتبدل السموات غير السموات ثم الآية ما قبله عليه على الاختلاف الذي مر وتقديم تبديل الارض لقربها ولكون تبديلها اعظم

اثرا بالنسبة الينا واخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال جاء رجل من اليهود الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال اين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظلمة
دون الجسر واخرج مسلم ايضا وغيره من حديث عائشة قالت انا اول من سال رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن هذه الاية قلت اين الناس يومئذ قال على الصراط والصحيح على هذا ازالة عين هذه الارض
واخرج البزار وابن المنذر والطبراني في الاوسط والبيهقي وابن عساكر وابن مردويه عن ابن مسعود
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله يوم تبدل الارض غير الارض قال ارض بيضاء كانها
فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل بها خطيئة قال البيهقي والموقوف اصح وفي الباب روايات قد
روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرصة نقي وفيهما
ايضا عن حديث ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الارض يوم القيامة خبزة
واحدة يتكفاها الجبار بيده الحديث وقد اطال القرطبي في بيان ذلك في تفسيره وفي
تذكرته وحاصله ان هذه الاحاديث نص في ان الارض والسموات تبدل وتزال ويخلق
الله ارضا اخرى تكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس
ان تبديل الارض عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية اكامها ونسف جبالها ومد ارضها ثم قال
وذكر شبيب بن ابراهيم في كتاب الافصاح انه لا تعارض بين هذه الاثار وانها تبدلان كرتين
احداهما هذه الاولى قبل نفخة الصعق والثانية اذا وقفوا في المحشر وهي ارض عفراء من فضة
لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى عليها ظلم ويقوم الناس على الصراط على متن جهنم ثم ذكر في
موضع اخر من التذكرة ما يقتضي ان الخلائق وقت تبديل الارض تكون في ايدي الملائكة رافعين
لهم عنها قال في الجمل فتحصل من مجموع كلامه ان تبديل هذه الارض بارض اخرى من فضة يكون
قبل الصراط وتكون الخلائق اذ ذاك مرفوعة في ايدي الملائكة وان تبديل الارض بارض من خبز
يكون بعد الصراط وتكون الخلائق اذ ذاك على الصراط وهذه الارض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم
الجنة وبرزوا اي العباد والظالمون كما يفيده السياق اي ظهروا من قبورهم ليستوفوا جزاء
اعمالهم وهذه هي علة الخروج او ظهر من اعمالهم ما كانوا يكتمونه والتعبير عن المستقبل بالماضي

للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله ونفخ في الصور لله الواحد القهار المتفرد بالالوهية الكثير القهر لمن عانده وترى التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة المجرمين اي المشركين يومئذ اي يوم القيامة مقرنين اي مشددين في الاصفاد اما يجعل بعضهم مقرونا مع بعض قاله ابن قتيبة اي بحسب مشاركتهم في العقائد والاعمال كقوله واذا النفوس زوجت او قرنوا مع الشياطين كما في قوله نقيض له شيطانا فهو له قرين او مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة او جعلت ايديهم مقرونة الى ارجلهم قاله ابن زيد والمقرن من جمع في القرن وهو الحبل الذي يربط به والاصفاد الاغلال والقيود قاله قتادة يقال صفدته صفدا اي قيدته والاسم الصفد بفتحتين فاذا اردت التكثير قلت صفدته ويقال صفدته في اصفدته اذا اعطيته قال ابن عباس الكبول وعنه يقول في وثاق قال سعيد بن جبير السلاسل سرابيلهم هي القمص قاله السدي وعن ابن زيد مثله واحدها سربال يقال سربلته اي البسته السربال من قطران هو قطران الابل الذي تهنا به قاله الحسن اي قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلا كالسرابيل وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه ولذعه مع نتن رائحته ووحشة لونه وقال جماعة هو النحاس المذاب وبه قال عمر وابن عباس قال عكرمة هذا القطران يطلى به حتى يشتعل نارا وقال سعيد بن جبير القطر الصفر والآن الحار وعن عكرمة نحوه والقطران فيه لغات بفتح القاف وكسر الطاء وهي قراءة العامة وبزنة سكران وبزنة سرحان وهو ما يستخرج من شجر فيطبخ ويطلى به الابل ليذهب جربها الحدة وقيل هو دهن يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء ولو اراد الله المبالغة في احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون واخرج مسلم وغيره عن ابي مالك الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب وتغشى اي تعلو وجوههم النار وتضربها وتتخللها وقلوبهم ايضا وخص الوجوه لانها اشرف ما في البدن وفيها الحواس المدركة ليجزي اي يفعل ذلك بهم ليجزي الله متعلق ببرزوا والجمل التي بينهما اعتراض كما في السمين كل نفس ما كسبت من المعاصي اي جزاء موافقا لما كسبت من خير او شر ان الله سريع الحساب لا يشغله عنه شيء ولا حساب عن حساب بل يحاسب

جميع الخلق في قدر نصف نهار من ايام الدنيا الحديث بذلك وقد تقدم تفسيره هذا بلاغ
اي هذا الذي انزل اليك تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير ومبلغ وموصل للناس الى مراتب
السعادة قيل ان الاشارة الى ما ذكره سبحانه هنا من قوله ولا تحسبن الله غافلا الى سريع الحساب
اي هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة وقيل الاشارة الى جميع السورة وقيل الى
القران وبه قال ابن زيد وفيه من المحسنات رد العجز على الصدر فقد افتتحت هذه السورة بقوله
كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور للناس اي للكفار او لجميع الناس على ما قيل في قوله
ولينذروا الناس اي انزل لتبليغهم الى ما فيه رشدهم ونفعهم اي لايصالهم الى الخير ولينذروا
به اي بالقران قاله ابن زيد اي لينصحوا والمعنى ليخوفوا به وقرئ بفتح التحتية والذال المعجمة يقال
نذرت بالشيء انذر اذا علمت به واستعددت له وليعلموا بالادلة التكوينية المذكورة سابقا
او بالقران بما فيه من الحجج انما هو اله واحد لا شريك له وليذكر اولوا الالباب اي وليتعظ
اصحاب العقول السليمة والافهام الصحيحة وهذه اللامات متعلقة بمحذوف والتقدير وكذلك
انزلنا او متعلقة بالبلاغ المذكور اي كفاية لهم في ان ينصحوا وينذروا ويعلموا بما اقام الله من الحجج و
البراهين وحدانيته سبحانه وانه لا شريك له وليتعظ بذلك ارباب العقول التي تعقل وتدرك

سورة الحجر

مكية بالاتفاق والاجماع كما قال القرطبي وعن ابن عباس وابن الزبير مثله وهي تسع وتسعون اية
والحجر واد بين المدينة والشام بسم الله الرحمن الرحيم الر قد تقدم الكلام عليه في محله مستوفى
مرادا تلك اي ما تضمنته السورة من الايات ايات الكتاب التعريف للتفخيم وقيل هو للجنس
والمراد جنس الكتب المنزلة المتقدمة قال مجاهد يعني التوراة والانجيل وقيل المراد به هذه السورة
والاضافة بمعنى من وقيل المراد القران ولا يقدح في هذا ذكر القران بعد الكتاب فقد قيل انه
جمع له بين الاسمين عطفا للتغاير اللفظي لاجل التعدد في الاسم بزيادة صفة وقران مبين اي
الكامل الظاهر رشده وهداه وخيره وتنكير القران للتفخيم

ربما يود الذين كفروا

قرئ ربما بالتخفيف والتشديد وهما لغتان قال ابو حاتم اهل الحجاز يخففون وتميم وربيعة يثقلون
واصلها ان تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير قال الكوفيون اي يود الكفار في اوقات كثيرة
والتكثير بالنظر للمرات من التمني لا ينافي القليل الاخر لانها للتقليل من حيث ازمان الاقامة وقيل هي
هنا للتقليل لانهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب وقيل ان هذا التقليل
ابلغ في التهديد فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في احيان قليلة وقيل
معناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره قيل وما هنا لحقت
رب لتهيأ للدخول على الفعل وقيل نكرة بمعنى شيء وانما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها
لا تدخل الا على الماضي لان المترقب في اخباره سبحانه كالواقع المحقق فكانه قيل ربما ود الذين كفروا
بهذا الكتاب والقرآن فهذا امر تنبط بما قبله لو كانوا مسلمين اي منقادين لحكمه مذعنين له من
جملة اهله وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم او يوم القيامة والمراد انه لما انكشف لهم الامر واتضح
بطلان ما كانوا عليه من الكفر وان الدين عند الله سبحانه هو الاسلام لا دين غيره حصلت منهم
هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في
جنب الله وقيل كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين وقيل عند خروج عصاة
الموحدين من النار والظاهر ان هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد
انكشاف الامر لهم ولو مصدرية او امتناعية وجوابها محذوف اي لسروا بذلك او تخلصوا مما هم فيه
والاول اولى والتعبير عن متمناهم بالغيبة نظرا للاخبار عنهم ولو نظر لصدوره منهم لقيل لو كنا
عن ابن عباس وابن مسعود وناس من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا ود المشركون يوم بدر حين ضربت
اعناقهم فعرضوا على النار انهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود قال هذا في الجهنميين اذا
رأوهم يخرجون من النار وعن ابن عباس قال لا يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول
من كان مسلما فليدخل الجنة فذلك قوله ربما يود الذين كفروا وعن ابن عباس وانس انهما تذاكرا
هذه الآية فقالا حيث يجمع الله من اهل الخطايا من المشركين والمسلمين في النار فيقول المشركون ما اغنى عنكم ما كنتم
تعبدون فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته اخرجه البيهقي في البعث وابن المبارك في الزهد واخرج الطبراني في الاوسط
بسند قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ناسا من امتي يعذبون بذنوبهم

فيكونون في النار ما شاء الله ان يكونوا ثم يعيرهم اهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم فيه من
تصديقكم نفعكم فلا يبقى احد الا اخرجه الله من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وفي الباب
احاديث مرفوعة عن جمع من الصحابة في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية ذرهم يأكلوا
ويتمتعوا هذا تهديد لهم اي خل هؤلاء الكفرة وعهم عما انت بصدده من الامر لهم والنهي فهم لا يرعوون ابدا ولا يخرجون
من باطل ولا يدخلون في حق بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالاكل والتمتع بزهرة الحيوة الدنيا
ومن الهاء الامل لهم عن اتباعك فانهم كالانعام التي لا تهتم الا بذلك ولا تشتغل بغيره وهذا الامر لا يستعمل
له ماض الا قليلا استغناء عنه بترك بل يستعمل منه المضارع نحو ونذرهم في طغيانهم ومن مجيء
الماضي قوله صلى الله عليه وسلم ذروا الحبشة ما وذرتكم وتركوك وودر يكونان بمعنى صير اي ذرهم مهملين
اي اترك كفار مكة والعموم اولى ويلههم الامل اي يشغلهم طول الامل والعمر وبلوغ الوطر واستقامة
الحال عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى يقال الهاه كذا اي شغله ولهى هو عن الشيء يلهى والمعنى
يشغلهم الامل عن اتباع الحق وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى اسفر الصبح لذي
عينين وانكشف الامر ورأوا العذاب يوم القيامة فعند ذلك يذوقون ما صنعوا واكثر ما يستعمل
الامل فيما يستبعد حصوله والافعال الثلاثة مجزومة على انها جواب الامر وهذه الآية منسوخة بآية
السيف فسوف يعلمون عاقبة امرهم وسوء صنيعهم وفيه من التهديد والزجر ما لا يقادر قدره
وفيه تنبيه على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين قال
بعض اهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين قال علي بن ابي طالب انما اخشى
عليكم اثنين طول الامل واتباع الهوى فان الاول ينسي الآخرة والثاني يصد عن الحق وما اهلكنا
من قرية من القرى بنوع من انواع العذاب في حال من الاحوال الا ولها اي ولتلك القرية كتاب
معلوم اي اجل موقت مقدر لهلاكها لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه معلوم غير مجهول ولا منسي
فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه والواو فيها اوجه احدها وهو الظاهر انها واو الحال والثاني
انها مزيدة الثالث انها داخلة على الجملة الواقعة صفة تاكيدا وبه قال الزمخشري ما تسبق من
امة من الامم اجلها المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ والمعنى انه لا يأتي هلاكها قبل مجيء اجلها
قيل من زائدة وقيل على بابها لانها تفيد التبعيض في هذا الحكم فيكون ذلك في افادة عموم النفي آكد

وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ عنه والسين زائدة فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الاجل المضروب له وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما قبلها فكانه قيل ان هذا الامهال لا ينبغي ان يغتر به العقلاء فان لكل امة وقتا معينا في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتاخر وقال الزهري يرى انه اذا حضره اجله فانه لا يؤخر ساعة ولا يقدم واما مالم يحضر اجله فان الله يؤخر ما يشاء ويقدم ما شاء قلت وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه وقد تقدم تفسير الاجل في اول سورة الانعام ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر وتماديهم في الغي مع تضمنه لبيان كفرهم بمن انزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ اي قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهكمين به حيث اثبتوا له انزال الذكر عليه مع انكارهم لذلك في الواقع اشد انكار ونفيهم له ابلغ نفي إِنَّكَ بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولا لله مامورا بتبليغ احكامه لَمَجْنُونٌ فانه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلا فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو كقول فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون لَوْمَا حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمني ومن ما المزيدة فافاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه قال الفراء الميم في لوما بدل من اللام في لولا وقال الكسائي لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام قال النحاس لوما ولولا وهلا واحد والمعنى هلا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ليشهدوا على صدقك وقيل المعنى لوما تاتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في قولك وادعائك الرسالة والحاصل انهم قالوا مقالتين تعنتا الاولى يا ايها الذي الخ والثانية لوما تاتينا فقال الله سبحانه مجيبا على الكفار لما طلبوا اتيان الملائكة اليهم وردا عليهم المقالتين على سبيل اللف والنشر المشوش مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا تنزيلا متلبسا بِالْحَقِّ الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الالهية والمشية الربانية وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة وهذا رد للثانية وقرئ من الانزال وقيل معنى بالحق بالرسالة وقيل بالقرآن وقيل بالعذاب قاله مجاهد وقيل وقت الموت وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ قال السدي اي وما كانوا لو نزلت الملائكة منظرين من ان يعذبوا فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة قال صاحب النظم لفظة

مركبة من اذ وان وهي اسم بمنزلة حين ثم ضم اليها ان فصار اذان ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار اذن ومجيئ لفظة ان دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ كان ما طلبوا ثم انكر سبحانه على استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم المذكور ورد اللاولى فقال سبحانه انا نحن نزلنا الذكر الذي انكروه ونسبوك بسببه الى الجنون وهو القرآن واعتقدوا انه مختلق من عندك وانا له لحافظون عندنا عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقصان ونحو ذلك فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر واحد من جميع الخلق من الانس والجن ان يزيد فيه او ينقص منه حرفا واحدا او كلمة واحدة وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها تلك الاشياء ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وغيرهما وفيه دليل على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر لتطرق اليه الزيادة والنقصان كما يتطرق الى كل كلام سواه وقيل المعنى نزله محفوظا من الشياطين وقيل حفظه بان جعله معجزة باقية الى آخر الدهر وقيل حفظه من المعارضة فلم يقدر واحد من الخلق ان يعارضه ولو باقصر آية وقيل اعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني ومن اسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في ابواب افساده وابطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان واصول الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشان واخرج مسلم عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى نزلت عليك قرآنا لا يغسله الماء وايضا في الآية وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير في له لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاول اولى بالمقام قال الخطابي انما لم يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض احكامه وتلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم الهم الله تعالى الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الامة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر انتهى ذكره السيوطي في الاتقان وقد بسطنا الكلام على جمع القرآن في رسالتنا المسماة بالاكسير

في اصول التفسير فليرجع اليه ثم ذكر سبحانه ان عادة امثال هؤلاء الكفار مع انبيائهم كذلك
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رسلا كائنة مِن قَبْلِكَ وحذف المفعول
لدلالة الارسال عليه فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ اي في امهم واتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم قال الفراء
الشيع الامة التابعة بعضهم بعضا فيما يجمعون عليه واصله من شاعه اذا تبعه وهم القوم المجتمعة
المتفقة كلمتهم وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان في المصباح الشيعة
الاتباع والانصار وكل قوم اجتمعوا على امر فهم شيعة ثم صارت الشيعة اسما لجماعة مخصوصة
والجمع شيع والاشياع جمع الجمع واضافته الى الاولين من اضافة الصفة الى الموصوف عند بعض النحاة
او من حذف المضاف اليه عند آخرين منهم اي في شيع الامم الاولين وفي البيضاوي من قبيل
اضافة الموصوف لصفته كقوله حق اليقين وَمَا كَانَ يَأْتِيهِم اي الشيعة مِّن رَّسُولٍ من الرسل
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كَذَٰلِكَ اي مثل
ذلك الذي سلكناه في قلوب اولئك المستهزئين برسلهم نَسْلُكُهُ اي الذكر فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ
فالاشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي مقرونا بالاستهزاء والسلك ادخال الشيء في
الشيء كالخيط في المخيط قاله الزجاج والسلوك النفاذ في الطريق قال والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين
استهزؤا نسلك الضلال في قلوب المجرمين وقال ابن عباس الشرك نسلكه في قلوب المشركين وعن
قتادة مثله وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي ابين في ثبوت القدر لمن اذعن للحق ولم يعاند قال
الواحدي اضاف الله سبحانه الى نفسه ادخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن
بالقرآن فليستحسنه وقال الرازي احتجوا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب
الكفار لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ اي بالذكر الذي انزلناه او بمحمد صلى الله عليه وسلم او مستانفة لبيان ما قبلها وقيل
ان الضمير في نسلكه للاستهزاء وفي به للذكر وهو بعيد والاولى ان الضميرين للذكر وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ اي مضت طريقتهم التي سنها الله في اهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء
وقال قتادة مضت وقائع الله فيمن خلا من الامم فاحذروا ان يصيبكم مثل ما اصابهم من العذاب
وقال الزجاج قد مضت سنة الله فيهم بان سلك الكفر والضلال في قلوبهم ثم حكى الله سبحانه اصرارهم
على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم اي على هؤلاء المعاندين لمحمد

صلى الله عليه وسلم المكذبين له المستهزئين به بابا من السماء من ابوابها المعهودة ومكناهم من الصعود فيه
فظلوا فيه اي في ذلك الباب يقال ظل فلان يفعل كذا اذا فعله بالنهار يعرجون يصعدون
بآلة او بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ولا يعاند عند
مشاهدتها معاند وقيل الضمير في فظلوا للملائكة اي فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب والكفار
يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب قاله ابن عباس لقالوا اي الكفار لفرط عنادهم و
زيادة عتوهم انما سكرت ابصارنا قرئ مشددا ومخففا وهما سبعيتان وهو من سكر الشراب او من
السكر وهو سدها عن الاحساس قاله مجاهد يقال سكر النهر اذا سده وحبسه عن الجري وعن قتادة
نحوه قال ابو عمرو بن العلاء سكرت غشيت وغطت وبه قال ابو عبيد وابو عبيدة وروي عنه ايضا
انه من سكر الشراب اي غشيهم ما غطى ابصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله وعلى التخفيف
بمعنى سحرت وقيل اصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر قال النحاس
وهذه الاقوال متقاربة والتشديد لاجل التكثير والمبالغة قال ابن عباس قريش تقوله بل نحن
اضربوا عن قولهم سكرت ابصارنا ثم ادعوا انهم قوم مسحورون اي سحرهم محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذا
بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الاشياء كائنا ما كان فانهم اذا رأوا آية توجب
عليهم الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا الى ابصارهم ان ادراكها غير حقيقي لعارض السكر
او ان عقولهم قد سحرت فصار ادراكهم غير صحيح ومن بلغ في التعنت الى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة
ولا يهتدي بآية وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بان ما يرونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل
اليهم بنوع من السحر ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز اصنامهم ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع
ليستدل بذلك على وحدانيته فقال ولقد جعلنا الجعل ان كان بمعنى الخلق فقوله في السماء
بروجا متعلق به وان كان بمعنى التصيير فهو خبره والبروج في اللغة القصور والمحال والطرق و
المنازل والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة السبعة وهي الاثنا عشر المشهورة كما
يدل على ذلك التجربة والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من اجل العلوم ويستدلون بها
على الطرقات والاوقات والخصب والجدب وقالوا الفلك اثنا عشر برجا واسماء هذه البروج
الحمل الثور الجوزاء السرطان الاسد السنبلة الميزان العقرب القوس الجدي الدلو الحوت

كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الاربعة عند المشتغلين بهذا العلم ويسمون الحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدي مثلثة ارضية والجوزاء والدلو والميزان هوائية والسرطان والعقرب والحوت مائية وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو ذكره السيوطي وهي مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما واصل البروج الظهور ومنه تبرج المرأة باظهار زينتها وقال الحسن وقتادة البروج النجوم وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها وقيل السبعة السيارة منها قاله ابو صالح وقيل هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس قاله عطية وقال مجاهد البروج الكواكب وَزَيَّنَّاهَا اي السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج لِلنَّاظِرِينَ اليها والمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها اذا كان من النظر وهو الاستدلال اي بابصارهم او بصائرهم وفي السمين النظر عيني وقيل قلبي وحذف متعلقه ليعم وَحَفِظْنَاهَا اي السماء بالشهب مِنْ دخول كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ قال ابو عبيدة الرجيم المرجوم بالنجوم كما في قوله رجوما للشياطين والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة ثم قيل للعن والطرد والابعاد رجم لان الرمي بالحجارة يوجب هذه المعاني وقال قتادة الرجيم الملعون إِلَّا اي لكن مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ من غير دخول وهذا وجه الانقطاع والسمع بمعنى المسموع وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا الى السماء فيسترقوا السمع من الملائكة وقيل الاستثناء متصل اي الا من استرق فانها لا تحفظ منه قال ابو السعود محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة او المنقطع ان فسر ذلك بالمنع من دخولها والتصرف فيها انتهى قال ابن عباس اراد ان يخطف السمع كقوله الا من خطف الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ والمعنى حفظنا السماء من الشياطين ان تسمع شيئا من الوحي وغيره الا من استرق السمع فانه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله او تخبله او تحرقه او تثقبه ومعنى فاتبعه تبعه ولحقه او ادركه والشهاب الكوكب نفسه او النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله بشهاب قبس وصنيع البيضاوي يقتضي ان

الشهاب بمعنى الشعلة هو الحقيقة والكثير ومعنى الكوكب فهو القليل وسمي الكوكب شهابا لبريقه
شبه النار وانفصاله منها والمبين الواضح الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم قال القرطبي
واختلف في الشهاب هل يقتل ام لا فقال ابن عباس يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل يقال خبله
خبلا من ضرب اذا افسدت عضوا من اعضائه او اذهبت عقله والخبال بالفتح يطلق على الفساد
والجنون وقال الحسن وطائفة يقتل فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل القاء السمع الى الجن
قولان احدهما انهم يقتلون قبل القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم فلا تصل اخبار السماء الى غير
الانبياء ولذلك انقطعت الكهانة والثاني انهم يقتلون بعد القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم من
الجن قال ذكره الماوردي ثم قال والقول الاول اصح قال واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث فقال
الاكثرون نعم وقيل لا وانما ذلك بعد المبعث قال الزجاج والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم
مما حدث بعد مولده لان الشعراء في القديم لم يذكروه في اشعارهم والجمع بين هذين القولين ان
الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء
وحراستها صونا لاخبار الغيوب وعن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء
ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال
ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف
سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته
حتى يلقيها على لسان الساحر او الكاهن فربما ادركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما القاها قبل ان يدركه
فيكذب معها مائة كذبة فيقال له اليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء
اخرجه البخاري قال كثير من اهل العلم نحن نرى انقضاض الكواكب فيجوز ان يكون ذلك كما نرى
ثم تصير نارا اذا ادركت الشيطان ويجوز ان يقال يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل الينا انه نجم يسري
(والارض) نصب على الاشتغال ولم يقرأ بغيره لانه ارجح من حيث العطف على جملة فعلية قبلها (مددناها)
اي بسطناها وفرشناها على وجه الماء كما في قوله والارض بعد ذلك دحيها وفي قوله والارض
فرشناها فنعم الماهدون وفيه رد على من زعم انها كالكرة (والقينا) اي جعلنا ووضعنا (فيها رواسي)
اي جبالا ثابتة لئلا تتحرك باهلها جمع راسية كما في المختار وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد

وَأَنبَتْنَا فِيهَا من تبعيضية وهو الصحيح او مزيدة عند الكوفيين والاخفش كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ اي مقدر معلوم فعبر عن ذلك بالوزن لانه مقدار تعرف به الاشياء وقيل موزون مقسوم وقيل معدود و المقصود من الانبات الانشاء والايجاد قال ابن زيد الاشياء توزن وقيل الضمير راجع الى الجبال اي انبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والكحل والرصاص ونحو ذلك وقيل موزون بميزان الحكمة ومقدر بقدر الحاجة وقيل الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون اي حسن وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا اي في الارض مَعَايِشَ تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة وهي ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا وقيل هي الملابس وقيل هي التصرف في اسباب الرزق مدة الحياة قال الماوردي وهو الظاهر قلت والاول اظهر قال النسفي هي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ وقرئ بالهمز على التشبيه بشمائل وقد ذكر في الاعراف وهي شاذة وقراءة الجمهور بالياء لانها في المفرد اصلية لان مفرد معيشة من العيش فالياء اصلية والمد في المفرد لا يقلب همزا في الجمع الا اذا كان زائدا في المفرد قاله في الجمل وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وهم المماليك والعبيد والخدم والدواب والاولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله وان ظن بعض العباد انه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب وهذا في غاية الامتنان وقيل المعنى وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش وهم من تقدم ذكره ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف اجناسها وقيل اراد الوحش قاله منصور وقال مجاهد الانعام وقيل الطيور ومنه قوله وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ان هي النافية ومن مزيدة للتاكيد وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من ومع لفظ شيء المتناول لكل الموجودات الصادق على كل فرد منها فافاد ذلك ان جميع الاشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء والخزائن جمع خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الامور وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور والمعنى ان كل الممكنات مقدورة ومملوكة لله تعالى يخرجها من العدم الى الوجود بمقدار كيف شاء وقال جمهور المفسرين ان المراد بما في الآية هو المطر لانه سبب الارزاق والمعايش وعن ابن مسعود وابن عباس ما نقص المطر منذ انزله الله ولكن تمطر ارض اكثر مما تمطر اخرى ثم قرءا وما ننزله الآية قال ابن الخطيب وتخصيص قوله هذا بالمطر تحكم محض لان قوله وان من شيء يتناول جميع الاشياء الا ما خصه الدليل

فاسقيناكموه ابلغ من سقيناكموه وقيل سقى واسقى بمعنى واحد وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ بل نحن الخازنون
له فنفى عنهم سبحانه ما اثبته لنفسه في قوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وقيل ان المعنى ما انتم
له بخازنين بعد ان انزلناه عليكم اي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون بل نحن
الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة اليه وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ اي نوجد الحياة
في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا وان واللام تفيد ان الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ويدل
احياء الخلق واماتتهم والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الامور على كمال قدرته عز وجل وانه
القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته ولهذا قال وَ
نَحْنُ الْوَارِثُونَ اي للارض ومن عليها لانه سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه الحي الذي لا يموت
الدائم الذي لا ينقطع وجوده ومصير الخلق اليه ولله ميراث السموات والارض وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ المراد علمنا من تقدم ولادة وموتا ومن تاخر
فيهما وقيل من تقدم طاعة ومن تاخر فيها وقيل من تقدم في صف القتال ومن تاخر وقيل
المستقدمون هم الامم المتقدمون على امة محمد صلى الله عليه وسلم من لدن آدم والمستاخرون هم امة
محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد والمستاخرون من لم يقتل وقيل
من خلق ومن لم يخلق بعد وقيل من اسلم اولا ومن يسلم آخرا واللفظ اوسع من ذلك واللام في الموضعين
هي الموطئة للقسم واخرج احمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم
وصححه عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من احسن النساء
فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الاول لئلا يراها ويستاخر بعضهم حتى يكون في الصف
المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فانزل الله هذه الآية وقد رواه عبد الرزاق وابن المنذر
من قول ابي الجوزاء عن ابن عباس قال الترمذي وهذا اشبه ان يكون اصح وقال ابن كثير في هذا
الحديث نكارة شديدة وعن ابن عباس قال المستقدمين الصفوف المتقدمة والمستاخرين
الصفوف المؤخرة وقد وردت احاديث كثيرة في ان خير صفوف الرجال اولها وشرها آخرها
وخير صفوف النساء آخرها وشرها اولها وعن مقاتل وعطاء ان الآية في صفوف القتال
وقال الحسن المستقدمين في طاعة الله والمستاخرين في معصية الله وعن ابن عباس يعني

بالمستقدمين من مات وبالمستاخرين من هو حي لم يمت وقال ايضا المستقدمين آدم ومن مضى والمستاخرين في اصلاب الرجال وعن قتادة نحوه وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ اي هو المتولي لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل من الحصر وفيه انه سبحانه يجازي المحسن باحسانه والمسيئ باساءته لانه الامر المقصود من الحشر إِنَّهُ حَكِيمٌ يجري الامور على ما تقتضيه حكمته البالغة عَلِيمٌ احاط علمه بجميع الاشياء لا يخفى عليه شيئ منها ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيئ مما وسعه علمه وجرى فيه حكمه سبحانه لا اله الا هو وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ اي آدم عليه السلام لانه اصل هذا النوع مِنْ لابتداء الغاية او للتبعيض صَلْصَالٍ اي طين يابس اذا انصب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع واذا نقرته سمعت له صلصلة اي صوتا قال ابو عبيدة هو الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل اذا حرك فاذا طبخ بالنار فهو الفخار وهذا قول اكثر المفسرين وقال الكسائي هو الطين المنتن ماخوذ من قول العرب صل واصل اذا انتن مطبوخا كان او نيئا وهذا الطور آخر اطوار آدم الطينية واول ابتدائه انه كان ترابا متفرق الاجزاء ثم بل فصار طينا ثم انتن واسود فصار حمأ مسنونا اي متغيرا ثم يبس فصار صلصالا وعلى هذه الاطوار والاحوال تتخرج الآيات الواردة في اطواره الطينية كآية خلقه من تراب وآية بشرا من طين وهذه الآية التي نحن فيها مِنْ ابتدائية حَمَإٍ مَسْنُونٍ الحمأ الطين الاسود المتغير او الطين الاسود من غير تقييد بالمتغير قال ابن السكيت تقول منه حمأت البير حمأ بالتسكين اذا نزعت حمأها وحميت البير حمأ بالتحريك كثرت حمأها واحميتها احماء القيت فيها الحمأة قال ابو عبيدة الحمأة بسكون الميم مثل الكماة يعني بالتحريك والجمع حمأ مثل تمرة وتمر والحمأ مصدر مثل الهلع والجزع ثم سمي به المسنون قال الفراء هو المتغير واصله من سننت الحجر على الحجر اذا حككته وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ويقال اسن الماء اذا تغير ومنه قوله لم يتسنه وقوله من ماء غير آسن وكلا الاشتقاقين يدل على التغير لان ما يخرج بين الحجرين لا يكون الا منتنا وقال ابو عبيدة المسنون المصبوب وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه اذا صببته والسن الصب قال سيبويه المسنون المصور ماخوذ من سنة الوجه وهي صورته وقال الاخفش المسنون المنصوب القائم من قولهم وجه مسنون اذا كان فيه طول والحاصل على هذه الاقوال ان التراب لما بل صار طينا فلما انتن صار حمأ مسنونا فلما يبس صار صلصالا فاصل

الصلصال هو الحمأ المسنون ولهذا وصف بهما وعن ابن عباس قال خلق الانسان من ثلاث من طين
لازب وصلصال وحمأ مسنون فالطين اللازب اللازم الجيد والصلصال المدقق الذي يصنع
منه الفخار والحمأ المسنون الطين الذي فيه الحمأة وقال ايضا الصلصال الماء يقع على الارض
الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق وعنه قال الصلصال هو التراب اليابس
الذي يبل بعد يبسه وقال ايضا طين خلط برمل وقال ايضا الذي اذا ضربته صلصل وعنه قال
الطين تعصر بيدك فيخرج الماء من بين اصابعك وقال حمأ مسنون من طين رطب وقال الحسن طين منتن
وَالْجَانَّ منصوب على الاشتغال وهو ابو الجن عند جمهور المفسرين وقال الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل
هو ابليس ابو الشياطين وسمي جانا لتواريه عن الاعين يقال جن الشيء اذا ستره فالجان يستر نفسه
عن اعين بني آدم فهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا وفي الجن مسلمون وكافرون وهم يأكلون
ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم واما الشياطين فليس منهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات
ابليس ابوهم ذكره الخازن قال ابن عباس الجان مسيخ الجن كالقردة والخنازير مسيخ الانس وقيل
كان ابليس من حي الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن
من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ اي من قبل خلق آدم مِنْ نَارِ السَّمُومِ
وهي الريح الحارة النافذة في المسام لشدة لطفها وقوة حرارتها يكون بالنهار وقد يكون بالليل كذا
قال ابو عبيدة وقال ابو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار تكون بين
السماء وبين الحجاب فاذا احدث الله امرا خرقت الحجاب فهوت الى ما امرت به فالهدة التي تسمعون
خرق ذلك الحجاب قاله الخطيب وقيل السموم نار جهنم وقيل هي جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق
منها الجان وفي السمين السموم ما يقتل من افراط الحر من شمس او ريح او نار لانها تدخل في المسام
وقيل السموم ما كان ليلا والحرور ما كان نهارا وقيل هو من باب اضافة الموصوف لصفته
وذكر خلق الجان والانسان في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الالهية وبيان ان القادر على
النشأة الاولى قادر على النشأة الاخرى قال ابن عباس من نار السموم من احسن النار الحارة التي تقتل
وعن ابن مسعود قال السموم التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزء من نار جهنم واخرجه
ابن مردويه عنه مرفوعا وَاذْكُرْ اِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ بين سبحانه بعد ذكره لخلق الانسان ما وقع

عند خلقه وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ماخوذ من البشرة وهي ظاهر الجلد
مِّن صَلْصَالٍ قد تقدم تفسيره قريبا مستوفى وكذا تفسير مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ اي
سويت خلقه وعدلت صورته الانسانية وخلقته البشرية واكملت اجزاءه واتممت خلقه او سويت
اجزاء بدنه بتعديل طبائعه وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي النفخ اجراء الريح في تجاويف جسم اخر
صالح لامساكها والامتلاء بها فمن قال ان الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ومن
قال انه جوهر مجرد غير متحيز ولاحال في متحيز فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به
ومن زائدة او تبعيضية قال النيسابوري ولاخلاف في ان الاضافة في روحي للتشريف والتكريم
مثل ناقة الله وبيت الله قال القرطبي والروح جسم لطيف اجرى الله العادة بان يخلق الحياة في
البدن مع ذلك الجسم وحقيقته اضافة خلق الى خالق فالروح خلق من خلقه اضافه الى نفسه
تشريفا وتكريما قال ومثله روح منه وقد تقدم في النساء قال ابو السعود وليس ثمة نفخ ولا منفوخ فيه وانما
هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فاذا اكملت استعداده وافضت عليه ما يحييه
من الروح التي هي من امري فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ وهذا وان كان معنى صحيحا لكن يخالفه ظاهر
النظم القرآني والاولى مادل عليه ظاهر اللفظ والفاء تدل على ان سجودهم واجب عليهم عقب التسوية
والنفخ من غير تراخ وهو امر بالوقوع من وقع يقع اي اسقطوا وخروا وفيه دليل على ان المامور به هو
السجود الحقيقي اي وضع الجبهة على الارض لامجرد الانحناء كما قال السيوطي وهذا السجود هو سجود تحية
وتكريم لاسجود عبادة ولله ان يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء وقيل كان السجود لله تعالى
وكان آدم قبلة لهم تشريفا له والاول اولى والخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشرا فسجد
الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ عند امر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ قال المبرد قوله كلهم
ازال احتمال ان بعض الملائكة لم يسجد فظهر انهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو انهم هل
سجدوا دفعة واحدة او سجد كل واحد في وقت فلما قال اجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة
وهو ايضاح لما سبق ورجح هذا الزجاج قال النيسابوري وذلك لان اجمع معرفة فلا يقع حالا ولو صح ان
يكون حالا لكان منتصبا قال الكرخي فيه تاكيدان لزيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن ولا يكون تحصيلا
للحاصل لان نسبة اجمعون الى كلهم كنسبة كلهم الى اصل الجملة او اجمعون يفيد معنى الاجتماع.

وقيل هما تاكيدان للمبالغة وزيادة الاعتناء ثم استثنى ابليس من الملائكة فقال الا ابليس قيل هذا
الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه ابى ان يكون مع السجدين استكبارا واستعظاما
لنفسه وحسدا لادم فحقت عليه كلمة الله وقيل انه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم وبينهم
فغلب اسم الملائكة عليه قلت غير المامور لا يصير بالترك ملعونا قال الزمخشري امر بما امروا به فكان
الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا لذا ذا ابو السعود اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة
فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقيل ان الاستثناء منقطع منفصل
بناء على عدم كونه منهم وعدم تغليبهم عليه اي ولكن ابليس ابى من السجدة وقد تقدم الكلام في هذا
في سورة البقرة وهذه الجملة استيناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء لان مطلق
عدم السجود قد يكون مع التردد فبين سبحانه انه كان على وجه الاباء والاستكبار قال يا ابليس مستانفا
ايضا وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم بل على سبيل الاهانة والاذلال والتقريع والتوبيخ
وظاهره يقتضي ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة لانه قال في الجواب لم اكن لاسجد لبشر خلقته
فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة فقول بعض المتكلمين انه تعالى اوصل هذا الخطاب
الى ابليس على لسان بعض رسله ضعيف قيل معنى قال ما لك اي غرض لك واي سبب حملك على الا تكون مع
السجدين لادم مع الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها
وعلى هذا فليست لا زائدة واليه مال البيضاوي وقيل زائدة بدليل ما في سورة ص ما منعك ان تسجد
قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته مستانفة كالتي قبلها اي لا ينبغي لي ولا يصح مني ولا يليق بحالي فاللام لتاكيد
النفي جعل العلة لترك سجوده كون ادم بشرا مخلوقا من صلصال من حما مسنون زعما منه انه مخلوق
من عنصر نار وهي اشرف من عنصر ادم عليه السلام وهو الطين المتغير المنتن لانها نيرة والطين كثيف
مظلم وفيه اشارة اجمالية الى كونه خيرا منه وقد صرح بذلك في موضع اخر فقال انا خير منه خلقتني
من نار وخلقته من طين وقال في موضع اخر ااسجد لمن خلقت طينا ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما
فضله الله تعالى قال الكرخي وحاصل كلامه ان كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا
لطيفا فكانه يقول البشر الجسماني الكثيف دون حال الروحاني اللطيف فكيف يسجد الاعلى للادنى ايضا
فادم مخلوق من صلصال تولد من حما مسنون وهذا الاصل في غاية الدناءة واصل ابليس هي النار وهي

اشرف العناصر فكان اصل ابليس اشرف من اصل آدم والاشرف يقبح ان يؤمر بالسجود للادون فهذا مجموع شبه ابليس فاجاب الله سبحانه عليه بقوله قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا اي حيث عصيت وتكبرت فاخرج منها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ والضمير في منها قيل عائد الى الجنة وقيل الى السماء وقيل الى زمرة الملائكة والرجيم المرجوم بالشهب وقيل معناه ملعون اي مطرود لان من يطرد يرجم بالحجارة وفي القاموس الرجيم اللعن والشتم والطرد والهجران وفي المصباح الرجم بفتحتين الحجارة والرجم القبر سمي بذلك لما يجمع عليه من الاحجار ورجمته رجما من باب قتل ضربته بالرجم وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ اي الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه مستمرا عليك لازما لك إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وهو يوم القيامة والجزاء وقيل هو ملعون في السموات والارض وجعل يوم الدين غاية للعنه لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت لان المراد دوامها من غير انقطاع وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى ما دامت السموات والارض او ان المراد انه في يوم الدين وما بعده يعذب بما هو اشد من اللعن من انواع العذاب بما ينسى اللعن معه فكانه لا يجد له ما كان يجده قبل ان يمسه العذاب قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي اي اخرني وامهلني ولا تمتني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ اي آدم وذريته طلب ان يبقى حيا الى هذا اليوم لانه لما سمع ذلك علم ان الله قد اخر عذابه الى الدار الآخرة وكانه طلب ان لا يموت ابدا لانه اذا اخرته الى ذلك اليوم وامهل الى يوم البعث الذي هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك لانقطاع الموت من حين النفخة الاولى فهو يوم لا موت فيه وفي البيضاوي اراد بهذا السؤال ان يجد فسحة في الاغواء ونجاة عند الموت اذ لا موت بعد وقت البعث فاجابه الى الاول دون الثاني وقيل انه لم يطلب ان لا يموت بل طلب ان يؤخر عذابه الى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ لما سأل الانظار اجابه الله سبحانه الى ما طلبه واخبره بانه من جملة المنظرين ممن اخر اجالهم من مخلوقاته او من جملة من اخر عقوبتهم بما اقترفوا ولم يكن اجابة الله اياه في الامهال اكراما له بل زيادة في بلائه وشقائه وعذابه ثم بين سبحانه الغاية التي امهله اليها فقال إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ الذي عينت وهو يوم القيامة فان يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن القيامة وسمي معلوما لان ذلك لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى فهو معلوم عنده وقيل لان جميع الخلائق تموت فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث فعند ذلك يموت وقال ابن عباس هو النفخة الاولى يموت فيها ابليس وبين

النفختين اربعون سنة وهي مدة موته قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي الباء للقسم وما مصدرية اي اقسم
باغوائك اياي واختار البيضاوي في الاعراف كونها للسببية ونقل كونها للقسم بصيغة التمريض
لانه وقع في مكان اخر قال فبعزتك والقصة واحدة الا ان احدهما اقسام بصفة ذاته والثاني
اقسام بفعله والفقهاء قالوا الاقسام بصفات الذات صحيح واختلفوا في القسم بصفات الافعال فمنهم
من فرق بينهما ولان جعل الاغواء مقسما به غير متعارف قاله الكرخي قلت واقسامه هنا باغواء
الله له لا ينافي اقسامه في موضع اخر بعزة الله التي هي سلطانه وقهره لان الاغواء له هو من
جملة ما يصدق عليه العزة وقال اهل العراق الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة
يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين قيل والاصح ان الايمان مبنية على العرف
فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا وما لا فلا وجواب القسم لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ اي للذرية ادم وان
لم يجر لهم ذكر للعلم بهم فِي الْأَرْضِ اي ما داموا في الدنيا والتزيين منه اما بتحسين المعاصي لهم وايقاعهم
فيها او بشغلهم بزينة الدنيا وحبها عن فعل ما امرهم الله به فلا يلتفتون الى غيرها وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ اي لاضلنهم عن طريق الهدى واوقعهم في طريق الغواية واحملهم عليها بالقاء الوسوسة
في قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر
واغوائهم وفي الاية حجة على المعتزلة في خلق الافعال وحملهم على التسبب عدول عن الظاهر إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ اي الذين استخلصتهم من العباد او الذين اخلصوا لك العبادة والطاعة
فلم يقصد وابها غيرك وانما استثناهم لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة
الاخلاص فعل الشيء خالصا عن شائبة الغير قَالَ الله تعالى هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ لا عوج فيه
وقرأ ابن سيرين وقتادة عَلِيٌّ على انه صفة مشبهة ومعناه رفيع والمعنى حق علي ان اراعيه و
احفظه وهو ان لا يكون لك على عبادي سلطان فالكلام على التشبيه عند اهل السنة كما في
قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين اذ لا تجب رعاية الاصلح عندنا وقيل قال
الكسائي هذا على الوعد والتهديد كقولك لمن تهدده طريقك علي ومصيرك الي
وكقوله ان ربك لبالمرصاد فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه الي فاجازي كلا بعمله وقيل
علي هنا بمعنى الي وقيل المعنى علي ان ادل على الصراط المستقيم بالبيان والحجة وقيل بالتوفيق والهداية

وقيل عائد الى الاخلاص اي ان الاخلاص طريق علي والي يؤدي الى كرامتي ورضواني قال ابو السعود والاظهران ذلك رد لما وقع في عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم الاية إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ المراد بالعباد هنا هم المخلصون والمراد انه لا تسلط انت عليهم بايقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون عنه فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما فانه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه قال اهل المعاني معنى عليهم على قلوبهم وقال سفيان بن عيينة معناه ليس لك عليهم قوة وقدرة على ان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وهؤلاء خاصة اي الذين هداهم واجتباهم من عباده إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لابليس مِنَ الْغَاوِينَ عن طريق الحق الواقعين في الضلال وهو موافق لما قاله ابليس اللعين من قوله لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين ويمكن ان يقال بين الكلامين فرق فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان ابليس على جميع عباده الا من اتبعه من الغاوين فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع ابليس ———— وكلام ابليس اللعين يتضمن اغواء الجميع الا المخلصين فدخل فيهم من لم يكن مخلصا ولا تابعا لابليس غاويا والحاصل ان بين المخلصين والغاوين التابعين لابليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لابليس وقد قيل ان الغاوين المتبعين لابليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون قال ابو السعود وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشان المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وان اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم ثم قال الله تعالى متوعدا لاتباع ابليس وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اي موعد المتبعين الغاوين أَجْمَعِينَ تاكيد للضمير او حال لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ يدخل اهل النار منها وانما كانت سبعة لكثرة اهلها لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ اي من الاتباع الغواة جُزْءٌ مَقْسُومٌ اي نصيب وقدر معلوم متميز عن غيره والجزء بعض الشي وجزأته جعلته اجزاء والمراد هنا بالجزء الحزب والطائفة والفريق وقيل المراد بالابواب الاطباق طبق فوق طبق قال ابن جريج النار سبع دركات وهي جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية فاعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة

للمشركين والسابعة للمنافقين فجهنم اعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها ثم كذلك كذا قيل والمعنى ان الله تعالى يجزي اتباع ابليس سبعة اجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر والمعاصي مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار قال الخطيب تخصيص هذا العدد لان اهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيئات فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من اعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت ابواب الجنان ثمانية انتهى اقول الحكمة في تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر بل الاولى تفويضها الى جاعلها وهو الله سبحانه الا ان يرد به خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب المصير اليه وعن علي قال اطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الاول ثم الثاني ثم الثالث حتى يملأ كلها واخرج البخاري في تاريخه والترمذي واستغربه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة ابواب باب منها لمن سل السيف على امتي واخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية جزء اشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله وقد وردت في صفة النار واهوالها احاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع استقرائها **ان المتقين** اي الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه كما قاله جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي وبه قال الجبائي وجمهور المعتزلة والاول اولى واجمعت الامة على ان التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة وليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا ان يكون آتيا بجميع انواع التقوى لان الآتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا بالتقوى كما ان الضارب هو الآتي بالضرب ولو مرة واحدة والقاتل هو الآتي بالقتل ولو مرة واحدة وكل فرد من افراد الماهية يجب ان يكون مشتملا على تلك الماهية وبهذا التحقيق استدلوا على ان الامر لا يفيد التكرار **في جنات** هي البساتين **وعيون** هي الانهار الجارية اي مستقرون فيها والتركيب يحتمل ان يكون جميعهم جنات وعيون اولكل واحد منهم جنات وعيون اي عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان او لكل واحد منهم جنة وعين تجري في قصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه قال الرازي يحتمل ان يكون منها ما ذكره الله تعالى في قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن الآية ويحتمل ان يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار **ادخلوها** اي قيل لهم

ادخلوها وقرئ ادخلوها على انه فعل مبني للمفعول اي ادخلهم الله اياها وقد تقدم انه تعالى ذكر انهم في
جنات وعيون فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور فان الامر لهم بالدخول يشعر
بانهم لم يكونوا فيها واجيب بان معنى انهم مستقرون في الجنات وانهم اذا انتقلوا من بعضها الى بعض
يقال لهم عند الوصول الى التي ارادوا الانتقال اليها ادخلوها او ان القائل لهم هو الله تعالى وبعض من الملائكة
بسلام آمنين اي بسلامة من جميع الآفات وامن من المخافات او من زوال ما هم فيه من النعيم او مسلمين
على بعضهم بعضا او مسلما عليهم من الملائكة او من الله عز وجل وقال الضحاك آمنين من الموت فلا يموتون
ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون ونزعنا ما في صدورهم من غل هو الحقد والشحناء
والشحناء والبغضاء والحسد وكل ذلك مذموم داخل في الغل لانها كامنة في القلب وقد تقدم تفسيره
في الاعراف وعن الحسن البصري عن علي رضي الله عنه قال فينا والله اهل بدر نزلت وعنه قال
من العرب في بني هاشم وبني تيم وبني عدي وعنه قال اني لارجو ان اكون انا
وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله ونزعنا ما في صدورهم وعن ابن عباس قال نزلت
في عشرة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن
مسعود وفي الباب روايات اخوانا حال مقدرة قاله ابو البقاء يعني من فاعل ادخلوها او ضمير
آمنين هي حال مقارنة من ضمير صدورهم والمعنى حال كونهم اخوة في الدين والتعاطف والمحبة
والمودة والمخالطة وليس المراد منه اخوة النسب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة
فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد
وصاروا اخوانا حال كونهم على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت قال ابو البقاء
يجوز ان يتعلق بنفس اخوانا لان معناه متصافين اي متصافين على سرر وفيه نظر من حيث ان
جامد فيتعلق بغيره والسرر جمع سرير وهو مثل سرير من صنعة الجابية وقيل هو مجلس عال للرفيع ومنه قولهم
سر الوادي لافضل موضع منه متقابلين اي ينظر بعضهم الى وجه بعض قال مجاهد لا يرى
بعضهم قفا بعض وعن ابن عباس اخوة اذا اجتمعوا وتلاقوا ثم اذا ارادوا الانصراف يدور بسرير كل
واحد منهم بحيث يصير راكبه مقابلا بوجهه لمن كان عنده وقفاه الى الجهة التي يسير بها السرير
هذا يفرق في الثلاث في الاكرام وقد اخرج الطبراني والبغوي وابن ابي حاتم وغيرهم عن زيد بن ابي اوفى قال

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلى هذه الآية قال المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم الى بعض
لا يمسهم فيها اي في الجنة مستأنفة او حالية نصب اي تعب واعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه
ذلك في الجنة لانها نعيم خالص ولذة محضة تحصل لهم بسهولة وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد
بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا قال السدي النصب المشقة
والاذى وما هم منها اي من الجنة بمخرجين ابدا وهذا نص من الله الكريم في كتابه العزيز على خلود
اهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان وفي
هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم فان علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها
بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته ثم قال سبحانه بعد ان قص علينا ما للمتقين عنده من
الجزاء العظيم والاجر الجزيل نبئ عبادي اني بفتح الياء فيهما وسكونها فيهما سبعيتان اي اخبر يا محمد
كل من كان معترفا بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي
انا الغفور الرحيم اي انا الكثير المغفرة لذنوبهم الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسي ان رحمتي سبقت
غضبي اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة وادخلتهم تحت واسع الرحمة اخرج
ابن المنذر وابن ابي حاتم عن مصعب بن ثابت قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على ناس من اصحابه يضحكون
فقال اذكروا الجنة واذكروا النار فنزلت هذه الآية واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك عنده تسعة وتسعين رحمة وارسل
في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ولو يعلم
المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار ثم ان الله سبحانه لما امر رسوله ان يخبر عباده
بهذه البشارة العظيمة امره بان يذكر لهم شيئا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل
التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال وان عذابي هو العذاب الاليم اي الكثير الايلام
وعند ان جمع الله لعباده بين هذين الامرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطا بين اليأس
والرجاء وخير الامور اوسطها وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف وبين حالتي الانس والهيبة قيل
لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لما اقدم على ذنب وفي هذه الآية
لطائف منها انه اضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادي وهذا تشريف لهم وتعظيم كما اضاف في قوله

اسرى بعبده ليلا ولم يرد عليه ومنها انه لما ذكر الرحمة والمغفرة بمؤكدات ثلاثة اوها قوله نبي ثانيها انا وثالثها التعريف في الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولم يقل في ذكر العذاب اني انا معذب ولم يصف نفسه بذلك بل قال على سبيل الاخبار ان عذابي هو العذاب الاليم ورابعها انه امر رسوله ان يبلغ عباده هذا المعنى فكانه اشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة ثم اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات السعداء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وذكر هنا اربع قصص قصة ابراهيم ثم قصة لوط ثم قصة شعيب ثم قصة صالح وسياتي تفصيلها وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ اي اخبرهم بما جرى على ابراهيم من الامر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذي خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا انها سنة الله في عباده وايضا لما اشتملت القصة على انجاء المؤمنين واهلاك الظالمين كان في ذلك تقرير لكونه الغفور الرحيم وان عذابه هو العذاب الاليم واصل الضيف الميل يقال اضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وهو في الاصل مصدر ولذلك وحد وان كانوا جماعة ملائكة اثني عشر او ثلاثة منهم جبريل على صورة غلمان حسان ارسلهم الله اليه ليبشروه بالولد ويهلكوا قوم لوط عليه السلام وقد مر تفسير القصة مفصلا في سورة هود عليه السلام وسمي الضيف ضيفا لاضافته الى المضيف وقد يجمع فيقال اضياف وضيوف وضيفان إِذْ دَخَلُوا اي اذكر لهم دخولهم عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا اي هذا اللفظ قالوه تحية لابراهيم وفي الشهاب يجوز ان يكون سلاما منصوبا بفعل مقدر اي سلمنا او نسلم سلاما ويجوز نصبه بقالوا ولم تذكر هنا تحية ابراهيم لهم وقد ذكرت في سورة هود فالقصة هنا مختصرة قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ اي خائفون فزعون وانما قال هذا بعد ان قرب اليهم العجل فراهم لا ياكلون منه كما تقدم في سورة هود فلما راى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة وقيل انكر السلام منهم لانه لم يكن في بلادهم وقيل انكر دخولهم عليه بغير استئذان قَالُوا اي الملائكة لَا تَوْجَلْ اي لا تخف قاله عكرمة وقرئ لا تاجل وتوجل من اوجله اي اخافه إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ مستانفة لتعليل النهي عن الوجل لان المبشر لا يخاف منه والعليم كثير العلم وقيل هو الحليم كما وقع في موضع اخر من القران وهذا الغلام هو اسحاق كما تقدم في هود

ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف قال أبشرتموني قرئ بألف الاستفهام وبغيرها
على أن مسني الكبر اي مع حالة الكبر والهرم فبم تبشرون استفهام انكار وتعجب كأنه عجب من حصول
الولد له مع ما قد صار اليه من الهرم الذي جرت العادة بانه لا يولد لمن بلغ اليه والمعنى فبأي شيء
تبشرون فان البشارة بما لا يكون عادة لا تصح قالوا بشرناك بالحق اي بما يكون لا محالة او باليقين
الذي لا لبس ولا خلف فيه فان ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء فانه القادر
على كل شيء فلا تكن من القانطين اي الآيسين من ذلك الذي بشرناك به فانه تعالى قادر على
ان يخلق بشرا من غير ابوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وكان تعجب ابراهيم باعتبار العادة دون
القدرة ولذلك قال ومن يقنط من رحمة ربه قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرها وهما لغتان
سبعيتان وحكي فيه ضم النون شاذا والقنوط اليأس وبابه جلس في دخل وطرب وسلم فهو قانط وقنوط
الا الضالون اي المكذبون او المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب والمعرفة فلا يعرفون سعة
رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال الله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون
[illegible] اني انما استبعدت تولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي ثم سألهم عما لاجله ارسلهم الله سبحانه
قال فما خطبكم ايها المرسلون الخطب الامر الخطير والشان العظيم اي فما امركم وشانكم وما الذي
جئتم به غير ما قد بشرتموني به وكان قد فهم ان مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شان آخر لاجله ارسلوا
لانهم كانوا عددا والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام
او لانهم بشروه في تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت البشارة تمام المقصود لابتدؤوا بها
قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين اي الى قوم لهم اجرام فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه
وهؤلاء القوم هم قوم لوط عليه السلام ثم استثنوا منهم من ليسوا مجرمين فقالوا الا آل لوط وهو
استثناء متصل لانه من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى اجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ولو كان
من قوم لكان منقطعا لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين وليس آل لوط مجرمين البتة ويجب فيه النصب على هذا
ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في اجرامهم فقالوا انا لمنجوهم اي آل
لوط اجمعين وهم اتباعه واهل بيته ودينه لايمانهم قرئ بالتنجية والانجاء ومعناهما التخليص مما
وقع فيه غيرهم وهذا الكلام استئناف اخبار بنجاتهم بكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين

ولآل لوط لاهلاك اولئك والانجاء هؤلاء وعلى انه منقطع جرى هذا الكلام مجرى خبر لكن في اتصاله
بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجيهم إِلَّا امْرَأَتَهُ فليست ممن ننجيه بل ممن نهلكه لكفرها وهذا الاستثناء
من الضمير في لمنجوهم اخراجا لها من التنجية وقيل من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية والمعنى
انها من الهالكين لان الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي ومنعه الزمخشري وقال كيف يكون
استثناء من استثناء وقد اختلف الحكمان قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ اي قضينا وحكمنا انها من الباقين
في العذاب مع الكفرة والغابر الباقي والماضي وهو من الاضداد وبابه دخل قال الزجاج معنى قدرنا
دبرنا وهو قريب من معنى قضينا واصل التقدير جعل الشيء على مقدار الكفاية وقرئ قدرنا بالتخفيف
قال الهروي هما بمعنى وقيل ضمن قدرنا معنى العلم فلذلك علق باللام مع كون التعليق من خصائص افعال
القلوب فكسرت ان وقيل هذا لا يصلح علة لكسرها انما يصلح علة لتعليقها الفعل قبلها فقط والعلة
في كسرها وجود اللام ولولاها لفتحت وانما اسند التقدير الى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه مجازا لما لهم
من القرب عند الله او انهم رسل الله وواسطة بينه وبين خلقه فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ مستأنفة
لبيان اهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة وفي الكلام حذف اي فخرجوا من عند ابراهيم وسافروا
من قريته الى قرية لوط وكان بينهما اربعة فراسخ ولفظة آل زائدة بدليل ولقد جاءت رسلنا لوطا قَالَ
لوط مخاطبا لهم إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لا اعرفكم بل انكركم واخاف ان تصيبوني بمكروه ولا اعرف غرضكم ولا من
اي القبائل انتم قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ اي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه فالاضراب
هو عن مجيئهم بما ينكره كأنهم قالوا ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه بل جئناك بما فيه سرورك وهو
عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه وَأَتَيْنَاكَ متلبسين بِالْحَقِّ اي باليقين الذي لا مرية
فيه ولا ترددا او متلبسا انت به لابصارك له وهو العذاب النازل بهم لا محالة وَإِنَّا لَصَادِقُونَ في ذلك
الخبر الذي اخبرناك وقد تقدم تفسير قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ في سورة هود اي سر
في جزء من الليل بهم وهم بنتاه فلم يخرج من قريته الا هو وبنتاه وفي القرطبي في سورة هود فخرج
لوط وطوى الله له الارض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ اي كن من ورائهم وامش
خلفهم تذودهم لئلا يتخلف منهم احد فيناله العذاب ولاجل ان تطمئن عليهم وتعرف انهم ناجون
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ اي انت ولا احد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب فيشتغل بالنظر في ذلك

ويتباطى عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين وقيل معنى لا يلتفت لا يتخلف وَامْضُوا حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ اي الى الجهة التي امركم الله سبحانه بالمضي اليها وهي جهة الشام وقيل مصر وقيل قرية من
قرى لوط وقيل ارض الخليل عليه الصلوة والسلام وقيل الاردن وزعم بعضهم ان حيث هنا ظرف
زمان مستدلا بقوله بقطع من الليل ثم قال وامضوا حيث تؤمرون اي في ذلك الزمان وهو ضعيف
ولو كان كما قال لكان التركيب وامضوا حيث امرتم على انه لو جاء التركيب هكذا لم يكن فيه دلالة
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ اي اوحينا الى لوط عليه السلام ذَٰلِكَ الْأَمْرَ هو اهلاك قومه ثم فسره بقوله أَنَّ دَابِرَ
هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ الدابر هو الآخر اي ان آخر من يبقى منهم يهلك مُصْبِحِينَ اي حال كونهم داخلين في
وقت الصبح ومثله فقطع دابر القوم الذين ظلموا وقدره الفراء وابو عبيدة اذا كانوا مصبحين قال الكرخي
فان كان تفسير معنى فصحيح واما الاعراب فلا ضرورة تدعو اليه قال ابن عباس يعني استيصال هلاكهم
ثم ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة الى قريتهم فقال وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ اي اهل
مدينة قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة فذال معجمة على وزن فعول واخطأ من قال مهملة مدينة
من مدائن قوم لوط كما سبق وتقدم ان هذا المجيء قبل قول الملائكة فاسر باهلك فما في سورة هود على
الترتيب الواقعي وما هنا على خلافه والواو لا تفيد ترتيبا قال الكرخي ذكر القصة في هود بترتيب الوقوع وهنا
اخر ذكر مجيئهم عن قول الرسل بل جئناك مع تقدمه ليستقل الاول ببيان كيفية نصرة الصابرين و
الثاني بتساوي الامم يَسْتَبْشِرُونَ اي مستبشرين باضياف لوط طمعا في ارتكاب الفاحشة منهم و
الاستبشار اظهار الفرح والسرور قَالَ لهم لوط إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي وحد الضيف لانه مصدر كما تقدم
والمراد اضيافي وسماهم ضيفا لانه رآهم على هيئة الاضياف وقومه رأوهم مردا حسان الوجوه في غاية
الحسن ونهاية الجمال فلذلك طمعوا فيهم فَلَا تَفْضَحُونِ يقال فضحه يفضحه فضيحة وفضحا اذا اظهر من امره
ما يلزمه العار باظهاره وفي المختار فضحه فافتضح اي كشف مساويه وبابه قطع والاسم الفضيحة والفضوح
ايضا بضمتين والمعنى لا تفضحوني عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون اني عاجز عن حماية من نزل بي
او لا تفضحوني بفضيحة ضيفي فان من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف وَاتَّقُوا اللَّهَ في امرهم
من ركوب الفاحشة وَلَا تُخْزُونِ يجوز ان يكون من الخزي وهو الذل والهوان اي لا تذلوني ويجوز ان يكون
من الخزاية وهي الحياء والخجل وقد تقدم تفسير ذلك في سورة هود قَالُوا اي قوم لوط مجيبين له

أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ الاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر اي الم نتقدم اليك ونهك
عن ان تكلمنا في شان احد من الناس اذا قصدناه بالفاحشة وقيل نهوه عن ضيافة غرباء الناس
قال قتادة يقولون اولم ننهك ان تضيف احدا او تؤويه في قريتنا ويجوز حمل ما في الآية على ما هو
اعم من ذلك قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي فتزوجوهن حلالا ان اسلمتم ولا ترتكبوا الحرام وقيل اراد ببناته نساء قومه
لكون النبي بمنزلة الاب لقومه او انه كان في شريعته يحل تزوج الكافر بالمسلمة والاول اولى وقد تقدم
تفسير هذا في هود إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفي او ما امركم به لَعَمْرُكَ
العَمر والعُمر بالفتح والضم واحد لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فانه كثير الدور على السنتهم ذكر
ذلك الزجاج وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وعيشه والبقاء مدة حياته في
الدنيا والمعنى لعمرك قسمي او يميني فحذف الخبر لدلالة الكلام عليه قال القاضي عياض اتفق اهل التفسير
في هذا انه قسم من الله جل جلاله بمدة حيوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذا حكى اجماع المفسرين على هذا
المعنى ابوبكر بن العربي فقال قال المفسرون باجمعهم اقسم الله تعالى ههنا بحيوة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له
قال ابو الجوزاء ما اقسم الله سبحانه بحياة احد غير محمد صلى الله عليه وسلم لانه اكرم البرية عنده وعن ابن عباس قال ما
ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا اكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله اقسم بحياة احد غيره
قال لعمرك الآية يقول وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا وعيشك بها وعن ابي هريرة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ما حلف الله بحياة احد الا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم قال لعمرك الآية اخرجه ابن مردويه
كذا في الدر المنثور للسيوطي قال ابن العربي ما الذي يمنع ان يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف
ما شاء وكل ما يعطيه الله سبحانه للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه اكرم على الله
منه او لا تراه سبحانه اعطى ابراهيم الخلة وموسى التكليم واعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم قال فاذا اقسم الله سبحانه
بحياة لوط فحياة محمد صلى الله عليه وسلم ارفع قال القرطبي ما قاله حسن فانه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله
عليه وسلم كلاما معترضا في قصة لوط عليه السلام فان قيل قد اقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين
ونحو ذلك فيها من فضل واجيب بانه ما من شيء اقسم الله به الا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه وقيل الاقسام
منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو
المقسم به اي ورب التين وخالق التين وكذلك ما بعده وفي قوله لعمرك اي وخالق عمرك وذكر صاحب الكشاف قولا آخر حاصله

ان هذا القسم هو من الملائكة على ارادة القول اي قالت الملائكة للوط لعمرك ثم قال وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانه اقسم بحياته وما اقسم بحيات احد قط كرامة له انتهى وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه وجاءت بذلك الاحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير اسمه فليس لعباده ان يقسموا بغيره وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ اي انهم لفي غوايتهم وشدة غلمتهم التي ازالت عقولهم وتمييزهم بين خطائهم والصواب الذي يشار به اليهم يتحيرون جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة والضمير لقريش على ان القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض او لقوم لوط على ان القسم بلوط قال قتادة اي في ضلالهم يلعبون وقال الاعمش لفي غفلتهم يترددون وعمه من باب تعب كما في المختار فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ العظيمة او صيحة جبريل والصيحة العذاب

قال ابن جريج الصيحة مثل الصاعقة وكل شيء اهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة مُشْرِقِينَ اي حال كونهم داخلين في وقت الشروق يقال اشرقت الشمس اي اضاءت وشرقت اذا طلعت وقيل هما لغتان بمعنى واحد واشرق القوم اذا دخلوا في وقت شروق الشمس وقيل اراد شروق الفجر وقيل اول العذاب كان عند شروق الفجر حين اصبحوا وامتد تمامه الى طلوع الشمس حين اشرقوا فلذلك قال اولا مقطوع مصبحين وقال ههنا مشرقين فَجَعَلْنَا مرتب على اخذ الصيحة عَالِيَهَا اي عالي المدينة يعني قرى قوم لوط سَافِلَهَا وقال الزمخشري الضمير لقرى ورجح الاول بانه تقدم ما يعود اليه لفظا بخلاف الثاني والمراد بعاليها وجه الارض وما عليه رفعها جبريل الى السماء من الارض السفلى واسقطها مقلوبة الى الارض وكانت اربعة قرى فيها اربعمائة الف مقاتل وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ اي على من كان خارجا عن قراهم بان كان غائبا في سفر او غيره حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ اي من طين متحجر طبخ بالنار وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود إِنَّ فِي ذَٰلِكَ المذكور من قصتهم وبيان ما اصابهم لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ

اي المتفكرين الناظرين في الامر يستدلون بها وقال ابو عبيدة المتبصرين وقال قتادة المعتبرين وقيل المتأملين كانهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة وقال مجاهد المتفرسين واخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن ابي حاتم وابن السني وابو نعيم وابن مردويه والخطيب عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان في ذلك لآيات للمتوسمين

وقال ثعلب الواسم الناظر اليك من فرقك الى قدمك والمعنى متقارب واصل التوسم التثبت و
التفكر تفعل ماخوذ من الوسم وهو التاثير بحديدة في جلد البعير او البقر وقيل اصله استقصاء التعرف
يقال توسمت اي تعرفت مستقصيا وجوه التعرف وقيل هو من الوسم بمعنى العلامة والفراسة على
نوعين احدهما مايوقعه الله في قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك احوال الناس باصابة الحدس والنظر
والظن والتثبت والثاني مايحصل بدلائل التجارب والاخلاق وللناس في هذا العلم تصانيف قديمة
وحديثة وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ يعني قرى قوم لوط او مدينتهم على طريق ثابت والباء بمعنى في
وهي الطريقة من المدينة الى الشام فان السالك في هذه الطريق يمر بتلك القرى ويشاهدها
ويرى اثر عذاب الله وغضبه لانه لم يندثر ولم يخف ولم يزل وعن ابن عباس معنى لبسبيل لبهلاك
وعن مجاهد لبطريق معلم ليس يخفى وعن قتادة لبطريق واضح إِنَّ فِي ذَلِكَ المذكور من المدينة او
القرى اوما انزل بهم من العذاب لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ يعتبرون بها فان المؤمنين بالله والانبياء والمرسلين
من العباد هم الذين يعتبرون بمايشاهدونه من الاثار ويعرفون ان ذلك انما كان لانتقام
الله من الجهال لاجل مخالفتهم واما الذين لايؤمنون فيحملونه على حوادث العالم وحصول القرانات
الكوكبية والاتصالات الفلكية وجمع الايات اولا باعتبار تعدد ماقص من حديث لوط وضيف
ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وماكان من اهلاكهم وقلب المدائن على من فيها وامطار الحجارة على من
غاب عنها ووحدها ثانيا باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله وانها لبسبيل مقيم فلا يرد
كيف جمع الاية اولا ووحدها ثانيا والقصة واحدة وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ شروع في قصة
شعيب وذكرت ههنا مختصرة وسياتي بسطها في سورة الشعراء الايكة الغيضة وهي جماع الشجر
وجمع الشيء والجمع الايك وفي الاصل اسم للشجر الملتف والمراد بها ههنا البقعة التي فيها شجر مزدحم ففي الكلام
مجاز من اطلاق الحال على المحل ويروى ان شجرهم كان دوما وهو المقل فالمعنى وان كان اصحاب
الشجر الملتف ولرب بقعة الاشجار باعتبار اقامتهم فيها وملازمتهم لها لَظَالِمِينَ بتكذيبهم شعيبا واقتصر
الله سبحانه ههنا على وصفهم بالظلم وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق واللام فيه للتاكيد وقيل الايكة
اسم القرية التي كانوا فيها قال ابو عبيدة ايكة وليكة مدينة كمكة وبكة واصحابها هم قوم شعيب وقد
تقدم خبرهم وقد اخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان مدين واصحاب الايكة امتان بعث الله اليهما شعيبا وعن ابن عباس قال اصحاب الايكة هم قوم
شعيب والايكة ذات آجام وشجر كانوا فيها فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ اي اهلكناهم بالعذاب وذلك ان الله سلط
عليهم شدة الحر سبعة ايام حتى اخذ بانفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه لهم سحابة كالظلة
فالتجأوا اليها واجتمعوا تحتها للتظلل يلتمسون الروح فبعث نارا فاحرقتهم جميعا وَإِنَّهُمَا الضمير يرجع الى
مدينة قوم لوط ومكان اصحاب الايكة اي وان المكانين لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ اي لبطريق واضح ظاهر قاله
ابن عباس وقيل يعود على الخبرين خبر اهلاك قوم لوط وخبر اهلاك قوم شعيب وقيل
يعود على اصحاب الايكة واصحاب مدين لانه مرسل اليهما فذكر احدهما مشعر بالآخر والراجح الاقوال
هو الاول والامام اسم لما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك قال الفراء والزجاج سمي الطريق اماما
لانه يؤتم به ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده وقيل الضمير للايكة
ومدين لان شعيبا كان ينسب اليهما ثم ان الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال وَلَقَدْ كَذَّبَ
أَصْحَابُ الْحِجْرِ قال قتادة هم اصحاب الوادي كانوا ثمود قوم صالح والحجر اسم لديار ثمود قاله الازهري
وهي ما بين مكة وتبوك وقال ابن جرير هي ارض بين الحجاز والشام وآثارها موجودة باقية يمر
عليها ركب الشام الى الحجاز وبالعكس وانما قال الله سبحانه الْمُرْسَلِينَ ولم يرسل اليهم الا صالحا لان من
كذب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة الى الله وقيل كذبوا صالحا
ومن تقدمه من الانبياء وقيل كذبوا صالحا ومن معه من المؤمنين وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا المنزلة على
نبيهم ومن جملتها الناقة فان فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها وعظمها
وكثرة لبنها وانما اضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات فَكَانُوا عَنْهَا
اي عن الآيات مُعْرِضِينَ اي غير معتبرين بها ولا ملتفتين اليها بل تاركين لها ولهذا عقروا
الناقة وخالفوا ما امرهم به نبيهم قال الكرخي وذلك يدل على ان النظر والاستدلال واجب وان
التقليد مذموم وَكَانُوا يَنْحِتُونَ النحت في كلام العرب البري والنجر نحته ينحته بالكسر نحتا اي براه
وفي التنزيل اتعبدون ما تنحتون اي تنجرون وكانوا يتخذون لانفسهم مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا بضم الباء و
كسرها سبعيتان اي يخرقونها في الجبال آمِنِينَ اي حال كونهم آمنين من الخراب ونقب اللصوص
لشدة احكامها ومن ان يقع عليهم الجبل او السقف قاله الفراء وقيل آمنين من الموت
وقيل من عذاب الله كونهم يعتقدون انها تحميهم وقال بعضهم المراد انهم يتخذون بيوتا في الجبال يسفرها

وقطع الصخر منها بالمعاول حتى تصير مساكن من غير بنيان فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ اي العذاب وهو الرجفة او الزلزلة الشديدة من الارض مُصْبِحِينَ اي داخلين في وقت الصبح وقد تقدم ذكر الصيحة في الاعراف وفي هود وتقدم ايضا قريبا فَمَا أَغْنَىٰ اي لم يدفع عَنْهُمْ شيئا من عذاب الله مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ من الاموال والحصون في الجبال او من الشرك والاعمال الخبيثة اخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحاب الحجر لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ان يصيبكم مثل ما اصابهم واخرج ابن مردويه عنه قال نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فامرهم باهراق القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل على البير التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم ان يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال اني اخشى ان يصيبكم مثل الذي اصابهم فلا تدخلوا عليهم وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا متلبسة بِالْحَقِّ وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك امثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقي الى الصلاح وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته كما في قوله سبحانه ولله ما في السموات وما في الارض ليجزي الذين اساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى وقيل المراد بالحق الزوال لانها مخلوقة وكل مخلوق زائل وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ وعند اتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن الى من يستحق الاحسان وفيه وعيد للعصاة وتهديد ثم امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يصفح عن قومه فقال فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ اي تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا وقيل فاعرض عنهم اعراضا جميلا ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم قال علي الصفح الجميل الرضاء بغير عتاب وعن ابن عباس مثله وعن مجاهد قال هذه الآية قبل القتال وعن عكرمة مثله يعني هذا منسوخ باية السيف وفيه بعد لان الله امر نبيه ان يظهر الخلق الحسن وان يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والامر بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ اي الخالق للخلق جميعا الْعَلِيمُ باحوالهم وبالصالح والطالح منهم وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي من للتبعيض او للبيان على اختلاف الاقوال في المراد ذكر معنى ذلك الزجاج فقال هي للتبعيض اذا اردت بالسبع الفاتحة او الطوال وللبيان اذا اردت الاسباع واختلف اهل العلم فيها ماذا هي فقال جمهور المفسرين انها الفاتحة قال الواحدي واكثر المفسرين على انها

فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي وزاد القرطبي اباهريرة واباالعالية وزاد النيسابوري الضحاك وسعيد بن جبير وقد روي ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سياتي بيانه فتعين للصير اليه وقيل هي السبع الطوال البقرة وال عمران و النساء والمائدة والانعام والاعراف والسابعة الانفال والتوبة لانهما كسورة واحدة اذ ليس بينهما تسمية روي هذا عن ابن عباس وقيل السابعة هي سورة يونس وقيل المراد بها السبعة الاحزاب فانها سبع صحائف وقيل هي السور التي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين والمثاني جمع مثناة من التثنية وهي التكرار او جمع مثنية وقال الزجاج يثنى بما يقرأ بعدها معها فعلى القول الاول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني انها تثنى اي تكرر في كل صلوة وعلى القول بانها السبع الطوال فوجه التسمية ان العبر والاحكام والحدود كررت فيها وعلى القول بانها السبعة الاحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها وقد ذهب الى ان المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاوس وابو مالك وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى كتابا متشابها مثاني وقيل المراد بالسبع المثاني اقسام القرآن وهي الامر والنهي والتبشير والانذار وضرب الامثال وتعريف النعم وانباء القرون الماضية قاله زياد بن ابي مريم ولا يخفى عليك ان تسمية الفاتحة مثاني لا يستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم وقد تقرر انها المرادة بهذه الآية فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها والقرآن العظيم المراد به سائر القرآن قاله ابن مسعود فيكون من عطف العام على الخاص لان الفاتحة بعض من القرآن وكذلك ان اريد بالسبع المثاني السبع الطوال لانها بعض من القرآن واما اذا اريد بها السبعة الاحزاب او جميع القرآن او اقسامه فيكون من باب عطف احد الوصفين على الآخر او من عطف الكل على البعض ان اريد بالقرآن المجموع الشخصي ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة ان هذه السورة مكية واكثر السبع الطوال مدنية وكذلك اكثر القرآن واكثر اقسامه وظاهر قوله ولقد آتيناك الخ انه قد تقدم ايتاء السبع على نزول هذه الآية وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابي سعيد بن المعلى فذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج فذكرت فقال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم واخرج البخاري ايضا من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ام القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم فوجب بهذا

المصير الى القول بانها فاتحة الكتاب و لكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا
وعن الضحاك قال المثاني القرآن يذكر الله القصة الواحدة مرارا وعن زياد بن ابي مريم في الآية قال
اعطيتك سبعة اجزاء مُر وانْهَ وبَشِّر وانذِر واضرب الامثال واعدد النعم واتل نبأ القرآن ثم
لما بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ما انعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره الله عن اللذات العاجلة
الزائلة فقال لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ اي لا تطمح ببصرك الى زخارف الدنيا
طموح رغبة فيها وتمن لها قال الواحدي انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا ادام النظر نحوه و
ادامة النظر اليه تدل على استحسانه وتمنيه وقال بعضهم المعنى لا تحسدن احدا على ما اوتي من
الدنيا ورد بان الحسد منهي عنه مطلقا وانما قال في هذه السورة لا تمدن بغير واو لانه لم يسبقه
طلب بخلاف ما في سورة طه وعن ابن عباس قال في قوله لا تمدن عينيك نهى الرجل ان يتمنى مال
صاحبه والازواج الاصناف قاله ابن قتيبة وقال الجوهري الازواج القرناء وقيل يعني اليهود
والنصارى والمجوس وعن مجاهد في قوله ازواجا منهم قال الاغنياء الامثال والاشباه وعن سفيان
بن عيينة قال من اعطي القرآن فمد عينيه الى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن الم تسمع قوله
ولقد آتيناك سبعا من المثاني الى قوله ورزق ربك خير وابقى وقد فسر ابن عيينة ايضا الحديث
الصحيح ليس منا من لم يتغن بالقرآن فقال ان المعنى لم يستغن به ثم لما نهاه عن الالتفات الى اموالهم وامتعتهم
نهاه عن الالتفات اليهم فقال وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد وقيل المعنى لا تحزن
على ما متعوا به في الدنيا وفاتك من مشاركتهم فيها فان لك الآخرة والاول اولى روى البغوي بسنده
عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدري ما هو لاق بعد
موته ان له عند الله قاتلا لا يموت، قيل وما هو قال النار وعنه عند مسلم مرفوعا انظروا الى من
هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم قال عون كنت اصحب
الاغنياء فما كان احد اكثر هما مني كنت ارى دابة خيرا من دابتي وثوبا خيرا من ثوبي فلما سمعت
هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ثم لما نهاه عن ان يمد عينيه الى اموال الكفار وان يحزن
عليهم وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم امره ان يتواضع للمؤمنين فقال وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِلْمُؤْمِنِينَ خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ومنه قوله سبحانه واخفض لهما جناح الذل

واصله ان الطائر اذا ضم فرخه الى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفا لتواضع الانسان لاتباعه ويقال فلان خافض الجناح اى وقور ساكن والجناحان من ابن آدم جانباه ومنه واضمم يدك الى جناحك وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ اي المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ عذابا اي اني انا النذير لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي انزلناه عليهم كقوله تعالى انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقيل ان الكاف زائدة وقيل متعلق بمحذوف والتقدير انزلنا اليك انزالا مثل ما انزلنا قاله الكرخي وقيل هو متعلق بقوله ولقد آتيناك اي انزلنا عليك مثل ما انزلنا على اهل الكتاب وهم المقتسمون قاله الزمخشري والاولى ان يتعلق بقوله اني انا النذير المبين لانه في قوة الامر بالانذار وقيل ان العذاب المنذر به ينبغي ان يشبه بشيء قد وقع يعرفه المنذرون حتى يحصل لهم تخويف والمشبه به هنا قد علمت انه غير واقع فكانه قال انذركم بعذاب مشابه بعذاب سيقع قاله ابو السعود وقد اختلف في المقتسمين من هم على اقوال سبعة فقال مقاتل والفراء هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة ايام الموسم فاقتسموا اعقاب مكة و انقابها وفجاجها يقولون لمن دخل مكة لا تغتروا بهذا الخارج فينا فانه مجنون وربما قالوا ساحر وربما قالوا شاعر وربما قالوا كاهن فقيل لهم المقتسمون لانهم اقتسموا هذه الطرق وقيل انهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا وبعضه سحرا وبعضه كهانة وبعضه اساطير الاولين قاله قتادة وقيل هم اهل الكتاب وسموا مقتسمين لانهم كانوا يقسمون القرآن استهزاء فيقول بعضهم هذه السورة لي وهذه لك ذكر هذا عن ابن عباس وقيل انهم اقتسموا كتابهم وفرقوه وبددوه و حرفوه وقيل المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى تقاسموا بالله لنبيتنه و اهله وقيل تقاسموا ايمانا تحالفوا عليها قاله الاخفش قلت وفي هذا الوجه قرب من حيث المقاسمة و بعد من حيث وصفهم بجعلهم القرآن عضين واما الاوجه الآخرة فهي مستقيمة وقيل انهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل بن هشام وابو البختري والنضر بن الحارث وامية بن خلف وشيبة بن الحجاج ذكره الماوردي الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ جمع عضة واصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها اعضاء واجزاء فيكون المعنى على هذا الذين جعلوه اجزاء متفرقة بعضه شعر وبعضه سحر وبعضه كهانة ونحو ذلك وقيل ماخوذ من عضهته اذا بهته فالمحذوف منه الهاء

لا الواو وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء وقيل معنى عضين ايمانهم ببعض الكتاب وكفرهم
ببعض وقيل العضة والعضين في لغة قريش السحر وهم يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة
وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن العاضهة والمستعضهة وفسر بالساحرة والمستسحرة والمعنى
انهم اكثروا البهت على القرآن وسموه سحرا وكذبا واساطير الاولين ونظير عضه في النقصان شفه
والاصل شفهة وكذلك سنة اصلها سنهة قال الكسائي العضة الكذب والبهتان وجمعها عضون
وقال الفراء انه ماخوذ من العضاه وهي شجرة توذي وتجرح كالشوك ويجوز ان يراد بالقرآن التورية
والانجيل لكونهما مما يقرأ ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى اي جعلوهما اجزاء متفرقة وهو
احد الاقوال المتقدمة فوربك اقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة وربوبيته العظيمة لنسألنهم اي هؤلاء الكفرة
اجمعين يوم القيامة سؤال توبيخ عما كانوا يعملون في الدنيا من الاعمال التي يحاسبون عليها ويسألون
عنها وقيل ان المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد وقد اخرج الترمذي وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر
وابن ابي حاتم عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال عن قول لا اله الا الله وروي عن انس موقوفا
وعن ابن عمر مثله والعموم يفيد ما هو اوسع من ذلك وقيل ان المسئولين ههنا هم جميع المؤمنين والعصاة
والكفار ويدل عليه قوله ثم لتسألن يومئذ عن النعيم وقوله وقفوهم انهم مسئولون وقوله ان الينا
ايابهم ثم ان علينا حسابهم ويمكن ان يقال ان قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف
العموم اليهم لا ينافي سؤال غيرهم فاصدع بما تؤمر قال الزجاج يقول اظهر ما تؤمر به من الشرائع
اخذا من الصديع وهو الصبح انتهى واصل الصدع الفرق والشق يقال صدعته فانصدع اي انشق
وتصدع القوم اي تفرقوا ومنه يومئذ يصدعون اي يتفرقون قال الفراء اراد فاصدع بالامر
اي اظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر وقال ابن الاعرابي معناه اقصد وقيل فرق
جمعهم وكلمتهم بان تدعوهم الى التوحيد فانهم يتفرقون والاولى ان الصدع الاظهار كما قاله الزجاج
والفراء وغيرهما قال الواحدي قال المفسرون اي اجهر بالامر اي بامرك بعد اظهار الدعوة وما زال
النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو واصحابه وقال ابن عباس هذا امر من الله
لنبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالته قومه وجميع من ارسل اليه واصدع بمعنى امضه واعلن ثم امره
الله سبحانه بعد امره بالصدع بالاعراض وعدم الالتفات الى المشركين فقال واعرض عن

المشركين اي لاتبال بهم ولا تلتفت اليهم اذا لاموك على اظهار الدعوة قال ابن عباس نسخه قوله تعالى
فاقتلوا المشركين وليس للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا
ثم اكد هذا الامر وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ مع انهم كانوا من
اكابر الكفار واهل الشوكة فيهم فاذا كفاه الله امرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه امر من هو دونهم بالاولى
وهؤلاء المستهزؤن كانوا خمسة من رؤساء اهل مكة الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود
بن المطلب والاسود بن عبد يغوث والحرث بن الطلاطلة كذا قال القرطبي ووافقه غيره من
المفسرين وقد اهلكهم الله جميعا يوم بدر وكفاه امرهم في يوم احد وقد روي هذا عن جماعة
من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك ثم وصف هؤلاء المستهزئين
بالشرك فقال الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء بل لهم ذنب آخر وهو
الشرك بالله سبحانه ثم توعدهم فقال فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة
الله سبحانه ثم ذكر تسلية اخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التسلية الاولى بكفايته شرهم ودفعه
لمكرهم فقال وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ الاقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول
الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والكهانة والكذب وقد كان يحصل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم
بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الانساني وان كان مفوضا جميع اموره لربه ثم امره سبحانه بان
يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر الى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ اي افزع
الى الله فيما نابك وافعل التسبيح المتلبس بالحمد او فنزهه عما يقولون حامدا له على ان هداك للحق وَكُن مِّنَ
السَّاجِدِينَ اي من المصلين فانك اذا فعلت ذلك كشف الله همك واذهب غمك وشرح صدرك
وفي الكلام مجاز ثم امره بعبادة ربه فقال وَاعْبُدْ رَبَّكَ من عطف العام على الخاص اي دم على
عبادته الى غاية هي قوله حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ قال الواحدي قال جماعة المفسرين يعني الموت
لانه موقن به متيقن الوقوع والنزول لا يشك فيه احد وقال ابو حيان ان اليقين من اسماء الموت وبنزوله
يزول كل شك ووقت العبادة بالموت اعلاما بانها ليس لها نهاية دون الموت فلا يرد ما قيل اي
فائدة لهذا التوقيت مع ان كل احد يعلم انه اذا مات سقطت عنه العبادات في ايضاح الجواب ان المراد
واعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة من العبادة والله اعلم بمراده

قال الزجاج المعنى اعبد ربك ابدا لانه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز اذا عبد الانسان مرة ان يكون مطيعا فاذا قال حتى ياتيك اليقين فقد امره بالاقامة على العبادة ابدا ما دام حيا ومثله قوله تعالى في سورة مريم واوصاني بالصلوة والزكوة ما دمت حيا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر فزع الى الصلوة اخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن ابي مسلم الخولاني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اوحي الي ان اجمع المال واكن من التاجرين ولكن اوحي الي ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى ياتيك اليقين وروي بطرق كثيرة

سورة النحل مائة وثمان وعشرون اية

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن عبد الله وروي عن ابن عباس وابن الزبير انها نزلت بمكة سوى ثلاث ايات من اخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من احد وهي قوله تعالى ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله تعلمون وقال قتادة هي مكية الا خمس ايات وهي قوله والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله وان عاقبتم الى اخر السورة وزاد مقاتل قوله من كفر بالله من بعد ايمانه الاية وضرب الله مثلا قرية وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية والاول اولى وتسمى هذه سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من النعم بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اَتٰىٓ اَمۡرُ اللّٰهِ اي جاء ودنا وقرب عقابه للمشركين بالقتل بالسيف والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه وقال جماعة من المفسرين الامر القيامة قال الزجاج هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ولما نزلت هذه الاية قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت انا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما اخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد وقيل ان المراد بالامر حكمه بذلك وقد وقع واتى فاما المحكوم به فانه لا يقع لانه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود وقيل المراد باتيانه اتيان مباديه ومقدماته وقال الضحاك يعني الاحكام والحدود والفرائض فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ اي فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت فانه واقع لا محالة ولا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه وقد كان المشركون يستعجلون العذاب كما قال النضر بن الحارث اللهم ان كان

هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية والمعنى قرب امر الله فلا تستعجلوه
وقوعه لو قد كان استعجالهم على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة وفي نهيهم عن
الاستعجال تهكم بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ اي تنزه الله وترفع عن اشراكهم او عن ان يكون له
شريك وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب وقيام الساعة استهزاء وتكذيبا فانه
يتضمن وصفهم له سبحانه بانه لا يقدر على ذلك وانه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات
المخلوق لا من صفات الخالق فكان ذلك شركا وهذه الجملة تنازع فيها العاملان وفيه التفات
من الخطاب الى الغيبة تحقيرا لشانهم وحطا لدرجتهم عن رتبة الخطاب وفي قراءة سبعية بالتاء
وما مصدرية فلا عائد لها عند الجمهور او موصولة كما قاله السمين اي عما يشركونه به وما عبارة عن
الاصنام يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ قرئ بالياء التحتية والفاعل هو الله سبحانه وقرئ تنزل من التفعل والاصل
تتنزل فالفعل مسند الى الملائكة وقرئ تنزل على البناء للمفعول وننزل بالنون والمراد بالملائكة
هنا جبريل وعبر عنه بالجمع تعظيما له بِالرُّوحِ هو الوحي قاله ابن عباس ومثله يلقي الروح من امره
وسمي الوحي روحا لانه يحيي قلوب المؤمنين فان من جملة الوحي القرآن وهو نازل من الدين منزلة
الروح من الجسد وبه قال الحسن فالتعبير بالروح عن الوحي على طريق الاستعارة التصريحية
بجامع ان الروح به احياء البدن والوحي به احياء القلوب من الجهالات وقيل المراد ارواح الخلائق
وقيل الرحمة وقيل الهداية لانها تحيي بها القلوب كما تحيي الابدان بالارواح قال الزجاج الروح ما كان فيه من الله
حياة بالارشاد الى امره وقال ابو عبيدة الروح هنا جبريل ويكون الباء على هذا بمعنى مع وعن ابن
عباس قال الروح امر من امر الله وخلق من خلق الله صورهم على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك الا ومعه
واحد من الروح ثم تلى يوم يقوم الروح والملائكة صفا ومن في مِنْ أَمْرِهِ بيانية اي ناشئا ومبتديا
من امره او صفة للروح او متعلق بينزل عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يعني من يصطفيه للنبوة والرسالة
وتبليغ الوحي الى الخلق وهم الانبياء ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها انه صلى الله عليه وسلم لما اخبرهم عن الله
انه قد قرب امره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا في الطريق الذي علم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فاخبر
انه علم بها بالوحي على السن رسل الله سبحانه من ملائكته أَنْ أَنذِرُوا قال الزجاج اي ينزلهم بان انذروا
او المعنى بان الشان اقول لكونه بدلا اي اعلموا الناس وعبارة البيضاوي وان مفسرة لان الروح بمعنى

لان الروح بمعنى الوحي الدال على القول او مصدرية في موضع الجر بدلا من الروح او النصب بنزع
الخافض او مخففة من الثقيلة أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا اي مروهم بتوحيدي واعلموهم ذلك مع تخويفهم
لان في الانذار تخويفا وتهديدا والضمير في انه للشان فَاتَّقُونِ رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود و
الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات وهو تحذير لهم من الشرك بالله والفاء فصيحة وفي الشهاب
اذا كان الانذار بمعنى التخويف فالظاهر دخول فاتقون في المنذر به لانه هو المنذر به في الحقيقة
واذا كان بمعنى الاعلام فالمقصود بالاعلام هو الجملة الاولى وهذا متفرع عليها انتهى وفيه تنبيه
على الاحكام الفرعية بعد التنبيه على الاحكام العلمية بقوله انه لا اله الا انا فقد جمعت هذه الآية
بين الاحكام الاصلية والفرعية ثم انه سبحانه لما ارشدهم الى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ اي اوجدهما على هذه الصفة التي هما عليها بِالْحَقِّ اي الدالة على قدرته
ووحدانيته وقيل المراد بالحق هنا الفناء والزوال تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ اي تقدس وترفع عن اشراكهم او
عن شريكه الذي يجعلونه شريكا له وما اسمية موصولة او موصوفة وقيل عما يشركونه من الاصنام
ومنهما اي السموات والارض ثم لما كان نوع الانسان اشرف انواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه
بالذكر فقال خَلَقَ الْإِنسَانَ وهو اسم لجنس هذا النوع مِن نُّطْفَةٍ اي من جماد يخرج من حيوان وهو المني
فقلبه اطوارا الى ان كملت صورته ونفخ فيه الروح واخرجه من بطن امه الى هذه الدار فعاش فيها
ومن لابتداء الغاية وانتهاؤها محذوف كما قرره الكرخي والنطفة القطرة من الماء يقال نطف راسه
ماء اي قطر وقيل هي الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل والمرأة جمعها نطف ونطاف ولا يستعمل
للنطفة فعل من لفظها فَإِذَا هُوَ بعد خلقه على هذه الصفة خَصِيمٌ كثير الخصومة والمجادلة والمعنى انه
كالمخاصم لله سبحانه في قدرته مُّبِينٌ ظاهر الخصومة وواضحها وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به
من الباطل والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من
نطفة فاذا هو خصيم مبين قيل نزلت في ابي بن خلف والاولى انها عامة في كل ما يقع من الخصومة
في الدنيا ويوم القيامة فانه لا اعتبار بخصوص السبب اذا اقتضى المقام العموم كما تقرر قال الكرخي
ان هذه ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في
الكفر ثم عقب ذكر خلق الانسان بخلق الانعام لما فيها من النفع لهذا النوع والامتنان بها اكمل

من الامتنان بغيرها فقال والأنعام خلقها وهي الابل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز واكثر ما يقال
نعم وانعام للابل ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة وقال الجوهري والنعم واحد الانعام واكثر ما يقع
هذا الاسم على الابل ثم لما اخبر سبحانه بانه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم قال الواحدي
تم الكلام عند هذا ثم ابتدأ فقال لكم فيها دفء ويجوز ان يكون تمامه عند قوله لكم والاول اولى
واحسن والدفء السخانة وهو ما استدفئ به من اصوافها واوبارها واشعارها قال ابن عباس
دفء الثياب اي من الاكسية والاردية قال بعض المفسرين ان في الآية التفاتا من الغيبة في
الانسان الى الخطاب في لكم فيقتضي ان المخاطب مطلق بني آدم المندرجين تحت الانسان ومنافع
اي ما ينتفعون به من الاطعمة والاشربة قاله ابن عباس وهي درها وركوبها ونتاجها والحراثة
ونحو ذلك وقد قيل ان الدفء النتاج واللبن قال في الصحاح الدفء نتاج الابل والبانها وما
ينتفع به منها ثم قال والدفء ايضا السخونة وعلى هذا فان اريد بالدفء المعنى الاول فلا بد
من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها وان حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما
ذكرناه واضحا وقيل المراد بالمنافع النتاج خاصة وقيل الركوب ومنها اي من لحومها وشحومها تأكلون
وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لانها اعظمها وقيل خصها لان الانتفاع بلحمها
وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص
للاشارة الى ان الاكل منها هو الاصل وغيره نادر فالاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد
البر والبحر يجري مجرى التفكه به وقيل تقديم الظرف للفاصلة لا للحصر ولما كانت منفعة اللباس اعظم
من منفعة الاكل قدمه على الاكل ولكم فيها مع ما تقدم ذكره جمال هو ما يتجمل به ويتزين والحسن
والمعنى هنا لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين اليها حين تريحون وحين تسرحون اي في هذين
الوقتين وهما وقت ردها من مراعيها ووقت تسريحها اليها فالرواح والاراحة رجوعها بالعشي
وردها من المراعي والسراح مسيرها الى مراعيها بالغداة يقال سرحت الابل اسرحها سرحا وسروحا
اذا غدوت بها الى المرعى وقدم الاراحة على التسريح مع انه خلاف الواقع لان منظرها عند الاراحة
اجمل وذواتها احسن لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الاكل والشرب فعظمت بطونها
وانتفخت ضروعها فيفرح اهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون

ضاهرة الضروع وخص هذين الوقتين لانهما اوقت نظر الناظرين اليها لانها عند استقرارها في
الحظائر لا يراها احد وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى في جانب واكثر ما
تكون هذه الراحة ايام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلاء وخرجت العرب للنجعة واحسن ما تكون
النعم في هذا الوقت فانه يسمع للابل رغاء وللبقر خوار وللشياه ثغاء يجاوب بعضها بعضا وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ
الانعام والمراد بها هنا الابل خاصة والاثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر من طعام وغيره وسمي
ثقلا لانه يثقل الانسان حمله وقيل المراد ابدانهم إِلَىٰ بَلَدٍ غير بلدكم لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ اي واصلين
اليه لو لم يكن معكم ابل تحمل اثقالكم إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ لبعده عنكم وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه في
السفر وظاهره يتناول كل بلد بعيد من غير تعيين وقيل المراد بالبلد مكة قاله ابن عباس وقيل اليمن
ومصر والشام لانها متاجر العرب وشق الانفس مشقتها قرئ بكسر الشين وبفتحها قال الجوهري الشق
المشقة ومنه قوله تعالى الا بشق الانفس وحكى ابو عبيدة فتح الشين وهما بمعنى ويجوز ان يكون المفتوح
مصدرا من شققت عليه اشق شقا والمكسور بمعنى النصف يقال اخذت شق الشاة وشقة الشاة
ويكون المعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بذهاب نصف الانفس من التعب وقد امتن الله سبحانه على
عباده بخلق الانعام على العموم ثم خص الابل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الاثقال دون البقر والغنم و
الاستثناء من اعم العام اي لم تكونوا بالغيه بشيء من الاشياء الا بشق الانفس قال ابن عباس لو تكلفتموه
لم تطيقوه الا بجهد شديد إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ اي وخلق لكم هذه الثلاثة الاصناف وسميت الخيل خيلا لاختيالها في
مشيها وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن وقيل اسم جنس لا واحد له من لفظه بل من
معناه وهو الفرس والبغال جمع بغل وهو المتولد من الخيل والحمير والحمير جمع حمار ثم علل سبحانه خلق
هذه الانواع الثلاثة بقوله لِتَرْكَبُوهَا وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها لان الانتفاع بها في
غير الركوب معلوم كالتحميل عليها وَزِينَةً عطف على محل لتركبوها لانها في محل نصب على انه علة
لخلقها ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها لان الركوب فعل المخاطبين والزينة فعل الزائن و
هو الخالق والتحقيق فيه ان الركوب هو المعتبر في المقصود بخلاف الزينة فانه لا يلتفت اليه اهل الهمم العالية
لانه يورث العجب فكانه سبحانه قال خلقتها لتركبوها فتدفعوا بواسطتها عن انفسكم ضرر الاعياء

والمشقة وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها قالوا ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل قالوا ولو كان أكل الخيل جائزا لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب لأنه أعظم فائدة منه وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحق ولا حجة لأهل القول الأول في التعليل بقوله لتركبوها لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب وأيضا لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر وقد قدمنا أن هذه السورة مكية والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ودافعة لهذا الاستدلال وقد أوضح الشوكاني هذه المسألة في مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر قال أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا وهما على شرط مسلم وثبت أيضا في الصحيحين من حديث جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل وأما ما أخرجه أبو عبيد وأبو داود والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ففي إسناده صالح بن يحيى بن المقدام وفيه مقال ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحل على أنه يمكن أن هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر فيكون منسوخا وعامة المفسرين والمحدثين على أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الأشياء العجيبة والغريبة مما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا وقيل المراد من أنواع الحشرات والهوام

في إسافل الارض وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوه وقيل هو ما أعده الله لعباده في الجنة وفي النار مما
لم تره عين ولم تسمع به اذن ولا خطر على قلب بشر وقيل هو خلق السوس في النبات والدود في الفواكه
وقيل عين تحت العرش وقيل نهر من النور وقيل ارض بيضاء ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه
الآية على نوع من هذه الانواع بل المراد انه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد فيشمل كل شيء لا يحيط
علمهم به والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة لانه سبحانه قد خلق ما لم يعلم به
العباد ولا يأتي عليه الحصر والعد واخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان مما خلق الله ارضا من لؤلؤ بيضاء ثم ساق من اوصافها ما يدل على ان الحديث موضوع
ثم قال في آخره فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** القصد مصدر بمعنى الفاعل
فالمعنى وعلى الله هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع وقيل هو على
حذف مضاف والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل والسبيل الاسلام وبيانه بارسال الرسل
وانزال الكتب واقامة الحجج والبراهين والقصد في السبيل هو كونه موصلا الى المطلوب فالمعنى وعلى
الله بيان الطرق الموصلة الى المطلوب **وَمِنْهَا** الضمير راجع الى السبيل بمعنى الطريق لانها تذكر وتؤنث
او لانها في معنى سبل فانث على معنى الجمع وقيل راجع اليها بتقدير مضاف اي ومن جنس السبيل **جَائِرٌ**
مائل عن الحق والجور العدول عن الاستقامة وقيل ان الطريق كناية عن صاحبها والمعنى ومنهم
جائر عن سبيل الحق اي عادل عنه فلا يهتدي اليه قيل وهم اهل الاهواء المختلفة وقيل اهل
الملل الكفرية فقصد السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل
الكفر وقيل قصد السبيل السنة المطهرة والجائر البدع المحدثة المضلة قال ابن عباس على الله ان
يبين الهدى والضلالة ومنها جائر قال السبل المتفرقة وقال قتادة وعلى الله بيان حلاله وحرامه
وطاعته ومعصيته ومنها جائر قال من السبل ناكب عن الحق وعن علي كان يقرأ ومنكم جائر
وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ اي ولو شاء ان يهديكم جميعا هداية موصلة الى الطريق الواضح الصحيح
والمنهج الحق الصريح لفعل ذلك ولكنه لم يشأ بل اقتضت مشيئته سبحانه اراءة الطريق والدلالة
عليها كما قال وهديناه النجدين واما الايصال اليها بالفعل فذلك يستلزم ان لا يوجد في العباد كافر
ولا من يستحق النار من المسلمين وقد اقتضت المشيئة الربانية بكون البعض مؤمنا والبعض كافرا

كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ولما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب احوال الحيوانات اراد ان يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب احوال النبات فقال

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ جهة السَّمَاءِ وهي السحاب مَاءً اي نوعا من انواع الماء وهو المطر لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ هو اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم والمعنى ان الماء النازل من السماء قسمان قسم يشربه الناس ومن جملته ماء الآبار والعيون فانه من المطر لقوله فسلكه ينابيع في الارض وقسم يحصل مِنْهُ شَجَرٌ ترعاه المواشي قال الزجاج كل ما نبت من الارض فهو شجر لان التركيب يدل على الاختلاط ومنه تشاجر القوم اذا اختلط اصوات بعضهم بالبعض ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلاء وفيما له ساق و قال ابن قتيبة المراد من الشجر في الآية الكلاء وقيل الشجر كل ما له ساق كقوله تعالى والنجم والشجر يسجدان والعطف يقتضي التغاير فلما كان النجم ما لا ساق له وجب ان يكون الشجر ما له ساق واجيب بان عطف الجنس على النوع جائز وقيل المراد بالشجر هنا مطلق النبات سواء كان له ساق او لا فِيهِ تُسِيمُونَ اي في الشجر ترعون مواشيكم يقال سامت السائمة تسوم سوما رعت فهي سائمة واسمتها اي اخرجتها الى الرعي فانا مسيم وهي مسامة وسائمة واصل السوم الابعاد في المرعى قال الزجاج اخذ من السومة وهي العلامة لانها تؤثر في الارض علامات برعيها يُنْبِتُ اللَّهُ لَكُمْ بِهِ اي بذلك الماء الذي انزله من السماء استيناف اخبار عن منافع الماء وهذه الآية مبنية على مكارم الاخلاق وهو ان يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده اكمل من اهتمامه بنفسه واما الآية الاخرى فمبنية على قوله صلعم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول وقدم الزَّرْعَ لانه اصل الاغذية التي يعيش بها الناس وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما وذكر الزَّيْتُونَ بعد الزرع لكونه فاكهة من وجه وادامًا من وجه لكثرة ما فيه من الدهن والبركة وهو جمع زيتونة ويقال للشجرة نفسها زيتونة وذكر النَّخِيلَ لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب اشرف الفواكه وجمع الْأَعْنَابَ لاشتمالها على الاصناف المختلفة وهي شبه النخلة في المنفعة من التفكه و التغذية ثم اشار الى سائر الثمرات اجمالا فقال وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كما اجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله ويخلق ما لا تعلمون ومن تبعيضية اذ كلها انما يوجد في الجنة وما انبت الارض بعض من كلها للتذكرة إِنَّ فِي ذَٰلِكَ الانزال والانبات لَآيَةً عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد

بالربوبية لقوم يتفكرون في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته قد ذكر لفظ
الآية في هذه السورة سبع مرات خمس بالافراد وثنتان بالجمع قال الكرماني ما جاء بلفظ الافراد
فلوحدة المدلول وهو الله تعالى وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات وختم هذه الفاصلة
بالتفكر لان النظر في ذلك يعني نبات النبات بالماء يحتاج الى مزيد تامل واستعمال فكر الا ترى
ان الحبة الواحدة اذا وضعت في الارض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الارض فانها تنتفخ
وينشق اعلاها فتصعد منه شجرة الى الهواء واسفلها تغوص منه عروق في الارض ثم ينمو الاعلى
ويقوى ويخرج منه الاوراق والازهار والاكمام والثمار المشتملة على اجسام مختلفة الطبائع والطعوم
والالوان والروائح والاشكال والمنافع ومن تفكر في ذلك علم ان من هذه افعاله وآثاره لا يمكن
ان يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلا عن ان يشاركه اخس الاشياء في اخص صفاته
التي هي الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ذكره الخازن وابو السعود و
سخر لكم الليل والنهار معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه
حاجاتهم يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمر به ولا يخرج عن ارادته ولا يهمل
السعي في نفعه وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر وقوله النجوم قرأ حفص عن عاصم برفعه
على انه مبتدأ وخبره مسخرات اي مذللات مقهورات بامره تعالى تجري على نمط متحد يستدل بها
العباد على مقادير الاوقات ويهتدون بها ويعرفون اجزاء الزمان ولا تصرف لها في نفسها
فضلا عن غيرها وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هي الفعالة
المتصرفة في العالم السفلي فاخبر سبحانه انها مذللات تحت قهره وارادته ان في ذلك التسخير
وما بعده لآيات لقوم يعقلون اي يعملون عقولهم في هذه الآيات الدالة على وجود الصانع
وتفرده وعدم وجود شريك له وختم الفاصلة الثانية بالعقل لان الآثار العلوية اظهر دلالة
على القدرة الباهرة وابين شهادة للكبرياء والعظمة وجمع الآيات ليطابق قوله مسخرات وقيل
ان وجه الجمع هو ان كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما
تقدم من الانبات فانه آية واحدة ولا يخلو كل هذا عن تكلف والاولى ان يقال ان هذه المواضع
الثلاثة التي افرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللافراد

باعتبار فلم یجرها علی طریقة واحدة افتنانا وتنبیها علی جواز الامرین وحسن کل واحد منهما
وَمَا ذَرَأَ أی خلق لَكُمْ فِي الْأَرْضِ یقال ذرأ الله الخلق یذرؤهم ذرءا فهو ذاریء ومنه الذریة وهی
نسل الثقلین وقد تقدم تحقیق هذا ای وسخر لکم ماذرأ فی الارض من الدواب والانعام والاشجار
والثمار فالمعنی انه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماویة والمخلوقات الارضیة مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ای
هیئاته ومناظره فان وراء هذه الاشیاء علی اختلاف الالوان والاشکال مع تساوی الکل فی الطبیعة
الجسمیة آیة عظیمة دالة علی وجود الصانع سبحانه وتفرده قال قتادة مختلفا من الدواب والشجر
والثمار نعم من الله متظاهرة فاشکروها لله إِنَّ فِي ذَٰلِكَ التسخیر لهذه الامور مع اختلاف طبائعها
واشکالها مع اتحاد موادها لَآيَةً واضحة لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ فان من تذکر اعتبر ومن اعتبر استدل به علی
المطلوب قیل وانما خص المقام الاول بالتفکر لامکان ایراد الشبهة وخص الثانی بالعقل لذکره
بعد اماطة الشبهة وازاحة العلة فمن لم یعترف بعدها بالوحدانیة فلا عقل له وخص الثالث بالتذکر
لمزید الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له وفی هذا من التکلف ما لا یخفی والاولی ان یقال هنا
کما قلنا فیما تقدم فی افراد الآیة فی البعض وجمعها فی البعض الآخر وبیانه ان کلا من هذه المواضع
الثلاثة یصلح لذکر التفکر ولذکر التعقل ولذکر التذکر لاعتبارات ظاهرة غیر خفیة فکان فی التعبیر
فی کل موضع بواحد منها افتنان حسن لا یوجد فی التعبیر بواحد منها فی جمیع المواضع الثلاثة وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ امتن الله سبحانه بتسخیر البحر بامکان الرکوب علیه واستخراج ما فیه من صید و
جواهر لکونه من جملة النعم التی انعم الله بها علی عباده مع ما فیه من الدلالة علی وحدانیة الرب
سبحانه وکمال قدرته وقد جمع الله سبحانه لعباده فی هذا المقام بین التذکیر بآیاته الارضیة
والسماویة والبحریة فارشدهم الی النظر والاستدلال بالآیات المتنوعة المختلفة الامکنة اتماما للحجة
وتکمیلا للانذار وتوضیحا لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ومواضع النظر والاعتبار ثم ذکر العلة
فی تسخیر البحر فقال لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا المراد به السمك ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والارشاد
الی المسارعة باکله لکونه مما یفسد بسرعة قال قتادة یعنی حیتان البحر وقال السدی وما فیه من الدواب
وبدأ بذکر الاکل لانه اعظم المقصود وبه قوام البدن وتسمیته لحما هو مذهب المالکیة بخلاف
الشافعیة والحنفیة وعلی هذا فلو حلف لا یأکل لحما لا یحنث باکل السمك ولاظهار قدرته فی خلقه

خلق جديد يا طريا في ... الطري ضد اليبوسة اي غض جديد ويقال طريت كذا اي
جددته واطريت فلانا مدحته باحسن ما فيه ويقال بالغت في مدحه وجاوزت وتستخرجوا
منه اي من البحر وهو المالح فقط حلية اي لؤلؤا ومرجانا كما في قوله سبحانه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان
والحلية اسم لما يتحلى به واصلها الدلالة على الهيئة كالعبرة وفي المصباح حلي الشيء بعيني وبصدري
من باب تعب حلا وحسن عندي واعجبني وحليت المرأة حليا ساكن اللام لبست الحلي وجمعه
حلي والاصل على فعول مثل فلس وفلوس والحلية بالكسر الصفة والجمع حلى مقصور مثل لحية ولحى
وتكسر وحلية السيف زينته قال ابن فارس ولا تجمع وتحلت المرأة لبست الحلي واتخذته وحليتها
بالتشديد البستها الحلي او اتخذته لها لتلبسه وحليت السويق جعلت فيه شيئا حلوا حتى حلا
وظاهر قوله تلبسونها انه يجوز للرجال ان يلبسوا اللؤلؤ والمرجان اي يجعلونهما حلية لهم
كما يجوز للنساء ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تاويل قوله تلبسونها بقوله يلبسه
نساؤهم لانهن من جملتهم او لكونهن يلبسنها لاجلهم وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع
الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها الا النساء خاصة فان
ذلك ممنوع قد ورد الشرع بمنعه من جهة كونه تشبها بهن لا من جهة كونه حلية لؤلؤ او جوهر
وعن ابي جعفر قال ليس في الحلي زكوة ثم قرأ هذه الاية اخرجه ابن ابي شيبة اقول وفي هذا
الاستدلال نظر والذي ينبغي التعويل عليه ان الاصل البراءة من الزكوة حتى يرد الدليل بوجوبها
في شيء من انواع المال فتلزم وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف ولم يرد في الجواهر
على اختلاف اصنافها ما يدل على وجوب الزكوة فيها وترى الفلك مواخر فيه اي ترى السفن
شواق للماء تدفعه بصدرها قاله عكرمة ومخر السفينة شقها الماء بصدرها قال الجوهري
مخر السابح اذا شق الماء بصدره ومخر الارض شقها للزراعة وقيل مواخر جواري قاله ابن عباس
واصل المخر الجري في المختار مخرت السفينة من باب قطع ودخل اذا جرت تشق الماء مع صوت
وقيل معترضة وقيل تذهب وتجيء قال الضحاك السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة
وقيل مواقر اي محملة متاعا وقال ابو عبيدة صوائح وقيل ملججة قال ابن جرير المخر في اللغة صوت
هبوب الريح عند اشتدادها قاله ولم يقيد بكونه في الماء ولتبتغوا من فضله اي لتنتفعوا بذلك

ولتبتغوا وفعل ذلك لتبتغوا اي لتبتغوا فيه فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه قال السدي هي التجارة ولعلكم تشكرون اي اذا وجدتم فضله عليكم واحسانه اليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والاركان قيل ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعا للمسافة طويلة مع احمال ثقيلة من غير مزاولة اسباب السفر بل من غير حركة اصلا مع انها في تضاعيف المهالك ويمكن ان يضم الى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كونه فيه اطيب ماكول وانفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من اعظم الاسباب المستدعية للشكر الموجبة له ثم اردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة اخرى واية كبرى فقال والقى في الارض رواسي اي جبالا ثابتة يقال رسى يرسو اذا ثبت واقام ان تميد بكم اي كراهة ان تميد بكم على ما قاله البصريون او لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون والميد الاضطراب يمينا وشمالا يقال ماد الشيء يميد ميدا تحرك ومادت الاغصان تمايلت وماد الرجل تبختر قال قتادة حتى لا تميد بكم كانوا على الارض تمور بهم لا تستقر فاصبحوا صبحا وقد جعل الله سبحانه الجبال وهي الرواسي اوتادا في الارض وجعل فيها انهارا لان الالقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله والقيت عليك محبة مني وذكر الانهار عقب الجبال لان معظم عيون الانهار واصولها تكون من الجبال قال السيوطي كالنيل ولم يذكر في المثال غير هذا لانه من اهل مصر وجعل فيها سبلا واظهرها وبينها لاجل ان تهتدوا بها في اسفاركم الى مقاصدكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان وهي الطرق وقال السدي هي الطرق في الجبال لعلكم تهتدون بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون او الى توحيد ربكم وجعل فيها علامات هي معالم الطرق جمع علامة وفي المصباح اعلمت على كذا بالالف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة واعلمت الثوب جعلت له علما من طراز وغيره وهو العلامة وجمع العلم اعلام مثل سبب واسباب وجمع العلامة علامات وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له امارة يعرفها والمعنى انه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها وبالنجم المراد به الجنس هم يهتدون به في سفرهم ليلا وقرئ النجم بضمتين والمراد النجوم او هو جمع نجم كسقف وسقف وقيل المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان قاله الفراء وقيل الثريا وبنات نعش وقيل العلامات الجبال وقيل هي النجوم لان من النجوم ما يهتدى به ومنها

علامة لا يهتدى بها وذهب الجمهور الى ان المراد فى الآية الاهتداء فى الاسفار وقيل هو الاهتداء الى القبلة ولا مانع من حمل ما فى الآية على ما هو اعم من ذلك قال الاخفش تم الكلام عند قوله وعلامات وقوله وبالنجم الخ كلام منفصل عن الاول قال السدى علامات النهار الجبال وعلامات الليل النجوم وقال ابن عباس معالم الطرق بالنهار الجبال ويهتدون بالنجم بالليل قال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة اشياء لتكون زينة للسماء ومعالم الطرق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته اراد ان يوبخ اهل الشرك والعناد فقال افمن يخلق هذه المخلوقات العجيبة العظيمة والمصنوعات الغريبة الجليلة ويفعل هذه الافاعيل العجيبة المرئية بالعيان كمن لا يخلق شيئا منها ولا يقدر على ايجاد واحد منها وهي هذه الاصنام التي يعبدونها ويجعلونها شركاء لله سبحانه واطلق عليها لفظ من اجراء لها مجرى اولي العلم جريا على زعمهم بانها آلهة او مشاكلة لقوله افمن يخلق لوقوعها في صحبته اوهو من عكس التشبيه وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى وما احقهم بذلك فانهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه تعالى الله عما يشركون افلا تذكرون مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك فانها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها لا يحتاج الى دقيق الفكر والنظر قال قتادة في الآية الله هو الخالق الرازق وهذه الاوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئا ولا تملك لاهلها ضرا ولا نفعا ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة الى المكلفين نعم قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ولو اجتهدتم في ذلك واتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه فضلا ان تطيقوا القيام بحقها من اداء الشكر وهذا انذكير اجمالي بنعمه تعالى وقد مر تفسير هذا في سورة ابراهيم قال العقلاء ان كل جزء من اجزاء الانسان لو ظهر فيه ادنى خلل وايسر نقص لنغص النعم على الانسان وتمنى ان ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل فهو سبحانه يدبر بدن هذا الانسان على الوجه الملائم له مع ان الانسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطيق حصر نعم الله عليه او يقدر على احصائها او يتمكن من شكر ادناها يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظم نعمك معترفة بالعجز عن تادية الشكر لشيء منها لا نحصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك ولا نطيق

بعد ثبوت الحياة لها بل لاحياة لهذه اصلا فكيف يعبدونها وهم افضل منها لانهم احياء وما
يشعرون اي الآلهة ايان يبعثون اي الكفار الذين يعبدون الاصنام والمعنى ما تشعر هذه
الجمادات من الاصنام ايان يبعث عبدتهم من الكفار ويكون هذا على طريقة التهكم لهم لان شعور
الجماد مستحيل بما هو من الامور الظاهرة فضلا عن الامور التي لا يعلمها الا الله سبحانه وقيل معناه
ما يشعر هذه الاصنام ايان تبعث ومتى يبعثها الله وبه بدأ القاضي تبعا للكشاف ويؤيد ذلك
ما روي ان الله يبعث الاصنام ويخلق لها ارواحا معها شياطينها فيؤمر بها الى الله ويدل على هذا
قوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقيل الضمير للكفار وعلى القول بان الضميرين او
احدهما للاصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها
بانها تعقل وايان بفتح الهمزة وكسرها لغتان وفي الآية قول آخر وهو ان ايان ظرف لقوله إِلٰهُكُمْ
إِلٰهٌ وَاحِدٌ يعني ان الاله يوم القيامة واحد ولم يدع احد تعدد الآلهة في ذلك اليوم بخلاف ايام
الدنيا فانه قد وجد فيها من ادعى ذلك وعلى هذا فقد تم الكلام على قوله يشعرون الا ان
هذا القول مخرج لايان عن موضوعها وهو اما الشرط واما الاستفهام الى محض الظرفية بمعنى وقت
مضاف للجملة بعده والظاهر تفسيره بمتى يبعثون كما في الكشاف وغيره فانه لما زيف سبحانه طريقة
عبدة الاصنام صرح بما هو الحق في نفس الامر وهو وحدانيته سبحانه وهو نتيجة ما قبله ثم ذكر ما لاجله
اصر الكفار على شركهم فقال فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ جاحدة للوحدانية لا يؤثر
فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عن قبول الحق متعظمون عن الاذعان للصواب
مستمرون على الجحد لَا جَرَمَ قال الخليل هي كلمة تحقيق ولا يكون الا جوابا اي حقا قلت لا نافية وجرم
بمعنى بد وهذا بحسب الاصل واما الآن فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر وجعلا بمعنى كلمة
واحدة وتلك الكلمة مصدر او فعل معناه حق وثبت وقوله أَنَّ اللهَ فاعل لا جرم وقد مر تحقيق
الكلام في لا جرم بابسط من هذا قال ابو مالك لا جرم يعني الحق وقال الضحاك لا كذب يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
من اقوالهم وافعالهم وَمَا يُعْلِنُونَ من ذلك إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ اي لا يحب هؤلاء الذين
يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لانبيائه والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم اخرج مسلم
وابو داؤد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة

من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان
فقال رجل يا رسول الله الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال ان الله جميل يحب الجمال
الكبر من بطر الحق وغمض الناس ففي ذم الكبر ومدح التواضع احاديث كثيرة وكذلك في احاديث
محبة حسن الثوب وحسن النعل ونحو ذلك من الكبر احاديث كثيرة فقد روي عن الحسين بن علي
انه مر بمساكين قد قدموا كسر الهم وهم يأكلون فقالوا الغداء يا ابا عبد الله فنزل وجلس معهم وقال انه
لا يحب المستكبرين ثم اكل فلما فرغوا قال قد اجبتكم فاجيبوني فقاموا معه الى منزله فاطعمهم و
سقاهم واعطاهم فانصرفوا قال العلماء كل ذنب يمكن ستره واخفاؤه الا التكبر فانه فسق يلزمه
الاعلان وهو اصل العصيان كله وفي الحديث الصحيح ان المتكبرين امثال الذر يوم القيامة يطؤهم
الناس باقدامهم لتكبرهم او كما قال صلعم تصغر لهم اجسامهم في المحشر حين يضرهم تصغيرها وتعظم
لهم في النار حين يضرهم عظمها ذكره القرطبي والحاصل ان النبي صلعم قد بين ماهية الكبر انه بطر الحق
وغمض الناس فهذا هو الكبر المذموم وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية احاديث كثيرة
ليس هذا المقام مقام ايرادها بل المقام مقام ذكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز ثم شرع في ذكر شيء من
قبائح المشركين فقال وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اي واذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل مَاذَا اي اي
شيء او ما الذي أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قيل القائل النضر بن الحارث وكانت عنده كتب التواريخ ويزعم ان حديثه
اجمل واتم مما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم والآية نزلت فيه فيكون هذا القول منه على طريق التهكم وقيل
القائل هو من يفد عليهم وبعضهم لبعض وقيل القائل المسلمون فاجاب المشركون المنكرون المستكبرون و
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ بالرفع اي ما تدعون ايها المسلمون اساطير الاوائل واحاديثهم واباطيلهم
او ان المشركين ارادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم اساطيرهم وعلى هذا فلا يرد ما قيل
من ان هذا لا يصلح ان يكون جوابا من المشركين والا لكان المعنى الذي انزله ربنا اساطير الاولين والكفار
لا يقرون بالانزال ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه وقيل هو كلام مستأنف اي ليس ما تدعون انزاله
ايها المسلمون منزلا بل هو اساطير الاولين والاساطير الاباطيل والترهات التي يتحدث الناس بها عن
القرون الاولى وليس من كلام الله في شيء ولا مما انزله اصلا في زعمهم وهي جمع اسطورة كاحاديث
اضاحيك واعاجيب جمع احدوثة واضحوكة واعجوبة لِيَحْمِلُوا اي قالوا هذه المقالة لكي يحملوا أَوْزَارَهُمْ

كاملة يوم القيامة بكفر منها شيء لعدم اسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب وقيل ان اللام هي
لام العاقبة لانهم لم يصفوا القرآن بكونه اساطير لاجل ان يحملوا الاوزار ولكن لما كان عاقبتهم ذلك
حسن التعليل به كقوله ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل هي لام الامر قال الرازي في الآية وهذا يدل على
انه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص
هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة ومن اوزار الذين يضلونهم اي ويحملون بعض اوزار الذين اضلوهم لان
من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها كما ورد في الحديث وقيل من للجنس لا للتبعيض
اي يحملون كل اوزار الذين يضلونهم قاله الواحدي بغير علم المعنى ان الرؤساء يضلون الناس جاهلين
غير عالمين بما يدعونهم اليه ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام وقيل انه حال من المفعول اي يضلون
من لا يعلم انهم ضلال قاله الزمخشري وعليه جرى القاضي وفائدتها الدلالة على ان جهلهم لا يعذرهم
اذ كان عليهم ان يبحثوا ويميزوا بين الحق والباطل ولا يقنعوا بالتقليد البحت العمي وقال غيره انه حال
من الفاعل ورجح هذا بانه من المحدث عنه والمسند اليه الاضلال على جهة الفاعلية والمعنى انهم
يقدمون على الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلته ومثل هذه الآية
قوله وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وقوله ولنحمل خطاياكم وقد تقدم في الانعام الكلام على قوله
ولا تزر وازرة وزر اخرى فمعناه وزرا لا مدخل لها فيه ولا تعلق لها بها بتسبب ولا غيره قال ابن
عباس يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وعن مجاهد نحوه وزاد ولا يخفف ذلك
عمن اطاعهم من العذاب شيئا الا ساء ما يزرون اي بئس شيئا يزرونه ويحملونه وفي ذلك
وعيد وتهديد لهم ثم حكى سبحانه حال اضرابهم من المتقدمين فقال قد مكر الذين من قبلهم
ذهب اكثر المفسرين الى ان المراد به نمروذ بن كنعان حيث بنى بناء عظيما ببابل طوله في السماء
خمسة الاف ذراع وقيل فرسخان ورام الصعود الى السماء ليقاتل اهلها فاهب الله الريح فخر ذلك
البناء عليه وعلى قومه فهلكوا وكان اعظم اهل الارض تجبرا في زمن ابراهيم عليه السلام ونمروذ بضم
النون والذال المعجمة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة والاولى ان الآية عامة في جميع المبطلين
الماكرين الذين يحاولون الحاق الضر بالمحقين المؤمنين ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا
يطابق الحق وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وسلم بان مكرهم سيعود عليهم كما عاد

مكر من قبلهم على انفسهم فاتى الله اي اتى امر الله وهو الريح التي اخربت بنيانهم قال المفسرون ان
ارسل الله ريحا فالقت راس الصرح في البحر وخر عليهم الباقي بالزلزلة من اسفله فاهلكهم وهم تحته
مِّنَ الْقَوَاعِدِ قال الزجاج اي من الاساطين وقيل من اصوله واساسه بكسر الهمزة جمع اس واما بالفتح
فجمعه اسس بضمتين قيل لما سقط تبلبلت السن الناس بالفزع فتكلموا يومئذ بثلاث وسبعين
لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر
لان صالحا كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل اليمن عربا منهم جرهم الذين نشأ اسماعيل
بينهم وتعلم منهم العربية وكان قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم كل هؤلاء عرب ويدل على
صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى والمعنى انه اتاها امر الله من جهة قواعدها فزعزعها
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ بفتح السين وضمها وبضمها وضم القاف اي اسقط عليهم السقف لانه بعد
سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها قال ابن الاعرابي وانما قال مِن فَوْقِهِمْ ليعلمك
انهم كانوا حالين تحته والعرب تقول خر علينا سقف ووقع علينا حائط اذا كان يملكه وان لم
يكن وقع عليه فجاء بقوله من فوقهم ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال من فوقهم اي
عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما افلتوا وقيل هو للتاكيد لان السقف لا يخر الا من فوق وقيل ان المراد
بالسقف السماء اي اتاهم العذاب من السماء التي فوقهم وقيل ان هذه الآية تمثيل لهلاكهم والمعنى
اهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه والاول اولى وقد اختلف في هؤلاء الذين خر عليهم السقف
فقيل هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح قاله ابن عباس وعن مجاهد نحوه وقيل انه بخت
نصر واصحابه وقيل هم المقتسمون الذين تقدم ذكرهم في سورة الحجر وقيل المعنى على العموم يعني
انهم لما نصبوا منصوبات ليمكروا بها على انبياء الله واهل الحق من عباده اهلكهم الله وجعل
هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط
عليهم فاهلكهم فهو مثل ضربه لمن مكر باخر واهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على السنة
الناس من حفر بئرا لاخيه اوقعه الله فيه وهذا ما اختاره القاضي كالكشاف والاول اولى ومع ذلك
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قال قتادة اتاها امر الله من اصلها فخر عليهم السقف من فوقهم
والسقف اعالي البيوت فائتفكت بهم بيوتهم فاهلكهم الله ودمرهم وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ اي الهلاك

من حيث لا يشعرون به بل من حيث انهم في امان لا يخطر ببالهم نزوله بهم سبحانه ان عذابهم غير
مقصور على عذاب الدنيا فقال ثم يوم القيمة يخزيهم اي الكفار بادخالهم النار ويفضحهم بذلك
ويذلهم ويهينهم اي هذا عذابهم في الدنيا ثم يوم القيمة يخزيهم ويقول لهم مع ذلك توبيخا وتقريعا
اين شركاءي كما تزعمون وتدعون ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله الذين كنتم تشاقون اي
تخاصمون الانبياء والمؤمنين فيهم والمعنى على قراءة كسر النون على الاضافة تخاصمونني وتعادونني
وتخالفونني وقد ضعف ابو حاتم هذه القراءة والمشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق
غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم
قال الذين اوتوا العلم وهم في الموقف قيل هم العلماء قالوا لاممهم الذين كانوا يعظمونهم ولا يلتفتون
الى وعظهم وقيل هم الانبياء وقيل الملائكة والظاهر الاول لان ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وان
كان الانبياء والملائكة هم من اهل العلم بل هم اعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو اشرف
من هذا الاستدلال على الظهور فقط ان الخزي اليوم اي الذل والهوان والفضيحة يوم القيمة
والسوء اي العذاب على الكافرين مختص بهم يقولونه شماتة بهم الذين تتوفهم بالتاء والياء وهما
سبعيتان لكنه مع الياء يقرء بالامالة في الموضعين والتذكير على ان الملائكة ذكور والتانيث لان
لفظ الجمع مؤنث الملائكة وهم ملك الموت عزرائيل واعوانه ظالمي انفسهم بالكفر وقد تقدم تفسيره
فالقوا السلم اي اقروا بالربوبية وانقادوا عند الموت ومعناه الاستسلام قاله قطرب وقيل معناه
المسالمة اي سالموا وتركوا المشاقة قاله الاخفش وقيل معناه الاسلام اي اقروا بالاسلام وتركوا ما كانوا
فيه من الكفر ما كنا نعمل من سوء تفسير للسلم على ان يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه ويجوز
ان يكون المراد بالسوء هنا الشرك ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب او من شدة
الخوف ومن لم يجوز الكذب على اهل القيامة حمله على انهم ارادوا انهم لم يعملوا سوءا في اعتقادهم وعلى
حسب ظنونهم ومثله قوله والله ربنا ما كنا مشركين فلما قالوا هذا اجاب عليهم اهل العلم
بقولهم بلى كنتم تعملون السوء ان الله عليم بما اي بالذي كنتم تعملون فيجازيكم عليه ولا ينفعكم
هذا الكذب شيئا وقال عكرمة عني بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر فادخلوا ابواب جهنم
يقال لهم ذلك عند الموت وقد تقدم ذكر الابواب وان جهنم درجات بعضها فوق بعض اي ليدخل

كل صنف الى الطبقة التي هو موعود بها وانما قيل لهم ذلك لانه اعظم في الخزي والغم وفيه
دليل على ان الكفار بعضهم اشد عذابا من بعض خالدين فيها حال مقدرة لان خلودهم مستقبل
فلبئس مثوى المتكبرين هي فالمخصوص بالذم محذوف والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الايمان و
العبادة كما في قوله تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ثم اتبع اوصاف الاشقياء باوصاف
السعداء فقال وقيل للذين اتقوا وهم المؤمنون ماذا انزل ربكم قالوا خيرا اي انزل خيرا ورفع
الاول ونصب هذا فرقا بين جواب المقر وجواب الجاحد للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة
قيل هذا من كلام الله عز وجل وقيل هو حكاية لكلام الذين اتقوا فيكون هذا بدلا من خير قاله
الزمخشري وعلى الاول يكون كلاما مستانفا مسوقا للمدح للمتقين والمعنى للذين احسنوا اعمالهم
بالايمان في الدنيا مثوبة حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة
وقال قتادة احسنوا اي امنوا بالله وكتبه ورسله وامروا بطاعة الله وحثوا عباد الله على الخير
ودعوهم اليه قال الضحاك هي النصر والفتح وقال مجاهد هي الرزق الحسن وقيل الحياة الطيبة وهي
استحقاق المدح والثناء او فتح ابواب المشاهدات والمكاشفات قاله الكرخي والاول اولى ولدار
الآخرة اي مثوبتها وهي الجنة خير مما اوتوا في الدنيا ولنعم دار المتقين دار الآخرة فحذف المخصوص
بالمدح لدلالة ما قبله عليه جنات عدن اي بساتين اقامة من عدن بالمكان اذا قام به يجوز
ان يكون هو المخصوص بالمدح فيجيء فيها ثلاثة اوجه رفعها بالابتداء والجملة المتقدمة خبرها او رفعها
خبر المبتدأ مضمر او رفعها بالابتداء والخبر محذوف وهو اضعفها ويجوز ان يكون جنات عدن خبر
مبتدأ مضمر لا على ما تقدم بل يكون المخصوص محذوفا تقديره ولنعم دارهم هي جنات وقدره الزمخشري
ولنعم دار المتقين دار الآخرة ويجوز ان يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله للذين احسنوا في هذه الدنيا
حسنة قاله السمين يدخلونها اي تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها تجري من تحتها
اي من تحت دورها وقصورهم ومساكنهم الانهار لهم فيها اي في الجنات ما يشاؤون اي
ما يقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك وهذه الحالة لا تحصل الا في الجنة وذلك
يدل على ان الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا كذلك اي الامر كذلك او مثل ذلك الجزاء يجزي
الله المتقين المراد بهم كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي الذين تتوفاهم اي تقبض ارواحهم

الْمَلٰٓئِكَةُ طَيِّبِيْنَ حال من المفعول اوفاعل مقارنة او مقدرة وفيه اقوال اي طاهرين من نجاسة الشرك والكفر والنفاق او صالحين او زاكية افعالهم واقوالهم او من ظلم انفسهم بالمعاصي قاله البيضاوي او طيبين الانفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله او طيبة نفوسهم بالرجوع الى الله او طيبين الوفاة اي هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها وقال مجاهد طيبين احياء وامواتا قدر الله لهم ذلك او فرحين ببشارة الملائكة اياهم بالجنة او طيبين بقبض ارواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى حضرة القدس من قبل طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن حملها على العموم فدخل فيه جميع ما ذكر يَقُوْلُوْنَ اي قائلين لهم يعني الملائكة حال مقارنة ان كان القول واقعا منهم في الدنيا او مقدرة ان كان واقعا في الاخرة سَلٰمٌ عَلَيْكُمُ معناه يحتمل وجهين احدهما ان يكون السلام انذارا لهم بالوفاة الثاني ان يكون تبشيرا لهم بالجنة لان السلام امان وفي الكرخي يقولون لهم عند الموت سلام عليكم اي لا يلحقكم بعد مكروه فهي حال مقارنة واستشهد له في الدر المنثور بما اخرجه مالك وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال اذا اشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولي الله الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ونحوه في الكشاف وقال ابو حيان الظاهر ان السلام انما هو في الاخرة ولذلك جاء بعده ادخلوا الجنة فهو من قول خزنة الجنة وعليه فهي حال مقدرة اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ اي بسبب عملكم قيل يحتمل هذا وجهين الاول يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت الثاني ان يكون ذلك لهم في الاخرة ولا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح سددوا وقاربوا واعلموا انه لن يدخل احد الجنة بعمله قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته وتقدم البحث عن هذا هَلْ يَنْظُرُوْنَ هذا جواب شبهة اخرى لمنكري النبوة فانهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال هل ينظرون في تصديق نبوتك اِلَّآ اَنْ تَاْتِيَهُمُ بالتاء والياء سبعيتان الْمَلٰٓئِكَةُ شاهدين بذلك ويحتمل ان يقال انهم لما طعنوا في القرآن بانه اساطير الاولين اوعدهم الله بقوله هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة لتبض ارواحهم اَوْ يَاْتِيَ اَمْرُ رَبِّكَ اي عذابه في الدنيا المستاصل لهم او المراد بامر الله القيامة والمراد بكونهم ينظرون انهم ينتظرون اتيان الملائكة او اتيان امر الله على التفسير الاخر انهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظرا له وليس المراد انهم ينتظرون ذلك حقيقة فانهم لا يؤمنون بذلك

ولا يصدق فيه قيل او مانعة خلو فان كلا من الموت والعذاب يأتيهم وان اختلف الوقت وانما
عبر باو دون الواو اشارة الى كفاية كل واحد من الامرين في تعذيبهم كما افاده ابن السعود كذلك
اسيئ مثل فعل هؤلاء من الاصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين من قبلهم من طوائف
الكفار فاتاهم امر الله فهلكوا وما ظلمهم الله بتدميرهم بالعذاب فانه انزل بهم ما استحقوه بكفرهم ولكن
كانوا انفسهم يظلمون بما ارتكبوا من القبائح وفيه ان ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما يؤل اليه
فاصابهم سيئات ما عملوا اي جزاء اعمالهم السيئة او جزاء سيئات اعمالهم معطوف على فعل
الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض وحاق اي نزل بهم على وجه الاحاطة والحيق لا يستعمل
الا في الشر قاله البيضاوي فلا يقال حاقت به النعمة بل النقمة قاله الشهاب تم اي العذاب الذي
كانوا به يستهزؤن او عقاب استهزائهم وقال الذين اشركوا هذا نوع اخر من كفرهم الذي
حكاه الله تعالى عنهم والمراد بالذين اشركوا هنا اهل مكة لو شاء الله عدم عبادتنا لشئ غيره
ما عبدنا من دونه من شئ اي لحصل ذلك جئت اولم تجئ ولو شاء منا الكفر لحصل جئت اولم تجئ
واذا كان كذلك فالكل من عند الله فلا فائدة في بعثة الرسل الى الامم ومن الاولى بيانيه والثانية
زائدة لتاكيد الاستغراق نحن تاكيد لضمير عبدنا لتصحيح العطف لوجود الفواصل وان كان محسنا له
ولا اباؤنا الذين كانوا على ما نحن عليه الان من الكفر والشرك بالله قال الزجاج انهم قالوا هذا على
وجه الاستهزاء ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين انتهى وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة
الانعام ولا حرمنا من دونه من شئ من السوائب والوصائل والبحائر ونحوها ومقصودهم بهذا
القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة اي لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير الله
والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكيا ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما اراده منا فانه قد شاء في
وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك دليلا على ان
ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته مع انهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به لكنهم قصدوا
ما ذكرنا من الطعن على الرسل والظاهر ان من الاولى والثانية ههنا زائدة تأمل اي ولا حرمنا شيئا حال
كوننا دون نهيه ونهي الله اي مستقلين بتحريمه قاله الحفناوي كذلك فعل الذين من قبلهم من طوائف
الكفر فانهم اشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجادلوا رسلهم بالباطل واستهزؤا بهم ثم قال فهل على الرسل

الذين يريد بلغهم أمة الى عباده بما شرعه لهم من الشرائع التي رأسها توحيده وترك الشرك به فإن
البلاغ المبين الى من أرسلوا اليه بما أمروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل اليهم ولا يلتبس عليهم
والبلاغ مصدر بمعنى الابلاغ ثم انه سبحانه اكد هذا وزاده ايضاحا فقال ولقد بعثنا في كل أمة
رسولا كما بعثنا في هؤلاء لاقامة الحجة عليهم وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ان في قوله ان اعبدوا
الله اما مصدرية اي بعثنا بأن اعبدوا الله وحده او مفسرة لان في البعث معنى القول والوجهان حكاهما
السمين وغيره واجتنبوا الطاغوت اي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل
من دعا الى الضلال وهو من الطغيان يذكر ويؤنث ويقع على الواحد كقوله يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت
وقد امروا ان يكفروا به وعلى الجمع كقوله تعالى اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم والجمع طواغيت والتقدير
واجتنبوا عبادتها فالكلام على حذف المضاف فمنهم اي فمن هذه الامم التي بعث الله اليها برسله
من هدى الله اي ارشده الى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت فآمن ومنهم من
حقت عليه الضلالة اي وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الازل لاصراره على الكفر والعناد فلم
يؤمن قال الزجاج علم الله انه بعث الرسل بالامر بالعبادة وهو من وراء الضلال والهداية ومثل هذه الآية
قوله تعالى فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وفي هذه الآية التصريح بأن الله امر جميع عباده
بعبادته واجتناب الشيطان وكل ما يدعو الى الضلال وانهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى
ومنهم من حقت عليه الضلالة فكان في ذلك دليل على ان امر الله سبحانه لا يستلزم موافقة ارادته
فانه يامر الكل بالايمان ولا يريد الهداية الا للبعض اذ لو ارادها للكل لم يكفر احد وهذا معنى ما حكيناه
عن الزجاج هنا فسيروا في الارض سير المعتبرين المتفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب
منازلهم بالعذاب والهلاك وفي الفاء اشعار بوجوب المبادرة الى النظر والاستدلال فانظروا كيف
كان عاقبة المكذبين رسلهم من الامم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود اي كيف
صار آخر امرهم الى خراب الديار بعد هلاك الابدان بالعذاب ثم خصص الخطاب برسوله صلى الله عليه وسلم مؤكدا لما تقدم
فقال ان تحرص يا محمد على هداهم اي تطلب بجهدك ذلك وقد اضلهم الله لا تقدر على ذلك وفي
المصباح حرص عليه حرصا من باب ضرب اذا اجتهد والاسم الحرص بالكسر وحرص على الدنيا وحرص
حرصا من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة وفي السمين قراءة العامة ان تحرص بكسر الراء

مضارع حرص بفتحها وهي اللغة العالية لغة الحجاز وقرئ بكسر الراء مضارع حرص بكسرها وهي
لغة لبعضهم فَإِنَّ اللّٰهَ تعليل للجواب لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ قرئ يَهدي بفتح حرف المضارعة على انه
فعل مستقبل مسند الى الله سبحانه اي فان الله لا يرشد من اضله وقرئ بضم حرف المضارعة على
انه مبني للمجهول على انه لا يهديه هاد كائنا من كان وهما سبعيتان فهذه الآية كقوله في الآية
الاخرى من يضلل الله فلا هادي له وقال الفراء معنى لا يهدي لا يهتدي كقوله تعالى ام من
لا يهدي الا ان يهدى بمعنى يهتدي قال النحاس حكي عن المبرد معنى لا يهدي من يضل من علم ذلك
منه وسبق له عنده وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ينصرونهم على الهداية لمن اضله الله او ينصرونهم بدفع
العذاب عنهم ومن زائدة ثم ذكر عناد قريش وانكارهم للبعث فقال وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ اي حلفوا وسمي
الحلف قسما لانه يكون عند انقسام الناس الى مصدق ومكذب جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ اي جاهدين في غاية
اجتهادهم فيها وذلك انهم كانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم فاذا كان الامر عظيما اقسموا بالله والجهد
بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة وانتصابه على المصدرية وظاهره انه استيناف اخبار وجعله
الزمخشري نسقا على وقال الذين اشركوا لَا يَبْعَثُ اللّٰهُ مَنْ يَمُوتُ من عباده زعموا ان الله سبحانه
عاجز عن بعث الاموات عن ابي العالية قال كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين
فاتاه يتقاضاه فكان مما تكلم به والذي ارجوه بعد الموت انه لكذا وكذا فقال له المشرك انك
لتزعم انك تبعث من بعد الموت فاقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فانزل الله سبحانه
هذه الآية وعن علي قال نزلت فيّ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا هذا اثبات لما بعد النفي اي بلى يبعثهم ووعدا
مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لان البعث وعد من الله والتقدير وعد البعث وعدا عليه
وحقه حقا لا خلف فيه وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ان ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير اما لعدم
علمهم بانه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها واما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع
البعث لِيُبَيِّنَ اي ليظهر لَهُمُ وهو غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير في لهم راجع الى من يموت
الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ اي الامر الذي وقع الخلاف بينهم فيه وبيانه اذ ذاك يكون بما جاءتهم به
الرسل ونزلت عليهم فيه كتب الله وقيل ليبين متعلق بقوله ولقد بعثنا وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بالله سبحانه وانكروا البعث أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ في جدالهم وانكارهم البعث بقولهم لا يبعث الله من يموت

إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون جملة مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة
مسوقة لهذا المقصد بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه قال الزجاج أعلمهم بسهولة خلق
الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان وهذا كقوله فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون
قال ابن الأنباري أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق لأنه بمنزلة ما قد وجد و
شوهد قال الزجاج إن معنى لشيء لأجل شيء فجعل اللام سببية وليس بواضح وقيل هي لام التبليغ
قال أبو السعود أي شيء كان مما عز وهان كما في قولك قلت له قم فقام وهذا الكلام من باب
التمثيل على معنى أنه لا يمتنع عليه شيء وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمور به عند أمر الآمر
المطاع إذا ورد على المأمور المطيع وليس هناك قول ولا مقول له ولا آمر ولا مأمور ولا كاف
ولا نون حتى يقال إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل قلت هكذا
قال أكثر المفسرين وهو يخالف ظاهر النظم القرآني والحق ما دلت عليه الآية من القول وقد مضى
تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى والذين هاجروا قد تقدم معنى الهجرة في سورة النساء وهي
ترك الأهل والأوطان أي انتقلوا من مكة إلى المدينة لإقامة دين الله سبحانه ومعنى في الله في
شأن الله سبحانه وفي رضاه وقيل في دين الله وقيل في بمعنى لام التعليل أي لله من بعد ما ظلموا
أي عذبوا وأهينوا وقد اختلف في سبب نزول الآية فقيل نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار
واعترض بأن السورة مكية وذلك يخالف قوله والذين هاجروا وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه
الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها وقيل نزلت في أبي جندل بن
سهيل وقيل نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة
منهم بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين
لنبوئنهم في الدنيا حسنة قيل المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة
وقيل المراد الرزق الحسن قاله مجاهد وقيل النصر على عدوهم قاله الضحاك وقيل ما استولوا عليه
من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات وقيل ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من
الشرف ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور والمعنى لنبوئنهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة
وهي المدينة فحسنة صفة مصدر محذوف ولأجر الآخرة أي جزاء أعمالهم الكائن في الآخرة

وهو النعيم الكائن في الجنة التي هي المراد بالآخرة أكبر واعظم من ان يعلمه احد من خلق الله
قبل ان يشاهده ومنه قوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا لو كانوا اي هؤلاء الظلمة
يعلمون ذلك وقيل ان الضمير راجع الى المؤمنين المهاجرين اي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه
لعلموا انه اكبر من حسنة الدنيا وهو اسكانهم المدينة الذين صبروا على اذى المشركين او على مفارقة
الوطن والهجرة او على الجهاد وبذل الانفس والاموال في سبيل الله واللفظ اعم من ذلك وعلى ربهم
وحده خاصة يتوكلون في جميع امورهم معرضين عما سواه والصبر مبدأ السلوك الى الله تعالى
والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه والظاهر والله اعلم ان المعنى على المضي والتعبير بصيغة المضارع
لاستحضار صورة توكلهم البديعة وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل وجواب الموصول
محذوف اي فيزتهم من حيث لا يحتسبون وما ارسلنا من قبلك رد على قريش حيث زعموا
ان الله سبحانه اجل من ان يرسل رسولا من البشر فرد الله عليهم بان هذه عادته وسنته ان لا
يرسل الا رجالا من البشر نوحي اليهم وزعم ابو علي الجبائي ان معنى الآية ان الله سبحانه لم يرسل الى
الانبياء بوحيه الا من هو على صورة الرجال من الملائكة ويرد عليه ان جبرئيل كان يأتي رسول الله
صلى الله عليه وسلم على صور مختلفة ولما كان كفار مكة مقرين بان اليهود والنصارى هم اهل العلم بما
انزل الله في التوراة والانجيل صرف الخطاب اليهم وامرهم ان يرجعوا الى اهل الكتاب فقال فاسئلوا
اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون اي فاسئلوا ايها المشركون ان شككتم فيما ذكر مؤمني اهل الكتاب
فانهم سيخبرونكم بان جميع الانبياء كانوا بشرا او اسألوا اهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر
فانهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه وقيل المعنى فاسئلوا اهل القرآن عن سعيد بن جبير قال
نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من اهل التوراة وقد استدل مجوزو التقليد بهذه الآية وقالوا
امر سبحانه من لا علم له ان يسأل من له علم والجواب ان هذه الآية الشريفة واردة في سؤال خاص
خارج عن محل النزاع كما يفيده السياق المذكور قبل هذا اللفظ الذي استدلوا به وبعده وبه قال
ابن جرير والبغوي واكثر المفسرين واستوفاه السيوطي في الدر المنثور وهذا هو المعنى الذي يفيده السياق
والسباق وعلى فرض ان المراد السؤال العام فالمامور بسؤالهم هم اهل الذكر والذكر هو كتاب الله وسنة
رسوله لا غيرهما ولا اظن مخالفا يخالف في هذا لان هذه الشريعة المطهرة هي اما من الله عز وجل

وذلك هو القرآن الكريم او من رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك هو السنة المطهرة ولا ثالث لذلك واذا
كان المامور بسؤالهم هم اهل القرآن والحديث فالآية الكريمة حجة على المقلدة لا لهم لان المراد انهم
يسألون اهل الذكر فيخبرونهم به فالجواب من المسؤلين ان يقولوا قال الله كذا وقال رسوله
صلى الله عليه وسلم كذا فيعمل السائلون بذلك وهذا هو غير ما يريده المقلد المستدل بها فانه انما استدل بها
على جواز ما هو فيه من الاخذ باقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل فان هذا هو التقليد ولهذا
رسموه بانه قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة فحاصل التقليد ان المقلد لا يسأل عن كتاب الله
ولا عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل يسأل عن مذهب امامه فقط فاذا جاوز ذلك الى السؤال عن
الكتاب والسنة فليس بمقلد وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره واذا تقرر ان المقلد اذا سأل اهل الذكر
عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن مقلدا علمت ان هذه الآية الشريفة على تسليم ان السؤال
ليس عن الشيء الخاص الذي يدل عليه السياق بل عن كل شيء من الشريعة كما يزعمه المقلد تدفع
في وجهه وترغم انفه وتكسر ظهره فان معنى هذا السؤال الذي شرعه الله تعالى هو السؤال عن الحجة
الشرعية وطلبها من العالم فيكون هذا راويا وهذا السائل مسترويا والمقلد يقر على نفسه بانه يقبل
قول العالم ولا يطالبه بالحجة فالآية هي دليل الاتباع لا دليل التقليد وبهذا ظهر لك ان هذه الحجة
التي احتج بها المقلد هي حجة داحضة على فرض ان المراد المعنى الخاص وهي عليه لا له على فرض
ان المراد المعنى العام بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ اي ارسلناهم بها ذكره الحوفي والزمخشري [illegible]
في الكشاف وقيل ما ارسلنا بها الا رجالا حكاه ابن عطية وقيل فاسئلوهم ان كنتم لا تعلمون بها
وقيل اي رجالا متلبسين بالبينات والزبر وهو وجه حسن ذكره الزمخشري ولا محذور فيه ثم قيل
يوحى اليهم بها ذكره الزمخشري وابو البقاء وقيل منصوب بتقدير اعني والباء زائدة وقال الزجاج اسألوا
كل من يذكر بعلم وقيل متعلق بمحذوف كانه قيل بم ارسلوا فقيل ارسلوا بها كذا قدره الزمخشري
قال السمين وهو احسن من تقدير ابي البقاء يعني لموافقته للدال عليه لفظا ومعنى والبينات
الحجج الواضحة والبراهين الساطعة والزبر الكتب والصحف وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يا محمد صلى الله عليه وسلم الذِّكْرَ اي القرآن وسماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ثم
بين الغاية المطلوبة من الانزال فقال لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ جميعا مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ في هذا الذكر من الاحكام

الشرعية والوعد والوعيد وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله
عليه وسلم ولهذا قيل متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن
مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقيل المحكم مبين والمتشابه
مجمل يطلب بيانه من السنة فهذه الآية محمولة على ما اجمل فيه دون المحكم المبين المفسر
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ اي ارادة ان يتاملوا ويعملوا افكارهم فيتعظوا ويعملوا به أَفَأَمِنَ الَّذِينَ
مَكَرُوا الاستفهام للتوبيخ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم السَّيِّئَاتِ اي
المكرات السيئات ولم يذكر الزمخشري غيرها والمعنى عملوا او فعلوا السيئات او امن الماكرون
العقوبات السيئات او مكروا السيئات قال مجاهد يعني نمرود بن كنعان وقومه وعن قتادة
قال مكرهم الشرك وقال الضحاك تكذيبهم الرسل وعملهم بالمعاصي او هو سعيهم في اذى رسول الله
صلى الله عليه وسلم واذى اصحابه على وجه الخفية واحتيالهم في ابطال الاسلام وكيد اهله في دار الندوة
من تقييده او قتله او اخراجه كما ذكر في الانفال الّتي اي افامنوا من ان يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
كما خسف بقارون وقرون من قبلهم يقال خسف المكان يخسف خسوفا ذهب في الارض
وخسف الله به الارض خسوفا اي غاب به فيها ومنه قوله فخسفنا به وبداره الارض وخسف
هو في الارض وخسف به أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ به اي في حال غفلتهم عنه
ومن جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وغيرهم وقيل يريد يوم بدر فانهم اهلكوا في ذلك اليوم
ولم يكن في حسابهم أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ذكر المفسرون فيه وجوها فقيل المراد في اسفارهم ومتاجرهم
فانه سبحانه قادر على ان يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الارض وبعدهم عن الاوطان
والتقلب الحركة اقبالا وادبارا وقيل المراد في حال تقلبهم في قضاء اوطارهم بوجوه الحيل فيحول الله بينهم
وبين مقاصدهم وحيلهم وقيل في حال تقلبهم في الليل على فرشهم وقيل في اختلافهم وقيل
في حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار والتقلب بالمعنى الاول ماخوذ من قوله
لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد وبالمعنى الثاني ماخوذ من قوله وقلبوا لك الامور فَمَا هُمْ
بِمُعْجِزِينَ اي بفائتين ولا ممتنعين ولا السابقين أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ وتوقع للبلايا بان
يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه فهو خلاف ما تقدم من قوله او يأتيهم

العذاب من حيث لا يشعرون ثم قال ابن الاعرابي على تنقص من الاموال والانفس والثمرات حتى اهلكهم
كلهم قال الواحدي قال عامة المفسرين معنى على تخوف على تنقص اما بقتل او بموت يعني ينقص
من اطرافهم ونواحيهم ياخذهم الاول فالاول حتى ياتي الاخذ على جميعهم قال والتخوف التنقص يقال هو
يتخوف المال اي ينتقصه وياخذ من اطرافه انتهى يقال تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون تنقصه
قال الهيثم بن عدي التخوف بالفاء التنقص لغة لازد شنوءة وقال ابن قتيبة هذه لغة هذيل وقيل
على تخوف على عجل قاله الليث بن سعد وقيل على تقريع بما قدموه من ذنوبهم روي ذلك عن
ابن عباس وقيل على تخوف ان يعاقب ويتجاوز قاله قتادة وعن ابن عباس على اثر موت صاحبه
وعنه ايضا تنقص من اعمالهم وعن عمر انه سالهم عن هذه الاية فقالوا ما نرى الا انه عند تنقص
ما يردده من الايات فقال عمر ما ارى الا انه على ما يتنقصون من معاصي الله فخرج رجل ممن
كان عند عمر فلقي اعرابيا فقال يا فلان ما فعل ربك قال قد تخيفته يعني انتقصته فرجع الى عمر
فاخبره فقال قدر الله ذلك وعبارة البيضاوي روي ان عمر قال على المنبر ما تقولون فيها فسكتوا
فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال هل تعرف العرب ذلك في اشعارها
فقال نعم قال شاعرنا ابو بكر يصف ناقته ~ تخوف الرحل منها تامكا قردا + كما تخوف عود النبعة
السفن + فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فان فيه تفسير
كتابكم ومعاني كلامكم انتهى قال الشهاب الرحل رحل الناقة والتامك السنام والقرد هو المتقطع او
المتراكم والنبع شجر يتخذ منه القسي والسفن هو المبرد والفدوم يصف ناقته بانها اثر الرحل في سنامها
فاكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود انتهى وعن مجاهد قال على تخوف ياخذهم بنقص بعضهم
بعضا وقال الضحاك والكلبي هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الاخرون ان يصيبهم ما اصابهم
والحاصل انه سبحانه خوفهم بخسف يحصل في الارض او بعذاب ينزل من السماء او بافات تحدث
دفعة او بافات تحدث قليلا قليلا الى ان ياتي الهلاك على اخرهم ثم انه سبحانه ختم الاية بقوله
﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعذاب بل يمهل رافة بكم ورحمة لكم مع استحقاقكم للعقوبة
ثم لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف اتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير العالم العلوي
والسفلي ومكانهما سعد ابالاستفهام الانكاري فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بالتحتية يا رجاع الضمير الى الذين مكروا السيئات

وترى بالفوقية على انه خطاب لجميع الناس وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد بها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر الى الشيء ليتامل احواله ويتفكر فيه ويعتبر به اِلٰى مَا خَلَقَ اللّٰهُ ما مبهمة مفسرة بقوله مِنْ شَيْءٍ له ظل وهي الاجسام فهو عام اريد به الخاص وخرج به الملك والجن يَتَفَيَّؤُا ظِلٰلُهٗ اي تميل وتدور وتنتقل من جانب الى جانب ويكون اول النهار على حال ويتقلص ثم يعود في آخر النهار على حالة اخرى قال الازهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والقمر والذي يكون بالغداة هو الظل وهو ما لم تنله وقال ثعلب اخبرت عن ابي عبيدة ان روبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل وفي السمين التفيؤ تفعل من فاء يفيء اذا رجع وفاء قاصر فاذا اريد تعديته عدي بالهمزة كقوله ما افاء الله على رسوله او بالتضعيف نحو فيأه الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ فهو لازم واختلف في الفيء فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال او بعده وهو الموافق لمعنى الآية ههنا وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط وما كان بعده فهو ظل وفيء فالظل اعم وقيل بل يختص الظل بما قبل الزوال والفيء بما بعده والظلال جمع ظل وهو مضاف الى مفرد لانه واحد يراد به الكثرة عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمَآئِلِ اي عن جهة ايمان الفلك وهو جهة المشرق وعن شمائله اي عن جانبي كل واحد منها وهي جهات المغرب يعني اول النهار وآخره قال الفراء وحد اليمين لانه اراد واحدا من ذوات الاظلال وجمع الشمال لانه اراد كلها لان ما خلق الله لفظ مفرد ومعناه جمع وقال الواحدي وحد اليمين والمراد به الجمع ايجازا في اللفظ كقوله ويولون الدبر وبه قال الزمخشري ودلت الشمائل على ان المراد بها الجمع وقيل ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احدهما بلفظ الواحد كقوله وجعل الظلمات والنور وختم الله على قلوبهم وسمعهم وقيل المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس وانها واحدة والشمائل عبارة عن الانحراف في فلك الاظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة قيل اذا طلعت الشمس من المشرق وانت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك واذا استوت الشمس في وسط السماء كان ظلك في خلفك فاذا مالت الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال قتادة والضحاك اما اليمين فاول النهار واما الشمال فآخر النهار دائما وانما عبر عن المشرق باليمين لانه اقوى جانبي

الانسان عنه، ومنه تظهر الحركة القوية والشمائل جمع شمال على غير قياس والقياس اشمل كذراع واذرع سُجَّدًا جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع اي حال كون الظلال ساجدة لِلّٰهِ قال الزجاج يعني ان هذه الاشياء مجبولة على الطاعة وقال ايضا سجود الجسم انقياده وما يرى فيه من اثر الصنعة قال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شيء لله وقيل ان الظلال ملتصقة بالارض كالساجد عليها فلما كانت يشبه شكلها شكل الساجد اطلق الله عليها هذا اللفظ وَهُمْ اي والحال ان الظلال دَاخِرُونَ اي خاضعون صاغرون والدخور الصغار والذل يقال دخر الرجل فهو داخر وادخره الله نزلوا منزلة العقلاء في التعبير عنهم بصيغة جمع العقلاء لما وصفها بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عنها بلفظ من يعقل وَلِلّٰهِ وحده لا لغيره يَسْجُدُ اي يخضع وينقاد والسجود على نوعين سجود طاعة وعبادة وسجود انقياد وخضوع كسجود الانسان وسجود الظلال والاية تحتمل النوعين مَا فِي السَّمٰوٰتِ جميعا وَمَا فِي الْاَرْضِ مِنْ دَآبَّةٍ اي حيوان جسماني ونسمة تدب وتتحرك على الارض والمراد به كل دابة قال الاخفش هو كقولك ما اتاني من رجل مثله وما اتاني من الرجال مثله وقد دخل في عموم ما فيهما جميع الاشياء الموجودة فيهما قال قتادة لم يدع شيئا من خلقه الا عبده له طائعا او كارها وعن الحسن قال يسجد من في السموات طوعا ومن في الارض طوعا وكرها وانما خص الدابة بالذكر لانه قد علم من قولهم اولم يروا الى ما خلق الله من شيء انقياد الجمادات والجمادات تدل على قدرة الصانع الحكيم فيدعوا الغافلين الى السجود لله عند التامل والتدبر من بيانية بيانا لما في الشقين او بيانا لما الثانية فقط وَالْمَلٰٓئِكَةُ على باقيهم عطف خاص على عام تشريف لهم بعظيم الدخول في المعطوف عليه وقيل افرد الملائكة لان لهم اجنحة يطيرون بها او يكون في السماء خلق يدبون وَهُمْ اي والحال انهم لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ عن عبادة ربهم والمراد الملائكة ويحتمل ان تكون الجملة مستأنفة وفي هذا رد على قريش حيث زعموا ان الملائكة بنات الله والمعنى يسجد لله ما في السموات وما في الارض والملائكة وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود يَخَافُوْنَ اي حال كونهم خائفين رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ او جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم ومن اثار الخوف عدم الاستكبار اي يخافون عذاب ربهم كائنا من فوقهم او يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عاليا عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة بائنا عنهم بالاستواء على العرش وقيل معناه يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف اي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة اليه وانما اقتضى مثل هذه التاويلات البعيدة

الحاماة على مذاهب قد رسخت في الاذهان وتفرعت في القلوب قيل وهذه المخافة هي مخافة الاجلال واختاره الزجاج فقال يخافون ربهم خوف مجلين ويدل على صحة هذا المعنى قوله وهو القاهر فوق عباده وقوله اخبارا عن فرعون وانا فوقهم قاهرون وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ به من طاعة الله يعني الملائكة او جميع من تقدم ذكره وحمل هذه الجمل على الملائكة اولى لان في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وابليس وجنوده وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقاري والمستمع ان يسجد عند قراءتها وسماعتها ولما بين سبحانه ان مخلوقاته السماوية والارضية منقادة له خاضعة لجلاله اتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فنهى سبحانه عن اتخاذ الهين ثم اثبت ان الالهية منحصرة في اله واحد وهو الله سبحانه وقد قيل ان التثنية في الالهين قد دلت على الاثنينية والافراد في اله قد دل على الوحدة فما وجه وصف الهين باثنين ووصف اله بواحد فقيل في الجواب ان في الكلام تقديما وتاخيرا والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين وفيه بعد وقال ابو البقاء هو مفعول ثان وهذا كالغلط اذ لا معنى لذلك التثنية وقيل ان التكرير لاجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل انه تاكيد لالهين وعليه اكثر الناس وكلام الزمخشري هنا يفهم انه ليس بتاكيد وقيل ان فائدة زيادة اثنين هي ان يعلم ان النهي راجع الى التعدد لا الى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم ان المراد اثبات الالهية دون الواحدية مع ان الالهية له سبحانه مسلمة في نفسها وانما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ اي ان كنتم راهبين شيئا فاياي فارهبون لا غيري فالتركيب افاد الحصر وقيل التقدير اياي ارهبوا فارهبون وقدره ابن عطية ارهبوا اياي فارهبون قال الشيخ وهو ذهول عن القاعدة النحوية وقد يجاب عنه والرهب مخافة مع حزن واضطراب وقد مر هذا في اول البقرة ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وانه الذي يجب ان يخص بالرهبة منه والرغبة اليه ذكر ان الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا والجملة مقررة لما تقدم في قوله ولله يسجد ما في السموات وما في الارض وتقديم الخبر لافادة الاختصاص وفيه التفات من التكلم الى الغيبة والجملة معطوفة على قوله انما هو اله واحد او

الخبر او مستانف وله الدين واصبا اي ثابتا واجبا دائما لا يزول والدين هو الطاعة والاخلاص
قال الفراء واصبا معناه دائما وروي عنه ايضا الواصب الخالص والاول اولى ومنه قوله سبحانه ولهم عذاب
واصب اي دائم وقال الزجاج اي طاعته واجبة ابدا ففسر الواصب بالواجب قال ابن قتيبة
في تفسير الواصب اي ليس احد يطاع الا انقطع ذلك بزوال او هلكة غير الله تعالى فان الطاعة تدوم
له ففسر الواصب بالدائم واذا دام الشيء دواما لا ينقطع فقد وجب وثبت يقال وصب الشيء يصب وصوبا
فهو واصب اذا دام ووصب الرجل على الامر اذا واظب عليه وقيل الوصب التعب والاعياء اي
يجب طاعة الله سبحانه وان تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية قال مجاهد الدين الاخلاص
وواصبا دائما وقال ابو صالح يعني لا اله الا الله وعن ابن عباس دائما واجبا وفي البيضاوي واصبا
لازما وقال الشهاب الوصب ورد في كلامهم بمعنى اللزوم والدوام وفي القاموس وصب يصب وصوبا دام
وثبت كاوصب وعلى الامر واظب وفي المصباح وصب الشيء وصوبا دام ووصب الدين وجب والاستفهام
في قوله أفغير الله تتقون للتقريع والتوبيخ او للتعجب والانكار والفاء للتعقيب والمعنى اذا كان الدين اي
الطاعة واجبا له دائما لا ينقطع كان اما سبب لذلك تخصيص التقوى به وعدم ايقاعها لغيره فكيف
يعقل ان يكون للانسان رغبة او رهبة في غير الله ثم امتن سبحانه عليهم بان جميع ما هم متقلبون
فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال وما بكم من نعمة فمن الله اي ما يلابسكم من النعم على
اختلاف انواعها فهي منه سبحانه والنعمة اما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لاجل العمل
واما دنيوية نفسانية او بدنية او خارجية كالسعادات المالية وغيرها وكل واحدة من هذه
جنس تحته انواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل ان لا يشكر الا اياه وما موصولة وليس بجيد
او شرطية واليه نحا الفراء وتبعه الحوفي وابو البقاء والفاء زائدة ثم بين تلون الانسان بعد استغراقه
في بحر النعم فقال ثم اذا مسكم الضر اي الشدة والامراض والاسقام واي ضر كان والضر المرض والبلاء
والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الانسان فاليه سبحانه لا الى غيره تجأرون تتضرعون وتستغيثون
وتضجون في كشفه فلا كاشف له الا هو يقال جأر يجأر جؤارا اذا رفع صوته بالدعاء في تضرع قال
مجاهد تتضرعون بالدعاء وقال السدي تضجون بالدعاء وفي القاموس جأر جأرا وجؤارا بوزن غراب
رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث والبقرة والثور صاحا والنبات طال والارض طال نبتها

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ أي اذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر إِذَا فَرِيقٌ أي جماعة مِّنكُم بِرَبِّهِمْ
الذي رفع الضر عنهم يُشْرِكُونَ فيجعلون معه الها آخر من صنم او نحوه واذا الاولى شرطية والثانية
فجائية جوابها وفي الآية دليل على ان اذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها لان ما بعد اذا الفجائية
لا يعمل فيما قبلها والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الاشراك بالله الذي انعم
عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له وهذا المعنى قد تقدم في الانعام ويونس ويأتي
ان شاء الله تعالى في سبحان قال الزجاج هذا خاص بمن كفر في قابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر وعلى
هذا يكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعا والفريق هم الكفرة وان كان
الخطاب موجها الى الكفار فمن للبيان وبه قال الزمخشري كأنه قيل اذا فريق كافر وهم انتم قال الزجاج
واللام في لِيَكْفُرُوا لام كي اي لكي يكفروا يعني اشراكهم سببه كفرهم وقيل لام الصيرورة اي صار
امرهم الى ذلك وقيل انها لام الامر واليه نحا الزمخشري وقيل انها لام العاقبة اي فعاقبة اشراكهم
بالله عبرة كفرهم بِمَا آتَيْنَاهُمْ من نعمة وهي كشف الضر عنهم حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع
الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها
غاية ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة الى الخطاب فَتَمَتَّعُوا بما انتم فيه
من ذلك فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة امركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون اليه في الدار
الآخرة قال الحسن هذا وعيد ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح اعمالهم فقال وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ
نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ أي يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار الى الله سبحانه في كشف الضر
عنهم وما يتعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والاشراك به ثم مع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا من اموالهم يتقربون
به اليه وبهذا قال الجمهور اي الكفار يجعلون للاصنام وهم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات واجراها مجرى العقلاء جريا على اعتقاد الكفار فيها
وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للاصنام التي لا تعقل شيئا نصيبا من اموالهم التي رزقهم الله اياها قال
مجاهد يعلمون ان الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون انه يضرهم وينفعهم
نصيبا مما رزقناهم وقال قتادة هم مشركو العرب جعلوا لاوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله
وجزؤا من اموالهم جزءا فجعلوه لهم وعن السدي قال هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا
تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ اقسم سبحانه بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب

وهو من بديع الكلام وبليغه وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ عما كنتم تفترون اي تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا ويجعلون لله البنات هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم وقد كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله فنزه سبحانه نفسه عما نسبه اليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول صحيحة ولا افهام مستقيمة قال ابن عباس يقول تجعلون لي البنات ترتضونهن لي ولا ترتضونهن لانفسكم وذلك انهم كانوا في الجاهلية اذا ولد للرجل منهم جارية امسكها على هوان او دسها في التراب وهي حية ان هم الا كالانعام بل هم اضل وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ولهم ما يشتهون اي ويجعلون لانفسهم ما يشتهونه من البنين والجملة مستأنفة او في محل النصب على الحال من الواو في يجعلون هذا ثم ذكر سبحانه كراهتهم للاناث التي جعلوها لله سبحانه فقال واذا بشر احدهم بالانثى اي اذا اخبر احدهم بولادة بنت له ظل اي صار وجهه مسودا اي متغيرا وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض بل المراد به الكناية عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم والحزن والغيظ والكراهة والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا قاله الزجاج وقال الماوردي بل المراد سواد اللون حقيقة قال وهو قول الجمهور والاول اولى فان المعلوم بالوجدان ان من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه الا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي وهو كظيم اي ممتلئ من الغم غيظا وحنقا يقال كظمت الغيظ كظما وكظوما امسكت على ما في نفسك منه على صفح او غيظ وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فانا كظيم ومكظوم وكظم البعير كظوما لم يجتر قال الاخفش هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره وقيل انه المغموم الذي يطبق فاه من الغم ماخوذ من الكظامة وهو سد فم البير قاله علي بن عيسى وقد تقدم في سورة يوسف يتوارى اي يتغيب ويختفي من القوم من سوء ما بشر به اي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له تعلق هنا جاران بلفظ واحد لاختلاف معناهما فان الاولى للابتداء والثانية للعلة اي من اجل سوء وسوءها من حيث كونها يخاف عليها الزنا ومن حيث كونها لا تكتسب ومن حيث غير ذلك أيمسكه على هون قال اليزيدي الهون الهوان بلغة قريش وكذا حكي عن الكسائي وحكى عنه ايضا انه البلاء والمشقة وقال الفراء الهون القليل بلغة تميم وعن الاعمش انه أيمسكه على سوء ام يدسه في التراب اي يخفيه فيه بالوأد كما كانت تفعله العرب

والدس اخفاء الشيء في الشيء فلا يزال الذي بشر بحدوث الانثى مترددا بين هذين الامرين التذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الانثى لرعاية اللفظ وقرأ الجحدري امه يدسها ويلزمه ان يقرأ ايمسكها وقيل دسها اخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لاخفائه عن الابصار الا ساء ما يحكمون حيث اضافوا البنات التي يكرهونها الى الله سبحانه واضافوا البنين المحبوبين عندهم الى انفسهم ومثله قوله تعالى الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى قال السدي بئس ما حكموا يقول شيء لا يرضونه لانفسهم فكيف يرضونه لي للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء اي لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة صفة السوء من الجهل والكفر بالله وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق وقيل العذاب والنار ولله المثل الاعلى هي اضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم الواسع او التوحيد واخلاص العبادة او انه خالق رازق قادر مجاز منزه عن الولد وقيل شهادة ان لا اله الا الله قاله قتادة وقيل الله نور السموات والارض مثل نوره الآية وقيل ليس كمثله شيء قاله ابن عباس وهو العزيز الذي لا يغالب فلا يضره نسبتهم اليه ما لا يليق به الحكيم في اقواله وافعاله ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة فقال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم المراد بالناس هنا الكفار او جميع العصاة والباء للسببية ما ترك عليها اي على الارض وان لم تذكر فقد دل عليها ذكر الناس او الدابة من دابة قط بل اهلكها بالمرة بشوم ظلم الظالمين فان الجميع مستقرون على الارض والمراد بالدابة الكافر وقيل كل ما دب فقد قيل على هذا كيف يعم بالهلاك وفيهم من لا ذنب له واجيب بان اهلاك الظالم انتقام منه واهلاك غيره ان كان من اهل التكليف فلاجل توفير اجره وان كان من غيرهم فبشوم ظلم الظالمين ولله الحكمة البالغة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ومثل هذا قوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وفي معنى هذه الآية احاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا اراد الله بقوم عذابا اصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم وكذلك حديث الجيش الذي يخسف بهم في البيداء وفي آخره انهم يبعثون على نياتهم وقد قدمنا عند تفسير قوله سبحانه واتقوا فتنة الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له قال سعيد بن جبير ما ترك عليها من دابة ما سقاهم

المطر عن الذي يخرج ... بسبب ظلمهم وانقطاعه يوجب انقطاع النسل وقيل لو
اهلك الآباء بكفرهم لم تكن الابناء وذلك يستلزم ان لا يبقى في الدنيا احد من الناس وقال قتادة قد
فعل ذلك في زمن نوح اهلك الله ما على الارض من دابة الا ما حمل في سفينة نوح وهذه الآية بالغة
من القبائح فقد تناهى الى امد لا غاية وراءه وعن ابن مسعود قال ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره
ثم قال اي والله زمن غرق قوم نوح وعنه قال كاد الجعل ان يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ
هذه الآية وعن انس نحوه وعن ابي هريرة انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه قال ابو هريرة
بلى والله ان الحبارى لتموت هزلا في وكرها من ظلم الظالم ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم معين
عنده تعالى وهو منتهى حياتهم وانقضاء اعمارهم او اجل عذابهم وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها
الاعذار اليهم وارخاء العنان معهم ومنها حصول من سبق في علمه من اولادهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾
الذي سماه لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ اي حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك
الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه والساعة للمدة القليلة وقد تقدم تفسير هذا وتحقيقه
ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم فقال ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ اي ينسبون اليه سبحانه ما
يكرهون نسبته الى انفسهم من البنات والشريك في الرياسة واهانة الرسل وهو تكرير لما تقدم لقصد
التأكيد والتقرير او لزيادة التوبيخ والتقريع قال الضحاك اي يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لانفسهم
ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائحهم فقال ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ اي
تصفه السنتهم من الكذب هو قولهم ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ اي الخصلة او العاقبة الحسنى قال الزجاج يصفون ان لهم
مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن اي الجنة كقوله ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وقرئ
الكذب بضمتين على انه صفة للالسن وهو جمع كذوب فيكون المفعول على هذا ان لهم الحسنى قال
مجاهد قول كفار قريش لنا البنون ولله البنات وعن قتادة نحوه ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿لَا جَرَمَ﴾
تركيب مزجي من لفظ لا ولفظ جرم ومعناه الفعل اي ثبت او المصدر اي حقا ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكان ما جعلوا
لانفسهم من الحسنى ﴿النَّارَ﴾ الموقدة والعذاب الدائم ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء مخففا اي مقدمون الى
النار قال ابن الاعرابي وابو عبيدة اي متروكون منسيون في النار وبه قال مجاهد وعن سعيد بن جبير
نحوه وبه قال الكسائي والفراء فيكون مشتقا من افرطت فلانا خلفي اذا خلفته ونسيته وقال قتادة

والحسن معجلون اليها مقدمون في دخولها من افرطته اي قدمته في طلب الماء والفارط هو الذي يتقدم الى الماء والفراط المتقدمون في طلبه والوراد المتاخرون ومنه قوله صلى الله عليه وسلم انا فرطكم على الحوض اي متقدمكم وفي القاموس افرط فلانا تركه وتقدمه وجاوز الحد واعجل بالامر وقرئ مفرطون بكسر الراء وتخفيفها وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومعناه مسرفون في الذنوب والمعاصي يقال افرط فلان على فلان اذا اربى عليه وقال له اكثر مما قال من الشر وقرئ مفرطون بكسر الراء وتشديدها اي مضيعون امر الله فهو من التفريط في الواجب ثم بين سبحانه ان مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الامم فقال مسليا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك رسلا فزين لهم الشيطان اعمالهم الخبيثة من الكفر فكان شانهم مع رسلهم التكذيب والمزين هو الله سبحانه والشيطان انما له الوسوسة فقط فمن اراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته فهو وليهم اليوم ولفظ اليوم المعرف بال انما يستعمل حقيقة في الزمان الحاضر المقارن للتكلم كالآن وحينئذ فلفظ اليوم في الآية يحتمل ان يكون عبارة عن زمان الدنيا فيكون المعنى هو قرينهم في الدنيا ويحتمل ان يكون عبارة عن يوم القيامة وما بعده فيكون للحال الآتية ويكون الولي بمعنى الناصر والمراد نفي الناصر عنهم على ابلغ الوجوه لان الشيطان لا يتصور منه النصرة اصلا في الدار الآخرة واذا كان الناصر منحصرا فيه لزم ان لا نصرة من غيره ويحتمل ان يراد باليوم بعض زمان الدنيا وهو على وجهين الاول ان يراد البعض الذي قد مضى وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للامم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية الثاني ان يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في وليهم لكفار قريش اي فهو ولي هؤلاء اليوم او على حذف مضاف اي فهو ولي امثال اولئك الامم اليوم ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه ولهم عذاب اليم في الآخرة وهو عذاب النار ثم ذكر سبحانه انه ما اهلك من هلك الا بعد اقامة الحجة عليهم وازاحة العلة منهم فقال وما انزلنا عليك الكتاب هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن والاستثناء في الا مفرغ من اعم الاحوال اي ما انزلنا عليك في حال من الاحوال ولا لعلة من العلل الا لتبين لهم اي الناس وانما جي هذا باللام لاختلاف فاعله

مع فاعل الفعل فإن الفعل هو الله والمبين هو النبي صلى الله عليه وسلم وانما انتصب المذان بعد الاتحاد فاعلهما مع فاعل الفعل لان الهادي والراحم هو الله كأنه المثل الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ من التوحيد والشرك والجبر والقدر وانزال البعث واثبات المعاد وسائر الاحكام الشرعية وَهُدًى عطف على لتبين وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب لانهم هم المنتفعون به ثم عاد سبحانه الى تقرير وجوده وتفرده بالالهية بذكر اياته العظام وبيناته الفخام فقال وَاللّٰهُ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ اي من السحاب او من جهة العلو كما مر مَاءً اي نوعا من انواع الماء فَاَحْيَا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اي احياها بالنبات والزرع بعد ان كانت يابسة لا حيوة بها اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ الانزال والاحياء لَاٰيَةً اي علامة دالة ودلالة واضحة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم لِقَوْمٍ يَّسْمَعُوْنَ كلام الله سماع تدبر وانصاف ويفهمون ما يتضمنه من العبر ويتفكرون في خلق السموات والارض فالمراد سمع القلوب لا سمع الاذان لان من لم يسمع بقلبه فكأنه لم يسمع كالاصم وَاِنَّ لَكُمْ فِي الْاَنْعَامِ لَعِبْرَةً الانعام هي الابل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز والعبرة اصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ومنه فاعتبروا يا اولي الابصار والظاهر ان في سببية اي بسبب الانعام وقال ابو بكر الوراق العبرة في الانعام تسخيرها لاربابها وطاعتها لهم و الظاهر ان العبارة هي قوله نُسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِيْ بُطُوْنِهٖ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة قرئ من سقى يسقي ومن اسقى يسقي قيل هما لغتان وقرئ بالتاء على ان الضمير راجع الى الانعام وبالتحتية على ارجاع الضمير الى الله سبحانه وهما ضعيفان وجميع القراء على القراءتين الاوليين والفتحة لغة قريش والضم لغة حمير وقيل ان بين سقى واسقى فرقا فاذا كان الشراب من يد الساقي الى فم المسقي فيقال سقيته وان كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له قيل اسقاه ومن تبعيضية او ابتدائية والضمير في بطونه راجع الى الانعام قال سيبويه العرب تخبر عن الانعام بخبر الواحد وقال الزجاج لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث فيقال هو الانعام وهي الانعام جاز عود الضمير بالتذكير وقال الكسائي معناه مما في بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد الى المذكور قال الفراء وهو صواب وقال المبرد هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله للشمس هذا ربي يعني هذا الشيء الطالع وكذلك اني مرسلة اليهم بهدية ثم قال فلما جاء سليمان ولم يقل جاءت لان المعنى جاء الشيء الذي ذكرنا انتهى ومن ذلك قوله ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره

وحكى الكسائي ان المعنى مما في بطون بعضه وهي الاناث لان الذكور لا البان لها وبه قال ابو عبيدة
وحكى عن الفراء انه قال النعم والانعام واحد يذكر ويؤنث ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد
فرجع الضمير الى لفظ النعم الذي هو بمعنى الانعام وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربي فقال انما يرجع
التذكير الى معنى الجمع والتانيث الى معنى الجماعة فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وانثه في سورة
المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَّدَمٍ الفرث الزبل الذي ينزل الى الكرش فاذا
خرج منه لم يسم فرثا بل يسمى روثا وهو ثفل الكرش يقال فرثت الكرش اذا اخرجت ما فيها وفي
البيضاوي الفرث الاشياء الماكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش والمعنى ان الشيء الذي
تاكله يكون منه ما في الكرش وهو الفرث ويكون منه الدم فيكون اسفله فرثا واعلاه دما واوسطه
لَّبَنًا فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش كما هو فسبحان من هذه بعض
حكمته خَالِصًا من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد ان جمعهما وعاء واحد وذلك ان الحيوان اذا
اكل العلف طبخه الكرش ثم انقسم الى اقسام ثلثة ثفل وفوقه اللبن وفوقه الدم ثم تسلط الكبد عليها
فترسل الدم الى العروق واللبن الى الضروع ويبقى الثفل في الكرش حتى ينزل الى الخارج والحاصل
ان الله تعالى خلق اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم سَآئِغًا لِّلشّٰرِبِيْنَ اي لذيذا هنيئا لا يغص
به من شربه يقال ساغ الشراب يسوغ سوغا اي سهل مدخله في الحلق وفي ذلك عبرة للمعتبر
وَمِنْ ثَمَرٰتِ النَّخِيْلِ وَالْاَعْنَابِ اي ما تتخذون وقيل التقدير وان لكم من ثمرات النخيل والاعناب
لعبرة وقيل نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل وقيل نسقيكم من ثمرات النخيل قدره الزمخشري
ويكون على هذا تَتَّخِذُوْنَ مِنْهُ سَكَرًا بيانا للاسقاء وكشفا عن حقيقته وقيل تقديره ومن ثمرات
النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه سكرا ويكون تكرير منه للتاكيد وانما ذكر الضمير في منه لانه يعود
الى المذكور او الى المضاف المحذوف وهو العصير كانه قال من عصير ثمرات تتخذون منه والسكر
بفتحتين ما يسكر من الخمر وقيل انه من اسماء الخمر ثم قيل انه في الاصل مصدر سمي
به الخمر وَرِزْقًا حَسَنًا هو جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب والخل والدبس قال
ابن عباس السكر ما حرم من ثمرتهما والرزق الحسن ما حل وعنه قال السكر الحرام والرزق زبيبه
وخله وعنبه ومنافعه وايضا قال السكر النبيذ والرزق الزبيب فنسختها اية انما الخمر والميسر وعنه

قال فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لانه منه ثم قال ورزقا حسنا فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ واشباه ذلك فاقره الله وجعله حلالا للمسلمين وعن ابن عمر انه سئل عن السكر فقال الخمر بعينها وعن ابن مسعود قال السكر الخمر وبالجملة فقد كان نزول هذه الاية قبل تحريم الخمر وجزم السيوطي اعتمادا على قولهم في السورة انها مكية الا ثلاث ايات من اخرها والمائدة مدنية وحرم الخمر فيها وهي اخر القران نزولا كما ثبت في الحديث وقيل ان السكر الخل بلغة الحبشة والرزق الطعام من الشجرتين وقيل الرزق الدبس بالكسر وبكسرتين في القاموس هو عسل التمر وعسل النحل وبالفتح الاسود من كل شيء وقال الحفناوي والعادة الان جارية باطلاقه على ما يتخذ من العنب فلعله يستعمل فيهما وقيل السكر العصير الحلو الحلال وسمي سكرا لانه قد يصير مسكرا اذا بقي فاذا بلغ الاسكار حرم والقول الاول اولى وعليه الجمهور وقد صرح اهل اللغة بان السكر اسم للخمر ولم يخالف في ذلك الا ابو عبيدة فانه قال السكر الطعم ورجح هذا ابن جرير فقال ان السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والاعناب وهو الرزق الحسن فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل انما اشكو بثي وحزني الى الله قال الزجاج قول ابي عبيدة هذا لا يعرف واهل التفسير على خلافه وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الانبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ قالوا وانما امتن الله على عباده بما احله لا بما حرمه عليهم وهذا مردود بالاحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن اية تحريم الخمر **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ** المذكور من اخراج اللبن واتخاذ السكر والرزق من الثمرات **لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** اي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الايات التكوينية **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** قد تقدم الكلام في الوحي وانه يكون بمعنى الالهام وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ومنه قوله سبحانه ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ومن ذلك الهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم او لكل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وقرئ النحل بفتح الحاء قال الزجاج وسمي نحلا لان الله سبحانه نحله العسل الذي يخرج منه قال الجوهري والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والانثى وقيل اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ويذكر ويؤنث والنحل بالضم مصدر قولك نحلته من العطية انحله نحلا والنحلى العطية على فعلى

أنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا اي بان اتخذي على ان ان هي المصدرية ويجوز ان تكون تفسيرية
لان في الايحاء معنى القول وبهذا قال الزمخشري وغيره ومن منع وهو ابو عبد الله الرازي قال لا نسلم
انها مفسرة كيف وقد انتفى شرط التفسير بان المراد من الايحاء هو الالهام اتفاقا وليس فيه معنى القول
وحينئذ فهي مصدرية كانه قيل اوحى ربك باتخاذ بعض الجبال بيوتا ورده في المغني بان الالهام
فيه معنى القول من حيث الدلالة على المعنى وانث الضمير في اتخذي لكونه احد الجائزين كما
تقدم او للحمل على المعنى او لكون النحل جمعا واهل الحجاز يؤنثون النحل والمعنى سخرها لما خلقها له والهمها
رشدها وقدر في نفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبني بيوتا
على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت
مدورة او مثلثة او مربعة او غير ذلك من الاشكال لكان فيها فرج خالية ضائعة ولما حصل
المقصود فالهمها الله تعالى ان تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة
خالية والهمها ايضا ان يجعلوا عليهم اميرا كبيرا انفذ الحكم فيهم وهم يطيعونه ويمتثلون امره ويكون هذا
الامير اكبرهم جثة واعظمهم خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكهم كذا حكاه الجوهري والهمها ايضا
ان جعلوا على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير اهلها من الدخول اليها والهمها ايضا انها تخرج من بيوتها
فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة
الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهي ومن في من الجبال وكذا في وَمِنَ الشَّجَرِ وَ
كذا في وَمِمَّا يَعْرِشُونَ للتبعيض اي مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر وفي
العروش التي يعرشها بنو آدم من الاجباح والحيطان وغيرها واكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب
يقال عرش يعرش بكسر الراء وضمها وهما سبعيتان وبابه نصر وضرب كما في المختار والظاهر ان
من في هما بمعنى في اذ لا معنى لكونها تبني من بناء الناس بل الظاهر انها تبني في بنائهم ويكون المراد من بنائهم
الكوارة ومن بناتها بيتها الذي تمج فيه العسل فان المشاهد انها تبني لها بيتا داخل الخلية من
الشمع ثم تمج فيه العسل شيئا فشيئا والظاهر ان من في الموضعين الاولين بمعنى في ايضا كما صرح به الشهاب
ويكون المراد ببيوتها ما تبنيه من الشمع كما تقدم فالشمع تارة تبنيه في الجبال وتارة في الاشجار وهذا
في النحل الوحشي وتارة تبنيه في الخلايا وهذا في النحل الاهلي فان النحل قسمان كما ذكره الخازن ثُمَّ كُلِي

مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ من للتبعيض لانها تاكل النور من الاشجار فاذا اكلتها فَاسْلُكِي اي فادخلي سُبُلَ رَبِّكِ
اي الطرق التي فهمك الله وعلمك واضافها الى الرب لانه خالقها وملهم النحل ان تسلكها اي ادخليها
لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر او اسلكي ما اكلت في سبل ربك اي في مسالكه التي يستحيل فيها
بقدرته النور عسلا واذا اكلت الثمار في الامكنة البعيدة فاسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك
لا تضلين فيها ذُلُلاً حال من السبل وهي جمع ذلول اي مذللة غير متوعرة واختار هذا الزجاج وابن
جرير وقيل حال من النحل يعني مطيعة للتسخير واخراج العسل من بطونها واختار هذا ابن قتيبة قال
مجاهد طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته وعن قتادة قال مطيعة قال السدي ذليلة يَخْرُجُ مِنْ
بُطُونِهَا مستانفة عدل به عن خطاب النحل تعديد اللنعم وتعجيبا لكل سامع وتنبيها على العبر
وارشادا الى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الضعيف الشبيه بالذباب شَرَابٌ المراد به في الآية
هو العسل قاله ابن عباس مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ يعني ان بعضه ابيض وبعضه احمر وبعضه ازرق وبعضه
اصفر باختلاف ذوات النحل والوانها وماكولاتها وذلك على قدر ما تاكل من الثمار والازهار و
يستحيل في بطونها عسلا وفي هذا دليل على قدرته وفي البيضاوي مختلف الوانه بسبب اختلاف
سن النحل والفصل فالابيض لفتيها والاصفر لكهلها والاحمر لمسنها قال الشهاب ولا يخفى انه مما
لا دليل عليه وجمهور المفسرين على ان العسل يخرج من افواه النحل ويسيل كاللعاب وقيل من اسفلها
وقيل لا يدرى من اين يخرج منها فِيهِ اي في الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل والى
هذا ذهب الجمهور شِفَاءٌ لِلنَّاسِ قال مجاهد العسل فيه الشفاء وفي القرآن وقال الفراء وابن
كيسان وجماعة من السلف ان الضمير راجع الى القرآن ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات
والبراهين شفاء للناس ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين وعن
ابن مسعود قال ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وعنه مرفوعا قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالشفاءين العسل والقرآن وقد وردت احاديث في كون العسل
شفاء منها ما اخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الشفاء في ثلاثة في
شرطة محجم او شربة عسل او كية بنار وانا انهى امتي عن الكي واخرج البخاري ومسلم وغيرهما
من حديث ابي سعيد ان رجلا اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان اخي استطلق

بطنه فقال اسقه عسلا فسقاه عسلا ثم جاء فقال سقيته عسلا فما زاده الا استطلاقا قلت قال اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه ثم جاء فقال ما زاده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن اخيك اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه فبرأ وقد اختلف اهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء او خاص ببعض الامراض فقالت طائفة هو على العموم في كل حال ولكل احد وقالت طائفة ان ذلك خاص ببعض الامراض ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل انسان وليس هذا باول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام ومما يدل على هذا ان العسل نكرة في سياق الاثبات فلا يكون عاما باتفاق اهل اللسان ومحققي اهل الاصول وتنكيره ان اريد به التعظيم لا يدل الا على ان فيه شفاء عظيما لمرض او امراض لا لكل مرض فان تنكير التعظيم لا يفيد العموم والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب انه اذا استعمل منفردا كان دواء لامراض خاصة وان خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الامراض قلت وفي حديث البخاري بان اخي استطلق بطنه الحديث اوضح دليل على ما ذهبت اليه طائفة من تعميم الشفاء لان قوله صلى الله عليه وسلم صدق الله اي انه شفاء فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الامر بالسقيا وقد اعترض على هذا الحديث بعض الملحدين ومن في قلبه مرض بكونه خلاف ما اجمع عليه الاطباء من ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال واجاب عنه الخازن على الطريق الجاري على صناعة الطب واورده الشيخ سليمان الجمل ثم قال ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك انتهى وعن ابن عمر انه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا الا جعل عليه عسلا حتى الدمل اذا خرج طلى عليه العسل وعن ابي وجزة انه كان يكتحل بالعسل ويستنشق ويتداوى به ذكره القرطبي وفي الباب آثار عن جماعة من السلف وقال البيضاوي شفاء للناس اما بنفسه كما في الامراض البلغمية او مع غيره كما في سائر الامراض اذ قلما يكون معجون الا والعسل جزء منه وقيل ان هذا القول خرج مخرج الاغلب وانه في الاغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء لكنه في الجملة دواء وان نفعه اكثر من مضرته ومنافعه كثيرة جدا قال السدي شفاء للاوجاع التي شفاؤها فيه وبالجملة فهو من اعظم الاغذية وانفع الادوية وقليلا ما يجتمع هذان الامران في غيره إِنَّ فِي ذَٰلِكَ المذكور من امر النحل

لآية لقوم يتفكرون اي يعملون افكارهم عند النظر في صنيع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فان امر النحل من اعجبها واغربها وادقها واحكمها ومن تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة حق التدبر علم قطعا انه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه ولما ذكر سبحانه بعض احوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة وخصائص القدرة القاهرة اتبعه بعجائب خلق الانسان وما فيه من العبر فقال والله خلقكم ولم تكونوا شيئا ثم يتوفكم عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبابا واما كهولا ومنكم من يرد الى ارذل العمر اي اضعفه واردأه واخسه وشره يقال رذل يرذل رذالة والارذل والرذال الرديء الشيء واخسه واحقره واوضعه قال النيسابوري ان العقلاء ضبطوا مراتب عمر الانسان في اربع اولها سن النشوء والنماء وهو من اول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد وثانيها سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين الى اربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل وثالثها سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة تسرع الانسان الى النقص لكنه يكون النقص خفيا لا يظهر ورابعها سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف قال علي ارذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقيل تسعون سنة قاله قتادة ومثل هذه الآية قوله تعالى لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين وعن السدي قال هو الخرف وعن عكرمة قال من قرأ القرآن لم يرد الى ارذل العمر وعن طاوس العالم لا يخرف وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح وغيره انه كان يتعوذ بالله ان يرد الى ارذل العمر ثم علل سبحانه رد من يرده الى ارذل العمر بقوله لكيلا اللام لام التعليل وكي حرف مصدر ونصب ولا نافية وقيل اللام هنا للصيرورة والعاقبة يعلم بعد علم كان قد حصل له شيئا منه لا كثيرا ولا قليلا او شيئا من المعلومات اذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم وقيل المراد بالعلم هنا العقل وقيل المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك وقيل لكي يصير كالصبي الذي لا عقل له وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد ان كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته انه كما قدر على اماتته واحيائه قادر على نقله من العلم الى الجهل وانه قادر على احيائه بعد اماتته فيكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت ان الله عليم بحكمه التحويل الى الارذل من الاكمل او الى الافناء من الاحياء قدير على تبديل ما يشاء من الاشياء وعلى ما يريد

ثم لما بين سبحانه خلق الانسان وتقلبه في اطوار العمر ذكر طرفا من احواله لعله يتذكر عند ذلك
فقال وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك اي فجعلكم متفاوتين
فيه فوسع على بعض عباده وبسط حتى جعل له من الرزق ما يكفي الوفا مؤلفة من بني آدم وضيقه
على بعض عباده وقتر حتى صار لا يجد القوت الا بسؤال الناس والتكفف لهم وكثر لواحد وقلل على
واحد وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة اسبابها وكما
جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم والخلق والخلق والجهل و
قوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الاحوال وعن ابن عباس في الآية
قال لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في اموالهم ونساءهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني وعن
مجاهد قال هذا مثل لآلهة الباطل مع الله وقيل معنى الآية ان الله سبحانه اعطى الموالي افضل مما اعطى
مماليكهم بدليل قوله فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا اي فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم كالموالي والسادة
بِرَادِّي رِزْقِهِمْ الذي رزقهم الله اياه عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ من المماليك فَهُمْ اي المالكون والمماليك
فِيهِ اي في الرزق سَوَاءٌ اي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فالفاء على هذا للدلالة على ان التساوي
مترتب على التراد اي لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوي وانما يردون عليهم منه شيئا يسيرا
وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعبدة الاصنام كما تقدم والمعنى اذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون
بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء والحال ان عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية
فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في اموالكم فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم
معه او كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالاصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير ومثل هذه
الآية قوله سبحانه ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم وفي
هذه الجملة اوجه احدها تقديره افهم فيه سواء ومعناه النفي اي ليسوا مستوين فيه والثاني انها
اخبار بالتساوي اي انما هو رزقي اجريته على ايديهم فهم فيه سواء قال ابو البقاء انها واقعة موقع فعل
وقيل ان الفاء في فهم بمعنى حتى أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ حيث يفعلون ما يفعلون من الشرك والنعمة
هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك وقراءة الغيبة اولى لقرب المخبر عنه ولانه لو كان
خطابا لكان ظاهره للمسلمين والاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر اي ايشركون

يجحدون نعمته ويكون المعنى على قراءة الخطاب ان المالكين ليسوا برادي رزقهم على مماليكهم
بل انا الذي ارزقهم واياهم فلا تظنوا انهم يعطونهم شيئا وانما هو رزقي اجريه على ايديهم فهم جميعا
في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى كان يقال
لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله ثم ذكر سبحانه الحالة الاخرى من احوال الانسان فقال وَاللهُ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا قال المفسرون يعني النساء فانه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام قال
قتادة خلق آدم ثم خلق زوجته منه والمعنى خلق لكم من جنسكم ازواجا لتستانسوا بها لان الجنس يانس
الى جنسه ويستوحش من غير جنسه وبسبب هذه الانسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب النسل
الذي هو المقصود بالزواج ولم يذكر البنات لكراهيتهم لهن فلم يمتن عليهم الا بما يحبونه ولهذا قال وَ
جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً جمع حافد يقال حفد يحفد حفدا وحفودا اذا اسرع فكل
من اسرع في الخدمة فهو حافد ومنه اليك نسعى ونحفد اي نسرع الى طاعتك قال ابو عبيد العمل والخدمة
وهذا اصله في اللغة قال الخليل بن احمد الحفدة عند العرب الخدم والاعوان وبه قال الحسن وعكرمة
والضحاك وقال الازهري قيل الحفدة اولاد الاولاد وروي هذا عن ابن عباس والحفيد ولد الابن ذكرا كان
او انثى وولد البنت كذلك وتخصيصه بولد الذكر وتخصيص ولد الانثى بالسبط عرف طاري على اصل اللغة
وقيل الحفدة الاختان قاله ابن مسعود وعلقمة وابو الضحى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي وقيل الحفدة
الاصهار قال الاصمعي الختن من كان من قبل المرأة كابيها واخيها وما اشبههما والاصهار منهما جميعا يقال
اصهر فلان الى بني فلان فهو صاهر وقيل هم اولاد امرأة الرجل من غيره وقيل اولاد الرجل الذين يخدمونه
وقيل البنات الخادمات لابيهن وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك ورجح
كثير من العلماء انهم اولاد الاولاد لانه سبحانه امتن على عباده بان جعل لهم من الازواج بنين وحفدة
فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين وان كان يجوز ان يكون المعنى جعل لكم من ازواجكم بنين وجعل
لكم حفدة ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر ان يراد بالبنين من لا يخدم وبالحفدة من يخدم الاب
منهم او يراد بالحفدة البنات فقط ولا يفيد انهم اولاد الاولاد الا اذا كان تقدير الآية وجعل لكم من ازواجكم
بنين ومن البنين حفدة وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ التي تستطيبونها وتستلذونها من انواع
الثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ومن للتبعيض لان الطيبات

لاتكون مجتمعة الا في الجنة والمرزوق في الدنيا انموذج منها ثم ختم سبحانه الآية بقوله أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ الاستفهام للانكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر اي يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل وفي تقديم بالباطل على الفعل دلالة على انه ليس لهم ايمان الا به والباطل هو اعتقادهم في اصنامهم انها تضر وتنفع وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ اي ما انعم به عليهم مما لا يحيط به حصر هُمْ يَكْفُرُونَ باضافتها الى غيره وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على ان كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتاكيد وعن ابن جريج الباطل هو الشيطان ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ داخل تحت الانكار التوبيخي انكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الاصنام وهي لا تنفع ولا تضر ولهذا قال مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا المعنى ان هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا اي رزق كائنا منهما عن قتادة قال هذه الاوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقا من السموات والارض لا خيرا ولا حيوة ولا نشورا وفي شيئا ثلاثة اوجه احدها انه منصوب على المصدر اي لا يملك لهم ملكا اي شيئا من الملك والثاني انه بدل من رزقا وهذا غير مفيد اذ ليس فيه بيان ولا تاكيد الثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر وهو يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك وبه قال الفارسي ورد عليه ابن الطراوة بان الرزق اسم المرزوق كالرعي والطحن ورد عليه بان الرزق ايضا مصدر وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الضمير راجع الى ما وجمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم ان من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق فبين سبحانه انه لا يملك ولا يستطيع والمعنى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم احياء متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حيوة لها ولا تستطيع التصرف ثم نهاهم سبحانه عن ان يشبهوه بخلقه فقال فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ فانه احد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد قاله قتادة فان ضارب المثل يشبه حالا بحال وقصة بقصة قال الزجاج لا تجعلوا لله مثلا فانه واحد لا مثل له وكانوا يقولون ان اله العالم اجل من ان يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون الى الاصنام والكواكب كما ان اصاغر الناس يخدمون اكابر حضرة الملك واولئك الاكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك وعلل النهي بقوله إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما عليكم من العبادة وانتم لا تعلمون ما في عبادتها

من سوء العاقبة والتعرض لعذاب الله سبحانه او يعلم ما انتم عليه من ضرب الامثال له او يعلم
انه لا اصل في الخلق وانتم لا تعلمون شيئا من ذلك وفعلكم هذا ناشئ عن توهم فاسد وخاطر باطل
وخيال مختل وعن ابن عباس قال يعني اتخاذهم الاصنام يقول لا تجعلوا معي الها غيري فانه لا اله غيري
ضرب الله مثلا اي ذكر شيئا يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه وبين ما
جعلوه شريكا له من الاصنام والمثل في الحقيقة هي حالة العبد عارضة له وهي المملوكية والعجز
عن التصرف فقوله عبدا تفسير للمثل وبدل منه ووصفه بكونه مملوكا لان العبد والحر مشتركان
في كون كل واحد منهما عبدا لله سبحانه قال عطاء هو ابو جهل بن هشام ووصفه بكونه لا يقدر على شيء
لان المكاتب والماذون يقدران على بعض التصرفات فهذا الوصف لتمييزه عنهما واحتج الفقهاء
بهذا على ان العبد لا يملك شيئا ومن اي الذي وقيل موصوفة واختاره الزمخشري كانه قيل
وحرا من الاحرار الذين يملكون الاموال ويتصرفون بها كيف شاؤوا رزقناه ليطابق عبدا منا
اي من جهتنا وهو ابو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قاله عطاء رزقا حسنا والمراد به ما يحسن في
عيون الناس لكونه رزقا كثيرا مشتملا على اشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين اليها فهو
ينفق منه في وجوه الخير ويصرف منه الى نواح البر والمعروف سرا وجهرا اي في حال السر وحال الجهر
والمراد بيان عموم الانفاق للاوقات وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه وان الثواب فيه اكثر
هل يستوون اي الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة وجمع الضمير لكان من لانه اسم مبهم يستوي
فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث وقيل انه اريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن
الحر الجنس اي من اتصف بتلك الاوصاف من الجنسين والاستفهام للانكار اي هل يستوي العبيد والاحرار
مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ومن المعلوم انهم لا يستوون فكيف يجعلون
لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه وحاصل
المعنى انه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من امره على شيء ورجل حر قد رزقه الله رزقا حسنا
وهو ينفق منه كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الاصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر
ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر وقيل المراد بالعبد المملوك في الاية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته
والاخر هو المؤمن قال ابن عباس معناه باطول من هذا والغرض انهما لا يستويان في الرتبة والشرف

وقيل العبد هو الصنم والثاني عابد الصنم والمراد انهما لا يستويان في القدرة والتصرف لان الاول جماد والثاني انسان الحمد كله لله وحده حمد نفسه لانه المنعم المستحق لجميع المحامد لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه فكيف تستحق الاصنام منه شيئاً ولا نعمة منها اصلا لا بالاصالة ولا بالتوسط وقيل اراد الحمد لله على ما انعم به على اوليائه من نعمة التوحيد وقيل اراد قل الحمد لله والخطاب اما لمحمد صلى الله عليه وسلم اولمن رزقه الله رزقاً حسناً وقيل انه لما ذكر مثلا مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال الحمد لله اي على قوة هذه الحجة بل اكثرهم لا يعلمون ذلك حتى يعبد وامن تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة ونفي العلم عنهم اما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم او هم يتركون الحق عنادا مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له وخص الاكثر بنفي العلم اما لكونه يريد الخلق جميعا واكثرهم المشركون او ذكر الاكثر وهو يريد الكل او المراد اكثر المشركين لان فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللاصنام التي هي اموات لا تضر ولا تنفع فقال وضرب الله مثلا آخر اوضح مما قبله واظهر منه الدلالة على بعد ما بين رتبة المؤمن ورتبة الكافر رجلين بدل من مثل وتفسير له احدهما ابكم اي العيي المفحم وقيل هو الاقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام وقيل هو الذي ولد اخرس فكل ابكم اخرس وليس كل اخرس ابكم والابكم الذي لا يفهم ولا يفهم وروى ثعلب عن ابن الاعرابي انه الذي لا يسمع ولا يبصر ثم وصف الابكم فقال لا يقدر على شيء من الاشياء المتعلقة بنفسه او بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق وهو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل وهو كل اي ثقيل على مولاه اي على وليه وقرابته وعيال على من يلي امره ويعوله ووبال على اخوانه وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله وفي هذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا ثم وصفه بصفة رابعة فقال اينما يوجهه اي يرسله ويصرفه في طلب الحاجة او كفاية المهم لا يأت بخير قط لانه عاجز اخرس لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه ان يقول هل يستوي هو في نفسه مع هذه الاوصاف التي اتصف بها ومن يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الاشياء وهو سليم الحواس نفاع ذو كفاية ورشد وديانة وهو في نفسه على صراط مستقيم اي على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل الى احد جانبي

الافراط والتفريط وانما قابل الاوصاف الاول بهذين الوصفين المذكورين للآخر لان حاصل اوصاف الاول عدم استحقاقه لشيء وحاصل وصفي هذا انه مستحق اكمل استحقاق والمقصود الاستدلال بعدم تساوي هذين الامرين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له قال ابن عباس يعني بالابكم الكافر وبالآمر بالعدل المؤمن وهذا المثل في الاعمال وعلى هذا تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر وقيل هي على الخصوص والذي يأمر بالعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم والابكم هو ابو جهل وقيل الابكم ابي بن خلف والآمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون وقال ابن عباس هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان ومولى له كافر وهو اسيد بن ابي العيص كان يكره الاسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله **وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ** اي يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما او اراد بغيبهما يوم القيامة لان علمه غائب عن العباد ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما والمراد التوبيخ للمشركين والتقريع لهم اي ان العبادة انما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلا عاجزا لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من انواع العلم **وَمَا اَمْرُ السَّاعَةِ** التي هي اعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه وهو اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين وتبديل صور الامكان اجمعين او المعنى ما امر قيام الساعة في سرعته وسهولته **اِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ** اي كرجع طرف من اعلى الحدقة الى اسفلها وانما ضرب به المثل لانه لا يعرف زمان اقل منه واللمح النظر بسرعة ولا بد فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزية ولذا قال **اَوْ هُوَ** اي بل امرها **اَقْرَبُ** منه بان يكون في زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبتدأ فيه فالله تعالى يحيي الخلق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن اي جزء غير منقسم وليس هذا من قبيل المبالغة بل هو كلام في غاية الصدق لان مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ومنها الى الابد غير متناه ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي او يقال ان الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر وقال الزجاج لم يرد ان الساعة تأتي في لمح البصر وانما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها لانه يقول للشيء كن فيكون وقيل المعنى هي عند الله كذلك وان لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة ومثله قوله سبحانه انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ولفظ او

ليس للشك بل للتمثيل وللتخيير وقيل دخلت لشك المخاطب وقيل هي بمنزلة بل إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته ثم انه سبحانه ذكر حالة اخرى للانسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال وَاللّٰهُ اَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُوْنِ اُمَّهٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئًا معطوف على قوله والله جعل لكم من انفسكم ازواجا منتظم معه في سلك ادلة التوحيد اي اخرجكم من بطون امهاتكم اطفالا لا علم لكم بشيء ولا تعلمون شيئا مما اخذ عليكم من الميثاق وقيل مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة وقيل شيئا من منافعكم والاولى التعميم لتشمل الاية هذه الامور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ فان شيئا نكرة واقعة في سياق النفي وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْاَبْصَارَ وَالْاَفْئِدَةَ اي ركب فيكم هذه الاشياء وليس فيه دلالة على تاخير هذا الجعل عن الاخراج لما ان مدلول الواو هو مطلق الجمع والمعنى جعل لكم هذه الاشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوبا عنكم عند اخراجكم من بطون امهاتكم وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه ونكتة تاخيره ان السمع ونحوه من آلات الادراك انما يعتد به اذا احس وادرك وذلك بعد الاخراج وقدم السمع على البصر لانه طريق تلقي الوحي او لان ادراكه اقدم من ادراك البصر والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر وقد قدمنا الوجه في افراد السمع وجمع الابصار والافئدة وهو ان افراد السمع لكونه مصدرا في الاصل يتناول القليل والكثير لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ اي لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له فعند ذلك تعرفون مقدار ما انعم الله به عليكم فتشكرونه او ان هذا الصرف هو نفس الشكر ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته فقال اَلَمْ يَرَوْا اِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرٰتٍ اي الم ينظروا اليها حال كونها مذللات للطيران بما خلق الله لها من الاجنحة وسائر الاسباب المواتية لذلك كرقة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء فِيْ جَوِّ السَّمَآءِ اي في الهواء المتباعد من الارض في سمت العلو واضافته الى السماء لكونه في جانبها قال كعب ان الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك مَا يُمْسِكُهُنَّ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن في الجو اِلَّا اللّٰهُ سبحانه بقدرته الباهرة فان ثقل اجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها لانها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ التسخير على تلك الصفة لَاٰيٰتٍ ظاهرة تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُوْنَ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها الله وَاللّٰهُ جَعَلَ اي صير او خلق لَكُمْ مِّنْ

بيوتكم التي هي من الحجر والمدر وغيرهما ومن ابتدائية سكنا مصدر يوصف به الواحد والجمع
واليه ذهب ابن عطية ومنعه الشيخ ولم يذكر وجه المنع وهو بمعنى مسكون اي تسكنون فيها وتهدأ
جوارحكم من الحركة وهذا من جملة تعديد الله نعمه على الانسان فان الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطربا
دائما كالافلاك ولو شاء لخلقه ساكنا ابدا كالارض وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا لما ذكر
سبحانه بيوت المدن وهي التي للاقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة وهي الانطاع
والادم جعلها بيوتا كالخيام والقباب والاخبية والفساطيط قال مجاهد وهي خيام العرب وقيل
ذلك في بعض الناس كالسودان فانهم يتخذون خيامهم من الجلود ويجوز ان يتناول المتخذة من الصوف
والوبر والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها تستخفونها اي
يخف عليكم حملها في الاسفار وغيرها ولهذا قال يوم ظعنكم اي في يوم سيركم ورحيلكم في اسفاركم
والظعن بفتح العين وسكونها وهما لغتان قرئ بهما كالنهر والنهر وهو سير اهل البادية للانتجاع
والتحول من موضع الى موضع والظعن الهودج ايضا قال ابن عباس بعض بيوت السيارة بنيانه في
ساعة ويوم اقامتكم اي حضركم والمعنى لا يثقل عليكم حملها في الحالين وجعل لكم من اصوافها و
اوبارها واشعارها والانعام تعم الابل والبقر والغنم كما تقدم والاصواف للغنم والاوبار للابل و
الاشعار للمعز وهي من جملة الغنم فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها الثلاثة للواحد من
اعيان الابل ونوعي الغنم ولم يذكر القطن والكتان لانهما لم يكونا ببلاد العرب اثاثا هو متاع البيت واصله
الكثرة والاجتماع ومنه شعر اثيث اي كثير مجتمع يقال اث اي كثر وتكاثف وقيل للمال اثاث اذا
كثر قال الخليل اثاثا اي منضما بعضه الى بعض من اث اذا كثر قال الفراء لا واحد له ومتاعا هو ما يتمتع به
بانواع التمتع قال الخليل الاثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما وعلى قول ابي زيد
الانصاري ان الاثاث المال اجمع الابل والغنم والعبيد والمتاع يكون عطف المتاع على الاثاث من عطف الخاص
على العام وقيل ان الاثاث ما يكتسي به الانسان ويستعمله من الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش في المنازل للناس
من الفرش والاكسية ويتزين به ومعنى الى حين الى ان تقضوا اوطاركم منه او الى ان يبلى ويفنى او
الى الموت او الى القيامة ثم لما كان الانسان قد لا يكون له خيام وابنية يستظل بها الفقر او لعارض اخر
فيحتاج الى ان يستظل بشجر او جدار او غمام ونحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال والله جعل لكم

مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا اي اشياء تستظلون بها من شدة الحر والبرد كالاشياء المذكورة وهي ظلال الابنية والجدران والاشجار والحاصل ان الظلال تعم الاشياء التي تظل نحو لما كان المسافر قد يحتاج الى كن يأوي اليه في نزوله والى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد نبه سبحانه على ذلك فقال وَ

جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا جمع كن وهو ما يستكن به من المطر وشدة الحر والبرد وفي المختار الكن الستر والجمع اكنان والاكنة الاغطية وقال الكسائي كن الشيء ستره وبابه رد وفي القاموس الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان بكسرهما والكن البيت جمعه اكنان واكنة وكنه كنا وكنونا واكنه وكننه واكتنه ستره واستكن استتر كاكتن والكنة جناح يخرج من حائط او سقيفة فوق باب الدار او ظلة هنالك او مخدع انتهى وهي هنا الغيران والاسراب في الجبال ونحوها جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون اليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها لان الانسان غني او فقير فالغني يستصحب معه الخيام في سفره ليسكن فيها واليه الاشارة في الآية المتقدمة والفقير يسكن في ظلال الاشجار والحيطان والكهوف والى هذا الاشارة في هذه الآية وكانت بلاد العرب شديدة الحرارة وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدة الحر وقوته اكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ جمع سربال وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال تَقِيكُمُ الْحَرَّ اي تدفع عنكم ضرر الحر والبرد وهو ما عليه اكثر المفسرين من انه من حذف المعطوف للعلم به قال الشهاب في الريحانة في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهو انه انما اقتصر على الحر لانه اهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ثم ان ما يقي الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة فوقاية الحر انما هي لتحصيل البرد وهذا فيه من اللطف ما هو الطف من النسيم فلله در التنزيل وكم فيه من اسرار لا تتناهى ونظيره بيدك الخير اي والشر لان الخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر ولتقدم وقاية البرد في قوله لكم فيها دفء وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ وهي الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح تتقون بها الطعن والضرب والرمي والمعنى انها تقيكم البأس الذي يصل من بعضكم الى بعض في الحرب كَذَلِكَ الاتمام البالغ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ فانه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة هنا وبغيرها وهو بفضله واحسانه سيتم نعمة الدين والدنيا لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ اي ارادة ان تسلموا فان من امعن النظر في هذه النعم لم يسعه الا الاسلام والانقياد للحق وقرأ ابن عباس وعكرمة

من السلامة من الجراح وقرأ الباقون من الاسلام قال ابو عبيد والاختيار قراءة العامة لان ما
أنعم الله به علينا من الاسلام افضل مما انعم به من السلامة من الجراح وقيل الخطاب لاهل مكة
اي لعلكم يا اهل مكة تخلصون لله الربوبية والحمل على العموم اولى واوفر والنعمة هنا الاّن لموارنها
للمصدر فَإِنْ تَوَلَّوْا اي اعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عذرك وفيه التفات
وجواب الشرط محذوف اي فلا لوم عليك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم والتعبير بالتولي اشارة الى ان اصل
فطرة الاسلام وخلافها عارض متجدد والمعنى ان داموا على التولي لظهور توليهم ثم استانف لبيان توليهم فقال
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لما ارسلت به اليهم وقد فعلت ذلك الْمُبِينُ اي الواضح وليس عليك غير ذلك
وصرف الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له وهذا قبل الامر بالقتال فتكون الآية منسوخة
الحكم وهو لا يظهر الا لو قدر جواب الشرط فاعرض عنهم ولا تقاتلهم مع ان اكثر المفسرين قدروه بقولهم
فلا عتب عليك ولا مواخذة في عدم ايمانهم لانك بلغت ما امرت بتبليغه وهدايتهم من الله لا اليك
وهذا لا ينافي ان يكون مامورا بقتالهم يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ التي عدد ها في هذه السورة ويعترفون
بانها من عند الله سبحانه ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا بما يقع عنهم من افعالهم القبيحة من عبادة غير الله
وباقوالهم الباطلة حيث يقولون هي من الله ولكنها بشفاعة الاصنام وحيث يقولون انهم ورثوا
تلك النعم من آبائهم وايضا كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه في وجوه الخير التي
امرهم الله بصرفها فيها وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم ثم ينكرون نبوته
وقيل هي الاسلام وجيء بثم للدلالة على ان انكارهم امر مستبعد بعد حصول المعرفة لان من عرف
النعمة حقه ان يعترف لا ان ينكر وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ بالله والجاحدون لنعم الله وعبر هنا بالاكثر
عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجميع واليه اشار في التقرير او اراد بالاكثر العقلاء دون
الاطفال ونحوهم او اراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك بل كان كفر بعضهم كفر جهل وكفر بعضهم بسبب
تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى وجحدوا
بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ولما بين سبحانه من حال هؤلاء انهم
عرفوا نعمة الله ثم انكروها وان اكثرهم كافرون اتبعه باصناف وعيد يوم القيامة فقال وَيَوْمَ نَبْعَثُ
اي نحيي ونخرج مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا والمعنى يوم نبعث من كل امة شهيدا وشهيد كل امة نبيها يشهد

بالايمان والتصديق وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب قال ابن عباس شهيدها نبيها على انه قد بلغ
رسالات ربه قال الله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كان اذا
قرأ هذه الاية فاضت عيناه وذلك اليوم هو يوم القيامة ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا في الاعتذار
اذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه ولا يؤذن لهم فيعتذرون او في كثرة الكلام اصلا او في
الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف او في حالة شهادة الشهود بل يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد
الشهود ولا يؤذن لهم في معارضة الشهود بالقاء معذرة او ادلاء بحجة بل يشهدون عليهم ويقرونهم
على ذلك وايراد ثم ههنا للدلالة على ان ابتلائهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلي اشد من ابتلائهم
بشهادة الانبياء وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ اي لا يطلب منهم العتبى اي الرجوع الى ما يرضى الله من العبادات
لان العتاب انما يطلب لاجل العود الى الرضاء فاذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب والمعنى انهم
لا يسترضون اي لا يكلفون ان يرضوا ربهم لان الاخرة ليست بدار عمل ولا تكليف ولا يتركون الى رجوع
الدنيا فيتوبون واصل الكلمة من العتب وهو الموجدة يقال عتب عليه يعتب اذا وجد عليه وبابه ضرب
ونصر فاذا فاض عليه ما عتب فيه عليه قيل عاتبه فاذا رجع الى مسرته قيل اعتبه والاسم العتبى
وهو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العاتب قاله الهروي فالاستعتاب التعرض لطلب الرضاء
وهذا باب منسد على الكفار في الاخرة وفي الخطيب اي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون
يقال استعتبت فلانا اي ازلت عتباه واستفعل بمعنى افعل غير مستنكر قال الخليل العتاب مخاطبة
الادلال ومذاكرة الموجدة وعاتبه معاتبة وعتابا واعتبه سره بعد ما ساء واستعتب واعتب بمعنى واستعتب
ايضا طلب ان يعتب اي استرضاه فارضاه وَإِذَا رَأَى اي ابصر الَّذِينَ ظَلَمُوا اي اشركوا وكفروا الْعَذَابَ
الذي يستحقونه بشركهم وهو عذاب جهنم فَلَا يُخَفَّفُ ذلك العذاب عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ اي لا يمهلون
ولا يؤخرون ليتوبوا اذ لا توبة هنالك وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا يوم القيامة شُرَكَاءَهُمْ مفعول به والاضافة
لادنى ملابسة باعتبار ادعائهم شركتها لله اي اصنامهم واوثانهم التي عبدوها في الدنيا لما تقرر من انهم
يبعثون مع المشركين يقال لهم من كان يعبد شيئا فليتبعه كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم قَالُوا
رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو اي نعبد هم ونتخذ هم الهة مِنْ دُونِكَ ونطيعهم ولعلهم
قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم قال ابو مسلم الاصفهاني مقصود المشركين

بهذا القول احالة الذنب على بان الاصنام تعلل الايتلات واسار وبجامع كونهم يعلمون ان العذاب
واقع بهم لامحالة ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه فالقوا اليهم اي القى اولئك الشركاء من الاصنام
والاوثان والشياطين ونحوهم الى المشركين والكفار القول وعن مجاهد قال حدثوهم وقالوا لهم انكم
ايها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من احالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول اوفي
تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا بل عبدتم اهواءكم فان قيل ان للمشركين اشاروا الى الاصنام
ونحوها ان هؤلاء شركاؤنا وقد كانوا صادقين في ذلك فكيف كذبتهم الاصنام ونحوها فالجواب بان
مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا هؤلاء شركاء الله في المعبودية فكذبتهم الاصنام في دعوى هذه الشركة والاصنام
والاوثان ان كانت لاتقدر على النطق فان الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم وهذا
كما قالت الملائكة بل كانوا يعبدون الجن يعنون ان الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم قال الكرخي
ان المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها والمنفي عنهم في الكهف النطق بالاجابة
الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافي والقوا الى الله يومئذ السلم اي القى المشركون يوم القيامة
الاستسلام والانقياد لعذاب الله والخضوع لعزته وبه قال ابن جريج وعن قتادة نحوه وقيل المعنى
استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه
وضل عنهم ما كانوا يفترون اي ضاع وبطل وزال ما افتروا من ان لله سبحانه شركاء وما كانوا
يزعمون من شفاعتهم لهم وان عبادتهم لهم تقربهم الى الله سبحانه الذين كفروا في انفسهم وصدوا
غيرهم عن سبيل الله اي عن طريق الحق وهي طريق الاسلام والايمان بان منعوهم من سلوكها وحملوهم
على الكفر وقيل المراد به الصد عن المسجد الحرام والعموم اولى زدناهم عذابا لاجل الاضلال لغيرهم فوق
العذاب الذي استحقوه لاجل ضلالهم وقيل المعنى زدنا القادة عذابا فوق عذاب اتباعهم اي اشد منه وقيل
ان هذه الزيادة هي اخراجهم من حر النار الى برد الزمهرير وغير ذلك وعن ابن مسعود قال زيدوا عقارب
لها انياب كالنخل الطوال ينهشونهم في جهنم وروي مثله عن البراء مرفوعا اخرجه الخطيب وغيره وقال
سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب امثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها المها
اربعين خريفا وعن ابن عباس قال خمسة انهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل و
ببعضها بالنهار وقد روى ابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الزيادة خمسة انهار تجري

من تحت العرش على رؤس اهل النار ثلاثة انهار على مقدار الليل وثلاثة انهار على مقدار النهار فذلك قوله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون بصدهم الناس عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر ويوم نبعث في كل امة شهيدا اي نبيا يشهد عليهم من انفسهم اي من جنسهم اتماما للحجة وقطعا للمعذرة وهو اعدل شاهد عليها وهذا تكرير لما سبق لقصد التاكيد والتهديد وقال الخطيب كرر سبحانه التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما افهمته الاية السابقة وهو ان الشهادة تقع على الامم لا لهم ونكون بحضرتهم وجئنا بك يا محمد شهيدا تشهد على هؤلاء اي على هذه الامم وتشهد لهم وقيل على امتك وقومك هكذا قال الجلال وسنده قوله سابقا ويوم نبعث من كل امة شهيدا الخ ومثله في البيضاوي وفي الشهاب عليه وقيل الاية مسوقة لشهادته على الانبياء فتخلو من التكرار ورد بان المراد بشهادته على امته تزكيته وتعديله لهم وقد شهدوا على تبليغ الانبياء وهذا لم يعلم مما مر وهو الوارد في الحديث وقد تقدم مثل هذا في البقرة والنساء ونزلنا عليك في الدنيا الكتاب اي القران والجملة مستانفة تبيانا لكل شيء اي بيانا له والتاء للمبالغة فالتبيان اخص من مطلق البيان على قاعدة ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ونظيره من المصادر التلقاء ولم يات غيرهما في الاسماء كثير نحو التمساح والتمثال ومثل هذه الاية قوله سبحانه ما فرطنا في الكتاب من شيء ومعنى كونه تبيانا لكل شيء ان فيه البيان البليغ لكثير من الاحكام والاحالة فيما بقي منها على السنة وامرهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما ياتي به من الاحكام وطاعته كما في الايات القرانية الدالة على ذلك وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اني اوتيت القران ومثله معه وعن ابن مسعود قال تبيانا لكل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القران وعنه قال من اراد العلم فليثور القران فان فيه علم الاولين والاخرين قال الكرخي اما بتبيينه في نفس الكتاب او باحالته على السنة لقوله تعالى وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا او باحالته على الاجماع كما قال تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين الاية او على القياس كما قال فاعتبروا يا اولي الابصار والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه اربعة طرق لا يخرج شيء من احكام الشرع عنها وكلها مذكورة في القران فكان تبيانا لكل شيء فاندفع ما قيل كيف قال الله ذلك ونحن نجد كثيرا من احكام الشريعة لم يعلم من القران نصا كعدد ركعات الصلوة ومدة المسح والحيض ومقدار حد الشرب ونصاب السرقة وغير ذلك ومن ثم اختلفت الامة في كثير من الاحكام انتهى وفي هذا التقرير بحث ونظر ذكرناه في محله فليراجع

وقد احتج بهذه الآية جمع من اهل العلم على منع التقليد وَهُدًى للعباد من الضلالة وَرَحْمَةً لهم
وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ خاصة دون غيرهم او يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم لانهم المنتفعون
بذلك ثم لما ذكر سبحانه ان فى القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لاصول التكليف كلها تصديقا لذلك
فقال إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ اي فيما نزله تبيانا لكل شيء وهدى وبشرى بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وايثار صيغة الاستقبال
فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار وقد اختلف اهل العلم في تفسير العدل والاحسان فقيل العدل
شهادة ان لا اله الا الله والاحسان اداء الفرائض وقيل العدل الفرض والاحسان النافلة وقيل العدل
استواء العلانية والسريرة والاحسان ان تكون السريرة افضل من العلانية وقيل العدل التوحيد
والاحسان التفضل وقيل العدل خلع الانداد والاحسان ان تعبد الله كانك تراه وقيل العدل التوحيد
والاحسان الاخلاص وقيل العدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا يفعل الا ما هو عدل ولا يقول الا ما هو
حسن وقيل غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره والعدل هو المساواة في كل شيء من غير شطط ولا وكس والاولى
تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الافراط والتفريط فمعنى امره سبحانه بالعدل ان تكون عباده
في الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة الى جانب الافراط وهو الغلو المذموم في الدين ولا الى جانب التفريط
وهو الاخلال بشيء مما هو من امر الدين كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك والقول بالكسب
المتوسط بين محض الجبر والقدر وعملا كالتعبد باداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب وخلقا
كالجود المتوسط بين البخل والتبذير واما الاحسان فمعناه اللغوي يرشد الى انه التفضل بما لم
يجب كصدقة التطوع ومن الاحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات
وغيرها ولم يذكر متعلقات العدل والاحسان والبغي ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به واليه
وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه فسر الاحسان بان يعبد الله العبد حتى كانه يراه فقال في
حديث ابن عمر في الصحيحين والاحسان ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وهذا هو
المعنى الاحسان شرعا وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ما تدعو اليه حاجتهم وفى الآية ارشاد الى صلة الاقارب والارحام
وترغيب فى التصدق عليهم وهو من باب عطف الخاص على العام ان كان اعطاء الاقارب قد
دخل تحت العدل والاحسان وقيل من باب عطف المندوب على الواجب ومثل هذه الآية قوله وآت ذا
القربى حقه وانما خص ذوي القربى لان حقهم آكد فان الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه الشريف

وجعل صلتها من صلته وقطيعتها من قطيعته فيستحب أن يصلهم من فضل ما رزقه الله فان لم يكن له فضل فدعاء حسن وتودد وينهى عن الفحشاء هي الخصلة المتزائدة في القبح من قول وفعل وقيل هي الزنا وقيل البخل والمنكر وهو ما انكره الشرع بالنهي عنه وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف انواعها وقيل هو الشرك والبغي قيل هو الكبر وقيل هو الظلم وقيل الحقد وقيل التعدي وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع اقسامه تحت المنكر وانما خص بالذكر اهتماما به لشدة ضرره ووبال عاقبته وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه انما بغيكم على انفسكم وهذه الآية من الآيات الدالة على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعن عبد الملك بن عمير ان هذه الآية لما بلغت اكثم بن صيفي حكيم العرب قال اني اراه يامر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها ثم قال لقومه كونوا في هذا الامر رؤساء ولا تكونوا فيه اذنابا وكونوا فيه اولا ولا تكونوا فيه اخرا وعن ابن عباس قال اعظم اية في كتاب الله الله لا اله الا هو الحي القيوم واجمع اية في كتاب الله للخير والشر التي في النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان واكثر اية في كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب واشد اية في كتاب الله رجاء يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له يا ابن اخي اعد علي فاعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وما هو بقول البشر وعن الحسن انه قرأ هذه الآية الى اخرها ثم قال ان الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في اية واحدة فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئا الا جمعه وامر به ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئا الا جمعه وزجر عنه وفي المستدرك عن ابن مسعود وهذه اجمع اية في القرآن للخير والشر قال البيضاوي وبسببها اسلم عثمان بن مظعون ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه انه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة ولعل ايرادها عقب قوله ونزلنا عليك الكتاب للتنبيه عليه

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله يَعِظُكُمْ بما ذكره في هذه الآية مما امركم به ونهاكم عنه لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ اي ارادة ان تتذكروا ما ينبغي تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به فانه كاف في باب الوعظ والتذكير

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ثم خص الله سبحانه الايفاء من جملة المامورات التي تضمنها قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وظاهره العموم في كل عهد يقع من الانسان من غير فرق بين عهد البيعة

وحده، وخص هذا الوفاء المذكور في الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم
على الإسلام، وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسمه سبحانه من شموله لجميع عهود الله
ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب، وفسره بعضهم باليمين، وهو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيث قال سبحانه
ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها أي بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها بزيادة الأسماء والصفات
وقيل إن تأكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مرارا، وحكى القرطبي عن ابن عمر أن التوكيد هو أن
يحلف مرتين فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالأيمان المؤكدة
لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق
الإثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها، يقال وكد وأكد توكيدا وتأكيدا، وهما لغتان، وقال الزجاج الأصل
الواو والهمزة بدل منها، وقيل ليست الهمزة بدلا من الواو كما زعمه أبو إسحاق لأن الاستعمالين في المادتين
متساويان، فليس ادعاء كون أحدهما أصلا أولى من الآخر، وتبع مكي الزجاج في ذلك، ثم قال ولا يحسن
أن يقال الواو بدل من الهمزة، ولذلك تبعه الزمخشري أيضا، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث
الصحيحة من قوله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر
عن يمينه حتى بالغ في ذلك صلى الله عليه وسلم فقال والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا
أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني، وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما، ويخص أيضا من
هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ويمكن أن لا يكون التقييد بالتوكيد
هنا لإخراج أيمان اللغو، وقد تقدم بسط الكلام على الأيمان في البقرة وقد جعلتم الله عليكم كفيلا
أي شهيدا، إما على التشبيه فهو استعارة، أو باستعماله في لازم معناه فهو مجاز مرسل، والعبارة محتملة
لهما، وقيل حافظا، وقيل ضامنا، وقيل رقيبا، لأن الكفيل يراعي حال المكفول له إن الله يعلم ما تفعلون
من وفاء العهد ونقضه فيجازيكم بحسب ذلك إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وفيه ترغيب وترهيب، ثم أكد
وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال ولا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها
أي ما غزلته من بعد قوة أي إبرام الغزل وإحكامه، عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع
الشعر والليف فنزلت فيها هذه الآية، وعن أبي بكر بن حفص مثله، وفي الروايتين جميعا أنها كانت مجنونة

وعن السدي في سبب نزولها قال كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكية كانت تغزل فاذا ابرمت غزلها
نقضته وعن عبد الله بن كثير معناه وقيل هي امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تيم قرشية
فالمشبه به معين على هذا وفي الكرخي المراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعيين لان
القصد بالامثال صرف المكلف عن الفعل اذا كان قبيحا والدعاء اليه اذا كان حسنا ويحصل ذلك بدون
التعيين اذ لا يلزم في التشبيه ان يكون المشبه به موجودا في الخارج انكاثا جمع نكث بكسر النون ما
ينكث فتله ليغزل بمعنى منكوث اي منقوض يقال نكث الرجل العهد نكثا من باب قتل نقضه ونبذه
فانتكث قال ابن قتيبة هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير واوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الايمان
فانكم ان فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا واحكمته ثم جعلته انكاثا اي اقطاعا واجزاء تتخذون
ايمانكم دخلا بينكم قال الجوهري الدخل المكر والخديعة وقال ابو عبيدة كل امر لم يكن صحيحا فهو دخل
وقيل الدخل ما ادخل في الشيء على فساده وقال الزجاج غشا وغلا وقيل اصل الدخل العيب والدخل
من الشيء الذي يدخل فيه ان تكون امة اي بان تكون جماعة اولاجل ان تكون امة هي اربى من
امة جماعة اي اكثر عددا منها واوفر مالا يقال ربا الشيء يربو اذا كثر قال الفراء المعنى لا تغدروا بقوم
لقلتهم وكثرتكم او لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالايمان قيل وقد كانت قريش اذا رأوا شوكة في
اعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا اعداءهم قاله مجاهد وقيل هو تحذير للمؤمنين ان يغتروا
بكثرة القريش وسعة اموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم انما يبلوكم الله به اي يختبركم بكونكم
اكثر واوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء ام تنقضون اغترارا بالكثرة فالضمير في به راجع الى مضمون
الجملة المتقدمة اي انما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون او انما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم
وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ويبين الباطل
والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه او يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة
والنار وفي هذا انذار وتحذير من مخالفة الحق والركون الى الباطل ثم بين سبحانه انه قادر على ان يجمع
المؤمنين والكافرين على الوفاء او على الايمان فقال ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة متفقة على
الحق ولكن بحكم الالهية يضل من يشاء بخذلانه اياهم عدلا منه فيهم ويهدي من يشاء بتوفيقه
اياهم فضلا منه عليهم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولهذا قال ولتسألن يوم القيامة سؤال تبكيت

لا سوالی استفسار ونفهم وهو المنفي في غير هذه الآية عما كنتم تعملون من الاعمال فى الدنيا لتجازوا عليها واللام في ليبين وفي لتسألن هي الموطئة للقسم ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الايمان نهاهم عن نقض ايمان مخصوصة فقال ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم قال الشهاب وغيره ولما كان اتخاذ الايمان دخلا قيد للنهي عنه كان منهيا عنه ضمنا فصرح به هنا تاكيدا ومبالغة في قبح المنهي عنه قال في الجمل وعلى هذا فهو تاسيس لا تاكيد ولا تكرير قال ابو حيان لم يتكرر النهي وانما الذي سبق اخبار بانهم اتخذوا ايمانهم دخلا معللا بشئ خاص هو ان تكون امة هي اربى من امة وجاء النهي بقوله هذا استيناء فالنهي عن اتخاذ الايمان دخلا على العموم اي في كل حال فيشمل جميع الصور من الخديعة في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك قال الواحدي قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد على الاسلام ونصرة الدين واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله فتزل قدم بعد ثبوتها من المبالغة وبما في قوله وتذوقوا السوء بما صددتم لانهم اذا نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صدوا غيرهم عن الدخول في الاسلام وعلى تسليم ان هذه الايمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سبب نزول هذه الآية فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتزل قدم اي قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها قيل وافراد القدم وتنكيرها للايذان بان زلل قدم واحدة اية قدم كانت عزت او هانت محذور عظيم فكيف باقدام كثيرة وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم وسقط فيه لان القدم اذا زلت نقلت الانسان من حال خير الى حال شر ويقال لمن اخطأ في شئ زلت به قدمه وتذوقوا السوء اي العذاب السيئ في الدنيا او في الآخرة او فيهما بما صددتم اي بسبب منعكم وصدودكم عن سبيل الله وهو الاسلام او بسبب صدكم لغيركم عن الاسلام فان من نقض البيعة وارتد اقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ولهذا قال ولكم عذاب عظيم اي متبالغ في العظم وهو عذاب الآخرة ان كان المراد بما قبله عذاب الدنيا ثم نهاهم سبحانه عن الميل الى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لاجله فقال ولا تشتروا بعهد الله الذي تركتموه ثمنا قليلا اي لا تاخذوا في مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا وكل عرض دنيوي وان كان في الصورة كثيرا فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال انما عند الله وفي رسم ان هذه اختلاف بين المصاحف العثمانية

ففي بعضها وصلها بما وفي بعضها فصلها عنها كما ذكره ابن الجزري اي ما عندكم من النصر في الدنيا
والغنائم والرزق الواسع وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
ثم علل النهي عن ان يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا وان ما عند الله هو خير لهم بقوله إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
وتميزون بين الاشياء ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ والنفاد الفناء والذهاب يقال نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفادا ونفودا واما نفذ
بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح ينفذ بالضم ويقال انفد القوم اذا فني زادهم وباق بثبوت الياء وحذفها
مع سكون القاف وهما سبعيتان ومعلوم لكل عاقل ان ما ينفد ويزول وان بلغ في الكثرة الى اي مبلغ
فهو حقير يسير وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل اما نعيم الآخرة فظاهر واما نعيم الدنيا الذي
انعم الله به على المؤمنين فهو وان كان زائلا لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية
في حكم الباقي الذي لا ينقطع ثم قال وَلَنَجْزِيَنَّ بالنون ففيه التفات وقرئ بالياء واللام هي الموطئة
للقسم اي والله لنجزين الَّذِينَ صَبَرُوا بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف والفاقة وجهاد الكافرين
والصبر على ما ينالهم منهم من الاذى أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الطاعات قيل وانما
خص احسن اعمالهم لان ما عداه وهو الحسن مباح والجزاء انما يكون على الطاعة وقيل المعنى
ولنجزينهم بجزاء اشرف واوفر من اعمالهم كقوله من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وقيل احسن
هنا ليس للتفضيل بل بمعنى الحسن او لنجزينهم بحسب احسن افراد اعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة
الفرد الادنى من اعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الاعلى منها من الجزاء الجزيل لا انا نعطي
الأجر بحسب افرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بان نجزي الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن
بالاحسن كذا قيل وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من
بعض جزع ونظمه في سلك الصبر الجميل مَنْ عَمِلَ صَالِحًا هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح
وتعميم للوعد والمعنى من عمل عملا صالحا اي عمل كان مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ زيادة التمييز بذكر وانثى مع كون لفظ
من شاملا لهما القصد التاكيد والمبالغة في تقرير الوعد وقيل ان لفظ من ظاهر في الذكور فكان في
التنصيص على الذكر والانثى بيان لشموله للنوعين وَهُوَ مُؤْمِنٌ جعل سبحانه الايمان قيدا في الجزاء
المذكور لان عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ثم ذكر

سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وقد وقع الخلاف في الحياة
الطيبة بماذا تكون فقيل بالرزق الحلال في هذه الحيوة الدنيا وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن
ما كان يعمل روي ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك وقيل بالقناعة قاله
الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه وروي أيضا عن علي وابن عباس قال وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف على كل غائبة لي بخير
وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد أفلح من أسلم ورزق
كفافا وقنعه الله بما آتاه وأخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقيل بالكسب الطيب والعمل
الصالح قاله ابن عباس وقيل بالتوفيق إلى الطاعة قاله الضحاك وقيل هي حيوة الجنة روي هذا عن
مجاهد وقتادة وغيرهما وحكي عن الحسن أنه قال لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة وقيل الحيوة الطيبة
هي السعادة روي ذلك عن ابن عباس وقيل هي المعرفة بالله حكي ذلك عن جعفر الصادق رضي الله
تعالى عنه وقال أبو بكر الوراق هي حلاوة الطاعة وقال مقاتل هي العيش في الطاعة وقيل رزق يوم
بيوم وقال السدي إنما هي تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال سهل
بن عبد الله التستري هي أن ينزع عن العبد تدبير نفسه ويرد تدبيره إلى الحق وقيل هي الاستغناء
عن الخلق والافتقار إلى الحق وأكثر المفسرين على أن الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة لأن حيوة الآخرة
قد ذكرت بقوله وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وقد قدمنا قريبا تفسير الجزاء بالأحسن
ووحد الضمير في لنحيينه وجمعه في لنجزينهم حملا على لفظ من وعلى معناه ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح و
الجزاء عليه اتبعه بذكر الاستعاذة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال فَإِذَا
قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح وقيل هذه الآية متصلة بقوله
ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء والتقدير فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله قال الزجاج
وغيره من أئمة اللغة معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وهذا على مذهب الأكثرين من الفقهاء
والمحدثين من أن الاستعاذة تطلب قبل القراءة وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن ومثله إذا
أكلت فقل بسم الله وقال الواحدي وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة إلا ما روي عن أبي هريرة

وابن سيرين ـــــ ومالك وحمزة من القراء فانهم قالوا الاستعاذة بعد القراءة ذهبوا الى ظاهر الاية واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وداؤد الظاهري ومذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار انها قبل القراءة كما تقدم ومعنى فاستعذ بالله اسأله سبحانه ان يعيذك مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ اي من وساوسه لئلا يوسوسك في القراءة وفيه دليل على ان المصلي يستعيذ في كل ركعة لان الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياسا و تعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه ايذان بان الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل وتخصيص قراءة القران من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على انها لسائر الاعمال الصالحة عند ارادتها اهم لانه اذا وقع الامر بها عند قراءة القران الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند ارادة غيره اولى كذا قيل وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للاشعار بان غيره اولى منه بفعل الاستعاذة لانه صلى الله عليه وسلم اذا امر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته فكيف بسائر امته قال السيوطي في الاية اي قل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتهى وهذا بيان للافضل والا فاصل السنة يحصل باي صيغة كانت من صيغ الاستعاذة وقد ذهب الجمهور الى ان الامر في الاية للندب وروي عن عطاء الوجوب اخذا بظاهر الامر والضمير في إِنَّهُ للشان او للشيطان لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ اي تسلط تعليل لمحذوف هو جواب الامر تقديره فان استعذت كفيت شره عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وحكى الواحدي عن جميع المفسرين انهم فسروا السلطان بالحجة وقالوا المعنى ليس له حجة على المؤمنين في اغوائهم ودعائهم الى الضلالة وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ اي يفوضون امورهم اليه في كل قول وفعل فان الايمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم وان وسوس لاحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته وهؤلاء الجامعون بين الايمان والتوكل هم الذين قال فيهم ابليس الا عبادك منهم المخلصين وقال الله فيهم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان فقال إِنَّمَا سُلْطَانُهُ اي تسلطه عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ اي يتخذونه وليا ويطيعونه في وساوسه يقال توليته اذا اطعته وتوليت عنه اذا اعرضت عنه وهذا مقابل لقوله وعلى ربهم يتوكلون وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ اي بالله والباء للتعدية مُشْرِكُونَ وقيل الضمير يرجع الى الشيطان والباء للسببية اي والذين هم من اجله وبسبب وسوسته مشركون بالله وهذا مقابل لقوله على الذين امنوا واذا

بدلنا آية مكان آية هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبهة كفرية ودفعها ومعنى التبديل رفع
الشيء مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها قال مجاهد
هو كقوله ما ننسخ من آية او ننسها الخ وقد تقدم الكلام على النسخ في البقرة والله أعلم بما ينزل اعتراض
دخل في الكلام اي انه اعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو اصلح لخلقه وبما يغير وما يبدل من احكامه
هذا شروع توبيخ وتقريع للكفار وقيل الجملة حالية وليس بظاهر وجواب قوله قالوا اي كفار قريش الجاهلون
الحكمة في النسخ إنما أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم مفتر اي كاذب مختلق على الله فتقول عليه بما لم يقل حيث
تزعم انه امرك بشيء ثم تزعم انه امرك بخلافه فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال بل أكثرهم
لا يعلمون شيئا من العلم اصلا او لا يعلمون حقيقة القرآن وهو انه اللفظ المنزل من عند الله على محمد
صلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته او لا يعلمون بالحكمة في النسخ فانه مبني على المصالح التي لا
يعلمها الا الله سبحانه فقد تكون في شرع هذا الشيء مصلحة موقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت
في شرع غيره وفيه التخفيف على العباد ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا ان ذلك وجه الصواب
ومنهج العدل والرفق واللطف ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين ان ذلك لم يكن من
عند الله وان رسوله صلى الله عليه وسلم افتراه فقال قل نزله اي القرآن المدلول عليه بذكر الآية روح
القدس بضم الدال وسكونها سبعيتان والقدس التطهير والطهارة والمعنى نزله الروح المطهر من ادناس
البشرية وهو جبريل عليه السلام فهو من اضافة الموصوف الى الصفة كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير
من ربك اي ابتداء تنزيله من عنده سبحانه بالحق اي متلبسا بكونه حقا ثابتا لحكمة بالغة
ليثبت الذين آمنوا على الايمان فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ولانهم ايضا اذا عرفوا
ما في النسخ من المصالح ثبتت اقدامهم على الايمان ورسخت عقائدهم وقرئ من الاثبات وهدى وبشرى
للمسلمين اي تثبيتا لهم وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصائل لغيرهم ثم ذكر
سبحانه شبهة اخرى من شبههم فقال ولقد نعلم علما مستمرا أنهم يقولون إنما يعلمه بشر وليس
هو من عند الله كما يزعم واللام هي الموطئة اي والله لقد نعلم ان هؤلاء الكفار يقولون انما يعلم محمدا القرآن
بشر من بني آدم غير ملك وقد اختلف اهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا
فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا حدادا روميا فاسلم وكان قريش اذا سمعوا

من النبي صلى الله عليه وسلم اخبار القرون الاولى مع كونه اميا قالوا انما يعلمه جبر وقيل اسمه عايش او يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الاعجمية وقيل غلام لبني عامر بن لوي وقيل عنوا سلمان الفارسي وقيل عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة وقيل عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه ابا ميسرة يتكلم بالرومية وفي رواية اسمه عداس وقيل ارادوا بالبشر غلامين اسم احدهما يسار واسم الآخر جبر وكانا صيقليين يعملان السيوف بمكة وكانا يقرآن كتابا لهم وقيل كانا يقرآن التوراة والانجيل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فقال المشركون انما يتعلم منهما قاله عبد الله بن مسلم الحضرمي قال النحاس وهذه الاقوال غير متناقضة لانه يجوز انهم زعموا انهم جميعا يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال انه سلمان لان هذه الآية مكية وهو انما اتى الى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ثم اجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ اي لغته وكلامه أَعْجَمِيٌّ والالحاد الميل يقال لحد والحد اي مال عن القصد ومنه لحد القبر لانه حفرة مائلة عن وسطه وقد تقدم في الاعراف والمعنى لسان الذي يميلون اليه ويشيرون ويزعمون انه يعلمك اعجمي يقال رجل اعجم وامرأة عجماء اي لا يفصحان والعجمة الاخفاء وهي ضد البيان والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها اعجميا قال الفراء الراغب الاعجم الذي في لسانه عجمة وان كان من العرب والاعجمي هو الذي اصله من العجم وقال ابو علي الفارسي العجمي المنسوب الى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب او من العجم وكذلك الاعجم والاعجمي المنسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابي الذي يسكن البادية والعربي الذي يسكن الامصار من بلاد العرب وَهَذَا اي القرآن لِسَانٌ اي كلام عَرَبِيٌّ مُبِينٌ وسماه لسانا لان العرب تقول للقصيدة والبيت لسانا او اراد باللسان البلاغة فكأنه قال وهذا قرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون ان بشرا يعلمه من العجم واين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون اليه وقد عجزتم انتم عن معارضة سورة منه وانتم اهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة فثبت بهذا ان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي اوحاه الله اليه وليس هو من تعليم البشر الذي تشيرون اليه ولا هو اتى به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لابطال طعنهم ودفع كذبهم ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهددهم فقال إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ اي لا يصدقون بها في علم الله لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ الى الحق الذي هو سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب

ما علموه من سفه وتمرد وعنادهم في الآخرة عذاب أليم بسبب ما هم عليه من الكفر وتكذيب بآيات
الله وما يرمونه به من نسبة الافتراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رد عليهم بقوله إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون
بآيات الله فكيف يقع الافتراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رأس المؤمنين بها والداعي الى الإيمان بها وهؤلاء
الكفار هم الذين لا يؤمنون بها فهم المفترون للكذب قال الزجاج المعنى إنما يفتري الكذب الذين إذا رأوا الآيات
التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها وهؤلاء أكذب الكذبة ثم سجل عليهم بالكذب فقال وأولئك المتصفون
بذلك هم الكاذبون أي إن الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم فهم الكاملون في الكذب إذ لا
كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله وقولهم إنما يعلمه بشر والتأكيد بالتكرار وإن وغيرهما رد لقولهم
إنما أنت مفتر من كفر بالله من بعد إيمانه أي تلفظ وتكلم بالكفر أو فعل فعل كفر سواء كان مختارًا
في ذلك أو مكرهًا عليه فالاستثناء في قوله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان متصل وقال القرطبي
أجمع المفسرون وأهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر
وقلبه مطمئن بالإيمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر وحكي عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر
الكفر كان مرتدًا في الظاهر وفيما بينه وبين الله على الإسلام وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث
أباه إن مات مسلمًا وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة وذهب الحسن البصري و
الأوزاعي والشافعي وسحنون إلى أن هذه الرخصة إنما جاءت في القول وأما في الفعل فلا رخصة مثل أن
يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم
والمعنى إلا من كفر بإكراه والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم
وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه تفرقوا
عني فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب أول الليل فإذا سمعتم بي قد
استقرت بي الأرض فالحقوا بي فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت فأخذهم
المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعًا من حديد في الشمس ثم
يلبسونها إياه فإذا ألبسوها إياه قال أحد أحد وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك وأما عمار فقال لهم كلمة
أعجبتهم تقية وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدها فأدخل الحربة في قبلها حتى قتلها
ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بأمرهم واشتد على عمار الذي كان تكلم به

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان قلبك حين قلت أكان منشرحا بالذي قلت أم لا فأنزل الله إلا
من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان وقيل نزلت في أناس من أهل مكة وقيل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي
أكرهه سيده على الكفر والأول أولى والحق أن الآية عامة في كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان
وإن كان السبب خاصا وفيه دليل على أن محل الإيمان هو القلب ولكن الاستدراك واضح لأن قوله إلا من
أكره قد يسبق الوهم إلى الاستثناء مطلقا فاستدرك هذا وقوله مطمئن لا ينفي ذلك الوهم ومن موصولة أو
شرطية والأول أولى شرح بالكفر صدرا أي اختاره ورضي به وطابت به نفسه فعليهم فيه مراعاة
معنى من ولو راعى لفظها لأفرد وقال فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم في الآخرة
عن ابن عباس قال أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير
فتركوه فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال ما وراءك قال شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال كيف
تجد قلبك قال مطمئنا بالإيمان قال إن عادوا فعد فنزلت إلا من أكره الخ قال فذلك عمار بن ياسر ولكن
من شرح بالكفر صدرا عبد الله بن أبي سرح أخرجه البيهقي والحاكم وصححه وفي الباب روايات مصرحة
بأنها نزلت فيه وعن محمد بن سيرين قال نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة وعن ابن عباس قال
هو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به النبي
صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم فتح مكة فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم وعن الحسن
وعكرمة مثله وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه وعيد
ذلك أي الكفر بعد الإيمان أو الوعيد بالغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحيوة الدنيا أي ذلك بسبب
تأثيرهم للحيوة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية الدائمة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين في علمه
إلى الإيمان به ولا يعصمهم من الزيغ ثم وصفهم بقوله أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة
الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ولا أبصروا الآيات التي
يستدل بها على الحق وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة
فقال وأولئك هم الغافلون عما يراد بهم من العذاب في الآخرة وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة
إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه لا جرم قد تقدم تحقيق الكلام في معناها أي حقا أنهم في الآخرة هم
الخاسرون أي الكاملون في الخسران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم

والموجب لخسرانهم انه وصفهم بست صفات تقدمت الاولى انهم استوجبوا غضب الله الثانية انهم استحقوا عذابه العظيم الثالثة انهم استحبوا الحيوة الدنيا الرابعة انهم حرموا من الهداية الخامسة انه طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا من دار الكفر الى دار الاسلام وخبره محذوف اي لغفور رحيم وقيل الخبر هو للذين هاجروا اي ان ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم وفيه بعد قال في الكشاف ثم ههنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء يعني الذين نزلت الآية فيهم عن حال اولئك وهم عمار واصحابه ويدل على ذلك ما روي انها نزلت في ابن ابي سرح قال ابن عباس كان قوم من اهل مكة اسلموا وكانوا يستخفون بالاسلام فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا بذلك اليهم ان الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا فادركهم المشركون فقاتلوهم فنجى من نجى وقتل من قتل مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا اي فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر وقرئ فتنوا على البناء للفاعل وهي سبعية ايضا اي للذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الاسلام ثُمَّ جَاهَدُوا في سبيل الله وَصَبَرُوا على ما اصابهم من الكفار وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا اي من بعد الفتنة التي فتنوها او بعد المهاجرة والجهاد والصبر او جميع ذلك لَغَفُورٌ رَحِيمٌ اي كثير الغفران والرحمة لهم ومعنى الآية على قراءة البناء للفاعل واضح ظاهر اي ان ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من اسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا الغفور رحيم واما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور فالمعنى ان هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر اذا صلحت اعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور رحيم بهم واما اذا كان سبب الآية هو عبد الله بن ابي سرح الذي ارتد عن الاسلام ثم رجع بعد ذلك اليه . فالمعنى ان هذا المفتون في دينه بالردة اذا اسلم وجاهد وصبر فالله غفور له رحيم به يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا اي تخاصم وتسعى في خلاصها وقد استشكل اضافة ضمير النفس الى النفس ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف اليه واجيب بان المراد بالنفس الاولى جملة بدن الانسان وبالنفس الثانية الذات فكانه قيل يوم تاتي كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه غيرها بل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء مَا عَمِلَتْ في الدنيا من خير او شر وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ من جزاء اعمالهم بل يوفون ذلك

كاملا من غير زيادة ولا نقصان وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً قد قدمنا ان ضرب مضمن معنى جعل
قد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة او المراد قرية غير معينة قال الزمخشري
بل كل قوم انعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته ونحوه في البيضاوي وقال
القرطبي انه مثل مضروب لاي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز ان تراد قرية مقدرة
على هذه الصفة ويجوز ان تكون في قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا
من مثل عاقبتها وقيل هي المدينة وذهب الاكثرون الى الاول وصرحوا بانها مكة وذلك لما دعى عليهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلوا
بالقحط حتى اكلوا العظام والثاني ارجح لان تنكير قرية يفيد ذلك ومكة تدخل في هذا العموم البدلي
دخولا اوليا وايضا يكون الوعيد ابلغ والمثل اكمل وغير مكة مثلها وعلى فرض ارادتها ففي المثل انذار
لغيرها من مثل عاقبتها وعن ابن عباس قال يعني مكة وعن عطية مثله وزاد فقال الا ترى انه قال
ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه قال الواقدي ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين
والآية عند عامة المفسرين نازلة في اهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة
بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا لقريتكم اي بين الله لها شبها ثم وصف
القرية بانها كَانَتْ آمِنَةً غير خائفة مُطْمَئِنَّةً غير منزعجة اي لا يخاف اهلها ولا ينزعجون وعن ابن
شهاب قال القرية التي كانت آمنة مطمئنة هي يثرب قلت ولا ادري اي دليل على هذا التعيين ولا اي
قرينة قامت له على ذلك ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الانصار بانعم الله واي وقت اذاقها الله لباس
الجوع والخوف وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صح ذلك عن الصادق المصدوق وصح
عنه صلى الله عليه وسلم انه قال والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون يَأْتِيهَا رِزْقُهَا اي ما يرتزق به اهلها رَغَدًا اي واسعا
يقال رغد العيش بالضم رغادة اتسع ولان فهو رغد ورغيد ورغد يرغد رغدا من باب تعب لغة فهو راغد وهو في رغد من
العيش اي رزق واسع وارغد القوم بالالف اخصبوا والرغيد الزبد مِنْ كُلِّ مَكَانٍ من الامكنة التي يجلب ما فيها اليها اي من
نواحيها من البر والبحر فَكَفَرَتْ اي كفر اهلها بِأَنْعُمِ اللَّهِ التي انعم بها عليهم وهي جمع نعمة على ترك
الاعتداد بالتاء كالاشد جمع شدة وقيل جمع نعم مثل بؤس وابؤس ويحتمل انه جمع نعماء بفتح النون والمد
وهي بمعنى النعمة وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله فَأَذَاقَهَا اللَّهُ اي اهلها لِبَاسَ

الجوع والخوف اي اثرهما القحط سبع سنين وسمي ذلك لباسا لانه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة
اللون وسوء الحال ما هو كاللباس فاستعير له اسمه واوقع عليه الاذاقة واصلها الذوق بالفم ثم
استعيرت لمطلق الاتصال مع انبائها بشدة الاصابة بما فيها من اجتماع الادراكين ادراك اللمس والذوق
روي ان ابن الراوندي الزنديق قال لابن الاعرابي امام اللغة والادب هل يذاق اللباس فقال له ابن
الاعرابي لا باس ايها النسناس هب ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان نبيا اما كان عربيا كانه طعن في الاية بان
المناسب ان يقال فكساها الله لباس الجوع او فاذاقها الله طعم الجوع فرد عليه ابن الاعرابي وقد اجاب
علماء البيان ان هذا من تجريد الاستعارة وذلك انه استعار اللباس لما غشي الانسان من بعض
الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له
وهو الجوع والخوف لان اطلاق الذوق على ادراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة
فيقولون ذاق فلان البوس والضر واذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة
قيل وترشيح الاستعارة وان كان مستحسنا من جهة المبالغة الا ان التجريد ترجح من حيث انه روعي
جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحا قال الرازي والحاصل انه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه
المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فاذاقها والتقدير ان الله عرفها لباس
الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة واصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع
موضع التعرف والاختبار قال الشاعر ﴿ ومن يذق الدنيا فاني طعمتها وسيق الينا عذبها وعذابها
او يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة اي فاذاقها الله مساس الجوع بما كانوا يصنعون اي فعلنا بهم
ما فعلنا بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واخراجه من بين اظهرهم ولم يقل صنعت لانه اراد
اهل القرية قال الفراء كل الصفات اجريت على القرية الا قوله يصنعون تنبيها على ان المراد في الحقيقة اهلها
ولقد جاءهم يعني اهل مكة رسول منهم اي من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه فامرهم بما فيه
نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم فكذبوه فيما جاء به فاخذهم العذاب النازل بهم من الله سبحانه
وهم اي والحال انهم في حال اخذهم العذاب ظالمون لانفسهم بايقاعها في العذاب الابدي
ولغيرهم بالاضرار بهم وصدهم عن سبيل الله وهذا الكلام من تمام المثل المضروب وقيل ان المراد بالعذاب
هنا هو الجوع الذي اصابهم وقيل القتل يوم بدر والاول اوفق ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال

اهل القرية المذكورة امرهم بان ياكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها وقال فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللّٰهُ حَلٰلًا طَيِّبًا جاء بالفاء للاشعار بان ذلك متسبب عن ترك الكفر والمعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر
فكلوا الحلال الطيب وهو الغنائم واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم قيل الخطاب للمسلمين وبه قال
جمهور المفسرين وقيل للمشركين من اهل مكة حكاه الواحدي وغيره والاول اولى وقيل ان الفاء في
فكلوا داخلة على الامر بالشكر وانما دخلت على الامر بالاكل لان الاكل ذريعة الى الشكر وَاشْكُرُوا
نِعْمَةَ اللّٰهِ التي انعم بها عليكم واعترفوا بحقها اِنْ كُنْتُمْ اِيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ ولا تعبدون غيره وان صح زعمكم
انكم تقصدون بعبادة الالهة التي زعمتم عبادة الله تعالى اِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ
الْخِنْزِيْرِ وحرم الله مَآ اُهِلَّ اي ما رفع الصوت لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهٖ سواء كان صنما او وثنا او نصبا او روحا خبيثا
من جن او روحا طيبا من انس كالنبي والولي والصالح حيا كان او ميتا فهو حرام وقد ورد في الحديث ملعون
من ذبح لغير الله اي سواء سمى الله عند ذبحه اولم يسم لان ما اشتهر انه لغيره سبحانه وتعالى ورفع الصوت
باسم الفلاني لا ينفع بعد ذلك ذكر اسمه تعالى عند ذبحه لان هذا الحيوان قد انتسب الى ذلك الغير
وحدث فيه من الخبث ما زاد على خبث الميتة فانها لم يذكر عليه اسم الله وهذا الحيوان قد عين روحه
لغير خالقه ثم ذبح له وهو الشرك بعينه وحين سري هذا الخبث واثر فيه لا يحل بحال وان ذكر اسم الله عليه
كما لو ذبح الكلب او الخنزير على اسمه سبحانه وتعالى لا يحل والسر في ذلك ان نذر الروح لغير خالق الروح
لا يجوز وان كان حكم جميع الماكولات والمشروبات والاموال المنذورة للتقرب الى غير الله سبحانه هكذا
فانها شرك وحرام ولكن ثوابها الذي كان يعود الى الناذر جاز جعله للغير كما جاز للانسان ان يعطي ماله
من شاء بخلاف روح الحيوان فانه ليس بمملوك للانسان حتى يعطيه لاحد غير الله وانما وجب الاجر
في انفاق المال لان المال شيء ينتفع به في الحال ولما كان الموتى لا ينتفعون بعين المال جعل طريق ايصال
النفع اليهم ان تجعل الاموال المعطاة باهل الاستحقاق لهم فيصل ثوابها اليهم واما روح الحيوان فلا يصلح
للانتفاع في حيوة الانسان فكيف بعد مماته ومضي الازمان واما الاضحية عن الميت التي ورد بها الحديث
فمعناها ان الاجر الذي كان يثبت في ازهاق الروح لله سبحانه وتعالى يعطي لذلك الميت لا انه يذبح لاجله
ويرفع به الصوت للتقرب اليه وهذه الاية الكريمة جاءت في اربعة مواضع من التنزيل ومعناها
ما رفع به الصوت لغير الله لا ما ذبح باسم غير الله فمن رفع الصوت بحيوان لغيره تعالى ثم ذكر اسم الله

عند ذبحه لا ينفع له هذا الذكر شيئا ولا يأتي بفائدة ولا يعود بعائدة ولا يحل أكله بهذا الذكر عند
الذبح وإنما الإهلال في لغة العرب بمعنى رفع الصوت لا بمعنى الذبح كيف لم يرد به عرف ولا وقع في
شعر قط هذه كتب اللسان العربي ودفاتر اللغات على وجه البسيطة ليس في أحد منها الإهلال بمعنى
الذبح وإنما يقال الإهلال لرؤية الهلال ولبكاء الطفل والتلبية بالحج لا للذبح فليس معنى أهللت صرخت
له في القاموس استهل الصبي رفع صوته بالبكاء كأهل وكذا كل متكلم رفع صوته أو خفض وأهل نظر إلى
الهلال والملبي رفع صوته بالتلبية وقال الجوهري استهل الصبي أي صاح عند الولادة وأهل المعتمر أي
رفع صوته بالتلبية وأهل بالتسمية على الذبيحة وقوله تعالى وما أهل به لغير الله أي نودي عليه
بغير اسم الله وأصله رفع الصوت انتهى ولو سلم أن معناه ذبح لغير الله فأين هذا من معنى ذبح باسم
غير الله حتى تنتهض به الحجة فالقول بأن الإهلال في هذه الآية ونظائرها بمعنى الذبح وغير الله بمعنى
اسم غير الله يقرب بتحريف كلامه سبحانه وتعالى حاشاه عن ذلك وقد حكى النظام النيسابوري في
تفسيره إجماع أهل العلم على أن ذبيحة مسلم التي قصد بذبحها التقرب إلى غير الله ذبيحة مرتد
وقد صار هو مرتدا أيضا وكان الكفار في الجاهلية إذا خرجوا من ديارهم رفعوا الأصوات بأسماء الأصنام
في الطرق والشوارع وإذا وصلوا إلى مكة المكرمة طافوا الكعبة مع أن طوافهم هذا لم يكن يقبل عند الله
ولهذا أنزل قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فكذلك فيما نحن فيه إذا رفع أحد الصوت
بحيوان أنه لفلان أو لأجله أو يذبح له ثم ذكر عليه اسم الله عند الذبح فههنا لا تترتب عليه الحلة
أصلا نعم إن يغير النية ويبدل الأمنية ويزيل قصد التقرب به إلى غير الله ويرفع به الصوت خلاف
ما رفع به أولا ويقول تبت عنه ثم يذبح ويذكر عليه اسم الله تعالى يحل أكله وإذا تقرر لك أن الإهلال
بمعنى رفع الصوت في اللغة لا بمعنى الذبح علمت أن الذي فسره بالذبح قد غلط غلطا بينا أو تجوز ولا يصار
إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة أو تأول رفع الصوت بالذبح بناء على سبب النزول وإنما العبرة بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب وقد فسرنا الإهلال في البقرة والمائدة والأنعام بما فسره جمهور المفسرين وهو تسامح
سبق به القلم وإنما الحق في المقام تفسيره برفع الصوت وإلغاء قيد الذبح ليتناول النظم الكريم كل حيوان
رفع به الصوت لغير الله سبحانه وتعالى سواء ذبح باسم الله أو باسم غيره وعليه تدل اللغة العربية
وهي الأصل المقدم في تفسير كلام الله العزيز على الجميع ما لم يعارضه نص مقدم أو ناقل مرجح أو دليل مساو

والذي فسرنا به الآية هنا قد فسرها به الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي رح في تفسيره وهو الصواب وبالله
التوفيق ثم ذكر الله سبحانه الرخصة في تناول شيء مما ذكر فقال فمن اضطر اي دعته ضرورة المخمصة الى
تناول شيء من ذلك حال كونه غير باغ على مضطر آخر ولا عاد متعد قدر الضرورة وسد الرمق
فإن الله غفور رحيم لا يؤاخذه بذلك وقيل معناه غير باغ على الوالي ولا متعد على الناس بالخروج
لقطع الطريق فعلى هذا لا يباح تناول شيء من المحرمات في سفر المعصية ثم زيف طريقة الكفار في
الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال ولا تقولوا
لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام قال الكسائي والزجاج اي لا تقولوا الكذب لاجل
وصف ألسنتكم ومعناه لا تحللوا ولا تحرموا لاجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة وقيل لا تقولوا
للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه قال مجاهد في البحيرة والسائبة وقيل يعني قولهم ما في بطون
هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي قيل في
الكلام حذف بتقدير القول اي فتقول هذا حلال وهذا حرام او قائلة هذا حلال وهذا حرام وقيل
لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب وقرئ الكذب بضم الثلاثة على انه نعت للالسنة
وقيل معناه ولا تقولوا الكذب الذي تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام عن ابي نضرة قال قرأت هذه الآية
في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا الى يومي هذا قلت صدق رحمه الله فان هذه الآية تتناول بعموم لفظها
فتيا من افتى بخلاف ما في كتاب الله او في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأي
المقدمين له على الرواية او الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وانهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين
فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم فانهم افتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا واضلوا فهم ومن
يستفتيهم كما قال القائل ع كبهيمة عمياء قاد زمامها ۰ اعمى على عوج الطريق الحائر واخرج
الطبراني عن ابن مسعود قال عسى رجل يقول ان الله امر بكذا او نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت او
يقول ان الله حرم كذا او احل كذا فيقول الله له كذبت لتفتروا واللام هي لام العاقبة لا لام الغرض اي
فيتعقب ذلك افتراؤكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم واسناد ذلك اليه من غير ان يكون منه إن
الذين يفترون على الله الكذب اي افتراء كان لا يفلحون بنوع من انواع الفلاح والفوز بالمطلوب
لا في الدنيا ولا في الآخرة بدليل ما بعده متاع قليل قال الزجاج متاعهم متاع قليل وقيل لهم متاع قليل

ولهم عذاب اليم يردون اليه لا الآخرة ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال وعلى الذين هادوا
اي على اليهود خاصة دون غيرهم حرمنا ما قصصنا عليك بقولنا حرمنا عليهم كل ذي ظفر
من البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية من قبل متعلق بقصصنا او بحرمنا قال الحسن يعني في سورة
الانعام وعن قتادة مثله وقال حيث يقول وعلى الذين هادوا الى قوله وانا لصادقون وتحريم الشيء
اما للضرر فيه واما البغي المحرم عليهم فقوله انما حرم عليكم الخ اشارة للقسم الاول وهذا اشارة للقسم الثاني
وما ظلمناهم بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون حيث فعلوا اسباب ذلك
فحرمنا عليهم تلك الاشياء عقوبة لهم ثم بين سبحانه ان الافتراء على الله سبحانه ومخالفة امره لا يمنعهم
من التوبة وحصول المغفرة فقال ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة اي متلبسين بجهالة اي جاهلين
غير عارفين بالله وبعقابه اي غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم وعن السلف كل من
عصى الله فهو جاهل ولا يصدر العمل السوء الا من الجاهل بالعاقبة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح وفيه
بيان سعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وقد تقدم
تفسير هذه الآية في سورة النساء ثم تابوا من بعد ذلك اي من بعد عملهم للسوء وفيه تاكيد فان ثم
قد دلت على البعدية فاكدها بزيادة ذكر البعدية واصلحوا اعمالهم التي كان فيها افساد بالسوء الذي عملوه
ثم كرر ذلك تاكيدا وتقريرا فقال ان ربك من بعدها اي من بعد التوبة لغفور كثير الغفران رحيم
اي واسع الرحمة ولما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وابطال مطاعنهم وكان ابراهيم عليه السلام
من الموحدين وهو قدوة كثير ممن ذكره الله في آخر هذه السورة قال ان ابراهيم كان امة قال ابن الاعرابي
يقال للرجل العالم امة والامة الرجل الجامع للخير قال الواحدي قال اكثر المفسرين معنى الامة المعلم للخير وبه
قال ابن مسعود وعلى هذا فمعنى كون ابراهيم امة انه كان معلما للخير او جامعا لخصال الخير او عالما
بما علمه الله من الشرائع وقيل انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان امة وحده
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله امة وحده لانه كان فارق الجاهلية قاله مجاهد
وقيل لانه قام مقام امة في عبادة الله وقيل بمعنى ماموم اي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال تعالى
اني جاعلك للناس اماما وحكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال ان هذا مثل قول العرب فلان رحمة
وعلامة ونسابة يقصدون بهذا التانيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة

على الجماعة وعلى الواحد كقوله فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمي ابراهيم امة لانه
اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع في امة ليس على الله بمستنكر ان
يجمع العالم في واحد قانتا لله اي مطيعا له قائما باوامره قال ابن مسعود هو الذي يطيع الله ورسوله
وعن ابن عباس قال كان على الاسلام ولم يكن في زمانه من قومه احد على الاسلام غيره فلذلك ما
قال الله كان امة قانتا لله وعن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد تشهد له امة الا
قبل الله شهادتهم والامة الرجل فما فوقه ان الله يقول ان ابراهيم كان امة اخرجه ابن مردويه وقد تقدم
معنى القنوت في البقرة حنيفا الحنيف المائل عن الاديان الباطلة الى دين الحق اي مسلما مقيما على دين الاسلام
وقد تقدم بيانه في الانعام ولم يك من المشركين بالله كما تزعمه كفار قريش انه كان على دينهم
الباطل بل كان من الموحدين المخلصين لله تعالى من صغره الى كبره شاكرا لانعمه التي انعم الله بها عليه
وان كانت قليلة كما يدل عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالاولى اجتباه اي اختاره للنبوة واختصه
بها وهداه الى صراط مستقيم وهو ملة الاسلام ودين الحق وآتيناه في الدنيا حسنة اي خصلة
حسنة او حالة حسنة قيل هي الولد الصالح وقيل الثناء الجميل وقيل النبوة وقيل الصلوة منا عليه في
التشهد وقيل لسان الصدق وقيل قبول العامة في جميع الامم فانه يتولاه جميع اهل الاديان ويثنون
عليه ولا يكفر به احد ورزقه اولادا طيبة وعمرا طويلا في السعة والطاعة ولا مانع ان يكون ما آتاه
الله شاملا لذلك كله ولما عداه من خصال الخير وفيه التفات عن الغيبة ونكتة الالتفات زيادة
الاعتناء بشانه عليه السلام وانه في الآخرة لمن الصالحين اي في اعلى مقاماتهم في الجنة وقيل من بمعنى
مع وهذا حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال والحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين و
اجعلني من ورثة جنة النعيم اللهم اني اسألك ان تجعلني ممن يصدق عليه هذا الدعاء فاني من ذرية خليلك
ابراهيم وما ذلك عليك بعزيز وآتني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقني عذاب النار انك انت
التواب الرحيم وحاصل ما ذكر من الصفات هنا تسعة بل عشرة اذ قوله سبحانه ثم اوحينا اليك يا محمد
مع علو درجتك وسمو منزلتك وكونك سيد ولد آدم يرجع لوصف ابراهيم وتعظيمه بان محمدا امر باتباعه
ان مفسرة او مصدرية اتبع ملة ابراهيم اي دينه واصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي
من انبيائه من امللت الكتاب اذا امليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيق ذلك

ان الوضع الالهي مما ناسب ان من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومما ناسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا
قال الراغب الفرق بينهما ان الملة لا تضاف الا الى النبي ولا تكاد توجد مضافة الى الله ولا الى احاد الامة ولا
تستعمل الا في جملة الشرائع دون احادها والمراد بملته الاسلام الذي عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم قيل
والمراد اتباعه صلى الله عليه وسلم للملة عليه السلام في التوحيد والدعوة اليه وقال ابن جرير في التبري من الاوثان
والتدين بدين الاسلام وقيل في مناسك الحج وقيل في الاصول دون الفروع وقال ابو السعود في الاصول
والعقائد واكثر الفروع دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار انتهى وقيل في جميع شريعته الا ما نسخ وهذا
هو الظاهر وفي الكرخي انما جاز اتباع الافضل المفضول لسبقه الى القول والعمل به قال القرطبي وفي
هذه الآية دليل على جواز اتباع الافضل المفضول فيما يؤدي الى الصواب ولا درك على الفاضل في ذلك
فان النبي صلى الله عليه وسلم افضل الانبياء عليهم السلام وقد امر بالاقتداء بالانبياء مع كونه سيدهم فقال
تعالى فبهداهم اقتده حنيفا حال من ابراهيم وجاز مجيء الحال منه لان الملة كالجزء منه وقد تقرر في
علم النحو ان الحال من المضاف اليه جائز اذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف اليه او كان جزءا او كالجزء
من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الاول اذ يصح ان يقال ان اتبع ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين
تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها اي كرره ردا على زعم المشركين انهم على دينه انما جعل السبت اي
وبال السبت وهو المسخ في زمن داود عليه السلام او فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين
اختلفوا فيه وهم اليهود لا على غيرهم من الامم وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت
فقالت طائفة ان موسى امرهم بيوم الجمعة وعينه لهم واخبرهم بفضيلته على غيره فخالفوه وقالوا
ان السبت افضل فقال الله له دعهم وما اختاروا لانفسهم وقيل بان الله سبحانه امرهم بتعظيم يوم في
الاسبوع فاختلف اجتهادهم فيه فعينت اليهود السبت لان الله سبحانه فرغ فيه من الخلق وعينت
النصارى يوم الاحد لان الله بدأ فيه الخلق فالزم الله كلا منهم ما ادى اليه اجتهاده وعين لهذه الامة الجمعة
من غير ان يكلهم الى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان اليهود كانوا
يزعمون ان السبت من شرائع ابراهيم عليه السلام فاخبر الله سبحانه انه انما جعل السبت على الذين اختلفوا
فيه ولم يجعله على ابراهيم ولا على غيره وانما شرع ذلك لبني اسرائيل بعد مدة طويلة قال الواحدي هذا مما
اشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت ان بعضهم قال هو اعظم الايام حرمة

وقال آخرون الاحد افضل وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فرقتين في السبت وانما اختار الاحد
النصارى بعدهم بزمان طويل وعن مجاهد في الآية قال ارادوا الجمعة فاخذوا السبت مكانها وعن
ابي مالك وسعيد بن جبير في الآية قالا باستحلالهم اياه رأى موسى عليه السلام رجلا يحمل حطبا
يوم السبت فضرب عنقه وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد انهم اوتوا الكتاب من قبلنا واوتيناه من بعدهم ثم هذا
يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا و
النصارى بعد غد واخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ اي بين
المختلفين فيه يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازي فيه كلا بما يستحقه ثوابا وعقابا كما وقع
منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لاخرى ثم امر ابيه سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ان يدعو امته الى الاسلام
فقال اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث الى الناس كافة او المعنى افعل الدعاء والاول
اولى وكان المعنى وخاطب الناس في دعائك لهم وسبيل الله هو الاسلام بِالْحِكْمَةِ اي بالمقالة المحكمة
الصحيحة الموضحة للحق المزيلة للشبهة والشك قيل وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع
السامع بها وقيل المراد بها القرآن والنبوة قيل وهي الحجج الظنية الاقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات
مقبولة قيل وليس للدعوة الا هاتان الطريقتان ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الالد الى استعمال
المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل ولهذا قال سبحانه وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ اي بالطريق
التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وايثار الوجه الايسر والمقدمات
التي هي اشهر فان ذلك انفع في تسكين شرهم وهو رد على من يابى المناظرة في الدين وانما امر سبحانه بالمجادلة
الحسنة لكون الداعي محقا وغرضه صحيحا وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا قيل ان الناس خلقوا و
جبلوا على ثلثة اقسام الاول هم العلماء وهم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والثاني
هم اصحاب النظر السليم والخلقة الاصلية وهم غالب الناس وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة والثالث
هم اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهم المشار اليهم بقوله وجادلهم الخ وقال مجاهد في الآية اعرض عن
اذاهم اياك ولا تقصر في تبليغ الرسالة وعلى هذا فالآية منسوخة بآية السيف قال بعضهم لا حاجة الى دعوى النسخ

اذا لم يرد بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله اي هو
سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين ان الرشد والهداية ليس الى النبي صلى الله عليه وسلم وانما ذلك الى الله تعالى
وهو الأعلم بمن يضل وهو أعلم بالمهتدين اي بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت وانما شرع لك
الدعوة وامرك بها قطعا للمعذرة وتتميما للحجة وازاحة للشبهة وليس عليك غير ذلك وفي ايثار الفعلية في
الضالين والاسمية في مقابليهم اشارة الى انهم غيروا الفطرة وبدلوها باحداث الضلال ومقابلوهم استمروا
عليها وتصدير ارباب الضلال لان الكلام وارد فيهم ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع
الى الحق فان ابوا قوتلوا امر الداعي بان يعدل في العقوبة فقال وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به
اي بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك قال ابن جرير نزلت هذه الآية فيمن اصيب بظلامة ان لا ينال من ظالمه
اذا تمكن الا مثل ظلامته لا يتعداها الى غيرها ونحوه في البيضاوي وهو اصوب لان الآية وان قيل ان لها
سببا خاصا كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ وعمومه يؤدي هذا المعنى الذي ذكره وسمى سبحانه الفعل الاول
الذي هو فعل البادي بالشر عقوبة مع ان العقوبة ليست الا فعل الثاني وهو المجازي للمشاكلة وهي باب
معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز ثم حث سبحانه على العفو فقال ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل
وعن الانتقام بتركه بالكلية لهو بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان اي فالصبر خير للصابرين من الانتقام
ووضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بانهم صابرون على الشدائد وقد ذهب الجمهور الى ان
هذه الآية محكمة لانها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم وفي تعليم حسن الادب
في كيفية استيفاء الحقوق والقصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لا تكون منسوخة
ولا تعلق لها بالنسخ وقيل هي منسوخة بآيات القتال وبه قال ابن عباس والضحاك ولا وجه لذلك اخرج الترمذي
وحسنه والنسائي وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابي بن كعب قال لما كان يوم احد
اصيب من الانصار اربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن اصبنا
منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم فلما كان يوم فتح مكة انزل الله تعالى وإن عاقبتم الآية فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم الا اربعة واخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن
ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حيث استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى شيء قط كان اوجع
لقلبه منه ونظر اليه قد مثل به فقال رحمة الله عليك فانك كنت ما علمت وصولا للرحم فعولا للخيرات ولولا حزن

من بعدك عليك لیسرني ان انزلك حتى يحشرك الله من ازواج شتى اما والله لامثلن بسبعين
منهم مكانك فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل وان عاقبتم الاية فكفر النبي
صلى الله عليه وسلم عن يمينه وامسك عن الذي اراد وصبر وعن ابن عباس مرفوعا نحوه اخرجه الطبراني
وابن المنذر وغيرهما وهذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم كانه كان باجتهاد منه وعليه فلينظر هل قوله
تعالى ولئن صبرتم الى اخره نسخ لهذا الاجتهاد او تنبيه على خطائه تامل وعنه قال هذا حين امر الله
نبيه ان يقاتل من قاتله ثم نزلت براءة وانسلاخ الاشهر الحرم فهذا منسوخ ثم امر الله سبحانه رسوله صلى
الله عليه وسلم بالصبر فقال واصبر على ما اصابك من صنوف الاذى وما صبرك الا بالله اي بتوفيقه وتثبيته
والاستثناء مفرغ من اعم الاشياء اي وما صبرك مصحوبا بشيء من الاشياء الا بتوفيقه لك وفيه تسلية
للنبي صلى الله عليه وسلم ثم نهاه عن الحزن فقال ولا تحزن عليهم اي على الكافرين في اعراضهم عنك واستحقاقهم
للعذاب الدائم ولا تحزن على قتلى احد فانهم قد افضوا الى رحمة الله ولا تك في ضيق اي ضيق صدر
قرئ بفتح الضاد وكسرها وهما سبعيتان قال ابن السكيت هما سواء وقال الفراء الضيق بالفتح ما ضاق عنه
صدرك وبالكسر ما يكون في الذي يتسع كالدار والثوب وكذا قال الاخفش وهو من الكلام المقلوب
لان الضيق وصف للانسان يكون فيه ولا يكون الانسان فيه وكانه اراد وصف الضيق بالعظم حتى صار
كالشيء المحيط بالانسان من جميع جوانبه وقال هنا تك بحذف النون ليكون ذلك مبالغة في التسلية واتباعا
في الثقل على القياس ولان الحزن ثم دون الحزن هنا والى ذلك اشار في التقرير مما يمكرون اي من مكرهم
بك فيما يستقبل من الزمان وما مصدرية او بمعنى الذي ثم ختم هذه السورة باية جامعة لجميع المامورات والمنهيات فقال
ان الله مع الذين اتقوا المعاصي على اختلاف انواعها وقيل اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي والعموم اولى
وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة والذين هم محسنون بتادية الطاعات والقيام بما امروا به منها او بالعفو
عن الجاني وقيل المعنى محسنون في اصل الانتقام فيكون الاول اشارة الى قوله فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به والثاني
اشارة الى قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقيل الذين اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله والذين هم محسنون
اشارة الى الشفقة على عباد الله تعالى وعن الحسن قال اتقوا فيما حرم عليهم واحسنوا فيما افترض
عليهم والعموم اولى وقيل لهرم بن حيان عند الموت اوص فقال انما الوصية في المال ولا مال
لي ولكني اوصيك بخواتيم سورة النحل

سورة بني اسرائيل

وتسمى سورة سبحان وسورة الاسراء مأئة واحدى عشرة اية وهي مكية ورد قال ابن عباس وعن ابن الزبير منها الا ثلاث ايات قوله وان كادوا ليستفزونك نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف وحين قالت اليهود ليست هذه بارض الانبياء وقوله رب ادخلني مدخل صدق وقوله ان ربك احاط بالناس وزاد مقاتل قوله ان الذين اوتوا العلم من قبله وقيل الايات ثمان وعن ابن مسعود قال في هذه والكهف ومريم انهن من العتاق الاول وهن من تلادي وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان

هو مصدر سماعي لسبح او اسم مصدر يقال سبح يسبح تسبيحا وسبحانا ومصدر قياسي لسبح المخفف فانه يقال سبح في الماء ومعناه التنزيه والبعد والبراءة لله سبحانه من كل نقص وسوء وعلى كل فهو علم جنس للتنزيه والتقديس وقال سيبويه العامل فيه فعل لا من لفظه والتقدير انزه الله تنزيها فوقع سبحان مكان تنزيها فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء وقيل هو علم للتسبيح كعثمان للرجل اي اسبح الله سبحان ثم نزل منزلة الفعل وسد مسده ودل على التسبيح البليغ والتنزيه الكامل ولذا لا يستعمل الا فيه تعالى الَّذِيْٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ الاسراء قيل هو سير الليل يقال سرى واسرى كسقى واسقى لغتان بمعنى سار في الليل وهما لازمان لكن مصدر الاول الاسراء ومصدر الثاني سرى بضم السين كهدى فالهمزة ليست للتعدية الى المفعول وانما جاءت التعدية هنا من الباء ومعنى اسرى به صيره ساريا في الليل وقيل هو سير اول الليل خاصة واذا كان الاسراء لا يكون الا في الليل فلا بد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة فقيل اراد بقوله ليلا تقليل مدة الاسراء وانه اسرى به في بعض الليل من مكة الى الشام مسافة اربعين ليلة ووجه دلالة ليلا على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية بخلاف ما اذا قلت سريت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا وقد استدل صاحب الكشاف على افادة ليلا للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة من الليل اي في جزء قليل من الليل قيل قدر اربع ساعات وقيل ثلاث وقيل اقل من ذلك والتقليل والتبعيض متقاربان فاستعمل في التبعيض ما هو للتقليل و قال الزجاج معنى الاية سير عبده يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ليلا وعلى هذا معنى اسرى سير فيكون

للتقييد بالليل فائدة وقد اجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون على ان المراد بالعبد محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف
احد من الامة في ذلك وقال بعبده ولم يقل بنبيه او برسوله او محمد تشريفا له صلى الله عليه وسلم قال اهل العلم
لو كان غير هذا الاسم اشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية ه اصم
اذا نوديت باسمي وانني + اذا قيل لي يا عبدها السميع + ه لا تدعني الا بيا عبدها + فانه اشرف اسمائي
عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الاول
قبل الهجرة بسنة وعن ابن شهاب قال اسري به الى بيت المقدس قبل خروجه الى المدينة بسنة وعن عروة
نحوه وقال السدي قبل مهاجره بستة عشر شهرا من المسجد الحرام قال الحسن وقتادة يعني المسجد نفسه
وهو ظاهر القران وقال عامة المفسرين اسري به صلى الله عليه وسلم من دار ام هانئ فحملوا المسجد الحرام على
مكة او الحرم لاحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام او لان الحرم كله مسجد وفي حديث مالك بن صعصعة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا انا في المسجد الحرام في الحجر وذكر حديث المعراج بكماله ومن ابتدائية ثم ذكر
سبحانه الغاية التي اسري برسول الله صلى الله عليه وسلم اليها فقال الى المسجد الاقصى وهو بيت المقدس وسمي الاقصى
لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام او لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد واول من بناه آدم بعد ان بنى الكعبة
باربعين سنة كما في المواهب فهو اول مسجد بني في الارض بعد الكعبة وتمام حاله في كتابنا لقطة العجلان
فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان وكان الاسراء به ببدنه في اليقظة وكان قبلها في المنام كما انه رأى
فتح مكة سنة ست وتحقق منه سنة ثمان والحكمة في اسرائه الى بيت المقدس دون العروج به من مكة
لانه محشر الخلائق فيطاه بقدمه ليسهل على امته يوم القيامة وقوفهم ببركة اثر قدمه او لانه مجمع ارواح
الانبياء فاراد الله ان يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وسلم وليخبر الناس بصفاته فيصدق فيه الباقي قاله الكرخي والوجه
الاخير اظهر والله اعلم ثم وصف المسجد الاقصى بقوله الذي باركنا حوله بركة دنيوية وهي ليست الا حول
الاقصى واما في الداخل فالبركة في كل من المسجدين بل هي في الحرم اتم وهي كثرة الثواب بالعبادة فيهما
وعبارة الخازن يعني بالثمار والانهار والاشجار والانبياء والصالحين لانه قبلتهم قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وسماه
مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي واليه تحشر الخلق يوم القيامة فقد بارك الله سبحانه حول
المسجد الاقصى ببركات الدنيا والآخرة قال السدي المعنى انبتنا حوله الشجر وجعل الاسراء اليه كالتوطئة لمعراجه
الى السماء ثم ذكر العلة التي اسرى به لاجلها فقال لنريه من آياتنا اي ما اراه الله سبحانه في تلك الليلة

من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ومن تبعيضية وما أراه
من عظيم الآيات لله فان الذي راه صلى الله عليه وسلم وان كان جليلا عظيما فهو بعض بالنسبة الى آيات الله تعالى و
عجائب قدرته وجليل حكمته قاله ابو شامة والرؤية هنا بصرية وقيل قلبية واليه نحا ابن عطية
انه سبحانه هو السميع بكل مسموع ومن جملة ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم البصير بكل مبصر ومن جملة
ذلك ذات رسوله وافعاله قيل في هذه الآية اربعة التفاتات في ذلك انه التفت اولا من الغيبة في قوله اسرى
بعده الى التكلم في قوله باركنا حوله ثم التفت ثانيا من التكلم في باركنا الى الغيبة في ليريه على قراءة الحسن
بالياء ثم التفت ثالثا من هذه الغيبة الى التكلم في آياتنا ثم التفت رابعا من هذا التكلم الى الغيبة في قوله
انه هو على الصحيح في الضمير انه لله تعالى واما على قول نقله ابو البقاء ان الضمير في انه هو للنبي صلى الله عليه وسلم فلا
يجيء ذلك ويكون في قراءة العامة التفاتان واحد وفي قراءة الحسن ثلاثة وهذا موضع غريب واكثر
ما ورد الالتفات ثلاث مرات على ما قال الزمخشري في قول امرء القيس تطاول ليلك بالاثمد الابيات والخامس
الالتفات من قوله انه هو الى التكلم في قوله الآتي وآتينا موسى وقد اختلف اهل العلم هل كان الاسراء بجسده
صلى الله عليه وسلم مع روحه او بروحه فقط فذهب معظم السلف والخلف الى الاول وذهب الى الثاني طائفة من اهل العلم
منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن اسحاق وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان وذهبت طائفة الى
التفصيل فقالوا كان الاسراء بجسده يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح واستدلوا على هذا التفصيل
بقوله الى المسجد الاقصى فجعله غاية للاسراء بذاته صلى الله عليه وسلم فلو كان الاسراء من بيت المقدس الى السماء
وقع بذاته لذكره والذي دلت عليه الاحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب اليه معظم السلف والخلف
من ان الاسراء بجسده وروحه يقظة الى بيت المقدس ثم الى السموات ولا حاجة الى التأويل وصرف هذا
النظم القرآني وما يماثله من الفاظ الاحاديث الى ما يخالف الحقيقة ولا مقتضى لذلك الا مجرد الاستبعاد
وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من انه لا يستحيل عليه سبحانه شيء ولو كان ذلك
مجرد رؤيا كما يقوله من زعم ان الاسراء كان بالروح فقط وان رؤيا الانبياء حق لم يقع التكذيب من
الكفرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند اخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالايمان صدره فان الانسان
قد يرى في نومه ما هو مستبعد بل هو محال ولا ينكر ذلك احد واما التمسك لمن قال بان هذا الاسراء انما كان
بالروح على سبيل الرؤيا بقوله وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس فعلى تسليم ان المراد بهذه

الرؤيا وهذا الاسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله سبحان الذي اسرى بعبده ليلا والتصريح في الاحاديث الصحيحة
الكثيرة بانه اسرى به لا يقصر عن الاستدلال بها على تاويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين فانه قد يقال
لرؤية العين رؤيا وكيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريح الاحاديث الصحيحة بان النبي صلى الله عليه وسلم ركب البراق
وكيف يصح وصف الروح بالركوب وهكذا كيف يصح حمل الاسراء على الرؤيا مع تصريحه صلى الله عليه وسلم بانه كان عند ان اسرى
به بين النائم واليقظان فالاولى ما ذهب اليه الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم وقد اختلف ايضا في تاريخ الاسراء
فروي ان ذلك كان قبل الهجرة الى المدينة بسنة وروي ان الاسراء كان قبل الهجرة باعوام ووجه ذلك ان خديجة صلت
مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل باربع ولم تفرض الصلوة الا ليلة الاسراء وقد استدل
بهذا ابن عبد البر على ذلك وقد اختلفت الرواية عن الزهري وممن قال بان الاسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في رواية عنه
وكذلك الحربي فانه قال اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع وعشرين من ربيع الاول قبل الهجرة بسنة وقال ابن القاسم في تاريخه
كان الاسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا قال ابن عبد البر لا اعلم احدا من اهل السير قال بمثل
هذا وروي عن الزهري انه اسرى به قبل مبعثه بسبعة اعوام وروي عنه انه قال كان قبل مبعثه
بخمس سنين وروى يونس عن عروة عن عائشة انها قالت توفيت خديجة قبل ان تفرض الصلوة
واعلم انه قد اطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الاحاديث الواردة
في الاسراء على اختلاف الفاظها وما يتعلق بها من الاحكام وما قال اهل العلم فيه وما ظهر بعد المعراج
من الآيات الدالة على صدقه وليس في ذلك كثير فائدة فهي معروفة في مواضعها من كتب الحديث
وهكذا اطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الاقصى وهو مبحث آخر والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق
بتفسير الفاظ الكتاب العزيز وذكر اسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية وما عدا ذلك
فهو فضل لا تدعو اليه حاجة وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ اي التوراة قيل والمعنى كرمنا محمدا بالمعراج واكرمنا موسى
بالكتاب قال الشهاب عقبت آية الاسراء بهذه استطرادا بجامع ان موسى اعطى التوراة بمسايرته الى الطور
وهو بمنزلة معراجه لانه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم والواو استئنافية او عاطفة على جملة سبحان الذي اسرى
لا على اسرى لبعده وتكلفه وَجَعَلْنَاهُ اي ذلك الكتاب وقيل موسى هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يهتدون به أَلَّا
تَتَّخِذُوا قرئ بالتحتية ولا نافية وان مصدرية ولام التعليل مقدرة وبالفوقية ولا ناهية وان زائدة
والمعنى على الاولى آتيناه الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا وعلى الثانية قلنا لهم لا تتخذوا

وانا اولى ان نكون ان فسرة كان هذا ليس من مواضع زيادة بل ذلك في نحو ولما ان جاءت رسلنا امن دوني وكيلا اي كفيلا بامورهم قاله الفراء وروي عنه انه قال كافيا وقيل معناه متوكلون عليه في امورهم وقيل شريكا ومعنى الوكيل في اللغة من توكل اليه الامور ذرية من حملنا مع نوح نصب على الاختصاص وبه بدأ الزمخشري او النداء اي يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا كما كان نوح في العبودية والانقياد وفي كثرة الشكر لله تعالى بفعل الطاعات ذكرهم سبحانه انعامه عليهم في ضمن انجاء ابائهم من الغرق وقيل المعنى ولا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلا كقوله ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا والمراد بالذرية هنا جميع من في الارض لانهم من ذرية من كان في السفينة وقيل موسى وقومه وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص والرفع على البدل او على الخبر فانها كلها راجعة الى بني اسرائيل المذكورين واما على جعل النصب على ان ذرية هي المفعول الاول لقوله لا تتخذوا فالاولى تفسير الذرية بجميع من في الارض من بني ادم اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرية من حملنا مع نوح قال ما كان مع نوح الا اربعة اولاد حام وسام ويافث وكوش فذلك اربعة اولاد انسلوا هذا الخلف انه اي ان نوحا كان عبدا شكورا وصفه الله بكثرة الشكر في السراء والضراء وذلك انه كان لا ياكل ولا يشرب ولا يلبس الا قال الحمد لله وجعله كالعلة لما قبله ايذانا بكون الشكر من اعظم اسباب الخير ومن افضل الطاعات وحثا لذريته على شكر الله سبحانه وقضينا الى اعلمنا واخبرنا قاله ابن عباس او حكمنا واتممنا واصل القضاء الاحكام للشيء والفراغ منه وقيل اوحينا ويدل عليه قوله الى بني اسرائيل ولو كان بمعنى الاعلام والا لقال قضينا بني اسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني اسرائيل ولو كان بمعنى اتممنا لقال لبني اسرائيل في الكتاب اي التوراة ويكون انزالها على نبيهم موسى كانزالها عليهم لكونهم قومه وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ لتفسدن اي والله لتفسدن في الارض قرئ بفتح الفوقية ومعناها قريب من معنى قراءة الجمهور لانهم اذا افسدوا افسدوا في نفوسهم والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة والمراد بالارض ارض الشام وبيت المقدس وقيل ارض مصر واللام جواب قسم محذوف قال النيسابوري او اجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كانه قيل واقسمنا لتفسدن مرتين تثنية مرة وهي الواحدة من المر اي المرور على حد وفعلة لمرة كجلسة وفي القاموس مر مرا ومرورا جاز وذهب كاستمر ومره وبه جاز عليه

والمرة الفعلة الواحدة والجمع مر بالضم ومرار بالكسر ومرر كعنب ولقيه ذات مرة لا يستعمل الا ظرفا
وذات المرار اي مرارا كثيرة وجئته مرا او مرتين اي مرة او مرتين والمرة الاولى قتل شعيا وحبس ارميا
ومخالفة احكام التوراة والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى وقيل الاولى قتل زكريا والثانية قتل
يحيى وذكر ابن اسحاق ان بعض العلماء اخبره ان زكريا مات موتا ولم يقتل قال ابن مسعود اول الفساد
قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك النبط ثم ان بني اسرائيل تجهزوا وغزوا النبط فاصابوا منهم فذلك
قوله ثم رددنا لكم الكرة عليهم وعن ابن عباس قال بعث الله في الاولى جالوت وبعث عليهم في المرة
الاخرى بخت نصر فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين **وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا** هذه اللام كاللام التي قبلها
اي لتستكبرن عن طاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي وعن دين الحق في ذلك وتبغون
بغيا عظيما **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ** اي وقت وعد **أُولَاهُمَا** اي اولى المرتين المذكورتين والمراد بالوعد الوعيد
والمراد بالوعيد المتوعد به اي وعد عقاب اي حان وقت العقاب الموعود به **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ**
عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ اي قوة في الحروب وبطش عند اللقاء قيل هو بخت نصر وجنوده
وقيل جالوت وقيل جند من فارس وقيل جند من بابل وقيل هو سنحاريب من اهل نينوى
فقتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا **فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ**
اي عاثوا وترددوا يقال جاسوا وحاسوا وداسوا بمعنى ذكره ابن عزيز والقتيبي قال الزجاج معناه
طافوا هل بقي احد لم يقتلوه قال والجوس طلب الشيء باستقصاء قال الجوهري الجوس مصدر قولك
جاسوا خلال الديار اي تخللوها كما يجوس الرجل للاخبار اي يطلبها وكذا قال ابو عبيدة وقال ابن جرير
معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين وقال الفراء معناه قتلوهم بين
بيوتهم وقال قطرب معناه نزلوا وقرأ ابن عباس فحاسوا بالحاء المهملة قال ابو زيد الحوس والجوس والعوس والهوس
الطوف بالليل وقيل الطوف بالليل هو الجوسان محركا كذا قال ابو عبيدة وقال ابن عباس جاسوا مشوا
ومعنى خلال الديار وسط الديار فهو على هذا اسم مفرد بمعنى الوسط ويؤيده قراءة الحسن خلل
الديار والثاني انه جمع خلل بفتحتين كجبل وجبال وجمل وجمال قاله السمين **وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا**
اي كائنا لا محالة لا خلف فيه **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ** اي الدولة والغلبة والرجعة عليهم وذلك
عند توبتهم قيل وذلك حين قتل داود جالوت وقيل حين قتل بخت نصر ووضع رددنا موضع نرد

لانه لم يقع وقت الاخبار لكن لتحققه عبر بالماضي نكرة في الاصل مصدر كريناي رجع ثم عبر
بها عن الدولة والقهر وامددناكم باموال وبنين بعد نهب اموالكم وسبي ابناءكم حتى عاد امركم
كما كان وجعلناكم اكثر نفيرا قال ابو عبيدة النفير العدد من الرجال فالمعنى اكثر رجالا من عدوكم
والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته يقال نفير ونافر مثل قدير وقادر ويجوز ان يكون النفير
جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو ان احسنتم افعالكم واقوالكم على الوجه المطلوب منكم
احسنتم لانفسكم لان ثواب ذلك عائد عليكم وان اساتم افعالها فاوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم
فلها اي فعليها اساءتها وانما عبر بها للمشاكلة قاله الكرماني قال ابن جرير اللام بمعنى الى اي فاليها
ترجع الاساءة كقوله تعالى بان ربك اوحى لها اي اليها وقيل المعنى فلها الجزاء والعقاب وقال الحسين
بن الفضل فلها رب يغفر الاساءة وقال الكرخي اجرى اللام على بابها قال ابو البقاء وهو الصحيح لان اللام
للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة وسيئة انتهى وهذا الخطاب قيل هو لبني اسرائيل
الملابسين لما ذكر في هذه الآيات وقيل لبني اسرائيل الكائنين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم ومعناه
اعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك وقيل هو خطاب لمشركي قريش فاذا جاء وعد
الآخرة اي حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة والمرة الآخرة هي قتلهم يحيى بن زكريا
كما سبق وقصة قتله مستوفاة في الانجيل واسمه فيه يوحنا قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة
حملته على قتله واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة وقال ابن جرير هيردوس فسلط عليهم الفرس والروم
فسبوهم وقتلوهم وقيل هو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وجواب اذا محذوف
تقديره بعثناهم لدلالة جواب اذا الاولى عليه ليسوءوا وجوهكم اي ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم
حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين في وجوهكم الكآبة وقيل المراد بالوجوه السادة منهم وقرئ
لنسوء بالنون على ان الضمير لله سبحانه وقرئ لنسوءن بنون التاكيد وقرئ ليسوء بالتحتية وافراد الضمير
فهو للوعد وقرئ ليسوء واعلى ان الفاعل عباد لنا وفي عود الواو على العباد نوع استخدام اذ المراد
بهم اولا جالوت وجنوده والمراد بهم في ضمن الضمير بخت نصر وجنوده وليدخلوا المسجد اي بيت المقدس
ونواحيه فيخربوه كما دخلوه اول مرة اي وقت افسادهم الاول وليتبروا اي يدمروا ويهلكوا
قاله ابن عباس وقال قطرب يهدموا قال الزجاج كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ما علوا اما غلبوا عليه

من بلادكم ومرة علوهم تتبيرًا اي تدميرا ذكر المصدر ازالة للشك وتحقيقا للخبر عسى ربكم يا
بني اسرائيل ان يرحمكم بعد انتقامه منكم في المرة الثانية فيرد الدولة لكم وان عدتم الى المعصية
ثالثا عدنا الى عقوبتكم قال اهل السير ثم انهم عادوا الى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم
وكتمان ما ورد من نعته في التوراة والانجيل فعاد الله الى عقوبتهم على ايدي العرب فجرى على بني قريظة
والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والاجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم وضرب
الذلة والمسكنة قال الضحاك كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم فعادوا فبعث الله عليهم
محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون فسلط عليهم المؤمنون الى يوم القيامة
وقد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرتين وفي تعيين من سلطه الله عليهم وفي كيفية
الانتقام منهم ولا يتعلق بذلك كثير فائدة وجعلنا جهنم للكافرين منهم ومن غيرهم حصيرًا
اي سجنا ومحبسا جعل الله مأواهم فيها قال ابن عباس والحصير هو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل
او مفعول والمعنى انهم محبوسون في جهنم لا يتخلصون عنها ابدا قال الجوهري حصره يحصره حصرا
ضيق عليه واحاط به ويقال للسجن محصر وحصير وقيل فراشا ومهادا قاله الحسن واراد على هذا
بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس ان هذا القرآن يهدي الناس للتي اي للطريقة هي اقوم
واصوب من غيرها من الطرق وهي ملة الاسلام وقال الزجاج للحال التي هي اقوم الحالات وهي
توحيد الله والايمان برسله وكذا قال الفراء وقيل للكلمة التي هي اعدل وهي شهادة ان لا اله الا الله
فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون وبعضهم لا وهم الكافرون ويبشر المؤمنين بما اشتمل عليه
من الوعد بالخير اجلا وعاجلا الذين يعملون الصالحات التي ارشد الى عملها القرآن ان لهم اي بان
لهم اجرًا كبيرًا وهو الجنة ويخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة واحكامها المبينة في القرآن اعتدنا
لهم عذابًا اليمًا وهو عذاب النار فلا يكون ذلك داخلا في حيز البشارة وعليه جرى السفاقسي والبيضاوي
والسيوطي وقيل يراد بالتبشير مطلق الاخبار سواء كان بخير او شر ومعناه الحقيقي ويكون الكلام مشتملا
على تبشير المؤمنين ببشارتين الاولى ما لهم من الثواب والثانية ما لاعدائهم من العقاب ولا شك
ان ما يصيب عدوهم يسرهم وفي المسئلة خلاف مشهور لان الظاهر من مذهب الزمخشري انه لا يجيز
الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو من فروع استعمال المشترك في معنييه فكذا نظر السياس ان نثبت واويل لانه

الا انه لما اوجب سقوطها لفظا لاجتماع الساكنين سقطت في خطها على خلاف القياس نظيره سندع
الزبانية ﴿الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ المراد بالانسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض افراده وهو دعاء
الرجل على نفسه وماله وولده عند الضجر بما لا يحب ان يستجاب له نحو اللهم اهلكه اللهم العنه ونحو ذلك
﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ اي مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولاهله كطلب العافية والرزق ونحوهما فلو استجاب الله
دعاءه على نفسه بالشر لهلك لكنه لم يستجب تفضلا منه ورحمة ومثل ذلك ولو يعجل الله للناس الشر
استعجالهم بالخير وقد تقدم في سورة يونس انه يستجاب له بالخير ولا يستجاب له في الشر فراجعه وقيل
المراد بالانسان القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير
كقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم
وقال ابن عباس قوله اللهم العنه واغضب عليه وقيل هو ان يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب
المباح ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ اي مطبوعا على العجلة يسارع الى كل ما يخطر بباله لا ينظر الى عاقبته ومن
عجلته انه يسأل الشر كما يسأل الخير وقال ابن عباس ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء والمراد بالانسان
الجنس لان احدا من الناس لا يعرى عن عجلة ولو تركها لكان تركها اصلح في الدين والدنيا وقيل اشارة
الى آدم عليه السلام حين نهض قبل ان يكمل فيه الروح وعن سلمان الفارسي قال اول ما خلق الله
من آدم راسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه فلما كان بعد العصر قال يا رب اعجل قبل
الليل فذلك قوله وكان الانسان عجولا والمناسب للسياق هو الاول ولما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد
اكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ وذلك لما
فيهما من الاظلام والانارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الاحلام
ومعنى كونهما آيتين انهما يدلان على وجود الصانع وقدرته وعلى انفاذ الحكم بتعاقبهما على نسق واحد مع امكان
غيره وقدم الليل على النهار لكونه الاصل وثنى الآية هنا وافردها في قوله وجعلناها وابنها آية لتباين
الليل والنهار من كل وجه ولتكررهما فناسب هنا التثنية بخلاف عيسى مع امه فانه جزء منها ولا تكرر
فيهما فناسب فيهما الافراد قاله الكرخي ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ اي طمسنا نورها وقد كان القمر كالشمس في الانارة
والضوء قيل ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر وقيل المراد بمحوها انه سبحانه خلقها ممحوة الضوء
مطموسة مظلمة لا يستبين فيها شيء وليس المراد انه محاها بعد ان لم تكن كذلك والفاء تفسيرية لان المحو

المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقب جعل الليل والنهار ايتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته وعن علي قال في الاية هو السواد الذي في القمر وعن ابن عباس نحوه واخرج البيهقي وابن عساكر عن سعيد المقبري ان عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر فقال كانا شمسين ـــ فالسواد الذي رايت هو المحو وعن ابن عباس مرفوعا نحوه باطول منه اخرجه ابن مردويه قال السيوطي واسناده واه وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ اي الشمس مُبْصِرَةً اي مضيئة تبصر فيها الاشياء رؤية بينة قال الكسائي وغيره هو من قول العرب ابصر النهار اذا صار بحالة يبصر بها واشار بهذا الى ان الكلام مجازا عقليا لان النهار لا يبصر بل يبصر فيه فهو من اسناد الحدث الى زمانه وقيل مبصرة للناس من قوله ابصره فبصر فالاول وصف لها بحال اهلها والثاني وصف لها بحال نفسها واضافة اية الى الليل والنهار بيانية اي فمحونا الاية التي هي الليل وجعلنا الاية التي هي النهار مبصرة كقولهم نفس الشيء وذاته لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ اي لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف في وجوه المعاش والمعنى جعلناها لتبتغوا وتطلبوا فضلا اي رزقا اذ غالب تحصيل الارزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع اخر وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ثم ذكر مصلحة اخرى في ذلك الجعل فقال وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وهذا متعلق بالفعلين جميعا اعني محونا اية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة لتعلموا الخ لا باحدهما فقط كالاول اذ لا يكون علم عدد السنين والحساب الا باختلاف الجديدين ومعرفة الايام والشهور والسنين والفرق بين العدد والحساب ان العدد احصاء ماله كمية بتكرر امثاله من غير ان يتحصل منه شيء والحساب احصاء ماله كمية بتكرر امثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص فالسنة مثلا ان وقع النظر اليها من حيث عدد ايامها فذلك هو العدد وان وقع النظر اليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة اشهر قد تحصل كل شهر من عدة ايام قد تحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق فذلك هو الحساب ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ولتعطلت الامور ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج والصوم والصلوة ولا وقت الزراعة ولا وقت حلول الديون المؤجلة وقال الكرخي لا تكرار ان العدد موضوع الحساب وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا اي كل ما تفتقرون اليه في امر دينكم ودنياكم بيناه تبيينا واضحا لا يلتبس فهو كقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء

وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وانما ذكر المصدر وهو قوله تفصيلا لاجل تاكيد الكلام
وتقريره فكانه قال فصلناه حقا على الوجه الذي لامزيد عليه وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الاعذار
ليهلك من هلك عن بينة ولهذا قال وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال ابو عبيدة الطائر عند العرب
الحظ ويقال له البخت فالطائر ما وقع للشخص في الازل بما هو نصيبه من العقل والفهم والعمل والعمر والرزق
والسعادة والشقاوة كان طائرا يطير اليه من وكر الازل وظلمات عالم الغيب طيرا لانهاية له ولاغاية الى ان
انتهى الى ذلك الشخص في وقته المقدر من غير خلاص ولامناص وقال الازهري الاصل في هذا ان الله سبحانه
لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي فكتب ما علمه منهم اجمعين وقضى بسعادة من علمه مطيعا
وشقاوة من علمه عاصيا فطار لكل منهم ما هو صائر اليه عند خلقه وانشائه وذلك قوله وكل انسان
الزمناه طائره في عنقه اي ما طار له في علم الله وقيل ان العرب كانوا اذا ارادوا الاقدام على عمل من الاعمال
وارادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير او شر اعتبروا احوال الطير فلما كثر ذلك منهم سموا
نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه وفي عنقه عبارة عن شدة اللزوم وكمال الارتباط
قال الزجاج ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس قال مجاهد ما من مولود
يولد الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي او سعيد فالطائر له تفسيران الاول العمل والثاني الكتاب
الحقيقي اخرج احمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول طائر كل انسان في عنقه وقال ابن عباس طائره سعادته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو
لازمه اين كان وعن انس قال طائره كتابه وَنُخْرِجُ بنون التعظيم لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا
وقرئ يخرج بالتحتية وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر فيصير كتابا وقرئ يُخرج والفاعل هو الله
سبحانه وقرئ على البناء للمفعول اي يخرج له الطائر كتابا والمعنى مكتوبا فيه اعماله لا يغادر صغيرة
ولا كبيرة الا احصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك
فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذي عن يسارك فيحفظ عليك سيئاتك حتى اذا
مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وانما قال سبحانه يلقاه
منشورا تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة قال ابن عباس هو عمله الذي احصى عليه فاخرج
له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشورا والمعنى يلقاه الانسان او يلقى الانسان اِقْرَأْ كِتَابَكَ

اي يقال لها او قائلين لها اقرأ قيل يقرأ في ذلك اليوم الكتاب من كان قاريا ومن لم يكن قاريا قاله قتادة كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اي بشخصك الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا اي حاسبا او كافيا والحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس والخليط قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ بين سبحانه ان ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعديان منه الى غيره فمن اهتدى بفعل ما امره الله به وترك ما نهاه الله عنه وعمل بما في تضاعيفه من الاحكام فانما تعود منفعة ذلك الى نفسه لا تتخطاه الى غيره ممن لم يهتد وَمَن ضَلَّ عن طريق الحق فلم يفعل ما امر به ولم يترك ما نهي عنه فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا اي فان وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها فكل احد محاسب عن نفسه مجزي بطاعته معاقب بمعصيته وهذا حاصل ما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطريق ولزوم الاعمال لصاحبها ثم اكد هذا الكلام بابلغ تاكيد فقال وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ الوزر الاثم يقال وزر يزر وزرا ووزرة اي اثما والجمع اوزار والوزر الثقل ومنه يحملون اوزارهم على ظهورهم اي اثقال ذنوبهم ومعنى الآية لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس اخرى حتى تخلص الاخرى عن وزرها وتوخذ به الاولى وقد تقدم مثل هذا في الانعام قال الزجاج في تفسير هذه الآية ان الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وهذا تحقيق معنى قوله وكل انسان الزمناه طائره في عنقه واما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئتها فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء اصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال وانما خص التاكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون انهم ان لم يكونوا على الحق فالشفاعة على اسلافهم الذين قلدوهم اخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اولاد المشركين فقال هم من آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال الله اعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعد ما استحكم الاسلام فنزلت ولا تزر وازرة الآية فقال هم على الفطرة او قال في الجنة قال السيوطي وسنده ضعيف وقد ثبت في

الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له يا رسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين قال هم منهم وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع إليه

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته والضال بضلاله وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم والظاهر أنه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل وبه قالت طائفة من أهل العلم وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ على قولين الأول أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي وعلى هذا اختلفوا في المأمور به فالأكثر على أنه الطاعة والخير وقال في الكشاف معناه أمرناهم بالفسق ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصاني فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المراد به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافي كونه مأمورا به ويناقضه القول الثاني أن معنى أمرنا مترفيها أكثرنا فساقها قال الواحدي تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم وقد قرئ آمرنا بالتشديد أي جعلناهم أمراء مسلطين وقرئ آمرنا بالمد والتخفيف أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها قاله الكسائي وقال أبو عبيدة آمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرته ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والنسل وكذا قال ابن عزيز وقرئ أمرنا بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس قال قتادة والحسن المعنى أكثرنا وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي قال لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد قال في الصحاح قال أبو الحسن أمر ماله أي كثر وأمر القوم أي كثروا وقرأ الجمهور أمرنا من الأمر ومعناه ما قدمنا في القول الأول وقد قيل في تأويل أمرنا إنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق وهو إدرار النعم عليهم وقيل المراد قربنا إهلاك قرية وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه

والمراد بالمترفين المتنعمون الذين قد ابطرتهم النعمة وسعة العيش والمفسرون يقولون في تفسير المترفين انهم الجبارون المتسلطون والملوك الجابرون قالوا وانما خصوا بالذكر لان من عداهم اتباع لهم وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف كفرح تنعم واترفته النعمة اطغته او نعمته كترفته تتريفا والمترف كمكرم المتروك يفعل ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه وتترف تنعم فحق عليها القول اي ثبت وتحقق ووجب عليهم العذاب العقاب بعد ظهور فسقهم وتمردهم في كفرهم فدمرناها تدميرا عظيما لا يوقف على كنهه لشدته وعظيم موقعه واهلكناها اهلاك استيصال والدمار الهلاك والخراب ثم ذكر سبحانه ان هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال وكم اهلكنا من القرون اي كثيرا اما اهلكنا منهم فكم مفعول اهلكنا اي من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود وغيرهم من الامم الخالية فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب وفيه تخويف لكفار مكة وانما قال ذلك لانه اول من كذبه قومه ومن ثم لم يقل من بعد آدم ومن الثانية لابتداء الغاية والاولى للبيان فلذلك اتحد متعلقهما وقال الحوفي في الثانية بدل من الاولى وليس كذلك لاختلاف معنييهما ثم خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو ردع للناس كافة فقال وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا قال الفراء انما يجوز دخال الباء في المرفوع اذا كان يمدح به صاحبه او يذم كقولك كفاك به واكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما ولا يقال قام باخيك وانت تريد قام اخوك والمراد بكونه سبحانه خبيرا انه محيط بحقائق الاشياء ظاهرا وباطنا عالم بجميع المعلومات راء بجميع المرئيات لا تخفى عليه خافية من احوال الخلق وهو لف ونشر مرتب وفي الآية بشارة عظيمة لاهل الطاعة وتخويف شديد لاهل المعصية لان العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضي ايصال الجزاء الى مستحقه بحسب استحقاقه ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو اهل لذلك من كان يريد العاجلة هذا تاكيد لما سلف من جملة كل انسان الزمناه طائره وجملة من اهتدى والمراد بالعاجلة المنفعة العاجلة او الدار العاجلة والمعنى من كان يريد باعمال البر او باعمال الآخرة ذلك فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤن والمنافقون عجلنا له اي لذلك المريد فيها اي في تلك العاجلة ثم قيد المعجل والمعجل له بقيدين الاول قوله ما نشاء تعجيله له منها لا ما يشاءه ذلك المريد ولهذا ترى كثيرا من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون اليه والقيد الثاني قوله لمن نريد

التبجيل له منهم ما اقتضته مشيتنا وقيل الآية في المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم
ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه من
كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وقوله من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها
وهم فيها لا يبخسون وقيل قرئ ما يشاء بالتحتية والضمير على هذا لله سبحانه وفيه بعد لمخالفته لما قبله
وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد وقيل الضمير راجع الى من في قوله من كان يريد فيكون ذلك مقيدا
بقوله لمن نريد اي عجلنا له ما يشاؤه لكن بحسب ارادتنا فلا يحصل لمن اراد العاجلة ما يشاءه الا اذا اراد
الله له ذلك ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها الا بالقيدين المذكورين
عذاب الآخرة ولهذا قال ثم جعلنا له جهنم اي بسبب تركه لما امر به من العمل للآخرة واخلاصه عن
الشوائب عذاب جهنم على اختلاف انواعه يصليها اي يدخل جهنم مذموما ملوما من الخلق مدحورا
اي مطرودا من رحمة الله مبعدا عنها في المختار دحره يدحره من باب خضع طرده فهذه عقوبته
في الآخرة مع انه لا ينال من الدنيا الا ما قدره الله سبحانه فاين حال هذا الشقي من حال المؤمن التقي فانه
ينال من الدنيا ما قدره الله له واراده بلا هلع منه ولا جزع مع سكون نفسه واطمينان قلبه وثقته
بربه وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال ومن اراد بأعماله
الدار الآخرة وسعى لها اي من اجلها وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص لانها للاختصاص سعيها
اي السعي الحقيق بها اللائق بطالبها وهو الاتيان بما امر به وترك ما نهي عنه خالصا لله غير مشوب
كان الاتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وهو
مؤمن بالله ايمانا صحيحا لان العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه الا اذا كان من المؤمنين انما
يتقبل الله من المتقين والواو للحال فاولئك اي المريدون للآخرة الساعون لها سعيها وفيه مراعاة
معنى من بعد مراعاة لفظها وهو مبتدأ وخبره كان سعيهم مشكورا عند الله اي مقبولا غير مردود
وقيل مضاعفا الى اضعاف كثيرة فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكورا امورا ثلثة الاول ارادة
الآخرة الثاني ان يسعى لها السعي الذي يحق لها والثالث ان يكون مؤمنا وفي الخطيب قال بعض السلف
الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب في تلى هذه الآية
ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال كلا اي كل واحد من الفريقين من يريد الدنيا ومن

يريد الآخرة نمد اي نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع هؤلاء وهؤلاء بدل من المفعول
وهو كلا فكانه قيل نمد هؤلاء وهؤلاء الاول للاول والثاني للثاني فهو لف ونشر مرتب اي نرزق المؤمنين
والكفار واهل الطاعة واهل المعصية لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه وما به الامداد هو ما
عجله لمن يريد الدنيا وما انعم به في الاولى والاخرى على من يريد الآخرة وفي قوله من عطاء ربك
اشارة الى ان ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمد والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا كالرزق والجاه
اذ لا حظ للكافر في الآخرة وما كان عطاء ربك محظورا اي ممنوعا عن احد قاله الضحاك يقال حظره
يحظره حظرا منعه وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك قال الزجاج اعلم الله سبحانه انه
يعطي المسلم والكافر وانه يرزقهم جميعا وقال الحسن كلا يرزقه الله في الدنيا البر والفاجر وقال ابن عباس
يرزق الله من اراد الدنيا ويرزق من اراد الآخرة انظر يا محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون الخطاب لكل
من له اهلية النظر والاعتبار وهذه الجملة مقررة لما مر من الامداد موضحة له والمعنى انظر كيف فضلنا
في العطايا العاجلة بعضهم اي بعض العباد على بعض فمن غني وفقير وقوي وضعيف وصحيح ومريض
وعاقل واحمق وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن ادراكها وللآخرة اللام لام ابتداء وقسم اكبر
درجات واكبر تفضيلا من الدنيا وذلك لان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في
درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا وليس للدنيا بالنسبة الى الآخرة
مقدار فلهذا كانت الآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا وقيل المراد ان المؤمنين يدخلون
الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين وحاصل المعنى ان التفاضل في
الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب اهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما وثبت في الصحيحين
ان اهل الدرجات العلى ليرون اهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في افق السماء ثم لما اجمل سبحانه اعمال
البر في قوله وسعى لها سعيها وهو مؤمن اخذ في تفصيل ذلك مبتديا باشرفها الذي هو التوحيد فقال
لا تجعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به امته تهييجا والهابا او لكل متأهل له صالح لتوجيهه اليه
وقيل التقدير قل لكل مكلف لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد اي لا يكن منك جعل فقعود ومعنى تقعد
تصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كانها حربة واليه ذهب الفراء والزمخشري وليس المراد حقيقة
القعود المقابل للقيام وقيل هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات فان السعي فيه انما يتأتى

بالقيام والعجز عنه يلزمه ان يكون قاعدا عن الطلب ثم قيل ان من شأن المذموم المخذول ان يقعد نادما
مفكرا على ما فرط منه فالقعود على هذا حقيقة مذموما مخذولا اي من غير حمد وبغير ناصر ونصير
جامعا بين الامرين الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحي عباده والخذلان لك منه سبحانه او حال
كونك جامعا بينهما وحاصل ما ذكر في هذه الآيات من انواع التكاليف خمسة وعشرون نوعا بعضها
اصلي وبعضها فرعي وقد ابتدأ بالاصلي في قوله لا تجعل ثم ذكر عقيبه سائر الاعمال التي يكون من عمل بها
ساعيا في الآخرة ثم لما ذكر ما هو الركن الاعظم وهو التوحيد اتبعه بسائر الشعائر والشرائع فقال وقضى
ربك اي امر امرا جزما وحكما قطعا وحتما مبرما وعن ابن عباس انه قرأ ووصى ربك مكان وقضى وقال
التزقت الواو والصاد وانكم تقرؤنها وقضى ولو نزلت على القضى ما اشرك به احد وبه قرأ الضحاك ايضا اقول
انما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الامر وهو وان كان احد معاني مطلق القضاء كما في قوله
قضي الامر الذي فيه تستفتيان وقوله فاذا قضيتم مناسككم وقوله فاذا قضيتم الصلوة ولكنه ههنا
بمعنى الامر وهو احد معاني القضاء والامر لا يستلزم ذلك فانه سبحانه قد امر عباده بجميع ما اوجبه
ومن جملة ذلك افراده بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم ان لا يقع الشرك من المشركين ومن معاني
مطلق القضاء معان اخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق ومنه فقضاهن سبع سموات
وبمعنى الارادة كقوله اذا قضى امرا وبمعنى العهد كقوله اذ قضينا الى موسى الامر وقد روي عنه ايضا
انه قال قضى امر وقيل اوجب ربك وعن مجاهد قال عهد ربك قال الرازي هذا القول بعيد جدا لانه
يفتح باب ان التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان عن القرآن وذلك
يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين ان لا اي بان لا تعبدوا الا اياه قاله السيوطي
وقال في الجمل قوله هذا اخبر به سيدي حيث اثبت النون بين الهمزة ولا النافية بقلم الحمرة فيقتضي انها
من رسم القرآن مع انه ليس كذلك وقد نص في شرح الجزرية ان ما عدا المواضع العشرة يكتب موصولا
اي لا تثبت فيه النون وقيل ان مفسرة ولا ناهية وفيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا
هو الحق ثم اردفه بالامر ببر الوالدين فقال وبالوالدين احسانا اي قضى بان تحسنوا بهما او احسنوا بهما احسانا
ولا تسيئوا بهما قيل وجه ذكر الاحسان الى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه انهما السبب الظاهر في وجود المتولد
بينهما وفي جعل الاحسان الى الابوين قرينا لتوحيد الله وعبادته من الاعلان بتأكد حقهما والعناية

بشانهما مالا يخفى وهكذا جعل سبحانه في اية اخرى شكرهما مقترنا بشكره فقال ان اشكر لي ولوالديك
ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونهما الى البر من الولد احوج من غيرها فقال اِمَّا يَبْلُغَنَّ ان شرطية
وما زائدة والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التاكيد الثقيلة عِنْدَكَ الْكِبَرَ اَحَدُهُمَا اَوْ كِلَاهُمَا
معنى عندك ان يكونا في كنفك وكفالتك وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للاشعار بان
كل فرد من الافراد منهي بما فيه النهي ومامور بما فيه الامر فَلَا تَقُلْ لَهُمَا اُفٍّ جواب الشرط والتقييد
بهذا الشرط خرج مخرج الغالب من ان الولد انما يتهاون بوالديه عند الكبر والا فلا يختص بالكبيرين والمعنى
لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد وليس المراد حالة الاجتماع فقط عن الحسين بن علي مرفوعا لو علم الله شيئا
من العقوق ادنى من اف لحرمه وقال مجاهد لا تقل لهما اف لما تميط عنهما من الاذى الخلاء والبول كما
كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول وفي اف اربعون لغات قاله السمين ثم قال
وقد قرئ من هذه اللغات بسبع ثلاث في المتواتر واربع في الشواذ وقال الفراء تقول العرب فلان يتافف
من ريح وجدها اي يقول اف اف وقال الاصمعي الاف وسخ الاذن والتف وسخ الاظفار يقال ذلك عند
استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتاذون به وعن ابن الاعرابي ان الاف الضجر وقال القتيبي
اصله انه اذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل
اف ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل اليهم وقال الزجاج معناه النتن وقال ابو عمرو بن العلاء
الاف وسخ بين الاظفار والتف قلامتها والحاصل انه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال او صوت ينبئ
عن ذلك فنهي الولد عن ان يظهر منه ما يدل على التضجر من ابويه او الاستثقال لهما وقيل اف مصدر
بمعنى تبا وقبحا وخسرانا والاول ارجح وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب او بلحنه كما هو
مقرر في الاصول وَلَا تَنْهَرْهُمَا اي لا تضجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهي والنهر والنهم اخوات بمعنى
الزجر والغلظة يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال الزجاج معناه لا تكلمهما ضجرا صائحا
في وجوههما وَقُلْ لَهُمَا بدل التافيف والنهر قَوْلًا كَرِيمًا اي لينا لطيفا جميلا سهلا احسن ما يمكن التعبير عنه
من لطف القول وكرامته مع حسن التادب والحياء والاحتشام قال محمد بن زبير يعني اذا دعواك فقل
لبيكما وسعديكما وقيل هو ان يقول يا اماه يا ابتاه ولا يدعوهما باسمائهما ولا يكنيهما وَاخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الذُّلِّ قال سعيد بن جبير اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ ذكر القفال

في معنى خفض الجناح وجهين الاول ان الطائر اذا اراد ضم فراخه اليه للتربية خفض لها جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير فكانه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك وكنت مفتقرا اليهما والثاني ان الطائر اذا اراد الطيران والارتفاع نشر جناحه واذا اراد النزول خفض جناحه فصار خفض الجناح كناية بليغة عن التواضع وترك الارتفاع وفي اضافة الجناح الى الذل وجهان الاول انها كاضافة حاتم الى الجود في قولك حاتم الجود فالاصل فيه الجناح الذليل والثاني سلوك سبيل الاستعارة كانه تخيل للذل جناحا ثم اثبت لذلك الجناح خفضا والذل من ذل يذل ذلا وذلة ومذلة فهو ذليل وقرئ بكسر الذال من قولهم دابة ذلول بينة الذل اي منقادة سهلة لا صعوبة فيها وقوله مِنَ الرَّحْمَةِ فيه معنى التعليل اي من اجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان افقر خلق الله اليهما بالامس قال السمين وفي من ثلثة اوجه احدها انها للتعليل والثاني انها ابتدائية قال ابن عطية اي ان هذا الخفض يكون ناشيا من الرحمة المستكنة في النفس الثالث انها في محل نصب على الحال من جناح ثم كانه قال له سبحانه ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ولكن قُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا اي وادع الله لهما ولو خمس مرات في اليوم والليلة ان يرحمهما برحمته الباقية الدائمة واراد به اذا كانا مسلمين كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا اي رحمة مثل تربيتهما لي وقدره الحوفي اي مثل رحمتهما لي قدره ابو البقاء وقيل ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما في الوجود اي فلتقع هذه كما وقعت تلك والتربية التنمية ويجوز ان تكون الكاف للتعليل اي لاجل تربيتهما لي كقوله واذكروه كما هداكم ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود اهل العقوق وتقف عندها شعورهم حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع احوال لا يكاد يصبر الانسان معها وان يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما وهذه خمسة اشياء كلف الانسان بها في حق الوالدين وقد ورد في بر الوالدين احاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي معروفة في كتب الحديث رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ اي بما في ضمائركم من الاخلاص وعدمه في كل الطاعات ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم والاصرار عليه ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البر والعقوق اندراجا اوليا وقيل ان الاية خاصة بما يجب للوالدين من البر ويحرم على الاولاد من العقوق والاول اولى

اعتبارا بعموم اللفظ فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ اي ابرارا مطيعين
قاصدين الصلاح والبر والتوبة من الذنب والاخلاص للطاعة ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ اي الرجاعين
عن الذنوب الى التوبة ومن السيئات الى الحسنات ومن العقوق الى البر ومن عدم الاخلاص الى محض
الاخلاص ﴿غَفُورًا﴾ لما فرط منكم من قول او فعل او اعتقاد فلا يضركم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه
فمن تاب تاب الله عليه ومن رجع الى الله رجع الله اليه وقال سعيد بن جبير يعني البادرة من الولد الى الوالد
اي ان تكن النية صادقة فانه كان غفورا للبادرة التي بدرت منه كالفلتة والزلة تكون من الرجل
الى ابويه او احدهما وهو لا يضمر عقوقا ولا يريد بذلك بأسا قال سعيد بن المسيب هو العبد يتوب ثم
يذنب ثم يتوب ثم يذنب وقيل الاواب الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها وقال عبد بن عمير هو
الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله وهذه الاقوال متقاربة قال ابن عباس الاوابين
المطيعين المحسنين التوابين وقيل المسبحين وقيل المصلين قال عون العقيلي هم الذين يصلون صلوة
الضحى وقيل من يصلي بين المغرب والعشاء والاول اولى ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الاقارب بعد
التوصية بهما فقال ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ الخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم تهييجا والهابا لغيره من الامة
او لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله وقضى ربك والامر للوجوب عند ابي حنيفة فعنده يجب على
على الموسر مواساة اقاربه اذا كانوا محارم كالاخ والاخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره الا نفقة
الاصول والفروع دون غيرهما من الاقارب اقول المراد بذوي القربى اولو القرابة وحقهم هو صلة الرحم
التي امر الله بها والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء وكثرة الوصية فيها والخلاف
بين اهل العلم في وجوب النفقة للقرابة او لبعضهم كالوالدين على الاولاد والاولاد على الوالدين معروف
والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ اليه القدرة وحسبما تقتضيه الحال قال ابن عباس
امره باحق الحقوق وعلمه كيف يصنع اذا كان عنده وكيف يصنع اذا لم يكن عنده وقال سعيد انها المودة من
النبي صلى الله عليه وسلم دين ﴿وَآتِ الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ حقهما من الزكوة وهذا دليل على ان المراد بذوي
ذوي القربى من الحق هو تعهدهم بالمال وعن سفيان في الآية قال هو ان يصل ذا القرابة ويطعم
المسكين ويحسن الى ابن السبيل وعن السدي قال والقربى قربى بني عبد المطلب وقرابة رسول الله صلى الله عليه
وسلم اقول ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص ولا دل عليه دليل ومعنى النظم القرآني واضح ان كان

الخطاب مع كل من يصلح له من الامة لان معناه امر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بان يعطيهم حقهم وهو الصلة التي امر الله بها وان كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فان كان على وجه التعريض لامته فالامر فيه كالاول وان كان خطابا له من دون تعريض فامته اسوته فالامر له صلى الله عليه وسلم بايتاء ذي القربى حقه امر لكل فرد من افراد امته والظاهر ان هذه الخطابات ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم بدليل ما قبل الاية وهي قوله وقضى ربك وما بعدها وهي قوله ولا تبذر تبذيرا هو تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه وهو الاسراف المذموم لمجاوزته الحد المستحسن شرعا في الانفاق او هو الانفاق في غير الحق وان كان يسيرا قال الشافعي التبذير انفاق المال في غير حقه ولا تبذير في عمل الخير قال القرطبي وهذا قول الجمهور قال اشهب عن مالك التبذير هو اخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الاسراف وهو حرام لقوله إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ فان هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير والمراد بالاخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو اعم من ذلك كما يدل عليه اطلاق المماثلة والاسراف في الانفاق من عمل الشيطان فاذا فعله احد من بني ادم فقد اطاع الشيطان واقتدى به وهذه غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو اخوهم قال ابن مسعود التبذير انفاق المال في غير حقه وعنه كنا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث ان التبذير النفقة في غير حقه وعن ابن عباس قال هم الذين ينفقون المال في غير حقه و عن علي قال ما انفقت على نفسك واهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك وما انفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان وقيل هو انفاق المال في العمارة على وجه السرف وقيل لو انفق الانسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا ولو انفق درهما او مدا في باطل كان مبذرا قيل ان بعضهم انفق نفقة في خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير ولا مانع من حمل الاية على الجميع والعموم اولى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ اي لنعم ربه كَفُورًا اي كثير الكفران يجحد النعمة عظيم التمرد عن الحق لانه مع كفره لا يعمل الا شرا ولا يامر الا بعمل الشر ولا يوسوس الا بما لا خير فيه وفي هذه الاية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين ثم التسجيل على جنس الشيطان بانه كفور فاقتضى ذلك ان المبذر مماثل للشيطان وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان وكل شيطان كفور فالمبذر كذلك قال الكرخي وكذلك من رزقه الله جاها او مالا فصرفه الى غير مرضاة الله كان كفور النعمة الله لانه موافق للشيطان في الصفة والفعل

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ أي ان اعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك الى ذلك الاعراض ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ أي لفقد رزق مِّن رَّبِّكَ ولكنه اقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لان فاقد الرزق مبتغ له تَرْجُوهَا أي ترجوان يفتح الله به عليك فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا أي قولا سهلا لينا كالوعد الجميل او الاعتذار المقبول قيل هو ان يقول رزقنا الله واياكم من فضله قال الكسائي يسرت له القول اي لينته قال الفراء معنى الآية ان تعرض عن السائل اضاقة واعسارا فعدهم عدة حسنة ويجوز ان يكون المعنى وان تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسورا وليس المراد هنا الاعراض بالوجه وفي هذه الآية تاديب من الله سبحانه لعباده اذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبما يردون ولقد احسن من قال ؎ ان لا يكن ورق يوما اجود بها للسائلين فاني لين العود + لا يعدم السائلون الخير من خلقي + إما نوال واما حسن مردود

ولما ذكر الله سبحانه ادب المنع بعد النهي عن التبذير بين ادب الانفاق فقال وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ هذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تعريضا لامته وتعليما لهم او الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين والمراد النهي للانسان بان يمسك امساكا يصير به مضيقا على نفسه وعلى اهله ولا يوسع في الانفاق توسيعا لا حاجة اليه بحيث يكون به مسرفا فهو نهي عن جانبي الافراط والتفريط ويحصل من ذلك مشروعية التوسط وهو العدل الذي ندب الله اليه ؎ ولا تك فيها مفرطا او مفرطا + كلا طرفي قصد الامور ذميم + وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة الى عنقه مضمومة اليه مجموعة معه في الغل بحيث لا يستطيع التصرف بها ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها مما يقبض الايدي عليه ولا يبقي شيئا في كفه وفي هذا التصوير مبالغة عظيمة بليغة ثم بين سبحانه غاية الطرفين المنهي عنهما فقال فَتَقْعُدَ نصب بجواب النهي مَلُومًا مذموما عند الناس بسبب ما انت عليه من الشح او عند الله سبحانه لان الشح غير مرضي لديه او عند نفسك واصحابك او يلومك سائلوك اذا لم تعطهم مَّحْسُورًا بسبب ما فعلته من الاسراف اي منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر والمحسور في الاصل المنقطع عن السير من حسرة السفر اذا بلغ منه اي ترفيه والبعير الحسير هو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير اي كليل منقطع

وقيل معناه نادما على ما سلف فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران ولا يقال محسور إلا للملوم وفي المختار الحسرة شدة التلهف على الشيء الفائت تقول حسر على الشيء من باب طرب وحسرة أيضا فهو حسير وحسره غيره تحسيرا وعن سيار أبي الحكم قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بز من العراق وكان معطاء كريما فقسمه بين الناس فبلغ ذلك قوما من العرب فقالوا إنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه قد فرغ منه فأنزل الله ولا تجعل يدك الآية أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر أقول ولا أدري كيف هذا فالآية مكية ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحمل إليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته صلى الله عليه وسلم ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذي يرهقهم من الإضاقة ليس لهوانهم على الله سبحانه ولكن لمشية الخالق الرازق فقال إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ أي يوسعه على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا يكون من وسع له رزقه مكرما عنده ومن ضيقه عليه هينا لديه ويقدر ويقتر مترادفان قيل ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا وعن الحسن في الآية قال ينظر له فإن كان الغناء خيرا له أغناه وإن كان الفقر خيرا له أفقره ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا أي يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية من ذلك فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده فلذلك قال بعدها وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خطاب للموسرين بدليل قوله خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ أي فاقة وفقر يقع بكم يقال أملق الرجل إذا لم يبق له إلا الملقات وهي الحجارة العظام الملس يقال أملق إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر وقد كانوا يفعلون ذلك وقد تقدم في سورة الأنعام نهي المعسرين بقوله ولا تقتلوا أولادكم من إملاق وفي الكرخي حاصله أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم فالأول ضد التعظيم لأمر الله والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم ثم بين أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا قرأ الجمهور بكسر الخاء

وسكون الطاء وقرئ بفتح الخاء والطاء يقال خطئ في دينه خطأ اذا اثم واخطأ اذا سلك سبيل خطأ عامدا او غير عامد قال الازهري خطئ يخطأ خطأ مثل اثم يأثم اثما اذا تعمد الخطأ واخطأ اذا لم يتعمد خطأ والخطأ الاثم يقوم مقام الاخطاء وفيه لغتان القصر وهو الجيد والمد وهو قليل وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز قال النحاس لا اعرف لهذه القراءة وجها ولذلك جعلها ابو حاتم غلطا ولما نهى سبحانه عن قتل الاولاد المستدعي لافناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضي الى ذلك لما فيه من اختلاط الانساب فقال ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ قربت الامر اقربه من باب تعب وفي لغة من باب قتل قربانا بالكسر فعلته او دانيته ومن الاول هذه الآية ومن الثاني لا تقرب الحمى اي لا تدن منه وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهي عنه بالاولى فان الوسيلة الى الشيء اذا كان حراما كان المتوسل اليه حراما بفحوى الخطاب والزنا فيه لغتان المد والقصر ثم علل النهي عن الزنا بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ اي قبيحا متبالغا في القبح مجاوزا للحد شرعا وعقلا ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ اي بئس طريقا طريقه وذلك لانه يؤدي الى النار ولا خلاف في كونه من كبائر الذنوب وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الادلة ما هو معلوم وهو يشتمل على انواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولده من هو ولا يقوم احد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم وعن السدي في الآية قال يوم نزلت هذه لم تكن حدود فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور وعن ابي بن كعب قال ساء سبيلا الا من تاب فان الله كان غفورا رحيما فذكر لعمر فاتاه فسأله فقال اخذتها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لك عمل الا الصفق بالبقيع ولما فرغ سبحانه من ذكر النهي عن القتل لخصوص الاولاد وعن النهي عن الزنا الذي يفضي الى ما يفضي اليه قتل الاولاد من اختلاط الانساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الانفس المعصومة على العموم فقال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ اي التي جعلها الله معصومة بعصمة الدين او عصمة العهد والاصل في القتل هو الحرمة الغليظة وحل القتل انما يثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهي الاسباب العارضة فقال ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالردة والزنا من المحصن وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا وما يلتحق بذلك والاستثناء مفرغ اي لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب متلبس بالحق او الا متلبسين بالحق وقد تقدم الكلام في هذا في الانعام وعن الضحاك قال هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وسلم بها وهو اول شيء نزل

من القرآن في شأن القتل كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
الله من قتلكم من المشركين فلا تقتلوا إلا قاتلكم وهذا قبل أن تنزل براءة وقبل أن يؤمر بقتال المشركين
فذلك قوله فلا يسرف في القتل بأنه كان منصوراً يقول لا تقتل غير قاتلك وهي اليوم على ذلك الموضع
من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال ومن قتل مظلوماً
أي لا بسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعاً وهو أحد ثلاث كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان و
قتل مؤمن معصوم عمداً كما في الحديث فقد جعلنا لوليه أي لمن يلي أمره من ورثته إن كانوا موجودين
أي لمن له سلطان إن لم يكونوا موجودين سلطاناً أي تسلطاً على القاتل إن شاء قتل وإن شاء عفا
وإن شاء أخذ الدية قال ابن عباس سلطاناً بينة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود أو العقل
وذلك السلطان ثم لما بين إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول أو ما هو عوض عن القصاص
نهاه عن مجاوزة الحد فقال فلا يسرف أي لا يجاوز الولي إباحة الله له في القتل فيقتل بالواحد الاثنين
أو جماعة أو يمثل بالقاتل أو يعذبه وقرأ الجمهور بالتحتية وقرئ بالفوقية فهو خطاب للقاتل الأول
ونهي له عن القتل أي فلا تسرف أيها القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فإن عليك القصاص مع ما
عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته وقال ابن جرير الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة من بعده أي
لا تقتل يا محمد غير القاتل ولا تفعل ذلك الأمة بعدك وفي قراءة أبي لا تسرفوا قال مجاهد معنى لا يسرف
لا يكثر ولا يقاتل إلا قاتل رحمه وعن زيد بن أسلم أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم
رجلاً لم يرضوا بقتل قاتله حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً وإذا كان قتيلهم شريفاً لم يقتلوا قاتلهم حتى يقتلوا معه غيره
ثم وعظوا في ذلك بقول الله سبحانه فلا يسرف في القتل ثم علل النهي عن السرف فقال إنه يعني ولي المقتول
كان منصوراً أي مؤيداً معاناً فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له أو الدية بما أبرزه من
الحجج وأوضحه من الأدلة وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ويجوز أن يكون الضمير
راجعاً إلى المقتول ظلماً أي أن الله نصره بوليه يعني منصوراً في الدنيا بإيجاب القود على قاتله وفي
الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله قيل وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن في شأن
القتل لأنها مكية كما تقدم ولما ذكر سبحانه النهي عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال
وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال ولا تقربوا مال اليتيم الخطاب لأولياء اليتيم والنهي

عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة واتلافه قال قتادة كانوا لا يخالطونهم في مال ولا ماكل ولا
مركب حتى نزلت وان تخالطوهم فاخوانكم ثم بين سبحانه ان النهي عن قربانه ليس المراد منه النهي عن مباشرته
فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولي اليتيم ان يفعل في مال اليتيم ما يصلحه وذلك يستلزم مباشرته فقال
إِلَّا بِالَّتِي اي الا بالخصلة التي هِيَ أَحْسَنُ من جميع الخصال وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما
يزيد به والانفاق عليه بالمعروف ثم ذكر غاية النهي عن قربان مال اليتيم فقال حَتَّى يَبْلُغَ اي
لا تقربوه حتى يبلغ اليتيم أَشُدَّهُ فاذا بلغ اشده كان لكم ان تدفعوه اليه او تتصرفوا فيه باذنه لان
التصرف له حينئذ والاشد مفرد بمعنى القوة وقيل جمع لا واحد له من لفظه وقيل جمع شدة
بكسر الشين وقيل جمع شد كذلك وقيل جمع بفتحها وعلى كل فالمراد به القوة وكمال عقله ورشده
بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر وان كان الاشد في الاصل عبارة عن بلوغ
ثلاث وثلاثين سنة قيل وهي ثماني عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى
في الانعام وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ قد تقدم الكلام فيه في غير موضع قال الزجاج كل ما امر الله به ونهى عنه
فهو من العهد فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم لبعض والوفاء بالعهد
هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي الا اذا دل دليل خاص على جواز النقض إِنَّ الْعَهْدَ
كَانَ مَسْئُولًا عنه فالمسئول هنا هو صاحبه وقيل ان العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال فيم نقضت كالموؤدة
تسئل فيم قتلت فان كان سؤال العهد تخييلا وسؤال الموؤدة تحقيقا قال سعيد بن جبير ان الله يسأل
ناقض العهد عن عهده وعن ابن جريج قال يسأل عهده من اعطاه اياه وَأَوْفُوا الْكَيْلَ اي اتموه ولا
تخسروه خطاب للبائعين إِذَا كِلْتُمْ اي وقت كيلكم للناس واخذ من هذا بعضهم ان اجرة الكيال
على البائع لانها من تمام التسليم وكذلك عليه اجرة النقاد للثمن وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ قال الزجاج هو ميزان العدل اي ميزان كان صغيرا او كبيرا
من موازين الدراهم وغيرها وفيه لغتان ضم القاف وكسرها وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون قاله
الضحاك وقيل هو العدل نفسه قاله مجاهد وهي لغة الروم قاله ابن جبير وقيل لغة سريانية ثم
عربت ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لان العجمي اذا استعملته العرب واجرته مجرى كلامهم في الاعراب
والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا والاصح انه عربي ماخوذ من القسط وهو العدل والتفاوت

الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في ابقاء الاموال على اربابها ذٰلِكَ اي ايفاء الكيل والوزن بالميزان المستوي خَيْرٌ لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك وَّاَحْسَنُ تَاْوِيْلًا اي عاقبة من آل اذا رجع يعني وفاء الكيل والميزان خير من النقصان ثم امر سبحانه باصلاح اللسان والقلب فقال وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهٖ عِلْمٌ اي لا تتبع ما لا تعلم وهو ماخوذ من قولك قفوت فلاناً اذا اتبعت اثره ومنه قافية الشعر لانها تقفو كل بيت ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار اقدام الناس وحكى ابن جرير عن فرقة انها قالت قفى وقاف مثل عثى وعاث وقال منذر بن سعيد البلوطي قفي وقاف مثل جذب وجبذ وقيل هو من القفا وبحذف الواو من بابي عدا وسما اي لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم ومعنى الآية النهي عن ان يقول الانسان ما لا يعلم او يعمل بما لا علم له وهذه قضية كلية وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بامور فقال ابن عباس لا ترم احداً بما ليس لك به علم وقيل هي في شهادة الزور وقاله محمد بن الحنفية وقيل هي في القذف وقال القتيبي معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون وهذا صواب فان ما عدا ذلك هو العلم وقيل المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعياً كان او ظنياً قال ابو السعود في تفسيره واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه واقول ان هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ولكنها عامة مخصصة بالادلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك فلا يخرج من عمومها ومن عموم ان الظن لا يغني من الحق شيئاً الا ما قام دليل جواز العمل به فالعمل بالرأي في مسائل الشرع ان كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة فقد رخص فيه النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله لمعاذ لما بعثه قاضياً بم تقضي قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال اجتهد رأيي وهو حديث صالح للاحتجاج به كما اوضح الشوكاني ذلك في بحث مفرد واما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب او السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً اولياً لانه محض رأي في شرع الله وللناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم تدع اليه حاجة

على ان الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل انما هو رخصة للمجتهد يجوز له ان يعمل به ولم يدل دليل على انه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع وبهذا يتضح لك انوار اتضاح ويظهر لك اكمل ظهور ان هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء والعامل بها على شفا جرف هار فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ظلمات بعضها فوق بعض وقد قيل ان هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك اصلا ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ اي القلب كُلُّ أُولَٰئِكَ اي كل واحد من الحواس الثلاثة واجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن احوالها شاهدة على اصحابها وقال الزجاج ان العرب تعبر عما لا يعقل وعما يعقل باولئك والضمير في كان يرجع الى كل وكذا الضمير في عنه وقيل الضمير في كان يعود الى القافي المدلول عليه بقوله لا تقف وقوله عنه في محل رفع لاسناد مسئولا اليه وردّ بما حكاه النحاس من الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا قيل والاولى ان يقال انه فاعل مسئول المحذوف والمذكور مفسر له ومعنى سؤال هذه الجوارح انه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لانها آلات والمستعمل لها هو الروح الانساني فان استعملها في الخير استحق الثواب وان استعملها في الشر استحق العقاب وهو اختيار الزمخشري وقيل ان الله سبحانه ينطق الاعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها وعليه جرى القاضي فتسئل مجازا توبيخا لاصحابها وهذا ابلغ مما قبله وفي الآية دليل على ان العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا قيل هو شدة الفرح وقيل التكبر في المشي وقيل تجاوز الانسان قدره وقيل الخيلاء في المشي وقيل البطر والاشر وقيل النشاط والظاهر ان المراد به الخيلاء والفخر قال الزجاج في تفسير الآية لا تمش في الارض مختالا فخورا وذكر الارض مع ان المشي لا يكون الا عليها او على ما هو معتمد عليها تاكيدا وتقريرا ولقد احسن من قال ؎ ولا تمش فوق الارض الا تواضعا ✝ فكم تحتها قوم هم منك ارفع ✝ وان كنت في عز وحرز ومنعة ✝ فكم مات من قوم هم منك امنع ✝ والمرح مصدر وقع حالا اي ذا مرح اي مارحا متلبسا بالكبر والخيلاء وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تاكيد وقرئ مرحا بكسر الراء مرِحا بكسرها على انه اسم فاعل ثم علل سبحانه هذا النهي فقال إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ يقال

يقال خرق الثوب اي شقه وخرق الارض قطعها والخرق الواسع من الارض والمعنى انك لن تخرق الارض بمشيك عليها تكبرا حتى تبلغ اخرها وفيه تهكم بالمختال المتكبر وقيل المراد بخرق الارض نقبها لا قطعها بالمسافة وقال الازهري خرقها قطعها قال النحاس وهذا بين كانه ماخوذ من الخرق وهو الفتحة الواسعة ويقال فلان اخرق من فلان اي اكثر سفرا ولن تبلغ الجبال طولا اي وان تبلغ قدرتك الى ان تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملا لك على الكبر والاختيال فلا قوة لك حتى تخرق الارض بالمشي عليها ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال وتساويها بالكبر فما الحامل لك على ما انت فيه وانت احقر واصغر من كل واحد من الجمادين فكيف يليق بك الكبر كل ذلك اي جميع ما تقدم ذكره من الاوامر والنواهي الخمس والعشرين او ما نهي عنه فقط من قوله ولا تقف ولا تمش كان سيئه عند ربك على اضافة سيئ الى الضمير ويؤيد هذه القراءة قوله مكروها فان السيئ هو المكروه ويؤيدها ايضا قراءة ابي كان سيئاته وقرأ نافع وغيره سيئة على انها واحدة السيئات ومكروها خبر كان او بدل من سيئة ورجح ابو علي الفارسي البدل وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى قال الزجاج والاضافة احسن لان ما تقدم من الايات فيها سيئ وحسن فسيئه المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه ومن قرأ بالتنوين جعل كل ذلك احاطة بالمنهي عنه دون الحسن والمعنى كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروها والمكروه على هذا بدل من السيئة وليس بنعت والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه لا انه غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على ان الاشياء واقعة بارادته سبحانه وذكر مطلق الكراهة مع ان في الاشياء المتقدمة ما هو من الكبائر اشعارا بان مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك فالحاصل ان في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المامور به وما هو مكروه وهو المنهي عنه فعلى قراءة الاضافة تكون الاشارة بقوله كل ذلك الى جميع الخصال حسنها ومكروهها ثم الاخبار بما هو سيئ من هذه الاشياء وهو المنهي عنه عند الله وعلى قراءة الافراد تكون الاشارة الى المنهيات ثم الاخبار عن هذه المنهيات بانها سيئة مكروهة عند الله ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من قوله لا تجعل مع الله الى هذه الغاية مما اوحى اليك ربك اي من جنسه او بعض منه وهو ثابت في جميع الشرائع لم ينسخ وذكرها هنا في ثمان عشرة اية اولها لا تجعل وذكر في التوراة في عشر ايات من الحكمة التي

حكمة لانه كلام محكم وهو ما علمه من الشرائع او من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق اليها الفساد وعند
الحكماء ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به قاله البيضاوي فالتوحيد من القسم الاول
وباقي التكاليف من القسم الثاني ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك تاكيدا وتقريرا و
تنبيها على انه راس خصال الدين وعمدته ومبدأ الامر ومنتهاه وعلى انه ملاك الحكمة واسها قيل
وقد راعى سبحانه في هذا التاكيد دقيقة فرتب على الاول كونه مذموما مخذولا وذلك اشارة الى حال
الشرك في الدنيا ورتب على الثاني ما هو نتيجته في العقبى فقال ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك ﴿مَّدْحُورًا﴾
مبعدا من رحمة الله مطرودا وفي القعود هناك والالقاء هنا اشارة الى ان للانسان في الدنيا صورة
اختيار بخلاف الاخرة ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ اي خصكم قاله ابو عبيدة وقال الفضل اخلصكم ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ اي بنات والخطاب للكفار القائلين بان الملائكة بنات الله وفيه توبيخ شديد وتقريع
بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم اضل والفاء للعطف على مقدر كنظائره مما قد
كررناه ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بالغا في العظم والجرأة على الله الى مكان لا يقادر قدره باضافة الاولاد
اليه وهي خاصة بعض الاجسام لسرعة زوالها ثم بتفضيل انفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون
ثم بجعل الملائكة الذين هم اشرف الخلق دونهم ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ اي بينا او كررنا ضروب
القول فيه من الامثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والاخبار والاوامر والنواهي وغيرها وقيل في
زائدة والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن والتصريف في الاصل صرف الشيء من جهة الى جهة والتشديد
فيه للتكثير والتكرير وقيل معنى التصريف المغايرة اي غايرنا بين المواعظ ثم علل سبحانه ذلك فقال
﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ اي ليتعظوا ويعتبروا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه
﴿وَ﴾ الحال ان هذا التصريف والتذكير ﴿مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الا تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر في
الصواب لانهم قد اعتقدوا في القرآن انه حيلة وسحر وكهانة وشعر وهم لا ينزعون عن هذه الغواية
ولا وازع لهم يزعهم الى الهداية وكان الثوري اذا قرأها يقول زادني لك خضوعا ما زاد اعداءك
نفورا ﴿قُل﴾ لهم في شأن الاستدلال على ابطال التعدد الذي زعموه واثبات الوحدانية ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ
كَمَا﴾ اي كونا مشابها لما ﴿يَقُولُونَ﴾ والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة قرئ بالتحتية وبالفوقية
على الخطاب للقائلين بان مع الله آلهة اخرى اذا قال الزمخشري هي دالة على ان ما بعدها وهو

لَابْتَغَوْا جواب لمقالة المشركين وجزاء للو اي الى ذِي الْعَرْشِ هو امه سبحانه سَبِيلًا طريقا للمغالبة و المقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند تعددهم وقيل معناه اذن لابتغت الالهة الى الله القربة والزلفة عنده لانهم دونه والمشركون انما اعتقدوا انها تقربهم الى الله والظاهر المعنى الاول ومثله معنى قوله تعالى لوكان فيهما الهة الا الله لفسدتا وحاصل الدليل انه قياس استثنائي يستثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم وحذف منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقا لقتاله فلم يكن هناك تعدد ثم نزه تعالى نفسه فقال سُبْحَانَهُ والتسبيح التنزيه وقد تقدم مرارا وَتَعَالَى اي تباعد عَمَّا يَقُولُونَ من الاقوال الشنيعة والفرية العظيمة عُلُوًّا اي تعاليا ولكنه وضع العلو موضع التعالي كقوله والله انبتكم من الارض نباتا كَبِيرًا وصف العلو بالكبير مبالغة فى النزاهة وتنبيها على ان بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين الغني المطلق والفقير المطلق مباينة لاتعقل الزيادة عليها ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْاَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ قال فيهن بضمير العقلاء لاسناده اليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء وقد اخبر سبحانه عن السموات و الارض بانها تسبحه وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والانس والجن وغيرهم من الاشياء التي لاتعقل ففيه دلالة على ان الاكوان باسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة ولكن المشركين لايفهمون تسبيحها فالقصد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله مع ان كل شيء من حدا لهم منزهه عن كل نقص اخرج سعيد بن منصور وابن ابي حاتم والطبراني وابو نعيم في الحلية والبيهقي فى الاسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرطان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به الى المسجد الاقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات العلى فلما رجع قال سمعت تسبيحا فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العلي الاعلى سبحانه وتعالى واخرج ابن مردويه عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو جالس مع اصحابه اذ سمع هدة فقال اطت السماء ويحقها ان تئط والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر الا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده ثم زاد ذلك تعميما وتاكيدا فقال وَاِنْ مِّنْ شَيْءٍ اِلَّا يُسَبِّحُ متلبسا بِحَمْدِهٖ فيشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان حتى

صرير الباب ونقيض السقف وتسبيحها سبحان الله وبحمده وقيل انه يحمل قوله ومن فيهن على
الملائكة والثقلين ويحمل قوله وان من شيء على ما عدا ذلك من المخلوقات وقد اختلف اهل العلم
في هذا العموم هل هو مخصوص ام لا فقالت طائفة ليس بمخصوص وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة
لان كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بان الله خالق قادر وقالت طائفة هذا التسبيح على
حقيقته والعموم على ظاهره والمراد ان كل المخلوقات تسبح لله هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وان كان البشر
لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفهمونه لكونه بغير لغاتهم وهذا يقتضي ان تسبيح
الجماد بلسان المقال وهو الذي اختاره الخازن واثبته باحاديث متعددة قال في الجمل وهو قريب جدا
ويؤيد هذا قوله سبحانه وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ بالتاء والياء تَسْبِيحَهُمْ فانه لو كان المراد تسبيح الدلالة
لكان امرا مفهوما للكل احد واجيب بان المراد بقوله لا تفقهون الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار
وقالت طائفة هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات وقيل خاص بالاجسام
النامية فيدخل النباتات كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت
نموها لا بعد قطعها وقد استدل لذلك بحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على قبرين وفيه ثم دعى
بعسيب رطب فشقه باثنين وقال انه يخفف عنهما ما لم ييبسا ويؤيد حمل الآية على العموم قوله انا
سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق وقوله وان منها لما يهبط من خشية الله وقوله وسخر
الجبال هذا ونحو ذلك من الآيات وثبت في الصحيح انهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا حديث حنين الجذع وحديث ان حجرا بمكة كان يسلم على النبي
صلى الله عليه وسلم وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد
الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده قال السدي ما اصطيد
حوت في البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فمن حلمه الامهال
لكم وعدم انزال عقوبته عليكم على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح ومن مغفرته لكم انه لا يؤاخذ
من تاب منكم اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابو الشيخ في العظمة عن جابر قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الا اخبركم بشيء امر به نوح ابنه ان نوحا قال لابنه يا بني آمرك ان تقول سبحان الله فانها
صلوة الخلائق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق قال الله تعالى وان من شيء الا يسبح بحمده واخرج البخاري

ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصت نملة نبيا من الانبياء فامر بقرية النمل فاحرقت فاوحى الله اليه من اجل نملة واحدة احرقت امة من الامم تسبح واخرج النسائي وابو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمرو قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح واخرج ابو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال الزرع يسبح واجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ ان كنت مؤمنا فاغسلني اذن وعنه قال كل شيء يسبح الا الكلب والحمار اخرجه ابو الشيخ وعن الحسن قال هذه الاية في التورية كقدر الف اية وان من شيء الا يسبح بحمده قال في التوراة تسبح له الجبال وتسبح له الشجر وتسبح له كذا وكذا وفي الباب احاديث وروايات عن السلف فيها تصريح بتسبيح جميع المخلوقات ولما فرغ سبحانه من الالهيات شرع في ذكر بعض من ايات القرآن وما يقع من سامعيه فقال وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وهم المنكرون للبعث حِجَابًا مَسْتُورًا يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به اي انهم لاعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك ذكر معناه الزجاج وغيره ومعنى مستورا ساترا قال الاخفش والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول انك لمشؤم وميمون وانما هو شائم ويامن وقيل معناه ذا استر كقولهم سيل مفعم اي ذو افعام وقيل هو حجاب لا تراه الاعين فهو مستور عنها وقيل حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم قال السيوطي نزل فيمن اراد الفتك به صلى الله عليه وسلم كابي جهل وام جميل زوجة ابي لهب والمراد ما في الاية مطلق القرآن او تلك ايات مشهورات من النحل والكهف والجاثية وهي في سورة النحل اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم الاية وفي سورة الكهف وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه الاية وفي حم الجاثية افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم الاية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الايات عن عيون المشركين ذكره الخطيب وفي القرطبي قلت ويزاد الى هذه الايات اول سورة يس الى قوله فهم لا يبصرون فان في السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام علي في فراشه قال وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ حفنة من تراب في يده واخذ الله على ابصارهم فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم وهو يتلو هؤلاء الايات من يس حتى فرغ ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على راسه ترابا ثم انصرف الى حيث اراد ان ينصرف وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً جمع كنان وهي الاغطية وقد تقدم تفسيره في الانعام وقيل هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم

قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب أن يفقهوه أي كراهة أن يفقهوه أو لئلا يفقهوه أي يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني وجعلنا في آذانهم وقرا أي صمما وثقلا كراهة أن يسمعوه أو لئلا يسمعوه ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس كما قال تعالى وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده يقال وحد يحد وحدا وحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحدا وقال يونس منصوب على الظرف ولّوا على أدبارهم نفورا هو مصدر بمعنى التولية والتقدير هربوا نفورا ونفروا نفورا وقيل جمع نافر كقاعد وقعود قاله البيضاوي والشهاب والأول أولى والمعنى ولوا نافرين قال ابن عباس ولوا نفور الشياطين نحن أعلم بما أي بالحال الذي يستمعون القرآن به أي بسببه والباء بمعنى اللام وعبارة الكواشي بما يستمعون به هازئين وقال الزمخشري يستمعون بالهزء إذ يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو في ذكرك لربك وحده وفيه تأكيد للوعيد وإذ هم نجوى أي ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء إذ بدل من إذ قبله يقول الظالمون أي الوليد بن المغيرة وأصحابه إن تتبعون أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ما تتبعون إلا رجلا مسحورا أي سحر به فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال قال ابن الأعرابي المسحور الذاهب العقل الذي أفسد من قولهم طعام مسحور إذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها وقيل هو المخدوع لأن السحر الحيلة والخديعة وذلك لأنهم زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من بعض الناس وكانوا يخدعونه بذلك التعليم وقال أبو عبيدة معنى مسحورا أن له سحرا أي رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم وتقول العرب للجبان قد انتفخ سحره وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور قال ابن قتيبة لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة انظر كيف ضربوا لك الأمثال أي قالوا تارة إنك كاهن وتارة ساحر وتارة شاعر وتارة مجنون فضلوا عن طريق الصواب في جميع ذلك وحادوا فلا يستطيعون سبيلا إلى الهدى أو الحق أو الطعن الذي تقبله العقول السليمة ويقع التصديق له لا أصل الطعن فقد فعلوا منه ما قدروا عليه وقيل لا يستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم ساحر كاهن مجنون شاعر

ولما فرغ سبحانه من حكاية شبهة القوم في النبوات حكى شبهتهم في امر المعاد فقال وقالوا ائذا
كنا عظاما ورفاتا الاستفهام للاستنكار والاستبعاد لما بين رطوبة الحي ويبوسة الرميم من التباعد
والمنافاة وتقرير الشبهة ان الانسان اذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم و
اختلطت بسائطها بامثالها من العناصر فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها باعيانها ثم عود الحيات
الى ذلك المجموع فاجاب سبحانه عنهم كما سياتي بان اعادة بدن الميت الى حال الحيات امر ممكن ولو
فرضتم ان بدنه قد صار ابعد شيء من الحيات ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد فهو كقول القائل
اتطمع في وانا ابن فلان فيقول كن ابن السلطان او ابن من شئت فسأطلب منك حقي والرفات ما تكسر و
بلي من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض قاله ابو عبيدة والكسائي والفراء والاخفش يقول منه
رفت الشيء رفتا اي حطم فهو مرفوت وقيل الرفات الغبار قاله ابن عباس وقيل التراب قاله
مجاهد ويؤيده انه تكرر في القرآن ترابا وعظاما وقيل الرفات هو ما بولغ في دقه وتفتيته وهو
اسم لاجزاء ذلك الشيء المفتت اي اجزاء متفتتة أئنا لمبعوثون خلقا جديدا كرر الاستفهام الدال
على الاستنكار والاستبعاد تاكيدا وتقريرا قل كونوا حجارة او حديدا قال ابن جرير معناه ان عجبتم
من انشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا انتم حجارة في الشدة او حديدا في القوة ان قدرتم على ذلك
وقال علي بن عيسى معناه انكم لو كنتم حجارة او حديدا لم تفوتوا الله عز وجل اذا اراد كم الا انه
خرج مخرج الامر لانه ابلغ في الالزام وقيل معناه لو كنتم حجارة او حديدا لاعادكم كما بدأكم ولاماتكم
ثم احياكم قال النحاس وهذا قول حسن لانهم لا يستطيعون ان يكونوا حجارة او حديدا وانما المعنى انهم
قد اقروا بخالقهم وانكروا البعث فقيل لهم استشعروا ان تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة او حديدا
لبعثتم كما خلقتم اول مرة فليس المراد الامر وانما عبر فيه بمادة الكون لتعبيرهم بها في سؤالهم قلت
وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا او خلقا مما يكبر في صدوركم اي يعظم عندكم
مما هو اكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فانكم مبعوثون لا محالة وقيل المراد به السموات والارض
والجبال لعظمها في النفوس وقال جماعة من الصحابة والتابعين المراد به الموت لانه ليس شيء اكبر في
نفس ابن آدم منه والمعنى لو كنتم الموت لاماتكم الله ثم بعثكم ولا يخفى ما في هذا من البعد لان معنى الآية
الترقي من الحجارة الى الحديد ثم من الحديد الى ما هو اكبر في صدور القوم منه والموت نفسه ليس بشيء

يعقل ويحس حتى يقع الترقي من الحديد اليه فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُّعِيدُنَا الى الحيوة اذا كنا عظاما
ورفاتا او حجارة او حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت قُلِ يُعِيدُكُمُ الَّذِيْ فَطَرَكُمْ خلقكم و
اخترعكم اَوَّلَ مَرَّةٍ اي عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة فمن قدر على
البدء والانشاء قدر على الاعادة بل هي اهون فَسَيُنْغِضُوْنَ اِلَيْكَ رُءُوْسَهُمْ اي يحركونها استهزاء
يقال نغض راسه ينغض نغضا ونغوضا اذا تحرك وانغض راسه حركه كالمتعجب من الشي وَيَقُوْلُوْنَ
استهزاء وسخرية مَتٰى هُوَ اي البعث والاعادة قُلْ عَسٰى اَنْ يَّكُوْنَ قَرِيْبًا اي هو قريب لان عسى في
كلام الله واجب الوقوع ومثله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا وكل ما هو آت قريب يَوْمَ
يَدْعُوْكُمْ الظرف منتصب بفعل مضمر اي اذكر او بدل من قريبا والتقدير يوم يدعوكم كان ما كان
والدعاء النداء الى المحشر بكلام يسمعه الخلائق وقيل هي الصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم
الى الاجتماع في ارض المحشر وقيل ان المنادي جبريل وان النافخ اسرافيل وصورة الدعاء والنداء ان
يقول ايتها العظام البالية والاوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يامركن ان تجتمعن
لفصل القضاء قاله الجلال المحلي في سورة ق فَتَسْتَجِيْبُوْنَ بِحَمْدِهٖ منقادين له حامدين لما فعله بكم و
قيل المعنى فتستجيبون والحمد لله اوله الحمد وقد روي ان الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون
سبحانك اللهم وبحمدك قاله سعيد بن جبير وقيل المراد بالدعاء هنا البعث وبالاستجابة انهم يبعثون
فالمعنى يوم نبعثكم فتبعثون منقادين والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة الا ان
الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي اوكد من الاجابة وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون
حامدين قال ابن عباس معنى بحمده بامره وقال قتادة بمعرفته وطاعته وَتَظُنُّوْنَ عند البعث اِنْ لَّبِثْتُمْ
ان نافية وهي معلقة للظن عن العمل وقل من يذكر ان النافية في ادوات تعليق هذا الباب اي ما
لبثتم في الدنيا او في قبوركم اِلَّا زمنا قَلِيْلًا وقيل بين النفختين وذلك ان العذاب يكف عن المعذبين
بين النفختين وذلك اربعون عاما ينامون فيها فلذلك قالوا من بعثنا من مرقدنا وقيل ان الدنيا
تحقرت في اعينهم وقلت حين راوا يوم القيامة لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة قاله قتادة وَقُلْ
يا محمد صلى الله عليه وسلم لِّعِبَادِيْ المؤمنين يَقُوْلُوْا عند محاورتهم للمشركين الكلمة الَّتِيْ هِيَ اَحْسَنُ من غيرها
من الكلام الخشن كان يقولوا لهم انكم من اهل النار فانه يهيجهم الى الشر مع ان عاقبتهم مغيبة عنا وهذا و

كقوله سبحانه ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وقوله فقولا له قولا لينا لأن المخاشنة لهم
ربما ينفرهم عن الاجابة أو تؤدي الى ما قال سبحانه ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا
بغير علم وهذا كان قبل نزول آية السيف وقيل المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى الله عنه
وقيل هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة والأول أولى كما يشهد له السبب قال ابن سيرين
يعني لا اله الا الله وعن ابن جريج في الآية قال يعفون عن السيئة وعن الحسن قال يقول له يرحمك
الله يغفر الله لك إن الشيطان ينزغ بينهم بالفساد وإلقاء العداوة والاغراء فلعل المخاشنة
معهم تفضي الى العناد وازدياد الفساد قال اليزيدي نزغ بيننا أي أفسد وقال غيره النزغ الاغراء قال
قتادة نزغ الشيطان تحريشه وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه واغتابه وبينهم أفسد وأغرى
ووسوس إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا أي متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها وهو تعليل
لما قبله وقد تقدم مثل هذا في البقرة ربكم أعلم بكم أي بعاقبة أمركم كما يدل عليه قوله إن يشأ
يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم قيل هذا خطاب للمشركين والمعنى إن يشأ يوفقكم للاسلام فيرحمكم
أو يميتكم على الشرك فيعذبكم وقيل هو خطاب للمؤمنين أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار
أو يرحمكم بالتوبة والايمان وإن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم وقيل إن هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن
وما أرسلناك عليهم وكيلا أي ما وكلناك في منعهم من الكفر وقسرهم على الايمان وقيل ما
جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم قيل نسختها آية القتال وربك أعلم بمن في السموات والأرض ذاتا
وحالا واستحقاقا فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب
نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه قاله البيضاوي أقول عبر بهذه العبارة حكاية عن الكفار وإلا فلا
يجوز إطلاقها على النبي صلعم حتى أنه أفتى بعض المالكية بقتل قائلها كما في الشفاء فكان ينبغي له تركها
وفي هذه الباء قولان أشهرهما أنها تتعلق بأعلم ولا يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما فقط والثاني
أنها متعلقة بيعلم مقدرا قاله الفارسي محتجا بأنه يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما وهو وهم
لأنه لا يلزم من ذكر الشيء نفي الحكم عما عداه وهذا هو الذي يقول الأصوليون إنه مفهوم اللقب ولم يقل به
إلا أبو بكر الدقاق في طائفة قليلة والأصح خلافه فالجمهور على أن اللقب لا يحتج به قاله الكرخي وتمام هذا
البحث في كتابنا حصول المأمول من علم الأصول فراجعه وهذه الآية أعم من قوله ربكم أعلم بكم لأن

هذا يشمل كل ما في السموات والارض من مخلوقاته وذلك خاص ببني آدم او ببعضهم وهذا كالتوطية لقوله وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ اي ان هذا التفضيل عن علم منه بمن هو اعلى رتبة وبمن هو دونه وبمن هو يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله اي فيخصهم بما شاء على قدر احوالهم وقيل يعني بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع حتى داؤد عليه السلام فان شرفه بما اوحى اليه من الكتاب كما ياتي لا بما اوتيه من الملك وقيل هو اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم هذا في البقرة وقد اتخذ الله ابراهيم خليلا وموسى كليما وجعل عيسى كلمته وروحه وجعل سليمان على نبينا وعليهم الصلوة والتسليمات ملكا عظيما وغفر لمحمد صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تاخر وجعله سيد ولد آدم وفي هذه الاية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل ثم ذكر ما فضل به داؤد فقال وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا اي كتابا مزبورا قال الزجاج اي فلا تنكروا تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن فقد اعطى الله داؤد زبورا وفيه دلالة على وجه تفضيله وانه خاتم الانبياء وان امته خير الامم لان ذلك مكتوب في الزبور قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون وهو محمد صلى الله عليه وسلم وامته وانما خص كتاب داؤد بالذكر لان اليهود زعمت انه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله هذا وتعريف الزبور تارة وتنكيره اخرى لما انه في الاصل فعول بمعنى المفعول او مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد ايتاء داؤد زبورا من الزبر فيه ذكره صلعم قال قتادة كنا نحدث ان الزبور دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا احكام وعن الربيع بن انس قال الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح قلت الامر كما قاله قتادة والربيع فانا وقفنا على الزبور فوجدناه خطبا يخطبها داؤد عليه السلام ويخاطب بها ربه عند دخوله الكنيسة وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزمور بفتح الميم الاولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء ففي بعض هذه الخطب يشكو داؤد على ربه من اعدائه ويستنصره عليهم وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع له من النصر عليهم والغلبة لهم وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة وهي آلة من الآلات الملاهي وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون الفاظا وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة فقد اغنى عنها

وعن غيرها مما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر قل ادعوا الذين زعمتم من دونه هذا رد
على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على انها صور الملائكة وعلى طائفة من اهل الكتاب كانوا
يقولون بالهية عيسى ومريم وعزير فامر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يقول لهم ادعوا الذين زعمتم
انهم آلهة من دون الله وقيل اراد بالذين زعمتم نفرا من الجن عبدهم ناس من العرب قال ابن عباس
كان اهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرا والشمس والقمر وانما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله
الآتي يبتغون الى ربهم الوسيلة فان هذا لا يليق بالجمادات وفي معنى ذلك عن ابن مسعود فلا يملكون
كشف الضر عنكم ولا تحويلا اي لا يستطيعون ذلك والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر وعلى
تحويله من حال الى حال ومن مكان الى مكان فوجب القطع بان هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة ثم ان الله
سبحانه اكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم الى الله في جلب المنافع ودفع المضار فقال اولئك
الذين يدعون قرئ بالتحتية على الخبر وقرأ ابن مسعود بالفوقية على الخطاب ولا خلاف في يبتغون
انه بالتحتية والضمير في الى ربهم يعود الى العابدين او المعبودين الوسيلة هي القربة بالطاعة والعبادة
اي يتضرعون الى الله في طلب ما يقربهم الى ربهم واخرج الترمذي وابن مردويه عن ابي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا الله لي الوسيلة قالوا وما الوسيلة قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية
ايهم اقرب بالوسيلة الى الله قال الزجاج اي يتقرب اليه بالعمل الصالح او يبتغي من هو اقرب اليه
تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه وقيل ان يبتغون مضمن معنى يحرصون اي يحرصون ايهم اقرب اليه
سبحانه بالطاعة والعبادة ويرجون رحمته كما يرجوها غيرهم ويخافون عذابه كما يخافه غيرهم فكيف
يزعمون انهم آلهة لان الاله لا يكون خائفا بالغير لمطلق ان عذاب ربك كان محذورا تعليل لقوله
يخافون اي ان عذابه سبحانه حقيق بان يحذره العباد من الملائكة والانبياء وغيرهم ثم بين سبحانه
مآل الدنيا واهلها فقال وان من قرية ان نافية ومن للاستغراق والمعنى اي ما من قرية اي قرية كانت من قرى الكفار
الا نحن مهلكوها قال الزجاج اي ما من اهل قرية الا سيهلكون اما بموت واما بعذاب مستأصل
وانما قال قبل يوم القيامة لان الاهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة بل يعم كل قرية لانقضاء
عمر الدنيا او معذبوها عذابا شديدا بالقتل وانواع العقاب اذا كفروا وعصوا وقيل الاهلاك
للصالحة والتعذيب للطالحة والاول اولى لقوله تعالى وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون

قال ابن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية اذن الله في هلاكها وهكذا ذكر في المدارك عن مقاتل
في تفسير هذه الاية عن كتب الضحاك خراب كل قرية خاصه وبلدة معينة بنوع خاص من العذاب
وهو مخصوص من الهلاك وليس بمرفوع حتى يعتمد عليه او يصار اليه كَانَ ذٰلِكَ المذكور من الاهلاك
والتعذيب فِي الْكِتٰبِ اي اللوح المحفوظ قاله ابراهيم التيمي مَسْطُوْرًا اي مكتوبا والسطر الخط وهو في
الاصل مصدر والسطر بالتحريك مثله والسطر جمع اسطار وجمع السطر بالسكون اسطر عن عبادة
بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما اكتب قال اكتب القدر
وما هو كائن الى يوم القيامة الى الابد اخرجه الترمذي وَمَا مَنَعَنَآ اَنْ نُّرْسِلَ بِالْاٰيٰتِ اِلَّآ اَنْ كَذَّبَ
بِهَا الْاَوَّلُوْنَ قال المفسرون ان اهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي
عنهم جبال مكة فاتاه جبريل فقال ان شئت كان ما سأله قومك ولكنهم ان لم يؤمنوا لم يمهلوا
وان شئت استأنيت بهم فانزل الله هذه الاية روى معنى هذا احمد والنسائي وغيرهما عن ابن عباس
واخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن انس قال قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو جئتنا باية كما جاء بها
صالح والنبيون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان شئتم دعوت الله فانزلها عليكم فان عصيتم هلكتم
فقالوا لا نريدها والمعنى وما منعنا من ارسال الايات التي سألوها الا تكذيب الاولين فان ارسلناها
وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده فالمنع مستعار للترك والاستثناء
مفرغ من اعم الاشياء اي ما تركنا ارسالها لشيء من الاشياء الا تكذيب الاولين فان كذب بها هؤلاء
كما كذب بها اولئك لحل بهم ما حل بهم لاشتراكهم في الكفر والعناد والحاصل ان المانع من ارسال الايات
التي اقترحوها هو ان الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستيصال وقد عزمنا على ان
نؤخر امر من بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل معنى الاية ان هؤلاء الكفار من قريش و
نحوهم مقلدون لاباءهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن اولئك فيكون ارسال الايات ضائعا ثم انه
سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته فانهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها
التي قد بينت في محل اخر واعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استوصلوا بالعذاب وانما خص قوم
صالح بالاستشهاد لان اثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وامثالهم يبصرها صادرهم
وواردهم فقال وَاٰتَيْنَا ثَمُوْدَ النَّاقَةَ اٰيَةً مُبْصِرَةً اي ذات ابصار يدركها الناس بابصارهم كقوله

وجعلنا آية النهار مبصرة أي أسند اليها حال من يشاهدها مجازا او انها جعلتهم ذوي ابصار من
ابصره اذا جعله بصيرا فظلموا بها اي بتكذيبها او فجحدوا بها وكفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر
او الجحد فعاجلناهم بالعقوبة وما نرسل بالآيات المقترحة الا تخويفا من نزول العذاب المستأصل
فان لم يخافوا نزل او بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن الا تخويفا بعذاب الآخرة فان امر
من بعثت اليهم موخر الى يوم القيامة اختلف في تفسير الآيات على وجوه الاول ان المراد بها العبر
والمعجزات التي جعلها الله على ايدي الرسل من دلائل الانذار تخويفا للمكذبين الثاني انها آيات الانتقام
تخويفا من المعاصي الثالث تقلب الاحوال من صغر الى شباب ثم الى تكهل ثم الى شيب ليعتبر الانسان بتقلب
احواله فيخاف عاقبة امره الرابع آيات القرآن الخامس الموت الذريع والمناسب للمقام تفسير
الآيات المذكورة بالآيات المقترحة كما تقدم ولما ذكر سبحانه الامتناع من ارسال الآيات المقترحة
على رسوله صلى الله عليه وسلم للصارف المذكور قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال واذكر اذ قلنا لك ان
ربك احاط بالناس يعني انهم في قبضته وتحت قدرته فلا سبيل لهم الى الخروج مما يريده بهم لاحاطته
بهم بعلمه وقدرته وقيل المراد بالناس اهل مكة واحاطته بهم اهلاكه اياهم اي ان الله سيهلكهم
وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه وذلك كما وقع في يوم بدر ويوم الفتح وقيل المراد انه سبحانه
عصمه من الناس ان يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس
لما بين سبحانه ان انزال الآيات يتضمن التخويف ضم اليه ذكر آية الاسراء وهي المذكورة في صدر السورة
وسماها رؤيا لانها وقعت بالليل او لان الكفرة قالوا لعلها رؤيا وقد قدمنا في صدر السورة وجها آخر في
تفسير هذه الرؤيا وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا اسلموا حين اخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم انه اسري به
وقيل كانت رؤيا نوم وان النبي صلى الله عليه وسلم رأى انه يدخل مكة هو واصحابه وهو يومئذ بالمدينة
فسار الى مكة قبل الاجل فرده المشركون فقال ناس قد رد وقد كان حدثنا انه سيدخلها فكانت
رجعته فتنتهم فافتتن المسلمون لذلك فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى لقد صدق الله رسوله
الرؤيا بالحق وقد تعقب هذا بان هذه الآية مكية والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة واجيب بانه لا يبعد
انه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان تحقيقه بالمدينة وفيه تكلف قيل ان هذه الرؤيا هي انه رأى
بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فقيل انما هي الدنيا اعطوها فسري عنه

وفيه ضعيف جدا فانه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا الا ان يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ويراد بالفتنة ما حصل من الاساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم او يحمل على انه قد كان اخبر الناس بها فافتتنوا وقيل ان الله سبحانه اراه في المنام مصارع قريش حتى قال والله لكاني انظر الى مصارع القوم وهو يومي الى الارض ويقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمع ذلك قريش جعلوا رؤياه سخرية وقد تعارضت هذه الاسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير الى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الاية قصة الاسراء فتعين ذلك قال ابن عباس رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة اسري به الى بيت المقدس اخرجه البخاري وبه قال سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم وقد حكى ابن كثير اجماع الحجة من اهل التاويل على ذلك في الرؤيا في تفسير الشجرة الاتية وانها شجرة الزقوم فلا اعتبار بغيرهم معهم ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْاٰنِ﴾ عطف على الرؤيا قيل والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي اريناك والشجرة الملعونة في القران الا فتنة للناس قال جمهور المفسرين هي شجرة الزقوم وكذا اخرجه احمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس والمراد بلعنها لعن اكلها كما قال سبحانه ان شجرة الزقوم طعام الاثيم قال الزجاج ان العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون ولان اللعن هو الابعاد من الرحمة وهي في اصل الجحيم في ابعد مكان من الرحمة ومعنى الفتنة فيها ان ابا جهل وغيره قالوا زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجر ثم يقول تنبت فيه الشجر فانزل الله هذه الاية وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تاكله النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها و خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها فجاز ان يخلق في النار شجرة لا تحرقها وروي ان ابا جهل امر جارية فاحضرت تمرا وزبدا وقال لاصحابه تزقموا وقال ابن الزبعرى كثر الله من الزقوم في داركم فانه التمر بالزبد بلغة اليمن وقيل هي تلتوي على الشجرة فتقتلها وهي شجرة الكشوث وقيل هي الشيطان وقيل هي اليهود وقيل بنو امية وعن عايشة انها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابيك وجدك انكم الشجرة الملعونة في القران وفي هذه نكارة ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالايات وبنحو ذلك ثمنا وايثار ضيفه

الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار فَمَا يَزِيدُهُمْ التخويف إِلَّا طُغْيَانًا تجاوز الحد متماديا غاية التمادي كَبِيرًا فما يفيدهم ارسال الآيات الا الزيادة في الكفر فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار وهو عذاب الاستيصال ولكنا قد قضينا بتاخير العقوبة ولما ذكر سبحانه ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة اراد ان يبين ان جميع الانبياء على نبينا وعليهم الصلوة والسلام كانوا كذلك حتى ان هذه عادة قديمة سنها ابليس اللعين وايضا المذكور ان الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر ههنا ما يحقق ذلك فقال وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع في البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص وقد تقدم تفسيرها مبسوطا فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا نصب بنزع الخافض اي من طين كما صرح به في الآية الاخرى وخلقته من طين وذلك ان آدم خلق من تراب الارض من عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي قال الزجاج منصوب على الحال او التمييز وتبعه ابن عطية ولا يظهر ذلك اذ لم يتقدم ابهام ذات ولا نسبة قَالَ أَرَأَيْتَكَ اي اخبرني عن هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ اي فضلته عَلَيَّ وقد خلقتني من نار ولم يجبه عن هذا السوال اهمالا له وتحقيرا حيث اعترض على مولاه وساله بلم لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ اي لاستولين عليهم بالاغواء والاضلال قال الواحدي اصله من احتناك الجراد الزرع وهو ان تستاصله باحناكها وتفسده وهذا هو الاصل ثم سمي الاستيلاء على الشيء واخذه كله احتناكا من حنك الدابة اذا جعل الرسن في حنكها في المختار حنك الفرس جعل في فيه الرسن وبابه نصر وضرب والحنك المنقار يقال اسود مثل حنك الغراب واسود حالك مثل حالك والحنك ما تحت الذقن من الانسان والمعنى الاول انسب بمعنى هذه الآية وقال مجاهد المعنى لاحتوينهم وعن ابن زيد قال لاضلنهم وقيل لاقودنهم كيف شئت وانما اقسم اللعين هذا القسم على انه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلمه قد سبق اليه من سمع استرقه او انه استنبط ذلك من قول الملائكة اتجعل فيها من يفسد فيها وقيل علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات او ظن ذلك لانه وسوس لآدم فقبل منه ذلك ولم يجد له عزما كما روي عن الحسن او قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده في

بني آدم وانه يجري منهم في مجاري الدم وانهم بحيث يروج عندهم كيده ويتفق لديهم وسوسته
الا من عصم الله كالانبياء وصلحاء هذه الامة وهم المرادون بقوله إِلَّا قَلِيلًا قيل من كل الف واحد
وفي معنى هذا الاستثناء قوله تعالى سبحانه ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ويؤيد ما ذكرنا
قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فانه يفيد انه قال ما قاله هنا اعتمادا على الظن قال
الله تعالى اذْهَبْ ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وانما معناه امض لشانك الذي اخترته خذلانا
وتخلية امره باوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف لانها كلها معاص والله
لا يامر بها والمعنى اذهب منظرا الى وقت النفخة الاولى مع ان غرضه الامهال والانظار الى النفخة الثانية
وغرضه بذلك طلب ان لا يموت اصلا لانه يعلم انه لا موت بعد النفخة الثانية ثم عقب الذهاب
بذكر ما جره سوء اختياره فقال فَمَنْ تَبِعَكَ واطاعك مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ اي ابليس ومن
اطاعه غلب المخاطب الذي هو اللعين لانه سبب في الاغواء فمن تبعه مذكور في ضمن هذا الخطاب
وهذا كاف في الربط او الخطاب للتغليب لانه تقدم غائب ومخاطب في قوله فمن تبعك منهم فغلب
المخاطب ويكون الخطاب مرادا به من خاصه ويكون ذلك على سبيل الالتفات جَزَاءً مَوْفُورًا اي وافرا
مكملا وقيل موفرا اضمار يجازون يقال وفرته افره وفرا وفر المال بنفسه يفر وفورا فهو وافر فهو مصدر
ثم ذكر سبحانه الامهال لابليس اللعين فقال وَاسْتَفْزِزْ اي استزعج واستخف واستزل واستجهل مَنِ
اسْتَطَعْتَ ان تستفزه مِنْهُمْ اي من بني آدم يقال افزه واستفزه اي ازعجه واستخفه والمعنى استخفهم
بِصَوْتِكَ داعيا لهم الى معصية الله وقيل هو الوسوسة والغناء واللهو واللعب والمزامير وَأَجْلِبْ
قال الفراء وابو عبيدة من الجلبة والصياح اي صح عَلَيْهِمْ وقال الزجاج اي اجمع عليهم كل ما تقدر
عليه من مكائدك وحبائلك واحثهم على الاغواء فالاجلاب الجمع وقال ابن السكيت الاجلاب الاعانة
اي استعن عليهم وتصرف فيهم بكل ما تقدر والامر للتهديد كما يقال اجتهد جهدك فسترى ما
ينزل بك بِخَيْلِكَ اي بركبان جندك والخيل يقع على الفرسان كقوله صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي ويقع
على الافراس قاله ابن السكيت قيل الباء للملابسة اي صح وصوت عليهم حال كونك متلبسا ومصحوبا
بجنودك الركاب والخيل تطلق على النوع المعروف وعلى الراكبين لها والمراد هنا الثاني قلت كون الباء للملابسة
بعيد من حيث المعنى المراد كما تدل عليه عبارة اللغويين واللائق بها ان تكون زائدة وقد نص الشهاب

على زيادتها وفي المختار جلب على فرسه يجلب جلبا صاح به من خلفه واستحثه للسبق وكذا اجلب عليه وهذا يقتضي زيادة الباء والمعنى حث واسرع عليهم جنك خيلا ومشاة لبدركهم وتمكن منهم فليتامل وَرَجِلِكَ اي مشاتك يقال ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فكل من ركب او مشى في معصية الله فهو من جند ابليس والرجل بسكون الجيم جمع راجل كتاجر وتجر وصاحب وصحب وقال ابو زيد يقال رجل ورجل بمعنى راجل، وقيل اسم لراجل بمعنى الماشي وقرئ في السبعة بكسر الجيم وهو مفرد بمعنى الجمع فهو بمعنى المشاة فالخيل والرجل كناية عن جميع مكائد الشيطان او المراد ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك والحمل على الظاهر اولى وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ اما المشاركة في الاموال فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان اخذا من غير حق او وضعا في غير حق كالغصب والسرقة والربا ومن ذلك تبتيك آذان الانعام وجعلها بحيرة وسائبة والمشاركة في الاولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات والعزى والاساءة في تربيتهم على وجه يالفون فيه خصال الشر وافعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من اولادهم خشية املاق ووأد البنات وتصيير اولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها من الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة ومن ذلك مشاركة الشيطان للجامع اذا لم يسم وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن ثم قال وَعِدْهُمْ بانهم لا يبعثون قاله الزجاج وقال الفراء اي قل لهم لا جنة ولا نار وقيل وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من النصرة على من خالفهم وشفاعة الآلهة والكرامة على الله بالانساب الشريفة والاتكال على كرامة الله وتاخير التوبة لطول الامل وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك وهذا على طريق التهديد كقوله اعملوا ما شئتم وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا اي باطلا اعتراض لبيان مواعيده فانه وقع بين الجمل التي خاطب الله بها الشيطان وفيه اظهار في مقام الاضمار والالتفات عن الخطاب الى الغيبة وكان مقتضى الظاهر ان يقال وما تعدهم الا غرورا واصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ يعني عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من ان اضافة العباد اليه يراد بها المؤمنون لما في الاضافة من التشريف وقيل المراد الانبياء واهل الصلاح والفضل لانه لا يقدر على اغوائهم وقيل المراد جميع العباد

بدليل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع الا من اتبعك من الغاوين والمراد بالسلطان التسلط
وكفى بربك الباء زائدة في الفاعل وكيلا يتوكلون عليه فهو الذي يدفع عنهم كيدك ويعصمهم
من اغوائك ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمته ولا قوة على طاعته الا بقوته
ربكم الذي يزجي الازجاء السوق والدفع والاجراء والتسيير ومنه قوله تعالى الم تر ان الله يزجي
سحابا وهذا تعليل لكفايته وبيان لقدرته على عصمة من توكل عليه في اموره وشروع في تذكير
بعض النعم عليهم حملا لهم على الايمان والمعنى ان الله سبحانه يسير لكم الفلك في البحر بالريح والفلك
هنا جمع بمعنى السفائن وقد تقدم والبحر هو الماء الكثير عذبا كان او مالحا وقد غلب هذا الاسم على
المشهور لتبتغوا من فضله اي من رزقه الذي تفضل به على عباده ومن الربح بالتجارة او انواع الامتعة
التي لا تكون عندكم ومن زائدة او للتبعيض وفي هذه الاية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا
يشركوا به احدا انه كان بكم رحيما تعليل ثان لما تقدم اي فهداكم الى مصالح دنياكم واذا مسكم الضر يعني خوف
الغرق في البحر ضل من تدعون من الالهة وذهب عن خواطركم ولم يوجد لاغاثتكم ما كنتم تدعون
من دونه من صنم او جن او ملك او بشر او حجر في حوادثكم الا اياه وحده فانكم تعقدون رجاءكم برحمته
واغاثته والاستثناء متصل ان كان المراد عن جميع الالهة ومنقطع ان كان المراد بها غيره تعالى
ومعنى الاية ان الكفار انما يعتقدون في اصنامهم وسائر معبوداتهم انها نافعة لهم في غير هذه
الحالة فاما في هذه الحالة فان كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته ان الاصنام
ونحوها لا فعل لها فلما نجاكم من الغرق واوصلكم الى البر اعرضتم عن الاخلاص لله وتوحيده ورجعتم
الى دعاء اصنامكم والاستغاثة بها وكان الانسان كفورا اي كثير الكفران لنعمة الله وهذا تعليل لما تقدم من
اعراضهم والمعنى انهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله وفي الرخاء يعرضون عنه وترك فيه خطابهم
تلطفا بهم حيث لم يقل وكنتم كفارا ثم انكر عليهم سبحانه سوء معاملتهم قائلا افامنتم ان
يخسف بكم جانب البر الهمزة للانكار والتوبيخ والتقريع والفاء عاطفة على مقدر والتقدير انجوتم من الغرق
فامنتم فحملكم ذلك على الاعراض فبين لهم انه قادر على اهلاكهم في البر وان سلموا من البحر لان الجهات كلها
له وفي قدرته برا كان او بحرا يعني ان كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لانه تغييب تحت
الثرى كما ان الغرق تغييب تحت الماء واصل الخسف ان تنهار الارض بالشيء يقال بئر خسيف

اذا انهدم اصلها وعين خاسفة اي غائرة حدقتها في الراس وخسفت عين الماء اذا غار ماؤها وخسفت الشمس اذا غابت عن الارض وجانب البر ناحية الارض وسماه جانبا لانه يصير بعد الخسف جانبا وايضا فان البحر جانب من الارض والبر جانب منها قيل انهم كانوا على ساحل البحر وساحله جانب البر فكانوا فيه امنين من مخاوف البحر فحذرهم ما امنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر وقال السمين المعنى جانب البر الذي انتم فيه فيلزم من خسفه هلاككم ولولا هذا التقدير لم تكن في التوعد به فائدة انتهى وجملة هذه الافعال خمسة وكلها تقرأ بالياء ولا التفات ثم وبالنون التفاتا عن الغيبة الى التكلم والقراءتان سبعيتان او يرسل عليكم حاصبا قال ابو عبيدة والقتيبي الحصب الرمي اي ريحا شديدة حاصبة وهي التي ترمي بالحصباء الصغار وقال الزجاج الحاصب التراب الذي فيه حصباء فالحاصب هو ذو الحصباء كاللابن والتامر وقيل الحاصب حجارة من السماء قاله قتادة تحصبهم كما فعل بقوم لوط ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب ثم لا تجدوا لكم وكيلا اي حافظا ونصيرا يمنعكم من باس الله ام متصلة اي اي الامرين كائن او منقطعة اي بل امنتم ان يعيدكم فيه اي في البحر وجاء بفي ولم يقل الى البحر للدلالة على استقرارهم فيه تارة اي مرة اخرى بان يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم الى ركوبه وهو مصدر ويجمع على تيرة وتارات والفها واو وياء فيرسل عليكم قاصفا من الريح القاصف الريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه من باب ضرب اي كسره بشدة والقصف الكسر او هو الريح التي لها قصف اي صوت شديد من قولهم رعد قاصف اي شديد الصوت وقال ابن عباس الريح التي تغرق وقال ابن عمر القاصف العاصف في البحر فيغرقكم وقرئ بالفوقية على ان فاعله الريح بما كفرتم اي بسبب كفركم اي بالسبب الذي كفرتم به وما مصدرية او بمعنى الذي ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا اي نصيرا قاله ابن عباس او ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم قال الزجاج لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم قال النحاس وهو من الثار وكذا يقال لكل من طلب بثار وغيره تبيع وتابع ولقد كرمنا هذا اجمال لذكر النعمة التي انعم الله على بني ادم اي كرمناهم جميعا وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة المعتدلة والطهارة بعد الموت وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر انواع الحيوان مثله وحكى ابن جرير عن جماعة ان هذا التكريم هو انهم ياكلون بايديهم وسائر الحيوانات تاكل بافواهها

وكذا حكاه النحاس وقيل ميزهم بالنطق والعقل والتمييز وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن التقويم والتصوير وقيل اكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقال ابن جرير اكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم وقيل بالكلام والخط والفهم وقيل بحسن تدبيرهم في امور المعاش والمعاد وقيل بان منهم خير امة اخرجت للناس ولا مانع من حمل التكريم على جميع هذه الاشياء واعظم خصال التكريم العقل فانهم به تسلطوا على جميع الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الاموال التي تسببوا بها الى تحصيل امور لا يقدر عليها سائر الحيوان وبه قدروا على تحصيل الابنية التي تمنعهم مما يخافون وعلى تحصيل الاكسية التي تقيهم الحر والبرد وقيل تكريمهم هو ان جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم واخرج الطبراني والبيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من شيء اكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال ولا الملائكة الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر واخرج الطبراني عن ابن عمر وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الملائكة قالت يا رب اعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا ناكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا اجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت كن فكان وَحَمَلْنَاهُمْ هذا تخصيص وتاكيد لبعض انواع التكريم حملهم سبحانه فِي الْبَرِّ على الدواب كالابل والخيل والبغال والحمير وَفِي الْبَحْرِ على السفن وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم والمعنى جعلناهم قادرين فيهما بواسطة او دونها كما في السباحة في الماء وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ اي لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به وقيل المراد الزبد والتمر والحلوى وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى وقيل ان جميع الاغذية اما نباتية كالثمار والحبوب واما حيوانية كاللحم والسمن واللبن ولا يتغذى الانسان الا باطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الانسان وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا والاقرب في الفرق بين التكريم والتفضيل ان يقال ان الله كرم الانسان على سائر الحيوان بامور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل ثم عرفه بواسطة اكتساب العقائد الصحيحة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثاني هو التفضيل اجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين انواعه فافاد ذلك ان بني آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته لا على الكل وقد شغل كثير من اهل

المسلم بما لم تكن اليه حاجة ولا تتعلق به فائدة وهو مسئلة تفضيل الملائكة على الانبياء او الانبياء
على الملائكة ومن جملة ما تمسك به مفضلو الانبياء عليهم السلام على الملائكة هذه الآية ولا دلالة
لها على المطلوب لما عرفت من اجمال الكثير وعدم تبيينه والتعصب في هذه المسئلة هو الذي حمل
بعض الاشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة وهو تعسف لا حاجة
اليه وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء ولا دلالة لها على ذلك
فانه لم يقم دليل على ان الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ولو سلمنا ذلك فليس فيما
خرج عن هذا الكثير ما يفيد انه افضل من بني آدم بل غاية ما فيه انه لم يكن الانسان مفضلا عليه
فيحتمل ان يكون مساويا للانسان ويحتمل ان يكون افضل منه ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال والتأكيد
بقوله تفضيلا يدل على عظم هذا التفضيل وانه بمكان مكين فعلى بني آدم ان يتلقوه بالشكر و
يحذروا من كفرانه يوم اي اذكر يوم ندعو كل اناس بامامهم قال الزجاج يعني يوم القيامة وقرئ
يدعو بالتحتية ويدعى على المجهول والاناس من الناس اسم جمع يقع على المذكر والمؤنث والواحد و
الجمع والاناس فعال بضم الفاء ويجوز حذف الهمزة تخفيفا على غير قياس فيبقى ناس ووزنه عال
والباء للالصاق كما تقول ادعوك باسمك ويجوز ان تكون متعلقة بمحذوف هو حال والتقدير ندعو
كل اناس متلبسين بامامهم اي يدعون وامامهم فيهم نحو ركب الامير بجنوده والاول اولى والامام في اللغة
كل ما يؤتم به من نبي او مقدم في الدين او كتاب وقد اختلف المفسرون في تعيين الامام الذي يدعى
كل اناس به فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك انه كتاب كل انسان الذي فيه عمله اي يدعى
كل انسان بكتاب عمله ويؤيد هذا قوله فاما من اوتي كتابه الآية وقال ابن زيد الامام هو الكتاب المنزل
عليهم فيدعى اهل التوراة بالتوراة واهل الانجيل بالانجيل واهل القرآن بالقرآن فيقال يا اهل التوراة يا
اهل الانجيل يا اهل القرآن وقال مجاهد وقتادة امامهم نبيهم وعن انس مثله فيقال هاتوا متبعي ابراهيم هاتوا
متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وبه قال الزجاج وروي عن ابي هريرة مرفوعا ايضا فلينظر في
سنده وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه المراد بالامام امام عصرهم فيدعى اهل كل عصر بامامهم الذي كانوا
يأتمرون بامره وينتهون بنهيه وقال الحسن وابو هريرة وابو العالية المراد بامامهم اعمالهم فيقال مثلا اين
المجاهدون اين الصابرون اين الصائمون اين المصلون ونحو ذلك وروي عن ابن عباس وابي هريرة وقال

ابن عبيدة المراد بامامهم صاحب مذهبهم فيقال مثلا ابن التابعين للعالم فلان بن فلان وهذا من البعد بمكان وايضا في هذا القول نظر فان في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الاولين والآخرين يوم القيامة دفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان بن فلان اخرجه البخاري ومسلم وهذا دليل على ان الناس يدعون باسمائهم واسماء ابائهم ويرد على من قال انما يدعون باسماء امهاتهم لان في ذلك سترا على ابائهم ولذا قال الزمخشري ومن بدع التفاسير ان الامام جمع ام وانهم يدعون بامهاتهم دون ابائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لا يفتضح اولاد الزنا وقال محمد بن كعب بامامهم بامهاتهم على ان اماما جمع ام كخف وخفاف وهذا بعيد جدا قال القرطبي قيل بمذاهبهم فيدعون بما كانوا ياتمون به في الدنيا ويقلدونه فيقال يا حنفي يا شافعي يا معتزلي يا قدري ونحو ذلك وهذا كالاول بل ابعد منه وقيل الامام هو كل خلق حسن يظهر من الانسان كالعلم والكرم والشجاعة او قبيح كاضدادها فالداعي الى تلك الافعال خلق باطن هو كالامام ذكره الرازي في تفسيره وعن ابن عباس قال بامامهم امام هدى وامام ضلالة وعنه ايضا بامام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم واخرج الترمذي وحسنه والبزاز وابن ابي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الاية انه قال يدعى احدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ويجعل على راسه تاج من لؤلؤ يتلالا فينطلق الى اصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى ياتيهم فيقول ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا واما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستين ذراعا على صورة ادم ويلبس تاجا فيراه اصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تاتنا بهذا قال فياتيهم فيقولون اللهم اخزه فيقول ابعدكم الله فان لكل رجل منكم مثل هذا قال البزار بعد اخراجه لا يروى الا من هذا الوجه **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** من اولئك المدعوين وهم السعداء اولو البصائر وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير **فَأُولَٰئِكَ** اشارة الى من باعتبار معناه قيل وجه الجمع الاشارة الى انهم مجتمعون على شان جليل او الاشعار بان قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد **يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ** الذي اوتوه **وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** اي لا

بنقصون من اجرهم قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة او هو عبارة عن اقل شيء وفي
النواة امور ثلثة فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولا والقطمير وهو قشرة النواة والنقير
وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها ولم يذكر اصحاب الشمال تصريحا ولكنه ذكر سبحانه مما يدل على
حالهم القبيح فقال ومن كان من المدعوين في هذه الدنيا اعمى اي فاقد البصيرة وهو الذي يعطى
كتابه بشماله فهذا فيه المقابل من حيث المعنى ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان حسبما هو الواقع
في سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى واما ان كان من المكذبين
الضالين الخ بعد قوله فاما ان كان من اصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر
في احد الجانبين المسبب وفي الاخر السبب ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الاخر تعويلا على شهادة
العقل كما في قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ذكره
ابو السعود قال النيسابوري لا خلاف ان المراد بهذا العمى عمى القلب لا عمى البصر واما قوله فهو في الآخرة
التي لم تعاين ولم تر اعمى فيحتمل ان يراد به عمى البصر كقوله ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني
اعمى وقد كنت بصيرا وفي هذا زيادة العقوبة ويحتمل ان يراد عمى القلب وقيل المراد بالآخرة عمل
الآخرة اي فهو في عمل الآخرة او في امرها اعمى وقيل المراد من عمي عن النعم التي انعم الله بها عليه في
الدنيا فهو عن نعم الآخرة اعمى وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة اعمى فهو في الآخرة التي لا
توبة فيها اعمى وقيل من كان في الدنيا عن حجج الله اعمى فهو في الآخرة اعمى وقد قيل ان قوله فهو في
الآخرة اعمى افعل تفضيل اي اشد عمى وهذا مبني على انه من عمى القلب اذ لا يقال ذلك في عمى العين
قال الخليل وسيبويه لانه خلقة بمنزلة اليد والرجل فلا يقال ما اعماه كما لا يقال ما ايداه وقال الاخفش
لا يقال فيه ذلك لانه اكثر من ثلاثة احرف وقد حكى الفراء عن بعض العرب انه سمعه يقول ما اسود
شعره والبحث مستوفى في النحو واضل سبيلا من الاعمى لكونه لا يجد طريقا الى الهداية بخلاف الاعمى فانه
قد يهتدي في بعض الاحوال قال ابن عباس من كان في الدنيا اعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء
والارض والجبال والبحار والناس والدواب واشباه ذلك فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره
اعمى وابعد حجة ثم لما عدد سبحانه في الآية المتقدمة اقسام النعم على بني ادم اردفه بما يجري مجرى
التحذير من الاغترار بوساوس الاشقياء فقال وان كادوا ليفتنونك المعنى ان الشأن انهم قد

فاربعوا ان يخدعوك فاتنين واصل الفتنة الاختبار ومنه فتن الصائغ الذهب ثم استعمل في كل من ازال الشيء عن حده وجهته عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ من الاوامر والنواهي والوعد والوعيد لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ اي لتتقول وتكذب علينا غير الذي اوحينا اليك مما اقترحه علينا كفار قريش لم نقله وذلك لان في اعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك وعن ابن عباس قال ان امية بن خلف وابا جهل بن هشام ورجالا من قريش اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك في دينك فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب اسلامهم فرق لهم فانزل الله هذه الآية وعن جابر بن عبد الله مثله وعن سعيد بن جبير قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافه فانزل الله وان كادوا ليفتنونك الآية وعن ابن شهاب نحوه وعن جبير بن نفير ان قريشا اتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ان كنت ارسلت الينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن اصحابك فركن اليهم فاوحى الله اليه هذه الآية وقال الجلال السيوطي وغيره ان ثقيفا سألوه صلى الله عليه وسلم ان يحرم واديهم والحوا عليه فنزلت هذه الآية وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا اي لو اتبعت اهواءهم لوالوك ووافوك وصافوك مأخوذ من الخلة بفتح الخاء وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ على الحق وعصمناك من موافقتهم لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ اي لقاربت ان تميل اليهم ادنى ميل والركون هو الميل اليسير ولهذا قال شَيْئًا قَلِيلًا لكن ادركته صلى الله عليه وسلم العصمة فمنعته من ان يقرب من ادنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا دليل على انه صلى الله عليه وسلم ما هم باجابتهم ذكره معناه القشيري وغيره والنظم صريح في انه لم يركن اي بالكلية ولا قارب اي بمنطوق التركيب ذلك لان لولا حرف امتناع لوجود فالترتيب يدل على امتناع القرب من الركون واذا امتنع القرب منه امتنع هو بالصغرى وقيل المعنى وان كادوا ليخبرون عنك بانك ملت الى قولهم فنسب فعلهم اليه مجازا واتساعا كما تقول للرجل كدت تقتل نفسك اي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ذكر معناه المهدوي ثم توعده سبحانه في ذلك اشد الوعيد فقال إِذًا اي لو قاربت ان تركن اليهم لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ اي مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين والمعنى عذابا ضعفا في الحيوة وعذابا ضعفا في الممات لشيه مضاعفا ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه واضيفت وذلك لان خطأ العظيم عظيم

كما قال سبحانه يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وضعف
الشيء مثلاه وقد يكون الضعف النصيب كقوله لكل ضعف اي نصيب قال الرازي حاصل الكلام انك
لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك
في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة ثم لا تجد
لك علينا نصيرا ينصرك فيدفع عنك ويمنع منك هذا العذاب قال النيسابوري اعلم ان القرب من
الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الاقدام عليها فلا يلزم من الآية
طعن في العصمة وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها الكلام في هذا كالكلام في وان
كادوا ليفتنونك سابقا وان الشأن انهم قاربوا ان يزعجوك بعداوتهم ومكرهم من ارض مكة لتخرج عنها
ولكنه لم يقع ذلك منهم بل منعهم الله عنه حتى هاجر بامر ربه بعد ان هموا به والاستفزاز الازعاج
وقيل انه اطلق الاخراج على ارادة الاخراج تجوزا قال سعيد بن جبير قال المشركون لرسول الله صلى الله
عليه وسلم كانت الانبياء تسكن الشام فمالك والمدينة فهم ان يشخص فانزل الله وان كادوا الآية واذا لا
يلبثون خلافك اي لا يبقون بعد اخراجك الا لبثا او زمنا قليلا حتى يهلكوا ثم يعاقبون عقوبة
تستأصلهم جميعا قال ابن عباس يعني بالقليل يوم اخذهم ببدر فكان ذلك هو القليل الذي لبثوا
بعده قال ابن الانباري خلافك بمعنى مخالفك وقال قتادة هم اهل مكة باخراج النبي صلى الله عليه وسلم
منها وقد فعلوا بعد ذلك فاهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده الا قليلا وكذلك كانت سنة الله
في الرسل اذا فعل بهم قومهم مثل ذلك سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا اي سن الله سنة
قال الفراء اي يعذبون كسنة من قد ارسلنا وقيل المعنى سنتنا سنة من قد ارسلنا وقيل انت تتبع
سنة من وقال الزجاج يقول ان سنتنا هذه السنة فيمن ارسلنا قبلك اليهم انهم اذا اخرجوا نبيهم من بين
اظهرهم او قتلوه ان ينزل العذاب بهم ولا تجد لسنتنا تحويلا اي ما اجرى الله به العادة
لم يتمكن احد من تحويله ولا يقدر على تغييره ولما ذكر سبحانه الالهيات والمعاد والجزاء اردفها
بذكر اشرف الطاعات وهي الصلوة فقال اقم الصلوة لدلوك الشمس اجمع المفسرون على ان المراد
بها الصلوات المفروضة وقد اختلف العلماء في الدلوك على قولين احدهما انه زوال الشمس عن كبد
السماء قاله عمر وابنه وابو هريرة وابن عباس وجابر والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة

والضحاك وابو جعفر الباقر واكثر التابعين واختاره ابن جرير والقول الثاني انه غروب الشمس قاله علي وابن مسعود وابي بن كعب ويروي عن ابن عباس وبه قال النخعي ومقاتل والضحاك والسدي قال الفراء دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها قال الازهري معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا افلت دالكة لانها في الحالتين زائلة قال والقول عندي انه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس واصل هذه المادة اي ماتركب من الدال واللام والكاف يدل على التحول والانتقال ومنه الدلك فان اليد لا تستقر بل تتحرك ومنه دلوك الشمس ففي الزوال انتقال من وسط السماء الى ما يليه وكذا كل ماتركب من الدال واللام بقطع النظر عن آخره يدل على ذلك كدلج بالجيم من الدلجة وهي سير الليل و الانتقال فيه من مكان الى مكان آخر ودلح بالحاء المهملة اذا مشى مشيا متثاقلا ودلع بالعين المهملة اذا اخرج لسانه ودلف بالفاء اذا مشى مشي المقيد او بالقاف لاخراج الماء من مقره وله اذا ذهب عقله ففيه انتقال معنوي وقال ابو عبيد دلوكها غروبها ودلكت براح اي غابت وبراح اسم من اسماء الشمس على وزن حذام وقطام وعن ابن عمر قال دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار وعن ابن عباس قال اذا فاء الفيء وعن عقبة بن عمرو مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر الحديث اخرجه ابن جرير وعن ابي برزة الاسلمي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر اذا زالت الشمس ثم تلى اقم الصلوة لدلوك الشمس والحاصل ان اللفظ يجمعهما لان اصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت والحمل على الزوال اولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلوة كلها كما ذكروا وعلى الثاني يخرج الظهر والعصر وفي هذه اللام وجهان احدهما انها بمعنى بعد ومثله قولهم كتبته لثلاث خلون والثاني انها على بابها اي لاجل دلوك قال الواحدي لانها انما تجب بزوال الشمس وفيه ثلاثة اقوال اشهرها انه الزوال وهو نصف النهار والثاني انه من الزوال الى الغروب والثالث انه الغروب الى غسق الليل اي اجتماع الظلمة قاله ابن عباس وقال الفراء والزجاج يقال غسق الليل واغسق اذا اقبل بظلامه وقيل مغيب الشفق وهذا ابتداء المغرب والعشاء والجار متعلق باقم لانتهاء غاية الاقامة او اقمها ممدودة اليه قاله ابو البقاء وفيه نظر من حيث

انه قدر المتعلق كونا مقيدا لانه يريد تفسير المعنى لا الاعراب والغسق دخول اول الليل قاله ابن
شميل وقيل هو سواد الليل وظلمته واصله من السيلان يقال غسقت العين اي سال دمعها
فكأن الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم ويقال غسق الجرح امتلأ دما فكأن الظلمة ملأت
الوجود والمراد في قوله من شر غاسق القمر اذا كسف واسود وقيل الليل والغساق بالتخفيف و
التشديد ما يسيل من صديد اهل النار ويقال غسق الليل واغسق وظلم واظلم ودجى وادجى
وغبش واغبش نقله الفراء قاله السمين وقد استدل بهذه الغاية من قال ان صلوة الظهر يتمادى
وقتها من الزوال الى الغروب روي ذلك عن الاوزاعي وابي حنيفة وجوزه مالك والشافعي في حال
الضرورة وقد وردت الاحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعيين اوقات
الصلوات فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك ومعنى الآية اقم
الصلوة من وقت دلوك الشمس الى غسق الليل فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل وهما
العشاءان ثم قال وقرآن الفجر اي اقم قاله الفراء وقال الاخفش وتبعه ابو البقاء وعليك قرآن
الفجر واصول البصريين تأبى هذا لان اسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقيل الزم قرآن الفجر قال المفسرون
المراد به صلوة الصبح عبر عنها ببعض اركانها قال الزجاج وفي هذه فائدة عظيمة تدل على ان الصلوة لا
تكون الا بقراءة حتى سميت الصلوة قرآنا وهو حجة على الاصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن وقد
دلت الاحاديث الصحيحة على انه لا صلوة الا بفاتحة الكتاب وفي بعض الاحاديث الخارجة من مخرج
حسن وقرآن معها وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة وسميت صلوة الصبح قرآنا
لطول قراءتها وهو عطف على الصلوة وقد حرر الشوكاني في مؤلفاته تحريرا مجودا ثم علل سبحانه
ذلك بقوله إن قرآن الفجر كان مشهودا اي تشهده وتحضره ملائكة الليل وملائكة النهار
كما ورد ذلك في الحديث الصحيح الآتي وبذلك قال جمهور المفسرين فينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء
فهو في آخر ديوان الليل واول ديوان النهار وقال الشهاب اي الكاتبون والحفظة او يشهده
الكثير من المصلين في العادة والاول اولى وقد اخرج احمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة
وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها وهو في الصحيحين

عنه مرفوعا بلفظ يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلوة الفجر ثم يقول ابو هريرة اقرؤا
ان شئتم ان قران الفجر كان مشهودا وفي الباب احاديث قال الرازي هذا دليل قاطع قوي
على ان التغليس افضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من اول الصبح ففي ذلك الوقت ظلمة
باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلوة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها
زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار اما اذا ابتدأ بهذه الصلوة في وقت الاسفار
فهناك لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الاية فثبت ان قوله يعني هذه
الاية دليل على ان الصلوة في اول وقتها افضل انتهى وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهٖ اي قم بعد نومك
قومة من الليل او اسهر من الليل ذكرهما الحوفي ومن للتبعيض اي قم بعض الليل والضمير المجرور
راجع الى القران من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر ففي الكلام استخدام وقيل التقدير بذلك
الوقت والباء بمعنى في قاله السمين ولو قال من بمعنى في لكان اوضح وما قيل من انه منتصب على الاغراء
والتقدير وعليك بعض الليل فبعيد جدا والتهجد ماخوذ من الهجود وقال ابو عبيدة وابن الاعرابي
هو من الاضداد لانه يقال هجد الرجل اذا نام وهجد اذا سهر وقال الازهري الهجود في الاصل هو
النوم بالليل ولكن التفعل فيه لاجل التجنب ومنه تاثم وتحرج اي تجنب الاثم والحرج فالمتهجد من تجنب
الهجود فقام بالليل وروي عنه ايضا للتهجد القائم الى الصلوة من الليل هكذا حكى عنه الواحدي
فعبد التهجد بالقيام من النوم وهكذا قال مجاهد وعلقمة والاسود فقالوا التهجد بعد النوم قال الليث
يقال تهجد اذا استيقظ للصلوة نَافِلَةً لَّكَ معناها في اللغة الزيادة على الاصل والامر بالتهجد و
ان كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للامر وقيل المراد بالنافلة هنا
انها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه صلى الله عليه وسلم ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة وقيل
كانت صلوة الليل فريضة في حقه صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب وصار قيام الليل تطوعا وعلى هذا يحمل
ما ورد في الحديث انها عليه فريضة ولامته تطوع قال الواحدي صلوة الليل كانت زيادة للنبي
صلى الله عليه وسلم خاصة لرفع الدرجات لا للكفارات لانه قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تاخر
وليس لنا نافلة لكثرة ذنوبنا انما نعمل لكفارتها قال وهو قول جميع المفسرين والحاصل ان الخطاب
في هذه الاية وان كان خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم فانه يعم جميع الامة والتصريح بكونه نافلة يدل على

على عدم الوجوب فتهجد من نيل نسل وب اليه ومشروع لكل مكلف واخرج البيهقي في سننه والطبراني في الاوسط عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فرائض وهن لكم سنة الوتر والسواك وقيام الليل والقولان متقاربان في كتب الفروع وقد صحح صاحبنا الخازن واشار اليه السيوطي في التقرير والاولى ما ذكرناه ثم وعد سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم على اقامة الفرائض والنوافل فقال عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً قد ذكرنا في مواضع ان عسى من الكريم اطماع واجب الوقوع اي يبعثك في يقيمك في الآخرة ذا مقام محمود ومعنى كون المقام محموداً انه يحمده كل من علم به وقد اختلف في تعيين هذا المقام على اقوال الاول انه المقام الذي يقومه النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه وهذا القول هو الذي دلت عليه الادلة الصحيحة في تفسير الآية وحكاه ابن جرير عن اكثر اهل التاويل قال الواحدي واجماع المفسرين على ان المقام المحمود هو مقام الشفاعة في فصل القضاء القول الثاني ان المقام المحمود اعطاء النبي صلى الله عليه وسلم لواء الحمد يوم القيامة ويمكن ان يقال ان هذا لا ينافي القول الاول اذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد الثالث ان المقام المحمود هو ان الله سبحانه يجلس محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد وقد ورد في ذلك حديث وحكى النقاش عن ابي داؤد السجستاني انه قال من انكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ما زال اهل العلم يتحدثون بهذا الحديث قال ابن عبد البر مجاهد وان كان احد الائمة بالتاويل فان له قولين مهجورين عند اهل العلم احدهما هذا والثاني في تاويل وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة قال معناه ينتظر الثواب وليس من النظر انتهى وعلى كل حال فهذا القول غير مناف للقول الاول لامكان ان يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة واخرج الديلمي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسني معه على السرير وينبغي الكشف عن اسناد هذا الحديث وقال ابن مسعود يقعده على العرش رواه ابو وائل عن عبد الله بن سلام قال يقعده على الكرسي والاحاديث في الشفاعة كثيرة واول من انكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق اهل السنة الرابع انه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من انواع الكرامات ذكره صاحب الكشاف والقنوجي به في التفسير ويجاب عنه بان الاحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة فالمصير اليها متعين وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومعنى قوله

مطلق في كل ما يجلب الحمد انه عام في كل ما هو كذلك ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق كما ذكره في فتح
البقرة ولهذا قال هنا وقيل المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله يعني لفظ المقام والفرق بين العموم
البدلي والعموم الشمولي معروف فلا نطيل بذكره واخرج احمد والترمذي وحسنه والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم وسئل عنه يعني المقام فقال هو المقام المحمود الذي اشفع فيه لامتي واخرج احمد
وابن جرير وابن ابي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن كعب بن مالك ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال يبعث الناس يوم القيامة فاكون انا وامتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن
لي فاقول ما شاء الله ان اقول فذلك المقام المحمود والاحاديث في هذا الباب كثيرة جدا ثابتة في
الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ومن رام الاستيفاء نظر في احاديث الشفاعة في الامهات وغيرها

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ قرئ بضم الميمين وبفتحهما وهما مصدران
بمعنى الادخال والاخراج فهما كالمجرى والمرسى والاضافة الى الصدق لاجل المبالغة نحو حاتم الجود اي ادخالا
يستاهل ان يسمى ادخالا ولا يرى فيه ما يكره وقيل للبيان اومن اضافة الموصوف لصفته وقال
الواحدي اضافتهما الى الصدق مدح لهما وكل شيء اضفته الى الصدق فهو مدح وقد اختلف المفسرون
في معنى الآية فقيل نزلت حين امر صلى الله عليه وسلم بالهجرة يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة واختاره
ابن جرير وهذا يقتضي ان الآية مكية مع انها آخر الثمان المدنيات لكن البيضاوي مشى على ان السورة كلها مكية وحكى الاستثناء الذي
ذكره الجلال بقيل وعليه فلا اشكال ومن المعلوم ان ادخال المدينة بعد اخراجه من مكة وانما قدمه عليه اهتماما بشانه ولانه هو
المقصود وقيل المعنى امتني اماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق وقيل المعنى ادخلني فيما امرتني به واخرجني مما نهيتني عنه وقيل
ادخاله موضع الامن واخراجه من بين المشركين وهو كالقول الاول وقيل المراد ادخال عز واخراج
نصر وقيل ادخلني في الامر الذي كرمتني به من النبوة مدخل صدق واخرجني منه اذا امتني مخرج
صدق وقيل ادخلني القبر عند الموت مدخل صدق واخرجني منه عند البعث مخرج صدق و
قيل ادخلني حيثما ادخلتني بالصدق واخرجني بالصدق وقيل الآية عامة في كل ما تتناوله من الامور

في دعاء ومعناها رب اصلح لي وردي في كل الامور وصدري عنها ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾
اي حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وقيل اجعل لي من لدنك ملكا وعزا قويا اقيم به
دينك وكانه صلى الله عليه وسلم علم انه لا طاقة له بهذا الامر الا بسلطان فسال سلطانا نصيرا وبه قال

الحسن وقتادة واختاره ابن جرير وقال ابن كثير هو الارجح لانه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه ولهذا يقول تعالى لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب وفي الاثر ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقران اي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والاثام ما لا يمنع كثيرا من الناس بالقران وما فيه من الوعيد الشديد والتهديد الاكيد وهذا هو الواقع انتهى وقيل وعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له واجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض الاية وقد كان كما وعد ولله الحمد وقل عند دخولك مكة يوم الفتح جاء الحق وزهق الباطل المراد بالحق الاسلام وقيل القران وقيل الجهاد ولا مانع من حمل الاية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان والمراد بالباطل الشرك وقيل الشيطان ولا يبعد ان يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل ومعنى زهق بطل واضمحل ومنه زهوق النفس وهو بطلانها وخروجها ومنه قوله تعالى وتزهق انفسهم وهم كافرون قال الشاعر ؎ المت فحيت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق ان الباطل كان زهوقا اي مضمحلا زائلا غير ان هذا شانه فهو يبطل ولا يثبت والحق ثابت دائما وذلك ان الباطل وان كان له دولة وصولة في وقت من الاوقات فهو سريع الذهاب والزوال واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وجاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد حتى سقطت وفي الباب احاديث وننزل من القران ما هو شفاء من لابتداء الغاية قاله ابو حيان ويصح ان تكون لبيان الجنس قاله الزمخشري وابن عطية وابو البقاء فان جميع القران شفاء وقدم على المبين للاهتمام وابو حيان ينكر جوازه لان التي للبيان لا بد ان يتقدمها ما تبينه لا ان تتقدم هي عليه فالمختار هو الاول وقيل للتبعيض وانكره بعض المفسرين لاستلزامه ان بعضه لا شفاء فيه ورده ابن عطية بان المبعض هو انزاله واختلف اهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين الاول انه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الامور الدالة على الله سبحانه الثاني انه شفاء عن الامراض الظاهرة

بالرقى والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقرأته يدفع كثيرا من الادواء والاسقام يدل عليه ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز او من باب حمل المشترك على معنييه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين ولما في تلاوته وتدبره من الاجر العظيم الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ومثل هذه الآية قوله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى والحاصل ان القرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق وابطال المذاهب الفاسدة فهو شفاء لامراض القلوب وتكفير للذنوب وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وفي الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ القرآن كله او كل بعض منه ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب موضع اليقين والاطمينان ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ اي هلاكا لان سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم الى زيادة ارتكاب القبائح تمردا وعنادا فعند ذلك يهلكون وقيل الخسار النقص كقوله فزادتهم رجسا الى رجسهم قال قتادة لم يجالس القرآن احد الا قام عنه بزيادة او نقصان ثم نبه سبحانه على قبح بعض ما جبل عليه الانسان من الطبائع المذمومة فقال ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى﴾ جنس ﴿الْإِنسَانِ﴾ بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والسعة والغنى والفراغ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ اي ثنى عطفه متبخترا والنأي البعد والباء للتعدية او للمصاحبة وهو تاكيد للاعراض لان الاعراض عن الشيء هو ان يوليه عرض وجهه اي ناحيته والنأي بالجانب ان يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره ولا يبعد ان يراد بالاعراض هنا الاعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم وقرئ ناء مثل باع على القلب قال مجاهد نأى تباعد ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من شدة او مرض او فقر او نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد الياس قنوطا من رحمة الله هذا وصف للجنس باعتبار بعض افراده ممن هو على هذه الصفة والمعنى انه ان فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود وان فاته شيء من ذلك وتاخرت الاجابة استولى عليه الاسف وغلب عليه القنوط ويئس وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافي ما في هذه الآية

قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض
المذكور في هذه الآية ولا يبعد ان يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه
كثير الدعاء بلسانه قل كل اي كل احد يعمل على شاكلته التي جبل عليها قال الفراء الشاكلة الطريقة و
قيل الناحية قاله ابن عباس وقيل الطبيعة وقيل الدين وقيل النية قاله الحسن وبه فسرها النحاس
في كتاب التفسير وقيل الجبلة واحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري انها مذهبه الذي يشاكل حاله
في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل وهي الطرق التي تتشعب منه وهي مأخوذة من الشكل
وهو المثل والنظير يقال لست على شكلي ولا على شاكلتي واما الشكل بالكسر فهو الهيئة يقال جارية حسنة
الشكل او الشاكلة الروح والمعنى ان كل انسان يعمل على ما يشاكل اخلاقه التي ألفها او على حسب جوهر
نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه افعال جميلة واخلاق زكية وان كانت نفسه
كدرة خبيثة صدرت عنه افعال خبيثة فاسدة رديئة وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن فربكم
اعلم بمن هو اهدى لانه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق
فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة وبين الكافر الذي شأنه البطر
للنعم والقنوط عند النقم واهدى من اهتدى على حذف الزوائد او من هدى المتعدي او من هدى
القاصر بمعنى اهتدى وسبيلا تمييز اي اوضح طريقا واحسن مذهبا واشد اتباعا للحق ثم لما انجر الكلام
الى ذكر الانسان وما جبل عليه ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال
ويسئلونك عن الروح قد اختلف الناس في الروح المسئول عنه فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي
تكون به حياته وبهذا قال اكثر المفسرين قال الفراء الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله به سبحانه
احدا من خلقه ولم يعط علمه احدا من عباده وقيل الروح المسئول عنه جبريل وقيل عيسى وقيل
القرآن وقيل ملك من الملائكة عظيم الخلق وقيل خلق كخلق بني آدم وقال بعضهم هو الدم الا ترى الانسان
اذا مات لا يفوت منه شيء الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال
قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيى به الانسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم
والعلو والبقاء والظاهر هو القول الاول وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية وبيان السائلين لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ثم الظاهر ان السؤال عن حقيقة الروح لان معرفة حقيقة الشيء اهم واقدم

من معرفة حال من احواله ثم امره سبحانه ان يجيب عن السائلين له عن الروح فقال قُلِ الرُّوحُ اظهر في مقام الاضمار لاظهار الكمال الاعتناء بشانه مِنْ أَمْرِ رَبِّي من بيانية والامر بمعنى الشان والاضافة للاختصاص العلمي لا الايجادي لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الاضافة الثانية الآتية من تشريف المضاف اليه اي هو من جنس ما استاثر الله بعلمه من الاشياء التي لم يعلم بها عباده وابهم امر الروح وهو مبهم في التوراة ايضا وقيل المعنى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شان الروح المتكلفين لبيان ماهيته وايضاح حقيقته ابلغ زجر ويردعهم اعظم ردع وقد اطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتسع له المقام وغالبه بل كله من الفضول الذي لا ياتي بنفع في دين ولا دنيا وقد حكى بعض المحققين ان اقوال المختلفين في الروح بلغت الى ثمانية عشر مائة قول فانظر الى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع بعد ان علموا ان الله سبحانه قد استاثر بعلمه ولم يطلع عليه انبياءه ولا اذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلا عن امهم المقتدين بهم فيا لله العجب حيث تبلغ اقوال اهل الفضول والقائلين بالمعقول من المنقول الى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسئلة مما اذن الله بالكلام فيه ولم يستاثر بعلمه وقد عجز الاوائل عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه اعجز ولذا رد ما قيل في حده قديما وصل يثامر ختم سبحانه هذه الآية بقوله وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هو خطاب لليهود خاصة والاول اولى ويدخل فيه اليهود دخولا اوليا والمعنى ان علمكم الذي علمكم الله ليس الا المقدار القليل بالنسبة الى علم الخالق سبحانه وان اوتي حظا من العلم وافرا بل علم الانبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة الى علم الله سبحانه الا كما ياخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام وقيل ان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة فوصف الشيء بالقلة بالنسبة الى ما فوقه وبالكثرة الى ما تحته اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال كنت امشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح فقال بعضهم لا تسألوه فقالوا يا محمد ما الروح فما زال متكئا على العسيب فظننت انه يوحى اليه فقال ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي الآية واخرج احمد

والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وابو نعيم
والبيهقي عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود اعطونا شيئا نسأل هذا الرجل قالوا اسئلوه عن الروح
فنزلت هذه الآية قالوا اوتينا علما كثيرا واوتينا التوراة ومن اوتي التوراة فقد اوتي خيرا كثيرا
فانزل الله قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي الآية وفي الباب
احاديث وآثار ولما بين سبحانه انه ما آتاهم من العلم الا قليلا بين انه لو شاء ان يأخذ منهم هذا
القليل لفعل فقال وَلَئِنْ اللام هي الموطئة الدالة على القسم المقدر اي والله لئن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وهذا جواب القسم وجواب الشرط محذوف اي ذهبنا به على القاعدة
في اجتماع الشرط والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم قال الزجاج اي
لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له اثر انتهى وبقيت كما كنت ما تدري ما الكتاب
وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ اي بالقرآن عَلَيْنَا وَكِيلًا اي من يتوكل
علينا في رد شيء منه بعد ان ذهبنا به ويتعهد ويلتزم استرداده بعد رفعه كما يلتزم الوكيل ذلك
فيما يتوكل عليه والاستثناء بقوله إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ان كان متصلا فمعناه الا ان يرحمك الله
ربك فلا يذهب به لان الرحمة تندرج في قوله وكيلا يعني الا رحمة فانها ان نالتك فلعلها تسترده
عليك وان كان منقطعا فمعناه لا نشاء ذلك رحمة من ربك اولكن رحمة من ربك تركته
غير مذهوب به وابقيناه الى قرب قيام الساعة فعند ذلك يرفع ويقدر الا بلكن عند البصريين
وببل عند الكوفيين وقد اخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وغيرهم
عن ابن مسعود قال ان هذا القرآن سيرفع قيل كيف يرفع وقد اثبته الله في قلوبنا واثبتناه
في المصاحف قال يسري عليه في ليلة واحدة فلا تترك منه آية في قلب ولا مصحف الا رفعت
فتصبحون وليس فيكم منه شيء ثم قرأ هذه الآية وقد روي هذا عنه وعن جمع من الصحابة موقوفا
ومرفوعا إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا حيث جعلك رسولا وانزل عليك الكتاب والقى عليك
القرآن والعلم وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين واعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما
انعم الله به عليك ثم احتج سبحانه على المشركين باعجاز القرآن فقال قُل لَّئِنِ اللام لام قسم وفيه ما تقدم
اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ولم يذكر الملائكة وانما لم يذكروا لان التحدي ليس معهم والتصدي للمعارضة لا يليق بهم

علی ان یأتوا بمثل هذا القرآن من عند الله الموصوف بالصفات الجلیلة من کمال الفصاحة ونهایة البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ لا یأتون بمثله اظهر فی مقام الاضمار ولم یکتف بان یقول لا یأتون به علی ان الضمیر راجع الی المثل المذکور لدفع توهم ان یکون له مثل معین وللاشعار بان المراد نفی المثل علی ای صفة کان وهو جواب قسم محذوف وجواب للشرط واعتذر ذوا عن دفعه بان الشرط ماض والاول اظهر ثم اوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء کان المتصدی لها احدهم علی الانفراد او کان المتصدی لها المجموع بالمظاهرة فقال ولو کان بعضهم لبعض ظهیرا ای عونا ونصیرا فی تحقیق ما یتوخونه من الاتیان بمثله فثبت انهم لا یأتون بمثله علی کل حال مفروض ولو فی هذه الحال المنافیة لعدم الاتیان به فضلا عن غیرها وفیه حسم لاطماعهم الفارغة فی روم تبدیل بعض آیاته ببعض وقد تقدم وجه الاعجاز فی اوائل سورة البقرة وفی هذه الآیة رد لما قاله الکفار لو نشاء لقلنا مثل هذا والکذاب اخرج عن ابن عباس قال اتی رسول الله صلی الله علیه وسلم محمود بن سیحان ونعیمان بن اضی وبحری بن عمرو وسلام بن مشکم فقالوا اخبرنا یا محمد بهذا الذی جئت به احق من عند الله فانا لا نراه متناسقا کما تناسق التوراة فقال لهم والله انکم لتعرفونه انه من عند الله قالوا انا نجیئک بمثل ما تاتی به فانزل الله تعالی هذه الآیة فالقرآن کلام الله فی اعلی طبقات البلاغة والفصاحة لا یشبه کلام الخلق لانه کلام الخالق وهو غیر مخلوق ولو کان مخلوقا لاتوا بمثله وهو معجز فی النظم والتالیف والاخبار عن الغیوب ثم بین سبحانه ان الکفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا علی کفرهم وعدم ایمانهم فقال ولقد صرفنا للناس فی هذا القرآن من کل مثل ای رددنا القول فیه بوجوه مختلفة زیادة فی التقریر والبیان وکررنا بکل مثل یوجب الاعتبار من الآیات والعبر والترغیب والترهیب والاوامر والنواهی واقاصیص الاولین والجنة والنار والقیامة وقیل من کل معنی هو کالمثل فی غرابته وحسنه ووقوعه موقعا فی الانفس والاول اولی فأبی اکثر الناس یعنی من اهل مکة الا کفورا فانهم جحدوا وانکروا کون القرآن کلام الله بعد قیام الحجة علیهم واقترحوا من الآیات ما لیس لهم واظهر فی مقام الاضمار حیث قال فأبی اکثر الناس تاکیدا وتوضیحا ولما کان ابی مأولا بالنفی ای ما قبل او لم یرض صح الاستثناء منه وقالوا ای قال رؤساء مکة کعتبة وشیبة ابنی ربیعة وابی سفیان والنضر بن الحارث قول

المبهوت المحجوج المتحير ولما تبين لهم اعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات اخر وبينات ولزمتهم الحجة و
غلبوا اخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ لن نصدقك علقوا نفي ايمانهم بغاية طلبوها
فقالوا حَتّٰى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْاَرْضِ يَنْبُوْعًا اي عينا غزيرة من شانها ان تنبع بالماء قرئ تفجر
مخففا ومشددا وهما سبعيتان ولم يختلفوا في فتفجر الانهار انها مشددة باتفاق السبعة ووجه
ذلك ابو حاتم بان الاولى بعدها ينبوع وهو واحد والثانية بعدها الانهار وهي جمع واجيب عنه
بان الينبوع وان كان واحدا في اللفظ فالمراد به الجمع فان الينبوع العيون التي لا ينضب ماؤها ويرد
بان الينبوع عين الماء والجمع ينابيع وانما يقال للعين ينبوع اذا كانت غزيرة من شانها النبوع من
غير انقطاع وهو يفعول من نبع الماء والياء زائدة كيعبوب من عب الماء قال مجاهد ينبوعا عيونا
وعن السدي الينبوع هو النهر الذي يجري من العين اَوْ تَكُوْنَ لَكَ جَنَّةٌ اي بستان تستر اشجاره
ارضه وقال ابن عباس جنة ضيعة والمعنى هب انك لا تفجر الانهار لاجلنا ففجرها من اجلك بان تكون
لك جنة مِّنْ نَّخِيْلٍ وَّعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْاَنْهٰرَ اي تجريها بقوة خِلٰلَهَا اي وسط الجنة تَفْجِيْرًا كثيرا اي
تشقيقا اَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا اي قطعا قاله ابن عباس قرأ مجاهد او تسقط
مسندا الى السماء وقرأ من عداه او تسقط على الخطاب اي او تسقط انت يا محمد السماء والكسف بفتح
السين جمع كسفة والكسفة القطعة من الشيء قاله الجوهري يقال اعطني كسفة من ثوبك والجمع
كسف وكسف اي اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قول الله سبحانه ان نشأ نخسف بهم الارض
او نسقط عليهم كسفا من السماء قال ابو علي الكسف بالسكون الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه
على ما قال ابو زيد من كسفت الثوب كسفا اذا قطعته وقال الزجاج من كسفت الشيء اذا غطيته كانه قيل
او تسقطها طبقا علينا اَوْ تَاْتِيَ بِاللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ قَبِيْلًا اي حال كونهم مقابلين بفتح الباء ومعاينين
لنا اختلف المفسرون في معنى قبيلا فقيل معناه معاينة قاله قتادة وابن جريج واختاره ابو علي الفارسي
فقال اذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير وقيل معناه كفيلا بما تدعيه قاله
الضحاك وقيل شهيدا قاله مقاتل وقيل شاهدا على صحته ضامنا لدركه وقيل هو جمع القبيلة
اي تأتي باصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء وقيل ضمنا وقيل مقابلا كالعشير
بمعنى المعاشر اَوْ يَكُوْنَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ اي من ذهب قاله ابن عباس وبه قرأ ابن مسعود واصله

الزينة والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه وقال الزجاج في صورة الزينة فرجع الى اصل معنى الزخرف
وهو بعيد لانه يصير المعنى او يكون لك بيت من زينة أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ اي حتى تصعد في معارجها
والرقي الصعود يقال رقيت في السلم اذا صعدت من باب تعب وارتقيت مثله ويقال رقي بكسر التاء
يرقى بالفتح رقيا على فعول والاصل رقوي وبالكسر في المحسوسات كما هنا واما في المعاني فهو من باب
سعى يقال رقي في الخبر والتربح فاق الماضي والمضارع واما رقي المريض بمعنى عوذه فهو من باب
رمى يقال رقاه يرقيه اذا تلا عليه شيئا من القران وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ اي لاجل رقيك او به
فاللام للتعليل او بمعنى الباء وهو مصدر نحو مضى يمضي مضيا وهوى يهوي هويا حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا
كِتَابًا يصدقك ويدل على نبوتك نَّقْرَؤُهُ جميعا او يقرؤه كل واحد منا وقيل معناه كتابا من الله
الى كل واحد منا كما في قوله بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة قال مجاهد يعنون كتابا من
رب العالمين الى فلان بن فلان تصبح عند كل رجل صحيفة عند راسه موضوعة يقرأها فامر سبحانه رسوله
صلى الله عليه وسلم ان ياتي بما يفيد التعجب من قولهم والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال قُلْ
وفي قراءة سبعية قال سُبْحَانَ رَبِّي تعجب مما تقدم او عن ان يتحكم عليه او يشاركه احد في القدرة هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا من البشر لا ملكا حتى اصعد السماء رَّسُولًا كسائر الرسل مأمورا من الله سبحانه بابلاغكم
فهل سمعتم ايها المقترحون لهذه الامور ان بشرا قدر على شيء منها وان اردتم اني اطلب ذلك من
الله سبحانه حتى يظهرها على يدي فالرسول اذا اتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك لان بها يتبين صدقه ولا ضرورة
الى طلب الزيادة وانا عبد مأمور ليس لي ان اتحكم على ربي بما ليس بضروري ولا دعت اليه حاجة ولو
لزمتني الاجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات وطلب لنفسه اظهار آيات فتعالى
الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا وتنزه عن تعنتاتهم وتقدس عن اقتراحاتهم وقد اعطى
النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين
اصابعه وما اشبهها وليست بدون ما اقترحوه بل اعظم منه ولكن لم يكن قصدهم طلب الدليل
بل كانوا متعنتين ثم حكى سبحانه شبهة اخرى قد تكررت في الكتاب العزيز التعرض لايرادها وردها
في غير موضع فقال وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا المراد الناس على العموم وقيل اهل مكة على الخصوص
اي ما منعهم الايمان بالقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ اي الوحي من الله سبحانه على

رسوله صلی الله علیه وسلم وبین ذلك لهم وارشدهم الیه ای ما منعهم وقت مجیئ الهدی ان یؤمنوا بالقرآن والنبوة الا ان قالوا ای ما منعهم الا قولهم ابعث الله بشرا رسولا الهمزة للانكار منهم ان یكون الرسول من جنس البشر والمعنی ان هذا الاعتقاد الشامل لهم هو الذی منعهم عن الایمان بالكتاب وبالرسول وعبر عنه بالقول للاشعار بانه لیس الا مجرد قول قالوه بافواههم ثم امر سبحانه رسوله صلی الله علیه وسلم ان یجیب عن شبهتهم هذه فقال قل لو كان ای لو وجد وثبت فی الارض بدل من فیها من البشر ملائكة یمشون علی الاقدام كما یمشی الانس مطمئنین مستقرین فیها ساكنین بها قال الزجاج مستوطنین فی الارض ای لا یظعنون عنها الی السماء ومعنی الطمانینة السكون فالمراد ههنا المقام والاستیطان فانه یقال سكن البلد فلان اذا اقام فیها وان كان ماشیا متقلبا فی حاجاته لنزلنا علیهم من السماء ملكا رسولا حتی یكون من جنسهم ویمكنهم مخاطبته والفهم عنه وفیه اعلام من الله سبحانه بان الرسل ینبغی ان یكونوا من جنس المرسل الیهم فكانه اعتبر فی تنزیل الرسول من جنس الملائكة امرین الاول كون سكان الارض ملائكة والثانی كونهم ماشین علی الاقدام غیر قادرین علی الطیران باجنحتهم الی السماء اذ لو كانوا قادرین علی ذلك لطاروا الیها وسمعوا من اهلها ما یجب معرفته وسماعه فلا تكون فی بعثة الملائكة الیهم فائدة ثم ختم الكلام بما یجری مجری التهدید فقال قل لهم یا محمد من جهتك كفی بالله وحده شهیدا علی ابلاغی الیكم ما امرنی به من امور الرسالة وقال بینی وبینكم ولم یقل بیننا تحقیقا للمفارقة الكلیة وقیل ان باظهار المعجزة علی وفق دعوی النبی شهادة من الله له علی الصدق ثم علل كونه سبحانه شهیدا كافیا بقوله انه كان بعباده خبیرا ای عالما بجمیع احوالهم محیطا بظواهرها وبواطنها بصیرا بما كان منها وما یكون وفیه تهدید لهم وتسلیة له صلی الله علیه وسلم ثم بین سبحانه ان الاقرار والانكار مستندان الی مشیئته فقال ومن یهد الله ای من یرد الله هدایته فهو المهتد الی الحق او الی كل مطلوب وافرد الضمیر حملا علی لفظ من ومن یضلل ای یرد اضلاله فلن تجد الخطاب للنبی صلی الله علیه وسلم او لكل من یصلح له لهم جمع الضمیر حملا علی معنی من اولیاء ینصرونهم ویهدونهم الی الحق الذی اضلهم الله عنه او الی طریق النجاة من دونه ای من دون الله سبحانه ونحشرهم یوم القیامة ماشین علی وجوههم هذا الحشر فیه وجهان للمفسرین الاول انه عبارة عن الاسراع بهم الی جهنم من قول العرب قدم القوم علی وجوههم اذا اسرعوا الثانی انهم یسحبون یوم القیامة علی وجوههم

حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في اهانته وتعذيبه وهذا هو الصحيح لقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم ولما صح في السنة فقد اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن انس قال قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم قال الذي امشاهم على ارجلهم قادر ان يمشيهم على وجوههم واخرج ابو داؤد والترمذي وحسنه والبيهقي عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة اصناف صنف مشاة وصنف ركبانا وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي امشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم اما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك وفي الحديث بما ارتفع من الارض وفي الباب احاديث عُمْيًا وَّبُكْمًا وَّصُمًّا النصب على الحال والابكم الذي لا ينطق والاصم الذي لا يسمع اي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون وهذه هيئة يبعثون عليها في اقبح صورة واشنع منظر قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم وقد اثبت الله تعالى لهم الرؤية والكلام والسمع في قوله ورأى المجرمون النار وقوله دعوا هنالك ثبورا وقوله سمعوا لها تغيظا وزفيرا فالمعنى هنا عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يلذ مسامعهم وقيل هذا حين يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون وقيل يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد اليهم هذه الاشياء بعد ذلك ثم من وراء ذلك مَأْوٰىهُمْ اي المكان الذي يأوون اليه جَهَنَّمُ مستأنفة او حال من الضمير قال ابن عباس يعني انهم وقودها كُلَّمَا خَبَتْ اي سكن لهبها بان اكلت جلودهم ولحومهم يقال خبت النار تخبو خبوا اذا خمدت وسكن لهبها قال السمين فاذا ضعف جمرها خمدت فاذا طفئت بالجملة قيل همدت وكلاهما من باب قعد قال ابن قتيبة معنى زِدْنٰهُمْ سَعِيْرًا تسعرا وهو التلهب والتوقد اي فتعود ملتهبة ومتسعرة فانهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الاعادة والافناء وقد قيل ان في خبوء النار تخفيفا لعذاب اهلها فكيف يجمع بينه وبين قوله لا يخفف عنهم العذاب واجيب بان المراد بعدم التخفيف انه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبوء والتسعر وقيل انها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابهم وقيل ضعفت وهدأت من غير ان يوجد نقصان في ايلامهم لان الله تعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه ارادت ان تخبو وقيل نضجت جلودهم واحترقت واعيد والى ما كانوا عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم ذٰلِكَ العذاب المذكور جَزَآؤُهُمْ الذي اوجبه الله لهم واستحقوه عنده بِاَنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاٰيٰتِنَا اي بسبب كفرهم بها

فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً
الهمزة للانكار وقد تقدم تفسير هذه الآية في هذه السورة أإنا لمبعوثون أي مخلوقون خلقاً
فهو مصدر من غير لفظه او حال اي مخلوقين خلقاً جديداً او نبعث بعثاً جديداً فجاء سبحانه
بحجة تدفعهم عن الانكار وتردهم عن الجحود فقال أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض
قادر على أن يخلق مثلهم اي من هو قادر على خلقها في عظمها وشدتها فهو على اعادة ما هو
ادون منه في الصغر والضعف اقدر وقيل المراد انه قادر على افنائهم وايجاد غيرهم من الانس قال
الكرخي اراد بمثلهم اياهم فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين الاعادة مثل الابتداء وذلك
ان مثل الشيء مساو له في حاله فجاز ان يعبر عن الشيء نفسه يقال مثلك لا يفعل كذا اي انت لا تفعل
او انه تعالى قادر على ان يخلق عبيداً يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون هذه الشبهات
الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله يأت بخلق جديد وكقوله ويستبدل قوماً غيركم وعلى القول الاول يكون
الخلق بمعنى الاعادة وعلى هذا القول هو على حقيقته قال الواحدي والاول اشبه والمعنى قد علموا
بدليل العقل ان من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق امثالهم لانهم ليسوا باشد خلقاً
منها كما قال أأنتم اشد خلقاً ام السماء وجعل لهم اي لبعثهم أجلاً اي وقتاً محققاً لا ريب
اي غير مرتاب فيه وهو الموت والقيامة ويحتمل ان يكون الواو للاستئناف وقيل في الكلام تقديم
وتأخير اي اولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض وجعل لهم اجلاً لا ريب فيه قادر على ان يخلق
مثلهم فأبى الظالمون إلا كفوراً اي ابى المشركون الا جحوداً للأجل عناداً مع وضوح الدليل وفيه
وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب اجراء
العيون والانهار في اراضيهم لتتسع معايشهم بين الله سبحانه انهم لا يقنعون بل يبقون على
بخلهم وشحهم فقال قل لهم شرحاً لحالهم التي يدعون خلافها لو أنتم تملكون تقديره لو تملكون
انتم لان لو تدخل على الافعال دون الاسماء فلا بد من فعل بعدها وهذا هو الوجه الذي يقتضيه
علم الاعراب واما ما يقتضيه علم البيان فهو ان انتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وان الناس هم المختصون بالشح المتبالغ خزائن
رحمة ربي هي خزائن الارزاق إذاً لأمسكتم اي لبخلتم وحبستم في حال الدنيا قال الزجاج اعلمهم الله انهم لو ملكوا خزائن الارزاق
والنعم لامسكوا شحاً وبخلاً خشية الإنفاق اي خشية ان ينفقوا فيفتقروا وفي حذف الفعل

الذي ارتفع به انتم وابراز الكلام في صورة المبتدا أو الخبر دلالة على انهم هم المختصون بالشح قال اهل اللغة انفق واصرم واعدم واقتر بمعنى قل ماله فيكون المعنى لامسكتم خشية قلة المال وخوف نفاده وذهابه بالانفاق وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا اي بخيلا ممسكا مضيقا عليه يقال قتر على عياله يقتر قترا وقتورا ضيق عليهم من النفقة وقيل معنى قتورا قليل المال والظاهر ان المراد المبالغة في وصفه بالشح لان الانسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم كثير المال الا ان يراد ان جميع النوع الانساني قليل المال بالنسبة الى خزائن الله وما عنده وقد اختلف في هذه الآية على قولين احدهما انها نزلت في المشركين خاصة وبه قال الحسن والثاني انها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردي وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ اي علامات واضحات دالة على نبوته قيل ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان المعجزات المذكورة كانها مساوية لتلك الامور التي اقترحها كفار قريش بل اقوى منها فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات الا لعدم المصلحة في استيصالهم ان لم يؤمنوا بها قال اكثر المفسرين الآيات التسع هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل وقال محمد بن كعب القرظي هي الخمس التي في الاعراف والبحر والعصا والحجر والطمس على اموالهم وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى وعن ابن عباس في تسع آيات مثل ما ذكرناه عن اكثر المفسرين وعنه قال يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وعن صفوان ابن عسال ان يهوديين قال احدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبي نسأله فاتياه فسألاه عن هذه الآية فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تسرفوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببري الى السلطان فيقتله ولا تاكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة او قال لا تفروا من الزحف شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة ان لا تعدوا في السبت فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد انك نبي الله قال فما يمنعكما ان تسلما قالا ان داود دعا الله ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان اسلمنا ان تقتلنا اليهود اخرجه احمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن قانع والبيهقي وغيرهم وعلى هذا المراد بالآيات الاحكام العامة الثابتة في كل الشرائع سميت بذلك لانها تدل على حال من يتعاطى متعلقاتها في الآخرة من السعادة والشقاوة وقوله وعليكم يا يهود خاصة كلام مستانف زائد على الجواب فلذلك غير فيه سياق الكلام فَاسْأَلْ يا محمد صلى الله عليه وسلم بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ

اي حين جاءهم موسى وقرئ فسأل اي سأل موسى فرعون ان يخلي بني اسرائيل ويطلق سبيلهم
ويرسلهم معه وعلى الاول السؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمانينة والايقان لان الادلة اذا تظافرت
كان ذلك اقوى والمسئولون مؤمنو بني اسرائيل كعبد الله بن سلام واصحابه فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ الفاء
هي الفصيحة اي فاظهر موسى عند فرعون ما اتيناه من الآيات البينات وبلغه ما ارسل به فقال له
فرعون إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا المسحور هو الذي سحر فخولط عقله وقيل هو المخدوع وقيل هو
المطبوب وقال ابو عبيدة والفراء هو بمعنى الساحر فوضع المفعول موضع الفاعل قَالَ موسى لَقَدْ عَلِمْتَ
يا فرعون مَا أَنزَلَ اي اوجد هَٰؤُلَاءِ يعني الآيات التسع التي اظهرها وقرئ علمت بضم التاء ايضا على انه للموسى
ووجه الاولى ان فرعون كان عالما بذلك كما قال سبحانه وتعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما
وعلوا قال ابو عبيدة المأخوذ به عندنا فتح التاء وهو الاصح للمعنى لان موسى لا يقول علمت انا وهو الداعي
وروي نحو هذا عن الزجاج ووجه الثانية ان الفرعون لم يعلم ذلك وانما علمه موسى إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ اي بينات يبصر بها ودلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا الظن هنا بمعنى اليقين والثبور الهلاك والخسران اي مخسورا وقيل مسحورا وقيل
مطبوعا على الشر وقيل المثبور الملعون وقيل ناقص العقل وقيل هو الممنوع المصروف من الخير يقال
ما ثبرك عن كذا اي ما منعك منه حكاه اهل اللغة فَأَرَادَ فرعون أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ اي
يخرج بني اسرائيل وموسى ويزعجهم من ارض مصر بابعادهم عنها وقيل اراد ان يقتلهم ويستأصلهم
وعلى هذا يراد بالارض مطلق الارض في القاموس فز عني عدل وفز فلانا عن موضعه ازعجه و
استفزه استخفه واخرجه من داره وافززته افزعته فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا فوقع عليه وعليهم
الهلاك بالغرق ولم يبق منهم احد ونجى موسى وقومه فعكسنا عليه مكره وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ اي
من بعد اغراقه ومن معه جميعا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ اي ارض الشام ومصر التي اراد
ان يستفزهم منها فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ هي القيامة او الكرة الآخرة او الساعة الآخرة وهي
النفخة الثانية الموعود بها وقيل اراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا اي جميعا
الى موقف القيامة قال الجوهري اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال جاء القوم بلفهم و
لفيفهم اي باختلاطهم فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع قد اختلط

المؤمن بالكافر والسعيد بالشقي قال الاصمعي اللفيف جمع وليس له واحد وهو مثل الجمع وبالحق انزلناه
وبالحق نزل الضمير يرجع الى القران والمعنى اوحيناه متلبسا بالحق وما نزل وفيه الحق وقيل المعنى ومع الحق
انزلناه كقولهم ركب الامير بسيفه اي مع سيفه وبالحق نزل اي محمد صلى الله عليه وسلم كما تقول نزلت بزيد
وقال ابو علي الفارسي الباء في الموضعين بمعنى مع وقيل المعنى وبالحق قدرنا ان ينزل وكذلك نزل
اوما انزلناه من السماء الا محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الا محفوظا من
تخليط الشياطين والتقديم في الموضعين للتخصيص وفي الشهاب الحق فيهما ضد الباطل لكن المراد بالاول
الحكمة الالهية المقتضية لانزاله وبالثاني ما يشتمل عليه من العقائد والاحكام ونحوها وما ارسلناك الا
مبشرا لمن اطاع بالجنة ونذيرا مخوفا لمن عصى بالنار والقصر اضافي اي لا هاديا فان الهدى هدى
الله وقرانا منصوب بفعل مقدر اي وآتيناك قرانا وقيل نصب بفعل مضمر يفسره قوله فرقناه بالتخفيف
على قراءة الجمهور اي بيناه واوضحناه او فرقنا فيه بين الحق والباطل وقال الزجاج فرقه الله في التنزيل
ليفهمه الناس قال ابو عبيدة التخفيف احب الي لان تفسيره بيناه وليس للتشديد معنى الا انه نزل متفرقا
ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الاعرابي انه قال فرقت مخففا بين الكلام وفرقت مشددا بين الاجسام
وعن ابن عباس فرقناه مثقلا وقال نزل القران الى السماء في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة فكان
المشركون اذا احدثوا شيئا احدث الله لهم جوابا ففرقه الله في عشرين سنة وقد روي نحو هذا عنه
بطرق وعنه فرقناه فصلناه على مكث بامد قال في الجمل وبالتشديد قرأ علي وجماعة من الصحابة
وغيرهم وفيه وجهان احدهما ان التضعيف للتكثير اي فرقنا آياته بين امر ونهي وحكم واحكام و
مواعظ وامثال وقصص واخبار ماضية ومستقبلة والثاني انه دال على التفريق والتنجيم انتهى ثم ذكر سبحانه
العلة لقوله فرقناه فقال لتقرأه على الناس على مكث اي على تطاول في المدة شيئا بعد شيء على
القراءة الثانية او انزلناه آية آية وسورة سورة ومعناه على القراءة الاولى على ترسل وتمهل وتؤدة
في التلاوة فان ذلك اقرب الى الفهم واسهل للحفظ وقد اتفق القراء على ضم الميم في مكث الا ابن محيصن
فانه قرأ بفتح الميم ونزلناه تنزيلا التأكيد بالمصدر للمبالغة والمعنى انزلناه منجما مفرقا في ثلاث وعشرين
سنة على حسب الحوادث لما في ذلك من المصلحة ولو اخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم
يطيقوا قل يا محمد للكافرين المقترحين للآيات آمنوا به اي بالقران او لا تؤمنوا واقتسوا ايمانكم به

امتنا عكم عنه لا يزيده ذلك كمالا ولا ينقصه نقصانا وفي هذا وعيد شديد لامره صلى الله عليه وسلم
بالاعراض عنهم واحتقارهم ثم علل ذلك بقوله إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ اي العلماء الذين
قرؤا الكتب السابقة قبل انزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وامارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين المحق
والمبطل ورأوا نعتك وصفة ما انزل اليك في تلك الكتب كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل
وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وابي ذر وقيل الضمير في قوله من قبله راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والاولى
ما ذكرناه من رجوعه الى القرآن لدلالة السياق على ذلك إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ القرآن يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
اي يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه وانما قيد الخرور وهو السقوط بكونه للاذقان اي
عليها لان الذقن وهو مجمع اللحيين اول ما يحاذي الارض قال الزجاج لان الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ
الانسان بالخرور للسجود فاول ما يحاذي الارض به من وجهه الذقن وقيل المراد تعفير اللحية بالتراب فان ذلك
غاية الخضوع وايثار اللام في للاذقان على على للدلالة على الاختصاص فكأنهم خصوا الاذقان بالخرور
وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصلها انه ان لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم
ولا معرفة بكتب الله ولا بانبيائه فلا تبال بذلك فقد آمن به اهل العلم وخشعوا له وخضعوا له عند
تلاوته عليهم خضوعا ظهر اثره البالغ بكونهم يخرون على اذقانهم سجدا لله وَيَقُولُونَ في سجودهم
سُبْحَانَ رَبِّنَا اي تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب او تنزيها له عن خلف وعده
إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ان هذه هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
يَبْكُونَ كرر ذكر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه والسجود
والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال وَيَزِيدُهُمْ اي سماع القرآن
او القرآن بسماعهم له او البكاء او السجود او المتلو لدلالة قوله اذا يتلى خُشُوعًا اي لين قلب ورطوبة
عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل
بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم اخرجه
الترمذي والنسائي وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار
عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله اخرجه الترمذي ثم اراد سبحانه ان يعلم
عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ومعناه انهما مستويان في جواز

الاطلاق وحسن الدعاء بهما ولهذا قال أَيًّا مَّا تَدْعُوا أصل الكلام أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله
فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ للمبالغة وللدلالة على انه اذا حسنت اسماؤه كلها حسن هذان الاسمان ومعنى
حسن الاسماء استقلالها بنعوت الجلال والاكرام ذكر معنى هذا النيسابوري وتبعه ابو السعود قال
الزجاج اعلمهم ان دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان الى قول واحد وسياتي ذكر سبب نزول
الآية وبه يتضح المراد منها والحسنى مؤنث الاحسن الذي هو افعل تفضيل لا مؤنث احسن المقابل لامرأة حسناء
كما في القاموس عن ابن عباس قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فقال في دعائه يا الله يا
رحمن فقال المشركون انظروا الى هذا الصابي ينهانا ان ندعو الهين وهو يدعو الهين فانزل الله هذه الآية
وعن ابراهيم النخعي قال ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرحمن وكان لهم كاهن باليمامة
يسمونه الرحمن فنزلت الآية وهو مرسل وعن مكحول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول
في سجوده يا رحمن يا رحيم فسمعه رجل من المشركين فلما اصبح قال لاصحابه ان ابن ابي كبشة يدعو
الرحمن الذي باليمن وكان رجل باليمن يقال له رحمن فنزلت ثم ذكر كيفية اخرى للدعاء فقال
وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا اي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بان الجهر والمخافتة
من نعوت الصوت لا من نعوت افعال الصلوة فهو من اطلاق الكل وارادة الجزء يقال خفت
صوته خفوتا اذا انقطع كلامه وضعف وسكن وخفت الزرع اذا ذبل وخافت الرجل بقراءته اذا
لم يرفع بها صوته وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها والاول اولى اخرج البخاري ومسلم
وغيرهما عن ابن عباس قال نزلت يعني هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار فكان اذا صلى باصحابه
رفع صوته بالقرآن فاذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن انزله ومن جاء به فقال الله لنبيه
صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلوتك اي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن اصحابك
فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك الحديث وعن محمد بن سيرين قال نبئت ان ابا بكر كان اذا قرأ
خفض وكان عمر اذا قرأ جهر فقيل لابي بكر لم تصنع هذا فقال انا اناجي ربي وقد عرف حاجتي وقيل
لعمر لم تصنع هذا قال اطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها
قيل لابي بكر ارفع شيئا وقيل لعمر اخفض شيئا واخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت انما نزلت
هذه الآية في الدعاء وعنها انما نزلت في التشهد وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ اي الجهر والمخافتة المدلول عليهما

بالفعلين سَبِيلًا اي طريقا متوسطا بين الامرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها والنهي عن المخافة بقراءة الصلوات كلها والامر بجعل بعض منها مجهورا به وهو صلوة الليل والمخافة بصلوة النهار وذهب قوم الى ان هذه الآية منسوخة بقوله ادعوا ربكم تضرعا وخفية ولما امران لا يذكر ولا ينادى الا بالاسماء الحسنى نبه على كيفية الحمد فقال وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين ان الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ اي مشارك له في ملكه والوهيته وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ اي لم يحتج الى موالاة احد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير قال الزجاج اي لم يحتج ان ينتصر بغيره وفي التعرض في انشاء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بان المستحق للحمد من له هذه الصفات لانه القادر على الايجاد وافاضة النعم لكون الولد مجبنة مبخلة ولانه ايضا يستلزم حدوث الاب لانه متولد من جزء من اجزائه ومن و الحدث غير قادر على كمال الانعام والشركة في الملك انما يتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له فضلا عن نظام ما هو عليه وايضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين وقد يمنعه الشريك من افاضة الخير الى اوليائه ويؤديه الى الفساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا والمحتاج الى ولي يمنعه من الذل وينصره على من اراد له ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا اي عظمه تعظيما تاما وصفه بانه اعظم من كل شيء وعن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم اهله هذه الآية الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الصغير من اهله والكبير اخرجه ابن جرير واخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن ابي امية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بني هاشم اذا افصح سبع مرات الحمد لله الذي الى آخر السورة وروى الامام احمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذي الخ ۞

سورة الكهف مائة واحدى عشرة آية

قال القرطبي وهي مكية في قول جميع المفسرين وبه قال ابن عباس وابن الزبير وروي

عن فرقة ان اول السورة نزل بالمدينة الى قوله جرزا والاول اصح وقد ورد في فضلها احاديث منها
ما اخرجه احمد ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال من حفظ عشر ايات من اول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال واخرج مسلم والبخاري وغيرهما
عن البراء قال قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة او سحابة قد غشيته
فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ فلان فان السكينة نزلت للقرآن وهذا الذي كان يقرأ هو
اسيد بن حضير كما بينه الطبراني وفي قراءة العشر الايات من اولها او من اخرها احاديث واخرج
الطبراني في الاوسط والحاكم وصححه والبيهقي عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه الى مكة ومن قرأ عشر ايات من اخرها ثم خرج الدجال
لم يضره واخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة
سطع له نور من تحت قدمه الى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين وعن
عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والارض ولكاتبها
من الاجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الاخرى وزيادة ثلثة ايام
ومن قرأ الخمس الاواخر منها عند نومه بعثه الله من اي الليل شاء قالوا بلى يا رسول الله قال سورة
اصحاب الكهف اخرجه ابن مردويه واخرج ايضا عن عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة وفي الباب احاديث واثار وفيما اوردناه كفاية مغنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب هل المراد الاعلام بذلك للايمان به وتكون الجملة خبرية
لفظا ومعنى او الثناء به اي انشاء الثناء بثبوت الحمد لله وتكون الجملة انشائية لفظا ومعنى بمعنى
انها نقلت في العرف للانشاء او الاعلام والثناء كلاهما والجملة مستعملة في الخبر والانشاء على طريق
الجمع بين الحقيقة والمجاز احتمالات افيدها الثالث وقال الشوكاني رح علم عباده كيف يحمدونه
على افاضة نعمه عليهم ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما هو في حيز الصلة لما قبله ووجه كون
انزال الكتاب وهو القرآن نعمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه اطلع بواسطته على اسرار التوحيد واحوال الملائكة
والانبياء وعلى كيفية الاحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد امته بها وكذلك العباد كان انزال الكتاب

على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجعل له اي فيه عوجا اي شيئا من العوج بنوع من انواع الاختلال في اللفظ والمعنى والعوج بالكسر في المعاني اي فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة وبالفتح في الاعيان اي فيما يدرك به كذا قيل ويرد عليه قوله سبحانه لا ترى فيها عوجا ولا امتا يعني الجبال وهي من الاعيان قال الزجاج المعنى لم يجعل فيه اختلافا كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل لم يجعله مخلوقا والجملة معطوفة على الصلة قبلها او اعتراضية او حالية قيما القيم المستقيم الذي لا ميل ولا افراط فيه ولا تفريط او القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية او القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها يشهد بصحتها وعلى الاول يكون تاكيد الما دل عليه نفي العوج فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن ادنى عوج في الحقيقة اي جعله قيما وقيل عدلا وقيل في الكلام تقديم وتاخير والتقدير انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ثم فصل سبحانه ما اجمل في قوله قيما فقال لينذر وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم والمعنى لينذر الكافرين بأسا اي عذابا شديدا من لدنه اي صادرا من عنده نازلا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات قرئ يبشر مشددا ومخففا واجرى الموصول على موصوفه المذكور لان مدار قبول الاعمال هو الايمان ان لهم اجرا حسنا هو الجنة قاله السدي حال كونهم ماكثين فيه اي في ذلك الاجر ابدا اي مكثا دائما لا انقطاع له وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الانذار وذكر المنذر بخصوصه وحذف المنذر به وهو البأس الشديد لتقدم ذكره فقال وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا وهم اليهود والنصارى قاله السدي وبعض كفار قريش القائلين بان الملائكة بنات الله فذكر سبحانه اولا قضية كلية وهي انذار عموم الكفار ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية تنبيها على كونها اعظم جزئياتها فافاد ذلك ان نسبة الولد الى الله سبحانه اقبح انواع الكفر ما لهم به اي بالولد واتخاذ الله اياه من علم ومن مزيدة لتاكيد النفي والجملة مستانفة والمعنى ما لهم بذلك علم اصلا وانتفاء العلم بالشيء اما للجهل بالطريق الموصل اليه او لانه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به ولا لآبائهم اي ولا لا من اسلافهم مثلهم بذلك بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة وقلدهم ابناؤهم فضلوا جميعا وهذه مبالغة في كون تلك المقالة فاسدة باطلة كبرت كلمة قال الفراء كبرت تلك الكلمة كلمة وقال الزجاج

كبرت مقالتهم كلمة والمراد بهذه الكلمة هي قولهم اتخذ الله ولدا ومعنى الكلام على التعجب اي ما اكبرها كلمة ثم وصف الكلمة بقوله تخرج من افواههم وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها والخارج من الفم وان كان مجرد الهواء لكن لما كانت الحروف والاصوات كيفيات قائمة بالهواء اسند الى الحال ما هو من شان المحل والمعنى هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكانه يجري على لسانهم على سبيل التقليد وكثيرا ما يوسوس الشيطان في قلوب الناس من المنكرات ما لا يتمالكون ان يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال ان اي ما يقولون الا قولا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله فلعلك باخع نفسك قال الاخفش والفراء البخع الجهد وقال الكسائي بخعت الارض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه اذا نهكها وقال ابو عبيدة معناه مهلك نفسك فيكون المعنى على هذه الاقوال لعلك مجهد نفسك او مضعفها او مهلكها والمقصود من هذا الترجي النهي اي لا تبخع نفسك من اجل غمك على عدم ايمانهم اي لا تفعل لئلا تهلك نفسك وفي السمين ولعل قيل للاشفاق على بابها وقيل للاستفهام وهو راي الكوفيين وقيل للنهي على آثارهم اي على فراقهم من بعد توليهم عنك واعراضهم او هلاكهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اي القران اسفا اي غيظا وحزنا قاله قتادة وقال مجاهد جزعا ونصبه على المفعول له وجواب ان محذوف دل عليه الترجي تقديره فلا تحزن وهذا عند الجمهور وعند غيرهم هو جواب متقدم عن ابن عباس قال اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابو جهل والنضر بن الحارث وامية بن خلف والعاص بن وائل والاسود بن عبد المطلب وابو البختري في نفر من قريش وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه اياه وانكارهم ما جاء به من النصيحة فاحزنه حزنا شديدا فانزل الله سبحانه فلعلك باخع نفسك الآية انا جعلنا ما على الارض زينة لها هذه الجملة تعليل للنهي المفهوم من الترجي والقصد منه تسلية له صلى الله عليه وسلم وتسكين اسفه وغيظه على عدم ايمانهم لانه مخبر بالاعمال للعباد مجازيهم فكانه يقول له صلى الله عليه وسلم لا تحزن فاني منتقم منهم لك وقيل استيناف والمعنى انا جعلنا ما عليها مما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من الحيوانات والنبات والشجر والانهار والجماد وغير ذلك من النعم كالذهب والفضة والمعادن كقوله سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا قال ابن عباس يعني الرجال والعلماء

زينة الارض وعن سعيد بن جبير مثله وقال الحسن هو الرجال العباد العمال لله بالطاعة
لنبلوهم ايهم احسن عملا اللام للغرض او للعاقبة والمراد بالابتلاء انه سبحانه يعاملهم معاملة
لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان قال الزجاج ايهم رفع بالابتداء
الا ان لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنمتحن اهذا احسن عملا او ذلك قال الحسن ايهم ازهد واشد
للدنيا تركا ومثله عن الثوري وقال مقاتل ايهم اصلح فيما اوتي من المال وقال قتادة ايهم اتم عقلا واخرج
ابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم
هذه الاية فقلت ما معنى ذلك يا رسول الله قال ليبلوكم ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله و
اسرعكم في طاعة الله ثم اعلم سبحانه انه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال وانا لجاعلون
ما عليها من هذه الزينة عند تناهي عمر الدنيا صعيدا ترابا قال ابو عبيدة الصعيد المستوي من
الارض وقال الزجاج هو الطريق الذي لا نبات فيه بعد ان كانت خضراء معشبة اي ارضا
ملساء وقيل فتاتا وهو الذي يضمحل بالريح لا اليابس الذي يرسب ونظيره كل من عليها فان وقوله
فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا والمعنى انه لا بد من المجازاة بعد فناء ما على الارض
وتخصيص الاهلاك بما على الارض يفهم بقاء الارض الا ان سائر الآيات قد دلت ايضا على ان الارض لا تبقى
وهو قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال قتادة الصعيد الجبال التي ليس فيها زرع جرزا يابسا
قال الفراء الجرز الارض التي لا نبات فيها من قولهم امرأة جرز اذا كانت اكولا وسيف جراز اذا كان
مستاصلا وجرز الجراد والشاة والابل الارض اذا اكلت ما عليها ويقال سنة جرز وسنون اجراز
لا مطر فيها وارض جرز وارضون اجراز لا نبات بها وجرز نعت لصعيدا فكانه مجاز علاقته المجاورة
وعن الحسن الجرز الخراب اي نعيدها بعد عمارتها خرابا باماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار
وغير ذلك ومعنى النظم القرآني لا تحزن يا محمد مما وقع من هؤلاء من التكذيب فانا قد جعلنا ما على الارض
زينة لاختبار اعمالهم وانا لذاهبون بذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازوهم ان خيرا فخير وان شرا
فشر ام حسبت اي احسبت او بل حسبت ومعناها الانتقال من حديث الى حديث آخر لا لابطال
الاول ولا للاضراب عنه ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا المعنى ان القوم لما تعجبوا
من قصة اصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال سبحانه بل اظننت

يا محمد انهم كانوا عجبا من اياتنا فقط لا تحسب ذلك فان اياتنا كلها عجب فان من كان قادرا على جعل
ما على الارض زينة لها للابتلاء ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كان لم تغن بالامس لا تستبعد قدرته
ولا حفظه ورحمته بالنسبة الى طائفة مخصوصة وان كانت قصتهم خارقة للعادة فان ايات الله
سبحانه كذلك وفوق ذلك ومعنى عجبا ذات عجب والكهف هو الغار الواسع في الجبل فان كان صغيرا سمي غارا
والجمع كهوف في الكثرة واكهف في القلة والرقيم قال كعب والسدي انه اسم القرية التي خرج منها اصحاب
الكهف وقال سعيد بن جبير ومجاهد انه لوح من حجارة او رصاص رقمت فيه اسماءهم جعل على
باب الكهف ففيه فلان بن فلان من مدينة كذا خرج في وقت كذا من سنة كذا قال الفراء ويروى
انه انما سمي رقيما لان اسماءهم كانت مرقومة والرقم الكتابة وعن قتادة ان الرقيم دراهمهم التي كانت
معهم وقال ابن عباس الرقيم كتاب مرقوم عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام
وقيل ان الرقيم اسم كلبهم قاله انس وقيل هو اسم الوادي الذي كانوا فيه وقيل اسم الجبل الذي
فيه الغار قال الزجاج اعلم الله سبحانه ان قصة اصحاب الكهف ليست بعجيبة من ايات الله لان خلق
السموات والارض وما بينهما اعجب من قصتهم وقال ابن عباس يقول الذي اتيتك من العلم والسنة
والكتاب افضل من شان اصحاب الكهف والرقيم اذ اوى الفتية الى الكهف اي صاروا اليه ونزلوه و
سكنوه والتجؤا اليه وجعلوه ماواهم يقال اوى الى منزله من باب ضرب اذا نزله بنفسه وسكنه والماوى لكل
حيوان مسكنه والفتية هم اصحاب الكهف جمع فتى وهو الطري من الشباب اظهار في مقام الاضمار للتنصيص
على وصفهم وسنهم فكانوا في سن الشباب مردا وكانوا سبعة خرجوا من مدينتهم خائفين على
ايمانهم من قومهم الكفار حيث امروهم بعبادة غير الله وكذلك ملك المدينة امرهم بذلك واسمه
دقيانوس ومدينتهم اسمها افسوس عند اهل الروم لانها من مدائنهم واسمها عند العرب طرسوس
فلما امروهم بعبادة غير الله ذهب كل واحد منهم الى بيت ابنه واخذ منه زادا ونفقة وخرجوا
فارين هاربين حتى اووا الى كهف في جبل قريب من المدينة فاختفوا فيه وصاروا يعبدون الله
وياكلون ويشربون ويبعثون احدا منهم خفية ليشتري لهم الطعام من المدينة وهم خائفون
من اطلاع اهل المدينة عليهم فيقتلوهم لعدم دخولهم في دينهم فجلسوا يوما بعد الغروب
يتحدثون فالقى الله عليهم النوم وذلك قوله تعالى فضربنا على اذانهم كما سياتي تفصيله

فقالوا ربنا آتنا من لدنك أي من عندك رحمة التنوين اما للتعظيم او للتنويع وتقديم من لدنك
للاختصاص اي رحمة مختصة بانها من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وهي المغفرة في الآخرة
والامن من الاعداء والرزق في الدنيا وهيئ لنا من امرنا رشدا اي اصلح لنا من قولك هيأت
الامر فتهيأ والمراد بامرهم الامر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار والرشد نقيض الضلال
ومن للابتداء ويجوز ان تكون للتجريد كما في قولك رايت منك اسدا وتقديم المجرورين للاهتمام
بهما اي اجعل امرنا رشدا او يسر لنا طريق رضاك فضربنا على آذانهم قال المفسرون انمناهم
معنى سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الاصوات اي ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها
للانامة الثقيلة المانعة من وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها ففي الكلام تجوز
بطريق الاستعارة التبعية وهذا النوم من جملة الرحمة التي طلبوها فكأنه قال فاستجبنا دعاءهم
ومن جملة استجابته ان انمناهم وقلبناهم في نومهم ذات اليمين وذات الشمال ـــــ هم في الكهف
سنين عددا اي ذوات عدد على انه مصدر او بمعنى معدود وعلى انه بمعنى المفعول يستفاد
من وصف السنين بالعدد الكثرة قال الزجاج ان الشيء اذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج الى
العدد وان كثر احتاج الى ان يعد وقيل يستفاد منه التقليل لان الكثير قليل عند الله وان يوما
عند ربك كالف سنة مما تعدون ثم بعثناهم اي ايقظناهم من تلك النومة لنعلم اي ليظهر
معلومنا واللام للعاقبة وقيل للتعليل وقرئ بالتحتية والفاعل هو الله تعالى ففيه التفات عن
التكلم الى الغيبة قيل والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو الاختبار مجازا فيكون المعنى بعثناهم
لنعامل معاملة من يختبرهم والاولى ما ذكرناه من ان المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده اي
الحزبين من قوم الفتية اهل الهدى واهل الضلالة فالمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين
والكافرين المختلفين في مدة لبثهم وقيل المراد نفس اصحاب الكهف كان اهل المدينة اختلفوا بعد
انتباههم كم لبثوا وقيل المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك واصحاب الكهف
قيل ان اصحاب الكهف حزب واصحابهم حزب قال الفراء ان طائفتين من المسلمين في زمان اصحاب الكهف
اختلفوا في مدة لبثهم احصى اي اضبط لما لبثوا امدا وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف
فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه قال ابن جرير انهم كتبوا اليوم

الذي خرجوا فيه والشهر والسنة وما مصدرية اي احصى للبثهم او بمعنى الذي وقيل اللام زائدة وقيل على بابها من العلة اي لاجل قاله ابو البقاء وما بمعنى الذي والامد الغاية وقيل ان احصى افعل تفضيل واختاره الزجاج والتبريزي ورد بانه خلاف ما تقرر في علم الاعراب وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم اقلس من ابن المذلق واعدى من الجرب وقال ابو علي والزمخشري وابن عطية ان احصى فعل ماض نحن نقص عليك نبأهم هذا شروع في تفصيل ما اجمل في قوله اذ اوى الفتية اي نحن نخبرك بخبرهم بالحق اي قصصناه بالحق او متلبسا بالحق الصدق انهم فتية اي احداث وشبان كان احدهم وزير الملك دقيانوس وكانوا من اشراف تلك المدينة و من عظماء اهلها والجملة مستانفة واقعة في جواب سوال اقتضاه ما قبلها فكانه قيل وما نبأوهم والفتية جمع قلة آمنوا بربهم فيه التفات من التكلم الى الغيبة اذ لو جاء على نسق الكلام لقيل آمنوا بنا وزدناهم هدى بالتثبيت والتوفيق وفيه التفات من الغيبة الى التكلم قال الربيع بن انس هدى اخلاصا وقيل ايمانا او بصيرة وقيل يقينا وربطنا على قلوبهم اي قويناها بالصبر على هجر الاهل والاوطان و فراق الخلان والاخوان والفرار الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام حيث قالوا للملك ربنا رب السموات الخ ولم يحصل لهم منه رعب الله قال قتادة ربطنا قلوبهم بالايمان وشددناها عليها بالصبر والتثبيت وفيه استعارة تصريحية تبعية لان الربط هو الشد بالحبل اذ قاموا اختلف اهل التفسير في هذا القيام على اقوال فقيل انهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو اكبر القوم اني لاجد في نفسي شيئا ان ربي رب السموات والارض فقالوا ونحن كذلك نجد في انفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والارض قاله مجاهد وقال اكثر المفسرين انه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس وكان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه وقد امرهم بالسجود للاصنام فقالوا ربنا رب السموات والارض اي قالوا اجلاسنا ثلاثة بين يدي ملكهم اخرها قوله شططا وثلاثة بعد انصرافهم عن مجلسه وما لقومهم اخرها قوله كذبا وقال عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم لن ندعو من دونه الها اي لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا لقد قلنا اذا شططا اي قولا ذا شطط اي افراط في الكفران دعونا الها غير الله فرضا او قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة والشطط الغلو

ومجاوزة الحد القدر في كل شيء يقال شطت الدار بعدت وشط فلان في حكمه شطوطا وشططا جار
وظلم وشط في القول اغلظ وشط في السوم افرط والجميع من بابي ضرب وقتل وقال قتادة شططا كذبا
وقال السدي جورا هؤلاء اي اهل بلدهم قومنا عطف بيان او بدل اتخذوا من دونه اي من دون الله
آلهة اصناما يعبدونها وفي هذا الاخبار معنى الانكار وفي الاشارة اليهم تحقير لهم لولا يأتون عليهم
بسلطان بين اي هلا يأتون على عبادتهم لها بحجة نيرة ظاهرة تصلح للتمسك بها وفيه تبكيت لان الاتيان
بحجة على عبادة الاصنام محال وهذه جملة طلبية وليست صفة لآلهة لفساده معنى وصناعة قال
الزمخشري وفي الآية دليل على فساد التقليد وانه لابد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت فمن اي احد
اظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك اليه وزعم ان له شريكا في العبادة ثم قال بعضهم لبعض
وقت اعتزالهم واذ اعتزلتموهم اي فارقتموهم في الاعتقاد او اردتم الاعتزال الجسماني وتنحيتم عنهم
جانبا اي عن العابدين للاصنام وما يعبدون ما موصولة او مصدرية اي اذا اعتزلتم معبودهم او
الذي يعبدونه الا الله استثناء منقطع على تقدير انهم لم يعبدوا الا الاصنام او متصل على تقدير
انهم شركوهم في العبادة مع الله سبحانه وقيل هو كلام معترض اخبار من الله سبحانه عن الفتية انهم
لم يعبدوا غير الله فيكون ما على هذا نافية فأووا اي التجؤا وصيروا الى الكهف واجعلوه مأواكم قال الفراء
هو جواب اذ ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم وقيل هو دليل على جوابه اي اذا اعتزلتموهم اعتزالا
اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا واذا اردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف ينشر
اي يبسط ويوسع لكم ربكم مالك امركم من رحمته في الدارين ويهيئ اي يسهل وييسر لكم من امركم
الذي انتم بصدده من الفرار بالدين مرفقا بكسر الميم وفتحها لغتان قرئ بهما مأخوذ من الارتفاق وهو
الانتفاع وقيل فتح الميم اقيس وكسرها اغلب اكثر العرب على كسر الميم من الامر ومن مرفق الانسان وقد
تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان وكأن الذين فتحوا ارادوا ان يفرقوا بين المرفق من الامر والمرفق من الانسان
وقال الكسائي الكسر في مرفق اليد وقيل المرفق بالكسر ما ارتفقت به والمرفق بفتح الميم الامر الرافق والمراد هنا
ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص وانما قالوا ذلك ثقة بفضل
الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه او اخبرهم به نبي عصرهم وترى الشمس اذا طلعت شرع سبحانه في بيان
حالهم بعد ان أووا الى الكهف تزاور ماخوذ من الزور بفتح الواو وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه وقيل تزاور

بمعنى تنقبض من ازوراي انقبض والاول اولى ومعنى الآية ان الشمس اذا طلعت تميل وتعدل وتنحى عن كهفهم ذات اليمين اي ناحية اليمين وهي الجهة المسماة باليمين وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ القرض القطع قال الكسائي والاخفش والزجاج وابو عبيدة تعدل عنهم وتتركهم قرضت المكان عدلت عنه تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول انما قرضته اذا مر به وتجاوز عنه وقال الفارسي معنى تقرضهم تعطيهم من ضوءها شيئا ثم يزول بسرعة كالقرض يسترد وقد ضعف بانه كان ينبغي ان يقرأ تقرضهم بضم التاء لانه من القرض والمعنى ان الشمس اذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين اي يمين الداخل الكهف واذا غربت تمر ذَاتَ الشِّمَالِ اي جهة شمال الكهف لا تصيبه لا في ابتداء النهار ولا في آخر النهار بل تعدل عن سمته الى الجهتين وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ الفجوة المكان المتسع ومما يدل على ان الفجوة المكان الواسع قول الشاعر

البست قومك مخزاة ومنقصة * حتى ابيحوا وخلوا فجوة الدار * وقال سعيد بن جبير الفجوة الخلوة من الارض ويعني بالخلوة الناحية منها وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان الاول انهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحا واسعا في ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لان الله سبحانه حجبها عنهم كرامة والثاني ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال مستقبلا لبنات النعش في ارض الروم فاذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف واذا غربت كانت عن يساره ولا تقع عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتوذيهم بحرها وتغير الوانهم وتبلي ثيابهم ولكن اختار الله لهم مضجعا في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه ويؤيد القول الاول قوله ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فان صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة انسب بمعنى كونها آية ويؤيده ايضا اطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها الى جهة كذا وعلى الثاني يكون المعنى ان شانهم وحديثهم من آيات الله والاول اولى وقد قيل انه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته وذهب الزجاج الى ان فعل الشمس كان آية من الله تعالى من دون ان يكون باب الكهف الى جهة توجب ذلك وعلى الجملة فالآية في ذلك ان الله تعالى آواهم الى كهف هذه صفته لا الى كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار وعلى هذا فيمكن ان يكون صرف الشمس عنهم باظلال غمام او سبب آخر والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء وتغير الابدان و الالوان اليهم والتأذي بحر او برد ثم اثنى سبحانه عليهم بقوله مَن يَهْدِ اللَّهُ الى الحق مثل اصحاب الكهف

فهو المهتدي الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ومن يضلل أي يضلله الله ولم يرشد كدقيانوس
وأصحابه فلن تجد له وليا مرشدا أي ناصرا يهديه الى الحق ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم
فقال وتحسبهم خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد أيقاظا جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهم رقود
أي نيام وهو جمع راقد كقعود في قاعد قيل وسبب هذا الحسبان ان عيونهم كانت مفتحة وهم
نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال أي نقلبهم في رقدتهم
الى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ولحومهم قاله سعيد بن جبير وتعجب منه الامام الرازي
وقال ان الله قادر على حفظهم من غير تقليب ويرد عليه لقائل ان يقول لا ريب في قدرة الله تعالى ولكن جعل
لكل شيء سببا في أغلب الأحوال قاله الكرخي قيل لهم تقلبة واحدة في كل سنة مرة في يوم عاشوراء وقال
ابن عباس ستة أشهر على ذي الجنب اليمين وستة أشهر على ذي الجنب الشمال وعلى هذا كان لهم تقلبتان
في السنة وقيل كل تسع سنين وقالت فرقة انما قلبوا في التسع الأواخر وأما في الثلثمائة فلا وظاهر كلام
المفسرين ان التقليب من فعل الله ويجوز ان يكون من ملك بأمر الله فيضاف الى الله تعالى قاله القرطبي والأول أولى
وكلبهم باسط ذراعيه حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى المضي كما تقرر
في علم النحو أي ماد يديه قال أكثر المفسرين هربوا من ملكهم ليلا فمروا براع معه كلب فتبعهم وقيل
كان لواحد منهم قال مجاهد اسم كلبهم قطمور وعن الحسن اسمه قطمير وقيل اسمه ريان وقيل
صهبان قيل كان كلبا أغر وقيل فوق القلطي دون الكردي والقلطي كلب صيني وقيل كان أصفر
وقيل كان أسمر اللون وقيل كان يضرب الى حمرة وقيل كلون السماء قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب
أصحاب الكهف وحمار بلعم ولا أدري أي تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز وما الذي
جرهم على هذا الفضول الذي لا مستند له في السمع ولا في العقل بالوصيد قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو
فناء الباب وكذا قال المفسرون وقيل العتبة ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب وانما أراد ان
الكلب موضع العتبة من البيت وقال ابن عباس بالوصيد بالفناء وبالباب وقيل بفناء الكهف وقيل
الصعيد والتراب قال بعضهم كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الايمان وكلمة
الاسلام وحب النبي وآله وصحبه وقول الله تعالى ولقد كرمنا بني آدم الآية وفي هذا تسلية وأنس للمؤمنين
المقصرين عن درجات الكمال المحبين للصالحين للأنبياء والعلماء المخالطين للأولياء والأصفياء لو اطلعت

عليهم اي لو نظرت اليهم وهم على تلك الحالة لوليت منهم فرارا اي لفررت منهم هاربا ولملئت
منهم رعبا اي خوفا وفزعا يملأ الصدر وقرئ رعبا بسكون العين وضمها وسبب الرعب الهيبة التي
البسهم الله اياها وقيل طول اظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم ووحشة مكانهم ذكره المهدوي
والنحاس والزجاج والقشيري ويدفعه قوله تعالى لبثنا يوما او بعض يوم فان ذلك يدل على انهم
لم ينكروا من حالهم شيئا ولا وجدوا من اظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة وقيل لان اعينهم
كانت منفتحة كالمتيقظ وقيل ان الله منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد قال ابن عطية والصحيح في امرهم ان
الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ماتوا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية فلم يبل لهم ثوب ولم تتغير لهم
صفة ولم ينكر الناهض الى المدينة الا معالم الارض والبناء ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه
اهم ذكره القرطبي وكذلك اي كما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات وانمناهم في الكهف تلك النومة وحفظنا
اجسامهم من البلى على طول الزمان بعثناهم من نومهم وجعلنا بعثهم آية قاله الزجاج والزمخشري
وفيه تذكير بقدرته على الاماتة والبعث جميعا ثم ذكر الامر الذي لاجله بعثهم فقال ليتساءلوا
بينهم اي ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور
القدرة الباهرة واللام متعلقة بالبعث فقيل هي للصيرورة لان البعث لم يكن للتساؤل قاله ابن عطية
والصحيح انها على بابها من السببية والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها وانما افرده لاستتباعه لسائر
الآثار قال قائل منهم اي واحد منهم وهو كبيرهم ورئيسهم مكسلمينا كم لبثتم في النوم قالوا ذلك لانهم
رأوا في انفسهم غير ما يعهدونه في العادة والجملة مبينة لما قبلها من التساؤل قالوا اي قال بعضهم
وقيل قال الستة الباقون جوابا عن سؤال من سأل منهم قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة
وبعثهم الله سبحانه آخر النهار فلذلك قالوا لبثنا يوما اي لظنهم ان الشمس قد غربت فلما رأوا الشمس لم
تغرب قالوا او بعض يوم وكان قد بقيت بقية من النهار وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزير في البقرة
او للشك وقيل للتفصيل اي قال بعضهم كذا وبعضهم كذا وفيه دليل على جواز الاجتهاد
والقول بالظن الغالب قالوا متوقفين في قدر مدة لبثهم ربكم اعلم بما لبثتم اما على طريق
الاستدلال او كان ذلك الهاما لهم من الله سبحانه اي انكم لا تعلمون مدة لبثكم
وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الاولين بأجمل ما يكون من مراعاة

حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين في قوله سابقا لنعلم اي الحزبين وقد استدل
ابن عباس على ان عددهم سبعة بهذه الآية لانه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد و
قالوا في جوابه لبثنا وهو جمع واقله ثلثة ثم قالوا وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة فابعثوا
احدكم بورقكم هذه الى المدينة كانه قال القائل منهم يعني تمليخا اتركوا ما انتم عليه من المحاورة
وخذوا في شيء آخر مما يهمكم وفيما تنتفعون به والفاء للسببية اي فارسلوا واحدا منكم الى البلد
والورق الفضة مضروبة كانت او غير مضروبة ويقال لها الرقة وفي الحديث وفي الرقة ربع العشر
وجمعت شذوذا جمع للمذكر السالم يقال عندي رقون والباء للمصاحبة والملابسة وفي حملهم هذه
الورق معهم دليل على ان امساك بعض ما يحتاج اليه الانسان لا ينافي التوكل على الله والمدينة افسوس
بضم الهمزة كما قاله النيسابوري وهي مدينتهم التي كانوا فيها من مدائن الروم ويقال لها اليوم في
الاسلام طرطوس كذا قال الواحدي وفي الكشف ان المدينة التي خرجوا منها غير المدينة التي بعثوا اليها
لشراء الطعام اذ افسوس من اعمال طرطوس وهي ناحية او هما قولان وما قيل من انهما اسمان لمدينة
واحدة احدهما قديم والآخر محدث فخلاف الظاهر محتاج الى النقل عن الثقات فلينظر ايها ازكى طعاما
اي لينظر اي اهلها اطيب طعاما واحل مكسبا او ارخص سعرا واي استفهامية او موصولة قال ابن عباس
احل واطهر ذبيحة لانهم كانوا يذبحون للطواغيت او اكثر بركة وقيل يجوز ان يكون الضمير الى الاطعمة
المدلول عليها في المقام كما يقال زيد طيب ابا على ان الاب هو زيد وفيه بعد فليأتكم برزق منه اي من
الورق اي بدله او من قوت وطعام تأكلونه واستدل بالآية على حل ذبائح اهل الكتاب لان عامة اهل
المدينة كانوا كفارا وفيه قوم يخفون ايمانهم ووجه الاستدلال ان الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره
مما يطلق عليه اسم الطعام وليتلطف اي يدقق النظر حتى لا يعرف او لا يغبن والاول اولى ويؤيده
ولا يشعرن بكم احدا من الناس اي لا يفعلن ما يؤدي الى الشعور ويتسبب له فهذا النهي يتضمن التاكيد
للامر بالتلطف ثم علل ما سبق من الامر والنهي فقال انهم اي اهل المدينة ان يظهروا عليكم اي يطلعوا
ويعلموا بمكانكم يرجموكم يقتلوكم بالرجم وهذه القتلة هي اخبث قتلة وكان ذلك كان عادة لهم
ولهذا خصه من بين انواع ما يقع به القتل وقيل يشتموكم ويؤذوكم بالقول والاول اولى او يعيدوكم
في ملتهم اي يردوكم الى ملتهم التي كنتم عليها قبل ان يهديكم الله ويصيروكم اليها كرها والمراد بالعود

هنا الصيرورة على تقدير انهم لم يكونوا على ملتهم وايثار كلمة في على كلمة الى للدلالة على الاستقرار
وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا اي اذن معنى الشرط والجزاء كانه قال ان رجعتم الى دينهم فلن تفلحوا اذن
ابدا لا في الدنيا ولا في الآخرة وَكَذَلِكَ اي وكما انمناهم وبعثناهم أَعْثَرْنَا اي اطلعنا الناس عليهم
واظهرناهم وسمي الاعلام اعثارا لان من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه وعرفه فكان الاعثار
سببا لحصول العلم لِيَعْلَمُوا اي ليعلم الذين اعثرهم الله عليهم أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث حَقٌّ قيل
وكان ملك زمانهم ممن ينكر البعث فاراه الله هذه الآية قيل والسبب لاعثار عليهم ان ذلك
الرجل الذي بعثوه بالورق وكانت من ضربة دقيانوس الى السوق فلما اطلع عليها اهل السوق
اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقال له من اين وجدت هذه الدراهم قال بعت بها امس
شيئا من التمر فعرف الملك صدقه ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب اصحابه معه حتى وصلوا الى
الكهف وليعلموا أَنَّ السَّاعَةَ اي القيامة لَا رَيْبَ فِيهَا اي لا شك في حصولها فان من شاهد
حال اهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من بعث الارواح والاجساد جميعا وحشرها إِذْ يَتَنَازَعُونَ
بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ اي اعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين اولئك الذين اعثرهم الله في امر البعث
وقيل في امر اصحاب الكهف في قدر مكثهم وفي عددهم وفيما يفعلونه بعد ان اطلعوا عليهم
وقيل قال المسلمون نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لانهم على ديننا وقال المشركون نبني عليهم بيعة
لانهم من اهل ملتنا والاول اولى فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا لئلا يتطرق الناس اليهم كما حفظت تربة
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة وذلك ان الملك واصحابه لما وقفوا عليهم وهم احياء اماتهم الله فقيل
فقال بعضهم ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن اعين الناس وقيل يتنازعون متعلق بمحذوف هو
اذكر ويؤيده ان الاعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ويمكن ان يقال ان اولئك القوم ما زالوا متنازعين
فيما بينهم قرنا بعد قرن منذ دخلوا الكهف الى وقت الاعثار ويؤيد ذلك ان خبرهم كان مكتوبا على
باب الغار كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون ايمانهم كما قاله المفسرون ثم قال
سبحانه حاكيا القول المتنازعين فيهم وفي عددهم وفي مدة لبثهم وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْ من هؤلاء المتنازعين فيهم قالوا ذلك تفويضا للعلم الى الله سبحانه وقيل هو من كلام الله سبحانه
رد القول المتنازعين فيهم اي دعوا ما انتم فيه من التنازع فاني اعلم بهم منكم والاول الظاهر قال الزمخشري

قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ هو يحيى بيدوسيس واصحابه فانه المخاذت اي كانت الكلمة لهم وكان كلامهم هو النافذ لان ملك الوقت كان من جملتهم وكان مؤمنا واما الملك الذي خرجوا هاربين منه فقد مات في مدة نومهم لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا يصلي فيه المسلمون ويعتبرون بحالهم وذكر اتخاذ المسجد يشعر بان هؤلاء الذين غلبوا على امرهم هم المسلمون وقيل هم اهل السلطان والملك من القوم المذكورين فانهم الذين يغلبون على امر من عداهم والاول اولى قال الزجاج هذا يدل على انه لما ظهر امرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لان المساجد للمؤمنين سَيَقُولُونَ هؤلاء القائلون بانهم ثلاثة او خمسة او سبعة وهم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل الكتاب والمسلمين وقيل هم اهل الكتاب خاصة قال السدي هم اليهود وعلى كل تقدير فليس المراد انهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا وبعضهم بكذا قيل انما اتى بالسين في هذا لان في الكلام طيا وادماجا تقديره فاذا اجبتهم عن سؤالهم عن قصة اهل الكهف فسلهم عن عددهم فانهم سيقولون ولم يات بها في باقي الافعال لانها معطوفة على ما فيه السين فاعطيت حكمه من الاستقبال والمعنى يقولون لك يا محمد ويخبرونك على ثلاثة اقوال الاولان للنصارى والثالث للمؤمنين ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ اي هم ثلاثة اشخاص حال كون كلبهم جاعلهم اربعة بانضمامه اليهم وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ الكلام فيه كالكلام فيما قبله قال السدي هم النصارى وقيل اليهود حكاه البيضاوي قال ابو علي الفارسي قوله رابعهم كلبهم وسادسهم كلبهم جملتان استغني عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الاولى وهي قوله ثلاثة والتقدير هم ثلاثة هكذا حكاه الواحدي رَجْمًا بِالْغَيْبِ اي راجمين او يرجمون رجما والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقين ودليل ولا برهان كما قاله الطيبي وغيره والموصوف بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلون بانهم ثلاثة والقائلون بانهم خمسة قال قتادة رجما قذفا بالظن ولم يقل هذا في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه والرجم بمعنى الرمي وهو استعارة للتكلم بما لم يطلع عليه لخفائه عنه تشبيها له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضا والباء فيه للتعدية على تشبيه الظن بالحجر المرمي على طريق الكناية وَيَقُولُونَ اي المؤمنون يعني قالوه باخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ وكان قول هذه الفرقة اقرب الى الصواب بدليل عدم ادخالهم في سلك الراجمين بالغيب قيل فظهر

الواو في هذه الجملة يدل على انها مرادة في الجملتين الاوليين وعلى راي الاخفش والكوفيين الواو زائدة
لان وجودها في الكلام كالعدم في عدم افادة اصل معناها قاله الكرخي وقيل زائدة لتاكيد لصوق
الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر ثابت وهذا ما جنح اليه الزمخشري وصرح به البيضاوي
واختاره ابن هشام وقيل انها واو العطف كانه قيل هم سبعة وثامنهم كلبهم وقيل واو الحال فيؤول
المعنى الى انهم يقولون ذلك مع هذه الحال وهو ان ثامنهم كلبهم واقعا لا محالة ويلزم منه ان يكونوا
سبعة قال ابن هشام وقول جماعة من الادباء كالحريري ومن النحويين كابن خالويه ومن المفسرين
كالثعلبي انها واو الثمانية لا يرضاه نحوي لانه لا يتعلق به حكم اعرابي ولا سر معنوي قال الكافيجي هي في
التحقيق واو العطف لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص تضمنت امرا غريبا واعتبارا لطيفا ناسب
ان تسمى باسم غير جنسها فسميت بواو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة وذلك لان السبعة عندهم
عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على اكثر مراتب اصول الاعداد فان الثمانية عقد مستانف فكان
بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه وهذا هو المقتضي للعطف وهذا المعنى ليس موجودا بين
السبعة والستة انتهى ملخصا من الكرخي ثم امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يخبر المختلفين في عددهم
بما يقطع التنازع بينهم فقال قُلْ رَّبِّيٓ أَعْلَمُ اي اقوى علما وازيد في الكيفية بِعِدَّتِهِم منكم ايها المختلفون
فان مراتب اليقين متفاوتة في القوة وهذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العالم والكائنات فيه في الماضي و
المستقبل لا يكون الا لله تعالى او من اخبره الله سبحانه ثم اثبت العلم بذلك لقليل من الناس فقال
مَّا يَعْلَمُهُمْ اي ما يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم او ما يعلم عددهم على حذف المضاف إِلَّا قَلِيلٌ من الناس
عن ابن مسعود قال انا من القليل كانوا سبعة وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح وانا من اولئك
القليل كانوا سبعة ثم ذكر اسماءهم وذكر بعض المفسرين لاسمائهم خواص ومنافع ليست من التفسير
في شيء ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الجدال مع اهل الكتاب في شان اصحاب الكهف فقال
فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ اي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشانهم والمراء في اللغة الجدال يقال مارى يماري مماراة و
مراء اي جادل قال ابن عباس يقول حسبك ما قصصت عليك ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان
ظاهرا واضحا فقال إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا اي غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما اوحى الله اليه فحسب
من غير تجهيل لهم ومن غير رد عليهم وقال الرازي هو ان لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد بل

يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال ولا تستفت فيهم اي في شأنهم منهم اي من الخائضين فيهم احدا منهم لان المفتي يجب ان يكون اعلم من المستفتي وههنا الامر بالعكس ولا سيما في واقعة اهل الكهف وفيما قص الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له قال ابن عباس يعني اليهود وقال القرطبي النصارى وهو الاولى قال البيضاوي لا تسأل سؤال مسترشد ولا سؤال متعنت يريد فضيحة المسؤل وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق وفي الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة اهل الكتاب في شيء من العلم ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله اي لا تقولن لاجل شيء او في شأن شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان فعبر عنه بالغد ولم يرد الغد بعينه فيدخل فيه الغد دخولا اوليا قال الواحدي قال المفسرون لما سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن خبر الفتية فقال اخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه فانزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشية الله يقول اذا قلت لشيء اني فاعل ذلك غدا فقل ان شاء الله قيل وهذا الاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا تقولن ذلك في حال من الاحوال الا في حال ملابسته لمشية الله وهو ان يقول ان شاء الله او في وقت من الاوقات الا وقت ان يشاء الله ان تقوله لا مطلقا اي باذن الله فحذف الوقت وهو مراد او لا تقولن افعل غدا الا قائلا ان شاء الله وحذف القول كثير ونقل شاء الى لفظ الاستقبال حملا على المعنى قاله الاخفش والمبرد والكسائي والاستثناء على هذا منقطع وقيل التقدير الا بان يشاء الله اي متلبسا بقول ان شاء الله والمعنى الا ان تذكر مشية الله فليس الا ان يشاء الله من القول الذي نهى عنه وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كانه قيل لا تقولنه ابدا كقوله وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله لان عودهم في ملتهم مما لا يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت الاستثناء بمشية الله اي فقل ان شاء الله سواء كانت المدة قليلة او كثيرة وقد اختلف اهل العلم في المدة التي يجوز الحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على اقوال معروفة في مواضعها وقيل المعنى واذكر ربك بالاستغفار اذا نسيت مبالغة في الحث عليه او واذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ما امرك به ليبعثك على التدارك او واذكره اذا اعتراك النسيان لتذكر المنسي وعن ابن عباس انه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ثم قرأ هذه الآية وعنه قال هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لاحد ان يستثني الا في صلة يمين وعن ابن عمر قال كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه واذا كان

غير موصول فهو حانث واخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سليمان بن داود لاطوفن الليلة على سبعين امرأة وفي رواية تسعين تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله فقال له الملك قل ان شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن الا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته وعن عكرمة قال معنى اذا نسيت اذا غضبت وعن الحسن قال اذا نسيت الصلوة اخالم تقل ان شاء الله وقيل الاية في الصلوة ويدل له حديث انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسي صلوة فليصلها اذا ذكرها اقم الصلوة لذكري متفق عليه والاول اولى وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي يوفقني ويدلني رَبِّي لِأَقْرَبَ اي لشيء اقرب مِنْ هَذَا اي من خبر اهل الكهف من الايات والدلائل الدالة على نبوتي رَشَدًا هداية وارشاد الناس ودلالة على ذلك وعلى الاول هو مفعول مطلق وعلى الثاني تمييز لاقرب قال الزجاج عسى ان يعطيني ربي من الايات والدلالات على النبوة ما يكون اقرب في الرشد وادل من قصة اصحاب الكهف وقد فعل الله به ذلك حيث اتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم والحوادث النازلة في الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة ما كان اوضح في الحجة واقرب الى الرشد من خبر اصحاب الكهف وقيل عسى ان يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء اخر يدل على هذا المنسي واقرب من ذلك رشدا وادنى منه خيرا ومنفعة والاول اولى وَلَبِثُوا اي اقاموا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ عطف بيان لثلثمائة وهذه السنون عند اهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت في قوله وَازْدَادُوا تِسْعًا اي تسع سنين فالثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الفراء ومن العرب من يضع سنين موضع سنة قال ابو علي الفارسي هذه الاعداد التي تضاف في المشهور الى الاحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف الى الجموع وفي مصحف عبد الله ثلثمائة سنة وقال الاخفش لا تكاد العرب تقول مائة سنين وهذا اخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم ردا على اهل الكتاب المختلفين فيها قال ابن جرير ان بني اسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الاعثار عليهم فقال بعض اهل العلم انهم لبثوا ثلثمائة سنة وقال بعضهم ثلثمائة وتسع والسنون عندهم شمسية فهذان القولان غير ما اخبر الله به من انها ثلثمائة وتسع يعني قمرية فاخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان هذه المدة في كونهم نياما وان ما بعد ذلك مجهول للبشر فامر الله

ان يرد علم ذلك اليه لقوله قل الله اعلم بما لبثوا اي بالزمن الذي لبثوه في نومهم قيل بعثهم
وموتهم وقيل بعد موتهم الى نزول القران فيهم على قول مجاهد او الى ان ماتوا على قول الضحاك او الى وقت
تغيرهم بالبلاء على قول بعضهم وقيل بما لبثوا في الكهف قال ابن عطية فقوله على هذا لبثوا الاول يريد
في نوم الكهف ولبثوا الثاني يريد بعد الاعثار عليهم الى مدة محمد صلى الله عليه وسلم او الى ان ماتوا وقال الطيبي
انه لما قال وازدادوا تسعا لم يدر الناس اهي ساعات ام ايام ام جمع ام شهور ام اعوام فاختلف بنو اسرائيل
بحسب ذلك فامر الله برد العلم اليه في التسع فهي على هذا مبهمة والاول اولى لان الظاهر من كلام العرب
المفهوم منه بحسب لغتهم ان التسع اعوام بدليل ان العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور
ولا للايام ولا للساعات قال القشيري لا يفهم من التسع تسع ليال ولا تسع ساعات لوجود لفظ السنين
وعن الزجاج ان المراد بثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية وهذا انما يكون من الزجاج
على جهة التقريب وقال الشهاب واما احتمال كون السنين شمسية او قمرية وكون التسع سنين
او شهورا او اياما فليس بشيء قال الضحاك قالوا سنين ام شهور ام اياما فانزل الله سنين وحكى النقاش
ما معناه انهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الامم فلما كان الاخبار هنا للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ذكر التسع
اذ المفهوم عنده من السنين القمرية فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ونحوه ذكر القونوي ايضا
باختلاف سني الشمس والقمر لانه يتفاوت في كل ثلث وثلثين وثلث سنة فيكون في ثلثمائة تسع
سنين انتهى اقول هذا ينبني على حساب الكبس والكبس عندهم مختلف وقد حققناه في كتابنا لقطة
العجلان فراجعه وعن ابن عباس قال ان الرجل ليفسر الاية يرى انها كذلك فيهوي ابعد ما بين
السماء والارض ثم تلى ولبثوا في كهفهم الاية ثم قال كم لبث القوم قالوا ثلثمائة وتسع سنين قال لو كانوا
لبثوا كذلك لم يقل الله قل الله اعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجما
بالغيب فاخبر انهم لا يعلمون ثم قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قال
القرطبي اختلف في اصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا او هم نيام واجسادهم محفوظة فروي عن ابن عباس انه
قال اولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ومشى اناس معه في بعض غزوات الشام الى موضع الكهف
فوجدوا عظاما وروت فرقة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ليحجن عيسى بن مريم ومعه اصحاب الكهف فانهم
لم يحجوا بعد ذكره ابن عيينة وغيره في التوراة والانجيل وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في التذكرة على

هذا هو بناء لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة بل يموتون قبل الساعة انتهى والله اعلم ثم ذكر سبحانه
اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ اي ما خفي فيهما وغاب من احوالهما
ليس لغيره من ذلك شيء ثم زاد في المبالغة والتاكيد فجاء بما يدل على التعجب من ادراكه للمبصرات
والمسموعات فقال أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ فافاد هذا التعجب على ان شانه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات
خارج عما عليه ادراك المدركين وانه يستوي في علمه الغائب والحاضر والخفي والظاهر والصغير و
الكبير واللطيف والكثيف وكان اصله ما ابصره وما اسمعه ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء على سبيل
المجاز والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الاخفش والبحث مقرر في علم النحو والهاء لله تعالى وقيل
تعود على الهدى المفهوم من الكلام اي ابصر بوحيه وارشاده هداك وحججك والحق من الامور و
اسمع به العالم والاول اولى وقرئ ابصر واسمع فعلا ماضيا والفاعل الله تعالى اي ابصر عباده واسمعهم
مَا لَهُمْ اي لاهل السموات والارض وقيل لاهل الكهف وقيل لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ اي من موال يواليهم او يتولى امورهم او ينصرهم وفي هذا بيان لغاية قدرته و
ان الكل تحت قهره وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه وقرئ بالفوقية
على انه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لله شريكا في حكمه والمراد بحكم الله ما يقضيه او علم الغيب والاول اولى
ويدخل علم الغيب في ذلك دخولا اوليا فان علمه سبحانه من جملة قضائه وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ امره
الله سبحانه ان يواظب على تلاوة الكتاب الموحى اليه قيل يحتمل ان يكون معنى قوله واتل واتبع امرا من
التلو لا من التلاوة اي اتبع ما فيه واعمل به ولا تلتفت لقولهم ائت بقرآن غير هذا او بدله مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ بيان للذي اوحي اليه لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ اي لا قادر على تبديلها وتغييرها وانما يقدر على
ذلك هو وحده قال الزجاج اي ما اخبر الله به وما امر به فلا مبدل له وعلى هذا يكون التقدير لا مبدل
لحكم كلماته وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا اي ملتجأ واصل اللحد الميل وقال ابو عبيدة الحد الحادا جادل وماري
ولحد جار وظلم والحد في الحرم استحل حرمته وانتهكها والملتحد اسم الموضع وهو الملجأ قال الزجاج لن تجد
معدلا عن امره ونهيه والمعنى انك ان لم تتبع القرآن وتتلوه وتعمل باحكامه لن تجد معدلا تعدل اليه
ومكانا تميل اليه وهذه الآية آخر قصة اهل الكهف ثم شرع سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز
فقال وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ اي يعبدونه وقد تقدم في الانعام نهيه صلى الله عليه وسلم

عن طرد فقراء المؤمنين بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم وامره سبحانه ههنا بان يحبس نفسه
معهم فصبر النفس هو حبسها عن الجزع وبابه ضرب وصبره حبسه وهذه الآية ابلغ من التي في الانعام
لان في تلك نهي الرسول عن طردهم وفي هذه امره بمجالستهم والمصابرة معهم بالغدوة والعشي ذكرهما
كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الاوقات وقيل في طرفي النهار وقيل المراد صلوة العصر والفجر
وقرئ غدوة وانكره النحاس وقال ولا تكاد العرب تقول الغدوة ومعنى يريدون وجهه انهم يتقربون
بدعائهم رضاء الله سبحانه لا عرض الدنيا وعن سلمان قال جاءت المؤلفة قلوبهم عيينة بن بدر
والاقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وارواح جبابهم يعنون
سلمان وابا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف جالسناك وحادثناك واخذنا عنك
فانزل الله واتل ما اوحي اليك الى قوله انا اعتدنا للظالمين نارا اخرجه البيهقي وغيره وزاد ابو الشيخ
عن سلمان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يلتمسهم حتى اصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال
الحمد لله الذي لم يمتني حتى امرني ان اصبر نفسي مع رجال من امتي معكم المحيا والممات وعن عبد الرحمن
بن سهل بن حنيف قال نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض ابياته واصبر نفسك الآية فخرج يلتمسهم
فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الراس وجاف الجلد وذو الثوب الخلق فلما رآهم جلس معهم وقال
الحمد لله الذي جعل في امتي من امرني ان اصبر نفسي معهم وعن ابي سعيد وابي هريرة قالا جاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر او سورة الكهف فسكت فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المجلس الذي امرت ان اصبر نفسي معهم وفي الباب روايات
وعن ابن عمر قال انهم الذين يشهدون الصلوات الخمس وعن ابن عباس مثله وقيل نزلت في صلوة
الصبح وصلوة العصر ثم امره سبحانه بالمراقبة لاحوالهم فقال ولا تعد عيناك عنهم اي لا تتجاوز الى
غيرهم قال الفراء معناه لا تصرف عينيك عنهم وقال الزجاج لا تصرف بصرك الى غيرهم من ذوي
الهيئات والزينة واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو من عدوته عن الامر اي صرفته عنه وقال ايضا
لا تحتقرهم عيناك عبر بهما عن صاحبهما تريد زينة الحيوة الدنيا اي مجالسة اهل الشرف
والغنى وصحبة اهل الدنيا والمعنى حال كونك مريد الذلك هذا اذا كان فاعل تريد هو النبي صلى الله عليه وسلم
وان كان الفاعل ضمير ايعود الى العينين فالتقدير مريدة زينة الحيوة الدنيا واسناد الارادة الى العينين

مجاز وتوحيد الضمير للتلازم والاول اولى وهو نهي له صلى الله عليه وسلم وان لم يرده وليس هو اكبر من
قوله لئن اشركت ليحبطن عملك وان كان اعاذه من الشرك وانما هو على فرض المحال ﴿ولا تطع من اغفلنا
قلبه﴾ اي جعلناه غافلا ﴿عن ذكرنا﴾ بالختم عليه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله
قلبه غافلا عن ذكره كاولئك الذين طلبوا منه ان ينحي الفقراء عن مجلسه فانهم طالبوا تنحية الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ومع هذا فهم ممن ﴿اتبع
هواه﴾ وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿وكان امره فرطا﴾ اي متجاوزا عن حد الاعتدال من
قولهم فرس فرط اذا كان متقدما على الخيل فهو على هذا من الافراط وقيل هو من التفريط وهو التقصير و
التضييع والاول اظهر قال الزجاج ومن قدم العجز في امره اضاعه واهلكه عن ابن عباس قال نزلت في
امية بن خلف وذلك انه دعا النبي صلى الله عليه وسلم الى امر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد
اهل مكة فانزل الله هذه الآية يعني من ختمنا على قلبه يعني التوحيد واتبع هواه يعني الشرك وكان امره
فرطا يعني فرطا في امر الله وجهالة به وعن ابن بريدة قال دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم
في يوم حار وعنده سلمان عليه جبة صوف فثار منه ريح العرق في الصوف فقال عيينة يا محمد
اذا نحن اتيناك فاخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا فاذا خرجنا فانت وهو اعلم فانزل الله ولا تطع
الآية وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية وهي قوله ولا تطرد الذين
الآية عن سعد بن ابي وقاص قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم
اطرد هؤلاء لا يجترءون علينا قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت
اسمهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ان يقع فحدث نفسه فانزل الله ولا تطرد الذين
الآية ثم بين سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ما يقوله لاولئك الغافلين فقال ﴿وقل الحق من ربكم﴾ اي قل لهم
ما اوحي الي وامرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير
وقيل المراد بالحق الصبر مع الفقراء قال الزجاج اي الذي اتيتكم به هو الحق من ربكم يعني لم اتكم به من
قبل نفسي انما اتيتكم به من الله وعن قتادة قال الحق هو القرآن ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾
قيل هو من تمام القول الذي امر رسوله ان يقوله والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ويجوز ان يكون
من كلام الله سبحانه لا من القول الذي امر به رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه تهديد شديد وتخويف و

لا تخيير واباحة ويكون المعنى قل لهم يا محمد الحق من ربكم وبعد ان تقول لهم هذا القول من شاء
ان يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ومن شاء ان يكفر به ويكذبك فليكفر وقال ابن عباس يقول
من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وهو قوله وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين ثم
اكد الوعيد وشدده فقال انا اعتدنا اي اعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له
والانكار لانبيائه نارا عظيمة احاط بهم اي اشتمل عليهم سرادقها واحد السرادقات قال الجوهري
وهي التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف اي قطن فهو سرادق وقيل الحائط المشتمل على شيء سرادق
قاله الهروي وقال الراغب السرادق فارسي معرب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه الف بعدها
حرفان الا هذا يقال بيت مسردق وقال ابن الاعرابي سرادقها سورها وقال القتيبي السرادق الحجرة التي
تكون حول الفسطاط والمعنى انه احاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق
المحيط بمن فيه وعن ابن عباس قال حائط من نار واخرج احمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم
عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سرادق النار اربعة جدر كثافة كل جدار منها مسيرة
اربعين سنة واخرج احمد والبخاري والحاكم وصححه عن يعلى بن امية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان البحر هو من جهنم ثم تلى نارا احاط بهم سرادقها وان يستغيثوا من حر النار اي يطلبوا الانقاذ من شدة
العطش يغاثوا فيه مشاكلة اذ لا اغاثة لهم بالماء الآتي ذكره بل اتيانهم به والجاءهم بشربه غاية الاضرار
والاغاثة هي الانقاذ من الشدة فكأنه قال يضروا ويعذبوا بماء كالمهل وهو الحديد المذاب قال الزجاج
انهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب والصفر وقيل هو دردي الزيت اي ما يبقى في الاسفل من الاناء ووجه
المشابهة الثخن والرداءة في كل قال ابو عبيدة والاخفش العكر وهو كل ما اذيب من جواهر الارض من حديد
ورصاص ونحاس وقيل هو ضرب من القطران اخرج احمد والترمذي وابو يعلى وابن جرير وابن حبان
والبيهقي في البعث عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت
فروة وجهه فيه وعن ابن عباس قال اسود كعكر الزيت وعنه قال ماء غليظ كدردي الزيت وعن ابن مسعود
انه سئل عن المهل فدعى بذهب وفضة فاذابه فلما ذاب قال هذا اشبه شيء بالمهل الذي هو شراب
اهل النار ولونه لون السماء غير ان شراب اهل النار اشد حرا من هذا وعن ابن عمر هل تدرون ما
المهل المهل مهل الزيت يعني آخره ثم وصف هذا الماء الذي يغاثوا به بانه يشوي الوجوه اذا قدم عليهم

صارت وجوههم مشوية لحرارته والتي الانضاج بالنار من خبر احراق بِئْسَ الشَّرَابُ شرابهم
هذا الذي يغاثون به وَسَاءَتْ النار مُرْتَفَقًا متكأ يقال ارتفقت اي اتكأت واصل الارتفاق نصب
المرفق تحت الخد ويقال ارتفق الرجل اذا نام على مرفقه وقال القتيبي هو المجلس والمنزل وقيل المجتمع وبه قال
مجاهد وانما جاء كذلك للمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا في ارتفاق لاهل النار واي متكأ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين والمعنى ان الذين آمنوا بالحق
الذي اوحي اليك وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ من الاعمال إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ منهم عَمَلًا وفيها اقامة
الظاهر مقام المضمر والمعنى اجرهم اي نثيبهم بما تضمنه قوله أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ اي اقامة مستانفة
لبيان الاجر والاشارة الى من تقدم ذكره وقيل اولئك خبر ان الذين آمنوا وجملة انا لا نضيع اعتراض
وقيل غير ذلك تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ لان افضل المساكن ما كان يجري فيه الماء وقد تقدم
الكلام في كيفية جري الانهار من تحتها يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ قال الزجاج اساور جمع اسورة
وهي جمع سِوار وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك وظاهر الاية انها جميعها من ذهب
وجاء في اية اخرى من فضة وفي اخرى من ذهب ولؤلؤ فيلبسون الاساور الثلاثة فيكون في يد الواحد
منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ فعلم من هذا ان كلا من هذه الاية ومن اية هل
اتى على الانسان ومن اية الحج ومن اية فاطر فيه الاخبار ببعض ما يحلون به ومن في من اساور للابتداء
وقيل انها زائدة بدليل سقوطها في سورة هل اتى وحلوا اساور من فضة ومن في من ذهب للبيان وحكى الفراء يَحْلَوْن بفتح الياء
وسكون الحاء وفتح اللام يقال حليت المرأة تحلى فهي حالية اذا لبست الحلي اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ عطف
على يحلون وبنى الفعل في التحلية للمفعول ايذانا بكرامتهم وان غيرهم يفعل بهم ذلك ويزينهم
بخلاف اللبس فان الانسان يتعاطاه بنفسه وقدم التحلي على اللباس لانه اشهى للنفس وخص الاخضر لانه
الموافق للبصر ولكونه احسن الالوان قال الكسائي السندس الرقيق واحده سندسة والاستبرق الثخين
واحده استبرقة وكذا قال المفسرون وقيل ليس جمعين وقيل الاستبرق هو الديباج وقيل هو
المنسوج بالذهب قال القتيبي وهو فارسي معرب قال الجوهري وتصغيره ابيرق قال السمين وهل
استبرق عربي الاصل مشتق من البريق او معرب اصله استبره خلاف بين اللغويين قال صحر بن

عبد الله في الجنة شجرة تنبت السندس منه تكون ثياب اهل الجنة وعن عكرمة قال الاستبرق الديباج
الغليظ وعن مجاهد مثله وفي اية الرحمن بطائنها من استبرق اي الفرش فيقاس عليها اللباس
الذي الكلام فيه فظهارة الكل من سندس وبطائنه من استبرق قال المحلي في سورة هل اتى فالاستبرق
بطانة ثيابهم والسندس ظهارتها متكئين فيها على الارائك اصل تكا وتكا واصل متكئين
موتكئين والاتكاء التحامل على الشئ اي يجلسون متربعين ومضطجعين اخرج ابن ابي حاتم عن
الهيثم بن مالك الطائي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكئ مقدار اربعين سنة لا يتحول منه
ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه قال الزجاج الارائك جمع اريكة وهي السرر في الحجال
وقيل هي اسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت وعن ابن عباس قال الارائك السرر في جوف الحجال
عليها الفرش منضود في السماء فرسخ وعنه قال لا يكون اريكة حتى يكون السرير في الحجلة وعن عكرمة
الارائك هي الحجال على السرر وفي القاموس الاريكة كسفينة سرير في حجلة او كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة
وفراش او سرير متخذ مزين في قبة او بيت فان لم يكن فيه سرير فهو حجلة والجمع ارائك نعم الثواب وذلك
الذي اثابهم الله به وهو الجنة وحسنت تلك الارائك في الجنات مرتفقا اي متكأ او مقرا ومجلسا
ومنتفعا ومسكنا ومنزلا وقد تقدم قريبا وقد اشتمل هذا القول على خمسة انواع من الثواب الاول
جنات عدن الثاني تجري من تحتهم الانهار الثالث يحلون فيها الرابع ويلبسون الخامس متكئين واضرب لهم
مثلا رجلين هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا
متصل بقوله واصبر نفسك وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدران او محققان فقال بالاول بعض
المفسرين وقال بالآخر بعض آخر واختلفوا في تعيينهما فقيل هما اخوان من بني اسرائيل احدهما مؤمن واسمه
يهوذا في قول ابن عباس وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قيطوس وهما اللذان وصفهما الله في سورة و
الصافات بقوله قال قائل منهم اني كان لي قرين وقيل هما اخوان مخزوميان من اهل مكة احدهما مؤمن
وهو ابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن عبد ياليل والآخر كافر وهو الاسود بن عبد الاسد وقيل هذا
مثل لعيينة بن حصن واصحابه مع سلمان واصحابه وانتصاب مثلا ورجلين على انهما مفعولا اضرب
قيل والاول هو الثاني والثاني هو الاول جعلنا لاحدهما هو الكافر جنتين قال السدي الجنة البستان فكان
له بستان واحد وجدار واحد وكان بينهما نهر فلذلك كانا جنتين ولذلك سماه جنة من قبل الجدار

الذي عليها وعن يحيى بن ابي عمرو الشيباني قال نهر ابي فرطس نهر الجنتين قال ابن ابي حاتم وهو نهر مشهور
بالرملة من اعناب بيان لما في الجنتين اي من كروم متنوعة جمع عنب والعنبة الحبة وحففناهما بنخل
الحف الاحاطة ومنه حافين من حول العرش ويقال حف القوم بفلان يحفون حفا اي اطافوا به فمعنى
الآية وجعل النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما وهذا مما يوثره الدهاقين في كرومهم ان يجعلوها
مؤزرة بالاشجار المثمرة وجعلنا بينهما اي بين الجنتين وهو وسطهما زرعا يقتات به ليكون كل واحد
منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والتركيب الانيق ثم اخبر الله سبحانه عن
الجنتين بان كل واحدة منهما كانت تؤدي حملها وما فيها فقال كلتا الجنتين آتت اكلها اخبر عن
كلتا بآتت لان لفظه مفرد يدل على التثنية فراعى جانب اللفظ وقد ذهب البصريون الى ان كلا وكلتا
اسم مفرد غير مثنى وقال الفراء هو مثنى وهو ماخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الالف للتثنية ورد
التثنية المعنوية في قوله الآتي وفجرنا خلالهما نهرا وهذا كناية عن تمامها ونموها دائما وابدا فليست على عادة
الاشجار حيث يتم ثمرها في بعض السنين وينقص في بعض واكلها بضم الكاف وسكونها سبعيتان ولم
تظلم منه شيئا اي لم تنقص من اكلها شيئا في بعض السنين بل في كل سنة ياتي ثمرها وافيا يقال ظلمه
حقه اي انقصه ووصف الجنتين بهذه الصفة للاشعار بانهما على خلاف ما يعتاد في سائر
البساتين فانها في الغالب تكثر في عام وتقل في عام قال ابن عباس لم ينقص كل شجر الجنة اطعمه
وفجرنا اي اجرينا وشققنا خلالهما اي وسط الجنتين نهرا يجري بينهما يسقيهما دائما من غير
انقطاع وكان له اي لاحدهما او لصاحب الجنتين ثمر بفتح الثاء والميم وكذا قرأوا في قوله احيط بثمره
وقرئ ثمر بضم الثاء واسكان الميم في الموضعين قال الجوهري الثمرة واحدة الثمر والجمع ثمار مثل جبل
وجبال قال الفراء وجمع الثمار ثمر مثل كتاب وكتب وجمع الثمر اثمار مثل عنق واعناق والثمرة مؤنث و
الجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة وسواء اكل او لا فيقال ثمر الاراك وثمر
العوسج وثمر الدوم وهو المقل كما يقال ثمر النخل وثمر العنب قال الازهري اثمر الشجر اطلع ثمره اول ما يخرجه فهو
مثمر ومن هنا قيل لما لا نفع فيه ليس له ثمرة وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير
ذلك يسمى ثمرا لانه يثمر ويزيد ماخوذ من ثمر ماله بالتشديد اذا كثره وقيل الثمر هو الذهب والفضة خاصة
قاله مجاهد قال ابن عباس هو انواع المال فقال الكافر لصاحبه المؤمن وهو يحاوره اي يراجعه الكافر

يحاور المؤمن والمعنى يراجعه الكلام ويجاوبه والمحاورة المراجعة والتحاور التجاوب وحاصل ما
قاله من القول الشنيع ثلاث مقالات الاولى انا اكثر منك مالا واعز نفرا النفر الرهط وهو ما دون
العشرة واراد ههنا الاتباع والحرم والاولاد والعشيرة ودخل جنته اي دخل الكافر جنة نفسه
قال المفسرون اخذ بيد اخيه المسلم فادخله جنته يطوف به فيها ويريه آثارها وعجائبها وبهجتها
وحسنها واثمارها ويفاخره بما ملك من المال دونه وافراد الجنة هنا يحتمل ان وجهه كونه لم يدخل
اخاه الا واحدة منهما او لكونهما لما اتصلتا كانتا كواحدة او لانه ادخله في واحدة ثم واحدة او
لعدم تعلق الغرض بذكرهما والاكتفاء بالواحدة وقال المحلي لم يقل جنتيه ارادة للروضة وعبارة
الشهاب افرد الجنة مع ان له جنتين لنكتة وهي ان الاضافة تاتي لما تاتي له اللام فالمراد بها العموم
والاستغراق اي كل ما هو جنة له ينتفع بها فيفيد ما افادته التثنية مع زيادة وهي الاشارة الى انه
لا جنة له غير هذه ولذا عبر بالموصول الدال على العموم فيما هو معهود انتهى وما ابعد ما قاله
صاحب الكشاف انه وحد الجنة للدلالة على انه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون وهو اي والحال انه
الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه قال قتادة كفور لنعمة ربه مستانف بياني لسبب الظلم قال اي الكافر
لفرط غفلته وطول امله ما اظن ان تبيد اي تفنى وتنعدم هذه الجنة التي تشاهدها ابدا وهذه
هي الثانية من مقالاته والثالثة قوله وما اظن الساعة قائمة انكر البعث بعد انكاره لفناء جنته
قال الزجاج اخبر اخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ولئن رددت الى ربي اللام هي الموطئة للقسم
والمعنى انه وانه ان يرد الى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه واللام في لاجدن جواب القسم والشرط
اي لاجدن يومئذ خيرا منها على الافراد على ما في مصاحف اهل البصرة والكوفة اي من هذه الجنة
وفي مصاحف مكة والمدينة والشام منهما منقلبا هو المرجع والعاقبة لانها فانية وتلك باقية قال
هذا قياسا للغائب على الحاضر وانه كما كان غنيا في الدنيا سيكون غنيا في الآخرة اغترارا منه بما صار
فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله قال له اي للكافر صاحبه المؤمن وقد تعقبه في الثلاثة
على سبيل اللف والنشر المشوش وهو يحاوره اي حال محاورته له منكرا عليه ما قاله اكفرت بالذي ما
اظن الساعة قائمة استفهام توبيخ وتقريع اي لا ينبغي ولا يليق منك الكفر بالذي خلقك اي خلق
اصل خلقك من تراب حيث خلق اباك آدم منه وهو اصلك واصل مادة البشر فلكل فرد حظ

من ذلك وقيل يحتمل انه كان كافرا بالله فانكر عليه ما هو عليه من الكفر ولم يقصد ان الكفر
حدث له بسبب هذه المقالة ثم من نطفة وهي المادة القريبة ثم سوّٰك رجلا اي صيرك
وجعلك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال وعدل اعضاءك وكملك وهو ظاهر كلام الحوفي وقيل
انه حال ومن الجائز ان يسويه غير رجل وهو كقولهم خلق الله الزرافة يديها اطول من رجليها
والاول اولى وانما جعل كفره بالبعث كفرا بالله لان منشأه الشك في كمال قدرة الله وكذلك ترتب الانكار على
خلقه اياه من التراب فان في هذا تلويحا بالدليل على البعث وان القادر على الابتداء قادر على الاعادة لكنا اصله لكن
انا وضمير هو للشان والمعنى انا اقول الله ربي قال اهل العربية اثبات الف انا في الوصل ضعيف وعن الكسائي
الاصل لكن الله هو ربي وقال الزجاج لكن انا هو الله ربي ولا خلاف في اثباتها في الوقف وتكلم في الحمل على هذا
الالف باطول من هذا ثم نفى عن نفسه الشرك بالله تعالى فقال ولا اشرك بربي احدا فيه اشارة الى ان اخاه
كان مشركا ثم اقبل عليه يلومه على الثانية فقال ولولا اذ دخلت جنتك قلت لولا للتحضيض اي هلا قلت عندما
دخلتها ما شاء الله قال الفراء والزجاج هلا قلت حين دخلتها الامر بمشية الله وما شاء الله كان وقيل كائن
اي اي شيء شاء الله كان فاعترام جنتك من الحسن والنضارة لخالقه ولا تفتخر به لانه ليس من صنعك وقوله لا قوة
الا بالله من جملة مقول القول اي هلا قلت هاتين الجملتين تحضيضا له على الاعتراف بانها وما فيها بمشية الله ان شاء
ابقاها وان شاء افناها وعلى الاعتراف بالعجز وان ما تيسر له من عمارتها وحسنها ونضارتها انما هو بمعونة الله لا بقوته
وقدرته وهذا نصح من المؤمن للكافر وتوبيخ له على قوله ما اظن ان تبيد هذه ابدا قال الزجاج لا يقوى احد على
ما في يده من ملك ونعمة الا بالله ولا يكون الا ما شاء الله اخرج ابن ابي حاتم عن اسماء بنت عميس قالت
علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات اقولهن عند الكرب الله الله ربي لا اشرك به شيئا واخرج ابو يعلى
وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انعم الله على عبد نعمة
في اهل او مال او ولد فيقول ما شاء الله لا قوة الا بالله الا دفع الله عنه كل آفة حتى تاتيه منيته وقرأ
هذه الآية في اسناده عيسى بن عون وروي عن انس نحوه موقوفا واخرج احمد من حديث ابي هريرة
قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش قلت نعم قال ان تقول
لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت في الصحيح من حديث ابي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له الا ادلك
على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة الا بالله وقد وردت احاديث وآثار عن السلف في فضل هذه الكلمة

تو لما حصله الايمان وتفويض الامور الى الله سبحانه اجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال إِن تَرَنِ الرؤية علمية او بصرية أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا اي لاجل ذلك تكبرت وتعظمت علي ويجوز في انا وجهان احدهما ان يكون مؤكدا للياء المتكلم والثاني انه ضمير الفصل بين المفعولين واقل مفعول ثان او حال بحسب الوجهين في الرؤية الا انك اذا جعلتها بصرية تعين في انا ان يكون توكيدا لا فصلا لان شرطه ان يقع بين مبتدأ وخبر او ما اصله المبتدأ والخبر وقرأ عيسى بن عمرو اقل بالرفع ويتعين ان انا مبتدأ واقل خبره والجملة اما في موضع المفعول الثاني واما في موضع الحال على ما تقدم في الرؤية وما لا وولدا تمييزان وجواب الشرط قوله فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ اي في الدنيا او في الآخرة او فيهما وفي الاول يكون الكافر اشد غيظا وحسرة ترني افقر منك فانا ارجوا ان يرزقني الله سبحانه جنة خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ في الدنيا او في الآخرة او فيهما وفي الاول يكون الكافر اشد غيظا وحسرة وهذا رجاء من المؤمن وترجح على مقالة الكافر الاولى وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا اي على جنتك حُسْبَانًا هو مصدر بمعنى الحساب كالغفران اي مقدارا قدره الله عليها ووقع في حسابه سبحانه وهو الحكم بتخريبها قال الزجاج الحسبان من الحساب اي يرسل عليها عذاب الحساب وهو حساب ما كسبت يداك وهو حسن وقال الاخفش حسبانا اي مراما وقيل نارا مِّنَ السَّمَاءِ واحدها حسبانة وكذا قال ابو عبيدة والقتيبي والكرخي وقال ابن الاعرابي الحسبانة السحابة والوسادة والصاعقة وقال قتادة حسبانا عذابا وقال النضر بن شميل الحسبان سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تنزع في قوس ثم يرمي بعشرين منها دفعة والمعنى يرسل عليها مرامي من عذابه اما برد واما حجارة او غيرها مما يشاء من انواع العذاب فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا مثل الجرز قاله ابن عباس اي فتصبح جنة الكافر بعد ارسال الله سبحانه عليها حسبانا ارضا جرداء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم وقال قتادة اي قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء والصعيد في اللغة من جملة معاني الصعيد وجه الارض وزلقا اي تزل فيه الاقدام لملاستها يقال مكان زلق بالتحريك اي دحض وقيل رملا هائلا وهو في الاصل مصدر قولك زلقت رجله تزلق زلقا وازلقها غيره والمزلقة الموضع الذي لا تثبت عليه قدم وكذا الزلاقة وصف الصعيد بالمصدر مبالغة او اريد به المفعول وصيرورتها كذلك لاستيصال نباتها واشجارها بالذهاب والاهلاك فلم يبق له اثر أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا اي ذاهبا في الارض لا تناله الايدي ولا الدلاء ولا سبيل اليه والغور الغائر وصف الماء بالمصدر مبالغة والمعنى انها تصير عادمة للماء بعد ان كانت واجدة له وكان خلالها

ذلك النهر يسقيها دائما ويجيء الغور بمعنى الغروب والعطف على يرسل دون تصبح لان غور الماء
لا يتسبب عن الصواعق والمرامي قال ابو حيان الا ان عني بالحسبان القضاء الالهي فح يتسبب عنه اصباح
الجنة صعيدا زلقا واصباح مائها غورا فلن تستطيع له طلبا اي لن تستطيع لطلب الماء الغائر فضلا
عن وجدة وردة ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل تدركه بها وقيل المعنى فلن تستطيع طلب غيره
عوضا عنه ثم اخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من اهلاك جنة الكافر
فقال واحيط بثمره اي امواله كالنقد والمواشي وهذا راجع لقوله وكان له ثمر واصل الاحاطة
من احاطة العدو بالشخص كما تقدم في قوله الا ان يحاط بكم وهي عبارة عن اهلاكه وافنائه
وهو معطوف على مقدر كانه قيل فوقع ما توقعه المؤمن فهلكت جنته بالصواعق وغور الماء
واحيط بثمره اي احاط العذاب والهلاك بثمر جنته ايضا فاصبح اي صار صاحبها الكافر يقلب
كفيه اي يضرب احدى يديه على الاخرى ويصفق بكف على كف وهو كناية عن الندم والتحسر كانه
قيل فاصبح يتندم كذا قدره ابو البقاء وهو تفسير معنى على ما انفق فيها اي في عمارتها واصلاحها
من الاموال وقيل المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما انفق لان الملك قد يعبر عنه باليد
من قولهم في يده مال وهو بعيد جدا قال قتادة يصفق على ما انفق فيها متلهفا على ما فاته
وهي خاوية على عروشها اي والحال ان تلك الجنة ساقطة على دعائمها التي تحمل بها الكروم
او ساقط بعض تلك الجنة على بعض ماخوذ من خوت النجوم تخوي اذا سقطت ولم تمطر في نوئها
ومنه قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا قيل وتخصيص ماله عرش بالذكر دون النخل والزرع
لانه الاصل وايضا اهلاكها مغن عن ذكر اهلاك الباقي والعرش شبه بيت من جريد يجعل
فوقه الثمام والجمع عروش والعريش مثله وجمعه عرش بضمتين كبريد وبرد وعريش الكرم ما
يعمل مرتفعا يمتد عليها الكرم والجمع عرائش ايضا وقال الشهاب جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليها
الكرم فاذا سقط سقط ما عليه ويقول يا ليتني لم اشرك بربي احدا هذه الجملة معطوفة على
جملة يقلب كفيه او حال من ضميره اي وهو يقول يعني انه تذكر موعظة اخيه المؤمن فعلم
انه اتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بانه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته
من الهلاك او كان هذا القول منه على حقيقته لا لما فاته من الغرض الدنيوي بل لقصد التوبة

من الشرك والندم على ما فرط منه والاول هو الاقرب اذ يويده قوله ولم تكن بالتاء والياء سبعيتان له خبر كان فئة اسمها ينصرونه من دون الله صفة لفئة اي فئة ناصرة بدفع الهلاك عنها او برد الهالك منها او برد مثله عليه وقيل هو الخبر ورجح الاول سيبويه والثاني المبرد واحتج بقوله ولم يكن له كفوا احد والمعنى انها لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ اليها وينتصر بها ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ولو تابت كان المومنون انصار الله وما كان في نفسه منتصرا اي ممتنعا بقوته عن اهلاك الله لجنته وانتقامه منه وفادرا على واحد من هذه الامور هنالك اي في ذلك المقام وقيل يوم القيامة الولاية بفتح الواو والنصرة وبكسرها الملك اي القهر والسلطنة لله وحده لا يقدر عليها غيره الحق بالجر صفة الجلالة وبالرفع صفة الولاية وكل منهما راجع لفتح الواو وكسرها فالقراءات اربعة وكلها سبعية قال الزجاج ويجوز النصب على المصدر والتوكيد وقيل هو على التقديم والتاخير اي الولاية لله الحق هنالك هو سبحانه خير ثوابا اي اثابة لاوليائه اي اعطاء للثواب في الدنيا والاخرة من غيره لو كان يثيب وخير عقبا اي عاقبة قرئ عقبا بسكون القاف وضمها وهما سبعيتان بمعنى واحد اي هو خير عاقبة لمن رجاه وامن به يقال هذا عاقبة امر فلان وعقباه اي اخراه ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال واضرب اي اذكر وقرر لهم اي لقومك مثل الحيوة الدنيا اي ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا اليها وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس ثم بين سبحانه هذا المثل فقال كماء اي كصفة وحال وهيئة ماء فالمشبه هيئة الدنيا بهيئة ماء انزلناه من السماء فاختلط اي تكاثف وغلظ به اي بسبب نزول الماء نبات الارض حتى استوى والتف بعضه على بعض او امتزج الماء بالنبات فروي وحسن وعلى هذا كان حق التركيب ان يقال فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته فاصبح اي صار النبات عقب ذلك هشيما يابسا والهشيم الكسير واحده هشيمة وهو اليابس وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ورجل هشيم ضعيف البدن وتهشم عليه فلان اذا تعطف واهتشم ما في ضرع الناقة اذا حلبه وهشم الثريد كسره وثرده قال ابن قتيبة كل ما كان رطبا فيبس فهو هشيم تذروه تفرقه وتنثره قال ابو عبيدة وابن قتيبة تذروه تنسفه الرياح قال ابن كيسان اي تذهب به وتجيء والمعنى متقارب يقال ذرته الريح تذروه واذرته تذريه وحكى الفراء اذريت الرجل عن فرسه اي قلبته وكان

اللہ علی کل شیء من الاشیاء مقتدرا ای کامل القدرة یحییه ویفنیه بقدرته لا یعجز عن شیء

المال والبنون زینة الحیوة الدنیا یتجمل بهما فیها وهذا رد علی الرؤساء الذین کانوا یفتخرون بالمال والغناء والابناء فاخبرهم الله سبحانه ان ذلک مما یتزین به فی الدنیا لا مما ینتفع به فی الاخرة کما قال فی الآیة الاخری انما اموالکم واولادکم فتنة وقال ان من ازواجکم واولادکم عدوا لکم فاحذروهم و قال لا ینفع مال ولا بنون الآیة وهذا اشارة الی قیاس حذفت کبراه ونتیجته ونظمه هکذا المال والبنون زینة الحیوة الدنیا وکل ما هو زینتها فهو هالک غیر باق ینتج المال والبنون هالکان ثم یقال وکل ما هو هالک فلا یفتخر به فالمال والبنون لا یفتخر بهما ولهذا عقب هذه الزینة الدنیویة بقوله والباقیات الصالحات ای اعمال الخیرات التی تبقی له ثمرتها ابد الابد وهی ما کان یفعله فقراء المسلمین من الطاعات خیر ای افضل من هذه الزینة بالمال والبنین عند ربک ثوابا واکثر عائدة ومنفعة لاهلها وخیر املا یعنی ان الاعمال الصالحة لاهلها من الامل افضل مما یؤمله اهل المال والبنین لانهم ینالون بها فی الاخرة افضل مما کان یؤمله هؤلاء الاغنیاء فی الدنیا و لیس فی زینة الدنیا خیر حتی تفضل علیها الاخرة ولکن هذا التفضیل خرج مخرج قوله تعالی اصحاب الجنة یومئذ خیر مستقرا والظاهر ان الباقیات الصالحات کل عمل خیر فلا وجه لقصرها علی الصلوة کما قال بعض ولا لقصرها علی نوع من انواع الذکر کما قاله بعض آخر ولا علی ما کان یفعله فقراء المهاجرین باعتبار السبب لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وبهذا یعرف ان تفسیر الباقیات الصالحات فی الاحادیث بما سیاتی لا ینافی اطلاق هذا اللفظ علی ما هو عمل صالح من غیرها عن علی قال المال والبنون حرث الدنیا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد جمعهما الله لاقوام عن ابن عباس قال الباقیات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اکبر واخرج سعید بن منصور واحمد وابو یعلی وابن جریر وابن ابی حاتم وابن حبان والحاکم وصححه وابن مردویه عن ابی سعید الخدری ان رسول الله صلی الله علیه وسلم قال استکثروا من الباقیات الصالحات قیل وما هی یا رسول الله قال التکبیر والتهلیل والتسبیح والتحمید ولا حول ولا قوة الا بالله واخرج الطبرانی وغیره عن ابی الدرداء مرفوعا بلفظ سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اکبر ولا حول ولا قوة الا بالله هن الباقیات الصالحات واخرج النسائی والطبرانی فی الصغیر والبیهقی وغیرهم عن ابی هریرة مرفوعا خذوا جنتکم قیل یا رسول الله

من اي حدث قد حضر قال بل جنتكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر فانهن
يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات وهن الباقيات الصالحات وعن عائشة مرفوعا وزاد
ولا حول ولا قوة الا بالله اخرجه ابن ابي شيبة وابن المنذر وكل هذه الاحاديث مصرحة
بانها الباقيات الصالحات واما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المراد في
الآية فاحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها ههنا وعن قتادة كل شيء من طاعة الله فهو من الباقيات
الصالحات فيندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس واعمال الحج والعمرة وصيام رمضان والكلام
الطيب وغير ذلك انتهى اجمالا ولها ويوم نسير الجبال بالنون على ان فاعله هو الله سبحانه وقرئ بالتسيير
بالفوقية على ان الجبال فاعل ويناسب الاولى قوله تعالى واذا الجبال سيرت ويناسب الثانية قوله تعالى وتسير
الجبال سيرا ومعنى تسيير الجبال ازالتها من اماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ومنه قوله تعالى وهي تمر
مر السحاب ثم تعود الى الارض بعد ان جعلها الله كما قال وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا والمعنى نذهب
بها عن وجه الارض ونجعلها هباء منثورا كما يسير السحاب والخطاب في قوله وترى الارض بارزة لرسول
الله صلى الله عليه وسلم او لكل من يصلح للرؤية والرؤية بصرية ومعنى بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من
الجبال والشجر والبنيان وقيل المراد بروزها بروز ما فيها من الكنوز والاموات كما قال سبحانه والقت
ما فيها وتخلت وقال واخرجت الارض اثقالها فيكون المعنى وترى الارض بارزا ما في جوفها قال قتادة
ليس عليها بناء ولا شجر ولا حجر ولا حيوان وعن مجاهد نحوه وحشرناهم اي الخلائق ومعنى الحشر
الجمع اي جمعناهم الى الموقف من كل مكان وفيه ثلثة اوجه احدها انه ماض مراد به المستقبل
اي ونحشرهم وكذلك وعرضوا ووضع الكتاب للاتيان والثاني ان الواو للحال اي نفعل التسيير في
حال حشرهم ليشاهدوا تلك الاحوال والثالث للدلالة على ان حشرهم قبل التسيير وقبل البروز
ليعاينوا تلك الاهوال قاله الزمخشري قال الشيخ والاولى ان تكون الواو للحال فلم نغادر فلم نترك
منهم احدا والمغادرة هنا ليس فيها مشاركة يقال غادره واغدره اذا تركه ومنه الغدر لان
الغادر يترك الوفاء للمغدور قالوا وانما سمي الغدير غديرا لان الماء ذهب وتركه والسيل غادره ومنه
غدائر المرأة لانها تجعلها خلفها والغابرة الشعر الذي نزل حتى طال وعرضوا على ربك صفا
اي مصفوفين كل امة وزمرة صف وقيل عرضوا صفا واحدا كما في قوله ثم ائتوا صفا اي جميعا

وهو ابلغ في القدرة وقيل قياما وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ليقضي بينهم لا ليعرفهم قاله الكرخي وخرج الحافظ ابو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى ينادي بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي انا الله لا اله الا انا ارحم الراحمين واحكم الحاكمين واسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون احضروا حجتكم ويسروا جوابكم فانكم مسئولون محاسبون يا ملائكتي اقيموا عبادي على اطراف انامل اقدامهم للحساب قال القرطبي هذا حديث غاية في البيان في تفسير الآية ولم يذكره كثير من المفسرين وقد كتبناه في كتاب التذكرة انتهى ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ (لقد جئتمونا كما خلقناكم) اي مجيئا كائنا كمجيئكم عند ان خلقناكم (اول مرة) او كائنين كما خلقناكم اول مرة اي حفاة عراة غرلا لا مال ولا ولد كما ورد ذلك في الحديث قال الزجاج اي بعثناكم واعدناكم كما خلقناكم لان قوله لقد جئتمونا معناه بعثناكم وبه قال الزمخشري (بل زعمتم) هذا اضراب وانتقال من كلام الى كلام للتقريع والتوبيخ وهو خطاب لمنكري البعث اي زعمتم في الدنيا (ان لن نجعل لكم موعدا) نجازيكم باعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب (ووضع الكتاب) العامة على بنائه للمفعول وزيد بن علي على بنائه للفاعل وهو الله او الملك وقوله الكتاب مرفوع على الاول ومنصوب على الثاني والمراد به صحائف الاعمال وافراده لكون التعريف فيه للجنس والوضع اما حسي بان توضع صحيفة كل واحد في يد السعيد في يمينه والشقي في شماله او في الميزان واما عقلي اي اظهر عمل كل واحد من خير او شر بالحساب الكائن في ذلك اليوم وقيل توضع بين يدي الله تعالى (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) اي خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع من الاعمال السيئة لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع والمجازاة بالعذاب الاليم (ويقولون) اذا رأوها (يا ويلتنا) يدعون على انفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك وهو مصدر لا فعل له من لفظه وناداها على تشبيهها بشخص يطلب اقباله كانه قيل يا هلاكنا اقبل فهذا اوانك ففيه استعارة مكنية وتخييلية وفيه تقريع لهم واشارة الى انه لا صاحب لهم غير الهلاك وطلبوا هلاكهم لئلا يروا ما هم فيه وقد تقدم تحقيقه في المائدة (ما) اي اي شيء ثبت (لهذا الكتاب) حال كونه (لا يغادر صغيرة) لا يترك معصية صغيرة (ولا) معصية (كبيرة الا احصاها) اي عدها وحواها وضبطها واثبتها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة

الضحك في لفظ صغيرة الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين والكبيرة القهقهة بذلك وقال
سعيد بن جبير الصغيرة الهم والمس والقبلة والكبيرة الزنا واقول صغيرة وكبيرة نكرتان
في سياق النفي فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بالصغر وكل ذنب يتصف بالكبر فلا يبقى شيء
من الذنوب الا احصاه الله وما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا او كبيرا فذلك انما هو
بالنسبة الى العباد لا بالنسبة الى الله سبحانه وهذا لا ينافي قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه
الآية اذ لا يلزم من العد عدم التكفير اذ يجوز ان تكتب الكبائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر
عنه فيعلم قدر نعمة العفو عليه قاله الكرخي والاستفهام للتعجب منه في ذلك ووجدوا ما عملوا في
الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة او وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا مكتوبا مثبتا في كتابهم ولا
يظلم ربك احدا اي لا يعاقب احدا من عباده بغير ذنب وجرم ولا ينقص فاعل الطاعة من
اجره الذي يستحقه وانما سمي هذا ظلما بحسب عقولنا لو خليت في نفسها ولو فعله الله لم يكن
ظلما في حقه لانه لا يسأل عما يفعل وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الناس
يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير واما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير
الصحف في الايدي فاخذ بيمينه واخذ بشماله اخرجه الترمذي وقال لا يصح من قبل ان الحسن لم يسمع
من ابي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن ابي موسى ثم انه سبحانه عاد الى الرد على ارباب
الخيلاء من قريش فذكر قصة آدم واستكبار ابليس عليه فقال واذ قلنا للملائكة اي واذكر وقت
قولنا لهم اسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم بالخرور كما مر تحقيقه فسجدوا طاعة لامر الله و
امتثالا لطلبه السجود الا ابليس فانه ابى واستكبر ولم يسجد كان من الجن مستانفة لبيان سبب عصيانه
وانه لم يكن من الملائكة فلهذا عصى والاستثناء منقطع وابليس هو ابو الجن واصلهم كما ان آدم
اصل الانس وله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وقيل كان من حي من الملائكة يقال
لهم الجن خلقوا من نار السموم وعلى هذا القول فقد نقل عن ابن عباس ان هذا النوع يتوالد و
ليس معصوما والاستثناء متصل وكان بمعنى صار اي صيره الله ومسخه من الملكية الى الجنية وكونه
من الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك ان
قريشا قالت الملائكة بنات الله فهذا يدل على ان الملك يسمى جنا وتعضده اللغة لان الجن من الاجتنان

وهو الستر فتدخل الملائكة فيه فكل ملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ووجه كونه من
الملائكة ان الله سبحانه استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله
وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال انه من الجن هذه الاية والجن جنس مخالف للملائكة
واجيب عن الاستثناء بانه منقطع كما تقدم وهو مشهور في كلام العرب قال تعالى واذ قال ابراهيم
لابيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ففسق عن
أَمْرِ رَبِّهِ اي خرج عن طاعته بترك السجود لآدم عليه السلام قال الفراء تقول العرب فسقت الرطبة
عن قشرها لخروجها منه قال النحاس اختلف في معناه على قولين الاول مذهب الخليل وسيبويه ان المعنى
اتاه الفسق لما امر فعصى فكان سبب الفسق امر ربه كما تقول اطعمه من جوع والقول الآخر قول قطرب
ان المعنى على حذف المضاف اي فسق عن ترك امره وعن ابن عباس قال ان من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن
فكان ابليس منهم وكان يوسوس ما بين السماء والارض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطانا رجيما وعنه
قال كان خازن الجنان فسمي بالجان وعن الحسن قال قاتل الله اقواما زعموا ان ابليس كان من الملائكة
والله يقول كان من الجن وعنه قال ما كان من الملائكة طرفة عين انه لاصل الجن كما ان آدم اصل
الانس ثم انه سبحانه عجب من حال من اطاع ابليس في الكفر والمعاصي وخالف امر الله فقال أَفَتَتَّخِذُونَهُ كانه
قال أعقيب ما وجد منه من الاباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذُرِّيَّتَهُ اي اولاده وقيل اتباعه مجازا
قال مجاهد من ذرية ابليس لاقس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلوة اللذان يوسوسان فيهما
ومن ذريته مرة وبه يكنى وزلنبور وبتر والاعور ومطوس وداسم أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي فتطيعونهم
بدل طاعتي وتستبدلونهم بي والحال ان هُمْ اي ابليس وذريته لَكُمْ عَدُوٌّ اي اعداء وافرده لكونه
اسم جنس او لتشبيهه بالمصادر كما في قوله فانهم عدو لي الا رب العالمين وقوله هم العدو اي تصنعون
هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وانعم عليكم بجميع ما انتم فيه من النعم من لم يكن لكم منه منفعة
قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ الواضعين للشيء في غير موضعه
المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان فبئس ذلك البدل الذي استبدلوه بَدَلًا عن الله سبحانه
والتقدير بئس البدل ابليس وذريته مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ قال اكثر
المفسرين الضمير للشركاء والمعنى انهم لو كانوا شركاء لي في خلقهما او في خلق انفسهم لكانوا شاهدين

خلق ذلك مشاركين فيه ولم يشاهد ما ذلك ولا اشهدتهم اياه انا فليسوا الي بشركاء وهذا
استدلال بانتفاء الملزوم المساوي على انتفاء اللازم وقيل الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء
المؤمنين والمراد انهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل اني ما اشهدتهم خلق ذلك وقيل الضمير
للملائكة وقيل ما اشهدت جميع الخلق فالمعنى لم احضر بعضهم خلق بعض وقيل المعنى ان هؤلاء
الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الازل لانهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم فكيف يمكنهم
ان يحكموا بحسن حالهم عند الله والاول من هذه الوجوه اولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك
الضميرين وهذه الجملة مستانفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور وقرئ ما اشهدناهم ويؤيده
الاولى وما كنت متخذ المضلين عضدا اي ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق وفيه وضع الظاهر موضع
المضمر اذ المراد بالمضلين من انتفى عنهم اشهاد خلق السموات والارض والعضد يستعمل كثيرا في معنى العون
وذلك ان العضد قوام اليد ومنه قوله سنشد عضدك باخيك اي سنعينك ونقويك به ويقال
اعضدت بفلان اذا استعنت به وذكر العضد على جهة المثل واصله العضو الذي هو من المرفق الى
الكتف ففي الكلام استعارة وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ والمعنى ما استعنت بهم على خلقها
ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين او الكافرين اعوانا ووحد العضد لموافقة الفواصل و
قرئ ما كنت على ان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي ما كنت يا محمد متخذ الهم عضدا ولا صح لك ذلك وفي
عضد لغات افصحها فتح العين وضم الضاد وبها قرأ الجمهور ثم عاد سبحانه الى ترهيبهم باحوال القيمة
فقال فاذكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيخا لهم وتقريعا نادوا شركاءي الذين زعمتم انهم ينفعونكم
ويشفعون لكم واضافهم سبحانه الى نفسه جريا على ما يعتقده المشركون تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا
فدعوهم اي فعلوا ما امرهم الله به من دعاء الشركاء واستغاثوا بهم والمعنى على الاستقبال كما هو
ظاهر فلم يستجيبوا لهم ذلك ولم ينصروهم اي لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم فضلا عن ان ينفعوهم
او يدفعوا عنهم وجعلنا بينهم اي بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله او بين المؤمنين و
الكفار موبقا اجاز ذكر جماعة من المفسرين انه اسم واد عميق في جهنم فرق الله تعالى به بينهم
وبه قال انس ومجاهد وقال ابن عمر فرق الله به يوم القيامة بين اهل الهدى واهل الضلال
وقيل هو نهر في جهنم يسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل الموبق البرزخ البعيد لانهم في قعر

جهنم وهم في أعلى الجنان وعلى هذا فهو اسم مكان قال ابن الأعرابي كل شيء حاجز بين الشيئين فهو موبق وقال الفراء الموبق المهلك وبه قال مجاهد وابن عباس والمعنى جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة يقال وبق يوبق فهو وبق هكذا ذكره الفراء في المصادر وحكى الكسائي وبق يبق وبوقاً فهو وابق والمراد بالمهلك على هذا هو عذاب النار يشتركون فيه والأول أولى لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح فالموبق هو المكان الحائل بينهم وقال أبو عبيدة الموبق هنا الموعد للهلاك وقد ثبت في اللغة أوبقهم بمعنى أهلكهم ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول ورأى المجرمون النار أي عاينوها من مسيرة أربعين عاماً وهو موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به فظنوا أي أيقنوا أنهم مواقعوها أي داخلوها وواقعون فيها والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها وقيل إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ولم يجدوا عنها مصرفاً أي معدلاً يعدلون إليه أو انصرافاً لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب قال الواحدي المصرف الموضع الذي ينصرف إليه وقال القتيبي أي معدلاً ينصرفون إليه وقيل ملجأ يلجأون إليه والمعنى متقارب في الجميع ولما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة حكى بعض أحوال الآخرة فقال ولقد صرفنا أي كررنا ورددنا وبينا في هذا القرآن للناس أي لأجلهم لرعاية مصلحتهم ومنفعتهم من كل مثل من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة ليتذكروا ويتعظوا وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدل بالباطل ختم الآية بقوله تعالى وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً أي خصومة في الباطل قال الزجاج المراد بالإنسان الكافر واستدل عليه بقوله ويجادل الذين كفروا بالباطل وقيل المراد به في الآية النضر بن الحارث وقيل أراد أبي بن خلف والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر شيء يتأتى منه الجدل جدلاً ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً فقال ألا تصليان فقلت يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته يضرب فخذه ويقول وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى قد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل والناس هنا أهل مكة والهدى القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم ويستغفروا ربهم إلا

ان تأتيهم سنة الاولين المعنى على حذف مضاف اي ما منع الناس من الايمان والاستغفار الا طلب او انتظار اتيان سنة الاولين وانما احتيج الى حذف المضاف اذ لا يمكن جعل اتيان سنة الاولين مانعا عن ايمانهم فان المانع يقارن الممنوع واتيان العذاب متأخر عن عدم ايمانهم بمدة كثيرة وزاد الاستغفار في هذه السورة لانه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل وسنة الاولين هو انهم اذا لم يؤمنوا اخذوا بعذاب الاستيصال قال قتادة عقوبة الاولين وقال الزجاج سنتهم هو قولهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية او يأتيهم العذاب اي عذاب الآخرة قبلا جمع قبيل قاله الفراء اي متفرقا يتلو بعضه بعضا وقيل عيانا وجهارا قاله الاعمش وقيل فجاءة قاله مجاهد ويناسب ما قاله الفراء قرأة قبلا بضمتين فانه جمع قبيل نحو سبيل وسبل بمعنى انواع والمراد اصناف العذاب ويناسب التفسير الثاني عيانا قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء اي مقابلة ومعاينة وقرئ بفتحتين على معنى او يأتيهم العذاب مستقبلا فحاصل معنى الآية انهم لا يؤمنون ولا يستغفرون الا عند نزول عذاب الدنيا المستاصل لهم او عند اتيان اصناف عذاب الآخرة او معاينته وما نرسل المرسلين من رسلنا الى الامم الا حال كونهم مبشرين للمؤمنين ومنذرين للكافرين فالاستثناء مفرغ من اعم الاحوال وقد تقدم تفسير هذا ويجادل الذين كفروا بالباطل مستانف ليدحضوا به اي ليزيلوا بالجدال الباطل الحق ويبطلوه واصل الدحض الزلق يقال دحضت رجله اي زلقت تدحض دحضا ودحضت الشمس عن كبد السماء اي زالت ودحضت حجته دحوضا بطلت والدحض الطين لانه يزلق فيه ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل ما انتم الا بشر مثلنا وقولهم ابعث الله بشرا رسولا ونحو ذلك واتخذوا آياتي اي القرآن واتخذوا ما انذروا به من الوعيد والتهديد وما بمعنى الذي او مصدرية قاله ابو حيان هزوا اي لعبا وباطلا وقد تقدم هذا في البقرة ومن اي لا احد اظلم لنفسه ممن ذكر وعظ وقد روعي لفظ من في خمسة ضمائر هذا اولها وروعي معناها في خمسة اولها قوله على قلوبهم بآيات ربه التنزيلية او التكوينية او مجموعهما فاعرض عنها اي عن قبولها فتهاون بها ولم يتدبرها حق التدبر ولم يتفكر فيها حق التفكر وتركها ولم يؤمن بها واتى بالفاء الدالة على التعقيب لان ما هنا في الاحياء من الكفار فانهم ذكروا فاعرضوا عقيب ما ذكروا وقال في السجدة بثم الدالة على التراخي لان ما هنالك في الاموات من الكفار فانهم ذكروا مرة بعد اخرى ثم اعرضوا بالموت

فلم يؤمنوا ونسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي فلم يتب عنها وقال قتادة ماسلف من الذنوب الكثيرة قيل والنسيان هنا بمعنى الترك والتشاغل والتغافل عن كفره المتقدم وقيل هو على حقيقته إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أي اغطية جمع كنان وفي القاموس انه جمع كن ايضا ونصه والكن وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان بكسرهما والجمع اكنان واكنة والجملة تعليل لاعراضهم ونسيانهم قال الزجاج اخبر الله سبحانه ان هؤلاء طبع على قلوبهم أن يفقهوه اي لئلا يفقهوه وجعلنا في آذانهم وقرا اي ثقلا وصمما يمنع من استماعه سماع انتفاع وقد تقدم تفسير هذا في الانعام وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا لان الله تعالى قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم وربك الغفور ذو الرحمة اي كثير الرحمة بليغها وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة ولهذا قال لو يؤاخذهم الله بما كسبوا اي بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والاعراض وقال ابن عباس بما عملوا لعجل لهم العذاب اي عذاب الاستيصال في الدنيا لاستحقاقهم لذلك بل جعل لهم موعد مصدر او مكان او زمان اي اجل مقدر لعذابهم قيل هو عذاب الآخرة وقيل يوم بدر وعن السدي يوم القيامة لن يجدوا من دونه اي من دون الله او العذاب والثاني اولى وابلغ للدلالة على انهم لا ملجأ لهم فان من يكون ملجأه العذاب كيف يرجو الخلاص موئلا اي ملجأ يلجأون اليه ومرجعا وبه قال ابن عباس وقال ابو عبيدة منجا وبه قال ابن قتيبة وقيل محيصا ——— وعن مجاهد قال محرزا وتلك القرى اي قرى عاد وثمود ولوط وامثالها أهلكناهم هذا خبر اسم الاشارة والمعنى اهل القرى اهلكناهم في الدنيا لما ظلموا اي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي وجعلنا لمهلكهم في الآخرة المهلك هو مصدر هلك وقال الزجاج اسم للزمان والتقدير لوقت مهلكهم موعدا اي وقتا معينا وهو يوم القيامة فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم واذكر إذ قال موسى لفتاه قيل ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة ان اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة اصحاب الكهف وقالوا ان اخبركم فهو نبي والا فلا ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يلزمه ان يكون عالما بجميع القصص والاخبار وقد اتفق اهل العلم على ان موسى المذكور هنا هو موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب قال الكرخي هذا هو الاصح كما قاله ابن عباس وعليه الجمهور من العلماء

وأهل الكتاب فليس في القرآن موسى غيره وقالت فرقة منهم نوف البكالي انه ليس موسى بن عمران
وانما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران وهذا باطل
قد رده السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم كما هو من حديث ابن عباس كما في صحيح البخاري وغيره وكيف
لو اراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة
علمنا انه موسى بن عمران والمراد بفتاه يوشع بن نون بن افراثيم بن يوسف وقيل انه اخو يوشع
وقيل انه عبد له بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لا يقل احدكم عبدي وامتي وليقل فتاي وفتاتي والاول
اولى واصح وقيل سماه فتاه لانه كان يخدم موسى قال الواحدي اجمعوا على انه يوشع بن نون وقد مضى ذكره في
المائدة وفي آخر سورة يوسف ومن قال ان موسى هو ابن ميشى قال ان هذا الفتى لم يكن يوشع بن نون
قال الفراء وانما سمي فتى موسى لانه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه ويتبعه وهذا ايضا
وجه اضافته لموسى وكان ابن اخته ومعنى لا ابرح لا ازال سائرا ومنه قوله لن نبرح عليه عاكفين و
برح اذا كان بمعنى زال فهو من الافعال الناقصة وخبره محذوف لدلالة ما بعده وهو حتى ابلغ
اي انتهي قاله ابن زيد مجمع البحرين اي ملتقاهما قال الزجاج لا ابرح بمعنى لا ازال وقد حذف الخبر
لدلالة حال السفر عليه ولان قوله حتى ابلغ غاية مضروبة فلا بد لها من ذي غاية فالمعنى لا ازال اسير
الى ان ابلغ ويجوز ان يراد لا يبرح مسيري حتى ابلغ وقيل معناه لا افارقك حتى ابلغ وقيل يجوز ان يكون من برح
التام بمعنى زال يزول فلا تستدعي خبرا بمعنى لا ازول عما انا عليه من السير والطلب ولا افارقه قيل المراد
بالبحرين بحر فارس والروم وهما نحو المشرق والمغرب قاله قتادة وقيل بحر الاردن وبحر القلزم وقيل مجمع البحرين
عند طنجة قاله محمد بن كعب وقيل بافريقية قاله ابي بن كعب وقيل ان ملتقاهما عند البحر المحيط وقالت
طائفة المراد بالبحرين موسى والخضر وهو من الضعف بمكان وقد حكي عن ابن عباس ولا يصح أو أمضي
او أسير حقبا اي زمانا طويلا قال الجوهري الحقب بالضم ثمانون سنة وقال مجاهد سبعون خريفا وقيل
سنة واحدة بلغة قريش وفي معناه الحقبة بالكسر والضم وتجمع الاولى على حقب بكسر الحاء كقربة وقرب
والثانية على حقب بضم الحاء كغرفة وغرف وقال النحاس الذي يعرفه اهل اللغة ان الحقب والحقبة
زمان من الدهر مبهم غير محدود كما ان رهطا وقوما مبهمان غير محدودين وجمعه احقاب وسبب
هذه العزمة على السير من موسى عليه السلام ما روي انه سئل موسى من اعلم الناس فقال انا فأوحى الله اليه

ان عبدا الي مجمع البحرين هو اعلم منك فلما بلغا اي موسى وفتاه مجمع بينهما اي بين البحرين واضيف مجمع الى الظرف توسعا وقيل البين بمعنى الافتراق اي البحران المفترقان بينهما هناك وقيل الضمير لموسى وخضر اي وصلا الموضع الذي يكون فيه اجتماع شملهما ويكون البين على هذا بمعنى الوصل لانه من الاضداد والاول اولى نسيا حوتهما قال المفسرون انهما تزودا حوتا مملحا مشقوق البطن في زنبيل وكانا يصيبان منه عند حاجتهما الى الطعام وكان قد جعل الله فقدانه امارة لهما على وجدان المطلوب والمعنى انهما نسيا تفقد امره وقيل الذي نسي انما هو فتى موسى لانه وكل امر الحوت اليه وامره ان يخبره اذا فقده وانما اضاف النسيان اليهما لانهما تزوداه لسفرهما وقيل نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب والاول اولى لقوله فاني نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وانما نسيه متعهد الزاد فلما انتهيا الى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فاحياه الله فتحرك واضطرب في المكتل ثم انسرب في البحر ولهذا قال فاتخذ سبيله في البحر سربا اي اتخذ الحوت سبيلا سربا وهو النفق الذي يكون في الارض للضب ونحوه من الحيوانات قال سعيد بن جبير اثره يابس في البحر كانه في حجر وذلك ان الله سبحانه امسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الارض قال الفراء لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب فلما جاوزا ذلك المكان الذي كان عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا فاصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ولم يجد النصب حتى جاوز الموضع الذي فيه الخضر ولهذا قال سبحانه فلما جاوزا مجمع البحرين الذي جعل موعدا للملاقاة قال لفتاه آتنا غداءنا هو ما يؤكل بالغداة واراد موسى ان ياتيه بالحوت الذي حملاه معهما لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا اي تعبا واعياء فانهما لم يجدا النصب الا في ذلك دون ما قبله والنصب بفتح النون والصاد وبضمهما وهما لغتان من لغات ربع في هذه اللفظة قاله ابو الفضل الدارمي في لوامحه قال لموسى فتاه ارايت معنى الاستفهام تعجبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك مما لا يكاد ينسى لانه قد شاهد امرا عظيما من قدرة الله الباهرة اذ اوينا الى الصخرة وكانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد وانما ذكرها دون ان يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان لاحتمال ان يكون المجمع مكانا متسعا يتناول مكان الصخرة وغيره فاني نسيت الحوت اي تركته

وفقدته واوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي تقدم ذكره لبيان ان ذلك الغداء المطلوب
هو ذلك الحوت الذي جعلاه زادا لهما واماره لوجدان مطلوبهما ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع
ذلك النسيان فقال وما انسانيه الا الشيطان بما يقع منه من الوسوسة ان اذكره بدل اشتمال
من الضمير في انسانيه وفي مصحف عبد الله وما انسانيه ان اذكره الا الشيطان واتخذ سبيله في
البحر عجبا يحتمل ان يكون هذا من كلام يوشع اخبر موسى ان الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس وموضع
التعجب ان يحيى حوت قد مات واكل شقه ثم يثب الى البحر ويبقى اثر جريته في الماء لا يمحو اثرها جريان الماء و
يحتمل ان يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من امر الحوت فيكون ما بين الكلامين اعتراضا و
قال ابو الشجاع في كتاب الطبري اتيت به فرايته فاذا هو شقة حوت بعين واحدة وشق آخر ليس فيه
شيء من اللحم عليه قشرة رقيقة تحتها الشوك قال موسى لفتاه ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت
في ذلك الموضع ما كنا نبغ ونطلبه فان الرجل الذي نريده هو هنالك وياء نبغ من ياءات الزوائد
فلا تثبت رسما ووقفا لا وصلا وابن كثير اثبتها في الحالين فارتدا على آثارهما قصصا اي رجعا على
الطريق الذي جاءا منها يقصان اثرهما لئلا يخطئا طريقهما اي قاصين او مقتصين والقصص في اللغة
اتباع الاثر قال قتادة عودهما على بدئهما فوجدا عبدا من عبادنا هو الخضر في قول جمهور المفسرين
وعلى ذلك دلت الاحاديث الصحيحة وخالف في ذلك من لا يعتد بقوله فقال ليس هو الخضر بل عالم
آخر وقيل كان ملكا من الملائكة قيل سمي الخضر لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله قاله مجاهد قيل
واسمه بليا بن ملكان وهو من نسل نوح عن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسي له في اجله
حتى يكذب الدجال وفيه نظر وقيل كان من بني اسرائيل او من ابناء الملوك تزهد وترك الدنيا واخرج
البخاري وغيره عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال انما سمي الخضر لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي
تهتز من خلفه خضراء والخضر بكسر الخاء مع سكون الضاد وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها
ففيه لغات ثلاثة وهذا اللقب وكنيته ابو العباس ثم وصفه الله سبحانه فقال آتيناه رحمة من عندنا قيل
الرحمة هي النبوة والهداية قاله ابن عباس وقيل النعمة التي انعم الله بها عليه وهي الولاية وعليه الاكثر والجمهور
من العلماء على انه حي الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة والاصح ما ذهب اليه اهل الحديث من عدم
حياته والله اعلم وعلمناه من لدنا علما من علم الغيب الذي استاثرنا به وفي قوله من لدنا علما تفخيم لشان ذلك

العلم وتعظيمه قال الزجاج وفيما فعل موسى وهو من جلة الانبياء من طلب العلم والرحلة ما يدل على
انه لا ينبغي لاحد ان يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته وان يتواضع لمن هو اعلم منه ثم قص الله
سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ
مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في الادب والتواضع لانه استجهل نفسه واستأذن
ان يكون تابعا له على ان يعلمه مما علمه الله من العلم والرشد بضم الراء وسكون الشين هو الوقوف
على الخير واصابة الصواب اي علما ذا رشد ارشد به وقرئ رشدا بفتحتين وهما لغتان كالبُخل والبَخل
وفي الآية دليل على ان المتعلم تبع للعالم وان تفاوتت المراتب وليس في ذلك ما يدل على ان الخضر افضل
من موسى فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول اذا اختص احدهما بعلم لا
يعلمه الآخر فقد كان علم موسى علم الاحكام الشرعية والقضاء بظاهرها وكان علم الخضر علم بعض الغيب
ومعرفة البواطن وقد زل اقدام اقوام من الضلال في هذا المقام في تفضيل الولي على النبي حيث قالوا امر موسى
بالتعلم من الخضر وهو ولي وهو كفر جلي والجواب ما ذكرناه قال الخضر لموسى إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا اي لا تطيق
ان تصبر على ما تراه من علمي لان الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك ثم اكد ذلك مشيرا الى علة عدم
الاستطاعة فقال وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا اي كيف تصبر على علم ظاهره منكر وانت لا تعلم ومثلك
مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والاقرار عليه والخبر العلم بالشيء والخبير بالامور هو
العالم بخفاياها وما يحتاج الى الاختبار منها قال موسى للخضر سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا معك ملتزما
طاعتك وانما استثنى لانه لم يثق من نفسه بالصبر ولم يستثن الخضر لانه في مقام التعليم وَلَا أَعْصِي
لَكَ أَمْرًا اي لا اخالفك فيما تأمرني به والتقييد بقوله ان شاء الله شامل للصبر ونفي المعصية وقيل
ان التقييد بالمشيئة مختص بالصبر لانه امر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه ونفي المعصية معزوم
عليه في الحال ويجاب عنه بان الصبر ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوما عليه في الحال
وفي كون كل واحد منهما لا يدري كيف حاله فيه في المستقبل قال الخضر لموسى فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ
شَيْءٍ مما تشاهده من افعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به اي لا تفاتحني بالسؤال عن
حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا اي حتى اكون انا المبتدئ لك بذكره وبيان وجهه و
وما يؤول اليه فيه ايذان بان كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من ادب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع

وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفات لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال
عنها مما قبلها واعلم انها قد رويت في قصة موسى مع الخضر المذكورة في الكتاب العزيز احاديث كثيرة
واتمها واكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت في بعض الالفاظ وكلها مروية عن سعيد بن جبير
وبعضها في الصحيحين وغيرهما وبعضها في احدهما وبعضها خارج عنهما وقد رويت من طريق العوفي عنه كما اخرجه ابن جرير
وابن ابي حاتم ومن طرق اخرى فلنقتصر على الرواية التي هي اتم الروايات الثابتة في الصحيحين ففي ذلك ما يغني
عن غيره وهي قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى
صاحب بني اسرائيل قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا ابي بن كعب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل اي الناس اعلم فقال انا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى
الله اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل
فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى اتيا
الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا
وامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه ان يخبره بالحوت
فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا
هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي امره الله به فقال له فتاه أرأيت اذ اوينا الى الصخرة
فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا و
لموسى وفتاه عجبا فقال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا قال سفيان يزعم الناس ان تلك الصخرة
عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا الا عاش قال وكان الحوت قد اكل منه فلما قطر عليه الماء عاش قال
فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وانى بارضك
السلام قال انا موسى قال موسى بني اسرائيل قال نعم اتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا
يا موسى اني على علم من الله علمنيه لا تعلمه انت وانت على علم من الله علمكه الله لا اعلمه قال موسى ستجدني
ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا فقال له الخضر فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه
ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا
في السفينة لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من الواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول

عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا قال الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا
قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسرا قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الاولى من موسى نسيانا
قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا مثل
ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان
على الساحل اذ ابصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فاخذ الخضر راسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال
موسى اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا قال
وهذه اشد من الاولى قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا
حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال مائل
فقال الخضر بيده هكذا فاقامه فقال موسى قوم اتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه اجرا
قال هذا فراق بيني وبينك سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وددنا
ان موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير وكان ابن عباس يقرأ وكان امامهم ملك
يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ واما الغلام فكان كافرا وكان ابواه مؤمنين وبقية روايات سعيد بن جبير
عن ابن عباس عن ابي بن كعب هي موافقة لهذه الرواية في المعنى وان تفاوتت الالفاظ في بعضها فلا فائدة
في الاطالة بذكرها وكذلك روايات غير سعيد عنه فانطلقا اي موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة
ومعهما يوشع وانما لم يذكر في الاية لانه تابع لموسى فالمقصود ذكر موسى والخضر وقال القشيري والاظهر ان موسى
صرف فتاه لما لقي الخضر وقال ابو العباس اكتفى بذكر المتبوع عن التابع فمرت بهم سفينة فكلموهم ان يحملوهم
فحملوهم بغير نول حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قيل قلع لوحا من الواحها وقيل لوحين مما يلي الماء
بفاس لما بلغت اللجج وقيل خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق اليها قال موسى اخرقتها لتغرق
اهلها لقد جئت شيئا امرا اي عظيما يقال امر الامر اذا كبر وعظم والامر الاسم منه وقال ابو عبيدة الامر
الداهية العظيمة وقال القتيبي الامر العجب قال قتادة وقال الاخفش امر امره يأمر اذا اشتد والاسم الامر
وقال ابن عباس امرا نكرا وعن مجاهد نحوه روي ان الماء لم يدخلها قال الخضر الم اقل انك لن تستطيع معي
صبرا اذكره ما تقدم من قوله له سابقا انك لن تستطيع معي صبرا قال موسى لا تؤاخذني بما نسيت
ما مصدرية اي لا تؤاخذني بنسياني او موصولة اي لا تؤاخذني بالذي نسيته وهذا قول الخضر

فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا فالنسيان اما على حقيقته على تقدير ان موسى نسي ذلك او بمعنى الترك على تغابر ان لم ينس ما قاله له ولكنه ترك العمل به عن ابي بن كعب قال لم ينس ولكنها من معاريض الكلام اي اورده في صورة دلت على النسيان ولم يقصد نسيان الوصية بل نسيان شيء آخر حتى لا يلزم الكذب قال الزكار روي قيل كانت الاولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا ولا ترهقني اي لا تكلفني من امري عسرا مشقة في صحبتي قال ابو زيد ارهقته عسرا اذا كلفته ذلك والمعنى عاملني باليسر والعفو لا بالعسر وقرئ عسرا بضمتين فانطلقا بعد خروجهما من السفينة يمشيان حتى اذا لقيا غلاما قيل كان اسمه شمعون ذكره القرطبي ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير قيل كان الغلام يلعب مع الصبيان فقتله اي فاقتلع الخضر راسه او ذبحه بالسكين او ضرب راسه بالجدار اقوال واتى هنا بالفاء العاطفة لان القتل عقب اللقي وجواب اذا قال موسى اقتلت نفسا زكية هي البرية من الذنوب الطاهرة قال ابو عمرو الزاكية التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت وقال الكسائي الزاكية والزكية لغتان وقال الفراء الزاكية والزكية مثل القاسية والقسية قال ابن عباس زاكية مسلمة وقال سعيد بن جبير لم يبلغ الخطايا وعن الحسن نحوه بغير قتل نفس محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصا لقد جئت اي فعلت شيئا نكرا اي فظيعا منكرا لا يعرف في الشرع قرئ بسكون الكاف وضمها وهما سبعيتان قيل معناه انكر من الامر الاول لكون القتل لا يمكن تداركه بخلاف نزع اللوح من السفينة فانه يمكن تداركه بارجاعه وقيل النكر اقل من الامر لان قتل نفس واحدة اهون من اغراق اهل السفينة وعن قتادة قال النكر انكر من العجب قيل استبعد موسى ان يقتل نفسا بغير نفس ولم يتاول للخضر بانه يحل القتل باسباب اخر عن ابي العالية عند ابن المنذر وابن ابي حاتم قال كان الخضر عبدا لا تراه الاعين الا من اراد الله ان يريه اياه فلم يره من القوم الا موسى ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام واقول ينبغي ان ينظر من اين له هذا فان لم يكن مستنده الا قوله ولو رآه القوم الخ فليس ذلك بموجب لما ذكره اما اولا فان من الجائز ان يفعل ذلك من غير ان يراه اهل السفينة واهل الغلام لا لكونهم لا تراهم الاعين بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم واما ثانيا فيمكن ان اهل السفينة واهل الغلام قد عرفوه ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول وعرفوا انه لا يفعل ذلك الا بامر من الله كما يفعل الانبياء فسلموا الامر لله وعن

عطاء قال كتب نجدة الحروري الى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان فكتب اليه ان كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم ولكنك لا تعلم وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم فاعتزلهم واخرج مسلم وابو داود والترمذي وغيرهم عن ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو ادرك لارهق ابويه طغيانا وكفرا اه

قَالَ الخضر أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

زاد هنا لفظ لك لان سبب العتاب اكثر وموجبه اقوى فقد نقض العهد مرتين وقيل زاد لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه لك اقول واياك اعني وقيل زاد لعدم العذر هنا تحاملا في الخطاب وتقريعا لموسى وهذا قَالَ موسى إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا اي بعد هذه المرة او بعد هذه النفس المقتولة فَلَا تُصَاحِبْنِي اي لا تجعلني صاحبا لك وقرئ تَصْحَبْنِي قال الكسائي معناه لا تتركني اصحبك وقرئ بضم التاء والباء وتشديد النون نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ولذا قال قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا في مفارقتك لي يريد انك قد اعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات وهذا كلام نادم شديد الندامة اضطره الحال الى الاعتراف وسلوك سبيل الانصاف وقرأ الجمهور لدني مخففا وشددها الباقون وعن ابي قال ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ من لدني مثقلة اخرجه ابو داود والترمذي والطبراني وغيرهم وقرأ الجمهور عذرا بسكون الذال وقرئ بضمها وحكى الداني ان ابيا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بكسر الراء وياء بعدها باضافة العذر الى نفسه فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ قيل هي ايلة وهي ابعد الارض من السماء وقيل انطاكية وقيل برقة وقيل قرية من قرى اذربيجان وقيل قرية من قرى الروم وقيل هي بلدة بالاندلس اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا طلبا منهم الطعام بضيافة ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التاكيد او للتاسيس او لكراهة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة او لزيادة التشنيع على اهل القرية باظهارهم فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا اي ان يعطوهما ما هو حق واجب عليهم مرضيا فيهما فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية فقد اخطأ خطأ بينا ومن ذلك قول بعض الادباء الذين يسألون الناس شعر فان رددت فما في الرد منقصة ❊ علي قد رد موسى قبل والخضر ❊ وقد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يكن

دفعه من الاحاديث الصحيحة الكثيرة عن ابي ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ان يضيفوهما مشددة قيل شر
القرى التي تبخل بالقرى اي لا تضيف الضيف قيل اطعمتهما امرأة من اهل بربر بعد ان طلبا من الرجال
فلم يطعموهما فدعيا لنسائهم ثم فوجدا فيها اي في القرية جدارا طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا
وامتداده على وجه الارض خمسمائة ذراع يريد ان ينقض اسناد الارادة الى الجدار مجاز قال
الزجاج الجدار لا يريد ارادة حقيقية الا ان هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر افعال المريدين
القاصدين فوصف بالارادة ومعنى الانقضاض السقوط بسرعة يقال انقض الحائط اذا وقع وانقض
الطائر اذا هوى من طيرانه فسقط على شيء فاقامه اي فسواه الخضر بيده لانه وجده مائلا فرده
كما كان وقيل نقضه وبناه وقيل اقامه بعمود عن ابي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قرأ يريد
ان ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه قلت ورواية الصحيحين التي قدمناها انه مسحه بيده اولى قال موسى
لو شئت لاتخذت عن ابي ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ لتخذت مخففا يقال تخذ فلان يتخذ تخذا
مثل اتخذ عليه اجرا اي على اقامته واصلاحه تحريضا من موسى للخضر على اخذ الجعل والاجرة
ليتعشيا به او تعريضا بانه فضول والاول اولى قال الفراء معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الاجر
قال الخضر هذا فراق بيني وبينك على اضافة فراق الى الظرف اتساعا اي هذا الكلام والانكار منك
على ترك الاجر هو المفرق بيننا قال الزجاج المعنى هذا افراق بيننا اي هذا افراق اتصالنا وكرر بين تاكيدا
اخرج ابو داود والنسائي والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس عن ابي بن كعب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لقص الله علينا من خبره ولكن قال
ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ولما قال الخضر لموسى بهذا اخذ في بيان الوجه الذي
فعل بسببه تلك الافعال التي انكرها موسى فقال سأنبئك قبل فراقي لك بتاويل ما لم تستطع
عليه صبرا اي الامور الثلاثة المتقدمة والمراد بالتاويل اظهار ما كان باطنا ببيان وجهه قاله الشهاب
وفي القرطبي المراد بالتاويل التفسير واصل التاويل رجوع الشيء الى ماله ثم شرع في البيان لـ
فقال اما السفينة يعني التي خرقها فكانت لمساكين لضعفاء عشرة وكانوا اخوة لا يقدرون على دفع
من اراد ظلمهم وقد ذكر النقاش اسماءهم وقرأ جماعة مساكين بتشديد السين واختلف في معناها
فقيل هم ملاحو السفينة وذلك ان المساك هو الذي يمسك السفينة والاظهر قراءة الجمهور بالتخفيف

يعملون في البحر ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوء حالا من المسكين فأردت أن أعيبها أي أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها وكان وراءهم ملك جملة حالية بإضمار قد قال المفسرون يعني أمامهم وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم وعن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك وكتب عثمان وكان وراءهم ووراء يكون أمام وقد تقدم الكلام على هذا في قوله ومن ورائه عذاب غليظ وقيل أراد خلفهم وكان طريقهم في الرجوع عليه وما كان عندهم خبر بأنه يأخذ كل سفينة صالحة لا معيبة غصبا نصبه على المصدر المبين لنوع الأخذ وقد قرأ ابن عباس وأبي بن كعب بزيادة صالحة والملك الغاصب كان اسمه الجلندي الأزدي وكان كافرا وقيل كان اسمه هدد بن بدد وقيل كان ملك غسان واسمه جيسور ذكره القرطبي وأما الغلام يعني الذي قتله فكان أبواه مؤمنين ولم يكن هو كذلك وقرأ ابن عباس وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخشينا الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا والأول أولى وعن قتادة هي في مصحف عبد الله فخاف ربك أن يرهقهما أي يرهق الغلام أبويه يقال رهقه أي غشيه وأرهقه أغشاه قال المفسرون معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه وهو الكفر وقيل المعنى فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه قيل ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله ويكون المعنى كرهنا كراهة من خشي سوء عاقبة أمر فغيره وهذا ضعيف جدا فالكلام كلام الخضر وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة فقيل أنه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ويكون معنى فخشينا أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعان في المعصية وقد يؤدي ذلك إلى الكفر والارتداد والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا أو قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك وأما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ فقيل أن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمدية ولكنه حل في شريعة أخرى فلا إشكال

فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا الابدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه اي اردنا ان يرزقهما الله ربهما بدل هذا الولد ولداً خَيْرًا مِّنْهُ والتفضيل ليس على بابه زَكَوٰةً اي ديناً وصلاحاً وتقوى وطهارة من الذنوب وَأَقْرَبَ رُحْمًا بسكون الحاء وقرئ بضمها الرحمة يقال رحمه الله رحمة ورحماً والالف للتانيث قال ابن عباس رحماً مودة فابدلا جارية ولدت نبياً وَأَمَّا الْجِدَارُ يعني الذي اصلحه فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ قيل اسمهما اصرم وصريم فِي الْمَدِينَةِ هي القرية المذكورة سابقاً وفيه جواز اطلاق المدينة على القرية لغة وقيل عبر هناك بالقرية تحقيراً لها لخسة اهلها وعبر هنا بالمدينة تعظيماً لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وعلى ابيهما وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا قيل كان مالاً جسيماً كما يفيده لفظ الكنز وبه قال عكرمة وقتادة او هو المال المجموع قال الزجاج المعروف في اللغة ان الكنز اذا افرد فمعناه المال المدفون فاذا لم يكن مالاً قيل كنز علم وكنز فهم وقيل لوح من ذهب وقيل علم في صحف مكتوبة مدفونة عن قتادة قال كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا واحلت لنا فلا يعجبن الرجل فيقول ما شأن الكنز احل لمن قبلنا وحرم علينا فان الله يحل من امره ما شاء ويحرم ما شاء وهي السنن والفرائض تحل لامة وتحرم على اخرى وعن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وكان تحته كنز ذهب وفضة اخرجه البخاري في تاريخه والترمذي في سننه والطبراني والحاكم وصححه وعن ابي الدرداء قال احلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم واحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز واخرج البزار وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابي ذر رفعه قال ان الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه عجبت لمن ايقن بالقدر ثم نصب وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل لا اله الا الله محمد رسول الله وفي نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فكان صلاحه مقتضياً لرعاية ولديه وحفظ مالهما فظاهر اللفظ انه ابوهما حقيقة وقيل هو الذي دفنه وقيل هو الاب السابع من عند الدافن له قاله جعفر بن محمد وقيل العاشر وكان يسمى كاشحاً وكان من الاتقياء قاله مقاتل واسم امهما دنيا ذكره النقاش ففيه ما يدل على ان الله يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وان بعدوا وقال ابن عباس حفظا بصلاح ابيهما واخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده واهل دويرته واهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم

وعن ابن عباس نحوه وقال موضع حفظ الله في ستر من الله وعافية قال سعيد بن المسيب اني لاصلي
فاذكر ولدي فازيد في صلاتي وقد روي ان الله يحفظ الصالح في سبعة من ذريته وعلى هذا يدل قوله
تعالى ان ولي الله الذي نزل الكتاب فهو يتولى الصالحين قاله القرطبي فَأَرَادَ رَبُّكَ اي مالكك ومدبر
امرك واضاف الرب الى ضمير موسى تشريفا له وانما ذكر اولا فاردت لانه افساد في الظاهر وهو فعله
وثانيا فاردنا لانه افساد من حيث الفعل انعام من حيث التبديل وقال الزجاج معنى فاردنا فاراد الله عز وجل
ومثاله في القرآن كثير وثالثا فاراد ربك لانه انعام محض غير مقدور للبشر أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا اي كمالهما
وتمام نموهما وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا من ذلك الموضع الذي عليه الجدار ولو انقض لخرج الكنز من تحته
قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لهما وهو مصدر في موضع
الحال اي مرحومين من الله سبحانه وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي اي عن اجتهادي ورأيي وهو تاكيد لما قبله
فقد علم بقوله فاراد ربك انه لم يفعله الخضر عن امر نفسه لان تنقيص اموال الناس واراقة دمائهم
وتغيير احوالهم لا يكون الا بالنص وليس في هذا دلالة على نبوة الخضر كما زعم الجمهور بل هو الهام من الله
سبحانه اليه ذَٰلِكَ المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك واوضحت وجوهها تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ
صَبْرًا اي ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ومعنى التاويل هنا هو المآل الذي آلت اليه
تلك الامور وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه وحذف التاء من تسطع تخفيفا
يقال اسطاع واستطاع بمعنى اطاق ففي هذا وما قبله جمع بين اللغتين وقد اختلف اهل العلم
في نسب الخضر وفي كونه نبيا او في طول عمره وبقاء حياته وكونه باقيا الى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وحياته بعده
على اقوال كثيرة فقيل هو ابن آدم لصلبه وهو ضعيف منقطع وقيل انه ابن قابيل بن آدم وهو
معضل وقيل انه من سبط هارون اخي موسى وهو بعيد وقيل انه ارميا بن خلقيا اورده ابن جرير
وقيل انه ابن بنت فرعون وقيل ابن فرعون لصلبه وقيل انه اليسع وقيل انه من ولد فارس وقيل
من ولد بعض من كان آمن بابراهيم وهاجر معه من ارض بابل وقيل كان ابوه فارسيا وامه
رومية وقيل بعكس ذلك قيل كان اسمه عامر وقيل بليا بن ملكان وقيل كلمان بدل ملكان وقيل
معمر بن مالك وكنيته ابو العباس وهذا متفق عليه قاله النووي واحتج من قال انه نبي بقوله تعالى
وما فعلته عن امري لان الظاهر من هذا انه فعله بامر الله والاصل عدم الواسطة قال الثعلبي

هو نبي في سائر الاقوال ثم قيل نبي غير مرسل وقيل ارسل الى قومه فاستجابوا له ونصره الرماني ثم ابن الجوزي
وقيل كان وليا واليه ذهب جماعة من الصوفية وبه قال علي بن ابي موسى من الحنابلة وابن الانباري
والقشيري وقيل انه ملك من الملائكة قال ابن جرير في تاريخه انه كان في ايام فريدون من الملك في قول
عامة اهل الكتاب الاول وقيل كان على مقدمة ذي القرنين الاكبر الذي كان زمن ابراهيم الخليل وقصته
هذه ذكرها جماعة منهم خيثمة بن سليمان واما تعميره فقال ابن عباس نسي للخضر في اجله حتى
يكذب الدجال وقال ابو مخنف اجمع اهل العلم بالاحاديث والجمع على انه اطول آدمي عمرا وشرب من عين الحياة
وقال الحسن وكل الخضر بالبحور والياس بالفيافي وانهما يجتمعان في موسم كل عام وروى ابن مرفوعا
اليه صلى الله عليه وسلم اجتماعهما عند ردم يأجوج ومأجوج كل ليلة وفي سنده متروكان وقال النووي
في التهذيب قال الاكثرون من العلماء هو حي موجود بين اظهرنا وذلك متفق عليه بين الصوفية واهل
الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والاخذ عنه وسؤاله ووجوده في المواضع الشريفة
ومواطن الخير اكثر من ان تحصى واشهر من ان تذكر قال ابن الصلاح هو حي عند جماهير العلماء
والصلحاء والعامة منهم وانما شذ بانكاره بعض المحدثين وقال بعضهم ان لكل زمان خضرا وهي
دعوى لا دليل عليها وقال السهيلي اسمه عاميل وان اباه كان ملكا وانه الرجل الذي يقتله الدجال ثم يحييه
وقال البخاري وطائفة من اهل الحديث انه مات قبل انقضاء مائة سنة من الهجرة ونصره ابو بكر بن
العربي لقوله صلى الله عليه وسلم في آخر حياته لا يبقى على وجه الارض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم واللفظ
عند الشيخين وغيرهما عن جابر وابن عمر واجاب من اثبت حياته بانه كان حينئذ على وجه البحر وما
ابرد هذا الجواب وابعده عن الصواب واما اجتماعه مع النبي صلى الله عليه وسلم وتعزيته لاهل البيت وهم مجتمعون
لغسله صلى الله عليه وسلم فقال هو علي هو الخضر فقد ذكره ابن عبد البر في التمهيد وقيل اجتمع الياس مع النبي
صلى الله عليه وسلم واذا جاز ذلك جاز بقاء الخضر رواه ابن ابي الدنيا عن انس وتعقبه الحافظ ابو الخطاب
بن دحية وقال لم يصح من طرقه شيء ولا يثبت اجتماعه مع احد من الانبياء الا مع موسى كما قص الله من
خبره وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء باتفاق اهل النقل واما ما جاء من المشائخ فهو مما يتعجب منه
كيف يجوز لعاقل ان يلقى شيخا لا يعرفه فيقول له انا فلان فيصدقه وحديث التعزية المتقدم موضوع
وفيه ابن شهر ومتروك قال مسلم صاحب الصحيح فلما رأيته كانت بعرة احب الي منه وما روي عن انس فموضوع

ايضا وقد نقل تكذيبه عن احمد ويحيى واسحاق وابي زرعة وسرياق المان ظاهر النكارة وانه من
المجازفات انتهى كلامه ملخصا وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة واستند الى ما وقع من ذكرها
في صحيح البخاري وجامع الترمذي لكن لم يثبت ذلك مرفوعا واخرج الطبراني في المعجم الكبير حديثا طويلا عن ابي
امامة الباهلي مرفوعا النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الخضر يدل على كونه نبيا وسنده حسن لولا عنعنة بقية وضعيف وهن
وقد ذهب الى ان الخضر مات على بن موسى الرضا والبخاري وانكران يكون باقيا المحدث المتقدم وهو حجة من تمسك
بانه مات قال ابو حيان في تفسيره الجمهور على ان الخضر مات وبه قال ابن ابي الفضل المرسي لانه لو كان حيا
لزمه المجي الى النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به واتباعه وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لو كان موسى حيا ما وسعه
الا اتباعي وبذلك جزم ابن المناوي وابرهيم الحربي وابو طاهر العبادي واخرج مسلم من حديث جابر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بشهر اقسم بالله ما على الارض نفس منفوسة ياتي عليها مائة سنة
وله الفاظ وطرق عند الترمذي وغيره وممن جزم انه غير موجود الان ابو يعلى الحنبلي وابو الفضل
بن ناصر والقاضي ابو بكر بن العربي وابو بكر بن النقاش وابن الجوزي واستدل على ذلك بادلة منها ما تقدم ومنها
قوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افان مت فهم الخالدون قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه
الميثاق ان بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه اخرجه البخاري فلو كان الخضر موجودا لجاء اليه ونصره بيده
ولسانه وقاتل تحت رايته ولم يات في خبر صحيح انه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم او قاتل معه قال ابو الحسين بن المناوي
بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق ام لا فاذا اكثر المغفلين مغترون بانه باق من اجل ما روي في ذلك والاحاديث
المرفوعة في ذلك واهية والسند الى اهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة
وخبر رياح كالريح وما عدا ذلك من الاخبار كلها واهية الصدور والاعجاز لا يخلو حالها عن امرين
اما ان تكون ادخلت على الثقات استغفالا او يكون بعضهم تعمد ذلك وقد قال الله تعالى وما جعلنا
لبشر من قبلك الخلد وفي تفسير الاصفهاني عن الحسن ان الخضر مات وقد مر عنه ايضا انه حي
واذا تعارضا تساقطا واحتج ابن الجوزي ايضا بما ثبت في صحيح البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر اللهم
ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض ولم يكن الخضر فيهم ولو كان يومئذ حيا لورد على هذا العموم فانه
كان ممن يعبده قطعا وقد بسط الحافظ ابن الحجر العسقلاني القول في بيان احوال الخضر واخباره قبل
بعثة النبي صلى الله عليه وسلم والتي وردت ان الخضر والياس كانا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثم بعده الى الان وما

جاء في بقائه بعد النبي صلى الله عليه وسلم ومن نقل عنه انه رآه وكلمه في ابواب مستقلة من كتابه الاصابة
في معرفة الصحابة وتكلم على اسانيدها جرحا وتعديلا وغالبها لا يخلو عن علة او ضعف او انقطاع
او اعضال او وضع او نكارة ارشد وذو ولا يصلح شيء منها للاستدلال على حياة الخضر وبقاءه الى الآن
او الى خروج الدجال والحق ما ذكرناه عن البخاري واضرابه في ذلك ولا حجة في قول احد كائنا من كان
الا الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ولا حديث مرفوع اليه صلى الله عليه وسلم
حتى يعتمد عليه ويصار اليه وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد وطول التعمير لاحد من البشر وهما قاضيان
على غيرهما ولا يقضي غيرهما عليهما ومن قال انه نبي او رسل او وحي لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين واذا جاء
نهر الله بطل نهر معقل وقد تكلم الحافظ على هذا الباب في فتح الباري ايضا فمن شاء الاطلاع على تفصيل
ذلك فليرجع اليه وبالله التوفيق ومنه الغفر والاصابة ولما اجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود
وانتهى الكلام الى حيث انتهى شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه فالمراد بالسائلين في قوله ويسئلونك
هو اليهود اي سؤال تعنت عن ذي القرنين واختلفوا فيه اختلافا كثيرا فقيل هو الاسكندر بن فيلقوس
الذي ملك الدنيا كلها باسرها اليوناني باني الاسكندرية وقال ابن اسحاق هو رجل من اهل مصر اسمه
مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل هو ملك اسمه هرمس وقيل هردس وقيل شاب
من الروم وقيل كان نبيا وقيل كان عبدا صالحا وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله
من اولاد كهلان بن سبا وحكى القرطبي عن السهيلي انه قال ان الظاهر من علم الاخبار انهما اثنان احدهما كان
على عهد ابراهيم عليه السلام والآخر كان قريبا من عيسى عليه السلام وقيل هو ابو كرب الحميري وقيل هو
ملك من الملائكة ورجح الرازي القول الاول قال لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التي نطق
بها التنزيل انما هو اسكندر اليوناني كما يشهد به كتب التواريخ قال فوجب القطع بان ذا القرنين هو الاسكندر
قال وفيه اشكال لانه كان تلميذا لارسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بان
مذهب ارسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل اليه قال النيسابوري قلت ليس كلما ذهب اليه الفلاسفة
باطلا فلعله اخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله اعلم ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي من انهما اثنان كما قدمنا ذلك
وبين ان الاول طاف بالبيت مع ابراهيم اول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر واما الثاني فهو الاسكندر
المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور ارسطاطاليس وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة فاما الاول

المذكور في القران فكان في زمن الخليل هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راويا له عن الازرقي وغيره ثم قال وقد ذكرنا طرفا صالحا في اخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية وحكى ابو السعود في تفسيره عن ابن كثير انه قال وانما بينا هذا لانهما اثنان لان كثيرا من الناس يعتقد انهما واحد وان المذكور في القران العظيم هو هذا المتاخر فيقع بذلك خطأ كثير وفساد كبير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا ووزيره الخضر وقد قيل انه كان نبيا واما الثاني فقد كان كافرا ووزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وكان بينهما من الزمان اكثر من الفي سنة فاين هذا من ذاك انتهى قلت لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقا وسماه بالبداية والنهاية ولم نقف عليه والذي يستفاد من كتب التاريخ هو انهما اثنان كما ذكره السهيلي والازرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازي وادعى انه الذي تشهد به كتب التواريخ وقد وقع الخلاف هل هو نبي ام لا وسياتي ما يستفاد منه المطلوب واما السبب الذي لاجله سمي ذا القرنين فقال الزجاج والازهري انما سمي ذا القرنين لانه بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرن الشمس من مغربها وقيل انه كان له ضفيرتان من شعر والضفائر تسمى قرونا وقيل انه رأى في اول ملكه كانه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك وقيل كان له قرنان تحت عمامته وقيل انه دعا الى الله فشجه قومه على قرنه ثم دعا الى الله فشج على قرنه الاخر وقيل انما سمي بذلك لانه كريم الطرفين من اهل بيت شرف من قبل ابيه وامه وقيل لانه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي وقيل لانه كان اذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا وقيل لانه اعطي علم الظاهر والباطن وقيل لانه دخل النور والظلمة وقيل لانه ملك فارس والروم وقيل لانه ملك الروم والترك وقيل لانه بلغ اقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الارض وقيل لانه كان لتاجه قرنان وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ادري اتبع كان نبيا ام لا وما ادري اذو القرنين كان نبيا ام لا وما ادري الحدود كفارات لاهلها ام لا اخرجه عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم وعن علي بن ابي طالب قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا احب الله فاحبه الله ونصح لله فنصحه الله بعثه الله الى قومه فضربوه على قرنه فمات ثم احياه الله لجهادهم ثم بعثه الله الى قومه فضربوه على قرنه الاخر فمات فاحياه الله لجهادهم فلذلك سمي ذا القرنين وان فيكم مثله وعن ابن عمر قال ذو القرنين نبي وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال هو ملك مسح الارض بالاسباب اخرجه ابن ابي حاتم عن الاحوص بن حكيم عن ابيه وعن عمر بن الخطاب انه سمع رجلا ينادي يا ذا

القرنين فقال ها انتم قد سميتم باسماء الانبياء فما بالكم واسماء الملائكة وفي الباب غير ما ذكرناه مما يغني عنه ما قد اوردناه وقد اخرج ابو الشيخ والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني حديثا يتضمن ان نفرا من اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين فاخبرهم بما جاءوا له ابتداء وكان فيما اخبرهم انه كان شابا من الروم وانه بنى الاسكندرية وانه علا به ملك الى السماء وذهب به الى السد واسناده ضعيف وفي متنه نكارة واكثر ما فيه انه من اخبار بني اسرائيل ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه الى ابن جرير والاموي في مغازيه ثم قال بعد ذلك والعجب ان ابا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة انتهى وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور وساق ايضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه الى ابن اسحاق وابن المنذر وغيرهم وفيه اشياء منكرة جدا وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر اخرجه ابو الشيخ وغيره ولعل هذه الاخبار ونحوها منقولة عن اهل الكتاب وقد امرنا بان لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه الينا واختلفوا ايضا في وقته فقال قوم كان بعد موسى وقال قوم كان في الفترة بعد عيسى وقال قوم كان في وقت ابراهيم واسماعيل وقد حققنا ذلك في لقطة العجلان فراجعه وبالجملة فان الله مكنه وملكه ودانت له الملوك وروي ان الذين ملكوا الدنيا كلها اربعة مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان بن داود والاسكندر والكافران نمروذ وبخت نصر وسيملكها من هذه الامة خامس لقوله تعالى ليظهره على الدين كله وهو المهدي ذكره القرطبي وعن السدي قال قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم انك انما تذكر ابراهيم وموسى وعيسى والنبيين انك سمعت ذكرهم منا فاخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة الا في مكان واحد قال ومن هو قالوا ذو القرنين قال ما بلغني عنه شيء فخرجوا فرحين قد غلبوا في انفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم ايها السائلون منه اي من ذي القرنين ذكرا خبرا وذلك بطريق الوحي المتلو ثم شرع سبحانه في بيان ما امر به رسوله ان يقوله لهم من انه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال انا مكنا له في الارض اي اقدرناه بما مهدنا له من الاسباب فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها وسهل عليه المسير في مواضعها وذلل له طرقها حتى تمكن منها اين شاء وكيف شاء ومن جملة تمكينه فيها ان جعل الله الليل والنهار عليه سواء في الاضاءة وآتيناه من كل شيء مما يتعلق بمطلوبه او مما يحتاج اليه الخلق سببا اي طريقا يتوصل بها الى ما يريده كآلات السير وكثرة الجند واستقصاء بقاع الارض

والوصول الى عين الحياة وقال ابن عباس سببا اي علما وقال ايضا الاخالى حيث اراد قال المفسرون
والمعنى طريقا تؤديه الى مغرب الشمس قاله الزجاج وقيل من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن
وقهر الاعداء واصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به الى شيء فَاَتْبَعَ سَبَبًا سلك طريقا نحو المغرب
قال الاخفش تبعته واتبعته بمعنى مثل ردفته وارد فته ومنه قوله تعالى فاتبعه شهاب وحكى الاصمعي
انه يقال تبعته واتبعته اذا سار ولم يلحقه واتبعه اذا لحقه قال ابو عبيدة ومثله فاتبعوهم مشرقين
قال النحاس وهذا من الفرق وان كان الاصمعي قد حكاه فلا يقبل الا بعلم او دليل وقوله عز وجل فاتبعوهم
مشرقين ليس في الحديث انهم لحقوهم وانما في الحديث لما خرج موسى واصحابه من البحر وحصل فرعون
واصحابه في البحر انطبق عليهم البحر والحق في هذا ان تبع اتبع واتبع لغات بمعنى واحد وهو بمعنى السير
حَتّٰۤى اِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ اي نهاية الارض من جهة المغرب واخر العمارة منها لان من وراء هذه
النهاية البحر المحيط وهو لا يمكن المضي فيه فلم يبق قدامه شط بل مياه لا اخر لها وَجَدَهَا اي رأى الشمس
تَغْرُبُ فِيْ عَيْنٍ حَمِئَةٍ اي كثيرة الحماة وهي الطينة السوداء يقال حمأت البير حما بالتسكين اذا نزعت
حمأتها وحمأت البير حما بالتحريك كثرت حمأتها وقرئ حامية من الحميات اي حارة وقد يجمع بين
القراءتين فيقال كانت حارة وذات حمئة قال كعب اما انا فاني اجد في التوراة تغرب الشمس في ماء وطين
واشار بيده الى المغرب وانشد ابن ابي حاضر ﷺ فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين
ذي خلب وثأط حرمد فقال ابن عباس ما الخلب قال الطين بكلامهم قال فما الثأط قال الحمئة قال
فما الحرمد قال الاسود فدعى ابن عباس غلاما فقال اكتب ما يقول هذا الرجل قيل ولعل ذا القرنين
لما بلغ ساحل البحر المحيط رأها كذلك في نظره اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب
ولم يقل كانت تغرب قاله البيضاوي ويعني على العادة من ان الشخص اذا كان في البحر يرى الشمس كأنها تغرب فيه
قيل وتسمية البحر المحيط عينا لا يحدوه فيه خصوصا وهو بالنسبة الى ماهو اعظم منه في علم الله وفي القرطبي
قال بعض العلماء ليس المراد انه انتهى الى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل الى جرمها ومسها لانها تدور
مع السماء حول الارض من غير ان تلصق بالارض وهي اعظم من ان تدخل في عين من عيون الارض
لانها اكبر من الارض اضعافا مضاعفة بل المراد انه انتهى الى اخر العمارة من جهة المغرب والمشرق فوجدها
في رأي العين تغرب في عين حمئة كما انا نشاهدها في الارض الملساء كانها تدخل في الارض ولهذا قال وجدها

تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ولم يرد انها تطلع عليهم بان تماسهم وتلاصقهم بل اراد
انهم اول من تطلع عليه وقال القتيبي يجوز ان تكون هذه العين من البحر وتكون الشمس تغيب وراءها
او عندها او معها فيقام حرف الصفة مقام صاحبه والله اعلم انتهى اقول ولا يبعد ان يقال لا مانع
من ان يمكنه الله من عبور البحر حتى يصل الى تلك العين التي تغرب فيها الشمس وما المانع من هذا
بعد ان حكى الله عنه انه بلغ مشرق الشمس ومكن له في الارض والبحر من جملتها ومجرد الاستبعاد لا يجوز
حمل القرآن على خلاف ظاهره قال الكرخي فان الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين
وكرة الارض بحيث تسع عين الماء عين الشمس فلم لا يجوز ذلك وان كنا لا نعلم به لقصور عقولنا عن
الاحاطة بذلك وايضا الانبياء والحكماء لا يبعد ان يقع منهم مثل ذلك الا ترى الى ظن موسى فيما انكره
على الخضر انتهى (وَوَجَدَ عِنْدَهَا) اي عند العين او الشمس (قَوْمًا) قيل هم قوم عراة لباسهم جلود الوحش
وطعامهم ما لفظ البحر وكانوا كفارا قاله البيضاوي ومن المعلوم ان الكفر انما يتحقق بعد بعثة رسول
وعدم ايمانهم به ولينظر اي رسول ارسل الى هؤلاء حتى كفروا به هذا والاظهر انهم كانوا اهل فترة
لم يرسل اليهم احد ولما جاءهم ذو القرنين دعاهم الى ملة ابراهيم فمنهم من آمن ومنهم من كفر تأمل
فخيره الله بين ان يعذبهم وبين ان يتركهم فقال (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ) يستدل بهذا من يزعم انه كان
نبيا فان الله خاطبه بالوحي ومن قال انه لم يكن نبيا اوله بالالهام ويحتمل ان يكون الخطاب على لسان
نبي غيره (إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ) اياهم بالقتل من اول الامر (وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) اي امرا ذا حسن
او امرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للامر والمراد الاسر او دعوتهم الى الحق وتعليمهم الشرائع
واما للتقسيم دون التخيير اي ليكن شأنك معهم اما التعذيب واما الاحسان فالاول لمن اصر على الكفر
والثاني لمن تاب منه (قَالَ) ذو القرنين مختار الدعوة التي هي الشق الاخير من الترديد (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) نفسه
بالاصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي (فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ) بالقتل في الدنيا (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ) في الآخرة
(فَيُعَذِّبُهُ) فيها (عَذَابًا نُكْرًا) اي منكرا فظيعا شديدا بالنار لانها انكر من القتل قال الزجاج خيره الله بين
الامرين قال النحاس ورد علي بن سليمان قوله لانه لم يصح ان ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا فكيف يقول
لربه عز وجل ثم يرد الى ربه وكيف يقول فسوف نعذبه فيخاطبه بالنون قال والتقدير قلنا يا محمد قالوا
يا ذا القرنين قال النحاس وهذا الذي ذكره لا يلزم لجواز ان يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي.

في وقته وكان ذو القرنين خاطبه بذلك القوم فلا يلزم ما ذكره ويمكن ان يكون تخاطبا للنبي الذي خاطبه
الله على لسانه او خاطب قومه الذي وصل هو الى ذلك الموضع وَأَمَّا مَنْ آمَنَ بالله وصدق دعوتي وَعَمِلَ
عملا صَالِحًا مما يقتضيه الايمان فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى بنصب جزاء وتنوينه قال الفراء اي مجزيا بها جزاء و
قرئ بالاضافة للبيان اي جزاء الخصلة الحسنى عند الله او الفعلة الحسنى وهي الجنة قاله الفراء و
اضافة الجزاء الى الحسنى التي هي الجنة كاضافة حق اليقين ودار الآخرة ويجوز ان يكون هذا الجزاء
من ذي القرنين اي اعطيه واتفضل عليه وَسَنَقُولُ لَهُ اي لمن آمن مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا اي مما نامره به
قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق او اطلق عليه المصدر مبالغة ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا اي يسلك طريقا آخر غير
الطريق الاولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تقلبه امة مرحليها
حَتَّى إِذَا بَلَغَ في مسيره ذلك مَطْلِعَ الشَّمْسِ اي الموضع الذي تطلع عليه الشمس اولا من معمور الارض
او مكان طلوعها العلم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله اليه كما اوضحناه فيما سبق قيل بلغه في ثنتي
عشرة سنة وقيل في اقل من ذلك بناء على انه سخر له السحاب وطويت له الاسباب وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى
قَوْمٍ قيل هو الزنج وقيل هم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية ... وهم
يجاورون يأجوج ومأجوج لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا اي الشمس سِتْرًا يسترهم لا من البيوت والسقوف ولا من اللباس
بل هم حفاة عراة لا يأوون الى شيء من العمارة قيل لانهم بارض لا يمكن ان يستقر عليها البناء قال
كعب ارضهم لا تمسك الابنية وبها اسراب فاذا طلعت الشمس دخلوها فاذا ارتفع النهار خرجوا
الى معايشهم قال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل
بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا احدهم يفرش احدى اذنيه ويلتحف الاخرى فلما قرب
طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم افقت فلما طلعت الشمس فاذا هي فوق الماء
كهيئة الزيت فادخلوني سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك فيطرحونه في الشمس فينضج لهم
وقال مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكثر من جميع اهل الارض وفي كتب الهيئة
ان اكثر حال الزنج كذلك وكذا حال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا
بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا اي كذلك امر ذي القرنين اتبع هذه الاسباب حتى بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده
من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به او من الآلات والجند وغيرها مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم

من الابنية والثياب وقيل المعنى وكذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها وقيل المعنى كذلك
يطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم فقضى في هؤلاء مثل ما قضى في اولئك من تعذيب
الظالمين والاحسان الى المؤمنين وهو الاصح ويكون تأويل الاحاطة بما لديه في هذه على ما يناسب
ذلك كما قلنا في الوجه الاول ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين الى ناحية اخرى وهي ناحية القطر الشمالي
بعد تهيئة اسبابه فقال ثم اتبع سببا اي سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب واستمر آخذا
فيه حتى اذا بلغ في مسيرة ذلك بين السدين بفتح السين وقرئ بضمها وهما سبعيتان وقال ابو عبيدة وابن الانباري
وابو عمرو بن العلاء السد ان كان خلقا لله تعالى فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول اي هو مما فعله
الله وخلقه وان كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا وقال ابن الاعرابي كل ما قابلك فسد ما وراءه
فهو سد وسد نحو الضعف والضُعف والفقر والفُقر والسدان هما جبلان من قبل ارمينية واذربيجان
قاله ابن عباس وقيل موضع بين السدين هو منقطع ارض الترك مما يلي المشرق وقيل هما جبلان عاليان
جبلا املسان لا يستطاع الصعود عليهما كالسد الآتي ويسمى كل واحد منهما سدا لانه سد فجاج الارض
وفي الشهاب اطلاق السد على الجبل لانه سد في الجملة وفي القاموس السد الجبل والحاجز ولكونه
ملاصقا للسد فهو مجاز بعلاقة المجاورة والقول الثاني هو المناسب لما قبله وحكى ابن جرير في تاريخه ان
صاحب اذربيجان ايام فتحها وجه انسانا من ناحية الخزر فشاهده ووصف انه بنيان رفيع وراء خندق
وثيق منيع وحكى ان الواثق بعث بعض من يثق به اليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الابواب حتى وصلوا اليه
وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل وقيل جبلان
في اواخر الشمال قال الرازي والاظهر ان موضع السد في ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما وطولهما
مائة فرسخ وليس لياجوج وماجوج طريق يخرجون منها الى ارض العمارة الا هذه الفتحة وسكنهم وراء هذين
الجبلين وارضهم متسعة جدا تنتهي الى البحر المحيط وجد من دونهما اي من ورائهما مجاوزا عنهما و
قيل امامهما اي خارجة عنهما لا داخلة بناحية ياجوج وماجوج وقال الخطيب بقربهما من الجانب
الذي هو ادنى منهما الى الجهة التي اتى منها ذو القرنين قوما اي امة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات
بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد فلذا لا يكادون اي لا يقربون يفقهون اي يفهمون
قولا ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ بضم الياء وكسر القاف

من اقتدادا بأن اي لا يبينون لغيرهم كلاما وقرئ بفتح الياء والقاف اي لا يفهمون كلام غيرهم
والقراءتان صحيحتان ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم لانهم لا يعرفون غير لغة
انفسهم ولسانهم غريب مجهول لشدة عجمتهم فكلامهم مغلق قال ابن جريج هم الترك قالوا اي هؤلاء
القوم الذين لا يفقهون قولا يا ذا القرنين وهو الاسكندر الاكبر قيل ان فهم كلامهم من جملة الاسباب التي
اعطاه الله وقيل انهم قالوا ذلك لترجمانهم فقال لذي القرنين بما قالوا له وذلك انهم من اولاد يافث
بن نوح وذو القرنين من اولاد سام فلا يفهم لغتهم ان ياجوج وماجوج اسمان عجميان لا اشتقاق لهما
بدليل منع صرفهما للعلمية والعجمة وبه قال الاكثر وقيل عربيان مشتقان من اج الظليم في مشيه
اذا هرول وتأججت النار اذا تلهبت وقرأهما الجمهور بغير همز وقرأ عاصم بالهمز قال ابن الانباري وجه همزهما
وان لم يعرف له اصل ان العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها اصل كقولهم لبأت ورثأت واستنشأت
الريح ويحتمل ان تكون الهمزة اصلا والالف بدلا منها او بالعكس لان العرب تتلاعب بالاسماء العجمية قال
ابو علي يجوز ان يكونا عربيين فمن همز فهو على وزن يفعول مثل يربوع ومن لم يهمز امكن ان يكون خفف
الهمزة فقلبها الفا مثل راس واما ماجوج فهو مفعول من اج والكلمتان من اصل واحد في الاشتقاق
قال وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتانيث والتعريف كانه اسم للقبيلة وقيل اشتقاقهما
من الاوجة وهي الاختلاط او شدة الحر وقيل من الاوج وهو سرعة العدو واختلف في نسبهم فقيل هم
من ولد يافث بن نوح والترك منهم وقيل ياجوج من الترك وماجوج من الجيل والديلم وقال كعب الاحبار
احتلم ادم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء قال القرطبي وهذا فيه نظر لان الانبياء لا يحتلمون
وانما هم من ولد يافث كذلك قال مقاتل وغيره وقد وقع الخلاف في صفتهم فمن الناس من يصفهم بصغر
الجثث وقصر القامة ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ومنهم من يقول لهم مخالب كمخالب
السباع وان منهم صنفا يفترش احدى اذنيه ويلتحف بالاخرى ولاهل العلم من السلف ومن بعدهم
اخبار مختلفة في صفاتهم وافعالهم قال ابن عباس ياجوج وماجوج شبر وشبران واطولهم ثلاثة
اشبار وهم من ولد ادم فبدهم وعن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان ياجوج وماجوج من ولد ادم ولو
ارسلوا لافسدوا على الناس معايشهم ولا يموت منهم رجل الا ترك من ذريته الفا فصاعدا وان من ورائهم
ثلاث امم تاويل وتاريس ومنسك اخرجه الطبراني وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي وغيرهم

قيل هو عشرة اجزاء وولد ادم كله جزء ومسافة الارض بتمامها خمسمائة عام ثلثمائة بحار ومائة و
تسعون مسكن هو بقي عشرة سبعة للحبشة وثلاثة لجملة الخلق غيرهم وهو كفار دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم
الى الايمان ليلة الاسراء فلم يجيبوا والله اعلم مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالنهب والبغي عند خروجهم وقيل
سيفسدون بعد خروجهم الينا واختلف في افسادهم في الارض فقيل هو اكل بني ادم وقيل هو
المظالم والغشم والقتل وسائر وجوه الافساد وقيل كانوا يخرجون الى ارض هؤلاء القوم الذين شكوهم الى
ذي القرنين في ايام الربيع فلا يدعون فيها شيئا اخضر الا اكلوه ولا يابسا الا احتملوه وادخلوه ارضهم و
اخرج احمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن ابي هريرة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ياجوج وماجوج مفسدون في الارض يحفرون السد كل يوم حتى اذا
كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه اشد ما كان حتى
اذا بلغت مدتهم واراد الله ان يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي
عليهم ارجعوا فستحفرونه ان شاء الله تعالى ويستثني فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه
ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء
فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الارض وعلونا من في السماء قسرا وعلوا فيبعث الله عليهم
نغفا في اقفائهم فيهلكون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده ان دواب الارض لتسمن
وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت استيقظ رسول الله
صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من
ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق قلت يا رسول الله ايهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر
الخبث واخرج نحوه من حديث ابي هريرة مرفوعا وقد ذكرنا تفصيل حالهم في حجج الكرامة فراجعه فَهَلْ
نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا هذا الاستفهام من باب حسن الادب مع ذي القرنين وقرئ خراجا قال الازهري الخراج يقع
على الضريبة ويقع على مال الفيء ويقع على الجزية وعلى الغلة والخراج ايضا اسم لما يخرج من الفرائض في
الاموال والخرج المصدر وقال قطرب الخرج الجزية والخراج في الارض وقيل الخرج ما يخرجه كل احد من
ماله والخراج ما يجبيه السلطان وقيل هما بمعنى واحد قال ابن عباس خرجا اي اجرا عظيما وجعلا من
الاموال عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا اي ردما حاجزا بيننا وبينهم فلا يصلون الينا قال الخليل

وسيبويه الضم هو الاسم والفتح المصدر وقال الكسائي الضم والفتح لغتان بمعنى واحد وقد سبق
قريبا ما حكيناه عن ابي عمرو بن العلاء وابي عبيدة وابن الانباري من الفرق بينهما وقال ابن ابي اسحاق
ما رأته عيناك فهو سد بالضم وما لا ترى فهو سد بالفتح وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم
في السدين قال لهم ذو القرنين ما مكني فيه ربي اي ما بسطه الله لي من المال والقدرة والملك
وفي قراءة سبعية بنونين من غير ادغام خير من خرجكم الذي تجعلونه لي فلا حاجة لي اليه اجعل لكم السد تبرعا
ثم طلب منهم المعاونة له فقال فأعينوني بقوة اي برجال منكم يعملون بايديهم او اعينوني بالآلات
او بمجموعهما قال الزجاج بعمل يعملونه معي اجعل بينكم وبينهم ردما حاجزا حصينا وهذا جواب الامر
والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل قال الهروي يقال ردمت الثلمة اردمها بالكسر ردما اي
سددتها والردم ايضا الاسم وهو السد وقيل الردم ابلغ من السد اذ السد كل ما يسد به والردم وضع
الشيء على الشيء من حجارة او تراب او نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ومنه ردم ثوبه اذا رقعه برقاع
متكاثفة بعضها فوق بعض قال ابن عباس الردم هو اشد الحجاب آتوني اي اعطوني وناولوني زبر الحديد
جمع زبرة كغرفة وغرف وهي القطعة قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة قال الفراء معناه
ائتوني بها على قدر الحجارة التي يبنى بها فبنى بها وجعل بينهما الحطب والفحم حتى اذا ساوى بين الصدفين
بفتح الحرفين وضمهما وضم الاول وسكون الثاني والثاني اشهر اللغات وقرئ بفتح الصاد وضم الدال قال
الازهري يقال لجانبي الجبل صدفان اذا تحاذيا لتصادفهما اي لتلاقيهما وكذا قال ابو عبيدة والهروي
وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع صدف قاله ابو عبيدة وفي البيضاوي الصدفين من الصدف وهو
الميل لان كلا منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل وقال ابن عباس الصدفين الجبلين
وقال مجاهد رؤوس الجبلين ومعنى الآية انهم اعطوه زبر الحديد فجعل يبني بها بين الجبلين حتى ساواهما
ثم قال للعملة انفخوا على هذه الزبر بالكيران حتى اذا جعله اي جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزبر نارا
اي كالنار في حرها واسناد الجعل الى ذي القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ قيل كان يأمر بوضع طاقة
من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى والحديد اذا اوقد عليه صار كالنار فيؤتى
بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة وهو معنى قوله قال آتوني افرغ عليه قطرا قال اهل اللغة
هو النحاس المذاب وبه قال ابن عباس والافراغ الصب وكذا قال اكثر المفسرين وقالت طائفة القطر الحديد المذاب

المذاب وقالت طائفة اخرى منهم ابن الانباري هو الرصاص المذاب فسحل القطر بين زبره فصار شيئا واحدا قيل وهذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لان الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر احد على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن الا بالقرب منها فكانه تعالى صرف تاثير تلك الحرارة العظيمة عن ابدان اولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه فما اسطاعوا اصله فما استطاعوا قال ابن السكيت يقال استطيع وما اسطيع وما استيع وقرئ على الاصل ان يظهروه اي يعلوه قاله ابن جريج وقال قتادة ان يرتقوه اي فما استطاع ياجوج وماجوج ان يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته فكان ارتفاعه مائتي ذراع ولملاسته لا يثبت عليه قدم ولا غيره وما استطاعوا له نقبا يقال نقبت الحائط اذا خرقت فيه خرقا فخلص ما وراءه قال الزجاج ما استطاعوا ان ينقبوه من اسفله لشدته وصلابته وسمكه وثخنه اي عرضه قيل ان عرضه خمسون ذراعا وطوله فرسخ وسعة الفتحة التي بين الجبلين مائة فرسخ قال ذو القرنين مشيرا الى السد هذا السد اي الاقدار عليه رحمة من ربي اي اثر من آثار رحمته لهؤلاء المجاورين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد فهو نعمة لانه مانع من خروجهم فاذا جاء وعد ربي اي اجله ان يخرجوا منه وقيل هو مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة جعله الظاهر ان الجعل هنا بمعنى التصيير وجعله ابن عطية بمعنى خلق وفيه بعد لانه اذ ذاك موجود دكاء اي مستويا بالارض ومنه كلا اذا دكت الارض دكا دكا قال الترمذي اي مستويا يقال ناقة دكاء اذا ذهب سنامها وقال القتبي اي جعله مدكوكا مبسوطا ملصقا بالارض وقيل مساويا للارض تبغ وقيعها ويذوب حتى يصير ترابا وقال الحليمي قطعا منكسرة ومن قرأ دكاء بالمد اراد التشبيه بالناقة الدكاء وهي التي لا سنام لها اي مثل دكاء لان السد مذكر فلا يوصف بدكاء وقرأ الباقون دكا بالتنوين على انه مصدر ومعناه ما تقدم ويجوز ان يكون مصدرا بمعنى الحال اي مدكوكا قال قتادة لا ادري الجبلين يعني به ام بينهما وكان وعد ربي حقا اي بخروجهم او وعده بالثواب والعقاب والوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلف وهذا آخر قول ذي القرنين ثم قال الله تعالى وتركنا بعضهم اي بعض ياجوج وماجوج يومئذ يموج في بعض اي جعلنا وصيرنا بعضهم يوم مجيء الوعد او يوم خروج ياجوج وماجوج يختلط ويموج في بعض آخر منهم يقال ماج الناس اذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء والمعنى انهم يضطربون ويختلطون من شدة الازدحام عند خروجهم عقب موت الدجال فيحار حيث

بالمؤمنين الى جبل الطور فرارا منهم ثم يسلط الله عليهم حرة دواب في رقابهم فيموتون به ولا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ولا يصلون الى من تحصن منهم بورد او ذكر وتمام قصتهم في كتابنا حجج الكرامة وقيل الضمير في بعضهم للخلق واليوم يوم القيامة اي وجعلنا بعض الخلق من الجن والانس يموج في بعض قاله ابن عباس وقيل المعنى وتركنا ياجوج وماجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج في بعض وَنُفِخَ فِي الصُّورِ اي القرن للبعث وقد تقدم تفسيره وفيه دليل على ان خروجهم من علامات قرب الساعة قيل هي النفخة الثانية بدليل قوله بعد فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا فان الفاء تشعر بذلك ولم يذكر النفخة الاولى لان المقصود هنا ذكر احوال القيامة والمعنى جمعنا الخلائق بعد تلاشي ابدانهم ومصيرها ترابا جمعا تاما على اكمل صفة وابدع هيئة واعجب اسلوب في صعيد واحد وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا المراد به العرض هنا الاظهار اي اظهرنا جهنم حتى شاهدوها يوم جمعناهم وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ في الدنيا اي اعين قلوبهم اي بصائرهم فِي غِطَاءٍ اي غشاء وستر وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب عَنْ سبب ذِكْرِي وهي الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد فاطلق المسبب على السبب او عن القرآن العظيم وتامل معانيه وتدبر فوائده فهم عمي لا يهتدون به ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية او التنزيلية او مجموعهما اراد ان يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ اي لا يعقلون سَمْعًا قاله مجاهد وقيل لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لغلبة الشقاوة عليهم ولشدة عداوتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا ابلغ مما لو قال وكانوا صما لان الاصم قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية وفي ذكر غطاء الاعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالابصار واعراضهم عن الادلة السمعية أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ الحسبان هنا بمعنى الظن والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كنظائره والمعنى افظنوا انهم ينتفعون بما عبدوه مع اعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق وعن علي انه قرأ افحسب بجزم السين وضم الباء وعن عكرمة انه قرأ اي اليك

ومعناه اكافيهم وحسبهم ان يتخذوا عيسى وعزيرا والملائكة اربابا من دونه تعالى بل هو لهم اعداء يتبرؤن منهم وقيل يعني الشياطين اطاعوهم من دون الله والمعنى اظنوا ان الاتخاذ لا يغضبني ولا اعاقبهم عليه قال الزجاج المعنى ايحسبون ان ينفعهم ذلك يريد ان ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا كلا إِنَّا أَعْتَدْنَا هيأنا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا يتمتعون به عند ورودهم قال الزجاج النزل للماوى والمنزل وفي القاموس ما يقتضي ان كل منزل يقال له نزل ففي تقييد النزل بكان الضيف نظر كما قال بعضهم انه الذي يحل الضيف وعلى هذا يكون تهكما بهم كقوله فبشرهم بعذاب اليم والمعنى ان جهنم معدة لهم عندنا كما يعد المنزل للضيف قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا جمع اخسر اي اشد خسرانا من غيرهم او بمعنى خاسر وجمع العمل للدلالة على ارادة الانواع منه عن مصعب بن سعد قال سألت ابي اهم الحرورية قال لا هم اليهود والنصارى اما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم واما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين وعنه قال لا ولكنهم اصحاب الصوامع والحرورية قوم زاغوا فازاغ الله قلوبهم وعن علي قال انهم الرهبان الذين حبسوا انفسهم في السواري وعنه قال هم فجرة قريش وعنه قال لا اظن الا ان الخوارج منهم الَّذِينَ ضَلَّ اي بطل وضاع سَعْيُهُمْ كالعتق والوقف واغاثة الملهوف لان الكفر لا ينفع معه طاعة فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ اي والحال انهم يظنون أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا عملا يجازون عليه وانهم منتفعون باثاره أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ مستأنفة مسوقة لبيان تكميل الخسران وسببه وهذا اولى الوجوه ومعنى كفرهم بالآيات كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية وَلِقَائِهِ اي كفروا بالبعث والحساب والثواب والعقاب وما بعده من امور الآخرة ثم رتب على ذلك قوله فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ التي عملوها مما يظنون حسنا وهو خسران وضلال ثم حكم عليهم بقوله فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا اي لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم بل نزدريهم ونستذلهم وقيل لا يقام لهم ميزان توزن به اعمالهم لان ذلك انما يكون لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين وهؤلاء لا حسنات لهم قال ابن الاعرابي العرب تقول ما لفلان عندنا وزن اي قدر لخسته ويوصف الرجل بانه لا وزن له لخفته وسرعة طيشه وقلة تثبته والمعنى على هذا انهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة وقرأ مجاهد يقيم اي فلا يقيم الله وقرأ الباقون بالنون وفي الصحيحين من حديث

ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح
بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤل اليه امرهم
فقال ذلك اي الذي ذكرناه من انواع الوعيد وحبوط اعمالهم وخسة قدرهم جزاؤهم جهنم عطف
بيان للجزاء والسبب في ذلك انهم ضموا الى الكفر اتخاذهم آيات الله واتخاذ رسله هزوا والباء في بما كفروا للسببية
واتخذوا آياتي ورسلي هزوا اي مهزوا بهم ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين
فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اي جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم كانت لهم
فيما سبق من علم الله لاهل طاعته قاله ابن الانباري جنات الفردوس نزلا قال المبرد الفردوس فيما سمعت
من كلام العرب الشجر الملتف والاغلب عليه العنب واختار الزجاج ما قاله مجاهد ان الفردوس البستان بالرومية
الرومية وقيل كل ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس وحكى الزجاج انها الاودية التي تنبت ضروبا من النبت
فقيل هو عربي وقيل اعجمي وقيل فارسي وقيل سرياني وقد تقدم بيان النزل والمعنى كانت لهم ثمار جنة الفردوس
نزلا معدا لهم مبالغة في اكرامهم اخرج الطبراني والحاكم وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم وغيرهم
عن ابي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا الله الفردوس فانها سرة الجنة وان اهل الفردوس يسمعون
اطيط العرش وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألتم الله فاسألوه
الفردوس فانه وسط الجنة واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة واخرج الترمذي واحمد
والحاكم والبيهقي وعبد بن حميد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة
كل درجة منها ما بين السماء والارض الفردوس اعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنه تفجر انهار
الجنة الاربعة فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس وعن السدي هو الكرم بالنبطية وقال كعب هي جنات الاعناب
بالسريانية وعنه ليس في الجنان جنة اعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر
وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة واوسطها واوسعها وافضلها وارفعها وقيل هي الجنة الملتفة بالاشجار
التي تنبت ضروبا من النبات وفي الاحاديث بهذا المعنى كثيرة وقد اوضحنا ما جاء في الجنان كلها ونعيمها
من الاحاديث والآثار في كتابنا مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام خالدين فيها لا يبغون عنها حولا
قال مجاهد متحولا اي لا يطلبون تحولا عنها الى غيرها اذ هي احرى ان يطلبوا غيرها او تشتاق انفسهم الى سواها
قال ابن الاعرابي وابن قتيبة والازهري الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر وقال ابو عبيدة والفراء ان

الحول التحول ولما ذكر سبحانه انواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال قل لو كان البحر مدادا لكلمات
ربي قال ابن الانباري سمي المداد مدادا لامداده الكاتب واصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء و
يقال للزيت الذي يوقد به السراج مداد والمراد بالبحر هنا الجنس والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمته
وعجائبه وفرض ان جنس البحر مدادا لها لنفد البحر اي فني ماؤه قبل ان تنفد كلمات ربي اي قبل
نفود الكلمات وقيل المعنى لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب لنفد البحر قبل نفود كلمات ربي اي علمه
قاله مجاهد وقال قتادة ينفد ماء البحر قبل ان ينفد كلام الله وحكمته وقيل المراد بها معلوماته قرئ
تنفد بالتاء والياء وهما سبعيتان وذكر في الكشاف ان قبل هنا بمعنى غير او بمعنى دون وقيل عنى سبحانه
بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى وهو ان كان واحدا فيجوز ان يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه
من الفوائد وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع قال الاعشى ◌ ووجه نقي اللون صاف يزينه
مع الجيد لبات لها ومعاصم ◌ فعبر باللبات عن اللبة قال الجبائي ان قوله قبل ان تنفد كلمات ربي يدل على
ان كلماته قد تنفد في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه واجيب بان المراد الالفاظ الدالة على متعلقات
تلك الصفة الازلية وقيل في الجواب ان نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء الآخر ولا على عدم
نفاده فلا يستفاد من الآية الا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر اما انها متناهية او غير متناهية
فلا دليل على ذلك في هذه الآية والحق ان كلمات الله تابعة لمعلوماته وهي غير متناهية فالكلمات غير
متناهية ولو جئنا بمثله مددا هذا الكلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله قل لو كان البحر وفيه زيادة
مبالغة وتاكيد والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها اي لنفد البحر قبل ان تنفد
كلمات الله لو لم يجئ بمثله مددا ولو جئنا بمثله اي البحر مددا لنفد ايضا والمدد الزيادة وقرئ مدادا وهي
كذلك في مصحف ابي ثم امر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ان يسلك مسلك التواضع فقال قل انما انا بشر مثلكم اي حالي
مقصور على البشرية لا يتخطاها الى الملكية ومن كان هكذا فهو لا يدعي الاحاطة بكلمات الله الا انه امتاز عنهم
بالوحي اليه من الله سبحانه فقال يوحى الي وكفى بهذا الوصف فارقا بينه وبين سائر انواع البشر ثم بين ان الذي
اوحي اليه هو قوله انما الهكم اله واحد لا شريك له في الالوهية وبذلك وفي هذا ارشاد الى التوحيد ثم امرهم
بالعمل الصالح والتوحيد فقال فمن كان يرجو لقاء ربه الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل والمعنى من
كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ويخاف المصير اليه وقيل يؤمل رؤية ربه والبعث والجزاء

فليعمل عملاً صالحاً هو ما دل الشرع على انه عمل خير يثاب عليه فاعله اي مستوفيا لما يعتبر انه شرعاً عن ابن عباس قال نزلت
في المشركين الذين عبدوا مع الله الهاً آخر غيره وليست هذه في المؤمنين ولا يشرك بعبادة ربه احداً من خلقه سواء كان
صالحاً او طالحاً حيواناً او جماداً قال الماوردي قال جميع اهل التأويل في تفسير هذه الآية ان المعنى لا يرائي بعمله احداً
واقول ان دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي
هو الرياء ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها انما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية عن ابن عباس قال رجل يا نبي
الله اني اقف المواقف ابتغي وجه الله واحب ان يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية وعنه قال
كان جندب بن زهير اذا صلى او صام او تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لمقالة الناس فلا يريد به الله فنزل في
ذلك فمن كان يرجو لقاء ربه الآية واخرج احمد والترمذي وابن ماجة والبيهقي في الشعب عن ابي سعيد بن ابي فضالة الانصاري
وكان من الصحابة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله الاولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد
من كان اشرك في عمل عمله لله احداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله اغنى الشركاء عن الشرك
واخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابي هريرة ان رجلاً قال يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو
يبتغي عرضاً من الدنيا فقال لا اجر له فاعظم الناس ذلك فعاد الرجل فقال لا اجر له وعن شداد بن اوس قال
كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الاصغر وعنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من صلى
يرائي فقد اشرك ومن صام يرائي فقد اشرك ومن تصدق يرائي فقد اشرك ثم قرأ فمن كان يرجو لقاء ربه
الآية اخرجه احمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم وعن شداد ايضاً قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان الله يقول انا خير قسيم لمن اشرك بي من اشرك بي شيئاً فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذي اشركه
انا عنه غني اخرجه احمد وابو نعيم والطيالسي واخرج احمد والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابي سعيد قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اخبركم بما هو اخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي ان يقوم الرجل يصلي لمكان
رجل واخرج احمد وابن ابي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن شداد بن اوس قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول اتخوف على امتي الشرك والشهوة الخفية قلت اتشرك امتك بعدك قال نعم اما انهم لا
يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراؤن الناس باعمالهم قلت يا رسول الله ما الشهوة الخفية
قال يصبح احدهم صائماً فيعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته واخرج احمد ومسلم
وابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه انه قال انا

خير الشركاء فمن عمل عملا اشرك فيه غيري فانا بريء منه وهو للذي اشرك وفي لفظ فهو اشرك في احد
فهو له كله وفي الباب احاديث كثيرة في التحذير من الرياء وانه الشرك الاصغر وان الله لا يقبله وقد استوفاها
صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع اليه ولكنها لا تدل على انه المراد بالآية بل الشرك الجلي يدخل تحتها
دخولا اوليا وعلى فرض ان سبب النزول هو الرياء كما يشير الى ذلك ما قدمنا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو
مقرر في علم الاصول وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما اخرجه الطبراني وابن مردويه عن ابي حكيم قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لو لم ينزل على امتي الا خاتمة سورة الكهف لكفتهم واخرج ابن راهويه والبزار والحاكم وصححه والشيرازي
في الالقاب وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ في ليلة فمن كان يرجو لقاء ربه
الآية كان له نور من عدن ابين الى مكة حشوه الملائكة قال ابن كثير بعد اخراجه غريب جدا وعن معاوية
بن سفيان انه تلا هذه الآية فمن كان يرجو لقاء ربه وقال انها آخر آية نزلت من القرآن قال ابن كثير وهذا
اثر مشكل فان هذه الآية هي آخر سورة الكهف والكهف كلها مكية ولعل معاوية اراد انه لم ينزل بعدها
ما ينسخها ولا يغير حكمها بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه والى هنا
انتهى الجزء الثاني من تفسير الكتاب العزيز المسمى **بفتح البيان في مقاصد القرآن** ويتلوه الجزء
الثالث ان شاء الله تعالى وكان الفراغ من زبره على يد مؤلفه الفقير الى الله الغني به عمن سواه **صديق**
بن حسن بن علي الحسيني القنوجي ختم الله له بالحسنى واذاقه حلاوة رضوانه الاسنى في صبح
الاربعاء لعله تاسع شهر جمادى الاخرى من شهور سنة تسع وثمانين ومائتين والف الهجرية على صاحبها افضل الصلوة
والسلام والتحية في بلدة بهوپال المحمية صانها الله واهلها عن الفسوق والبلية وقد افرغت فيه جهدي وبثثت
فكري في نفائس ارجو انها ان شاء الله تعالى تجدي فهذا جهد المقل غير مخل بالمقصود ولا ممل فرحم الله امرأ نظر بعين الانصاف
اليه ووقف فيه على سهو فاطلعني عليه شعر حمدت الله ربي اذ هداني + لما ابديت مع عجزي وضعفي
فمن لي بالخطأ فارد عنه + ومن لي بالقبول ولو بحرف + ولم يكن قط يخطر ببالي ويمر في خلدي ان اتصدى
لذلك لعلمي بالعجز عن السلوك في هذه المسالك وعسى الله تعالى ان ينفع به نفعا جما ويفتح به قلوبا غلفا
واعينا عميا واذانا صما ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا ومن احسن من الله قيلا رزقنا
الله به هداية الى سبل الحق توفيقا وبصيرة لمبانيه وخبرة بدقائق معانيه وتحقيقا وجعلنا مع الذين
انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا وما ذلك على الله بعزيز

خاتمة الطبع

من إملاء البحر الحبر الفطين الشيخ زين العابدين بن القاضي محسن بن محمد اليماني نزيل بهوپال ومفتيها في الحال حماه الله المتعال

الحمد لله الذي استهلت الأصوات ببراعة توحيده وقامت البينات ببراءة تفريده عن درن الشرك وتقليده حمد المحسن به التخلص من غزل الهوى إلى حسن الختام ونشكره شكر من عرف صفاته فاقربها ونعوذ بابه من قوم لا يشعرون بهذا المرام والصلوة والسلام على عبده ورسوله الراقي إلى ذرى السماء المنزل عليه أحسن الحديث فيا له من نبي ختم به الأنبياء وعلى آله وأصحابه أولي الأيدي والأبصار الذين خصهم الله تعالى بخالصة ذكرى الدار

وبعد فقد تحريصون لطف الله الداني طبع هذا الجزء الثاني من تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن المزري بقلائد العقيان في نحور الحور الحري بكنوز الجواهر في قعور البحور الذي أطفأ سرج تفاسير المتقدمين وأعمى عن شموس صحف المتأخرين جمع من الروايات ما صح وحق ومن الدرايات ما ذهب به كل باطل وزهق تكاد العيون تأكله بحسن نظامه والقلوب تشربه للطف انسجامه تطرب لفصاح مبانيه الطباع وتقر بصحاح معانيه عيون الأسماع ضمن بصحة مدارك التنزيل وتنقيح معانيه بما لا يتصور المزيد عليه وكفل بإيضاح ما أجمل فيه من الحقائق الإيمانية بحيث تعمل مطايا الأفكار من كل فج عميق إليه بدار الرياسة المحمية وبيت الطباعة العلية بلدة بهوپال البهية المفتخرة بنسبتها إلى ذات المحامد الكريمة والمكارم العظيمة غرة ناصية الإقبال تاج هامة الإجلال دوحة شجرة الإمارة القاهرة ثمرة دوحة الدولة الباهرة المتوفرة بدواعي المجد المشرقة بكواكب السعد حسنة الليالي والأيام مركز مدار العدل في سائر الأحكام من ذكرها تواريخ النعم حضرة **نواب شاهجهان بيگم** لا زالت الأيام مشرقة بطلعة وجودها والليالي منيرة بكوكب سعدها وجودها وكان طبعه الميمون وتمثيله المصون امتثالا للأمر عزيز هذا المصر وأمير ذلك الثغر فرد الزمان ونور طلعة كيوان إمام حرمي المباني والمعاني مجمع بحري العلوم والأماني قران سعدي الدولة والدين منبع سري التواضع والتمكين خاتمة النقاد حامل لواء الإسناد كشاف أصداف الفرائد قطاف أزهار الفوائد فاتح أقفال العلوم مانح أنفال المنطوق والمفهوم صادف بنصل القلم صاحب السيف والعلم ذي السمت الجميل والقدر الجليل مناص المجد والتفاخر **نواب والا جاه أمير الملك سيد محمد صديق حسن خان بهادر** لا برحت الأيام مضيئة بشموس علاه والليالي منيرة ببدور حلاه واستتب هذا الجزء تحت إدارة الموصوف بالصفات الحميدة المثنى عليه بكل خصلة شديدة المعالي

محمد عبد المجيد خان حماه الله عن طوارق الحدثان بتصحيح الساعي في زبره ونسخه الجاهد في ازالة
غلطه وسقمه ذي الفضائل الجلية والهمة العلية المولوي محمد عبد الغفار احمد النصوي ابن مولوي ابي الحسن رحمه الله
والنعم عليه وصاحب الطبع السليم والذهن المستقيم الشيخ العالم الصالح التقي المولوي محمد عبد الله عفي عنه
اللكهنوي وكتابة الشاب الصفي العاري المستمد من فيوض الباري الحافظ علي حسين المكنوي
واصلاح مصلح حجارة دار الطباعة العامرة الحافظ كرامة الله اكرمه الله بالطافه الظاهرة فاتيح
تم طلعه وفصل اسر طبعه وتوبد روضته بعد بالغ التصحيح والمقابلة على الام الصحيحة الكاملة التنقيح في اواخر
شهر جمادى الاولى سنة اثنتين وتسعين ومائتين بعد الالف من هجرة من كان يرى امامه والخلف صلى الله
عليه وآله وكل متبع له ومنتسب اليه ما ذر شارق ولمع بارق ولما وصل هذا التفسير الى مكة المكرمة ونواحيها واليمن
الميمون وضواحيها على يد الشيخ العلامة النبيه العارف المحدث الفقيه مولانا القاضي الشيخ حسين بن محسن
الانصاري اليماني حماه الله تعالى واطلع عليه علماء تلك الناحية الايمانية والجهة اليمانية ارتضوه جدا وكتبوا
عليه ماسيأتي رسما وحدا ومدحوا التفسير بابلغ المباني وقالوا جميعا انه اطفأ نور فتح القدير للشوكاني واثنوا
على مؤلفه وبانيه وكشفوا البراقع عن وجوه عرائس معانيه وكذا على باقي التفسير من الجزئين الاخيرين كما سيلوح
من ختام كل جزء منه بعد الطبع ان شاء الله تعالى بلا مين فمنهم الامام العلامة والواحد الفهامة راس المفسرين و
نبراس المحدثين ورئيس الموحدين المتبعين مولانا الشيخ محمد بن عبد الله بن حميد مفتي السادة الحنابلة في الحرم
الشريف المكي اعلى الله تعالى مقامه وانجح في الدارين مرامه وهذه عبارته

بسم الله الرحمن الرحيم

احمد من اطلع من شاء على اصح اجابة على لطائف كلامه واسلى كتابه ورفع عنهم الحجاب فادهشتهم بديل الخطاب فهم في رياضه يرتعون ولبديع معانيه
يسمعون وله يعون واصلي واسلم على الرحمة المرسلة والبركة الشاملة المنزلة من جعل الله السعادة الدنيوية والاخروية
في اتباعه والحق لا يخرج عنه وعن اصحابه واتباعه وعلى آله واصحابه وانصاره واحزابه وبعد فان ارفع العلوم قدرا
واعلاها جلالة وفخرا واعظمها نورا في الدجنة واكرمها هاديا الى الجنة واعصمها حصنا من الفتنة وابركها شافيا
من المحنة فهم كتاب الله العظيم على ما فهمه رسوله النبي الكريم واصحابه والقدر الفخيم عليه وعليهم افضل الصلوة واكمل التسليم
وكان ممن وفق لذلك منذ كان صبيا فجد فيه واجتهد الى ان ارتقى مكانا عليا الامام الكامل والهمام العالم العامل زينة
العلماء والملوك وملاذ الغني والفقير الصعلوك ناصر السنة السنية وقامع البدعة الدنية سلالة السلسلة النبوية
وطراز العصابة المصطفوية وفرع الدوحة العلوية نواب والاجاه امير الملك سيد محمد صديق حسن خان بهادر

فمنحه الله سبحانه من الذهن السليم والفهم المستقيم والذكاء الذي يضيء في الليل البهيم والضبط للتحرير
والبحث والتقرير والتحقيق والتدقيق والتسديد والتوفيق ومسامرة العلوم فليس غيرها له برفيق في شدة الاتباع
للسنة النبوية ومزيد المثابرة على الآثار المصطفوية مع الحفظ الباهر والخلق الطاهر والأدب الزاهر وتحلي
الباطن والظاهر والارتواء من نمير جميع العلوم والتضلع من المنطوق والمفهوم والاحتواء على زبد المعقول
والمنقول والأخذ بأزمة الفروع والأصول ما لم نره مجموعا في شخص في زماننا بل منذ زمان فسبحان من أوجده
منفردا في هذا الأوان ﴿ ليس على الله بمستنكر + أن يجمع العالم في واحد + ﴾ لكل زمان واحد يقتدى
به وهذا زمان أنت لا شك واحده + هذا مع ما جمع الله له من الديانة والأمانة والعفة والنزاهة و
الصيانة والإعراض عن زخارف الدنيا مع إقبالها عليه واحتقاره إياها مع تراميها على قدميه والاشتغال بنشر
العلوم مع الملك واهتمامه بنفع الأمة المحمدية في البر والفلك ﴿ فلا هو في شغل الرعايا مقصر + ولا هو للأخرى بلا
العلم يقنع + ﴾ فأبدع في هذا التفسير الجليل الذي لم يوجد ولا أظن يوجد له مثيل وسماه بفتح البيان في مقاصد القرآن وانتقى فيه
لباب التأويل وكشف فيه عن أسرار التنزيل واعتمد الآثار الواردة وترك ضعاف الأقاويل فلقد أوجده الله سبحانه خادما
لكتابه في هذا الجيل ولسنة نبيه المخصوص بالتبجيل فهو أحق بأن يسمى مجدد الألف الثاني لما حواه من حفظ الآثار
النبوية بالألفاظ والمعاني وما منحه الله من فهم الكتاب العزيز والسبع المثاني فهذا التفسير أعدل شاهد صادق
ومن لم يسلم فهو مكابر مشاقق فإن هذا المؤلف من نعم الله سبحانه على هذه الأمة المحمدية في هذا الزمن الذي اندرست
فيه السنة النبوية ودثرت فيه الآثار المصطفوية فلا ترى فيه إلا رسوما على الجهل والابتداع مبناها وتلبيسا
بالباطل والزيغ لفظها ومعناها وخرسا عن إنكار المنكر والأمر بالمعروف وعوائد بخلاف الشريعة فعلها لهم
مألوف فالله يديم عز هذا الهمام ويعلي مجده وينشر في الخافقين إرشاده ونفعه وهدايته وسعده ويديم على
ألسنة العالم عربا وعجما شكره وحمده والحمد لله وحده وصلى وسلم على من لا نبي بعده وآله وصحبه ومن تبع عهده
كتبه ببنانه وأنشأه بجنانه الفقير الحقير القاصر المتعدي محمد بن عبد الله بن حميد خادم الإفتاء الحنبلي في الحرم
الشريف محمدلا وحمدلا ومسلما خامس عشر ذي الحجة الحرام ختام العام الحادي والتسعين بعد المائتين
والألف أحسن الله ختامها آمين انتهى بلفظه ومنهم الإمام الكبير الناقد البصير شمس فلك السعادة
وأمير جيش السيادة ذو الفضائل التي لا تحصى والمكارم التي لا تستقصى السيد السند النضار النضار الجوهر الزاهر
النور الباهر مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الباري منح الله المسلمين بذاته وبارك في إفاداته وحياته وعبارته هذه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الرحيم الرحمن علّم القرآن خلق الانسان علّمه البيان نحمده على توفيقه للاشتغال بعلوم الحكمة
والتاويل ونستمد منه الهداية لمعالم الآثار وانوار التنزيل ونشهد ان لا اله الا الله شهادة تنال بها الحور
الجنان ونشهد ان محمدا عبده ورسوله المبعوث بروح الحق وجامع البيان صلى الله عليه وسلم وعلى آله السادة الائمة وعلى
اصحابه حماة السنة وهداة الامة **وبعد** فقد وقفت على التفسير المسمى بفتح البيان في مقاصد القرآن
لمولانا وسيدنا الامام العلامة القدوة المحقق الفهامة الحافظ الشهير الحجة الناسك الداعي الناس الى المحجة سلطان
العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين السيد الجليل والعالم الفاضل النبيل **صديق بن**
حسن بن علي القنوجي الذي ما زال في نشر العلوم يروح ويجي فرأيته تفسيرا جامعا
لما تفرق في غيره من الفوائد وفائقا لما عداه لكثرة ما حواه من الشوارد والزوائد مشتملا على صحيح التفسير
المأخوذ من مقبول الآثار طاويا ما في غيره من المطولات قد انتشر لا يستلذ به الا من حوى الكمالين ولا يشهد
بفضله الا من مشى طريقة الجلالين ولا يعرف انه سليم من زائف النقود الا من له خبرة بتفسير الزمخشري والبيضاوي
وابي السعود ولا يدري انه اخذ اللباب وطرح القشور الا من طالع ابن كثير وابن جرير والقرطبي والبغوي و
الدر المنثور والله انه لكتاب كريم يجل عن الصفة وتفسير عظيم طوبى لمن حصله وعرفه فمن اراد تفسير
كتاب الله رواية ودراية او طلب ان يستفيد بانوار التنزيل توفيقا وهداية فعليه بالاشتغال بهذا التفسير الجليل
وليعكف عليه فانه كافل بما يبتغيه من اعراب وقراءة وتفسير وتاويل لاني تاملته تامل ناقد بصير فرايته
اية باهرة ولا ينبئك مثل خبير ٥ درر اضاءت في لجين صحائف + كالكوكب الدري في اضوائه
فكانها منثورة بطروسها + نجم تضيء سماؤه بسنائه + وكانما هي في يدي غواصها نور المها البيضا وحسن نقائه
لله غواص اتى بالفوائد + يستوجب الاعلاء على نظرائه + فادم اللهم على مؤلفه النعمة وادفع اللهم عنه البلاء
والنقمة وافض على قلبه انوار المعارف وانفع بما ابداه في تفسيره هذا من الفوائد واللطائف فلقد احيى
ما اندرس من تفاسير الائمة الفحول وجاء بها معزوة الى الصحاح والاصول ولم يغادر مما يعول عليه في التفسير
شيئا الا ابداه فجزاه الله ورعاه واطال عمره في طاعته ورضاه آمين وحرر في السابع والعشرين من شهر صفر سنة
اثنين وتسعين بعد الالف ومائتين كتبه محمد بن احمد بن عبد البارئ انتهى بلفظه سلمه الله تعالى ويتلوه الجزء
الثالث من التفسير وهو من اول سورة مريم الى آخر سورة الصافات والحمد لله اولا وآخرا وظاهرا وباطنا

بسم الله الرحمن الرحيم

جداول بيان الصواب من الخطاء الواقع في الجزء الثاني من تفسير فتح البيان بقدر ما امكن في بادي النظر ولعل الباقي منه يكون اقل القليل ان شاء الله الملك الجبار الجليل آمين

صفحه	سطر	خطا	صواب
٧	٢٣	ذكره	وذكره
١٢	١	طهر العاصي	طهر المعاصي
١٤	١٤	تستغنيان	تستغنيان
٢٠	٩	اباه	اباءه
٢٠	١٤	نشاء	نشأ
٢٤	١٧	ويشتهي	ويشتهى
٢٥	٢٢	يكون بحق	يكون بغير الحق
٢٦	١٤	طعن عمر	لما طعن عمر
٢٨	١١	اخا داركوا	اذا اداركوا
٢٩	١٨	يعم	ما يعم
٣٠	١٢	كونه	كونه محال
٣٢	٦	يتعمد في الله	يتعمد في الله
٣٧	٢٣	الست	السنة
٣٨	٢٣	هو الاستقرار	هو الاستقرار
٤٠	٢٣	والاسرار	الاسرار
٤٤	٢	من	ومن
٤٧	١٣	ادبد	ابيد
٥١	٤	ابيصو	ابيضو
٥١	٢٠	لاتتعرضوا	لاتتعرضوا

صفحه	سطر	خطا	صواب
٥٢	١٧	السوال	السؤال
٥٢	٢٢	سلب	سبب
٥٧	١٠	لاتنحسوا	لاتبخسوا
٥٨	١٦	أرسلت	أرسلت
٦٣	٥	عدهم عدهم	عدهم وعدهم
٦٥	١١	حال بي	حال ابي
٦٦	١٦	موسى	موسى
٦٧	٢١	تباين	يتباين
٦٩	٢١	اصبحوا	اصبحوا
٨١	١٩	يكفي	يكفي
٨٢	١٩	واستحاهو	وحماهو
٨٢	٢٣	قبضته	قبضة
٨٤	٢٠	منه	منك
٨٥	٧	فترة	قرأة
٨٥	٩	حمروات	حمراوات
٨٦	١٢	توبة	توبته
٨٨	٦	بالاشد	بالاشد
٨٩	٤	يقتتلون التكابر	يقتتلون الكبر
٩٢	١٤	رفع الله	[illegible]

صفحه	سطر	خطا	صواب
٩٥	٢	ورحمةً	ورحمةٌ
٩٥	٢٠	ا في	في
١٠٠	٢٠	وقطعناهمُ	وقطعناهمُ
١٠٣	٧	طبرية	طبرية
١٠٥	١١	الثالثة	الثانية
١٠٥	١١	كالثالثة	كالثمانية
١٠٥	١١	لاجتماعها	لاجتماعها
١٠٧	٢٣	ذرسوا	درسوا
١١٢	١٥	اليمين	اليمن
١١٦	٢٣	اولع	ادلع
١٢١	٤	اي ان	لبي
١٢٦	١	علم الغيب	علم الغيب
١٢٦	١٨	نذيرا	نذير
١٢٦	١٨	بشيرا	بشير
١٢٩	١٦	القفال	القفال
١٣١	١٣	أهل مكة	أهل مكة
١٣٥	٥	يلجئ	يلجأ
١٣٥	٨	إنّه	إنّه
١٤٠	١٤	قوحملة	ثوحملة
١٤١	١٥	بناقل	بنقل
١٤٢	١٩	قال	قال رجاله
١٤٣	١	الحق	الحق وظاهر

صفحه	سطر	خطا	صواب
١٥١	٥	علاجهم وسلاحهم	عددهم وسلاحهم
١٥٥	١٩	حالهم	حالكم
١٦٥	٧	لامر	لامر هو
١٦٧	١٥	ينتهم	نيتهم
١٧٤	١٩	فوقوا	فوتوا
١٧٨	١٢	امروا	امروانه
١٨٠	١٥	أفناء	افناء
١٨٧	٢٠	حزن	عزن
١٩٠	٤	اهل	هذه
١٩٢	١٢	تغاف	تقاف
١٩٥	١٣	تانيهما	ثانيهما
٢٠٠	٨	ينبت لاثنين	يثبت لاثنين
٢٠٠	١٣	لايقوتهم	لابقوتهم
٢٠٠	١٩	يالقد	بالقد
٢٠٠	٢٢	يستكتر	يستكثر
٢٠١	١	اللازم	لازم
٢٠٦	١	بعضبة	بعصبة
٢٠٩	١٧	بالبراة	بالبراءة
٢٠٩	١٨	واذان	واقران
٢١٣	١٢	مفسَّرة	مفسَّرا
٢٢٠	٥	نبيتلوا	تبتلوا
٢٢٣	١	المحمل	الجمل

صفحه	سطر	خطا	صواب
٢٣٠	١٨	المعام	العام
٢٣٨	٢٣	في اهل	في احكام اهل
٢٤٤	٤	هلكم	ملكهم
٢٤٨	٦	شهود	التشهود
٢٥٠	٧	لنسواسه	لنسوانه
٢٥٧	٥	دخله	دخلها
٢٦٣	١٨	والمكان	المكان
٢٦٨	١٤	الضعيف	الضيف
٢٦٩	١٩	بطوا	بطروا
٢٨٠	٢٢	البخلا	البخل
٢٩٤	٦	الجهل	الجعل
٣٠٢	١	قال	فان
٣١٤	٢٣	آه بالمن	بالمن
٣١٩	١٧	هذا الموضع	هذين الموضعين
٣٢٣	٤	وَّهُمْ	وَهُمْ
٣٢٦	١٥	قال	قاله
٣٢٨	٢٠	كثير	كثيرة
٣٣٥	١٦	ويخرج	اويخرج
٣٣٦	٦	الحق	الحق عندك
٣٤٠	١	تبدداوني	تبدداونني
٣٤٢	١٧	فكفى	لكفى
٣٤٤	١٤	وتسميته	وتسمية
٣٤٦	٢٤	الاضحال	الاضمحلال
٣٤٨	١٢	امرنا	أَمَّرْنَا
٣٤٩	١٤	غرفته	غرقته
٣٥٠	٨	قبلك	قلبك
٣٥١	٢	وتزحزحنا	ويزحزحنا
٣٥٧	١٧	انذادالا	اندادا الا
٣٦٣	٤	لاقادة	لافادة
٣٦٣	٢١	لايُسأل	لايَسأل
٣٦٤	١٦	بتوفيناك	توفيناك
٣٦٥	٤	به	الله به
٣٦٦	١٠	احدا	احيدا
٣٦٧	٢٠	سبق	تسبق
٣٦٧	٥	اذا	اذ
٣٦٨	٩	والجبال	والحال
٣٦٨	١٢	والارزام	والازراء
٣٧١	١٠	داءمصركم	داء
٣٧٥	١٢	اثبث	اثبت
٣٧٨	١	الخير	ثم الخير
٣٨١	١٣	ذمت	دمت
٣٨٣	٢١	وخصها	وخص
٣٨٧	٧	الجهر	فهو
٣٩١	٢١	دلهريك	فلهريك
٣٩٦	٢	التكذيب	التكذيب في قوله تعالى

صفحه	سطر	خطا	صواب
۴۱۰	۱۹	تقديرة	تقديرة
۴۱۸	۹	مفسر	مفسرة
۴۲۱	۱۵	من مبادیها	بل من مبادیها
۴۲۳	۱۲	والبالس	والبائس
۴۲۷	۱۵	انسانا	اناس
۴۳۰	۹	لاناج	لاناجي
۴۳۴	۸	متابعة	متابعته
۴۴۱	۱۹	اوالمصاحبة	اوللمصاحبة
۴۴۳	۱۲	وخمساوخمسين	وخمسا
۴۴۳	۴	تحية	تحيته
۴۴۴	۱۰	جل	وجل
۴۴۵	۱۸	والبركات	والبركة
۴۴۵	۲۲	وعليكم	عليكم
۴۴۶	۱	يغضيه	يفيضه
۴۴۶	۹	انه	انه لما
۴۴۶	۱۱	فعشرة	[illegible]
۴۴۹	۱۹	الي حبيد	ابي حبيدة
۴۵۱	۸	الشيء	بشيء
۴۵۶	۵	نابتي	نابتي
۴۵۷	۱۶	لحجر	بحجر
۴۶۰	۳	اذاكفر	اذكفر
۴۶۵	۱۲	لاضربنا	لاضربنه

صفحه	سطر	خطا	صواب
۴۶۸	۲۱	خالدين	خالدون
۴۷۴	۲	اناا	انا
۴۷۵	۷	جيشا	حبشيا
۴۷۸	۲۳	حوال	احوال
۴۷۹	۱۷	لايحضوا	لايحضون
۴۸۲	۲۲	والنه	اليه و
۴۸۶	۲۰	توضعهم	تواضعهم
۴۸۸	۱۱	وعبر	وعبر
۴۹۲	۱	اشمام	اشمام
۵۰۰	۱۱	بينتها	بينهما عن تقريبه
۵۰۳	۷	ضمم	صمم
۵۰۶	۱	واودته	راودته
۵۱۲	۲	يالاخر	بالآخرة
۵۱۸	۱۰	يؤول	يؤل
۵۲۳	۲۰	يغبنها	يغيتها
۵۲۴	۱۴	هذا الفعل	كان هذا الفعل
۵۲۵	۶	تنزيها	وتنزيها
۵۲۶	۱۵	ان	ان
۵۲۷	۱۱	مكين	مكين امين
۵۳۲	۱۵	تاتوفي	تاتوني
۵۳۴	۸	ممن	ممن
۵۳۴	۱۲	احاطة	احاطه

صفحه	سطر	خطا	صواب
٥٣٤	٢٣	سبحانه بقوله	بقوله
٥٣٦	٦	ووتقت	ووثقت
٥٣٧	١٨	لتي	التي
٥٣٨	١٥	بالجمل	بالحمل
٥٣٩	٥	رحالهم	رحالهم لكفى
٥٤٠	٤	للنهاية	النهاية
٥٤٣	١١	وتعلموا	ولوتعلموا
٥٣٥	١٤	تعالى	تعال
٥٤٧	١٧	الهمزة	والهمزة
٥٤٧	١٩	ابوعمر	ابوعمرو
٥٥٠	٩	بالحسن	اوبالحسن
٥٥١	٢٢	شقي	شفي
٥٥٣	١٤	لشئ	الشيء
٥٥٥	٢٠	يقال لي	يقال بي
٥٥٩	١٢	ماتعبدهم	مانعبدهم
٥٦٢	٢	النضى	النصى
[illegible]	١٨	هذه	هذا
٥٦٥	٢٢	والوسو	والرسو
٥٦٦	٢٢	يتفاوت	تتفاوت
٥٧٠	١٥	وشمل	وسمل
٥٧٣	١٥	لغيره	لغيرهم
٥٧٥	١٦	له	لة
٥٧٦	١٥	والمعدن	والعدن
٥٩٧	٢٠	يتزمجون	يتزوجون
٦٠٥	١٩	الهداية	والهداية
٦١١	٨	استخرته	استخراته
٦١٢	٤	اليل	الليل
٦١٢	٢٠	المعاصي	العاصي
٦١٣	١	امن	من
٦٢٥	١٧	غيرمسائلين	غيرسائلين
٦٢٦	١	اللهو	اللهوانا
٦٢٨	٢٣	القبى	انقبي
٦٣٥	١٩	اوال	اول ال
٦٣٦	٢	قال	فقال
٦٣٨	٢٠	بعد اللكتاب	بعد الكتاب
٦٥١	١٨	السام	المسام
٦٥٨	٦	على بعضهم بعضا	بعضهم على بعض
٦٥٩	٢	لعب	تعب
٦٦٢	١٣	بينما	بينهما
٦٦٦	١	التنبث	التثبت
٦٧١	١٦	بلددوه	بلذوه
٦٧٣	٥	اوائل	وائل
٦٧٣	١٢	الكفرئية	الكفرية
٦٧٣	١٨	بتبادتنا	بتبادة
٦٧٨	٢	واكثرهنا	واكثرها
٦٧٨	٤	تسا	تنسا

صفحه	سطر	خطا	صواب
٦٨٩	١	ذردة	ذرّة
٦٩٠	١٢	له بها	لهابها
٦٩٢	٣	يهينهم	يطنيهم
٦٩٨	١	كيفية	كيفيتة
٦٩٩	١٠	وسنتة	وسنتهم
٧٠٣	١٣	قوطهم	قوله تعالى
٧٠٣	١٥	والتدبرين	والتدبرون
٧٠٣	١٧	ولوا	اولوا
٧١٢	١٣	العبرة	العبارة
٧١٥	١٧	خلية العسل	خلية النحل
٧٢٠	٨	الايعمايحبونه	لايعمايحبونه
٧٢٢	١٥	لوحيبوا	لوحبيبهوا
٧٣٢	٥	هؤلاء	هؤلاء
٧٣٥	٢٠	واسع	والسع
٧٥٥	٥	وبان	ولئن
٧٥٩	١٩	بجامع	بجامع
٧٦١	٢	اومرتين	اومرّين
٧٦١	٢	مرين	مرتان
٧٦١	١٣	عزبر	عزير
٧٦١	١٨	والس	والعوس
٧٦٢	٦	افلها	اياها
٧٦٢	٧	بها	باللام
٧٦٢	١٠	حسنة وسيئة	حسنة وسيئة

صفحه	سطر	خطا	صواب
٧٦٣	١٣	للطريقة	للطريقة التي
٧٦٥	٨	قوله	قوطهم
٧٦٥	١٣	والحساب	والحساب
٧٦٨	١٠	الذي	الامر الذي
٧٦٨	١٠	المامور	المامور به
٧٦٩	٢	كثرتفته	كثرتفتة
٧٦٩	١٢	بجميع	بجميع
٧٧٠	٢٠	الاولى	الاول
٧٧٢	١٣	اموا	امرا
٧٧٣	٩	لغات	لغة
٧٧٣	١٧	بتا	تبا
٧٧٤	٩	احدهما	احدها
٧٧٤	١١	ولكن	ولكن
٧٧٤	١٣	ارمثل	اومثل
٧٧٤	١٧	الاحسان	بالاحسان
٧٧٥	٦	كالقلتة	كالغلتة
٧٧٥	٢٢	المسكين	المسكين
٧٧٦	٤	ماقيل	ماقبله
٧٧٩	٧	دانية	دانيته
٧٧٩	٢٣	هذا بمكة	نزل هذا بمكة
٧٨٠	٧	اي لمن	اولمن
٧٩٠	١٢	الاستكثار	الاستنكار
٧٩٣	١٩	مرموزا	مرموزا

صفحة	سطر	خطا	صواب	صفحه	سطر	خطا	صواب
٧٩٧	٩	في تفسير	وفي تفسير	٨٦١	٢٣	جنتكو	جنتكم
٧٩٧	٢١	هي تلتوي	هي التي تلتوي	٨٦٦	١٠	وتغرنيا	وتغرنها
٧٩٩	١٣	ووفراوفرالمال	ووفراووفرالمال	٨٦٦	١٥	سنعيتك	سنعينك
٨٠٢	١٣	تترة	تيرة	٨٦٦	١٦	يشقول	ينقول
٨٠٣	١٥	فادين	قادين	٨٧١	٢٠	تعبه	تعبيه
٨٠٥	١٦	تاجا	تاجا من نادي	٨٧٢	٢	لواجدان	لوجدان
٨٠٨	١٢	يلبثوك	يلبثون	٨٧٤	٢٠	موسي	موسى
٨٢٠	١٥	لما زعمت	كما زعمت	٨٨٠	٣	للتافيت	للتانيث
٨٢٧	٨	مبشرا	مُبَشِّرًا	٨٨١	٢١	نوقيل	ثوقيل
٨٣١	٨	نور	نورا	٨٨٣	١	ابضا	ايضا
٨٣٤	٤	لفظة	لفظه	٨٨٥	١٣	ومن قبل	من قبل
٨٣٤	٤	لنمتحن	لنمتحنن	٨٨٧	١١	حماة	حمات
٨٣٤	١٠	معشية	معشبة	٨٨٧	١١	حمأ	حمأ
٨٣٤	١٥	جرار	جراز	٨٨٧	١٢	الحمات	الحماة
٨٣٦	١٠	هو الكهف	في الكهف	٨٨٧	١٤	وفرعي	فرعي
٨٣٩	١٣	كهف اليمين	يمين الكهف	٨٨٩	١	ذوا	ذو
٨٥٠	٢١	سهما	بهما	٨٩٢	١١	كهيئة	كهيئته
٨٥٢	١٦	الاسفل اناء	اسفل الاناء	٨٩٢	١٣	ايصالت	اغصانت
٨٥٦	١٢	كفور	كفور	٨٩٢	٢١	النوسر	الجزية
٨٥٨	١٤	فيها	فيها شيء	٨٩٧	٩	الادوية	الاودية
٨٦١	٣	فاخيرهو	فاخبرهو	٨٩٩	٥	قال رجل	قال قال رجل
٨٦١	٨	والباقيات الصلحات	والباقيات الصالحات			تم بحمد الله المنان تصحيح اكثر المواضع الضرورية	

تم اغلاط التفسير فتح البيان في مقاصد القرآن وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

